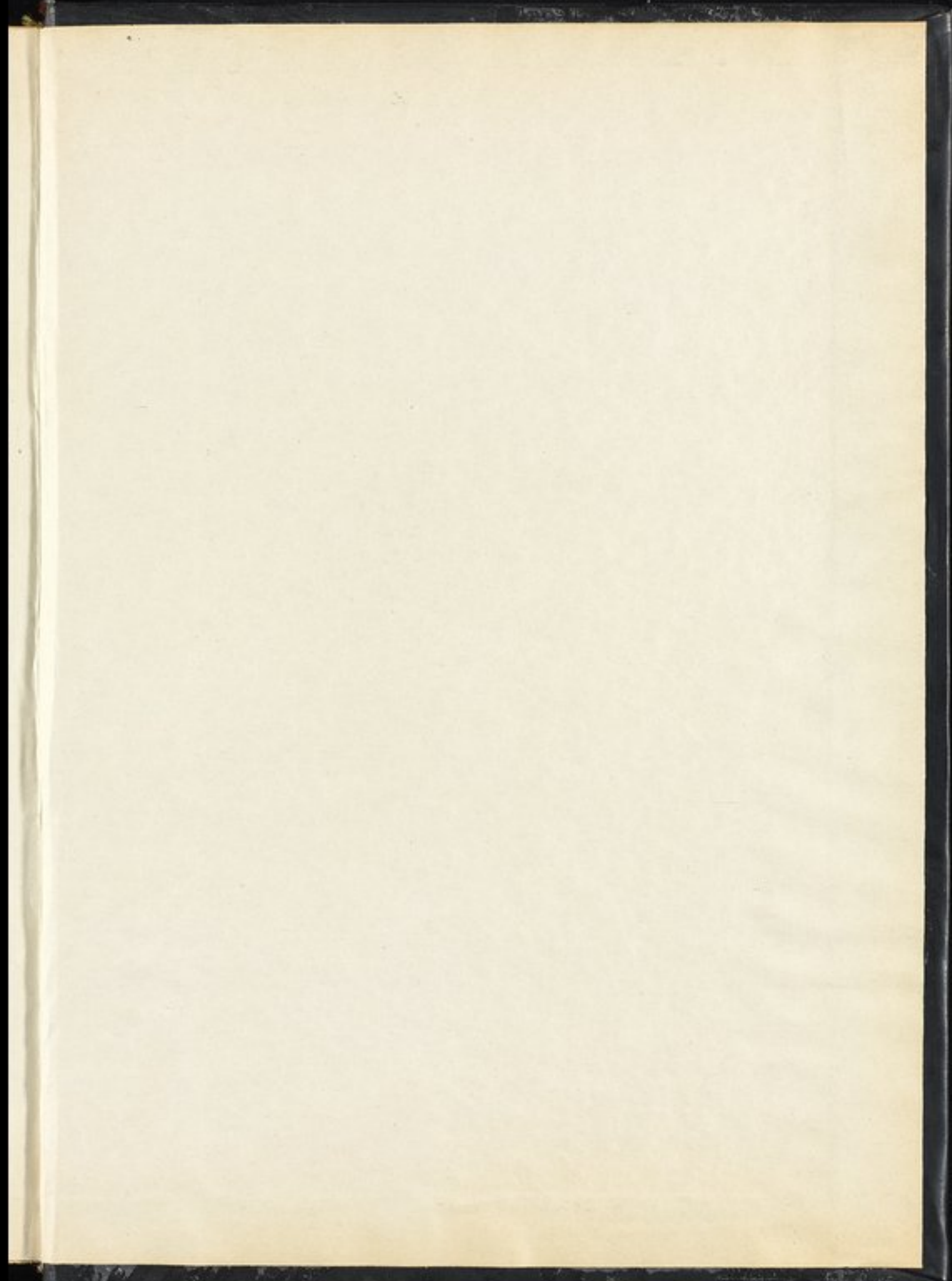


الحيوات
في تفسير
القرآن الكريم

٢-١

بمطبع دار الفقه والعلوم
بمكة المكرمة
١٤٠٥ هـ

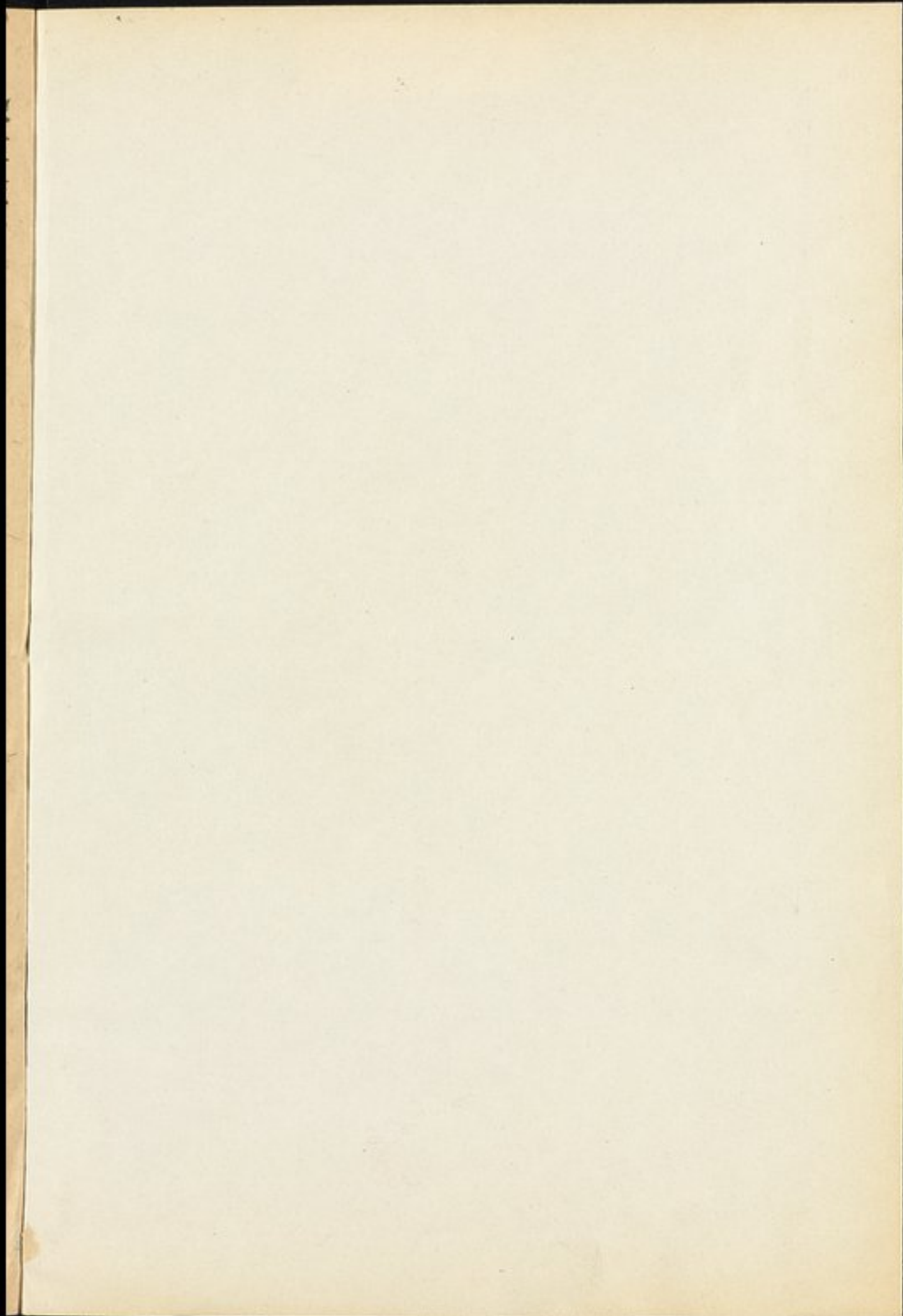


Princeton Univ.
p.o # 335454

Princeton University Library



32101 078939145



الجواهر

في تفسير الفرائد

المسئل على عجائب بئع المكنون وغريب الأباها

تأليف

الأستاذ المحيّم شيخ طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

مع الله المسكين بحيا آمين

الجزء الأول

(تبييه) ان شاء الله : بعد تمام طبع التفسير سنتبه « ملحق »
لتفصيل ما أجل فيه من العلوم الكونية والأحكام الشرعية
واختلاف المذاهب فيها . المؤلف

طبع بطبعة

مصطفى البانى الحلبي وأولاده بمصر

وبشرطه محمد امين عمران

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية - في شوال ١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

(أما بعد) فإني خلقت مفرقاً بالجناب الكونية، مجبياً بالبدائع الطبيعية، مشوقاً إلى ما في السماء من جمال، وما في الأرض من بهاء وكمال، آيات بينات، وغرائب باهرات، شمس تدور، وبدر يسير، ونجم يضيء، وسحاب يذهب ويحیی، وبرق بأتلقي، وكهرباء تحترق، وصدن بهی، ونبات سنی، وطير يطير، ووحش يسير، وأنعام تسرى، وحيوان يجرى، ومرجان ودر، وموج بحر، وضياء في غطارق الأجواء، وليل داج، وسراج وهاج، وكتاب من العجائب مسطور، في لوح الطبيعة منشور، وسقف صرغوع، إن في ذلك لبهجة لتدوى البصائر، ونورا وتبصرة لصادق السرائر.

ثم إنني لما تأملت الأمة الإسلامية، وتعاينها الدينية. ألفت أكثر العقلاء، وبعض أجلة العلماء، عن تلك المعاني معرضين، وعن التفريح عليها ساهبين لاهين، فقليل منهم من فكر في خلق العوالم، وما أودع فيها من لغرائب.

فأضحت أولف كتبنا لتلك شتى، كنظام العالم والأمم، وجواهر العلوم، والتاج المرصع، وجمال العالم، والنظام والاسلام، ونهضة الأمة وحياتها، وغير ذلك من الرسائل والكتب. ومنبت فيها الآيات القرآنية بالجناب الكونية، وجعلت آيات الوحي مطابقة لجناب الصنع، وحكم الخلق، وأشرفت الأرض بنور ربها، وتقبلها أجلة العلماء قبولاً حسناً، وترجم منها الكثير إلى اللغة الهندية السامية بالأوردية، وإلى لغة القازان بالبلاد الروسية، وإلى لغة جاره في الأوقيانوسية، ولكن كل ذلك لم يشف مني الغليل، ولم يحم لي غنائه من دليل، فتوجهت إلى ذي العزة والجلال، أن يوفقتني أن أفسر القرآن، وأجعل هذه العلوم في خلاله، وأنفياً في بساين الوحي وظلاله، ولكم طلبت منه جلّ جلاله بالدعوات في المحاولات، وأبتهلت إليه وهو الجيب، فاستجاب الدعاء.

وكان ابتداء التفسير : إذ كنت مدرسا بمدسة دار العلوم ، فكنت ألقى بعض آيات على طلبتها ، وبعضها كان يكتب في مجلة الملاحي العباسية ، وها أنا ذا اليوم أؤلف التفسير مستعينا باللطيف الخبير ، مؤتملا بما قرأ في النفس ، أن يشرح الله به قلوبا ، ويهدي به أعما ، وتتفتح به الفسحة عن أعين عتمة المسلمين ، فيفهموا العلوم الكونية ، وإني لعلي رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين ، وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون ، وليقرآن في مشارق الأرض ومغربها مقرونا بالقول ، وليؤمن بالهجاب السهوية ، والبدائع الأرضية : الشبان الموحدون ، وليرفعن لله مدينتهم إلى الصلاة ، وليكون هذا الكتاب داعيا حثينا إلى درس العوالم العلوية والسفلية ، وليؤمنن من هذه الأمة من يفوقن الرغبة ، في الزراعة ، والطب ، والمعادن والحساب ، والهندسة ، والفلك ، وغيرها من العلوم والصناعات ؟ كيف لا ، وفي القرآن من آيات العازم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، فأما علم الفقه فلا يزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية .

ولقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم : من الأحكام والأخلاق ، ومجانب الكون ، وأثبت فيه غرائب العلوم ومجائب الخلق : مما يشوق المسلمين والمسلمات ، إلى الوقوف على حقائق معاني الآيات البينات : في الحيوان والنبات والأرض والسموات ﴿ ولتعلمن ﴾ أيها الفطن : أن هذا التفسير ضحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمرت به بطريق الاطلم ، وأيقنت أن له شأنًا سيعرفه الخلق ، وسيكون من أهم أسباب رقي المستضعفين في الأرض « ولينصرن لله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ، وهذا أذان أن أشرع في المقصود ، فأقول وبالله التوفيق .

سورة الفاتحة

ويان آيات العلوم والأخلاق فيها

وهي مكية ، وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * أهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ * آمين

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأني ألا أحبرك بسورة لم يزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها ؟ قلت بلى يا رسول الله ، قال فاتحة الكتاب ، أنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » نزلت هذه السورة لتعليم العباد : كيف يتبركون باسم الله عز وجل في مسائل أحوالهم ، وكيف يحمدونه ويستعينون به ؟ فيبتدئ القارئ قائلا : اقرأ مستبركا باسم الله الرحمن الرحيم الميم بحلال التيم : كالسموات والأرض والصحة والعقل الرحيم الميم بدقاتها ، كسواد العين ، وتلاصق شعرات أهدابها المانع من دخول الغبار المؤذي لها ، مع أن النور يلمع من خلالها ، وينقل صور المرئيات إلى حديقها

فمنسكبها ، فالسمع ، فهذه الدقة في الصنع والحكمة في الوضع التي أباحت لضوء الشمس والكواكب مشلا أن يلج ومنعت الغبار أن يدخل يعب عنها بلفظ الرحيم تيمنا للنعمة ، وتكميلا للهنا والسعادة .

وما كان أكثر الناس لا يلاحظون الجباب الكامنة فيهم ، ولا يعرف نفسه إلا قليل منهم ، وهم أكابر الحكماء والأولياء ، وجب أن أبين في هذا المقام بعض رجة الله عز وجل في العالم المشاهد : فمنها ما أشار إليه (العلامة الأستاذ ميلن ادوارد : أن حيوانا يسمى أكسيلوكوب) يعيش منفردا في فصل الربيع ، ومنى باض مات حالا ، فمن رجة الله وجيل صنعه ، وراقته بالخلق أن ألم هذا الحيوان أن يبني بيتا قبل أن يبني على متوال ما كانت تضله على من اتخذ البيوت بالخمر ، ولكن هذا في خشب ، وأولئك في صخر ، فيصعد ذلك الحيوان إلى قطعة من الخشب ، فيحضر فيها حفرة مستطيلة ، ثم يجلب طلع الأزهار وعض الأوراق السكرية ويحشو بها ذلك السرداب ، ثم يبيض على ذلك بيضة ، ثم يأتي بنشارة الخشب ويحملها عينة ، ويجعل منها سقا لتلك السرداب ، والحكمة في ذلك : أن هذه البيضة متى فقت وخربت الدرودة كفناها ذلك الطعام سنة ، وهي المدة التي لا تستطيع تلك الدرودة أن تحصل فيها قوتها ، ومنى أتم الحيوان ذلك صنع سردها آخر فوقع على هذا المتوال ، وهكذا يضع جلة أدوار ، فانظر كيف شملت الرجة ما خلق وما لم يخلق ، فإن ذلك الطعام المخزون في السرداب رجة ألهمها ذلك الحيوان من الحشرات لولده الذي سيخلق .

(ومن هذه الجباب) ما شاهدته العلماء الباحثون في أمر النحل والنمل والعنكبوت (فأما النحل) فتجب كيف جعل الرحمن الرحيم له سبلا مذلة ، فإنه متى فتح زهرة أول النهار ليمتنح رحيقها المختوم ويرجع به إلى الخلية فيضعه فيها ، يلهم أن لا يفتح زهرة في ذلك اليوم ، إلا ما كان من جنس تلك الزهرة لرجة النحل ورجة الناس ، أما رجة النحل ، فإنه لا يعوزه أن يفتح في فتح زهورات أخرى من نوع آخر ، فيطول عناؤه ، وأما رجة الناس : فإن ما يعلق برجل النحلة من حبوب طلع الذكور من النبات ، إذا وصل إلى زهرة أتى على بها من ذلك الطلع بمنه ، فأتم ذلك النبات لحصول الالتاح بهذه الرجة الجيبية .

(وأما النمل) فمن عجائب الرجة الخاصة به : أن الله خلق له حشرة تسمى (افس) باللسان الإفريقي ، يحاربها النمل ويقتلها ، ومنى غلبها أخذ يستولسها ويربها ويسمها في ورق الورد ، ومنى أكلت وشبت أقبل النمل عليها وامتنح منها مادة حلوة . فكأنه بقر له يشرب لبنه .

(وأما العنكبوت) فإنها ألهمت النسيج البديع بهندسة فاقت هندسة الانسان ، وعلل ذلك العلماء بقولهم : إن هندسته إلهية ، وهندسة الانسان بتعليم البشر ، فلذلك يفلط الانسان ، ولا يفلط العنكبوت في الهندسة . ولما كان بيت العنكبوت أضعف بيت ألهمها الله أن تبحث عن صمغ وغراء من أما كنها وأشجارها وتلطخ بها خيوطها التي نسجت فتكسبها لزوجة ، فلذلك لا تمزقها الرياح إذا فاجأتها ، ولا الأعاصير إذا ساورتها ، وإذا سرت بها الذباب التقطته بمادتها اللزجة .

فانظر إلى آثار رجة الله : كيف كانت المادة الصمغية صائنة بيت العنكبوت الضعيف من التمزيق إذا هبت الزلزاع ، واحتاجت الأعاصير مع أنها قد تتلع الأشجار وتمزق المساكن ، ثم نكون شبكة صائنة وحيلة محال ، هذه هي الرجة والحكمة . (١)

وهكذا ألم الله الأنبياء وأرعى إليهم أن يعلموا العباد كيف يتبركون باسم الله في أول أعمالهم كالقراءة والأكل ذا كرين ربهم ورجته للواسعة التي عمت سائر العوالم ، فيمتلئ قلب الصبد ايقانا بالرجة ، واستبشارا بالنعمة ، وفرحا برجة الرحمن الرحيم .

(١) سترى عجائب ومورا شتى في سورة النحل والنمل والعنكبوت

٥
 فلذا ابتداء القارىء بالتسمية ، وامتناناً قلبه بتلك الرحمة ، فلا جرم ينطلق لسانه بالجد ، بعد أن أتم قلبه
 بالاجلال ، فيقول : الحمد لله ، يقول القارىء ها أنا ذا عرفت رحمة الله سارية في سائر العوالم ، ولقد علمت أن
 كل من أتم عليه بنعمة يشكر مسديها ، فالولد يشكر أبويه على التربية ، والضعيف الضليل يشكر القادر
 الشجاع الذى أقدّمه من النلة ، والمتعلم يشكر العالم الذى أسبغ عليه نعمة العلم .
 إن الأمم كالأفراد ، فإنا نرى كل أمة تمجد وتمدح وتحمد رجالها الذين أفادوها ورقدوا صناعتها وتجارتها
 وثروتها فى التاريخ والجامع ، وهكذا شجعانها الجحاجيح ، وأبطالها المقادير ، وكذا أنبياؤها وحكامها الذين
 أضاعوها بنعمة العلم والدين .

فهذه نعم واصله من المحسنين والشجعان والعلماء الى الأمم فاستحقوا بذلك الشكر ، ولا جرم أن الشكر
 يكون بالقلب ثم الجوارح ، وأهمها اللسان ، فينطق بالجد : وهو الثناء بالجليل لأجل النعمة الواصلة بالاختيار
 من المنعمين .

يجيش فى نفس القارىء تلك الرجات العامة ، فيشكر مسديها بقلبه وجوارحه ، وهى قسبان : رجات
 واصله على أيدى الناس : كالوالدين والشجعان والعلماء والأنبياء والمحسنين ، ورحمة واصله من غيرهم ،
 كاشراق الشمس ، ونعمة السحاب ، وجران الماء ، ومخاض النبات ، وجمال الطبيعة ، وبهاء النجوم ،
 وهذه النعم والرحمات بقسمها ، ليس لها مصدر إلا الله ، ولا جرم أن الحمد والثناء إنما يكون للمحسن الحقيقى
 (فالحمد إذن إنما يكون له سبحانه) فلذا مدحنا الوالدين ، وجدنا الشجعان ، وشكرنا العلماء والأنبياء ،
 فالجد والمدح والشكر لله لأنه مولى هذه الرحمة ، وإذا تمتعنا بنعمة السحاب ، والمطر ، وماء الأنهار ، ومعادن
 الجبال ، ونور الشمس ، فالجد والشكر لمسديها : وهو الله ، فكأن القارىء يقول : ها أنا ذا عرفت أن للرحمة
 الواصلة للعباد مرجعها الله ، فليكن كل حمد صادر من الألسنة راجعاً لله عز وجل ، لأنه هو المختص بالرحمة
 التى كانت سبباً فى الثناء .

نسخ العادات العربية الجاهلية

من مدح المحسنين والملوك ، واختصاص الجد والعبادة بالله اطلاقاً للحرية والمساواة
 لعلم أن العرب كان من عاداتهم أن يمتصوا للشعراء ، ويسمعوا المدائح ، ويصفوا لمن هم فى كل واد يسمون
 الذين يقولون مالا يفلحون ، وما كان أكبر سلطان الشعر عليهم وما أقسامه وأقواء وأملكه قلوبهم وأسماعهم
 وأبصارهم ومشاعرهم ، ولقد كان الشاعر يقول البيت من الشعر مدحاً فيرفع القبيلة الوضيعة المترلة ، ويشيد
 بذكرها ، ويقول بيتاً ذمماً ، فيضع القبيلة الرفيعة ويميت ذكرها ، فن الأول مائة الشاعر فى بنى أئف الناقة ،

قَوْمُهُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ • وَمَنْ يُسَوِّى بِأَنْفِ الْأَنْفَةِ أَدْنَبًا

ومن الثانى قول جرير :

فَغَضَّ الْأَطْرَفَ إِنَّكَ مِنْ مُتَمِيمٍ • فَلَا كَتَبًا بَلَنْتَ وَلَا كِلَابًا

ولقد كان ذكر بنى أئف الناقة مما يعبى به ، فلما قيل هذا البيت وضرا رؤوسهم ونفروا بقلبيهم وشرفوا
 بنسبهم ، وكان الرجل منهم إذا سئل يقول : أنا من بنى أئف الناقة ويميل صوته عجباً وتبها وافتخارا ، وكذلك
 بنو نعيم كانوا قبل هذا البيت يتكبرون ويضخرون بنسبهم ، فلما أن شاع البيت طأطأوا رؤوسهم وغضوا من
 صوتهم ، وانخذلوا أمام عدوهم ، وصغروا فى الحافل ، ولقد كانت هذه حال العرب كاترى فى شعر حسان مادح

ملوك القبايل ، وزهير بن أبي سلمى ماحد هرم بن سنان ، والتابعة القدياني ماحد النعمان وغيرهم ، فزى
التابعة يقول في النعمان :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمَلُوكُ كَوَاكِبٌ • إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهَا كَوْكَبٌ

ويقول أيضا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةَ • تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَّدُ

ويقول أيضا

فَأَنَّكَ كَالْبَيْسِلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي • وَإِنْ خِلْتَ أَنَّ الْفَتَايَ عَنْكَ وَاسِعٌ

ويقول زهير في هرم

قَدْ جَعَلَ الْمُفْتَنُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ • وَالسَّائِلُونَ إِلَى أُنْوَابِهِ طُرُقًا

وقال في قومه أيضا

عَلَى مُكْتَرِبِهِمْ رَزَقٌ مِّنْ يَّتَرَبَّيْهِمْ • وَعِنْدَ اللَّقِيلَيْنِ السَّاعَةُ وَالْبَدَلُ

وَقَلَّ يَنْبُتُ الْخَطْلَى إِلَّا وَشَيْبَةً • وَهَلْ نَبَتَتْ إِلَّا يَتَمَرِسُهَا النَّخْلُ

يريد أن الفقراء منهم كرماء ، والأغنياء يعطون ما يسألون ، ثم يقول وهل الرماح الخطية التي تجلب
من الخط ، وهو صفا ميلاد البحرين كانت تردله الرماح فبنت لإلاني شجرها ، وهل النخل ينبت إلاني منابته .
هذا قل من كثير ، ومثل من عادات العرب في الجاهلية ، فكانت المحامد من الشعراء تلقى إلى الملوك ،
وكانت أنظارهم قاصرة على رؤسائهم ، فلما جاء القرآن فاجأهم بقوله : لا تحمدوا الملوك والمحسنين ولكن
اسجدوا لله ، كما قال الأعشى في قصيدته :

وَصَلِّ عَلَى جِبِنِ الْمَشِيَّاتِ وَالضُّعْفَى • وَلَا تَحْمَدِ الْفَرِينَ وَاللَّهَ فَاتَّحَدَا

أمر العرب أن يولوا وجوههم قبل الله وأن يمدوا عن المدايح الملكية ولشوى الشرف إطلاقا لنفوسهم
من الأسر ، ولعقولهم من الغفلة ، وتعودوا لهم على الحرمة العقلية ، وأن ينسوا الاحسان القليل الصادر من
المخلوق الضعيف ، وأن يطلبوا الخير والمعروف عند الله الذي هو المرئي لجميع العالين من الملوك والمترين وغيرهم
فاذا فعلوا ذلك أصبحوا سادة العالم ، لأنهم ينظرون في العوالم ، ويحسبون نظامها ومجانبها ، وما أودع فيها من حكمة
وغنى وشرف ، ينالون الخير من المرئي العظيم والمخالف الحكيم بجدهم واجتهادهم ، لا بالاستجداء من الملوك
ولا بالتوسل للمحسنين ، ولقد حقق الله بعض ما ذكرناه الأتري أنهم فتحوا الأمم شرقا وغربا بالتحادهم ونالوا من
الخيرات فوق ما يبتغون ، وفي هذه السورة أمر الله المسلمين أن يخصوا الله بالحمد والعبادة كما جاء في سورة
البقرة إذ أمرهم أن يذكروا الله كذكركم آباءهم أو أشد ذكرا إذا قضوا مناسكهم : إذ قال « فاذا قضيتم
مناسككم فاذا ذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » فوجه الأمر إلى توجيه العبادة والحمد والذكر لله
وتحريم عبادة المخلوق والمفضوع فتتوغلهم على الأعمال العظيمة : الأتري ما قاله النعمان بن مقرن إلى يزيد
ملك القيس أيام حرب القادسية في زمن عمر رضى الله عنه (ان نبينا صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نبتدى
بمن يلينا من الأمم فدعوهم إلى الانصاف ، فتحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله
فلن آيتهم فأمس من الشر أهون من آسئ شر منه الجزية فان آيتهم فلن الجزية الخ)

ونأمل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس إنذاك (انا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبنا وجهتنا الآخرة) فقال له رستم : ما دين الاسلام ؟ (قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) قال وأي شيء أيضا ؟ قال (إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، وللناس بنو آدم وسواء إخوة لأب وأم) قال ما أحسن هذا ، ثم دعا رستم قومه فألقوا من ذلك ، ثم طلبوا من سعد بن أبي وقاص رجلا آخر يكلمهم ، فأرسل ربي ابن عامر ، فلما وصل إليهم داس برس على الخمارق والبسط والزينة والحري ، ولمنتع أن يتزع سلاسه ، وأخذ يمزق الوصائد والبسط ، ثم ركز رجمه على البسط ، ومما قاله (قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام الخ) فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه . وقال لهم هل رأيتم كلاما أعزّ وأوضح من هذا ؟ فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكذاب . ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبه ، فجلس مع رستم على سريره ، فأزلوه ، فقال (ما أرى قوما أسفه أحلاما منكم الماعشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا . واني رأيت أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم) اه
أست ترى أن هذه المحاورات والخطب تقارب مع ما ذكرناه في فائحة الكتاب ، وأن العبادة والحد مختصان بالله عز وجل ، وأنه هو الذي يطلب منه الاعانة والهداية إلى الصراط السوي ، أولاترى أن الاسلام كانه في الصدر الأول معنى غير الذي يفهم المسلمون الآن ، وأن الأمة الاسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا في القرون الأولى ، والافكيف نسمع منهم العدل والسخوة ، وأن لا يستعبد بعضهم بعضا ، وأنهم خلفاء الله في أرضه ليطوا عباده الحرية : فالاسلام إذ ذاك مبنى على الفهم والعلم والنقل ، فأما الآن فانه مجرد ظواهر وأعمال لاتصل إلى أعماق القلوب ، فلذلك انحلت الأمة الاسلامية اليوم ، وقد آن أن ترجع إلى عزتها القديم ومجدها العظيم .

الشرعية الاسلامية والنظر في الآفاق وفي الأنفس

قد نبين لك مما ذكرناه أن الحد والعبادة مختصان بالله ، والقرآن طامح بهذه المعاني ، وقد ظهرت آثاره في أقوال السلف الصالح كبرآيت : وهكذا كانت أفعالهم وبالشرعية من الحدود والأحكام والبيع والقروض والميراث وأحكام القضاء (التي تقوم مقام الجنائيات والجنح والمخالفات بل هي أفضل منها) في كتب الفقه ، حكموا الأمم وحسنوا ، فلما اشتد غرر هذا كله بالشرعية ، وهي الأحكام الشرعية المعروفة التي تدرس في بلاد الاسلام وآياتها محدودة ، فأما آيات العلوم الكونية ، فانهما يبلغ نحو ٧٥٠ آية كلها في عجائب هذا الكون ومنافسه وغرائبه ، والتي أزل أن المسلمين في مستقبل الزمان سيقومون هذه الآيات ويعرفون هذه العجائب ، وكان الذين قبلنا درسوا الشرعية وأحكموها وحكموا الأمم بها ، ثم دلت دولتهم ، فهكذا سيكون في هذه الأمة من يرون الكون خلق الله وآياته ومجانبه وحكمه ، وقد ذكرها الله في كتابه أكثر مما ذكر من الأحكام الشرعية ، والعناية الالهية توجهت إليها أكثر من توجهها إلى أحكام الفقه ، فيدرسون علوم الطبيعة ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، وعلم المعادن ، والنبات ، والحيوان ، وسائر علوم هذه الدنيا ، ويرون أن ذلك من الدين ، فيكون علم الدين على قسمين حيثئذ : العلم الأول علم الآفاق والأفئس : أي معرفة العوالم العلوية والسفلية المشروحة في هذا التعبير ، وعلم النفس : والعلم الثاني علم الشرعية ففهم العالم الربوبي شارحا للنبات ، والحيوان والآخري الممثل للكيماوي ، وهذا من قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » أول يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ومن قوله هنا (الحمد لله رب العالمين) والعالم علوي وسفلي ، ولله ربهما والمسلمون خلفاؤه في الأرض بالقضاء والعدل بين الناس ، وبالبحث ومعرفة العوالم ، فسكابرع آياتنا في القضاء ، والحكم بين الناس فنتقم نحن

بذلك وندرس علوم العوالم كلها باعتبار أن ديننا يأمرنا به ، والأما الفرق بين « قل أنظروا ماذا في السموات والأرض » وبين قوله « فاستقم كما أمرت » كلاهما أمر ، والأمر للوجوب فإذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية وقصينا بها فلتقرأ الجنب الكونية ، ولتعمل بها فترقى الزراعة والصناعة والتجارة .

واني أدعو جميع أمم الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها أن يعموا النظر فيما أقول ، والا فكيف يقول الله تعالى « ليظهره على الدين كله » وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهي أن البيانات لا تعرض لعلوم الكائنات ، والاسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الأديان . يعلم كل عالم أوملك أمتة جميع العلوم باعتبار أنها من الاسلام كما سيظهر ان شاء الله في هذا التفسير ، فإذا أتى المسلمون ما ذكرناه فاني أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وقد بدت بوادرها من الطائرات القاذفت على القرى ، والشيوخ ، والصبيان ، فن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم فلا يلومون إلا نفسه « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له » ألا وان أرباب المذاهب من شيعة وسنية ، ومالكية ، وحنابلة ، وحنفية ، وشافعية ، وزيدية ، كان اختلافهم في مسائل من الشريعة المطهرة ، فإذا قرءوا علوم الآفاق التي أرشد إليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف فيها ، لأنها مكتشفة ظاهرة ، والله هو الذي منحهم إياها ، فليقرأ المسلمون في الشرق والغرب جميع العلوم التي برع فيها الأفرنج ، وهي علوم الأنفس والآفاق واذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم في الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا فيه .

إلى هذا أدعو جميع المسلمين ، والله يهدي إلى سواء الصراط ، ان علماءنا السابقين شرحوا هذا في كتبهم ودونوه في دفاترهم ، ولكن المسلمين كانوا في غفلة ساهين ، ليض العالم بين الناس شارحا لم جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب ، والمعادن ليفهم غيره ، وليكثر من هذا : أولا يرى علماء الاسلام من سنيين ، وشيعيين ، وزيديين وغيرهم ، أن علوم الخلق من العوالم العالوية والسفلية غذاء ، وأن علوم الشريعة ، وهي الأحكام الفقهية التي صرفوا فيها أعمارهم دواء ، وكيف يعيش الانسان الا بالغذاء ؟ وهو إذا تناول الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فانهما يكون عند انحراف الصحة .

فيا أيها المسلمون : اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء : أي العلوم الكونية ، والعلوم الشرعية ، وجعلها يطلبها القرآن ، وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشد من عنايته بالدواء فإلى أراكم عما قدمه الله معرضين ، وعلى ما أنزه الله عاكفين ؟ قدم تربيته للعالمين ورحته للخلائق على العبادة وهداية الصراط المستقيم ، كأنه يشوقكم إلى دراسة رحمته ، ويأمركم بمعرفة كلماته الكونية ، وآياته الرجائية ، وعجائبه الحكيمية ، وبدائعه الفطرية ، وما ذرا من الهجات ، وما زرق من المصنوعات ، ولقد ساءني ولله ما أرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق ، ولقد كنت أود أن أرى أولئك الذين زحوا إلى أوروبا بعلم الطبيعة مغرمين ، واهجانب الخليفة مسارعين ، ولكني رأيتهم منصرفين ، إلى الوظائف الوظيفية ، والأعمال الادارية ، وما رأيت أحدا منهم بالعلوم الكونية مغرما ، فتشابه في بلادنا العلماء الدينيون ، والشبان الذين هم للكون دارسون ، فالأولون على أحكام الفقه مقتضرون ، وهؤلاء بالوظائف قاعنون و « كل حذب بما لديهم فرحون » إلا قليلا من الفريقين نالوا حظا عظيما « وقليل ما هم . وقليل من عبادي الشكور » .

فإذا تأمل المسلمون ما ذكرناه كان حدهم حقيقيا اذا عملوا بمقتضاه ، ولما كان كل حد لا بد له من سبب يستوجبه ، وقد ذكرنا السبب اجاليا ، وهو الرحمة ، وكان الاجمال لا يفي عن التفصيل ذكر الله أهم النعم ، وهي أنه مربى العالمين ، فقال (رب العالمين) أي مربى العوالم كلها ومرقها من حال النقص الى حال الكمال وغايات التمام ، فهو الذي يتعهد النبات بالتغذية ، والانعاء ، وهكذا الحيوان والانسان ، وكذا العوالم

العلوية ، وهذه هي الترية التي كان مبدؤها الرحمة ، ولأذ كرن لك مسائل من الترية .

المسألة الأولى : القرة

ان المسلمين في أنحاء المعمورة يأكلون القرة و يشاهدون مزارعها ، وأكثرهم يجهلون ما دبر الله عز وجل فيها ، وكيف ربي الحبة الواحدة في (المطر) وهو المسمى (الكوز) عنده العلة في بلادنا المصرية ، وهو مجمع الحب الذي يتكوّن حوله سطورا منظمة ، لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لخببوا من صنع ربهم ، وفهموا كيف يربي العوالم كلها ، ان لكل عود من أعواد القرة ذكورا في أعلاه وإناثا في وسطه ، أما الذكور ، فهو ما يسميه العامة (الكذاب) وهو أغصان يضاء فيها طلع عنق عن الناس ذلك الطلع ينزل على ذلك (المطر) الذي هو مجمع الحب ، وله خيوط طويلة حريرية حر أو بيض تلك الخيوط الدقيقة متقوية من أوسطها قبا ، لا يشعر به الناس فينزل الطلع من أعلى العود الى تلك الخيوط التي يسميها العامة في مصر (شرايه) فيدخل ذلك الطلع في التجويف الذي في تلك الخيوط ، ويسرى حتى يصل إلى محل الأنثى في (المطر) أي محل الحب فتلقح تلك الأنثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير ، فانظر وتجب كم في ذلك الطر من حبة ، وكيف كان لكل حبة رحم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل في التجويف إلى الأم فتحمل بتلك الحبة ، ولقد ذكرت هذا في كتابي (جواهر العلوم) وأوضحته أيضا بإيضاح .

المسألة الثانية : حبة القمح

لقد توجهت إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة ، فأردت حبة القمح مكسرة مججمة بشكل الكفرسي : أي الصلاف الذي في جوفه طلع ذكور النخل ، فرأيت أن لكل حبة من حبات السنبل ثلاثة أغشية ملتفة حولها ، وفي أعلى تلك الأغشية (السا) جمع سفاة ، كأنها أسنة تحمل أكياسا مملوءة طلعا كطلع النخل ، أو كطلع القرة المتقدم ، وهذه الأكياس المحمولة على تلك الأسنة تنزل ذلك الطلع على محل الأنثى ، وهي موضع تلك الحبة من السنبل ، ومتى وقع طلع الذكور عليها حملت بتلك الحبة .
الأفليحيب المسلمون من تربية الله مربى العالمين ، وكيف كانت عناية تامة بالحبة الواحدة من القرة ومن القمح ، وكيف جعل لها أنثى وذكرا وألف بينهما ، وجعل الحبة نتيجة لتلك المحكمة ، وكيف يقرأ المسلمون في صلواتهم كل أن إن الله مربى العالمين ، وأكثرهم يجهلون تربيته ، اني لأعجب غاية العجب من أمة يكون مبنى عبادتها ودينها على معرفة حكمة الله وتربيته ، ثم يجيء القرنيحة فيسبقونهم بتلك المعارف الشريفة العلية .

يا أئمة الاسلام كيف قرأ في صلواتنا إن الله رب العالمين ، ونحن نجهل تلك الترية في صغيرات الأمور وكبيراتها ، وإذا كانت عناية الله قد بهرت وظهرت في حبة ذرة و حبة قمح ، فكم من حبات فيها يزدردوها الانسان ، وهو أشبه بالبهائم ألا لافرق بين الانسان والحيوان إلا بهذه العلوم ، لو كان اللدار على الخبز ، والماء والملابس ، والزينة ، قال لنا الله الجدقة الذي أروانا ، أو الذي أشبعنا ، أو الذي ألبسنا ، أو الذي جاء لنا بولده ، أو بحال ، بل قال لنا الذي شمل العالم بالتربية ، فكأنه يراد منا أن نكون مفكرين علماء ، لأن نأكل كل ما نأكل الأنعام ، ونحوت كما يحوت الدود ، ولو كان المراد أن نعرف الله بأنه مثير ومعاقب على الحسنات والسيئات فقط ، قال لنا الجدقة رب الحسنات والسيئات : إن الله واسع الرحمة عظيم الحبة ، واسع العطايا فلتصلر الوعائظ على ذكر الثواب والعقاب قصور مريب : اللهم إني أفرغت جهدي في إيقاظ الأمة وأديت مالي وإني أسألك أن تعينني على إتمام هذا التفسير إنك أنت السميع العليم :

للمسألة الثالثة : تربية النخلة في النخلة

ذلك أن النخلة تجذب مرقاً وراق من خلاصة العناصر الأرضية لتغذي بها أجزائها فيرتفع ذلك الغذاء فيغذي جذع النخلة بما غلظ منه ، وأما خلاصته فتذهب صاعدة الى الجريد فيغذي بها ، ويبقى ما هو أल्प من تلك الخلاصة فيرتفع إلى القنوان فيغذي القنوب تلك الطائفة ، ثم مرق وراق من ذلك يرتفع الى شاربخ التمر فتغذي به وترفع الخلاصة الى النخلة فتقابلها في أوطائها التي على نفا المساء بالقمع ، وذلك القمع مصفاً . تصفى الغذاء وتأخذ أल्पته وتوصله الى جرم النخلة ، وهذه الخلاصة المصفاة يؤخذ ما غلظ منها ، فيصير نواة ، وما لطف يكون جرم النخلة الحلو اللبذ ، ثم جعل هناك مسوح حري رقيق صفيق فوق النواة فاصلاً بينها وبين المادة الحلوة للاتصال المرارة من النواة إلى حلقها فتذهب بالحلاوة ، وجعل في شق النواة ذلك القليل الطويل ووظيفته إيصال الغذاء إلى سائر أجزاء النخلة .

فتأمل كيف صنع الغذاء سبع مرات حتى وصل الى ما يأكله الانسان من التمر والرطب والبسر فتصفيه الجذور في الأرض من خلاصة العناصر ، ثم جذع النخلة ، ثم الجريد ، ثم القنوب ، ثم الشاربخ ، فالمصفاة ، فالنواة ، فتعجب من تربية الله للتمر والرطوبة ، وكيف راعها حتى رعايتها حتى صارت الى ما هي عليه الآن من اللذة والمنفعة .

المسألة الرابعة : تربية الله للؤلؤ في البحر ، ويسمى السرّ والجمان

وهو حيوان يعوم على وجه الماء ، ثم يهبط في الأعماق ، وهو داخل صدف من المواد الكلسية وقاية له من الأخطار والسر يتكون في لجه . ومن عجيب صنع الله عز وجل أن يجعل هذا الحيوان مخالفاً لما نعرفه من سائر الحيوانات : ان الحيوان يشم بألفه ويأكل ويشرب بجم ، وينفخ بهما ، ويجمع المضار عنه يديه وقرونه وقواه وحصونه وجبوشه . أما حيوان اللؤلؤ ، فإن له شبكة دقيقة كشبكة الصياد متدخلة بحجبة النسيج تكون مصفاة له ، فيدخل الى جوفه الماء والهواء ومواد الغذاء ، ويجمع الرمال وغيرها من المضار من الدخول في جوفه ، وتحت تلك الشبكات أفواه لكل فم أربع شفاة تقبل الملام من تلك المواد وتدفع غيره ، واللؤلؤ ينشأ من تجمع رمل أوحويوانات ضارة تدخل قسراً الصدفة ، فيغرز حيوانها مادة لزجة يظلمها بها ، ثم تجمد وتتحجر ، ومن اللؤلؤ ما هو أصغر من العدسة ، ومنه ما هو أكبر من بيضة الحمام ، ويثبت في خليج فارس وخليج المكسيك وجزيرة سيلان ، فتعجب من تربية الله لحبة النخلة وحبة القمح والتمر والتمرّة في البحر التي تتحلل بها الحسان وتيجان الملوك ، ألا وإن حليتها في صدور الحكماء ، وعلم ترتيبها في أفئدة العلماء أبقى أثراً وأشرف ذكراً وأرفع مقلاماً ،

المسألة الخامسة : تربية الجنين في بطن أمه

ان للأجنة علماً خاصاً يدرس في مدارس العالم الراق ، وهي من التربية الإلهية الداخلة في قوله (رب العالمين) ان الحيوان المنوي الجارى من الحيوانات التي تعد بالآلاف ومئات الآلاف في الماء المهين يسارع في مجراه عند مصبه حتى يلاق حيواناً من التي سارعت جلرية من ماء الأنثى فيلتقيان ويكونان خلية واحدة ، ثم تكبر بالاقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ وهكذا بطريق التوالي الهندسية المحتوية على بيوت الشطرنج ذات الأسرار العجيبة في علم الارتماطيق ، وهكذا التكاثر المنتظم السريع بهذه التوالي يستمر الى تسعة أشهر . ومن عجب أن هذا الاقسام العسدي في الخلايا ينبع نظام مدهش في الأعضاء والشرابين والأوردة والعروق والرباطات واللحم والشحم والظفر والشعر والحواس المدهشة الدقيقة الصنع ، عجب وأنى عجب . اقسام الخلية (المكوّنة من الحيوان المذكور ومن الحيوان المؤنث) الى المضاعفات بنظام تام آلافا

مؤلفة ينسبه نظام في الأعضاء ، فكان ظفر وريح وما مزجاجي في العين : ان في ذلك لهجا عجبا ونظاما غريبا ،
حرام على المسلمين أن يجهلوا تربية الله للأجنة في بطون أمهاتها ،

حكاية

حكى في أيامنا هذه أن رجلا أمريكيا أراد أن يستخرج الفواخ من بيض الدجاج بدون واسطة السجلات
وحضنها للبيض ، فخطر له أن يجعل البيض في حرارة تضارع الحرارة التي بناها البيض من الدجاجة الحاضنة
له ، فلما جمع البيض وابتدأ العمل قال له فلاح : يا أيها السيد لا بد لك أن قلب البيض كل أربع وعشرين
ساعة مرة لأنى رأيت الدجاجة قلبه هكذا ، فسخر منه ذلك العالم ، وقال له : أيها الفلاح ان الدجاجة قلب
البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمته : أما نحن فحرارتنا محيطة بالبيض من جميع جهاته
فأنى يستوى عملنا وعمل الدجاجة ؟ ثم استمر في عمله ، فلما جاء دور الفقس لم تفقس بيضة واحدة ولم ينل
منها فرسا ، فقال لابد أن أفعل في المرة الثانية ما أشار به الفلاح ، ثم صر قلبه كما قلبه الفلاح ففقس جميع
البيض وخرجت منه أفراخ كثيرة ، فطار الخبر في أنحاء المسمورة وطلب من العلماء تفسير هذه الحادثة ، وآخرو
ملأوه أن قالوا : ان الفرخ حينما يتخلق في البيض إذا بقي بدون تحريك انحدرت المواد إلى الجهة السفلى من
جسمه فتمزق أوعيته ، فإذا بقيت رأسه لم تحرك مثلا تمزقت من الأسفل لكثرة المواد في الجهة السفلية ، وهكذا
بقية الأعضاء ، فهذه وأمثالها مما لا يتأهي بدلتنا على أننا في حومة الجهالة في وسط بحر لحي من الحكمة
لا يعرف قراره ولا يدري منتهاه .

المسئلة السادسة : تربية الولد باللبن

خلق الله اللبن في الثدي قبل أن يولد الطفل ، وكلما كبر الجنين ازداد اللبن في الثدي حتى إذا ماتت حمله
وكانت الولادة در له لبن مناسب لسنه ، فكلمما كبر منا تقرب اللبن من طبعه وتناسب مع قوته ، حتى لن
علماء الطب حرموا أن يرضع حديث الولادة من امرأة قديمة العهد بها ، لأن الطفل لا يتحمل لبنها ، وقالوا
أيضا الأولى بكل طفل أمته في الرضاعة ، فان لبنها أنسب له ، وذلك من التربية التي تضمنها لفظ : الحمد لله
رب العالمين « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ومن عجب أن الهجوز والصغيرة جدا لا تشبهان
ولا يقترب منهما الرجال لحكمة الله عز وجل ، لأنهما لا قبل لهما باللحلا ولا الولادة ولا الارضاع ، فهذه
الحكمة ناطقة بلسان فصيح قائلة : ما جعل الذكر والأنثى في الانسان والحيوان الا للنتاج ، فأما الشهوات
واللذات فأعماهى مقدمات ومهدات للنسل .

المسئلة السابعة : التربية الطيبة

ولندكر منها قليلا فنقول : قال الأطباء مراعاة الصحة أفضل من استعمال الدواء حتى أنك إذا حافظت
على جسمك ورأعت صحته ونظمت أغذيتك لم تحتاج إلى الدواء . وقالوا : ان جميع الاستفراغات والمسهلات للبنين
مثل الصابون للثوب إذا أكثر استعماله أبلاه سريعا وأكثر المسهلات سمية قاتلة إذا لم يعرف القدر المستعمل
منها ، وربما يحرك المسهل أخلاطا رديئة كائنه في الجوف فيثور منها علل عظيمة وداء لدواء له ، فترك المسهل
والاستفراغت جميعا أولى وأوفر ما وجد الانسان سبيلا الى السلامة الا عند الضرورة الملجئة ، فيستعمل منها
القدر اليسير الأسلم . وقال الأطباء متى أمكنك أن تعالج المريض بالغذاء فلا تعطه شيئا من الأدوية ، ومتى
قدرت أن تعالجه بدواء خفيف مفرد فلا تعالجه بدواء مركب ولا قوى ولا تستعمل الأدوية القريبة المجهولة
ما أمكنك الا أن يصح لك منها شيء بالتجربة ، واذلمالت شهوة المريض الى غذاء لا يوافقه فأعطه منه اليسير .

هذا ما أردت ذكره من تربية الله للناس بعلم العباد الذي لم تراع أصوله في بلاد الإسلام ، والعالم كله لا يزال فيه طفلا لا يدري ما منتهاه .

المسئلة الثامنة : التربية في المدارس والتعليم

ان علم التربية في المدارس يدرس للتدريس ، ولأذكريك لك منه مسئلة واحدة ، لأنها من تربية الله للعالمين . اعلم أن الله تعالى خلق المخ وجعله مركز الفكر والخيال والتذكر والحس المشترك والحفاظة ومادته سمراء من خارجها بيضاء من داخلها ، وقد ربي الله مخ الناس فجعل أذانهم يبلغ مخه نحو ست عشرة أوقية ، وأعلامهم وهم الناضون يبلغ المخ فيهم أربعا وستين أوقية ، وقد تبين لك فيما تقدم أن أجسامنا مركبة من خلايا كثيرة تتكاثر بالانقسام ، والمخ منها مركب من آلاف الآلاف من الخلايا الحقيقية ، وهذه الخلايا أشكالها صغيرة مستديرة حولها تواتت صغيرات . فمن عجائب صنع الله عز وجل أن جعل هذه الخلايا لوما محفوظا في السماغ لما برد على النفس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس . فهناك خلايا مختصة بقبول المحسوسات . فهنا ما هو للسمع ، ومنها ما هو للبصر ، ومنها ما هو للشم وهكذا ، ومنها ما هو للتفكير والعقل ، ومنها ما هو للتذكير ، ومنها ما هو للقوة الناطقة ، ومنها ما هو للقوة الكتابية والصانعة في اليد ، فإذا اختل منها بعض الخلايا تطلت القوة الكاملة فيها ، ولا ينفع فيها التعليم البتة ، فلو أن الخلايا الممتدة لعم الأعداد هتدت ، فإنه لا يمكنه أن يتعلمه . فكأنما هذه الخلايا المختلفة للتباينة رياض وغياض يخرج فيها مختلف الزرع والشجر والعاكمة والأب ، ولكل منطقة من مناطق الأرض مزارع خاصة بها كالقطن والنخل : فهكذا هنا في خلايا المخ . ونتيجة هذه المعرفة في التعليم أن التعلم إذا أتى العرس على التلميذ فظنره يصيره مكتوبا بخط جميل وسمع نطق المعلم ونطق به هو وكتبه بخط جميل فهناك تكون آثار أربعة : آثار البصر ، وآثار السمع ، وآثار النطق ، وآثار الكتابة كل ذلك في المخ ، وهناك تسكيف الخلايا المختصة بها ويحصل بينها علاقات تمتد خلايا النطق بجيوب رقيقة الى خلايا السمع ، وخلايا البصر ، وخلايا الكتابة : فتعاون وتحفظ الكلمة في ذهن التلميذ ويصير العرس مفهوما جيدا ، وان قصر في بعض هذه كأن قبح خط الكاتب أولم يصح التلميذ أولم يكتب بيده كان الأثر في العقل ضعيفا والحفظ ضائعا .

وهذه الخلايا المتصلة المتعاونة محال لما يسمى (الحس المشترك) الذي يجمع ماناتي به الحواس ثم تأخذه القوة التخيلية فتحلل فيه وتركب ، ثم القوة المفكرة فستنتج ، ثم القوة الحافظة فتحفظه وهكذا ، فهذه المسئلة من علم (البيداجوجيا) وهو فن يعرف به كيفية تربية الناشئين على أكل وجه ، وهو يستمد من علم التشريح وعلم النفس كما رأيت ، وهذه التربية داخلية في قوله تعالى (رب العالمين)

المسئلة التاسعة : تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لادراك العلوم العالية

فقول : اعلم أن كل حاسة من الحواس الحس لا يمكنها أن تحكم بما ارتسم فيها ولكن الذي يحكم هو العقل : مثلا إذا رأى الانسان سرايا وسط النهار فليست الباصرة مخطئة في رؤيته وإنما الخطيء الفكر في استنتاجه : إذ ظنه ماء وإنما سبيل المفكرة أن ترى بعض وتنتظر حكم القوة اللامسة والقوة الذائقة فإذا لمسه بأيده وذقه باللسان فصره ماء ، فيها والا فلا : وهكذا إذا نظر الانسان بقوة الباصرة قنطرة مصنوعة من كالور مصبوعة كالون التفاح فورد خبرها الى المتخيلة فالفكرة فليس للفكرة أن تحكم أن طعمها ورائحها وملسها مثل التفاحة فلا بد لها أن تستجبر قوة الذائقة واللامسة ، وحينئذ يمكن الحكم عليها بالانبات أو النفي . هذه من تربية الله للعالمين العتلاء : فإذا سقط الفرائش في النار ومات فالعيب على ضعف قوته المتكثرة الضئيلة لأنها حكمت على ضوء النار أنه كضوء الشمس وقعت بالقوة الباصرة ، وهنا كان يجب أن يحكم القوة اللامسة

يعرف الحارث من البارد : وهكذا ترى سائر البشر يذهبون في الدنيا والدين فحبة جولهم وحكمهم بأحكام مقدماتها ناقصة ، وهذا من قوله تعالى : رب العالمين .

الجد يكون على مقدار علم الحامد

الأدب الحامد كلما كان أعرف بصفات المحمود كان أصدق جدا ، وكلما كان قليل العلم بها كان أقرب الى الكذب في حده ، ولذلك نجد الناس اذا أرادوا تأييد ميت أو تكريم حيّ جمعوا من الكتب ما كان له من محمدا ، واذا أرادوا ذمما تقبوا عن الأعمال السيئة فهكذا هنا ، لن يعرف المسلمون بحمد الله حتى يقرءوا نظام الطبيعة لأنها أصله وآثاره ومجانب صنعه ، وهي كتاب التاريخ الذي حفظ في سجل الدهر ، فاذا أراد المسلمون أن يحمدا الله حتى يحمدوا عقلاؤهم نظام الطبيعة وليعقلوها وليفهموا دقائق التكوين فلا يتركون علما الا درسوه ، ولا فاعلا يعرفوه ، وحينئذ يحمدون الله حتى يحمدوا الأمم رجالها ونمذج شجعانها بذكر ما نزههم التي انتفعوا بها : فاذا قالوا : الحمد لله كان ذلك على الحقيقة والواقع لا بمجرد اللفظ ، ولعلك تقول ها أنذا قد عرفت أنه لا بد من معرفة نعم الله حتى أكون حامدا له حتى حده بحسب طاقتي البشرية ، فما بجامع تلك السم ؟ أقول : كل العلوم بجامع الحمد وسأفصلها لك في التفسير ، بل كل ما أشار له القرآن هو ما أثر تربية الصالحين التي تستوجب الحمد ، ولأذكرن لك مجملها فأقول :

معنى العالمين

اعلم أن العالمين جمع عالم وهو ما سوى الله تعالى ، والعالم قسمان : عالم علوي وعالم سفلي ، والعلوي هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها ، ولا ينسب لك معرفتها الا بضرع مثل : تصور امرأة جميلة اسورة طويلة القائمة كثيرة الحل والخلل مشرقة لوجه ، وهذه المرأة قد ولدت عشر فتيات وهن أقل منها قامه وحليا وحللا واشراق وجه ، وقد أحطن بها كاطفة بالقمر وأخا ن يدرن حولها بنسب معلومة ومواقف محسودة ، وكل واحدة من الفتيات العشر ولدت عشر فتيات أقل منها عمدة وحليا وحللا واشراق وجه وهن يدرن حولها بنسب معلومة ، ثم كل واحدة من هؤلاء ولدت عشر فتيات أقل منها طولاً وحللاً واشراق وجه وحليا وحللاً وهكذا ، فالجيل الأول عشر فتيات ، والثاني مائة ، والثالث ألف ، والرابع عشرة آلاف ، والعاشر عشرة آلاف ألف ألف (عشرة بلايين) وكل جيل أقل مما قبله جمالا وقامة وحللا واشراق وجه وأرق مما بعده : فالمرأة الأولى ذات الجلال هي المجرمة التي ترى في الليالي المظلمة مستطيلة في السماء كحماة يضاء لبنية ، وهذه أصل جميع الشمس ونشؤها ومستقرها ومستودعها ، وهي شمس يعرف عندها ، بدت عن الأبرار ، وتباعدت في الأقطار حتى صغرت في العيون وقضت ، فصار كل ألف ألف منها يكاد يكون ذرة من اللبن في أعين الرائيين ، فهذه المجرمة فيها هناك على أبعاد لا يتصورها العقل أصل الشمس وأنها التي عبرنا عنها بالمرأة الجميلة ، وحولها شمس كل شمس حولها شمس ، وهكذا الى أن يقطع الفكر عن التصور ويقف العقل عن التعقل ، وآخر هذه الشمس مقابل للفتيات اللاتي في الجيل العاشر ، وشمسنا كفتاة منهن لا يعرف عدد أترابها من الشمس كما كثير عدد فتيات ذلك الجيل . واذا نسبت هذه الفتيات في الحسن والقامة والحلي والخلل والاشراق الى الأم الأولى كانت كالقردة بالنسبة الى الانسان بل أقل ، فهكذا قول في الشمس المنبثثة عندنا انها بالنسبة الى الشمس الأولى كالقرد بالنسبة للنهار وفي الحجم كالبطيخة بالنسبة للجيل ، وسيأتي في هذا التفسير أن إحدى شمس الجوزاء أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة وضوء الشمس بالنسبة لضوئها كضوء الجاحب بالنسبة لضوء شمسنا ، وأنت تعلم أن الشمس أكبر من الأرض ألف ألف مرة وثلاثمائة ألف مرة ، وفيها من الجبال والبهائم ما يبهر العقول انها

ترسل ضوءها على الأرض فينبالربل ، و بوضوح المسالك ، و يفتح الأعين ، فترى الصور المرسومة على سطح الهواء وخلال الأثير جلية واضحة وترسل الحرارة فيجري الماء وينمو النبات والحيوان والانسان وتصبح الأرض مخضرة باجتماع الماء مع الشمس والعناصر والهواء ، ثم ان سيرها وانتقالها من مكان الى مكان محاسب متقن يعرف الناس السنين والحساب فلا يضلون في أحوالهم الزراعية والصناعية والمدنية ، هذه بصر محاسن الشمس ، وهذه من عجائب جلالها الذي لانسبة بينه وبين جمال الشمس الأولى ، وقد قلنا ان لها نظائر تسير معها حول شمس أخرى ، وهذه الاخرى لها نظائر وهكذا فما مقدار السنة التي تسيرها حول شمس أخرى (في الكواكب المسماة بالهائي على ركبته) وربما كانت آلاف آلاف من السنين المألوفة فكيف يكون جمال الشمس الأولى ومقدار عظمتها وبهدها ، ان في ذلك لتذكرى لأولى الألباب ، وهذه الشمس التي هذا وصفها حولها السيارات الثمانية ، وهي : نبتون ، وأورانوس ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ ، والأرض والزهرة ، وعطارد : فأرضنا سيارة تسير حول الشمس ، فالشمس أم ، والسيارات قيات حولها كما أنها فتاة لأم قبلها ، والأرض قد ولدت القمر فيجري حولها كما أن زحل والمشتري وغيرها لها أقمار تجري حولها والأقمار أقل جلالا وحجما وبهجة من السيارات ، والسيارات أقل من الشمس ، والشمس ترتقي طباقين طبق الى الأم التي في المجرة ، وما يقال في هذه المجرة يقال في مجرات أخرى « وما يعلم جنود ربك الا هو » فلك عرائس في الجوساثرات وجنود مصطفات الى أن تقف العقول ، وهذه الشمس وحركاتها ونظامها لا يتسنى لك معرفتها الا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منزل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » ولعلك تقول : انك ما قرأت مسألة الشمس وأنها تدور حول شمس أخرى ، وهكذا دائرة بعد دائرة الى أن ينقطع الفكر ويقف العقل انك لم تقرأ ذلك الامن تعاليم الفريجة وهم الذين قالوا ان تلك الشمس أكبر من شمسنا فهل ورد في ديننا ما يؤيد ذلك ؟ قلتم : ان ديننا لا يمنع ذلك ولا ينهه ، وفيه « وما أوتيتم من العلم الا قليلا - ويخلق ما لا تعلمون - والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » الى هنا قد أجبنا الكلام على العالم العلوي (١)

العالم السفلي

العالم السفلي مائي البحر من مخلوق حتى ، وما على الأرض من معدن ونبات وحيوان وانسان ، فأما عالم البحر فقد جعله العلماء في هذه الأيام عالما مستقلا ليطلع الناس على غرائبه ، وما قرأناه عنهم أنهم استخرجوا من قاع البحر على بعد أميال حيوانا يعيش في الظلمات في تلك الأصقاع العائرة ، وقد وجدوا آلة للضوء اذا حركها أضاعت ماحولها ، وقد خلق لها على جسمها في مقابلة تلك الآلة سطح قائم بزواوية مناسبة متى أشرق النور عكسه ذلك السطح فأبصر ذلك الحيوان المسالك البحرية ، فكان ذلك الحيوان لما حرم ضوء الشمس خلقت له في قاع البحار شمس خاصة به ينتجها متى شاء وأمامها سطح يمسك شعاعها فيرى المسالك والطرق « فتبارك الله أحسن الخالقين »

وفي البحر سمك شفاف سمين طوله نحو ثمانية قراريط وشحمه أبيض نقي يصيده سكان الاسكا ويحفظونه ثم يوقدونه من ذنبه فينير بلهب صاف شهيد الأعان ، ومن السمك نوع يبحر الصين اذا أكله الانسان أخذ يضحك حتى يموت ، وهذا السمك يختص به الوزراء والعظماء اذا حكم عليهم بالاعدام فيشترونه سرا وبه

(١) إقرأ الكلام على عجائب السموات في سور كثيرة كآية : « ان في خلق السموات والأرض » في البقرة وآل عمران وفيها ما ستبينه ان شاء الله في ملحق هذا التفسير الذي حررنا على إصداره كما ذكرناه قبلا

يوتون من الضحك ، وحكومة الصين تمنع بيعه ، ومن عجائب البحر النمر والمرجان ، ثم من العالم السفلي
عالم المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والخرصين والبلاطين والكبريت والزئبق والمغنيسيا والملح
والزئبق والرصاص وغيرها ، ثم الآثار العلوية من حوادث الجوق وتغير الهواء من النور والظلمة والحر والبرد
وتصرف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، ثم الأنهار وما يتكون من الفيوم والضباب والطل
والندى والأمطار والرعود والبروق والتلوج والبرد والمالات .

عالم النبات

ومن العالم السفلي عالم النبات وله علم يعرف به اختلاف أنواعه وأشكاله وألوانه وطعومه وروائح وأوراقه
وأزهاره وثماره وجذبه وبروزه وصموغه ولحائه وبنية تكوينه وتناجه وتربيته لأولاده .

عالم الحيوان

وله علم يعرف به صنوفه وأنواعه وأجناسه وسكان البر منه والتراب والهواء والبحر كالأنعام والحشرات
والطير والسمك ومعرفة تزواجها وتوالدها ومستقرها ومستودعها ويتبع ذلك معرفة تشريح الانسان .

علم التشريح

يعرف منه أن أعضاء الانسان ٢٤٨ عضوا ، وتعرف أورده وشرايينه وأعصابه والصوره العموية والصوره
النفسية والصوره الغذائيه والدائرة العقلية والحواس الخمس ونظامها والقوى الخاصة التي في السماع ، وتقدم
الإيماء اليها عند تفسير لفظ رب من (رب العالمين) وهي الحس المشترك والخياله والمفكره والذاكره والواهمه
هذه هي بعض العلوم الطبيعية في العوالم السفلية . وأما العوالم الالهيه منها . فمخصوصة بها تبحث في أمر الملائكة
كما ستره في صورة البقرة عند قوله تعالى « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة » فيظهر
هناك ان شاء الله أن في معنى الخلافة ما يفهم المقام من معرفة الله والملائكة وهذه العلوم أيضا تعرف الأمور
العامة والمقولات وتقسيم العلوم ، انتهى الكلام على العالم السفلي وما جده .

هذه هي العوالم العلوية والسفلية التي تضمنها لفظ العالمين ، والله هو المربي لها والمكمل لقواتها ، ألا فليعلم
المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أنهم لا يحمدون الله حق حمده ولا يشكرونه حق شكره الا اذا
درسوا هذه العلوم كلها وعرفوا ما فترع عنها واتنعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها ، واذن بحق لم أن يقولوا : الحمد
لله رب العالمين ، أما اذا بقوا على جهلهم ولم يعرفوا هذه العوالم ولا نظامها فليعلموا أن حنهم لفظي وشكرهم
ظاهري . ولأضرب لك مثلا : اذا أنت مدحت امرا في مجلس وكان فيه من هو أعرف به منك وسألك عن
بعض صفاته فوجدك بها جاهلا فانه لا جرم يقول أنت به جاهل ثم يشرح صفاته فتقر له بالفضل عليك .

يحكى أنه في زماننا قدم مؤلف عظيم على رجل من رجال الجرائد وكان هو وزوجه لا يتركان مجلسا الامدحا هذا
المؤلف فيه ولا ناديا الا أثميا عليه وهما في كل واحد مدحان ويحمدان صنيح ذلك المؤلف وأنه أحسن الى أمته
وأنا لها شرفا عاليا ونفرا تالدا ، فلما أن حل بساحتها وهما لم يراه قبل ذلك فرحا به واستبشرا وأكرماه
غاية الاكرام . ولما قاما الى بعض شأنهما نظر فوجد كتابه لم يفض ختامه ولا يزال ورثه متصلا غير منفصل
دلالة على أنهما لم يقرأ منه حرفا ولم يعرفا منه كلمة ، فلما ودعها وانصرف أرسل لهما مقصدا ليفهمها أنه أدرك
أن المدح والحمد كانا على جهالة هيماء وأن التناء براه واقرب سروره غما وفرحه حزنا ، ألا يكون نصيب
المسلمين من ربه نصيب ذلك الرجل وزوجه من المؤلف ، ألا يقول الله للمسلمين : أتمم حمدوني ولكنكم

لا تعرفون من صفاتي وأنا على الأقل فلا أعطينكم من نعمي على مقدار ما عرفتم وأخذ بقص أرضنا معاشر المسلمين وبنائها للأمة الأخرى التي درست العوالم . الله لم يرسل مقصداً للمسلمين كما أرسل المؤلف ولكنه أرسل رجالاً وأما مقصودنا من أرضنا وحومونا منها جزاء وفاً ، وقد آن أن يرجع مجدنا ويبرخ نجمنا ونعرف ربنا وأن الأرض يرثها عباده الصالحون ، فأرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعمل والعمل يتقدمه العلم ، فكل أمة أعرف بهذا العالم فهي أحق به وأولى بالفضل وأعرف بالجد .

أسباب الجد : زيادة إيضاح لما سبق من قبل فيها

اعلم أن لكل سبباً كما أشرفنا إليه آتفاً ، فلجامع يقول : الحمد لله الذي غذاني ، والظمان يقول : الذي أرواني والفقير يقول : الذي أغناني ، والجاهل يقول : الذي علمني ، وفي القرآن على لسان إبراهيم « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق » وفيه على لسان يوسف « وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن » وهذه الجملة حمد على نعمة الخروج من السجن ولم تشمل أسرة يوسف عليه السلام ، وقال الشاعر الجاهلي لما أسلم : الحمد لله إذ لم يأتي أبلي • حتى اكتسبت من الإسلام سر جلالاً

فأما الحمد في هذه السورة فسيببه أن الله مربي جميع العوالم ، فإذا قال إبراهيم الخليل : أنا أحمده لأنه أعطاني ولداً أليم كبري ، يقول المسلم في صلواته : أنا أني على لطفه لأنه هو الذي ربي جميع العوالم من العلويات والسفليات إن إبراهيم يعرف نعمة الله في ابنه ، والجامع يعرف نعمة الله في أكله ، والمسلم يجب أن يعرف نعمة الله في تربية العوالم ، وليس معنى هذا أن يكون جميع المسلمين حكماء فلاسفة ، وإنما المراد أن يكون فيهم طاقة تقوم بجميع العلوم كالفرنجية أو أكثر ، الأتراه يقول (اياك نعبد) ولم يقل أعبد للإشارة إلى أن المقصود الجماعة .

وإذا بقي المسلمون على ما هم عليه من الجهل بنظام الله في العالم فلا حظ لهم من حمد الله وشكره إلا حظ الجامع من التسبيح ، ولما همز الحامدون الحقيقيون الشاكرون العاقلون قال الله « وقليل من عبادي الشكور » سؤال وجوابه وضرب مثل خلال القرآن بما أبدع الله في العالم .

لعك تقول : مالي أراك تحمل الناحية بالاحتمال وتدخل فيها من العلوم ما لا يقبل مع أن الناس يقرءونها ولا يلاحظون ما نذرون ويكررونها صباحاً ومساءً ولا يتنبأ لهم ما تصفون ، وإنما أتم قولون هذا استطراداً لا استنباطاً ، وتطويلاً لا تأويلاً ، وتعليماً لا تضييراً ، واكثرنا لا استخراياً

أقول : على رسلك واضح لما أتى عليك من مثل أضربه تذكرة لأولى الألباب : تأمل حال الرجل الزراع وقد استصحب دابته وولده الصغير ولما وصل إلى الحقل رأى مهندسا للرى وعالماً طبيعياً وحكماً إلهياً ، فهل ترى أن هؤلاء والحقل أمامهم يتفقون في الرأي متحدون في الفكر ، كلا ، فان الدابة لا ترى في الحقل إلا حاجتها من البرسيم ليست جوعتها والصبي يتعالى عن الدابة فينظر إلى خضرة البرسيم والمزارع وترنحها يمينا وشمالاً ويرى بهجة الزهر وجلال منظره وهبوب الرياح عليه ، والفلاح يتعالى عن ذلك ، فينظر في أمر الزرع والحصاد والمسكب والنسارة ، ورى الأرض ، وحساب المزارعين وما شا كل ذلك ، والمهندس يتعالى بنظره إلى نظام الرى العام في هذا الجدول وفي سواء من نظائره ، ويقارن المصارف والترع ببعضها ، ويقع نطاق عمله حتى يشمل آلافاً من المزارع ليحفظها من العطش ، ويحرسها من الملاك ، والعالم الطبيعي أو الزراعي يتأمل في العناصر كيف تتكون منها النبات ، ويعملها ويعرف وزنها بالنسبة لبعضها كما سيأتي في سورة البقرة ، ثم يتولى عمل المناسبة بينها ويقول : إن السهاد يكون على مقدار الحاجة ، فكل عنصر قل في الأرض يتناض عنه بآخر من السهاد بوزن معلوم . ثم إن الحكيم الرباني يتعالى عن هذه الطبقت ، فيرى أن هذه النباتات كلها من عناصر أرضية اختلف طعموها ، وروائحها ، وأعمالها ، ولحاؤها ، وأوراقها ، وأزهارها ، وأعمالها ،

وبلدانها ، وطقوسها ، ومناخها ، ومنافعها الطبية ، والعناصر واحدة لاتتجاوز الثمانين عدا منبئة في الأرض والهواء والماء ، ثم ان تلك العناصر ترجع إلى مادة واحدة ، وهي الأثير الذي يكون ضوءا وكهرباء وحلوة ثم ان الجوهر الفرد الذي كان آخر آراء العلماء فيه أنه مكون من ذرات كهربائية : منها الموجبة ، ومنها السالبة ولهما نواة حولها ذرات تدور كدوران السيارات حول الشمس ، ثم يقول ان هذه كلها مرجعها حكمة وراها وقدرة وعلم وذات مدبرة وإله منظم ، وإلا فما بالنار نرى نظاما عاليا وحكمة باهرة « وأن إلى ربك المنتهى » هذه هي النظرات في الحقل .

نفس عليها نظرات الناس في الفاتحة : إن الفاتحة كلام الله ، والحقل وما فيه من الزرع فضل الله أفلا ترى أن تختلف الأنظار في الثاني كما اختلفت في الأول . أو لست ترى أن حافظ القرآن الذي لا يئنه إلا أن يبش به كالجار يحمل أسفارا ، وكالجاموسة في المثال المتقدم لم ينفها الا البرسيم ، أو ليس العامة الذين يفرحون بنفحات القرآن في ماتمهم وأعراسهم : أشبه بالصبي الذي رافقه مناظر الثبات وأزهاره ، أو ليس العابد الذي يخاطب ربه بالفاتحة ويثني عليه ويتوجه إليه بقلبه أشبه بصاحب الحقل المقبل على تنظيمه ، أو ليس المنصر للقرآن الناظر في معانيه العامة ، وهو أرقى من العابد أشبه بالمهندس الناظر في سائر الحقول ، أو لست ترى أن من يعرف هذه العوالم العلوية والسفلية ويدرك نظامها وجمالها ويصرف من كل فن طرفا أرقى من المنصر وأعلم منه ، وأنه أشبه بالرجل الطبيعي أو الزراعي الذي عرف نظام الزرع وتركيبه من العناصر ، أو ليس الذي يحمل الأمة على معرفة سائر العلوم ، فتكون راقية ذات مدنية ونظام وسعادة في الدنيا لتحفظ كتابها وتصور بلادها وتستغنى عن غيرها وتمتد الأمم بعلمها وصناعاتها فضلا عن أنه عرف تلك العلوم ، أليس ذلك في مثالنا كالحكيم الرباني في المثال المتقدم الذي وصل إلى الله من طريق الحكمة والعلم .

وبهذا فلتفهم قوله صلى الله عليه وسلم « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا » فظاهره معلوم للناس والعامة ، وحقيقته ملاذ كرهناه لك .

ألا إنما ذلك العالم العظيم والملك الكبير في الاسلام الذي يحملهم على معرفة العلوم والصناعات ليحفظوا مدنيتهم ويقيموا الوزن بالقسط ويكونوا خلفاء الله في الأرض في المثال الثاني ، وذلك الحكيم العظيم الرباني في المثال الأول الذي أدرك سر الخليقة بقدر طاقته ، هذان وأمثالهما هم أولياء الله وخلفاؤه في الأرض وخلفاء أنبيائه . فمثل هذا فيعمل العالمون . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون هؤلاء هم الذين يكونون في أعلى الجنة . وقد تركوا أذناها للجهلاء كما في الحديث « وعليون لأولى الألباب » فالجنة مفتاحها المعارف وفاتحة الكتاب فاتحة المعارف « وما بقلها الا العالمون » هـ ها أنذا قد أبتت العوالم التي تولى الله تربيتها وترقيتها ، وأنت تعلم أن القرية يهونها أمران : الرحمة والشدّة ، فإذا لم تكن رحمة أودعتم الجزاء والمكافأة بالاحسان والاساءة كانت التربية ناقصة ، ولقد جعل الله الأم أقرب إلى الرحمة والأب أقرب إلى الشدّة والمجازاة ، فإذا قد أهدمها سمات القرية ، فأشار إلى الأول بقوله (الرحمن الرحيم) وإلى الثاني بقوله (مالك يوم الدين) أعنى ملك الأمر في يوم الجزاء ، أما الرحمة فقد عرفتها فيما تصلم ، وأما الجزاء فله تابع للأعمال كما قل صلى « أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » ألا ترى أن الرجل الكاسل يصيبه المرض والفقر ويؤذوه الناس وهكذا من يكره الناس أو يؤذيهم ، وترى حكومات الأرض قاطبة نصبت القضاة ، وأقلت للجنّد ، وجعلت لها دورا للجنس ، وأخرى لاكرام الوافدين من الأقطار ، ووضعت القوانين والحدود ، وذلك سائر على نظام في مشارق الأرض ومغاربها ، ولما كان القانون البشري يلحقه الخطأ فخلل فيه أولضلال التضاق والحكام أوجهلهم جعل الله الجزاء الأوفى يوم القيامة « لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » فله عز وجل

مالك جميع الأمور محيط بالخلق في الدنيا والآخرة بثيب الطائعين والعاملين ، ويقهر العاصين والكاسلين ويذل
 الباغين ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة ، وإما فيهما معا ، وبهذا تمت التربية ونظم العالم : ان هذه الصفات
 التي حصرت الرحمة والملك في ذات الله وأنه هو المرئي للمعالم كلها المالك لها تحصر قلب القارئ والمصلي
 والذاكر في الله تعالى وتجعل الحمد خاصا به ، بجميع الحمد التي يفوه بها الناس للمحسنين راجعة إليه ، لأنه
 المحسن الحقيقي ، وفوق الحمد يختص بالعبادة التي هي غاية الخضوع ، ومنه طريق معبد : أى مذل ، فكأن
 القارئ يقول : يا من اتصف بهذه الصفات التي يمتاز بها عما عداه (إياك نعبد) أى نخضع بالعبادة والخضوع
 فضلا عن الحمد ، فالنصف الأول من السورة أحضر في قلب القارئ الصفات المميزة للربوبية ، فلما تمت
 في ذهنه تلك العظمة صارت كأنها مشاهدة أمامه ، فالتفت عن الغيبة إلى الخطاب ، وكأنه يشاهده ويراها ،
 وفي الحديث « اعبد الله كأنك تراه » ولن يكون ذلك إلا باستحضار صفاته العالية في قلبه ، وانى هنا وصر
 القارئ الى آخر درجات التقرب ، وهو الخضوع والتذلل كما في قوله تعالى « واسجد واقترب » فلم يبق
 بعدها الا السؤال والطلب من المتقرب اليه ، فقال (وإياك نستعين) في أمورنا الدنيوية والأخروية كالصحة
 والنفى والمال والولد ، وأهم الحاجات أداء العبادات والهداية الى الصراط المستقيم ، فكأنه يقول : نحن نصدق
 ولن نقدر على أداء العبادة إلا إذا أعنتنا ، ولما طلب البعد الاستعانة بالله ، كأنه قيل له ما أهم ما نستعين فيه ؟
 فقال العبد (اهدنا الصراط المستقيم) والهداية دلالة بلطف ، وهي على أقسام . الأول هداية التريزة التي
 اهتدى بها الحيوان في غدوة ورواحه ، والطفل لرضاع أمه ، والنحل لبناء المسدسات التي يجمع فيها العسل
 بنظم بحار فيه المهندسون . الثاني هداية العقلاء الأولية بأن يميزوا بين الحسن والقيح والجمال وصدءه وتعرف
 الأوليات ومبادئ العقول التي يرجع اليها في العلوم ، مثل الشكل أعظم من الجزء ، والصدق لا يجتمعان .
 الثالث معرفة العلوم وفهمها والتصرف في أصولها وفروعها . والرابع المسلكة الراسخة بحيث تحضر العلوم
 والمسائل التي عرفت أنى شاء العارف ويتبع ذلك قوة التصرف والحذق في الأمور والاهتمام وسداد الرأي
 والوحى الخاص بالأنبياء ، والمراد بالهداية هنا هذا الأخير وما قبله . فلما أن يقال أدنا على الهداية ، وأما أن
 يقال زدنا في مراتبها لترتقى الى أعلاها وننال الزلفى لديك والقربى . ويقرب من هذا قوله تعالى « يا أيها
 الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم » والمراد بالفرقان نور يقذفه الله في قلب
 السديد يفرق به بين الحق والباطل ، والصراط المستقيم هو الطريق المستوي ، وهو مثله في التذكير والتأنيث ، ثم أبان
 ذلك الصراط ، فقال (صراط الذين أنعمت عليهم) من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهم عظماء
 كل أمة وأشرفها ، أو الذين أنعمت عليهم من الأمم وهم المسلمون (غير المنقوب عليهم) وهم اليهود
 (ولا الضالين) وهم النصارى : وتبينه أن يقال ان الصراط المستقيم يراد به هنا الطريق الوسط ، وهو
 في علوم الأخلاق .

الصفة - التي هي وسط بين الوقوع في الشهوات والفسق والفجور ، وبين الجود والبخل والامساك والشح
 والشجاعة - وهي وسط بين التهور والطيش ، والنظم ، وبين الجبن ، والخوف ، والحزن ، والجزع ،
 وأمثالها .

والحكمة - وهي الوسط بين الجهل ، والتبارة ، والبلادة ، وبين المكر ، والتداع ، والاحتيال ،
 والطيش في الآراء .

والعدل - وهو المساواة بين هذه الأمور .

وقد فرغ العلماء على هذه الأربع فروعا شتى تربو على المائة ، وكلها داخلية في الصراط المستقيم ، وهو

الوسط ، وما جاوز الوسط ، فإلى زيادة فهو التهور والعيش والتبذير وما أشبهها ، ولما إلى قصر كالجبين والبخل والخوف وما أشبهها ، والمسلمون وسط في أمر سيدنا عيسى عليه السلام إذ يعتقدون نبوته . أما اليهود فانهم قد غضب الله عليهم لأنهم جعلوه ابن زانية . وأما النصارى فانهم أفرطوا في اعتقادهم وجاوزوا الحد في دينهم وغلوا في أمر المسيح ، فقالوا انه إله ، فهو لاهم الضالون في أمر عيسى ، فاعتقاد المسلمين صراط مستقيم ، واعتقاد اليهود فريط ، واعتقاد النصارى افراط : أى مجازة الحد . وقد قلنا ان الحكمة وسط فلا تغالى كما

قالت النصارى ، ولا جود وانكار كما قالت اليهود ، ولقد ورد تفسير الصراط الخ بهذا المعنى مرفوعا الى النبي ﷺ ، وهذا الذى قلناه توجيهه ، وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك ضرب مثل للصراط المستقيم والا فهذا الوسط في الاعتقاد في مسألة المسيح بمئاته مسائل كثيرة كالكرم والشجاعة والعفة والصدق كما تقدم

طافهم . وقوله (غير المغضوب عليهم) بدل من الذين أنعمت عليهم ، ولا فى قوله (ولا الضالين) لئلا يكيد (آيين) اسم الفعل الذى هو استجب ، وليس من القرآن بالاتفاق ، ولكن سن ختم السورة به . واعلم أن النعم ائمال ، واما أصحاب وأهل وأعوان ، واما صحة بدن ، واما عقل وحكمة وصدق روية ، وكل نعمة مقدمة لما بعدها ، فأعلاها العقل والحكمة ، وأدناها المال الذى لا بد منه لحفظ الثلاثة بعده من الأنساب والصحة والعقل ، والمراد بالنعمة هنا أعلاها التى تقوى وتبقى بما قبلها .

وقد يراد بالنعم عليهم المطيعون ، وبالمغضوب عليهم العصاة ، وبالضالين الجهال . واعلم أن النعم عليهم هم الأنبياء وورثتهم والمخلصون من بنى آدم ، وهم الذين نصبوا أنفسهم لهداية الناس وارشادهم . وكأنهم آباء والناس أبنائهم ويتشبهون بالله فى أفعالهم وأقوالهم ويقودون الأمم إلى سبيل الرشاد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقال ان غاية الحكمة حب الله ، فيعرفون نظيم العالم وحكمة الخالق ويتركون آثارا فى البرايا ويتحملون ما ينالهم من الآلام فى سبيل اسعاد الأمم ، فينالون أجرهم مرتين فهم فى الآخرة مكرمون ، وفى الدنيا مذكورون بالثناء والاكرام ، تتناقى اليهم النفوس ، وتحن اليهم القلوب ، وتطمئن اليهم الأفتدة ، وتذكرهم الأجيال .

وأضرب لك مثلين : الأول ما جاء فى القرآن فى سورة الصافات ، فانظر كيف ابتدأها بذكر أهل الجنة والنار وتوخيخهم ، فقال « ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين » وأقام عليهم الحجة فقال « ولقد أرسلنا فيهم منفرين » وأخذ يذكرهم بالثناء واحدا واحدا فذكر نوحا بالثناء ، ولما انتهى من القصة قال « سلام على نوح فى العالمين » ثم ذكر ابراهيم وتاريخه ومالتي من المحن فى قومه وختمها بقوله « سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين » ثم ذكر موسى وهرون ونجاتهما من فرعون وقومه ، ثم ختمها بقوله « سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزي المحسنين » ثم ذكر الياس وكيف كان يدعو قومه وختمها بقوله « وتركنا عليه فى الآخريين سلام على إيل ياسين انا كذلك نجزي المحسنين » ثم ذكر لوطا ونجاته ويونس وختم السورة بقوله « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » فانظر كيف ذكر المرسلين بالثناء فمن كان منهم أقوى عزما وأطول بلاء . قال فيه « وتركنا عليه فى الآخريين سلام على » فلان ، فكان الله عز وجل يجعل الثناء الباقى فى الأعقاب للجاهدين الأبطال من المكافآت للفضلاء .

وهذا هو الذى يبنى أن يكون فى أمة الاسلام . بلنا الله بهذا أن فلان فضل الفضلاء ، وعلم العلماء وحكمة الحكماء ، وجهاد الأبطال ، ونشر فضائلهم ليقدم من بعدهم وليؤخذ عنهم كما فضل الأمم القريية لليوم بكل مشهور الفضل ، ولو كان سفية النفس سبيء لخلق ضيق القطة ، ويذكرون علمه ليقضى به

الناشرون . ولعلك تقول ما للفاتحة وسورة الصافات ؟ . أقول : على رسلك ان الفاتحة تسمى أم الكتاب والنعم عليهم والمغضوب عليهم ورد ذكرهم في القرآن ، فهل هذه القصص وارادة لتبر غرض أم للهو والقهق أم لمجرد الحكاية ؟ كلا ، فلنعم عليهم : متى عليهم ، والمغضوب عليهم : مذمومون ، وليس للمسلمين أن يمشوا خامدين جامدين أُلِمَّ القرآن والأم الفريسة ، فإبهم أن يبعثوا القرآن ، فمن رأوه يبذل مهجته في خدمة الأمة ، لويشتر العلم ، أو يضحى ماله ، فليرضوا قدره ، بهذا أمرهم الله ، والافكيف يقول في سورة أخرى « واذكر في الكتاب ابراهيم . واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد » ويقول « واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا . واذكر في الكتاب مريم » أليس هذا أصرا بذكر الفضلاء المخلصين ونشر محاسنهم ، فليقم بذلك المسلمون في مشارق الأرض ومغربها والافليقوا جامدين جاهلين . الى هنا انتهى المثل الأول لنعم عليهم . المثل الثاني : مآثره في كتب المتقدمين عن اليونان أن (سولون) الحكيم المولود سنة ٦٤٠ ق م المائت سنة ٥٥٩ ق م لما خرج من أثينا مغاضبا لقومه اذ عصوا نصيحته أرسل اليه الملك (كريسوس) خطبا ، فلما قدم عليه حرق مارآه من الزينة والزخرف ، فقال له الملك : من أسعد الناس في فنوك ؟ فقال له للملك طيلوس كان محبا الى أهل أثينا مسغا النعم عليهم ، فلما أن مات حزوا عليه كلهم أجمعون ، فتعجب كريسوس من سولون وقال فمن بعده ؟ قال أخوان شابان كانا شجاعين أكرما أمهما ، ولقد كانت تفدو كل يوم للصلاة في المبد ، فانفق أن سائق العربة لم يوافقها يوما فجرّ الاخوان عربتها بدل الثورين فدعت الله ظمها فحاشا قبري العين وأحبهما الناس حبا جما ، ولما ماتا حزوا عليهما أهل أثينا ، فقال الملك أفلا تعدني سعيدا يا سولون ، فقال أنت أسعد من كثير من الناس ، ولكن انتظر العاقبة فغضب الملك من سولون وأبعده ثم دلوت رضى الحرب بين الملك وبين ملك الجهم فوقع كريسوس في الأسر ، فأمر باحراقه وأوقدت النار ، فصاح كريسوس سولون سولون ، فسأل فيروس ملك الجهم مالمعنى هذا ؟ نقص عليه القمص فرق قلب فيروس وأتم عليه وولاه .

وانما ذكرت هذا المثل ليعلم المسلمون في أقاصى الأرض أن الذين أنعم الله عليهم يجب الاخوان والصبر على أذامهم ، والزهد في الدنيا ، ونشر الفضيلة والعلم بمدحون على كل لسان أينما كانوا ، وأولئك لنعم عليهم شموون وأقلمر ، فانظر كيف ذكر سولون أن السعيد هو الملك طيلوس ، لأن أهل أثينا حزوا عليه لمصوم فضع لهم ، وأن الشاين للذين أكرما أمهما أحبهما الناس ، ولما ماتا حزوا عليهم ، لأن المحسنين محببون وللنفوس الشريفة يشرق ضوءها في الأرض ، وتلك النفوس العالية إنما جاءت الى الأرض لتحرس أهلها وتخلصهم فإذا أدوا ما خلقوا له سرت بذكرهم الركبان ، فما أجل العلم وما أجل الحكمة .

الفاتحة أم القرآن

هذه السورة تسمى فاتحة الكتاب ، وتسمى سورة الحمد ، وتسمى أم القرآن وأم الكتاب والسبح الثاني ، لأنها تنبئ في كل صلاة ، وتسمى الوافية والكافية . ولقد يجب الظن من تسميتها بأم القرآن وبأم الكتاب وبالكافية وبالوافية ، وكيف تقرأ في كل صلاة ، فليعلم ذوالق أن الذي يتلى على اللسان دائما ، ويتلوه الجاهل والمظلم سرا ويجهرا ، يصبح في أنفس الثالين من المألوفات التي لا يسى الى شيء ورعها وتصيح كالسمع والبصر والمقتل والجسم الانساني عند الجهلاء ، فالتاس للمرأوا أجسامهم والأنهار والسماء والأرض لم يظنوا فيها مجانب ولا غرائب لأنها مكشوفة أمامهم معروضة كل حين ، كالعالم في بطنه والنبي في قرينه ، فكيف فاتحة الكتاب يقرؤها المسلمون في مشارق الأرض ومغربها وأكثرهم جاهلون لا يفقهون ، ولعلك

داسقنا الفريجة فقلت أبناءنا واستحييت نساءنا ونحن في غفلة معرضون .

واعلم أن العلماء هم الذين يعرفون أسرار الأشياء ، فعلم النبات وعلم الطب يقلان حكم النبات ومخاطب الجسم ، فكذلك هنا المفكرون في القرآن العارسون للعلوم حديثها وقديمتها هم الذين يقاومون الفاتحة وعلوها فاعلم أن الفاتحة تشتمل على الاشارات لجميع ماورد في القرآن ، والذي ورد في القرآن عشرة علوم عتمة كما قاله الغزالي : وكل علم تحته علوم . الأول : معرفة ذات الله . الثاني : معرفة صفاته ، فلما لفتت فيلتقدس والتزبه فهو الذي ليس كمثل شيء ، وأما الصفات فانه قادر ومريد وعالم وحى وسميع الخ . الثالث : انه خالق العالم ومبدعه ، وهو الذي رفع السموات وبسط الأرض . الرابع : ذكر المعاد من الجنة والنار والثواب والعقاب . الخامس والسادس : ذكر الصراط المستقيم بتكرار الأفعال الخيرة والأخلاق المزرية ، وبالتهلج بفضائل الأعمال والأخلاق الشريفة ونشر الفضيلة . السابع : ذكر المنعم عليهم ومدحهم والتناء عليهم . الثامن : ذكر الظالمين والطاغين والكافرين . التاسع : ذكر محاجة الكفار . العاشر : ذكر حدود الأحكام هذه هي العلوم التي ورد ذكرها في القرآن ، والفاتحة قد اشتملت على ثمانية منها على رأى الاجام الغزالي . الأول : ذات الله تعالى في قوله (بسم الله) . الثاني : الصفات بذكر (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) فان الرحمة والملك يستزمان القدرة والازادة والعلم ، وهي من الصفات الواردة في أكثر سور القرآن كقوله : الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن الخ . الثالث : علم الأفعال وهو العلم الذي أشرت إليه فيما تقدم للتدرج في قوله (رب العالمين) المنطوق تحته أكثر العلوم ، وقلت أن العالم قيمان علوى وسفلى ودخل فيهما أكثر العلوم لأنها كلها أفعال لله تعالى الداخلة في آثار رحته وتريبته للعالمين . وقول الآن أيضا فوق ما تقدم أن العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية اللتين دخلتا في تربية العالمين يلحقهما صناعات كثيرة ، فنهنا علم البنكاملات (آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة) وعلم جر الأقال : كقطر السكك الحديدية ، وعلم انباط المياه ، وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها ، والغازات النخاعة الموقظة للاشم النائمة ، فأيقظت أهل الشرق من سباتهم . وهذا من عجائب الترية ، وكالدافع الفتاكة بالغافلين ، وعلم للرايا المحرقة ، وعلم عقود الأبنية لتضيد المساكن وشقي الأنهار ، وعلم للناظر لمعرفة أشكالها وأوضاعها ، وعلم مسراك الأقال ، وعلم المساحة ، وعلم الطب ، وعلم الزراعة . وهذان الأخيران يتبعان علوم الطبيعة ، وأما ما قبلهما فمن الرياضيات تتفرع وكلها داخلة في تربية العالمين . واعلم أن جميع الصناعات ما كان منها وما يكون ترجع إلى هذه الموجودات ، فلذا رأيت الجبار ، والحداد ، والخراط ، والزجاج ، والجوهري ، والصيرفي . فاعلم أن الأول تابع لعلم النبات ، لأن عمله في الخشب . والثاني لعلم المعادن لأنه في الحديد . والثالث في النبات كالأول . والرابع في المعدن لأنه في الزجاج والزجاج رمل مخلوط ببعض المعادن . والخامس والسادس في المعادن ، لأن الخامس في الجواهر المستخرج من الصدف . والسادس في الذهب والفضة ، هذا ما أردت ذكره في العلم الثالث ، وهو علم الأفعال ، وقد دخل تحته أكثر العلوم والصناعات . العلم الرابع : ذكر المعاد وفيه الجنة والنار والنجم والجحيم والثواب والعقاب والقرآن طافع بذلك ، وهو هنا في قوله (مالك يوم الدين) . العلم الخامس والسادس (الصراط المستقيم) وهو قيمان . الأول : ترك الضلال والفسوق والعصيان كالكتب والحياة والزنا . والثاني : التحلج بالطلعت كالسكرم والعلم والمساعدة ونشر العلم وما أشبه ذلك . العلم السابع : قصص الأنبياء والصلحين وللمؤمنين والفضلاء وهو داخل في قوله (الذين أنصت عليهم) . العلم الثامن : قصص المنضوب عليهم والفضالين ، وفي القرآن كثير من قصص القاديين وتاريخ أعمالهم التي أودتهم البرار والناسر ، هذه هي العلوم التي اشتملت عليها القرآن ، ودخلت في ضمن الفاتحة ، فهل اذا سميت أم القرآن ، أو الكافية ، أو الوافية ، لانكون بذلك

سرية ؟ بلى ، فالفاصلة أم القرآن بما بيناه ، كافية بما أبرزناه ، وافية كما قررناه ، فتجب من المسلمين . واعلم أن القرآن أشبه بضوء الشمس الذي يجرى في الجو ولا يظهر الا على سطح الأرض أو على جسم قابل ، فأما الهواء فإنه لا يعكس ضوءها ولا يراه الطائر في جو السماء : كذلك الأفتدة الحالية من العلم والحكمة يمر بها القرآن ولم القرآن ، ولا تشعر بمعانيها والضوء المشرق فيها ، وهم قرءونها صباح مساء كذلك الطائر في الجو السائح في غماره حتى اذا قرأ القرآن من يعرفه فهمه حتى فهمه . واعلم أن هذا الزمان هو الصالح لظهور المقبول من القرآن في بلاد الاسلام « ولينصرن الله من ينصره ان الله تقوى عزيز » .

ولم يبق من العلوم التي في القرآن الا الحاجة الكفار ويقوم مقامه علم التوحيد ، وعلم الأحكام الفقيه التي يقصد بها حفظ النظام الاجتماعي للأمة ، وانما احتيج لهدى العادين لحفظ العقائد ولحفظ نظام المجموع ، ثم ان هذا التقسيم الأخير مستمدة أصوله من كلام الامام الغزالي مع زيادة وتصرف ، ومن هذا تعلم ان علم ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وهي العلوم المعروفة اليوم ، والصناعات مقدمات على علم الفقه وعلم التوحيد ، والأم الإسلامية اليوم أحوج الى معرفة الكائنات لمعرفة الله ولبقائهم في الدنيا ليراجوا الأمم الغربية ، وهي أهم من معرفة علم الفقه وعلم التوحيد وجميع هذه العلوم فرض كفاية ، ولكن الفقه والتوحيد لم يظهرأ ظهورا جليا في الفاتحة : اللهم الا في العبادات ، أما الفقه فيما عدا ذلك ، فلم تشمل عليه ، والمسلمون يجب عليهم النبوغ في علوم الكائنات لصيانة القرآن بها والفاصلة خصوصا لدخولها ضمن تربية العالمين .

فذا سمعت قول القائل : ان سرّ القرآن في الفاتحة ، وقرأت الحديث المتضمن ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام لأبي « ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والانجيل والقرآن مثلها » ثم قل هي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، ثم قرأت ما كتبتاه بلعان أدركت السرّ المصون وتجلت لك عظمة الفاتحة وعرفت معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الفاتحة « انها القرآن العظيم » وعسى أن يكون فتح لك باب قلوبهم : سرّ القرآن في الفاتحة ، فمن هذا الطريق فلتسر وتعلم أن ما كتبتاه شذرة مما فعله ، ثم ما فعله ذرة من علم العلماء ، ثم علم العلماء ذرة من علم الله عز وجل ، فتجب للنبوة وحكمتها وعلمها الواسع . ان هذا يفتح لك أبوابا تدخل منها إلى سرّ عظمة الفاتحة ، وسرّها أنها سبع آيات تؤدي معنى ست آلاف آية وهي جملة القرآن كله تقريبا ، ثم ان خروج الفقه والتوحيد من ضمن الفاتحة هو رأى الامام الغزالي ، ولكن عسى أن يكونا ضمن الصراط المستقيم أو القرية للعالمين ولو بطريق التبعية فتأمل فيما كتبتاه فضي أنك في غضونه نلقاه ، هذا ما فتح الله به وأردت إثباته في تفسير الفاتحة « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

مقارنة فاتحة الكتاب بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات

قد سبق الكلام على مافي الفاتحة من الاشارة إلى العلوم وما تضمنت من الحكمة ، فلنذكر الآن نبذة مما تضمنت من البلاغة لتكون تذكرة ونبصرة لذى لب ، وإتعا قدمنا الكلام في العلوم لأنها أهم وأهم وأدعى إلى رقى الأمم الإسلامية وأدنى إلى حاجتها وأقرب إلى سعادتها . فنقول :

تأمل أيها العاقل الفطن ، وانظر بعقلك وإياك والتقليد ، بل ليكن نظرك عقليا وفهمك نفسيا ، واحذر أن تكون إمعة ، فما أنا ذا سأتلو عليك من أقوال الشعراء فواتح المعلقات وما شأكلها لتقارن بصفاء ذهنك ونور عقلك وما دق سريرتك بينها وبين فاتحة الكتاب لتعرف الفرق بين كلام الوجد وكلام الشعراء الذين كان لهم التدح المحلى في سوق عكاظ وذى المجنة وذى الجواز ، وهم الخافضون للرافضون بذمهم ومدحهم كالسرى القيس

وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى وليد بن ربيعة ومن على شاكتهم عن طأطأت لهم الرؤوس ، وخلالهم الجوى
 وضعت لهم الأصوات ، وذلك لهم الرقاب ، وكانوا شمس الجماعات وسادات الشعراء :
 ان للوحى لسة ظاهرة وعلامة بينة ، ألا ترى أنه ينحو منحى الأمور العامة ، ويتعالى عن الجزئيات
 وعقرات المقاصد ، فأما كلام الشعراء في فواتحهم فهناك مقال امرئ القيس بن حجر بن حارث إذ ابتداء قصيدته
 اللطقة ، وهي فاتحة فوصف أنه بكى واستبكى على حبيبه ومنزلها الذى يسقط اللوى بين الأماكن الأربعة ،
 وهي السخول وحومل وتوضيح والقراءة ، فقال :

فَقَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ • بِسِقْطِ الْقَوَى بَيْنَ الدَّخُولِ تَحْوَمَلِ
 فَتَوْضِيحٍ فَالْمُقَرَّاةِ لَمْ يَمَفُ رَشْمُهَا • لِمَا نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ

وطرفة بن العبد بن سفيان كانت فاتحة قصيدته أن قال ان خولة محبو بنى لم يبق لها الا آثار السيل الخفية
 التي صارت كآثار الوشم في ظاهر اليد ، وهذه الآثار في موضع ، وهو برقة نهد ، وهي مكان لبني دارم اذقال :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٍ بِرُقَّةٍ نَهْمِدِ • تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

وزهير بن أبي سلمى من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أَمِنْ أَوْفَى دِمْنَةَ لَمْ تَكَلِّمْ • بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُنْتَمِلِ

أم أوفى كنية محبو بنه والدمنة آثار الدار وما فيها من البعر والرماد وغيرها والحومانة ماغلظ من الأرض
 والدرج والمنتلم موضعان من العالية (يقول هل من منازل محبو بنى أم أوفى تلك الدمنة التي سألتها فلم تجبني)
 وليد بن ربيعة السامري من الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال : اندرست ديار محبو بنى
 وهي ما تحمل فيه وتقيم ، وهي بالمكان الذي يسمى منى ، وقد توحش الموضعان اللذان فيها ، وهما الغول
 والرجام اذقال .

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَتَمَّامُهَا • يَمِينِي تَأْبَدُ عَوَّلَهَا فَرَجَامُهَا

وعمر بن كلثوم كانت فاتحة قصيدته ، أن قال لجاريته : قومي من نومك ، واسقيني الخمر أول النهار بقدحك
 العظيم ولا تدخرى عنى شيئا من خرة القرية المسماة الاندريين من قرى الشام كثيرة الخمر جيدته اذ قال :

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبِحِينَا • وَلَا تُبْقِي نُحُورَ الْأَنْدَرِيْنَ

وعنترة بن شداد العسبي يقول : ماترك الشعراء شيئا يرقع الارقومه : أى ماتركوا فنا من فنون الشعر الا
 سلكوه ، ثم قال : أنا لم أعرف دار محبو بنى لطول عهدى بها إلا بعد عناه شديد اذ قال :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ • أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمِ

والحارث بن حلزة البشكري قال : في فاتحة مطلقته في حضرة الملك عمرو بن هند ، أعلمتنا أسماء بقرب
 لرغابها فشق علينا ، ومن المقيمين من يعل قريتهم ، ولكن أسماء ما لناها اذ قال :

أَدْنَنْتَنَا بِبَيْتِنَا أَسْمَاءَ • رَبُّ نَاوِي مِثْلَ مِثْنَةِ الشُّوَاهِ

والناصة الندياني ، وهو زياد بن معاوية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

يَادَارَ مِثَّةٍ بِالطَّبِيَاءِ فَالْسَنْدِ • أَقْوَتِ وَطَالَ عَلَيْنَا مَا كَيْفُ الْأَمِدِ

العلياء المكان المرتفع ، والسند حيث يسند الى الجبل : أى برقى ، وأقوت خلت ، والأمد الدهر ، مخاطب
 دلر محبوبته مية متوجعا متأسفا على ارتحالها عنها وابتعادها عنه ، والأعشى ميمون بن قيس بن جندل
 كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أَلَمْ تَقْتَضِ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدًا • وَبِتْ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَبِّدًا

أرمد : أى رجل أرمد ، والسليم اللديغ ، والمسند الذى شرد عنه النوم ، يقول : انه أرق ليلة لم ينعص
 أبحفانه ، كالأرمد الذى لا يطبق طباق أبحفانه من حر ما بها من الألم ، ولم ينع كأنه لديغ ، وعبيد بن الأبرص
 الشاعر الجاهلى أحد المعمرين ، يقال انه عاش عشرين ومائتى سنة كانت فاتحة قصيدته أن قال :

لَيْسَ رَسْمٌ قَلَى الدِّفِينِ يَبْأَلِي • فَيَلْوَى ذِرْوَةَ فَبَنْبَتِي ذِبَالِ

الدفين وادقريب من مكة ، واللوى منقطع الرمل ، وذروة وادلبنى فزارة ، وذبال رملة أخرى ، يقول ابن
 الدفين ، والنروة ، وذبالا ، وهى منازل الاحبة لها آثار ظاهرة ورسوم شاخصة تذكر ما سبق لامن لذيد العيش .
 فما أنذا أنبت لك بفوائح لعشرة من حفول شعراء الجاهلية ، وهى خرجت فوائحهم عن آثار الديار ، وفراق
 المحبوبة ، والتحسر ، والتوجع عليها ، وذكر سهر العين ، ورمدها وشرب الخمر بالقدح ، وهى رأيت الامدارا
 واحدا داروا جيعافيه ، أو ليست الفوائح يكاد يتحد معناها ، وان اختلف مبناها ، وهى ترى هذه المعانى التى
 طرقتها فى فوائحهم راضة رأس الانسانية ، أو بانية لها صرحا ، أو شائدة لها ذكرا ، أو ناظمة لها عقدا ، أو
 مربية لها أمة ، أو سانة لها قوانين ككلا ، وانما هى كلمات محدودات فى معان ضللات يذكرها الفنى أيام
 صوته ، ولاتبقى له أيام كهولته لم تخرج عن مداعبات غراميه ، وأنات شوقيه ، قد يقول الشاعر تكلفنا لاغرما
 وابتاعا لا ابتداعا ، واحتذاء لا ابتداء ، فلعمري لقد بهر العرب ، وسحروهم أن سمعوا هذه الفاتحة ، فقيل لهم أيتها
 الناس تبركوا بلسم إلهكم الرحمن الرحيم ، ولا تتزلوا الى صفائر الأمور بمدح الملوك وأربؤا بأنفسكم عن ذلك
 فأجدوا من رفع السماء وبسط الارض ، وأطلبوا منه الهداية .

أقول أيتها الذكى اللبيب يمثل هذا فلتعرف البلاغة فى القرآن ، وبهذه الطريقة وأمثالها نزن كلام القرآن
 وكلام العرب ، وقد مهدت لك الطريق ، وبسطت لك السنن فى البلاغة ، فانظر فى أوائل السور ، وأوائل
 قصائد الجاهلية مثلا ، وكذلك نبط القرآن فى المعانى والمقال ، ونمط كلام شعرائهم ، وهذا هو النمط الذى جرى
 عليه العرب فى تظيموم القرآن ، ألا ترى كيف يقول بعض سادات قریش ، لما أنطلق إلى رسول الله ﷺ
 ليفتك به ، فسمعه يقرأ « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب
 ذى الطول » وكان ذلك فى صلاة المغرب فلم يصبه بأذى ، ورجع إلى قومه ، وقال والله لو كان من كلام العرب
 لعرفناه ، وان أسنله لغدق ، وان أعلاه لثمر ، وانه يعلو ولا يعلى عليه الخ .

وتأمل فى قصة اسلام عمر رضى الله عنه أن رجلا من قریش لقيه فى بعض طرق مكة ، فقال أين تذهب ؟
 إنك الصلب القوي فى دينك ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى دينك (أى دين الاسلام) قال : وما ذلك ؟
 قال أختك قد صابت (خرجت عن دينك) فوجع مفضبا ففرع الباب على أخته فدخل عليها ، وقال يا هذوة
 ضها قد بلغنى عنك أنك صابت ، ثم لطمها لطمه شج بها وجهها وأمسك بلمحية زوجها سعيد بن زيد وضرب
 به الأرض ، ولما رأت أخته الدم بكت و غضبت ، وقالت أضر بنى يا عدو الله على أن أوحد الله قد أسلنا
 على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل . قال عمر رضى الله عنه فاستحييت حين رأيت الدم فقممت
 وجلست على السرير وأنا مضضب ، فنظرت فاذا كتاب فى ناحية البيت ، فقلت أعطونى هذه الصحيفة فأبت

أخته أن تعطيه إياها ، وقالت إنك رجس فانطلق فاغتسل فانه كتاب لا يمسه إلا المطهرون ، فلما اغتسل ناولته الصحيفة ، فاذا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » . قال عمر ، فلما صرحت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي ، وجعلت أفكر من أى شئ اشتقت ؟ قال : ثم رجعت إلى نسي وأخذت الصحيفة فاذا فيها « سبح لله ما فى السموات والارض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والارض يحيى ويميت ، وهو على كل شئ قدير . هو الأول والآخِر والظاهر والباطن ، وهو بكل شئ عليم . هو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها » الى قوله « إن كنتم مؤمنين » فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، واطلع على أخرى فوجد فيها « بسم الله الرحمن الرحيم : طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا بمن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن نجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » قال رضى الله عنه فعظمت فى صدرى ، وقلت من هذا فررت قريش .

قال مؤلف هذا الكتاب : وأنا أقول من هذا تعرف البلاغة ، وبهذا كان العرب يدركونها فلهم يعرفون الفرق بين قوله « ألهى بصحنك فاصبحنا » وبين قوله تعالى « له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » وكلاهما فى فائحة الكلام ، ثم لما بلغ قوله تعالى « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » قال ما يفتنى لمن يقول هذا أن يبد غير ، دلونى على محمد الخ .

ومن ذلك : أنه ﷺ ، ومعه أبو بكر لقي سادات بنى شيبان بن ثعلبة ، وهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة ، ومثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو أجلمهم وجها وأفصحهم لسانا فصرّهم أبو بكر بشأن رسول الله ﷺ ، فقال مفروق لإمام يدعو ؟ فتقدم رسول الله ﷺ ، وقال « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وأن تؤدوني وتنصرونى فان قريشا قد تظاهرت : أى تعاونت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق - والله هو النى الحيد » . قال مفروق وإمام تدعو أيضا ياأنا قريش ؟ فقال رسول الله ﷺ « قل تعالوا أتت ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تهربوا القواش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » قال مفروق ما هذا من كلام أهل الأرض ؟ ولو كان من كلامهم لعرفناه ، ثم قال وإمام ندعو أيضا ياأنا قريش ؟ فلا رسول الله ﷺ « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهاى عن الفحشاء والمنكر والبغى يظلمكم لعلكم تذكرون » ، فقال مفروق : دعوت ، والله الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم صرفوا عن الحق وكذبوك وظاهروا : أى علونوا عليك .

آيات العلوم والاخلاق : فى سورة الفاتحة

سورة الفاتحة كلها آيات علوم ، ولنا أن نجعل القسم الثانى منها أخلاقا ، فان الهداية الى الصراط المستقيم وما بعدها تفيد تهذيب النفوس

تفسير سورة البقرة

مدينة ، وهي مائتان وستة وسبعون آية
(تسيم سورة البقرة الى باين عظيمين)

الباب الأول

من قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) الى قوله تعالى (ليس البرّ أن تولوا
وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر) .
وهذا القسم : غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود ، وفيه عشرة مقاصد (والباب الثاني) من قوله
تعالى (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم) الى آخر السورة ، وغلب فيه الأحكام الشرعية ، وفيه عشرة مقاصد

مقاصد الباب الأول

مدح القرآن . وبشارة المؤمنين ذمّ المنافقين والكافرين . ضرب مثلين لحال الطائفتين المؤمنين
والمنافيقين . نداء عام للناس أن يؤسوا الايمان على قاعدة النظر في السموات والارض . كيف بدء الخلق .
خلق آدم . وكيف تشبه القصة الى قوّة الغضب والشهوة وقوّة العقل بابليس وحواء والعلم . ذكر بني اسرائيل .
وأنتهم ضلوا واتبعوا الشهوات ، وذلك في فصلين .

الفصل الأول و به عشرة يواقيت

تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون . فرق البحر لهم . إغراق فرعون . إعطاء التوراة لموسى . توبة
الله عليهم بعد الذنب . تظليل الغمام . إزال الملق والسوى . الأعين المنفجرة . تعنتهم وطلبهم الشرف .
مسألة البقرة وكيف ظهر بها القاتل .
« تلك عشرة كاملة » وهذا آخر يواقيت الفصل الأول من المقصد السابع في الباب الأول من
سورة البقرة .

الفصل الثاني من المقصد السابع من الباب الأول من سورة البقرة

و به خمسة مقاصد

المخرفون لكتاب الله منهم وهم العلماء . المنافقون والاذكيا . صرفوا ذكاهم للفسدة . الأثيون ، وهم
العامة المقلدون . مجل الآداب المترلة على بني اسرائيل وبها إعادة الأمم . قريهم على هتات ارتكبوها وارطموا
في أوحالها ، وهذا الخلق يشتمل على ١٠ زبرجدات . قتلهم الأنبياء . إشرابهم الجبل في قلوبهم . دعواهم
الاختصاص باليوم الآخر . عداوتهم لجبريل . قرضهم للعبود . كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد اعترفوا
به . اتباعهم علم السحر . إيدائهم للنبي بلفظ راعنا . تأييد النسخ بالحجة وتعنتهم على النبي كما تعنتوا على موسى
بقولهم : أرنا الله جهرة . إرادتهم السوء بالمؤمنين ، ودعوى النصرى واليهود أنهم هم الناجون لا غير ثم
ذكر المساجد وظلم أهلها الخ .

المقصد الثامن

قصة ابراهيم الخليل واسماعيل وبناء الكعبة بعد ذكر اسحق وبنيه وكأنه هدم اليهودية بنحو عشرين
برهانا ، وأخذ يؤسس الاسلام على قواعد ابراهيم وبذكر بناء الكعبة ، ولا يكن دين اليهودية دين ابراهيم
ولا يعقوب ، ثم دعوة الناس جميعا لدين واحد اتفق عليه الأسياب وبند الصراية والتعميد .

المقصد التاسع

ذكر الله قصص آدم وقصص بنى اسرائيل وهدم اليهودية وبناء الاسلامية عليها بين النداء الأول العالم
وبين النداء العالم الثاني ، وهو (وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات
والأرض) قد قال أولا (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) ثم أعاد الكرة فأوضحه ، وقال (إن في خلق
السموات والأرض) ليرهن بعلم الطبيعة .

المقصد العاشر

تقليد الرؤساء والآباء في الدين والحلال والحرام جهلا ، وتبريع المقلدين العاقلين بعد تبيان الحقائق الناصحة
فيها تقدم نبيا وانباتا ، وهناتم بيان مجمل المقاصد في الجزء الأول ، فلنشرع في تفصيله .

ابتداء التفسير

المقصد الأول

﴿ مدح القرآن وبشارة المؤمنين في قوله عز وجل ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن
قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

التفسير اللفظي

(ألم) ستقرأ الكلام عليها وعلى غيرها في أول آل عمران وفي أول كل سورة مبدوءة بمثل هذه الحروف
وستتوفى الكلام على أسرارها الخاصة بهذه السورة في الملحق
(ذلك الكتاب) القرآن (لا ريب) لا شك (فيه) أنه من عند الله (هدى للمتقين) يهديهم
إلى الحق ، وخص المتقين لأنهم المنتفعون به ، وإن كانت دلالة عامة لكل ناظر (الذين يؤمنون بالغيب)
يستقون بما غاب عنهم كأسر البعث والحساب (ويقومون الصلاة) يداومون عليها في مواقيتها بمحودها

وإتمام أركانها ، وحفظها من أن يقع فيها خلل (ومما رزقناهم ينفقون) أي ومما أعطيناهم من الأموال يتصدقون ويؤدون زكاة أموالهم (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) كعبد الله بن سلام معطوف على الذين قبله (وبالآخرة هم يوقنون) الايقان : إيقان العلم بانتفاء الشك والشبهة (أولئك على هدى من ربهم) على رشاد ونور واستقامة (وأولئك هم المفلحون) الناجون الفائزون : نجوا من النار وفلحوا بالجنة .

يقول عز وجل : إني أرسلت رسولا حكيا ، فصيح اللسان كما سترون في هذه السورة من القصص وتتأججا ، والحجج وبدائنها ، والآيات وشرائعها ، وما في هذه الآيات المنزلات الاجل بليغات ، وهي حروف مركبات ال م ، فما منعكم أن تنسجوا على منواله ، وتبنوا مجدا كما بنى ذلك الكتاب يهدي للتقين الذين جهوا ثلاث صفات . الحكمة والعلم ، واليهما الرمز بالإيمان بالغيب ، وتسخير البدن في العبادة كالصلاة . وبذل المال مما رزقوا ، ثم خصص طائفة منهم بالذكر تشريفا لهم ، وهم الذين آمنوا بما سبق انزاله من الكتب وما نزل من الدين ، وما سيكون من اليوم الآخر : أي الماضي والحال والاستقبال تليحا الى أن الانسان صاحب الدهر ، وعليه النظر في حقيقة جميع الاشياء .

المقصد الثاني : وفيه غرضان

الغرض الأول : ذم الكافرين ، وتبيان أن فريقا منهم حرموا من الهداية ، وسجل عليهم الحرمان والطرود ، فان أذروا أولم يندروا فهم لا يؤمنون ، وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لا تمتاز عما للحيوان ولا تعالج بهم الى مصاف نوع الانسان فقد طبع على قلوبهم ، فهم لا يفتقرون الخير ، وعلى موضع سمعهم فلا ينتفعون بالحق ، وحيل بينهم وبين الاتقاع بما يبصرون : كأن على أعينهم غطية . وهو معنى قوله تعالى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *

التفسير اللفظي

(إن الذين كفروا) جحدوا وأنكروا (سواء عليهم) أي متساو لسيهم (أأنذرتهم) أي خوفتهم وحذرتهم (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) لا يصدقون (ختم الله على قلوبهم) طبع عليها (وعلى سمعهم) أي وختم على موضع سمعهم ، فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به (وعلى أبصارهم غشاة) غطاء فلا يرون الحق (ولهم عذاب عظيم) شديد في الآخرة .

الغرض الثاني : بيان حال المنافقين ، وأنهم ذوو باطن وظاهر متناقضين ووجهين مختلفين ، وأطال في وصفهم وشرح سوء طباعهم وخبث قوسهم ، وكيف يظهرون مالا يخفون ، ويضمرون مالا يظهرون ، وكيف تسوء عقبتهم ونخبو نارهم لتعتبر بذلك فلا تقع فيما يحتالون ، فكم جلب الصديق الملق اللسان ضررا لا يجلبه الأعداء ، وكم للعبد من فضل على الصديق المنافق ، وما أقل الصديق وما أكثر المنافقين في كل زمان وهو .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَأَمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا
 نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا
 كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ *
 وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
 مُسْتَهْزَؤُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *

التفسير اللفظي

(ومن الناس من يقول آمنا بالله) وهم المناقون : كعبد الله بن أبي سؤل وأضرابه (وباليوم
 الآخر) وبالبعث بعد الموت (وما هم بمؤمنين) في السر ولا مصدقين (بخادعون الله والذين آمنوا وما
 يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)
 الخداع الحيلة والمكر ، والخداع يظهر خلاف ما يظن ، وهؤلاء يخادعون رسول الله والذين آمنوا : وضرر
 الخداع راجع إليهم . كما قال تعالى « ولا يحق للمكر السيء إلا أهله » ، والمتأدى في القنوب المتأد لها ،
 لا يشعر بنتائجها الكائنة فيه البادية في سائر أحواله ، فهؤلاء أصبحوا وقد أكل الحسد قلوبهم وأحاط الجهل
 بها ، فصار ذلك مرضا لازما لها (فزادهم الله مرضا) باعلاء شأن النبي ﷺ وتضاعف النصر وتكرار
 الوحي (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض) بالكفر ونعويق الناس عن دين محمد ﷺ (قالوا إنما نحن
 مصلحون) يعني يقولونه كذبا (ألا) كلمة تنفيه (إنهم هم المفسدون) في الأرض بالكفر (ولكن
 لا يشعرون) لأنهم يظنون أن خداعهم صلاح (وإذا قيل لهم) أي المناقين (آمنوا كما آمن الناس) يعني
 المهاجرين والانصار (قالوا أتؤمن كما آمن السفهاء) الجهال (ألا إنهم هم السفهاء) الجهال (ولكن
 لا يعلمون) أنهم كذلك (وإذا لقوا الذين آمنوا) كأبي بكر وأصحابه (قالوا آمنا) كمايمانكم (وإذا خلووا)
 أي رجعوا (إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون
 أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) الشياطين كبار المناقين ، والمستهزئ
 المستخف (الله يستهزئ بهم) يجازيهم (ويمدهم) يزيدهم ، والطغيان تجاوز الحد ، والعمه في البصيرة
 كالعمى في البصر (اشتروا الضلالة بالهدى) اختاروها عليه واستبدلوها به ، والربح في الأصل الفضل
 على رأس المال .

(المقصد الثالث)

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ النَّبِيِّ أُسْتَوَقِدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي
 ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بِكُمْ مَعْنَى قَهْمٌ لَا يَرْتَجِعُونَ * أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ

ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْمَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
 بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ
 عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

التفسير اللفظي

(مثلهم) أى مثل المنافقين مع محمد ﷺ (كمثل الذى استوقد ناراً) أوقد ناراً (فلما أضاءت) أى النار (ماحولته) أى حول المستوقد (ذهب الله بنورهم) جواب لما والضمير للذى ، وجمعه للحمل على المعنى : كقوله « وخضتم كلذى خاضوا » (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) الهدى (صم) - عن سبأ الحق (بكم) خرس عن النطق به (عمى) لا يبصرون (فهم لا يرجعون) عن ضلالم وغفاهم (أو كصيب) أى كأمحاب صيب ، وهو المطر (من السماء) من السحاب (فيه) أى الصيب (ظلمات) جمع ظلمة (ورعد) هو الصوت الذى يسمع من السحاب . اقرأ إيضاحه فى سورة الرعد (وبرق يجمعون أصابعهم فى آذانهم) الضمير لأصحاب الصيب (من الصواعق) جمع صاعقة ، وهى قسيفة رعد هائل معها نار ، وهذه المعانى كلها وانحة فى سورة الرعد مثل سابقها فقرأه هناك (حذر الموت) خوف الهلاك (والله محيط بالكافرين) عالم بهم وجامعهم فى النار (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يخطفها (كلما أضاء لهم) البرق (مشوا فيه) فى نوره (وإذا أظلم عليهم قاموا) بقوا فى الظلمة كذلك المنافقون (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) بصوت الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق (إن الله على كل شىء قدير) أى هو القاعل لما يشاء اه التفسير اللفظي .

ها هنا أنشأ فصلاً اتزعه من أصول هذه المشاهدات تخيلاً لعقولنا وندرى با على الأمثال وضر بها وتشبها للعقول بالمحسوس ، مثل حال المنافقين وقد نبؤوا الاسلام ، وأظهروا الايمان فسعوا فى الحياة بنوره ، وحرموا بعد الموت من ثمره لما أضمرته النفوس من الجهل والعداوة بحال قوم باتوا فى ظلام ، فأوقدوا ناراً أضاءت لهم الهالك وأرتهم المسالك وشرحت صدورهم وأنسهم بوجهها الجليل ، ثم خبت نارهم وأظلمت سبلهم وحلك ليهم ذلك مثلهم .

المثل الثانى : يقول انظر السحاب المعصرات وهى تنظر والظلمات حالكة والرعد بزجر والبرق يخطف . تصور السحاب مظلمة مخيمة فى جوف السماء وقد اكفهرت وجهها وأرعدت وأبرقت وأمطرت : ان هذا وصف حال القرآن والكافرين ، فالملوم فى الكتاب كودق السحاب وتوصيف الكفر والنفاق وذم الأسمان أشبه بالظلمات والحليج العقلية ، والبراهين الطبيعية على صدق الايمان أشبه بالبرق الخاطف للأصل ، والوعيد والتنخيف أشبه بنبيه بالرعد القاصف ، فكأنما هذا الكتاب مع أولئك المنافقين يسحاب نشر ملامته على الأنظار والظلام حالك والرعد بزجر والبرق يومض وهم بين حزن وفرح وخوف وطمع وادبار واقبال وظلام ونور ، وهذا من أعجب الأمثال ، فان سمعوا البراهين العقلية أصغوا اليها وكادت تخطف أبصارهم وتميل عقولهم ، وان سمعوا ذم الأسمان غفروا معرضين كما يفعل أولئك الساردون فى الظلمات اذا برقت لهم بلرقة نبعتها ظلمة حالكة .

(المقصد الرابع)

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا
 لَكُمْ فَلَا تَجْمَعُلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
 فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
 وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَبَشِّرِ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ
 رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ
 كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
 مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِرُونَ *

التفسير اللفظي

(يا أيها الناس) خطاب لأهل مكة ، ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة ، وهو هنا خطاب عام لسائر
 المكلفين (اعبدوا ربكم) وحدوه (الذي خلقكم) من نطفة (والذين من قبلكم) أي وخلق الذين من
 قبلكم (لعلكم تتقون) أي لكي تتقوا السخطة والعذاب (الذي جعل لكم الأرض فراشا) بساطا
 (والسما بناء) سقفا مرفوعا (وأنزل من السماء) السحاب (ماء) مطرا (فأخرج به) بالماء (من
 الثمرات) من ألوان الثمرات (رزقا لكم) وعلقا لروابكم (فلا تجعلوا لله أندادا) أمثالا (وأنت تعلمون)
 يقولكم أن هذه الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أندادا لله (وإن كنتم في ريب) في شك (مما نزلنا
 على عبدنا) محمد ﷺ (فأتوا بسورة من مثله) أي مثل القرآن ، أو من مثل محمد ﷺ ممن لم يحسن
 الكتابة ولم يجالس العلماء (وادعوا شهداءكم) استعينوا بأهلهم (من دون الله) من غير الله (إن كنتم
 صادقين) في مقالكم (فإن لم تفعلوا) فيما مضى (ولن تفعلوا) فيما بقي (فأتوا النار) فآخسوا النار
 إن لم تؤمنوا (التي وقودها) حطبها (الناس) الكفار (والحجارة) حجارة الكبريت أوجيع الحجارة
 (أعدت للكافرين) حيث لم (وبشر الذين آمنوا) بمحمد ﷺ (وعملوا الصالحات) الطاعات (أن
 لهم جنات) بأن لهم بساتين (تجري من تحتها الأنهار) أي من تحت شجرها ومساكنها (كلما رزقوا
 منها) أي كلما أطمعوا من الجنة (من ثمرة رزقا) أي طعاما (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) في الدنيا

وقيل ان ثمار الجنة متشابهة في الصورة مختلفة في الطعم ، فاذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى (وآتوا به) بلرزق (متشابهها) في اللون مختلفا في الطعم ، وهذه الجملة اعتراضية لتقرير ذلك (ولهم فيها) في الجنة (أزواج) حور (مطهرة) من الحيض ونحوه ومن كل دنس (وهم فيها) في الجنة (سائون) دائمون لا يموتون (ان الله لا يستحي) لا يئمه الحياء (أن يضرب مثلا ما بوضوعة فافوقها) أي يبين للخلق مثلا في بوضوعة فكيف ما فوقها ؟ يعني الذناب والعنكبوت ، وذلك أن الكفار واليهود كانوا يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، وكيف يذكر الله هذه الاشياء الخسيسة ، فرد الله عليهم بأنه لا يستحي من ذلك ، وكيف يستحي من ذكر شيء لو اجتمع الخلائق كلهم على تخليقه ما قدروا عليه ، واعلم أيها الذكي أن هذا المقام مشروح موضح بالتصوير الشمسي في آخر سورة الحج ، وهناك ترى أسرار هذه الآية ، وكيف كانت الذنابة وتشرح بها موضوع درس في المدارس العظيمة في زماننا ، ومنه استخرج تقسيم أنواع الحيوان فأقرأها هناك والعجب من جمال الله وبدانته هناك ، وفي سورة العنكبوت وصورها الشمسية ومجانب الحلقة والحكم المودعة فيها ، فهناك هناك ترى عجائب كتابنا المقدس « فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (فلما الذين آمنوا) بمحمد ﷺ والقرآن (فيعلمون أنه) ضرب المثل (الحق) الصدق الثابت (من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي بهذا المثل (يضل به كثيرا) أي من الكفار لانهم يكذبونه فيزدادون به ضلالا (ويهدي به كثيرا) يعني المؤمنين يصدقونه (وما يضل به) بالمثل (إلا الفاسقين) الكافرين والمنافقين واليهود ، ثم وصفهم فقال (الذين ينقضون عهد الله) أمر الله (من بعد ميثاقه) من بعد عقده وتوكيده (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) تقطع الأرحام والاعراض عن موالاته المؤمنين والترفقة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والكتب في التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير فذلك كله قطع الوصلة بين الله وبين العبد (أولئك هم الخاسرون) المغبونون حيث استبدلوا التقص بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح والعقاب بالتواب ، انتهى التفسير اللفظي المجمل .

إيضاح وتفصيل

قيل المراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها ليروا هيض ما كانوا يتوقعون ، وقوله - هذا الذي رزقنا من قبل - أي ان الثمر الذي في الجنة يشابه الذي كان في الدنيا لأن النفوس تواقفة اليها كانت تألفة ، ولتعلم أن ذلك أقرب لقوله تعالى (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم) ولذلك أمر الناس بالعبادة ، وضروب الحكمة ليرتقوا الى الممرجات التي تناسب ما رضوا أنفسهم اليه في الدنيا فتأمل ، وطهارة الأزواج تكون من دنس الطيبة وسوء الخلق ، وما يستقدر من أحوالهن كالحيض والنفس كما تقدم .

عجب لهذا النظام ، وما أبدع هذا الترتيب ، انظر كيف ذكر المؤمنين والكافرين ، وأنعمهم بالمنافقين ، وجاء المثلان لتصوير حال المنافقين وشرح صورتهم الباطنة بالمشاهدات الطبيعية والعجائب الحكيمية في الأفاق وإيضاح تلك المعاني التي خفيت في النفوس بما يماثلها في العالم المشاهد المحس من سحب وماء وظلام وضياء فلا جرم أن ذلك دعاء حثت الي تذكر العجائب الكونية وحسب ما في العالم من البدائع الخلقية ، ذكر المثلين لتبين أخلاق المنافقين على نموذج البقاء ، فتأمل كيف أنعم بما هو المقصود الأتم ، والمنهج الأقوم من علم التوحيد وشرح عجائب الكائنات ، انظر ونهجه كأنه يقول : هاأنذا أبنت لكم سبل ذوى النفاق والكافرين وشرحت حالهم ، وليس ذكرها هو المعنى بذاته ، فلا تضع وقتك في مناقشة الأعداء ، ومقاومة الخصماء وتغال عن تلك الطائفة العمياء ، واسلك سبل الحكماء ، وكأما المثلان وسط متناسب بين المقامين ، مقام بند الصائين ، ومقام العلم والفضل المبين ، فقال (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) يقول : اعبدوا ربكم فإنه خلقكم

وخلق آباءكم ، وجعل فوقكم سماء تظللكم ، وتحتكم أرضا تكثر لكم . وقال لكم ها هوذا سحاب مطر ، وهذه الأرض تبت وتتمر « ومنها تأكلون » يقول آو يتكم الى بيتي فكنتموه فساؤكم مطرة ماء وأرضكم مشوة ها أنتم أولاد تبنون وتكفون ، ضل تستطيعون أن تزلوا من سمانكم ماء عند حاجتكم وأن تبتوا من حبركم فتأكلون خبزاً وفواكه ، تأكلون من تحت أرجلكم وتشربون من فوق رؤوسكم ، تنظرون قرون الأرض يابسة ، فما أسرع أن تكسى جلايب سندسية ، وتفرش أتماطا ملوثة زبرجدية ، ثم تمدكم بما تأكلون ، وتعطيكم ما به تشفون ، الأرض مهاد لكم عليها تنامون وجبال لكم ولها تنظرون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء وجبال وحسن ونظام ، السماء قبة صافية ذات جلايب زرقاء مرصعة بالدراري الحسان ، والهواء بينهما يحمل الأضواء ، ويزجي السحاب ، ويقدر المطر ، وينزل الودق رحمة عظيمة وحكمة عجيبة بهاء وجبال تخرق لصلتها العقول ، وتخضع لجلاها النفوس ، وقرت بأن هذه البدائع لامندوحة لها عن مبدع فطرها ، وحكيم نظمها وإله أتمها (فلا تجملوا الله أندادا وأتم قلدون) أيها الناس أتم أسرة واحدة أسكتكم ذاري وآو يتكم الى فراشي ، وكسوت الأرض لكم حلالا بهجة للناظرين ، وصبتها من كل صبح وزيتها بكل لون وأوسعت لكم الأمد والمدد والبلد ، وجعلت مقفكم بهجا أزرق بهيا لطيفا نظيفا لم تنوه بأيديكم ، أليس من عجب أنه قديم حديث وجديد عتيق لم يتغير منظره ، ولم تقدم جدته ولم تهرم الحسان من نجومه الباهرات وإن شاب الزمان وهرم الهرمان ، ومن ذا تصور سقا بينه بلا بناء ، وينظمه بلا عناء ، ويقيه بلا فناء ، ويقي حسنه بلا خفاء ، ألا ان نسبة المخلوق الضعيف للخالق العظيم ، كنسبة عمه الضئيل الى سق السماء ذات الجبال والصفاء .

فصل آخر في هذه الحكم الكونية

عجب أمر هذا الأسلوب من الكلام مثل العلم والكفر ، والرعيد بذلك الشئ مثل بديع رافع أراك السحاب والقطر والرعد والبرق جعلها مثلا لما عقلته النفوس وقهته الفكر ، مثل الأضف بالأفاق ومثل على ما نظمه الشعراء في الجاهلية والاسلام ، ألم ترى الى امرئ القيس الجاهلي . وقد ضرب مثلا لقوة العقاب بقوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا • لمى وكرها العناب والحشف البالي
وحصده بشار حتى قال بينه المشهور :

كأن مثل القع فوق وموسنا • وأسيافنا ليل نهاوى كوا كبه

مثل القبار . وقد علا تخله ييض السيوف بالليل الحالك تسقط فيه الكواكب ، ولقد جاء من بعده ابن المعتز في نحو القرن الثالث وأبدع فقال : • وساق صبيح للمصوح دعوته • إلى أن قال :
وقد نشرت أيدى الجنوب مطرفا • على الجود كنا والحوائث على الأرض
يلرزها قوس السحاب بأصفر • على أخضر في أحر تحت مبيض

وصف السحاب بالسواد ، وأنها كست الجود وأسبلت حواشيها على الأرض . وقد زوقت تلك الحوائث بقوس قزح ، وكان منه جدد ييض وجر وضر وخضر وبنفسجي وبرقالي وأزرق ، وهذا أحسن ما تخيله قسما العرب والمحدثون وتبينه للمتقدمون والمتأخرون . فأما القرآن فقد امتطى غريب البلاغة وتعالى في الصياغة وما إلى مقام لا يصلح منطبق ولا يدرکه مصقع لبيب ، ألا ترى أن مقامه في وصف عقاب ، أو خر ، أو شراب ، أو حرب ، أو ضرب ، ولم تحم يوما هذه المعاني الشريفة بقولهم ، ولم تم قط إليها نفوسهم رقة المعاني وجزل اللفظ في القرآن وحسن العبارات ، فقل الأخلاق النبوية وأبرزها في صورة عمه مشاهدة تهدي

إلى هدى وتدفع عن ردى وترفع أذى وتزيل نعمة ، فيأته ما الذي يرضع من هممة انسان من وصف طعام
وشراب وسحاب حالك وقت شراب الراح وتعالى الأقداح ، هاهنا تجلت البلاغة وسطعت شموها ، ولما
كان المثل المذكور معتبسا من الكون منظوما من المشاهدات معروفا من الحسات ، أخذ فيها بعد ينقل النفس
من الخيال الى الحقيقة والوجدان . وقال نحن وان ضربنا لكم الأمثال من الكون فانا وأصنوه لكم لفتقوه
« يا أيها الناس اعبدوا ربكم » الخ هذه هي العبارة الحكمية ، والآيات العلمية ، والهجاء الخفية .

بدائع العلم

الأول : روى أن النبي ﷺ . قال لعمران بن حصين كم لك من إله ؟ قال عشرة ، قال من لعنك
وكر بك ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك من جنتهم ؟ قال الله ، قال عليه الصلاة والسلام مالك من إله إلا الله
الثاني : جاء جماعة من الدهرية لأبي حنيفة رضى الله عنه ، فقال ما تقولون في حشب قطع من الأشجار
بلا نجار ، واجتمع ثم كوتن سفينة تجرى في البحر ، وهي مشحونة بالأحجار مملوءة من الأثقال قد احتوشها
في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد
يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟ قالوا لا : هذا شيء لا ية له العقل ، فقال أبو حنيفة ياسبحان الله إذا لم يجوز في
العقل سفينة تجرى في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف
أحوالها ، وتغير أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جيعا ، وقالوا صدقت .
الثالث : سأل جماعة من الدهريين الشافعي رضى الله عنه ، ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال ورقة
الفرصاد (التوت) طعمها ، ولونها ، وريحها ، وطعمها ، واحد عندكم ؟ قالوا نعم : قال فأكلها دودة القز
فيخرج منها الأبريسم والنحل ، فيخرج منها العسل والشاة ، فيخرج منها البعر وبأكلها الظبي فينعتد في
نواجذ المسك ، فن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على
يده ، وهم سبعة عشر . قال أبو نواس :

تأمل في رياض الأرض وانظر ٥ الى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات ٥ وأزهار كما الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شهادات ٥ بأن الله ليس له شريك

الرابع : قال الفيلسوف هربرت سبنسر المنوفى في برطن مدينة من بلاد الانجليز سنة ١٩٠٣ في كتابه
في التربية : العلم الطبيعي لا يناقض الدين ، وقل عن الأستاذ هكسلى ما يأتي [العلم الطبيعي الصحيح والدين
الصحيح توأمان إذا انفصل أحدهما من الآخر خواصر بعين وماء حشف أفهما] ثم قال سبنسر : متى اتفق
العلم والدين نموا صحيفا ، فالدين نمو بامتداد جذوره و تعديده أصوله في رياض العلم الصحيح ، والعالم الصحيح
يؤيده الدين ويشد أزره ، فيكون قويا متينا .

ألا وان الفلاسفة الذين أتمرت أذهانهم أجل الأعمار ، وأفادوا النوع الانساني بحميل علومهم انما كان
ذلك يباعث ديني بعنهم على التفكير والبحث ، وذلك أسرى من أن نسيه لتلك الاذهان وحدها ٥ ثم قال :
من ذا الذي يرى مسافة الدين للعلم ، ألا انما المنافي للدين هو ترك العلم والجهل بما أحاط بنا من الخلوقات ٥
ثم ضرب مثلا ، فقال لو أن الناس أخذت تمدح . وولغا عظيم الشأن ، على الصب ، رفيع المتزلة ، وهم لم يفتقدوا
له كتابا ، ولم يقرءوا له حرفا ، وانما كانوا ينظرون إلى ظواهر شككه ، وتزدبق جلده فما قيمة تلك المدائح ،
وما معنى ذلك الثناء انما هذا هراء ، إذا عرفت هذا فالناس جميعا هم هؤلاء المادحون ، والله منظر الكون

والكون تألفه ، فلمعمرى ما أجهلهم حين يتنون عليه . وهم عن عجائبه معرضون ، وما كفاهم أن صرف
أذهانهم عن المعرفة حتى أخذوا يحقرون من أظهر اهتماما بشأنها وصرف وقته في تحصيلها . ثم قل : لذلك
أكرر القول : ان مخالفة الدين ليست بدراسة العلم الطبيعي ، بل هي في تركه والانصراف عنه .

الأوان التوجه للعلم الطبيعي عبادة صامته وتدريج عملي . ثم قل : ان العلم الطبيعي موافق للدين ومقولته
ومؤيد له من جهات كثيرة ، أولأيرى الانسان عالما منظما محركات ثابتة جارية بقانون لا تتخطاه ، وناموس
لا تتعداه ، وهذا النظام يدل على قوة وراة وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية .

العلم الطبيعي يعرف سبب الكائنات معرفة صحيحة ، و يعرفنا أن النتائج تبع المقدمات والمسببات الأسباب
وأن العقاب والثواب مرتبطان بالأعمال ارتباط المسببات بالأسباب فيوقن الطالب إيقانا تاما بهما ، وان ذلك
ارتقاء في معارج السكال والسعادة العليا .

والعلم الطبيعي يعرفنا أن لنا حداً محدودا لا نتجاوزه في العلم ، فلا تتخطى الى معرفة السبب الأول
وحقيقته ، فالعلم لا يستبد بنا في تعريفنا صانع الكائنات ، ولكنه يهدينا الى الحدود التي لا نتجاوزها ونقف
دونها ، فلا نصل الى كنهه ومعرفة حقيقته .

ان هذا العلم يرفنا عن الوقوف أمام التقاليد الموروثة الخرافية ، ولكننا عند ما نضل الى حدود المحيط
العلمي الذي وراه ذلك السبب الأول ، وهو صانع الكون أقررنا بالتواضع ورجعنا بخفي حين .

ثم قل : وإياك أن تظن أن عالم الطبيعة من يعرف التحليل الكيماري أو يقرأ الهندسة ، وانما نفى به
ذلك العالم الذي يتخذ أسافل الحقائق سلما لأعاليها حتى يبلغ الحقيقة العليا ، ومن ذاسواه يعرف الهوة السحيقة
الخاصة ما بين ذلك الصانع الحكيم الذي جعل الطبيعة ، والحياة والعقل من مظاهر ذاته ، وبين العقل الآدمي
والسكو الانساني . ان الفرق لعظيم اه باختصار .

أقول : أيتها الفطن اللبيب ، اعلم أني عند كتابة هذا الموضوع في هذه الأسطر كنت أشعر بالام في النفس
وأسف واعتزتي دهشة ما كنت أشعر بها واهتاجت أعصابي ، وقلت في نفسي ياليت شعري : أي الفريقين
أحق بالشكوى والأسف ، نحن أم فلاسفة الانحياز كالعلامة سبنسر الذي نحن بصدد الكلام فيه ، يقول
ان أقواما يزدرون المنتهجين بالمعارف الطبيعية ولا يعيئون بها فهم يصدون عن سبيل الهدى وهم لا يهتدون
يقول هذا شاكيا بانسا ، وأئن شكامة لأشكون ألفا كيف لا ؟ وأمتة عالة ، وأمتي جاهلة ، وأمتة حاكمة ،
وأمتي محكومة ، وأمتة قوية ، وأمتي ضعيفة ، وأمتة راقية في التجارة ، والصناعة ، والزراعة ، والامارة ،
والسلاح ، والشراع ، وأمتي على قبض ذلك ، فهو يشكو أمتة طالبا المزيد ، وأنا أشكو لضعفها وضعفها
أنا أحق بالجدد والتشهير لذلك يشكو ، ودينه المسيحي لم يكن مؤسس القواعد على الطبيعة ، وأنا أشكو لأن
دين الاسلام مبناه الفطرة وعماده دلائل المخلوقات الطبيعية ، خالفنا الدين والعلم فكنا أول فرسة للقائنين .
مالي أرى أمة الاسلام نائمة مالي أرى سفيتها تحرى بلا ملاح ، ويجوز في دين المروءة ، وانهج العقل أن
يسقنا الترجمة بذلك ، والعلم علما ، والدين ديننا ، ومن أعجب العجائب بل من أبكى المبكيات أن كثيرا من
الشيان يحقرون الديانات انبعا لسبنسر ، ويقولون أنه ينكر الله أو ليس مما يذيب القلب ويوقع الأسمى في
النفس أن بعض الشيان يجهلون العلوم التي عند الترجمة ويدعون أنهم بها عالون يدعون أنهم قرءوا مذهب
سبنسر ، ومذهب داروين : وهم كاذبون فيما يدعون ، فوالله ما أغراني بقراءة الكتب الانجليزية الا مارأيت
من دعوى هؤلاء الجهال .

يقول سبنسر العلم الصحيح والدين توأمان ، أوليس هو دين الاسلام ، أوليس قوله تعالى فيما نحن بصده

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم » ، ثم شرح الأرض والسماء وجالهما (علم الطبيعة)

أو ليس دين الإسلام هو هذا العلم

بآية الإسلام ألفتنا الحد وصل جهلنا بديننا أني أرفع صوتي أمامكم أيها المسلمون ، وأقول : أبعد تجارب ألفت وثلاثة سنة تكون أجهل الأمم بالدين ويجزى بعلم التوحيد ، وتلك الكلمات الجدلية فيه ، وهي - لا تمن ولا تقي من جوع - ولقد وضعت لغرض خاص ، فكيف تكون للمصوم .

أيها المسلمون : إن الخزي الذي حاق بنا ، والسوء الذي أصابنا إنما منشؤه جهلنا في القرون الأخيرة ، ويقول سبنسر : إن الدين هو السبب في سوق النفوس إلى علم الطبيعة ، فباللهج اني قرأت التوراة والإنجيل فلم أجد فيهما من علوم الطبيعة إلا آثاراً ضئيلة منحرفة ، والقرآن هو الذي يأمر بالطبيعة وفهمها ، فإذا كان الدين الذي لا علم فيه يصح غنياً بالفلسفة والحكمة فما بالك بالقرآن الذي لو علم حق علمه لكان أكثر أتباعه وبنين منهم أكبر للحكام ، أفلا ينبغي أن يكون أكثر العقول الكبيرة من أتباعه ، أو ليس قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود » إلى قوله « إنما ينشئ الله من عباده العلماء » بشير إلى المعنى الذي قاله سبنسر : وأن علم الطبيعة به تكون العقول الكبيرة الناظرة في الماء ، والأشجار ، والثمار ، والجبال ، واختلف الألوان فتشئى الله وأولئك هم العلماء ، أفليس هذا هو دين الإسلام .

وأما لئلا الذي ضربه سبنسر بالثؤلف ومدح الناس له مع جهلهم بما في الكتاب ، فلقد رأيت نظيره في كتب أسلافنا ، كقول بعض القدماء في إخوان الصفاء ما معناه : العلوم التي تفرؤها أربعة : كتاب الله ، وكتاب الطبيعة ، وكتب الحكماء ، وكتب النفس الإنسانية ، ومعرفة مجانبها .

وأما نجبه من أعراض الناس عن العلم ومجانب الطبيعة فذلك كثير في القرآن ، كقوله تعالى « وكان من آية في السموات والأرض يمرتون عليها وهم عنها معرضون » .

وأما قوله إن العلم الطبيعي عبادة صامتة ، فاعلم أن هذا هو الذي عليه مدار الإسلام ، كما في هذه الحكمة « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » وجاء في حديث أن النبي ﷺ قال « لقد أنزلت على الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له » ، ثم قرأ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفتك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء « الآية ، واعلم أن هذه الآية كانت السبب في محبتي بحث الطبيعة ، وإلى وجهتي وجهي تلقاها في أوائل أيام تعليمي ، ولولم أطلع عليها ما توجهت هذا التوجه منذ أيام الشباب .

وأما قوله : العلم الطبيعي مقول للدين والدين مقوله ، فاعلم أن الامام الغزالي يقول الدين دواء والعلم غذاء ، وليس الدواء بمن عن الغذاء ولا الغذاء بمن عن الدواء .

وأما قوله إن علم الطبيعة يرفنا بلا استبداد أن لنا حدا لا نتجاوزه ، فلا نصل إلى معرفة صانع العالم وحقيقته فهو الذي ورد في الحديث « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فلن تفكروا في ذات الله اشراك » وورد أيضاً أنه ﷺ قال « إن الشيطان يقول لأحدكم من خلقك ؟ فيقول الله ، فيقول ومن خلق الله ، فإذا قال ذلك فليقل أحدكم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لا يعرف الله إلا الله » .

حكاية

سألتني تلميذ وأنا مدرس بالمدرسة الخديوية ، فقال وفي يده كتاب انجيزي إن سبنسر ينكر الله ، فقلت أسمعني قوله ، فقال يقول : إن الله إما أن يكون خلق نفسه ولما أن لا يخلقه أحد ، فإن كان الأول فهو

مستحيل لأن الشيء يكون متقدماً على نفسه وهو باطل ، وأما الثاني فباطل أيضاً لأنه لا موجود بلا موجود ، فقلت أو تظن أن هذا كفر ؟ قال نعم ، قلت كلا .

واعلم يا بني أن هذا شذرة من أقوال علمائنا ، بل قطرة من بحر وفرة من جبل ، فقد حققوا هذا المقام وأفرغوا فيه جهدهم ، فلقد برعوا في المباحث العقلية كما برع الفرجة في الصناعات الحربية الآن ، ألا ترى ما قرره أن المعلومات التي تصل لنا لا تكون إلا من طرق أربع : طريق الحواس كالسمع والبصر ، وطريق ما ندركه من أبداننا بالوجدان ، كالألم واللذة ، والجوع والعطش ، والفرح والحزن ، والغيظ والحقد والابتهاج ، وطريق العقل كالعلم ، بأنه إذا زيد على شيئين متساويين شيئان غير متساويين فليجمعوا يكونان غير متساويين ، وكذلك إذا نقص من المتساويين شيئان غير متساويين ، فالباقين يكونان غير متساويين ، والطريق الرابع ما ندركه مستتجاً بطريق المنطق من هذه الثلاثة ، فهذه الطرق الأربعة هي التي لا علم للبشر بالتحقيق إلا منها ، وهنا يقال كيف عرف الناس الله ، أذاته تعالى عرفوا ، أم وجوده ، أم سائر صفاته ؟ وبالتحقيق أنه لم يعرف الناس إلا أنه موجود أولاً ، وأنه دائم الوجود ثانياً ، وأنه منزّه عن المادة وجميع الحوادث ، وهي السمة صفات الجلال ثالثاً ، وأنه متصف بصفات الاكرام ، وهي صفات المعاني كالقدرة والإرادة والعلم الخ هذه هي الصفات التي عرفها الانسان بالطرق المتقدمة ، أما معرفتهم ذاته فذلك أمر غائب عن العقول لا يتبأ لها الوصول إليه ، وليس ذلك بداخل في الطرق المتقدمة الأربعة للمعرفة فلا هي بطريق حواسنا ولا وجداننا ولا البديهيات ولا ما يستنتج منها ، وهذه هي الطرق التي بها سائر العلوم والكشف والاختراع ، فأما ذات الله فلا تعرف بواحد منها .

وقلوا أيضاً ان المعرفة على قسمين : معرفة ذاتية ، ومعرفة عرضية ، فإذا رأينا تماثلاً هندسياً منظماً متقناً جميل المنظر حسن الشكل بهيئة الطلعة حصلت لنا هنا معرفتان : معرفة ذاتية ومعرفة عرضية ، أما المعرفة الذاتية فانا نقول هذا اللون ، وهذا المقدار ، وهذا الشكل التي نظرناها بأنفسنا ، وهذه العمومة ، وهذه الخشونة ، وهذا الثقل ، وهذه الخفة التي لمسناها بأيدينا كلها حقائق ذاتية فانه لا حقيقة للون ولا للمقدار ، ولا للشكل ، ولا للعمومة ، ولا للثقل ، ولا للخفة ، إلا هذا الذي أدركناه ، وأما المعرفة العرضية فانا نقول هذا الشكل الجليل لا بد أن يكون له فاعل وعلمه وقدرته على مقدار ما برز لنا في صفاته المشاهدة فهذه معرفة عرضية فاما لا ندري ذات ذلك الصانع ولا طول ولا عرضه ولا أوصافه الظاهرية والباطنية ولا طابعه ، وإنما نعرف منه على مقدار ما وصل إلينا من ذلك التمثال فمعرفة الله لنا من القليل العرضي ، وليس من القليل (هذه أقوال علمائنا رحمهم الله في انبأهم الجيز عن ادراك ذات الله تعالى) وهكذا ورد عن رسول الله ﷺ قال وكيف ذلك ؟ قلت لأن النبي ﷺ يقول اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أفتيت على خلقك . ومعنى هذا لا يعرف قدرك إلا أنت ، فكيف يمكنني أن أعرف صفاتك ، بل أنت الذي تعرفها ، فيكون منك الثناء وإليك يعود : وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه « الجيز عن الادراك إدراك » وأما قول سبنسر العالم الطبيعي ليس من يعرف التحليل والمنهضة الخ ، وإنما هو من يرتقي في الأسباب قصده بذلك العلم الأعلى في فنّ الخلفة التي حرمت منه الأمة الاسلامية فراغ الطلاب ونهاها في بيدها الجهالة لأنهم قرءوا قسوراً من العلوم الجزئية وجهلوا العلم الكلي أو العلم الأعلى الذي يبحث في سائر العلوم وهي تستمد منه . وقال الصديقي من علمائنا ان قراءة العلوم الجزئية تورث الضلال ، فأما قراءة العلوم الكلية فانها تعرف الانسان ربه ، وقالوا أيضاً في قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ان مرتبة

الملائكة في العلم بعد الله ، ويليهم أولو العلم الذين يعرفون نظام هذا العالم المتقن لمعرفة حقيقة هذه الصنعة وتركيبها وانها مسيرة بنظام متقن .

واعلم أن العلم المنتشر في مدارسنا المصرية معتبر مثل لايسدى الطالب ولايتبر المسالك بخلاؤه من العلم الأعلى ، فتأمل وتجب من أمة الاسلام النائمة . وقد آن أن تقوم من نومتها وتسدقظ من غفلتها ، وأما قول سنبر : ان الثواب والعقاب نتائج للأعمال ونظام الطبيعة يعرفنا ذلك ، فقد شرحه أكارعلسانا كالغزالي ، فما قال في ذلك مامعناه : إياك أن تقول ان الله يفرلني ، وانما الثواب والعقاب نتائج لايتد من حصولها اه ، ولكن المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها نائمون ، اللهم اهد أمتنا وأيقظها من غفلتها انك أنت السميع العليم .

وإما أطلت في هذا المقام لعل أن أكثر الشبان المتعلمين في ديار الاسلام لم يقوا مع العائمة مقلدين ولاهم من الحكماء المحققين ، وانما هم في وسط الطريق ، فلا إلى العلو وصلوا ، ولا إلى أسفل نزلوا فإنا أحرام أن يعكفوا على العلوم حتى تطمئن نفوسهم وترتقي مدنهم وينم نظامهم وتكون أمتهم من الأمم العظيمة القوية المثينة بهذا أمرنا الله بقوله « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم » إلى آخر الآية . ولما فرغ سبحانه من وصف الأرض والسموات والمجانب التي ذكرها والحكم التي صورها أخذ يذم الأصنام وينهى عن عبادتها .

تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام

أريد في هذا المقام أن أشرح بقول وجيز مسألة الأصنام وعبادتها كما شرحت في أواخر سورة الفاتحة البلاغة ومقارنة القرآن بكلام العرب وكما سترى في تفسير قوله « وأتوا به منشاها » مسألة الجنة والدار ومراتب السعداء ومسألة ترتيب النجوم في عصرنا عند قوله « سبع سموات » ومسألة نفس الانسان وجسمه عند قوله « خليفة » والكلام على الملائكة ، وهل هم ينبتون بالعقل أم يكتفى فيهم بالنقل بمناسبة قوله « واذا قال ربك للملائكة » حتى اذا طال الأجل ووصلنا في التفسير إلى آيات أخرى في هذه المعاني أشرنا إلى الرجوع إلى ما ذكر هنا ليقال التكرار وليقف القارى على عجائب العلم وعجائب الحكمة في غضون التفسير والله يهدي من يشاء إلى الصراط السوى ، فلندسرع في موضوع الأوثان فقول : لألخص لك ما عثرت عليه في هذا المقام قديما وحديثا حتى لايشد عنك شيء منها وتطلع على آراء الأمم والأجيال العابرة والحاضرة . اعلم أن عبادة الأوثان قديمة العهد بعيدة المدى درجت عليها الأمم البائدة واتبعتها الحاضرة ، وأنت لو سرت في بلاد الصين واليابان والهند لرأيت الأوثان مائة أمانك . عبودة ، والناس حولها ملتفون عابدون خاشعون حامدون راكعون ساجدون ، وأنت ترى أن أهل الصين قوم فيهم العلماء والحكماء قديما وحديثا وهكذا الهند ، واذا أبيت إلا المدينة الحديثة والنوع في فنون القتال والحرب وجندلة الأبطال وغلبة الأمم والنفاق في الحرب ، فهالك أمة اليابان عابدة الأصنام كثيرة التماثيل ، تلك الأمة التي تعبد إلهاله جوادان عليهما يركب ذلك الإله جامعان دائما بادارة المعبد بجوار تماثله ، وهذان الجوادان من أسعده الحفظ وقدم إليهما قرضه من شعير يوم خروجهما في الأوقات المعلومة ، وقد نال حظا عظيما لأنه قبلت هديته جواد الإله ، هذا مثل من أمثال عبادة الأوثان ببلاد اليابان اليوم . وهنا يقال هل يعقل أن أمرا تأباه القنطرة وينقضه المتل وهو يدبهي البطلان يبقى مع طول الزمان وفناء الأجيال ويعمر في الأرض ويبقى هكذا إلى يوم العرض : هل يعقل أن يكون هذا الانسان قد بلغ من البلاهة حدا : بحيث لايعرف أن هذا الحجر الذي نحت أمانى من الجبل لم يخلق السموات والأرض وما بينهما ولم يخلق أنفسنا ونحن الذين أوجدناه وهندسناه وأبرزناه .

ان العقل يأبى أن يصدق أن هذه الأمم العظيمة الكبيرة الحكيم علماءها تبقى مخدوعة هكذا : آلافا
 وآلافا من السنين ، إذن لابد أن يكون هناك أصول رجعت اليها وعوامل عوّلت عليها وأحوال فقحتها
 حتى بقيت تلك الديانات فيها ، وهل يدوم مالا أصل له ؟ وهل الخداع له ثبات ؟ ، فلا ذكر ما تدرت عليه
 للجواب على هذا ، فأقول : يقول الامام الرازي : انه لم يكن في الأرض أمة تقول ان لله شريكا يساويه في الوجود
 والقدرة والعلم والحكمة ، وهذا مما لم يوجد إلى الآن ، ولكن الثبوتية يثبتون إلهين : أحدهما حلیم يفعل
 الخير ، والآخر سفيه يفعل الشر ، وأما اتخاذ معبود سوى الله ففي الفاضلين إلى ذلك كثرة اه ، وها أنا ذا
 أخلصها لك ، فأقول :

أولا : من الأمم من مات عندها العظيم الجليل القدر الكبير المنزلة ، وقد اعتقدوا فيه أنه محجّب الدعوة
 فعبدهوا ليشفع لهم عند الله وعكفوا على قبره ، ثم اتخذوا له تماثلا ، ثم مضت الأجيال تلو الأجيال ، فصار
 معبودا ، وطال عليهم الأمد فقتت قلوبهم فهم دائبون على عبادته ، فانظر كيف كان أصله أنه آدمي محجّب
 للدعوة ، ثم انتهى الأمر بأن نسوا الأصل فهم ضالون .

ثانيا : ان الصابئين كانوا يرون أن الله عز وجل خلق ملائكة مجردة عن المادة ، وهي المنصرفة
 في العالم ، وهذه الملائكة هي المسيرة للكواكب ، والكواكب مؤثرة في الأرض وأهلها ، وقالوا ان الشمس
 والقمر والكواكب ترسل أشعتها إلى الأرض وأهلها ، وبها الحياة ، ولولا ضوء الشمس ما عاش حيوان ولا
 نبات على الأرض والكواكب الأخرى تساعد في ذلك ، وزعموا أن السعد والنحو للأشخاص تابعان
 لتلك الكواكب ، كما أن حياة الحيوان والنبات تابعة لضوء الشمس وأشراقها على الأرض ، وهذه الأجرام الثلاثة
 المشرقة بحركتها ويتصرف فيها الملائكة فعبدهم ليكونوا شفعا عند الله ، ولما طال الأمد عبدها نفس
 الكوكب الذي هو كبحم والملك روحه ، ثم لما طال عليهم الأمد وقتت قلوبهم صوروا للكواكب صوراً
 على حسب ما تخيلوه لها من السموات والأوصاف ، وهي الأصنام ، فعبدها لتكون واسطة بسبب المناسبة بينها
 وبين الكواكب ، والكواكب واسطة للملك ، والملك واسطة لله ، ثم لما طال الأمد نسوا الكواكب وعبدها
 من صنم وطم أجرة خاصة واستحمامات ودعوات وملايس ، حتى أن حفلات (الزار) المعروفة في مصر
 إنما هي صورة محورة من صوردين : الصابئين ، وهذه الطائفة تقول ان الشر لن يكونوا واسطة بين الله
 وحلقه ، ويشكرون الأنبياء ويقولون لا واسطة إلا الملائكة ، ويقولون انهم أفضل من البشر لنجردهم عن
 المادة ، وهناك محاوره بين هؤلاء ، وأنواع الأنبياء المذكورة في كتاب الملل والنحل لشهرستاني ، وختم القول
 فيها بفضل الأنبياء على الملائكة ، لأنهم جمعوا بين القوة الروحية والقوة الجسمية ، ومن جمع بين فضيلتين
 أفضل ممن له واحدة ، ولقد كان لقديما المصريين من الأوثان والأصنام ما يضرب به المثل بين الأمم ، ولقد
 كانوا يقولون ان الله هو الواحد الحق ، ورتبوا العالم بعده مراتب ، فالمدة لها عدد ٣ وزحل ٣ والمشتري
 ٤ والمريخ له عدد ٥ والشمس لها عدد ٦ والزهرة لها عدد ٧ وعطارد له ٨ والقمر له ٩ ، وقد كانوا
 يجعلون لها مربعات يكتبونها في صفائح من ذهب في أوقات خاصة لمنافع زعموا أنهم يبالونها ، وتلك المربعات
 ناشئة من ضرب العدد في نفسه ، فثلاثة واحد مربعه ١ ، والمادة ٢ مربعها ٤ ، وزحل مربعه ٩ ،
 والمشتري ١٦ ، وهكذا إلى القمر ٨١ ، وكل هذه لها حساب بدع مربعات يكون طول أضلاعها الألفية
 والرأسية والقطرية متساوية ، وهذه لعمر كعبادة يتقربون بها إلى الكواكب ، وان أردت الاطلاع على
 ذلك الحساب الدقيق فعليك بكتاب خواص الأعداد للرحوم علي مبارك باشا ، وهذا العلم نقله فيناغورث
 وأدهشه عجائب خواص الأعداد ، فقال ان العدد أصل العالم .

ثالثا : دين التثليث . كان القدماء من الفلاسفة اليونانيين الذين نقل عنهم علماء الاسكندرية بعد المسيح والصل بأسلافنا العرب يقولون : ان الله خلق العقل الأول ، لأنه لا يليق بالجرّد عن المخلدة أن يخلق إلا ما هو أقرب اليه ، وبواسطة العقل الأول خلق الله النفس ، والنفس بها تحركت الكواكب ونظمت الطبيعة وكانت قوسا أشعة من تلك النفس ، ولتلك تراهم دائما يقولون : الله العقل النفس .

قال العلامة [دوان] كان القيسون في هيكل ممفيس يقولون للتلاميذ أن الله الأول خلق الثاني ، والثاني مع الأول خلقا الثالث ، وكانون يسمون الثاني [الكلمة] المعبّر عنها بالعقل عند الفلاسفة ، ولما سأل الملك تولى ملك مصر الكاهن تيشوكي أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ أو يكون بعده أحد أعظم منه قال له الله ، ثم الكلمة ومعها روح القدس ، وطولاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بلذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية ، فذهب يافاني بإصاحب الحياة القصيرة ، والآلهة الثلاثة الهندية هم برهمه ، وفشنو وسيفا ، ويقولون لما أراد برهمه [خالق الوجود الذي لا شكل له ولا تؤثر فيه الصفات] أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل وصار [برهما الخالق] ، ثم زاد في العمل فأقلب إلى الصفة الثانية ، فكان فشنو [الحافظ] ثم أقلب إلى الصفة الثالثة فسار سيفا : أى المهلك ، ويسمونها [ترى مورتي] الأقانيم الثلاثة ويشبهونها بالثر ، وفشنو هو الابن ، وسيفا المهلك ، والمعيد وهو روح القدس ، وقد اطلعت في بعض الكتب على صورة هذا التثليث منقولا من كتاب العلامة موريس في آثار الهند القديمة ، وقال لقد وجدنا بأقاص هيكل قديم دكته مرور القرون صفا له ثلاثة رموس على جسد واحد ، وللقصود منه التعبير عن الثلوث ، وهكذا نجد عند البوذيين ثلوثا ، فانهم يقولون بوذا مثلث الأقانيم ، والصينيون يسمون بوذا ويقولون مثلث الأقانيم ، ويرمزون للثلاثة بهذه الحروف الثلاثة [أوم] فالهزمة أولها والميم آخرها من أقصى الخلق إلى البشقين ، فهؤلاء هم الأول والآخ والثاهر والباطن ، وهكذا تمبر الهند بنفس هذه الحروف عن برهما ، وسيفا ، وفشنو ، وقد جاء في الكتب الصينية الدينية أن أصل كل شيء واحد ، وهذا الواحد الذي هو أصل الوجود اضط إلى إيجاد ثان ، والأول والثاني انبثق منهما ثالث ، ومن هذه الثلاثة صدر كل شيء ، وهذا القول بالتوليد والانبثاق أدهش العلامة موريس ، لأن قائله ونفى ، وقد تنزل الهنود بتثليثهم إلى درجة منجحة مخزبة ، فقد رأيت لهم صورة هيكل مقدس كشف حديثا مثلث يمثل برهما وهو بحالة المذكورة والأثونة معا وعلامة التأنيث وبعبارة أوضح عضو التأنيث مع التناسل يفيد قوة الإيجاد ، وأنه خالق الأشياء فانظر كيف تنزلت الثلاثة عند بعضهم من رفيع مقام العقل والنفس إلى ما تبشره الأضام ، ويقولون ان هذا الثلوث المقدس حاضر في كل مكان بالروح والقدرة .

وقد وجدنا التثليث أيضا عند الفرس القدماء . قال العلامة هيجن : كان الفرس يدعون متروسا [الكلمة] والوسيط والملتص ، وكان القدماء من اليونان يقولون ان الله مثلث الأقانيم ، وهذا التعليم التالوثي أصله من مصر وقال مؤلف كتاب [الخرافات وعقروها] كان الرومان يعتقدون التثليث قبل المسيح .

وقال العلامة [نيت] هكذا وجد سكان الجزائر في الأوقيانوس والمسكيكيون الذين ظلمهم الاسبان فحرقوا كتبهم كان لهم دين يثبت ثلاثة آلهة : الأب والابن والروح القدس والابن اسمه [با كلب] مولود من عندها ومنهم المعبود يمثل ذلك ، وأهالي التيبال يسمون إلهاسمه [اندرا] وهو كان مصلوبا كما صاب المسيح وسفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير كي يخلص البشر من ذنوبهم ، وصورة الصلب في كتبهم [أقول] وقد رأيت صورتها في بعض الكتب المتقولة ، ويقول المصريون أوسبريس مخلص الناس وبإخلاسه يقتل ، ويسمى الولد والفادى والولد الوحيد ، وكان قدماء اليونان يقولون ان الله مثلث الأقانيم ، وكان القيسون

برشون للذبح بلقاء المقدس ثلاث مررات ويأخذون البخور من البخيرة بثلاث أصابع ، وكان الفرس يبدون لها مثل الأنانيم مثل الجنود ، وهم أورموزد ، ومترات ، واهرمان . فأورموزد الخلاق ، ومترات ابن الله المخلص والوسيط ، واهرمان المهلك ، وسكان سيبيريا القدماء كانوا يبدون ثلاثة آلهة ، فالأول خالق كل شيء والثاني إله الجنود ، والثالث روح المحبة السماوية .

وكل هذه البيانات قائمة بأوثان وأصنام وأنت ترى أن هذه الوثنية قبيحة : قسم يرجع لعبادة الملائكة فالكواكب فالأصنام ، وقسم يرجع الى عبادة ثلاثة اتخذت فصاروا واحدا ، وطا قوة الخلق والحفظ والاهلاك والاعادة ، وهذا هو القسم الذي تنوع حتى ملأ الكرة الأرضية فتراه في الصين والهند وأوروبا بصور مختلفة وأحوال متباينة ، وكل يقول إني أعبد الخالق ، فتبين أن سائر الناس جعلوا الأوثان والأصنام من الوسائط لعبادة الله تعالى ، وهذا معنى قوله تعالى على لسان الكفار « ما نعبدكم إلا ليقربونا الى الله زلفى » ، ولكن جاء في القرآن ما يفيد يا أيها الناس انكم تعبدون أنفسكم وتكونون عبيد الأصنام أرقاء الأدهام ، فكونوا أسرا والارض لله ، والله معكم أينما كنتم ، فلا تقيدوا بغيره ولا سجدوا له ولا تأخذوا به الا قبلة التي جعل لكم الله ربكم لا تأخذوا بالثالثة ، لا تأخذوا بالثالثة الا بقرينة من بينهن ما يخبرنكم به باذن الله تعالى سريعا ، فاعبدوا الله ما عبادتم الأصنام انكم تعدون انهم آلهة معكم انما كنتم تأخذوا بهم اوليا قبل ان ينزل الكتاب من ربكم فاعبدوا الله وحده لا شريك له ، هو الغني بذاته ، لا يملك منكم شيئا ان كان الله يريد الهدى ولا الهة الا الله وحده لا اله الا هو العليم الغني .

الأصنام عند العرب الذين نزل بلغتهم القرآن

يقال ان عمرو بن لحي لما ساد قومه ورأسهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقاء ، فرأى قوما يعبدون الأصنام ، فسألم عنها ، فقالوا هذه أرباب نستنصر بها فتصرتنا ونستسقى بها فنسقى ، فأنس اليهم أن يكرموه بواحد منها ، فأعطوه الصنم المعروف (جبل) فسار به الى مكة ووضع في الكعبة ودعا الناس الى تعظيمه ، وذلك في أول ملك سابور ذي الأكتاف ، ومن بيوت الأصنام المشهورة بمعدان الذي بناه الضحاك على لحم الزهرة بمدينة صنعاء وخو به عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومنها نوبهار بلغ الذي بناه منو شهر الملك على اسم القمر ، وكان قبائل العرب أوثان معروفة : مثل ود بدومة الجندل لكعب ، وسواع لبي هذيل ويثوث لبي مذحج ، ويحوق لمعدان ، ونسر بأرض حيرلثي الكلاب ، واللوات بالطائف لقيف ، ومناة يسرب للخزرج ، والعزى لكنانة بنو أسى مكة ، واساف ونائلة على الصفا والمروة ، وكان قصي جد رسول الله ﷺ ينههم عن عبادتها ويدعوهم الى عبادة الله تعالى ، وكذلك زيد بن عمرو بن قبيل ، وهو الذي يقول :

أربا واحدا أم ألف رب • أدين اذا قصمت الأمور

ترك اللوات والعزى جميعا • كذلك يفعل الرجل الخبير

والله فوق الجميع المحيط بالعالمين علما يخاطب الناس بقوله (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) -

ولما لم يكن عند المعاندين من العقل والمعرفة ما به يعرفون نظام هذا العالم ، ويدركون أن الأصنام لا تستحق العبادة أخذ بصف لم ما جاء به على لسان الرسول من البلاغة ، ويتعدى بما يجزم ، كأنه يقول : اذا عجزتم عن إدراك ما أبدعته في الأرض والسماء ، ولم تبلغ عقولكم كنهه ، وغلبت عليكم الجهالة

ولم تهموا الامادار في أُنديتكم : من أساڤيث البلاغة ، وآيات الفصاحة ؟ فاسمعوا لهذا القرآن والا فاتوا بآيته ، فلما عجزوا أوعدهم بالنار ، ووعد المتقين بالجنة ، وأخذ يصف نعيمها ، وحوورها ، وجمالها ، وبهامها وتعلمها من بعد ما قدم وصف العالم الديني إيعاء الى أن علم الحكمة يدعو الى النجاة ، ولا يرقى الى عليين إلا من نظر في خلق العالمين :

قال (فاقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) فتحرق الأصنام معهم في جهنم نكابة بهم ، وإذلالا لنفوسهم ، وتخبيبا لآمالهم ، فقد كانوا يظنون أنها تشفع لهم ، غلب فألم وضلّ صميم ، وهذه هي الحسرات (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) أي ان الثمر الذي في الجنة يشابه الذي كان في الدنيا لأن النفوس تواقفة الى ما كانت تألفه ، وذلك أقرب الى نظم القرآن ونسقه ، والى علم الحكمة ، وفي هذه الآية مفتاح لعلوم الآخرة ، وأنها نتائج الدنيا والنتائج تتبع المقدمات ، فاذا كانت الثمرات التي يتناولها أهل الجنة أشبه بما كانوا يتعاملون في الدنيا ليأنسوا به ، وليستدلوا بتناوله ، وليكون لهم نعيما وبهجة ، فذلك نموذج لما في الآخرة والأولى من التناسب والتوافق والشابه ، ويانه أنا نرى أن درجات الانسان في حياته متناسبة متشابهة فقدر السبا يقبه الشبب ، فالفتوة ، فالكهولة . فأن يكون شيخا فخرما ، وهو في ذلك كله يحفظ صورته الأصلية وان اختلف أحوالها : من مرض وحمية وهزال وامتلاء وشباب وشيب ، ونزى المعلمين لا يدرسون في الثانوى : الا ما يناسب ما سمعوه في الابتدائى ، والدراسة العليا تتبع الثانوية . ونزى علماء فرق الترية يحرصون الحرص كله أن تضرب الأمثال للسبى في أول حياته في المدرسة بما يأنس به من هرة يداعبها ، وشاة يلعب بها ، وكرة يضربها وما أشبه ذلك . ويقول علماء الحكمة : ان أحوال النفس بعد الموت لا تعدو هذا التهج ولا تعدل عنه بوجه . فلهال ، والنسقة ، وأهل الضغائن ، والمناقون ، والكالى وأهل الشره والحرص تكون أرواحهم بعد فراق الجسد في جوت من نار تلك الأخلاق والأعمال والجهالات . وأهل الاحسان والفضل وألو الألباب والعلم وذو الاخلاص والصدق والاحسان للناس في حال أشبه بما كانوا عليه في الدنيا ، وجوت من الصفاء والنضارة والجمال نتيجة لما كانوا يعملون ، ولم يكن الله يعذب الكافر والناسق تشفيا ، واتقانا كما ينتقم أهل الأرض ، ويشفوا غيظهم الكامن في نفوسهم من أعدائهم ؟ « تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » وانما جاء ذلك في القرآن ليفهم بألفاظ يعرفها الناس على قدر طاقهم ، وانما ذلك العذاب جزاء من جنس العمل ، كما في قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وقوله تعالى « إنما تجزون ما كنتم تعملون » وقوله « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، وكقوله في أهل النعيم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وذلك بعد قوله « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » فكانتهم لما أنسوا بربهم وأحسوا بروح ولثة بالعبادة ، وذلك أمر لا يطلع عليه الا صاحبه : كان جزاؤهم نتيجة ملازمة لعملهم ملازمة الظل للشمس والهواء لسكان الأرض ، فقال « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » وترى في الدنيا أن أهل العلم يأنس بعضهم ببعض ويفرحون بالملاقة والمحادثة والمشاكسة ، ونزى قطاع الطرق والمجرمين يساقون الى السجون ، ويساقون على ذنوبهم في الدنيا كما تكون حالم في الآخرة : إذ قال تعالى « فككبكوا فيها هم والفاوون وجنود إبليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين » .

ولذلك جاء في علم الأخلاق أنه يبنى للانسان أن لا يجالس أربع فرق من الناس : الصبين والنساء

والجهال وذوى الأخلاق الفاسدة . اللهم إلا لتعليم أو تأديب أو حكم عليهم أو انعام أو ما أشبه ذلك وورد في الحديث « أنت مع من أحببت » وفيه « إنما هي أعمالكم تفرض عليكم » وجاء في الآية « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

قال الامام الغزالي في الاحياء ، وكما أنك في الدنيا تجرد من يؤثر لذة الرياسة على المطموم والمنكوح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض ، وسائر الأمور الالهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطموم والمشروب جميعا ، فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى المطموم والمنكوح وهؤلاء بينهم هم الذين حالم في الدنيا ما وصفنا من إثارة لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطموم والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به ، ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين في الجنة ؟ فقالت الجارم الدر ، فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة ، بل إلى رب الجنة ، وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة للمعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصعبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد الا لمزرع ، ولا يحضر المرء الا على ملمات عليه ، ولا يموت الا على ما عاش عليه : فما صعبه من المعرفة هو الذى يتم به بينه فقط الا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتضاعف اللذة به كما تضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المشوق رؤية صورته ، فان ذلك منتهى لذته ، وانما طيبة الجنة أن لكل واحد فيها ما يشتهى ، فمن لا يشتهى الا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره ، بل ربما يتأذى به ؟ فاذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته . فأصل السعادات : هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالايمان اه .

وبالجملة : فما من حركة نفسية أو عمل أو خلق أو رأى الا لها آثار في نفوسنا ، ويقول الحكماء : العلم والأخلاق الفاضلة : تكون سعادة وروحا وريحانا ، والجهل وسوء الخلق رأس الشقاء في الدنيا والآخرة ، ولهذا الرمن يقول تعالى هنا (وأتوا به منشاها ولم فيها أزواج مطهرة) من دنس الأخلاق ورداءة الطباع وما ابتلى به نساء الدنيا من الخيض والنفاس والمرض مشاكلة لما كانوا يستلذون به في الدنيا ، وان كان الفرق شاسعا بين الدارين أبعد مما بين السراج والشمس والنيرة والنيل .

ضرب الأمثال

واعلم أن فيما سبق من هذه السورة أمثالا منها ما هو ظاهر ، ومنها ما يحتاج الى تأمل ، فأما ما هو ظاهر قوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) وقوله (أو كصيب من السماء) ، ومن هذا القبيل قوله تعالى « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا » وقوله « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبلا ولو اجتمعوا له وان يسألهم الذباب شيئا لا يستنقلوه منه » ، وهذه كلها أمثال مضمومة لأحوال الكفار ، وأما ما يحتاج الى تأمل فأوصاف الآخرة وأحوالها ، فان قوله (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فيه للمشابهة والمماثلة ، وأن عالم الآخرة يمثل له بعالم الدنيا ، ألا ترى الى قوله تعالى « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لينة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » فهناك صرح بأنها أمثال ، وأن هذه التى في الدنيا مضمومة مثلا لأحوال الآخرة ، ولقد تعالى المعنى في آية أخرى الى ما فوق هذا فى قوله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » وجاء فى الحديث [ان فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر] وفى الحديث [أريت الجنة فإذا أكثر أهلها

الله ، وعليون لأولى الألباب] وفسره علماؤنا بأن المفكرين في خلق السموات والأرض وذوى النفوس العالية هم الذين يزهدون في الجنة الحسية ، ويرغبون في جوار رحيم مع الأرواح الطاهرة الخالصة من المادة المبرأة من عيبها العارفة بقصها ، فأما أولئك الذين لا يبعدون الله إلا لأجل الشهوات بعد الموت ، فإن نفوسهم تحن هناك إلى اللذات الحسية ، ومعلوم أن المرء يحشر على ما مات عليه من خلق ورأى وعقيدة ، وأن العبادة الظاهرة الخالية من معرفة جلال الله وعظمته ، والتفكير في هذا العالم ، وأن المادة سجن للذين فيها لا ينال المرء بها إلا الجنة المحسوسة التي يرغب في أعلى منها الأنبياء والحكماء وأصحاب النفوس الشريفة ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « ولدينا مزيد » ويقول « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وقوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » فالزيادة : هي النظر لوجه الله الكريم ، وقدمنا لهذا القصر المشيد لك ، وقد حضر فيه أقوام فدور النفوس العالية والمقامات الشريفة لا يفرحون إلا بمجالسته ، فأما الصالحين فلا يهتمون إلا بما يسد جوعهم ويفرج كربهم لاختلاف الناس في معارفهم ، وفي الأمثال المضروبة : اعلم أن الناس مختلفو الأخلاق والمشارب والمعادن والأحوال « ولكل وجهة هو موليها » ، ولولا اختلاف المشارب والاهواء ما انتظم هذا العالم فما يحبه زيد يكرهه عمرو وما يليق لأحدهما لا يناسب الآخر ، ولهذا الاختلاف كان النظام عجيبا ، ولولا زهد زيد في التجارة والصناعة ونحوها ما كان قبورا عالة على الناس ، الناس مختلفون في أكثر الأشياء ، وعلى ذلك نرى أناسا نبغوا في اختراع ، أو علم ، أو تجارة ، أو عمل عام ، وقد كانوا قبل ذلك يستهزئ بهم أقرانهم ويسخر منهم أصحابهم ، ولم يكن نبي ، ولا عالم ، ولا صالح إلا كان في مبدأ أمره محل مسخرة واستقار وزدراء ذلك أن الناس قلما يفقهون ما يفقه هؤلاء فينالهم مقت واحتقار ، ومن هذا القبيل الأنبياء [ومنهم خاتمهم سيدنا محمد ﷺ] فكان عرضة للاستهزاء من الجاحدين والكافرين ، فلما سمعوا ضرب الأمثال بالنار وبالبلاء ، وبالذباب ، والعنكبوت عدوها فرصة للمسخرة وقلوا هل يضرب الله الأمثال بهذه المحقرات ، وهو العظيم العلى الكبير هذا لا يعقل ، ولو أن الاستهزاء نوالى على فاضل ولم يكن له عزيمة لا تخلت عزيمته واختلت أعماله ، ولذلك نجد النابئين قليلا ، لأن الساقطين في ميادين العمل المبتدلين في ساحات المناظرة والمباراة كثير وليس ينجمونهم الا القليل ومنهم الأنبياء فأخذ نبينا ﷺ يثار على الرد عليهم وبذم وقهرهم بالوحى ، ومنه ما جاء هنا إذ قال (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما يحب) أى أى مثل كان وإذا كنتم تستصغرون التمثيل بالذباب والعنكبوت فالله لا يستحي أن يضرب مثلا بالبعوضة التي هي أقل من الذبابة ، بل بما هو أقل منها مقدارا وأعلى في تمثيل المحقرة عند إرادة تحقير الأشياء ، فالنبوة ورد فيها التمثيل بجناح البعوضة عند ذم الدنيا وأتم أيها الناس قسبان : قسم يرى الأشياء بمنظار مظلم وعين عوراء ، وقد غشى على سمعه وبصره ف يرى الخبير شرًا والشر خيرًا ، ولما رأيت الرسول يملككم وقد دخل الحسد في قلوبكم وأكل الفلأ أفئدتكم أيتم واستكبرتم وأخذتم نصيبون الكتاب وتسخرون من القول ، والقسم الآخر متواضع لا يتعالى عن الحق فيقبله ويسعى للنجاة من الجهل ، والاثم ، والعار ، والهلاك في الدنيا والآخرة ، وإذا سمع الأمثال انتظ بها فهو من الفلحين .

أقول : ولأضرب لك مثلا تبيين منه اختلاف مشارب الناس في الفهم ، فاعلم أن ما يراه الانسان في كل يوم من الأحوال الانسانية وغيرها فيه علم جمة لمن تفكر وتدبر .

تفكر في حال امرأة جميلة قرى للناس في شأنها طرفا شتى ولأذكر لك شيئا من هذه الطرائق فأنتها تنظر إليها نظر الاشفاق والعتف والود والحنان والرأفة والحزن لحزنها والفرح لفرحها ، وأبوها ينظر إليها نظر المساعدة الأبوية ، والأخ أقل منه ، وابنها نظره إليها من قبيل الالتجاء والاستعانة ، وأنها حصنه وماواه

ومرجعه ، وزوجها ينظر إليها نظرة أخرى بامتزاج المصالح والمشاركة والمعاونة ، وغايتها القديم ينظر إليها نظرة الحسرة والحرمان والغيرة والندامة وما أشبه ذلك ، فهذا مثل ضربته مما يراه الناس ، فهكذا كل حكمة وعلم ومحسن ومعتول يدركها الناس على درجات شتى لا حصر لها ، وهذا سر الوجود ، فالأمثال التي جاء بها الأنبياء وورد بها القرآن يتورها ما يعتري الموجودات من اختلاف النظر ، فينظر الجاهل استهزاء ، وينظر العاقل اعتبارا ، وقد ورد من الأمثال نحو ذلك من كلام العرب مثل : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشه ، وأعز من مخ العوض ، وإذا اختلفت الأنظار في كلام الله كعبه لاجرم يعقل به قوم ويهتدى به آخرون ، كأن من النبات ما يقتل ، ومنه ما ينبت ، ومنه ما ينفذ ، وهو من فعل الله ، والقرآن من كلامه فكما يضر الله بالمسم ، وينبت بالنساء ، وينفذ بالخطبة يصل قوما بالقرآن اذا قص استعدادهم وخبث نفوسهم كما يمرض الرجل بشرب الشهد اذا كان محموما ويزيد الضعيف المعدة مرضا بالامتلاء من اللحم والماء كل الغليظة وشرب الماء المثلوج ، ومثال ذلك في القرآن أن يقرأ أربعة علماء هذه الآية « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ، ثم طرح أمامهم ، مسألة السلاح في الحرب ، فيقول أحدهم ان لنا في رسول الله أسوة حسنة فلا تخالفه ورسول الله انما حارب بالسيف والرمح فحرام علينا أن نغير سلاحه ، كما أخبر بذلك عن بعض علماء التركستان منذ سنين إذ استنقاهم أمير بخاري فأجابوا بذلك ، وأفتوا بقتل التاجر الذي حضر من الروس إذ ذاك ، وقال ان لهم مدافع فلنقلدهم فحكموا بقتله فقتله الأمير ، ثم دخل الروس بعد خمس سنين ، ويقول الآخرون : كلا فلتتوكل على الله والنبى ﷺ خلقه القرآن ، وقد أمره الله بالتوكل فطينا أن نرضى بقضاء الله وقدره ، ويقول الثالث : كلا فلنقرأ البخاري وسورة يس ، وقد حصل ذلك في بعض الحروب منذ عشرات السنين ، وهذا رأيان لنوى الكسل والبلاهة ، ويقول الرابع : كلا قالنبي ﷺ كان يحارب بالسلاح الذي يحارب به أعداؤه ، ولو أنهم حاربوا بالمدافع والطيارات لحاربهم بها ، وهذا هو التقيية النبوية ، فانظر كيف ضل ثلاثة واهتدى الرابع ، ولما كثرت الضلال في الأمة الاسلامية قل فيها التبوغ وساء مصيرها ، فليسكن فيها المفكرون والمستبصرون والعقلاء المتدبرون ، فبذلك وحده تنجو من الخطر الماهم ، ولقد زارني منذ عشرين سنين أمير ، يقال له « جمال الدين » من مدينة مدراس على ما ذكر ومعه زوجته ، فقال جئت لأسألك عن علم الجغرافيا والتاريخ فاني فتحت هناك مدرسة ، وقد حرم علماء الاسلام هناك أن يدرس هذان العلمان فحجبت كل الهجبة وكتبت له أن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية على المسلمين ، فحتى ترك المسلمون علما أو صناعة فالائم واقع على جميعهم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فياخذة والاختلال والاحتلال ، وأما في الآخرة فيعذاب النار « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » وقوله « ولعذاب الآخرة أشد وهم لا ينصرون » وقوله « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » وهذا انما جاء من قصص العلم في بلاد الاسلام ، وهذا داخل في قوله (يصل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يصل به إلا الفاسقين . الذين يتقنون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) ولما كان أولئك الفاسقون منهم من يمكن اصلاحه أعقبه موضحا على عدم التفكير بقوله في .

(المقصد الخامس)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

التفسير اللفظي

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) ذكر الناس بما كان من علمهم ، ثم حياتهم ، ثم يموتون ، ثم يحيون ، ثم يميتون ، ثم يحسون ، هذه قصة الانسان ومبدؤه ومنتهاه . وقص قصة العلم ، فذكر الأرض وما فوقها ، والسماء وزينتها ونظامها ، وكيف كانت هذه العوامل الكبيرة مسخرة للانسان ، ساعة لسعادته وهنائه ؟ فهل يجمل به أن يكفر بالله ؟ وهل يحسن بمن كان عندما فأصبح موجودا وهيئت له السموات والأرض ، وخدمته الأعوام والسنون وأفرغت النعم عليه ، ولم يكن له ملك ولا حياة ؟ هل يحسن به أن يكفر بالله ، ويقطع رحم القديسة ، وينسى النعم ، ولا يشكر المتفضل ؟ وهل يليق أن يكون من الضالين والفاجرين .

وقوله (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) تسجيل على المسلمين في أنحاء المعمورة ، فيألت شعري : كيف يخاطبنا الله بقوله « خلق لكم ما في الأرض جميعا » ونحن أجهل الأمم بالأرض والسماء ، وكيف تكون المعادن في باطنها والجبال عليها والغابات والممالك ، وكيف تكون الكهرباء شاملة لأجزائها والاضواء والحلوة واللواص الطبيعية الكامنة في هذه المخلوقات ، ونحن لا نعرف منها الا ما جادت به علينا يد الأمم الغريبة ، فوالله ان الصلوم التي كشفوها في الأرض والسماء لتسجل علينا الخزي والعار أمام الله والناس .

أيها الناس كيف يقر لكم قرار أو يكون عندكم اصطبار ور بكم يخاطبكم ، فيقول « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » وأتم لا تملكون قطميرا . منها المرجان الثابت في البحر في يد غيركم ، والسرّ يصطاده سواكم ، والغابات لغيركم ، فهل ظنتم أيها الناس أن الموجه له كاف الخطاب : هم أمم الفرنجة ، فيقول (هو الذي خلق لكم) يا أمم الفرنجة : أو لستم داخلين في كاف الخطاب : أليس من العار عليكم أن تجهلوا نعمة ربكم ، ولعمري ان هذا لكفر للنعمة وقلة عقل وغاية الجهل ، وكيف تقول : ان الله شاكرن ، والشكر انما يكون باستعمال العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، والله قد صرح لنا بقوله : خلقت لكم ما في الأرض جميعا ، واذا أنعم عليك الملك بنعمة سخرت لها كان غضبه عليك شديدا ، وما هو ذا إلهنا لما رأى لرضا عن نعمه فزدريناها ونسيناها وتجاهلناها غضب غضبة ، فسلط علينا الأمم ، وهذا جزاء الكافرين بالنعم ، ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله ، وما نزل من الحق ، أفبقوا أيها المسلمون من غفلتكم واستيقظوا من رقبتكم ، واعلموا أن ما فلتت واقضى ، وأن الزمان قد استدار وستكونون علماء بهذا الوجود ، وستتألمون منه حقا عظيما بفهم القرآن « ليظهره على الدين كله ، فاستبقوا الصلوات » وانظروا في الأرض وما حوت ، والسماء وما وعت ، وتأملوا ما أنلو عليكم في مسألة السموات : إذ قال تعالى (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شيء عليم) .

ايضاح هذا المقام

الكلام على السموات السبع

اعلم أننا على هذه الأرض محبسون مقدرين في حياتنا تحيط بنا أنواع الآلام والشموات ، فتحجبنا عن معرفة العوالم وادراك حقائقها والتفرج على عجائبها . ولما كان عالم السموات أعظم ما نشاهد ، وفيه أنواع

الجمال والضياء والبهجة والحسن : اتجهت إليه أنظار العقلاء ورجال الدين . وأقدم ما وصل إلينا من العلم بذلك ما ذكره اليونان وفتى على آثارهم علماء الإسكندرية أيام البطالسة واستقرت آراء هؤلاء على أن الأرض في مركز العالم ، وأن القمر وعطارد والزهرة والشمس والريخ والمشتري وزحل سيارات حولها ، وكل واحد منها في فلك دائر حول الأرض من الشرق إلى الغرب ، فأتتا السيارات فان لها سيرا خاصا بها ، تدير إلى جهة الشرق عكس الحركة اليومية للأفلاك السبعة ، وتكون تلك الكواكب على أفلاكها أشبه بنجمة دائرة على عجلة تدير في طريق يخالف سيرها ، وبهذه الحركة الكوكبية يكون شهر القمر وسنة الشمس وسنون لسائر الكواكب ، ويقولون ان هناك فلكين آخرين يحيطان بالأفلاك السبعة ، وهما فلك التوايت فالأطلس وقالوا نحن علينا أن نعرض فلكا ثامنا لتكون فيه الكواكب الثابتة ، وقلكا ناسما يكون مبدأ الحركة اليومية ، وأما ترتيب الأفلاك على هذا المنوال فله أدلة مطولة لكنها ضعيفة جدا ، حتى ان فلك الشمس لما جعلوه رابعا شبهوه بشمس الفلادة في جيد الحساء لأنها تكون في الوسط ، وأما بقية الأفلاك ، فقد يستدلون عليها بأن الكوكب الأسفل يكسف الأعلى ، والكاسف يكون تحت المكسوف هذا ملخص علم أولئك العلماء ، ولقد ظهر أثر هذا في إنجيل (برنابا) وهو أقرب الأناجيل إلى الحق .

قال المسيح : الحق أقول ان السموات تسع موضوعة بينها السيارات التي تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة رجل خمسمائة سنة ، وكذلك الأرض على مسيرة خمسمائة سنة من السماء الأولى ، ولكن قف عند قياس السماء الأولى التي تزيد عن الأرض برمتها كما تزيد الأرض عن حبة رمل وهكذا تزيد السماء الثانية عن الأولى والثالثة عن الثانية ، وهم جوا حتى السماء الأخيرة كل منها تزيد عما تليها ، والحق أقول لك ان الجنة أكبر من الأرض برمتها والسموات برمتها كما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل ، ثم قال في الإنجيل حينئذ جاء الملك جبريل يسوع وأراه امرأة براقعة كالشمس رأى فيها هذه الكلمات : لعمري أنا الأبدى كما أن الجنة أكبر من السموات برمتها والأرض ، وكما ان الأرض برمتها أكبر من حبة رمل هكذا أنا أكبر من الجنة بل أكثر كثيرا من ذلك عدد حبوب رمل البحر وقطرات الماء في البحر وعشب الأرض ، وأوراق الأشجار ، وجلود الطيوانات . بل أكثر من ذلك كثيرا عدد حبوب الرمل التي تملأ السموات والجنة بل أكثر اه ؟ هذا ما في كلام القدماء وما في الإنجيل ، ثم ان فلسفة اليونان نقلت إلى العربية على يدى الفارابي والشيخ الرئيس ابن سينا ، وقررت أن الأفلاك تسعة ، فوثق بذلك علماء الاسلام الذين درسوها ، وقالوا هي سبع سموات والكروسي والعرش فالسموات السبع تتقدم ذكرها ، والكروسي فلك الثواب ، والعرش هو الفلك المحيط الذي به الحركة اليومية لسائر الأفلاك وبها الشروق والغروب .

مضت قرون فاستيقظ أجلة العلماء وكبار الحكماء من الأمة الاسلامية ورأوا أن هذا المنهج باطل لمخالفته الشرع والعقل . وقالوا ان القول بأن السموات سبع في القرآن ليس حاصرا ، فالعدد ليس له مفهوم ، فلذا قال رجل : عندي فرسان لا يناني أن يكون عنده ألف ، وهذه الأفلاك القديمة لا يمكن فناؤها عندهم ، وكذلك الكواكب ، وهذا يخالف العقل والدين معا . وقالوا ان الأرض تدور حول نفسها ، وليس هناك فلك أطلس ولا غيره ، وإنما هذه الكواكب دائرات في الفضاء .

وهذه الآراء كانت في القرن السادس والسابع أيام اقراض السولة العربية وظهور النول التركية وغيرها . ولقد كان ذلك توطئة للرأى الحديث الذي ملأ الآفاق وعرفه الخاص والعام ، وملخصه :
أن هذه العوالم كلها من شمس وأقمار وأرضين كانت في قديم الزمان كالسنان المنتشر سريرة الحركات فبسرعة الحركة آلاف آلاف من السنين تكومت الشمس ودارت ملايين من السنين ، ثم انفصلت عنها

السيارات وشمسنا إحدى تلك الشمس ، فولدت عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، وأورانوس ، وبتون ، وهذه ثمان سيارات ، ثم انهم وجدوا بين المريخ والمشتري نحو ٦٠٠ نجمة صغيرة جدا ولو اجتمعت كلها لم تفصل مقدار جرم القمر ، وأكبرها المسماة (سيرس) لا يزيد قطرها عن خمسمائة ميل وبعضها لا يزيد قطره عن عشرة أميال ، وربما كان هناك نجومات أصغر منها لا يمكن رؤيتها .

ثم ان هذه السيارات تدور حول الشمس ، فعطارد يتم دورته في ٢٨ يوما من أيامنا ، والزهرة في ٢٢٦ ، والمريخ في ٣٦٦ ، والأرض في سنة ، والمشتري في ١١ سنة و ٣٩٣ يوما ، وزحل في ٢٩ سنة و ١٦٧ يوما وأورانوس في ٤٨ سنة و ٧ أيام ، وبتون في ١٦٨ سنة و ٢٤٨ يوما ، ويظن أن هناك سيارات أخرى حول الشمس لم تظهر .

ومن عجائب العلم وفرائبه : أن علماء العصر الحاضر بحثوا عن تلك النجومات الصغيرة التي بين المشتري والمريخ بحسب القاعدة التي وضعوها بعد السيارات عن الشمس فاتهم رأوا أنها هكذا :

العدد	يضاف إليه	يكون المجموع	يضرب في ٩	مليون ميل
٠	٤	٤	٩ × ٣٦ =	عطارد
٣	٤	٧	٩ × ٦٣ =	الزهرة
٦	٤	١٠	٩ × ٩٠ =	الأرض
١٢	٤	١٦	٩ × ١٤٤ =	المريخ
٢٤	٤	٢٨	٩ × ٢٥٢ =	٠٠٠٠
٤٨	٤	٥٢	٩ × ٤٦٨ =	المشتري
٩٦	٤	١٠٠	٩ × ٩٠٠ =	زحل
١٩٢	٤	١٩٦	٩ × ١٧١٤ =	أورانوس
٢٨٤	٤	٢٨٨	٩ × ٢٥٩٢ =	بتون

هذه هي أبعاد السيارات عن الشمس : أي انها منظمة نظما قريبا ، فإذا بعد عطارد عنها ٣٦ مليون ميل ، فقد فرضوا أن بعده ٤ بعدا من الزهرة وهكذا الزهرة ٣ ، والأرض ٦ ، والمريخ ١٢ بطريق التضعيف ويضاف لكل ضعف ٤ ، وهذا العدد يضرب في ٩ مليون ميل ، فلما وصلوا الى ما بين المريخ والمشتري وجدوا هناك مكانا خاليا ، فكان يجب أن يكون فيه كوكب ، فلما وجدوا تلك النجومات المتقدمة ظنوها سحابل من تلك النجمة البائدة ، واعلم أن هذه الأرقام الدالة على الأميال قريبا ، فإن بعد الزهرة ٦٧ وبعد الأرض ٩٣ ، وبعد المريخ ١٤٣ ، وبعد المشتري ٤٨٤ ، وبعد زحل ٨٨٧ ، وبعد أورانوس ١٧٨٢ وبعد بتون ٢٧٩٢ ، وهي تختلف عن الجدول السابق قليلا ، وهذه الأعداد ملايين الأميال .

واعلم أن الزهرة وعطارد هما السيارتان الأديان ، لأن فلكهما ضمن فلك الأرض ، أما بقية السيارات فتسمى السيارات العليا ، لأن فلكها خارج عن فلك الأرض : هذا ما أردت ذكره في المجموعة الشمسية . أما الكواكب الثابتة ، فانها لا يمحصر عددها إلا لثلاثة ، ولقد بحثها العلماء فوصلوا منها إلى معرفة ثمان الملايين بالمنظار العظيم ، وبالآلة الراسمة المسماة فتوغرافيا .

واعلم أن نور الشمس يصل إلى الأرض في ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار جوى من الأرض إلى الشمس ليلا ونهارا لم يتمكن من وصوله إليها في أقل من ثلثائة وخمسين سنة ، وأنا ذكرت لك هذا لتعلم مقدار عظمة الله عز وجل ، وتقوم مأسأ ذكره لك في أبعاد النجوم الثوابت .

واعلم أن نور الشمس يسير في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل وفي السنة ٦ بليون .
واعلم أن أقرب نجم يصل نوره إلينا في ٤ سنين نورية ، فإذا كان ضوء الشمس يصل لنا في ٨ دقائق
و ١٨ ثانية وبعدها عظيم جدا ، فبالك بأقرب كوكب ثابت وهو ٤ سنين ، وأين ٨ دقائق من ٤ سنين
ومن الكواكب مالا يصل ضوءه إلينا في أقل من ألف سنة نورية ، والشعري العبور يصل ضوءه إلينا في
٩ سنين نورية ، والنسر الطائر يصل ضوءه إلينا في ١٤ سنة نورية ، والنسر الواقع في ٣٠ سنة ، والعبوق
في ٣٣ سنة ، والهاك الرابع في ٥٠ سنة ، واعلم أنهم قسموا الكواكب الثابتة باعتبار ضوءها ، فإما كان منها
أضوأ سموه القدر الأول وما يليه القدر الثاني ، والقدماء أوصلوها إلى ستة أقدار ، والمحدثون أوصلوها إلى ٢٠
فالقدر الأول ضوءه كامل ، وعدد نجومه ٤ منها : الشعري العبور ، والنسر الواقع ، والهاك الرابع .
والقدر الثاني عدده ٣٧ نجما ، ومنها سعد السعود .
والقدر الثالث عدده ٧٣ نجما منها القرقدان .

والقدر الرابع عدده ١٨٩ ، والقدر الخامس ٦٥٠ ، والقدر السادس ٢٢٠٠ : وهكذا يتزايد العدد
ويقل الضوء ، فيكون القدر العشرون ٧٦ مليوناً وضوؤها ضعيف جدا ، وبمجموع الذي علمه نوع الانسان
إلى الآن ٢٢٤ مليوناً من النجوم . وسيأتي في بقية أجزاء هذا التفسير في الطبعة الأولى ان الكشف أظهر
أضعاف أضغاف هذه النجوم بعد طبع هذه السورة اه

هذا هو الذي عرفه الانسان من السموات . فقايس رعاك الله بين ما ذكره علماء الإسكندرية وما جاء
في الإنجيل برنابا ، وبين ما عرفه الانسان الآن . ان عظمة الله تجلت في هذا الزمان ، الأثرى إلى ما جاء في الإنجيل
بما أشبهه كلام القدماء أن بين كل سماء وأخرى خمسمائة عام . وذكر ان السموات تسع ، وهي عند المسلمين
سبع يزيد عليها الكرسي والعرش ، فيكون مجموع المسافات ٤٥٠٠ سنة بسفر الانسان ، وهو قدر يسير جدا
بالنسبة لما عرف الآن . ألا ترى أن هذه المسافة يقطعها الضوء في أقل من أربع دقائق ، فكأن ملك الله
المسالوم للناس فيما مضى لا يزيد عن نصف المسافة بيننا وبين الشمس البالغة ٨ دقائق وثواني ، وأي شيء
بعد الشمس ، ان بعدها يسير جدا ، ان الشمس قريبة ، وأين ثمان دقائق من ٤ سنين التي هي لأقرب
كوكب ثابت ، بل أين بعدها من بعد الكوكب الذي يستغرق ألف سنة في وصول ضوءه إلينا [ناهت
القول ، وزلغت الأبصار ، وحارت الأفكار] فأين ما ذكره الأقدمون من عظمة الله تعالى التي عرفت ، وانك
لو أردت أن تعرف مقدار الزمن الذي يصل فيه ضوء الكواكب إلينا ، ونحن نشاهدها كل ليلة لم تتشك أن
كثيرا منها سافر ضوءها إلينا قبل خلق الأرض حتى وصل إلى أعيننا الآن ، ومنها كواكب قد بادت وهلكت
قبل خلق الأرض واندرست معالمها ومع ذلك نحن الآن نشاهدها الذي أرسلته قبل خفائها ، وهو مسافر
إلينا . إذن ما جاء في الإنجيل المذكور المبني على علم علماء الإسكندرية أصبح لاقيمة له بالنسبة للكشف الحديث الذي
يرافق القرآن ، إذن دين الاسلام صار الكشف الحديث موافقا له ، وهذه معجزة جديدة جاءت في زماننا .

أسئلة وردت على المؤلف

ولما وصلت إلى هذا المقام زلرني علم فاضل ، فاطلع على ما كتبه فسر . وقاله درز ، فقد أثبت جلال
الله وجهه وعجائب صنعه ، ولكنك في الحال قد خالفت القرآن ، فقلت وكيف ذلك ؟
قال انك ترى أن الكواكب تسير في الفضاء ، لأن هذا هو الرأي الحديث . قلت إن من يقول ان
الكواكب تسير في الفضاء ليس علما بل رأي الحديث ولا القديم . أما القدماء فانهم أثبتوا أنه لا فضاء موجود .
وقالوا ان الغلاء مستحيل لأننا اذا تصورنا مكانا خاليا لا يتخلو : اما أن تصورنا مضيا . أو مظلم : والضوء والظلمة

إما عرضان . أو جوهريان . أو أحدهما عرض والثاني جوهر ، فإن كانا جوهرين فيها ، وإن كانا عرضين فالعرض لا يقوم إلا بجوهر ، وإن كان أحدهما عرضاً والآخر جوهرًا ، فالأمر واضح ، فثبت أنه لا فراغ موجود في الكون .

وأما المحدثون فقالوا إن الضوء يصل من الكواكب إلى الأرض ولا بد أن يكون مجولاً على جسم [وعلى هذه النظرية اخترعوا التلغراف الذي لا سلك له] فثبت أنه لا فراغ في الكون عند القدماء ولا عند المحدثين فن قال إن الكواكب تسير في فضاء ، فإنه جاهل بعلوم العالم أجمع ، وهم صغار الطلبة المغرورون ، فقال سلت أن الكواكب تجرى في أجرام موجودة ، ولكن كيف يقول الله إن السموات سبع ؟ قلت له إذا أثبت وجود الجرم الأثيري اللطيف الذي تجرى فيه الكواكب ، فما أسهل فهم القرآن . واعلم أن العدد ليس له مفهوم ، وبه قال أكبر المفسرين والحكماء ، فإذا قال الله سبع سموات ، فليس ذلك بما منع أن يكون العدد أكثر ، وإذا عرفت أن هذا الجرم اللطيف العجيب الممتد إلى أمد ينقطع الفكر دونه ، وبجمال لا يصل إليه الوهم فيه من الجوانب والبدائع والكواكب والمخلوقات ما لا يحصى ، فسواء أكان سبعا أم ألفا ، فذلك كله من فعل الله ذال على جهاله وكجأله ، وهو تجلياته وأنواره المشرقة الثلاثة الفائضة من مقام القدس الأعلى منتزلة في السوالم ، وكل كوكب من الكواكب الجارية له مدار خاص به ، وكل شمس من الشمس التي ذكرناها لها مدار خاص وسيارتها كذلك ، والله هو الفاعل المختار مفيض الخيرات والجمال والحسن والاشراق . قال الامام الغزالي : في كتاب [تهافت الفلاسفة] .

[إذا ثبت حدوث العالم ، فسواء أكان كرة أو مشعنا أو مسدسا وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة كما قالوه أو أقل أو أكثر ، فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهي كنسبة النظر إلى طبقات البصلة وعددها وعدد حب الرمان ، فالتقصود كونها من فعل الله فقط كيفما كانت] .

أقول : إياك أن يصدك أيها الضنن لفظ سبع عن البحث والتنقيب ، فالعدد ليس بقيد وانظر إلى هذا الجلال ، ولا تكن من الخاطئين الجبناء الذين يظنون أن هذا يناق القرآن ، أو تكون من المساكين الذين يلحدون ويكفرون لسباع مثل هذا اللفظ ، وذلك لسخافة عقولهم ، وقلة علمهم ، وهذان الفريقان من الذين قال الله فيهم (يصل به كثيرا) فقال صاحبني إذن أنت تؤيد المذهب الحديث ، فقلت له حاشا لله أن يؤيد حديثا أو قديما ، وإنما القرآن طبقاه على المذهب القديم ، ثم ظهر بطلان ذلك المذهب وجاء الحديث ، فوجدناه أقرب إليه ، والأفهام أعلى منهما وأعظم ، وما بدرينا أن يكون هناك مذاهب ستحدث في المستقبل ، فهل القرآن كرة طرحت بسوألجة ، يتلقفها رجل رجل كلا إنما هذا التطبيق الذي ذكرته ليطمئن قلب المسلم ، وليعلم أن عمل الله وصنعه لا يناق كلامه ، فالتطبيق للأطمئنان .

فقال : ولم كان المذهب الحديث أقرب إلى القرآن ؟ قلت
أولا : جاء في القرآن « ويخلق ما لا تعلمون » والمذهب الحديث أرانا سعة مخلوقاته وأنها لا تدرك .
ثانيا : كان القدماء يقولون : الكواكب والأفلاك لا تنفي ، والرأي الحديث يقول : إن الكواكب تتجدد وتنفى كالإنسان والحيوان . وقالوا إنهم رصدوا كواكب لا تزال في طور التكوين ، وذكروا منها نحو ستين ألفا وأن كواكب قد قويت يقول الله « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » ومنها ذلك الكوكب الذي بين المشتري والمريخ ، وصار كواكب صغيرة جدا ، فهذا أقرب إلى القرآن لقوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

فقال صاحبني : ما ملخص ماضى ؟ قلت

أولا : أن السماء يراها الناس واحدة .

ثانيا : ان الدين جعلها سبعة ، والفلاسفة جعلوها تسعة :

ثالثا : المسلمون القدماء جعلوا سبعة منها سموات ، والكروبي والعرش : هما الفلكان الباقيان اتباعا للفلسفة القديمة ، وانجيل برنابا تبعها ، فقال تسع سموات ، والمذهب القديم أبطل فبطل تبعه ما جاء في انجيل برنابا وما جاء عن العلماء الذين صدقوه من المسلمين .

رابعا : أن المذهب الحديث أبان أن عظمة الله فوق ملاكركه القدماء ، وأصبح : كان عند القدماء بالنسبة للعلم الحديث أشبه بذرة بالنسبة للأرض والجبال والبحار ، بل أقل كثيرا جدا .

خامسا : العالم لا فراغ فيه ، فالسموات موجودة فعلا يراها من القدماء والمحدثين .

سادسا : وهي سبع سموات وذلك حق لأنها طباق بعضها فوق بعض

سابعا : المذهب الحديث يثبت فناء العالم ، وفناء الكواكب ، وهو موافق للقرآن فهو مجزة له .

ثامنا : ان ما قلناه ليس المقصد منه أن يخضع القرآن للباحث ، فانه ربما يبطل المذهب الحديث كما بطل القديم ، فالقرآن فوق الجميع ، وإنما التطبيق ليأنس للمؤمنون بالعلم ولا ينغروا منه لمخالفته لألفاظ القرآن في نظرهم .

فقال صاحبي قد أفدت إفادة ثامة ، ولم يبق عندي إلا سؤال واحد ، وهو لم عبر الله بسبع سموات ولم يبر بسبها واحدة مع أن الناس لم يروا غيرها ؟

قلت : اعلم أن الله لو ذكر سبأ واحدة لوقفت عقول المسلمين عليها ، ولم يبحثوا عن غيرها ، ولكنهم لما سمعوا أخذوا يرمون فلسفة اليونان ، ثم قرأنا الفلسفة الحديثة ، فرفنا صفة الله وحكمته ، والتعبير بالسبع امتحان وابتلاء من الله لأنها تحير عقول الباحثين ، فمن كان مريض النفس ، صغير العقل ، ضئيل الفكر جبن وجزع وخاف . وقال : اني أخاف الله رب العالمين ، فلا يبحث في العوالم ، ويظن أن الله يغضب على من بحث من المؤمنين في جلاله ، ومن قويت عزيمته ، وعلت همته ، وارتقت ضمته ، فانه يبحث ويصرف فضل الله عز وجل ، ويقول في نفسه : ان هذا فضل الله ، وأنا أقرأ كلامه ، وكلاهما دال عليه . وقوله لا يناقض فعله الا عند الجاهلين .

أما أنا فاني أبحث صنعة ، ويسد ذلك أطبقها على كلامه ، بهذا فدرتني المسلمون وليتعلموا ، فكم من ذكي مسلم قرأ العلوم الحديثة وكفر بالدين ظاناً أنه نال من العلم ما جهله الأنبياء ، وكم من غبي مسلم اطلع على هذه المباحث ففر منها لاعتقاده أنها تنافي الدين [والحق أقول] ان قليلا من الأذكياء المسلمين من يصدقون بالدين مع العلوم ، وأكثروا المصدقين بالدين من الجهلاء وعلماء الدين . أما أكثر للتعليمين المصريين ، فانهم يقولون : الدين شيء والعلوم شيء .

ولقد أفضت في هذا المقام لدقته على الأفهام ، ولأنه في أعظم النعم الالهية التي أنعم الله بها على الانسان وقد كفر بها مع وضوحها وظهورها ، فلذلك أعقبها بالكلام على قصة آدم في المقصد السادس .

(المقصد السادس)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (و) اذكريا محمد (اذ قال ربك للملائكة) الأرضيين أو عموم الملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة) وهو آدم، وهكذا الأنبياء فهم خلفاء الله في سياسة العباد وهدايتهم بعد مراتبهم عن الفيض الالهي فكان الأنبياء واسطة القبول من الحق والايصال للخلق كما كان الغضروف موصلا للعظم للغذاء الذي يهجز اللحم أن يوصله إليه لتباعد ما بينهما من المناسبة (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك السماء) فتجعل أهل المعمية مكان أهل الطاعة (ونحن نسيح بحمدك وقدس لك) التسييح: تبيد الله عن التقصان، من سبغ في الماء والأرض، وكذلك التقديس من قدس في الأرض: اذا ذهب فيها وأبعد (قال إني أعلم ما لا تعلمون) أعلم أن فهم من يبدئي ويطيعني (وعلم آدم الأسماء كلها) تعليمه الأسماء كلها بأن خلق من أجزاء مختلفة وقوى متباينة وهو مستعد لادراك أنواع المدركات من المعقولات، والمحسوسات، والمنتخليات، والموهومات، وألهمه المعرفة والاختراع، وسائر الصناعات، وهو متى عرف الألفاظ كلها عرف المعاني كلها (ثم عرضهم على الملائكة) أي عرض السميات على الملائكة وقال لهم تبيكتنا (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء لا يستحق أن يكون خليفة عليها (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) وهو اعتراف بالجهل، وأمر آدم أن يبينهم بأسماء الأشياء كلها، فلما أعلمهم (قال) الله لهم (ألم أقل لكم) الحق وقوله (وأعلم ما تبديون) أي من قولكم «أتجعل فيها من يفسد فيها» (وما كنتم تكتمون) من قولكم انكم أحق بالخلافة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) • وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) سجود الملائكة لآدم تسخيرهم واطياعهم للسلطان

آدم وبنه فيما يكفل معاشهم فسجدوا واستمع إبليس لأنه لا يلهم بالخير كالملائكة ولا يسى في المنافع المعاشية فأبى امتنع باختياره ، وكان كفره في علم الله ، ثم أمر آدم أن يسكن في الجنة هو وزوجته وأن يأكل رعدا واسعا حيث يشاء ، ونهى عن الاقتراب من شجرة لا يهيم تعيينها للناس حملهما الشيطان على الزلة بسببها (فأخرجهما مما كانا فيه) من الكرامة ، فأمر آدم وحوا موذرتيهما بأن يهبطوا إلى الأرض وهم متعادون ولهم في الأرض موضع استقرار وتمتع إلى وقت الموت (فتلقى آدم من ربه كلمات) .
 منها أنه قال يارب : ان تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال نعم فتاب آدم فتاب الله عليه أي رجع عليه بلرحة ، وقوله (فمن تبع هداي) إلى آخره أي بانزال الرسل (فلاحوف عليهم) إلى آخره ، وبقية الآيات واضحة انتهى التفسير اللفظي .

الايضاح

ما أعجب هذه الآيات وما أبدعها أنا الآن في أول سورة قرآني من حيث النظام والترتيب ابتداء بآدم أبي البشر وجعله مبدأ لنظام الانسان وتجب لهم يتقدم عليها غيرها ولم يصدر القرآن من السير الا بها ولعلك تقول انها قصة آيهم والأب مقدم طبعا فقدم وضعا . أقول هذه أدلة المصنفين المحدثين ، وأجوبة بعض الخلف الجاهلين . وليست هذه النكات الصغيرة المبتذلة المشيئة تليق برب الأرباب العالم بالجزئيات والكليات ، فاصغ لما أقول وارعه حق رعايته واعلم أن هذه القصة نموذج علم الأخلاق والحكمة . ولتقدم لك مقدمة فنقول .
 اعلم أن الحكمة تنقسم إلى علمية وعملية ، والعلمية الرياضيات والطبيعات والالطيات ، والعملية سياسة الشخص والمزل والمدينة ، والطبيعات قدم وصفها في خلق الأرض والسماء والالطيات تلازمها ملازمة العرض للجوهر والظل للشيح والنتيجة للمقدمة والمزوم للآزم . فأما الحكمة العملية وهي تدبير الشخص والمزل والمدينة فلها أصول ثلاثة في الانسان : وهي القوة الشهوية والقوة الغضبية والقوة العقلية ، فبالشهوة الطعام والشراب والتزويج والغضبية الاقدام والحرب والكفاح والكبر والجد وما أشبهها ، وبالنوة العقلية الحكمة والعلم . ومن أعجب العجب أن تشتمل قصة آدم على هذا العلم بمخاديفه ، ألم تر إلى حسد إبليس وطمعانه ونكبره واستعظامه واستطالة شره النار من كبريائه وعظمته ، وكيف كان ذلك قبسا من القوة الغضبية ، وشره من نارها وطمعانه وسعيرا من جهنمها ثم كيف حرم آدم وحوا من الجنة ثمرة أكلاها وطردا منها بنا رجوعه أطفالها واستمر أمرها نغزجا منها ناديين وكانا في اجنة منصفين ، أليس أولهما اشارة لغضب الانسان ، وثانيهما لشهوته . وأما العلم فقد سطع نوره ونجم كوكبه وزغت شمس في منازل قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة) نعم سخرت له السموات والأرضون والبحر والروض والقفر والجبل والسهل فعلم الأسماء والصفات وخواص المخلوقات يعرفها وتنفعه . ولذلك يقول (وعلم آدم الأسماء) الخ وحري بمن سخرت له الافلاك وقامت بنظامها الاملاك ومن سخرت له العوالم سجود تسخير وقامت له تعظيما بالتدبير أن يتحلى بالعرفان ليفهمها وينطق باللغات وينظمها دعت حاجته الى العوالم فعرفها له مبدعه فصورتها المقول وسخرتها القلوب ونطق بها الألسن والشفاه فههنا ظهرت عجائب القرآن وبدائع الفرقان وكيف كان هذا القصص مبدأها آية بديعة وحكمة عجيبة تدعو للنظر في علم الأخلاق والبحث في أغوارها والتقيب عن أسرارها

الله والملائكة وآدم خليفته

اعلم أن في هذه القصة عجا عجيبا ، ذلك أنه ذكر الرب والملائكة وآدم وأنه خليفة في قوله (واذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) فحتاج أن نبين آدم وخلافته والملائكة فنقول : ان معرفة

لله عز وجل وملائكته نجل عن العقول ، وتدق عن الأفهام ، وليس يتم ذلك للإنسان إلا بمثال يعرفه ، وشاهد يقفه ، ويحس به من نفسه لأننا في هذه الدنيا محجوبون عن الملا الأعلى ، وأقرب الأشياء لنا أنفسنا فمن فكر فيها رأى شواهد تشير بطرف خفي إلى ماني هذا العالم المشاهد والمعقول ، لذلك كان الإنسان خليفة لله ، ومتى أدركنا أنفسنا عرفنا خلقتها واقربنا من فهم الملائكة وتدير الله للخلق - ولقد اعتاد الفلاسفة أن يبينوا ذلك بشواهد كما قال سقراط لتلميذه وقد سأله ما الذي يعرفنا أن في هذه العوالم عقولا ؟ فأجاب ليس جسمك مركبا من مواد ترابية ، وأخرى مائية ، وهواء وحرارة ؟ قال بلى : قال فلذا كانت تلك الأجزاء الضئيلة التي تركبت منها صحبها عقل وخامرها فكر فكيف يحرم من العقل والفكر تلك العوالم الكبيرة من الماء والتراب والهواء وعالم النور والنار : لا جرم أن من حكم بأن له عقلا وقد علم أنه من مواد ضئيلة لا يستكثر على الأصول التي تركب منها أن يحكم أنه يحيط بها عقل - أما في القرآن هنا فقد ذكر خلافة الإنسان لله والخلافة تحتاج إلى شرح طويل ، وعلم غزير ، وإني سألخص لك أيها الفطن هنا قليلا من كثير لتكتفي به خيفة السامة والتطويل .

اعلم أن علماءنا السابقين شرحوا جسم الإنسان ونفسه فجعلوه مشبها للعوالم المحيطة بنا والنفس متصرفة فيه كاتصرف لله عز وجل في العوالم فقالوا : إن الجسم أربع طبقات . طبقة تشبه الأرض . وأخرى تشبه الماء المحيط بها . وأخرى تشبه الهواء . وأخرى أشبه بضوء الكواكب واشراقها ، فلذا كانت الأرض أسفل والماء يحيط بها والهواء يحويه والضوء مشرق فوق الجميع سائر من الشمس والكواكب البنا هكذا نرى الرجلين والفضذين يستقر عليهما ما فوقهما مما فيه الماء المخلوط بغيره : وهي الأمعاء والمعدة وفوق ذلك الهواء الداخل في الرئتين وفوق الجميع نور العينين وسمع الأذنين وشم المنخرين وذوق اللسان ولس اليد ونور الفكر وهذه هي المشرقات اشراقا على الجسم للاحساس والادراك كاشراق أضواء الكواكب ، بل هي أرق وأشرف ، وإذا كان في هذه العوالم بخارات ورياح وسحاب وأمطار وحيوان ونبات ومعادن ، هكذا نرى أنه من هذا الجسد يخرج الخاط والسموع والبصاق وفيه الرياح والرطوبات فالجسد كالأرض وعظامه كالجبال والمخ كالمدن والجوف كالبحر والأمعاء كالأنهار والعروق كالجداول واللحم كالتراب والشعر كالنبات ومنته كالتربة الطيبة والمالينات فيه كالأرض السبخة وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالسواعق ونضحكه كالضوء وبكاؤه كالطرر وبؤسه وحزنه كظلمة الليل والنوم كالموت واليقظة كالحياة وأبلم صباه كفصل الربيع وشبابه كالصيف وكهولته كالخريف وشيخوخته كأيام الشتاء ، هذه نبذة من الكلام على جسمه وبنية هيكله : أما نفسه فاعلم أن للنفس قوى كثيرة لا يحيط بها العبد ولا يعرفها إلا مبدعها وهي مختلفات .

فترى أن النفس أشبه بملك له خمس فرق موكلات بالأخبار كل فرقة تأتي بأخبار ناحيتها لانشاركتها الفرقة الأخرى ولا تعلمها ولا تعرف عنها شيئا ، فترى حاسة البصر تدرك الألوان والحركات والسكنات والظلمات والنور والكواكب البعيدة والاجرام المشرقة والأذن لا تعرف شيئا عنها ولا تدرك إلا حركات الهواء المسماة أصواتا من حيوان أو نبات أو إنسان أو غيرها ، وحاسة الشم التي في المنخرين ليست تعرف صورا ولا أصواتا ، ولكنها تدرك الروائح المنبثة في الهواء الجارية في الأنف السارية في الحاسة المتصلة بالمخ ، ثم حاسة الذوق التي تعرف الطعم من الخلوة والمرارة والحوضة والملاوحة والسمومة والنفوسة والحرافة والقبوضة والصنوبة ، وهي لا تعلم شيئا من الصور والأنوار والأصوات والروائح ، ثم حاسة اللمس التي تدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة ، وليست تعرف شيئا عما تقدم ، وكل حاسة من هذه توصل أخبارها إلى أولئك الوزراء والكبراء والعظماء الذين هم متعاونون مشاركون متحابون ،

فأولها القوة المتخيلة التي تجتمع عندها هذه الصور من المراتب والمسموعات والمشمومات والمذوقات وتسلها إلى القوة المفكرة لتحكم بينها ، ثم تجعلها في خزانة إلى وقت الحاجة ، وهي القوة الحافظة ، ثم يأتي الترجيح وهو اللسان فيعبر عنها جميعها بكلمات ، ثم تأتي قوة أخرى أشبه بالوزير للملك ، وهي القوة الصانعة في اليد بالكتابة والصناعة ، فانظر أيها الذكي ونهجب أفلست ترى أن النفس الانسانية ذات ملك وسلطان على عالم جسماني وآخر معنوي ، والجسماني شبه العوالم المحيطة بنا وكأنه نموذج لها ، ولست أقول إني أبنت لك كل شيء ، ولكنك تستدل به على الباقي بفكرك ودراستك ، واعلم أن الذين لم يمارسوا العلوم لا يعقلون ماذا كرت الإتحيل ولا يدركونه إلا من وراء حجاب .

اجتماع خصائص الحيوان في الانسان

ان لكل نوع من أنواع الحيوان خاصية طبع عليها ، وكلها توجد في الانسان فتراها يطب المنافع تارة بالصبغة كالكلب والنور ، وتارة بالحيلة كالعسكبوت ، وتارة بالقلبة كالأسد ، وتارة يفر من الهلاك كالأرانب والطيار والطير ، وقد يدفع باللاح كالقنفذ ، وقد يتحصن في الأرض كالقار والموام ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ، ونفور كالفراخ ، ووحشي كالغمر ، وأنسى كالجمام ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغنم ، وسريع كالغزال ، وبطيء كالدب ، وعزيز كالثعلب ، وذليل كالجل ، ولعن كالقنفذ ، ونانه كالتاوس ، وهاد كالقطا ، وضال كالنعامة ، وماهر كالنحل ، وحليم كالجمام ، وحقوق كالجمار ، وشموس كالغزل ، ومسرحل كالذئب ، ومضرب كالقار ، وجهول كالخنزير وغير ذلك ، وهذه كلها راجعة إلى أخلاقه التي اكتسبها بالبيئة والتعليم والميراث وغير ذلك ، ثم اعلم أن القوى المنبثة في الجسم السارية في الأعضاء وأجزائها من اللحم والعروق والأعصاب والعظام والدم والشعر والظفر كثيرة لا يحصها الانسان ، وأنها جميعها متصلة بالدم الذي هو عرش النفس وسرير ملكها ، ألا ترى أنه لو قطع عصب العين فلم يتصل بالدم لم ير الانسان الأشباح مع سلامة عينه ووجهه جسمه ، أولا ترى أن الذي به شلل لا يحس بروخ الأبر في العضو الا شل ذلك لتقطع الصلة بين ذلك العضو وبين المخ . هذه هي صورة الانسان الحسية والمعنوية ، وهو الخليفة لله ، وبمعرفة هذا الخليفة تتصور بعض صفات المستخلف وتديره وملائكته ، النفس واحدة تشرف على الجسم كذلك الله واحد يشرف على العالم ، النفس لها طبقات يابسة وأخرى مائية ، وأخرى هوائية ، وأخرى مضيئة ، هكذا كان لله أرض وماء وهواء وشمس وكواكب : النفس لها حواس كل منها له عالم مخصوص من العوالم وليس يدرك أحدها العالم الآخر ، هكذا خلق الله عز وجل أمما ودولا وجعل ديانات ومذاهب ولغات مختلفات ، وأمما من الحيوانات وكل يعمل على شاكلته ولا يدري الآخر مآلده كما لا يدري عالم الماء ولا عالم الأرض عالم الكواكب الأخرى ولا عالم القردة مثلا عالم الفراش ، وترى أهل الأرض لا يعرفون سكان أي عالم آخر ، وكلها عاملة ناصبة راجعة إلى ربها كما رجعت الحواس إلى قوسنا هذا ولا أطيل عليك في تعداد تلك المشاكلات ففعلك يفكر وتفكر تسبصر ، وإذا كان في سائر أعضاء الجسد قوى لطيفة معنوية منبثة سارية في جميع الجسم مرتبطة بالنفس المستوية على عرش الجسم في المخ ، هكذا يقول الله ملائكة مأمورون بمقابلة تلك القوى في أجسامنا ، ويأته أنك ترى الطعام يصير في المعدة كيومسا ، ثم ينقلب دما فلحما فظما الخ ، وتصور هناك صور منتظمة بدقة كطبقات العين والمخ ودقائق تركيبها ، وهذه تكون قوى لطيفة ، هكذا جرى الكواكب والشمس والقمر ونحو النبات والحيوان كل ذلك بعالم خفي عن الأبصار يسمى ملائكة مرسله من الله في العوالم كما نبئت تلك القوى في أجسامنا من

عند أنفسنا ، وكما أن النفس تحس بكل حركة في الجسم وألم في العظام وفكر في النفس ، هكذا الله تعالى يحيط بالعالم ويعلم سره وجهه : واعلم أن هذا مجرد تنظير والافلته ليس كمثلته شيء . هذا ولأكشف بهذا القدر فقد أبنت لك كيف كان الانسان خليفة بما أبفت من تشابه جسمه ونفسه للعالم المنظور والملائكة وعرفت أنه مثال لعلم الله كل شيء وتديره للعالم ووجدانته ، وذلك بما تحسه من نفسك ، وإنما ذكرت لك هذا لتكون قبصرة وذكري عند ما تصل الى آيات أخرى في القرآن كقوله تعالى « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله « بل الانسان على نفسه بصيرة » وكأن الانسان في الأرض عالم صغير يضاهي هذا العالم الكبير ، ولذلك سمي خليفة ، فكانت الخلافة المذكورة هنا ليكون منها استنتاج التبصر في عالم الملائكة ومعرفة الله وتبني المحاور المذكورة عليها ، وهي (إني جاعل في الأرض خليفة فلوا أتجمل فيها من يفسد فيها ويسفك السماء) الخ واعلم أن هذه الآية كما جئت ملخص علم النفس والتشريح في لفظ خليفة جمعت علم الاخلاق في هذه المحاور ، وهي (أتجمل فيها من يفسد فيها ويسفك السماء ونحن نسبح بحمدك وقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون) .

تفصيل الكلام على الملائكة

ها أناذا قد أبنت لك طرفا من علم التشريح وعلم النفس ، وذكرت لك أن القوى التي في نفوسنا تمثيل للملائكة ، وهذا ليس دليلا وإنما هو استئناس بضرب الأمثال والمشاهات ، ولأسمعك دليلا اقناعيا لا يقينيا على وجود عالم الملائكة قبل ذكر آراء نوع الانسان من الأمم المختلفة والأجيال البائدة ، وهذا الدليل استنتجه العقلاء من المشاهدات ومن العوالم المحيطة بنا . انظر الى عالم المعادن والنبات والحيوان والانسان ، فانها كلها انحطت في دركات الجهالة كانت منازلها في الدركات السفلى ، وكلما ارتقت إلى عالم العقل كانت في أوج السكال ، نفذ الحديد مثلا انه أدنى مرتبة من الحشرات والديدان ، وهي أقل مرتبة من الأسود والنمور وهي أقل كمالا من القرود ، وهي أقص من المتوحشين من بني آدم وهؤلاء يعلمهم النابضون من نوع الانسان وهؤلاء يسوسهم العلماء والحكماء والأنبياء ، وهؤلاء أرقاهم مقاماً وأحلامهم كلاما ، ولا جرم أن ذوى الشهوات من الانسان يشاركون نفاثتهم من الغزلان والخنزير في ما ربههم ، ويعلمهم رجال الجيش والجنود المقابلون لنفاثتهم من الأسود والنمور . وهؤلاء يسوسهم الملوك والحكماء والأنبياء ، فانظر كيف ترقى العالم المشاهد من من حشرة إلى غزال إلى أسد إلى قرد إلى إنسان إلى حكيم عالم .

وإذا كان العلم والحكمة أقصى ما وصل اليه نوع الانسان ، وقد وجدنا الطرف الأدنى من المواليد في غاية الخسة أفلا يقال على سبيل القياس ان الطرف الاعلى في غاية السكال وهي الملائكة ، ولا بد أن نكون قوة السكال الادراكي تامة فيهم كما انتهى التقص إلى نوع الجاد ، أو الى الدرود الذي هو من أخس أنواع الحيوان وبالاجال قول انا وجدنا ههنا شهوة بلا عقل في البهائم ، وجدنا شهوة وعقلا في الانسان ، أفلا تقول ان في الوجود عقلا كاملا بلا شهوة تزرى به .

آراء أهل الديانات والحكماء في الملائكة

فمنهم من ظنوا أجساما هوائية لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة سكنها السموات . ومنهم : من ظن أنها هي المرسلات النحوس والسهود من الكواكب ، والكواكب أحياء ناطقة كالانسان : ومدبراتها هي الملائكة كتدبير نفوسنا لأجسامنا .

ومنهم : من يرى الظلمة عنصر الشياطين ، والنور عنصر الملائكة .

ومنهم : من يرى أن الملائكة هي الأرواح البشرية الصافية ، وأن الشياطين هي الأرواح الانسانية الخبيثة

إذا فرقا أبعدهما .

ومنهم : من يرى أنها هي المدة لنفوسنا الناطقة ونسبها إليها كنسبة الشمس إلى ضوءها وهناك ملائكة مستغرقة في معرفة الله . ونسبها إلى الأولى المدة للأفلاك ولنفوسنا : كنسبة الأولى إلى نفوسنا . وهناك مدبرات لأحوال العالم السفلي ، فإن كانت لتخير ، فهي الملائكة ، وإن كانت للشر ، فهي الشياطين . فالقول الأول لبعض علماء الإسلام . والثاني لطوائف من عبدة الأوثان . والثالث قول معظم المجوس والتوبة . والرابع للنصارى . والخامس للفلاسفة ، هذا .

ومن الناس من قال لاسبيل إثبات الملائكة بالعقل . ومنهم من قال انهم به ثابتون ، والفلاسفة على هذا ، وقد نذكر أدلة إقناعية . منها أن الصناعات البشرية لن تتقن إلا بصانع ذي عقل عالم بها . والعالم المشاهد حولنا فيه ذلك الاقنان : كالنبات والحيوان ، فلا بد من نفوس فسوّرت تلك المصنوعات ، ونفوس أخرى علمت تلك الصناعة ، فالأولى تسمى نفوسا . والثانية تسمى عقولا . وذلك كإحवाल الناس ان كل ذي علم أو صناعة لا بد أن يكون له معلم أعلى منه أخرج ماني القوة منه إلى الفعل . ويقول أصحاب المجاهدات انهم أثبتوها من جهة المكاشفة ، فهي في حقهم يقين وفي حق غيرهم إقناع ، وقد يستدل بآرويا الصادقة .

ولقد رأيت دليلا في كتاب يسمى « راجايوفا » بالانجليزية مترجما من الهندية . قال ان الناس يصدقون أصحاب العلوم وان لم يمارسوها فلعلمهم انهم ان سلكوا سبيل أربابها ، وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، ألا ترى أن علماء الطب موثوق بهم في عالم الحيوانات الصغيرة المسماة (بالمكروب) التي تفتك بالاجسام . وتأتي بأمراض الحسباء والجدرى والطاعون : كذلك يصدقون علماء الفلك في أبعاد ومقادير الكواكب وتحليلها بطريق الضوء ، هكذا يقال : في أمر الملائكة ، فقد أجمع المصفون نفوسهم ، والمجاهدون من سائر الملل والتحلل : أنهم كشفوا ذلك العالم وعرفوه ، ومن ذوى الحاجات من اعتقد ذلك بما وصل اليهم من بلوغ مقاصدهم عند الاستغاثة بتلك النفوس الشريفة . هذا ملخص ما قرأته من كلام أهل النظر . أما الدلائل العقلية فلا تزعم أن الأنبياء متفقون على إثبات الملائكة ، فلنيسط الكلام عليها الآن ليرجع إليه عند الوصول إلى مكرراتها . وحصله أنها مسوقة لعلم الأخلاق الرموز له بكبر ابليس ، وحرص آدم ، وحسد قايل الآتي في سورة المائدة .

بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقايل وهابيل

ان الأخلاق أربعة أنواع لاتزيل النفس بعد مفارقتها البدن ، وهذه الأربعة هي : الأخلاق المكتسبة المعتادة . العلوم التعاليمية . الآراء المعتقدة . الأعمال المكتسبة بالاختيار والارادة . والأولى منها وهي : الأخلاق المكتسبة تنقسم إلى قسمين : رديئة وحيدة ، والأخلاق الرديئة جميعها ترجع إلى ثلاثة أصول . كبر ابليس ، وحرص آدم ، وحسد قايل ، وهذه الحصال الثلاثة أتمها جميع الخبايا والمغاصى ، ويأيد :

أن الكبر من أشكاله ومشابهاته : عجب المرء برأى نفسه ، والأففة عن قبول الحق ، وترك الإقرار به ، والتعدي والخروج عن الحد والظلم والجور عند القدرة في الحكومة ، وترك الانصاف في المعاملة ، والتهلون في الواجبات ، والاعراض عن اللوازم من الحقوق والقحة والصلابة في الوجه في دفع الحق والفحش والسفاهة في الخطاب والجدال والنجاج في المحصومات والحزن والتزق في العشرة والحدة ، والبطش في التصرف ، والنش والمكر في المعاملة ، والاستمغلا والاستقرار لأبناء الجنس ، والاستطالة عليهم ، والافتخار في الأمور بما خص

من المواهب ، والانكار لفعل من فضل عليه ، والبني والعدوان ومشاهاه ذلك . هذا باب الكبر .
 أما الحرص وهو الخصلة الثانية : فمن أشكاله وأمثاله ومشاهاته : الطمع الكاذب ، وشدة الرغبة ، والطلب
 الخيث ، والجهلة في السعي ، وتصيب البدن ، وعناء النفس ، وكثرة الروح في الجمع ، والادخار ، والاستكثار ،
 والاحتكار من خوف الفقر ، والبخل ، والمنع ، والشح ، واللؤم ، والنكد وما يتبعها من الشؤم والخذلان ، وقلة
 الانتفاع بالموجود ، والحرمات للذخور ، والمضايقة في المعاملة ، والمناقشة في الحساب ، وسوء الظن بالأمين ،
 والتهمة للثقات المؤمنين ، والحيانة في الأمانة ، وطلب الحرام ، وهتك الحرم ، وارتكاب الفحشاء ، واضمار
 القلب على الاصرار ، واظهار الكذب ، والحيل في أسباب الطلب من البيع والشراء ، والنش في الأمتعة ،
 وقلة النصيحة في السماع ، والحلف واليمين الكاذبة عند الاعتذار في الحكومات ، وأقويل الزور في أسباب
 المنصومات والعداوة والتعدى في الحدود وما شاكلها من الخصال المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، والأقويل
 الباطلة ، والأفعال القبيحة ، والأعمال السيئة . هذا باب الحرص وأخوانه .

أما الخصلة الثالثة ، وهي الحسد : فمن أشكاله الحقد ، والقيل ، والسغل ، وهذه تدعو الى المكاشفة
 بالعداوة ، والبغضاء ، والبني ، والغضب ، والحرص ، والتعدى ، والعدوان ، وقساوة القلب ، وقلة الرحمة ،
 والنظاظة ، والغلظة ، والتكهن ، واللغو ، والفحشاء ، وهي تكون سببا للخصومة ، والشرا ، والحرب ، والقتال
 إن أمكن جهرا ، وإلا كان بالحيل ، والحداع ، والغدر ، والحيانة ، والسعاية ، والغيبة ، والنميمة ، والزور ،
 والبهتان ، والكذب ، والمداهنة ، والنفاق ، والرياء ، فيكون سبب تشتيت الشمل ، وقطيعة الرحم ، والبعد
 من الاخوان ، ومفارقة الالف ، وخواب الديار ، ووحشة الوحدة ، والحزن ، والنم ، وألم القلب ، وهوم النفس
 وعذاب الارواح ، وتنغيص العيش ، وسوء المنقلب ، وخسران الدنيا والآخرة : نموذجاته من هذه الخصال انتهى
 ملخصا من اخوان الصفا .

وأنا أقول تجب : كيف فصل علماءنا الاخلاق السيئة والاعمال القبيحة ، واستنتجوها من كبار ابليس
 وحرص آدم وحسد قاييل ، وانظر كيف كانت قصص القرآن لغايات سامية وعلوم عالية .
 هذه قصة آدم كيف تكررت ذكرها في القرآن وجاء في سور مختلفة ليتلوها المسلمون صباحا ومساء ، وغاية
 القصد منها تطهير النفوس ، وصفاء القلوب ، وسعادة الحياة ، واتحاد الأمة بمحاسن الاخلاق ، فأما العاتمة وصغار
 العلماء والقراء والفقهاء ، فانهم لاحظ لهم منها الا أن يسمعوها بصوت حسن ويروبوها ، ويصرفوا صرفها
 واشتاقها وما حوته من البلاغة والقصاحة ، وأن القرآن مجبىء للبشر [واني لعلى ظن أن أمة الاسلام ستنتظر
 عما قريب في مقصود القرآن] من هذه القصص ومجانها ، وما في باطنها من طهارة الأخلاق وجمال الشرائع
 فلمعمرى لم أر في بلادنا المصرية شركة تجارة رائجة ، ولا معاملة صادقة ، ولا أمانة في بيع وشراء الا قليلا .
 وأرى أم القرى هم أصحاب الحل والعقد في البلاد سياسة وتجارة ، فتجارهم رابحة ، وسياستهم قائمة ،
 وترى أما كنهم نظيفة ، وأسعارهم محددة ، ووجوههم باسمة ، ووعودهم صادقة ، فلي العلماء الاسلاميين أن
 ينفذوا غبار الكسل عن أنفسهم ، ويدعوا الأمة الاسلامية للأمانة والصدق والاخلاص ، وعدم الحسد ،
 وطهارة القلوب ، هذا هو الطريق المستقيم لسعادتهم في هذه الدنيا ثم الأخرى ، ولقد رأيت بعض المصريين
 المساكين قد أخذوا يسدقون في الموعد والمعاملة ، وسيقوم في الأمة ان شاء الله رجال صادقون يرقون الأخلاق
 وسيظهر فضل الاسلام في أقرب زمن والسلام [ولما كان بنو إسرائيل] من أقدم الأمم ، وهم بنو آدم أخذ
 يشرح حالهم ويذم صنعم ، وهم ما اعتبروا بما أنزل على آدم من العبر ، وهم يقرءون ذلك في التوراة وما
 حل جيدها الا تذكرة لليهود ، وليعلموا أن من عصى وتكبر زالت نعمته ، ودامت حسرته .

المقصد السابع ، وفيه فصلان

الفصل الأول

ما اقرقه قدماء بني اسرائيل اليهود وما اوتوا من نعمة فلم يشكروها .
 مما جاء في التوراة في سفر الخروج وانزال القرآن مصدقا ، وهي عشرة بواقيت

الياقوتة الاولى

نجاة بني اسرائيل من عذاب المصريين في قوله تعالى :

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ كُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ
 وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ بِهِ
 وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
 الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ *
 أَتَأْتِرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *
 وَأَسْتَمِعِينَو بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْغَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَفْتُنُونَ أَنْتُمْ مُلَاقُوا
 رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ كُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
 وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
 شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ
 بِسُوءْمُونِكُمْ سُوءَ الْمَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ
 رَبِّكُمْ عَظِيمٌ *

التفسير اللفظي

(يا بني اسرائيل) أي اولاد يعقوب ، واسرائيل لقبه ، ومعناه بالعبودية صفوة الله ، ويقال عبد الله أيضا ،
 (اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم) من الملك والولد والصحة والحواس ، واني انجيت آباءكم من فرعون
 وغرقته وعفوت عنهم بعد اتخاذهم الجبل ، ثم اني ارسلت لكم محمدا مصدقا للتوراة ، ففكروا في ذلك كله
 واشكروا النعمة بالقيام بما وجب فيها بالأعمال الصالحة والنصيحة ، والايمان بالنبي الذي ارسلته (واوفوا
 بعهدى) بالايمان والعمل الصالح بما نصبت من الدلائل الكونية ، والمعارف الالهية ، وما انزلت من الكتب
 الساهية لاسيا آخرها ، وهو القرآن (أوف بعهدكم) فأدفع عنكم ما اقلكم من الاغلال ، وأحسن لكم
 الاقامة والكرامة والنعيم القيم (وايى فرهبون) في كل ما تركون وما تفعلون ، فرلقبون في حركاتكم
 وسكناتكم ، والرهبه خوف يضجه احتراس (واؤمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم) وهو القرآن ، وهذا تخصيص

بعد التصحيح اهتماما بشأنه منه أهم ما عاهدوا عليه ، فهو أولى بالوفاء به بأن يكونوا به مؤمنين لانه مصدق
 للتوراة والانجيل مطابق لأوصافه المذكورة فيهما ، وموافق لطما في تحريم الخمر وإباحة ما يحل مع مراعاة الزمان
 في السابق واللاحق ، وفي التوحيد ، ونصب الدلائل ، وطلب الاستقامة ، وهداية الناس (ولان تكونوا أول
 كفرة ولا تشتموا بآياتي إنما قليلا) ولما كنتم أهل نظر وكتاب ، وقد بشرتم برسولي ووجب أن تكونوا
 أول فريق مؤمن به فلا تكفروا به ، فكيف تكونون أول من كفروا به من أهل الكتاب ، وكيف تشتمون
 أي تستقبلون بالإيمان عرض الدنيا من الهدايا والتحف التي تنالونها من الناس بسبب ما نلتهم من الرياسة عليهم
 في الدين وعرض الدنيا قليل ، والإيمان لا يدانيه شيء عندي (وإلما فاتقون) بالإيمان (ولا تلبسوا
 الحق بالباطل) ولا تخاطبوا الحق الذي أنزلته بالباطل الذي تخترعونه (وتكنموا الحق) الذي تعدونه عن
 ليلاهلين به (وأتم تعلمون) أنكم قد لبستم وكنتم ، فان سكتتم فمن الحق حتى لا يعرف ، وإن فطقتم
 أنيتم بالباطل لتدحضوا به الحق ، وأنتم تعلمون أنكم في الخالين حاندون عن الصراط السوي (وأقيموا
 الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) كما أمرنكم بالإيمان بالنبي وبالقرآن آمركم أن قيموا الصلاة
 وتؤتوا الزكاة ، ولتكن الصلاة جماعة ، فانها أفضل من صلاة الفرد سبع وعشرين درجة لاجتماع القوس
 واتحادها ، فتكون أقرب الى الله (أنا مردون الناس بالبر) التوسع في الخير (وتنبون أنفسكم) وتتركونها
 من البر (وأنتم تنالون الكتاب أفلا تعقلون) كان أخبار اليهود ينسجون سرابا بنوع محمد ﷺ ويأمرون
 الناس بالصدقات ، أما هم فكانوا لا يفتنون خوفًا على الرياسة ولا يتصدقون خيفة الفقر ، والتوراة بين أيديهم
 وفيها الوعيد الشديد على من ترك البر وخالف قوله فعله ، فهلا نعتهم عقولهم وصانتهم ألباهم عما يعملون من
 مخالفة الأقوال للأفعال ، وليس المراد أن يمنع الفاسق من النهي عن المنكر ، كلا ، وإنما يجب مطابقة الأقوال
 للأفعال ، والا فنحن مأمورون أن نترك للعصية ، وأن تنهى عنها ، وليس ترك أحدهما بمنع من القيام
 بالآخر ، فالآية تحضنا على الجمع بين الأمرين لأنها تمنعنا عن أحدهما إذا تركنا الآخر ، وإذا كنتم أيها
 الأخبار شق عليكم ترك الرياسة ، وخشيتم الذلة والفقر بانواع القرآن والإيمان بمحمد ، فقللوا أن الصبر
 والصلاة بهما تنالون الفرج ، فالصابر المنتظر الفرج من الله الذي يدعوه سبحانه وتعالى بحجاب لما يطلب مادام
 مضطرا كما قال « آمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » ، وذلك قوله
 تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) فتكون الصلاة بمعنى الدعاء ، والدعاء مستجاب لمن صدقت نيته
 وعزيمته ، وقد براد بهما الصوم والصلاة الشرعيان (وانها لكبيرة إلا على الخاشعين) أي وإن الاستعانة
 بالصبر وانتظار الفرج والدعاء مع توجه الهمة ثقيلة إلا على الخاشعين ، ويصح رجوع الضمير للصلاة
 (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون) أي يتوقعون لقاء الله تعالى (يا بني إسرائيل اذكروا
 نعمتي التي أنعمت عليكم) وهذا ظاهر مما تقدم (وأني فضلتكم على العالمين) أي على زمانهم : أي
 تفضيل آبائهم على عالم زمانهم أيام موسى (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل عنها شفاعة ولا
 يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) أي لا يقبل من النفس العاصية شفاعة الشافعين ، ولا يؤخذ منها فدية ،
 ولا ناصر ينصرهم . وقد تمتك المعتزلة بهذه الآية لني الشفاعة عن مرتكب الكبيرة ، وخصها بالجمهور
 بالكفار لما ورد من الآيات والأحاديث في الشفاعة (واذ نجيناكم من آل فرعون) من فرعون وقومه
 وأصل آل أهل ، ولذلك يصغر على أهيل ، ويخص استعماله بأولي الخطر كالملوك وأشباههم . وقوله (يسومونكم)
 حال من آل فرعون : أي يولونكم ، وقوله (سوء العذاب) مفعول ثان يسومونكم ، ثم أبان سوء العذاب
 بقوله (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) يتركون بناتكم أحياء للخدمة (وفي ذلكم بلاء من ربكم

عظيم) عنة عظيمة ، أو نعمة كذلك : اذا ارى يدمن فرعون في الأولى ، أو ارى الانحاء في الثانية ، والبلاد
الاختبار والامتحان ، وهو شافع فيهما انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح المعاني

اعلم أن هذه الآيات فيها الكلام على العهد وعلى الشفاعة وعلى تفضيل بني اسرائيل ، فلنبسط الكلام
عليها . فنقول :

اعلم أن العهد الذي أمر اليهود أن يوفوا به ، إما أن يكون المقصود به فعل الطاعت واجتباب المعاصي ،
ولما أن يكون المراد به ما أثبت في الكتب السابوية في نبوة سيدنا محمد ﷺ . ولقد ذكر تلك العهد
المسرون ، كالامام الرازي اذا ثبت ما جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة وتبشير الملك طماجر
أن يكون طماجر فوق الجبع . وما جاء في الفصل الحادى عشر من السفر الخامس . وما جاء في السفر العشرين
من هذا السفر . وما جاء في كتاب أشعياء في الفصل الثاني والعشرين . ولما نظرت في التوراة وجدتها قد حذفت
منها تلك العبارات وطاحت تلك البشارات ولم يبق من الكتب السابوية كتاب لم تمتد إليه أيدي المغيرين
الا انجيل برنابا الذي كان سرا مكتوما عند النصارى قديما [وقد ترجمه حديثا الدكتور خليل بك سعاده من
الانجليزية] ونشره صديقا العلامة السيد محمد رشيد رضا منشي* مجلة المنار .

قال في الفصل الثاني والسبعين قل يسوع : لا تضرب قلوبكم ولا تخافوا لأنى لست أنا الذي خلقتكم بل
الله الذي خلقكم بحكيم ، أما من خصوصى فاني قد أثبت لأهبي* الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلص
العالم لكن احذروا أن تشتموا لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرين يأخذون كلامي وينسبون انجيلي ، حينئذ
قال اندراوس : يا معلم اذ كر لنا علامة لنعرفه ، أجاب يسوع انه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعثة سنين
حينما يبطل انجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تسقر على
رأسه غمامة يضاء يعرفه أحد مختارى الله ، وهو سيظهر للعالم وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبد عبادة
الأصنام من العالم ، واني أسرت بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدق وسيتم من الذين سيقولون
اني أكبر من انسان ، الحق أقول لكم ان القمر سيعطيه رقادا في صباه ومتى كبر هو فليحذر العالم أن يبنده
لأنه سيفتك بعبد الأصنام ، فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيرا ولم يبق يسوع على اللعن التي
أحرقوها وقتلوا الأطفال ، لان القرحة الملزمة يستعمل لها السكى .

وسيجي بحق* أجلى من سائر الأنبياء ، وسيبوح من لايحسن السلوك في العالم ، وستجي طربا أبراج
مدينة آباننا بعضها بعضا ، فتي شوهده سقوط عبد الأصنام إلى الأرض ، واعصف بأني بشر كسائر البشر
فالحق أقول لكم ان نبي الله حينئذ يأتي .

وقال في الفصل الثاني والثمانين : ثم التفت الى المرأة ، وقال أيتها المرأة انكم أتم السامريين تسجدون
لما لا تعرفون ، أما نحن العبرانيين فنسجد لمن نعرف ، والحق أقول لك ان الله روح وحق ، ويجب أن يسجد له
بروح والحق ، لأن عهد الله انما أخذ في اورشليم في هيكل سليمان لاني موضع آخر ، ولكن صدقيني انه يأتي
وقت يعطى الله فيه رجته في مدينة أخرى ، ويمكن السجود له في كل مكان بالحق* ويقبل الله الصلاة الحقيقية
في كل مكان رجته ، أجابت المرأة : انا ننتظر مسيا فتي جاء يعلنا ، أجاب يسوع أتعلمين أيتها المرأة ان مسيا
لا بد أن يأتي ، أجابت نعم يا سيد حينئذ تهلل يسوع ، وقال يابوح لي أيتها المرأة انك مؤمنة فاعلمي اذن أنه
بالإيمان بمسيا سيخلص كل مختارى الله اذن ويجب أن تعرف محي* مسيا ، قالت المرأة لعلمك أنت مسيا أيها
السيد ، أجاب يسوع اني حقا أرسلت إلى بيت اسرائيل نبي* خلاص ، ولكن سيأتي بعدى مسيا المرسل

من لله لكل العالم الذي لا جله خلق الله العالم ، وحينئذ يسجد لله في كل العالم ، وتعال لرجة حتى لنسة
اليوسيل التي تجيء الآن كل مائة سنة سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان ، حينئذ تركت المرأة جرتها
وأسرعت إلى المدينة لتخبر بكل ما سمعت من يسوع .

وقال في الفصل السادس والتسعين : ولما انتهت الصلاة . قال الكاهن بصوت عال : قد يا يسوع لأنه
يجب علينا أن نعرف من أنت تكينا لأمتنا ؟ أجاب يسوع : أنا يسوع ابن مريم من نسل داود بشر مانت
ويخاف لله وأطلب أن لا يسطي الاكرام والمجد الا لله ، أجاب الكاهن انه مكتوب في كتاب موسى : ان لها
سيرسل لنا مسيا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتي للعالم برجة الله ، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق ،
هل أنت مسيا لله الذي نتظره ، أجاب يسوع حقان الله وعد هكذا ، ولكنني لست هو لأنه خلق قبلي ،
وسيأتي بعدى ، إلى أن قال لعمر الله الذي قد يحضرته نفسي اني لست مسيا الذي نتظره كل قبائل الأرض
كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، ولكن عند ما أخذني الله من العالم سيثير
الشیطان مرة أخرى هذه الفتنة الممونة بأن يحمل عدم التقوى على الاعتقاد بأن الله وابن الله فيتنجس
بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبق ثلاثون مؤمنا ، حينئذ برحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق
كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الاصنام وعبدة الاصنام وسيترزع من الشيطان
سلطته على البشر ، وسيأتي برجة الله لخلاص الذين يؤمنون به ، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا إلى أن
قال : ولكن تعزيتي هي في محي الرسول الذي سيبيد كل رأى كاذب في ويسمى دينه ، ويم العالم بأمره
لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم ، وان ما عزي هو أن لانهاية لدينه ، لأن الله سيحفظه صحيحا وبعد أسطر
قال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا ، وما هي العلامة التي تعلن مجيئه ؟ أجاب يسوع ان اسم مسيا عجيب ،
لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماري . قال الله اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق
الجنة ، والعالم وجافغفيرا من الخلائق التي أهيا لك ، حتى أن من يباركك يكون مباركا ، ومن يلعنك يكون
ملعونا . ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة حتى ان السماء والأرض
تهتان ، ولكن إيمانك لا يهن أبدا ، ان اسمك المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا الله أرسل
لنا رسولك ، يا محمد تعال سر بها لخلاص العالم .

وقال في الفصل السادس والثلاثين بعد المائة : وبعد هذه السنين يجيء الملك جبريل إلى الجحيم
ويسمعهم يقولون يا محمد أين وعدك لنا ان من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد ، فيعود حينئذ
ملاك الله إلى الجنة ، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع ، حينئذ يكلم الرسول الله
ويقول : ربني وإلهي اذكر وعدك لي أنا عبدك بأن لا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد ، فيجيب
الله : اطلب ما تريد يا خليلي لأنني أهيك كل ما تطلب .

وقال في الفصل السابع والثلاثين بعد المائة ، حينئذ يقول رسول الله : يارب يوجد في الجحيم من لبث
سبعين ألف سنة أن رحمتك يارب ؟ اني أضرع إليك يارب أن تعتمهم من هذه العقوبات المرة ، فيأمر الله
حينئذ الملائكة الأربعة المقرين بين الله أن يذهبوا إلى الجحيم ويخرجوا كل من سكان على دين رسوله
ويقوده إلى الجنة ، وهو ماسينعلونه ، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله أن كل من آمن به يذهب
إلى الجنة بعد العقوبة التي تكلمت عنها حتى لو لم يعمل عملا صالحا لأنه مات على دينه اه .

أقول : وهذا القول وأمثاله ان ثبت يكون مؤولا ، والا فله عز وجل يعلم كل شيء ، ونحن انما نقلنا
هذا لاثبات ما رأيناه في الانجيل .

وجاء في الفصل الثاني والاربعين بعد المائة قال : الكتبة والفريسيون لرئيس الكهنة ماذا فعل لوصار هذا الرجل ملكا حقا ان ذلك يكون وبالاعليتنا ، فانه يريد أن يصلح عبادة الله على حسب السنة القديمة ، لأنه لا يقدر أن يبطل تقاليدنا ، فكيف يكون مصيرنا تحت سلطان رجل هكذا ؟ حقا اتانا نهلك نحن وأولادنا لأننا اذا طردنا من وظيفتنا اضطررنا أن نستعطي حزبا ، أما الآن فالله لنا ملك ووال أجنيان عن شريعتنا ولا يباليان بشريعتنا كما لانبالي نحن بشريعتهم ، ولذلك هتدر أن فعل كل ما تريد ، فإن أخطأنا فإن إلهنا رحيم يمكن استرضائه بالضحية والصوم ، ولكن إذا صار هذا الرجل ملكا علينا فلن يسترضى الا إذا رأى عبادة الله كما كتب موسى ، وأنكى من ذلك أنه يقول : ان مسيا لا يأتي من نسل داود [كما قال لنا أحد تلاميذه الأخصاء] بل يقول : انه يأتي من نسل اسماعيل ، وان الموعد صنع باسماعيل لا باسحق ، فإذا يكون الثمر اذا تركنا هذا الانسان يعيش ، من المؤكد أن الاسماعيليين يصيرون ذوى وجاهة عند الرومانيين فيطونهم بلادنا ملكا ، وهكذا يصير إسرائيل عرضة للعبودية كما كان قديما ، فلما سمع رئيس الكهنة هذا الرأي ، أجاب أنه يجب أن يتفق مع هيرودوس والوالي ، لأن الشعب كثير الميل اليه حتى أنه لا يمكننا اجراء شيء بدون الجند وان شاء الله تتمكن بواسطة الجند من القيام بهذا العمل .

وجاء في الفصل الحادى والتسعين بعد المائة ، فقال من ثم الكاتب : لقد رأيت كتيبيا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع [الذى أوقف الشمس] خادى ونبي الله ، وهو كتاب موسى الحقيقى ففيه مكتوب : ان اسمعيل أب لمسيا واسحاق أب لرسول مسيا ، وهكذا يقول الكتاب ان موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم اظهر لعبدك في سناء مجدك ، فأراه من ثم رسوله على ذراعى اسمعيل ، واسمعيل على ذراعى ابراهيم ، ووقف على مقربة من اسمعيل اسحق ، وكان على ذراعيه طفل يشعر بأصمعه الى رسول الله قائلا هذا هو الذى لأجله خلق الله كل شيء ، فصرخ موسى من ثم بنوح : يا اسمعيل ان في ذراعيك العالم كله والجنة اذ كررت أنا عبد الله لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك الذى لأجله صنع الله كل شيء .

وجاء في الفصل الثانى والتسعين بعد المائة : لا يوجد في ذلك الكتاب ان لله يأكل لحم المواشى أو النظم ، ولا يوجد في ذلك الكتاب ان الله قد حصر رحمة في اسرائيل فقط ، بل ان الله برحم كل انسان يطلب الله خالقه بالحق ، لم تتمكن من قراءة هذا الكتاب كله ، لأن رئيس الكهنة الذى كنت في مكتبته نهانى قائلا [ان اسماعيليا قد كتبه] فقال حينئذ يسوع : انظر أن لا تعود أبدا ، فتحجز الحق لأنه بالايمان بمسيا سيعطى الله الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدون الله .

هذه هي البشارات الواردة في الانجيل برنابا ، وانما أثبت هنا هذه البشارات ، لأن هذا الكتاب قد ورد الأمر بعدم نشره وباحراقه في بلادنا المصرية ، فانتهزت فرصة اطلاعى عليه لىقى تذكرة لمن بعدنا ، ولقد طبع سنة ١٣٢٥ هجرية سنة ١٩٠٧ ميلادية ، ولم يبق منه الا نسخ تمحى بعد قليل من الوجود بونفساه الأجيال المقبلة ، ولقد اضطرت آراء الباحثين في هذا الانجيل ، وقد ثبت ثبوتنا لاشك فيه أن المسلمين جبا من عصر النبوة الى العصور الأخيرة يجهلون حق الجمل ، ولم يتعرض له أحد من الباحثين الذين يردون على المسيحيين بكتابهم ، وقد جاء ذكر النبي ﷺ فيه صريحا مرارا ، ويقول بعض المعترضين : ان هذا هو الذى يورث الشك ، لأن الصراحة الى هذا الحد غير معروفة عن الكتب السهلوية في أمثال هذه البشارات ويقول المؤيدون له : انه لم يكتبه مسلم بدليل أنه لم يكن له ذكر في فهارس مكاتب المسلمين ، ويقولون : ان البابا جلاسيوس الاول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أصدر أمرا يحد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفي عدادها كتاب يسمى [انجيل برنابا] فيكون هذا الانجيل موجودا

قبل ظهور الاسلام بزمن طويل :

وأجمع الباحثون على أنه انجيل مليء علما وحكمة وأخلاقا وعفة بضمه النفوس البشرية بأنواره ، وهو أفضل من الانجيل ، ولقد قالوا أيضا : ان المسيح ليست عنده هذه الملكة العلمية والحكمة العالية الحقيقية وبالجملة فالكتاب نافع من حيث الاطلاع عليه والله أعلم ، ثم اعلم أن برنابا من حواربي عيسى ، وفي انجيله مخالقات للانجيل ، مثل ان المسيح لم يصلب انما هو يهوذا الخائن الذي شبه به بقاء . مطابقا للقرآن . وما قتله وما صلبه ولكن شبه لهم ، ومثل قوله : اني لست ايتها ولست ابن الله ، وفي نصريحه بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما الشفاعة : فاعلم أن أهل السنة قالوا باسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب . إما بأن يشفع لهم يوم القيامة في العرصات حتى لا يدخلوا النار ، وان دخلوا النار يشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة . وهذه المعترلة انها تكون للمستحقين للثواب بأن تحصل لهم زيادة المنافع على قدر ما استحقوه ، وانفقوا على أنها ليست للكفار ، وقد كتبت في هذا الموضوع مقالا مقتبسة أصوله من كلام الأستاذ محي الدين بن عربي والامام الغزالي ، فأجبت ذكره هنا تذكرة للعقلاء ونصرة للمسلمين وتقوية للتربية الاسلامية في مستقبل الزمان :

مبحث الشفاعة

اعلم أن الأمة الاسلامية ، قد أجمعت أنه صلى الله عليه وسلم يشفع في أمته ، وهذا أمر مجمع عليه لافرق بين السنة والمعتزلة والفلاسفة منهم ، ولكنهم اختلفوا في المقصود منها ، وما أنا اذا ذكر لك الحقيقة واضحة جلية خالصة ظاهرة ، ثم أطبق عليها سائر الأقوال ، والآيات ، والأحاديث ، بحيث يتفق للشرب الديني ، والمنهج القويم للتربية الاسلامية ، وهذا هو الذي انشرح له صدرى وصرت موقنا به تحقيقا .

فاعلم أرشدك الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كالشمس المشرقة ، كما قال تعالى « وداعيا الى الله بلذنه وسراجا منيرا » والشمس مشرقة على اليابسة ، والبحر ، والآكام ، والنبات ، والشجر ، والأرض السبخة والأرض الطيبة ، وكل من تلك المواضع يأخذ حظه من ضوئها على مقدار استعداده ، فأما البحر فانه يزجي السحب باسراق الشمس على أربائه ، فيكون بخار فحباب فطربحي الأرض ، وأما الجبال فان ماعل بعضها من الثلوج المتراكمة تنزل ماء شيئا فشيئا الى باطنها ، ثم تخرج ينابيع فتعطي الأرض ، وأما الهواء فيتمسك وتنكون منه الرياح ، والأعاصير ، والزلازل ، وأما الأرض الطيبة فتخرج زراعا مختلفا ألوانه ، وأما الأرض السبخة فلا تخرج شيئا ، وقد تخرجه نكدا ، هذا هو المثل الذي أردت ضربه لحال النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس ، فلنبيه القلوب النقية الذليلة بالبحار ، اذا سمعت الدين أزعجت السحب ، وضعت الناس وأحبت قلوبهم ، ولنجعل القلوب الطيبة كالصالحين ، والأرض السبخة كالفجار الذين لا يرجي نعمهم ، والملوك والأمراء ورجال الدولة والوعاظ ككذلك الرياح التي يهتز لها جميع ماعل الأرض ، وفي الجوف تمتدل ونجد وتستقيم ويحيط بالملك والعلماء الشعب والحيوش محافظة عليهم ، فكما اختلف الزرع لونا ورائحة وطعما ، وهكذا الشجر ، والبر ، والبحر ، والشمس ، واحدة ، هكذا تختلف الأمة التي تقبح نبيها في أطوارها وأحوالها الدينية على حسب أمر جناتها وأخلاقها وعوائدها وبيئتها ، فله نور السموات والأرض أشرق نوره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مشرق على الناس ، فلا جرم يختلفون في قبوله اختلف أحوالهم ، وتنكون أحوالهم في الآخرة على مقتضى ذلك الاختلاف ، فالمرسلون واسطة للتعليم ، والناس المرسل اليهم ، هم الذين يختلفون في الانبعا باختلاف أطولهم واستعدادهم ، وهم مسئولون يوم القيامة عن أعمالهم على مقتضى ما بلغهم الواسطة ، فاذا كانت الأرض

الطبية ، والأرض اليابسة ، والبحر اختلفت في القابلية ، والسبخة ، هكذا سيكون الناس في أحوال الآخرة على مقتضى ما كسبوا من الوسيلة التفتيح لهم عند الله تعالى « وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » ويقرب من هذا ماورد ، فمن أبي موسى عبد الله ابن قيس الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى وفقه ما بعثني الله تعالى به نعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا : ! يقبل هدى الله الذي أرسلت به] فهذا الحديث أفادنا أن اختلاف النتائج علما وعملا وجهلا لاخلاف الناس في أطوارهم ، كما اختلفت الأرض لما ورد عليها الماء في كيفية قبوله ، وكما قلنا باختلاف أحوال الأرض وما عليها باختلاف قبولها لضوء الشمس ، فالغيض من الشمس ، ومن الثيب كامل غير منقوص ، والاختلاف انما جاء من الجهات القابلة للضوء وللثيب .

واعلم ان للشفاعة بذور وانبيا وتورا ، فبذورها العلم ، ونباتها العمل ، وثمرها النجاة في الآخرة ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام علموا الناس في الدنيا ، وفيها غرسوا البذور ، والناس إذا عملوا بما سمعوا منهم ، ولم تكن تلك الشرائع منسوخة فقد استعدوا للنتيجة ، ويوم القيامة ينالون تلك الثمرة ، وهي النجاة والارتقاء ، ولكن تلك الثمرات تختلف باختلاف أعمالهم وجددهم وجهم للخير وأخلاقهم ، فبادى الشفاعة العلم ، وأوسطها العمل ، ونهايتها الفوز والرقى في الآخرة ، بل كثيرا ما تظهر بعض الثمرات في الحياة الدنيا بالتوفيق ، والنصر والمز ، وفي الحديث يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، فهذا يفيد أن الشفاعة تابعة للاقتداء ، فالأنبياء علموا العلماء والعلماء علموا الناس ، وأفضل الناس بعد الأنبياء العلماء ، فالشهداء : وهم بما قدموا أنفسهم في سبيل الله أصبحوا قدوة للناس وأعطوهم درسا نافعا يتبعونهم فيه ، فكانوا بعد العلماء في هداية الناس لأن العلم أوسع والشهادة أقل ، ولكنها أجمع ، فمن لم يعمل بما أنزل الله ونجاني عن الحق فقد عطل ما وهب له من بذر الشفاعة ولم يسقه ولم يرتبه ولم يجه بالعمل ، فيحرم ثمرته مع أنه ساوى جميع المسلمين في حصول البذر عنده وخالفهم في صعوده عن استتماره ، ساوهم في نوال بذر الشفاعة وخالفهم وقص عنهم فيها بعد ذلك ، وعلى هذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام في رواية أبي هريرة [لألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول لأملك لك من الله شيئا قد بلغتك] فانظر في قوله صلى الله عليه وسلم قد بلغتك ، كأنه يقول له التبليغ بذر الشفاعة ، وعليك العمل بنبه النجاة .

وعن أبي هريرة أيضا قال : قال عليه الصلاة والسلام [ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجرته] .

وروى عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال [يا كعب بن عجرة يا كعب أعينك بالله من إمارة السفهاء ، إنه سيكون أمراء من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم فلتت منه وليس منى ، ولن يرد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يمنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم ، فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض : يا كعب بن عجرة : الصلاة قربان ، والصوم جنة ، والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار : يا كعب بن عجرة لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت] .

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام [دخل المقبرة ، فقال :

السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا ان شاء الله بكم لاحقون ، وددت اني قدر ايت اخواننا ، قالوا يا رسول الله
 ألسنا اخوانك ، قال بل اتم اصحابي و اخواننا الذين لم يأتوا بعد ، قالوا يا رسول الله كيف تعرف من يأتي بعدك
 من أممتك ، قال أرايت ان كان لرجل خيل غرة محجلة في خيل دهم ، فهل لا يعرف خيله ، قالوا بلى يا رسول الله ؟
 قال فانهم يأتون يوم القيامة غرة محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض ألا فليذادن رجال عن حوضي
 كما يذاد البعير الضال أناديهم الأهل ؟ فيقال انهم قد بدلوا بهدك أقول : سحقا فسحقا] .

وهذه الأحاديث هي المناسبة لقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »
 ولقوله تعالى « اقرأ كتابك كفي بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

فهؤلاء الذين أعانوا الأسماء على ظلمهم ، وأولئك الذين بدلوا بعد نبيهم ، وأولئك الذين جاءوا يحملون
 شيئا قد ظلموا في حلها ، كل هؤلاء قد بذرت لهم بذور الشفاعة ، ولكنهم حرموا أنفسهم ثمرتها بقرطوب
 فيها جزء وفاقا ، فإذا قيل إنه يشفع في أهل الكبائر ، أو في زيادة الحسنات للمحسنين ، فقد دخل ذلك كله في
 هذا الذي أوضحته لك ، وإذا سمعت عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال [قلت يا رسول الله من أسعد الناس
 بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث
 أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه] أخرجه البخاري ، فإذا سمعته فاعلم
 أن هذا قد نال من الشفاعة بذرها ، وهو العلم ، والعمل بيمينه العمل ، والثمره نتيجة ، وهي النجاة في الآخرة
 ولا جرم أن العمل لا يكون إلا بعد العلم ، فإذا كان العمل مبنيا على جهل فلا يستحق شفاعته ، وأما صاحب
 العلم فإن لديه أقوى ركني الشفاعة ، وهو العلم ، ولم يبق الاستئثاره ، فعلى هذا فقس فيما يرد عليك من
 الأحاديث ، واعلم أن هذا المعنى : أخذت أصوله من الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي ، وكذلك يفيد
 كلام الامام الغزالي ، وبعض الأقوال التي أوردها الفخر الرازي .

قال الامام الغزالي في الاحياء

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا
 جيدا غير عفن ولا مسوس ، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقي الشوك عن
 الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق
 والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمي انتظاره رجاء ، وان بث البذر في أرض صلبة سيخة
 مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حقا وغرورا
 لارجاء ، وان بث البذر في أرض طيبة لكن لاماء لها وأخذ ينتظرياه الأمطار حيث لا تقب الأمطار ولا تمنع
 أيضا سمي انتظاره نميا لارجاء ، فإذا سمى الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت
 اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ، فالعبد
 اذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وظهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله
 تعالى ثيبته على ذلك الى الموت ، وحسن العناية النفسية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه
 باعتنا له على الموانبة والقيام بمتنفي أسباب الإيمان في انعام أسباب المغفرة الى الموت ، وان قطع عن بذر
 الإيمان تمهده بماء الطاعات ، أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر
 المغفرة فانتظاره حق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم : « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وقال
 تعالى : « تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة وانبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وقال تعالى أيضا :

« خلقت من بعدهم خلقت ورتوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته و « قال ما أظن أن نبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلباً » فلذا العبد المجتهد في الطاعات ، المجتنب للعاصي ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وتمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما العاصي فلذا ناب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير حقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كلرها للعصية تسوؤه السيئة وتسره الحسنه وهو يذم نفسه ويلومها وبشهي التوبة وبشفاق إليها ، حقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ، لأن كراهيته للعصية وحرمه على التوبة يجري مجرى السب الذي قد ينضى إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكيد الأسباب ، ولذلك قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء ، لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ، ولا يعزم على التوبة والرجوع فرباؤه المغفرة حتى كرجاء من بث البذر في أرض سيحة وعزم على أن لا يتعمده بسقي ولا تنقية له

فهكذا يذم أن يقرر في الأمة الاسلامية تعليم الأخلاق حتى يشب الشبان مجتدين ، وليعلموا أن الانسان تابع لعمده وأخلاقه ، وهذا هو الموافق للفطرة ولقصد الاسلام ، ففي الحديث : « أنت مع من أحببت » والأنبياء يتبعهم العلماء حيا في مناهجهم ، ويتبع العلماء العامة ، فهؤلاء على مقدار اتصالهم في الحياة الدنيا يتصلون يوم القيامة فلا يبرد الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم إلا من كان به في الدنيا متصلا ، أى عملا بشريعته ، سائرا على منهجه ، والناس يحشرون على حسب الأخلاق التي ماتوا عليها ، لأن الثواب والعقاب كما قاله المحققون نتائج وثمرات ، وليس الله عز وجل يريد أن يشي غيظه ، وإنما هو مهربي العالمين ، وتعالى الله عن صفات المحدثين ، والحياة الآخرة تابعة للحب ، ولا يجب المرء إلا من كان على شاكلته ، ومثل الآخرة كمثل الدنيا ، فكما أنك لا تعيش مع السمك في البحر ، ولا يقدر السمك أن يعيش في البر ، ولا يستطيع حيوان البحر وحيوان البر أن يطيرا في جوف السماء ، ولا يستطيع الطير أن يعيش في البحر ، هكذا بنو آدم في الآخرة كل يوضع في المكان الذي استحقه ، ولا يقدر أن يتجاوز ، على حسب الأخلاق التي اكتسبها ، وفي الحديث : « بحشر المرء على ما مات عليه » وفي الآية : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » وهذا التفسير الذي اخترته للشفاة كما جمع بين الأقوال كلها ، والأحاديث ، ونظام الله عز وجل في ملكه ، وآيات القرآن . وعدل الله سبحانه وتعالى ، هكذا يناسب ما يجب أن تكون عليه الأمة الاسلامية في مستقبل الزمان ، فإن الأمم كلها قد ارتقت بالعلم والحكمة ، وبنيت المسكون في مؤخرهم ، بسبب جهل الوعظ وتسهيلهم على الناس ، ولعمري ان هذا ليجتد النشاط ، والجد والعمل في الأمة ، وبرق المسلمين علما وعملا واذن يفهمون قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ويعرفون انه عز وجل عدل ، ولن يخرج من بذر القمح إلا القمح ، ولا من النواة إلا ما كان من جنسها ، فالصدق مشاهد في العالم الذي أمامنا ، ولولاه لاختل نظام الحياة ، فإذا زرعت البرسيم للدواب ، أو الحنطة والتفاح للإنسان ، جينا الثمر على مقتضى البذر فأكلت الدواب والانسان ، ولو كان الأمر فوضى فأخرج البرسيم بدل التفاح ، والتفاح بدل الحنطة ، لحار الناس في أمورهم ، ولضلوا سواء السبيل ، ولم تكن لهم حياه رشيدة ، وتخططوا في ديجور المذلة وسوء الخلال ، وكانت الفوضى ، والناس لا يشعرون بهذا العدل وحسن النظام ، لأنهم فيه مغمورون لا ينظرون فيه وإنما كل منهم مهتم بما يشبع بطنه ويوفي شهوته ، مشغول بجمع ذلك ليلا ونهارا وهم عن العلم بما حولهم غافلون « وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » وهاتين لولاه

نرى طلوع الشمس وغروبها ، وكذلك القمر والكواكب الأخرى بنظام مرتب في جداول يطلع عليها الناس
وأكثرهم لا يتعجبون من حكمته عز وجل في اتقان الحساب وحسن النظام الذي لواختل لحظة ملك الحمرث
والنسل ، ولو أن الشمس تأخرت عن موعدتها وقت الظهر دقيقة واحدة يوما ما فقط لصنع من نوع الانسان
مئات الألوف ، ومن أمواليهم مئات آلاف الآلاف ، فان هذا التأخير يحدث تصادما في القفارات الجارية بالكوكب
الحديدية فيموت الراكبون ، وتختل مواعيد الأعمال في التجارة ، صادرها وواردها ، فنحن هنا على الأرض
مغمورون في نظام تام لا يفتقر إلا العالمون ، وإذا كان هذا في الدنيا فان الآخرة أتقن نظاما ، والمنظم للدارين
واحد ، أفلا تكون الأعمال لها نتائج كتناج النبت والشجر ؟ أولا يكون الأنبياء والعلماء الذين أبعوهم
أشبه بنوء الشمس : وقطرات الفيث على العقول فتكون الأعمال فالنتائج . هذا ما فتح الله به وانشرح
له صدرى .

حكاية

قد قدمت الى مصر سيدة روسية كانت تفتنى الجمعيات العلمية في برلين وبلرس وفينا وسائر عواصم أوروبا
وكانت من أهل العلم ، تحسن لغات كثيرة ، وكان أكثر ميلها الى علم التصوف ، وقد أشار عليها أستاذها
[ماركس الألباني] أن تترجم كتابا في علم التصوف الى اللغة الفرنسية ، واختار من بين الكتب رسالة القشيري
التي ألفها في القرن الرابع في هذا الفن لصوفية المسلمين ، ولما جاءت الى مصر طلب مني وزير المعارف إذ ذاك
أن أساعدها فساعدتها في فهم الكتاب عند الترجمة تسع سنين ، وكانت تعجب بعلوم المسلمين ، وذوقهم وآدابهم
وفي أواخر لدة قبيل الحرب الكبرى ، قالت لي يوما : انني بعد أن سافرت هذه السنة الى أوروبا تبين لي أن
الدين الإسلامي على خلاف ما كنت أظن ، نعم هو حق ولكنة أقل من الدين المسيحي ، وهذا الاعتقاد
خلاف ما كنت أعتقد من قبل ، فقلت : ولم ذلك ؟ فقالت : قابلت شاب من الذين يتعلمون من الرهبان
في طور سيناء ، وعندة شهادات عالية من ألمانيا ، ويجيد بعض اللغات الأوروبية ، فأخذ يتحدثني عن الاسلام
وهو يعرف ميلى إليه ، فقال : إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان وهو صغير تلوح عليه مخايل النبوة ، ولما رآه
بجيرا الراهب ، وأدرك فيه هذا المعنى ، قال في نفسه : إذا كان هذا نبيا فغير لنا أن يكون مسيحيا ، فعلمه
الدين المسيحي ، وأخطأ بجيرا في بعض تعاليمه ، فإنه أفهمه أن عيسى لم يصب لجهله باللغة ، لأن بجيرا صالح ،
ولكنه ليس مبدقا في اللغة ، جاء دين الاسلام ولبس فيه الصلب مع أن المسيح أول من مات فأحياه الله ،
فيكون هذا برهانا على حياة الناس يوم القيامة ، فالمسيح الذي يندى الناس قد صلب لهذه الحكمة ، قالت :
فأنا على ذلك أصبحت أرى أن الاسلام حق ولكنة أقل من المسيحية التي آمنت بمن صلب ثم حي . فلما
آمنت قولها قلت لها : هل تحبين أن تسمى رأتى ؟ فقالت نعم وانى ما ذكرت لك هذا إلا لأسمع رأيك ،
فقلت : أما قول صاحبك ان المسيح أول من مات ثم حي ، فهذا لاحظ له من الحقيقة ، لأن في التوراة أن قوما
ماتوا ثم أحياهم الله لانهم كانوا قد فروا من الطاعون فلبس المسيح على زعم من آمن بالصلب أول من حي
وفي التوراة من ذلك كثير .

وأما قوله : ان عيسى يندى الناس فهذا كلام له معنى غير ما يفهمه الجهلاء من المسيحيين ، فقالت وكيف
ذلك ؟ فقلت أرأيت لو أن رجلين أحدهما يعلم أولاده الأدب ، والثاني يقول : كونوا أحرارا يا أبناءى واقتلوا
واسرقوا وأنا أدافع عنك : فأى الأبوين أفضل ؟ قلت الأول : قلت هكذا يطلب منا علم التربية الحديثة
والقديمة ، قالت نعم : قلت فهل المسيح ؟ وهو نبى في اعتقادنا نحن معاشر المسلمين يقل في العلم والتعليم عن
أفضل الأبوين المذكورين ، قالت كلا ؟ بل هو أفضل منهما ، وهو معلمهما ، والمعلم أفضل من المتعلم ، وأعلم

منه : قلت اذن لا يجوز في علم التريية أن يقول نبي عن ربه افعلوا ما نشاءون وأنا سأكون فداء لكم ، وبعبارة أخرى يقصر شريعته بنفسه فأخذ منهم بالشمال ما أعطاهم باليمين ، قلت والله ان كلامك الحق ومعقول ، قتل في اذن ما يقصد بكون المسيح يفتدى الناس في نظرك ؟ قلت أما ديني فيشكر الصلب ؟ اذن أنا ليس لي نظر في مسألة مخالفتها لديني ، وإنما أقول : الحق أن العامة يتكلمون عليه في تخليصهم من بد القضاء يوم القيامة ، ويكون الدين إذ ذاك هادما للإنسانية ، مؤخرا للدينية راجعا بالإنسان القهقري ، وهذا بعينه هو السبب فيما بلغنا لهذا العهد عن الاحصاء في فرانس لأحكام القضاة فانهم وجدوا أن الملحدون الكافرين بالله هناك أكثر صدقا وأقرب للعدل من المتدينين لانهم كانوا يسألونهم لم فعلتم ذلك ؟ فكانوا يقولون رجونا أن تشفع لنا العذراء أو القديس فلان ، وهكذا : ولذلك نرى أن الديانات التي طأ عليها الأمد ، ولم تجد لها من يجدد أمرها وتولوا لها الخور ، وقعت بتابعها عن الرقي وساءوا مصيرها ، وإنما كان الملحدون في فرانس أرق أخلاقا من المتدينين ، لان الأولين أتوا عواطفهم وعقولهم وفطرتهم التي فطرهم الله عليها ، وفيها أصول الأخلاق . أما الآخرون ففطرتهم تركوا فطرتهم وسلموا أنفسهم للدين ، والدين دخله التحريف والتحرير ، فنزل بأخلاقهم فسفت فكانوا من الحاسرين ، فرأيتهم أشرفت سرورا ، وأبرقت أسرتها واستبشرت ضاحكة ، وقالت نم : لقد أدت وأسفت ونظقت بعلم اه .

فتأمل أيها المسلم في هذه الحكاية فاني ماقتها لك اعتباطا ، وإنما ذكرتها لتنظر سيرة سيدنا محمد ﷺ وأخلاقه وآدابه ومعاشرته وسيره للحرب ومقارنته الابطال وغزواته ، ثم تدعه في أخلاقه ، وفي القرآن الذي أنزل عليه ، فأما إذا ظننت أن الشفاعة ترجع الى المعنى الذي يفهمه العامة ، فان ذلك يقود الأمة الى الاتكاس على أمّ الرأس ويبقى الدين من أسباب التأخر والرق ، وقد آن أن يعرف الناس مقام النبوة الشريف ، ويفجعوا النبي ﷺ في أعماله وأخلاقه ، وسيرته الصالحة ، وآدابه العالية ، ومعارفه الواسعة ، ودينه السمع المرشد الى السعادة ، والأعمال الشريفة ، وهذا أو ان ارتقائه وزمان إبعاده « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » .

ايضاح للشفاعة

اعلم أن الناس اعتادوا أن ينقروا بوا للملوك والأغنياء بمن لهم عندهم جاه ومنزلة ، فيكونون شفعا لهم في اقبال الخيرات من وظائف ومال . وأصل هذه الكلمة من الشفع الذي هو ضد الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فردا ، فصار الشفع له شفعا : أي صار زوجا ، وهذا في الأمور المادية التي يقدر عليها الناس . أما العاوم والمعارف ، فلأن أعظم الملوك قدرا ، وأكثر الأغنياء مالا أحضر أساطين الحكماء ، وأكبر العلماء لولده النبي وأغدى عليهم التعم ليصير عالما يقدر على ذلك ، أما هو فيقدر أن يفيض المال على أي فقير فيصير غنيا في الحال ، فشفاعة الأنبياء ليست من قبيل الهبات المالية ، ولا الوظائف الادارية ، وانما هي نفحات علمية ، وأخلاق حكمية ، وآداب نبوية ، فنفعه ما قالوه ، وانبع مارسموه ، واستثمر من بذور الشفاعة ما بذروه ، تمت له الشفاعة ، ودخل مع الجماعة ، أما أولئك الكسالى الجيتاء المتواكلون ، فانهم يظنون أن مجرد الاتباع اللفظي مع النوم والكسل التعملي يجد بهم نفعا كبيرا ، ويحسن لهم صنعا جيلا ، كلا : انهم لمخدوعون ، وليس هذا القول بمخالف أهل السنة ولا المعتزلة ، فان خروج العاصي من التلر بالشفاعة أو إبعاده عنها قبل الدخول ، وكذلك زيادة الحسنات في الأعمال للصالحين ، كل هذا جاء من شفاعة النبي ﷺ ، واتباعه بل كل ثواب قائما هو بسبب ذلك ، وهكذا كل نجاة ، فانه صلى الله عليه وسلم لولم يأت لنا بالشفاعة لكنا

أقرب الى الحيوان فصرنا باتباعه داخلين في شفاعته ، لأنابه صرنا شغفا ، ولا يكون ذلك الا باتباعه ، ولا تنال الا ما استعدنا له .

ولأضرب لك مثلا بما عرفناه في زماننا

أمة تألبت عليها الجيران ، ووثبت عليها أم الفرنجة من كل جانب ، وهي قليلة العدد ضعيفة العدد قل فيها المال والولد فاستسلموا للعدو خاشعين ، واثقادوا له صاغرين ، فقام منهم رجل من قواد جيوشهم فهدم قهرا صارخا ، وقال قوموا من مراقدكم ، والله ناصركم ، وأجمعوا صفوفكم فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله فأجاب دعاهم الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والشبان وقاموا قومة واحدة فاهزم العدو المغبر ، ورجع وهو حسير ، فرجعت الأمم المغيرة إلى الخلف ، وثبت للضعفاء النصر ، تلك الأمة هي الأمة التركية في هذه الأيام . أقرى أيها الذي أن ذلك النصر يكون بالانكسار على ذلك القائد المرشد النصيب ، فيقولون له أيديكم الله قوام العدو بهمتك ، وحاربه بياسك وقوتك ، انا مادحوك وداعون لك بخير وتابحوك . أم يقومون معه قومة رجل واحد ، وينبعون سنه في العمل فيهزمون العدو بتضافهم وتآزرهم . لا يبرم أنك تعلم أن النصر تابع لخبر الأسمين ، وهو الوجه الأخير ، فهكذا يكون الأنبياء مع أممهم ، فالأنبياء قواد فوق كل قائد يقودون الناس إلى سعادتهم وشفاعتهم لهم على خير الوجهين السابقين . فاذا سمعت قوله تعالى « فما تنضم شفاعتنا الشافعين » وقوله « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » وقوله « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » وقوله « من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » . فاعلم أنها تلك الشفاعاة الأولى في المثال المتقدم ، وهي أن يتكلموا على الأنبياء وينامونهم الاغبياء ، ولو كان لله يريد منا أن نكسر نفوسنا إليهم لأطال آجالهم جميعا ، وأنت ترى أن في أممتنا من طالت أعمالهم أكثر من نبينا ، فمن حكمة موته في سنة المعروفة أن تستقل الأمة في شؤونها ، وتقوم بأعبائها ، ولطقت تقول مالي أراك تخلص الأنبياء بالاعظام والاحلال والاكبار ، وما أراك الامسارا للمجهور . ولقد رأينا في هذه الأعصر من أضاءت الكهرا باه باختراعهم وابتدعوا في الحروب ماشاءوا وبذ كائهم ومدوا الاسلاك البرقية بقولهم وفي الأرض فلاسفة وحكام كسقراط وأفلاطون وروسو الفرنسي ، فكيف تخلصون النور بالأنبياء والارشاد للرسلين ، وكيف تخلصون نبينا بأنه سراج منير ، وأن العلماء يتبعون وأنه يشفع في الناس بالمعنى الذي قررته مع أن كل الناس يعلمون ويتعلمون .

أقول : اعلم ان لله عز وجل مشرق نوره في العالمين ، فكما أن الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والكهرباء ، والبخار الناجم من الفحم ، وكذلك الزيت والشمع تكون منها الأنوار الحسية التي أودعها الله في المواد المسوسة ، هكذا أودع نورا أتم وجمالا أبهى وأكل واشراقا أتم وأعظم في قوسنا الانسانية وعقولنا وحواسنا وادراكنا ، وفي سائر الحيوان فلكل حيوان هداية تمت بها سعادته ، والانسان من بين الحيوان هداية لله هداية أعلى ، وجملة في مقام أتم وأكل ، وألم طوائف منه ، فكأنرا أكل من غيرهم فيرشدون اخوانهم إلى ما هو أكل وأشرف .

فتقولك : ان في الناس من هدوهم الى الكهرباء والى مد أسلاك البرق وماشا كل ذلك ، فاني أقول لك ليست الهداية خاصة بهؤلاء فالهداية عامة في الحيوان والانسان ، فأما ارشاد الناس الى الامور والمعاشية بالأنوار وسرعة النقل وماشا كل ذلك فهي لم تخرج عن الهداية العامة ، فان الشمس مشرقة مبذولة ، فاذا زاد المتفرع أنوارا للناس فهو خير من جنس ما بذل لهم في الطبيعة المعلومة الحسية . وأنت تعلم أن الهداية النفسية أرق من الحسية فانه لولا ادراكنا وعقولنا لم نستفد من المادة شيئا ، والذين يهدون الناس بهذا المعنى أربع فرق : الحكماء

من الأمراء ، والملوك ، والوعاظ ، والحكام ، والأنبياء ، فالوعاظ للعامة ، والحكام للخاصة ، والأمراء للحكم على أجسام الناس لاعتقولهم ، أما الأنبياء فانك تراهم قد اتبعهم الخاصة والعامة والوعاظ وكانوا أعم من الجميع . وأنا لأقول لك إلا ما هو حاصل في النوع الانساني ، وما هو واقع فعلا ، فسقراط لا يقتل حكمته ولا يفهم رأيه إلا الخواص ، وأما العامة فهم في واد سحيق ، والوعاظ لا يكلمون إلا الجهال ، ونحن نرى أن الأنبياء اتبعهم من سائر هذه الطوائف ، فإذا كان الناس يهتدون بحواسمهم وبعقولهم وبحكمتهم وبمخترعهم وبقولهم جيوشهم ، فانا نرى أن سائر الأنبياء قد اتبعهم كل هؤلاء ، وما أنذا قلت لك ما تراه واقعا كما قدمنا ، اذا علمت هذا فهمت قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم « إنا أرسلناك شاهدا وبشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وقد جاء في (سورة النبأ) : « وجعلنا سراجا وهاجا » متلافا وهو الشمس « وأزلنا من المعصرات » السحاب « ماء نجابا » منصبا بكثرة « لنخرج به حيا ونبانا وبنات ألقافا » ملتفة بعضها على بعض ، وانما ذكر السحب بعد الشمس لأنها ناجية من إثارة الحرارة للبحار من البحار فيكون مطرا فيحوي النبات كما قدمنا هذا في العالم المشاهد المحسوس ، فوكذا جاء في هذه السورة تشبيه القرآن بالمطر النازل من السماء ، وجاء في سورة أخرى أن النبي سراج منير ، وجاء في حديث البخاري المتقدم : « لن مثل العلم الذي أنزل عليه عليه الصلاة والسلام كمثل العيث » الخ فتشابه العالم الحسي والعالم المقول ، فالعلم العام النبوي ينزل على صدور العلماء والعامة والخاصة فهو كالشمس ومن سواهم أعمال خاصة ، فالشفاعة العامة لم مشرقة على الجميع ، ولكل امرئ ما اكتسب » وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

تفضيل بني إسرائيل

وأما الكلام على تفضيل بني إسرائيل فان الله يقول : يا بني إسرائيل اتى قذفت في قلوب أبنائكم الحية والشهامة والعز بما أوحيت الى موسى أنه يقول لهم أتم شعبي وأفضل العالمين كما هي السنة المرغوبة في تمدن الشعوب أن يتدأ بادخال الأمل وطرد اليأس وافهام الأبناء أنكم ذوو شرف وعز وفضل ، ولصبري ان هذا هو السنن الوحيد والعلاج المنيد الناجع لاثارة الحركات العلمية والعملية في الأمم التي أنجلها الإهمال وأضعفها يد الزمان ، وأنامها الحدثنان ، كما كان في بني إسرائيل إذ ذبحت أبناؤهم ، واستجيت نساؤهم ، ابتلاء من الله وامتحانا ، وهذا هو المذكور في الاصحاح الأول في سفر الخروج :

وكلم ملك مصر قابلي العبرانيين اللتين اسم إحداهما سفرة واسم الأخرى فوعة ، وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرنهن على الكرسي اذا كان ابنا فاقلاه ، وان كان بنتا فتحياها ، وفي الاصحاح الثالث عشر انهم خرجوا من مصر في شهر أيب ، وأمرهم الله في الاصحاح الثاني عشر والثالث عشر ببعد الفصح أن لا يأكلوا خمرا سبعة أيام ، ويكون السابع عيد الفصح شكرا لله تعالى كل سنة على نعمة أشدقها عليهم إذ أخرجهم من دار الطون الى دار الحرية والكرامة ، أليس من عجب هذا التهيج والحث على الحرية للتأني عن مقام النذل ، ولبرؤا بأنفسهم أن يردوا ماء الحياة اذا ما زجه صاب المذلة وعلقم الطوان .

وللوت خير من حياة دنيئة ، وللوت خير من مقام على النذل

ثم تعجب كيف جاء في التوراة مرودة هاتين القابلتين ولم نخونا ولم تقتلا ولنا كيف خافتا ربهما وحفظتا أبناء بني إسرائيل ، فتولى فرعون ذلك بنفسه وأمر المصريين بقتلوا ورموا كل مولود ذكر في البحر ، ولما كان شأن الله أن يجعل من كل ضيق فرجا ، وأن يهد الصري يسرا ، نجاهم وأغرق فرعون وجيشه .

(الياقوتة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة)

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ
وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ
فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ
فَأَخَذْنَاكُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر) فلقناه (فأنجيناكم) من فرعون وقومه (وأغرقنا آل فرعون وأنتم
تنظرون) الى ذلك وتشاهدونه (وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة) وعد الله موسى أن يعطيه التوراة وضرب له
ميقانا ذا القعدة وعشر ذي الحجة (ثم اتخذتم العجل) إلهاً (من بعده) من بعد انطلاقه الى الجبل (وأنتم
ظالمون) بوضعكم العبادة في غير موضعها (ثم عفونا عنكم) محونا ذنوبكم عنكم (من بعد ذلك) من بعد
اتخاذكم العجل (لعلكم تشكرون) لكي تشكروا النعمة في العفو عنكم (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان)
أى الجامع بين كونه كتاباً منزلاً ، وفرقاً يفرق بين الحق والباطل (لعلكم تهتدون) لكي تهتدوا بتدبر
الكتاب (وإذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم) ارجعوا الى
خالقكم بالتوبة ، قالوا كيف تتوب ؟ قال (فاقتلوا أنفسكم) أى ليقتل البرىء منكم المجرم (ذلكم خير لكم
عند بارئكم) من الاصرار على المعصية (فتاب عليكم) انه هو التواب (الفضل بقول التوبة وان كثرت) (الرحيم)
بمفواحيوبة وان كبرت (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك) أى لن نصدقك (حتى ترى الله جهنم) معاينة ،
وهؤلاء سبعون رجلاً من خيارهم جاءوا الى الطور ليعتنقوا عن عبادة العجل مع موسى لميقات ربه وسمعوه
يكلّم موسى فقالوا ذلك ، قال تعالى (فأخذناكم الصاعقة) الآتى شرحها في (سورة الرعد) (وأنتم تنظرون)
ما أصابكم (ثم بعثناكم من بعد موتكم) بسبب الصاعقة (لعلكم تشكرون) نعمة البعث (وظللنا عليكم
الغمام) في التيه ليقبكم حرّ الشمس . انتهى التفسير اللفظي الاجمالي .

ايضاح

أبان الله في هذه البواقي ما قصه في سفر الخروج في التوراة ، وكيف أغرق فرعون وجنوده ، ونجى
موسى وقومه ، كما جاء في الاصحاح الرابع عشر من السفر المذكور ، فدفع الرب المصريين في وسط البحر فرجع للماء
وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر ، ولم يبق منهم ولا واحد ، وأما

بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وشمالهم . انتهى بالحرف
وقال في الاصحاح الثاني عشر : فارتحل بنو اسرائيل من رعسيس ، وهي بلدة قريبة من السويس الى
سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد ، ثم قال : وأما اقامة بني اسرائيل التي أقاموها في مصر
فكانت أربع مائة وثلاثين سنة ، ولقد حننهم على تذكار يوم الخروج ليستديبوا الحرمة تذكرة للعاقلين ،
وبصيرة للمسلمين العاقلين ، وقد قال تعالى لنا : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » عدولا ، وقال : « كنتم
خير أمة أخرجت للناس »

فليبحث المسلمون عن أنفسهم ، ولينظروا أهم تلك الأمة التي عناها الله بالخطاب ؟ أم قوم غيرنا سلفوا ؟
أم سيخلفونا ؟ وليعتبروا كيف قرع الله بني اسرائيل ووبخهم إذ آتاهم التوراة على لسان موسى وقد دخل في
وسط السحاب ، وصعد الى الجبل ، وكان موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة ، فاتخذوا الجهل وعبدوه
كما وضع في التوراة في نفس هذا السفر . وما مثل اليهود في نبد التوراة والعمل بها إلا كمثل المسلمين اليوم
وجهلهم بما تضمنه القرآن من الحكم الجيبة ، والآيات البديعة ، ولما أعرضوا عن الصراط السويّ عذبوا
وأذيقوا طعم الموت ، قتل المؤمنون الصابرون تلك الفئة التي عبدت الجهل .

وفي التوراة : أن القتل ثلاثة آلاف لاسعون ألفا كما يقول بعض المفسرين ، قال في الاصحاح الثاني والثلاثين
وقف موسى في باب المحلة وقال : من للرب فلي ، فاجتمع اليه جميع بني لاوي ، فقال لهم : هكذا قال الرب إله
اسرائيل ، ضموا كل واحد سيفه على غنقه وصرخوا وارجعوا من باب الى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه
وكل واحد صاحبه ، وكل واحد قريبه ، ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو
ثلاثة آلاف رجل .

(الياقوتة السادسة ، والسابعة)

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَنْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وأنزلنا عليكم) في التيه (المن والسلاوى) الترنجيبين والسماوي ، والأول شيء يقع على الشجر طعمه
كالشهد (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أي قلنا لهم ذلك فظلموا بأن كفروا هذه التهم (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون) بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) أي بيت المقدس ، وقيل أريحا
أمسوا به بعد التيه (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) واسعا ، نصب على المصدر (وادخلوا الباب) أي باب القرية
أوالقبة التي كانوا يصلون إليها (سجدا) حال ، وهو جمع ساجد (وقولوا حطة) أي مسألنا أن نخطأنا خطايانا
(فنفر لكم خطاياكم) بسجودكم ودعائكم (وسنزيد المحسنين) نوابيا (فبدل) فغير (الذين ظلموا قولا غير الذي

قيل لهم) إذ بدلوا الحطة بالحنطة وقالوا ما معنا « حنطة حراء » أو نحو ذلك استخفا بأمر الله (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً) عذاباً (من السماء) إذ أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم كثير (عما كانوا يفسقون) أي يصنون ويخرجون عن أمر الله . انتهى التفسير اللفظي .

الايضاح

يقول تعالى : وأنزلنا عليكم في التيه المن والسلوى وقلنا كلوا من هذه الطيبات ولا تتخذوا فاكفروا النعمة ولا تتخذوا فنع عنهم ذلك الرزق وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، واذ قلنا لهم بعد خروجهم من التيه على لسان يوشع ادخلوا بيت المقدس الخ وقوله رغدا أي واسعا لا حجر فيه سجدا أي متواضعا من خاشعين لله عز وجل والمن هو التريخين كان ينزل كالندى من الفجر الى طلوع الشمس ، والسلوى هو طير السمان .

قال في الاصحاح السادس عشر من سفر الخروج : فكلم الرب موسى قائلا سمعت تذر بني اسرائيل كلمهم قائلا : في العشية تأكلون لحما ، وفي الصباح تشبعون خبزا ، وتعلمون أني أنا الرب إلهكم ، فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة ، وفي الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة ، ولما ارتفع سقيط الندى اذاعلى وجه البرية شيء دقيق مثل قشور كالجلبد على وجه الأرض ، ثم قال لهم موسى : هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا هذا هو الشيء الذي أمر به الرب لتعطوا منه كل واحد على حسب أكله اه

وهذا قادم الى سوء فعلهم وأضلهم جهلهم ، فبدلوا قول الله عند دخول باب القبة التي كانوا يصلون بها « قولوا حطة » أي فاستهزؤا وقالوا « حنطة في شعرة » على رأي غير ما تقدم ، يريدون أنهم لا يعينهم شأن الذنوب والخطايا ولا التوبة وما أشبهها ، وإنما همهم الطعام والغذاء ومستلذات الحياة ، فهذه الخبازي الفاضحة ، والعيوب الواضحة جعلت عليهم في التوراة والقرآن ، وحفظها لهم في سجله الزمان ، عبرة للمذكورين ، وبصيرة للسليين .

(الياقوتة الثامنة ، والتاسعة)

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِمَصَّاكَ الْحَجَرَ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَمْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِمَقْصِبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِمَآثِرِهِمْ وَبَاءُوا بِذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَسْتَدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
 مَاءَ آيَاتِكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ
 فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا
 وَمَوْجِزَةً لِلْمُتَّقِينَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر) أى حجر كان ، فاضربت منه
 اثنتا عشرة عينا على عدد الأسباب (قد علم كل أناس) كل سبط (مشرهم) عينهم التي يشربون منها ،
 وقلنا لهم (كلوا) من المن والسوى (واشربوا) من ماء العيون (من رزق الله) أى الجميع بما رزقكم الله
 (ولا تشوا في الأرض) لا تشدوا فيها ، والعيث أشد الفساد (مفسدين) حال مؤكدة (واذ قلتم يا موسى لن
 نصبر على طعام واحد) وهو ملرزقوا في التيه من المن والسوى (فادع لنا ربك) له وقل له (بمخرج لنا)
 يظهر لنا ويوجد (عما ثبتت الأرض من بقلها) وهو ما أبتته الأرض من الخضرة ، والمراد به أطيب البقول
 كالنعناع والكرفس والكراث ونحوها (وقلتها) معروفة ، وقيل هو الخيار (وفومها) هو الحنطة أو التوم (وعلمها
 وإسماها) قال أنسبيلون الذي هو أدنى (أدون قدرا) (بالنبي هو خير) يريد به المن والسوى (اهبطوا مصرا)
 أى ان أيتهم إلا ذلك فأتوا مصرا من الأمصار (فإن لكم) من نبات الأرض (مما سأتم وضربت عليهم الذلة)
 أى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم (والمسكنة) الفقر والفاقة (وباعوا) رجعوا (بغضب من الله ذلك)
 أى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق)
 بسبب كفرهم بالمعجزات (ذلك) القتل والكفر (بما عصوا وكانوا يعتدون) يتجاوزون أمرى (إن الذين
 آمنوا والذين هادوا) أى اليهود (والنصارى والصابئين) قوم كانوا يعبدون الكواكب التي يزعمون أنها أقربهم
 إلى الله (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أى من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالبداء
 والمعاد ، عاملا بمقتضى شرعه (فلهم أجرهم عند ربهم) الذي وعد لهم على إيمانهم (ولا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون) حين يخاف الكفار من العقاب (واذ أخذنا ميثاقكم) عهدكم يا مشركي اليهود (ورفضنا فوقكم الطور)
 يعنى الجبل العظيم لما عصيتم أن تقبلوا التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة فصار كالظلة فوق رؤسكم وقلنا
 (خذوا ما آتيناكم) أى ما أعطيناكم (بقوة) بجد واجتهاد (واذكروا ما فيه) أى ادرسوا ما فيه وتفكروا فيه
 (لعلكم تتقون) لئلا نتقوا المعاصى (ثم توليتم من بعد ذلك) أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (فلولا فضل
 الله عليكم ورحمته) بتوفيقكم للتوبة (لكنتم من الخاسرين) الضالين بالانهماك في المعاصى (ولقد علمتم
 الذين اعتدوا منكم في السبت) وهو مصدر سببت اليهود إذا عظمت يوم السبت ، وقد اعتدوا فيه أى جاوزوا
 ما حد لهم فيه من التجرد للعبادة وتخليصه ، واشتغلوا فيه بالصيد ، وسأى إيضاحه في (سورة الأعراف)
 عند قوله تعالى « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر » الآية (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) جامعين
 بين القرية والخسوة ، وهو الصغار والطرود (جعلناها) أى المسخة والعقوبة (نكالا) عبرة تشكل أى تمنع

المعتبر بها (لما بين يديها وما خلفها) أي لما قبلها وبعدها (وموعظة للتقين) لكل متق سمعها . انتهى
التفسير اللفظي .

الايضاح

لما أسلف الله ذكر إظلالهم بالغمام واندفاعه النعم عليهم بالغذاء ، وكيف أعرضوا كافرين ، وتولوا مشركين : أبان الله في هذه الآيات كيف جر لهم ينابيع الماء من الصخر ، وكيف تولوا بعد ذلك الانعام باظلال الغمام من الحرّ وإزال المنّ والسوى وتفجر الماء إذ ضرب موسى بعصاه ، ثم كيف شتموا النعمة ويطروا الفضل وجهلوه فلم يشكروه فطلبوا أن يستبدلوا القلّ بالحرّية ، وطعام المدن بما أكرموا به في البدو ، وهم في أمن ودعة وراحة ، وكيف كفروا بالرحمن وقتلوا المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين ، وكيف عصوا أن يقبوا التوراة فأرغموا على قبولها ، ورفع الطور فوق الرموس فنزلوا صاغرين ، وقبلوها مكروهين ، وكيف ضلّ منهم فريق أيام داود عليه السلام في مدينة أيلة [العقبة] فسادوا السمك يوم السبت بحيلة دبروها وقشور شرعية من الجهل استخرجوها فسخوا قرده في أعمالهم وصاروا في صورة انسانية ونفوس قرديّة . كما هو شأن المقلدين في الباطل الغافلين الذين لا يذكرون .

ويقولون : قد أفتانا شيخنا فلان ، وما هو بمن فتيل ولا قطميرا « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تباعا فهل أتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كلّ فيها إن الله قد حكم بين العباد » فليعتبر المسلمون اليوم وليعلموا أنه لن ينفعهم أضاليل الدجالين ولا أكاذيب المرجفين لهم المسهلين طرق الكسل حتى ناموا على وساد الراحة وخذوا خود النار ضررها البرد بما أجزأ المتبطون لهم لينيموا الناس على مهد الرجاء فأصبحوا لا ترى الاجسومهم ، وهم غافلون عن الأعمال محرومون من الآمال .

ايضاح الكلام في قوله تعالى « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » الآيات

اعلم أن هذه القصة وغيرها تعليم للمسلمين وتربية وتذكير لهم ، لأن نبي إسرائيل اقضى أمرهم ، وذهب ريحهم ، وفات دورهم . ذلك أنهم لما كانوا في التيه ، وهو أدهم طلق : وهم في البادية وشطف العيش تبرموا من رجس المدينة وخبث المدن ، رفق أهلها ومرضهم وبطنتهم وجشعهم ، وقلة أديبهم ، وسقوط أخلاقهم وكذبهم ، وفاقهم ، وحقهم ، وحرصهم ، وادّخارهم ، وكدهم ليلا ونهارا ، فالشهوات الحارة تلذغهم وتحرقهم فيصطلون بنارها ، ويقارفون الفجور ويأكلون أكلا لما يحبون المال حبا جما ويتخطون في دياجير الذنوب والمناصي والعيوب ، ويكون رؤسائهم أحسن مقاما ، وأردأهم أخلاقا ، وأشدّهم نفاقا ، وأقربهم إلى الشرور وأبعدهم عن الخيرات ، وتقلّ بينهم الأمانات ، ولا يخافون رب العالمين ، بل سطوة الحاككين ، وتكثر أمراضهم لكثرة الألوان في طعامهم ، ويكونون جبناء هلعين فزعين ان فاجاهم عدوّ فرأوا خائفين ، ودلوا هارين . هذا شأن المدن ، وهذه سجية أهلها ، ولا تستن منهم أحدا . إلا أن الممالك الكبيرة تكون لها جيوش مدنيّة على الحرب يحرسون بلادهم ويحاربون أعداءهم ، وهم في أنفسهم خواريون ، قلنتهم شهواتهم فلا ينفعهم في قتال عدوّهم الامضاء أسلحتهم ، ووفرة مدافعهم ، وكثرة الطيارات في جيوشهم . فأما أهل البادية الذين تنزهوا عن رجسهم ، وخلصوا من بطشهم ، وتجاؤوا عن جبنهم ، وقربوا من الفضيلة ، وابتعدوا عن الرذيلة وقويت أبدانهم ، وعظمت نفوسهم ، وهم شجعان كرماء فأولئك إذا أعطوا سلاح أهل المدن قاتلهم فغلبوهم واستأصلوهم ، ولذلك ترى أن الأمم التي في المدن إذا طال عليها الأمد غلبتها على أسرها تلك الأمم البدوية ، وودت أرضها وديارها ، وحلت مكانها ، ثم يتناسل هؤلاء في المدن جيلا بعد جيل ، ويتبعون سنن من قبلهم

شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، ثم يأتي آخرون فيغلبونهم على أمرهم « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » على ذلك درج الأمم قديما وحديثا . فدولة الرومان : لما استفحل أمرها ، وعلت كلمتها ، وخضعت لها الرقاب ، وذلك لها الأعناق ، هجمت عليها الأمم الوحشية البدوية العانية الجاهلة العارية من سايغ الرغد ونعيم الحياة فقتكت بهم ، وورثت أرضهم وديارهم وأمواهم ، وهامهم أولاء اليوم أصحاب الحول والطول في أوروبا . وقد مضى على ملكهم نحو ألف سنة ، وكانهم أيضا أصبحوا وقد ملك رقابهم الترف وانغمسوا في اللذات وغرقوا في بحر الخي من الظلم والمعاصي والفتك فأصبحت مدارسهم لتعليم الاجرام ، والفتك والاغرة على الأمم ، وقد آن أوان أن يبيدهم أمم أبعد عن الترف ، وأقرب الى حال البداوة ، وتحل محلهم كما فعل أبائهم مع رلة الرومان . وهكذا ترى أن الأمة العربية ، لما نزل عليها القرآن أنار بصائرهما ، وأغلى مرآجلها ، وبعث الحرارة الدينية في نفوس أبنائها فأخذت تمتد الى سائر الجهات ، فملك دولة الفرس التي قتلها البطنة والنعيم وامتدت من جهة أخرى الى بلاد الروم وأحاطت بها وحلت محل الأتئين . ثم طال على الأمة العربية الأمد وأسكرها النعيم جاء إليها التار من المشرق ، والفرنجية من المغرب فخلوا بساحتها وساء صباح المنذرين ، وصارعوها فصرعوها فقامت الى حين . ثم هي الآن تريد أن تأخذ مكاتها . وبالجملة ليس للأمة من سعادة الا بالتجافي عن اللذات والتباعد عن الشهوات ، والاقلاع عن البطنة ، والاققلال من دواعي الترف والنعيم ، فهولاء بنو إسرائيل لما كانوا في مصر ذاقوا حلاوة المدينة ، ونعيم العيش فأنسوا باللذات واستخذوا للشهوات فذبح فرعون وجالم واستحيا نساءهم ، فأمر موسى أن يخرج بهم فخرجوا وبعد ما أسروا بقتال الجبارين ضلوا في التيه وتاهوا في بيدانه وجالوا في فسيح هوانه الطلق وعاشوا في صحراء قحلة تعلموا فيها ضروب الشجاعة والصفة والاعتدال على النفس فتربوها هناك أربعين سنة . يقول العلماء حضانة الأخلاق أربعون ، وحضانة العلم عشرون ، فلما أنسوا من أنفسهم القوة وأحسوا بالمنعة ، وأنهم أقوى من آبائهم الذين ختم الترف ونعيم العيش في مصر على قلوبهم راموا أن يتمتعوا بلذيد العيش ونعيم المدن ، فقالوا (يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما نبت الأرض من بقلها وقناتها وفومها وعدسها وبصلها قال أنستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) يقول الله أنذرون ماهو خير ، وتأخذون ماهو أدنى ، وكيف ترضون أن تتركوا عيشة البادية الهادئة الحرة النقية الصافية التي تقل فيها الأطعمة فتصح الأبدان ، وتطول الأعمار ، وتقوى النفوس وتطوحن بالنسك الى المدن التي تسقم الأبدان ، وتذل النفوس بالمرض ، واذلال الحكماء ، وموت الشجاعة والانكال على الجماعة ، وتكون حراسة المدن بطائفة من الجند ، والأمة كلها عالة علىحكامها عارية عن المنعة والقوة يامون الخسف ويلبسون لباس الذل . إذا أقيم إلا ذلك ف (ا هبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) ثم ان جميع ما خاطب الله به بنو إسرائيل لم يقصد به الا نحن أبناء العرب ، ومن معنا من الأمم ، وان جميع قصص الأنبياء تنبيه وارشاد . قال تعالى « الذين يستمعون القول فيذبون أحسنه » وقال « انبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » وقال « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، وروى أن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول : قمضي والله بنو إسرائيل وما يقضي ما تسمعون عن غيركم ، فليكن للمسلمين عبرة في هذه القصة . وفي التاريخ : فان بنو إسرائيل لما دخلوا أرض كنعان واستفحل ملكهم مئات السنين أخذهم الترف وجاءهم بختصر فأسرهم وأجلاهم وأخرب ديارهم ثم رجعوا بعد حين فأجلاهم الروم مرة أخرى بعد المسيح ، وهامهم أولاء في الأرض متفرقون شذر منذر « في كل واد يهيمون » .

الفوائد الطيبة في هذه الآية

لقد أظهر الطب الحديث في هذا العصر مخزبات المدينة ، ومصائبها الطيبة ، وأبان أن الاكثار من اللحم وشرب الخمر والتدخين بالتبغ ، وشرب القهوة ، والشاي ، والككاز ، وأضرابها من الممرضات والقائلات . وقال أساطين الأطباء : إن معيشة المدن اليوم أصبحت لا تطاق : فعلى الناس أن يظلوا من الأدوية التي في الصيدليات المسبلة [أجزاء] بل قال أكا برهم إن هذه ستمحى من الوجود لما فيها من الضرر بنوع الإنسان ، وأثبتوا أن الماء كل المركبة ، والتي هي كثيرة الغذاء ضررها كثير ، ومنعوا شرب الماء على الطعام وأكل الطعام وشرب الشراب الحارين لضررهما بالأسنان والحلق واللسان . وقالوا إن أهل البلدية أقوى أجساما وأصح عقولا لاقتصارهم على الحنطة والتمر ، وطلبوا من الناس الاقتصار على الحبوب والفاكهة ، وأن يظلوا ما استطاعوا لتلك سبيلا .

ويقول هؤلاء الأطباء المصريون : إن العناية الاطبية تكفلت باصلاحنا . ألا ترى أن الجرح يأخذ في الاندمال شيئا فشيئا بلا عمل من الانسان ، وهل ذلك الا للعناية الاطبية الناتمة في الطبيعة ، فعلى اذن أن يكون جلّ عنايتنا بالهواء النقي والرياضة والغذاء الصحي ممرضين عن الأغذية المهيجة ، وعن اكثار اللحم ولتقصيد العمل المعتدل ولتستريح بلقاء البرد أو الفاتر ، حتى يقوى المريض على مكافحة المرض ، ويترك الأدوية المعتادة ما وجدنا في ذلك سبيلا . وقد منع التداوى بالعقاقير المتراكمة في الصيدليات الدكتور [غراينشتان] وهو من عظماء الاساطين في الطب بألمانيا . ومن العجيب أنه منع المداواة بها سواء أكانت جيدة أم رديئة ويقرب منه في ذلك الدكتور كيسر الذي قال : يجب أن يعزل المريض عن الطبيب كما يجنب السم القتال ، وإنما قال ذلك مبالغة ، يحرض الناس على حفظ صحتهم . وقال الأستاذ ستيفنس الأستاذ بالكلية الطيبة في نيويورك كلما كثرت تجارب الأطباء ، قل اعتقادهم في تأثير العقاقير ، وزاد اعتقادهم في قوى الطبيعة ويقرب منه الدكتور سميت ، وقد قال مثل هذه الأقوال ما يربو على ثمانين علما من الأمم المختلفة في زماننا .

واعلم أي كنت في زمن الشباب ، قد اعتراني مرض ولم أجد طبيبا يدلويني لأني كنت في بلاد الريف فوقع في يدي كتاب يسمى الطب النبوي للشيخ الذهبي ، فكنت أستخلص منه فوائد أعمل بها . ومن عجب أن ما قلته لك عن أطباء أوروبا باسورة مكبرة له ، ولست أقول أنهم قلوا عنه كلا ، وإنما رأيت تشابه الأقوال فقد قرأت في هذه الكتاب ان الادوية ضارة الا عند الاضطرار ، وأن المرض له نمو كمنمو النبات ودور انحطاط بمقتات معلوم والطبيب لا يعمل له الا لتلطيف المرض ، وفيه : إياك أن تقرب المسهل الا عند الضرورة ، واذ اقتدرت أن تتداوى بالغذاء فاحذر أن تتداوى بالعقاقير ، وحرم الشرب على الأكل ، وقد عملت به إذ ذاك وانتفعت به وصح جسمي ، ولقد كنت أيام تلك الحمية كثيرا ما أترك الشراب بعد الأكل ثلاث ساعات أو أربعا كما قرأته في كتب الطب القديمة التي لم أكن أعرف سواها ، فبها أن ترك الشرب بعد الأكل من ساعة إلى أربع على حسب اختلاف الامزجة ، أما علماء العصر الحاضر فقد توسطوا وقتروها بساعتين اثنتين غالبا ، وقد انتفعت بتلك الحمية وفاة الجدد ، ولكن لما طال الزمن لم أجد من الأطباء من يؤيد هذا في عصرنا الا قليلا حتى قرأت هذا عن أطباء أوروبا فأوضحوا مناهجهم ، وأولست هذه المناهج هي التي تخانحوها القرآن ، أو ليس قوله « استقبلون الذي هو أذني بالذي هو خير » رمزا لذلك ، كأنه يقول العيشة البدوية على المن والسهولة : وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا ممرض يتبعهما مع الهواء النقي ، والحياة الحرة أفضل من حياة شقية في المدن بأكل التوابل واللحم والاكثار من ألوان الطعام مع الثقلة ، وجور الحكام والجبن وطمع

اطيران من الممالك فتحططكم على حين غفلة وأتم لانثرون ، يمثل هذا تفسر هذه الآيات ، وبمثل هذا
 فليفهم المسلمون كتاب الله ، وبهذا فليعدوا وليوصوا الابناء بالاقبال من اللحم وتحريم شرب غير الماء الا في
 احوال خاصة وأن يستشقوا اطواء النقي ، وبردوا أجسامهم بالتعاليم العسكرية ، وليكن جميع الشبان
 متمرنين عليها ، وذلك لا يمنعهم من مزاولة أعمالهم في الحقول والمدارس : ولتعلم جميع الأمة الأعمال
 العسكرية ، وليست فرق الكشافة في المدارس بمنية عن ذلك ، وليقلل من الاسراف والشهوات ، فالتعمير
 في ترك النعم والافليخفوا من قوله تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ما تأنتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأهوا
 بنضب من الله) وتعاليم القرآن والسنة تنحو هذا المنحى والا فلم يقول الله « أذهبتم طيباتكم في حياتكم
 الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب اطون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم
 تفسقون » ؟ أفلم تری أن الطيبات وان كانت حلالا لنا إذا أكثر الناس منها ، كما قال الاطباء في هذا المقام
 بمسهم المرض في الاجسام ، والذل في المدن ، والعذاب في الآخرة ، والقرآن عبر عن هذا كله بقوله « فاليوم
 تجزون عذاب اطون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق » أو ليس قوله « وإذا أردنا أن نهلك
 قرية أمرنا مترفيا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ينحو هذا المنحى ، وهو أن نفوسهم تعرض
 وتجنبن وأجسامهم ينهكها الضعف وعدوهم يقتلهم ، وهذا سر تلك المحاورة المشهورة بين ابن زياد وسيدنا عمر
 رضی الله عنه إذ قال ابن زياد : ما معناه لو اتخذت لك يأمر المؤمنين طعاما طيبا ولما طريا لكان أرفق لك ؟
 فقال ياربيع لو شئت لاتخذت طعامي من الرقاق والصاب [وهو الزبيب المصنوع مع الخردل يقوى شهوة
 الطعام] ولكنی رأيت الله عبر قوما ، فقال « أذهبتم طيباتكم في حياتكم » الآية .

وأقول : كرامة أخرى على المسلمين في أقطار المسكونة أن تعلموا الفنون الحربية تعلما اجباريا ، وأن يمنحوا
 من الكسل ويلزموا العمل ، وأن يربوا أبناءهم على الشهامة والمرومة والقناعة . ألم تر إلى أسلافنا العباسيين
 والأمويين إذ كانوا يرسلون أبناءهم في صغرهم إلى البادية قوية لأبدانهم واجادة لصحتهم ونموا لعقولهم ،
 أو ليس أهل أمريكا اليوم يرسلون أبناءهم إلى الجبل المتوحشين يعيشون معهم في الجبال مكشوفين لضوء
 الشمس ونور القمر وجمال الكواكب ، هكذا فينبغ المرصرون من أهل النعم ، وليرسلوا أبناءهم إلى
 اخواتهم العرب المرصبين ليربوا هناك قبل دخولهم المدارس ليعيشوا في جبال مصر وأوديتها لتقوى أبدانهم
 ويكون منهم شجعان أقوياء ، ولينح هذا المنهج جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ولقد بلغنا أن
 اخواننا الفرس بلغوا في ذلك مبلغا عظيما في هذا الوقت الحاضر ، وأنهم يمرنون أبناءهم من لبنان صغرهم على
 الفروسية والاقدام ، وهذا من أعظم مقاصد الدين .

أما الاستخذاء للشهوات ، فاعما هو الاستعداد بعينه والاسترقاق ، فمن الترف داع إلى المعاصي والمحرمت
 وتجاوز الحدود والاعتداء ، وهذه تدعو الى ترك نصيح الناصح والتملادي في الضلال ، بل ربما فتك العصاة
 بمن نهامهم عن القبيح واسترسلوا فيه ، بل ربما قتلوا العلماء والحكماء وفسدوا عن الأوطان وشردوهم كل
 مشرد ، كما ترى في زماننا أن الفسقة والفجار يخلعون العذار وبنتمون الأبرار ، وإذا قدوا على سجنهم أو
 نهبهم أو قتلهم كان ذلك لا محالة ، وهذا قوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين
 بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فهي مراتب ثلاث بعد المعيشة في البادية : الأولى الاسراف في
 الترف ، الثانية العصيان والتعدى ، الثالثة قتل الأنبياء ، وللاولى الاشارة بقوله (اهبطوا مصرا فان لكم
 ما سألتم) ، وللاثانية الاشارة بقوله (ذلك بما عصوا) الخ ، وللاثالثة الاشارة بقوله (ويقتلون النبيين بغير الحق)
 « ولعله يقول الحق وهو يهدي السبيل » انتهى .

إيضاح الكلام في قوله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا . الآية

يقول « إن الذين آمنوا » بدين محمد بألسنتهم وفي قلوبهم الشك « والذين هادوا والنصارى » جمع نصران « والصابئين » وهم عبدة الملائكة فالكواكب فالأصنام ويقولون إنها شافعة ، فالأصنام تقوم مقام الكواكب والكواكب كأنها أجسام ، أو محال التصرف للملائكة ، والملائكة شفعاء عند الله ، كل هؤلاء « من آمن بقلبه واليوم الآخر وعمل صالحا » أى استكمل قوتى العلم والعمل « فلم أجزم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . واعلم أن هذه الآفة ترشدنا الى مكارم الأخلاق في معاملة الناس ، فان الجاهل يحقد على من آذاه ، ولا يغفو ، وينتقم ولو بعد حين ، أما العاقل فانه اذا رجح المذنب عن ذنبه ، وانضم الى جانب من أذنب اليه قبله وانتفع به ، فلما تقون بأهل الكتاب المعادون للأنبياء متى آمنوا وتابوا كان لهم مالنا ، وعليهم ما علينا . ومن عجب أن هذا نفسه تفضل الدول ، فأى دولة غيرت سياستها مع أخرى بعد أن ذبحت رجالها ، واستحيت نساءها ، وقالت لها . ان مصلحتى أن أكون معك ، تبدلت العداوة بالمحبة وتضافتا وتضامتا ، وهذه هي السياسة التي يقوم بها السؤاس في المدن التي يسير عليها مجموع كل دولة . وقد قال علماء الأخلاق : لا تكن سياسة الانسان مقبسة على سياسة الأمة ، فالفرد كالأمة ، هذا كلام علماء الأخلاق ، فأما هنا فهي السياسة العليا ، والمثل الأعلى ، والمقام المحمود ، مقام النبوة المنبثق نوره من الجلال الأقدس ، والنور الأعلى ، والجمال الأعلى ، والكمال الذى ليس فوقه كمال ، فبني تاب المرء ذهب خطيأته كأنه ما كانت ، فلنسر على ماسنه لله ولا نعمل لحقد على من قدم لنا توبة خالصة ، ولنعامله ، ذلك هو السنن والصرراط المستقيم اه

(الياقوتة العاشرة من الفصل الاول)

قصة البقرة وما أودع فيها من الحكم :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْتَلُوا مَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً

وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا
لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

مقدمة لتفسير الآية

روى المفسرون حكاية عن بني اسرائيل كانوا يتوارثونها كبرا عن كبر تهديبا للنفوس ، وجبا للوالدين ،
وطاعة لله تعالى ، ونحن نذكرها مختصرة للفائدة النافعة :

حكى أنه كان رجل صالح في بني اسرائيل ، وكان له طفل ، وله عجلة ، فانطلق بها الى غيضة ، وقال : اللهم
انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ، فلما مات الرجل وكبر الولد كان بلرا بامه ، يسم ليله ثلاثة اقسام
يسلى ثلثا ، وينام ثلثا ، ويجلس عند رأس أمه ثلثا . وفي النهار يحتطب فيتصدق بالثلث ، ويأكل الثلث ،
ويسلى أمه الثلث ، فقالت له أمه يوما : يا بنى انطلق الى غيضة كذا ضيها العجلة التى تركها لك أبوك ، وأفهمته
علاماتها ، فلما ذهب الى الغيضة عرفها رقادها ورجع الى أمه ، فقالت له : مع البقرة فى السوق بثلاثة دنانير
على شرط أن تشاورنى ، فذهب الى السوق ، فأعطى أكثر من ثلاثة ، فلم يرض إلا بانشارة أمه ، وقال
لطالبها : لو أعطيتنى مل جلدها ذهبا لم أبعها إلا بأذن أمى ، فلما رجع الى أمه ، قالت : لانبع هذه البقرة ،
فيكون لها شأن ، واتفق أنه كان فى بني اسرائيل شيخ موسر قتل بنو أخيه ابنه طمعا فى ميراثه ، وطرحوه
على باب المدينة ، ثم جاءوا يطالبون بدمه ، وسألوا سيدنا موسى . انتهت المقامة :

التفسير اللفظى

فلنشرع فى التفسير المبني عليها . قال الله تعالى (واذ قال موسى لقومه) لما سألوه أن يبين لهم ما أشكل
عليهم من أمر القتل . (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتأخذنا هزوا) أى نحن نسألك أمر القتل وأنت
تستهزى بنا وتأمرانا بذبح البقرة (قال موسى أعود بالله) أمتنع بالله (أن أكون من الجاهلين) بالجواب
إذ يحملونه غير موافق للسؤال (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) ما حاطها وصفها (قال انه يقول انها بقرة
لاقرض ولا بكر) لامسنة ولافتية (عوان) نصف : أى وسط بين الصغير والكبير (بين ذلك) أى بين ما ذكر
من الفارض والبكر (فافعلوا ما تؤمرون) ولا تسألوا (قالوا ادع لنا ربك) سله (بين لنا مالونها قال انه يقول
انها بقرة صفراء فاقع لونها) شديد الصفرة (تسر الناظرين) لحسنها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى)
أسامة هى أم عاملة (إن البقر تشابه علينا) أى ان البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشبهه علينا (وانا
ان شاء الله لمهتدون) الى المراد بذبحها (قال انه يقول انها بقرة لاذلول) لاهذلة (تير الأرض) تحرت الأرض
(ولا نسق الحرت) لا يستسقى عليها بالسواقى الحرت (مسلمة) من كل عيب (لاشية فيها) لالون فيها غير لونها
(قالوا الآن جئت بالحق) بالبيان التام (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى وما قاربوا أن يفعلوا ما أمروا به
قبل لفلاء ثمنها ، أولعزة وجودها بهذه الأوصاف (واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) اختصتم فى شأنها (والله
مخرج ما كنتم تكتمون) مظهره لاحالة ، ثم عطف على ادأرأتم قوله تعالى (فقلنا اضربوه) القتل (ببعضها)
أى بأى بعض كان ، فضر بوه غبي ، ثم خاطب الله من خضروا حياة القتل ، أو من حضروا نزول الآية ،
فقال (كذلك يحيى الله الموتى) للبعث (ويريك آياته) دلائله على كمال قدرته (لعلكم تعقلون) تمنعون أنفسكم
عن المعاصى (ثم قست قلوبكم) القساوة الغلظ مع الصلابة كما فى الحجر (من بعد ذلك) أى بعد إحياء القتل
(فهى كالحجارة) فى قسوتها (أو أشد قسوة) منها (وان من الحجارة لما يتفجر) يخرج (منه الأنهار وان

منها لما يشق) يتصدع (فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط) أى يتدرج من أعلى الجبل الى أسفله (من خشية الله) وقلوبكم لاتتحرك من خوف الله (وما الله بظالم عما تعملون) أى ان الله بالمرصاد طؤلاه القاسية قلوبهم حافظاً لأعمالهم حتى يجزيهم فى الآخرة . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح هذه الآيات وعجائبها

خالط بنو اسرائيل الأمة المصرية ، وأشرىوا فى قلوبهم العادات الوثنية ، والأخلاق القرعونية ، فصدوا مجولهم ، وقدموا أصنامهم ، ولصقت بهم عاداتهم ، ورسخت فى طباعهم رذائلهم كما هوشأن للقلوب مع الغالب والضعيف مع القوى ، والولد مع الوالد ، والتلميذ مع الاستاذ ، والجاهل مع العالم ، والفقير الضعيف مع القوى القوية ، وكما هوشأن الأمم التى استضعفتها الأقوياء ، واستذلها الباطشون ، وشأن ضعاف الأمم الشرقية مع الأمم الغربية ، فانظر كيف غلب على بنى اسرائيل ما علق بأذهانهم ، ورسخ فى طباعهم من عبادة الجبول حتى اتخذوا الجبل وعبدوه كما كانوا يزون [ايس] معبود للمصريين ، وهذا شأن البشر يتخذون أوهم الغالبين الذين استوتق لهم الأمر ، وتم لهم النصر عليهم ، وما حال بنى اسرائيل فى التيه العابدين للجبل إلا كمثل من أذلم المستعمرون الغاصبون ، فعلقوا بأذيال ظالمهم ، وغرهم سراهم الخادع ، وهذا شأن البشر فى كل قبيل ، وكما يقول المتعلم الشرقى قال للسيوف فلان والسيوف فلان ، وهم قد ضربوا بيد من حديد ، فلم يكن للنبي موسى عليه السلام بد من انتهاز فرصة القتل الذى اشتجروا عليه وتخاصموا وكان من الأغنياء الموسرين فقال اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ، فضرب بحجرين ورى الجبل بسهمين ، فأناهم عبادة الجبول ، وأراهم أن للأموات حياة وبشا بعد أن أرهقهم بأمر الله بما وصف من البقرة النادرة العريضة النظير بعد أن عبدوا الجبل النهي وكيف وصف قلوبهم بأنها كالحجارة أو أشد قسوة وفضل الحجارة عليها بأن قال : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشق فيخرج منه الماء » .

لقد سبق أن ذكر الحجر المضروب بالعصا وهو مجهزة نادرة الوقوع صارت على يدنبي ، ولقد ألمع فى هذه الى رحمة الله الواسعة ، وفضله السيم ، وخيره الجسيم ، إذ كانت الجبال كلها مخازن للماء الذى سلكه فى بطنها مما أمطره السحاب فأصابه البرد فصار تلجا يكسر الحجر الصلد ، والصفا نللك ، وتفجر الينابيع .

يقول الله : لأن ضرب موسى الحجر بعصاه فعصاى التى أضرب بها ذلك الناموس الجيب ، والابداع الغريب ، والنظام البديع ، إذ جعلت للماء اذا جد ناصة لا يشركه فيها سواه ، وطريقة لا يسلكها ماعداه ، ذلك أنه اذا جد فصار تلجا أكبر حجمه فكسر الصم الصلاب ، وبخر الأنهار ، تلك عصار بك التى يكسرها الأشجار ، وهو علم الجود ، دائم المعجزات ، ما تولى الحدنان ، وتناجى الفرقدان ، فالمعجزات الالهية لانهية لعددها ولا آخر لنددها ، دأمة لا تبيد ، وقأمة لا تفتى ، خفيت على الجهلاء ، وظهرت للعلماء والحكماء . لا يسبقها إلا العالمون (بكسر اللام) ولا يدرك كنهها المتفانون ، ذلك : اع حيث الى النظر فى العلوم الطبيعية ، وعار على أمة الاسلام أن تجهل عصا الله الناموسية المنفجرة للأشهار ، الكاسرة للأشجار ، كل ليل ونهار ، وكل صاح ومساء فى مشارق الأرض ومغارها ، والافكيك اختص الحجر بالضرب : أليس ذلك تنبيها للفاقلين وتذكيرا للجاهلين من المسلمين والأمم أجمعين ، وعدم نسيانهم مجد آبائهم وعالومهم كما نسي بنو اسرائيل التوراة المنزلة على موسى ، وهو رجل منهم ان الانسان ظالم جهول [يقول الله] ان للماء مخزون فى الاشجار ومنها تفجر الأنهار ، فهلا ضرب شجرة ، أو بقرة ، أو خيمة ، وإعما هده الله بالوحى إلى ما يبعث فى النفوس حكمة . وفى العقول فهما ليجهل الناس فى العلوم . هذا هو السر فى قوله تعالى - وما نزل بالآيات - [خراروق

العادات [- إلا تخويضا - ثم يقول « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة
وذكري لقوم يؤمنون » .

مثل هذا تكون الذكرى ويمثل هذا يستيقظ المسلمون ويأخذون حظهم المشهود ويومهم الموعود .
تفجر الأنهار من الجبال والأشجار إنما كان بما اختصت به المياه من حكمة الاتفاخ إذا جددت كما
علمت ، ونهيب كيف ضربت الشمس الرياح وأرسلت عليها أشعتها فأجرتها فأخذت تعدو وتموج في مخرق
الجو وفسيح بأحائه ، وهي تحمل قطرات الماء الخافية المسماة بالأبخرة الغاديات الرائحات حتى إذا اصطكت
بالجبال الراسيات صدها وأرجعتها ، غبست ورجعت وكثرت سحابا فسقت الحقول والرياح ، فأحقت النبات
وأنتى وأثك وتشعب الشجر وفرش وأدرك وأزهر وأثمر وأبوع ، وما أشبه الجبال بالجوس : أى السدود لتحفظ
الماء حتى يسقى الحقل .

الجيل حبس الماء فأزادته وهو بخار نزل ودقا فسلك في باطن الأرض أيما حتى إذا أصابه برد فحجر ينابيع .
عجب للماء وأى عجب تجريه في الجو الحرارة الشمسية ، وتزجيه الرياح ، ويحبسه الجبل ، ثم يحزنه في
كهوفه والمغاور المستكنة تحته ، والبرد يخرجها .

أليس من عجب أن الحرارة تجريه بخارا ، والبرد يجريه ماء .

هذه هي للمجهزات ، وهذه هي الآيات ، فباحسرة على المسلمين : نسوا حظهم من الحكمة ، ونسوا
حقهم في الوجود : باحسرة على بلاد الاسلام جهلوا العلم ونلموا في اليهود وسكنوا اللحد ، قوموا من مراقمكم
واظفروا ما أبدع القرآن وكيف يقول (وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه
الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) .

فان كنت جاهلا فلا تتعد حجر موسى وعصاه ، وان كنت عالما فاسألك أن تتفعل في الحكمة وتنتظر
في العالم وما حواه وتردد الطرف ، وتعلم أن الجبال كلها حجارة الله ، والتوابيس الطبيعية عميه واقر في الطبيعة
فلقد نهك القرآن من ذكر الحجارة وتفجر الأنهار منها أن تنتظر نظرات ولانك من أولى الجهالات .

عجائب القرآن وغرائب

ان هذه القصة المحكية عن نبي اسرائيل مجهزة لنبي الله موسى عليه السلام ذكرت هنا في القرآن كسائر
قصص الانبياء ، وهنا يسأل الانسان قائلا : أى فائدة نجنيها من هذه القصة : اللهم إلا أن تتلى في المحافل
والمجالس الدينية ، ولكن القرآن إنما جاء ذكرى وعلماء وحكمة ، فأين العلم وأين الحكمة هنا ، فربما
يجب كما أجبنا أن فيها فائدتين : الأولى أن البقرة عبدها المصريون ، فقد أراد سيدنا موسى أن يظهر لهم
أن ما يذبح ليس بمسحق العبادة . الثانية ان الأرواح أحياء بعد الموت ، فيكون ذلك دليلا على بقاء النفوس
حيا كما قلناه هنا ، ولكن هاتان الفائدتان ليستا بمجتمعتين ، لأن عبادة البقر ليست شائعة الآن في الاسلام ،
واحياء الميت بضره ببعض البقرة أمر سماعى يأخذنه المؤمنون بالتسليم ، فلا بد إذن أن يكون وراء هذا
القصص أمر نافع .

أقول : اعلم أن معجزات الانبياء لابد أن يكون لها عند الناس مبادئ بها تفعلها . ألا ترى أن الامام
الغزالي يقول : لولا أن الناس يرون رؤيا سالحة بأنفسهم أو يسمعونها من غيرهم ، وانها وقعت كما رأوها
ما صدقوا الانبياء في أخبارهم بالنبي . فاعلم أن هذا القرآن جاء للناس ، وهو يتلى صباحا ومساء وتقرأ عليه
السنون والأعوام ، والناس يؤمنون به تقليدا وتصديقا وانباغا ، ولا يجسر أحد من المؤمنين أن يقول لم كان

كذا فيما لم يدركه فهمه حتى اذا جاء من يدرك المقصود منه عرفه فابرزه للناس . ان في هذه السورة أربع عجائب : عجيبه الربا ، وعجيبه الحجر ، وعجيبه احضار الأرواح ، وعجيبه التنويم المغناطيسى . أما عجيبه الربا فستأتى في آخر السورة ، وقد ظهر هناك أن الحرب الكبرى بين الألمان ، ودول أوروبا والشرق كانت من أجل رموس الأموال التي كانت [البنوك] المصارف والربا أهم مقوم لها ، وهكذا استعاد الدول القوية للأمم الضعيفة ، وظهر [البلشفيك] في بلاد الروس وقلبوا حكومتهم من أجل رموس الأموال وأبطلوا الربا ، فسيأتى هناك في الآية المذكورة في الربا ، وقد كنا فسرناها قبل الحرب بثلاث سنين ، وقلنا قوله « فان لم تضلوا فائذنوا بحرب من الله ورسوله » يفيد أن الحرب ستكون بين الدول لأجل رموس الأموال . وبالأجل أقول ان الربا ظهر ضرره باوضح معنى في هذا العصر ، وقامت الروس بتحريمه ومنعه بنانا ، والمسلمون في جميع العصور لم يقدروا أن يستأصلوه ، بل انى رأيت من أفضل المصريين المعاصرين لى من كانوا يرون أن القرآن في تحريمه للربا صكان من أسباب تأخر المسلمين ، فلما سمعوا باقلا ب دولة الروس وتحريم الربا ألبت أفواهم بالأحجار .

ولما الحجر فسيأتى تحريمه في هذه السورة ، وأنت ترى أن المسلمين كانوا يختلفون في بعض أنواعه ، وهو التبيذ : وترى الأطباء قد يبيحون تعاطيه لمرض ، والمسلمون في أقطار الأرض يخالفون ، ومنهم من كانوا يتجنبون من القرآن ولم حرمة ، وأوروبا وهى أعلم منا تشر به ، حتى قامت أمريكا في هذا العصر ففتت شره بجميع أنواعه ، وأسكت جميع الأمم وانبعثت حكومة الترك ببلاد الأناضول التي رأسها الغازى مصطفى كمال باشا ، وقد استولوا على الاستانة وحرّموا فيها الحجر تحريمًا بانا في هذا الشهر عند كتابة هذه الأسطر ، فانظر كيف كان الحجر محرّمًا ألف سنة وثلاثمائة فأكثر ، والناس منهمكون في شربها والشعراء المسلمون يترنمون بها ، ولا تمنعهم الحكومات الاسلامية ولم تظهر الحجة المطلوبة الاعلى يد أم أخرى عرفته بقولها لا بأديانها .

أما مسألة التنويم المغناطيسى الذى عم الكرة الأرضية وصار علما يدرس رسميا ويستعان به في علم الطب ، فسيأتى عند الكلام على هاروت وماروت .

وأما علم تحضير الأرواح فانه من هذه الآية استخراجا ، ان هذه الآية تنبئ للمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمرىكا أولا ، ثم بسائر أوروبا بانا . فلا ذكر نبذة منه لتعرف كيف كان مبدأ هذا العلم وكيف كان لنتشاره بين الأمم ، وفائدة هذا العلم أن من سحت عنده أحوال الأرواح وظهورها أيقن بالأخرة وبالحياة بعد الموت ايقانا تاما . وأما من لم تصح عنده فانه مقلد كسائر الناس ، ولتعلم أن هذا العلم منشعب اختلطا فيه الحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، وصار الناس فيه طائفتين ، طائفة مكذبة ، وطائفة مصدقة ، ولكل حجج ليس هذا محلها ، ولكن بالأجل أقول ان في العلم التباسا كثيرا وشكوكا بسبب الأحوال الطارئة على المشتغلين به ، وكان الأولى بأمة الاسلام أن تكون السابقة في مضاره المجتدة في تعلمه المتقدمة على سائر الأمم في تحصيله لتهدى الناس إلى سواء الصراط . أفلا يرى المسلم ما جاء في هذه السورة في قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعون يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم » وفعل إبراهيم ذلك ، وقطع الطير ودعاها فأجابت فاطمان ، وهل نحن أكثر إيمانًا من إبراهيم كلاً ؟ فاذا كان إبراهيم يطلب اليقين بالمعينة فنحن أولى ، والأنبياء أعلم منا ، فكان يجب على المسلمين أن يكونوا هم البادئين بعلم احضار الأرواح لأمرىكا ، لأن الله ذكر لنا في سورة البقرة هنا أنهم ضربوا القليل فخي وأخبر بمن قتله ، وهو الذى كان ولزنا له فخر الميراث ، واذا صح هذا في نفس واحدة لجميع الأفس يجب أن تكون كذلك ،

واها حية بعد الموت وليس يمكن أن يكون هذا يقينا إلا إذا رأيناه بأنفسنا في زماننا بلا شك ، وأنى لنا ذلك إلا بالكذب ، والنصب ، والتعب ، والسهر ليلا ونهارا في العلم والعمل .

وقد ألفت كتابا سميته [كتاب الأرواح] ضمنته : ماورد إلينا من أوروبا وأمريكا من كيفية احضارها ، وهكذا مايقابل ذلك ، مما ورد في القرآن والحديث وكلام الصالحين ، فرأيت اتفاقا بين الأمتين ، فلا تقلك الآن ما جاء في التوراة من احضار الأرواح مثل ما في عصرنا تماما ، ثم أتبعه بنبذة مما في كتاب الأرواح الذي ألفت في تاريخ هذا العلم ولست أريد بذلك أن قلد ما أقول ، ولكن أقول يجب أن يكون في المسلمين جماعة صادقون مخلصون قاصدون وجه الله ، والدار الآخرة ، لا عرض الدنيا ينقطعون لهذا العلم ويحضرون الأرواح لأجل العلم والمعرفة ولا يتكلمون على أوروبا وأمريكا ويميزون الحديث من الطيب . وطرق التحضير واضحة في كتاب الأرواح المذكور ، فلا يتدى لك الآن بما جاء في التوراة في سفر صموئيل الأول واليهود والتصارى معترفون بنبوته مصدقون به ويذكر في هذا السفر أنه نصب لليهود ملكا ، يقال له طالوت وأمره الله بقتل العماليق ففعل إلا أنه خالف من قبل مواشيهم وسقط عن مرتبة الملك ، ومات صموئيل وأقبل طالوت على قتل السحرة والعرافين فقتل من قتل ، وهرب من هرب ، وأقبل أهل فلسطين لمحاربه تجميع العرافين لهم ، ودخل الرعب من كثرة الجيوش المنصبة عليه ، ولم يجد من يمكن الی قوله كعادته من بني ، ولا ساحر ، ولا عراف ، ولا حاكم فقتل لذلك . قال في التوراة : ولما رأى جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدا ، فسأل من الرب فلم يجبه الرب لابالاحلام ولا بالأنبياء ، فقال لعبيده فقتلوا على امرأة صاحبة جان ، فأذهب إليها وأسألها ؟ فقال له عبيده ها هوذا امرأة صاحبة جان في عين دور فتنكر طالوت وليس ثيابا أخرى ، وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلا ، وقال اعرفي لي بالجان ، واصعدي لي من أقول لك ؟ فقالت له المرأة أنت تعلم ما فعل طالوت كيف قطع أصحاب الجان ، والتواع من الأرض فلماذا تضع شركا لنسبي لثمتها خلف لها طالوت بلرب ؟ قال حتى هو الرب لا يلحقك ثم في هذا الأمر ، فقالت المرأة من أصعدك ، فقال اصعدي لي صموئيل ، فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة طالوت قائلة لم خدعتني ، وأنت طالوت ؟ فقال لها الملك لا تخافي فإذا رأيت ، فقالت المرأة لطالوت رأيت شيئا مهيبا مثل ملائكة الرب مشتتلا يبرنس قد صعد من الأرض ، ففعل طالوت أنه صموئيل أرسله الله ، فدخل إليه وسجد بين يديه ، فقال صموئيل يا طالوت لم أرجعتني وأحييتني ، قال لما ضاقت بي الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياي ، وزوال عناية الله عني ومنعه الأحلام مني فدعوتك لأشاورك في أمري ، فقال صموئيل : ان الله تعالى قد نقل الملك عنك إلى صاحبك داود وغضب عليك ، وعلى بني إسرائيل بما فعلتموه في مواشي العماليق ، وهو ناصر فلسطين عليكم ومديلمهم فتصير معي غدا في الأموات نثر مفضيا عليه وعرفته الساحرة فأقبلت إليه ، ومن كان معه ولم يزالوا به حتى أفاق وألحت عليه المرأة والعبدان أن يأكل ، وهو يمنع منتظرا الموت حزينا كثيرا فلم يزالوا به حتى رضى فذبحت عجلاها المسمن في البيت وصنعت فطيرا فأكل . ولما طلع النهار التحمت الحرب فوقعت المزيمة على العبرانيين فأكثر القتل فيهم ، وقتل طالوت وبنوه الثلاثة ، وكان قتله هو أنه انكأ على حربة فأخرجها من ظهره فاجتمع بنو إسرائيل على تملك داود فدافع بهم من نواهم . هذا ما قرأته في كتب أسلافنا عن التوراة . وقد وضعتها بين يدي عند كتابة هذه الحكاية ، فرأيت الموافقة نامة إلا في بعض عبارات لانصر بالمقصود جاءت من تحريف الناسخين ، هذا هو تحضير الأرواح في التوراة .

أما ما جاء في العصر الحاضر الذي يناسب مسألة القتل الذي نربوه ببعض البقرة ، ومسألة ابراهيم الخليل وقوله لله عز وجل « ولكن ليطمئن قلبي » ومسألة صموئيل النبي مع طالوت العبر عنه بلفظ شاول في التوراة

الذي ذكرنا قصته الآن فما كنه . قلت في كتاب الأرواح :

قل شير محمد : هل يذكر لي الاستاذ كيف كان بدء هذه الحركة في العالم الحديث ؟ قلت : ان هذه الحركة بدأت مع الانسان على ظهر الأرض وعاشت مع الأمم دهورا وأحقابا ، فلما كانت هذه القرون الماضية وأظلمت الدنيا : واسود وجه الحقيقة ، وأخذ الناس يجهرون بالاحقاد أرسل ربك لهم عجائب ، وبث لهم من الأرض غرائب ، انبعث لهم من عوامل الغيب ، وسطعت الحقائق ، وأشرقت الأرض بنور ربها في سنة ١٨٤٦ م ذلك أنه سمع في تلك السنة طرقات متوالية في بيت رجل يسمى [فيكمان] من قرية [هيدسفيل] في نيواسي ولاية نيويورك وتوالى ذلك ليالى ذوات عدد ، فذعرت تلك الأسرة ، وقذف في أفئدتهم الرعب ، فهجروا المكان بعد أشهر ، فسكنت الدار أسرة [جون فوكس] المؤلفة من الرجل وامرأته وابنتيه ، فعادت الطرقات وتوالى الضربات ، وهرع الجيران لينقبوا عن تلك الأصوات المزعجة ، ثم اهتمدوا الى سبيل الرشاد إذ علموا أن تلك أفعال ناجمة عن عقل ، فاصطلحوا مع مصدرها على لفظ نم ولفظلا بطرقتين وثلاث ، ففهموا أنها روح أصابها شر قد قتلها رجل في هذا البيت والذي كشف ذلك [مدمام فوكس] واقتيل الطارق يدعى [شارل ريان] قتل منذ أعوام عديدة في ذلك البيت ، وكان في حياته دوكرا قتله من كان يبيت عنده لسب ماله ، وكان عمره إحدى وثلاثين سنة ، ثم شاع الخبر وذاع ، واستهزأ الناس بذلك وسخروا منها ، وقالوا : ان هذا لكذب ميين ، وانتقلت عائلة فوكس الى قرية [روستر] من الولايات المتحدة ، وشاع الخبر وذاع ، وتار علماء الدين والملاحدون وسائر الشعب على المرأة وابنتها ، وتعرض للموت مرارا ، فعين القوم لجنة من العلماء لكشف الحقيقة ، فأعلنت أنها لا أثر للشعوذة ولا للاحتيال . فهاج الشعب وعين لجنة أخرى ، فقررت كالأولى ، وعينوا ثالثة ، فأذعن كسابقتها ، فهمم الطعام باهلاك الابنتين ، وسبوا وشتموا علماء اللجان المذكورة ، ولكن الابنتين لم يصعبا ضرر ، وقامت الجرائد والمجلات تنشر مقالات الهزؤ والسخرية بهذا العمل ، ومن الهجب أنه لم يمض أربع سنين حتى فشا المذهب في سائر الولايات المتحدة حتى لم يكن يتخلو بيت من وسط أوروبية تخابر القوم على يده الأرواح ، وقد يجلسون حول منضدة ، ويتلون أحرف الهجاء ، وعند وصولهم الى الحرف المقصود تطرق المائدة برجلها ، ولم تمض سنة ١٨٥٤ أى بعد الحادث بخمسين سنة حتى أصبح أمر هذا الحادث من أعمال دار الندوة ومجلس الأعيان الملتئم في مدينة واشنطن ، فقد رفعت عريضة طويلة مذنية بخمسة عشر ألف اسم ، هالك صورتها صفحة ١٦ من كتاب « المذهب الروحاني » :

« نحن الواضعين أسماءنا بذيله أبناء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية نعرض لمجلسكم الموقر أن حوادث طبيعية وعقلية لا يعرف لها مبدأ ظهرت منذ قليل في هذه البلاد وفي أكثر أنحاء البلاد الادروية وتكاثرت هذه الحوادث السرية في شمالي الولايات المتحدة وغربها ومتوسطها حتى أقلقنا الرأي العام ، ولما كان الموضوع الذي نلتبس من جمهوركم الموقر الالتفات إليه لا يمكن شرحه في هذه العريضة على اختلاف أنواعه نلخصه لكم بوجيز من الكلام فنقول :

أولا : ان ألوقا من العقلاء المدركين شهدوا قوة خفية تحرك أجراما ثقيلة وترفعها وتخفضها وتنقلها وتقلبها على أنواع مختلفة مناقضة في الظاهر للنواميس الطبيعية ، ومتجاوزة حدود الادراك البشرى ، ولم يتوصل أحد حتى الآن الى إيجاد علة خصوصية أو مقاربة لهذه الحوادث .

ثانيا : ان أنوارا مختلفة الشكل والألوان تظهر في الحجر المظلمة من دون أن يجد القاعدون فيها مادة قابلة لتوليد عمل كهادي ، أو توبرفسفوري ، أو سيال كهربي .

ثالثا : ان نوعا غريبا من هذه الحوادث نلتبس من مجلسكم الموقر الانتباه له وهو اختلاف الأصوات في

تكررها وأنواعها ، وأهمية مثلها ، فبعضها طرقات سرية تدل على وجود عقل غير منظور ، وبعضها تحاكي الأصوات التي تدوى في بعض المعامل الميكانيكية ، أو تتحول إلى دوى أشبه بصير الرياح العاصفة تتلجلجها فرقة صواري المراكب وملاطمة الأمواج لجدرانها حين هبوب العواصف ، وأحيانا تصدر الأصوات شبيهة بصوت مطرعد والطلاق المدافع ، وترتج عندها الأشياء المجاورة ، بل الليت ذاته الذي تقوم فيه تلك الحوادث ، وفي بعض الأوقات تكون الأصوات شجيرة ، تماثل نبرة الصوت البشري ، ونارة آلات الطرب كالزمار والطبل والبوق والقيثارة والعود والارغن تصدر إما جملة ولما على حدة ، ونارة مع عدم وجود الآلات المذكورة ، وطورا مع وجودها ، ولكن تضرب من نفسها دون مس يد بشرية لها ، وتصدر هذه الأصوات وفقا للمبادئ العلمية المنوطة بقوة السمع أي حدوث تموجات هوائية تنتظم بأعصاب السمع ، وإنما لم يتوصل الباحثون رغمًا بما بذلوه من الجهد في استجلاء مصدر هذه التموجات الهوائية ، ونرى من المناسب أن نشير إلى المبدأين اللذين افترضا في حل هذا المشكل ، فالأول لعزاه الحوادث إلى أرواح الأموات ، وفعلهم في العناصر البقية الأولية للمادة والسارية في كل الأشكال الطولية ، وهذا ماشرحه العامل السري ذاته حين طلب إليه إيضاح ذلك وقد وافق على هذا الزعم عدد عديد من أبناء وطننا الممتازين بأدابهم ، وقوة ذكائهم ، ومركزهم الرفيع في السياسة والهيئة الاجتماعية ، وأما أصحاب المبدأ الثاني ولأكثرهم أيضا رفيع المنزلة في القوم فهم ينكرون الزعم الأول ، ويذهبون إلى أن مباحث العلماء لا بد من أن تبرر بقوة المبادئ المعروفة من العلوم النظرية العقول بإيجاد سبب حقيقي مستوفى الشروط لكافة الحوادث للتوه عنها .

على أننا وإن كنا لانوافق على رأى هؤلاء وقد توصلنا بقوة البحث إلى نتائج مخالفة لكل علة طبيعية للحوادث التي نحن بسددها تؤكد لجمهوركم الموقر أن الحوادث جارية حقا وصدقا ، وأن مصدرها السري وغرابة وقوعها ، وأهمية تأثيرها في واقع الجنس البشري تستوجب بحثا علميا مدققا لا يستريحه الشكل ، إلا يستطيع كل عاقل أن يفكر ما مقدار الحوادث التي نحن بسددها من الاثبات للشعب الأمريكي بنتائج مهمة ثابتة تنطق بأحواله المادية والعقلية والأدبية ، ثم ماذا يكون لها من التأثير في أسول السخة والحياة ومبادئ الفكر والعمل حتى يمكنها أن تقول إلى تغيير أسول ميثتنا واصلاح مبادئ إيماننا وفلسفة عصرنا ، وتبديل هيئة إدلرة العالم ، وإذا كان من اللائق والمناسب لروح نظامنا أن نقصد دائما ترواب الشعب في المسائل التي يصدر عنها اكتشاف مبادئ جديدة تأتي بنتائج مذهلة للهيئة الاجتماعية ، أننا نحن أبناء الوطن نلتصم بالخام من جمهوركم الموقر إنارة بصائرنا في هذه الظروف القربية ، وذلك بتعيين لجنة كلمة مهما يلزم لها من التفقات في سبيل استجلاء هذه القوامض ، واثنا لمعتقدون أن صوالم الهيئة الاجتماعية سينالها الخط الأكبر من نتائج أعمال اللجنة التي التمتنا إقامتها ، ولما مزيد الثقة في استصواب طلبنا ، وإجابة ملتصنا ، من لدن مجلسكم الموقر « مذيل بخمسة عشر ألف اسم اه

ثم اعلم أن هذا العلم عم الولايات المتحدة حتى صار للذهب يتبعه سنة ١٨٩٥ نحو ٢٠ مليوناً في الولايات المتحدة ، وعدد الشركات الرومانية سنة ١٨٧٠ عشرون شركة روحانية عمومية ومائة وخمس جمعيات خصوصية و٢٠٧٧ خطباء و٢٢ وسيطا عموميا ، ومن علمائهم الحاكم آدمون كان رئيس القضاة ، وانتخب سمرات في مجلس الأعيان ، والعلامة روبرت هير الأمريكي الطائر السبت وألف كتاب [أبحاث عرفية في ظهور الأرواح] والعلامة روبرت دال أوبن وألف كتابا سماه « عثار في حدود عالم النيب » وكان في تلك البلاد في آخر القرن الماضي نحو ٢٢ جريدة ومجلة تنقل إلى القراء أخبار أعمالها ، ولم يكن ليبحث أحد من العلماء هذا البحث إلا لينتقد الناس من الضلال بما آتاه الله من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ولما ملا هذا

لحادث أرجاء الولايات المتحدة باع صدى صوتهم آذان الانجليز ، فقام العلماء والفلاسفة فيها للبحث والتقصي عسى أن يخرجوا العالم الانساني من الظلمات الى النور بتفنيده هذا السحر ، وابعاد هذا الظلام ، وقشع السحاب الذي غشى على الانسان ، فحجب عنه نور العلم ، وأذاع فيه الخرافات والأكاذيب ، فقام العلامة الطائر الصبت ولهم كركس من أعظم الكيماويين والطبيعيين المكذبين بهذه الأساطير ، والعلامة الفرد [روسل والاس] قرين داروين الشهير والمساعد له في أعماله . فقال شير محمد : قرين داروين ! قلت نعم . فقال أف للقلدين كيف يصح والاس قرين داروين . مؤمنا بالبعث ، وهؤلاء الذين يدعون أنهم قرءوا مذهب داروين ينسبون كفرهم إليه ، ألا تنس الجاهلون الذين لا يعقلون . ثم قلت : ومنهم العلامة [أوجست دي مرجان] رئيس جمعية الرياضيات في لوندرة ، وكاتم أسرار المجمع العلمي الفلكي ، ثم السير [فارلي] مخترع آلة المستودع الكهربائي ، والمجمع العلمي المنطقي الذي تأسس في لوندرة سنة ١٨٦٧ قرّر في جلسته المنعقدة في ٦ كانون سنة ١٨٦٩ وجوب إقامة لجنة للنظر في الحادث الروحاني ، والوقوف على صحة الأمر ودرسته ١٨ شهرا متوالية ، ولقد دهشت الأمة الانكليزية لما بلغها قرار اللجنة بصحة الحادث ، ولقد ألف والاس الآف الذكر كتابه الذي سماه « عجائب الروحانية الحديثة » . ومن العلماء الذين كانوا من أشد المعاندين الدكتور جورج ساكستون الخطيب المصقع الذي بعد أن عابها أخذ يدرسها ١٥ سنة وقال : لقد أيقنت بالروحانية ، وحادثت أقربي وأصدقائي المتوفين ، وكذا الدكتور [شامبرس] والدكتور [هونغسون] والعلامة [ميرس] وهناك [جمعية المباحث النفسية] ولها مجلة تسمى [أشياح الأحياء] .

ولقد حصل في فرنسا مثل ما كان في أمريكا وانجلترا : فقد قام بالأمر منهم البارون [جيلد نستويه] وألف كتابا سماه [حقيقة وجود الأرواح] ظهر في سنة ١٨٥٧ أي بعد الحادث الأمريكي بنحو ١١ سنة وأجيببت فاكيري : ألف كتابا سماه [شتات التاريخ] على ذكر الامتحانات الروحانية ، وكذلك [فكتور هوجو] شاعر الفرنسيين اذ قال : ان من أعرض عن الحادث الروحي فقد أعرض عن الحقيقة وكذا المؤرخ [أوجين بوشير] والعلامة فلا ماريون الفلكي الطائر الصبت ، والعالم [موريس لاشتر] مؤلف القاموس الذي باسمه ، والدكتور [جييه] الطبيب الشهير .

ثم فتت الروحانية في ألمانيا وروسيا وإيطاليا والبلجيك واسانيا والبرتغال وهولانده وأسود ونروج هذا ملخص ما جاء في كتاب « المذهب الروحاني » الذي هو خير كتاب ألف بالعربية لعلم الأرواح في هذا الزمان قد أبنت لك كيف كان انتشار هذا الحادث في النصف الثاني من القرن الماضي .

هذا مافي هذه العصور من العلوم الخاصة بالأرواح ، وتجب من القرآن كيف ذكر مسائل الحياة بعد الموت في قصة الخليل كما ذكرناه ، وانه أمر بتقطيع الطيور وخلط لحمها بعظمها ورشها ، ثم يدعوها فتجبا في أواخر هذه السورة : وأنت تعلم أننا عن هذا عاجزون ، وهذه معجزات لنبي ، وذلك النبي أراد أن يطمئن قلبه بالمعينة بعد الايمان ، ولاجزم أن إيماننا أقل من إيمان الأنبياء : فنحن أولى بطلب المعينة ، وطريق الخليل فيها مقفل بانها علينا . فن فضلته تعالى ذكر هنا أن القليل قد حي بضره ببعض البقرة ، وهذا فتح باب لاحضار الأرواح فكأنه يقول في مسألة ابراهيم : اطلبوا الحقائق لتطمئثوا ، وهنا يقول : اسلكوا السبل التي بها تستحضرونها ، ولا تنالون شيئا من هذا إلا بجدكم وكدكم ، فالعلم لا ينال إلا بالمشقة والنصب ، فإذا وجدتم أن طريق موسى في إحياء الموتى يصعب عليكم فالتمسوا غيره « وأن ليس للانسان الا ماسى » هذا ما بدا لي في هاتين الآيتين للخليل وموسى الذي سار على قدم جده في النبوة ، فحي الميت على يديه وفي السورة آيتان آخريان في إحياء الموتى وهما (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

قال لهم الله موتوا ثم أحياهم» والآية الأخرى نزلت في العزيز إذ قال في بيت المقدس « أنى يحيى هذه لعمه بعد موتها فأمانه الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام» ثم نظر الطعام الذى كان معه والشراب فرآهما على حالهما لم يتغيرا ، وصار ينظر الى حجاره وهو يحيا وتتصل العظام ببعضها وتكسى لحما فعمل « أن الله على كل شىء قدير » .

فالمسلم إذا قرأ هذه الآيات التى حكيت عن بنى اسرائيل يقول في نفسه : أنا آمنت ، فان كان من العامة لم يطلب المزيد ، وان كان من الخاصة قال : أنا أطلب المعاينة والمشاهدة ، والمشاهدة بأحدى طريقتين : الطريقة الأولى : ماسلكه المجاهدون الزاهدون ، ولكنها محفوفة بالخطر ، ومن شاهد منهم شيئا لا يمكن لغيره التصديق به . الطريقة الثانية : طريقة استحضار الأرواح ، وهى عامة كما تقدم في هذا المقام ، ولكن استحضار الأرواح أيضا على ما يقولون صعب المنال ، ويقولون ان الأرواح النقية لا تخاطب إلا قلوبا نقية خالصة ، فرجع الأمر عند الصوفية وعند علماء العصر الحاضر من أوروبا الى أن المدار على الاخلاص والصدق ، وطلب الحقيقة والتوجه لله : فهذا هو الأصل عند الجميع . ولذلك ترى الذين يظنون أنهم استحضروا الأرواح متى لمب عليهم حس الدنيا تحضر اليهم أرواح كاذبة خاطئة على مقدار همهم ونسكهم بالأكاذيب والمواعيد المرقوبة كما أن المجاهد من الصوفية لا ينال الزلق الا باحتقار العالم الفانى ، ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته ، وكذلك حجاره ، ومثلة الطير وابراهيم الخليل ، ومثلة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم ، وعلم الله أننا نجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز الى استحضار الأرواح في مسألة البقرة كأنه يقول : اذا قرأتم ما جاء عن بنى اسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها فلا تياسوا من ذلك فانى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطريقة المعروفة و«اسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون» ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزيز وابراهيم وموسى : فهؤلاء خلصوا قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنا ، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقللت «فهداهم اقتده» فاقندوا بهم في تعلم ما نظمتمون به وتوقنون ، ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء في طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس فان هذه الأمور انما تعرف بالتجربة والعمل ، لا بالقياس العقلى ولا بالنظر والحدس الفكرى .

مراتب التصديق أربعة

الإيمان : البحث العقلى بطرق الحكماء . طريق الصوفية . طريق استحضار الأرواح ، وأهمها الإيمان ، وأهمها طرق الصوفية .

ولعل قائل يقول : لقد اتبعت طرق الصوفية فلم أزد علما ، ويقول آخر : لقد أخذت في طرق استحضار الأرواح فلم أحصل على طائل . أقول : أنما نلميزان سقطا في الامتحان ، وقد سمعت عن آلاف مؤلفة نالوا جوائز ، وأخذوا شهاداتهم بأيديهم : فنحن الى الأخذ بأقوالهم أميل ، وليس لكما الا أن تسلكا سبيل النظر وتفعل بطرق الحكماء ، فان قلتما أيضا . ليس لنا بها طاقة ، أقول : لم يبق الا الإيمان والأذكياء وأنما منهم ، عليهم أن يبحثوا فليس لكما الا الاحاد والكفر اللذان انما أنبتهما الكسل واللذات فأثمرا أماني وصلالات ويأسا من الحياة . ولعل قائل آخر يقول : مالنا وطئذ المباحث التى لا طائل تحتها ، ولا تجدى نفعا ، ولا تنفع جارا ، ولا تورى نارا أقول له : ليس لنا ما همم به الا دوام حياتنا ، والناس ان لم يبحثوا في هذا لم يضعوا شيئا ، وكانت علومهم وممالكهم ودولهم ودياناتهم وفلسفتهم هباء منثورا في الهواء : ألم تر الى قوله

تعالى « عمّ يتساءلون عن النبا العظيم الذي هم فيه مختلفون ». والنبأ العظيم هو البعث ، وبعبارة أخرى : حياتنا بعد موتنا أعظم الأنباء ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الثاني

الى هنا قد آتينا القول في الفصل الأول وبواقته ، وقد آن أن نشرع في الفصل الثاني وجواهره ، وهو شرح حال اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خمس جواهر .

(الجوهرة الأولى ، والثانية ، والثالثة . قوله تعالى :)

أَفَتَطْمَنُّونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَدِّثُونَ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ
إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَمْلِكُونَ الْكِتَابَ
إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ
هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّاءَ قَلِيلًا قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا
يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ
يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ
خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (أفطمعون) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (أن يؤمنوا لكم) لأجل
دعوتكم ويستجيبوا لكم (وقد كان فريق منهم) طائفة فيمن سلف منهم (يسمعون كلام الله) أى التوراة
(ثم يحرفونه) كما حرفوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم (من بعد ما عقلوه) علموه وفهموه (وهم يعلمون)
أنهم يعرفونه ، ثم ذكر منافق أهل الكتاب فقال (وإذا لقوا الذين آمنوا) أى المخلصين من أصحاب محمد
عليه الصلاة والسلام (قالوا آمنا) بأنكم على الحق وأن محمدا هو الرسول (وإذا خلا بعضهم إلى بعض) أى
الذين لم ينافقوا إلى الذين نافقوا منهم (قالوا) عاتين عليهم (أتحدثونهم) أتخبرون أصحاب محمد صلى الله عليه
وسلم (بما فتح الله عليكم) بما بين الله لكم في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم (ليحاجوكم به عند
ربكم) ليحاجوكم عليكم بما أنزل ربكم في كتابه (أفلا تعقلون) أن هذه حجة عليكم (أولا يعلمون) أى هؤلاء
المنافقون (انهم يعلمون) وما يعلنون) ومن ذلك اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان (ومنهم أميون

لا يعلمون الكتاب) جهالة لا يعرفون الكتابة فيطعموا التوراة ويحققوا ما فيها (إلا أمانى) استثناء منقطع والأمانى جمع أمنية أى أكاذيب أخذوها تقليدا من المحرفين (وإن هم إلا يظنون) لا علم عندهم (فويل) شدة عذاب (الذين يكتبون الكتاب بأيديهم) من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلا (ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) أى الما كل والرشا (فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون ، وقلوا) أى اليهود (لن نمننا) لن نصيبنا (النار إلا أياما معدودة) سعة آلاف سنة على مقدار أيام الدنيا في زعمهم ، وأر بعين يوما عدد التي عبدوا فيها العجل (قل) يا محمد لليهود (أنخذتم عند الله عهدا) موثقا بذلك (أم تقولون على الله مالا تعلمون ، بلى) اثبات لما بعد حرف التثنية أى تمسك النار (من كسب سيئة) أى أشرك (وأحاطت به خطيئته) أوبقه شره (فأولئك) أهل هذه الصفة (أصحاب النار) أهل النار (هم فيها خالدون) دائمون لا يموتون (والذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم وبين ربهم (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون لا يموتون . انتهى التفسير للفظي

الايضاح

يقول : « أفنظمعون » أى لا تظلموا أيها المؤمنون أن يؤمن اليهود لكم ، وقد كانت طائفة منهم : وهم الأخبار يسمعون التوراة ، ثم يحرفون كلامه من بعد ما فهموه : وهم يعلمون أنهم منقرون ، وإذا لقي منافقو اليهود الذين آمنوا قَالُوا آمَنَّا أَنْ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ ، كما ورد في التوراة وإذا رجع بعضهم إلى بعض . قال الرؤساء للذين نافقوا أتخذتو المؤمنيين بما عرفتم في التوراة من نعت محمد ليقيموا عليكم الحجة به عند ربكم يوم القيامة في ترك اتباعه مع علمكم بسدقه أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم ، ثم قال : أيولمونهم ولا يعلمون الخ ، ثم قال : ومن اليهود عوام لا يعلمون التوراة إلا أكاذيب ، وما هم في جحد نبوة النبي وغيرها من المسائل الا يظنون ولا علم عندهم ، ثم قال : فويل ، أى شدة عذاب لليهود الذين غيروا صفة النبي ﷺ من كونه ربمة جعد الشعر أكل العينين الى كونه طويلا سبط الشعر أزرق العينين ، وقد كتبوه في التوراة بأيديهم وينسبونه لله ليشتروا به ثمنا قليلا من المال ، فويل لهم من ذلك الاختلاق ، وويل لهم من المكسب وقلوا لن نصيبنا النار الا أياما قليلة أر بعين يوما مدة عبادة آبائنا العجل ، قل لهم يا محمد على سبيل الاستفهام « أنخذتم عند الله عهدا » والهمزة هنا للاستفهام ، وهمزة الوصل محذوفة ، والعهد الميثاق أم تقولون : أى بل أقولون على الله مالا تعلمون وقوله « بلى » أى تمسك النار وتكونون خالدون فيها من كسب شركا وأحاطت به خطيئته فاستولت عليه من كل جانب فبات مشركا الخ .

لا جرم أن لكل أمة ثلاث طوائف (١) كبراء سادة (٢) أميون (٣) ذوولسن ما كرون ، وبعبارة أصرح علماء ، وذوولمكر ، وأميون ، هكذا اليهود فان طوائفهم الثلاث من الأخبار ، والأميين وذوى العلماء قلموا قومة رجل واحد لا يذاه النبي ومعارضة دعوته كأنهم في حربهم السلمية ببيان مرصوص ، فأضل العلماء بالتحريف في معاني التوراة التي أيدت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكاد لما كرون ، وناق الخادعون ، وقلد الأميون الذين نلقوا الأكاذيب فوعوها وسمعوا من الأفواه أراجيف فرعوها ، أتباع كل ناعق ، وأشباع كل غاب ، ووقود كل حاطب .

ولما كان العلماء قنوة الحزبين شدد التكبير عليهم ، وأنزل الصواعق من سحب الغضب بهم ورماهم بشر من عذابه ، فقال « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » الآية وكرر الويل تكريرا وأعد لهم عذابا وسعيرا .

فسكر أيها الأخ في هذه الآيات وتدبرها وكررها ، وتأمل كيف يصل علماء الدين أمتهم لفسهيل الذنوب وتحويل اقناع والعيوب فيستخذون للشهوات ، ويرطمون في اللذات إذ يقولون لن ندخل النار الأربعين يوما إذ عبدنا الجبل فيها أوسعة آلاف سنة مدة عمر الدنيا ، فيفتربها الجهلاء ، ولعمري أين المناسبة بين عبادة كفرها قدماؤهم ، وبين ذنوب اجترحوها وسيئات مكررها ، ولقد كذبوا في الدعوات كما كذبوا في تحديد مدة الدنيا ، وهي أصعاف أصعاف ماقلوا ، وقد آن أن نعرض آيات الأخلاق التي عليها نظام الأمة الاسرائيلية .

(الجوهرة الرابعة)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ . وَيَالُو الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتُسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا
تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ
أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن
يَأْتُوهُمْ آسَافِي تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْا مُنُونٌ بَعْضُ الْكِتَابِ
وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل) الميثاق العهد المؤكد (لا تعبدون إلا الله) اخبار في معنى النهي (و) أحسنوا (بالوالدين احسانا) برآيهما درجة لهما (وذى القربى) القرابة (واليتامى) جمع يتيم وهو الذي فقد أباه قبل البلوغ (والمساكين) الذين أسكنتهم الحاجة (وقولوا للناس حسنا) قولاً هو حسن في نفسه لا فراط حسنه (واقموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم) عن الميثاق ورفضتموه (إلا قليلاً منكم) وهم الذين أسلموا منهم (وأنتم معرضون) عادتكم الاعراض والتولية عن الوائبق (وإذ أخذنا ميثاقكم) في الكتاب (لأنفسكم دماءكم) لا يقتل بعضكم بعضاً (ولا تخرجون أنفسكم) أى بعضكم بعضاً (من دياركم) من منازلكم (ثم أقررتم) بهذا العهد أنه حق (وأنتم) يا معاشر اليهود (تشهدون) على ذلك (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) يقتل بعضكم بعضاً (وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) أى يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم (تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) أى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم (وان يأتوكم أسارى تفادوهم) بالمال وهو استنقاذهم بالشراء (وهو محرم عليهم اخراجهم) الضمير مبهم يفسره ما بعده (أفتؤمونون بعض الكتاب) بعداء الأسماء (وتكفرون بعض) بالقتال والاجلاء (فما جزاء من يفعل ذلك) أى الإيمان بعض والكفر

بعض (منكم إلا خزي) فضيحة (في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) أي عذاب النار (وما الله بغافل عما تعملون) تأكيد للوعيد (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) آتروا الحياة الدنيا على الآخرة (فلا يخفف عنهم العذاب) فلا يهون عليهم (ولا هم ينصرون) يدفعه عنهم . انتهى التفسير اللفظي

الايضاح

لكل أمة ثلاث أحوال : أيام سعادة وهناء . وأيام اضطراب وعناء ، وأيام زوال وفناء .
هذا قانون عام وناموس لا يتبدل وهو سنة الله « ولن نجد لسنة الله تحويلا » وقد أوضحنا هذه الآية وأبانتها وكشفت عنها القناع .

الحالة الأولى : أيام السعادة والهاء وذلك ثمانية أصول : عبادة الله ، وإكرام الوالدين ، وصلة الرحم وإكرام اليتيم ، وبر المسكين ، وحسن العشرة بالقول الجليل مع سائر الناس واقامة الصلاة وهي داعية للاتلاف وكذلك الزكاة ، وهما عماد الاتلاف والمحبة فضلا عن القرب من الله .

الحالة الثانية : أيام الاضطراب ثم أتم هؤلاء تقتلون ويأسر فريق منكم فريقا ثم تفدون الأسرى فاضطربت أحوالكم وتناقضت آراؤكم ، أفتأسرون وهو حرام وتفدون وهو مرغوب وههنا لاسناص من خراب العيار وحاول السمار : وهي الحالة الثالثة .

الحالة الثالثة : (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) إلا نشيت جمعهم وتخريب دورهم ونهب أموالهم وضياع بلادهم ذلك لاضلال العمام وظلم الكبراء .

لطيفة

لما كنت تلميذا بمدرسة دار العلوم في السنة الرابعة أمرني أستاذي المرحوم الشيخ حسن الطويل أن أكتب في تفسير هذه الآيات مقالا فامتلت أسمه وكتبت نحو مائتي فمسا عرضته عليه أقره ونشرته بهد ذلك في جريدة اللواء ثم في المؤيد وصارت في ضمن المقالات التي في كتاب النظام والاسلام فأجبت نشرها هنا لأنها بهذا المقام أليق فأقول :

كيف تجتمع الأمة وكيف تتبدد

من تأمل في آيات القرآن وما في القصص وغضونها من الأسباب والنتائج وكيف تجتمع الأمة وكيف يتبدد شملها وأهاسرت أولوتحت بكل ما يشاهد في الغالبة والمغلوبة الآن ، ولندكر منها آية ذكر فيها أخذ العهد على بني اسرائيل وأمرهم بانثي عشر أمرا فلم يعملوا بها الا قليلا ولقد تم قبل ذكرها مقدمة فنقول :

لكل أمة ثلاث درجات ، الأولى أن تقوى بينها الوحدة وتلتئم بهواطف المودة والمحبة بصلة الأرحام والوالدين والأقربين والعطف على ضعفاء الأمة من الفقراء والمساكين وحسن المعاشرة مع جميع الناس حتى يكون ذلك مسكة راسخة في النفوس فيحب حكامها العدل محبة طبيعية وملسكة راسخة ، الدرجة الثانية أن تظلم الأرحام من الوالدين والأقربين وتذهب العواطف القومية كما في آية « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ويدب في الأمة داء الفساد في القلوب ولكن تبقى فيها بقية من العقل العملي فتحافظ على كيانها العمومي ونظامها الدستوري فلا يقتلون ولا يتخذون الأعداء أولياء ولا يفعلون ما يحل بالنظام العمومي . الدرجة الثالثة أن تذهب منهم عاطفة القلوب ورابطة الأجسام مما يفسدك بعضهم دماء بعض ويوالون الأعداء ويخربون

يوت اخوانهم بأيديهم ، وهذه الحالة تورث الحزى في الدنيا بتفرق الجامعة ووقوعها في سلطان من يسومهم الحنف « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ولنتل عليك الآية الآن وهي (واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فهذه الصفات الثمانية اشارة الى الدرجة الأولى في الأمة ورفضه مكاتبتها بالتوحيد الاعتقاد والمحبة بين الأفراد وتوجه القلوب إلى ربهم بالعبادات والعطف على أبناء قومهم والشفقة والرحمة بهم ، ثم أعقبه بقوله (ثم توليتهم لإقليلا منكم وأتم معرضون واذ أخذنا ميثاقكم لانفسكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يسفك بعضكم دماء بعض ولا يخرج فرقة منكم من ديارهم (ثم أقررتهم وأتم تشهدون) وهذه اشارة إلى الدرجة الثانية ثم أعقبها بذكر الحالة الثالثة وهي تفرق الجامعة بعد ذهاب العواطف القومية وثور النظمات الدستورية والأحكام العادلة فقال (ثم أتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى فادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أقتلون بعض الكتاب وتكفرون ببعض) ألا وإن اختلال الأعمال الناشئة من تفرق القلوب موجب لوقوع الأمة في سيطرة غيرها وهو بلا ريب موجب للحزى في الدنيا والنكال في الآخرة مع أنه من تمام نظام الحياة الدنيا إذ لا يجوز أن تبقى الحكومة أمدا طويلا على الظلم والتخبط في الأحكام ، إذ للناس رب أراد بقايم إلى أجل مسمى ، فمن لم يقوموا بما عهد إليهم من الملك وتركوا الناس يبنى بعضهم على بعض فيض الله لهم من يزيل الظالمين ويهدل بين الناس مهما كان دينهم « ان ربي على صراط مستقيم » فمثل الأئمة الجاهلة بتدبير شؤونها كمثل السواب التي لا علم لها بنظام نفوسها ، فسخر الله لها الانسان العاقل فقام بأمرها ، ولما كانت تلك سنة الله في خلقه ومقتضى نظامه وطبيعة عمرانه أردف ما تقدم بقوله (فاجزاء من يفعل ذلك منكم الإخزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) وعحصل ذلك أنهم عملوا بعض الكتاب وهو فك الأمرى من اخوانهم وتركوا البعض الآخر : وهو النهي عن القتل والمظاهرة والخراج من الديار ، وهذه كانت حال طائفتين من اليهود ، وهم بنو قريظة والنضير وكانوا حلفاء الأنصار في المدينة وهم الأوس والخزرج فكانت قريظة حليفة الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، فكان كل فريق يقاوم مع حلفائه فيقتلون معهم اخوانهم ويخرجونهم من ديارهم ويهينونهم عليهم ظلما وعدوانا ثم يقدون الأمرى بعد ذلك فتناقضت أفعالهم فقد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فكان جزاؤهم ما قصه الله تعالى ، وليس ذلك خاصا بأئمة اليهود ، بل هو مقتضى نظام الكون وليس أمرا من الخوارق .

صفة حكام الأمم الظالمة وعلماؤها

وصف الله حكامها وعلماؤها بأخذ الرشوة والانكسار على الله في غفران الذنوب انكسار جهالنا اليوم على الله بأن يحسن حالهم ويأتي لهم برزقهم رغدا من كل مكان ، وتقوم جامعتهم ، وهم نامنون حيث قال « نكف من بعدهم خلف ورتوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه » الآية وصفهم بالانكسار على المغفرة بالتوبة ومخالفة عهد الكتاب .

وصف حربهم

قال الله تعالى « لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (وقفينا) أتبعنا (من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم
البنات) المعجزات الواضحة (وأيدناه روح القدس) أي الروح المقدسة ، قيل جبريل أو الانجيل (أفكلما
جاءكم رسول بما لا تهوى) بما لا تحب (أنفسكم استكبرتم) تعظمتم عن قبوله (ففرها كذبتم) كعيسى ومحمد عليهم
الصلاة والسلام (وفريقا تقتلون) كزكريا ويحيى (وقلوا قلوبنا غلغ) جمع أغلغ ، مضطربة بأغلبية (بل نههم
الله بكفرهم) خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم لقبول الحق (فقليل ما يؤمنون) أي إيماننا قليلا يؤمنون ، وما
زائدة للبالغة ، ويجوز أن تكون الفظة بمعنى العدم (ولما جاءهم) أي اليهود (كتاب من عند الله) القرآن
(مصدق لما معهم) من كتابهم (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يستنصرون على المشركين إذا
فأتلوهم ، وكانوا يقولون : « اللهم انصرنا بالنبي الذي يعث في آخر الزمان ، ونجد نعته في التوراة » (فلما
جاءهم ما عرفوا) من الحق (كفروا به) حسدا وخوفا على الرئاسة (فلعنة الله على الكافرين) أي عليهم
(بشئنا اشتروا به أنفسهم) أي بشئ شيئا باعوا به أنفسهم ، فلفظ ما يميز لفاعل بشئ المستتر ، وجملة اشتروا صفة
له ، وقوله (أن يكفروا بما أنزل الله) هو المخصوص بالنم (بغيا) طلبا لما ليس لهم وحسدا (أن ينزل الله)
أي لأن ينزل أي حسدا على ذلك (من فضله) وهو الوحي (على من يشاء من عباده) على من اختاره للرسالة
(فبأوا بغضب) لكفرهم بمحمد (على غضب) لكفرهم بعيسى (وللكافرين عذاب مهين) يهانون به
(وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) أي بالقرآن (قلوا تؤمن بما أنزل علينا) وهو التوراة (ويكفرون بما
وراه) أي بما سواه من الكتب (وهو الحق) أي القرآن (مصدقا) موافقا بالتوحيد (لما معهم) من
الكتاب (قل) لهم يا محمد (فلم تقتلهن أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) أي إذا كنتم آمنتم بالتوراة فكيف
قتلتم الأنبياء من قبل ؟ وهل هذا مقتضى الإيمان بها . انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح

أخذ الله عز وجل في تعذيبهم وتخويفهم ، والتنديد عليهم ، والشنيع بأفعالهم ، إذ قتلوا المصلحين من
البيين ، فإن كانت نصيحة نبذوها ، أو فضيلة تركوها ، فكمن نبي كذبوه كعيسى ، وكمن نبي قتلوه كزكريا
ويحيى عليهم السلام ، وهام أولاد أخذوا يكذبونه صلى الله عليه وسلم ، ولعمرك إن تعد أمة إلا أن تأخذ
ييد مصلحتها ، وتعظم مرشدتها ، فياحسرة عليهم إذا أهملتهم وشؤونهم ، والويل كل الويل لها إن ناصبتهم
العداوة ، وراشت سهام الحرب لنزاهم ، وضيف سبل العمل عليهم ، فما بالك إذا جرعتهم كأس المنون كما
فعل اليهود إلا أن الميزان الصالح ومعيار الأمة أن تنظر في تقديرها للمرشدين ، فإن رأيتهم لهم مكرمين ، وعلى
اتباع ارشادهم مكبين ، فاعلم أنها سائرة للعلاء ، متقدمة إلى الأمام ، ساعية إلى الفلاح ، وإن كان الآخر والعباد
بالتة فهناك السمار ، والسكنى أرى في أمة الاسلام اليوم زعة شريفة ، ونفوسا عالية ، وعقولاً راقية ، وفي ظني
أنهم سيستردون مجدهم ، ويرفعون ذكركم ، وما شهدت إلا بما علمت ، لما أرى من أفعالهم على الحكمة
وابجلاهم للمصلحين ، وأخذهم بالنبي هي أحسن ، ألا واني أنظر بأمتي ، وأفرح بشعبي ، وأعلن على رءوس
الأشهاد أن السعادة قادمة عليهم ، والفلاح ناشر رايته اليهم ، فلقد بدأ الإصلاح ، وسبنتي إلى غايته ، وبصل
إلى كماله ونهايته ، رغم ما بدا من سحابة العرور والشور ، وستنشق السحابة ، وترجع الأمة إلى العناية
والسعادة اه

« الزبجدة الثانية »

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنْشَرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَأُ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد جاءكم موسى بالبينات) الآيات الواضحات : منها قلب العصا حية (ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) أي عبدتموه بعد ذهاب موسى إلى الطور، فأبأوكم كانوا يكفرون بموسى وأنتم تكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم (وإذ أخذنا ميثاقكم) إقراركم (درضنا فوقكم الطور) هتددهم بأن يقع عليهم الطور إذ رفعه فوق رؤوسهم إن لم يقبلوا التوراة، وقلنا (خذوا ما آتيناكم بقوة) أي خذوا ما أمرتم به في التوراة بجد وعزيمة (واسمعوا) سماع طاعة (قلوا سمعنا) قولكم (وعصينا) أمركم (وأنشربوا في قلوبهم العجل) أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصغ الثوب والشراب أعماق البدن (بكفرهم) بسبب كفرهم (قل بشما يأمركم به إيمانكم) بالتوراة، وهل في التوراة عبادة العجل؟ (إن كنتم مؤمنين) تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم : انتهى التفسير اللفظي .

هذه الزبجدة سبق ذكرها وأعيد قريبا وتوبيخا، ليرشد أمة الاسلام ألا تفكر بمقول غيرها، ولا تنظر بعيون أعدائها كإفكار اليهود في العجل يقول قدماء المصريين إلا أنهم ضلوا إذ أمرهم علماءهم بتقديس العجول لبقاء نسلها تمية للزرع، وارتفاعا بالحرف، فضلا في دينهم، وطفوا في غلوهم، وعدوا ما كانوا يحترموا فقلدهم بنو اسرائيل فيما جهلوا وإن كانوا لهم أعداء، هكذا حال المصريين اليوم على الضد من القدماء، إذ جهلوا أمر الحيوان النافع للزراعة، فسات الحلال، وجاء الوبال، وعم السمار، ففقدوا الطير المسماة بأبقردان آكل السمود والحشرات، ميد الأذى، مغيث الزرع من الفاسكات، جهل المصريون اليوم بالفرط والاهمال كما أهمل أسلافهم بالتعالى والاسترسال، فعذب الفريقان، وأهين الأولون والآخرون، فأدلك بالوهم الذي أضناهم في واقعة قبيح، وهؤلاء بصوم السمود في هذه الأيام. اللهم إني أضرع اليك أن ترجع العلم لبلادي، وتردهم إلى الهدى، وتبعد عنهم عاديات السمار أنك أنت الحليم الرحيم، ولا تجعلهم كاليهود، وعلمهم يارب أن الحيوان مكرم مصون، وأن الطير في الجوف موزة الشجر فليفسوه، وليحفظوا الطير ولا يقتلوه .

واعلم أني كنت كتبت هذا التفسير كما قدمت في أول الكتاب وأنا مدرس بدار العلوم في نحو سنة ١٩١١ م ومن عجيب صنع الله عز وجل أني في تلك السنوات كتبت في مجلة [الملاحي العباسية] التي كانت تنشر هذا التفسير مقالا مطولا في اجال تفسير سورة يوسف، قلت فيها إن الفراعنة كانوا أغزر علما من حكام مصر، ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا، فشرحت من رؤيا الملك سبع بقرات مبان وسبع سنبلات اهتمامه بالزراعة، وعطفت على مسألة الطيور، ونهت الحكومة والأمة، فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ م بمنع صيد الطيور الناضجة، ومن أهمها [أبقردان] المذكور، وهذا إذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢ م للطبع، وقد رأيت بعيني رأسي أن الحكومة قدرت [أبقردان] وانتشر في البلاد المصرية انتشارا كما كان سابقا، فأجد الله عز وجل على هذه النعمة وعلى حفظ الطيور بركة الآيات القرآنية وآثارها في النفوس، وحرام على من

عنده نصيحة أن يمكها جينا عن الجمهورياتها لابتدأ نامة عاجلا أو آجلا ، وإن شاء الله لدا طال الأجل ووصلت إلى سورة يوسف أتيت تلك المقالات هناك اه
 أقول : هاهذا التفسير الآن يطبع ويصدر سنة ١٩٣٣ وأذكر الآن قصة الله عز وجل فأقول اللهم إني أحذك جدا كثيرا فانك أنعمت علي بأن حيث حتى فسرت سورة يوسف وما بعدها ، وشرحت مسألة الطيور المذكورة ، ورسمت صورها هناك بوضوح وشرح وتفصيل ، وهذه علامة أن لهذا التفسير رعاية إلهية ، والحمد لله رب العالمين .

« الزبرجدة الثالثة »

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَمْتَ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *
 وَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ
 وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *

التفسير اللفظي

يقول الله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة) خاصة بكم كما قلتم « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصراني » (من دون الناس) سائرهم أو المسلمين (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحب التخصص إليها (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) من موجبات النار كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وتحريف التوراة (والله عليم بالظالمين) تهديد لم وتنبه على أنهم ظالرون في دعوى ما ليس لهم (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أي والله لتجدن يا محمد اليهود أحرص الناس على حياتهم في الدنيا (و) أحرص (من الذين أشركوا) وهؤلاء لا يؤمنون باليوم الآخر فكيف كان اليهود أحرص منهم على حياة غير باقية ، ثم استأنف ليصف حال المشركين الذين زاد عليهم اليهود في الحرص على الحياة الدنيا فقال (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) أي يود أحد المشركين تعمر ألف سنة لافرق في ذلك بين مشركي العرب وبين المجوس ، وقد اعتاد هؤلاء أن يقولوا في تحياتهم : عش ألف يروز ، أو ألف مهربان (وما هو بمزحزح من العذاب أن يعمر) أي وما أسدهم بالذي يزحزحه من النار تعبيره (والله بصير بما يعملون) لا يخفى عليه خافية من أحوالهم . انتهى التفسير اللفظي

يقول تعالى : من أيقن بالسعادة في معاده فما أسراه أن يلوى له العنان ، ويحذ في السعي لحصول المراد ، وينفذ الدنيا ، ويحرص على الأخرى ، وأتم أيها اليهود أحرص الناس على الحياة ، بل أتم أحرص من المشركين وهم العرب والمجوس ، وكيف يطلب الآخرة من ينمي عمرا طويلا ، ألا وإن الحياة الآخرة أسها الحب وعمادها الشوق ، وسقفها الرحمة ، وأي محبوب بعد مفارقة المادة إلا الله والملائكة والصديقون ، وأتم نكروهن النفوس المجرمة وهي :

« الزبجدة الرابعة »

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ
فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى : (قل من كان عدوا لجبريل فانه) أي جبريل (نزله) أي القرآن (على قلبك) يا محمد
(بإذن الله) بأمره (مصدق لما بين يديه وهدى) من الضلالة (وبشري للمؤمنين) بالجنة ، وإذا كانت هذه
حال جبريل ، إذن ليس هو الذي ينزل بالحرب والشدة كما تقول اليهود ، فمن يهديه يكون عدوا لله ،
ولذلك أعقبه بقوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال) أي وجبريل وميكال (فإن
الله عدو للكافرين) أي لم . انتهى التفسير اللفظي

الايضاح وبيان السبب

دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدارس اليهود يوما فسألهم عن جبريل فقالوا ذلك عدونا ، بطع
محمد على أسرارنا ، وانه صاحب كل خف وعذاب ، وميكايل صاحب الخصب والسلام ، قال : وملكتهما
من الله ؟ قالوا جبريل عن يمينه وميكايل عن يساره ، وبينهما عدوة ، فقال : لأن كانا كما تقولون فليسا
بعديين ، ولأنتم أكفر من الخير ، ومن كان عدوا أحدهما فهو عدو الآخر والله ، ثم رجع عمر فوجد جبريل
قد سبقه بلوحي ، فقال عليه الصلاة والسلام : لقد وافقك ربك يا عمر ، هذا ولاجرم أن بين الملائكة والأنبياء
صلة وودادا ، فلم يكن الكفر قاصرا على الملا الأعلى ، وإذا كفرنا وتعدوا الطور في أولئك الذين اصطفاهم
رسلا بينه وبين أنبيائه فما أحراهم بالكفر بمن هم بشر مثلهم ، وذلك في الزبجدة ٥ و ٦ و ٧ :

« الزبجدة الخامسة ، السادسة ، والسابعة »

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ يَتَّبِعِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا
هَذَا نَبِيًّا فَوَعَوْا * وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالَّذِي لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهِمْ
لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ
الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا وَيَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّخِرَ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكِ مِن آيَاتٍ وَمَا رَوَتْ
وَمَا يُعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد أنزلنا إليك) يا محمد (آيات بينات) واضحات (وما يكفر بها) يجحدها (إلا الفاسقون) المتمرّدون من الكفرة (أ) كفروا بالآيات (وكلموا عاهدوا عهدا نذبه) نقضه ورفضه (فريق منهم) لأن منهم من لم ينقض ، ولليهود عهود كثيرة مأخوذة عليهم في كتابهم ، ومنها الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد كانوا يقولون : قد أظلم زمان نبي مبعوث وانه في كتابنا (بل أكثرهم لا يؤمنون) أي كفر فريق منهم بنقض العهد ، وفريق منهم بالجحد للحق (ولما جاءهم رسول من عند الله) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (مصديق لما معهم) مصدق بصحة التوراة (نذ فريق من الذين أتوا الكتاب) اليهود (كتاب الله) التوراة وهي مبشرة بمحمد صلى الله عليه وسلم (وراء ظهورهم) خلف ظهورهم لم يؤمنوا بما فيه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وفضله ولم يبينوا (كأنهم) جهلاء (لا يعلمون) أنه كتاب الله ، واكتفوا من الإيمان بالتوراة بأنهم يقرؤونها ولا يسمعون بما فيها ، ويحلونها بالذهب ، كما يكتفي كثير من جهلة المسلمين في زماننا بالنعظيم الظاهر للقرآن ، والتلاوة بغير تدبر ، وقوله تعالى : « واتبعوا ما أتوا الشياطين » أي نبد اليهود كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرؤها (على ملك سليمان) على عهد ملكه وفي زمانه ، وذلك أن الكهنة كانوا يدوتون ما يصدق في قلوبهم من الأمانى التي تلقها إبليس الشياطين ، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام ، وقالوا : ان الجن تعلم الغيب ، بل قالوا فوق ذلك : ان سليمان ماتم ملكه إلا يعلم السحر ، وبه سخر الجن والانس والريح ، وهذه المقالة اليوم لازال شائعة في بلاد الاسلام ، وقد قلت كتب الأمم من السابئين واليهود وغيرهم ، ومنجبت بالآيات القرآنية ، وملأت أصقاع بلاد الاسلام كما فعله البونى وغيره من الأوثاق وغيرها فتقهقرت الأمة وهذا أوان نهوضها (وما كفر سليمان) تكذيب لمن زعم ذلك (ولكن الشياطين كفروا) باستعماله حال كونهم (يعلمون الناس السحر) قاصدين اغواءهم واضلاطهم (وما أنزل على الملوكين بيا بل هلوت وماروت) عطف على ما كفر سليمان أي لم يكفر سليمان باعتقاد السحر والعمل به ولم ينزل على الملوكين المذكورين اللذين حكاهما اليهود ، والملكان رجلان صالحان كانا يعلمان الناس السحر كما تدرس الأمم اليوم في المدارس أنواع السم في مدارس الطب ، والتبويم المغناطيسى ، وأنواع الغازات المهلكات اتقاء لشرها ، وحفظا لحيات الأفراد والأمم (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة) يقولان نحن ابتلاء من الله ونحنة (فلا تكفر) أي لا تتعلم السحر لأجل أن تعمل به ، كما تفعل الآن علما الدول والعلماء إذ يمنعون من يتعلمون عقابا للسم وغيرها من إيذاء النوع الانسانى كما سيأتى قريبا إيضاحه . يقول الله : إن السحر لم ينزل على هذين الرجلين الصالحين ، فهما كانا يعلمان الناس السحر ويحذرانهم من استعماله اتقاء لشره ، ولكن هؤلاء المتعلمون كانوا لا يسمعون بالنصائح (فيتعلمون منها ما يضرّون به بين المرء وزوجه) فان من السحر ما يكون سبب تفرقهما ، وهو ما سيأتى شرحه قريبا (وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله) وفي زماننا يحصل ذلك بالتبويم المغناطيسى كما سترأه في الشرح (ويتعلمون

ما يضرهم) بالعمل به (ولا ينفعهم) من حيث الاقتصاريه على دفع الأذى عن الناس كما يفعل الطبيب الصالح من ابعاد العقاقير السمية عن الناس بسبب علمه بها (ولقد علموا) أى اليهود (لمن اشتراه) استبدل ماتلو الشياطين بكتاب الله كما يفعل من يقرأ علم الأوقاف والطلاسم في كتاب [شمس المعارف الكبرى] للبوني وغيره (ماله في الآخرة من خلاق) نصيب (ولو أنهم آمنوا) بالرسول والكتاب (واقنوا) بترك المعاصي (لثوبه من عند الله خير) جواب لو أى لا يثبوا مشوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم ، فحذف الفعل وركب الباقي جملة (لو كانوا يعلمون) يصدقون بثواب الله ولكن لا يعلمون ولا يصدقون . انتهى التفسير اللفظي

إيضاح

من اقتصر على التفسير اللفظي فيها ، ومن أراد المزيد فليقرأ هذا الايضاح فانه أوسع مجالا ، وهو : يقول تعالى كما كفروا باللائكة كفروا بالأنبياء ، فلم يؤمنوا بمحمد ولا بعيسى ، وان عاهدوا قضيوا ، وان وعدوا غدروا وحولوا العقول عن فطرتها ، وأخذوا في الخرافات ورجعوا للترهات ، ونبذوا علم الحقائق ونهم الدقائق وصدقوا ما أذاعته الشياطين عن ملك سليمان ، وانه ما عظم إلا بالسحر ولا علم إلا بالعزائم والأباطيل ، وانما كفرت الشياطين كهاروت وماروت بجعلهما بدلا من الشياطين على رأى ، فهما اللذان علما الناس السحر ، وما أنزلناه على الملكين ان اللائكة منزهون عن الذنوب مبرهون من العيوب على أن هذين نصحا الأمة ، فقالا للتعليمين إنما نحن فتنة فلا تكفروا ، وحاشا أن يكون سليمان مضلا للناس وهو نبى كريم ، فاتبع اليهود ما نلت الشياطين من الانس والجن على عهد ملك سليمان من الافك والسحر ، وأضلوا ونسبوا له وهو مبرأ من العيوب والاضلال والذنوب ، وانما الشياطين هاروت وماروت وغيرهما هم الكافرون ، لأنهم يعلمون الناس السحر ، وليس من اللائكة مضلون ، فسليمان والملائكة مبررون ، وهاروت وماروت مضلان إذ بضلان الناس ابتلاء وامتحانا من الله ، فأخذ اليهود يشيعون الأحاديث الملققة ونفذوا الوحي والدين كما يفعل المسلمون اليوم ، فانهم لا يزالون يقرءون العلوم السحرية ويخضعون للدجالين الفارين الكذابين الذين يدعون أنهم يفتحون الكنوز ويستخرجون الذهب من العناصر ، وقد خلط السحرة القرآن بالعزائم فضل المتعلمون سواء السبيل في هذه الأمة كما ضل اليهود من قبلهم كذلك تراهم يقولون خاتم سليمان عليه السلام وينسبون له ولد ائيل وأرميا ، وعلى بن أبى طالب ما ليس لم به علم فاستخذت الأمة للأباطيل واستوثق النصر للعدو الذين عليها جزاء بما كانوا يعملون ، فأما ما حكى اليهود من أن اللائكة حرقوا بنى آدم وأمرهم الله أن يخاروا اثنين ليكونا كبنى آدم في الصورة . فكان هاروت وماروت ونزلا من السماء وقصيا بين الناس وأضلتها امرأة وعرفت . فهما الاسم الأعظم ، وصارت نجمة الزهرة وعذبا في مدينة بابل إلى يوم القيامة ، وهما يعلمان الناس السحر ، فهذا خرافة وكيف تحمل الآية عاها ؟ ومتسود القرآن الكريم أن الأمم حين تتدهور في الطارية ترجع عقولها القهقري وتأخذ في الدين إلى الوراء وتقع ما على عليهم الشياطين من الانس والجن ، فيكون الأستاذ هو الوسواس ، والدجال هو الفقيه ، ويذرون العلم والعلماء والدين والأنبياء ، ألم ترى إلى حكم سليمان فلنقل لك منها لتعلم قول الله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) الخ .

قال في التوراة في سفر الأمثال في الاصحاح الثالث : طوبى للانسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم لأن تجارتها خير من تجارة الفضة وريحها خير من الذهب الخالص هي آمن من اللآلى وكل جواهر ك لانسوا بها ، ثم قال هي شجرة حياة لمسكها ولتمسك بها مغبوط .

الرب بالحكمة أسس الأرض وأثبت السموات بالفهم بعلمه أنشئت اللجج وتقطر السحاب ندى .

ومنها لا تمنع الخبير عن أهله حين يكون في طاقة يدك أن تفعله ، ومنها اذهب إلى النملة أيها الكسلان تأكل
طرقها وكن حكيمًا ، ومنها إلى متى تنام أيها الكسلان .

الرجل الشيم الرجل الأنيم : يسمى بأعوجاج النم يغمز بعينه يقول برجليه يشير بأصابعه في قلبه أ كاذب
يخترع الشر في كل حين يزرع خصومات لأجل ذلك بقة تفاجئه بليت يكسر ولاشفاه .

وقال ليمدحك القريب لافك الأجنبي لاشفناك ، وقال لا تفنخر بالفد لأنك لا تعلم ماذا يده يوم ، وقال أيضا
في الجامعة باطل الأباطيل الكل باطل ما الفائدة للإنسان من كل تبه الذي يتعبه تحت الشمس في دور يمضي
ودور يمضي ، والأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق
الحج ، وهذه كلها حكم دائرة على الزهد في الدنيا واحتقارها واليأس منها . ومن هذه أخذ عمر الحيام رباعياته
المشهورة في أمريكا وأوروبا ، وترجمت حديثنا إلى اللغة العربية ، وهكذا أيضا أشعر أبي العلاء كلها تزهيد في
الدنيا كما في الجامعة المذكورة لسيدنا سليمان عليه السلام ، فان شئت فقرأها في نفس التوراة نحو ١٢ صفحة اه .

فولزن رعاك الله هذه الحكم البديهة والأمثال الجيبة التي أبرزها النبي سليمان عليه السلام ، وهي تتلى
في التوراة إلى يومنا هذا بما نسيه له اليهود من السحر ، وهو صفة العاجزين ، فهذه بعض أمثاله ، وهي طرق
حكيمه ، ومنها تعرف قوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم
لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واقفوا متثوية من عند الله خير لو كانوا يعلمون) فاقروا ونهجب وقايس حال
المسلمين اليوم بحال اليهود زمن النبوة ، وكيف أصبح المسلمون كثيرى الصدق قليلي الحكمة يأمر القرآن
بحوز وفهم الحكمة والنظر في العوالم ونظام المدن واعلاء شأن الزراعة والتجارة والصناعة كالتشبه إليه سورة
سبا ، وترى كثيرا من الذين يقرءون الدين يجهلون نظام العالم وحكمة الله ، كأنهم لا يعلمون وسطا للسلطان
من المغاربة والساحرين على عقول المترفين ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، وهل أتاك حديث المغربي الذي
ذهب إلى بلدة العسلاوي قرب بلدة الزقازيق ، وقال لرجل هناك إنى أجعل القطعة من الذهب أضعافها ، فجمع
الرجل حلى النساء وأسلمه له ، فأعطاه عمودا مطلقا بالذهب ، فلما حكه وجدته نحاسا فسقط في يده وضاعت
ثروته ، وهي تساوى ألف جنيه أو تزيد ، وآخرون يتعمون احضار الجان ويصيحكون على الأذقان ويعفرون
النسوان بحيل دبروها ، ومكاييد نصبوها ، وأشراك وضعوها ، ذلك والله عرفناه وفي كتبهم قرأناه : اللهم أزل
الجهل عن هذه الأمة ، واكشف الظن عن أبصارها ، وأثر بالعلم بصائرنا إنك أنت الرحيم الغفور .

اعلم أنى بعد ما كتبت ما كتبت في تفسير الآية ظهر لي وجه وهو مختار عند أفضل المفسرين فيقال : واتبع
اليهود ما تلت الشياطين من الانس اقتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل من السحر على الملكين بابل هاروت
وماروت .

أما سليمان فظنهم نسبوا إليه أمورا سحرية هو منها براه ، وقالوا ما كان ملكه إلا يسبها ترويجا لدعوام
فبرأه الله مما قالوا ، فقال (وما كفر سليمان) بعمل السحر ، وأما هم المفسرون عليه بعمل السحر ، وهم
الكافرون ، وذلك قوله « ولكن الشايطين كفروا يعلمون الناس السحر » ، وأما افتراؤهم على ما أنزل على
الملكين بابل ، وهما هاروت وماروت ، فذلك أنهما نزلا في صورة رجلين ليعلم الناس السحر تنزيها بينه
وبين المجهزة كما تعلم رجال الجيش اليوم المواد الخاطئة والمصيبة وغيرها ويؤمرون بكتمتها دفاعا عن حروبهم
وصلطة دولهم ولا يطلع عليها عامة الشعب ، وهكذا المواد السمية يتعلمها الأطباء ، ولكن يحرم عليهم استعمالها
أو إعطائها لأحد من الناس إلا في أحوال خاصة . قال الشاعر :

عرف الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر • من الناس يقع فيه

فإذا أخذنا يعلمان السحر الذي أنزل عليهما حتى إذا جاء ساحر وادعى النبوة عرضوه وحكذبوه ،
ولذلك كان هذان الملكان يقولان للمتعبين إنما نحن فتنة واختار لكم لننظر أفي الخبر أم في الشر تستعملون
السحر ، وذلك مثل جميع النعم الواردة على البشر ، فانها صالحة للخير وللشر ، كالقوة والجمال والمال والولد
والصلم والملك والحكم بين الناس ، كل هؤلاء مبتلون ومختبرون بالخبر يصنعون أم الشر ؟ ولكن السحر
المذكور أشد فتنة ، فأما اليهود فانهم أخذوا بشر الأميين (فيتعلمون منهما ما يفتقرون به بين المرء وزوجه)
وذلك بنوع من التضليل والتليس ، وهو تطبيق القلب ، فيدعى الكاذب أنه عرف اسم الله الأعظم ، وأن
الجن يطعونه وينقادون إليه في أكثر الأمور ، فإذا كان السامع ضعيف العقل قليل التمييز والقوى الحساسة ،
تمكن ذلك الكذاب منه ، فألم بصيرته وأيقظ خيله وغفلته والتطرق بحبال الخيال والتجبال ، فقدر أعصابه
وأحدث في نفسه نوعا من الاستهواء ، وهو أشبه بالتنويم المغناطيسى :

وقد ظهر هذا النوع بأجلى مظهره في ذلك التنويم في عصرنا حتى أن الأمم الغربية حرمت العمل به
إلا في الأعمال الجراحية ، فانهم رأوا أن الاستهواء وأخذ الأبواب قد كثرت في ديارهم ، فإذا قال المتنوم بالتنويم
بالفتح بعد استيقاظك ثلاث ساعات مثلا أقل فلانا ، فإنه لا بد فاعل ذلك ، وهكذا إذا قال لامرأة كوني معي
بعد كذا وكذا ، فانها لا تصعب للقاتل أمرا ، وهي لا تدرى من أين جاء لها هذا الغرام ولا تعلم من الذي أوحى
إليها بذلك ، ولما كان المؤثر والمتأثر خاضعين لله قال الله (وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويعلمون
ما يضرهم ولا ينفعهم) .

إيضاح الكلام على السحر

لقد ذكرت لك أن السحر المذكور كان من نوع تطبيق القلب ، وأنه من أنواع التنويم المغناطيسى ،
وأقول الآن اني رأيت هذه الأعمال في المراسع العامة إذ كان المتنوم يوحى إلى المتنوم بالفتح بما يشاء فلا
يجد الاطاعة عيبا ، فإذا أعطاه السكر وقال هو علقم لفظه من فيه لشدة تأثر حاسة النوق من البشاعة ، وإذا
أعطاه الحنظل ، وقال هذا سكر استمرأه واستحلاه ، وهكذا تراه قد ملك عليه سمعه وبصره ، ونحن نشاهد
ذلك عيانا ، وكان يقول للرجل أنت امرأة راقصة فيرقص رقصها ويقول له أنت ملك ، فيفعل فعل المالك ،
وذلك اليوم شائع ذائع في أوروبا ، ووصل اليها في الشرق بعضه ، وهذا الذي ذكرته بعض ما وصل ، وكان
في تلك المجالس أطباء يمتحنون المتنومين بالفتح لينظروا أهم نائمون ؟ فكانوا يشهدون بنومهم على مقتضى
حركات النض ، وهكذا كان معنا العلماء وكبار الأمة وعظماؤها وأمرؤها ومهندسوها وأنا أشاهد ذلك بنفسى
ثم ان في هذا العلم غرائب فوق هذا حتى أن الطبيب قد ينم المريض ويعمل به أكبر عملية جراحية ويستيقظ
ذلك المريض وكأنه شخص آخر ويساعد الطبيب وهو لا يعلم أنه هو نفسه : يساعد في قطع لحمه وجرعضوه
بالسكين ، وهناك غرائب تجاوزنا عن ذكرها ، وبحار من العلم واسعة لا سبيل إلى ذكرها هنا ، وإنما الذي
يهمنا في تفسير الآية أن قول : يجب على الحكومات الاسلامية وجوبا شرعيا أن تأمر طائفة من الأطباء بتعلم
هذا الفن من التنويم كما فعل هاروت وماروت اللذان قصدا التفرقة بين السحر والمجزة ، والا لادعى الكذابون
النبوة وآتوا بشرائع فاجرة خاطئة ، ولقد بلغنا أن علم الكلدانيين قد عثر عليه الأمريكيون في تلك البنائات
الخرابية في بابل ونيوى وفي آثار الآشوريين والبابليين فانتشر هذا العلم ككرة أخرى في الشرق والغرب ، ولولا

أن الأمم اليوم مستيقظة لادعت طائفة ممن يمارسون هذه العلوم النبوة ، ولكنهم اقتصدوا على ما يدعونه من الاخبار بالحوادث ، وعلى أمور أخرى لا تفيل بذكرها وفيها الضرر والنفع ، فوجب أن تقوم طائفة لدرء المفسد التي يلقبها هذا العلم على الناس ، وهذا هو السر في ذكر هذه الآية في القرآن حيث ألفا وثلثمائة سنة لتكون تذكرة للناس وليحترسوا من الوقوع في شرك المضار الناجمة من تلك العلوم ، وتعليمها فرض كفاية كما في سائر الصناعات والعلوم ، ومنها الصناعات الحربية والعلوم جميعها ، ويحرم على من تعلم هذا العلم أن يستعمله الا فيما فيه الخير للأمة .

وقد حصل في هذه الأيام أثناء تأليف هذا التفسير أن طبيبا في مصر استهوى فتاة يهودية فقيرة وتوهمها تنوعا مغناطيسيا ، وصار يسأل هذه الجاهلة الأتية الصغيرة الخادمة في حال ذلك النوم عن أمراض المرضى والعلاج الناجع ، فكانت تجيبه بأجوبة تارة ، فكان هو يعمل بها ويداوى المرضى ، وأراحته من التعب والتعب في البحث والتقيب في الكتب الطبية ، ثم ان نضه الخبيثة سوت له أن يهتك سترها فطوعها ، ثم اغتضح أمره ، وانكشف سره ، وفشا خبره ، وابنت غافلة لا تعلم شيئا لأنه كان في حال النوم يوحى إليها أن الفاعل الظالم إنما هم الجن ، وليس هذا من فصل الآدميين ، ورفع الأمر أهلها إلى الحكومة المصرية ، فأمرت الحكومة الطبيب المصري ، فتوم الفتاة وجاء القضاة والأمراء ، وكذلك المفتشون من الانجليز . وأخذوا يمتحنون الفتاة وهي نائمة ، فيقول أحدهم ما الذي في يدى ؟ فتقول كذا وكذا ، ويقول الثاني من أن ؟ فتقول أنت المفتش وفي كيبك كذا وفي يدك كذا ، وهكذا : فلما علموا صدق اخبارها وقوا بما قول ، فأخذت تقصر قصص الطبيب معها ، وفسقه وبقوره وحيله ، وهي نائمة ، فحكموها عليه بالنفى ، وعاقبوه عقاب المجرمين .

وقد ألق الطبيب المذكور في هذه الحادثة كتابا منتشرا بين الناس اليوم في بلادنا . ومن عجب أن الفتاة اذا استيقظت لا تعرف شيئا مما جرى وما قالته ، وترجع كما هي ساذجة غافلة .
فعلينا هذا العلم واجب كما قلنا على كل حكومة سرت إليها علوم أمريكا وأوروبا ، ليحترس بعلماء الفن من الفاسقين الذين يفرقون بين المرء وزوجه . وهذا سر ذكر هذه الآية كما قلنا ، وإلا فنواسرائيل كما قال عمر رضي الله عنه مضى أمرهم واقضى خبرهم ولم يبق إلا الأحياء الآن ، فاليهم يساق الحديث . ولنقل لك شذرة في التنويم المغناطيسى من كتاب الأرواح الذي ألقته . قلت :

قال شير محمد : قد تعرفنا إحضار الأرواح وتريد أن تعرف التنويم المغناطيسى . قلت : اعلم يا شير محمد ان ذلك علم آخر يسمى السبات المغناطيسى أو التنويم ، وهو أن ينام الانسان بدرجات مختلفات لأسباب طبيعية أو كهماوية ، أو حيوية . فالأسباب الطبيعية : كالنور والصوت بأن يسمع صوتا متساويا للحن . والسائل الكهربي الخفيف ، والقطع الزجاجية اللامعة التي تنوم من حديق نظره إليها ، والمؤثرات الكهناوية . هي الأثير ، والكوروفورم ، والأزوت ، وهي تلقى أخذها في النوم وتفقد الاحساس . والمؤثرات الحيوية أحصها الارادة بأن يأمر باللسان ، أو السيل العصبي ، أو يحرق ببصره إلى الشخص المنفعل ، أو يبادنه بالإشارات والحركات المغناطيسية . هذه هي أسباب التنويم اجمالا ، أما درجات النوم فهي ثلاث .

أولا : أن يفقد الاحساس ويثبت شاخص العين يتلقى أوامر المنوم ، وتلوح عليه الأوامر الدالة على قبوله لكل ما يريد المنوم بالكسر ، وفي هذه الحالة لو أدخل رجل المنوم بالفتح في ماء مغلي ، أو قرص جسمه لم يحس كما جربه العلامة دي بوكاته في باريس لتلاميذه [وكما شاهدته هذه الليلة ليلة السبت السابع من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ وأنا أكتب هذه القطعة عند إعادة طبع الكتاب ، فان المنوم قد أنام في دار التمثيل العربي

شباناً ، ومار يلعب بحواسهم ، فيطعمهم الموز ، ويقول لهم هو حنظل فيلفظونه ، ويطعمهم الطماطم باسم التفاح فيسألون ما معها ، ويسمى أحدهم باسم غير اسمه فيصدق ويقسمي به ، وقد قال لشاب أنت اسمك ليبة فأرنا رقصك فضل وأمره أيضاً بقلب النوم الصناعي طبيعياً ، ففعل وأبرز صورة الجرائم من المنزيمين ، وكيفية اقرارهم وما أشبه ذلك ، وكان يبيهم نارة ويفرحهم أخرى ، وبلغ لهم تهمة ، ثم يفهمهم أنهم آمنون ظالمون فيندمون ويكون بصوت عال الخ ولا جرم أن هذا مبدأ التويم ، وقد صدق ظني أن بلادنا ستعال حظها من علم الأرواح ، وهذا كتابنا فيه تجارب الأمم من حيث الثمرات ، وأنا لأشك أن العقلاء سينظرون لثمرات التويم واحصار الأرواح لارتقاء الانسان كما قلناه في هذا الكتاب .

ثانياً : أن يفقد الاحساس تماماً ويفلق عينيه كالخالد الأولى ، ولكن تمتاز هذه أنه يسمع ويصير ويتكلم ويجب بعزل عن الحواس ، ويقرأ ويكتب كما يأمره المتوهم .

ثالثاً : أن يحصل انخفاف روعي بأقصى درجاته ، وإذن يعرف النائم نفسه معرفة تامة ، ويصف علل جسمه والعلاجات الملائمة ، وشاهد أفعال الناس ويسمع كلامهم عن بعد سحيق ، وينبئ عن حوادث مستقبلية ، ويتكلم بلغات شتى ، ويرى أرواح الأموات ، ويصف هيتها ، ينقل الى الجالسين أقوالها وهذه الدرجات الثلاثة تسمى هكذا بالترتيب :

الكاباليسيا . اللينارجيا . السوناييزم .

دهاك بعض الحوادث مثبت ما تقدم .

(١) قال العلامة شاردل في تأليفه المدعو بالمغناطيسية الحيوانية : انه توهم ابنة صحبحة البنية ، وبينما هي نلقته وصف العلاج الذي يداوى به سأله ألا تسمع كيف يأمرني بذلك ؟ فقال لها لا أسمع أحداً ، فقالت نعم لأنك نائم وأنا يقظانة حرة ، فقال لها وأعجب لك ! أين حريتك وأنت مسخرة لرادتي . قالت له أنت تعرف ظاهر الشيء الخشن العليظ ، أما أنا فأرقيق باطنه البهي . فان نفسي منحللة من القيود مؤقتاً . فأرى ما لا تراه أنت وأسمع ما لا تسمع أذنك ، وأدرك ما لا تقوى على إدراكه ، وأرى النور يشع من أطراف أصابعك وأنت تعطلني ، وأسمع أصواتاً من بعيد جداً ، وحديث من يتكلم في بلد آخر ، فأنا أذهب الى الأشياء ، وليست هي التي يؤتى بها إلى . وحالي الآن يقظة تماماً . يقظة الانسان بعد الموت .

المثال الثاني : وصفت فتاة كان يتوهمها العلامة شاردل المذكور له الحال التي كانت عليها حين نومها ، فقالت : أحس أن جسمي يتمدد شيئاً فشيئاً حتى أفارقه وأراه بعيداً عني بارداً كجسم ميت ، وأرى نفسي كبخلر وأدرك ما لا أقوى على إدراكه في اليقظة ، والتوهم المغناطيسي الذي هو أقل من هذا ، وهذه الحال لا تتوهم أكثر من ربع ساعة ، ثم يرجع الجسم البخاري شيئاً فشيئاً إلى جسمي العليظ ، ثم أفقد الشعور .

المثال الثالث : أعمال الأكاديمية الطبية الفرنسية إذ خصصت لجنة طبية للنظر في الحوادث المغناطيسية ولند كرحادثة واحدة . من حوادثها لتطلع ياشير نجد على عجائب علم الحكمة ، ولتكون نموذجاً من أعمال تلك اللجنة في أشهر المعالكم الأوروبية .

اجتمعت اللجنة في ٦ تشرين الأول وقت الظهر ، والمرضى هو المسيو [كلزو] المصاب بداء الصرع والمتوهم هو اسيو [فرداساك] وجلس فرداساك في حجرة أخرى ولم يعلم كلزو أنه حضر ، وأرسلوا لفرداساك أن يتوهم كلزو ، وعينوا له القطة المحاذية له في الحجرة ، فنام كلزو بعد أربع دقائق ، فسألوه عن التوبات التي ستنبؤ به حين منها اثنين بدقاتهما وساعتتهما وأيامهما ، والنوبة الأولى بعد أربع أسابيع . والثانية بعد خمسة أسابيع ، فسكتوا التقرير وأعطوه لمن يتوهمه ، وهو المسيو فرداساك . مبدئين المواعيد مسداً ، فلما توهمه بعد أيام ليشتبه

من ألم الرأس أخبره بمواعيد للنوبة غير التي أخبرت اللجنة بها . فرجع الى اللجنة وأخبرهم أن التقرير الذي قدموه له محرف . فأصروا على قولهم ، ثم تمت النوبات في الأوقات المعينة بالضبط على مقتضى ما أخبرهم كازو في نومه . ثم أخبر بنوبتين أخريين في مواعيد معينين حصلت احدهما في وقتها . أما الأخرى ، فقد سقط قبل وقوعها ، وهو يهدى حصانا ونهشت رأسه على الجملة فبات انتهى .

وقد فصل القول العلامة [هيسون] من أعضاء اللجنة المذكورة فقال ان المريض أنبأ بحوادث النوبات قبل حدوثها فلم يخفى ، ، والمغناطيسية الحيوانية أصلحت حاله وأزالت عنه أوجاع الرأس ، وكان يصف العلاجات وصفا دقيقا ، وكان يقول : إن هذه النوبات تصيبه مالم ينومه قبل وقت حلولها ومع ذلك لم يخطر بباله أن حادثه ستمسبه فتقطع عايه حياته ، وهذه أشبه بأمر الساعة فلان الانسان يعرف مقادير قطع العقارب للبناء فيحدثها بالتحقيق ولكنه لا يدري متى يفاجئها كسر أو نهشيم فقف حالها .

ذكر مقاله القدماء في علم السحر

نذكر هذا ليطلع القارئ على ماضي واقضى من أنواع السحر على سبيل الرواية التاريخية ، السحر يطلق شرعا على كل ما خفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التوهم والخداع ، وعند الاطلاق يفيد ذم صاحبه . قال تعالى : « سحرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » وهو أنواع :

أولا : سحر الكادانيين في قديم الزمان ، كانوا يبدون الكواكب يزعمون أنها مصادر النحاس والسعد وكانوا يتوسلون إليها ، ويتقربون بالبخور والاستحمام ، وألوان الملابس المناسبة في زعمهم لتلك الكواكب والساعات المعينة كذلك .

ثانيا : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية كالتى تحدث الاصابة بالعين فتؤثر في الأشخاص ، وتحدث الضرر في الأجسام كما ذكره كبار الفلاسفة ، ويقتررون ذلك بأن تصوّر الانسان مؤثر في نفسه ، الأثرى أنه يؤثر في جسمه خزنه وفرحه ورجاؤه وخوفه وعشقه وغرامه ، فهذه آثارها الحاضرة عندها ، فيجوز أن النفس اذا قويت أثرت فيما بعد عنها اذا تركت المألوفات ، ونبتت الشهوات ، كما هي عادة أولئك الذين يزعمون أنهم سحرة ، فتدخل نفوسهم من شواغل الجسد ، وتلتم شعنها ، وترجع إلى عالمها الروحاني ، وتنفعل الشر ، وتكون محقونة عند الله والناس ، وللوهم آثار كمن يرى عيشى على جذع فوق الأرض فانه يسهل عليه ، ولذا وضع هذا الجذع بين حائلين أو عمودين ، مثلا لم يقدر على المشى عليه ، ويختصر بها للبدن وللفم ، وماصرعه إلا وهمه .

وقال ابن سينا عن أرسطو أن السحابة اذا تشبهت بالديكة في الصوت وفي القتال معها نبت على ساقها مثل الشيء الثابت على ساق الديك ، وأيضا ان السحابة مظنة لاجابة عند سائر الأمم .

ثالثا : الاستعانة بالأرواح الأرضية ، وهذا أقوى أنواع الخرافات .

رابعا : سحر التخيلات كما يفعله المشعوذ المسمى بالحرارى في بلادنا المصرية .

خامسا : قد جعلوا مما يسمى بالسحر الآلات المتحركة بضروب هندسية ومحطات علم الكيمياء كطهور نار الفسفور الموضوع في الماء ، وكالطير السحري المعلوم الذى وضعته أنا وأنا مدرّس في دارالعلوم على النار فلم يمتري ، وهو كلما وضع عليها لزداد نفاثه ، وكان ذلك في الدرس أمام التلاميذ وهم يتعجبون ، وكالآلات البخارية البخارية الآن ، وأنت تعلم أن هذه كلها اليوم أصبحت في عداد العلوم وخرجت من مسمى السحر لشيوعها ، وقد كان بعضها عند المتقدمين سرا مكتوما .

سادسا : الاستعانة بخواص الأدوية كما حدث في حرب الألمان المبتدأ سنة ١٩١٤ م انهم كانوا يلقون البخار على الأعداء ، فتارة يسمى أعينهم ، وتارة يخنقونهم ، وتارة يحدث فيهم جنونا ، وقد كان القدماء يقولون

« ان مخ الجار اذا أكله انسان أورثه البلادة » وهذا منقول عن الكلدانيين ، وأنا أرى أن هذا القول خرافة والافاناس تأكل مخ ساثر الحيوان فما بالهم لم يصبروا كالقنم وكالدجاج !

سابعاً : تعليق القلب الذي تقدم ذكره ، وقد أطلنا فيه ، وهو من فن التنويم المغناطيسى .
ثامناً : النجمة ، والوشاية ، وضروب الأكاذيب ، المحولة للقلوب ، المضلة للنفوس ، التي يستعملها الضالون من الناس ليفرقوا بين زيد وعمرو ، وبعض هذه الأنواع أصبحت لانسمى سحراً اليوم وهي ٨ و ٦ و ٥ و بعضها أصبح خرافة ، وبعضها يجوز في نفسه ، فأما وقوعه في الخارج فيحتاج الى عيان ونحن لم نشاهده والله أعلم هذا وان اليهود كما آذوا سليمان بنسبته الى السحر تعدوا الحد على النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه للرعونة استهزاء وسخرية اه .

« الزبرجدة الثامنة »

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ *
مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

التفسير اللفظي

يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) هذه واضحة : انهم كانوا ينطقون بالكلمة محرفين المعنى الشريف الى معنى زائف ، إذ يقول المؤمنون راعنا أي راقبنا وتأن بنا حتى نفهم ما تلقيه علينا ، ويقولها اليهود لتكون من الرعونة ، يريدون سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا ينسبون بها وهي راعينا ، فهي للمؤمنون عنها ، وأسموا بما يفيد تلك الفائدة من غير لباس وهو انظرونا أي انظر لنا ، وقوله « اسمعوا » أي أحسنوا الاستماع فلا تحتاجوا الى أن تعودوا الى ما نهيتهم عنه (كما يورد الذين كفروا من أهل الكتاب) يعني اليهود (ولا المشركين) أي عبدة الأوثان (أن ينزل عليكم) أي ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحي والنبوة كما لا يجب ساسة الأمم المستعمرة في زماننا أن تترقى الأمم المحكومة بالعلوم والصناعات حسداً وبقيا من الفريقين (من خير من ربكم والله يختص برحمته) يختار لهيبه والنبوة والاسلام والكتاب (من يشاء) من كان أهلاً لذلك يعني محمداً صلى الله عليه وسلم (والله ذو الفضل العظيم) ذو المنن الكبير بالنبوة والاسلام . انتهى التفسير اللفظي

« الزبرجدة التاسعة »

مَا تَسْخَرُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئَهَا نَاتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْتَلْزِمَ رَسُولَكُمْ كَمَا سئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَقْبَلِ

الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَذَكَرَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ رَدُّوْنَاكُمْ
مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَأَعْتَفُوا
وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

سبب نزول هذه الآية

نزلت هذه الآية لما طعن الكفار في النسخ ، وقالوا : ان مجددا يأمر أصحابه اليوم بأمر ثم ينهاهم عنه .
ويأمر بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، نسخ الآية إما بانتهاء التبعيد بتلاوتها ، وإما بانتهاء الحكم
المتفاد منها ، وإما بانتهائهما ، وقرأ ابن عامر « ما نسخ » من أنسخ أى تأمرك أوجبريل بسخها ، وقوله
(أونسها) أى نفس أحداً إياها ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « نساها » أى نوحها من النساء (نأت نخير
منها) وهو الأضع للعباد في سهولته ، أو كثرة الثواب عايه (أومثلها) من التكليف والأجر ، فإذا بدل الله حكماً
في آية بحكم في أخرى كآية الميراث بعد آية الوصية فإن ذلك لحكمة تقتضيه ، وهكذا فعل الله في السموات
والأرض ، ألم تر إلى أغذية الشتاء والصيف ، وأشجار الربيع والخريف ، والليل والنهار ، والصبح والمساء ،
وإذا نسخ آية الحب ففلقها ، والنوى فأنتها ، والعامرات غربت ، والحربات فعمرت ، هكذا ينسخ آية بآية
وحكماً بحكم ، فهذا فعله ، وهذا قوله ، وكيف يراعى المصالح في أفعاله ، وبدعها في أقواله ؟ ولنتلك قل (ألم تعلم
أن الله على كل شيء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير)

الناسخ والمنسوخ

النسخ يطلق بمعنى الإزالة ، ومنه قوله تعالى : « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته » ويعنى
التبديل ، ومنه : « وإذا بدلنا آية مكان آية » ويعنى التحويل كآية الموارث فيحول الميراث من واحد
إلى واحد ، وقد أكثر العلماء من الكلام في الناسخ والمنسوخ ، والحق أن ذلك لا يصح إلا في قليل من
الآيات ، لأن ترى إلى آيات الصفح والعتق والتجاوز فقد أكثر العلماء من قولهم أنها منسوخة بآية القتال مع أن
الصفح كان مؤقناً بمن الضعف وقلة المسلمين فإذا كثروا وقوا جاز لهم ما لا يجوز في حال الضعف من القتال ،
ألترى إلى قوله تعالى في هذه السورة هنا (فاعنوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) ولقد جاء الأمر بالقتال
فلم ينسخ الأولى ، بل جاءت لزمها ، وجاءت آية القتال منسأة أى مؤخرة ، وليس ذلك من النسخ كما في قوله
هنا : « ما ننسخ من آية أونساها » نوحها ، وقد صاحب الاتقان هذه المسائل فجاءت عشرين موضعاً في
بعضها خلاف :



المنسوخ	التاسخ
[آيات البقرة] (١) : كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت .	آية الموارث
(٢) : وعلى الذين يطيقونه فدية	فن شهد منكم الشهر فليصمه
(٣) : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم (مقتضى ذلك أنه يحرم الوطء والأكل بعد النوم)	أحل لكم ليلة الصيام الرزق الى نسائكم
(٤) : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه	وقاتلوا المشركين كافة
(٥) والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم . الآية	يتر بمن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا
(٦) : وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله	لا يكلف الله نفسا إلا وسعها
آية [آل عمران] (٧) : اتقوا الله حق تقاته	اتقوا الله ما استطعتم
[النساء] (٨) : والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصابهم	وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض
(٩) واذا حض القسمة أولوا القربى	آية الميراث
(١٠) : واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم	آية النور
[المائدة] (١١) ولا الشهر الحرام	أبيح القتال فيه بقوله : وقاتلوا المشركين كافة .
(١٢) فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم	وأن احكم بينهم بما أنزل الله . الآية
(١٣) وآخرون من غيركم	وأشهدوا ذوي عدل منكم
[الأنفال] (١٤) ان يكن منكم عشرون صابرون	الآن خفف الله عنكم . الآية
[براءة] (١٥) انفروا خفافا و ثقالا	ليس على الأعمى حرج . الآية وآيات أخرى
[النور] (١٦) الزاني لا ينكح إلا زانية الآية	وأنكحوا الأباي منكم
(١٧) ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم	نسخت ، وقيل تهاون الناس في العمل بها
[الأحزاب] (١٨) لا يجعل لك النساء من بعد	انا أحلنا لك أزواجك
[المجادلة] (١٩) اذا ناجيت الرسول	الآية بعدها
[المتحنة] (٢٠) فآتوا الذين ذهب أزواجهم	آية السيف
[المزمل] (٢١) قم الليل إلا قليلا	بآخر السورة ثم بالصلوات الخمس

فهذه إحدى وعشرون منها :

- آية : « وعلى الذين يطيقونه » قيل انها محكمة ، أى وعلى الذين لا يطيقونه بحذف لا فهي مقدره .
 وآية : « اتقوا الله حق تقاته » قيل انها محكمة .
 وآية : « واذا حضر القسمة أولوا القربى » قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها .
 وآية : « ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم » قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها .
 وآية : « فآتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا » قيل انها من المحكم .
 فالآيات التى فيها النسخ بغير خلاف تبلغ ١٦ وقد ضم إلى المنسوخ عند ابن عباس قوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » وقال هو انها منسوخة بقوله : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » . وقد نظم هذه الشيخ السيوطى فى الاتقان فقال مختاراً عشرين منها :

قد أكثر الناس فى المنسوخ من عدد • وأدخلوا فيه آيات ليس تنحصر
 وهالك تحرير آى لا مزيد لها • عشرين حررها الخذاق والكبير
 آى التوجه حيث المرء كان وان • بوصى لأهليه عند الموت محتضر
 وحرمة الأكل عند النوم مع رفث • وفدية لمطبق الصوم مشهور
 وحق تقواه فيها صحح فى أثر • وفى الحرام قتال للأولى ككفروا
 والاعتداد بحول مع وصيتها • وان يدان حديث النفس والفكر
 والخلف والحس للزاني وترك أولى • كفر واشهادهم والصبر والنفر
 ومنع عقد لزان أولزانية • وماعلى المصطفى فى العقد محتظر
 ودفع مهر لمن جاءت وآية نوح • واه كذلك قيام الليل مستطر
 وزيد آية الاستئذان ما ملكت • وآية القسمة الفضلى لمن حضروا
 هذا ما لحسته لتعلم أيها الفطن الناسخ والمنسوخ فلا يشذ عنك شئ مما اتفق عليه القوم اه

لم كان الناسخ والمنسوخ ؟

وهنا يرد سؤال فيقال : ما فوائد الناسخ والمنسوخ للأمة الإسلامية ؟ ولأن الآيات وردت بلانسخ وبنسخ ماضر ذلك ، ولكفيها مؤونة الرد على اليهود ، وعلى المعارضين من الأمم على الإسلام وشريعته ، ولم يكن سبيل لوجوب الرد عليهم بقوله تعالى : « ما ننسخ من آية » الآية ، وما لا يحتاج الى جواب خير مما يحتاج إلى جواب ، وهذا كلام الله ، وهو سبحانه وتعالى أعلم من عباده ، وإذا كان عباده يريدون ملاحبة فيه فهو قادر على اقناعهم وتعليمهم بلا سؤال وجواب ، هذا الاعتراض يدرو فى عقول الأذكيا وان كانوا لا ينطقون به

الجواب

اعلم أن الناسخ والمنسوخ من أعظم الأسرار ، وأبهج الأنوار الإلهية المشرقة على بنى آدم ، بل هما سرّ الترقى ، ومناط السعادة العصرية ، وبيانه أنه سبحانه وتعالى علم أن النوع البشرى ضعيف ، مغرم بالتقليد ، لا يترشح عنه إلا بموامل عظيمة ، فأراهم أولاً أن الليل والنهار ينسخ كل منهما الآخر ، ثم بين لهم اختلاف لزوع باختلاف الفصول ، فان أكثر العشب والكلاب والحشيش ينبت فى أيام الربيع لاعتدال الزمان ، وطيب الهواء ، وكثرة الأمطار المتقدمة فى الشتاء ، فأما الفصول الثلاثة فيزرع الناس فيها زرعاً موافقاً للزمان ، فالخطة والشعير والباقل والعدس وغيرها تزرع فى الحريف ونحوه فى الربيع ، والقنا والخيار والباذنجان تزرع فى الشتاء

وتدرك في الربيع ، والجزر والشليم والكرونب والقبيط تزرع في الخريف وتستحکم في الشتاء ، والسهم والنذرة والأرز تزرع في الصيف وتحصد في الخريف ، والتطن والقنب وأمثالها تزرع في الربيع وتستحکم في الخريف . هذا كتاب آفة السطور ، في رقة المنثور ، على سطح الأرض بحروف بارزة ، براها جميع الناس والحيوان ولا يفهمها إلا الحكماء . بأن يحكموا عقولهم وآراءهم في أمور الدنيا ، فيعدون كل زمن حكمه ، وكل مكان مايلأهه ، فإذا وجدوا أن الناس قد تقلدوا السلاح الأقوى بالطيارات والمدافع فليكونوا على استعداد لزمانهم ، وليقوموا بذلك ، وإذا رأى المسلمون أن بلاد [الأرجنتين] في أمريكا الجنوبية مشلا قد اتخذوا آلات مدعشة للزراعة جارية بالسائل المسمى [بترول] تحصد القش وتصعد بنفسها إلى أعلاها ، وتدسه ، وتنزل القمح في ناحية والتبن في أخرى في مخازن في نفس الآلة ، وبينما هي تدرس ، وتميز التبن من القمح ، وتخزنها في مخازنها تحوثر الأرض وهي عاملة هذا كله ، ثم تذهب إلى الضيقة فتضع أجهالها ، وتنزل أقطابها ، وترجع عاملة ناصبة حتى تتم الحقل كله في يوم أو بعض يوم ، فتجد آخر النهار المزرعة التي كانت منروعة أوله محروقة في آخره ، ومعده إلى زراعة أخرى .

وإذا رأى المسلمون أيضاً أن هؤلاء القوم لهم عناية بالماشية لم تعهد عند المسلمين حتى ان البقره سلالات كريمة لا يهملون أمرها ، حتى ان الثور منها قد يباع بأربعمائة جنيه ، ويحرسون عليها حرص العرب على كرائم الخيل وسلالاتها ، وانهم اعتنوا بترقية جميع المواشي ، و برعوا في اراحتها ، حتى انهم قد استعملوا في حلبها الكهروبا ، فتقف الاناث من البقر صفا واحدا ، ويوضع حبل طويل من الكاوتشوك المحووف ، وله شعب وضعت في كل ندى من هذا البقر ، وقد انصل الطرف الآخر بمخزان كبير ، وفي هذا الطرف [طلبية] أمامية كإبسة انصل بها تيار كهربائي ، وهناك يتندى عمل الجهاز ، يقوم بعملية الحليب ، ويوصل باللبن إلى ذلك المخزان ، فيسمع له خرير كخرير الماء في الغدران .

إذا رأى المسلمون ذلك ورأوا غيره فليفكروا وليعلموا [كإسائتي ايضا] عند قوله تعالى في هذه السورة « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » [أنهم خيرأمة أخرجت للناس ، وأنهم هم الذين يقومون بسعادة النوع الانساني عاجلا أو آجلا ، فقد مهد الله لهم الطريق ، وكأنه يقول : أي عبادي أنا جعلتكم خيرأمة أخرجت للناس ، وأنتم شهداء عليهم كما أن رسولكم شهيد عليكم ، وقد كتبت بحروف كبيرة في آفاق السماء وأقطار الأرض في الليل والنهار . والمزارع والحقول ، أن كلامها ينسخ الآخر ويحل محله ، ثم اني ألهمت أقواما في العالم ، فأخذوا ينسخون الأعمال الانسانية الصيقة ، ويحلون محلها أعمالا أرقى ، فقد نسخوا القديم البالي بالحدث القويم القوي ، فهذه ثلاث درجات قرآتموها في السماء والأرض وأعمال البشر ، ان النسخ في أعمالكم من سنن القويمة ، لأنى لا أنام ، وأزيد في الخلق ما أنشاء ، ولما علمت أن الاسلام سيهبط إلى أم عقولها لانهم هذه المشاهدات ، ولا تقوى على فهمها ، ويقولون : بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، ويحمدون على البالي الصيق أسعتمهم في كتابي بحروف لفظية تعبا آذانهم ، وأنزلت على رسولى آية في زمن ما كالأيات التي تمنع القتال زمن الضعف ، فلما كانت القوه نسخت الأولى ، وأنزلت آية السيف ، وأمرتكم بقراءة الآيتين لتكون تلك الآيات حجة أمامكم ، ونبراسا لتعرفوا الحكمة ، وتقوموا بأعمالكم الدنيوية بما هو الأصلح ، ولانقيدوا بما فعله الآباء مع حفظ مجدهم وشرفهم ، والتحكك بفضائلهم ، كما أقيت الآية المنسوخة قرأ صباحا ومساء . وإذا كنتم خيرأمة أخرجت للناس ، وأنتم شهداء الله على الناس : فذلك سيدعوكم إلى ما هو أعظم من ذلك ، فإذا قامت أوروبا وأمريكا بهذه الأعمال العظيمة في الزراعة والتجارة والصناعة فلا جرم أنكم أنتم ستعلمون علمهم ثم تترقونهم على مدى الأيام ، ويتحقق إذ ذاك معنى كونكم شهداء على الناس وأنكم خير الأئمة

فتبين من هذا أن حكمه النسخ والنسوخ فوق ما يتصوره كثير من الناس لأن الحقول والكواكب وأعمال الأمم الحاضرة في الرق كانت بقدره الله والقرآن من الله ، فله كما نسخ في أعمال القدرة في كل حين نسخ في التعليم ونشره بين المسلمين ليرتقوا في الأسباب ولا يقفوا .

ولما جهل المسلمون ذلك ، وجدت قرايمهم ، وناموا نوم أهل الكهف سلب عليهم الفرجة فلكوا بلادهم والتجارة في أيديهم وهكذا السياسة فإذا لم يعرفوا ما تلوناه عليهم في هذا المقام فلتبينهم الأمم المحيطة بهم كما أفتت أوروبا أهل أمريكا الأصليين لأنهم لا يصلحون لهذا الزمان لتصور عقولهم واقتصارهم على تقاليد آبائهم الجاهلين ونبد عقولهم كأنها لم تكن شيئاً مذكورياً ، فأبدهم الفرجة إلا قليلاً منهم لعل المسلمين يتعظون هكذا الأمم الإسلامية إن لم تسار الفرجة في جميع أنواع الحياة فلا بد من إقراضهم جزءاً من إيمانهم فإن الله لم يترك لهم باباً إلا فتحه لهم في الحقول والكواكب والأضواء وأعمال الأمم واقرص أهل أمريكا ، وقد أسمعه في كتابه آيات النسخ ، ونسخ هو بنفسه لقتدى به فأجمعنا عن ذلك ، ولم يكن بذلك بل ألمم نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسمع ما قاله سلمان الفارسي في مسألة الخندق ، وفعل ما فعله الفرس من الأخذ بالأحسن ورسوخ خطة حربية بخطة حربية ، والمسلمون مع هذا كله نائمون غاذلون كأن هذا الدين ليس دينهم ، وكأن النبي ليس نبينهم والعقول نائمة ، وهذا أوان استيقاظهم ، وقيام مجددهم ، ورفق بلادهم وسعادتهم ، « ولتعلنن بناء بعد حين » وسيقرأ هذا خلفنا ، ويرون أن . أقوله عن المستقبل محقق لا شك فيه بطريق الإلهام في نفي « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا ولما كان اليهود لا يفتنون يعادون النبي صلى الله عليه وسلم قولاه : أنزل علينا كتاباً من آدابنا [كما قال العرب] من قبلهم ، وقد كانوا تعتنوا على سيدنا موسى كذلك فقالوا أرنا الله جهرة نزل قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) أي بل أتريدون ، وسواء السبيل الطريق الحق ، وقوله . (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفار أحسدا) الخ . سبب نزول هذه الآية أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضي الله عنهما بعد وقعة أحد قابلهما اليهود وقالوا : لو كنتم على الحق ما هربتم فارجعوا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم ، فقال عمار بن ياسر : كيف تقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد ، قال أتى عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ما عشت ، قالت اليهود : أما هذا فقد صأ ، وقال حذيفة : أما أنا فقد رضيت بالله ربا ، وبمحمد رسولا ، وبالاسلام ديناً ، وبالقرآن إماماً ، وبالكعبة قبلة . وبالمؤمنين إخواناً ، ثم انهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصبتا الخير وأفلحتما ، فأنزل الله : « ود كثير من أهل الكتاب » الآية وبقية الآيات واضحة .

« الزبرجدة العاشرة »

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَبَسْتَ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَبَسْتَ الْيَهُودَ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَهُ يَمْخُكُمُ يَنْبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
 مَتَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا
 خَائِفِينَ * لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَمَا
 تُولُوا فَجَهَنَّمُ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَاتِنُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا
 يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ
 قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * إِنَّا
 أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ رَضِيَ عَنْكَ
 الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِالْهُدَىٰ وَرَبِّي آتَيْتُكُمْ
 أَنْهَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ
 الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *
 يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ *
 وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ
 وَلَا هُمْ لَا يَنْصَرُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وقلوا) أي اليهود والنصارى، عطف على ردّ (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا) جمع هائد (أونصاري) ذلك أن كلا من الفريقين ادعى أن دينه هو الحقّ وسواه باطل (لك أمانهم) شهوراتهم الباطلة التي سموها (قل هاتوا برهانكم) على اختصاصكم بدخول الجنة (إن كنتم صادقين) في دعواكم (بلى) إثبات لما تنوه من دخول غيرهم الجنة (من أسلم وجهه لله) أخلص نفسه له لا يشرك به غيره (وهو محسن) في عمله (فله أجره عند ربه) في الجنة (ولا خوف عليهم) بخلود النار (ولاهم يحزنون) بذهاب الجنة، ثم ذكر مقالة اليهود والنصارى في خصومتهم في الدين فقال (وقالت اليهود) يهود المدينة في خصومتهم مع نصارى نجران (ليست النصارى على شيء) من دين الله (وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) من دين الله ولا دين إلا النصرانية (وهم يتلون الكتاب) أي والحال أنهم من أهل العلم بأحد الكتابين، ومن حق من آمن بأحدهما أن لا يكفر بالآخر لأن كل واحد من الكتابين مصدق للآخر (كذلك) أي مثل ذلك القول (قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) أي الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب يقولون لكل أهل دين منهم

يسوا على شيء (والله يحكم) يقضى (بينهم) بين اليهود والنصارى (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)
 فيعاقب كل فريق بما يليق به ، ان النوع الانساني درج على التقليد ، فالمتدين بدين يعتقد غيره دينا كاذبا
 واللى لادين له يحتر كل من هو على دين ، بهذا طغى أكثر هذا النوع الانساني لجهلهم ، فنع مشركو مكة
 النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام في عام الحديبية كما فعل الروم من قبلهم لما غزوا بيت المقدس ،
 وضربوه وقتلوا أهله ، وهذا قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) وأن يذكر مفضول
 كان لمنع (وسى في خزائنها) بالهدم والتجليل (أولئك) أى المنافعون (ما كان لهم أن يدخلوها) أى ما كان
 يفتى لهم أن يدخلوا مساجد الله (إلا خائفين) أى على حال التهيّب والخشوع ، أو ما كان لهم في حكم الله
 وقضائه ، فيكون وعدا بالنصر واستخلاص للمساجد منهم ، وقد أنجز الله وعده ، وقيل معناه النهى عن
 تمكينهم من الدخول في المسجد ، واختلف الأئمة في ذلك : فجوز أبو حنيفة ، ومنع مالك ، وفرق الشافعي بين
 المسجد الحرام وغيره (لهم في الدنيا خزي) قتل وسبي للحربي (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) أى النار :

ملخص ما تقدم

يقول الله : إن أرباب الديانات شغفون بالاضطراب ، مفرمون بالأخذ بالأذنان ، متعصبون لأهوائهم ،
 ينادون لصانع آياتهم ، فترجم اليهود كفر النصارى ، ويكفر النصارى عليهم القضية ، والثورة والاعتجال
 يدعون الحجية ، ويزيلان الشبهة ، ومشركو العرب كفروا الطائفتين ، وكرهوا الحزبين كما فعل ذلك من قبل
 بتخصر إذ هدم بيت المقدس ، ومنع أن يذكر فيه اسم الله ، وهكذا أهل مكة صدوا النبي صلى الله عليه وسلم
 وأصحابه أن يحجوا عام الحديبية ، وهل من الأدب طغيانهم أم من الحكمة فعلهم ، وكان الأجدر أن يدخلوها
 خاشعين ، فلتخيفوهم بالجهاد ، ولتعموهم من ذلك الظلم ، ولقد أرسل رسول الله ﷺ عليا بعد الفتح فنادى
 في الناس : أن لا يظوف بالبيت عريان ، وأن لا يبحج بعد هذا العام مشرك ، ولما فتح عمر الشام ومدينة بيت
 المقدس مع المشركين من دخول بيت المقدس ، فهؤلاء لهم في الدنيا خزي بالقتل والسبي والجزية ، ولهم في
 الآخرة عذاب النار . انتهى ملخص ما تقدم .

ولما طعن اليهود في نسخ القبة وقالوا : ان مجددا بأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غدا ، فقد صلوا لبيت
 المقدس ثم إلى الكعبة نزل (وقته المشرق والمغرب) أى وما بينهما (فأينما تولوا فثم وجه الله) أى جهة رضاه
 وليس الله مختصا بمكان ، بل هو (واسع الفضل) (عليم) بتدبير خلقه ، قد جعل لنا الأرض كلها مسجدا وترتها
 مطهورا ، فكيف يجعل كالعباد يتخذ ولدا كما زعمت النصارى واليهود ومشركو العرب بزعمهم أن ولده المسيح
 أو عزير ، أو الملائكة بناته ، سبحانه تنزيها له ، وكيف يصح ذلك وله ملك السموات والأرض كل له مطيعون :
 والولد لمن هو في حاجة إليه ، على أنه مبدع السموات والأرض فضلا عن ملكه لهما يتصرف فيهما كما يشاء
 وهذا قوله تعالى (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيها له عن ذلك (بل له ما في السموات والأرض كل له
 قاتون) منقادون لا يمتنعون على مشيئته وتكوينه (مبدع السموات والأرض) محترعها (وإذا قضى أمرا)
 أى حكم أو قدر (فأما يقول له كن فيكون) أى أحدث فيحدث ، وليس المراد به حقيقة أمر وامتنال ، بل
 تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا موهلة (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله) أى هلا يكلمنا الله ، وهؤلاء هم
 كفار مكة يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : متى نعلم أنك رسوله ؟ والأصح أن ذلك منسوب لليهود لأن السورة
 مدنية (أو تأتينا آية) فترحمها عليك برهانا على صدقك فأجاب الله عز وجل تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم
 ليثبت قلبه (كذلك قال الذين من قبلهم) من الأمم لأنبيائهم (مثل قولهم) في التعت (تشابهت قلوبهم) في
 الكفر والعتاد ثم قال (قد بينا الآيات لهم بوقنون) بك ولا ياعتنون فلا تحزن ، ثم قال (إنا أرسلناك) يا محمد

(بالحق) أي الهدي (بشيرا) من أجاب بلجنة (وذيبرا) من لم يجب بالنار (ولانسأل عن أصحاب الجحيم) إن
 عليك إلا البلاغ (ولن رضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تنزع ملتهم قل إن هدى الله) وهو الاسلام (هو
 الهدي) وما عداه ضلال (ولئن اتبعت أهواهم) فرضا (بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي)
 يحفظك (ولانصبر) بمنك ، وقوله (الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أي بأدائه لفظه وتدبر معناه
 والعمل بمقتضاه ، مدسهم بأنهم المؤمنون إذ قال (أولئك يؤمنون به) يصدقون به ، وهذا علم لكل مؤمن هذه
 صفته ، ولا يختص بالسبب الذي ورد ، وهوانها نزلت في أهل البيعة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله
 عنه ، وكانوا أربعين رجلا ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية من رهان الشام منهم بحيرا الراسب
 (ومن يكفر به فأولئك هم الكفار) وختم هذه الزجرجة بأن ذكر بني اسرائيل بالنعمة إذ قال (يا بني اسرائيل
 إذ كروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) أي وفضلتكم على كل عالمي زمانكم ، ثم قال
 (واتقوا يوما) واخشوا عذاب يوم ، وهو يوم القيامة (لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا
 تنفعها شفاعا ولا هم ينصرون) لا تقضي نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها فداء ، ولا تنفعها شفاعا ، ولا هم
 ينصرون ، أي يمنون من عذاب الله ، وقد تقدم الكلام على الشفاعا في أوائل السورة اهـ

تأمل المقصد السابع

وكيف كان بدوهم أن يذكروا أنهم ما اتصل لهم ملك أيام محمد مجدهم ما ينوف ألف سنة إلا بما أودع في قلوبهم
 من الجية والشهامة ، وحب الأمة ، واعتقادهم العظمة في نفوسهم ، والشرف في قبيلهم ، وكيف أخذ ذلك في
 قلوبهم على لسان موسى والأنبياء بعده ، وسلكتها في أفئدتهم ، لتكون تلك العقيدة لهم براسا يهتدون بها
 عند الظلمات إذانا للأمة الاسلامية أنهم لن يقوموا من يومئذ ، ولن يسقطوا من غفلتهم ، إلا أن يؤمروا
 في الشرف أملا ، ويقدموا له عملا .

انظروا في النصين من قريح اليهود بتلك اليواقيت والزبرجدات والجواهر وهي تنوف عن ٣٥ سجلها
 عليهم القرآن ، وغيرهم بأنهم ماصرفوا للعمل عنيتهم ، وقد سجلت التوراة عليهم ظلمهم في كتبهم الله في القرآن ،
 وصفه أحلام أسلافهم ، وأخذ أنفاس خلفهم ، وختم بتذكير النعمة ، وأرى أن هذه مجزة وأي مجزة ؟
 فكيف عرف ماني التوراة ؟ وكيف أخذ ينقدهم وقرعهم ، علما منزله وشرفه ، موقفا بسدق دعوته .
 ألا ترى كيف جاء بحاسب أمة على ما اقترفت ، وبنارها على ما احترقت ، هذه حقيقة صفة الرسالة والرسول
 من سل ليحاسب الأمم على جهلها ، والأفراد على ظلمها ، ولن يكون هذا من تلقاء النفس ، كيف لا ونحن
 نرى المرء تجر عليه السون والأيام وهو يتعلم ثم لا يخرج لهم خلاصة ولا ينشئ أمة .

الكلام على قوله تعالى : « ووقع المشرق والمغرب فأجمعيا تولاها » وجه الله إن الله واسع عليم »

خصصت هذه الآية بانفاضة الكلام فيها بعد ما ختمت تفسير هذه الآيات لما فيها من الجلال والبهاء
 والبهائم ، وإن كان الناس يسمون عليها من الكرام ، فأقول ورد ذكر المشرق والمغرب هنا ، وفي آية « رب
 المشرقين ورب المغربين » مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما ، وفي أخرى « رب المشرق والمغرب » باعتبار
 أن كل يوم له مشرق ومغرب خاص ، كما يعرفه من زاول علم الفلك بأدنى تأمل [والناس ثلاث درجات]
 جهال لا يعرفون من المشرق والمغرب الاسمهما فلا يذكرون في تنوعهما وتصرفهما واتقاهما . ومتوسطون
 فكروا بعض التفكير عرفوا بعض التغيرات واعتبروا بها . وفضلا أدركوا أن لكل يوم مشرقا ومغربا خاصا
 بالتحقيق لا بالظن . وكلامنا الآن في هذا المنام ، لماذا خص المشرق والمغرب ، ولم طبع القرآن بذكر الأتولر
 : اعلمت ؟ قراء يقول « الشمس والقمر بحسبان » ويقول « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقمره

منازل » ويقول « والشمس ونهاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها » ويقول « والضحي والليل إذا سحى » ويقول « ومن الليل فسبحه وادبر النجوم » ويقول « وجعل الظلمات والنور » وهكذا من تلك الجواهر المتلاثة الباهرة البية المشرقة [فأقول] : جوابا على هذا .

العرائس التفائس

تأمل عروسا مشرقة جميلة بهية المنظر حسنة الشكل معتدلة القوام ، قد لبست سبع جلايب ذات ألوان أحر ، وبرتقاليا ، وأصفر ، وأخضر ، وزمرديا ، وبنفسجيا ، وأزرق ، وهذه الجلايب من أرق ديباج وألطفه حتى إن العقل ليدهش حينما يسمع أنها كلها أصبحت حلة واحدة ألطف من الهواء وأرق من النسيم ، ثم إن هذه العروس قد أزيفت بأحسن زينة ، واتمت بأبهج الخلي ، وبهرت ناظرها بحميل صنعها فانها فوق هذا الجمال والحسن والزينة والخلي ، قد أعطت من زينتها زينة لكل غادة حسناء ، وجميلة هيفاء ، حتى تنزىر للناظرين ، وتقربها أعين الرايين ، فهي الواهية لمن الحسن والجمال والحلل التفائس والعطايا والمواهب ، بل إن كل جمال أشرق أمامها ، فأعماهى له مسدية ، فهي مصدر الجمال والحسن والاحسان . ثم انها لا تهتم ، ولا تشيب ، ولا يستغنى عن جمالها الشبان والشيب ، لا يذبل في الظاهر بهاؤها وشبابها ، ولا يقل احسانها واعطاؤها . فانظر لو أن عروسا هذا وصفها لكنت من أجمل النعم ، وأبهر العطايا ، ولكان ذكرها يولد في النفس حبا وغراما بمن جلاها لنا وأبرزها وأفرغ عليها الجمال والحسن ، ولكنت أجمل مظهر من مظاهر الاحسان ممن زفها لنا وساقها لنحظى بجمالها ، وكلما ذكرت تهلت القلوب فرحا واشتاقت أن تشكر من أبدعها ورزقنا بها .

طالع أن تلك العروس : هي الشمس وجلايبها السبعة ، هي الألوان الأحر والبرتقالى والأصفر الخ . وقد ثبت في علم الطبيعة بالشاهدة أن لون الشمس المشرق علينا الذى غشى وجه الأرض ، إنما هو مجموع تلك الألوان متعاشقة متداخلة . ألا ترى قطرات الماء ، ورشاشه في ضوء الشمس يلمع بهذه الألوان هكذا البللور فى النور يحلل داخله الى هذه الألوان ، وتراها جليلة في قوس قزح الذى لا يكون إلا في مقابلة الشمس ، فإن كانت مشرقة كان مغربا ، وإن كانت مغربة كان مشرقة دلالة على أن ضوءها حلاله ماء المنظر إلى الوانه السبعة كما كشفه علماء العصر الحاضر ، وكاد يعرفه القدماء لولا قلة الآلات العلمية ، فهذه الألوان السبعة صارت لونا واحدا ، فقد اتحدت فيه فأشرق على الأرض ، والماء ، والهواء ، والسهل ، والجبل . وقولنا إن العروس وهبت كل عروس الحسن والجمال وأعطتها زينة وحليا ، فذلك أن الكواكب السيارة التى تقدم ذكرها كسبت نورها من الشمس وأشرق ، وبهرت الناس بنورها في طلوعها وغروبها ، وهكذا يقول علماء العصر الحاضر : إن النبات ، والحيوان ، والإنسان ، وكل ما على وجه الأرض لالون لها ، وإنما ألوان الخضرة ، والحجر ، والبيض والصفير من اشراق الشمس عليها ، وهى فى أنفسها لالون لها وبرهنوا على ذلك بتجارب لا عمل لذكرها مثل أن يأتوا بشيء أصفر بفضى على لباس أحر فوجدوا أن ذلك الأحر مسود الصفحة عديم اللون ، لأن النور المشرق عليه خال من النور الأحر ، وعلى ذلك تكون ألوان الناس والمرجان والدر والعقيق وسائر الجواهر الجبلية وخضرة النبات ، وكل ما ينجبنا قشقه ورقشه وتزيينه ، فاعما هو أثر من آثار ضوء الشمس ، وهكذا كل عروس وما عليها من الخلي والحلل لا يظهر لها برقى ، ولا جمال منظور الا بشراق نور الشمس ، والانوار الأخرى تابعة لها ، وما الكهروماب الا أثر من آثار الشمس ، لان الأرض منها ، وكذا بخار الفحم الحجري الجارى فى الأثايب ، فاعما ذلك كله من نور الشمس أشرق على الفحم الحجري قديما مخزن فيه وظهور الآن . فهنا ابصاخ إن الشمس مصدر ما تراه من البهجة ، والجمال ، والهناء ، والسعادة ، فإذا أشرق فهذا دأبها ، وإذا غربت

ظهرت عرائس الليل ، فأبهجت الناظرين تلك النجوم الباهرات المشرقات في دجى الليل المطلات على علنا الارضى ، وهن قبلة الناظر ، وهدى السارين ، وكعبة الصادرين والواردين ، فهذه المشرق والمغرب للشمس والكواكب مظاهر الأنوار الساريات في الكائنات بهائم النبات ، وبعيش الحيوان ، وبجوى السحاب والبحار والرياح ، فهى اذن المظهر الالهى فى العالم العلوى والسفلى ، فالطراوة بها الحياة ، والأنوار بها الهدى والجمال فلا عجب إذا قال تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناه الليل فسبح وأطرف النهار لعلك ترضى » وإذا قال « ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم » وإذا قال « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » وإذا قال « وأشرق الأرض بنور ربها » وإذا قال « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسمن لو تعلمون عظيم » .

هاهنا اجتمع ارتقاء الفكر مع أفضل العبادة ، وههنا يتجلى النور العلمى الاسلامى وتشرق العقول بيدائع الحكم ، وروائع الفكر ، وغرائب العرفان ، هاهنا يكون منشأ الحكماء والكبراء فى أمة الاسلام .
تأمل النجوم والكواكب والشمس واتساقها يرفع العقول إلى أعلى مستواها ، فينبأها فى معراجها صاعدة ، إذا هى فى محرابها الفكرى عابدة ، إذا هى فى مناهج المدنية وسلم الحضارة شاخصة ، وبهذا ترقى الأمم الفرنجية حولنا ونحن نأتمون .

ولأنى عليك ما ذكره [اللورد افبرى] فى كتابه جمال الطبيعة لتتظن كيف كانت عناية الفرنجة بهذه البدائع العلمية ، ونحن ساهون لاهون .

قال لا يعرف الناس جمال الطبيعة لأنهم فيها مغمورون ، ولو أن الشمس تطاول عهدا بالشروق فطال الأمد ، والناس مشاهون إليها ، ثم بعد التياواتى طلعت عليهم أفلا تراهم يفتنون فى محاسنها ويسحرون بجمالاتها ويرمون بجبايتها . ألا وان تلك الأشعة الذهبية البراقة الواضحة الجليّة كترنمين من الذهب وثروة طائلة أغدقت على الناس فأصبحوا لا يفتنون لهما « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » ثم قال ضاربا مثلا أشبه بما قاله أفلاطون فى كتابه المسمى [جمهورية أفلاطون] تصور قوما كانوا فى كهف تحت الأرض واسع الأرجاء فيه القصور الفخمة والتمائيل ، وقد نقشت حيطانه وازينت بزينة ورياش وزخارف ، وقد انعكس عليها أضواء من خارجها أرسلتها أنوار مشرقة من نار ، وقد سمعوا باله خنى عن الأبصار وغاب عن العيان . ثم أتبع لهم أن خرجوا من ذلك المكان فجاء كأن زلزلت الأرض فاذا هم فى منفع الفضاء وهناك شمس مشرقة ، وسحاب ، ورعد ، وبرق فيذهلون لجمال الشمس ونورها ، فاذا غابت عن الأبصار وتوارت بالحجاب ظهرت الكواكب اللامعة طالعة فيعتربهم الدهول لجلالها وتتولاهم الدهشة لتلائها ويرون القمر ظاهرا مشرقا حسن الطلعة ، فكيف يكون تعجبهم لهذه المحاسن البديعة ويقرون باله عظيم نظم هذه الدرارى فى آفاق المشرقين ، ورصعها فى عقود المغربين ، وسيرها فى الأبراج ، وفى المنازل انتهى .

هذه مقالة اللورد افبرى ، وهى وان كانت جيلة أجل منها ما كتبه أفلاطون فى الجمهورية فانه فصلها تفصيلا أدق ، ولكن جوهر المعنى محفوظ .

ليس هذا المقال يدلك على ما للفرنجة من قدم راسخة فى هذه العلوم ، ونظر ناقب فى مواقع النجوم ، ولعلك تقول ماذا بهمننا من مقال رجل افرنجى . أقول إنما ذكرته لغرضين : الاول ان رقى العقل الانسانى موقوف على استيعاب هذه المباحث النفيسة وهؤلاء القوم قد برعوا فيها . الثانى أن كثيرا من الشبان الذين درسوا اللغى الافرنجية استكبروا استكبارا وأعرضوا وقالوا لا تؤمن باله لأن الفرنجة لا يؤمنون ، وقد تركوا

التيارات وعكفوا على درس السياسات ، وناموا عن العبادة ، وأنكروا الله ، ونحن لانعرف الامتراء الأبصار
ونكر ملوراه المادة لأن القرينة لذلك منكرون .

وأنا أقول قد اطلمت على كتب أعظم القرينة وحكامهم ، فوجدت هؤلاء الشبان المارقين في دعواهم
كاذبين ، فإن هذا البعض منهم قد درس قشور العلوم ولم يتجاوز كرامة معلمه ، وخرج من درسه مغرورا يقول
قد عرفت علوم المشرقين ، وطالمت حكمة المغربيين فلم أجد أهدي سبيلا ، ولا أقوم قبلا من جمود الاله
والكفر بما لا أراه فذرههم يعيشون عيشة البهائم ، ويكتفون من العلم بدعواهم أنهم بمنزلة « صم بكم عمي
فهم لا يحقون » ، ومن عجب أن هذا المثال الذي اتخذته اللورد افبرى من كتاب أفلاطون هو الذى يقوله علماء
الصوفية في تمثيلهم ، وهو المذكور في سورة الأنعام « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أنتخذ أصناما آلهة انى أراك
وقومك في ضلال مبين » ، وملخصه أنه لما جرت عليه الليل رأى كوكبا فظنه ربه ، ثم رأى القمر بلزغا فبهره
جمله ، فقال هذا ربي ، ثم رأى الشمس بلزغة فرآها أجمل ، فقال هذا ربي هذا أكبر ، ثم لما أفلت رجع الى
الله ، وقال « وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » .

أيها المسلمون هذا التمثيل الذى ذكره أفلاطون وقفى على آثاره اللورد افبرى وجدد في نفس القرآن ،
وهو الانتقال من جمال المشرقات الى مبدع السموات ، فكيف إذن يسود القرينة في هذه العلوم ، ونحن
عنها غافلون ؟ العلم علمنا والدين ديننا ، بل الشمس شمسا أليس اشراقها في بلاد الشرق أبهج ضوءا وأوضح
نورا ، ومن ذا يقبس سناء الشمس في انكفرتا بسائتها على ضفتى النيل والاهرام وبلاد الشرق ، وكيف يفرم
هؤلاء الذين يدعى صفار العقول من الشبان أنهم منكرون للاله بهذه الجباب ، والتوراة والانجيل ، وهما
الكتابين اللذين لم يس فيهما من محاسن الطبيعة الاماتلهر من الفلك على جرم السمك أرضيل
ونور حائل .

الأفلسنيقظ أهل الشرق ، فقدآن أن تبرغ شمس المعارف في آفاقه وأن ينهبا الشبان لزمان العرفان وأيام
الطه والسعادة وكأني بالناجين منهم ، وقد برعوا في الضنون وذاقوا من أفريقها مابه يسمون .
ولصمرك لم أطل في هذا المقام اعتباطا ولم أذكر ذلك الا لتعلم كيف كان ارتباط قوله تعالى « فأينما تولوا
فتم وجه الله » بقوله « والله المشرق والمغرب » .

أولست ترى أن حكاية الخليل ، وقد رأى النجم والقمر والشمس ثم اهتدى الى مبدع العالمين ، وكيف
كان علماء الأمم يذكرون مبدع الكائنات بعد النظر في الكواكب ان الكواكب والشمس والقمر باشراقها
على الأرض تشبها بجملة بيضاء فأينما تولى وجوها يشرق النور علينا ، واذا كان الخلق هكذا حاضرنا في
كل مكان فأسرى بنا أن نوقن أن الله الذى هو نور السموات والأرض ، وهو الذى أبدع النور معنا أينما كنا
فهذا فلنفسهم كيف يقول تعالى « وسبح بحمديك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناه الليل فسبح
وأطراف النهار لذلك ترضى » وياك أن تظن أن السبيح ما يكره الجاهلون وهم لا يفتلون ، وإنما ذلك المقرون
بالفكر والعلم والنظر والحكمة كما قال تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات
لأولى الاباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا
ما خلقت هذا باطلا » فانظر كيف كان القرآن يدعو حثيثا الى هذه الجباب . وصفار العقول نائمون ، وبعض
العلاء غافلون ، والمغرورون من متعلمى اللغات الافرنجية مقنونون ، وقد أقت الحجة على الجميع من الكتاب ،
وكلام القرينة عسى أن يكونوا من المنكرين والى هنا أن الشروع فى قصص الخليل عليه السلام ، وهو .

(المقصد الثامن)

وَإِذْ أُنزِلَتْ آيَاتُنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَهِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانخَبَدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضَلَّي وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِرِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَأَبْنِتْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (ابتلى) اختبر (كلمات) أوامرو نواه (فأتمهن) أذاهن نامت (قال) أي الله (إماما) قدوة في الدين (قال) إبراهيم (ومن ذريتي) أي أولادي اجعل أمة (لا يئال عهدي) أي بالامامة (الظالمين) الكافر بن منهم (البيت) أي الكعبة (مثابة) مرجعا يرجعون اليه من كل جانب (وأمنا) مأمنهم من العالم والاعتراف، كان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهجه (مقام إبراهيم) هو الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت (مضلى) مكان صلاة بان تصلوا خلفه ركعتي الطواف (وعهدنا إلى إبراهيم) الخ أي أمرناهما (بأن طهرا بيتي) أي من الأوثان (والعاكفين) المقيمون فيه (والركع السجود) جمع راع وساجد، وقوله (اجعل هذا) أي المكان (بلدا آمنا) ذا أمن، وقد استجيب الدعاء فجعل حرما لا يفتك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده (أضطره) أجهه و(المصير) المرجع (والقواعد) الأسس أو الجدر، بقولان (ربنا تقبل منا) و(مسلمين) منقادين (أمة) جماعة (وأرنا) علما (مناسكا) شرائع عبادتنا أرحمنا (وابت فيهم) في

أبناء إبراهيم من اسمعيل (رسولا) وقد حقق الله الدعاء ببينا (منهم آياتك) القرآن (والكتاب) معاني القرآن (والحكمة) ما تكمل به عقولهم من المعارف والأحكام (ويزكهم) يظهرهم من الشرك (العزيز) الغالب (الحكيم) في صنعه (ومن يرغب عن ملة إبراهيم) ولا يرغب عن ملة إبراهيم الا من استخف نفسه وامتنها (ولقد اخترناه في الدنيا) بالرسالة والخلة (وانه في الآخرة) من الذين لهم الدرجات العلى ، واذكر (لذوقه) ربه أسلم) اقد الله وأخلص له دينك الخ (ودصى) بالملة (إبراهيم) بينه ويعقوب يابنئ إن الله اصطفى لكم (الاسلام) ، وقوله (شهداء) أى حضورا : و (إلهها واحدا) بدل من إلهك (مسلمون) مخلصون له بالتوحيد والعبادة انتهى تفسير الألفاظ .

شرح وإيضاح

لقد مضى ذكر آدم وحواء وابليس ، وما كان من وضع أساس علم الأخلاق والنفس وتقيب ذلك بمافضل اليهود السابقون واللاحقون وتقر بهم ونويبهم ، ان ذلك لأشبه بالتخلية ، ولم يبق الا التحلية بذكر العلم والحكمة والأخلاق والفضيلة التي تحلى بها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ذلك الأب الأكبر الذي ولد القبيلتين العرب واليهود ، وفرع الشعبين الاسرائيليين والاسماعيليين . إبراهيم أبو اسحق واسماعيل واسحق قدولد يعقوب ، وهو اسرائيل : أى عبدا لله وأبناؤه الاسباط واسماعيل قدولد العرب ، ومنهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان العرب يدينون بدين إبراهيم جاء النبي ﷺ بدينه فطلق الله بذكر الأمة بدين أبينا إبراهيم بعد أن هدم بناء أسس على الجهل والتخريف ، فقال وإذا إبلى إبراهيم ربه بكلمات فأتهم . ان أقصى ما ذكره المفسرون : وقصارى مادونوه في الكلمات يرجع الى العبادات والأخلاق الفاضلة والباطة التي ترفع الرجل إلى رتبة الامامة وتزين الانسان ، وتسمه بالحكمة ولن يكون الاجتهاد شريفة ولا قدوة الاباء آداب عالية يعلوبحسبها ويشرف بقدرها .

وإبراهيم أمر باآداب ظاهرة كالخسة التي في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك وفرق الرأس ، وخس في الجسد من تقليم الأظافر ، وتنف الأبط ، وحلق العانة ، والحتان ، والاستنجاء ، وهكذا ثلاثون خصلة خلقية ، وهي المفهومة من آية « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » وآية « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » وآية « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون » وهكذا مناسك الحج وابتلاء بالنظر في الكوكب والشمس والقمر ، فأحسن النظر فيها ، وبذبح ولده فصيبر ، وبالهجرة وبفراق الوطن فاحسب ، والنظر في العوالم السفلية كسائلة الطير ، وكيف يحيى الله الموتى فاحسبها وبلغ النهاية فيها ، فرجع أمره الى صدق النظر في العوالم العلوية والسفلية من كوكب وقمر وشمس ، كما في آية الأنعام والبدء الأصنام وتكسيها وابانة الحجة على صحة الحياة الأخرى بالنظر في العلوم الطبيعية ، ثم الأخلاق الفاضلة من المضمضة وما عطف عليها ، والباطنة من الإيمان والصدق وما عطف عليهما ، وكذا الصبر على فراق الولد والوطن واللقاء

في النار [صفات عالية ، وفوس شريفة ، وأب كريم ، وشنتنة فضلة] ذلك تضمنه معنى الكلمات التي ابتلاه الله بها فليست الكلمات حروفاً يتحرك بها اللسان وتضطرب بها الشفتان . وهذه إحدى نكبات المسلمين اليوم فنقد بفرهم الجاهلون وبضحك على أذقاتهم المغرورون ، فيقولون لهم من قرأ سورة كذا غفر الله له ، وأعطاه كذا فظن الناس أن المسئلة كلمات تكرر وحروف تصور . كلا : والله فقد أجمع المقسرون على أن ذلك عمل ، وأبى عمل . إن أكثر المسلمين أبناء إبراهيم . ومن المحزن أنهم جهلوا سبيله وصلوا طرقه وما قدروه قدره . وكيف يموتون ؟ وهم لاحظ لهم من نظره ، وبهلكون ، ولا نصيب لهم من عمله . أين مدارس الحكمة أين علم الفلك ، أين الصدق والوفاء ، أين الفضيلة ؟ هذا دين أيكم إبراهيم دعاءكم له عربي مثلكم ، وهو النبي ﷺ ، ولورجع التحليل للدنيا لأنكر ذريته ، و « قال لابن العدي الظالمين » فليس الظلم قاصراً عن التعدي على العباد ، كلا بل أقيح منه . انهل بنظام السموات والأرض والفضائل النفسية . وما أجعل المسلمين اليوم فإذا لم يكن لولد إبراهيم اليوم عهد الأمامة والرياسة فلا يلومون إلا أنفسهم فقد أصبحوا عن عمله معرضين ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، قبل أن ينزل الوحي عليه يتعبد في غار حراء بالنظر ، والفكر والتأمل في بدائع السموات ومحاسن العالم ، وهو دين التحليل عليه الصلاة والسلام فمن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه وجهل قدرها .

ويرجع ما في هذه الآيات إلى عشر زمرات : الزمردة الأولى طلب الأمامة لبيته ، والخلافة لغيره بقوله « قال ومن ذريتي » فأجيب بأنه لا يدركها من جهلوا وظلموا .

(الزمردة الثانية)

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ

أنت تعلم : أن التحليل عليه الصلاة والسلام تحلى بالحكمة والعلم ، وزادان بالآداب والأخلاق ، فأمرنا بالتخاذل الأما كن التي أمها مصلى لنا وقبلة كالحرم والكعبة وأما كن المناسك كلها لتسير في سبيله ، وتأخذ العهد بصدقه والمراد بالصلاة ما يشمل الدعاء في تلك الأما كن . فليس الحج حركات عضلية كما أن الصلاة ليست كلمات وأصلاً بلا فكر ولا روية ، فهذا من عجائب القرآن ، وبدائع الفرقان ، وصلاة ركعتي الطواف من تلك الصلوات فلا تحجك الأقوال .

(الزمردة الثالثة)

وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمَا كِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

وهي ظاهرة (والما كفين) المقيمون فيه (والركع السجود) مفهومان .

(الزمردة الرابعة والخامسة)

دعاؤه لابنائه ، وهو قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ

هذا الدعاء ظاهر واضح ، دعا إبراهيم أن تكون مكة بلداً آمناً لا يراق فيها دم ، ولا يصاد صيدها وأن يبرزق

أهلها المؤمنون الثمرات استراسا من أن يقع فيما وقع فيه نوح من الدعاء للابن الكافر ، فأراه الله أن الكافر لا يحرم من النعمة والصحة والحياة وله عذاب مهين يوم القيامة . ألبس من العجب أن يحرم الصيد بمكة ويحرم على رب السم أن يقتل وائره ، ذلك أساس وضعه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في مكة بأمر الله عسى أن تهتدي الأمم يوما مالى السلامة ، وحفظ الأنفس من الهلاك ، والأجسام من سفك الدماء ، ان في الاسلام لبذورا سنمو وتفرخ وتنشعب وتفرش إذا جاء أجلها وحان حينها .

ثم بنى إبراهيم وابنه اسماعيل البيت ودعوا ربهما أن يتقبل البناء ويسمع الدعاء وأن يجعلهما مخلصين ، وأن يكون منهما ذرية تتبع آثارهما وتهتدى بهداهما ، وهذه القصة واردة في الحديث البخارى ، وفيه وجاء بها : أى سارة وبناتها اسماعيل ، وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل ، وكان ما كان من قفوى صر أمرهما لله ، ووقوفه مستقبلا القبلة عند الثنية ، وقوله « ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » وهكذا ظمئت وظمى ولدها ، وسعت بين الصفا والمروة طبا للواء ، فشرع السعى ، وسمعت صوتا اذا هو جبريل يبعث بجناحه فظهر الماء وشربت فورت رقيقة من جرحهم من طريق كدهاء ، وحطوا رحالم حول زمزم وترعرع اسماعيل وصرا أبوه بيته ، وهو ذواهل مرتين ، وفى المرة الثالثة قابله واعتنقا ، ثم بنا البيت بفعل اسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، ووضع الحجر الأسود ، وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) أخلص إبراهيم لله ، فدعا أن يتقبل دعاءه ، ويجعله مخلصاته ، ويتخذ من ذريته أئمة ، ويرسل لهم رسولا منهم يعلمهم ويظهرهم ، فهذا الدعاء شامل لخبرى الدنيا والآخرة .

ان أبناء اسمعيل هم العرب يقطنون اليوم أرض الحجاز ، واليمن ونهامة ، وأكثر جزيرة العرب ، والشام والعراق ، وهى وشمال أفريقية : طرابلس ، ونونس ، والجزائر ، وصراكس ، وهل اتخذوا حفظهم من علمه ، وقسطهم من حكمته ؟ هاهم أولاء أبناء إبراهيم اليوم فى شمال أفريقية ، وفى مصر ، وفى الشام ، وجزيرة العرب أجهل الأمم بملك وأبعدهم عن فكرك نظرت السموات وكواكبها ، والأرض وما كبتها ، والمناسك وفوائدها ، وحلت المركبات لتقف على أسرارها فى مسألة الطير وصبرت على النار وسعيرها ، والولد وفرائه ، والوطن وحبه ، وهاجرت لأرض الحرية بعد بأسك من إيمان الأمة التى أرسلت لها ، جاءهم الرسول الذى طلبت والكتاب الذى به دعوت فوحى شيتك ووقارك ما عرفوها الامعرفة الجاهلية ، وإماما قدسوها غافلين ولا حظ لهم من القرآن الاحظ الجائع من النسيم ، والحجار من البرسيم فداستهم الأمم ، وأصبحوا طحين الطامعين ، ولم ينالوا الخلافة ، ولم يحفظوا بالامامة . فهم مأمون للأئمة ، وتابعون لامتبوعون . انهم قائلون لا ظلم للعاصى الظاهرية ، ولا الأمور الأخلاقية ، وإنما ظلموا بجهل العلم ، والصناعات ، وما أبدعه الله فى الأرض والسموات فلا تجزع يا أبانا إبراهيم ، فلن أبناءك جهلوا قدرك وسفهوا أنفسهم ، الأثرى أنهم أعرضوا عن علومك وغفلوا عن نظرك . نظرت السموات وأنعمضوا وفكرت فى الطبيعة وأعرضوا ، وصبرت على ما يشرف قدرك وما صبروا ، وأحيت ذويك وكرهوا ، لا تأسف على أبناءك يا أبانا الخليل ، ولقد صدق قول الله فىنا « ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه » فأبناؤك اليوم جهلوا أنفسهم ، فلانبتشس بما كانوا يعملون ، وعسى الله أن يبدلهم بعد جهلهم علما ، وبعد خوفهم أمنا إلا وان هذا زمان الاقلاب ، وأيام الاضطراب ، ودوران النك بالهجاب والغراب ، فقد اتعشت الافئدة وأشرقت الأرض بالنور وسينبأ أبناءك فى القريب العاجل مقامهم رفيع ، وينالون عزهم الشخ ، وسيدركون معنى أبوتك وملكك . المسلمون جميعا أبناءك من ترك وكر

وصيين وجارين وهنود وغيرهم من الأمم والأجناس أبناءك في العلم والدين ، وبنوة العلم أشرف وأبقى من بنوة النسب ، هؤلاء الأبناء جاء فيهم على لسان أفضل أبنائك نبينا ﷺ في القرآن « ملة أيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » فقد سمعنا مسلمين في الكتب السابقة وفي القرآن ، وأنا نكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيدا فتكون نسبتنا الى الناس كنسبة الرسول لنا ، ونحن شهداء الله على خلقه نحن هداة الأمم ، هكذا يجب أن نكون كما رسمت لنا أيها الأب الوفور .

لقد وقف الرسول الذي أرسله سعد بن أبي وقاص في مجمع من الفرس في حضرة الشاه نارة ، وفي حضرة رسم القائد العام ارة أخرى وهو يقول « لقد بعثنا لنخرج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام ولا يتخذ بعض الناس بعضا أربابا من دون الله » لعمرى لقد فهم أولئك السلف حقيقة الإسلام وإن المسلم شهيد على الناس كما أن رسوله أرسل رحمة للعالمين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ولئن نكون رحمة للعالمين الا اذا تبعنا ملة أيها إبراهيم فقرأنا سائر العلوم ، وأحطنا بالفنون كما شرحناه في علومك السابقة . نظرت في النجوم وصبرت وبغثت في علم الحقائق واستقصرت في كل شيء هكذا فليكن أبناءك الذين هم أتباع دينك ، وكيف يكونون شهداء على الناس الا اذا درسوا العلوم وأطوار الأمم وأحوال الشعوب فالشاهد على قوم يكون علما بما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم يقتصر القرآن على انصافهم بالشهادة على الأمم بل جعلهم ذوى اشرف على الجميع في الارض اذ قال « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ونهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم » وقال في آية أخرى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » الأمة الاسلامية جعلت ديارها بين ديار الأمم تناخم الروم من جهة الغرب بأوروبا وتصل بالصين والهند واليابان ، وما وراءها من أمريكا من جهة الشرق فمكانها وسط بين الامكنة ورجاها وسط يعدلون في قوالم وحكمهم ، فأهل الحل والعقد من هذه الأمة متى جاء وقت منعتها وعزها وبجدها سيكونون مرجع المظلومين وماوى الخائفين ، وأمان المذعورين وهم يكونون الآمرين الناهين وكما أرسل رسوهم رحمة للعالمين يكونون هم رحمة الأمم تبعاً لبيهم ، وهذا معنى « ليظهره على الدين كله » فالسلمون بمنطوق هذه الآيات خير أمة أخرجت للناس ، ولا جرم أن هذا خبر لا بد من تحققه ويظهر لى أنه قد آن أوانه وبدا كوكبه واقتنى عمود صباحه وانشق فجره .

إن أول اصلاح اسلامى فى الأرض أن زلزلت الأمم القديمة كفارس والروم وماج الناس بعضهم فى بعض وداخل الفريون الشرقيين والشرقيون الغربيين وامتد الفتح الاسلامى الدينى فتعارفت الأمم واستفحل للإسلام فقام المنوك ببعض العدل فى حكمهم الأمم على قدر طاقتهم وما سمحت به أيامهم ، ثم دالت الدول الاسلامية وذهبت عنهم عزة المدينة . فذلف اليهم من الشرق المغول والتر وورثوا الأرض والتحقوا بالدين ، وهذا من ثمرات الاسلام ، وجاء الفريون ليحاربوا للدين فحملوا على قومهم فتلاذيل قضى على ديارهم وقبسا من العلم يهديهم الى هدى ويردهم عن ردى فظهر لوتر المصلح الدينى الشهير وصرخ فى قومه قائلا فيها الناس ان رجال الدين قد عشوا فى الأرض فسادا وأدخلوا فى الدين مالم ينزل الله به سلطانا فلا تجعلوا لكم ربا الا الله وذلك انما كان صدق قول الله تعالى « اتخذوا أحيارهم وريهانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً » فلا اقرار لقبس ، ولا طغيان فى معاملة ، ولا غفران لرئيس بل العبد بحاسب ضميره ويعلم أن الله مطلع عليه ، فأخذت العقول الغربية فى الهدى ، والعقول الشرقية فى الضلال والاضمحلال ، وهذه الحرية الاسلامية ، تحورت عقول الغربيين من الجهل الذى كان مخبياً عليها أجيالا ، وقرونا فأخفوا

ينظرون البريد والقطر للمسافرين ، ويمدون الاسلاك فانصل الغربي بالشرقي ، وعرف كل منهما بعض ما عند أخيه واقتلبت ممالك في الشرق والغرب وقاربوا بعد التباعد وتعارفوا بعد الجهالة فاقبلوا وأخذ القوي منهم يدوس الضعيف بسنابك خيله وبذله ويشاركه ويمده ، وما بعد الشيطان الاغرورا ، وقد أحكمت حلقات التجارة فكانت أقوى رابطة فدعا ذلك التصادم في المصالح أن يجتمع بينهم القتال ، ويراشقوا بالنبال ويباروا في النضال ، ثم يكون السلاح العام والمسلمون في هذا كله وسط بين الجميع فعلمهم اليوم أن يأخذوا دورهم في ترقية أنفسهم وانشعبوا الأخرى ونستأنف دورنا ونكون كما أخبر ربنا « وللاخرة خير لك من الأولى » ولتكون نهضة الاسلام الآتية مبناهما العلم وأسما البحث والتحقيق .

فليأخذ المسلمون مكاتهم في أنفسهم أولا ثم ليعلموا شعنتهم فليأتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى بالعلم والعرفان ، واذن يأمرهم الأمم بالمعروف وينهونهم عن المنكر لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، فأمة الاسلام شهداء الله على خلقه لأنهم عدوا وفوق ذلك يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر .

أبونا ابراهيم حمد الله على أن وهب له على الكبر اسمعيل واسحق ولاجزم أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا فكيف ذلك وكيف يكون أبو الانبياء وقدمه سيدنا محمد ﷺ مغرما بزينة الحياة الدنيا فحمده اذن على الولد أدنى مرتبة بل مراتب من حمد المسلم الذي يحمده الله على تربيته للعالمين كما قدمنا في سورة الفاتحة ، أقول انما حمد ابراهيم الله على ولدين هما نبيان : فاسمعيل مرشد مرتبة للعالمين ، واسحق أبو الانبياء المرشدين للربيين للأئمة ، وقد جاء من ذرية اسمعيل نبينا ، فالحمد لله من ابراهيم على تربيته الأئمة وسعادتها بابنائها ، ومنهم أمة الاسلام ، الأتراء يقول هنا « ربنا وبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويرزيهم » وأكدها بقوله « انك أنت العزيز الحكيم » حمد الله ابراهيم على أن رزق اسمعيل واسحق ، وقدم اسمعيل لأن الحمد عليه أوفر . فان من ذريته من اتبعته هذه الأمة المسلمة ، وهي خير أمة أخرجت للناس وهي وسط ورجلها يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر هذه حقيقة الأمة الاسلامية المستقلة .

أيها المسلمون ارضوا الأيدي العناغطة عليكم لتكونوا جميعا أمة واحدة ، ثم لتتظروا في أحوال الأمم . ان الغربيين اتقاد قادتهم الى العامة الذين ينوبون عنهم في مجالس أهل الخلل والعقد فهم فهدوهم الى استعباد الأمم الاسلامية واستحوا لادماها وأوالها ، فاذاباء يومكم للمهود فلتكونوا خيرا منهم ، لتكونوا آمريين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وارضوا حيف الأمم القوية عن الضعيفة على أي دين كانوا ، وأي ملة ، وأي لون ، انما أتم راحة العالمين ، تؤدبون الظالمين بجيوشكم وسلاحكم ، ويجب أن يكونوا أقوى من أسلحة الأمم وجيوشها حتى يخشوا بأسكم ، ولا تظلموا أحدا ، وكونوا قادة وسادة ، وانظروا كيف كان نبينا شاهدا على الأمم فقدم اليهود والنصارى مخالفة كتابهم كما ترونه في هذه السورة من اتخاذ اليهود الجبل معبودا مثلا ، ومن اتخاذ النصارى المسيح إلها ، فخيرهم بذلك وبغيره وأديتهم ، فكان من ذلك ما ترى من هذه الدنيا الناجمة من الانقلاب للدين في الأرض ، هكذا فلتكونوا شهداء على الأمم فتعلمون ما فعل نبينا من الشهادة على الناس والأمر بالمعروف ولم والنهي عن المنكر بعد أن توطئوا أركان النهضة داخل بلادكم .

ذلك هو الذي انشرح له صدرى في هذه الآيات ، وهذا الذي يطلبه القرآن ، والافلماذا نسمع قصة ابراهيم المجرّد التاريخ ؟ أم لحكاية تقال وتلاوة نسمع ؟ كلا والله ان ذلك لحكمة قد أرفخناها ، ونعمة سطرناها فمن قرأ هذا فليشره بين المسلمين : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . وهذا سر تنكر لمر الصلاة والسلام على ابراهيم وآل ابراهيم ، لتذكر الحكمة والآداب الظاهرة والباطنة التي ذكرت عنه في

القرآن اه

أيها المسلمون : اني أقول لكم لقد اقترب يوم نصركم ، وأوان عزكم ، وهل يكون أمركم للأمة بالمعروف ونهيكم عن المنكر وأتم أدلة ! إن الله خلق الحيوانات في الأرض على قسمين : قسم عزيز ، وقسم ذليل ، فالعزير كالغزلان والأساد والذئاب والفيلة ، وهي الحيوانات التي تعيش في القفر والفضاء الواسع ، وقد جعلت لأعضها ، وسعت لمعاشها ، وانسكت على ربها ، ولم يكفلها غيرها ، إلا أنها تتمتع بالحرية والاستقلال التام . والقسم الذليل تلك الحيوانات التي أعقدنا عليها نعمنا ، وكفيناها العمل ، وأحطناها بقوتنا ، وأرحناها من السعي لأعضها ، والبحث عن كل ما يربحها وينفعها من الغنم والبقر والابل والحيل وأمثالها ، فذلك تتمتع بالنعم وتتقلب في العذاب تحت رحمتنا وعذابنا ، إن الله أعطى القسم الأول كالأساد قوة المحافظة على أعضها والحيلة لطلب ما تحتاج اليه ، وسلب القسم الثاني تلك المواهب ، فزادنا ما نقصها ، وأعطانا ما منعها ، فلن كل موهبة استعملها حتى تمت ، وكل موهبة تركها ذهبت ولم تبق . هذه قاعدة عامة الأبيقي إلا النافع ؟

فقول : أيها المسلمون أنكون كالفرقي الأول أم نكون كالفرقي الثاني ؟ إن الفرقي الثاني لا يملك لنفسه نفعاً ، انه ذليل ضعيف فاقد الحيلة ، أما الفرقي الأول وهو الموالح المستقل ، فهو أهل أن يحفظ نفسه وينفع غيره ، المسلمون ماداموا تحت رحمة الأمم فليسوا خيرة أمة أخرجت للناس ، ولا عدولا ، لأن الأمة التي تكون خير الأمم وتأمراً بالمعروف ونهي عن المنكر تكون حرة ، وهل للذليل أمر أو نهي ، أم هل له من علم وهو في طاعة ساداته المالكين لأمره ، الذين يسخرونه لما ربههم ؟ فإداموا تحت وصاية غيرهم فلن الرجاء قبيح مقفود وانما هم أشبه بأدنى الحيوان الذي يقوده الانسان ويذبح أولاده ، ويشوي لحمه ، ويجز صوفه ، ويكون رتبة له ومناخا الى حين ، فهل مثل هؤلاء يكونون خيرة أمة أخرجت للناس ، أم مثلهم يسميهم الخليل مسلمين ؟ أم يكونون شهداء على الناس وهم لا يعرفون الناس ولا أنفسهم ، فليخرج المسلمون من مأزقهم الذي وقعوا فيه وليرجعوا الى سنن السلف الصالح من الحرية والنجدة والنخوة والشم والاباء ، وحينئذ يكونون خيرة أمة أخرجت للناس .

(الزمردة السادسة)

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، إِلَى قَوْلِهِ : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ابراهيم أبو العرب واليهود ، وأبو بني النصرى ، لأنه ابن صريم ، وهي من بني اسرائيل ، ابراهيم ولد اسحق وولد اسماعيل ، اسحق أبو اليهود ، واسماعيل أبو العرب ، ودعا ابراهيم لأبنائه العرب بالبركة والثناء والعز والعلم والكتاب والحكمة ، وهاهوذا يذكر صيته هو ويقرب بعده ، كلاهما يقول لبيته : ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . وهنا وضع الحق ، واستبان السبيل ، وتجلي الأمر ، وسطع نور العلم ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب ، وهاهوذا ابراهيم يدعو للعرب ، ويوصي اسحق ، ويوصي اسحق يعقوب أن يتبعوا ملة ابراهيم ، وهي ما عرفت من النظرى العالمين والآداب الظاهرة والباطنة ، فهل يجمل بعد هذا البيان أن يتهموا الناس الى الورا ويدينون بالنصرانية واليهودية (تلك أمة قد خلت) أي ابراهيم والمذكورون معه أمة قد سلفت (لها ما كسبت) من العمل (ولكم) أيها اليهود (ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) كما يسألون عن عملكم فلا تخشروا بهم .

الزمردة السابعة

وهما فرعان لأصل وغصنتان لشجرة ، ولأصل لإلا دين إبراهيم ، وهي قوله تعالى

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلَى مِثْلَهُم مَّا كَانُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

وقال اليهود (كونوا هودا) وهم يهود المدينة ، وقال نصارى نجران : كونوا (نصارى تهتدوا قلى بل) نبع (ملة إبراهيم) مانلا عن الأديان كلها الى الدين القيم ، وقوله (وما كان من المشركين) تعريض لليهود والنصارى بأنهم مشركون ، ألا ان الطريق المثلئ ، والمثل الأعلى ، والحكمة المشرفة أن يرجع نوع الانسان الى الدين العام بلا قيد ولا شرط ، وهو :

الزمردة الثامنة

السلام العام بمشرق شمس الهداية ، ونور الحكمة من أفق الشرق ، وتبليج نور إبراهيم

لنخيل ، وحكمة ذلك الوقور الجليل ، وهي قوله تعالى :

قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِن آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي
شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

التفسير اللفظي

هذا خطاب للمؤمنين يقول (قولوا آمنة بالله وما أنزل إلينا) وهو القرآن (وما أنزل الى إبراهيم) من الصحف العشرة (وما أوتي موسى) من التوراة (وعيسى) من الانجيل (لا نفرق بين أحد منهم) كما فصل اليهود ، وقوله (فان آمنوا) أى اليهود (بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق) خلاف معكم (فسيكفيكم الله) يا محمد شقاقهم (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بأفعالهم ، وقد كفاه إياهم قتل قريظة ونفي النصير ، وضرب الجزية ، هذه حجة الاسلام الباهرة ، وسيفه القاطع ، ونوره الساطع ، فتحن تؤمن بالمرسلين والنبين ، ولانكذب ماورث عنهم من حكمة ، وما أوتوا من علم ، لا نفرق بين رسول ورسول ، ولا بين نبي ونبي ، نحن نأخذ الحكمة أين وجدناها ، ونعظم سائر النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين ، عقولنا ميزان تزن ماورد بالقسط ، ونين بالحق ، كما في آية : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيسمعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » اذا آن أن يبلج صبح ذلك اليوم المنشود ويعلم المسلم ما في هذه الآية ويكونون أرقى الأمم ، والآن هم في غطاء عن الذكر ، وقلوبهم في أكنة إلا من رحم ربك ، فقل هذه الآيات لاتلج القلوب ولاتدخل الآذان ، هذا وقد أكد هذه الحكمة بما يقويها ، وزكاهما بما يدعما ويبيها ، وهو قوله عز وجل :

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَنحَاجُونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ *

الايضاح

أى صبغنا الله صبغته ، وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهدانا الله هدايته ، ولا صبغة أحسن من صبغته الظاهرة الأثر فىنا ظهور السبع على المصوبغ (ونحن له عابدون) تبريض لهم بأنهم مشركون ، وروى أن أهل الكتاب قالوا : الأنبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا ، فنزل ما مضاه : قل أنجدولونا فى شأن الله فالنبوة إما اختصاص من الله فهو ربنا وربكم ، فكما يختص منكم من يشاء يختص منا من يشاء ، وإن كان ذلك بالأعمال فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن مخلصون له فى الإيمان والطاعة ، « بلغ النصارى بماء المعمودية الذى اتصل بما غمس فيه المسيح عليه السلام ، فذلك حجرت النفس عن السلام العام ، والدين الحق أن يرجع الناس للسلام العام بالدخول فى الاسلام ، وصبغوا بصبغة الاسلام ، لا يتقيدون بالقيود الموهومة » صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون « ليس أمام المسلم إلا ربه وعمله » وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم « والناجون المفلحون هم المخلصون » ونحن له مخلصون «

(الزمردة التاسعة)

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ، أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ايضاح

أى بل أقولون ، وقوله (أأنتم أعلم أم الله) أى الله أعلم ، وقد برأ ابراهيم من اليهودية والنصرانية بقوله « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا » ولا أحد أظلم عن أخفى شهادة عنده كاتمة من الله وأولئك هم اليهود ، كتموا شهادة الله لابراهيم بالحينية ، وقوله (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد لهم وتخويف ، وتكرار هذا ليعلم اليهود وجميع العالم الإسلامى أن الاستججاج بالأباء أو الافتخار بهم ضرب من الجهالة وباب العمياء ، فليس من حق اليهود الاحتجاج بالتاريخ الذى زوروه ولو كان حقا لم يفدهم فلكل امرئ ما كسب وعليه ما اكتسب وكل امرئ عن عمله مسئول ، وملخص ذلك أن يقال : ليس ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا وإنما دينه مطلق من القيود خال من السيئات أبيض ناصع على أنه لا عبرة بالمجد القديم ، والنفضل الموروث إلا بما المجد كل المجد أن يعمل الانسان بنفسه (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون)

الزمردة العاشرة

القبلة ومناسك الحج كالصفا والمروة التى كانت مناسك ابراهيم لتتقى الناس أثره فى أعماله الظاهرة وآدابه الباطنة ونظاره العام فى السموات والأرض وهو قوله تعالى

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنِّ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ اللَّهُ الْمَشْرِقُ

وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا
إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوِّفٌ رَحِيمٌ * قَدْ
رَأَى قَلْبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَتْلَمِذُونَ أَنَّهُ آخِذٌ
مِنَ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَتَّمَلَّوْنَ * وَلَئِن أُتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ
مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن أُتَيْتَ
أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الْمُتَكْفِرِينَ * وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاَتَّبِعُوا الْخَيْرَاتِ
أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي
وَلَا تَتَّبِعُوا نَفْسِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو
عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَتَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

المهتدون * إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو أعتَمَرَ فلا جناحَ عليه
أن يطوفَ بهما ومن تطوَّعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليمٌ *

التفسير اللفظي

لما كان الشعور بالمكروه قبل حصوله كالمرض يتقدم الموت يطمئن به القلب ، وبسهل المكروه قال الله تعالى (سيقول) الجهال من اليهود والمشركين : أى شئء صرف النبي ﷺ والمؤمنين (عن) استقبال قبلتهم التي كانوا عليها) وهو بيت المقدس (قل) يا محمد (لله) الجهات كلها مشرقها ومغربها وما بينهما : فأى اعتراض عليه أن يأمر بالتوجه الى أى جهة شاء (يهدى من يشاء) هدايته (الى طريق مستقيم) أى دين الاسلام ، ومنه أتم ، وأنا كما هديناكم الى هذا الدين (جعلناكم) يا أمة محمد (أمة وسطا) خيارا عدولا (لتكونوا شهداء على الناس) فى الدنيا والآخرة وسيأتى توضيحه كما سبق بعض ذلك (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أنه بلغكم ، وما صيرنا القبلة لك الآن الجهة (التي كنت عليها) من قبل وهى الكعبة اذ كنت تصلى اليها فلما كانت الحجرة أمرناك باستقبال بيت المقدس تألفا لليهود (الالعلم) علم ظهور (من ينبع الرسول) فيصدقه (ومن ينقلب على عقبيه) راجعا الى الكفر شكا فى الدين فيظن من فى قلبه مرض أن الرسول متحير فى أمره متردد فى فعله ، ولقد ارتد جماعة لذلك (وان كانت) أى التولية (لكبيرة) لشاقة على الناس (بالاعلى الذين هدى الله) منهم . ولما قال حبي بن أخطب من عظماء اليهود للمؤمنين ان استقبالكم لبيت المقدس لا يغلو إما أن يكون هدى ، فقد اتقلتم الآن الى الضلال ، وأما أن يكون ضلالا فلم أفرمكم عليه ؟ ثم ان من مات قبل التحويل مات على الضلال وضاعت أعماله . شق ذلك على أقرب من ماتوا قبل التحويل فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وهو صلاتكم الى بيت المقدس (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) أما بالمؤمنين فى أنه لم يضيع صلاتهم الى بيت المقدس ، وأما بالرسول فإنه أجاب دعاءه وأعطاه طلبته ، اذ كان وهو يصلى الى جهة بيت المقدس يشتم من اليهود الكره وكانوا يقولون ان محمدا يشارك ديننا ويصلى لقبلتنا ، وكان ﷺ يحب أن يصلى للكعبة حتى نزل عليه جبريل يوما فقال يا جبريل أود أن الله يحولنى لقبلة أبى ابراهيم فلربك ذلك ، فقال أنت أكرم على الله منى ثم صعد الى السماء فصار رسول الله ﷺ ينظر لجهتها منتظرا للاذن فى ذلك فنزل عليه جبريل بعد ركعتين من صلاة الظهر فى رجب بالأمر بالتحويل للكعبة فتحول وتحول الناس معه ، وكان يوما مشهودا فافتتن اليهود وأهل النفاق ، ونزل قوله تعالى (قد نرى قلب وجهك) الآية : أى قدرى تصرف وجهك (فى) جهة (السماء) متطلعا الى الوحى ومنشورا للاذن باستقبال الكعبة لأنها قبلة أبى ابراهيم ولأن العرب بألقونها فيسلمون (فلنولينك قبلة) تحبها فاستقبل فى الصلاة نحو (المسجد الحرام) أتم أيها المؤمنون (حينما كنتم فولوا وجوهكم) فى الصلاة (شطره) ولأن الذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود (ليعلمون) أن التولى للكعبة (الحق) الثابت (من ربهم) فإن ذلك جاء فى نص النبى أنه يتحول اليها (وما الله بظالم عما يعملون) أى اليهود من انكار أمر القبلة (ولئن أنبت الذين أوتوا الكتاب بكل آية) على صدقك فى أمر القبلة ما يتبعون قبلك عند انهم لك (وما أنت بتابع قبلتهم) لطمعه فى اسلامهم ولطمعهم أن يكون هو صاحبهم الذى كانوا ينتظرونه مؤيدا لهم وما اليهود بتابعين قبلة النصارى ، وهى مطلع الشمس التي ابتدعها لهم بولس القسيس . أنه بعد رفع عيسى قال لقيت عيسى عليه السلام فقال لى ان الشمس كوكب أحبه يبلغ سلامى فى كل يوم فرقومى ليتوجهوا اليها فى صلاتهم ففعلوا ذلك

وما النمري بتابعين قبله اليهود وهو بيت المقدس (ولئن اتبعت) يا محمد (أهوامهم) التي يدعونك إليها (من بعد ما جاءك) من الوحي الآتية (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) محمدا (كما يعرفون أبناءهم) كعبد الله بن سلام إذ قال لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ، ومعرفتي بمحمد أشد : فان الابن مظلون النسب : أما محمد فمعرفة عن الله في الكتاب (وان فريقا منهم ليكتمون الحق) نعت محمد (وهم يعلمون) ومعنى الممتريين الشاكين (ولكل) فريق من الناس قبله (هو مولها) وجهه في صلاته . فبادروا الى الطاعات (أيما فكفروا) يجمعكم الله يوم القيامة (ومن حيث خرجت) لسفر الآتية ، وقوله (لئلا يكون للناس) أي اليهود أو المشركين مجادلة في التولي الى غير الكعبة : أي ليتقن قول اليهود بمحمد ديننا وينبع قبلتنا ، وقول العرب : أي للمشركين منهم يدعي ملة ابراهيم ويخالف قبلته (الا الذين ظلموا منهم) لأنهم يقولون ما يحول اليها الا ميلانه الى دين آباؤه فلا تخافوا جدالمهم (واخشوني) بامتثال أمرى ، وعطف على قوله لئلا يكون قوله (ولأنتم نعمتي عليكم) بالهداية الى معالم دينكم (ولعلكم تهتدون) الى الحق إتماما كاتمامها بإرسالنا (فيكم برسولا منكم) وهو محمد ، وقوله (يزكيكم) يطهركم (ويعلمكم الكتاب) القرآن (والحكمة) ما فيه من الأحكام (فاذكروني) بالطاعة كالصلاة والتسبيح (أذكركم) بالثواب ، وفي الحديث عن الله « من ذكرني في نفسه ذكرتني في نفسي ، ومن ذكرني في ملاء ذكرتني في ملاء خير من ملاءه » ، وفي الحديث أيضا « ان الله إذا أحب عبدا نادى جبريل فقال له يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل : ثم ينزل في السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء : ثم يوضع له القبول في الأرض » ثم قال تعالى (واشكروا لي) نعمتي بالطاعة (ولا تكفروا) بالمعصية (بأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) عن المعاصي وحفظ النفس (والصلاة) إيمان أن تكون الدعاء ، وإما أن تكون الصلاة المعروفة (ان الله مع الصابرين) بالنصر وإجابة الدعاء .

تجت بالتجربة التي قرأتها في بعض الكتب واختبرتها أنا ان المتوجه لله بالدعاء مع الثقة بالاجابة وقناع القلب السائم أن مطلوبه سيتم مع المواظبة في ذلك لا بد من الاجابة لدعائه (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله) هم (أموات بل) هم (أحياء ولكن لا تشعرون) وحياتهم ليست جسدية من جنس حياة الحيوان ، والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر ، وهذا دليل على أن ما قاله الفلاسفة من أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها باقية بعد الموت حق وصدق ، وهنا اتفق الشرع والقتل ، وسيأتي في هذا المقام تفصيل أوسع من هذا (ولنبأونكم) ولنصيبكم إصابة المختبر لأحوالكم هل تصبرون على البلاء وتسلمون للقضاء (بشيء من الخوف والجوع وقصص من الأموال والأفئس والثمرات) والخوف لامن الأعداء بالأغرة والأيذاء أومن الله ، والجوع بالقصص أو السيام في رمضان ، والنقص من الأموال اما بالجوائح والمهلكات واما بالزكاة والصدقات ، وقصص الافئس بالأمراض والقتل والموت ، والثمرات بالآفات العارضة ، وانما فصلنا ذلك لتتظن أن تصبرون (وبشر الصابرين) على البلاء بالجنة (الذين اذا أصابتهم مصيبة) وبلاء (قلوا ان الله) ملكا وخلقنا وعيضا فينقل بنا ما يشاء (وانا اليه راجعون) في الآخرة فيجازينا ، والاسترجاع باللسان وبالقلب بحيث يتصور مخلوق لأجله وانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيؤمن على نفسه ويستسلم له وفي الحديث « من استرجع عند المصيبة أجره الله فيها وأخلف عليه خيرا » وفي الحديث أيضا « ان مصباح النبي ﷺ طوى هاترجع فقالت عائشة انما هو مصباح فقال كل ماساه للؤمن فهو مصيبة » (وأولئك عليهم صلوات من ربهم) أي تزكية ومغفرة (ورجهم) أي لطف واحسان (وأولئك هم المهتدون) للحق انتهى التفسير الذليل

ايضاح وكشف

هنا استقام الأمر، واستوقت الحجة، وقام البرهان، ووضح الدليل ان الدين الحق هو الخيف الخالص من الكهانة والمعبودية وغيرها، ولا سبيل لذلك إلا برجوع الناس لدين الخليل، ومن آدابه الظاهرة أن يؤموا في الصلاة الكعبة التي بناها، والقبة التي اصطفها، والأمة التي تتبع قبلته، وتؤم طريقته، وتسلك سبيل ملته، من النظر في السموات، والتطفل في الطبيعات والكياويات، والتأني عن الأوهام كالأصنام، والصبر على ما به تعالواهم، وتسمو الأمم، لاجرم تكون وسطا وعدولا، ورجاها خيرا، وهداتها مزكينة بالعلم العالى والعمل الشريف، والفضل المنيف، إذ يعلمون أن الله ما خلق الخلق سدى: «وان من أمة إلا خلا فيها نذير. بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره» فيشهدون على الأمم جميعا من خلا قبلهم، ومن سيلحق بهم بعدهم، ومن هم لم يعاصرون. ذلك شأنهم في الآخرة. ان أمة محمد يشهدون على الأمم أن أنبياءهم بلغوهم فيوتى بالنبي صلى الله عليه وسلم فيشهد أن أمته عدل. ذلك حالهم في الآخرة. لاجرم أن الآخرة ثمرة الدنيا. صلى المسلمين اليوم أن يسموا مرتبتهم. ويقوموا بما وجب عليهم فلقد صدقوا كل رسول ونبي. المسلمون اليوم وسط بين المشرق. والمغرب وسط بين الغرب والشرق الأقصى وأمريكا. المسلمون أمة بين المسيح وبهيا، جعلهم الله بين الأمتين الغربية والشرقية، انهم يؤمنون بما أنزل الله على الأنبياء، ومنهم من قصص على نبيه ومنهم من لم يقص. وكأنهم أولى الأمم وأجدر الناس بالتطفل في العلوم. والترقى في المعارف. يدعوه دينهم وملة أبيهم ابراهيم لعلم كل شىء. والنظر في دين كل أمة « لا تفرق بين أحد من رسله » فركزهم إنما هو الاشراف على العالمين. والنظر نظرة عامة للناس في الدارين. فالعدل خير بأحوال من شهد عليه وعلى الشاهد أن يؤدى الشهادة عن عيان. ولئن قام بالأمر آباؤنا السابقون. وأسلافنا المؤمنون. فهل ورتنا محمدتهم. وصرنا عدولا مثلهم؟ أنا أشك في قضيتنا، وأسأل العلم والحكمة لأمتنا، حتى تنال صفة العدالة وترث أن تكون شاهدة عن عيان ووجدان. فليكن من المسلمين اليوم سياح وعلماء. ويقروا علوم المغرب والمشرق. ويعتدوا في الصناعات. وبناء السفن الماخزات. حتى يجوسوا خلال البلاد. هذا مقتضى وصفهم بالعدالة. ولئن أعرض المسلمون اليوم عما رسمناه. واتكلموا على ماسمعناه. ليصبحن كأمة اليهود بشرى وبأبى فضلكم على العالمين. فلما أن أعرضوا قيل لهم: «كونوا قردة خاسئين» فلا يظن المسلمون أن الأمر فوضى وأن المسلمين ينالون تلك العدالة والشرف بلائمن ولا عمل. كلا. فان لم يقوموا بالعلم مجددين. وللعمل شاكزين. قلب الدهر لم ظهر المجدن. وأبدل بجهنهم العرفانية ذلة الأبد. وفقد الولد. وضاع البلد. وقلة العدد. ولقد ذكرنا قبل هذا في الآيات السابقة عند ذكر الخليل عليه السلام ما كان من اخبار الله تعالى قائلا: «كنتم خيرا مة أخرجت للناس» وأن المسلمين غفلوا. وذكرت أنهم شهداء على الناس بأمرهم بالمعروف ونهون عن المنكر.

بشرى للمسلمين

ما كنت وأنا أكتب ما قمتم. وأنا مهتم بالأمم الاسلامية. لائم لأهل العصر الحاضر على التواني والكسل أظن أن فيهم من نبذوا الأزواء. وظهروا في الميدان. وعرفوا قيمة أنفسهم. أفلا أعجب من حكمة الله عز وجل أكتب هذا القول وأنا آسف على الأمة إذ انجبر السار الوارد في الجرائد عن أهالى طرابلس وبرقة يتادون بالأمر محمد ادريس المهدي السنوسى أميرا على القطرين. وهذا نص ما كتبوه إلى سمو مولانا الأمير الخليل السيد محمد ادريس حفظه الله ورعاه:

« تحية تليق بالمقام الرفيع ، والجناب الأسنى المنيع ، وبعد فانه غير مناف على سموكم أن الخلاف لم يزل قائما بيننا وبين الحكومة الإيطالية ، ذلك لأنها وجهت عزمها الى البعث بجميع حقوقنا شرعيا وسلميا واداريها ، وجعلت من قوتها مبررا للتصرف في مصلحتنا وحقوقنا الطبيعية [ونحن خيرامة أخرجت للناس] لاتحمل ضياعا ، ولا ترضى أن تضمحل شريعتنا ، ولأن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم الخ » انتهى المقصود منه قرأت هذا اليوم وأنا أعجب سرورا وابتهاجا ، إذ أكتب هذا القول ومداده لم يجف ، وأرى أن هذه الأمة اليقظة الشريفة النبيلة المضيئة العريضة المجد الكريمة المحترمة أخذت تضيء ويهرسناها وتشرق على العالمين .

يا أيها العقلاء : ان هناك نورا أشرق من السماء وقبله كثير من العقول السليمة في ديار الاسلام ، وإذا أراد الله أمرا هيا أسبابه ، تلك كهولاء سرت في قلوب استعدت للحكمة في مشارق الاسلام ومغاربها ، ان توافق الخواطر يبشر بالنجاح ، سيرجع المسلمون لمجدهم ويكونون رحمة للعالمين « وتعلمن نبأه بعد حين » اني لما ألفت « التاج المرصع » منذ نحو ١٨ سنة كنت أقول في نفسي : « سنخبر في الاسلام دول قبل ثلاثين سنة » أما في هذا الكتاب فأتى أرى نور الله قد أشرق على القلوب ، وتولدت الخواطر « ولينصرن الله من ينصره إن الله قوي عزيز » وما كنت لأظن أن يقول أحد هذه الآية « كنتم خيرامة أخرجت للناس » مستهدا بها على الاستقلال السياسي . هذه نزعة شريفة تبشر بالنجاح والفلاح . وهذا وحده منشأ عجي وسروري . انتهى

إيضاح الكلام في أمر القبلة

هنا بطل الله لقال في أمر القبلة ، ولما تشرف النبي صلى الله عليه وسلم لقبلة ترضيه ، وكانت الأمم تتنزل قبالتها ، واحتج العرب واليهود على استقبال بيت المقدس وعابوا المسلمين والنبي ﷺ في استقباله كروا الأمر بالتولى ثلاث مرات لكل من الأسباب واحدة مقرونة بقوله « قد نرى قلب وجهك في السماء فلو نلتك قبلة ترضاها » والثانية مقرونة بقوله « ولكل وجهة هو موليها » والثالثة بقوله « لتلا يكون للناس عليكم حجة » ثم أبان أن ذلك الرسول الموعود ، والنبي المشود ، الذي دعا به ابراهيم انما هو محمد صلى الله عليه وسلم بقوله « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا » وهما أخذ يعطى ملخص دين الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأصوله الشريفة التي هي القية البيضاء ، وهذه الاصول توافق دين ابراهيم الخليل وهو الدين العام فقال « فاذ كروني أذ كركم » . يقول : ها أنا ذا ذكركم برسالة محمد الذي وعدت على لسان ابراهيم ، فكما ذكركم بذلك فاذ كروني أذ كركم ، وهما أخذ يعقد تلك الاصول المرضية ، والحكم الشرعية ، فكان حاصلها يرجع الى علم وعمل وأخلاق نفسية ، فالعلم « والمحكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » الآية وهي تقابل ما جاء في سورة الأنعام من نظرات ابراهيم الخليل للعلايات والزهرة والقمر والشمس واستخراج الحكمة البالغة منها وهو التوحيد ، والعمل أشاره بالأمر بالصلاة وبالسعي بين الصفا والمروة لأنهما من شعائر الله انبعاثا لدين الخليل إذ كان يحج ويصلى ، وهذه الأما كن مصلاة ومناسكة ، وللاخلاق أشار بالصبر على البلاء من القتل والخوف والجوع وقصص الأموال كما تجرع ابراهيم صرارة فراق الوطن ، وقامى الابتلاء والمحنة بالولد ، إذ أمر بذبحه ، وذاق الأمرين ، إذ أتى في النار وابتليت هاجر بنقص الثمرات والجوع فلم يكن للسلم بد من التقليل في العالوم الشريفة من علاويات وسفليات ومن امتطاء غلب الحد في فهم الكيمياء التي أشارها تقطيعه للظفر وتحليله لأجزائها فيما يمر عليك في هذه السورة ، وليكن المسلم مخلصا لله فلا يهرب الموت في سبيل الله ولا يتحاشى نكبة فراق الوطن العزيز إذا سيم خضا وأرغم على الذلة ، فالصابرون لهم البشرية في الدارين ، حياة المؤمن الحسني بين نعمة يشكرها وقمة

يصبر لها ، والشكر يشمل ترقية العقول بالعلوم والنظر ، والعلم والعمل ، والصبر في الأخلاق ، كاللحم في الطعم فيه المشجاعة في الجهاد ، والعفة للفقراء ، والقناعة للأغنياء ، وسكون النفس ، وثبات الجأش . الصبر إيمان صرغوب ، أو على مكروه ، أو في عمل ونصب ، وللاول قص الثمرات والأموال والجوع ، والثاني هلاك الأتس ، والثالث الصلاة والنظر في السموات والأرض والعلوم والحكمة .

الكلام على قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون »

وما مناسبتها لما قبلها وما بعدها ، وایضاح هذا الموضوع الذي ذكرت فيه هذه الآية

اعلم أن الانسان في هذه الحياة خلق محبا لأن يصلوا إلى أقصى مقام من السعادة والشرف والراحة ، وأعظم السعادة أن يكون الحى منا شابا لا يهرم ، وغنيا لا يفتقر ، وصحيا لا يمرض ، وحيا لا يموت ، وجيلا لا ينجس ، وهذه مرصوفة في جبهة كل حى من بنى آدم وإن لم ينطقوا بها ، وقد خلقنا في الأرض وليس فيها ذلك ، فنحن عرضة للمرض والفقير والموت ، وقص المال والأنفس والثمرات ، وموت الأولاد ، وفقد الأحباب ، وكل ذلك محزن . بلايا ، ونحن اذا احتملنا فكالحيوان يموت ولده فيهلك حزنا عليه حتى اذا طال الأمد نسي الوالد الولد فذكرنا الله بهذه الآيات وقال : « وبشر الصابرين » الذين يشكرون في أمر الدنيا ويطلبون ان الله هو المعطي وهو الآخذ . هذا هو ظاهر القول ولكن سره الذي عرفه حكماء الاسلام وان كان ملخصي عليهم أعظم ان الانسان يتحمل هذه المصائب ويتواليا عليه تقوى نفسه وترضع وان لم تشعر بذلك ، ومن لم تصبه المصائب يكون أشبه بالذهب الذي لم تهذبه النار ، ولم تصفه حيا ولادينا ، بل هو تبر في القرب مدفون ، وعن الأنظار مكثون ، أما الرجل الذي أدبه الدهرفانه تقوى عزيمته ، ويتخذ من الحوادث درعاقيه العاديات ويجتقيه الكارثات ، ويرتقى الى ما استعد له من الدرجات ، وكلما كان الاحتمال أكثر كانت الروح أعلى وأشرف .

واعلم أن هذا التقرير الذي ذكرته لك ملخص كتب قرأتها عن اليونانيين والاوروبيين وأسلافنا ، وولفته اني لأعجب للقرآن كيف يأتي بتلك الثمرات الناضجة بحيث ينسني للعامة أن يفهموها ، وللعلماء أن يبحثوها ، يقول الله « وبشر الصابرين » وهذا هو الذي يحث عليه علماء الخافقين قبل نزول الانجيل فضلا عن القرآن وقال أكابر الحكماء : « السعادة منوطة بالمصائب وتحملها » . وقال أرسطاطاليس في كتابه الفنى أرسله إلى الاسكندر مامعناه : « ان الناس يتحملون المصائب ولكنهم لا يتحملون النعم ، ان النعم قبيحة على الناس تصبهم » ثم أوضح ذلك فقال : « اذا رأيت أمة أغدقت عليها النعم ، وجانبها النصب والتعب ، وأبطلها الرخاء ، فلتعلم أن ساعتها قد اقتربت وأجلها قد أوشك أن ينتهي ، فأما تلك الأمة التي أصابها الجهد بسبب الحرب ومقرعة الأبطال في الميدان ومخاربه عدوها الغادر الفاتك فأنها تنشط من عقابها ، وتستعد لسعادتها ، وتبني مجدها ، ومادامت عاملة ناصبة فإن اتسع لها العيش واستراح بالها جرعها الراحة كأس العذاب ، وذاتت من القلة أنواعا ، ومن المهموم أوفى نصيب . وأنت ترى أن الذين ناصبهم دهرهم العدا في أول حياتهم هم الذين قارعوا الأمم بياسهم ورفضوا أنهم ، والأشكال على ذلك كثيرة يعرفها كل ذى عقل وفكر منسبره ثم تجب كيف ذكر آية الذين قتلوا في سبيل الله وأنهم ليسوا أمواتا بل أحياء في غضون الكلام على الصبر على المسكاره ، والابتلاء بالجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، فما الحكمة في ذلك ؟ وإذا قلنا ان أمر القبيلة انما هو تصحيح عبادة وهي الصلاة ، وأن الصلاة مامعها من أركان الاسلام يقصد بها تهذيب النفس ، وأن الصبر والابتلاء بالجوع ومامعه مقويات للنفس فوق الصادات ، فأى مناسبة لذكر أن الأموات أحياء ؟

أقول : اعلم أن هذه الآية ذكرت هنا لأمرين : الأول أن يتعزى المؤمن ، وهو في حال الشقاء ، والنصب

والبلاء ، والمصيبة ، ويقول أنا الآن وإن كنت في بؤس ، وقص في الأموال والنفس ، وفي المصائب ، فإن يوم الموت يكون سعادتى ، ويكون حظى موفورا فلا أحتاج للمال ، ولا يفارقنى الولد ، ولا يفاجئنى الصدوق وأكون بعيدا عن المصائب والبلايا ، وهو يوم سعادتى ، والثانى : ان هذه المصائب أشبه بالأجنحة تطير بها الروح في عالم السعادة في الدنيا والآخرة كما سأذكره في لغز قابس ، فلما ذكر الروح حاطها بما يقو بها من جانبها كالطائر يطير بجناحيه ، فتأمل في هذا الكلام كله تجده مخالفا للألوف عند العامة ، فبينما يقولون ان الرضاء سعادة ، يقول الحكماء والكتاب السماوى كلا فالبشرى للصابرين على المصائب ، وبينما الناس يقولون ان الموت مصيبة يقول الحكماء كلا فالموت خلاص من أسرار الطبيعة وذل المادة ، ويقول القرآن : بل أحياء عند ربهم ، ويقول في آية أخرى « فرحين بما آتاهم الله من فضله » الآية ، ولذلك قول وهل في هذه السورة من دليل أوشبه دليل يرجع إليه العقل عند لردة التحقيق بالحكمة والبرهان العقلى ؟ أقول : اعلم أنه قد كنز الله لتلك في هذه السورة كنزين عظيمين خباهما عن الجهلاء ، وأرأهما للعلماء هذان الكنزان متى كشف غطاؤهما أبصرت البرهان فيهما ، هذان الكنزان يكتنفان هذه الآية من بعد كما خبا الله الكهول به ، وأسرار العناصر الأرضية ، والتنويم المغناطيسى ، حتى جاء أجلها فبرزها للناس هكذا هنا في هذه السورة أودع كنزين لسر الروح ، وقد أراد في هذا الزمان إبرازهما ، والكشف عن حقيقتهما ليرتقى المسلمون في أنواع العلوم الشريفة .

ماههما الكنزان

أما أحد هذين الكنزين فهو في أوائل السورة في قصة البقرة ، وقوله هناك « قلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى » ، وقد قدمت هناك في تفسير الآية ملخص علم استحضار الأرواح فلا أعيد ذكره ولتلك قال عقبها « ويربكم آياته » أى ان هذا العلم سيظهره الله للناس متى جاء وقته والافلماذا يقول : ويربكم آياته عقب أحياء الموتى ، ثم يقول لعلمكم تعقلون : أى تدركون ان الأرواح حية بالمعانية التى تعرف عقولكم بها حقيقة أن الأرواح حية ، وأما الكنز الثانى فهو ما سأتى قبل آخر السورة ، وهى مسألة المزير وحماره ، وأنه قال الله له وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس الخ ، ومسألة الخليل إذ « قال رب أنى كيف يحيى الموتى قال أول توأمين قال بلى ولكن ليطمنن قايى » ثم أمره أن يبعث ويحدث في تشریح الطيور وقطيعها وخلطها بسما ، وذلك أشبه بالتحليل والتركيب الكيماويين الدالين على نظام هذه المركبات وأنها مبدعة ممتدة ، وفى ذلك من العجائب والبدائع ما يعجز الناظر حتى يقتنع بأن الذى أبدع هذه الصور ، وهى منظمة لا يخلق هذه الأرواح سدى فيخلقها ثم ينفها الى الأبد ، فذلك وان لم يكن وسيلة فى عمل الخليل الى رجوع الأرواح الى أجسادها ، ثم حيت الطيور فلن تلك الوسيلة التحليلية من الدلائل الاتقاعية وان لم تكن يقينية .

ولذلك قول هذان ليسا كنزين ، لأن الناس جميعا يقرؤنها ومعناهما ظاهر ، أقول على رسلك وهل يدور فى خلد أ كثر الناس أن الآية الأولى ، وهى التى فى قصة القليل والبقرة ذكرت كالدليل العقلى على أن الأرواح أحياء ، كالأرواح السمية المروية عن نبي إسرائيل ، وهذه لا يعرفها العقل ألبتة ، فلما انتشر خبر استحضار الأرواح فى العالم المحيط بنا قلنا هذه تشير الى الدليل العقلى ، لأن الاستحضار فى العالم الانسانى منتشر بطرق غير ملجاء فى القرآن فلننظر فى ذلك ، وهكذا من ذا الذى يدور بخلد من المتوسطين ، أن مسألة الخليل وقطيعه للطير كالدليل الاقاعى على علم بقاء الأرواح بلعتبر أن هذه الصور المتقنة لا يتصور العقل أن تخلق عبثا فلا بد من بقائها والآيات متباعدتان عن آيتنا إحداهما قبلها والأخرى بعدها مع البعد

الثلث حتى لا يظن لها الامن هداهم الله ، ثبت أنهما كثران لمن يقولون ، واعلم أن هذه الآيات المسكوتات من أسطر تعد على الأصابع لا يعرف قدرها الاقليل .

واقول : ان القرآن لن يعرف قدره الا أحد رجلين رجل اطعم على كتب أ كابر الحكماء ، ورجل صفت سريرته ، فأدرك الحقيقة ناصحة حقية ، والدليل على ذلك أن هذه الآية احتوت على ما أطلق به قاسم اليوناني في لغزه مع أن الآية أسهل لفظا ، وأقرب متاولا ، يدركها لخاص والعام .

لغز قاسم وهو فيلسوف يوناني عاش قبل الميلاد بخمسمائة سنة

[محصل اللغز] : أن هذا الفيلسوف صور صوراً رمز الى ما يعانيه الآدميون من الآلام والآمال ، فيها امرأة بكاء خرساء صماء رعناء جاهلة جالسة على حجر مرصع ، وحوطها قوم تأخذ من هذا ، وتعطى ذلك بلا عقل ولا روية فيفرح الآخذ ويحزن المعطى ، ومنها نساء جيلات حاليات بهيمات ، قد حظى بهن أناس من أولئك الذين أخذوا من تلك للرعاية على سبيل المصادفة ، ومنها نساء باقيات حزينات لابسات ثيابا باليات ينتفن شعورهن ، ويلطمن خدودهن ، وقد نحت الأبدان ، وتغيرت الألوان ، وحالت الأحوال ، ومنها نساء غير جيلات ، ولا عابسات بشرن إلى طريق في الجبل ليهدين الناس إلى ارتقائه ، ومنها أناس ظالمون ظالمون هذا الجبل ، وقوم آخرون لم يتقدموا على العروج إليه فرجعوا خائبين ، فأما المرأة البكاء ، فقلق إنها لخطا فانه يكون للناس بلا قانون ، ولا قاعدة ، والحظوظ هي الأموال ، والولد ، والجاه ، والصحة ، والأصحاب ، والقدرة فكل ذلك يأتي وينهب ، فمن حاز فرح ، ومن حرم من ذلك حزن ، وأما النساء الجيلات ظننها مماثل للذات والشهوات التي يتلبس بها من أعطته تلك الحقاظ حقاظ مما سلبته من غيره ، وأما النساء البائسات فانهن تمثيل لأولئك الذين أصاعوا المال والصحة في نيل أوطارهم ، ثم أصابهم الفقر ، أو المرض ، أو القتل فانهن يندمون ويحزنون ، ثم يصبرون دجالين كذابين ، فهذه صورة قدمهم على أيلم قدرتهم ، وأما النساء اللاتي بشرن إلى طريق في الجبل فانه ساهن الأدب المزور : أي ان النساء تمثيل له ، والأدب المزور هو جميع العلوم التي يقرؤها الناس في المدارس من فلك وطبيعة وأدب وشعر . قال : لأن أهل العلم لم يزيدوا عن أرباب المال شيئا ، وإنما العلم نوع من التروة قال بدليل أنا نرى الثراء ، وعلماء الفلك ، وعلماء الأدب واللغة وأمثالهم يكذبون ويشتون ويبتون في الأرض فسادا فلسفه الأدب المزور ، فاذا عمل العلماء بما علموا وصبروا في هذه الدنيا على ما أصيبوا أصبحوا أحرارا ، وهذا هو المقصود من السعادة ، وأما الإشارة إلى طريق الجبل فان قليلا من أهل العلم من يعمل بما علم ، وللمراد مما ذكرنا أن الصبر والتحمل والاستهانة بالمصائب هي التي تسعد المرء في الدنيا فمن كملت نفسه ارتقى الجبل ، ولبس تاج السعادة ، ومن سئم العمل والمشقة رجع من نصف الطريق التي سلكها بإشارة أولئك اللاتي هدينه إليها فصار التحمل والصبر سبيل السعادة ، وقد يدركها الجاهل ويحرم منها العالم ، أما الصحة والمال والجمال وأمثالها ، فانها كالليل والنهار ، والشتاء ، والصفى تأتي على البر والفاجر ، والسعادة ما قررناه ، فانظر كيف أغنى الله المسلمين عن ذلك بهذه الآيات ، وجعل تلك السعادة قوله « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » فتعجب من العلم في القرآن انتهى .

هذا تحقيق في شأن الصفا والمروة

الصفا والمروة جبلان بمكة عليهما صنبان ، فضي الصفا اساف ، وهي المروة نائلة ، وكانا يعدان في الجاهلية فخرح المسلمون أن يسعوا بينهما وتجاوزهما الأنصار من قبل ذلك ، فلقد كانوا يهلون لمناة التي تجاه قديد

وهو موضع في منازل طريق مكة ، ومائة كانت للأَنْصار ، والصفاء والمروة كانا لأهل مكة ، وكان الأنصار لا يتطوفون بالصفاء والمروة كراهة ما عبده غيرهم ، فنزلت الآية للفريقين (ان الصفاء والمروة من شعائر الله) الآية ، واجماع الأمة أن السعى مشروع في الحج والعمرة . وقال أحد انه سنة ، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهما لقوله (فلا جناح عليه) فانه يفهم منه التخيير ، وعن أبي حنيفة أنه واجب يجبر بالهم ، وعن مالك والشافعي أنه ركن لقوله ﷺ « اسعوا فان الله كتب عليكم السعى » .

(المقصد التسع)

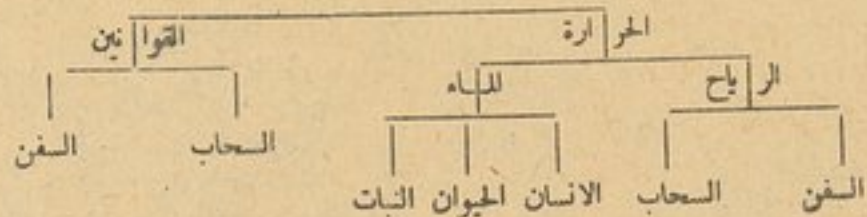
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ
أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ
اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ * وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَتَضَرِيفِ الرِّيَّاحِ
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا) كاحبار اليهود (من البينات) كآيات الدلالات على أمر محمد (والهدى) ما يهدي إلى وجوب اتباعه (من بعد ما بيناه للناس) لخصناه (في الكتاب) التوراة (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) أي من يتأذى منهم اللعن من الملائكة والتقليين (إلا الذين تابوا) عن الكتمان وسائر الذنوب (وأصلحوا) ما أفسدوه بالندارك (وبيَّنوا) ما بينه الله في كتابهم (فأولئك أتوب عليهم) بالقبول والمغفرة (وأنا التواب الرحيم) المبالغ في قبول التوبة (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) أي ومن لم يقب من الكافرين حتى مات (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) استقر عليهم اللعن من الله ومن بعد بلعنه من خلقه (خالدين فيها) أي في اللعنة أو النار (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) يهلون (وإلهكم إله واحد) خطاب عام : أي المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يعبد ، ويسمى إلهاً (لا إله إلا هو) تقرير للوحدانية (الرحمن الرحيم) أي المولى لجميع التمس كلها أصولها وفروعها ، ولما نزلت هذه الآية تعجب المشركون . وقالوا ان كنت صادقاً فآية تعرف بها صدقك فنزل (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) فاقههما كقوله تعالى « جعل الليل والنهار خلفاً » واختلافهما بالطول والقصر والزيادة والنقصان بحيث يزيد النهار ماقص من الليل ، وبالعكس كما ستره ، ومن عجب أن النهار في السنة كلها والليل يتساويان : أي أن ساعلت أحدهما في السنة تساوى ساحت

الآخر (والفلك) السفن ، ويطلق على الواحد والجمع (التي تجرى في البحر بما ينفع الناس) أي يهدى
 بنفهم مما يجعل فيها • وقوله (وما أنزل الله من السماء من ماء) السماء هنا السحاب ، لأن كل ما علاك
 فأظلك فهو سماء ، ومن الأولى للابتداء ، ومن الثانية للبيان • وقوله (فأحيانا به الأرض بعد موتها) أي
 بالنبات • وقوله (وبث فيها من كل دابة) عطف على أنزل : كأنه استدلت بنزول المطر وتكوين النبات ،
 وبث الحيوان في الأرض • وقوله (وتصريف الرياح) أي في مهابها وأحوالها (والسحاب المسخر)
 المذلل • وقوله (بين السماء والأرض) أي في الهواء • وقوله (لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون فيها
 وينظرون إليها بعيون قلوبهم ، وعنه عليه السلام «ويل لمن قرأ هذه الآية ففج بها • أي لم يتفكر فيها .
 في هذه الآيات وجوب نشر الفضيلة والعلم . ودكر الوعيد على من كتم العلم ، من كتمه فهو ماعون محروم
 مطرود من رحمة الله عز وجل ، ثم أعقبه بأجل العلوم وأشرف الحكمة ، وهو ان في خلق السموات والأرض ،
 ولقد شرحنا هذه الآية في كتاب التاج المرصع ، وأبنا كيف أبانت نظام العام العلوي والسفلي وارتباطهما
 وتماشقهما ، وكيف بدأ بالفلك ونهى بعلم الطبيعة وجعلها منظمة كأنها أنسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد
 قترى كل كائن مستمدا من سواه ، فأختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها في البروج الشمالية والجنوبية
 يدعو الى اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار المتباينة وهبوب الرياح ، قترى الأمطار تنساق من السماء تبعا
 لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لنا موس الأفلاك وسير الشمس في البروج فتنشأ بمالك النبات والحيوان
 والانسان من ذلك الماء وتهب الرياح فقسير السفن كاتسبر السحب ، ولكل قوانين في سيره ، قترى السفن
 لن تتجاوز ما رسم الملاحون في رسومهم من الخطوط البحرية ، ولن تعدو السحب طريقها المرسوم طبا بالنواميس
 الطبيعية رحمة للناس ، وهذا جميعه مرتبط بالعلويات ، وكيف تسير السفن بالإالقوانين البحرية المستخرجة من
 علم الأفلاك ومراقبة الأطوال والعروض والتجوم ، وسير الشمس ، وملاحظة الأجرام العلوية وتخطس الابرة
 المتجهة الى القطبين ، أم كيف يتحرك السحاب بالإلرياح وهي المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العلوية
 فوجع الأبرس كله الى أصل نجم عنه فرعان كلاهما له فروع ، الأصل اختلاف الليل والنهار بالحركات الفلكية ،
 والفرعان القوانين المودعة في الأجرام العلوية والحرارة المنبعثة على الكرة الأرضية ، ومن الأول نشأ فرعان :
 سير السحب وسير السفن بالقوانين البحرية لأجل التجارة وتبادل المنافع بين الأمم فيأخذ الشرق ماينت في
 الغرب ويأكل الغربي ماينت في الشرق ، ومن الثاني فرعان : إثارة الهواء والمافرك الهواء السحاب والسفن
 وتبخير الماء بالحرارة فضلا في الجو فهبط ماء على اليابسة وكان الحيوان والنبات منه ، وهذه صورته :

الفلك



قترى هذا العالم على هذا النسق ككرة واحدة وشكلا واحدا يحتاج أدناه الى أعلاه والأعلى مفيد للأسفل
 والأسفل مستمد من الأعلى مستفيد منه كما ظهر في هذا الشكل ، وإذا كان هذا شكل النظام الذي في عالمنا
 فمن الأقرب للعقول أن نهج النظم الأخرى على هذا النمط ، وعليه أصبح هذا العالم لدى العلماء والمفكرين
 كجسم واحد له روح وقلب وأعضاء متحركة وحجارة ، وهل دورة المياه والرياح لمسخرات ودورات الشمس
 والأقمار إلا كما يدور الدم في أجسامنا ، فإذا أبصرنا بمقولنا أدركنا العالم كأنسان واحد وحيوان واحد له رأس

وأعضاء رئيسة ورسومة « ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة » ولا يعقل هذا إلا من درس من كل فن طرفا ثم مزج العلوم وربطها ثم وازنها فهناك يدرك هذا القول ، ولا جرم أن الجسم الواحد مدبره واحد فترتبط العوالم واستمدادها يدل أن مدبرها واحد .

وتأمل كيف يقول : « وإلحكم إله واحد » الخ ثم يحق به هذا الشكل المنتظم من الكائنات الصائرة منها واحدا ، فهاهوذا يقول : إلحكم واحد ، ولن تستشعروا هذه الوحدة إلا إذا قرأتم العلوم وعشتم بها وصوّرت في عقولكم شكلا منظما كما وضعناه فتدركون مزاجه وبسده ومنه تعرفون أن المدبر واحد ، ولقد رأيت علماء اليونانيين يظنون بأن العالم واحد ، ويرهنون يراهين قاعة يابسه خلت من العلوم والحكمة على عادتهم في مثل ذلك وقسموه أعرافا وأفلاكا وجواهر ، ثم يقولون : لن يمكن في العقل وجود سوى ما رأينا ، فإذا كثرت العوالم فهي من هذه الأجزاء ، ولم أرهم يحومون حول ارتباطه الطبيعي ، هنا دعا الله الناس للدين بالعلوم الكونية كما دعاهم أولا بها في قوله : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » وما بينهما كان مناضلة اليهود بالحنج وتأسيس دين الاسلام على قواعد إبراهيم ، ومن هذا نحكم كيف أصبح المسلمون أبعد للأمم عن مطالب القرآن ومقصوده .

ايضاح الكلام على قوله تعالى : وإلحكم إله واحد الخ

أما الزحديانية فقد عرفناها فيما رأيت من النظام في أحوال العالم فيما ذكرته في هذا المقام ، وأما الرحمن الرحيم ، فقد مرّ الكلام عليهما في أول الناصحة ، وأما الكلام على السموات ، فقد تقدّم في الكلام على قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات » ، أما الكلام على الأرض .

فاعلم أن كرة الأرض طبقات ساف فوق ساف متلبدة مختلفة التراكيب والحلقة .

فهي محفور ، وجبال صلبة ، وأحجار وجلاميد صلبة ، وحصى ملس ، ورمال جريشة ، وطين رخو وتراب لين وسبخ وشورج كل منها مختلط بالآخر أو مجاوره ، قال تعالى « وفي الأرض قطع متجاورات » ، وهذه القطع مختلفات الألوان ، والطعوم ، والروائح ، والمنافع ، ومن طينها وترابها ، وأحجارها ، وجبالها حجر وبيض وصفر ، وخضر ، وورق اختلفت اختلاف الألوان المكوّنة للون الشمس المشرق عليها ، فقبل بعضها الحرة وبعضها الصفرة ، وهكذا كما قبل قوس قزح تلك الألوان ظلها ، قال تعالى « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والنواب والأصنام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » ، ومن طينها وترابها ما هو عذب المذاق ومرّ الطعم ، أو مالح ، أو عفص ، أو حلو ، أو سامض ، ومنها ما هو طيب شمهها ومنقح رائحتها ، ثم إن الأرض بحملتها كثيرة التخديخل ، والتجاريف والعروق ، والجداول ، والأنهار داخلها وخارجها كثيرة الأهوية والمغارات والكهوف ، وهذه مملوءة من المياه والينابيع ، وتكون طعوم تلك المياه ، وروائحها ، وغلظتها ، ولطافتها ، وقلتها ، وخفتها بحسب تربة بقاعها وطين مكانها ، ووجود قرار مستنقعاتها ، وفيها من المادن ما يتكوّن في الطين والتراب ويتمّ نضجها في سنة أو أقل ، كالكبريت ، والملح ، والشب ، والزاجات وما أشا كلها ، ومنها ما يتكوّن في قعر البحار ، ولا يتمّ نضجها إلا في سنة أو أكثر منها كالتر والرجان ، ومنها ما يتكوّن في كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، ويخلل الرمال ولا يتمّ نضجها إلا في السنين الطوال كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، ومنها ما لا يتكوّن إلا في أملا طويلة كالباقوت والزبرجد والعقيق وما أشا كلها .

واعلم أن الناس على قسمين خاصة وعامة ، فالعامة لا يعرفون من المطالب إلا ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ، ولباس ، ومسكن ، ودواء ، فالجوع ، والعطش ، والعري ، والمرض التي تحدث لهم تلجئهم إلى طلب تلك المطالب ، وذلك الألباء بما جبلت عليه النفوس الحيوانية عاتية من الاحساس بالآلام لتقد ما يحفظ الحياة

من غذاء ودواء وحجارة وما أشبه ذلك ، وهذه الآلام يظنها الجاهل قسمة ، وهي في الحقيقة نعمة وموهبة لسائر الحيوان لتعطف أجسامها ويبقى كيانها ، وهذه المطالب اشترك فيها الحيوان والانسان ، وكذلك الثابت ، وهناك مطالب شريفة ومنزلة عالية نام عنها الحيوان والجهال وأغرم بها وهنقتها الحكماء وأكابر الرجال ، ألا وهي مطالب العقول من الجهانب والبدائع والنظام الجليل والجمال الابداعي ، فهذه المطالب غابت عن أبصار الجاهل ، واشتاقها العلماء ، ولأضرب لك مثلا بالأرض التي ذكرنا بعض عجائبها ، ان الجاهل لا يبصر بها ويرها أصرا لاقيمة له مزدراة لانه لا يفرح إلا بالمنوع عنه ، أما المبدول له الحاضر بين يديه فانه مبتذل مكروه مسبوذ ، وكلما كثرت النعم وحضرت كان الشكر عليها أقل والفرح بهامدوما ، وكلما تابعدت المطالب ، ووعرت طرفها كان الفرح بها والشكر عليها موفورين ، فالأرض والطواء وضوء الشمس وجبال النجوم والأنوار حاضرة عند الناس ، وهي النعم العظيمة والمواهب الكبيرة ، بل السمع ، والبصر ، والنعم ، والفوق ، والعقل والبصر كلها نعم مبدولة ، ولكن أكثر الناس لا يعدونها نعمة ، ولا يفهمون بها ، ولا يشكرون إلا بما تضر ، ثم نالوه من طعام وشراب ودينار وامتياز الانسان عن حوله بثوب ، أو ملبس ، أو صاحب ، أو حبيب ، أو سلطة عليهم الى غير ذلك ، وعلى ذلك ترى الأرض لا يلتفت اليها الجاهل ولا يعدونها نعمة ، وغاب عنهم هذا الجلال البديع الذي يخرج منها ويصدر عنها ، فذلك المروج ، والنباتات ، وألوانها ، وابدانها ، وتلك المعادن واختلافها والمياه وأنواعها كلها من نعمة الله في خلق الأرض ، ولا يزال العالم يبحث في عجائب أحجارها ومعادنها ويستخرج منها مواد البناء ، ومواد الصباغة ، والمعادن ، والأحجار النفيسة حتى تشرف نفسه بالعلم ، وتتحلى بالعرفان ، فالأرض منها الغذاء ، ومن النظر إليها العلم والعرفان ، والشكر للنعم الحكيم العليم ، ولا يزال يرتقي في العلم ، حتى يعرف أنها كوكب من الكواكب جارية كما تجرى تلك الكواكب السيارة ، وإذ ذلك يعرف أن ضوء الشمس اذا أشرق عليها انعكست أشعتها على عوالم أخرى : بل ان ضوء الأرض المنعكس منها على القمر يزيد عن ضوء القمر المنعكس منه على الأرض ، نحو أربع عشرة مرة ، وتصنع الأرض مع القمر من استقبال وتزبيح وتثليث ومحاق ما يفضل القمر مع الأرض ، فانظر كيف ارتقى العالم من النظر في أحجارها ورمالها وألوانها ، وأنهارها ، وبحارها ، ومعادنها ، واختلاف سائر عاها الى أن أدرك أنها من السيارات ، وعرف أنها مضيئة مشرقة اشراق الكواكب ، ورأى أن غيرها ينظر اليها ويحمن ويشتاق أن يرى ذلك الضوء البديع المنعكس منها الذي عكسه الماء المحيط بها ، والحصى ، والرمال ، والجبال ، فان الأرض عبارة عن كرة أحاط بها الماء ، وما اليابسة الا ثلاثة أعشارها ، وهذه اليابسة فيها رمال وأحجار وتنج مائة كم فوق الجبال ، وفي مناطق القطبين ، وكل ذلك يعكس ضوءا لامعا الى الكواكب الأخرى .

اتحاد المطالب الدينية والدنيوية في هذا التفسير

اعلم أن هذا الذي أذكره في تفسير القرآن قد اتحدت فيه مطالب الدين والدنيا والعقل والنقل كما اتحدت أضواء الشمس السبعة فصارت لونا واحدا فأشرفت الأرض بها ، ولقد أكثر الناس من قولهم هذا ينافي الدين ، وهذا ينافي العقل ، وذلك ناجم من قلة العلم ، ووفرة الجهل ، فمن جهل شيئا عاداه ، فالتبحر في العلوم ينفر من الدين لجهله به فلنا انه ينافي علمه ، والعالم بالدين الجاهل بما حوله الغافل عن خلق السموات والأرض وعجائبها يظن المسكين أن من عرف هذه الجهانب كان عدواً لله وإن الله يفتن عليه ، وما درى المسكين أن هذه السموات وهذه الأرض من خلق الله ، والله لا يحب المعرض عن التفرج على صنعه ويحب المفكرين ويقول : ان في خلق السموات والأرض الحجة . فانظر أيها الفطن كيف غفلت الأم وعميت البصائر ، ووقع في القلوب خلاف الحقائق ونام كثير من العقلاء أحقادا في غفلاتهم تائبين في سكراتهم كأنهم لا يشعرون ، وذلك

التنظر قد جمع المطالب الدينية ، والمطالب الدنيوية فأصبح ارتقاء الأمة في دينها ودنياها وسعادتها بين الأمم ومغالبتها للفرنجية في أوروبا وأهل اليابان والأمم الشرقية وأمريكا موقوفا على التبصر في تلك المطالب ، وهي بعينها المخرجة للحكام ، وللعلماء العارفين ، والأولياء ، وهي هي دين الاسلام ، فباحسرة على المسلمين ، ووا أسفا على ماضع من شباب وشيب في هذه الأمة ، وعلى أم داستها الفرنجية وأذها الطامعون لجهالة وعاطفهم وظلم ملوكهم وغفلة عقولهم ونومهم أجمعين أكتفين أبصعين .

التكلام على اختلاف الليل والنهار

أما اختلاف الليل والنهار فانه ظاهر خفي : ظاهر للعلاء خفي عن أظفار الغافلين ، يختلف الليل والنهار باختلاف الطول والعرض ، وذلك أن الشمس في شروقها وغروبها تأتي على الأماكن الشرقية قبل الغربية ، وهناك يكون الاختلاف الجيب ، فإذا أشرقت أو غربت على الأقطار المصرية أولا مثلا ، فانها تفعل ذلك بعدها ببلاد مرا كش ، فيجر الظلمات فأمريكا ، فالأقطار الشرقية كالمند والصين وهكذا ، ولكل دائرة ٣٦٠ درجة تقسم باعتبارها وللأرض درجات طول ودرجات عرض ، فدرجات الطول هي المشرقة الغربية ، ودرجات العرض تعتبر من خط الاستواء الى القطبين ، ثم ان خط الاستواء الذي يقسم الكرة بقسمين متساويين جنوبي وشمال تقطعه دائرة وسط تلك البروج وهي دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف ، وهذه الدائرة تمتد الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد ثلاث وعشرين درجة ونصف عن دائرة الاستواء وتسميان المدارين ، وهناك دائرتان قطبيتان تبعدان عن القطبين ثلاث وعشرين درجة ونصف ، وهذه الدوائر تنقسم الأرض الى خمس مناطق : منطقة شديدة الحرارة ، ومنطقتان معتدلتان ومنطقتان شديدتا البرودة ، فالحرارة هي التي بين المدارين : مدار السرطان ومدار الجدي ، وهؤلاء يسمون أرباب الظليل ، لأن الشمس تارة تكون شاهلم كأوتك الذين في السودان المصري ، فيكون ظلمهم إذ ذاك جنوبيا وتارة تكون جنوبهم وراء خط الاستواء فيكون ظلمهم شماليا ، والمنطقتان المعتدلتان هما ما بين الدائرة القطبية الجنوبية ومدار الجدي جنوبا وما بين دائرة القطب الشمالي وما بين دائرة السرطان شمالا ، وهؤلاء لانكون الشمس فوق رؤسهم ألبنة ، فيسمى هؤلاء أرباب اختلاف الظل لأن أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس في الجنوب ككأهل مصر زونس ومراكش وأهل أوروبا وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية كبلاد الرأس التابعة للإنجليز وما والاها من البلدان يرون الشمس في الشمال أبدا . فأما أرباب المنطقتين القطبيتين فيسميان أرباب الظل للموتار ، وحركة الشمس عندهم كدوران الرجا ، والظل في زمن صيفهم يدور حولهم .

واللهم في هذا المقام أن نبهت في اختلاف الليل والنهار . انك اذا نظرت الى حركة الشمس الظاهرة من المشرق الى المغرب أقيت ما كان صباحا عند قوم هو نفسه ظهرا وعصرا ومغربا وعشاء ونصف ليل عند أقوام آخرين . فالشمس في كل لحظة في غروب وشروق وزوال ونهضي ونصف ليل ، فاليوم بأكله موجود أبدا . وهذا يعرف بأدنى تأمل عند من درس قليلا من مبادئ علم الجغرافيا أو علم الهيئة . واذا نظرنا الى حركة الشمس السنوية بحسب الظاهر وهي تنقلها في البروج وأنها تبعد تارة وتقرب أخرى منا فانها تغطي ألبما على طول السنة مختلفة باختلاف الأقطار ، فأقصر الأيام قد يكون ساعة أو أقل ، وأطول الأيام يكون نصف سنة ، وأعدل الأيام ١٢ ساعة ، فالاعتدال في الأيام عند خط الاستواء وأطول الأيام في المنطقتين القطبيتين فالليل عند هؤلاء ستة أشهر والنهار ستة أشهر (وبعبارة أخرى) السنة يوم وليلة فهي ستة أشهر مظلمة

وستة أشهر مضبوطة ، فأما الأيام فبما بين خط الاستواء وما بين الدائرتين القطبيتين فانها تختلف من ١٢ ساعة إلى ٢٤ ساعة فتكون ١٢ ساعة عند خط الاستواء و ٢٤ عند الدائرة القطبية ، ثم تأخذ الزيادة في الدائرة القطبية من ٢٤ ساعة إلى شهر فشهريين إلى ستة أشهر عند القطبين أحدهما .

أوليس من العجب العجيب أن الشمس اذا جرت الأرض حولها تنظم حركاتها بنظام يتبعه هذه الحكمة الهيبة ، فرى الصيف عند أهل الشمال كأهل مصر وأوروبا يكون شتاء عند أهل الجنوب كبلاد [التاتال] ، فرى السنة كلها في وقت واحد حاضرة الصيف والشتاء والرياح والخريف كما كان في ملاحظة الأيام بفر ومغرب وعشاء ، ثم يترتب على هذا الاختلاف في الحر والبرد من النبات والحيوان والسحب والأمطار والرياح ومن المنافع والعيوب ما تحركه العقلاء سجدا ، وانظر : لو أن الشمس بقيت في مكان واحد لاحترق ولم يبق فيه شيء ، وتأمل ذلك وكيف يقول الله : « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تكونون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ولأذ كركك جدولا تعرف منه كل نهار وكل ليل من خط الاستواء إلى القطبين مع ملاحظة أن أقصر وأقل مدة للنهار هي بينها تكون الليل في ذلك المكان وكذلك في الأطول .

أقاليم يقع فيها التفاضل بنصف ساعة

عرض أرفع المتوازيات					عرض أرفع المتوازيات				
أقاليم	ساعات	دقائق	درج	دقائق	أقاليم	ساعات	دقائق	درج	دقائق
١٧	٢٠	٣٠	٦٤	١٠	١	١٢	٣٠	٨	٣٤
١٨	٢١	٠	٦٤	٥٠	٢	١٣	٠	١٦	٤٤
١٩	٢١	٣٠	٦٥	٢٢	٣	١٣	٣٠	٢٤	١٢
٢٠	٢٢	٠	٦٥	٤٨	٤	١٤	٠	٣٠	٤٨
٢١	٢٢	٣٠	٦٦	٧	٥	١٤	٣٠	٣٦	٣١
٢٢	٢٣	٠	٦٦	٢١	٦	١٥	٠	٤١	٢٣
٢٣	٢٣	٣٠	٦٦	٢٩	٧	١٥	٣٠	٤٥	٣٢
٢٤	٢٤	٠	٦٦	٣٢	٨	١٦	٠	٤٩	٢
					٩	١٦	٣٠	٥٢	٠
					١٠	١٧	٠	٥٤	٣٠
					١١	١٧	٣٠	٥٦	٣٨
					١٢	١٨	٠	٥٨	٢٧
					١٣	١٨	٣٠	٦٠	٠
					١٤	١٩	٠	٦١	١٩
					١٥	١٩	٣٠	٦٢	٢٦
					١٦	٢٠	٠	٦٣	٢٣

أقاليم يقع فيها التفاضل بشهر			
أقاليم	أشهر	درج	دقائق
١	١	٦٧	٢٣
٢	٢	٦٩	٥٠
٣	٣	٧٣	٣٩
٤	٤	٧٨	٣١
٥	٥	٨٤	٠
٦	٦	٩٠	٠

هذا الجدول تعرف منه اختلاف الليل والنهار بزيادة والقصان في الربع الشمالى من المسكونة ، فإذا كان الليل يساوى النهار وكل منهما ١٢ ساعة عند خط الاستواء في نحو الكنفوسومطره وغينا الجديدة فإن كلا منهما يزيد وينقص ساعة واحدة تقريبا في أطراف الهند والصين وساعتين في القاهرة وبعض البلاد الفارسية وبلاد الهند وثلاث ساعات في البحر الاسود وقرب القسطنطينية والبلاد المحاذية لها ، و٤ ساعات تقريبا فيما يقرب من باريس وبزلين ونحو ذلك ، و٥ ساعات في بحر الشمال وماوالاه ، و٦ ساعات فيما وراء ذلك و٧ و٨ و٩ ساعات شمال بحر البلطيق . وفيما بينه وبين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما الى ١٠ و ١١ و ١٢ ساعة ثم يكون كل منهما شهرا فشهرا في جنوب جزائر جرونلند و٣ و٤ أشهر في شمالها ثم في القطب يكون كل منهما ٦ أشهر فيكون ليل القطب الجنوبي نهار القطب الشمالى ، ونهار القطب الجنوبي ليل القطب الشمالى وكل منهما ستة أشهر ، ثم إذا كان النهار في مصر مثلا ١٤ ساعة في زيادته كان في قصه ١٠ ساعات وهكذا الليل فهناك عدل تام في الاضاءة والاطلام وعلى هذا فقص . ألا تعجب من هذا النظام الجميل وكيف ازدادت الأرض بهذه الأنوار الثلاثة المتأقفة لهجة المناظر أفلا ينظر الناس لهذا الجمال البارع والعدل والقسط والحكمة الباهرة ، اختلاف عظيم وعدل تام ، يكون الليل ١٣ ساعة عند زيادته في البلاد التي حول البحر الاسود مثلا ، وشهرا في أطراف جزيرة جرونلند ثم يجيء النهار في نوبته فيصل الى تلك الزيادة عنها أى ١٣ ساعة في الأول وشهرا في الثانى فيكون في السنة ليلة هي شهر تام ، ونهار هو شهر تام ، وهذا هو العدل الحقيقي العملى « الشمس والقمر بحسبان » ، « والنهار وضعها ووضع الميزان » ، « إنا كل شىء خلقناه بقدر » ، « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ، « والله يقدر الليل والنهار » .

هذا الاختلاف باعتبار العرض ، فانظر الى الاختلاف باعتبار الطول فأسوضه لك فأقول بعد الاجمال

السابق :

إذا طلعت الشمس على آفاق مصر مثلا كان على بعد طلوعها بالخليج الفارسمى وماحوله ساعة وفي بلاد فارس ساعتان ، وفي الهند ثلاث ساعات ، وفي غرب بلاد الصين أربع ساعات ، وفي أواسط بلاد الصين ٥ ساعات ، وفي شرق بلاد الصين والبحر الأصفر ٦ ساعات . وفي بلاد اليابان ٧ ساعات . وفي شرق استراليا ٨ ساعات . وفي كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهلدى ٩ ساعات ، وفي جزائر الملايين بالمحيط الهلدى ١٠ ساعات . وفي جزائر سندوئيش بالمحيط الأكبر ١١ ساعة . وفيما بين جزائر سندوئيش وكاليفورنيا من المحيط الأكبر ١٢ ساعة .

وعلى هذا إذا طلعت الشمس بمصر أول فصل الربيع الآتى ذكره قريبا أو الخريف كانت غاربة بين هاتين الجزيرتين بالمحيط الأكبر . ويكون قد مضى بعد غروبها ساعتان في كاليفورنيا وغرب الولايات المتحدة و٤ ساعات بالبلاد الواقعة حول خليج المكسيك وشرقي الولايات المتحدة و٥ ساعات عند نيويورك بالولايات المتحدة . وست ساعات بناحية الأرض الجديدة شرقي أمريكا الشمالية و٨ ساعات بالمحيط الاطلانطى غربى أوروبا . وعشر ساعات بباريس وجبال أطلس بالقرب و ١١ ساعة في طرابلس والصحراء الكبرى هذه هي الصورة التي يراها المفكر في اختلاف الليل والنهار ، فيينا المصرى ينظر الشمس مشرقة في أفقه يكون السندى والصينى في وقت الضحى . ومن في كاليدونيا الجديدة وقت العصر . ومن في كاليفورنيا ساهرامع صعبه . ومن في نيويورك قد نام نوما عميقا . ومن في طرابلس قام لصلاة الصبح .

واعلم أن ما ذكرته لك من هذه الساعات لا يكون تاما من كل وجه إلا في ٢١ مارس وفي ٢٣ سبتمبر من كل سنة لأن الأول أول فصل الربيع والثانى أول فصل الخريف . وهما اليومان اللذان يتعدل فيهما الليل

والنهار . ثم ان أول الصيف ٢٢ يونيه وأول الشتاء ٢٢ ديسمبر . والأول يكون أطول أيام السنة كما أن الثاني يكون أقصرها والليل على عكس النهار . « يقبل الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » .

عجائب العلم والسياسة في القرآن

كما اختلف الليل والنهار اختلف الدول والممالك ، فالأولان بالزيادة والنقصان ، والآخرون برضة قوم ورضة آخرين . لقد - بنى القول أن الشمس تشرق على أهل الشرق ، سائرة الى أهل الغرب ، جارية الى المحيط الاطلاطلي ، ساعية الى أمريكا فالبحر الأعظم هناك فبلاد الشرق ثانيا ، وانه اذا نام قوم بلاظلامها استيقظ آخرون بلهائها ، هكذا نرى العلم والحكمة والمدنية جرت مجرى الشمس ، ساعية باذلة جهدها مجددة مشرقة على أهل الشرق فكانت الحكمة في الهند ومصر وما بين النهرين في أم الكلدان والآشوريين والبلبيين ، ومن أهل الشرق كالمصريين انتقل الى اليونان ومنهم الى الرومان ، ثم لما أخذت حركة النوع الانساني قهرتهم قرعة الدين الاسلامي ، فأحدثت رجعة عظيمة أطارت النوم من جفن الانسان ، وقضت على سير الحوادث القديم ، وأبدعت طريقا آخر بعد أن ضربت باحدى يدي الدين دولة فارس وباليد الأخرى الروم ، ثم أحدثت هذه الحركة نورا حانية ولبيا ، فأما جزرها فسبق في الشرق عند الأمم الاسلامية مدفونا في عاداتهم وأخلاقهم القارية ، وأما لبها فاندلع الى أمم الغرب فأحرق الأفتدة ، وتأججت نيرانها ، وسعت الى نيل العلم والمدنية ، وشدت إليها الرجال ، وأخذت تلك التارخمتد حتى طارت منها شرارة فعلقت بأذيال أمريكا والجزائر في البحار ثم تخطت للمحيط وعلفت بأذيال أمة شرقية كرهة أخرى وهي اليابان ، وهما هي ذه تعيد سيرتها الأولى ، فهي تتخطى الى أفغانستان والهند والصين وبلاد سيبيريا وبلاد القرم والترك ومصر وسوريا ، ومعلوم أن المدنية والعلم لا يكونان في الشرق والغرب على حد سواء ، فلذا زادا في أحدهما نقصا من الآخر ، والذي يظهر أن الشرق اذا ارتقى هذه المرة يأتي بالهيب العجائب ! لأن الغرب ليس منبع العلوم والحكم والمدنية .

وقد وصل لنا من العلم عن قدمائنا أن العلم قد امتسى به من الأمم الهند والقلم والكلدان والسرانيون والبرانيون والروم وأهل مصر والغرب ، وأما بقية الأمم من بأجوج ومأجوج وبرطاس والخزر وجيلان وكشك والصقالبة والبلغر والروس والبربر ، وأصناف السودان والحبشة والزنج فلم تكن لهم عناية بالعلوم . وكانوا يسمون ملك الهند : ملك الحكمة ، وملك الصين : ملك الناس ، وملك الترك : ملك السباع ، وملك القرم : ملك الملوك ، وملك الروم : ملك الرجال .

ولقد عرفنا أن مدينة « رومة » بنيت قبل قيام أغسطس أول ملوك القيصرية بنحو ٧٢٥ سنة على ما قيل فتكون تلك المدينة حديثة العهد جدا كما أن اليونان قد تعلموا من المصريين ، فأما في بلاد الشرق فقد ظهر الكشف الحديث ، وأبان أن مدينة الهند لا يعرف لها أول ، فقد جاء فيه أن [سوروشيدانتو] الفلكي الهندي الذي نسب فلكيو عصرنا أرماده في وضع النجوم وسيرها الى زمان لا يقل عن ثمان وخمسين ألف سنة قد تكلم عن أسفار [الفيدا] وانها كتاب قديم العهد جدا .

وقد جاء في كتاب خطي كشف حديثا تاريخه قبل المسيح بأربعة آلاف سنة [في عهد النبوة الرابعة] أن أبا الهول كان مطمورا تحت التراب ، ومنسيا منذ أجيال عديدة ، وقد كشف في ذلك العصر على سبيل المصادفة ، ويقولون : ان التقاليد المصرية في الكشف الحديث لم يوقف على مبدئها بل هي متوغلة في القدم أكثر من ثلاثين ألف سنة كما أثبتته العلامة [مانيتون] وقد ورثها المصريون من شعب متعرض هولجنس الأحمر الذي منه هندو أمريكا ، وكان اقراضه بعد حروب هائلة ، وحصل إذ ذاك في الأرض انقلاب عظيم

طبيعي ، ومن آثار هؤلاء المقرضين [أبوالمول] الذي كانوا بنوه على شاطئ البحر الأبيض المتلصق بإذناك بالبر ، وهذه هي آراء العلامة [ليبلونجون وسافيل] في أمريكا الوسطى و [رولزل وجوبا نجيل] في بلاد [اللاتات] وهؤلاء عرفوه بطريق البحث والتنقيب فكشفوا ذلك وهو عجيب ، والذي بهما في هذا المقام أن أهل الشرق هم أعرق الأمم في المدنية ، ألا ترى أنه ظهر منهم الديانات والحكمة والحكام مثل [كونفوشيوس] و [بودا] نواهما والانبيا كومي وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وأوروبا لا تبي منها ولا سابقه علم معرفة قبل الرومانيين واليونانيين الذين هم تلاميذ المصريين ، ثبت من هذا أن العلم قد استدرك استدار الزمان ، وقد بدا دور الشرق بعد الغرب ، ولعلك بهذا تدرك السر في قوله تعالى في سورة آل عمران « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير ، تولى الليل في النهار وتولى النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب » .

وتجب كيف ذكر ادخال الليل في النهار وادخال النهار في الليل عقب ذكر عز الدول وذها واعطاء الملك وزعه ، وهذه الآية سيأتي ذكرها عند آية الكرمي من بذور القرآن التي أطم الصالحون أن يقرموها في الأوراد ليغتن لها الخلف ، فيرون أمثال هذه المعاني النبيلة الشريفة ، ولعل الذي حفظ السماء أن تتداعى أقطارها حفظ علومها أن يدركها الغافلون إذ قال : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » اه الكلام على قوله تعالى : والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس

هذه نعم جليلة ، وآيات عظيمة تلك السفن الماخرات في اليم الجاريات في البحر ، والأنهار العجيبة الصنع الجارية من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب الموصلة منافع الناس ، وأقواتهم من بلد الى بلد ، ومن قطر الى قطر ، وبها التجارة ونقل الذخيرة ، والأخبار من أمة الى أمة ، حتى ان أهل الكرة الأرضية بهذه السفن أصبحوا كأنهم في بلد واحد ، وأشبهوا هذا العالم كله في أن كلالا لكل مساعد ، والحق أن الوحدة شاملة لأهل الأرض كما هي شاملة للعالم كله ، والناس صائرون للاتحاد شاءوا أم أبوا ، وما الحروب والعداوات بينهم الا كما يقع المضم في الطعام في جسم الانسان ، ولقد أخذ الانسان يقرب بالأسلاك البرقية والعلوم والمعارف ، ومن عجائب السفن أنها تحمل المدافع والحديد وأنواع المعادن وصنوف البضائع ، وهي تجري فوق الماء ولا تترق الاعراض ، واعلم أن هناك ناموسا ثابتا علما به حفظ الله السفن من الفرق ، وأعطى السمك قوة بها يطفو ويرسب ، وتلك القاعدة أن الجسم اذا كان أخف من الماء المساوي له في الحجم فإنه يطفو ، وان كان أثقل منه كالحديد فإنه يرسب ، وان كان مساويا فإنه يكون بسطح الماء عند العموم فكانه ماء ، وهذه هي التي أعطيت للسمك من المواهب العجيبة فلسمة متفاح تجده داخلها اذا شرحتها ، أو هذا المنفاخ يملوه هواء ، فإذا أرادت أن تطفو على سطح الماء فتخته فكبر حجمها فطفت ، وان أرادت أن تنزل الى أسفل ضغطت على ذلك المنفاخ فصغر حجمها ، فنزلت إلى أسفل لأنها صارت أثقل من الماء المساوي لحجمها ، وهكذا تفلو وترسب على حسب حاجتها كما يضيق الانسان عينه ، ووسعها على حسب النور قلة وكثرة ، وعلى هذه القاعدة جرت السفن في البحار ، فاعلم أن السفينة الشراعية الجارية في الأنهار اذا وزناها هي وما عليها كانت مساوية لثاء الذي حلت مكانه في البحر فان أثقلها حتى زاد وزنها عن وزن الماء المساوي لحجمها غرقت ، والسفن الحاملات للمدافع والتسائر والبضائع على هذا النمط في البحار العظيمة الاطلاقية ، والهندي ، وبحر الصين ، والبحر الهادي ، والاساطيل الجاريات كلها على هذه القواعد جاريات ، وكل سفيتين جاريتين فان نسبة سعة مقعر إحداها الى سعة مقعر الأخرى كنسبة قتل إحداها الى قتل الأخرى ، ومعلوم أن حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين ، وهنا تكون النسبة الهندسية .

وأما قوله تعالى : وما أنزل الله من السماء من ماء فأجابه الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة فاعلم أن الله عز وجل جعل اتحاد الماء بالعناصر الأرضية سببا لخروج النبات المختلف الأشكال والألوان والأزهار والأشجار ، فكان منه الرياض والجنان والرياحين والهبة والرونق والحسن والجلال ، ومن عجيب أن يكون الماء والأرض والحرارة باتحادها تحدث هذه العجائب التي لا يعرف آخرها ولا يدري منتهىها . والنبات منه الشجر والنجم والزرع والكلأ والخشيش ، وكل واحد متنوع أنواعا كثيرة ، الشجر كل نبت يقوم على ساقه منتصبا أصله مرتفعا في الهواء ويدور عليه الحول لا يحف .

وأما النجم فهو كل نبت لا يقوم أصله على ساقه مرتفعا في الهواء ، بل يمتد على وجه الأرض أو يتعلق بالشجر ويرتقي معه في الهواء كي يحمل عنه قلا أثماره كشجر الكرم والقرع والقناطير والبطيخ ، واعلم : أن جميع النبات والشجر لا يختلف الا لاختلاف المواد الداخلة في تركيبه ، فترى القطن والقمح والبرسيم من البوتاسا والسودا والجير والمنيسيا ، وحض الفوسفوريك ، وحض الكبريتيك والسلكا والكلور ، وإعصار هذا قطا نلبسه ، وهذا قحنا تأكله لاختلاف المقادير الداخلة في تركيبها ، قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء فأجابه الأرض بعد موتها » ليس يستوعب علمها الاعلاء اختصوا بهذه المباحث ، وسعد عليك في هذا الكتاب شذرات من هذه العجائب عند قوله تعالى « أو كالتنقيس على قرية وهي خاوية على عروشها هل أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم ينسنه وانظر إلى جارك » الآية فنرى هناك عجائب الكيمياء العضوية ، وكيف اختلفت المظاهر لاختلاف التركيب ، والمقادير إن الله سريع الحساب .

ولكن لا بد أن أوقفك على بعض العجائب العلمية هنا ليكون كالقائمة ، لما سأذكره هناك من مسائل الكيمياء العضوية ، وكيف كان اختلاف النبات لاختلاف التركيب فنقول : اعلم أن الله عز وجل خلق المادة وتوعها أنواعا وأجناسا وفصائل ، فخلق منها النبات والحيوان ، وهما عالم باهرة ، فمن نبت لا يكاد يرى وحيوان دقيق لا تدركه الأبصار الا بالمنظار الى شجر النخل ، وشجر الغابات العظيم ، والى القليل عظيم الجنة كبير الحجم هائل القوة ، وبين ذلك من الغرائب ما يحير العقول حتى أنك لتجد أعلم الناس وأقدرهم على علوم الحكمة يقف مبهوتا حائرا أمام البقرة والبقيل ، ترى الناس يتعجبون من خلقه القليل اذا رأوه ، وهم قد حلوا أبناءهم على العربات الى الحدائق التي فيها الحيوان كحديقة الجزيرة ببلاد مصر ، ويقولون قرح يا بني على هذا القليل ، والأب والأم والخدام يضحكون ويضحون ويبحون ، وهم غافلون ، ولا يعرفون الا أن القليل كبير الجنة له أربعة أرجل وخرطوم ونايل خارجان ، وقد فاتهم أن البقرة الحقيرة القذرة الدنيئة المنزلة التي ينفر الانسان من منظرها وتؤذيه في فراشه ، وهي من الدلائل على أن منزله قدر مع صغر حجمها أعجب خلقته وأطرف صورة ، فلها ستة أرجل ، وخرطوم ، وأربعة أجنحة ، وذنب ، وفم ، وحلقوم ، وجوف ، ومصارين وأعضاء أخر لا يدركها البصر ، وهي منسلطة على القليل بالأذية ، ولا يقدر عليها ، ولا يتمتع بالتحرز منها ، وأبصار المصانع البشرية يقدر أن يصنع فيلا من الخشب والحديد والذهب وغيرها ، وهو عاجز كل العجز عن صنع بقرة ، فثبت أن صنع البقرة أدق وأطرف من صنع القليل ، وفي الحيوان ، وفي النبات من العجائب مما لا يدركه سائر الناس ، وهما عاشوا دهورا وأجيالا ، وتلك العجائب من نوعين على الأرض ، وكما عليها من معادن ، وأنهار ، وبحار ، وفوقها من هواء ، وسحب ، ويدور معها كواكب ، وشموس كل ذلك من المادة الأصلية في الكون ، فنقول : لا يقدر الناس أن يتصوروا كيف خلق الخلق من مادة واحدة الابل من أنفسهم وشاهد من عقولهم .

مثل المادة في تنوعها كمثل الصوت وتنوعه في الهواء

علم الله ضعف الانسان فألمه أن يحرك الأسنان والشفقتين والفم بالهواء الداخل والخارج لإصلاح اللحم الفاسد في الرتين يعطى له الأكسجين ويأخذ بدله المادة الفحمية المسماة بالكربون حين دخول النفس بالشهيق وخروجه بالزفير يحدث الانسان فيه حركات تسمى حروفاً، وهي تختلف باختلاف الأم ، وهي في العربية ٢٩ حرفاً تتركب من تلك الحروف كلمات فتحدث الخطب والشعر والنثر والحكم والمواعظ والتغاهم والتجارات والسياسات والمنافرات ، وكتب البيانات والعلوم والمعارف ، هذه هي النتائج التي نظمت نوع الانسان وعلمته البيان ، وهي ليست شيئاً سوى تنوع في الهواء الجوي الذي له أعمال كثيرة غير هذه فانه كما قلنا دخل في الرتين للإصلاح : أى ادخال المادة المصلحة للدم مع أنه ترسم فيه صور المرئيات ، فبرى الانسان الاشباح والصور التي تأتي للأعين من المرئيات ، وفي الهواء الحرارة والبرودة والرائحة الطيبة والخبيثة ، وفي بخار الماء الذي يتكون السحب ، وهكذا الرياح ، وهو يحمل السحاب ، ويسير السفن في البحار فليست صفة الكلام في الانسان أول أعمال الهواء ولا آخرها ، بل من تنوع الهواء تكون الموسيقى المطربة لقوم الشافية لآخرين المعلقة لقوم يقولون ، إذا فهمت هذا فاعلم أن هذا مثل ضربه الله للناس لعلمهم يقولون كيف خلق العالم من مادة واحدة ليستلوا على وحدته وقدرته ، وليعلم الناس أنه حاضر رحيم فمن رحته هذا المثال .

اعلم أن المادة كما هو رأى علماء العصر الحاضر واحدة ، يقول علماءنا الأقدمون ان جميع هذا العالم من الهوى ، والهوى كلمة عربية ، معناها القطن ، وانما سموها بهذا الاسم ، لان القطن يصلح للملابس شتى كثيرة التنوع ، وقالوا هذه المادة الأصلية لا يمكن رؤيتها ، بل هي شئ أشبه بالأمور الروحية هذا كلامهم ، وقالوا أيضاً ان هذا العالم أصله مادة واحدة متماثلة أشبه بما نرى ان الطعام بعد تناوله يصير في المعدة كيموساً متشابه الأجزاء أشبه بمادة اللبن ، فهذه المادة المتشابهة فيها جميع ما يصدر عنها من الأعضاء والحواس ، ففيها مادة العين ، والأنف ، والمخ ، والصارين ، والبطن ، والجوف ، وهي تجمع مع لطافتها وتشابهها ما بين العظم الصلب ، وما بين الرطوبة الزجاجية في العين ، ومادة المخ هذا كلام قدمائنا ، فهكذا يقولون ان المادة التي خلق الله منها العالم كانت هكذا واحدة ، ولكن قدكن فيها الشمس والقمر والأرض والمعدن والنبات والحيوان .

أما علماء العصر الحاضر فقالوا نحو هذا ودققوا أشد تدقيق فقالوا ان أصل انعام مادة سديمية دارت وتكورت على مدى السنين فكان منها تلك الشمس والارضون الخ ومنها العناصر ، بمعنى أن الموجود المسمى بالأيثر مما لا تراه العيون ولا تدركه الأدهام هو الاصل لهذه الموجودات وهذا الأيثر الذي هو أرق من النور وألطف من الجلال وأقرب الى أن يكون شيئاً روحياً كما قال أسلافنا منه تكونت المادة والكهرباء والمغناطيس وفيه الحرارة والضوء ، فهذه كلها صفات وتنوعات في المادة الاثيرية والمادة التي منها تكونت ، وبعبارة أخرى هي حركات من حركاتها لا يدري كيفيتها ، قد شكلت الى عناصر كالحديد والنحاس والذهب والفضة والراديوم والاكسوجين والأدروجين والأوزون والكربون . وبالجملة تلك العناصر تبلغ فوق السبعين نوعاً كما تنوعت الاصوات الخارجة من الفم في المثال المتقدم الى الحروف الهجائية بحسب اختلاف الأم فبلغت بتركيبها الى نحو أربعة آلاف لغة ذات فروع شتى وكلها ترجع الى تنوعات الهواء في الفم ، وبعبارة أخرى لاشئ سوى الهواء المتحرك فهذه العناصر المادية تركبت منها هذه المخلوقات التي نشاهدها على الارض بنسب محفوظة وحساب متقن ونظام بدع حارت فيه العقول ، وقد وصلنا الآن الى ما قصده من عالم النبات ، والحيوان فانها عبارة عن تفان في المادة كما كان من الاصوات عجائب وبدائع ولم تزد عن كونها حركات في الهواء ، فهكذا

هنا ترى أن جميع أنواع الحيوان والانسان تتركب من العناصر المتقدمة كما تتركب الكلمات من الحروف ، ومن طوائف النبات تكون المروج والواسعات والرياض الغناء تسر الناظرين وتجبر المفكرين كما رأيت في الكلام من الخطب والشعر والمقالات فالرياض الناضرات والمروج الواسعات شعرالمادة كما كانت أقوال المتنبي وعمر بن كاثوم وأشعار هو ميروس وشكسبير شعر الهواه . والآن تقول كيف يكون النبات والحيوان من عناصر واحدة ؟

أقول : قد قدمت لك هذا القول وسأزيدك بيانا فأقول .

قد أثبت علماء الكيمياء أن النبات والحيوان يتركبان من المواد التي ليست حية وأخصها الأوكسوجين والأودروجين والأزوت والكربون وبعض أملاح أخرى ، وهذه العناصر الأربعة بمقدار تنوع المقادير فيها تنوع النباتات والحيوانات وأعضاؤها وأجزاؤها فيكون منها السم والشحم والصفراء والاعصاب ومادة السماغ والعود الأخضر والورق والخمر والحفظل والتمر والبرقال والزيت والسمغ فلا حلاوة ولا حموضة ولا دسومة ولا مرارة الا كانت مشتقة من تلك المواد الجامدة ، وبهارات أخرى هي كلمات من تلك الحروف لم تزد في المادة شيئا فلا تزال المادة واحدة واختلاف المظاهر وتغير كاختلاف الكلمات والقصائد في الهواه الجوي ان عصير العنب لا يحوى خيرا ولا مادة الخمر وهو (الكحول) انما يحوى ماء وسكرا فاذا تخمر انحل جزء من السكر وانفصل عنه ما فيه من الاكسوجين والأودروجين والكربون وتتركب هذه بمقادير جديدة بنسب معلومة محددة كالنسب التي سترها عند قوله تعالى « وانظر الى حمارك » في مسألة العزير وعند مسألة الطير ويدنا ابراهيم الخليل ، واذن ينشأ عنه المادة الخمرية المسماة (الكحول) فيصبح عصير العنب خرا بدون أن يزداد شيء أو ينقص كما صار الهواه خطبا وقصائد بكونه صوتا حروفا ولم يزد في الهواه شيء ولم ينقص ، والخبز والفواكه التي نأكلها لا شيء من السم فيها ولا اللحم ولا العظم ولا العروق ثم هي عند الهضم تتحول الى ذلك ، وهكذا الحب والنوى ليس فيهما من الورق والزهر شيء ولكن الامتصاص من العصارات الارضية والتنفس بهما يحدث تفاعل فتكون النتائج الباهرة ، لعلك أيها الفطن بهذا تعرف السر في قوله تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » فن هنا فلتفهم الكلمات بالصلم والحكمة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب » اه

ولعلك الآن فهمت السر المصون والجوهر المكنون في العناصر والحروف ، فالعناصر في المادة والحروف في الهواه ، فكما كانت لنا كلمات وخطب وقصائد في حركات الهواه هكذا كان لله عز وجل عناصر تتركب معادن ونباتا وحيوانا وكما كانت اللغات كثيرة العدد وكلامها وقصائدها ليس لها عدد ولا حد هكذا مركبات الطبايع لا تنحصر وكما أن الهواه فيه أحوال وأعمال كثيرة كالروائح والحرارة الخ غير الاصوات هكذا الأثير الذي تكوّن فيه المادة فيه عجائب ومخلوقات لانعرفها فوق ما نشاهد من السموات والارض وما بينهما « وما يعلم جنود ربك الا هو ، ويخلق ما لا تعلمون »

ولعلك أيضا تعرف أن هذا التشبيه الذي أطلت لك فيه وجعلت كل ماني المادة أشبه بمركبات الحروف من القصائد والكلمات مأخوذ من قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لايات للعالمين » فقوله : اختلاف ألسنتكم اشارة الى علوم اللغات وما فيها من المقالات ، وقوله : وألوانكم اشارة الى العناصر وما تتركب منها ، أفلا تتعجب أيها القارىء أن يكون مقالى كله من كلمتين من القرآن وقرئنا معا في جملة واحدة ليكون ذلك داعيا الى أن أشبه أحد الطرفين بالآخر ليس ذلك من العجب ؟ على أنك ستري ما هو أعجب انه يقول « ان في ذلك لايات » أى دلالات « للعالمين » بكسر اللام جمع عالم ، ولم

أرآية في القرآن على ما ذكره فيها ذكر العالمين على هذا النحو الا قليلا ، فكأنه يقول : ان هذا المقام دقيق لا يقفه الا المحققون في العلوم والدارسون للعلوم الطبيعية العاشقون للعلم المعروف بالحكمة ، فتأمل في عجائب القرآن وكن على يقين أن نبوة الانبياء لا تعرف عند أولى الالباب الا بمثل هذه الدقائق العلية وكيف خص العلماء بالعلم في هذه المسألة التي لا تعرف الا في هذا الزمان أشد معرفة ، لمثل هذا فيعمل العالمون ، وبمثل هذا فيعقل المفكرون .

عجائب التنوع والتشكل في المادة الواحدة ايضاحا لما تقدم

وأنها دلائل التوحيد لاختلافها مع وحدة المادة

من العلوم الشائع في عصرنا الحاضر أن العناصر التي كشفها العلماء تبلغ فوق السبعين ، وهي مركبة من اجتماع الذرات الاصلية وهي الجواهر الفردة التي رجعت في آخر أمرها الى حركات وتيارات يقف التعبير عنها لدقتها على العقول ، وهذه الذرات تجري بنواميس كالتي تراها في الكواكب والشموس أي انها عبارة عن دقائق جاريات بنسب مخصوصة على بعضها بنظام تام ، وبهذه النسب اختلفت أحوالها ، فالاختلاف في العناصر راجع الى أنواع حركاتها لا غير ، فلذا رأيت الهواء والماء والحجر الصلد والذهب والحديد قدراتها جميعا عند البحث العلمي لا فرق بينها من حيث انها متحركة في أرضها وان كانت ترى ساكنة في الظاهر ، وليس المراد بتلك الحركات الهوائية والمائية بل هي حركات الذرات التي لا يعرفها الا العلماء الأخصائيون بالبحث والتقيب ، فتتوحد الحركات المذكورة جعل هذا مما وهذا غير سم وهذا أحر وهذا أصغر وهذا ثقيل وهذا خفيف الى ما لا يقناه ، ألا ترى أن الصفور أبيض سام سريع الالتهاب فإذا أحيته في اناه عمك السد أو عرضته للنور في أنبوب لاهواء فيه تغير لونه إلى الحمرة ويفقد خاصية السم ولا يتهب إلا بالاحتكاك إذا حلقناه تحليلا كيميائيا لا يختلف في تركيبه عن الصفور الاعتيادي ، وهكذا ترى الكربون على أشكال مختلفة في الالماس والجرافيت والاتراسيت والكوكول ولكل منها خصائص متميزة عن الأخرى ، فيالله هل يستوى الالماس الجليل المنظر الحسن الشكل العالي الثمن البديع البهيج الذي يوضع فوق التيجان وتتحلى به الغايات ، وبه وبأمثاله يمتاز أهل الثروة والغنى والملوك عن غيرهم ، والكوكول الذي يوقدونه في أفرائهم وقطراتهم يملكه الغنى والفقير ، كلا لا يستويان ولكن العلم قد أوجب استواءهما وان كلا منهما مركب من الكربون وحده ، فالالماس كربون والكوكول كربون لا اختلاف بينهما ألبتة في الحقيقة وهي أنها لا تذوب وإذا أحرقت أنشأت حامض الكربونيك ، فأما هذه الاشكال والخواص من اللمعان والبهجة والحسن في الالماس وضد ذلك في الكوكول فلم تكن الامن تغير طارى على تحرك الذرات حسب ، وتأمل في التباين العظيم فيما بين المركبات وخواصها العجيبة . تأمل كيف اختلفت خواصها مع التركيب وهي واحدة ، فانظر خلاصة التربنتين ، والليمون ، والبرتقال ، والعيثران ، والفلفل ، والريحان ، والبقدونس ، ان هذه الخلاصات مركبة تركيبا كيميائيا واحدا ، وهوسة عشر جزءا من الاودروجين مع عشرين جزءا من الكربون ، فيالله أين خلاصة الفلفل من خلاصة البرتقال والليمون ، وكيف كان كل منهما مركبا من كربون وأودروجين ، فالكربون معروف في الكوكول والالماس كما تقدم والودروجين هو الجزء المنعم لتكوين الماء ، فالأول نراه يحترق ، والثاني نراه يميت الحيوان إذا تنفس فيه كما يعرفه من درسوا علم الكيمياء ، وفوق ذلك نرى أن سائر الانسجة الحيوانية والنباتية التي كثرت أنواعها وأشكالها وأوصافها مركبة من أربعة عناصر ، وهي الاكسوجين ، والادروجين ، والكربون ، والأوزون مع إضافة بعض الاملاح والجوامد .

فتجيب من المادة الواحدة التي رجع أصلها إلى حركات كيف كانت بسائطها تنوع تنوعاً مدتها لغير سبب معزوف التنوع حركاتها ، وهكذا مركباتها تنحو هذا المنحى كخلاصة البقدونس والفلفل وتركبها من عشرين وكالحيوان والنبات وأنواعهما المركبات من أربعة عناصر مع ما يضاف إليها ، أليس هذا يريك بأجل برهان في عصرنا الحاضر أن الوحدة ظاهرة في العالم المشاهد ، أو ليس أنواع هذه المادة مع وحدتها تعرفنا بحكمة الله ، وأن العناصر حروف والمركبات كلمات . والعالم المنظور قصائد وبخط قرؤها مسطورة على لوح الطبيعة الجميلة البهجة ، أو ليست هذه كلمات الله ككلماتنا في الهواء فتشابهنا في أن تنوعهما بتنوع الحركات ، فهذه في أثر ، وهذه في هواء ، وأن هذا التنوع عند الله كتشوع الكلمات عندنا في البسر وعدم العسر ، ولذلك جاء في القرآن « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . وفيه « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » ، وإذا كانت هذه العوالم ناجمة عن مادة واحدة كان فاعلها واحداً فإن ناظم القصيدة وقائل الخطبة يكون واحداً فاعلاً بأعضاء فه في الهواء أفعالاً مقصودة يفتح منها ذلك القول المسموع المنتظم ، فهذا العالم المنظم المكون من حركات صانعه واحد ، وهذا هو برهان التوحيد ، لأن الآية مسوقة للواحدانية « وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » الخ فتجيب من العلم والدين كيف أعدها وأتينا بالديج الحجاب ، وهذا هو يده الخلق الذي أمرنا به في قوله تعالى « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » هذا يده الخلق وتكوين العناصر والمركبات ، وبهذه الآية يجب على المسلمين أن يعرفوا أصول جميع الأشياء من بسائط ومركبات ، كعلم الأجنة ، وعلم الحياة ، وعلم الكيمياء العضوية والكيمياء التحليلية ، والادام العذاب عليهم في الدنيا أجيالاً لعلهم يعقلون انتهى . انظر تفصيل تفسير « قل سيروا في الأرض » الخ في سورة العنكبوت .

لطائف في علمي الحيوان والنبات

اللطيفة الأولى

شجر النارجيل ، وهو الجوز الهندي هيئة شجرته كهية النخل المعروف ويبلغ ارتفاعها تسعين قدماً تنبت في الأقاليم الحارة ولا سيما شواطئ بحورها ، وهي من أعجب ما خلق الله من النبات فضيلاً لأهل تلك الأقاليم غذاء وكساء ودواء ولبن وخمر وسكر وزيت وشمع وآنية ومساكن ودثر وفرش وحبال وأدوات وأسلحة وغير ذلك .

روى أحد الثقات أن مسافراً كان يجوب رمضاء تلك الأرض تحت أشعة شمسها المحرقة حيث يندر الظل فرأى بيتاً تحيط به أشجار باسقة معتدلة الأجداع على رموسها أوراق جميلة تسر الناظرين ، فدنا من البيت فرأى فيه هندياً رجب به وأناه بشراب شهى فيه طعم حوضة أروى ظمأه وأفغسه ، وبعد أن استراح دعا إلى الطعام في صحن مختلفة في جفنة [قصعة] سوداء مصقولة لامعة وسقاها خراً لذيذاً ولم يشرب مثل ذلك قط ، ثم أناه بحلواء فاخرة ثم يفرها ، فقال وقد دهش : من أين لك هذه كلها في هذا القفر ؟ قال من شجرة النارجيل ، فالشراب الذي سقتك إياه من جوزها قبل نصبجه ، واللبن الذي استطبت من ذلك الجوز بعد التصحج ، والطبيخ الذي لذت لك من أوراق تلك الشجرة ، وتلك الخمرة من عصارة زهرها ، ومن هذه العصارة كل ما يهدى من السكر ، وكل هذه الصحن والجفان والآنية التي رأيتها على المائدة من قشر جوزها ، وهذا البيت الذي أسكنه منها ، جدرانها من خشبها ، وسقفه من نسيج أوراقها ، ومظلتها من نسيج هذه الأوراق ، والنياب التي على من خيوط أليافها ، ومن هذه الألياف مناخلتنا ، وحصرنا ، وقلوبنا ، وحبالتنا . والزيت الذي نوقده في مصابيحنا عمير لب جوزها ، ولنا فيها ما يرب أخرى ، فدهش المسافر ، ولما هم بالانصراف سأله

الهندي أن يبلغ كتابه الى صاحب له في المدينة التي يقصدها ، قال : من أين لك الخبز والقرطاس ؟ قال من تلك الشجرة ، فالخبز من نشارة أغصانها ، والقرطاس من أوراقها ، فأخذ الكتاب وهو في حيرة وعجب ا

اللطيفة الثانية

نظر في عمر بعض الأشجار في اسكتلندا فكان أكثر من ثلثمائة سنة ، وأغرب من ذلك شجرة العندم [دم الاخوين] ويسمى [دم التين] و[دم الثعبان] في بلدة تسمى [أوروتواوا] في جزيرة [تيناريف] احدى جزائر كناريا في الاوقيانوس الاتلنك الذي كان يسمى عند أسلافنا بحر الظلمات من بعض جهاته لا يحيط بساقها عشرة رجال يمدون أيديهم حولها يمسي كل منهم أنامل مجاوره بأنامله ، وقد اقضى منذ كشف تلك الجزيرة الى الآن ٤٨٢ سنة والشجرة بحالها ، وقد حسب العلماء الزمان الذي خلقت فيه على حسب نمو جنسها فقال انها خلقت قبل خلق الله الانسان على الأرض .

اللطيفة الثالثة

من غرائب النباتات النباتات الهوائية وهي أعشاب لا أصول لها في التربة تتعلق على غيرها من النبات وتناول غذاءها من الهواء ، وتتمو في الأقاليم الحارة ، ومن عجيب أمرها أن زهرها يشبه الفراش والتحل وغيره من أنواع الذباب ، وهو حسن زاه يسحر الألباب ، ويسحر العقل أن يرى الانسان أزهارها على أعالي سوق كالأسلاك يحركها النسيم فيظنها فراشا يحوم على الأشجار ، أو تحلبي بنى جنى العسل من الأزهار ، ومن أزهارها ما يشاكل الزيلاء ، ومنها ما يشاكل الانسان الى غير ذلك « وفي الأرض آيات للموقنين » .

اللطيفة الرابعة : النباتات المقرسة

ومنها بعض النباتين بالحلمية ، فهذه تنشب بغيرها من النبات ، وتقتدى بصارته ، فتعيش على غيرها كما يعيش بعض الحيوانات على بعضها . انظر هذه النباتات وصورها البديعة في [سورة الرعد] عند آية : يسقى بماء واحد الخ

اللطيفة الخامسة : الفجل والبصل والخس وما أشبهها

والنخل والعبل والسنت وما أشبهها

تأمل أيها الفطن الذكي شجرة الفجل وشجرة البصل من جهة ، وشجرة الخس أيضا ، وشجرة النخل والعبل والتين وما أشبهها من جهة أخرى ، وشجرة تسمى [ثوب السيدة] من جهة ثالثة . تأمل هذه الأنواع الثلاثة من الشجر ، وتجب من أوراقها ، وأوراقها مختلفة ، فترى ورق الفجل والبصل يتلقى المطر ويجمعه ويرسله الى جذر البصلة والفجيلة ، وكذا ورق الخس وما أشبهه ، ينزل المطر فيجد الورق يوضع يصلح معه أن يجد سبيلا الى الاجتماع عند الجذر ، وكأن الورق مساق تصبّ ماءها عند الجذور ، ثم ترى ورق النخل وهو المسمى بالخوص ، وكذا ورق التين والرمان وما أشبهها لاتصاح بلج المطر لينزل على جذع النخلة وأصل التين والرمان ، لم ذلك ؟ ولم هذا التين ؟ ورق يجمع المطر ، وورق يفرقه ، أما الحاهل فإنه لا يعنيه ، وأما العالم فإن له في كل نظرة حكمة ، وفي كل فكرة علما ، وفي كل نباتة جلالا ، وبهاء وسعادة ونورا . اجتمع المطر في الفجل والبصل والخس عند رأس البصلة والفجيلة والخسة ، لأن الجذور غير متشعبة ولا متفرقة وانما هي متجهة الى أسفل باستقامة ، فلذلك ينزل المطر عليها ليسقيها مجتمعها لاجتماع الجذر . أما في النخل والعبل فإن العروق الضاربة في الأرض متفرقة منبثة في الجهات كلها ، فلذلك وضع الورق على حال لاتصاح لاجتباس المطر فيسقط على الجذع ، بل يتفرق حوله لتفرق العروق . أما الشجرة المسماة [ثوب السيدة] النابتة في جبال الألب التي ذكرها اللورد لفيرى في كتابه [جمال الطبيعة] صفحة ١١٣ فإن المطر اذا نزل على أوراقها كان له عمل آخر ألا وهو أنه يكون خفيرا لها يحفظها من العطش كالعساكر والجيش التي تحمي

الملوك على العروش ، وذلك أن قطرات المطر أو الندى ترى متجمدة لشدة البرد تلمع كحبات اللؤلؤ على تلك الأوراق ، لذا رأينا الحيوانات السائمة كالغنم والغزلان ولت عن الشجرة ولم تقربها لتلك الساكنة الجليدية الثلجية المتلاصقة المانعة كل ما يقرب الشجرة ، فتأمل وتجب كيف كان الورق جامعا للقطرات ومفرقا له نارة أخرى وحارسا أميننا حيناً ، كل ذلك والمسعودون يأكلون الفجل والبصر والتمر والبرتقال والليمون ، وهم يأمنون عن حكمة ربهم ، ومجائب صنعه ، والفرنجية فيها مفكرون ، يا عجبا كل العجب لعالم أضع حياته في أقوال جدلية وكلمات لغوية ، وقد أغمض أجنانه ، وهو غافل عن هذه العوالم المشاهدة ، فلتفهم إذن قوله تعالى « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « وأنبأنا فيها من كل شيء موزون » ، وقوله « وكل شيء عنده بمقدار » .

على نفسه فليكن من ضاع عمره • وليس له منها نصيب ولا سهم

ثم انظر ووازن بين عيون الحيوان في محاولة الابصار ، وبين ورق الفجل والبصل وأمثالهما في استقبال ماء المطر لسقي الرؤوس النازلة في الأرض ، وكيف جعل النور المشرق من الكواكب والشمس والقمر كالقطرات النازلات من المطر كلاهما يخلق له في الحيوان ، وفي النبات ما يناسبه للاقتناع به ، فبينما ترى أعين الحيوان مدورة الشكل محدبة الأعلى حاوية مادة زجاجية ، وأخرى تشبه العدسة المحدبة الوجهين ، وهذه الأشكال في علم الضوء معدة لقبول الضوء وجمعه مهياً لحفظه فترسله إلى ما وراء الحدقة ، وهي الشبكية الموضوعة بنسبة مخصوصة لتقبل الصور التي جعلها الضوء ، وتوصلها إلى المخ الذي هو الناظر الحقيقي ، ولو أنها وضعت أبعد من ذلك أو أقرب لم تظهر فيها الصور فاحتاجت إلى المناظير الزجاجية المعينة على إيضاح الصور وإقرارها فوق تلك الاعصاب كما هو معروف عند أطباء العيون في زماننا ، هكذا ترى ورق الفجل والخس والبصل ، وقد وضع على هيئة حافظة للمطر بحيث يسقي الرأس ، ولم يجعل على هيئة مبعثرة له حتى لا تنتفع به أصولها « إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا الواحدة كلمح بالبصر » وما أوحى الشبان في المدارس ، وفي المعاهد الدينية إلى ورود منا هل هذه الحكمة والارتواء منها « وفوق كل ذي علم عليم » .

اللطيفة السادسة : النبات المفترس للحيوان

قد نبت للخاصة والعامة أن النبات طعام الحيوان مسخر له ، ولكن لم يدرك في خلد إنسان أن الحيوان طعام النبات ، وأن النبات يفترسه بحيل مدبرة وكيد خاص ، فاعلم أن نباتا يسمى [اللبونيا] من نباتات أمريكا الشمالية له ورق يشبه مصيدة الفأر ، وفي وسط الورقة مفصل ، وتلك الورقة نابت عليها وبر ويحيط بها شوك ومتى لامست الورقة حشرة أحس بها الوبر فانطقت الورقة حالاعلمها ، وخرج منها مادة لزجة قائمة مقام لعاب الإنسان لتمتص تلك الغريسة ، فانظر كيف كان المفصل لتتحرك الورقة ، وكيف قام الوبر بالاحساس بحصر الحيوان ، وكيف كان فيها ما هو كالريق وكالعصارة المعدنية في الحيوان انتهى . (والفصيل الوافي في سورة الرعد كما قدمنا)

اللطيفة السابعة : أعمار الحيوان

يقال في المبدأ المشهور أن عمر كل شيء ثمانية أضعاف مدة نموه ، فسرير النمو سريع الزوال ، وما يبلغ الكمال سرهما ينقص سرهما ، وعلى هذا المبدأ يكون في استطاعة الإنسان أن يعيش فوق المائة ، بل إلى المائتين إذا لم تصادفه تلك العقبات في غذائه وأحواله ، فقدمت أحد الانجليز وعمره مائة وتسع وستون سنة ، وكذلك من آبائنا العرب ، عاش أحد بني تميم نحو هذا القدر ، وهذا وإن كان لا يعقل عادة يصلح في قدرة الله تعالى أن يتم ، والامكان واسع ، ولكن العادة لا تبيح ذلك ، والحيوانات الجاهة تمراً أكثر من القرناء ، والجريئة تحياً أكثر من الجبانة ، والمائية والبرية تعيش أكثر من الهوائية ، غير أن الرخة ، والنسر ، والبيغاء ، والغراب حبس قدر ما يمكن أن يعيش الإنسان .

اللطيفة الثامنة : القرد وتقليدها

لن جماعة من أهل العلم كانوا مشتغلين في أمريكا الجنوبية بما يتوصل به إلى معرفة شكل الأرض فكانوا حين يعدون عن الأدوات تأتي القرد وتنظر في المنظار وتنصب الأخشاب وتأخذ الأكله وتغصها في المداد وتخط على الورق ما تبصر .

ومن محاكاة القرد للإنسان أنه نغشى الجدرى في بعض السنين في قرد بعض الآجام في أمريكا الجنوبية فأتى [بنكرد] الطبيب بالبن رباط أيديهما وأرجلهما بالحبال ولقحهما بمادة الجدرى أمام قرد كبير حداه قرد صغير ، ثم ذهب بالولدين ، وترك مادة التقيح والأدوات ، فطرح القرد الكبير القرد الصغير وربط يديه ورجليه ولقحه بالمادة كتقيح الطبيب للولدين ، وحذا حذوه غيره من القرد .

اللطيفة التاسعة : عجائب الحرباء

هذا الحيوان بدنه كالاسطوانة ، وله رأس كبير ، وعنق فاحش القصير ، وذنب طويل كالحية ، وله براتين كمنخالب البغاء ، وهو يتلون ألوانا كثيرة ، وتقول فيه العرب [أصور من عين الحرباء] أى أبرد لاعتقادهم أنه يدور مع الشمس ويستقبلها بعينه ليستدفى ، وقدره الباحثون وراقبوه فوجدوه تارة يجعل جسده أحمر إذا كان على شجرة ، وقد يكون في حال أخرى أصفر ، وإذا تهيج حصل في لونه خطوط متعاقبة على مهوره ، ثم تمتد إلى سائر جسمه تقريبا ، فإذا دام التهيج صار الجسم كله أسود هذا في لونه ، أما حجمه فأعجب فآفة جعل جسمه كأنه فأرة في زاوية أخذ الرعب منها كل مأخذ ، وتارة ينشر ذنبه ويحني ظهره ، فيكون كالأسد المزبر ، وتارة يصير كورقة النبات ، ويرى خط أبيض ملابيطه إلى طرف ذنبه كأنه ضلع الورقة ، ثم يرق كالسكين فينكر بذلك أعظم تنكر .

اللطيفة العاشرة : ذكاه الفيلة

مرضت فيلة مرضا شديدا فعالجها أحد العلماء فشفيت وبعد مضي خمس سنين رأته في الطريق فذكرته فأسرعت إليه ، ووضعت خرطومها في يده كأنها تحببه وتشكره على صنيعة ، ثم نظرت ثانية فندمته ومنطقته بالخرطوم كوالدة تضم ولدها بعد فراق طويل ، فانظر إلى عجائب الحيوان والنبات ، واعلم أن هذا وأمثاله مما أمر الله المسلمين أن يملوه ، وأن يعملوا به في الدنيا ويرقوا منهم فيكونوا شاكرين لله ، وينادى المسلمون لم ينظروا ، ولم يملوه ، ولم يعملوا في الحيوان والنبات باستخراج الثمرات والمنافع ، فأنعمهم كقرون لعنته غير شاكرين لها ، فهذه من آثار قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة » ، واعلم أن الدين الاسلامي كما قال أحد العلماء الهولنديين كان عند أمة تعرفه في صدر الاسلام فارقت به ، فلما دخل في هذا الدين أم جاهلة عقولها غير ناضجة فهمته فهما معوجا فظلمت ونزلت أسفل سافلين . وهما نحن أولاء أبناء محمد ﷺ ونابعيه ففسر القرآن على الوجه الذي نزل لأجله على قدر الامكان ، ونبش الأمة بأيام سعادتها ، وأن هذا القول وأمثاله من أقوال العلماء يسرى في الأمة سريان الضياء والكهرباء ، فالدين ديننا ، وهما هو ذا العلم أماننا ، واللغة لغتنا فإدهى المسلمين وأذلم الاجهال القائمين بأمرهم الجاهلين باللغة والقرآن الغافلين عن كلام أسلافنا الفضلاء مصاييح السجى أولى الألباب .

اللطيفة الحادية عشرة

يردى أن واحدا قال لصبر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انى أتعب من أمر الشطرنج فان رقته ذراع في ذراع ، ولولعب الانسان ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد ، فقال عمر بن الخطاب هما ما هو أعجب من ذلك ، وهو أن مقدار الوجه شبر في شبر ، ثم ان مواضع الأعضاء التي فيه كالحاجبين والعينين

والآفة والقلم لا يتغير ألونه ، ثم انك لا ترى شخصي في الشرق والغرب يشبهان في الصورة .

الطليعة الثانية عشرة : تعاون النبات والحيوان

السنط والنمل

هل سمعت أيها الذي يملك في قصره يحرسه آلاف الآلاف من الجنود ، وهم يجندلون كل يوم في ساحة
الروعي مئات الألوف من الأعداء يقتلونهم حفظاً لشخصه وإبقاء لبلده مدى الزمان ، وقد أحاط بقصره منازل
خضر يأوي إليها الحراس ، وقد أعد لهم من الطعام كل مائد ، وطاب من أقد الطعام ، كلا انك لم تسمع به لاني
الحقائقي ولا في الخرافات ، ولكن أسمعك الآن حقيقة واقعة مما نشاهده كل يوم ، والناس ساهون لاهون
« وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » ذلك نوع من السنط المدجج
بالسلاح من السهام البيضاء تكون له قرون مجوّفة فارغة ، وعلى ورقه نقط من الصل وسوله آلاف الآلاف
من النمل تؤمه للقوت تراها صاعدة نازلة لتأكل الحشرات والديدان والسوس والهوام المحيطات بالشجرة
الضارّة لها المؤذيات لنموها وحياتها ، فهذا النمل يجندل تلك الجحافل ، ويمت تلك الصاكر ، ويمكن تلك
للساكن ، وهي القرون المخرّرة ، ويشرب ذلك العسل النقي ، وقد ذكر العلامة [فورل] أنه كان يرى
نحو ٢٨ حشرة في الدقيقة الواحدة يجلبها النمل لتكون غذاءه ، فانظر وتجب كيف أصبح النمل في هذا المقام
حارس السنط الذي هو أغنى النبات بالسلاح ، وكيف احتاج هذا المدجج القوي البأس إلى تلك الجيوش الجريئة
من النمل لتحفظ حياته بقتل أعدائه من الهوام والنود والسوس ، وبهذه الخصلة كان خشب السنط متيناً جداً
« إن ربي لطيف لما يشاء » وهذه من جنود الله . قال تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ثم أردفها بما يفيد
أنها مذكرات لنا ، فقال « وما هي إلا ذكرى للبشر » وانظر كيف يقول الله تعالى « وما من دابة في الأرض
ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمّ أمثالكم » ثم أفاد أن هذا كله في عمله المكنون ولوحه المحفوظ ، فقال « ما قرّطنا
في الكتاب من شيء » وقال أيضاً « ما من دابة إلا هو آخذ بماصيتها إن ربي على صراط مستقيم » فلا يقتصر
الإنسان طرفة تعالى مع كل نسمة ومع كل نبات « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

الطليعة الثالثة عشرة : تعاون النبات والحيوان أيضاً

الزهر والحشرات

يطوف الهواء في الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والبساتين الغناء ، وجبالها ومجانب خلقها ، وأزهارها
الجيلة الفاتحة من أحرقان ، وأصفر فقع ، وأزرق زاهر ، وأبيض ناصع فوات رائحة ذكية عطرية ، وفيها مادة
حلوة هسلية ، والحشرات طافات من زهرة إلى زهرة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهنّ مفنيات فرحات رائعات
في بحبوحة العيش ونعيم الحياة ، فما كان قصارى خيال الشراء إلا أن يتذكروا أحببهم ، والوجوه الجيلة
والقدود ، وأوقات الصفاء والهناء ، هذا ما يدور بخواطر الشعراء ، وقد غفلوا عن الحكمة في تلك الحشرات
وطوافها والأزهار وألوانها والعسل في أسافلها ، وكيف كان بعض الزهر يتفتح ليلاً ، وهو بالنهار مضمض الأجنان
فاذا جنّ الليل وأرخى سدوله ظهر بلونه الزاهي الأصفر ، وفاحت رائحته ، وعم شذاه العطر ، فاذا ما طلع الفجر
رأيت ذابلاً لاجال فيه ، ولا رائحة ، ولا رونق ، فهو كالخفاش ينام نهاراً ويقوم ليلاً ، وهو نبات اسمه
[القنطرب] ثم كيف كان بعض الزهر يفض أجنانه ليلاً ويستيقظ نهاراً مخالفاً للأول موافقاً للناس وأكثر
الحيوان ، فهو بالنهار أنس وجال ، وبالليل مسدل الستار غافل نائم ، وذلك هو [الأفيحوان] ثم كيف كان
بعض الأزهار يتفتح عند طلوع الفجر ، فاذا توسطت الشمس خط نصف النهار وقت الظهيرة أقفلت أجنانها
ونامت إلى طلوع الفجر من اليوم الثاني ، ويسمونها في بلاد الانجيز [باولده اذهب وتم عند الظهر] ومن

الأزهار ما فتحت صباحا في الساعة السابعة ، وتنام عند الخامسة مساء ، وهو نوع من الهندباء ، يطوف الانسان في الحقول ، ويرى هذه البجائب ، وهو عنها غافل ، ثم يرى بعض الشجر كالسنوبر والزنان والبوداق والسنديان أزهارها صغيرة ولالون طبا ولا رائحة ولا جمال ، فيألت شمري جمال فتان في بعض الأزهار ، وعنده في بعضها الآخر ، ونوم بالنهار ، ويقظة بالليل ، وعكس ذلك ، ما فائدة ذلك كله ، وهل لهذا كله حكمة أم هو مما توج به الطبيعة موجابلا عقل يضبطها ، ولا هدى ولا كتاب منير .

أقول : اعلم أن هذا كله قد كشفه العلماء وبخثوا فيه في عصرنا الحاضر فوجدوا أن النبات فيه الذكور والاناث وذلك كالقرع وقد أتى بالفتح الذي في الزهرة التي فيها الطلع المذكور ووضعه في الزهرة الأثني وطبينا عثمان باشا مرصفي وأرانها في حديقة قرب المنصورة فوجدت أن الزهرة في اليوم الثاني قد حلت حملا خفيفا وقال لي ان الناس اذا ألحقوها على هذا المنوال أتت من القرع أضعافا مضاعفة ، وتارة يكون الذكر والأثني في زهرة واحدة ، ثم ان الذي ينقل طلع الذكور إلى الاناث لما أن تكون الرياح ولما أن تكون الحشرات كانهل وقد جعل الجمال والألوان الزاهرة فيها لجلب تلك الحشرات وههكذا الرائحة العطرة تشوقها إلى ورود تلك المناهل ، وأما الصل في داخل الزهرة فاعما جعل ليكون غذاء الحشرة حاملا لها على دجولها فاذا دخلتها حلت على جسمها من ذلك الطلع الذي يرى على تلك الأعمدة التي كأنها مدقات فتطير إلى زهرة أخرى فيقع من جسمها عليها فاذا صادف ان كانت أثني حلت بالثمرة المطلوبة وذلك الطلع كغبار الدقيق كما يرى في طلع النخل ، وبهذا ثبت أن الذكورة والانثوية عامة في سائر النبات البالغة فصالحه خمسمائة ألف .

ولقد بحث العلماء حبات اللقاح في زهرة النبات المسمى عود الصليب فوجدوها من ٣٠٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ أليس هذا مصداقا لقوله تعالى « وأبنتنا فيها من كل زوج بهيج » ولقوله « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ولما كانت هذه البجائب مدهشة لب مطيرة للفؤاد حتى يتعلق بمن نظم هذه البجائب أردفه بقوله « ففرّوا إلى الله » قد قلنا ان الحشرات هي الحاملة للقاح من الذكور إلى الاناث ولذلك تراها طائفة في الحقول والبساتين مغنية تجرى في جو من الجمال والآمال تطلب الصل من الزهر وتشرّب رحيقه المنقوم تحتمل أعضها بالجمال والروائح العطرة وشرب الصل وهي تؤدي عملا نافعا للشجر فانها سبب في بقاء نوعه وديموم جنسه وكأنها تفتي طربا كأنفسي النساء وهن يزفن العروس إلى بعلها وكأن هؤلاء وهؤلاء فرحات بنعمة البقاء والديوم التي ترف على أيديهن لأنواع الخلوقة ، فاما نوم الزهرات في أوقات مختلفات فذلك مطابق لعادات الحشرات فالزهرات الساعرات تسهر حشراتنا بها لها ، والنائمة ظهرا أو عند الغروب تكون هذه العادة نفس عادات الحشرات فثبت إذن أن ما علما عجيبا ونظاما بديعا وبدائع وأعمالا متقنة ، وليس الاقحاح خاصا بالحشرات فان الرياح تلقح كثيرا من الاشجار ، ولذلك ترى أن أزهارها لاجمال فيها ولا بهجة ولا رائحة ذكية ولا عسلا فان الريح لا تحتاج لشيء من ذلك ، وإنما تؤدي عملها بلا شهوة ولا عقل فترى شجر السنديان والسنوبر والزنان خاليا من جمال الزهر والحليمة والزينة فان ذلك كله لا يحتاج إليه الريح ولا تعقله ولو أن الحشرات كانت موصلة للطلع في تلك الاشجار لجل الزهر وحسن شكله وظهر عسله وذكت رائحته فان الله تعالى لا يخلق الأشياء الا لحكمة ولا حكمة في جمال لانظر له ، ولا في طعام لا آكل له ، ولا في رائحة لا تشام لها وهو هنا الرياح ، أليس هذا مصداقا لقوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » أولست ترى من أن المسلمون قد قصروا وزادوا في التقاعد والتقاعد والنوم والغفلة ، أليس هذا من مقتضى دينهم ، وكيف يفوز القرشيحة بمعرفة الحقائق التي نطق بها كتابنا وهم لا يعلمون أنها فيه ونحن أجهل منهم بحقائقه ، أفلمست ترى أن المسلمين أولى بهذه العلوم وأحق بها ، اللهم اني نصحت أمتي وعملت جهدي وما كتبت العلم ، اللهم نور

بماتر أولى الألباب فيها ، وأرهم رشدهم ، وابعطهم نورا وهدى للعالمين .
 وسرى في « سورة الحجر » عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » عجائب الازهار والقاحها بما يدهش
 الألباب . وفي « سورة الشعراء » عند قوله تعالى « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم »
 فهناك ترى جنة عالية قطوفها دانية من المعارف الجميلة والحاسن البهجة الشارحة للصدر ، المرقية للعقول .
 ولنختم الكلام في هذا المقام ونبتدىء الكلام على :

تصريف الرياح والسحاب المستخر بين السماء والأرض

اعلم أن كل هواء هبّ فإنه يسمى ريحا ، ومن عجب أن السرعة في الرياح على مقدار ثقلها فإذا كان
 ثقلها على القدم المربعة ٧٢ و ٠ من الهرم كانت سرعتها ميلا في الساعة وان كان ضغظها ٨٨ و ٢ من
 الهرم كذلك كانت سرعتها ميلين وإذا كانت ٤٨ و ٦ كانت سرعتها ثلاثة أميال ومعظم سرعة الرياح
 المائة زوبعة و اعمسارا والمهائة زعزعا وزعزعا و زعزعا ٨٤ ميلا في الساعة الواحدة للأولى وواحد وتسعون
 ميلا للثانية وفي النادر أن تجرى في الساعة مائة وعشرين ميلا أو أكثر .

الزوبعة أو الاعصار

ريخ تصعد في السماء بالمواد كأنها عمود تثير الغبار والسحاب وقد تحرب اليبار وتقطع الاشجار وتحملها
 وتذروا آثارها في الآفاق فيظن الناس أن السماء أمطرت أمطارا وقد تحدث على وجه المياه وترقع بعض
 حيواناتها فتطر ضفادع وأسماك وهي نتيجة ريحين عظيمتين متقابلتين متضادتين وقد يحدث بسببها أن يثور
 من السحاب مخروط معكوس تدور به فينحدر من الجوّ وتثير من البحر مخروطا مستقيما ، فإذا تلاقى المخروطان
 حدث ما تسميه العامة بالتين ، وقد يكون قطر المخروط مائتي قدم .

عجائب السحاب وحكمه

تعجب كيف كان السحاب ليس يرتفع عن وجه الأرض في الجوّ أكثر من ستة عشر ألف ذراع وان
 أقرب ما كان مماسا لوجه الأرض وذلك نادر في بعض البلدان إذ لو كان السحاب في كل وقت وفي كل بلد
 مماسا لوجه الأرض لأضر ذلك بالحيوان والنبات وأمتة الناس كإبري ذلك يوم الضباب وفي البلدان القريبة
 من السواحل مثل البصرة وانطاكية وطبرستان لقرها من البحار فيبئس الناس في غفلاتهم إذ فاجأهم العلق
 والمطر والضباب حتى يضيق الصدر ويأخذ النفس وتبتل الثياب والامتعة ولو كان السحاب دائما قريبا من
 وجه الأرض لأضر الرعد والبرق أبصار الحيوان وأسباعها ولو كان بعيدا شديد الارتفاع في الهواء حتى لا يرى
 نكبات الامطار والثلوج تأتي مفاجأة والناس والحيوان عنها غافلون لا يتحرزون فيكون الضرر علما كما قال
 تعالى « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء
 فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » فتعجب كيف كلن السحاب يأتي غالبا عند الحاجة إليه وليس يكون بعيدا
 جدا لا تخترس منه ولا قريبا جدا حتى نستضر به فبعده وقربه بحساب وكثرته وقلته بحساب ولودام متواصلا
 لقتل الخلائق « وكل شيء عنده بمقدار » وانظر كيف جعل الله بعض الاماكن يقل فيها المطر ولا أنهار فيها لتكون
 فضلا بين الممالك والتارات أو لتكون ملتجأ ومأوى للفارين من الظلم وتكون ملطفة للهواء منقية لجفافها
 والانعمن بتواصل العبوان ولم يكن هناك خلاء نقي . ولما كانت هذه العجائب لا يظنهما إلا العقلاء قال تعالى :
 « ان في خلق السموات إلى قوله آيات لقوم يعقلون » .

السحاب والسفن يجريان بالبخار وبالكهرباء

ذكر الله ذلك في هذه الآية وذكر السحاب والرياح ولقد تشاركت السفن والسحب في أنها جئتا تجري بالرياح وبالكهرباء ، لقد أمأت لنا يائفة السبل وأريقتنا الهب وأسبغت علينا النسيم فأريقتنا السحاب تجري بالرياح مسخرات في جوار السماء والهواء يسوقها لسنى الأرض فيخرج النبات ويحيي الحيوان . ولقد جعلت بحكمتك الأرض والجبال وطبقة الزمهرير الباردة أشبه بالحمام فالشمس المشرقة المحرقة الساطعة على البحار أشبه بالنار في الحمام وماء البحر أشبه بالماء الذي يسخن فيه ، والبحار الصاعد من البحار في الجوارق أشبه بالبخار الصاعد في الحمام ، والجبال الشامخات المانعة للسحب أن تهيم على وجهها بل تحبسها فتسقي المروج والبطائح وراء الجبل كحيطان الحمام الحافظة للبخار ، والزمهرير الذي يملأ إليه البخار فيبرد فيتجمع ماء فينزل مطرا أشبه بسقف الحمام يراكم عنده البخار الصاعد فيسقط ، سبحانه ربنا أريقتنا أن الجبال أشبه بالسود والحبوس وهي التي يسميها العامة في مصر بالخرزانات تصد الرياح الجارية بالسحب حتى لا تجاوزها فتعبس المطر أماتها فيسقي الزرع ويدثر الصرع والجبل كما يحفظ الماء في السحاب أن يجاوز البطائح التي أمامه ، هكذا نراه قد خزن الماء في جوفه الذي ينزل من المطر أو من الثلج الذي سطعت عليه الشمس فذاب قليلا قليلا وخزن في باطنه ثم برد فكسر الصخر كما ذكرناه قليلا فكان منه العيون الجارية وبها تكون الأنهار ، فاجبل حفظ الماء في الطواء وفي باطنه .

اطلع بعض المفكرين بالبحر على السحب من فوق الجبال الشواخ ، فرأوا أن السحابة قد تبلغ قاعدتها عشرين ميلا مر بها وسمكها ميل ، ورأوا السحب صاعدة من الخفيض جارية إلى تحت أقدمهم ، ومن السحب ما لا يزيد سمكها عن عشرين قيراطا ، وأدنى السحب ما كثرت فيها الكهروبا ، ومسير السحب الرياح غالباً ، وكثيرا ما شوهد زمن سكون الرياح سحاب مغيرة متقابلة تجاذبت وكانت إحدى المتقابلتين كور بائيتها موجبة والأخرى سالبة فتقابلتا بذلك التجلذب . فانظر كيف أمر الله الكهروبا أن تقوم بتسيير السحاب إذا ركبت الرياح بغرت تلك السحب ، ثم كيف كانت السفن في البحار تجري بالرياح كالسحاب واستعملت الكهروبا أيضا في تسييرها وجريها في البحار ، أفليس حب الله الذي سألته لك في القال الآتي يوجب على المسلمين أن يأخذوا بأسبابه ، وأسبابه كما سعى هو العلم بحاصنه المدح الحكيم ، والاتقاع به ، وقبول نصه بالعمل ، ويكون ذلك هو السكر ، أرسل الله سبحانه الكهروبا فسخرها ، فجوى السحاب ، فجاء الانسان ونظر صنعة ربه فقلده ونقلها إلى السفينة . إن ذلك يا أيتها قبول منا هديتك ، وشكرت نعمتك ، ألا واني أشهد أنا معاصر المسلمين مقصرون في حبك ، والأطلاع على محبتك ، والولوع والغرام بمصنوعاتك .

جوت السفن في البحار تارة بالرياح وتارة بالبخار وآونة بالمجاديف التي يقاوم الانسان بها الماء فتسير إلى الأمام ووقتا سلف الانسان الطاقة الكهربائية المترتبة من الطاقة [الميكانيكية] [الخيلية نسبة لعلم الحيل] لما يسمونه بخار اتيرية على محركات السفينة وهي الجاديف أو الرافعات ، وقد أسفردك عن نجاح باهر كما ذكرته المجلات الانجليزية ، بغرت السفن كما جوت السحب بالكهروبا وبالرياح والبخار المتولد من الماء والحرارة بالصمم أو غيره كالهواء في ضغطه فهو ملحق به معنى ، فسبحان الذي علم الانسان ما لم يعلم ، ولقد جعلت يا الله حركات الماء كلها بركات فإذا جرى في الأنهار كانت قوة اندفاعه من أعلى كما في خزان [سد اعصرم] اسوان بمصر فيها قوة لو استعملت لولدت «كهروبا» أجوت جميع القطارات في البلدان ، ولأنارت جميع القرى والمدن ، ولأغنتهم ولكن ما كل ما ينمي المرء يدركه ، فالحركة تولد الكهروبا بجعل عملية كما تكون منها الحرارة ، ومن الحرارة

للضوء وهكذا ، والماء بطافته يندفع بخارا فيجري السفن والقنطرات ، فهو ماء مبارك ونعم عظيمة « فتبارك
لله أحسن الخالقين » .

والله جعلت يا الله هذه السفن للساخرات في اليم في حاجة الى النجوم السيارة يعرفها العارلون فيها يجدولون
حتى يلاحظوها في أسفارهم ومعهم البوصلة وهي بيت الابرة المعروف تكون فيه تلك الابرة المغنطسة الناطرة
في اتجاهها الى الشمال والى الجنوب كأنها تقول : اذا غاب النجم الذي به تهتدون كما قال الله : « وعلامات
رهنجم هم يهتدون » فانا أقوم مقامه ، وأهديكم في ظلمات البحر ، لأن هداية الله تم سائر الأقطار بالليل
والنهار والظلمة والنور ، فطم الكواكب وقومها من النجم ، والبخار من النجم ، والكهرباء من النجم ، وحركات
الطاه من النجم ، وعموم الكهرباء في أجسام كثيرة من النجم . كل ذلك والمسلمون نائمون كان هذا القرآن
جاء لغيرنا ، وكأنا من سكان المريج ، وكان الذين يقولون هذه الآيات غير الخاطئين ، فإليك يا الله أضرع أن
تقر عيني باستيقاظ المسلمين « وليصرن الله من ينصره إن الله قهوى عزيز » ، ان ذلك هو الحب ، فالحب
والعشق والشوق كلها ترجع للعلم . ولذلك ذكر آية الحب بعد هذا فقال :

(المقصد المباشر)

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَخِذُّ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ
حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ *
إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأُ مِنْهُمُ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ
حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا
مَّطْبُوعًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّرَّةِ
وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقْرُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ
تَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْكَ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَمْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَّبِعُونَ * وَمَثَلُ
الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعْوَاهُ وَفَدَاهُ مِمَّ بِكُمْ مَضَى فَهُمْ لَا يَمْقِلُونَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ *
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْمُنْتَرِيًّا وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا
عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ سَئِئًا كَانُوا فِي بَطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلَمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ

بِالْمُغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَزَلَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا
فِي الْكِتَابِ لَنِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) أي من الأصنام والرؤساء (يحبونهم) أي
يظنونهم ويظمونهم تعظيم المحبوب (كحب الله) كتعظيم الله والخضوع له ، أي يحبون الأصنام كما يحبون
الله ، معنى يسوون بينه وبينهم في محبتهم ، لأنهم كانوا يقرّون بالله ويتقرّبون إليه ، وقيل : يحبونهم كحب
المؤمنين لله (والذين آمنوا أشد حبا لله) من المشركين لأنهم لا يبدلون عنه إلى غيره بحال ، والمشركون
يبدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ، وقوله (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب)
أي لو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد إذا عاينوا العذاب يوم القيامة (أن القوة لله جميعا وأن الله شديد
العذاب) لو يعلمون شدة عقابه للظالمين لندموا أشد الندم ، وقوله (إذ تراءى الذين اتبعوا من الذين اتبعوا)
بذل من إذ يرون (ورأوا العذاب) أي رآه العذاب والواو للحال ، وقد مضى ، وقيل عطف على تراءى (وتقطعت
بهم الأسباب) وهي الوصل التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحاب (وقال الذين
اتبعوا لو أن لنا كرة) لولتحنى وجوابه (فتبتأ منهم كما تبتأ منا كذلك) أي مثل ذلك الإبراء القطيع
(يربهم الله أعمالهم) أي عبادتهم الأوثان (حسرات عليهم) ندامات وهو مفعول ثان ليربهم ، ومعناه أن
أعمالهم تنقلب عليهم حسرات فلا يرون إلا الحسرات (وما هم بخارجين من النار) بل هم فيها دائمون ، وقوله
(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) نزلت في قوم حرّموا على أنفسهم أحسن الأطعمة والملابس ،
والحلال للمباح الذي أباحه الشرع وانحلت عقدة الحظر عنه ، والطيب قيل المستذ ، وهذا ليس بجيد ، لأن
المدار في الطعام على نفسه في الجسم صحة واعتدالا (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) لا تقتدوا به في اتباع الهوى
تحريرا وتحليلا ، والشيطان هو الشهوة والغضب عند قوم ، أو هو مخلوق حتى يوسوس للناس وهو ظاهر الأحاديث
(إنه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) بيان لعداوته ووجوب التحرز من
متابعته ، والفحشاء ما أنكره العقل ، وقوله (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) في موضع الخبر بالعطف على
بالسوء أي وبأن تقولوا كأن تقولوا هذا حلال وهذا حرام بغير علم ، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى
عما لا يجوز (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) الضمير للناس وهم المشركون أو اليهود لما دعاهم النبي صلى الله
عليه وسلم إلى الإيمان واتباع القرآن (قلوا بل نتبع ما ألفينا) وجدنا (عليه آباءنا) فانهم كانوا خيرا منا وأعلم
فرد الله عليهم بقوله (أ) يتبعونهم (ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا) من الدين (ولا يهتدون) للصواب ، ثم
ضرب لهم مثلا فقال (ومثل الذين كفروا كمثل) بهائم (الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) التصيق
التصويت ، يقال نعق المؤذن ونعق الراعي بالضان ، والنداء ما يسمع ، والدعاء قديسمع وقد لا يسمع ، والمعنى
أن الكفرة لأنهم كهم في التقليد لا يتقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ، ولا يتأملون فيما يقرّر معهم ، فهم في ذلك
كالبهائم التي ينعق عليها فسمع الصوت ولا تعرف مغزاه ، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه (صم بكم عمي) رفع على
النم (فهم لا يعقلون) الموعظة ، ثم بين أن ما حرّمه المشركون حلال بقوله (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم) أي من جيده في منفعكم وفيها هو أصح لأبدانكم أو حلالا لكم (واشكروا لله) على ما رزقكم
وأصل لكم (إن كنتم إياه تعبدون) إن صمّ أنكم تخاصون بالعبادة ، ثم بين المحرم فقال (إنما حرّم عليكم

الميتة) وهو كل ما فرقه الروح من غير ذكائه مما يذبح ، أى ما حرم عليكم إلا الميتة (والنم) أى السائل قوله
 فى آية أخرى : « أودعنا مسفوحا » (ولم الخنزير) أى الخنزير بجميع أجزائه (وما أمل به لعبادته) أى
 ذبح للأصنام فذكر عليه غير اسم الله ، وأصل الإهلال رفع الصوت ، أى رفع به الصوت للصنم ، وكانوا فى
 الجاهلية يقولون : باسم اللات والعزى (من اضطر) أى الحى فأكل حال كونه (غير باغ) للذة أو شهوة
 أو الاستئثار على مضطر آخر (ولاعاد) متعده مقدار الحاجة وسد الرمق ، أو الجوع ، أو غير باغ على الوالى ،
 ولأعد بقطع الطريق ، ضل هذا لإباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله (فلا
 يتم عليه) فى تناوله (إن الله غفور) لما فعل (رحيم) بل خاصة فيه فى كل الميتة عند الضرورة شبا ولا
 يتردد منها ، ومعلوم أن الهدايا والمآكل والرشا التى يقدمها المرءوسون للرؤساء الذين يضلون عن سبيل الله
 ليست حلالا كالتى يأخذها رؤساء اليهود ، فذلك أعقبه بقوله (إن الذين يكتفون ما أنزل الله من الكتاب
 ويشترون به ثمنا قليلا) عوضا حقيرا (أولئك ما يأكلون فى بطونهم) أى مل بطونهم (إلا النار) لأنه
 إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) كلاما يسترهم
 ولكن استحقوا قوله : « اخشوا فيها ولا تكلّمون » (ولا يزكّهم) ولا يظهرهم من دنس ذنوبهم (ولم
 عذاب أليم) مؤلم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) بكتبان نمت محمد ﷺ للطامع
 والأغراض الدنيوية (فما أصبرهم على النار) تعجب من حالهم فى الالتباس بموجب النار من غير مبالاة
 (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) أى ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالكذب
 أو الكتمان (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) أى فى جنس الكتاب فيقولون فى بعض كتب الله أنها حق
 وفى بعضها باطل (لنى شقاق) خلاف (بيد) عن الحق . انتهى التفسير اللفظى .

إيضاح

إذا قيل للشركيين اتبعوا القرآن جنحوا الى التقليد ، وهكذا اليهود ، وقوله « أولو كان آباؤهم » الهمة
 للتعجب ، وهذه الآيات تدعو الى التغيير من الاقبياد الأعمى للزعماء ذوى الأغراض الساقطة كلكوك الاسلام
 السابقين فى الدول الاسلامية فان كل من أغرى قوما بما لا يبنى ثم وقعوا فى العذاب إما فى الدنيا بالأسر وغيره
 وإما فى الآخرة بجهنم تبرأ المتبوعون من التابعين وهم التابعون على اقبادهم الأعمى ، وهذا هو النامى لتأليف
 مجالس الشورى فى الاسلام ، لأن القادة لا ينفون الناس فى الحساب الدنيوى ولا الآخروى ويقع القتل على
 الأمة ، فارة يفتكون بالقادة كما حصل فى اليونان أيام تأليف هذا الكتاب قتلوا وزراءهم لما أوقعوهم فى
 حوب كانت عليهم وبالا . وتارة ينجو الرؤساء كما هو غالب فى العالم مثل [ولسن] فى أمريكا أضرت بأمته فى
 الصلح وخانهم ولم يقتلوه ، وقوله « ومثل الذين كفروا الخ » أى مثل داعى الذين كفروا الى الإيمان كمثل
 الراعى الذى ينقى ضمه وهى لا تسمع إلا دعاء ونداء فهى لا تعقل ، وقوله « انما حرم عليكم الميتة » أى
 أكلاها « والنم » وقد كانت العرب تحب الدم فى المصارين ثم تشوبه وتأكله فحرم ذلك .

هنا أبان أن دين الاسلام دين أساسه العلم ، وعماده النظر ، وسفقه الحكمة ، فن قلدوا فى أعمالهم
 وآرائهم فأولئك هم الضالون ، إذ تبرأ المتبوعون من التابعين ، وقد أحاط بهم العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب
 وقال التابعون : لقد ظلمتمونا بأقوالكم ، وأذنبونا بأفكاركم ، وياليت لنا كرهة الى الدنيا ورجعة الى الحياة
 فنتبرأ منكم كما تبرأتم منا ، وهذا المقام سنوفيه حقه قريبا لشدة حاجة الأمة الاسلامية اليه فى هذا الزمان ،
 وأكثر الناس فى الحياة صم عن أن يسمعوا النداء ، عمى فلا يستطيعون الاهتداء ، فهم لا يسمعون ولا يبصرون

وإذا قيل لهم انظروا بقولكم واتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما كان عليه الآباء ، أيكون ذلك ولو كان الآباء
 لا يفتقرون ؟ ومن ذا الذي يهتدى بالعميان ، قتل الانسان ما أشد جهله ، وأقل علمه ، ولعمرك ما حوت الأنعام
 وإنما حوت الميتة والدم ولحم الخنزير وماذا كر اسم غير الله عليه ، وبجمل ما حرم من ذلك للضطر إذا لم يبق
 على طرفة الآكلين فيها يأكلون ولم يجاوز الحد فيسلا المعدة ولا يجتري بما يبد الرمي فهدان محرم عليهما
 الرخصة ، شأن الأمم إذا دنا أجلها وذهب مجدها أن تسبدل الترهات بالحكمة وأقوال السجالين بالعلم كأهل
 سبأ إذ رطلوا عرهم بجانب عرهم لما أعرضوا عن حكمهم ، وجهلوا نظام الصمران ، وهندسة البنيان ، وهكذا
 العرب الجاهلون لما طال عليهم الأمد وقتت قلوبهم نساو دين إبراهيم ، وماتت عقولهم ، وذلت نفوسهم ،
 وتخطفتهم الأمم المحيطة بهم من كل جانب لولا حجة جاهلية وشننة عربية ، فكانوا يحلون ويحرمون بغير علم
 ولا هدى ولا كتاب منير ، والمسلمون اليوم حذوا حذوهم ، واتبعوا خطوات غيهم ، واعتزلوا عقولهم ، إلا من
 رحم ربك ولذلك أنزل الكتاب لهم . ولأخص الكلام في مقالات ثلاث في هذه الآيات . المقام الأول :
 الحب ، الثاني : الرؤساء والمرءوسون . الثالث : الحلال والحرام . وهك يانها :

المقام الأول : الحب ، والعشق ، والشوق ، وما معني حب الله

اعلم أن كل ما حولنا ونشعر به ونعلمه بالنسبة لنا ينقسم قسمين : . وفاق ومنافر ، فكل موافق أحسنه ، وكل
 منافر كرهناه ، فالحب والبغض تاسمان للواقفة والمنافرة ، لافرق في ذلك بين الطيور في وكناتها ، والآساد في
 آجامها ، والحيات في أوكارها ، والنحل في بيوتها ، والناس في منازلها ، والملوك على عروشها ، والأنبياء
 والحكماء ، قاعدة عامة لا يند منها حي في المالمين . الحور والورد والعسل ، والصور الجيلة ، والنغمات الموزونة
 مع الأصوات الحسنه تمجها لموافقها الحاسة الس والشم والذوق والبصر والسمع . والشوك والروائح الخبيثة
 والحفظل ، والصور القبيحة ، والأصوات المنكرة ، نكرها لمنافرتها الحواس المتقدمة على الترتيب المذكور .
 فهذه عشر صور خمس للكرهات ، وخمس للمحوبات ، وهكذا سائر ما حولنا من الناس والذواب والمعادن
 والنبات ملحق بهذه العشرة مقسم الى هذين القسمين .

الخيال والتصور

ثم اننا اذا غابت عنا تلك الصور الجيلة ، والنغمات اللذيذة ، والمطعمات الحلوة ، والمشمومات المرغوبة ،
 فانا تصورها بقوة الخيال ، ونستحضرها في العقول وتذكرها ، ولنا فيها ما ريب شئ هناك فنستلذ بحضور
 صورها كأنها مشاهدة ، أو بالاستنتاج من أحوالها ، أو بتذكرها منها ، وهذه لذة تخاكي لذة الاحساس
 ولكنها أضعف منها ، وهكذا الصور المكروهة تصورها فتؤلنا كأنها حاضرة ، ولكن الألم يكون أقل لأن هذا
 خيال وذلك حقيقة .

العلم

ثم اننا لا تقتصر في الحب على المشاهد فانا نحب المحسنين في أي ملة ودين ونحله ، ونحب الشجعان الذين
 حكيت لنا قصصهم وتولوا نهم ، ونحب الحكماء والعلماء وأرباب الجلال وإن لم نشاهدهم ، فانا نرى أن العاتية
 الذين يسمعون قصة عنتره يهيمون غراما بعبدة وبزوجها ، ولا يهنأ لهم طعام ولا شراب إلا بذكر تلك الأسماء
 ومدحها واعظامها واجلالها . نرى المتعلمين المصريين يهيمون بنا بليون لشجاعته وحمته . نرى فريقا من
 الناس يحب عيسى ، وفريقا يحب بوذا ، وفريقا يحب موسى ، وفريقا برهمة ، وفريقا كوخشيوس . كل ذلك
 تابع للعلم بتاريخهم ، والاطلاع على عملهم ، فالشجعان والعلماء محبوبون ، والمحسنون والمبارون والصادقون ،

ان ذلك راجع للجمال العقلي . وكل ذلك لموافقته لظفرنا ونفوسنا ، ونحن نكره الخمر بين الالتم وتنفر منهم مثل نبرون وقراقوش الظالمين ، ونكره الجهال والجنائ والكسالى ، لأن ذلك لا يوافقنا .
وبالاجمال المحبوب والمكروه يكونان في المحسوس والمعتول بهذا البرهان ، وبهذا تبين أن المحبة واليغض تابسان للعلم ، والعلم إما بمحسوس أو معتول .

العشق

فاذا ما عمادى الانسان في حب شيء ودام على ذلك ، وغفل عما عداه ، وصار هو همه الشاغل له ، كان ذلك عشقا ، فالعاشق يكون مولعا بمشوقه لا يحب أن يفارقه ، والعشق الإنساني الذي هو المظهر المحسوس معروف متداول بين الناس ، والجمهور لا يفهم من العشق إلا هذا المعنى مع أنهم يجدون التاجر الذي نسي كل شيء إلا تجارته ، والصانع ، والمزارع ، والقائد ، والعالم ، والمهندس الذي خلبت الهندسة عقله ، وسلبت له ، حتى لا يرى أجل الصور أمامه لشدة شغفه بالهندسة ، فنحن نسمى المهندس والطبيب والتاجر والقائد الذين سلبوا حب كل شيء إلا ما هم فيه من هندسة وطب وتجارة وحرب نسميهم عشاقا ، إذ القاعدة في الحب والعشق أن تنظر الى ما فضل على ما سواه عند المحب العاشق ، وتقيس نفسه بمن جلس على مأدعة وأمامه التفاح والموز فننظر الى أيهما تمتد يده فلاشك أنه يقدم عند الأكل أشهما لنفسه فنقول : هذا يحب الموز أكثر من التفاح مثلا ، هكذا اذا رأينا رجلا يتحدث الجليسين ويقبل على أحدهما بوجهه أكثر علمنا أن حبه له أكثر من حبه للآخر ، ونرى الشاب القوى البنية له خطيبة جميلة مرغوبة قد يفضل السفر والغربة الى أوروبا ليحي قلبه بالعلم ويتحمل مفضل الفراق ، فتحكم بأن هذا الشاب فضل العشق العقلي وهو الرقي في الحياة على العشق الحسي ، علمنا من هذا أن الحب يكون للعلم وللقدرة التي هي الشجاعة والاحسان والجمال ، فالعلم محبوب ، والشجاع محبوب ، والمحس محبوب ، والجميل محبوب .

حب الله

وعند النظر في هذه العوالم المشاهدة ، والتأمل في جاهلها وبهائها نجد هذا الجلال والبهجة والحسن في الورد والزهرة والشمس والقمر والكواكب والنجوم وجميع الصور الجميلة الخالبة للعقول الجاذبة للنفوس انما هي قوش في هذه المادة ، والمصور لها أجل منها ، وهي مظاهر ذاته كما يقول الصوفية ، وكما رأيت في كلام [سبسر] وهكذا علم العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونبوة الأنبياء ، انما هي من عنده ، فهذه العوالم المشاهدة تدلنا أن صانها أقدر من نابليون وعنترة ، وأعلم من عيسى ومحمد والجمال لعزة وليلي من جلاله ، فالجمال له ، والعلم له ، والحكمة له ، والقدرة له ، ونحن قد قررنا أن الحب يكون على مقدار الموافقة ، ولو أن المحبوب كان جليل الصورة ، حسن النعم ، حسن الخلق ، عطر الراححة ، فصيحاً ذكياً عالماً ، لكان ذلك فوق كل جلال ، ومن عرف هذه الصفات فيه غاب عقله وفنى فيه وأصبح هائماً ، بل ربما سلب له بعقله . هذا عند المدرك له ، لأن من ذاق عرف ، ومن عرف أحب ، ومن زاد حبه عشق ، ثم يكون الوله والفناء ، فأما من قل ادراكه فانه لا يعرف إلا على مقدار ما وصله ، ألا ترى أن الأعمى لا يدرك الصور الجميلة ، والأصم لا يعرف جلال النعمات فهذان لا يمكن أن يعقلا أو يتصورا صور الجلال والبهجة النعمات ، فالمدار على المعرفة في المحبة ، ومن جهل شيئاً عداه ، ولذلك نجد الأمم تنشر لغاتها وعاداتها بين الناس لتحب ، فأما المجهول فهو شهود ، فمن تحقق في الله أنه هو المتصف بالجمال والقوة والعلم والاحسان ذابت أمامه صورة عزة وليلي ، ورأى عنده من العلم والقدرة والاحسان ما لا يدانيه علم عالم ولا نبي ولا حكيم ، ولا احسان محسن ، ولا قوة شجاع ، وحينئذ يصبح هائماً في جلاله وعلمه وقوته واحسانه أكثر من كل جليل عالم مقتدر « وأن الى ربك المنتهى » .

الشوق

قد قدّمنا أن المحبوب إذا غاب عن عيانتنا حضر بصورته في خيالنا ، وقول الآن ان هذه الصورة نخشانا أن نستكمل مشاهدتها لأن حضور الصورة في الخيال ناقص والنفس تحب أن تمتع بالرؤية التامة ، وهذا هو الشوق ، فالشوق حاضر بعضه غائب باقيه ، والنفس لا تفتأ تجتهد حتى تستكمل التمتع بالجمال ، وعلى ذلك نشاق الى المحبوب لنراه وتستكمل المشاهدة وهكذا إذا نظرنا وجه المحبوب تطلعت النفس إلى بقية جماله وماخى وراء ذلك ، فالمطلوب للشقاق إما غائب كان حاضرا واما حاضر ستر بعضه ، فهو يود استكمال باقيه بالمشاهدة ليكمل له ما أراد .

الشوق لله

ولا جرم أن هذا العالم المشاهد بهجة وجمال وحسن وكمال ، فالكواكب بحساب ، والنبات منظم عناصره الداخلة فيه ، وكل شيء بمقدار في هذا العالم ، ومن ينظر ليلا للنجوم يحمد من البهجة والحسن والنعارة ما يذهل عقله ، وانما غاب هذا الجمال عن الجهال لأنهم أشبه بالعميان أمام العادات الحسان ، وبالصم عند سماع الأوتار في أيدي البيان ، ولم تفتق لهم الحاسة التي بها يدركون ، ومن اللوانع معرفة هذا الجمال أنه مبدول لكل انسان ، ولقد قدّمنا في هذا التفسير أن أكثر النوع الانساني عبيد العسا فاذا قرعهم الله بعصاه وأذهبهم وأنزل عليهم البلاء ، ثم تفحصهم رحمة من عنده حدوده لأنهم لا يعرفون النعمة الا بعد البلاء كالحيوانات الهجم ، هكذا لا يعرفون الجليل الا إذا اختبأ عنهم وترفع حينئذ يعز عليهم ويعظم في أعينهم ، فلما المبدول لهم فهو مبتذل والسبب وجمالها أجل من الجواهر واليوافق والصور البديعة المعلقة في القصور ، ولكن الناس لجهلهم وقصورهم لا يعقلون من الجمال الا ذلك الحقيق الذي في قصورهم أو دورهم كالليرة والمرجانة ، ولعمرك ليس في الأشجار الثمينة من الجمال إلا أثره بالنسبة للكواكب [وقال الامام الغزالي] مامعناه .

ان الناس لا يفرحون بالكواكب لأنها مبدولة لهم ، وهي لانسبة بين جاهلها ، وجمال الحدائق الفناء في الأرض ، وتراهم إذا رأوا حديقة قدمعوامن دخولها ازدجوا عليها لأنهم مغمرون بالمنوع معرضون عن المبدول . أقول : ولذلك قلّ الأنبياء والحكماء في نوع الانسان الذين أدركوا الجمال وتفرغوا لمهذبة الناس فهم المغمرون بالجهاب لأنهم عرفوا واشتاقوا فشوقهم لله يحثهم على البحث في جمال العالم ولا يزالون يجتهدون ، وكلما وصلوا إلى جمال طمعوا فيما وراءه ، ولهذا تجود الحكماء يقرعون سائر العلوم ، وهي حقيقة الجمال ، ثم يطمعون فيما وراء ذلك من المباحث بأفكارهم ويحدون لذة لا يعرفها سواهم كما لا يعرف الأعمى جمال الصور ولا الأصم حسن النغمات ، فهؤلاء مدفوعون بحب الجمال هائمون ، وكذلك يريدون أن يستكملوا الجمال فانهم في هذه الدنيا مغمورون في المادة يقرعون العلوم ، وينظرون جمال النجوم ، ويعلمون أن ذلك قشور ، وأنهم بالموت أو بالتجرد من المادة يطلعون على حقيقة الجمال ولا يزالون يجتهدون في تصفية نفوسهم وتقوية ملكاتهم ، حتى إذا ماتوا وصلوا إلى الجمال الحقيقي كما أن العاشق إذا قابل من أحبه تمتع بالجمال الأتم ، فهنا طلب العاشق الأتمين : زيادة الاطلاع على الجمال ، وحضور ماغاب من المحبوب كما في العشق المادى الذي شرحناه [ان الناس] مغمورون في الجمال من شمس ، وقر ، وكواكب ، وعلوم ، ورياض ناضرات ، وحقول بهجات ، وأكثرهم نائمون ، فتبين أن حب الله راجع إلى الترام بالعلم ، والتفرام بالعلم يرقى الأمم [ونتيجة القول] أن حب الله قليل بين المسلمين لأنهم عن العلم معرضون ، وبالجهل قاصون ، ولقد اكتفى الصوفية الصادقون منهم بحب الله الجزئية لا الكلية ، وبالتفوح في السواثر التي خلقوا فيها من تهذيب الأخلاق أو نحوها ، وهذا ولذة قصور وعيب

فالعالم بالتعلم ، وحرام على رجال الصوفية أن يقصروا في حث تلاميذهم المستعدين على قراءة العلوم الغربية والشرقية ، والتفكير ، والتعقل ، وليكن ذلك على مقدار الاستعداد ، بحب الله يرقى المسلمين ، وبالأعراض عن حبه وجهلهم به أصبحوا عرضة للطامعين ، فأين حب الله أيها المسلمون ، وما الحب إلا نتيجة العلوم ، فأين العلوم ، وأين الحب « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

عجبية

لعلك أيها الفطن تقول : وهل قوله تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » يفيد هذا الذي أطلت به .

أقول : على رسلك لماذا جاءت عقب قوله : إن في خلق السموات والأرض الخ أعني لماذا ذكرها الله بعد أن ذكر السماء ، والأرض ، والليل ، والنهار ، والسنن ، والنبات ، والحيوان ، والرياح ، والسحب ، هل هذا الترتيب لغير فائدة كلا ، وإنما يقول إن حبي تبع للعلم ، فعلى مقدار العلم يكون الحب فتجيب من الترتيب العجيب ، وبهذا فلتعرف مجيزة الأنبياء ، فلعمرك أنها لمجزات دائمة ، وقال ابن الفارض فيمن غرتهم العلوم اللغظية وأعرضوا عن الحقائق :

ولأنك عن طيشته دروسه • بحيث استخفت عقله واستقلت

وقال شكسبير الانجليزي شعرا ، وقد ترجمته من قبل إلى العربية :

إذا كان هذا الكون يكفؤه الذي • براه فأولاه الجلال وتما

فما ذا براه عاقل غير أنه • قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وقال سنيكا الروماني : « ما أعجب أمرك أيها الانسان وما أشد غفلتك ، لو أن امرأ وهب لك أيها الانسان قطعة من أرض محدودة لشكرت نعمته ولأوليته جدا كثيرا ، أولم تعلم أن الله وهب لك الأرض بأقطارها وفجاجها المنسعة الأرجاء البعيدة المدى فهلا شكرته عليها وهلا عرفته نعمته ، ولو أن امرأ وهب لك قودا من ذهب أو فضة لا تكبر فضل ولا تجلته أعظم الاجلال ، أولم تعلم أن الله قد خزن لك القناطر المقنطرة من الذهب والفضة في الجبال ، أفلا شكرت نعمته وأعظمت آلاؤه ، ولو أن امرأ أهدي لك بيتا جيلا فخما لحسبت أنه خير المحسنين ، ولكنت مولاه ورهين إحسانه مدى الحياة ، أفلا تعرف نعمة الله عليك في هذا البيت العظيم الذي أعطاك سقفة القبة الزرقاء المرصعة بأجل السراري ، وأسفله هذه الأرض التي تسكنها ، ألم تر الشفق والبدر المنير ، قل لي بحقك من أين جاء النور لعينيك ، ومن ذا وهبك الدم فكنت به حيا ، أولم تحسن بالجوع فأكلت فمرفت فضل الله عليك ، ألم يهب لك أنواعا من الأنعام ، وأصنافا من الحيوان غذاها بالكلا ، وقواها بمرعاها ، أيها الانسان احمد الله الذي خلقك ، ولم تكن شيئا مذكورا ، وأخرجك من الظلمات وجعل لك نورا » هذا كلام [سنيكا الروماني] وذلك كلام [شكسبير الانجليزي] .

أيها المسلمون أفلسنا تقول لهم نحن أحق بالله منكم نحن أرباب الديانات موسى ، وعيسى ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ، فكيف يكون منهم من يهيم بفعل الله تعالى ويقبل فينا مثلهم اليوم ، قلت لك كلام [سبنسر] وهو فيلسوف الانجليزي واللورد [افبري ، وسنيكا ، وشكسبير] في مواضع مختلفة ، أفليس المسلمون أولى بالعلم منهم ، هؤلاء عرفوا العلم بقوهم ، ونحن لنا عقول ، ولنا نبي منا ، وقد جاء في القرآن « يحجهم ويحبونه » وجاء هنا « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » ، وإنما كان الذين آمنوا أشد حبا لله لأنهم هم الذين يعرفون العلوم فيدركون جلاله ، وأين المدركون الجلال إلا القليل وسيكثر فينا هؤلاء إن شاء الله ، نعم فينا محبون عاشقون لله من طائفة الصوفية ، ولكن يجب أن يكون طواص

من المسلمين منهم ، أو من غيرهم تدرس هذا الوجود كما درسه غيرنا ، فإن التقصير في ذلك قصص في حب الله
وعيب فاضح في الأمة « والله هو الولي الجيد » .

ومن الغرام بالجمال والعلم والحكمة والنظام الذي امتاز به الناس عن الحيوان وازداد به الحكماء عن
العامية ماجرى أثناء تأليف هذا التفسير من ذلك الحادث الجليل العجيب المدهش الذي ارتجتله الأرض وتجاوبت
بذكراه أصداء البرق وخرت لعظمته الفحول من الحكماء سجدا وصار موضوع أعجاب العامة والخاصة
ذلك هو كشف مقبرة بالوجه القبلي من بلادنا المصرية لملك تولى عرش مصر العليا والسفلى سنة ١٣٧٥
قبل الميلاد يسمى [توت عنخ أمون] فيكون قدمضى لها نحو (٣٢٠٠) سنة ووجدوا بها من التماثيل
والأحجار الثمينة والصناعة الدقيقة مالا نظير له في عصرنا وفي هذا الكنز لعم وفاكهة تملأ خسا وعشرين
حقيقية لاتزال حافظة شكلها ، وفيه مركبات [عربات] مرصعة بأحجار ثمينة وعليها كتابة هير وغليفية ومتكات
وثياب رقيقة وتيجان مرصعة بأحجار ثمينة مختلفة وعلى كل تاج ثعبان عجيب وهناك من الأدوات والزينة
ودقة الصنعة مالم يحصر عند كتابة هذه الأسطر . وقال العارفون : ان جمال الصنعة والاتقان في هذا الكنز
أظهرت أن اليونان والرومان كانوا أطفالا بالنسبة لما شوهد في هذه الجباب ، ان جميع العالم في الشرق
والغرب دهشون والكاشف له رجل انجليزي مغرم بالعلم والبحث فيكون هذا من أنواع الغرام بالجمال والحكمة
والصناعة والرجل صرف مالا كثيرا للغرام بالعلم وقضى سنين وليس له من الكنز الاشر العلم ، ولعلك تقول
ما لتفسير القرآن ولهذا الحادث ، أقول نحن الآن في مقام حب الله تعالى وقد قررنا أن حب الله يدعو للبحث
في جمال صنعته واتقانها وكلما زدنا بحثا زدنا سعادة

وعلى تقين واصفيه بحسنه • يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فاذا رأينا الناس يقدسون هذا الملك المصري لظهور آثار دولته واتقان صنعه فاذلك الاتمعهما عن الناس
واحتجابها قرونا طويلة فافتن الناس بما منع عنهم كما قدمنا في شأن الناس أنهم يهرعون إلى ما بعد عنهم
أما جمال الله وصنعه فهما مكنونان في جمال النجوم والقمر والشمس والنبات والحيوان ، وما الذهب الذي
زين به عرش توت عنخ أمون الاقطع مما كنزه الله في الجبال للناس ، فلما كان هذا شأن الناس في كل جيل
لا يفرحون الا باللمنوع المحبوس عنهم غفل أكثرهم عن جمال الصنعة الالهية ولم تفتح عين أحد منهم إلى
مشاهدتها إلا الحكماء من كل أمة فأولئك لا يزالون يفكرون و يبحثون و يعقلون وهم يزادون عشقا ، وكلما
فتحو كنزا ازدادوا شوقا حتى يبهروهم الجمال ويضوا بأرواحهم في البهاء والنور والعرفان ، فلئن بهر الأمم اليوم
مقبرة [توت عنخ أمون] فلله حكماء كل يوم من ذلك كنز جديد وغرام وعشق وشوق يزداد جده وما يعقلها
إلا العالمون ، وقد صور الله الوجوه الجميلة وأبدعها في منظرها البهيح وزوق عقول الحكماء بأنواع الجمال
العلمي وألم الصناعات النقش والتصوير وذوى الاصوات الجميلة الثفن في الألحان وضرب العيوان الشجية الاصوات
وحكم على كل عالم وصانع أن يودع علمه وصناعته بطون الكتب والطوامير والدفاتر وأسر الملوك السابقين
بالقضاء الحتم أن يتركوا آثارهم لمن يأتي بعدهم ان كل ذلك إلتزيم بتلك الألوان من الجمال عقول الناظرين
في الجمال السامعين للنعمة القارنين للعلم والحكمة المطلعين على الآثار القديمة تمرينا على قبول الحكمة
وتشويقا إلى الازياد منها ، فلا تظن أن الله ألهم القدماء أن يفعلوا هذا إلا الحكمة دبرها وعدة أبرزها فالجمال
المنظور والمقروء والمسموع يحدث جمالا عند الناظر والقارى والسامع وذلك كله تمهيد وتشويق للاطلاع على
الجمال الأعلى الذي لا يقبله إلا قليل فالجمال الأدنى داع إلى الجمال الأعلى فاذا كان الناس يسمعون النعمت
ويرون الصور الجميلة ويهرعون إلى رؤية مقبرة الملك [توت عنخ أمون] فما ذلك إلا مقدمة لفهم « ان في

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر الخ ، فهم المقبرة والصور الجبلية
والنعمات والصناعات يشترك فيها أكثر الناس ولكن هذا العالم لا يبقه إلا العالمون [بكسر اللام]

الموضوع الثاني : الرؤساء والمرءوسون

اعلم أن الأمم والأفراد على قسمين قسم تفتاني في شهوات نفسه وتغامى عن المصالح العامة ولا يعامل سواه
من الأمم والأفراد إلا لظن نفسه فتري الأمة تذكر الحرية والمساواة والعدل ثم تسوق تلك الأقوال إلى إحياء
أنفسها بذبح الأمم الضعيفة وهذا هو الذي عاشت به بعض الأمم الغربية بل أكثرها وثرى الأفراد الذين
هم أصحاب رؤوس الأموال أبدا لا يوفون العامل أجره ولا ينصفونه في المعاملة ، فيقف الوزير وفي يده الجنى سيف
مصلت وفي يده اليسرى ذهب مضروب ويقول لرؤساء الأمم الضعيفة ان أعطتموني أعطيتكم هذا الذهب
وأدخلتكم في مصاف الأمم العظيمة مثلي ، وان عصيتموني سلطت عليكم سبني هذا فن أطاع من الأمم
الضعيفة الشرقية ودخل في حوزتهم عاملوه معاملة الحيوان أو أنزلوه منزلة الجناد ، ومن عصاهم أرغموه بالسيف
فان قادمهم أصبح محترما معظما وعاملوه بالاكرام معاملة الانسان لا لآساد ، ويقول أصحاب رؤوس الأموال
وفي أيديهم الجنى سيوف مصلثة لطرد العمال من أعمالهم وفي أيديهم اليسرى دربهات يعطونها أجره ،
ويقولون أيها العمال ان أعطتمونا أعطيناكم هذه الدر بهمات لتعيشوا بها وان عصيتمونا طردناكم فان اتحد
العمال وقاموا نالوا حقا وان أطاعوهم طحتهم ربح الأغنياء وباموا بالنكال

أما الأمم الضعيفة فأولئك إذا سلموا لرؤسائهم وقد ملك الجبن أفئدتهم وسلط عليهم الظالمون من الأمم
القوية أنواع النعيم والحظ ونمسوهم في الترف وزجروهم في الهوى والفسوق فلا شك أنهم يكونون على الأمم
المكينة أشد بطشا وأعظم خطرا من كل مصيبة وحينئذ يصبحون صعيدا جزا تذروه الرياح وتعاملهم الأمم
القوية معاملة الانسان للدجاج وللحمام تذبح أبناؤها ويحرق شأنها فهؤلاء الرؤساء لا يزالون للظالمين ناصرين
وللظالمين آكبين حتى يأتي أجل هذه الأمة وتندج في الأمة الغالبة فيقول رجالها للذين استكبروا « إنا كنا
لكم تبعا فهل أتم ، مغنون عنا » فيقولون : ان الله قد حكمت علينا وبتأ الرؤساء من المرءوسين ويقول كل منهم
نفسى نفسى حين يرون العذاب المحيط بهم فيقول التابعون ليتنا تداركنا أمرنا وعصينا ساداتنا وكبراءنا وقال
تعالى « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أتم مغنون عنا نصيبا
من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد » وقال سبحانه وتعالى في سورة أخرى
« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرنا بالآية » وفي سورة أخرى « قالوا ربنا
إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » وآيات كثيرة في هذا
المعنى ، إياك أن تظن انى أجعل معنى هذه الآيات التي هنا في أحوال الدنيا ان هذه الآيات واردة في أحوال
الآخرة حقا وان الرؤساء والمرءوسين يتجادلون ويقع العذاب على الجميع ، وكل مسئول لافرق بين رئيس
ومرءوس ، هذا لا شك فيه ولكن الآخرة صدى صوت الدنيا والناس قد تراهم في الدنيا على هذه الطريقة
سالكين فلرؤساء والمرءوسون قد متلوا هذا كله لاسما في أمم الشرق ، وبعبارة أخرى هذه سياستهم وهذا
هو الذى رأيناه ، وقد قال تعالى « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » فهذا وحقك هو العمى في
الدنيا وسكون العمى في الآخرة ويبقى الاحتجاج متصلا والظالمون والمظلومون في الدارين يتجادلون وكل
يجعل الذنب على صاحبه ، أفليس هذا مما يوجب أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ، أو ليس ما جربه
المسلمون من استيلاء الرؤساء على أمورهم كفايا في الرجوع إلى القرآن وينظر في سياستهم من هم أهل للحل

والعقد منهم ويجعلون بين أصحاب الأموال وبين العمال مودة ورحمة ، وقانونا يتفق مع المصلحة العامة حتى لا تقع فيما وقع فيه أهل القرب فكانت البلشفية فليكن العدل قائما كأيام عمر ، أو ليس ما تفعله الفرنجية . مهم من أنهم يعرضون عليهم عذابا وجهنم في أيمانهم ونعيا وجنة في ثنائهم وان من أطاعهم عذب ومن عصاهم ينعم بالحرية أشبه بما ورد في صفة المسيح الدجال ان من أطاعه ودخل جنته وجدها نارا ومن عصاه ودخل ناره وجدها جنة ، أليس هؤلاء قد لبسوا لباس المسيح الدجال ، ولست أقول أنهم هم نفس المسيح الدجال ولكن أقول هم جنوده هم أتباعه هم تلاميذه ، الدول الظالمة القوية المنتشرة في الشرق هي المثلة لذلك المسيح الدجال ، هي التي تحول في صلواتنا صباحا ومساء « اللهم اني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة الحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » أو يظن المسلمون في الشرق والغرب أن الصلوات التي تكرر صباحا ومساء وأدعيها جاءت لغير معنى فتكون أقل من الحرف في أقسام الكلمة [لأنه جاء لمعنى] فكيف يكون لنا نبيّ ولنا عقول وأسماع وأبصار ونكرر الألفاظ ولا نفعل لها معنى ، قدمت لكم أننا نذكر إبراهيم الخليل ونصلي عليه في كل صلاة كما نصلي على نبينا لتذكر تكسيره للأصنام ورجوعه للعقل وببذة التقليد ثم النظر في العالم العلوي والسفلي وهكذا مما ذكرته هناك عند قوله تعالى « ومن يرغب عن ملة إبراهيم » فارجع إليها ، فهكذا أقول هنا هل ذكر المسيح الدجال لغير معنى ، يا قوم ان الدجالين قد أحاطوا بالعالم الانساني فالرؤساء الذين استعملوا الشعب لشهواتهم دجالون ، والأمم التي تقوى أولئك الرؤساء دجالون وأصحاب رؤوس الأموال الظالمون للعمال دجالون والمناقضون والمخادعون والمخلفو الوعد دجالون ولا تكرر القول مرة أخرى انهم ليسوا هم المسيح الدجال بل أتباع وجيوش وأشباه أو قل مانشاء ، وانما هذا قصد الدين من الدعاء طلب الله منا في الصلوات أن ندعوه أن يخلع ربة الكاذبين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وهذا هو المقصود من ارسال سيدنا محمد رجة للعالمين ، يريد الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس كما تقدم عند تفسير هذه الآية وأن نكون أمة عدلا وأن نكون الرجة التي أرسل لأجلها نبينا ممثلة فينا ثم نبها بين الأمم فابتدى بالرجة في عشائنا ويسود الحب بقدر الامكان ويتمتع الفحش والخمر من بلاد الاسلام ونكلا العاجزين الثقراء من مال الأوقاف والصدقات ، فلا سائل من المتسولين في مصر والاسنانة وعواصم الاسلام ونحمل كل قادر على العمل مشغولا به فلا بطالة ولا كسل هذا هو الذي سيكون في مستقبل الزمان « وما أرسلناك إلا رجة للعالمين » وهذه الأمة التي تفعل ذلك هي القسم الثاني المقابل لقسم الظالمين في أول هذا المقال .

القسم الثالث في هذه الآيات الحلال والحرام

أجمت الأمة على تحريم أكل الميتة وعلى نجاستها ، واستنتى الشرع السمك والجراد والسمك الميت الطافي على وجه الماء حلله الشافعي ، وكرهه أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن جني ، وحرمه سيدنا علي وابن عباس وجابر بن عبد الله ، وأباحه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقال أبو حنيفة في الجراد يحل ما أخذته وما وجدته ميتا ، وحرّم مالك ما وجد ميتا ولم يحل عنده ما أخذ حيا إلا إذا ذكّي ذكاة مثله بأن يقطع رأسه وبشوى فإن غفل حتى يموت فلا يحل ، واتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينفق به وحرّم الشافعي جميع السماء المسفوح منها وغير المسفوح ، وقال أبو حنيفة دم السمك ليس بحرام ، قال لأنه إذا ليس بصير أبيض واستنتى الشارع من الدم الكبد والطحال ، ففي الحديث أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد والكبد والطحال

ولما الخنزير فقد أجمت الأمة على تحريم جميع أجزائه ، وجمهور العلماء أنه نجس ، وقال مالك بطهارته

فإن كل حيّ عنده طاهر ، ومذهب الشافعي الجديد أنه كالكلب إذا ولغ في الاتناء ، وفي التقديم يكفي في ولوغه غسلة واحدة ، وقوله تعالى « وما أهلّ لغير الله به » من العلماء من قال المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التي كانوا يذبحونها لأصنامهم ، وهؤلاء جوّزوا ذبيحة النصارى إذا ذكروا اسم المسيح عليها لأنه من طعام أهل الكتاب ، وطعامهم حلّ لنا ، وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشحبي وسعيد بن المسيّب ، وقال الشافعي وأبو حنيفة لا يحلّ ذلك لذكورهم اسم غير الله ، فأما سيدنا عليّ فقد قال إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا ، وإذا لم تسمعوهم فكلوا اهـ

الكلام على جلد الميتة وفيها سبعة اقوال

- (١) يجوز استعمالها كلها قبل الدباغ وبعده ، وهو قول الزهري .
- (٢) تستعمل كلها بعد الدباغ ، وهو قول داود .
- (٣) يطهر ظاهرها كلها بعد الدباغ لا باطنها ، وهو قول مالك .
- (٤) تطهر كلها إلا جلد الخنزير ، وهو قول أبي حنيفة .
- (٥) يطهر الكل إلا جلد الكلب والخنزير ، وهو قول الشافعي .
- (٦) يطهر جلد ما يؤكل لحمه فقط ، وهو قول الأوزاعي وأبي نور .
- (٧) لا يطهر منها شيء بالدباغ ، وهو قول أحمد بن حنبل .

الكلام على صوف الميتة وشعرها

يحرم الانتفاع بصوف الميتة وشعرها وعظمها عند الشافعي ، ويجلّ ذلك عند مالك ما عدا الانتفاع بعظمها خاصة ، وأما شعر الخنزير فأكثر الفقهاء وجهورهم متفقون على تحريمه ، ولقد آتمنا المقال في الباب الأول من « سورة البقرة » فلنشرع الآن في الباب الثاني وهو مقاصد .

الباب الثاني من سورة البقرة

وهو عشرون مقصدا

- المقصد الأول : كمال الانسانية وهو من قوله « لبس البرّ » الى قوله « وأولئك هم المتقون »
- للمقصد الثاني : القصاص .
- المقصد الثالث : الوصية
- المقصد الرابع : الصوم والجهاد .
- المقصد الخامس : الحج الخ .
- المقصد السادس : الحجر والمبسر .
- للمقصد السابع : البناء
- المقصد الثامن : أحكام النكاح .
- المقصد التاسع : الحيض .
- المقصد العاشر : الحلف بلفظ .
- الحادي عشر : الإيلاء والطلاق .

الثاني عشر: الرضاة وما بعدها .

الثالث عشر: عدة المتعة وعدة التوفى عنها زوجها .

الرابع عشر: أسرار الجهاد وما فيه من قصص بني اسرائيل وأعدائهم .

الخامس عشر: صفات الرسل وصفات ذات الله وفيها آية الكرسي .

السادس عشر: درجات ثلاث للعلم: الإيمان بالفطرة ، ونور النبوة كالعصر الأول للإسلام ، والإيمان

بالجدل كسألة الخروز وإبراهيم الخليل والإيمان بالمعانيه كسألة الطير ومستقبل الأمة الإسلامية .

السابع عشر: ضرب الأمثال الحكيمة الفريية في طلب الاثاق .

الثامن عشر: بيان المنفق عليهم وأحوال الاثاق .

التاسع عشر: بيان المعاملات في الأموال من الربا والرهن ونحوهما .

العشرون: خاتمة السورة بالإيمان بالله ورسوله ، والتكليف ، والدعاء ونهايته بالنصر .

(المقصد الأول)

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ليس البر) كل فعل مرضى ، وهو اسم جامع لجميع الطاعات وأعمال الخير المقربة الى الله
الموجبة للثواب ، والمراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة ، وقوله (وآتى المال على حبه) أى على حب المال ،
جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجرا ؟ قال أن تصدق وأن
صحیح صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، وقوله (ذوى القربى واليتامى) فأما ذوى القربى فإيتاؤهم أفضل ، أعنى
المحاويج منهم . قال صلى الله عليه وسلم : « صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحك اثنان صدقة وصلة »
وأما ليتامى بجمع يتيم وهو الذى لا أب له مع الصغر ، أى وآتى الفقراء من اليتامى (والمساكين) جمع مسكين
وهو الذى أسكنته الحاجة لأنه دائم السكون الى الناس (وابن السبيل) هو المسافرسمى بذلك للازمته الطريق
(والسائلين) هم الطالبون المستطعمون (وفى الرقاب) يعنى المسكاتين ، وكذلك أن يفك الانسان الرقب
بالتق وفداء الأسرى ، وقوله (وآتى المال) أى الزكاة المفروضة ، وما تقدم كان فى النوافل من الصدقات
(والموفون بعهدهم) عطف على من آمن (والصابرين فى البأساء) منصوب على المدح ، ولم يطف لفضل الصبر
على سائر الأعمال كما قدمنا فى قوله تعالى « وبشر الصابرين » فراجعه هناك ، والبأساء الفقر (والضراء)
المرض ونحوه ، و(البأس) مجاهدة العدو (أولئك الذين صدقوا) فى الدين واتباع الحق وطلب البر (وأولئك هم
المتقون) انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح

لما ذكر الله عز وجل أحوال الكافرين والمنافقين ، وخبائث اليهود ، ورجس العرب للمشركين ، وما أحلوا من المحرمات ، وحرّموا مما أحلّ الله ، طفق يذكرون كرهية البرّ ، وتعمام الايمان ، وجماع خصال الخير ، قال : « ليس البرّ » الخ . وورد في أسباب التنزيل أن اليهود كانوا يلهجون ببيت المقدس والنصارى بالمشرق ، وأن المسلمين أولعوا بالكلام في التوجه للقبّة ، وأذهلوا عما عداها ، فقال الله لهم : ليس البرّ أن تلهجوا بأسماء وتتركوا ما عداها ، ان الانسانية كثيرة الوجوه ، متنوّعة المشارب ، فلا تقفوا في موقف الذين قصرت أنظارهم ، وللانسان قوّة فكرية ، وصورة جسمية ، وأخلاق نفسية ، وأموال مملوكة ، فمن قصر نظره على الصلاة وهي بالجسم والروح ، أو على الايمان ، أو الأخلاق الفاضلة ، أو المعاشرة بالمعروف ، أو اتقاق الأموال ، فذلك قاصر ، فالبرّ أن تجمل النفس البشرية بالمعارف ، وأهمها الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية ، وأن يسخر لجسم في الأعمال الظاهرة كالصلاة والحج ، وأن يكون حسن العشرة ، فيعطى المال لقوى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وهو الضيف أو المسافر ، وأن يكون كريم الخلق فلا يخلف اذا وعد ، وسكأن يصبر عند الملمات كالقنبر وسدته ، والمرض وسدته ، والقتال وسدته ، لافرق بين الوفاء والصبر والكرم والصلاة ، الذين أمر بالوفاء والكرم والصبر ، وهذا هو الجلال والبهاء ، وهذه الآية جمعت محاسن الدين وأموره ولذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان » هذا هو الايمان الكامل كأنه يقول : هذه الأمم من يهود وعرب يختصمون ويختلفون بلا جدوى ، فهلا نبذوا الشقاق ، ونهجو نهج الوفاق ، وسارعوا الى البر بالعلم والعمل والصبر والاحسان ، يجب أن يذيع تعاليم الصبر بجميع أنواعه : أى على العمل كالجهاد والعلم ، وعن الحرام ، وعلى البأساء والضراء ، وليكن ذلك في أبواب كأبواب الفقه المشهورة ، وبذكري فضائل ذلك ، وبذكر أن الصبر تقوية للعزيمة ، ومن لم يمتحن على الأعمال وعلى المشاق والمصائب كان في جميع حياته طفلاً وجميع الأنبياء صبروا على أنواع كثيرة ، راجع ما كتبناه في قوله [وبشر الصابرين] الآية ، إذ بينا هناك أن السعادة محصورة في الصابرين في هذه الحياة الدنيا ، فما بالك اذا كان يوم القيامة ، فاعجب للقرآن كيف جعل الصابرين منصوباً على المدح للإشارة الى ما ذكرناه ، ولما كان الكمال يقابل النقص وكان للانسان قوّة غضبية وقوّة شهوية ، وهما أبدا يتسارعان في هدم هذا البنيان كما جاء في قصة آدم وقرى قصص بني اسرائيل والعرب أعقبه بحديث القصص وهو :

(المقصد الثاني)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْمِ بِالْحَرْمِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ
وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي
الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن

عنى له من أخيه شيء) أى شيء من العفو، واذن يكون بعض العفو كالعفو التام فى إسقاط القصاص، وقوله (فاتباع بالمعروف) أى فليكن اتباع بالمعروف أى فلا يعنف ولو لم يتم فى المطالبة، وقوله (وأداء إليه بأحسن) أى وعلى القاتل أداء الدية الى ولى الدم بأحسن من غير مماطلة (ذلك) الحكم المذكور (تخفيف من ربكم ورحمة) لما فيه من التسهيل كما سيأتى فى الإيضاح (فمن اعتدى بعد ذلك) أى قتل بعد العفو وأخذ الدية (فله عذاب أليم) فى الآخرة، وقوله (ولكم فى القصاص حياة) أى بقاء لأن القاتل اذا علم أنه اذا قتل قتل ترك القتل فيكون بذلك بقاءه وبقاء عشيرته وعشيرته الذى يريد قتله، لأنهم كانوا يقتلون طول الحياة لو أقدم على القتل، وقوله (ياأولى الألباب) أى ذوى العقول الكاملة، وقوله (لعلكم تتقون) أى تنتهون عن القتل خوفاً من القصاص. انتهى التفسير اللفظي.

الايضاح

كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحرّ منكم بالعبد والذكر بالأنتى، فلما جاء الإسلام تحاكموا الى رسول الله ﷺ فأمرهم أن يبايعوا القصاص، من قص الأثر اذا تبعه، فعلى ذلك يقتل القاتل بمثل ما قتل به من سيف أو عصا أو شدة رأس، وهذا قول الشافعي ومالك وأحد قولين عن أحمد، ومذهب الحنفية السيف، وليس فى الآية من دليل على ما ذهب اليه مالك والشافعي رضى الله عنهما من امتناع قتل الحر بالعبد والمسلم بالكافر، وإنما الدليل ما ورد فى السنة أن لا يقتل مسلم يذى عهد، ولا حرّ بعد، وهكذا فعل الصحابة من غير تكبير.

وهذه الآية أفادت التخفيف على هذه الأمة، فقد كان العفو عند الضرارى والقصاص عند اليهود، وكان العرب تارة يوجبون القصاص وأخرى يوجبون الدية، ومنهم من يطش فيقتلون فى الرجل رجلاً وفى المرأة رجلاً وفى العبد حراً، فجاءت هذه الآية بوضع القسطاس فى الأرض، فسوى الله بين الناس وجعل الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنتى بالأنتى، فلا يتجاوز عنه الى ما تنفعله العرب الجاهلية وما كان فوق ذلك من المسلم والكافر والعبد والحرّ فاعما هو محل الاجتهاد بين الأمم رضوان الله عليهم، وهكذا أفادت أن العفو عن بعض الدم موجب لسقوط القصاص، وللولى المطالبة بالدية، وعلى القاتل دفعها، وعلى ولى الدم اتباع بالمعروف ومطالبة بلا عنف، وعلى القاتل وعائلته أداء إليه بأحسن، ولا يوم أن هذا تخفيف على الأمة ورحمة بها وفتح باب لتسامحة والمساهلة، فلو قتل ولى الدم القاتل بعد أن أخذ الدية فله عذاب أليم فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار، إن القصاص حياة وإبقاء للأجسام والأرواح، ألا ترى أن الاضطراب ما وقع فى أمة إلا أزلها من شاق، وأحلّ بها العذاب الهون، ولما كلن الانسان بالقتل أو الموت مفارق السيار، وعليه أن لا يذروا رسته يتعجبون خبط شواء ذكر الله حكماً عاماً لكل من دنت وفاته، وحضرت منيته، وجاءت ساعته، فقال:

(المقصد الثالث)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بِمَدِّ مَآئِمَةٍ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ عَلَى الَّذِينَ يَدُلُونَهُ إِنْ
أَلَّهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّهِ
غَفُورٌ رَحِيمٌ *

التفسير اللفظي

شرعت الوصية في صدر الاسلام للوالدين والأقربين ، لما كانت عليه العرب من الايذاء للأجانب طلبا
للباهة والمفاخرة واطهار الكرم ، ثم نزلت آية الميراث «بوصيكم الله في أولادكم» وروى عن عمرو بن خارجة .
قال كنت آخذنا بزمام ناقة النبي ﷺ ، وهو يخطب فسمعت يقول [ان الله أعطى كل ذي حق حقه فلا
وصية لوارث] فنسخت الآية في حق الوارثين ، وبقي وجوبها في حق من لا يرث من الأقارب عند ابن عباس
والحسن ومسروق وطارس والضحاك ومسلم بن يسار ، والمذاهب المشهورة بين المسلمين على خلافه ، وعندى
أن هذا وجبه للثاني التروة في يد وارث ويحرم من هم من أسرته ، وهذا هو الذي نسي له الأمم الأورورية
ولقد سنّ الانكليز من نحو سنة أن يؤخذ من مال الفنى جزء للأمة لتلايق المال في يد وارث وتحرم الأمة
من التمتع به ، وهذه الوصية مستحبة عند الفقهاء وعلماء الشرع الذين يندمهم زمام الأمة الآن ، ولا يسن الا
إذا كان المال وفيرا والخير كثيرا .

ثم قوله في الآية (إذا حضر أحدكم الموت) أى أسبابه وظهرت أمارته ، وقوله (إن ترك خيرا) أى
مالا ، وقيل مالا كثيرا ، و(الوصية) هى التقم إلى الغير بما يملك به ، أو القول المبين لما يستأنف من العمل
(للوالدين والأقربين) وكانت الوصية للوارث في بدء الاسلام فنسخت بآية الميراث (بالمعروف) بالعدل
فلا يفضل الفنى ولا يتجاوز الثلث (حقا على المقتين) مصدر مؤكد : أى حق ذلك حقا ، وقوله (فن
بنته) أى غيره من الأوصياء والشهود (بعد ماسمعه) أى وصل إليه وتحقق عنده (فانما إنته) أى إنتم
الايضاء المغير (على الذين يتلونونه) أى على مبدله (إن الله سمع) أى لما أوصى به الموصى (عليم) بتبديل
المبتدل (فن خاف من موسى) أى توقع وعلم ، وقوله (جنفا) أى ميلا وجورا في الوصية وعدولا عن
الحق ، وقوله (أو إنما) أى ظلما (فلا إنتم عليه) أى لاسرح عليه ، والمعنى إذا حضر رجل مريضا ،
وهو يوصى قرآه يميل في وصيته . فلا سرح عليه أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجف ، وقوله (إن الله غفور
رحيم) ان أصلح وصيته بعد الجف والميل .

روى أن رجلا قال لعائشة رضى الله عنها انى أريد أن أوصى ، فقالت كم مالك ؟ فقال ثلاثة آلاف
درهم . قالت كم عيالك ؟ قال أربعة ، قالت انما قال الله «ان ترك خيرا» ، وهذا شيء يسير فاتركه لعيالك ،
والوصية مؤكدة في الدين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما حق
امرئ مسلم له شيء يوصى فيه أن يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده » . وقال ابن عمر ما سمت على ليلة
منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا ووصيتى مكتوبة عندى ، ولا يجوز تبديل الوصية
ولا تخريفها ، ولا تزيد على الثلث ، فانه هو المعروف ، ويجوز التبديل لمن رأى بين المورث والورثة جفاء ، فإذا
أصلح بينهم فتبديله جائز ، ان الوصية احسان وتجاوز عن المطامع وإيثار ، فكانت مما يطلبه علم الأخلاق
من التعالى عن الاستخذاء للشهوات فناسب أن يعقبها الصوم وأحكامه ، والفدية من العاجز كالشيخ الهرم
والمرضى مرضا لا يرجى برؤه ، فالصوم تهذيب وتأديب للقوة الشهوية ، وكذلك الوصية ، والفدية كلاهما
ترك للحرص على المال الذى هو من أكبر الآفات ، ووذائل الأخلاق ، فنظم الله عز وجل نذ الحرص بعد
الموت ، والحرص في الدنيا في سخط ولزهما في قرن ، وقبل أن نبدأ بالكلام على الصوم نذكر نبذة فيه حتى
تسفين لك حقيقته اجمالا تبصرة وتذكيرا لما يأتى من الآيات .

واجبات الصوم ستة

(١) مهابة أول شهر رمضان ، وذلك برؤية الهلال فان غمّ ظلتكمال ثلاثين يوما من شعبان ، ومتى علم المسلم ذلك بقول عدل واحد كفى ، وهلال شوال لا يثبت الا بعدلين ، والمراد بالعلم غلبة الظن وان لم يقض القاضي . (١)

(٢) النية ولا بد لكل ليلة من نية معينة جازمة معينة ، فلذا نوى الفرض مطلقا ، أو الصوم مطلقا ، أو شهر رمضان دفعة واحدة ، أو بالتهار في الفرض ، أو في ليلة الشك لم يصح الصوم .

(٣) الامساك عن إيصال شيء الى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحلقة ، وليس يفسد بالفسد ، والحجامة ، والاكتحال ، وادخال الميل في الأذن ، والاحليل الا أن يقطر فيه ما يدخل المثانة ، ولا ما يصل بغير قصد من غبار طريق ، أو ذبابة تصل إلى جوفه ، أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة الا إذا بلغ فيها فينظر ولا ينظر التامى .

(٤) الامساك عن الجماع ، فان جامع ناسيا لم يفسد ، ومن احتلم أو جامع فأصبح جنبيا لا يفسد ، وان طلع الفجر ، وهو مخالط أهله فتزوج في الحال صح صومه ، فان صبر فسد ولزمته الكفارة .

(٥) الامساك عن الاستمناء ، وهو إخراج المني قصدا بجماع ، أو بغير جماع ، ولا يفسد بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل لكن يكره ذلك الا أن يكون شيئا أو مالكا لاربه فلا بأس بالتقبيل ، وتركه أولى ، وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق للمني أفطر لتقصيره .

(٦) الامساك عن إخراج القيء ، فالاستقاء يفسد الصوم ، وان ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا ابتلع نخامة من حلقة أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعصم البلوى .

لوازم الإفطار أربعة

القضاء والكفارة والتدبير وامساك بقية النهار تشبيها بالصائمين ، فأما القضاء فوجوبه عام ، فالخائض قضى وكذا المرتد ، أما الكافر والصبي والمجنون فلا ، ولا يجب التتابع في القضاء ، وأما الكفارة فلا تجب الا في الجماع ، وأما الأكل والشرب وما عدا الجماع فلا تجب به كفارة ، والكفارة عتق رقبة ، وهذا لا وجود له الآن لمنع بيع الرقيق ، فان لم يقدر فصيام شهرين متتابعين ، فان عجز فاطعام ستين مسكينا مدا مدا ، وأما التدبير فتجب على الحامل ، والنرضع إذا أفطرتا خوفا على ولدهما لكل يوم مده حنطة لمسكين واحد مع القضاء ، والشيخ الهرم اذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا ، وأما امساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه ولا يجب على الخائض اذا ظهرت امساك بقية نهارها ، ولا على المسافر اذا قدم مقظرا من سفر بلغ مرحلتين ويجب الامساك اذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم في السفر أفضل من الفطر الا اذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج اذا كان مقيا في أوله ، ولا يوم يقدم اذا قدم صائما .

السنن في الصوم ست

تأخير السجود ، وتجهيل الفطر بالتمر ، أو الماء قبل الصلاة ، وتركه السواك بعد الزوال ، والجود في شهر رمضان ، ومدارسة القرآن ، والاعتكاف في المسجد لاسيا في العشر الأخير ، وهذه الأحكام على مذهب الامام الشافعي ، وفي بعضها خلاف عند الأئمة تركناها خيفة السامه .

(١) ولقد ألفت رسالة سببها الهلال جوابا على سؤال جاء من بلاد القزاان قبل الحرب العامة وسنجعلها في ضمن اللحق لهذا التفسير ان شاء الله تعالى (المؤلف)

أسرار الصوم

الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص ، أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن الشهوة كما تقدم تفصيله ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهوى الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله بالكلية ، ويحصل القطر في هذا الصوم بالتفكير فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر والتفكير في الدنيا الآتية تراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا ، فهذا الصوم اقبال بالهمة على الله وانصراف عن غير الله ، وتلبس بمعنى قول الله « ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » انتهى الكلام في الصوم وأسراره .

ولعلك تقول : كيف جمت بين المتناقضات في هذا التفسير ؟ ذلك أنك قلت في مواضع كثيرة ان طلب العلم وحوزة الصناعات واستعمالها واجبة ، وأن المسلمين مفرطون في ترك تلك العلوم للفرجة حتى أخذوا ديالهم واستحلوا أموالهم ، ثم أنك هنا تقول ترك ما سوى الله وعدم التفكير الا في الله فلن يتفق الأمران للعلم ، وهذا منك عيب تكلف نفسك والمسلمين الجمع بين الصدين ، ولعلك أصبحت مقابلا في الدين ومقلدا لعلاء النصر الحاضر فألفت بين متناقضين ، وهذا مستحيل .

أقول : لتذكر أن ما كان من أمور الدنيا ضروري للدين حافظ له موجب لبقائه يصبح دينا لادنيا ، فجميع الصناعات واجبة وجوبا كفايا على المسلمين ، وهكذا العلوم فالصناعات من الابرة إلى المدفع والقطار والعلوم من النحو إلى علم الفلك والطب كلها واجبة ، ولعلك تقول أيضا كيف تنظم هذه الدنيا نظما تاما كأوروبا أو نيقمها كما تقول ، والدين يقول لا تفكروا الا في الله ، وصوموا ، وصاموا ، وقوموا الليل ، والموت يكتفنا من كل جانب ، وكيف تنظم هذه الحياة ، ونحن لاشك تاركوها ، ان التفكير في الآخرة ، والاستعداد لها مشيط للعزائم موجب للاعتكاف في المساجد أو النوم والكسل حتى يأتي اليوم الموعود .

أقول : على رسلك ان الأمثال حاضرة مشاهدة « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ألم تر الى الفتناء في منزل أيها كيف تعلم أن سعادتها انما تكون في الحياة مع خطيبتها ، وهي كل يوم تنظف وتحافظ على بيت والديها كأنها لن تفارقه أمد الحياة ، ونرى رجال الحكومات المرشحين لوظائف أرقى بمهام فيه لا يزالون يظفرون على المصلحة التي هم فيها غير صادقة كأنهم لا يفارقونها وهم يعلمون أنهم لما تاركون ، وهذه الأسئلة انما ترد من الأمم الاسلامية المتأخرة لعدم فهم الدين الاسلامي والاقتصار على ظواهر العبارات والافكيك كانوا يفتحون البلاد شرة وغربا ، وهم يصومون النهار ، ويقومون الليل وتهجدون ، وكيف كان الفرس والروم في أهبته الملك وعظمته غلرقين في المادة والنعيم ، وكان أبنا صائمين مصليين متعبدون ، ثم يكسرونهم في الحرب ويأخذون بلادهم ويسبون نساءهم ، ولقد كان في مصر من جيوش الروم مائة ألف مقاتل فضلا عن الأمة المصرية التي كانت أكثر عددا من المصريين اليوم وما فتحها إلا اثنا عشر ألفا من آباءنا العرب ، وروى القزويني أن القوقس سأل رسله الذين قابلوا عمرو بن العاص ومن معه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم رغبة في الدنيا ولا تهمه ، وانما جلوسهم على الأرض ، وأكلهم على ركبهم ، وأبيرهم كواحد منهم ، ما يعرف رقيبهم من وضعهم ، ولا الحرقبهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يسألون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون في صلاتهم فقال عند ذلك القوقس : لو أنهم استقبلوا الجبال لأزوالها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد اه

فاظفر كيف جعل الزهد في الدنيا ، والترفع عنها ، والخشوع في الصلاة من أسباب الحصول عليها والسيلادة فيها ، وكان الناس كلما كانت نفوسهم أقرب إلى التجرد وأرضع عن الانغماس في المادة كانت أملاكها ، ولغة هو الولي المهيد .

(المقصد الرابع)

يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلِكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ * أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّقْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ قَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّامِ إِنَّا كُنَّا قَرِيبًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَأَلْنَاكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *

فَإِنْ أَنتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ
 فَإِنْ أَنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ
 فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
 الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) هو مصدر صام ، والمراد صيام شهر رمضان كتابة
 (كما كتب) أى مثل ما كتبت (على الذين من قبلكم) على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام الى
 عهدكم (لعلكم تتقون) المعاصى بالصيام (أياما معدودات) موقفات بعدد معلوم ، أو قلائل فان القليل من
 المال يعد عذبا والكثير بهال هبلا ، أى صوموا أياما الى آخره (فن كان منكم مريضا) مرضا يضره الصوم
 أو يصير معه (أو على سفر) أو راكب سفر (فعدة) أى فأفطر فعليه صيام عدد أيام فطره ، والعدة بمعنى
 العدود أى أمر أن يصوم أياما معدودة مكانها (من أيام آخر) سوى أيام مرضه وسفره (وعلى الذين يطيقونه)
 وعلى المطيقين للصيام ان أفطروا (فدية طعام مسكين) وسيأتى ايضاحه قريبا (فن تطلق خيرا) فزاد في
 الفدية (فهو) أى التلوق (خير له وأن تصوموا) أيها المطيقون (خير لكم) من الفدية وتلوق الخير
 (ان كنتم تعلمون) مافى الصوم من الفضيلة وبراءة الغنة اخترتموه (شهر رمضان) مبتدأ وخبره (الذى
 أنزل فيه القرآن) أى ابتدئ فيه ازاله ، وكان ذلك في ليلة القدر (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان)
 أى أنزل هاديا الى الحق وهو آيات مكشوفات مما بهدى الى الحق ويفرق بين الحق والباطل .

ايضاح هذه الآيات

قول : ان الله عز وجل ماترك الأمم السالفة ، والأجيال البائدة بلانتهذيب وتأديب ، فأوجب عليهم أن
 يجتنبوا التعالى في الشهوات والاكثار من الطعام ، فان النفوس الانسانية طاعروج الى الملائم الأعلى اذا ما عفت
 عن الطعام ، واقتصدت في الشهوات ، فلم يذع الله أمة إلا أدبها ، ولا ترك جيلا إلا أنذره وحذره ، ولقد كتب
 على النصارى صياما ، وعلى اليهود صياما ، وقال لنا : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على
 الذين من قبلكم لعلكم تتقون » المعاصى . ولما كانت الأمة الاسلامية أمة وسطا عدولا لا تتعالى في الشهوات
 فتنزل الى حضيض الحيوانية ، وتحرم من المراتب الروحية ، ولا تتعالى في التبرى من الأغذية فتضعف أجسامها
 وتذل نفوسها كما حصل للمبين والهند إذ صاموا صوما دائما ، فنبت البراهمة والبوذيون الشهوات نبذا مفرطا
 فضلبتهم الأمم ، وداستهم أمم الغرب ، وأذلم الطامعون ، لذلك جعل الله عز وجل صوم هذه الأمة أياما معدودات
 وهى شهر رمضان لتنال الحظين : قوة الأجسام ، ورياضة النفوس ، وانسراح الصدور ، وأمة هذا شأنها
 جديرة أن تمسك بأعنة الشرق والغرب ، وتشهد على الأمم ، وتقود غيرها الى طريق الفلاح ، ومرافق النجاح ،
 وعلى المريض مرضا يصير معه الصوم ، والمسافر سفر قصر اذا أفطرا أن يصوما أياما آخر ، وعلى الذين يطوقونه
 أو يطيقونه فيطوقونه أى يصومونه بجهد ومشقة كما يطوق المرء طوقا أى فلادة في عنقه ، أو يكلفونه بمشقة ،

على هؤلاء فدية أى جزاء لما وقع من قصير في العبادة وهي نصف صاع من برّ أو صاع من غيره عند فقهاء العراق ، ومدّ عند فقهاء الحجاز ، أو فطور فقير وسحوره عند ابن عباس ، فمن تلوّع خيرا وبرّ الفقراء وزاد في العطاء فله ثوابه ، على أن الصوم أفضل ، لأن الصبر عليه أشد ، والتكليف فيه أشق ، فانه خير للشيخ الهرم والمرضى والمسافر ، والمرضى مرضا لا يرجى برؤه ، وليست هذه الخيرية إلا إذا قدروا ، والا فقد يحرم وقد يكره وذلك بلاريب تابع أحوال الناس ، مختلف باختلافهم ، ثم قال « شهر رمضان » على البدل من قوله : « كتب عليكم الصيام » أى صيام شهر رمضان الذى فيه ابتدئ نزول القرآن حال كونه هاديا للناس بأعماله وآيات وانصحت بما يهدى به من الحق ويفرق بينه وبين الباطل لما فيه من الأحكام .

ولما كان الصيام لا يجب الا اذا رؤى الهلال أعقبه عزّ وجل بقوله (فن شهد منكم الشهر فليصمه) أى هلال الشهر فليصمه ، وخصمه بما بعده وهو قوله (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) الأترى أن المريض والمسافر قد شهدا الشهر ورأيا الهلال ، فكلاهما شاهد وكلاهما مريض له في السفر (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وما أراد الله عزّ وجل الا اليسر ولم يرد العسر (ولتكمّلوا العدة ولتكبروا لله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) أوجب الصيام على الشاهد لتكمّلوا العدة والقضاء على المريض والمسافر لتكبروا لله وتعظموه لما هداكم لطاعته ونوعها ، وهذا الترخيص يوجب الشكر على العباد ، ولما كان الصوم سببا لعروج الأرواح الى عالم الجمال ، ولأجور أن أوقات الصوم أقرب الأوقات لاجابة الدعاء ناسب أن يقول (وإذا سألك عبادى عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) . روى عن كعب أنه قال : قال موسى عليه السلام : « يارب أقرب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ فقال : يا موسى أما جليس من ذكرني ، قال : يارب فأنا نكون على حالة نحلّك أن نذكرك عليها من جنابة وغانط ، قال : يا موسى اذ ذكرني على كل حال . فلما كان الأمر على ما ذكره رغب الله تعالى في ذكره وفي الرجوع اليه في جميع الأحوال فأنزل هذه الآية .

[روى] أن اعرايا جاء الى النبي ﷺ فقال : أقرب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله هذه الآية ، والدعاء بمعنى العبادة ، أو بمعنى الطلب ، وقوله « فليستجيبوا لي » الاستجابة والاجابة بمعنى . قال كعب الغزوى :

وداع دعا لمن يجيب الى النداء • فلم يستجبه عند ذلك محجيب

واجابة العبد لله طاعته ، واجابة الله للعبد اعطاؤه ما يطلبه ، وقوله « لعلهم يرشدون » في قراءة بفتح الشين والأخرى بكسرها ، فنيها ثلاث قراءات ، يقول : ان أجابوني بطاعتي والإيمان بي أجبتهم وأعطيتهم رشدهم في مصالح دينهم وآخرتهم ، انظر الى هيكلك وجسمك ألست ترى أن يديك تلمسان بحاسة اللمس المواد الصلبة ، وفك يذوق بحاسة النوق ألطف ماني المادة ، وأذنك يشم ما يتناثر في الهواء من ذرات المادة وهي ألطف مما قبلها ، وأذنك تسمع أمواج الهواء الآتية من اصطكاك أعضاء الفم ، وعينيك تنظران النور الذى يتعالى عن المادة وهو ألطف منها بل هو أصلها ، فانظر أليس عقلك وهو أعلى مكانا من هذه الخواص يتصل بما فوق المادة وهو العالم الأعلى الروحاني ، وأرواحنا متصلة بالعالم الروحاني اتصالا عقليا لاحسيا ، معنويا لاجسما وكما أن كل حاسة اتصلت بما أحست اتصالا يناسبها كاللمس والنوق والشم والبصر ، فكذا اتصلت النفوس بالعالم الأعلى الروحاني « وأن الى ربك المنتهى » فهذا معنى قوله تعالى « وإذا سألك عبادى عني فاني قريب » فهنا قرب معنوى لاحسى ، فليس الله مادة ولا جسما ولا عرضا وانما هو مقدّس عن المادة يتعالى عن النور ، وهذا هو السرّ في قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربي » وقوله عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه عرف ربه »

عرفه به . فقولنا من العالم الاطى الروحي نزلة ، نزلة العين من النور ، والأذن من السموات ، وحاسة الهم من السموات ، ولكن أكثرها مغمور في الطبيعة محاط بالمادة ، وكثيرا ما تنزل اليها المعلومات الحقيقية عن الله تعالى ، وقد تختلط معارفها بالأوهام فجعل العقل والمنطق ميزانا لها ، فله عز وجل قريب من العبد ، فإذا سأله وهو موقن بالاجابة طامع فان الله يرشده ويوجب دعاه ، ولئن تصح الاجابة الا اذا توجه القلب لله عز وجل توجهها جازما على شريطة أن يكون بين السائل ومطلوبه مناسبة ، ولا جرم أن في العالم ما يناسب هذا . الأثرى أن المطر ينزل على الأرض ، والحديد يجذبه المغناطيس ، والبخار تجرى به الفلك في البحر ، فحقى كان بين الطالب والمطلوب مناسبة وتوجه بقلبه توجهها تاما ثم فكر بالعقل فيما يعمل به ويزاوله بعد ذلك فلا جرم يأتي له مطلوبه كما في قوله تعالى « أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » وهذا هو المعبر عنه عند كثير من علماء العصر الحاضر بقولهم [الاعتماد على النفس] وذلك أنها بتوجهها الى الله قوى همها فتجد في العمل ولا تخاف الزلل ولا تخشى الملل ، فهذا مقصود قوله تعالى : « أجب دعوة الداع اذا دعان » ، تدعوتني فأجيب وأنا أدعوك فأجيبوني بالطاعة والإيمان ، ادعوا الله أيها الناس في خلواتكم ، ووجهوا اليه هممكم ، ولا تقعدوا عن العمل ، وإياكم أن تدعوا وأنتم كسالى ، الدعاء توجه الهممة الى الله ، والله قريب من العقول ، والأرواح لها قرب من العالم الروحي كقرب العين من الضياء ، فوجهوا هممكم اليه تزدادوا هممة ، وقد قرر العلماء أن الهمم تنقلب الى حركات فيفيض القول على اللسان والعمل على الاركان ، فنتيجة الدعاء تقوية الهمم بالاستمداد من الله ليكون العمل المترتب على الطلب أحكم وأثبت ، وتعلموا أن الدعاء اذا لم يصحب بعمل وخالف فصل الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ريب ينزل الانسان من درجته الى مرتبة تحت الجادية فضلا عن الحيوانية ، الأثرى أننا نرى الطيور في جوار السماء تصدو وتروح للعمل ، ولم نرها نامت في أوكراها ، وطلبت أرزاقها ، وهذا الاتسكاس في المسلمين اليوم هو السر في أن دعاء الخطباء على المنابر يأتي بعكس ما يدعون ، وهكذا أولئك الذين يتلون الدعوات صباحا ومساء ولا عمل لهم فليس فيه تهذيب النفس ، ولا استنشاقها نسائم الرحمت فان كان القصد ذلك فعصا هو ، فان في ذلك الابهال سعادة لا يعرفها إلا ذاقوها ، وهناك تحس النفس بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب الجاهلين من البشر ، ومتى وجه المرء همته الى العمل ودعا الله وعمل لمطلوبه نال مرغوبه لا محالة ، الدعاء فتح لباب الحرية ، والاعتماد على الله ، ومنع النفس عن الذلة للمخلوق ، ويشير لتلك الحرية قوله تعالى « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يظاهرون قول الذين كفروا من قبل قلناهم الله أنى يؤفكون » فكأنه يقول انهم يظاهرون أى يباهون في ذلك من قبلهم من قدماء المصريين والرومان والعرب الذين يدعون غير الله . فأما أتم أيها المؤمنون فلا تدعوا إلا الله لتسكنوا أسرارنا نظرين بقولكم لا مقلدين ومن يعتمد على غير الله هان عليه أن يخضع للجبارة والملوك الظالمين ، فدعوني أستجب لكم ، ولست غائبا حتى تبادوني في البوادي والتفار وفوق رموس الجبال ، أنا حاضر عند أنفسكم وقلوبكم عرشى ، وفى هذا رد على بعض جهلة السياسيين كانوا يقولون : ان المسلمين يعتقدون أن الله بعيد عنهم ، ولذلك يجأرون بالليل والنهار ، ويصرخون في الطرقات كأنهم يبحثون عنه فلا يجدونه ، ولم يعلم أن الاستحضار بالقلب يلزمه النطق باللسان لتحام الاستحضار حتى يستجاب الدعاء ويصح العمل ، ثم أخذ يبين مبدأ الصوم ونهايته ، ولقد كان المسلمون اذا أمسوا أحل لهم الأكل والشرب والجماع الى أن يصلوا العشاء ، ثم ان عمر رضى الله عنه بأمر بعد صلاة العشاء فندم فنزلت (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) والرفث الافصاح بما يجب أن يكنى عنه ، ويراد به هنا الجماع اطلاقا مجازيا ، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة ، وهو هنا الجماع ، وقوله (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) أى ان كلامنا كما

يشتمل على صاحبه ، وأيضا هوسترله بمنه من الفجور (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تظلمونها بالجماع (فتاب عليكم) حين نبتم مما ارتكبتم من المحظور (وعفا عنكم) ما فعلتم قبل الرخصة (فإن بشروهن) لما نسخ عنكم التحريم ، وعلى المباشر أن يطلب بقاء النوع ، فلا قصد من الشهوات إلا منافع وفضائل وماعداه ففقدت زائلات وهو قوله (وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) . معناه حتى يتبين لكم ذلك البياض الممتد في الأفق وماعنه من غيبس الليل المشبهان خيطين أبيض وأسود ، فالفجر بيان للخيط الأبيض والليل الذى حذف بدلالة الفجر عليه بيان للخيط الأسود . عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال لما نزلت « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » ولم ينزل « من الفجر » فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزله الله عز وجل بعده « من الفجر » ففعلوا أنه إنما يعنى الليل والنهار . وروى مثله عن عدى بن حاتم إذ عمد إلى عقابين أسود وأبيض وجعلهما تحت وسادته الخ ثم بعد ذلك عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين آخر وقته فقال (ثم أتوا الصيام إلى الليل) ولما كان من السنة أن يعتكف الإنسان في الصوم فإنه أكد من غيره وأكثرها وأعظم أجرا وأقرب زلفى من الله عز وجل أعقبه جلّ وعلا بقوله (ولانبشروهن وأتم عاكفون في المساجد) ولقد كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيبشرها ثم يرجع ففها عن ذلك ، فالجماع يبطل الاعتكاف ، فالنهي في العبادات يوجب فسادها ، ولا يكون الاعتكاف إلا في المساجد ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده ، والجماع حرام في الاعتكاف ومادونه مكروه . واعلم أن الاعتكاف سنة ، ولا بد أن يكون في المسجد الحرام عند سيدنا على كما نقل عنه ، وفي المسجد الحرام ، ومسجد المدينة عند عطاء ، وفيهما وفي بيت المقدس عند حذيفة ، وفي كل مسجد جامع عند الزهري وفي كل مسجد له امام ومؤذن عند أبي حنيفة ، وفي سائر المساجد عند الشافعي ومالك وأحمد ، وهو في المسجد الجامع أفضل ، وهو في الصوم أفضل ، وقال أبو حنيفة الصوم شرط ، وأقله لحظة عند الشافعي ، ولا حد لأكثره ، وأقله يوم عند أبي حنيفة ومالك بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ، ويخرج منه بعد غروب الشمس ، والجماع كما تقدم حرام ويبطل له ، ومادون الجماع كقبلة مكروه ، وبعضهم يجعله مفدا للصوم ، وأما الملازمة بغير شهوة جائزة ، ثم قال تعالى (تلك) الأحكام التي ذكرت (حدود الله) أحكامه المحدودة (فلا تقربوها) بالخالفه والتغيير (كذلك يبين الله آياته) شرائعه (لناس لعلهم يتقون) المحرم . ولما كان الصيام والغدية والوصية نصرا في مال وقعا للقوة الشهوية ، وهكذا الاعتكاف فإنه كف للنفس عما هو مباح بحيث يلزم المرء مسجده فلا يبرحه إلا لحاجة من لحظة إلى أيام ، فهو كف للنفس عن الشهوات ناسب أن يلحق به الأدلاء أى الالتقاء بحكومات الأموال إلى الأحكام فلذلك قال (ولانا كلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوها بها إلى الأحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالائتم وأنتم تعلمون) أنكم يبطلون فإن حكم الحاكم لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ، ولذلك روى أن عبد الله الحضرمي ادعى على امرئ الكندي قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس ، فهم به ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الذين يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم » ، فارتدع عن اليمين وسلم الأرض إلى عبد الله فنزلت هذه الآية ، ولما كان الصوم لا يثبت إلا بالهلال ورويته وقد سأل معاذ بن جبل وعلبة بن غنم رضى الله عنهما النبي صلى الله عليه وسلم فقالا ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، وهكذا كانت الأنصار إذا

أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وإنما يدخلون أو يخرجون من فرجة ويمدون ذلك برأ بين الله لم
الأميرين بقوله (يسألونك عن الأهلّة) جمع هلال سمي به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته (قل هي مواقيت
للناس والحج) معالم يوقت بها الناس من أراهم ومناجرهم وصومهم وفطرمهم وحجهم (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت
من ظهورها) وليست الطاعة والتقوى بأن تأتوا البيوت من ظهورها أي بأن تدخلوها من ظهورها أي من خلفها
في الاحرام ، فبين لهم أن هذا ليس يبرّ وإنما البرّ من اتقى المحارم والشهوات فقال (ولكن البرّ برّ (من اتقى)
ما حرّم الله كالصيد ونحوه (وأتوا البيوت) ادخلوها (من أبوابها) التي كنتم تدخلونها وتخرجون منها قبل ذلك
(واقفوا لله) واخشوا الله في الاحرام (لعلكم تفلحون) لكي تنجوا من السخط والعذاب . ويقال ان كثرة
وخزاعة هم الذين كانوا يصلون ما تقدم من الدخول من غير الباب فكانوا يبدؤونها من الخلف ومن السطح
(وقالوا في سبيل الله) في طاعة الله في الحلّ والحرم (الذين يقاتلونكم) يبدؤونكم بالقتال (ولا تصدوا)
ولا تبندوا (إن الله لا يحب المعتدين) المبتدئين بالقتال (واقتلوهم حيث تقفتموهم وأخرجوهم من حيث
أخرجوكم) من مكة ، وهذا وعد من الله بفتح مكة لهم (والفتنة) الشرك بالله وعبادة الأوثان (أشدّ)
أشدّ (من القتل) في الحرم ، وأما فتن به الانسان من المحن كالإخراج من الوطن أصعب من القتل (ولا
تقاتلوهم) ابتداء (عند المسجد الحرام) في الحرم (حتى يقاتلوكم فيه) في الحرم بالابتداء (فإن قاتلوكم)
بالابتداء (فاقتلوهم كذلك) هكذا (جزاء الكافرين) بالقتل (فإن انتهوا) عن الكفر والشرك وتابوا
(فإن الله غفور) لمن تاب (رحيم) لمن مات على التوبة (وقاتلوهم) أي المشركين (حتى لا تكون فتنة)
شرك (ويكون الدين لله) أي خالصا لله لا يعبد دونه شيء (فإن انتهوا) عن قتالكم وعن الشرك والكفر
(فلاعدوان) فلا سبيل لكم بالقتل (إلا على الظالمين) المبتدئين بالقتل (الشهر الحرام) الذي دخلت فيه لقضاء
العمرة (بالشهر الحرام) الذي صدرك عنه لأنه صلى الله عليه وسلم خرج معتمرا في ذي القعدة سنة خمس أوست من
الهجرة فصده المشركون عن البيت عام الحديبية ، فصالحهم على أن ينصرف عامه ويرجع من قابه فيقضى
عمرته ، وقد تمّ ذلك ، أو يقال هذا في القتال ، أي فإن بدؤكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فانه قصاص
(والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم) بالقتل في الحرم ، أو بطلاق القتال (فاعتدوا عليه) فقاتلوه (بمثل
ما اعتدى عليكم واقفوا لله) واخشوا الله بالابتداء (واعلموا أن الله مع المتقين) معين المتقين بالنصر . ولما
كان القتال يعوزه المال قال تعالى (وأنتقوا في سبيل الله) تصدقوا في رضا الله ، وهو عام في الجهاد وغيره
(ولا تلتقوا بأيديكم إلى التهلكة) أي ولا تلتقوا أنفسكم إلى التهلكة ، وهذه التهلكة إما بأن تمنعوا النفقة في
سبيل الله فيقوى العدو عليكم فهلكوا ، وإما بأن تسرفوا في الانفاق حتى تنفقوا ، وإما أن تنهكوا فتيأسوا
من روح الله فهلكوا (وأحسنوا) الظن بالله كما تحسنون أعمالكم وأخلاقكم ، وكما تحسنون بالانفاق على
من تلزمكم نفقته ، وكما تحسنون بأداء الفرائض (إن الله يحبّ المحسنين) في جميع ما تقدم ، وقد نزل قوله
تعالى : « وقالوا في سبيل الله » إلى ههنا في المحرمين مع النبي صلى الله عليه وسلم لقضاء العمرة بعد عام الحديبية ،
ومن الاحسان بأداء الفرائض تأدية الحج فلذلك أعقبه بقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » وهو المقصد
الخامس الآتي . انتهى التفسير اللفظي .

إيضاح

يقول الله تعالى « يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج » في أعمالهم الدينية والعبادات
لا سيما الحج « وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها » كلا « ولكن البرّ من اتقى » بفعل الطاعت
وترك المعاصي ، وفيه إيحاء إلى أن السؤال عن سبب تغير الهلال وقطوره كالدخول للبيت من غير بابه ، فالبرّ

ألا يتركس المرء في سؤله ، وأن يأتي الأمور من أبوابها في الدين والدنيا ، ولما كان الصوم والاعتكاف كغالب النفس عن الشهوات ، والقتال ولاقاة الأعداء من أهم أنواع الصبر ناسب أن يلزا في قرن وتنظم جوهره الصيام ، وفلذة الجهاد في سمط واحد ، فكلاهما صبر ، وكلاهما رفع للنفس عن حال البهيمية ، فالصوم تعالى النفس عن شهوة الطعام ، والذلة للحطام ، والجهاد رفع لها عن أن تستخذى للظالمين أو تذل للقاهرين ، فالصوم جهاد الآمنين ، والقتال جهاد الخائفين على الأعراض والأموال ، وعلى الناس أن يربوا بأنفسهم عن الدنيا فلا يذلوا للشهوات كالجمارات ولا يسلموا قيادهم لمن يملونهم ، بل ليفكوا قيود الذلة عنهم ورفضوا البر عبودية عن أعناقهم ويكسروا أصفاد الذلة وأغلال الظالمين وليقاتلوا في سبيل الله ، الإنسان في جهاد مستمر وعمل دائم ، الإنسان في الحياة محوط بالأعداء من كل جانب ، فبهم من هم في داخل جسمه كالشبهات ، ومنهم من هم خارجه كالحيوان الكاسر ، والعدو المهاجم ، فليبدأ بقتال عدوه الداخلي ، فإذا فرغ منه فأحراه أن يقهر الأعداء المهاجرين .

وترى الأمة الإسلامية ، لما كانت تعظم الأعمال الدينية وترعاها حتى رعايتها غلبت أعداءها ، فلما تفرقت أهواؤها وخضعت شوكتها فخطفتها الأعداء من كل جانب ، فإن الناس إذا استبدوا لشهواتهم وذلوا أهولهم تفرقت كلهم ، وذهبت ريبهم ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فلا يرى العدو أمامه إلا أشباحا فرغته كأنها خشر مسندة ، ونفوسا مائة ، وعقولا خامدة ، فيحصدهم حصدا ، ويتخذ سيدهم عبدا ، وهذا سر قوله ﷺ عند رجوعه من إحدى الفزوات « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » وسر ما علمت من أن النفوس أيام أمنها واستيقاق الناس بأخلاقهم يدعو ذلك لانتلافهم ، وما غلبه العدو الأثرة الانتلاف ، ولا انتلاف إذا تعدت المآرب وتفرقت القلوب وذهبت شذم مندر ، فلذلك قال « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » الآيات ، قد كان ﷺ ممنوعا من القتال ، فلما أمكنته اليدان وصدده المشركون عام الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة وصالحهم على أن ينصرف عامه ذلك ، ثم يفود من قابل فيقضى عمرته ، ثم ربيع في ذي القعدة سنة سبع فقضى عمرته ، ولما أن أزمع على عمرة القضاء ونجوه هو وأصحابه خافوا أن لا تفي قريش بما قالت وتصدت عن المسجد الحرام ، وقد عاهدتهم أن تحل مكة ثلاثة أيام ففكره الصحابة أن يبحر بهم في الشهر الحرام في البلد الحرام في حال الاحرام ، فقل قوله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » وإياكم أن تقتلوا الشيوخ ، والنساء ، والصبيان ، والرهبان « ولا تعتدوا » بالقتال مفاجأة ، ولا بقتال المعاهد ، ولا تملوا بالقتول ، ولا تبدوا بالقتال من غير دعوة « إن الله لا يحب المعتدين » ، ثم ازداد الأمر واحتم وزل « واقتلوهم حيث تقتموهم » والتقف المذيق ، كأن من أدرك عدوه فهو حاذق ، وهذه الآية معممة للحكم بحيث يقتلون في حل وفي حرم ، فهي أشبه الآيات بآية الخمر ، فلقد حرم شيئا فشيئا ، فهكذا هنا منع القتال ، ثم شرع للقاتلين ، ثم عمم ، وقوله « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » أي من مكة ، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح ، ولا ريب أن التعذيب بالأخراج من الوطن أشد من القتل فهو عذاب واجب لازم ، والموت راحة ، فالفتنة والابتلاء بأخراجهم من مكة أشد من قتلهم ، ثم نهاهم عن ابتدائهم بالقتال عند المسجد الحرام حتى يبدوهم بالقتال ، وقوله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » أي خالصا من الشيطان « فإن اتهموا » عن الشرك فلا تعتدوا على المنهين إذ لا يستدى إلا على من اعتدى ، هذه الآية ترجع لقوله تعالى « واقتلوهم حيث تقتموهم » للدرجة الثالثة ، وهي تعميم القتال ، وقوله « الشهر الحرام بالشهر الحرام » الخ تأكيد للدرجة الثانية ، وهي قتل المعتدى بمثل ما اعتدى « فإن قاتلوكم » في الشهر الحرام ، أو البلد الحرام أو في حال الاحرام « فاقتلوهم » فإن الحرمات ، وهي ما يجب أن يحافظ عليها وتحترم بحريتها القصاص ، ثم

نفس هذا كله بفذلكه ، فقال « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، وهو في المرتبة الثانية ، ولما كان القتال لا يكون بلا مال أعقبه بقوله « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » بالكف عن القتال ، أو عن الاتفاق فيه ، والباء زائدة : أي ولا تلقوا أيديكم : أي أنفسكم إلى التهلكة : أي الهلاك كما تقدم في التفسير اللفظي .

ألا ترون أن الأمة الإسلامية لما نكمت على أعقابها ، ونامت على وساد الراحة الوثير ، وقهقرت إلى الوراء ، ونامت عن جمع المال ، وازداده في الجهاد ، وسبقها الأمم أخذت تبيد وتهلك ، فهذا هو الاقواء للتهلكة وذلك هو السر في حشد الجنود ، ورفع البنود ، وغر السفن في البحار ، واعداد الآلات ، والتسابق في الميدان والتنافس في صنع المدمرات ، وسبر الطيارات الطائرات « وأحسنوا » أعمالكم وأخلاقكم كما تحسنون محاربة العدو فليس يعني دفع العدو عن الفضائل الأخرى كالأغنى تلك الفضائل عن الجهاد ، وكما أنه ليس البر قاصرا على أمر القبلة والتولي إليها ، وليس البر أن تسألوا عن الأهلة ، هكذا ليس يعني جهاد العدو عن جهاد النفس ، فليكن المسلم جامعا لصفات الكمال ببدا عن خصال الشر وإياكم أن يفرتم أنكم مجاهدون أو صائمون ، فذلك أعقبه بمائل الحج ، وبعض مسائل من القتال ، وقبل ذكر آيات الحج وتفسيرها نورد أحوال الحج ليسهل عليكم أيها القارئ معرفة الآيات الآتية ، ولتكون لديك صورة تعقله بها .

شروط وجوب الحج خمسة

البلوغ والاسلام والعقل والحرية والاستطاعة ، ومن وجب عليه الحج ، وجبت عليه العمرة ، والاستطاعة أن يكون صحيحا ، وأن يأمن الطريق بأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخاطر ولا عدو قاهر ، وأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ، وأن يملك نفقة من تازمه نفقة في هذه المدة ، وأن يملك ما يقضي به ديونه ، وأن يقدر على ما يجعله في السفر ، ثم إن كان معضوبا ، وكان له مال فليستأجر من يحج عنه بماله بعد فراغ الأجير من حجة الاسلام لنفسه .

شروط صحة الحج

اثنان : الوقت والاسلام ، فيصح من العبي ، فيحرم بنفسه إن كان مميزا ، ويحرم عنه وليه إن كان صغيرا أو يضل به ما يضل في الحج من الطواف والسعي وغيرهما ، وأما الوقت ، فهو شوال ، وذو القعدة ، ونسح من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فن أحرم بالحج في غير هذا الوقت ، فهي عمرة ، وجبعت السنة وقت العمرة .

شروط وقوعه عن حجة الاسلام

الاسلام ، والحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والوقت .

الأركان التي لا يصح الحج بدونها خمسة

الإحرام ، والطواف ، والسعي بعده ، والوقوف بعرفة ، والحلق بعده على قول ، وأركان العمرة كذلك الا الوقوف .

كيفية الحج

إذا وصل إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه يغتسل وينوي به غسل الإحرام ويكمل الطهارة ويخطع ثيابه الخفيفة ويلبس ثوبي الإحرام فيرتدي ويتز شو بين أبيضين وعند ذلك ينوي الإحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو أفرادا ويكفي مجرد النية لانقضاء الإحرام ويسن أن يقرنه بالتلبية ، ثم يدخل مكة والأفضل

أن يكون من نية كداء جنتح الكاف كما فعل رسول الله ﷺ ثم إذا دخل المسجد الحرام فالأفضل أن يكون من باب بني شيبه ثم يقصد الحجر الأسود ويمسه بيده اليمنى ويقبله ثم يطوف طواف القدوم ولا يمorce عن الاسراع لذلك إلا الصلاة المكتوبة فليصلها ثم ليطف ، وليكن في هذا الطواف وفي كل طواف مراعي شروط الصلاة من الطهارة من الحدث والنجس في الثوب والبدن والمكان وسر العورة فالطواف بالبيت صلاة أباح الله فيها الكلام ، فإذا أتمّ الطواف سبعا فليأت المأتم وهو بين الحجر والباب وليتعلق بالاستر وليدع الله بما شاء ثم ليصل خلف المقام ركعتين ثم يخرج من باب الصفا ، وهو جبل فير في مقدار قامة الرجل فيه ثم يسى سبع مررات بينه وبين المروة وهو يكبر ويدعو ويمشي حتى ينتهي إلى الميل الأخضر فلذا بقي بينه وبين الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهي إلى الميلين الأخضرين ثم يعود إلى الهينة فلذا انتهى إلى المروة بعدها كالصفا ، وهذه مرة واحدة فإذا عاد إلى الصفا حصلت مران وهكذا حتى يتم السعى ، وقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سفتان والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة وإذا سعى فينبغي أن لا يعيد السعى بعد الوقوف ويكتفي بهذا ركنا فإنه ليس من شرط السعى أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان ، إذا انتهى الحاج يوم عرفة إلى عرفات فينبغي أن لا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطواف القدوم فليتمك محرما وليكن الخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها والتقدم منها إلى عرفة لاقامة فرضي الوقوف بعد الزوال ، إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر وليغسل للوقوف فإذا زالت الشمس خطب الامام خطبة لطيفة وقعد وأخذ المؤذن في الأذان والامام في الخطبة الثانية ، ووصل الاقامة بالأذان وفرغ الامام مع تمام اقامة المؤذن ثم جمع بين الظهر والعصر ، فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فليكن بسكينة ، ووقار حتى يبلغ المزدلفة فليغسل ثم يجمع بين المغرب والعشاء فيها ، ثم إذا اتصف الليل يتزود الحصى منها فليأخذ سبعين حصة فانها قدر الحاجة ، وليس إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة بعد أن يكون صلى الصبح في الغلس بها ، ثم يدفع من المشعر الحرام قبل طلوع الشمس ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالنكبير فينتهي إلى منى ومواضع الجرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهي إلى جرة العقبة ويرى جرة العقبة بعد طلوع الشمس بقيد رمح فيرى سبع حصيات مكبرا مستقبلا القبلة أو الجرة ، ويقول مع كل جرة الله أكبر ، فلذا رمى قطع التلبية والنكبير إلا التكبير عقب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقب الصبح من آخر أيام التشريق ثم ليذبح الهدى إن كان معه ثم ليحلق بعد ذلك ، والمرأة تقصر الشعر ، والأصلع يستحب له اسرار موسى على رأسه ومهما حلق بعد رمى الجرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحظورات إلا النساء والصيد .

والمحظورات في الحج والعمرة ستة : الأول لبس القميص والسراويل والخف والعمامة ، وإنما يلبس لزاراورداء وضلعين ولا ينبغي أن يضطى رأسه ، وللرأة أن تلبس كل محيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فأحرام الرجل في رأسه وأحرامها في وجهها ، الثاني الطيب فليجنب كل ما يعده العقلاء ، طيبا فان طيب أوليس فعليه دم شاة ، الثالث الخلق والقلم وفيهما القدية أعنى دم شاة ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والنصد والحجامة وترجيل الشعر ، الرابع الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه ، الخامس مقدمات الجماع كالقبلة والملامة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرّم وفيه شاة ، وكذا في الاستمناة ويحرم النكاح والآنكاح فيه ولا ينعقد ، السادس قتل صيد البرّ أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحرام والحلال ، فإن قتل صيدا فعليه مثله من النعم يراهي فيه

التقارب ، هذه هي المحظورات ، وقد قلنا انه برى جرة العقبة قد تحلل التحلل الأول ولم يبق عليه من المحظورات الا النساء والصيد ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه أولا ، وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة ، وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أي وقت شاء ولكن يبقى مقيدا بعلقة الاحرام ، ولا يحل له النساء إلى أن يطوف ، فإذا طاف ثم التحلل وحلّ الجاع وارتفع الاحرام بالسكبية ولم يبق إلا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج ، ثم بعد هذا الطواف السعي ان لم يكن سعى بعد طواف القدوم والا اكتفى به ، وأسباب التحلل ثلاثة : الرمي والحلق والطواف الذي هو ركن ، ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، والأحسن أن يرمي ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف ثم يخطف الامام خطبة وداع رسول الله ﷺ ، ومتى فرغ الحاج من طواف الركن المذكور عاد إلى منى للمبيت والرمي وتسمى ليلة القدر لأن الناس يقرون فيها غدا ولا ينفرون ، فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجرة الأولى التي تلى عرفة فبرى اليها بسبع حصيات ثم يتقدم إلى الجرة الوسطى ويرمي كما رمى الأولى ويقف في هذه وفي الأولى بعد الرمي ويكبر ويهمل ويدعو بحضور قلب ثم يتقدم إلى جرة العقبة ويرمي سبعا ثم يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق ورى في هذا اليوم احدى وعشرين حصاة كالיום الذي قبله فهو غير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة ، فان خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه وان صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني أحدا وعشرين حجرا كما سبق ، وفي ترك المبيت والرمي اراقة دم وليتصدق باللحم ، وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى ، هذا هو الحج من أوله إلى آخره مختصرا واضحا يسر أولى النهى .

العمرة

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل ويلبس ثياب الاحرام كما سبق في الحج ، ويجرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية ، وينوى العمرة ويلبى ويصلى في مسجد عائشة بعد ذلك ركعتين ويدعو الله بما شاء ثم يعود إلى مكة وهو يلبي ، ومتى دخل المسجد ترك التلبية ، وطاف سبعا وسعى سبعا كما تقدم ثم يحلق رأسه ، وقد تمت بهذا عمرته ، وهذه الطريقة : أى الحج أولا ثم العمرة نسى الافراد .

وهناك طريقة ثانية : وهي القران وهي أن يجمع بين الحج والعمرة ، فيقول عند الاحرام ليك بحجة وعمرة معا فتندرج العمرة في الحج كما يندرج الوضوء في الغسل ويكون السعي الذي بعد طواف القدوم محسوبا منهما ولكن الطواف الأول ليس بمحسوب كما تقدم فيكون طواف الركن بعد الوقوف ولبس على الحاج شيء في هذا الاشاة الا أن يكون مكيا فليس عليه شيء .

وهناك طريقة ثالثة : تسمى التمتع وهي أن يجاوز الميقات محرما بعمرة ويتحلل بمكة ، ويجمع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج وتلزمه شاة مالم تكن عمرته في غير أشهر الحج ومالم يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لاحرام الحج ، فإذا لم يجد الشاة فليصم ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة أيام اذا رجع إلى الوطن ، والأفضل الافراد ثم التمتع ثم القران ، هذا ما أوردت ذكره في العمرة والحج وبهذا تصوّر الأحكام والأما كن وتفسير آيات الحج ، وتفهم ماسياتى من قوله تعالى «فن تمتع بالعمرة إلى

الحج « وقوله « فاذا أفنتم من عرفات فاذا كروا الله عند المشعر الحرام » وقوله « فن تجمل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » وهذه الأحكام على مذهب الشافعي ، وفي بعضها خلاف سيأتي في تفسير الآيات

أسرار الحج وبقية أركان الاسلام

اعلم أن الانسان في الدنيا كوله الموسر التاجر أو الملك الذي ورث الثروة عن والده ثم انه ربه فزاد هو في تجارته وزاد نماء أمواله فالانسان خلق في الدنيا تحيط به المحن والوصب ونكبات الدهر ، فاذا تحملها وصبر عليها وقويت همته واستجمع عزيمته ، كان ذلك قوة عظيمة لسعادته في الدنيا لا يحسن بها الصبيان ولا الحيوان فكلاهما لا صبر له لأن المسبر بالعقل وهو خاص بأهله ، ان النعيم والترف واللذات والتمتع بالطعام والشراب وتقارب الجنين قد اشترك فيه الصبيان والحيوان مع العقلاء ، وهي مضطربة غير ثابتة ، ولا سعادة الايمان الانسان لنفسه بنفسه ، وذلك بأن يتخذ من الحوادث درعا فينتقي إذذاك وقع الحوادث فتكون عليه هينة ، وتمر عليه أنواع الفرح والترج فلا تؤثر في سعادته ، وهذا هو المذكور في آية « وبشر الصابرين الذين اذا أصابهم مصيبة » وقد تقدم الكلام عليها فراجعها هناك ، وهذه أشبه بالميراث في مثال الصبي الفتي لأنها عاتمة لسائر الناس ، ثم ان الله أراد أن يزيد الانسان اسرعا في الرقي وبطية أجنحة ويقوى سيره الى العلا ، فأزل عليه الكتب وألهمه دراسة العلوم ، ومنها ما نزل بالوحى على بعض الخاصة من خلقه فأراد أن يهذبهم ، وذلك بالتخلية والتخلية فالتخلية بالجوع تارة مع ترك النساء في الصوم وتارة بنزع ما جميل اليه النفس وما يتعلق به القلب من المال بالزكاة والصدقات ، ان العاقل كلما زاد عقلا زاد معرفة بالعشيرة وبالآئمة التي هو منها فيجزع لما حلّ بقريبه وولده وأبويه وصحبه وأئمة ، فاذا صبر كان ذلك أجالا لنفسه وأجنحة يطير بها الى المعالي وهنا في الزكاة يبذل المال للفقراء منهم فيكون مواسيا لهم فهو عند الحزن عليهم صابر وعند الفتي والثروة شاكرا ويكون هو في نفسه قد قلل العلائق التي تربطه بهذه الدنيا وباللذات فيكون زاهدا فيها فلا ينقطع فؤاده لذكر الموت ، ولا يهلع ويجزع لموت دابة أو ضياع مال ، ويكون إذذاك كالخمر الذي لم تستعبده هذه الدنيا ثم انه كما تخلى عن شهوة الطعام والشراب والنساء في أيام رمضان وتخلى عما يربطه بأوتق رباط من المال هكذا يتخلى عن اللباس في الحج ، فلا يلبس الخيط ، وإنما يقتصر على لزار ورداء أبيضين كالكفن ، وقد كشف رأسه وهو مع القوم عراة تحت حرارة الشمس ، وقد خرجوا من الأهل والوطن وأنفقوا المال وتجردوا من الثياب وحرم عليهم النساء ، هذا هو التخلية في الزكاة والصيام والحج ، أما التخلية فان الصلاة فيها مناجاة الله عزوجل ، وقد توحأ الانسان ونظف ثوبه ومكانه وتوجه قلبه الى من فطره فأخذ يذكر بلسانه ، وقد أحضر في الفؤاد أنه رحمن رحيم عمت رحامته سائر الخلائق بتصورهم ورزقهم واغداق النعم عليهم ، فيقول إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم الحج ، وهو حاصر في قلبه كأنه يراه ويشعر في قلبه بهذه الرؤية ، وهذه هي التخلية ، فبالزكاة والصيام وبإفراق الأموال في السفر للحج ، وفي الهدى وترك الخيط من الثياب والنساء تخلية عن علائق هذه الحياة القصيرة ، وأما التخلية في المناجاة والتوجه لله في « إياك نعبد » وفي الاستعانة به تعالى وفي الحج ، قائلا عند الاحرام [لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك وسعديك والخير كله بيدك والرغبات اليك لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد] فهذه هي التخلية ، ففي الحج تخلية عن المال وعن النساء وعن الطيب وعن حظوظ النفس بالامتثال في السعي بين الصفا والمروة وبالطواف وبرمي الجمرات التي يجمل العبد حكمتها ، فهذا كله تخلى المرء عن حظوظه وشهوته وامتل أمر الله وهو

تخليه ، وفي التلبية والتوجه لله تحلية بالرجوع الى من خلقنا وطرنا وصوّرنا ، ولانظن ان أعمال الحج غاية من الحكمة المعقولة كلا فان كل ما توجه به العبد من قول أو عمل أدى المقصود منه فكما أن في أقوال الصلاة توجهها بالقلب ، هكذا الطواف والسعي ورمي الجمرات توجه بالقلب ، وكما أن هناك فرقا بين فعل اللاعبين والمصارعين في وقوفهم وانحنائهم وأعمالهم وبين الصلاة في الركوع والقيام ، وأن الأول يقصد به تقوية العضلات والمسابقات وآثارها في النفس لانخرج عما قصدت له ، والثانية يكون فيها الخشوع والخضوع والرجوع الى الله والآثار حقيقة تكون بحسب ما وجهت به وتظهر على الجوارح والأعضاء بالتجارب والمشاهدة في سائر نوع الانسان ، هكذا يكون الفرق بين الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات الثلاث وبين الأفعال التي تماثلها من عوائد الانسان ، وتكون هذه الأفعال مستحضرا بها عظمة الله تعالى والعلوفاً بينته الذي جعله حرماً آمناً محترماً حرم صيده والقتال فيه اعظاماً واجلالاً لصاحبه ، وهكذا يسى بين الصفا والمروة ، وهذا السعي بضاهي تردد العبد بقاء دله الملك جانيا ذاهبا اظهارا للخلوص في الخدمة ورمي الجمرات كالتبرؤ من الذنوب والمخطايا ، ولاجزم أن هذه الأفعال يصحبها عند التصدي ما جعلت له ، ولذلك نجد عند الحجاج من السرات والابتهاج وذكر الله ما لا يوجد فيما ينظره من الأعمال الأخرى لنوع الانسان فكما أن الألفاظ لها أثر على حسب المدلولات ، هكذا الأفعال لها آثار على مقتضى ما جعلت له في الشرع دينا وفي اصطلاح الناس عرفا ، ألا ترى أن التحية عند بعض الامم بأن يتغل على وجه صاحبه ، وعند بعضهم بأن يضربه ، وعند بعضهم بأن ينام على الأرض منبطحا ، وعند بعضهم بأن يولى ظهره اليه وكل عمل من هذا يؤدي المعنى الذي جعل له عرفا ، واذا لم يتم به الانسان وأحل به عوقب على مقتضى ذلك بالعداوة والبغضاء ، فاذا كان هذا في عادات الناس وهم عليه يحاسبون بعضهم ، فهكذا جعل الله هذه الأعمال من الركوع والسجود والطواف والسعي ورمي قوالب وظواهر لذكر الله عز وجل وامتنالا لأمره واستحضرا لصفاته وجاله وتبريا من الذنوب ومن المادة ومن الدنيا . هذا ، ولتعلم أن الحج المبرور هو الذي فيه هذه هذه المعاني الشريفة ، وعلامته أن يرجع صاحبه وقد عشق ربه وتبرأ من الدنيا وفرح بالموت قبل حلوله وأحب لقاء الله وأعطى كل ذي حق حقه ، وهذا سر الحديث « الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » . أما الصلاة والحج اللذان خلوا من هذه المعاني فان صاحبهما لا ينال منهما ثقت العادة العالية اه

(المقصد الخامس)

في الحج وبعض أحكام القتال وغير ذلك)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَحْضِرْ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَأْتِكُمْ بِشَاةٍ مِنْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ

مَتَلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَلَّوْا مِنْ
 خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ * لَبَسَ عَلَيْكُمْ
 جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْرِ
 الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ
 أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا
 اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي
 الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ
 وَقَدْ آذَنَّا بِالنَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَذْكُرُوا
 اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَمْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ
 اتَّقَىٰ وَاتَّقَى اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَهُكُمْ تُحْشَرُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْإِطْعَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ
 لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ
 أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
 مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا
 خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ
 فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ
 وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا ابْتَنَاهُمْ مِنْ
 آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوَقَّعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ
 يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ
 فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا

اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم * أم حَبِيتُمْ أَنْ
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَّاءَ وَزُلْزَلُوا
حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ * يَسْأَلُونَكَ
مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِالتَّائِبِينَ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن
سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ
الْقَتْلِ وَلَا يَرَاوُنَّ يَأْتِ بَلْوَانَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِن لَّمْ يَهْتَفِعُوا بِكُمْ فَمَا لَكُمْ
مَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَبَآهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

التفسير اللفظي

ولما كان الحج ، قد يمنعه العدو كما اتفق لرسول الله ﷺ علم الحديبية سنة ست وحصره وأصحابه
وحبسوا عن الضى فيه ناسب أن يؤتى بالحج عقب الجهاد ، فقال (وأتموا الحج والعمرة لله) أى اتوا بهما
تأمين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالى فهما واجبان (فان أحصرتم) أى منعكم العدو ، يقال : أحصره
وحصره كما يقال صدده وأصدده ، وليس علما لكل مرض أو غيره كما عند الحنفية ، لقول ابن عباس رضى
الله عنهما لا حصر إلا حصر العدو ، وعليه الشافعي ومالك ، ولا يلحق به غيره من كسر أو عرج أو نحوهما
إلا إذا شرط ، قوله عليه الصلاة والسلام لصناعة بنت الزبير حجي واشترطى وقولى : اللهم محلى حيث حبستى
(فما استبسر من الهدى) أى فضلكم ما استبسر من الهدى جمع هدية من بدنة ، أو بقرة ، أو شاة ، فمن
أحرم بالحج أو العمرة ومنع من أتى به لعدو أو غيره على قول فليحتل منه ، وليذبح هديا ، ويلحق
رأسه ، ولا يلحق رأسه حتى يبلغ الهدى محله : أى مكانه الذى يذبح فيه ، وهو حيث أحصر من حل أو حرم
(ولا تحقوا رموسكم حتى يبلغ الهدى محله) والحنفية على أن محله الحرم فلا يلحق رأسه ، حتى يعلم أن من أرسله
يلحق الحرم بالهدى إن كان معتمرا ، ويوم النحر إن كان حاجا ، والأول أوجه ، لما روى عن ابن عمر رضى الله
عنهما قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين فقال كفار قریش دون البيت فنهج رسول الله ﷺ
وحلق رأسه ، ثم أخذ بشرح حالا أخرى لحلق الرأس غير حلق التحلل ، قال (فمن كان منكم صريحا)

مرضاً يوجب به الى الخلق (أوبه أذى من رأسه) كجراحة أو قتل (ه) عليه (فدية) ان حلق (من صيام) ثلاثة أيام (أو صدقة) ثلاثة أصع على ستة مساكين (أو نكح) جمع نسيسة ، وهي الفريضة ، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام . قال لكعب بن عجرة « لعلك آذاك هوامك ! قال نعم : يا رسول الله . قال احلق وصم ثلاثة أيام ، أو تصدق بفرق على ستة مساكين ، أو انكح شاة » والفرق ثلاثة أصع ، ثم أخذ يشرح حكماً لك ، وهو حكم ما إذا أحرم أولاً بالعمرة من الميقات ، ثم تحلل منها وتمتع بالمحظورات في الاحرام الى أن يحرم بالحج ف عليه مثل ما على المحصر بدنة ، أو بقرة ، أو شاة ، وهو معنى قوله تعالى (فلذا أنتم من تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى) أى ف عليه ذلك ، وهو دم جبران يذبحه اذا أحرم بالحج ولا يأكل منه ، وقال الحنفية دم نكح ، فهو كالأضحية (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج) أى ف عليه صيام ثلاثة أيام في أيام الاشتغال به بعد الاحرام ، والأحباب أن يصوم السابع والثامن والتاسع من ذى الحجة (وسبعة إذا رجعت) أى فرغتم من أعمال الحج سواء كان في طريقكم أو عند أهلكم ، وهو مذهب الحنفية ، وللشافعي قول إذا رجعت إلى أهلكم (تلك عشرة كاملة) فليست السبعة للكثير (ذلك) الحكم المذكور (لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) بأن كلوا على مسافة قصيرة أكثر من الحرم عند الشافعية ، وعند الحنفية أهل المواقف من قرن ويملأ ، والحنفية ، وذو الخليفة ، وذات عريق ، فكل هؤلاء ومن دونهم الى مكة حاضرو المسجد الحرام ، ومن تمتع من هؤلاء وجب عليه دم ، وأما حاضرو المسجد الحرام فليس عليهم دم لأنهم ليسوا بمن يجب عليهم أن يحرموا من الميقات ، وعند الحنفية ليس لهم التمتع وان فعلوه فعليه دم جنابة (واقفوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) وهو ظاهر ، ثم قال (الحج أشهر معلومات) معروفات ، وهي شوال ، وذو القعدة ، وأصح من ذى الحجة ببلية النحر عند الشافعية ، والعشر عند الحنفية ، وذو الحجة كله على مذهب مالك (فمن فرض فيهن الحج) أى أوجب على نفسه بالاحرام فيهن عند الشافعية ، أو بالثنية ، أو سوق الهدى عند أبي حنيفة (فلا رقت) أى لاجتماع أولاد غنص في الكلام (ولا فسوق) لا خروج عن حدود الشرع بالسباب وارتكاب المحظورات (ولا جدال) لاسراء مع الخدم والرفقة (في الحج) أيه : أى لا يجوز ذلك (وما تتعالمون من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) أى وتزودوا للمعادكم بالتقوى فانها خير زاد ، وقيل نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ، فيكونون كلاً على الناس ، فأمروا أن يتزودوا ويتفوا الابرام والتفيل في السؤال (واتقوا يا أولى الألباب) وفي هذه الآية السابقة دليل على وجوب الصفة ، وترك أذى الناس وعدم التفيل عليهم فناسب أن يؤتى بعدها بما يناسبها من التكسب ، وقد كان للعرب أيام جاهليتهم تجارات ومكاسب في سوق عكاظ ، وذى المجاز ومجنة فتأتموا أن يتجروا فيها ، فنزل قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) أى عطاه ورزقا وربحاً في التجارة (فاذا أفضتم) أى دفعتم أنفسكم كما يفيض الماء اذا صيته بكثرة (فاذا كروا الله عند المشعر الحرام) وهو جبل يقف عليه الامام ، ويسمى قروح (واذا كروه كما هداكم) أى اذ كروه ذكرا حسناً كما هداكم هداية حسنة للناسك وغيرها (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) أى قبل هدايته لكم (ثم أفوضوا) ياقريش (من حيث أفاض الناس) أى كاشر الناس ، لامن المزدلفة وأتم مقروضون عنهم (واستغفروا لله) من جاهليتكم في تغيير المناسك (إن الله غفور رحيم . فاذا قضيت مناسككم فاذا كروا الله كذا كركم آباءكم أو أشد ذكرا) كان العرب في الجاهلية إذا قضوا مناسكهم ذكروا مناقب آباؤهم ومفاخر أجدادهم نظماً ونثراً كما هو معلوم في سوق عكاظ وغيره ، فلما جاء الاسلام أمروا فيه أن يذكروا الله كذا كركم آباءهم أو كذا كركم آباءهم أو أشد ذكرا منهم لآبائهم ، وذلك ليعرفوا حقه عز وجل وليكونوا أمة وسطاً متحدة ، فذكر الله بجمعهم ، وذكر الآباء بفرقتهم وبشقتهم ، وذلك هو التضامن

والنحاب العام ، وتوجه النفوس إلى الوحدة الدينية العامة ، والتأني بها عن الوحدة الخاصة ، وأدبني بل ، وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن هذه الآية ، قيل له قد يأتي على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه ، فقال ليس كذلك ، ولكن أن تغضب الله عز وجل إذا عصي أشد من غضبك لوالديك إذا شتا انتهى .

ولاجرم أن هذا هو النظام العام ، والناموس الشامل ، والقانون العام الكامل (فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقا عذاب النار) كانوا في الجاهلية يقولون : اللهم أعطنا ابلا ، وبقرا ، وغنا ، أو يقولون : اللهم ان أبى كان عظيم الفته كبير الجنة كثير المال ، فأعطني مثل ما أعطيته ، وفي البخارى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : « نفس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخيصة [ثوب من خز أو صوف معلم] ان أعطى رضى وان لم يعط سخط نفس واتكس ، وان شيك فلا انتقش » والانتقش اخراج الشوكة ، وشيك دخلت الشوكة في جسمه ، وحسنة الدنيا كالصحة والعفاف ، وتوفير الخير ، والحسنة في الآخرة الثواب والرحمة ، فدخل في الأول المرأة الحسنة ، وفي الثاني الحوراء ، وكذلك العلم والعمل في الأول أيضا « وقنا عذاب النار » أى احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى عذاب النار (أولئك) الذين ذكروا من الفريقين (لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) فيحاسب الناس في لحظة ، والساعة قريب ، فليعملوا قبل أن تقوم فيحاسبهم (واذكروا الله في أيام معدودات) أى أيام التشريق ، وهى أيام منى ، ورمى الجمر ، وسميت معدودات لقلتهن ، وهى ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، أوها اليوم الحادى عشر من ذى الحجة ، ويكون التكبير اذبل الصلوات وعند ذبح القرابين ، ورمى الجار وغيرها (فمن تعجل (فى يومين) أى يوم القر ، والنذى بعده : أى من نحر فى ثانى أيام التشريق بعد رمى الجار عند الشافية ، وقبل طلوع الفجر عند الحنفية (فلا إثم عليه) باستجالة (ومن تأخر فلا إثم عليه) حتى رمى فى اليوم الثالث بعد الزوال عند الشافى ، أو قبل الزوال جوازاً عند الحنفية فلا إثم عليه فى التأخير ، ولقد كان الجاهلية يختلفون ، فمنهم من أتم المنجمل ، ومنهم من أتم المتأخر ، والذي ذكر من الأحكام (لمن اتقى) لاذلا منتفع به سواه (واتقوا الله) أبها الناس فى جميع أحوالكم وأموركم (واعلموا أنكم إليه تحشرون) .

كان الجاهلية يذكرون آباءهم فأمروا بذكر الله جل جلاله ، وأمر الحاج بذكر الله أيام التشريق فناسب أن يذكركم من هو كالأخنس بن شريق الثقفى اذ كان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الاسلام ، ويقول انى أحبك ، ويحلف بالله على ذلك ، وقد خنس : أى اختفى يوم بدر بثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال رسول الله ﷺ يوم بدر ، وقال : ان محمداً ابن أخنك ، فلن يك كاذبا كما كوه الناس ، ولن يك صادقا كنتم أسعد الناس به ؟ قالوا : نعم مارأيت قال انى أخنس بكم فاتبعتنى ، فذلك قوله تعالى (ومن الناس من يجهل قوله فى الحياة الدنيا) أى فى شأنها من أسباب المعاش والتجارة وغيرها (ويشهد الله) على أن (ما فى قلبه) موافق لكلامه (وهو ألد الخصام) شديد العداوة والمخاصمة (واذن تولى) أعرض أو صار واليا (سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) كما فعل الأخنس بتقيف إذ بينهم . وأحرق زرعهم ، وأهلك مواشيهم ، أو كما يفعل ولاية السوء بالقتل والاتلاف والنظم (والله لا يحب الفساد) لا يرضاه (واذن قيل له انى الله أخذته العزة بلائهم) الأفة : أى جلته حية الجاهلية الأولى على الائم الذى يؤمر بألقائه بجايا ، من قولك أخذته بكذا : أى جلته عليه (نجسه جهنم) أى كفته جزاء وعقابا (ولبئس المهاد) والمهاد : الفرائس ، ثم جاء بصدقه ، فقال (ومن الناس من يشرى نفسه) يبيها (ابتغاء مرضات الله) أى يبذلها فى الجهاد طلبا لرضاه ، أو فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فذلك

لن صهيب بن سنان الرومي أخذه المشركون وعذبوه لبرنته ، فقال : انني شيخ كبير لا ينفعكم كفرى ولا بصركم
 ايمانى ، غفدوا مالي ودعوني ، فقبلاه منه وأتى المدينة (واهة رءوف بالعباد) لأنه أرشدهم إلى مثل هذا
 الشراء ، ولما كانت مناسك الحج وآداب الصيام والجهاد تتراد لتهديب النفوس ، وانتلاف القلوب ، واتحاد
 الشجوب ، وكان فريق من الناس لا يشوبون إلى رشدهم ولا يرجعون عن غيهم ، وفريق اعتدى ، فالأول
 كالأخس المنافق ابن شريق ، والثاني كصهيب دعا الله المسلمين كافة إلى السلم والطاعة ونبت المشاحة والصاح
 والإيمان بسائر الأنبياء ليتحد المتشاكسون ويتفق المختلفون ، فقال (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم)
 أى اسلموا لله وأطيعوه بحجة ظاهرا وباطنا حال كونكم (كافة ولا تتعموا خطوات الشيطان) بالتفرق
 والتفرق (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (فان زلتم) عن الدخول في السلم (من بعد ما جاءكم
 المينات) الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق (فاعلموا أن الله عزيز) لا يجهزه الانتقام (حكيم) لا ينقم
 إلا بحق : ألا وان هذا النوع البشري سعاده بالصفاة والسلم ، وشقاؤه بالخلاف والشقاق ، فاذا تفرقت الأهواء
 وزلت القمم وانبع كل امرئ هواه جاءهم العذاب من حيث يرجون النعم ، وحل بهم الشر حيث يرجون
 الخير هذا هو الناموس العام والسبيل الالهى ، ألا ترى أن الناس يعذبون بنفس شهواتهم ويذلون بأطعامهم
 فمن لم يطع فقد اقبلت لذاته آلاما وصارت أفراحه أحراما كما يرى في الفاجر بن الفاسق حين يقبل الدهر لم
 ظهر الجبن ، وكذلك الأمم الكاسية المتسكة النائمة على وساد الراحة العاكفة على الشهوات يستخدمها
 أعداؤها بنفس هذه الصفات ، فقل الأمم إذ ذاك كما قال الله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) أى أمره
 أو بأسه (فى ظلل من الغمام) السحاب الأبيض حيث يرجون الخير (والملائكة) لأنهم المسخرون للعالم
 القاطنون بتقديره (وقضى الأمر) تم بهلاكهم (والى الله ترجع الأمور) جاءهم الشر حيث ينتظرون
 الخير ، والضريح حيث ينتظرون النفع كما هي حال ذوى الشهوات والغرورين والغافلين وأكثر أمم الشرق لاسيما
 المسلمين ، فاذا لم يستيقظ المسلمون وفرحوا بأموالهم وأبنائهم كان ما فرحوا به عليهم شقاء وبلاء ، ثم ضرب
 مثلا بينى إسرائيل إذ يقول (سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) مجيزة ظاهرة وتبيان فى التوراة
 على أيدى أنبيائهم شاهدات بالحق فأولوا وبدلوا وزاغوا وأتوا بأكاذيب كما يكذب جهلة الوعاظ اليوم على الأمة
 الاسلامية ، فوعدهم على قليل العمل كبير الأجر ، فكان الهدى سبب الضلال والخير سبب الشر (ومن
 يدل نصرة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب) فيعاقبه أشد العقوبة لارتكابه أشد الذنوب فيحصل
 هلاكه بما ظن أنه حياته كما جعل آيات الكتاب الهدايات سببا للضلال . وقد فعل ذلك باليهود كما فعله أيضا
 بالأمة الاسلامية اليوم ، فلكم افتقر الأخبار والرهان حفظا للرياسة ؟ فسلط الله عليهم المسلمين ، هكذا كذب
 كثير من أهل العلم فى الأقطار الاسلامية وفسروا الأحاديث والآيات على حسب أهوائهم وأزاعوهم عن حكم
 القرآن ، فسلط عليهم من سخرهم ، فكان المفروح به هو المجرى ، والمطلوب هو للهروب كالظلل من الضلم
 ولما كان ذلك ناتجا من الغرور بالحياة أردفه بقوله (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين
 آمنوا) كبلال وعلم وصهيب (والذين اتقوا فوفهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) فى الدارين
 ولما كانت الآية السالفة دعوى للمسلمين أن يدخلوا فى السلم والحب العام والطاعة ولا يتفرقوا : أتبعها بما
 يدكر ما كانت عليه الأمم قديما ، فلقد كانوا فى جنة السعادة ونعيم الحياة إذ (كلن الناس أمة واحدة)
 وعاشوا قرونا كثيرة كما تشهد بذلك المكتشفات الحديثة ، وكما يرى إليه الدين البرهمنى فى الهند والبوذيون ،
 فهذه الأمم تروى عن أسلافها السلام العام ، وهكذا تشب أشعار هوميروس الشاعر اليونانى وغيره ، فحصل
 التجمع والتشبع باختلافوا (فبعث الله النبيين) وبدأ بنوح ، وكانت الأمم قبله فى هناء وسعادة (وأنزل معهم

(الكتاب) أي جنبه ملتبسا (بالحق) ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) أي في الحق الذي اختلفوا فيه بقاء الأمر معكوسا والوضع مقلوبا ، فجعلوا ما كان سبب الهداية للضلال وما هو الخير شرًا (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) حسدا وظلما لحرصهم على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا) أي للحق الذي اختلف (فيه) المختلفون (من الحق بأذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فإله يدعو الناس إلى الوثام والاتحاد ويرشدكم للحجة والوداد ويذكرهم بما سلف الأمم قبل نوح ، فقد كانوا في سعادة وراحة ، فلما ضلوا أرسل الرسل فغير العلماء واتخذوا الديانات شبكة صياد وحيلة محتل ، وينادي الله الأمم أن ترجع سعدا وترد مجدها القديم والنجيم ، ولما كان السلم العام لم يزل يبيد وأشرب نوع الانسان العداوة والبغضاء ، واستنبت الظلم وراش سهم القدر : أمر الله النبي والمؤمنين أن تكون حياتهم صبرا وجهادا ليقوموا الحق حسب الطاقة .

إذالم يكن إلا الأسته مركبا • فما حيلة المضطر إلى ركوبها

فقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم) حالم التي هي مثل في الشدة (مستهم البأساء والضراء) بيان لتلك الحال مستأف (وزلزلوا) أزعجوا أزعجا شديدا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) لتناهي الشدة ، ويقول بمعنى قال ، فقيل لم تشعروا (ألا إن نصر الله قريب) فالانسان في الحياة مجاهد لعدوه الخارجي الظالم ، ويموزه الثبات واعدوه الداخلي ويموزه الصبر وعند اشتداد الخطب يكون الفرج بقلبة الحق على الباطل في الأمم وبارتياض النفس وراحتها في الأخلاق ودخول دار السلام بعد الموت ، ولما كان انفاق المال أشق على النفس وأشق منه هلاكها أخذ يحرص على الاتفاق والجهاد .

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمرو بن الجوح الأنصاري رضي الله عنه كان شيخا هما إذا مال ، فقال يارسول الله ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فأجيب ببيان المنفق عليه ، وذلك قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فكلوا الدين والأقرب بين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما أنفقوا من خير فإن الله به عليم) الخير المال ، وقدم الوالدين لأنهما واجب حقهما أولا ، ويلهما الأقرب فالأقرب ثم اليتامى الخ ، وإنما كانت الاجابة ببيان المنفق عليهم ، لأن الفقة لا يعتد بها إلا إذا وقعت موقفا . قال الشاعر :

إن الصنيعة لا تعد صنيعة • حتى يصاب بها طريق المصنع

ثم أتبعه بذكر الجهاد بالنفس ، فقال (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) والنفس البشرية إذا تمردت لتغير ألقته ، فصار للنفوس فلا سلطة إلا في لذة النفس ورضائها (والله يعلم) ما هو خير لكم (وأتم لا تعلمون) ولو أن الناس تركوا أنفسهم وهواها فزبت لم الحياة الدنيا لصار المحبوب لهم قمة عليهم كما هو مقصود الآيات السابقة .

وهكذا العوس تحب التمرد عن العزو ، وهو شر لما فيه من طمع العدو ، لأنه إذا علم ميلكم إلى الراحة والهدنة والكون قسدا بلادكم ، وزل بساحتكم ، وإذا علم أن فيكم شهامة كفت عنكم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم الفتح « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » وقال الزهري : كتب الله القتال على الناس جاهدوا أولم يجاهدوا ، فن غزا فيها ونعمت ، ومن قد فهو عدة ان استعين به أعان ، وان استنفر نفر ، وان استغنى عنه قصد . قال الله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلا وعد الله الحسنى » ولو كان القاعد تاركا فرضا لم يصد بالهسنى اه

ولعلم أن هذا القول أجمع ما قيل في هذا المقام فلتكن الأمة كلها في جهاد ، ان دخل العدو البلاد وجب الحرب والدفاع على كل رجل وكل امرأة ، وان لم يدخل وجب أن يجاهد كل قبا اختص به ، فالعالم والصانع والزروع كل يتقن ما في طاقته ، فلا قتال إلا بالعدة والسلاح ، ونظام الطرق ، وترقية جميع مرافق الحياة . ثم أخذ بنم مسائل الجهاد بما روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جادى الآخرة قبل بدر بشهرين ليترصد عيرا لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة الطائف ، وكان ذلك غزوة رجب ، وهم يظنون من جادى الآخرة ، فأصبح قريش على النبي ﷺ وقالوا استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ، ويبدع فيه الناس إلى معاشيهم ، فأجيبوا بأن القتال في الشهر الحرام إثم كبير ، ولكن صدكم الناس عن الاسلام وكفركم به تعالى وصدكم الناس عن المسجد الحرام ، واخراجكم النبي ﷺ وأصحابه منه . هذه الأربعة أكبر عند الله مما ضلت السرية خطأ ، وتكون النتيجة أن ما ضلتموه من الفتنة بهذه الامور الأربعة أشد من ذلك القتل ، وهذا معنى قوله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) بدل اشتغال (قتل قتال فيه كبير) ذنب كبير (وصد عن سبيل الله) وصرف عن الاسلام ومنع عنه ، أو عما يوصل العبد الى الله من الطاعات (وكفر به) أى بالله (و) صد (المسجد الحرام واخراج أهله منه) أى اخراج أهل المسجد الحرام منه وهو النبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنون (أكبر عند الله) مما فعلته السرية خطأ (والفتنة أكبر من القتل) أى ما ارتكبوه من الاخراج والشرك أظلم مما ارتكبوه مما تقدم من قتل الحضرمي .

[روى] أن عطاء كان يحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الشهر الحرام ولأن يقاتلوا فيه وما نسخت وجهور العلماء على أنها منسوخة بقوله « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وبقوله « وقاتلوا المشركين كافة » يعنى في الأشهر الحرم وفي غيرها اه

ثم أخذ يحذرهم من الكفار لما قرأ أن الناس مختلفون وقد فسد الزمان ، فقال (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) هذا اخبار من الله بعداوة الكفار لهم ، وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم ، وحتى للتعليل ، وفي المرتد رأيان : فالشافعي يرى أنه لا يبطل عمله إلا اذا مات على ردة ، وأبو حنيفة يرى أنه يحبط عمله وان أسلم ، واعلم أن المرتد يجب قتله وتبين زوجته ، كما لا يستحق الثواب على عمله كما فصلناه ، وقوله (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) ظاهر مما تقدم ، زلت في عبد الله بن جحش وأصحابه رضى الله عنهم ، وذلك أن أصحاب السرية قاتلوا بإرسول الله هل تؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزوا فنزل الله هذه الآية اه ولما فرغ من الجهاد مع الأعداء أخذ يشرح النظام الداخلى وما يحفظ كيان الأمة بعد الذب عنها من العدو المهاجم وبدأ بالخير والميسر وأحكامهما وهو :

المقصد السادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع

في الكلام على الخمر والميسر ، وكيفية الانفاق ، واليتامى ، وأحكام النكاح ، والحيف

في هذا المقام ستة أسئلة

الأول : سؤال عمرو بن الجوح المتقدم إذ أجيب ببيان المنفق عليهم .

الثاني : سؤال أهل مكة عن الشهر الحرام .

الثالث : سؤال عمرو بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجاعة من الأنصار في الحجر والمبسر .
الرابع : سؤال عمرو بن الجوح المتقدم أيضا ، سأل في هذا عن كيفية الاتفاق كما سأل أولا عن المنفق عليهم .

الخامس : سؤال المسلمين عن اليتامى .
السادس : سؤال أبي الدرداء في نفر من الصحابة عن الحيض ، والأسئلة الثلاثة الأولى بلا عطف ، والثلاثة بعدها بالعطف لاقتراب أزمنة الأولى واقتراب أزمان الثانية ، ولتفسير المقاصد الأربعة في قوله تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَعْفُوكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا مَئِمَّةً مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا نَهَيْتَكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا أُهَيْبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَيْحِضِ قُلْ هُوَ أَذَى هُوَ أَذَى فَاغْتَرَبُوا الدِّسَاءَ فِي الْمَيْحِضِ وَلَا تَقْرَبُواهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ سِوَاهُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظي

روى أنه نزل بمكة قوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » فأخذ المسلمون يشربونها ثم إن عمر ومعاذ في نفر من الصحابة رضوا الله عنهم ، قالوا : أفننا يا رسول الله في الحجر فأنها مذهبة للعقل ؟ فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الخمر والمبسر) عن شرب الخمر وعن القمار (قل) يا محمد (فيهما إثم كبير) بعد التحريم (ومنافع للناس) قبل التحريم بالتجارة بها وبأخذ مال بغير كذب (وأيهما) بعد التحريم (أكبر من نفعهما) قبل التحريم ، أو وأيها من التخاصم والتشاتم ، وقول الفحش والزور الخ . فلما نزلت شرها قوم وتركها آخرون ، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ناسا منهم ، فشربوا ، فسكروا ، فلم أحدم ، فقرأ [أعبد ما تعبدون] فنزلت « لا تقر بوا الصلاة وأتم سكارى » فقل من يشربها ، ثم دعا عبيان بن مالك بن سعد بن أبي وقاص في نفر ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا ، فأنشد سعد شعرا فيه هجاء الأنصار ، فضربه أنصاري بلحى بغير فشجه ، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه : اللهم

بين لنا في الخمر يانا شافيا ، فنزلت « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه
 لعلكم تفلحون » فقال عمر رضى الله عنه : اتينا يارب . الخمر مصدر من خره اذا ستره ، سعى به ما اتخذ
 من العنب والرطب وقمع التمر والزبيب اذا اشتد وغلا وقذف بالزبد ، وسعى خرا لأنه كأنه يسر العقل كما سعى
 سكر لأنه يسكره أى يحجزه ، فاذا طبخ حتى ذهب ثلثه حل شربه عند الحنفية ، وان أسكر حرم ، لما روى
 عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كتب الى بعض عماله : ان أوزاق المسلمين من الطلاء ما ذهب ثلثه
 وبقى ثلثه . وفي رواية : أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فان له اثنين ولكم واحد ،
 والطلاء الشراب المطبوخ من عصير العنب . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : حوت الخمر بعينها
 قليلا وكثيرها ، والمسكر من كل شراب ، ومذهب الشافى رضى الله عنه : ان الخمر عبارة عن عصير العنب
 الذى الشديد الذى قذف بالزبد ، وكذلك قمع الزبيب والخمر ، والمنخذ من العسل والخنطة والشعير والارز
 والقره ، وكل ما أسكر فهو خمر ، وأكثر علماء الأمة الاسلامية على سد باب الفتنة بحرمون القليل والكثير مطلقا ،
 ومال اليه متأخرو الحنفية . والخمر وان أفادت الالتذاذ ، وتشجيع الجبان ، وتقوية الطبيعة أولا ، فمك فيها من
 ردائل ومضار مما شرحه علماء العرب ، ولكم من رسالة في ذمها قرأتها ، ورواية عن طيب درسها ؟ حتى ألحقوا
 بها شرب الشاي والسخان والقهوة . ولقد رأيت في كلام [هنرى الفرنسى] فى كتابه [خواتم وسواخ فى
 الاسلام] أن أحد سلاح يتأصل به الشريكون ، وأضى سيف يقتل به المسلمون هو الخمر وادخالها ، ولقد
 جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبى شربهم الاسلامية أن يتجرعوه ، فتضاعف نلهم ، ولو أنهم
 استقبلونا كما استقبلنا قوم من منافقهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أدلاء لنا كذلك القبيلة التى تشرب
 خمرنا وتحملى إذلالنا ، وقال [بنتام] المشرع الانجليزى : « من محاسن الشريعة الاسلامية تحريم الخمر فان
 من شربها من أبناء أفريقيا آل أمرسلة للجنون ، ومن استدامها من أهل أوروبا زاع عقله ، فليحرم شربها
 على الافريقيين ، وليعاقب عقابا صارما الأوروبيون ، ليكون العقاب مقدرا بمقدار الضرر »

ولقد رأيت فى كتاب لطيب أمريكى يسمى [كيلوج] منع التدلوى بالخمر ، إذ بان له أن ضررها فى
 الجسم عند التدلوى أكثر من نفعها بالشفاء المؤقت ، لما تفضل فى الامعاء وباقي الأحشاء من الضراء . ولما
 ضمت الخمر فى بلادنا أغرم بها قوم حتى أخربت البيوت ، وأذهبت العقول ، ونحن نرقب من الله الخروج من
 مأزقنا ، وبعد ما كتبت هذا أخذت أقرأ ذلك الكتاب المسمى [كتاب اليد فى الطب] فرأيت كتب فى ضرر
 الخمر نحو (٣٠) صفحة ، وكتب فى السخان والشاي والقهوة والكافور ، وشدد التكبير على الناس جميعا ،
 فجمعت من ملخص ترجمته خطبة مع اضافة شذرات من كتب أخرى ، وهالك نص ما جاء فى الجرائد والمجلات
 ببلادنا التى نشرتها فى العام الماضى قبل الطبع (أى طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٤٣ هجرية) .

نشر اليوم خطابا ألقاه [فلان] فى المدرسة الخديوية ، وكذلك فى الكلية الأبركية على ملا من العلماء
 والأطباء وطلبة المدارس العالية المصرية لاسما طلبة الطب فى موضوع [مطابقة الكشف الحديث لما ورد فى
 الحديث النبوى من أن التدلوى بالخمر ضار] كما قاله أكار الأطباء فى إنجلترا وفرنسا وأمريكا ، ولم قصد بذلك
 إلا إيقاظ أطباتنا وعلمائنا كما يقوموا بما هم مفروض عليهم نحو أبناء وطنهم ، كما قام غيرهم من الأمم الأخرى ،
 وهلمو ذا الخطاب بتمامه . قال حفظه الله :

« الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد فإليكم أيها السادة الأفاضل ، يا نخبة مصر وأساطين
 العلم والطب ، ويا زهرة الشريعة المصرية ، أتم قدوة الأمة وعيونها المبصرة ، وأذانها السامعة ، ورومها
 المفكرة ، أتم قادتنا وسادتها ، أتم رأى العام ، أوجه خطابى هذا راجيا أن تصغوا الى قايلا ، لأنلوا عليكم

ما جئت بقلبي، وما أملة على ووجداني، ودلّ عليه اختباري مدة الحياة في هذا للوضع العظيم وهو
[الخمر] كما أتى أشكركم على ما تفضلتم به من تلبية الدعوة لسباع خطيتي :

أيها السادة : إن الأمم اليوم قد نهبته من غفلتها ، وقامت من سباتها ، والعلم يمشو حينئذ بالأمر إلى العلاء ،
والإنسان اليوم غيره بالأس ، هذه حركة فكرية عاتية للتطور الاجتماعي الانساني العلم ، ومصر التي شهد
لها التاريخ بالتقدم على سائر الأمم أجدر أن تدلّ دلوها في الدلاء ، وأن تبحث مع ذوي الآراء في الامور والمساءلة
والمسائل العاتية ، وتحذو حذو الأمم الرافضة للعلم حتى لا يسبقنا خلفنا بالسنة حذوا ، ويقول أباؤنا : قد قصر
آبؤنا الأولون ، ونام علمناؤنا السابقون ، فوجب علينا أن نتقى مجتمعنا من بعض المنكرات وللصواب التي أهمها
مسألة [الخمر] .

تحريم الدين للخمر

أيها السادة : حرم القرآن الخمر تحريماً قطعاً ، ولم يستثن حالاً من الأحوال ، ولا ألباحاً ، ولا أجزاء لمضم
الطعام ، ولا رضية لتقوية الشهوة عليه ، ولا لاكثر النعم في الجسم ، بل عمم التحريم فقال : « يا أيها الذين
آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد
الشیطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

التداوي به في الدين

اختلف الفقهاء في التداوي به ، فأباحته طائفة إذا لم يبق غيره مقامه ، وقال آخرون : الخمر لا يتداوى به ،
واستدلوا بالحديث : « لم يجعل الله دواء أمتي فيما حرم عليها » ويقول القرآن « فهل أنتم منتهون » .

المدينة الحديثة والدين

هجمت المدينة الحديثة في الشرق ، وأخذت تسرع في أسباب الرقى ، فضت الخمر ، وعمت الأمصار
والقرى ، وشاعت بين العامة والدعاة ، وتبعها في ذلك أنواع الخبث والكوكابين وغيرها ، ويقول القرآن :
« رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

مطاردة المدينة الحديثة للأديان

كان أسلافنا يقيمون الحدود ، ويجلدون الشارب نحو أر بين جلدة ، فكان ذلك مخففاً من سطوة الخمر
ومناصاً لطغيانها ، وكان الرجال لدين سطوة وبأس ، وكان الملوك والحكام أقوى معضدين للفضيلة ومنع الخمر
لمتألاً لقوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » .

جاءت المدينة الحديثة بجيها ورجلها ، وشاركتنا في الأولاد والأموال ، وهجمت علينا ، ولم يبق لدين
سطوته ، فأنحصر عن المدن إلى القرى ، ثم انحاز إلى أطراف البلاد ، وهي تطارد الدين ، ولكن المدينة بلا علم
ضلال ، والعلم الناقص وبال ، والبلاهة كما قال الفزالي خير من الفطانة البتراء ، والجهلاء أفضل من الأذكياء
الفرورين ، فلما الدين كله ، ولما العلم كله ، ونحن أخذنا من الديانات أسماءها ، ومن العلوم قشورها ، نخسرنا
الصفتين ، ووربحنا الرزقين ، وسبقنا للمتدينون ، وطاقنا من الفريجة العلماء العاملين ، فويل ثم ويل لمن لا دين
له ولا علم ، أولئك الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، خلقنا أن نبعث
في موضوع الخمر بحثاً عليها حتى نكون أئمتنا البيت من بابها ، وأرجعنا الأمر إلى نصابه ، فالعلم اليوم هو السلاح

لقدى به تصول الفضيلة ، وبه تحارب النقيصة ، فهذا السلاح أقاتل معكم وبهتكم جيوش الجهل بين أبناء أمتي المصرية المحبوبة ، فلاقص عليكم أبناء ما عثرت عليه في هذا الموضوع مرتباً على مقتضى الترتيب الزماني وينحصر ذلك في أربعة مباحث وهي :

- (١) ماقلة علمه الاجتاع من أنه يفتي النسل ويستأمله .
- (٢) ماقلة علماء التشريع من أنه يورث الجنون في الأقطار الجنوبية .
- (٣) أعمال الجيوش المنتشرة لمنع المنز ، وما جاء في خطبة رئيسها في مصر .
- (٤) ما جاء في كتب الطب الافرنجية ، وخصوصاً الأمريكية ، وكيف منعوا التدلوى به .

المبحث الأول

لقد قرأت في كتاب [خواطر وسوانح في الاسلام] تأليف [الكونت هنري كلستري الفرنسي] المطبوع في سنة ١٨٩٨ في ص ١٣٥ ما يأتي : « وعندي أن هجرة القبائل الى الصحراء الكبرى جنوباً من الجزائر وهم بطل كالتقول بان كان مضايقتهم فيزحون عن البلاد شيئاً فشيئاً ، أما اقراض الأهالي بالتدريج بعد دخول المتدينين الاوروبيين بلادهم ، فمنع لان صدقته لإقربا ، فان احتكاكهم بالمتدينين ربما قتل وسائل الجيش عندهم ، ولكن لا يؤثر في وجودهم ، بل لا يزالون يتسلطون أكثر من الاوروبيين ، ونضيف الى ذلك أن المكرات التي استصلها بعض الفاتحين لا تؤثر عند أهالي الجزائر لكونهم يمتنونها مقاس شديداً ، اه لقد دهشت عند قراءة هذه الجملة ، وقلت ماقلة نصيرين سيرل :

أرى خلل الرماد وميض نار • وبوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكرو • وان الحرب أوطأ كلام
فان كانت أمية في سبات • قتل قوموا فقد حان القيام

وهنا غاية العجب كيف يقرأ قومي وهم غافلون : « اقرب للناس حلبيهم وهم في غفلة معرضون » وكيف يقول ذلك الفرنسي العظيم : ان الجزائر آخر سلاح يفتل به الأمم المستعمرة ، وبه فناء لنسلم ، وأهل بلادى في غفلة ساهون ، ولطالما عرضت هذه الآراء على أهل العلم والأذكياء وأقول : ألم قرأ أمتنا هذا الكلام ، أو قرموا وهم لا يتبهون ، فالمسألة موت أو حياة اه

المبحث الثاني

قال العلامة الانجليزي [بنجام] في كتاب [أصول الشرائع] ترجمة للمرحوم [أحمد فتحي زغلول باشا] تحت عنوان [الجزائم الشخصية] مانعه : « النيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الانسان كالأبله ، وفي الأقاليم الجنوبية يصره كالجنون ، ففي الأول يكتفى بعاقبة الأول على السكر كمثل وحشى ، وفي الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد لأنه شبيه [بالتشرب] وقد حرمت ديانة محمد صلى الله عليه وسلم جميع المشروبات ، وهذه من محاسنها انتهى كلامه .

المبحث الثالث

منذ ثمان سنين جاء إلى مصر رجل من أعضاء دلة الندوة [البرلمان] للسويد والنرويج ذكر أنه رئيس ججيات منع المنز في العالم ، وأنه زار جميع دول أوروبا والشرق كفرنسا ، وانجلترا ، والروسيا ، والصين واليابان [وكل الحكومات ساعدته] وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل ، وذكر أنه في أمريكا حرم خسة وأربعون مليوناً من أهلها المنز على أنفسهم [وكان ذلك قبل الآن ، وقد حرمت في هذه السنة تحريمها علماً في هذه البلاد] . وقال : ان ولي العهد لبلاد السويد ربي على أن لا يشرب المنز

ونحن نتخبر بأنه أول ملك لا يشرب الخمر في أوروبا .

المبحث الرابع

كنت منذ بضع سنين عند طبيب فطاسي مصري ، فأراني كتابا انجليزيا مؤلفه أمريكي ، وقال ان مؤلفه يقول فيه اني لست أبحث في منع الخمر للسكر ، فهذا فرغ منه العلماء ، وان معنى اليوم في مضاره الطبية ، وأن التداوي به يجلب للإنسان أمراضا لا قبل له بها ، فاذن التداوي به ممنوع طبييا ، وليس فيه أدنى فائدة ، قلت له لماذا لاترفع صوتك بهذا في البلاد ، فقال اني إخواني الأطباء يسبقوني بألسنة حداد ، قلت أليس في أمريكا علماء محققون ، فقال بلى ، ولكن لا يطاع لقصير أمر ، فلما دعيت للخطابة في هذا الموضوع طلبت منه الكتاب ، وهو يسمى كتاب [اليد الطبي] تأليف الأستاذ [كايوج] كتب تحت عنوان [الاستعمال الطبي للخمر] من صفحة ١٧٥ إلى صفحة ٥٠٤ فلا ذكر لكم جلامنه ، وعليكم أيها الأطباء ترجمة الموضوع كله والرد عليه ان رأيتم خطأ علماء أمريكا وأوروبا والافسادوا على منعه كما منعه أعظم الأمم علما ومقاما ، وهي أمريكا .

قال المؤلف : من كان عنده أقل ريب أو ظل للشك أن الخمر سم فليعتبر بما يكون عند وصوله للمعدة ، فان النساء الخاطى يصبر محققا ويخرج مقداراً من الخاط ليحصى نفسه ، وترى عند المعدة وقواها للدهشة تسرع في اخراج ما وصل اليها بأسرع ما يكون ، أليس ذلك مزيلا لشك الشاكين ، وريب المرتابين ، في أن الخمر من أنواع السموم . وقال الأستاذ [ليج] انه إذا اعتدل الانسان في شربه قوى جسمه وأكبه نشاطا ، وقد قض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين ، وهم الأستاذ ليلان ، والأستاذ بيرن ، والأستاذ دروي ، ثم الأستاذ أدولر دسميث الانجليزى ، وقد برهن الثلاثة الأولون على بطلان ما تقدم بقولهم : ان الخمر تخرج من الجسم ولا أثر لها ، وزاد الأخير بقوله انه حطل الدم ، فلم يجد فيه أدنى شيء من العناصر التي يتحرك منها الخمر . وقال الدكتور [ملر] الاسكونلاندى : الخمر لا يثني شيئا . وقال الدكتور [هيجنبوتوم] أمام الجمعية الطبية البريطانية : أنا لأعلم مرصا قط شئ بالخمر . وقال الدكتور [جونسون] الانجليزى : ان الخمر ليس ضروريا البتة ليستعمل دواء . وقال في ابطال قولهم ان الخمر غذاء ، وأنه يحفظ الجسم ، أو يقوى العضلات : ماهذه القوة ان هي الا اسم آخر من أسماء السموم ؟ فقولنا فلان نشوان طرب نمل معناه مسموم ، وبرهن على ذلك بقوله : إذا أدخلنا الخمر ، أو أى سم آخر من العقاقير السامة التي تصد بالثبات في الجسم ، فان جميع الاعضاء تستعد للقارمة والمدافعة لاجراجه من الجسم ، ومن هنا كان النشاط . وقال في قرض قولهم ان الخمر تمنع المرض : ان الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة ، فلذا كان ما تقولون حقا فاضرار الخمر أشد من تلك الامراض فكما بالجسم ، فكيف بها إذا كانت لاتشفى منها شيئا ، فان تجارب الأطباء السابقة تبين أنها لاتترك أثرا في النسيج والأثر الحقيقي انما يكون في النسيج .

وقال الدكتور [سميث الانجليزى] رداً على الأستاذ [ليج] ان الخمر يفسد بسببها الجسم جزءا من الحرارة ، بل يزيد ذلك القصد ، ومن الجيب أن سيدنا محمدا ﷺ أثبت ضرر الخمر في الحديث الصحيح ، فقد جاء في صحيح مسلم مع شرح الامام النووي صفحة ٣٦٤ ، أن طارق بن سويد سأل النبي ﷺ عن الخمر فيها لو كره أن يصنعها ، فقال اني أصنعها للدواء ، قال الرسول ﷺ [انه ليس بدواء ولكنه داء] أليس هذا الحديث الشريف مقتضى العلم الحديث . يقول الدكتور [سميث] ان الخمر تسبب للجسم خسارة جزء من الحرارة . وقد منعت الدولة الأميركية الخمر بتاتا بناء على أمر الأطباء ، وعلى الاكتشافات الحديث للمنافي لآراء الدكتور [ليج] ، وهذا الكشف الحديث مجزة اسلامية . وقد أثبت الدكتور [باركس]

ثم [البرجون هيل] مفتش عموم الجيش البريطاني ، والـدكتور [هنري ملر تيس] وآخرون غيرهم أن الخمر لا يشفى المرض ولا ينفع الجسم . وقال في ابطال قوالم أن الحب والفا كمة فيها سم ، ان بعض الناس يقول اذا كان في الخمر ضرر فذلك ليس خاصا به انه من الحب ، ولحب فيه قليل من السم ، فلم أ كثر الاطباء من ذم الخمر مع أن السم عام فيه ، وفيما أخذ منه ؟ فأجاب عن ذلك بقوله نم : ان الخمر من الحب ، ومن ذا يقول ان الحب فيه سم ؟ ان الحب لم يكن سوا الا بعد اتلافه ، والنشب لا يكون دنانا الا بعد اتلافه ، فليس الخشب دنانا وليس الحب خرا .

ولا جرم أن السم حدث في الفا كمة والحب بعد اتلافها ، فالحب لاسم فيه ، وكذلك الفا كمة ، ولقد شاعت هذه النظرية بين الجمهور ، وهي كاذبة وهل تدس الطبيعة التي أعدت لنا الحياة السم في هضم . كلا . وقال في ابطال قوالم ان الشرب المعتدل لا يضر ان كنه مشتقة من كلمة لاتينية ، مضاعفا السم ، فالشرب المعتدل يصير معتدلا لا يتخطى الشارب منها ، فهو يتجرع السم قل أو أكثر فويل للشاربين ، وأبطل قوالم : لا ضرر في الخمر العاق بقوله : ان الخمر الصافي هوسم صاف ، فاذا احتج الشارب بمثال هذا « فقد ضل ضلالا مينا » لأنه أثبت أن الخمر سم سواء كان قويا ، أو مخلوطا فهو ضار للصحة مهلك للأبدان ، ثم ذم الأطباء الذين يتعاطون الخمر والمسكرات ، فقال انه من موجبات الأسف المحزن ذلك المنظر الذي تنقطع له القلوب أسي أن يخضع الانسان العالم أمام جنود السموات والذائق الخمرية ، وما هو جدير بالذكر أن أولئك الأطباء الذين ينصحون بعدم شرب الخمر ويحضون عليه يسبحون هم أنفسهم مفرين به عا كفين عليه فيكونون صرعى نصائحهم وصرامى سهامهم وقتلى علمهم وهم لا يشعرون ، أوليس من النتائج الواضحة بالدلائل الساطعة أن أحكامهم في ذلك أوجت بها شهواتهم وقضت بها أولهلم ، وهم عن العلم معرضون ألا ساء ما يصنعون ، وأخذ يبطل قول الشاربين ان الخمر بمحاولتهم والكسل ويجعل التقير الذي لا منزل له ولا صاحب يشعر بأنه غنى ، أو ملك ، وقد أطال في ذلك . وقال في الرد عليه ان الانسان اذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه ، وقد الاحساس ، ونسى ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعها لما يفر عن الاعتبار بتلك التجارب العالية ، الرفيعة القدر الشريفة المنزلة ، والشعور الشريف الذي تكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية ، ان القرار من الخمر جين ، وأبطل ما يدعيه الشاربون من قوالم : ان الخمر لا يضرني ، ودحض حجة أولئك الذين يتعاطون الخمرات ، والمسكرات من الأفيون ، والخمر ونحوها . وقال انهم فويصة له وبأنهم الموت من حيث لا يعلمون ، وأخذ يدحض حجة أخرى للشاربين الذين يقولون ان الخمر عادة انسانية ، وطبيعة بشرية ، وكيف لا ونحن لانرى أمة الا شربت الخمر ، ولاجيلا الا عقرها ، ولا قبيلة الا كرع منها ، وهامم أولاد الصينيون ، واليابانيون ، والشرقيون ، والغربيون ، والمسلمون ، والنصارى ، واليهود ، والمجوس ، والبوذيين كل منهم يشربها ، ومن ذا يقلم الطبيعة ، أو من ذا جف في طريقها ؟ فردة عليهم قائلا ، أليس في هذه الأمم ضالون ، وقاسقون ، وكذابون ، ومناققون ، ومخادعون ، ولصوص خائون فكيف يحتج الشارب بفرق السكرى مدعيها أنه طبع في البشر ، أفلا نأسف لشيوعه ، ونأق من وقوعه وتكافره في بني الانسان انه من موجبات الحزن والأسف ، لا بما يحتج به للاعتذار ، وبسار اليه بالتقليد والاتباع ، هذه هي نبذة من آراء المؤلف كيلوج الأمريكى ، ولاريد أن الحكومات لا تقطع أسرها حتى يثبت العلماء ويطلبه الشعب ، ولولا أمثال مؤلف هذا الكتاب ما منعت أمريكا الخمر ، ومصر أولى بذلك لأنها في أول نهضتها بين الدول الاسلامية ، ولأن الخمر أضرتها كثيرا ، ولما أمل في رجال الطب ، وعلماء الأمة أن ينصحوا الشعب بالاقلاع عن هذه العادة ، والله موقنا الى الاصلاح ، هذه هي الخطبة ذكرتها هنا تذكرة للمؤمنين .

متناقضات الأمم وعجائب الاسلام

تأمل أيها الذكي وتعجب كيف كانت أمريكا النصرانية أول من نادى بمنع الخمر وتحريمه ، ودينها لا يعنه
 ولقد بلغنا لهذا العهد أن هذه الأمة كسبت من تحريم الخمر سعة في الرزق وبسطة وأمانا في البلاد وزادت
 مجالس العلم وكثر الداخولون في المعاهد العلمية ، وقلّ القتل والسرقة ولزادت الأموال بنسبة مطردة ، هذا
 هو سر الاسلام وتحريمه للخمر ، ثم انظر كيف كان المسلمون الذين يحرم دينهم الخمر يعاقرونها صباحا ومساء
 في مصر بلادى ، وفي الأقطار الإسلامية الأخرى ، ولم يحرم شربها في تركيا الا بعد أن استقلت البلاد في هذا العلم
 فنصوها وحرموها وهي بلاد اسلامية ، ثم أقول : إن المسلمين تركوا العلوم الكونية ونسوها ولم تكن عنايتهم
 موجهة الا الى الأمور الفقهية ، ومنها تحريم الخمر ، فإذا كانت عنايتنا موجهة للحلال والحرام ، ونسينا العلوم
 التي في جبال النجوم وبهجة الزرع والشجر فتأخرنا في كل شيء وسبقنا الفرنجة ، واختصاصنا انما هو بعلم
 الفقه ثم ننظر فنرى أن الخمر أول من منعها الفرنجة والمسلمون يكثرون منها صباحا ومساء ، فياقبة ماذا جئنا
 وماذا عملنا ، فلا في العلوم الكونية نجحنا ، ولا في الحلال والحرام اتقينا ، والفرنجة سبقونا في الأمرين ، فاضل
 المسلمون اذن ، وعسى أن يكون الوقت أرف كاهو أملنا ، وأن يرجع الى هذه الأمة مجددها ، ويترغ قرها ، ويظهر
 فضلها ، وتأخذ دورها في العالمين .

تحريم بيع الخمر والاتفافع بها وذكرا أنها نجسة

ثم اعلم أن الأئمة أجمعت على تحريم بيع الخمر والاتفافع بها وتحريم ثمنها ، وقد كانوا في الجاهلية يسيبون
 الخمر من ثمنها ، وفيها أيضا القرح والطرب ، وهذه من المنافع المذكورة في الآية فخرمت ، والخمر نجسة العين قد
 حكم العلماء بنجاستها للزجر عنها .

حكم الميسر

أما الميسر : فهو القمار واشتقاقه من اليسر لأنه أخذ مال بسهولة من غير تعب ، وقد كان في الجاهلية
 نوعان : أحدهما أن يخاطر الرجل على أهله وماله ، فأيهما قر صاحبه ذهب بأهله وماله ، والثاني أنهم كانوا
 يذبحون جزورا ، ويمزقونها ثمانية وعشرين جزءا ثم يسمون عليها بعشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام
 سبعة منها ذات أنصبا : أولها الفذ بواحد وأعلىها الملقى بسبعة ومجموعها ٢٨ ، وثلاثة لأنصبا طواهي الرغد
 والنيح والصفيح ، وأما السبعة فهي الفذ والنوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعل ، وكانوا
 يجمعون القداح في خرطة يسمونها الربابة ويضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه الخليل فيحيلها في
 الخرطة ويخرج منها قدما باسم رجل منهم ، فأيهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج من القداح
 وإن خرج له قدح من الثلاثة التي لأنصبا لها لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله ، وقيل لا يأخذ ولا يفرم
 ولطعها كيفيتان وكل مافيه خطر فهو قمار حتى لعب الصبيان بالجزور والقمار وإن كان فيه أخذ المثل بسهولة
 في وقتما فلن فيه خطرا وليس مكسبا طبيعيا النوع البشري ، وإنما المكسب الطبيعي ما كان من أعمال جرت
 العادة بنفعها واستثمارها ، ومن عجب أن هذا النوع من الخطر عاش مع الانسان من مبدأ الخليفة حتى رأوا
 آثاره في الخرابات القديمة من الصور الذاهبة كأن هذا الانسان عشق المنال والمخاطرة فبرزها في صورة
 القمار غلطا والافانه خلقا ليركب كل صعب وذلول ويرقى الى الصلا ، وبضال الطبيعة ، ويدل للمالك
 ويقتحم الأخطار ويقامر على روجه وقواه ، ويقول لما هلك ولما ملك ، فالقمار رمز فقه العالمون ، واقترا

به الجاهلون ، حرم الله القمار وأوجب السبي للعلا ، والقمار على الأرواح والمخاطرة بالأشباح واقتحام الأخطار
هذا هو القمار المرغوب والسبيل المطلوب

ألقى سبيل المجد ماأنا فاعل • عضاف واقدم وحزم ونائل

وقد ابتليت الأمة المصرية اليوم بالخر والقمار جلها الأورويون واستروا في النحل المقوتة ، واستهوا
العقول ، ونهكوا على النفوس ، وانهبوا الأموال وأخلوا الديار ، وبات الشاربون على شر الأحوال ، وهم غافلون
وأولئك ساهرون مستيقظون ، وبما يذكره العلماء عادة في هذا المقام الترد والشرطيح ، فأما الترد فيحرم
المعب به ، قال رسول الله ﷺ من لعب ببرد أوزردشير فقد عصى الله ورسوله . أخرجه أبو داود ، وقال
على بن أبي طالب كرم الله وجهه : الترد والشرطيح من اليسر ، ومذهب أبي حنيفة في الشرطيح أنه حرام
برهن وبغير رهن ، ومذهب الشافعي أنه مباح اذا خلا الشرطيح عن الرهان واللسان عن الطغيان والهديان
والصلاة عن النسيان اه .

أقول : ولقد أصبح اليوم عمل كثير من الطبقة المتعلمة في بلادنا ، ولو كان العلم محبوا لهم لكانوا به
فرحين وعليه عاكفين ، فليحجب العلماء العلم للشبان باظهار الجمال والتماس في هذه الهجاء الكونية
لتصدم عن ضياع أوقاتهم ، وذهاب مجدهم وهم نائمون لاعبون اه .

ولما كان في القمار نوع من اطعام الفقراء لأن تلك الأسم كانوا يعطونها للفقراء ويستخرون بها
ويعدون من لم يتقدم لذلك برما أى بخيلا شحيحا أعقبها الله بآية (ويسألونك ماذا ينفقون) الخ فأجيب
بن الذي ينفق هو العفو . وهو ما فضل عن قدر الحاجة والتصدق عن ظهر غنى فالعفو نقيض الجهد .

روى أن رجلا أتى النبي ﷺ بيضة من ذهب أصابها في بعض المغام ، فقال خذها منى صدقة
فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مرارا ، فقال هاتها مفضبا خذها حذقا لو أصابه لشجه ثم
قال يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى ، فكأن الله
عز وجل لما منع التصدق بطريق مجهول وغير منظم ، وهو القمار الذي فيه منفعة الفقراء ، ونظر الأغنياء
كأخطل اليوم عند فضل المبرات أمر أن يتصدق الناس بما فضل عن حاجاتهم بطريق منظم واضح معلوم
السبيل ولذلك أعقبه بقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، في الدنيا والآخرة) .

وأما مسألة اليتامى فذلك أنه لما نزل قوله تعالى « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية اعتبروا اليتامى
ومخاطبتهم فأنزل الله هذه الآية (ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فآخوانكم والله
بطل المصد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم) الفت المشقة ، وحاصل الأمر يرجع
الى أن المخالطة مرغوب فيها مطلوبة على شريطة ارادة اصلاحهم ، واجتناب الطمع فيما عندهم ، والله أعلم
بمخالف القلوب ، ولو شاء الله لكفكم ما يشق عليكم وعليهم ، فلم يجوز المخالطة ان الله عزيز غالب يقدر على
الاعتنا حكيم بحكم بما تقتضيه الحكمة ، ثم أخذ يشرح نكاح المشركين فحرم نكاح كل كافر كتابي
وغيره ، وكذلك حرم نكاح كل كتابية وشركة وخصمت الثانية بآية ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب
من قبلكم ، والمراد بالعبد والأمة الرجل والمرأة لأنهما عبدا لله ، فهذا ملخص قوله (ولاتنكحوا المشركت
حتى يؤمنن وأمة مؤمنة) اشتركت معكم في الرأى والدين وتشابه الأخلاق والعادات الدينية (خير من
مشركة ولو أعجبتكم) لأن الجمال الظاهري لا يثبت لمحبه الا اذا قوى بالباطني ، فالظاهر كالزهرات والباطن
كالشرف والزهرات ذابلات (أولئك يدعون الى النار) وأتم تدعون الى الجنة ، واختلاف المشارب داع
لاختلاف النفوس ، وهو سبب الأذى ونكد العيش (والله يدعوا إلى الجنة ، والمغفرة بأذنه) ولما كان

هذا القانون نظاميا خلقيا أفاد شرفه ، فقال (وبين آياته للناس لعلمهم يتذكرون) .
ولما كانت مسألة الحيض مختمة بالف عقب ما ذكر بها ، فقال جل جلاله (ويسألونك عن الحيض
قل هو أذى فامتثلوا للنساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يظفرن فإذا ظفرن فأتوهن من حيث أمركم لفته
إن لفته بحب التواين وبحب المتطهرين . نساؤكم حوث لكم فأتوا سننكم أني شتمم وقدموا أنفسكم واتقوا
لفته واعلموا أنكم ملاقوه و بشر للمؤمنين) كان الناس في الحيض قسمين ، فاليهود كانوا يمتثلونهن في كل
شيء حتى في الأكل ، وكان النصارى يجمعونهن ولا يبارون بالحيض ، وكانت العرب كاليهود ، فسأل
أبو الدرداء رجعا من الصحابة النبي ﷺ فزلت ، والحيض الحيض ، يقول عز وجل : إن الحيض أذى
تفترمه النفس ويستقره الطبع ويؤذى من يقربه فلا تجامعوا النساء في الحيض حتى يظفرن : إما بالاغتسال
كذهب الشافية ، ولما باقطع الدم حسب كذهب الحنفية ، وعند ذلك يحل الجماع في مكان الحرث لا غيره ، وأجمع
العلماء على جواز الاستمتاع بالمناض بما فوق السرعة ودون الركبة ، ويحرم على المناض الصلاة ، والصوم ،
ودخول المسجد ، ومس المصحف وجهه ، وعليها قضاء الصوم دون الصلاة .

ولما كان الشرع موقفا للنفوس منها للعقول لم يدع فرصة تمر الاذكر ، ولا اجابة عن سؤال فقال الادعظ
وحذر ، فانظر كيف ناسى عن المسائل التقنية الى المعاني الحكمية وقضى عن الأذى والحيض بعد الاجابة
الى الحكمة التي أودعها ، والخلق التي أبدعها ، فقال أيها الناس ما الشهوات الا آلات لتناسل وما نساؤكم
الاستزراع وما أتم الا زرعون فلما كم أن تكون مقاصدكم الشهوة حسب ، وانما يراد تناسلكم ، فالشهوة
مقصودة لغيرها ، وما أريد لسواها لا يلبق أن يزد فيه عن الحاجة ، وليكن أشرف مقاصدكم وأهم أغراضكم
الولد ، فما الشهوات الامتدات ، والمنافع نتائج ، وكما أن ثمرة الغذاء البقاء ، هكذا ثمرة الجماع بقاء النسل ، وكأنه
به أن القصد من الطهارة والنجاسة ، وأحكام الشرع ماهو شريف من بقاء الأجسام وطهارة الأرواح .
ولما فرغ من أحوال الزواج ، وأحكام الحيض أخذ يبين أحوال الطلاق على الترتيب الطبيعي العجيب
وابتدا بدأ ذكر الخلف بالله وأنه لا ينبغي أن يجعل عرضة وهو :

(المقصد المباشر)

وَلَا تَجْمَعُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلُّوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ * لَا يُؤْخَذُ كُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ . وَلَكِنْ يُؤْخَذُ كُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

ايضاح

(العرضة) من قول الرجل قد جعلتني عرضة للومك ، وقال الشاعر * ولا تجعليني عرضة للوأم *
وقوله (أن تبروا) تضاعوا البر فتكونوا بررة ، اعلم أن المؤمن الذي يعرف الله جل جلاله يعظم جلاله في قلبه
ويتملى هيبه لعظمته وتعلما لقدرة فيزهه عن أن يجر اسمه بلسانه في محقرات الأمور وصغار الأشياء ، بل
يتعود الصدق في القول حتى يثق به الناس ويستقدوا أنه من الصادقين ، وإذا كان من بحب أحد من
المؤمنين يفلر عليه من أن يكون اسمه عرضة للقائلين ، فما بالك بالله خالق السموات والأرض كيف يقرن
اسمه بالأمور المحقرات فيحلف باسمه على متاع أو فضل أو ترك ، واعلم أن من اعتاد الحلف في صغار الأمور

وكبارها لا يلبث أن نصبره عادة محكمة وجبلة راسخة ، فيسبق لسانه للحلف صدقا وكذباً حقاً وباطلاً ، فيستحق
مقت الله وغضبه ويحقره الناس فلا يتقون بقوله ولا أيمانه إذا حلف فيحصر رضاه وحقه الناس به ، وإذا
كان أولئك الذين يكثرون القول بزدرهم الناس ، فما بالك بمن يتجشم أو عر مسالكه ويقتم عصابه من
الحلف والأيمان الصادقة والكاذبة فأولئك شرمكانا ، وأوهى مكانة ، وأنزل مرتبة ، بقول الله « ولا تطع كل
حلاف مهين » ويقول عليه الصلاة والسلام [اليمين الغموس] التي تفسس صاحبها في نار جهنم لكونها
طابرة [ترك البيوت بلا قمع] أم لا أولئك الصادقون في أقوالهم الذين لا يحلفون فهم بررة بتعظيم مقام الله عز
وجل متقون ما يحل بتعظيم مقامه وجلاله مصلحون بين الناس لتقاة الناس بهم فتقبل حججهم لصدق أقوالهم ،
وقال تعالى « واحفظوا أيمانكم » وكان العرب يمدحون الإنسان على الإقلال من الحلف ، قال الشاعر :

قليل الألبا يحافظ ليمينه • وإن سبقت منه الآية برت

أى لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم لأجل أن تكونوا بررة مصلحين بين الناس لو توفهم بكم ، والآية
معى آخر ، وهو أن العرضة الشيء المانع للناس من السلوك والمزور ، واعترض فلان كلام فلان جعل كلامه
معرضاً لكلامه : أى مانعاً من تثبته وعليه ، فالغنى ولا تجعلوا الله عرضة وما ناسب أيمانكم من (أن
تبروا وتنفقوا وتصلحوا بين الناس) وذلك أن الرجل كان يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم ، وإصلاح
ذات الربن ، فإذا طلب منه ذلك يقول أناف الله ان حدثت بيمينى فيترك البر لئلا يكون براء بيمينه ، فنزلت هذه الآية
وأمر الإنسان أن لا يجعل الله بسبب الحلف مانعاً من تلك الخيرات والصلات والصلح بين الناس وحينئذ يحث
ويكفر عن يمينه ، وقوله (والله سميع عليم) أى يسمع أيمانكم ويعلم نياتكم من تعظيم الله والاعراض عنه ،
وقوله (لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم) قال أبو حنيفة : اللغو أن يحلف الرجل
بناء على ظنه الكاذب ، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان ، ولكن يعاقبكم بما تصدتم الكذب
فيه (والله غفور) حيث لم يؤخذكم باللغو (حليم) حيث لم يعجل بالمؤاخذه على يمين الجذ تر بصا للتوبة .

تفصيل الكلام على ثلاثة مواضع من الآيات السابقة

الميسر ، والطهارة ، وصون اللسان عن الحلف

الأول الميسر قد عرفت طريقة الميسر عند أسلافنا العرب ، وكيف كانوا يذبحون جزوراً ويقسمونه ٢٨
جزءاً ، ويجمعون لكل قدح منها جزءاً أو أجزاء ، والقديح عشرة سبعة منها لها أنصبا ، فالأول ١ والثانى
٢ وهكذا إلى السابع ، وهو القديح الملقى فله ٧ ومجموعها ٢٨ وهذه القديح والسهام متى أخذت أنصباؤها
من الجزور تصدقوا به على الفقراء ، ولم يكن ذلك باب ربح بل كان من باب المفاخر ومع مافى هذا النوع من
العطف على الفقراء حرمة الله تعالى ، فان المدارق تربية الأمم على تقوية الإرادة والعزيمة ، فانظر إلى ما طرأ
على الأمة الإسلامية بعد ألف وثلاثمائة وأربعين سنة ، انظر كيف تنزلت أخلاق بعض الأمم الإسلامية التي نزل
الفرخ بساحتها ، لقد ابتدعوا من الفنون للربح ما يذيب المهج ، ويغضب الرب ، ويزرى بالشرف الرفيع
والجيد النج ، والهمة القساء ، وأهل الشريعة السحاء .

ذكر بعض الميسر في بلادنا المصرية اليوم

سباق الخيل ، رمى الحمام ، التبر ، يا نصيب [اللوتريه]

اعلم أنى لما وصلت إلى هذا المقام عند طبع التفسير أسببت أن أشاهد بنفسى بعض تلك الأما كن التي

ابتدعها الفرنجة في مصر ليكون قولى عن مشاهدة فصاحبى البها فاضلان مفتشان برقان اللب من وزلوة الداخلية ، وهما من الفرمنين بالعم الباحثين عن الحقائق فتوجهنا الى محل صيد الحمام بشبرا ويسمونه [التبرو] كلمة نيلانية يوم ١٨ مارس سنة ١٩٢٣ م فوجدنا مكانا متسعا في الفضاء عليه سور في صدره كرسي للجلوس وهناك أدوات الرمي ، وترى الرماة هناك مصطفين في مدخل المكان ، وقد كانوا في ذلك اليوم ١٥ راميا كل منهم يحمل بندقيته يرمى بها ، وهناك أوراق معلقة بالحاظ ، وباسم كل واحد من هؤلاء الرماة جملة فيأتى المقامر ويختار ورقة يدفع منها وتكون من الورق الخاص بمن يراه غالبا من الرماة ، ومتى أخذت الأوراق ينتدى الرمي .

صفة الرمي : قد كانوا من قبل يرمون الحمام المحبوس في أقفاصه فيطيره صاحب المحل ، وهو الافرنجى ويرمى للرماة واحد بعد واحد ، فانه يطير حمامة ، فيضرب زيد ويطير أخرى ، فيضرب جورجس ، فمن كان أكثر إصابة من هؤلاء الرماة كان هو الفائز وحينئذ يكون ما اجتمع من النقود كلها مصروفا لمن أخذوا باسم هذا الفائز يقسمونه بينهم ويحرم الباقيون ، ثم يعاد اللعب ويعاد سحب الورق ، وهكذا .

ولما رأى رجال الحكومة أن ضرب الحمام فيه ابداء للنوع استبدلوا به أطباقا مصنوعة من الزيت والحبر والأسمنت وهناك آلة شاهدتها ترفع تلك الأطباق للحق فتنطير كما يطير الحمام ويضربها أولئك الرماة كما يضربون الحمام ، وهناك محل آخر للصيد ، وهذان المكانان يكسبان في السنة ما بين ٢٠ و ٢٤ ألف جنيه ، وبيان ذلك أن المقامرين كلما وضعوا قودا كان لصاحب المكان منها اثنا عشر ونصف في المائة من هذا المبلغ والحكومة تأخذ من هذا ثلاثة ونصف في المائة توزعها على الجعبات الخيرية منها للمصرية نحو الثلثين والفرنجية نحو الثلث ، ثم ان اللاعب كلما لعب دورا فقد بعض ماله حتى يرجع غاوى الوفاة صفر اليدين لا يملك شروى غير ، وهؤلاء الرماة كل من فاز منهم يعطى جنيها واحدا من يد صاحب المحل وبعضهم شريون وبعض منهم غر بيون .

(١) سباق الخيل عندنا بالبلاد المصرية

ويقرب من هذا سباق الخيل ببلادنا ذلك أن المقامرين يأخذون الورق كما تقدم في الرمي ، وللمال المجموع يأخذ منه صاحب المحل نحو العشر ، وليس للحكومة الا مائة جنيه في كل سباق ، وصاحب المحل الافرنجى هو الذى يعطى للفارس السابق جائزة ، فأما القود فانها تضى بتتابع الرهن كما مر في السابق ، والذى يركب هذه الخيل في السابق سأموها أو غيرهم ، وليس لأصحاب الخيل من نصيب في فضيلة الركوب بل ذلك للريج .

(٢) السبق والرمى في الاسلام ومقارنته بما عندنا اليوم

ان في الكتب الفقهية بابا واسعا يسمى [كتاب السبق والرمى] كما يقولون كتاب الصلاة . وقد جاء فيه ان المسابقة سنة نبوية باجاء المسلمين لقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » والقوة هي الرمي ، وقوله ﷺ [لاسبق الا في خوف ، أو حافر . أو نضل] فيسابق الناس على الخيل والابل والنبيلة وبالرمي بالسهام والرماح والأحجار والمنجنيق ، وذلك هو الذى كان معروفا عند أسلافنا المسلمين . وقال ﷺ [لرموا بنى إسماعيل فان أباكم كان راميا] وقد كانوا يتعاقدون فيما بينهم على المسابقة برهان على شرط أن يكون ذلك مما يعين على الجهاد ، ومن فاز أخذ رهن صاحبه ، وقد كان ذلك للتشويق للمال والتعويد على اقتحام الأخطار ونيل المجد وحفظ البلاد ، فانظر كيف غفل المصري عن ماضيه وحاضره . وهو جاهل بما كان في تاريخ أجداده من العز والأفة والشتم . فأصبح الرامى الآن أجيرا عند صاحب المكان المعد للصيد ، وهو الذى يأخذ مال

المطهرين . ثم ان المقاسرين يكسب بعضهم من بعض . وليس لهم في الرمي أدنى نصيب .
فانظر كيف جهل الرامي فصار أجيابا . وجهل القاسم الأمرين (١) ليس له حظ في الرمي ولا في
السبق (٢) وان صاحب الخيل هو الذي يستوفى ثروتهم جميعا وهم غافلون . والذي أراه أن يجعل السباق
والرمي في كل قرية وبلدة بنظام تام برهن وبغير رهن على الطريقة الاسلامية الشريفة ويمرّن كل شاب مسلم
على ذلك تقوية لجسمه وتشجيعا لحماية البلاد وحفظا للديار من اغارة الأعداء . أما هذا الذي رأيت أنه يورث
البطالة والسكسل محروب البلاد ، مفض للفرنجية الذين هم بذلك فائزون .

(٣) النوع الثالث يانصيب اولو التوريه

وكيفيته أن يبصوا أوراقا كل ورقة بقرش مشلا ، وهذه الأوراق ربما بلغت مئات الآلاف ، ويسمونها
[تمرا] وبعد جمعها يسحبونها كما كانت تفعل العرب قبل الاسلام ، ويجعلونها في صندوق فتخرج منها مئات
تكسب كل واحدة منها جنيها واحدا مثلا ، وعشرات تكسب الواحدة منها من (١) إلى عشرة ، وأحاد
تكسب كل واحدة منها عشرات الجنيهات ، وواحدة فقط تكسب مئات الجنيهات ، وأما بقية النقود ففي جيوب
الفرنجية ، وقد نشروها في بلادنا ، وأعدتها بعضهم للإحسان على فقرائهم كما عند أسلافنا حينئذ بالنقل :
إن سباق الخيل والرمي قد مسخا مسخا فأصبعا علرا على الأئمة الاسلامية ، أصبح الرمي وسباق الخيل
مهرزقا للفرنجية ، فيأخذون عشرات الألوف من جيوب المصريين ، وبلية الأمر وقف عند ما ذكرته بل
هناك محال فيها أنواع من القمار سرية يلعب فيها الأغنياء وأهل الوجاهة والوظائف ، وهم كالكافيين يضع
مالهم بمئات الألوف في يد الأوربيين ، وهم جميعا غافلون ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولمسرك ماشبهتهم
حين رأيتهم إلا ابتعاج يجرّ صوفها ، ويؤكل لبنا وسمنها ، ويشترى البرسيم من ذلك الثمن ، يكسب زيد من
المقاسرين جنيها وهو لم يأخذ إلا من جيوب أصحاب المصريين وصاحب الخيل الافرنجي هو الفائز بمن ما يدفعون
في كل مرة من ممرات اللعب ، فيبنى القصور والنور في البلاد ، ويحرب المصري ، ويبيع ماورث من آباءه
المثمين ، وإذا كان أجدادنا العرب قد كانوا يماسرون للفنل على الفقير كما في [يانصيب] وقد حرم عليهم بل
أمرأا بالاتفاق اختيارا ، فكيف قاسم قمارا لاحظ للفقيريه من مالنا ؟ وأما الحظ الأجنبي يأخذ المال ونحن
غافلون ، ولم يجرّ في الاسلام الرهان إلا في السباق ، وفي الرمي على الطريقة الشريفة ، أما هذه فهي مضحكة
للل ، عجيبة للأئمة ، والمال في يد الأجانب ، والأجانب هم الفائزون ، ليكن السبق والرمي في سائر البلاد ،
في القرى ، وفي المدارس ، وفي الجامعات الدينية ، أنها من الدين ، إن لها في الفقه كتابها كتاب الصلاة ،
وليت جماعة من الفرنجية يضحكون على أذقان المسلمين ، المسلمون فيها مقصرون ، ولقد أدبت ما على ، والله
هو الولي الجيد « إنما التمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

المسئلة الثانية : الطهارة

يقول الله عز وجل « ولا تقربوهن حتى يطهروا فإذا تطهروا فأنهون من حيث أمركم الله إن الله يحب
التوابين ويحب المتطهرين » أي يجب التوايب من الذنوب ويجب المتزهين عن الفواحش والأفكار كخالطة
الخالص خالطة خاصة .

فانظر كيف قرن التوايب بالمطهرين ، وجعل حب الله لها معا ، ولم يجعل التباعد عن قدر الخير وملامسة
الحوادث من موجبات حب الله تعالى ، وكيف كان لتوبة ذكرها ؟ اعلم أن هذا هو السر الذي عرفه علماء

الشرق قديما والغرب حديثا ، أما أهل الشرق فقد شرحه الامام الغزالي منهم أوفى شرح ، وجعل العلاقة بتمتة ما بين الطهارة الظاهرية والظاهرة الباطنية ، وأن الطواهر تدعو حثيثا لبواطن ، وكلما كان الانسان شديد العناية بطهارة جسمه ونظافة ظاهره جز ذلك الى العناية بالباطن ، وليس المقصود من هذا أن كل من كان أنظف جسما كان أنور عقلا . كلا . والا فالمرس إذن تكون أظهر العالمين قلبا ، وانما جرت المادة أن من عجز عن الصغار فهو عن الكبار أعجز ، فن أعجزه ظاهر جسمه عن النظافة والعناية فانه عن العناية بقلبه وعسارة قلبه أعجز ، ولذلك ورد « أصلحوها علواهم فحسب أن تصلح بواطنكم » فطواهر الجسم أقرب لنا من بواطن النفس ، وإذا كان الانسان يجمل طواهر القرآن فهو عن بواطنه أعجز ، فهكذا من لم ينظف ظاهره عجز عن نظافة باطنه ، ونظافة الباطن وزاهاه شاقة صعبة المسالك ، وعرة الطرق ، وهي المقصودة بالذات من كل عبادة وطهارة وزكاة وصلاة وحج وصيام ، كل تلك الطواهر ليس لها نهاية ولا غاية إلا جبال البواطن . وكيف تطهر النفس الى العلا ، أو تظهر لها محاسن هذا العالم الجليل والقلب مشحون بالكبر والاعجاب بالنفس وبالقدر ، والحرص ، والطمع ، والتملق ، والرياء والغيظ ، والكذب ، وضياع الوقت ، والكسل ، والامتراف في الكلام ، وفي الخصاص والجهدال ، كل ذلك اسوار مانعة ، وحصون لا يقدر العلم أن يهدمها فيصلى للنفس ، وجسور ليس فيها منافذ لستى أرواحنا ، وأمراض مانعات من الشهوة لتعاطى الغذاء للروح اللذيذ ، والفاخرة التي ليست مقطوعة ولا ممنوعة .

تلك الأمراض النفسية التي تقضى على القلوب منعت كثيرا من النفوس الانسانية أن تتمتع بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، جنة العارفين هي جنة العلم ، جنة الحكمة ، ومن لم يدرك تلك البهجة في الدنيا مات وليس له حظ ان كان صالحا إلا في الجنة المحسوسة وهو غافل ساه على قدر مانال في الحياة ، هذا هو الذي يدور عليه كلام حكماء الاسلام وكبرائهم ، وكبار الصوفية فيهم ، وهم أهل الشرف ، وذلك أنسب بقوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وأما الله علماء الغرب فإليك منها ما نقله العلامة [بنام] الانجليزى في أصول الشرائع ، وقد ترجم هذا الكتاب الى كثير من اللغات الاوروبية وهو مترجم الى اللغة العربية عن الفرنسية ، ترجمه المرحوم [أحمد فتحى باشا زغلول] . قال في صفحة ١١ من الجزء الثانى عند الكلام على المسجونين :

النظافة والصحة .

ذهبوا الى أنه يجب تطهير المسجون قبل ادخاله السجن ، وأن يحاط ذلك بمسلة أو موسيقى خشبية ليكون مؤثرا على فكره ، ثم يلبس لباسا خشنا أبيض لينظر الى حفظه نظيفا ، ويحلق رأسه ، أو يقص قصا جيدا ، ثم يبنى استحمامه في أوقات معينة ، ويلزم منع التدخين وكل عادة لا تليق بمنزل نظيف ، ثم تغير الملابس في أوقات مخصوصة . الى أن قال : على أنه يوجد بين التتم الجسمى واعتدال الملكات النفسية ارتباط كثير لاحظته كثيرا من المؤلفين ، فان النظافة تبع الكسل ، وتحمل المرء على التحرز في أهله ، والتمسك بالوقر في أطواره . والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جدا ، حتى ان شرائع المسلمين حثت عليها كثيرا وجعلتها من الواجبات الأولية ، فن لم يصدق بتلك الأديان لا ينكر تأثيرها الجسماني .

هداما كتبه العلامة [بنام] المشترع الانجليزى في كتابه [أصول القوانين] أى تلك القواعد الكلية التي من ضوئها تقيس القوانين ، ثم يحفظها تلاميذ مدارس الحقوق ، ثم يطبقونها على الحوادث في سائر الأمصار فهو إذن فوق واضع القانون وواضع القانون فوق القاضي . انظر ليس قوله : « ان بين نظافة الجسم واعتدال الملكات

النفسية ارتباطا، وأن هذا لاحظته كثير من المؤلفين، هو بعينه ما ذكره علماؤنا من أن نظافة الظواهر تدعو حثنا إلى نظافة البواطن التي هي المقصود الأعظم. وليس ذلك بعينه هو قوله تعالى هنا: « إن الله يحب المتوابين » ويجب المتطهرين، فذكر لفظ يجب مع التوبة وهي راجعة إلى طهارة الباطن وسلامة النفس وأعاد ذكر الحب ثانيا مع الطهارة وهي تشمل الحسية والمعنوية. وقدم الطهارة الباطنة لأنها هي المقصودة. ثم أتبعها طهارة الجسم بحسب اللفظ لأنها وسيلة. ليس اقتران الظاهر بالباطن في الآية هو بعينه ما قاله حكماء الإسلام في الشرق وحكماء الشرائع والقوانين في الغرب. هذا هو سر قوله تعالى: « إن الله يحب المتوابين ويجب المتطهرين ».

المسألة الثالثة: تنزيه الله عن الحلف باللسان

قد ذكرنا للآية وجهين: أحدهما وهو المقصود هنا أن العرصة من قول الرجل للرجل: جعلتني عرصة للومك. فلذا نطق لسانه بالكلام وأكثر من الحلف وجعل الله عرصة لأبمانه كذبته الناس وضاعت قتهم به ولم يصلح لأن يصلح بينهم، فأما إذا ما احتس من الكلام، وحفظ لسانه، وصان مقامه، وكان موقرا في نفسه، صار قوله حجة. وصار قويا، لأنه اتقى شر لسانه، والفوائد التي تنشأ منه، وأصبح وقورا يمكنه الإصلاح بين الناس. هذا هو المعنى الذي ذكرته فيما تقدم.

أقوال علماء الشرق والغرب فيما يناسب هذه الآية

قد شرح علماء الإسلام قديما آداب النفس، ومن أهمها آداب اللسان، وليس كلامي الآن في الخلق والحرمة، ولكن كلامي في النتائج والفوائد الدنيوية المشاهدة على الوجوه، وفي الأخلاق والعوائد. يقول علماؤنا كالامام الغزالي: « إن السم والوقر، وغض البصر عن المحرمات يعطي الوجه سمة الكمال، ويكون عليه مهابة وجهاء ». فان هذه الظواهر الجميلة من حسن السم والوقر وصون اللسان تؤثر في القلب سكوتا عن كل مالا فائدة منه، فللكلام أثر في القلب ووقع كوقع السهام خيرا أو شرا، ومعلوم أن جميع الأمم تربي الجند بالحركات الدالة على اطاعة الرؤساء، وهذا مؤثر في العقول، موجب للطاعة، فان الباطن لوح الظاهر، يكتب فيه ما يعلى عليه، ألا ترى أن تمود الانسان على تحسين خطه زمن التعلم بولد في النفس ملكة تدعوه إلى كتابة ما خزنته النفس من تلك الرقوم على حسب ما قبلته من الجوارح، وهكذا الآلة الحاصية [الفونوغراف] تقبل الصوت أولا فيرتسم على لوحها رسما خفيا بحرف الابرة، ثم تعيد الصوت حاكية كما يحكي الجبل صوت من رفع صوته في جواره. هذا بعض ما قصد علماء الإسلام أوضحت مختصرا مع التصرف في بعض الأمثلة. وبعد أن شرح الآداب الواجب سلوكها مع الله في الحلف شرع عز وجل بين حكم الإيلاء وهو نوع من الحلف:

(المقصد الحادي عشر)

أحكام الإيلاء والطلاق، فلإيلاء قوله تعالى:

لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصًا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ قَبْلَ فَاوَاةٍ فَإِنْ أَلَّ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

يقال آلى عليه إذا حلف، وعدى هنا بمن تضمنه معنى البد، والإيلاء أن يحلف الرجل أن لا يبطأ زوجته

مدة تزيد على أربعة أشهر فهو مول فتر بص به أربعة أشهر فان طاه : أى رجوع ووطى فان الله غفوره إنم حنه ان كفر عن يمينه ، واثم ما حصل بايلائه من ضرار ، فان لم يبق الى الوطء وذلك بعد مطالبة الزوجة وعزم الطلاق أى قصده أو تحققه بالإيقاع (فان الله سمح) للطلاق (عليم) بالنيات والأغراض .

فان لم يبق ولم يطلق عليه الحاكم واحدة عند الشافى وعمر وعثمان ومالك وأحمد ، وعند ابن عباس وابن مسعود وأبي حنيفة تقع طلقة بائنة متى مضت المدة ، وقال سعيد بن المسيب والزهرى تقع طلقة رجعية ، قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية اذا طلب الرجل من امرأته شيئاً فأبت أن تعطيه حلف لا يقربها السنة والسنتين والثلاث فيدعها وشأنها لا أيمأ ولا ذات بعسل ضرارا وتنكيلا ، وجرى عليه المسلمون في ابتداء الاسلام فنزلت هذه الآية لترفع الظلم وليكون عدلا . ولما كان الايلاء جامعا لليمين والطلاق جاء بينهما فكان اليمين ، ثم الايلاء ، ثم الطلاق ، فقال :

(المقصد الثاني عشر)

وَالْمُطَلَّغَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْعَابِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ أَوْ يَتَمَتَّوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْكِسُوهُنَّ لِضُرَارَاتٍ لِيَتَّعِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَإِذْ كَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيَضْطَكُمُ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَمْسُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوقِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (والملقات) واحدة أو اثنتين (يربصن بأنفسهن) ينتظرن بأنفسهن في العدة فلا يتردجن (ثلاثة قروء) جمع قروء ، وسيأتي تفصيله في الايضاح (ولايجل لمن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) من الولد والحيض استجمالا في العدة وابطال الحن الرجعة (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) هذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وإيجاب أداء الأمانة في الاخبار عما في الرحم من الحيض أو الولد (وبمولتهن) أي أزواج المطلقات (أحق بردهن) إلى النكاح والرجعة إليهن ، ولكن إذا كان الطلاق رجعيا ، وقوله (في ذلك) أي في زمان التربص (ان أرادوا) بالرجعة (اصلاحا) لما بينهم وبينهن وإحسانا إليهن ولم يريدوا مضارتهن (ولمن مثل الذي عليهن) ويجب لمن من الحق على الرجال من النفقة ، وحسن العشرة ، وترك المضارة مثل الذي يجب لهم عليهن من الأمر والنهي (بالمعروف) في إحسان الصحبة والمعاشرة (وللرجال عليهن درجة) فضيلة في العقل والميراث والدية والشهادة بما عليهم من النفقة والخدمة (والله عزيز) بالثقة لمن ترك ما بين المرأة والزوج من الحق والحرمه (حكيم) فيما حكم بينهما (الطلاق مرتان) أي طلاق الرجعة مرتان (فما سلك) قبل التطليقة الثالثة (بمعروف) بحسن الصحبة والمعاشرة (أو تسريح بإحسان) أو يطلقها الثالثة بإحسان يؤدي حقها (ولايجل لكم) أيها الأزواج أو الحكام ، لأنكم الآسرون بالأخذ والايثار عند الترافع إليكم (أن تأخذوا مما آتيتموهن) أعطيتموهن من المهر (شيئا إلا أن يخلف) يعلم الزوج والمرأة عند الخلع (ألا يقبها حدود الله) أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (فان ختمت) علمتم (ألا يقبها حدود الله) فيما بين المرأة والزوج (فلا جناح عليهما) أي فلا جناح على الرجل على أخذ ولا عليها فيما أعطت (فما اقتدت به) أن يأخذ ما اشترت المرأة نفيها به من الزوج بطيية نفسها (تلك حدود الله) أي ما سجد من النكاح واليمين والايثار والطلاق والخلع وغير ذلك (فلا تصدوها) فلا تجاوزوها بالخالفه (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) المضارون أنفسهم (فان طلقها فلا تحل له من بعد) من بعد التطليقة الثالثة (حتى تنكح) تزوج (زوجا غيره) ويدخل بها الزوج الثاني (فان طلقها) الزوج الثاني (فلا جناح عليهما) على الزوج الأول والمرأة (أن يراجعا) بمهر ونكاح جديد (إن ظنا) علما (أن يقبها حدود الله) أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (وتلك حدود الله) هذه أحكام الله وفرائضه (يبينها قوم يعلمون) يفهمون ما بين لهم وقوله (ولذا طلقتم النساء) إلى آخر الآيات تفسيرها ظاهر في الايضاح الآتي :

ايضاح

إن في هذه الآيات لعظات جمة ، وفوائد عجيبة ، مزج فيها الوعظ بالأحكام ، والأخلاق بالفقه ، وهما من الابداع في القول ، والترغيب في المودة ، والترهيب من الاضرار مالا نظير له ، أتمن النساء على أرحامهن فأتى بالأمر بصورة الخبر كأنهن يربصن ، أي ينتظرن ويرقبن بلا وزع من خارج ، ولا أمر ، وذلك هو التربية العالية ، بحيث يكون المرء على نفسه رقبيا سمو فيه ملكة قوة الارادة وثبات العزيمة حتى ان المرأة لا يعوزها مرشده للربص في الاقراء ، والقروء جمع قروء ، وهو الحيض أو الطهر ، والبعولة مصدر كالمعمومة والخوولة أي أهل بعولتهن ، والعصل المنع والتضييق . قال أوس بن حجر :

وليس أخوك الدائم العهد بالنبي • بذمك ان ولي ورضيك مقبلا

ولكنه الثاني اذا كنت آتيا • وصاحبك الأدنى اذا الأمر أعضلا

أي ضاق ، يقول الله : على المطلقات أن ينتظرن ثلاثة قروء ، أي أطهار أو حيضات ، وعلى الأول جمع من

المصاحبة كزبد بن ثابت وابن عمر وعائشة والزهرى ومالك والشافى ، وعلى الثانى عمر وعلى ابن مسعود
 وابن عباس وأبوموسى وأبو الدرداء والضحاك والسدى وأبو حنيفة رضى الله عنهم أجمعين ، وأصل القرء الوقت
 يقال : جاء فلان لقرنه : أى وقته ، ولاجرم أن أيام الحيض وقت وأيام الطهر وقت ، وليس الخلاف عظيمًا بين
 الأئمة رضى الله عنهم فكيف والأطهار تتبعها الحيضات ، ولكن ظهور الثمرة فى أحوال قليلة ، والمذهبان
 السكياتن متشابهان فى حفظ الأنساب ، ألا ترى أن الأطهار والحيضات دالات على براءة الرحم من الولد ، وهذا
 فى المدخول بها من ذوات الأقراء ، فأما الكبيرة التى أبست والصغيرة ، واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر
 والمتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر ، وعدة الحامل أن تضع ، فهذه الآية فى حال خاصة .

ثم أبان أن الطلاق الذى تصح الرجعة بعده مرتان ، فأما مساك بمحروف وحسن معاشرة ، أو تسريح
 بإحسان ، وذلك بأحد أمرين : إما أن يترك رجعتها الى تمام عدتها ، وإما أن يطلقها الثالثة ، وهنا أتى بحكم
 الخلع ، فقال « ولايجلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيها حدود الله » الآية ، ذلك أن
 جيلة بنت عبد الله بن أنى ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 فقالت : لا أنا ولا ثابت ، لا يجمع رأسى ورأسه شىء ، والله ما أعنته فى دين ولا خلقى ، ولكنى أكره الكفرى
 الاسلام وما أطيعه بفضا ، انى رفعت جاب الحياء ، فأرته أقبل فى عدة من الرجال ، فإذا هو أشدتم سولدا ،
 وأفسرهم قمة ، وأقبحهم وجها . فنزلت آية الخلع : فقال صلى الله عليه وسلم : جيلة أتردين عليه حديثه ؟ قالت أردتها وأزيد
 عليها . فقال صلى الله عليه وسلم : أما الزائد فلا ، أقبل الحديثة وطلقها تطليقة . وهذه الآية خطاب للحكام
 وللأزواج .

يقول الله : ولايجلّ لكم أنها الحكام والأزواج أن تأخذوا مما آتيتموهن من المهر شيئًا إلا أن يخافا
 ألا يقيها حدود الله . إن هذه الآية جاءت تالية الطلقتين إذ جاءت بعد المرتين ويلبها طلقة ثالثة وهى قوله :
 « فإن طلقها فلا تجلّ له من بعد » فهى فسخ عند ابن عباس وطاوس وعكرمة وأحمد واسحق وأبى ثور .
 وعند الشافى فى القديم ، وطلاق عند عثمان وعلى وابن مسعود والحسن والشعبى والنخعى وعطاء وابن المسيب
 ومجاهد ومكحول والزهرى ، والشافى فى الجديد ، وأبى حنيفة ومالك وسفيان الثورى .

اعلم أن للزوج مع المرأة بعد الطلقة الثانية أحوالا ثلاثة : (١) إما أن يراجعها (٢) وإما أن لا يراجعها
 بل يتركها حتى تنقضى عدتها فتصير بائنا (٣) وإما أن يطلقها طلقة ثالثة .

وللأولى « فاساك بمحروف » وللثانية « أو تسريح بإحسان » وللثالثة « فإن طلقها فلا تجلّ له من
 بعد حتى تسكح زوجها غيره » فيكون نظم الآية هكذا « الفلاق مرتان فاساك بمحروف أو تسريح بإحسان
 فإن طلقها فلا تجلّ له من بعد حتى تسكح زوجها غيره » وعلى هذا يكون الخلع الذى فصل الثالثة عن الثانية
 أجنبيًا عنها . وإنما دعا الى ذلك أن الرجعة والخلع يستويان فى أنهما لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة ،
 أما بعدها فلا يبق شىء من ذلك ، فلماذا جاء حكم الرجعة ، وتبعه حكم الخلع ، وبعد الجميع حكم الطلقة الثالثة
 لأنها كالخاتمة للجميع ، ثم ان المطلقة بالثلاثة لا تجلّ لذلك الزوج إلا بخمس شرائط : أن تعتد منه وتصدق
 لثانى و بطأها ثم يطلقها ثم تعتد منه ، وتعلق بظاهر الآية فاقصر على العقد ابن جبير كابن المسيب ، وافق
 الجمهور على أنه لا بد من الوطء ، فهم من جعل هذا من نفس الآية ، فان العرب تقول : نكح فلان فلانة
 عقد عليها ونكح زوجته أو امرأته جامعها ، والآية هنا من الثانى ، ومنهم من قال : الآية دلت على العقد
 وثبت الوطء بالسنة ، لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان رفاعة طلقنى فبت طلاق ، ولن
 عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى . وان ما معه مثل هدبة الثوب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريدن أن ترجعى

في رفاة ؟ قالت نعم ، قال لا حتى تذرني عيبك و بذوق عيبك ، الآية مطلقه قيدتها السنة « فلن طلقها »
 الزوج الثاني « فلا جناح عليهما أن يتراجعا » الآية .
 ثم أبان حكم المطلقات بعد اقضاء عدتهن ، وأمر أن لا يضلن ويمنعن من أزواجهن ، إذ روى أن
 معقل بن يسار عضل أخته أن ترجع الي زوجها فزل النبي عن ذلك بقوله تعالى « فلا تضلوهن أن ينكحن
 أزواجهن » الآية هذا ملخص الأحكام في هذه الآيات .

اني مجبت هذه الآيات ! انها آيات أحكام وقوانين شرعية وأحكام قضية ، ولكن الناظر فيها يدهنه
 نظمها ، ويهره وضعها ، الآيات منعمة بالموعظة ، ما ذكر حكما إلا أنبه بظنات ، ولا قال كلمة قضية
 إلا أنبه بالزاجرات ، ألم تركيب أعقب القرء الثلاثة بقوله « ولا يحل لمن أن يكتنن ما خلق الله في
 أرحامهن » من الحيض أو الولد ، وأعقبه بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتأمل كيف أباح الرجعة والرد
 في العدة على شريطة إرادة الاصلاح ، ولم يكتف به بل سوى بين الرجال والنساء في الحقوق فضل « ولهن
 مثل الذي عليهن بالمعروف » ولم يكن للرجال إلا فضل الاشراف عليهن والافتاق ، ثم ختم المقام بذكر انه
 هو ير غالب يقهر من عصي من الأزواج والزوجات بكنم مافي الأرحام ، أو بالرجعة بغير ارادة الاصلاح ، وانه
 حكيم في عقابه وأمره حكيم ، ثم انظر كيف أعقب ذكر المطلقين بكلمتين جليلتين : المعروف أولا والاحسان
 ثانيا فلا يملك الرجال النساء إلا بالمعروف . ولا يسرحوهن إلا باحسان . ولم يدع مجالاً للزوج أو الحاكم أن
 يأخذوا من مال المرأة بالخلع إلا اذا حصل مثل ما اتفق عليه . وحذرهم أن يأخذوا أكثر مما اتفق الأزواج
 بل جعله أقل بمن التبعية ، فاستيفاء المهر والزيادة عليه عند الخلع مخالف لظواهر الآيات ، وان أفنى القهاء
 بخلافه مع كراهتهم له فقد غنوه وكرهوه ، ولم يبيح في الآية الخلع إلا بعد شقاق وخلاف ، وكذلك ورد في
 الحديث : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير بأس خروا عليها راضحة الجنة » ، ولم يشأ أن يدع آيات
 الطلاق والأحكام بعد أن ذكرها بل أتد كبر ووعظ في خواتمها كما وعظ في أوائلها فقال « واذا طلقتم النساء
 فليفنن أجلهن » أي قاربن الأجل على أحد اطلاقيه فهو لمدة كلها ولنهايتها والمراد الثاني . يقول محمداً : فاذا
 قاربن الأجل فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، وإياكم أن ترجعوهن مضارين لتظلموهن ، ومن
 يفضل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا جرم أن أولئك الذين يرجعون زوجاتهم بظواهر الشرع وبضاروهن لأشبه بمن
 يتخذون آيات الله هزوا ، ذلك أنهم يطلبون الباطل بالحق ، والجمل بالعلم ، فكأنهم جعلوا الآيات هزوا . ثم
 ذكر الناس بالتم فقال « ولذكروا نعمة الله عليكم » بالحياة والصحة والدين المنزل ، فاذا أضعم الأيأم في
 التنفيس والأكدار كانت الحياة وبالاً ، والعيش خبالاً ، والعلم ضلالاً .

ثم ختم المقال بقوله « ذلك يوعظه من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى » أي أنفع
 « لكم وأطهر » من دنس الآثام « والله يعلم » أن الحياة لا تسر ولا تنفع إلا اذا اتفق الزوجان وتبادلا الحب
 وعاشا قريري العين ، فلا طلاق إلا باحسان ، ولا اساك إلا بمعروف ، ولا منع للزوجة عن زوجها اذا أحب
 للرجعة اليه ، فتكون الحياة سعادة ، والموت بدمعاشهادة ، والبنون قررة ، والأصهار مودة . فاذا خالفتم ملرسمنا
 وجهتم ماعلنا ، وقصرتم الأمر على القوانين الفقهية ، والأحكام الشرعية ، وظنتم أن هذا هو الاسلام فأتتم
 أيها الناس إلا أضل من الأنعام « وأتم لا تعلمون » العواقب ، ولا تدركون ما يكون من المصائب ، فأنا ان
 سفرتكم المناصية ، ومنعتكم المشاقفة فما أردت إلا سعادة الحياة الدنيا وعقبها الآخرة ، فاذا أشقتم الأزواج
 واستحلتم أموالهن بغير حق وأرهمقتموهن في أمر فلتعيشن في شقاق ، ولتوتن على حال أشبه بالفراق ، لأنكم
 اتخذتم الآيات هزوا ، فكأنكم كفرتم بالقاب ، وآتمت بالألسنة ، فليست أريد منكم وثائق وشرائط وعاوي

واقلوب منبوذة . والعقول مطروحة . وانما أريد حياتكم السعيدة في أحوال سديدة . هذا هو دين الاسلام
هذا هو العلم والحكمة .

فليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن هذا هو الدين وهو المقصد وما عداه فثور . والله يهدي من يشاء
إلى صراط مستقيم .

هذه الآيات تدخل في علم الأخلاق . وحسن المعاشرة . وطلب الفضيلة . والأخلاق العالية . وأوليس من
النجيب أن يحدو الجنس البشري اليوم حد هذه الأحكام . فقد علمنا في الأمة الأمريكية اليوم مملكة تحكم
بفراق الزوجين متى بسنين أنهما لا يقمان حدود المعاشرة . وقد أخذ الناس ينالون اليها من كل حذب حتى
ضاعت أرضهم بمارحبت . وضاعت عليهم أنفسهم من ازدحام طلاب الطلاق . وشرطوا أخيراً أن لا تقام دعوة
إلا لمن أقام عندهم ستة أشهر . وقد بلغنا أنهم حكموا على زوج بطلاق زوجته لأنه قنر الثياب وسخ الملابس
فقد أنبتت زوجته انه لم يكن ليغسل . أفليس العالم أخذ يقترب من الاسلام شيئاً فشيئاً . ألا ترى أن هذه
كسالة جبلة . هذه بقبح الصورة وتلك بقدارة الجسم . وهل أجمع لهذه المعاني وغيرها من قوله تعالى : **إلا**
أن يخافوا ألا يقيا حدود الله .

يلرب ان الانسان الى الآن ما عرف حقه وجهل سياسة الأزواج . وسياسة المدن . وقد عصوك في نظام
المدن فظلموا . وعصوك في نظام البيوت فضقوا . فأسألك اللهم رحمة بالأأم وبأهل المنازل انك أنت الرحمن
الرحيم . اللهم اهد الانسان الى أحسن حال . ولما كانت نتيجة الزواج الولادة ولا حياة للولد بلا رضاع . وقد
يختلف الزوجان في أمره أعقبه :

(المقصد الثالث عشر)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ
لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا
وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُمُ
مَاءَ ائْتِمْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ
مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * وَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ
سَتَدَّ كُرُوهِنَّ وَلَكِنَّ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَمْرِمُوا عَقْدَةَ
النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (والوالدات) المطلقات (برضعن أولادهن حولين كاملين) سنتين كاملتين (لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له) يعني الأب (رزقون) نفقتون على الرضاع (وكسوتون بالمعروف) بغير اسراف (لا ينكف نفس إلا وسعها) إلا بقدر ما أعطها الله من المال (لا تضار والدة بولدها) أي لا يضرع الولد من أمه بعد أن رضيت بارضاعه كالأنكره على أرضاعه إذا قبل الصبي لبن غيرها (ولا مولود له) وهو الأب (بولده) أي بأن يطرح الولد عليه بعد ما عرف أنه مضارة له كما لا يلزم أن يسطى أم الولد أكثر مما يجب عليه لها إذا لم يرضع الولد من غير أمه (وعلى الوارث) وارث الأب إذا مات (مثل ذلك) أي مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة . والوارث نفس الصبي إن كان له مال ، فلن لم يكن له مال فعلى الأم ، ولا يجبر على نفقة الصبي غير الأبوين ، وبه قال مالك والشافعي . وقيل : وعلى وارث الصبي أي الذي يرثه إذا مات مثل ما كان على الأب في حال حياته وهم إما عصة كالجد والأخ والم وابنه ، وأما كل وارث له من الرجال والنساء ، وبه قال أحمد فيجبرون على نفقة الصبي كل على قدر سهمه . ولما كل من كان ذارحم محرم منه ، وبه قال أبو حنيفة (فإن أراد) أي الزوج والمرأة (فصلا) أي فصال الصبي عن اللبن قبل الحولين يعني فطاما (عن تراض منهما) بتراض الأب والأم (وتشاور) بينهما (فلا جناح عليهما) إذا على الحولين أو قضا ، وهذه توسعة بعد التحديد ، والتشاور استخراج الرأي ، من شرت العسل إذا استخرجته (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم) غير الأم لسبب ما كان تريد أمه الزواج مثلا (فلا جناح عليكم) فلا حرج على الأب والأم (إذا سلمتم ما آتيتن) إذا أنفقتم ما أعطيتن (بالمعروف) بالوجه المتعارف وبالموافقة من غير مخالفة (واتقوا الله) اخشوا الله في الضرر والمخالفة (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لا يخفي عليه أعمالكم فهو يجازيكم عليها (والذين يتوفون منكم) يموتون من رجالكم (ويبدرون) يتركون (أزواجاً) بعد الموت (يترصن) ينتظرن (بأنفسهن) في العدة (أربعة أشهر وعشرا) يعني عشرة أيام (فلذا بلغن أجلهن) فلذا اقتضت عدتهن (فلا جناح عليكم) على أولياء الميت في تركهن (فيما قلن في أنفسهن) من التعرض والزينة للخطاب (بالمعروف) الذي لا ينكره الشرع (والله بما تعملون خبير) عالم بالباطن (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) كأن يقال لها أنت جميلة ، أوصالحة ، أو أريد أن أتزوج ، أو نحو ذلك ، لأن يقال اني أريد أن أتزوجك تصريحا (أو أكنتم في أنفسكم) أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكره تصريحا ولا تعريضا (علم الله أنكم ستكروهن) ستذكرون نكاحهن (ولكن لأنواعدهن سرا) نكاحا أو جاسا ، عبر بالسرا عن الوطء لأنه مما يسر ، ثم عن القعد لأنه سبب فيه (إلا أن تقولوا قولنا معروف) المستثنى منه محذوف ، أي لا تواعدوهن مواعدة إلا مواعدة بقول معروف كالتعريض المتقدم (ولا تمزوا) لا تحققوا (عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) حتى تبلغ العدة وقتها ، وسميت العدة كتابا لأنها فرضت به (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم) ما في قلوبكم من الوفاء والخلاف على ما قلتم (فاحذروا مخالفته) واعلموا أن الله غفور) لمن تاب من مخالفته (حليم) إذ لم يعجله بالعقوبة . انتهى التفسير اللفظي .



ايضاح

في هذا المقصد ثلاثة درر

الأولى تربية الولد وارضاعه ، الثانية مدة المتوفى عنها زوجها ، الثالثة الخطبة في العدة
الدرة الأولى

يقول الله تعالى للرجال والنساء : ليسكن رضاع الولد حولين كاملين عند التنزع ، فان ذلك أكثر احتياطاً للولد ، وعلى الأم ارضاعه لأن لبنها له أشهى وتديها له أوفى من غيرها كما نص عليه الأطباء قديماً وحديثاً ، فالولد بضعة منها . وقد أعد الله عز وجل لبنها له ولم يخزنه في الثدي الا والولد يتحرك في جوفها و يضطرب في رحمها فطهين ارضاعه لصحته فقله برضن خبر معناه الأمر : أي ليرضن ، وذلك على سبيل الاستحباب اذا قام غيرها . قامها ولم يضره لبن الاجنبية وقبله الصبي ، فأما اذا لم توجد الاجنبية أو كانت ولم يقبل لبنها أو قبله وأضر جسمه ، ضل الأم ارضاعه وجوباً ، وعلى الأب لها كسوة ونفقة على الموسع قدره وعلى المقتر قدره هذه قسمة عادلة على الأب طعام وكسوة ونفقة للبائن ولا يصح استئجار الزوجة والمعدة عند الحنفية ، وهو وجيه ، وخالف الشافعية ، وعلى الأم الارضاع .

تجب كيف أخذ عز وجل ينهى الوالدين عن إضرار ولدهما ، فقال « لا تضار ولدة بولدها ولا مولود له بولده » قرئت بالرفع والنصب والماتبي ضار ، ويحتمل البناء للفاعل وللفعول في الحالين ، والمعنى على البناء للفاعل عند النهي ، أو الخبر هكذا لا تضار ولدة ولدها ، والبناء زائدة ولا يضر مولوده ولده ، بين الله لكل عمله هذه ارضاع ، وهذا اتفاق ، ورحمهما ، فقال « لا تكلف نفس إلا وسعها » فلا المطلقة تؤمر بما لا تستطيع من الارضاع ولا نفقة لها ، ولا الولد يكلف ما لا يستطيع من النفقة ، فلما أن عرفهما ما عليهما وأنه رضع للمشقة عنهما أخذ بوصيهما بولدهما وفضلته كيدهما ، وقال لكل واحد على حدته أو صبيك بولدك لا تضار ولدة بولدها كأن نسي ، غذاءه ولا تنظف ثيابه أو تجهل الأحوال الصعبة أو تكثر المناقاة والمشاخنة مع الولد فيكثر العيش وينقص فسرى الحزن والمرض في اللبن فيضر الولد ، وقال ولا يضر المولوده ولده باسامة الزوجة أو ترك الاتفاق أو زوجه منها وهو بهاتعلق وليس يصح للزوجين أن يضطما الصبي دون الحولين إلا باستشارة وتراض بينهما .

يا عباد الله هذه الآيات أوجب الله علم الصحة ، وأوجب مبادىء التربية على النساء بقوله لا تضار ولدة ولدها ، ولا حرم أن الجهل بتربية الصغار إضرار ، وإياكم أيها السالمون في أقطار المسكونة أن تظنوا إضرار الصبي قاصراً على ما يرتك من جنابة ، كلا ، فالجهل بالصحة هو الذي يهدم بنيان جسمه ويقوض أركان صحته ويذيقه عذاب الآلام ويجرعه كأس الحام .

مبادئ علم الصحة وتربية الولد واجبة وجوباً شرعياً على كل امرأة قبل زفافها ، وعلى ولاية الأمور والعلماء والأغنياء النضامن والتعاون على نشر التعليم امتثالاً لما أمر الله به من احسانه للولد وترك إضراره ، علم الله حال الانسان قبل خلقه أنه جهول ضعيف ولا سبيل لصلاحه الا بالتعلم ، وقد علم الله الطيور في أولكلها بالاطام ما اضطرت إليه واحتاجته في حياتها ، ألا ترى كيف يتزده أفراخ الطير في أعشاشها أن تذرق فيها محافظة على الصحة ، وكيف أطم الله السخلات اذا ولدتهن النجفات أن لا تبتم حتى لا يسمع الذئب بنامها فيأكلها ، ثم كيف أخرجت أفراخ الأوزة عائلت باليوم يوم يولدن وصغار العناكب عائلت بالنسج بلا تعليم ولا تدريب وسلب الانسان هذه الموهبة ومنع هذه المكرمة ، ولكنه منح العلم والحكمة وجاءت الديانات ، فقال في القرآن

« لا تضار والدة بولدها » ولقد أيقنا أن الولد قليل المواهب سريع العطب ، والأم الجهول لا تقوى على تروم صحته الابالعلم لما في النوع البشرى من الجهل العام ، فالسبيل القويم لتعليم الفتيات والفتيان بعض تروم الصحة وفي ظني أن عشرين درسا كفايات لكل من الصنفين والافكيف يشاور الرجل والمرأة وهما يجعلان الصحة ومبادئ التربية ، وذلك للمرأة ألزم ، فعلى رجال الأمة أن يفكروا في هذا ففقد سبقا به أسلافنا أهل الأندلس ، وكان النساء هن القائمت بالتمريض ، وهن المطلعات للجدرى ، وعنه أخذ الافرنج هذه الدروس العلية فعلموا بناتهم وربوهن تربية صحيحة « والله يهدي من يشاء » ، ولقد رأيت هؤلاء الافرنجة في التربية كتبا ، فكان أهمها كتابا يسمى [تربية البنات] للرحوم [صالح بك حدى حاد] ترجمه عن فلان الفيلسوف الفرنسى ، وقد طبع في بلادنا بمصر ، وعجبت كيف كان الفرنجة مخالفين لتعاليم حكماهم مثل هذا الحكيم ، فلقد منع التبرج كتبرج الجاهلية الأولى ، وكذلك التباهى بالعلم ، وأوجب أن تعلم المرأة العبادة مع التفكير ، وحضور القلب ، والاخلاص لله ، وحرم عليها قراءة الروايات التي فيها أبطال خياليون لم يخلقوا في الأرض ، فتكون طلبتها رجالا فوق من تراهم ، وكثير من هذه التعاليم خالفها الفرنجة لكن على كل حال قد ارتقى رجالهم ونساؤهم في التربية ، أما المسلمون فانهم قلدهم فلم يحسنوا التقليد ولم يرجعوا إلى كتابهم المقدس ، ولقد قرأت أيام طبع هذا الكتاب من هذا الأسبوع في الميثاق الوطنى الاقتصادى التركى ماشرح صدرى وحدث الله إذ رأيت في حياتى أمة اسلامية قد ظهرت ، وقد جاء في هذا الميثاق أن التركية تعلم ابنا وتربية تربية علمية صحيحة موافقة للعلم ، وهذه أول أمة أخذت تهض بعد خود الأمم الاسلامية أجيالا طويلا وسينجعلون التربية على أساس شرقى اسلامى بالاستقلال الفكرى العقلى ، لا كالتربية الافرنجية المزورة التي انتشرت في مصر وبعض بلاد الاسلام ، وأنا واثق أن الأمم الاسلامية سينبعون الأمة التركية في نهوضها واستقلالها في كل شيء .

ولما كان الميثاق المذكور قد أوجب على المرأة أن تكون تربية الولد على مقتضاه ذكرته هنا لفائدته ، فقد جاء في الجرائد أنه قد قرره ١١٣٥ عضوا متدبا من طبقات مختلفة من صانع ، وزارع ، وتاجر ، وعامل في تركيا نائبين عن الأمة في المؤتمر الاقتصادى المنعقد في أزمير من يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٢٣ إلى يوم ٤ مارس برئاسة المشير كاظم قره بكر باشا ، وكان تقرير هذا الميثاق بالاجماع .

المادة الأولى : ان تركيا عنصر من عناصر السلام ، والارتقاء في العالم مستقلة داخل حدودها القومية استقلالا لاثابته فيه .

المادة الثانية : ان الشعب التركى قد حصل على سلطانه القومى بما نجاه من دمانه وأرواحه ، فهو لا يقنازل عن هذا السلطان القومى بأى ثمن ، وهو ظهير الى الأبد لمجلسه وسكومته القائمتين على أساس السطلة القومية .

المادة الثالثة : ان الشعب التركى شعب معمر لا يقع شيء من التخريب بيده ، وكل مساعيه مبدولة في سبيل اعلاء شأن المملكة من الجهة الاقتصادية .

المادة الرابعة : ان الشعب التركى يعمل جهد الطاقة لانتاج المواد التي يستهلكها ، وهو كثير السى وينفر من الاسراف في الوقت والثروة والواردات الأجنبية وشعاره الصل في النهار ، وفي الليل [إذا اقتضت الحال] لانتاج المحصولات القومية .

المادة الخامسة : ان الشعب التركى عالم بأنه جالس على خزائن الذهب ويجب غلبت بلاده كجه لأولاده وقيم للأشجار أعيادا ويفرس غلبت جديدة ويستثمر مناجه لاستعمالها في حاجاته القومية ويسى لأن يعرف ثروها أكثر من معرفة غيره لها .

المادة السادسة : أن عدونا الاعظم هو العتوق ، والكذب ، والرياء ، والكسل ، وقاعدتنا في كل شيء أن نكون ذوي صلابة دينية في كل شيء بشرط الابتعاد عن التعصب وقبس دائما كل جديد مفيد بسرور وإبتهاج ، والشعب التركي ينفر من السياسات التي يدهسها الأعداء ضد مقدساتنا ، وأوطاننا ، وأشخاصنا وأموالنا ، ومن الواجب مقاومة ذلك مقاومة مستمرة .

المادة السابعة : الترك عشاق العلم ، والعرفان وهم يصرفون أيام حياتهم في سبيل الاكتساب حينما وجدوا خير أنهم أبناء وطنهم قبل كل شيء وهم يحتفون بيوم المولد باعتبار أنه عيد كتاب أيضا .

المادة الثامنة : ان أعظم ماننا زيادة نفوسنا التي قصت أيام الحروب الكريمة التي نوالنا علينا ، والفتنة التي منيها بها ، وأن يزداد شعبنا قوة وصحة ، والتركي يتقن الميكروبلت والهواء الفاسد والأقنار ويجب الهواء الطلق النقي ، والشمس ، والنظافة ، ويسعى للاكتفاء بسلافه في الفردسية ، والرماية ، والقنص ، والسباحة وغير ذلك من الرياض البدنية ويمقدار اهتمامه بدوابه ينهم باصلاح جنسها ونسلها .

المادة التاسعة : التركي صديق للأثم التي ليست عدوة لدينه وقوميته وأرضاعه ، وليس هو مبغضا لرؤوس الأموال الأجنبية غير أنه لا يامل المناجر التي لا تخضع للفن وقانونه مع أنها موجودة في وطنه ، وحينما وجد التركي مجددا في العلم والصناعة يبادر الى اقتباسه مباشرة ، ولا يرغب في كثرة الوسطاء بأي عمل من الأعمال التي يقوم بها .

المادة العاشرة : التركي يحب السى والعمل ، وهو ناصح الجبين ، لا يحب الاحتكارات الاقتصادية .
المادة الحادية عشرة : الترك يحب بعضهم بعضا مهما اختلفوا في الصناعات والطبقات والأعمال ، وإذا قصدت أعمالهم وسالكهم ، فانهم يكونون بذا واحدة فيها ، ويقومون بالسياحات بقصد التعارف ، والوقوف على أحوال الوطن .

المادة الثانية عشرة : ان المرأة التركية ، والعالم التركي يصلان لتربية الأطفال ، وفقا لقواعد هذا الميثاق الاقتصادي أزمير ٤ مارس سنة ١٩٢٣ .

وإنما ذكرته هنا برمتيه لأنهم جعلوه مما تربي المرأة ولدها على مقتضاه ، وهو أقرب للإية هنا ، فان الرجل والمرأة أمرهما الله ألا يضرا ولدهما ، ومن الضرر بالولد أن يجهل أمته ، ومصالحها ، واقتصادها ، وعدم الاسراف ، فصار أمثال هذا من الواجبات الشرعية ، أليس من النافع المفيد لصحته الهواء النقي والشمس والأعمال الرياضية ، أليس من المفيد له حب بلاده ، واستخراج كنوزها ، وحب دينه ، والتمسك به ، كما في هذا الميثاق ، فهذا قوله تعالى « لا تضاروا ولدها ولا مولود له بولده » على معنى لا تضروا ولدها ولا مولود له بولده ، كما ذكره المفسرون وقوله تعالى « وعلى الوارث مثل ذلك » أي وارث الأب أو وارث السبي وهم الأقارب على تفصيل مختلف باختلاف التجهدين ، فيكون في مال السبي عند الشافعي ، لأنه الوارث للأب أو كل وارث له محرم عند أحمد على حساب سهمهم في ميراث السبي لومات إلى غير ذلك ، ثم قال « وإن أردتم أن تسترضعوا ، المرأع « أولادكم فلا جناح عليكم » الآية ، وهو ظاهر .

الدرة الثانية

في قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » الآية يأمر الله عز وجل المتوفى عنهم أزواجهن أن يتربصن بعهدهم أربعة أشهر وعشرا ، يقال ان لبنين لا يتحرك الاثلاثة ، وقد يتأخر لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيدت العشر استظهارا ، ومن يجب أمر العدة ترى المطلقة بثلاثة الأشهر أو بالأقراء ، والمتوفى عنها زوجها بالأشهر ، والأيام ليرينا الله عز وجل اختلاف

الصورة وتتباد المعنى ، فالمعنى براءة الرحم في الجميع وزيدت أيام معدودات في المتوفى عنها زوجها سراعاة للإدب
ومجملته ، فليس من حسن العشرة الإسراع بالتزويج بعد الموت ، والاكتفاء بثلاثة أقراء فر بما تزوجت بعد
شهر وأبلم خدد الله ذلك الأجل تحقيقا لبراءة الرحم ، وحنا على حسن المجاملة ، وسراعاة لحقوق الزوجية ،
ويظهر أن المرأة لو زادت عن هذا المقدار لكان أشرف لها وأجل وأدل على حسن خلقها إن كانت عفيفة
حسنة السيرة « ولله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » خص عموم الآية بالمامل لآية « وأولات الأرحام
أجلهن أن يضعن حملهن » فلتترك المرأة الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب ، وبياح
لها كل ما اضطرت إليه ، وإذا اكتحلت بالليل فلتمسح به بالنهار ، فإذا بلغن أجلهن واقضت عدتهن فلا
جناح على أئمة المسلمين فيما فعلن في أنفسهن من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدّة بلوجه المعروف
الذي يرضاه الشرع ولا يشكره العرف ولا ناباه الأخلاق .

أفادت الآية أن المسلمين متضامنون ، فعليهم كف العاصي ، وردع الفاسق إذ خاطب الناس بقوله
« فلا جناح عليكم » أي فإن قصرن فعليكم الجناح ، وليس ذلك قاصرا على هذا المقام ، فالمسلمون جميعا
متضامنون ، فعليهم نشر العلم والفضيلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلّ ما يقاب إذا قصره على
نفسه وجعل مصلحة العموم .

المرّة الثالثة

في قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » الآية

ذكر الله عدّة المتوفى عنها زوجها ، وحرم عليها الزينة حدادا على الزوج ، ثم أباح أن تعرض للخطاب
ويقرن بالمعروف والأدب بعد انقضاء العدّة ، فناسب أن يأمر الرجال بترك الخطبة الصريحة لئلا يدموهن
الصبر في العدّة . أمر الله النساء بالحداد ، وأمر الرجال بالأدب والامتناع فلا يهيجوهن ولا يذكروهن بأمر
الرجال ، وأباح رجة بالناس التعريض ، وهو من قسم الكناية فليس من الحقيقي ولا المجازي .

وقد روى أن سكينه بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها [أبو جعفر محمد بن علي الباقر] في عدتها ، فقال
قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحتى جدتي عليّ وقدمي في الإسلام ، فقالت سكينه : غفر
لله لك أنتخطبني في العدّة وأنت يؤخذ عنك ، فقال : إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد
دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمّ سلمة في عدّة زوجها أبي سلمة ، فذكر لها منزلته من الله عزّ
وجلّ ، وهو متحامل على يده حتى أضر الحصير في يده صلى الله عليه وسلم من شدّة تحمله عليها فما كانت
تلك خطبة .

يقول « لا جناح عليكم » فيما كان تعر يضامثل هذا أو مكتوما في النفس بلا تصريح ولا تعريض ،
ولما كان من عادة الجهلاء إذ ذاك أن يدخل الرجل على المرأة في عدّة الزوجية ويطلب منها السفاح أثناءها ،
ثم يشهر النكاح بعد انقضاء العدّة نهوا عن ذلك الزنا ، فيكون السر الجماع ، وهو قول الشافعي ، وهكذا
روى عن ابن عباس ، وقال امرؤ القيس :

ألا زعمت ببساسة اليوم أنني « كبرت وأن لا يحسن السرا . ثالي

ببساسة اسم امرأة فلم يبح الابا قول المعروف ، وهو التعريض ، ثم قال « ولا تعزموا » أي لا تقطعوا عقدة
النكاح حتى ينتهي ما كتب من العدّة .

العشاء ، وقيل هي غير معينة كليلة القدر ، وسيأتي زيادة بيان في الابضاح (وقوموا لله) في الصلاة (فانتين) مطيعين ناشعين ، ذا كرين الله في قيامكم ، قائمين بالركوع والسجود (فان ختمتم) فان كان بكم خوف من عدو أو غيره (ف) صلوا حال كونكم (رجالا) أي راجلين وهو جمع راجل كقيام وقائم (أوركباناً) على الدواب جمع راكب : أي فصلوا مشاة على أرجلكم ، أوركباناً على دوابكم ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، وذلك في حال المسايضة والمقاتلة في وقت الحرب (فاذا أمنتم) أي فاذا زال خوفكم (فاذكروا لله) أي فصلوا صلاة الأمن (كما علمكم) أي ذكرنا مثل ما علمكم (مالم تكونوا تعملون) من صلاة الأمن (والذين يتوفون منكم) بامعاشر الأزواج (ويذرون أزواجاً) زوجات فليوصوا (وصية لأزواجهم) في أموالهم متوهون (متاعاً) تمتعاً بالنفقة والسكنى وما يحتاج إليه ، ووصف المتاع بقوله كاتنا (الى الحول غير اخراج) غير مخرجات من بيوتهم ، والمعنى أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يموتوا بأن تمتع أزواجهم بدمهم حولاً كاملاً : أي ينفق عليهن من تركته ، ولا يخرجن من مساكنهن : وكان ذلك شروعا في أول الاسلام ثم نسخ بالآية «الذين يتوفون منكم الخ» (فان خرجن) بعد الحول (فلا جناح عليكم فيما فطن في أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب (من معروف) بما ليس بمنكر شرعا (والله عزيز) بالنقمة لمن ترك ما أمر به (حكيم) فيما حكم (والطلاق متاع) أي نفقة العدة (بالمعروف) حق (حقا على المتقين) وليس بواجب لأنه فضل على المهر على وجه الاحسان (كذلك) أي مثل ما سبق من أحكام الطلاق والعدة (بين الله لكم آياته) وهذا وعد من الله بأنه سيدين لعباده ما يحتاجون إليه من الأحكام والدلائل الدالة على جلاله وابداعه مثل ما ظهر في زماننا وجاء في هذا التفسير وقرأه المسنون في أقطار الأرض فهو مصداق للوعد هنا (لما كنتم تقولون) لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها . انتهى التفسير اللفظي للقصد الرابع عشر

في هذا المقصد جوهرتان

الجوهرة الأولى للمتعة ، والثانية اعتداد المرأة التي مات عنها زوجها إلى الحول

الجوهرة الأولى

«لا جناح عليكم» لانبعة من مهر (ان طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضا لهن فريضة) الآية : اذا تزوج الرجل امرأته ولم يفرض لها مهرا ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة . طوق الآية عند الشافعي وأبي حنيفة وأحمد ، ويستحب عند مالك ، فان سمي لها مهرا وقد طلقها قبل المدخول بها فلا متعة لها ، والمطلقة المدخول بها مفوضة ، أو سمي لها لامتعة لها لأنها تستحق المهر كاملا وهو مذهب أبي حنيفة ، وفي القديم عند الشافعي ، وفي إحدى الروايتين عن أحمد ، ولها المتعة في الجديد عند الشافعي ، وفي رواية أخرى عن أحمد مستدلين بقوله تعالى : «والطلاق متاع بالمعروف حقاً على المتقين» . قال ابن عمر : لسكل مطلقة متعة إلا التي فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر . ومن لطيف هذا القام أن الشافعي رضى الله عنه فتم القياس أي قياس المدخول بها مفوضة وسمى لها على المفهوم ، ألا ترى أن مفهوم قوله : «مالم تمسوهن أو تفرضا لهن فريضة» يقتضى أنه لا يجب للمسومة متعة فان قوله : «ومتوهون» وارد على المرأة المقيدة بما ذكر ، المتعة مقدرة بحال الزوج بسارا واعسارا لا قيد لها ولا حصر في أمر معارف كالعرف والمرودة هما القاضيان في ذلك ، ألا ترى إلى قوله : «ومتوهون على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً» أي تمتعاً «بالمعروف» أي بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمرودة ، وقد حق ذلك «حقاً على المحسنين»

فانظر كيف جعله حقا ، وكيف مدحهم بالاحسان ، وفيه استحباب ومدح ، فلا يحجب عند المشاهدة ، والمدح تبيين
للإحسان والمروءة ، ولتلك متع عبد الرحمن بن عوف زوجته جارية سوداء ، ومع الحسن بن علي رضي الله
عنهما زوجته بمئنة آلاف درهم ، فقالت : متاع قليل من حبيب مقارق . فأما تقدير ابن عباس لأعلاها
بخادم ، ولأوسطها بثلاثة أثواب : درع وخمار وازلر ، ولأقلها بشيء من الفضة أو مئنة ، أو نحو ذلك كذهب
الشافعي ، وتقدير أبي حنيفة لها بنصف مهر مثلها ، وتقدير أحمد لها بما يحوز في الصلاة ، فذلك كله لاختلاف
الأحوال والأمور خاصة والأفرد في المنفعة لاحد لها ، وللقاضي أن ينظر ما يقتضيه الحال ولا يتقيد بقيد ،
الآثرى كيف يقول : « متاعا بالمعروف » من المروءة والشرع ، وكيف يصفه بالمحسن ؟ وليس المعروف والمروءة
خاصين بمن لها متعة ، بل المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر ونصف مهرها نالت حظا من السعة في
المقدار الذي يهبطها الزوج ، ألا تراها يقول : « إلا أن يعفون أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب
للتقوى » . يقول : لمن نصف المهر إلا أن يتجاوزن فيتركه للرجل فلا يأخذن منه شيئا ، أو يعفوا الرجل عن
النصف الآخر وقد ساق إليها المهر كاملا وقد عفا عن سعة وهو التشطير ، ثم رغب الرجال وناطهم قائلا : وأن
تعفوا أيها الرجال أقرب للتقوى لأنكم قوامون عليهن والرجل أولى بالفضل وأحق بالإحسان . وعن جبير بن
مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفر ، ولما كان مثل هذا
الفضل عظيما زاد في الحضي عليه فقال : « ولاتنسوا الفضل بينكم » بالمحاجة والمفاضة واقامة القضايا ورفع
الدعوى وإيجار المحامين ونحو ذلك « إن الله بما تعملون بصير » لا يضيع فضلكم ولا إحسانكم ، فليأتم أن
تضيقوا أوقاتكم ومهواتكم وشهواتكم في المشاجرات والمماحلات فتنسوا المعروف والمروءة والفضل ، فذلك
لن يفتني أن يكون ، ليحسن بعضكم إلى بعض فلا تضيعوا المعروف بينكم بالعداوات ، ولا تتركوا الصلاة بل
حافظوا عليها ، ولا تفسدوا أمر الطلاق والمنفعة والمفاضة وأحوالكم المؤلفة بالمشاحنات والمماطلات والعداوات
عن أجل الأمور وأعلاها وأرفعها وأوقاها ، وهما شيئان : المعروف بينكم ، ورجوع الأفتدة لله في الصلوات
« حافظوا على الصلوات » كلها « والصلاة الوسطى » الفضلى ، والأفضل يسمى الأوسط ، وهي صلاة العصر
لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : [شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملائكة يوتهم ناراً]
وقال عليه الصلاة والسلام : أنها الصلاة التي شغل عنها سليمان حتى نوارت بالحجاب ، وإنما فضلت لأن الناس
مشغولون بأعمالهم من تجارة ووزارة وصناعة ، وقد خارت القوى ، وشممت النفوس .

الصلاة راحة للنفوس الانسانية من الهم ، ومدعاة للسرور ، ولعروج الروح عن هذا العالم الفنى إلى نصيب
وقتها ، لا بد للناس من أوقات برؤوحون فيها أنفسهم من مآزق الحياة ، وأثقال الهموم التي تنقض ظهورهم ،
وتكدر صفاهم ، وتعملهم الأثقال ، وفيها تحيط بهم الآلام ، فليصاوا وليقوموا لله قانتين أي خاشعين ، وليأتم
أن يشغلهم الخوف من حرب أو غيره ، فإن ختم فصالا رجلا أوركبانا ، جمع راجل وراكب كقيام جمع قائم
سواء أكنتم واقفين أم ماشين ، محاربين أو خائفين ، من سبع أو غيره ، فأوقفوا بالركوع والسجود ، وليكن
السجود أخفض من الركوع ، وصلوا مشاة على أرجلكم ، أوركبانا على دوابكم ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها
ومنع أبو حنيفة صلاة المشاة ، وذهب إلى التأخير كما أمر صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر ، وقضاها بعد غروب
الشمس يوم الخندق ، واحتج الشافعي بهذه الآيات ، وهذا حال الخوف « فإذا أمتهم فاذكروا لله كما علمكم »
أي ذكرا مثل ما علمكم « ما لم تكونوا تعلمون » من صلاة الأمن ، ثم رجع إلى مسائل الأزواج ليختصما
بعدة المتوفى عنها زوجها فقال : « والذين يتوفون منكم » الآية وهي :

الجوهرة الثانية

قد كان رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحرث هاجر الى المدينة ومعه ابواه وامرأته ، وله اولاد
فبات فرجع ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية ، غرم المرأة من الميراث ، وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركتها زوجها
حوالا كملها ، والآية تدل على مجموع الأمرين أن لها النفقة والسكنى ، وأن عدتها سنة كاملة ، وهي مخبرة بين
السكنى في منزل زوجها وبين الخروج ، وتسقط النفقة ، ونسخ الوصية بالنفقة والسكنى بآية الميراث ، ونسخ
عدّة الحول بأربعة أشهر وعشر ، ورأى الشافعي لما السكنى ولم يرها أبو حنيفة رضي الله عنهم أجمعين ، وقوله
« وصية » أي فليوصوا وصية ، وقوله « متاعا » أي متعهن متاعا ، و« الى الحول » صفة لمتاعا ، وقوله « غير
اخراج » وصف مؤكد ، وقوله « فيما فعلن في أنفسهن » أي من التزين والتعرض للخطاب ، ولما أن
ذكر أحكام المتوفى عنها زوجها أردفها بما يناسبها من أحكام المطلقات في عدتهن ، فقال « وللمطلقات متاع »
نفقة المدّة « بالمعروف حقا على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ومن فسر المتعة بغير نفقة
المدّة جعلها شاملة للندوبه والواجبة ، ومنهم من أوجب المتعة لكل مطلقة ، وهذا المقام مكرّم أخلاق ، فضلي
المرء أن يجتد في الفضائل ومحاسن الأخلاق والآداب اهـ

تفصيل الكلام على قوله تعالى : حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين

أمر الله بالمحافظة على الصلاة في هذا المقام ، ويجب ذلك في جميع شرائطها كالطهارة من الحدث والتنجس
في البدن والثوب والمكان ، وبالمحافظة على ستر العورة ، واستقبال القبلة ، والعلم بدخول الوقت ، وبالمحافظة
على جميع أركانها كالنية ، وتكبيره الاحرام ، والقيام عند القدرة ، وقراءة الفاتحة ، والركوع والرفع . منه ،
والسجود الأوّل والثاني ، والتشهد الثاني ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه والسلام وهكذا مع
اختلاف الأئمة في ذلك بلزيادة والنقص ، وهكذا الاحتراس من جميع المبطلات للصلاة سواء أكلن ذلك من
أعمال القلوب أم من أعمال اللسان ، وأهم الامور في الصلاة رعاية النية فانها هي المقصودة أصالة من الصلاة
قال تعالى : [وأقم الصلاة لذكري] .

وهنا يرد سؤال فيقال : المحافظة مفاعلة من الجانبين ، فإذا حفظ العبد صلواته فأين الطرف الآخر ؟ قالوا
المعنى احفظ الصلاة ليحفظك الله ، أولت حفظك الصلاة من المعاصي ، ومن استذلال المحن والبلاياك ، واستدلوا
بقوله تعالى : [اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة] ومعناه كما يقول الرزقي رحمه الله : اني معكم بالنصر
والحفظ ان كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وهذه الأدلة كثيرة في القرآن والحديث

وهذه الأمور لا يسقطها الناس الا بالتجربة ، فإذا قام امرؤ بأمر الصلاة ، وكان حاضر القلب في جميع
الأركان ، وفي القراءة والركوع والسجود والتشهد ، وهو مع ذلك نظيف الظاهر حاضر القلب مخاطب ربه
طالب منه الهداية كأنه أمامه ، وهو يناجيه ويكلمه ويحمده ، ويقول له ان كل حمد صدر من مخلوق ، فهو لك
وأنت الرحمن الرحيم ، فالعبادة لك ، والاستعانة بك وحدك ، وعند الركوع يتذكر تلك العظمة ، وهكذا عند
السجود ، ويقول في التشهدان كل تحية وكل تعظيم فأعما هو لك ، وسعولم أن العاقل الذي يقول إياك نعبد
وقلبه في حقله أوفى ذكائه كاذب في دعواه كما قال الامام الغزالي غير معصّل ولا عابد ، وقال أيضا ان فتوى
الفتفاء تسمى هذا مصليا مادام يحضر قلبه عند النية ، والفتفاء لاعلاقة لهم بأمر الآخرة ولا تهذيب النفوس ،
وأعما الفتوى معاقبة بالظواهر ، والظاهر هنا أنه صلى فتقول : له مالنا وعليه ما علينا وليس له في الآخرة من نصيب ،
والصلاة بلا حضور قلب جسم بلا روح ولفظ بلا معنى ، وهذا ملخص ما قاله الامام الغزالي والعلماء الصالحون
والحكاه المحققون .

أقول إذا قام المصلي بالصلاة على هذا الوجه وهو الحضور بالقلب فهل تحفظه من المعاصي كما تحتم ، ومن بعض الممن والبلايا ، وهل صاحبها ينصره الله ؟ هذا السؤال له أحد جوابين : أما الأول فانا نقول لينظران عمل على هذا الوجه الأكل في نتائج حاله واذن يجد المعونة من الله . وهذا لا يطلع عليه الا هو نفسه ، واذن يكون ذلك خاصا به فلا يتعداه لغيره فلا يكون حجة عند الناس .

وأما الثاني فانا ننظر في العلوم التي كشفها علماء أمريكا وأوروبا في هذا المقام التي أطلعنا عليها ، وان كان لها نظير في كتب غير مشهورة عند أسلافنا الذين ورثوا علوم الأمم فنقول :

اعلم أن النفوس الانسانية المتصرفة في هذا الجسد ذات قوى كثيرة وما رتب شتى وأعمال كثيرة ، والناس فريقان : فريق ترك تلك القوى في غفلاتها تجرى تبع هواها ، فاللسان يقول ما يحظر بالنفس والعين يطلق سراحا وجيع البدن حر في تصرفه لا يردعه رادع من عقل ولا دين ولا مروءة ، فهذا يصبح ضيف الأثر خاند النفس ، أما الآخر فهو الذي حفظ هذه القوى وسجنها في نفسه ولم يفرط فيها ، فالكلام بمقدار والنظر والسمع والعقل كل ذلك موزون بميزان فهذا قد حفظ [البطارية] الكهر بائية السالبة والموجبة في نفسه وللمغناطيسية الحيوانية التي كسبها فلم يفرط فيها . واذن يبقاؤها تكون عوناً له مساعداً وهو لا يشعر . أما الأول فقد تبعثت قواه وطاحت وتفرقت ، فهذه القوى يبقاؤها في النفس تجعل لصاحبها احتراماً وجذباً للآفة وحياً .

وقد اطلمت لهم على تجارب يعلمونها لتلاميذهم فهو يدا لهم على حصر الفكر وقوة الإرادة كأن يأمرهم بالتفكير في أمر واحد زماناً أو يكرروا كلمات بعض دقائق خاصة بالفرض الذي يطلبونه أو يحبسوا الهواء المداخل في الرتين زماناً داخل أو خارجاً ويقولون لهم إياكم والتحدث عن أنفسكم ، والفخر في المجالس وذكر الوقائع لاظهار العواطف المختلفة وإياكم أن تعاقروا الخمر أو تهنئوا الآثام الشهوية ، فان كل كلمة ورغبة وخفة وطيش ولذة تحمل معها قوة من المغناطيسية المودعة في نفوسكم فاحفظوها وتعلموا كتابان الأسرار والكوت والسكون ، ويقولون ان نتيجة هذا كله قوة الإرادة فقوة الإرادة عندهم هي كل شيء . هذا كلام علماء الجعية النفسية في أمريكا ، وهذا هو الذي دوتوه ومن مقالهم أنهم يأمرون التلميذ أن يجلس في حجرة وحده ويقوم ذهباً وإيها مخاطباً شخصاً خيالياً بكلمات ذات معنى أو غير معنى حاضر عند كل كلمة بنبرات حسنة حلوة كأنه خطيب ، ويكون ذلك مقدار نصف ساعة ، وان كانت تلك الكلمات في غرض خاص كانت أدعى لتحقيقه والقصد من ذلك عندهم قوة العزيمة والإرادة والحمة ، وهي كيفية بتحقيق الأغراض ولهم فوق ذلك مالا وقت له ذكره .

وأنا أقول أنا لست الآن في مقام الاستمجان أو الاستباحت ، وإنما الذي أسمعتك من كلامهم جار نظيره في ديننا ألم يقل الله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولاً » وذلك المشغولية يظن الناس أنها في الآخرة وحدها ، والحق أنها في الدنيا والآخرة ، قال تعالى « سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » والقرآن طافح بذكر عذاب الدنيا وعذاب الآخرة معا ، وهؤلاء الذين لم يحفظوا قواهم ضاعت وتبددت فضاعت مصالحتهم في الدنيا فمذبذبوا فيها وفي الآخرة ، وقال تعالى « أولئك الذين خسروا أنفسهم ورضل عنهم ما كانوا يفترون » وقال تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فانظر كيف جعل الأمر راجعاً إلى خسارة النفس وإلى تفسير ما بالنفس ، فالنفس وقواها رأس مال الانسان ، فإذا بذر فيها بالضعف وكثرته ، والكلام وثرثرته ، والحزن والفرح ، واللذات ضاعت قواها فلم يجعله معنا « أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » فهؤلاء الذين نسوا أنفسهم لا يقدرين على كبح جماحها ولا يحصرون عز ينهم

يصبحون عامة على المجموع ، وقد جاء في الحديث ما يقرب من هذا « من أصبح وهوومه هم واحد وقاه لله الموم كما » أو ليس هذا كقوله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولا » ولقد تجسد في القرآن ذكر الهمة وعلوها وذكر أولى العزم ، قال تعالى « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » فجعل المدبر على العزيمة ، وترى الصلاة قد وجب فيها حفظ القوة الفكرية وحصرها في غرض واحد ، أو ليس هذا هو كل بل أكثر مما قلته جمعية المباحث النفسية لتقوية الهمة والنصرة والسعادة . أفلا تتعجب كيف يقول الله « واستعينوا بالصبر والصلاة » وانظر كيف قرن الصبر بالصلاة التي يحضر القلب فيها ، لا صلاة أكثر المسلمين التأملين اليوم . أولست ترى أن تمرين الأمرين بالخطابة في حجرة مع حضور القلب للكلمات التي يقال لأجل علو الهمة وقوة العزيمة هو تقليد لمصلاتنا سواء أعلموا أم لم يعلموا ، أفلمت أيها الذي التبت وأنت تقرأ هذا تتعجب من غاية التعجب من المباحث النفسية التي جاءت مؤيدة لدينا ، بل هي لم تصل إلى حاله وجاهه ، وأن هؤلاء القوم لما حرموا من جلال البيانات التي تأخذ بمجامع عقولهم بحثوا بأنفسهم عن قواعد استنبطوها بالتجربة وأنهم لو كان عندهم ما سمعته من الآيات والأحاديث لجعلوا التعاليم على محورها ، أو ليس هذا هو قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » أفليس هذا الذي ذكرته مما أراه الله لنا في الأضواء كما أرانا جلاله في الآفاق . أفلمت ترى بعد الآن المحافظة على الصلاة بحضور القلب في الأفعال والأقوال وخطاب الله ومناجاته مقوية للعزيمة نافعة في الدنيا والآخرة ، وان قوله « واستعينوا بالصبر والصلاة » له حقيقة عالية قد كشفها علماء النفس في مجلدات وهم لا يعلمون أنها في الإسلام ، وأن العامة ربما ساعد بعضهم بهذه الصلوات وهم لا يعلمون ، وأن أسلافنا الذين ملكوا البلاد شرقا وغربا وهم يزكون ويصلون كانوا على حق ، وأن للتعلمين تعلما ناقصا في مصر ، وسائر أقطار الإسلام يجب عليهم أن يفكروا فيما قلت بعقولهم فيحفظوا المغناطيسية والقوى الحيوانية في قلوبهم ، وان هذا الذي قلته بلسان العصر الحاضر أقرب إلى أفهامهم ، أنا موافق أن الأذكىاء يجيبون لما دعوتهم إليه بعقولهم لا بالتقليد ، أفليس هذا بوضوح ما قاله علماءنا ، يقول هؤلاء الأمرين يكون ان الفرق بين تاجر وعالمين تشابها في التجارة والعلم واختلاف في العمل والشهرة ان أحدهما قوى الإرادة تام المغناطيسية اليه اتجهت الافئدة ، والآخرة صامت مغناطيسية الحيوانية فلا يحب له ولا جاذبية عنده ، أليس هذا كلام أ كابر العلماء عندنا الذين يوجبون حضور القلب في الصلاة أولا ، ثم في سائر الأقوال والأفعال .

ايضاح

فاذا قال الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فذلك لأنها علمتنا حصر الفكر والاتجاه لله وخشيتة قوت العزيمة فكانت المغناطيسية عندنا تامة ، أو ليس ما يفعله علماء النفس بأمرها من حصر أفكار تلاميذهم في نقطة واحدة ما بين ٥ دقائق و ١٥ دقيقة بحيث لا تميل عينه يمنة ولا يسرة ويقولون انه يحصر الفكر قوى عزيمته وقوة العزيمة والتمرين مرارا بصبر قادرا على حفظ قواه فلا يقع في الأضرار فيها بالشهوات ، واذن بصبر عضوا عملا في الأمة ، أفلمت المحافظة على الصلاة مع حضور القلب فيها من التكبير إلى السلام سنها عن الفحشاء والمنكر ، وتمتاز هذه عن آراء الأمرين من علماء النفس ، ان التفكير في الله قد انضم هنا إلى حصر الفكر فبدل أن يحصر فكره في نقطة يراها بينه يتجه لله فينال الأمرين : حصر الفكر ، والاتجاه لله معا مع الاعتقاد الديني ، فيكون الله في عونته وقواه المغناطيسية كاملة تامة ، فهو مستعد للساعدة عن هم حوله بتسخير الله ، وتكون قوته النفسية موفورة ، هذا هو الذي حضرني عند

كتابة هذا الموضوع ، فاذا كنا نرى الشبان المتعلمين في ديارنا يقرءون هذا وبعضهم يصل به ابتغاء النفي من طريق حصر الفكر ، أفليس هذا بينه ، في ديننا . ولأذكر لك شذرات من أخبار آباءنا المسلمين الذين فتحوا فارس والروم وهم كانوا يصلون ويصومون ، ونحن لاصيام ولا صلاة مع أننا علماء بلفات الترجمة وآدابهم وخرمهم ، ونحن غنيمة لهم باردة وبآدابهم محبوبون ، وفي محال طوبهم وشراهم جالسون ، ولما لنا فيها منفقون .

(١) قال صلى الله عليه وسلم ، ان العبد ليصلي العملة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها ، وكان يقول : انما يكتب للعبد من صلاته ما عاقل منها .

(٢) وردى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر ان الرجل يشيب عارضا في الإسلام ، وما أكل الله له صلاة ، قيل وكيف ذلك ؟ قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله عز وجل فيها .

(٣) وكان مسلم بن يسار من الخاشعين في صلاتهم ، وقد نقل عنه أنه سقطت اسطوانة في المسجد وهو يصلي فلم يشعر .

(٤) ومثله عامر بن عبد الله الليثي كان اذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف ، وتحدث النساء في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله ، أليس هذا هو الذي يلتمسه علماء الجعيات النفسية ، في أمريكا وأوروبا لما تضعضت دياناتهم ، وذهبت بهجتها ، أوليس هؤلاء المسلمون هم الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ، وهم مصالون ، ان المسلمين اليوم في سكراتهم يعمهون ، إلى لصمرك أيها الفقهاء الذين لم أذكر أعمال الجعيات النفسية ليكون برهانا على أن ديننا حتى بل لا يبين للعلم الذي عرف بعض علوم أوروبا وعاش غافلا عما كان عليه آباؤه الأولون .

حكاية مصرية

قد كانت أمتنا المصرية في أواسط القرن التاسع عشر ، وهو القرن الماضي ذات نهضة شريفة عالية بتأسيس [المرحوم محمد علي باشا] وكان يرسل الشبان في الارشادات إلى فرنسا ، ومعهم شيوخ ليطوهم الصلاة والمحافظة على الدين ، وكانوا يرسلون كل أسبوع ملخصات لبروسهم ، وترسل لهم خطبات بفتح الأمير يظهر رضاه عنهم ، في كل مظهر نبوغهم فيه ، فاتفق ذات يوم أن مراسلا لأحدى الجرائد الكبرى [وأظنها الطان] كان يجوب في المزارع وقت الفجر لفرض ما فطمح من بعيد شجعا ، فذهب إليه إذا هو تليذ مصري بجانب ماء جد فصار تلجا ، وكان ذلك زمن الشتاء والتليذ يلتبس قطرات منه ليتوضأ فتصب وسأله لم هذا ؟ فقال أتوضأ لصلاة الصبح فرجع وكتب مقالة عنوانها [مصر ستغتنل أوروبا] وذكر الحادثة بتمامها ، وقال إذا كان هذا صادق المزيجة حتى يتوضأ بالثلج ، فهذه المزيجة لا مثل لها في أوروبا وهذه العزائم القوية تهتد الجبال وتخرب المدن ، وسيكون المصريون والشرقيون ، بهذه التعاليم أقوى من أوروبا ، ويرجعون إلى مجد آباؤهم الأولين ، ويهدمون مجدا بنياء وستأقناه ، وحسنا رفعا اه .

هذا استنتاج كتابهم في جرائدهم ، فتطلعت أظفار أوروبا إلى تعاليم المصريين ، فأحتال قوم منهم على بعض الحكام فاشاعوا الملاعة والفسوق ، وأغرروهم باحتقار آباؤهم ومجدهم ودينهم ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأنا ان العذاب في ديارنا ونحن صاغرون ، أليس هذا الكاتب الفرنسي قد تلخص معنى [حافظوا على الصلوات] أوليس هذا العالم ، قد أدرك بظفته أن مصر بأمثال هذا الشاب سترقى ، وقد تم ذلك بعد سنين فانها ملكت الحجاز والشام ، وكادت تطير إلى أوروبا لولا ما حصل بها من الجصل ، إذ قامت تحارب خليفة المسلمين ، أوليس كلام هذا الفرنسي عرفنا سر ذكر هذه الآية ومنها الحرب إذ يقول [فان ختم فوجلا

تَرَكَ، أَلْ مُؤْمِنِي، وَءَا لْ هَارُونَ تَحْمِيلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لِمَ طَلَاكَ لَنَا الْيَوْمَ بِمَا جَاوَزْتَهُ قَالَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَا صَبْرًا وَقَدْ أَقْدَمْنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَهَلَمَهُ لِمَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (ألم تر) ألم تخبر يا محمد في القرآن (إلى الذين خرجوا من ديارهم) من منزلهم لقتال عدوهم (وهم الكوف) قيل ثمانية آلاف خرجوا عن القتال (حذر الموت) مخافة القتال (فقال لهم الله موتوا) فأمرهم الله بموتهم (ثم أحياهم) بعد ثمانية أيام (إن الله ليرفض) لنومهم (على الناس) على هؤلاء لأسيائهم، وعلى غيرهم إذ يبصرون ما يفترون به (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ذلك ولا يفترون ولا ينصرون، ولما بين أن الفرار من الموت غير مخلص من أمر المسلمين بالقتال ليفوزوا بالنصر أو التوبة فقال (وقالوا في سبيل الله) في طاعة الله عدوكم (واعلموا أن الله سميع) لما يقول للمتعلم عن القتال (عليم) بياتكم وحقوبتكم إن لم تفعلوا ما أمرتم به، ولما كان القتال لا بد له من مال أعقبه بقوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) قرضا حسنا مقرونا بالاخلاص وطيب النفس (فيضاعفه له) أي يضاعف جزاءه (أضعافا شديدة) لا يعلم كنهها إلا الله (والله يقض ويبسط) أي يقدر الرزق على عباده ويوسعهم عليهم (والله ترجون) فيجازيكم على ما تقدمتم (ألم تر إلى الملا) ألم تخبر عن الأشراف الذين يملأون القلوب بجلالة، والعيون مهابة (من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم) وهو يوشع أو شمعون أو أشمويل (أبنت لنا ملكا) أنهض لقتال معنا أميرا نصدر في تدبير الحرب عن ربه (تقاتل) بأمره (في سبيل الله) في طاعة الله (قال هل عسيتم) أي هل لكم (إن كنتم) فرض (عليكم القتال ألقاوتوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله) أي وأي داع لنا إلى ترك القتال، وأي غرض لنا فيه (وقد أخرجنا من ديارنا) من منزلنا (وأبنائنا) وذلك بسبب ذلنا (فلما كتب) أوجب (عليهم القتال فقولوا) عرضوا (الأقليات منهم) ثلثائة وثلاثة عشر رجلا بعد أهل بدر (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد (وقال لهم نبيهم) إن الله قد بعث لكم نالوت (ملك كونه) (ملككم) عليكم (قالوا أنى) كيف، أومن أين (يكون له الملك علينا) وليس من سبط الملك وهم أولاد [يهودا] (ونحن أسقى بملك منه) لأننا من سبط الملك (ولم يؤت سعة

من المال) ليس له سعة المال لينفق على الجيش (قال) اشمويل (إن الله اصطفاه) اختاره بالملك (عليكم
 وزاده بسطة) فضيلة (في العلم) أي في علم الحرب والسياسة (والجسم) الطول والقوة (والله يؤتي) يعطي
 (ملكه من يشاء) في الدنيا (والله واسع) بالعطية (عليهم) بمن يصطفيه لذلك ، هناك طلبوا من نبيهم آية
 على اصطفاه الله إياه ، فأجابهم بأن التابوت يأتيهم ، وهذا قوله تعالى (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم
 التابوت) أي صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل العدو فقدمه فكانت تسكن نفوس
 بني اسرائيل ولا يفرون (فيه سكنة) سكون وطمأنينة (من ربكم وبقية) هي رضاض الأنواح وعصا موسى
 وثيابه وشيء من التوراة ، وعصا هرون عليهما السلام (بما ترك آل موسى وآل هرون) أي مما تركه
 موسى وهرون ، والآل مقحم لتفخيم شأنهما (تحمله) أي التابوت : أي تسوقه (الملائكة) اليكم وكان
 في أرض جالوت إلى أن ملك الله طالوت ، فأصابهم بلاء ، فقاموا من التابوت ، فوضوه على نهرين ،
 فساقتهما الملائكة إلى طالوت (إن في ذلك) في رد التابوت (لآية) علامة (لكم) أن ملكه من الله
 (إن كنتم مؤمنين) مصدقين ، فلما رد إليهم التابوت قبلوا (فلما فصل طالوت) خرج (بأبوه) من بلده
 إلى جهاد العدو (قال إن الله مبتليكم) يختبركم : أي ياملكم معاملة المختبر (بنهر) وهو نهر فلسطين (فمن
 شرب منه) من النهر (فليس مني) فليس مني على عدوي ، وأفليس من أتباعي (ومن لم يلمسه) لم يشرب
 منه (فإنه مني إلا من اغترف غرفة يده) هو مستثنى من قوله « فمن شرب منه فليس مني » (فشربوا
 منه) أي فكرعوا (إلا قليلا منهم) وهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا (فلما جاوزه) أي النهر (هو) أي طالوت
 (والذين آمنوا معه) أي القليل (قلوا لا طاقة لنا اليوم) أي قال الكثير لا قوة لنا (بجالوت) هو جبار من
 العملاقة (وجنوده) لكثرتهم وقوتهم (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) يوقنون بالشهادة وهم القليل (كم)
 أي كثير (من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) بحكمه وتيسيره (ولله مع الصابرين) بالنصر والابانة
 (ولما برزوا لجالوت وجنوده) أي ظهروا لهم ودنوا منهم (قلوا ربنا أفرغ علينا) أصب علينا (صبرا) على
 القتال (وثبت أقدامنا) بتقوية قلوبنا ، وإلقاء الرعب في صدور عدونا (وانصرونا على القوم الكافرين) أصابنا
 عليهم (فهم مومنون) أي هزم طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده (باذن الله) بقضائه (وقتل داود) النبي (جالوت)
 الكافر (وآناه الله الملك) في مشارق الأرض المقدمه ومقارها (والحكمة) والنسوة (وعلمه مما يشاء)
 من صنعة السروج ومنطق الطير (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) كما دفع داود شر جالوت عن
 بني اسرائيل (لفسدت الأرض) بأهلها . يقول : دفع الله بالنيبين عن المؤمنين شر أعدائهم ، وبالجاهدين
 عن القاعدين عن الجهاد شر أعدائهم ، ولولا ذلك لفسدت الأرض (ولكن الله ذو فضل على العالمين)
 بوزالة النساد عنهم (تلك آيات الله) أي القصص التي اقتضتها من حديث الألوفا وامانتهم واحيائهم إلى آخر
 ما تقدم من ذلك وغيره من أخبار الأمم المناسبة حال كونها (تلاوها عليك بالحق) باليقين الذي لا يشك فيه
 أهل الكتاب (وانك لمن المرسلين) حيث تجربها من خبر أن تعرف بقراءة كتاب ، أو سماع من أصله . انتهى
 التفسير النقطي .

ايضاح

ما هنا فرغ الله عز وجل من اصلاح الأمة في أحوالها الداخلة ، واللائمة حالان : نظام في داخلها ، ودفاع
 عن بيضتها ، وقتال عن حوزتها ، ولقد مضى ما يمنع المخرج في البلاد والمخرج بين العباد من الأصول الفقهية ،
 والأحكام الشرعية والآداب الاجتماعية ، وحفظ الأنساب ومنع العقول من سكرتها بخمرتها والأموال من
 فسادها بضياعها ، فنع القمار ، وسومه وحول مجرى الأموال إلى ما يحفظ المروءة والشرف وبصرن العرض

ويرضى الرب من بذله للآفة كسرت قلوبهن ، وشبكت أكبادهن بالفراق والطلاق ، واليتامى والأقرابين
والمساكين ، ووجه العقول المحفوظة من الغائلة المصونة من الترف لحسن العشرة مع الزوجات والمحافظة
على الأنساب إبقاء للألفة بين الناس ، وتخليصا لهم من الأرباس ، وبما لهممهم وتوجيها لمجموعهم إلى
ما هو نافع وجليل .

فلسا أن فرغ من ذلك شرع يحث الأمة على أن تدأ عن نفسها العاديات وتستنهض لهم رد الهجمات
ومهاجة الأعداء ، وقتال الظالمين .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتنى صولة المتأسد الحامى

وكانه عز وجل يقول أيها الناس لا يصدنكم التزامم الداخلي ولا التصادم والمعاملات عن التفكير في جلال
لته بالصلاة ولا يلهينكم مسائل التفقه كالتفقه والعدة ، وأحوال المنازل عن ملاحظة الأعداء فأصلحوا أمركم
بينكم ثم اتوا صفا « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » وإذا كنتم في الخوف ، فصلوا راجلين
وراكبين ، أيقظ الأئمة في ثانيا أحكام العدة والمتعة ، ونحو ذلك بذكر الله ، وأدب فيها حال الخوف . يقول
أيها المسلمون إياكم أن تنقلوا إلى الأرض ، وترضوا بحياة المساكين الأذلاء ، ولتكن منكم طائفة أعدت
لجهاد العدو ، وترصد أحواله ، وترقب أطواره ، ثم ذكر الوصية لمن مات عنها زوجها ، ثم المتعة ، وطفق بشرح
حال الذين تخلفوا عن الجهاد من الأوف ، وكيف أمانهم الله ، فلم يمنهم الفرار من الموت ، وكيف غلبت الفئة
القليلة الفئة الكثيرة بأذن الله .

وهنا نشرح لك القضييتين اللتين ذكرهما الله في هذا المقام حضا على الجهاد على طريقة المحاوررة والمساملة
ليكون أرسخ في الذهن ، وأعون على الفهم ، وأقوم طريقا ، وأقوى قبلا ، سأل بعض الطلبة بمدرسة دارالعلوم
ولترمز لهم بحروف [س و ص و ع] ، قال س : من أولئك الأوف ، وما ديارهم وما قصصهم ، وما مناسبة هاته
القصة للاحتقا ، وكيف أخرنا هنا ، وكيف كان قصص موسى عليه السلام ، ومنه وسلواه التي قدسقت في
أول السورة ، وفي أية تاريخ ذلك ؟

اعلم أنه قيل إن قوما من بني اسرائيل أسلمهم ملكهم بقتال عدوهم فسكروا ، ولكن لم يسكروا
بالشبعان الجعاجيع ، ولا الصناديد القماقيم ، بل استحبوا القلة مع الراحة ، واحتجوا بلوواء الخيم ، في
أصقاع الصدو ، خلت بهم ما كانوا منه خائفين ، وأخذ الموت يرهقهم والملاك يضاهم حين فروا على
وجوههم من الموت هارين ، فدعا عليهم ملكهم ، فأتوا في لحظة واحدة حتى أروحت أجسادهم فخطروا
عليهم حظيرة دون السباع بعد ثمانية أيام ، فلذلك قال لته تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم »
أي ألم تعلم يا محمد باعلاى إياك ، وهو تعجب ، كما تقول ألم تر إلى صنع فلان : أى هل رأيت مثل هؤلاء « وهم
أوف » زيادة عن عشرة آلاف « حين الموت فقال لهم لته موتوا ثم أحياهم » ذلك أن بني اسرائيل
مكثوا في مصر عشرات من السنين وأر بعمائة ، ثم خرجوا إلى الشام ، وقام الشيوخ بأمرهم نحو أر بعمائة
سنة ، وكان أول قائم بعد موسى يوشع ثم كالب ثم حزقيل ، ويقال له ابن الجوز ، ويقال له ذوالكفل ، كفل
سبعين نبيا كما يقال ، فلم يقتلوا ، وحزقيل هذا هو الذي دعا الله أن يحيى هؤلاء الموتى فحيوا ، وكان مع كل
كاهن صيغون شيخا من شيوخ بني اسرائيل هو رئيسهم ، ويقال إن حزقيل النبي نضه هو النبي نذب
قومه إلى الجهاد ففكروا وجبنوا فرسل الله عليهم للموت ، فلما كثرت فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت
فلما رأى حزقيل ذلك دعا عليهم ، فقال : اللهم إله يعقوب وإله موسى ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم
تدلهم على خطأ قدرتك وأنهم لا يخرجون عن قبضتك فرسل الله عليهم للموت ، ثم انه عليه السلام ، ضاق

صدره بسبب موتهم فدعا مرة أخرى فأحياهم الله .

ولقد تضمنت القصة فرارا من الطاعون وفرارا من القتال ، وكلاهما محرّم فلا يدخلن البلد الموبوء داخل ولا يخرجن منها أحد ، وذلك كإفعل عمر وهو ذاهب إلى الشام محاربا وأيد بالحديث النهوي ، فلما سمع ذلك كبر وكبر المسلمون ، وقال : فررنا من قضاء الله إلى قضاء الله ، ومنع الجيش أن يدخل الشام وهي موبوءة ، ولا يجوز للناس أن يدعوا القتال لئلا يموتوا كما مات بنو إسرائيل الذين جعلهم الله عبرة لنا ، وهذا هو الملمّ من سرد القصة وليست تقصد لذاتها ، ولئن مات أولئك موت الأجسام لميوتن الجبنة في الحروب موتا تهر يا بيد أعدائهم ، أو أديا باستذلالهم وسقيهم كأس للنفث والهلوان ، وما أنص الحياة مع الهوان وما أشق الأذلاء .

ولعمري إذا مات قوم عقوبة لهم على فرارهم فكف مات من أم خاصة شراذم وجوع طغي الأعداء عليهم بالبنى والخنزوان ، واستزلوهم بعد عزّ من مراتبهم ، وأودعوا سجن المنلة والصفار ، ذلك شأن الأمم الإسلامية بعد أن خضعت شوكتهم ، وسيموا الخسف وأوردوا موارد الخلف ، ثم قال الله « إن الله لتوفضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » إذ يرفع أمة بعد خفضها ، ويعزها بعد ذلها ، وينصرها بعد ضعفها ، ويرفع من أخلاقها بعد سقوطها ، إن في ذكر أحياء الأمة بعد موتها علامة ظاهرة ، وبشارة باهرة أنه لا يأس من روح الله ، فإذا ماتت أمة وحييت فما أخرى الأمم الإسلامية المائة بالجهل أن تحيا بالعلم وهذا هو الفضل العظيم ، فليشكروا الله وليعملوا ، ولذلك أعقبه بقوله (وقالوا في سبيل الله ، واعلموا أن الله سميع عليم) وليس القتال اجتماع الصفوف ، وجع الجنود ، ورفع البند ، وقيام الشاهد والمشهود فخب ، كلابل إن المال قوامه ، وعماده وأسه وبنائه ، وكيف يصنع السلاح من مدفع وآلات جهنمية الإبلال لذلك قال « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » فلا تبخلوا بالمال لئلا تبدل الحال .

س : أرجو أن توضح هذا القصص الثاني ، ولم جاء مؤخرا عن الأول ؟

ج : اعلم أن قصص بني إسرائيل ، إذ كانوا في التيه ، وما حاولوا مع النبي موسى عليه السلام ، وما زارل هو معهم قد مضى في أول السورة ، وقصة أولئك الذين ماتوا حين نردوا في غضون مدة الشيوخ السبعين في أر بعامة السنة بعد خروجهم من التيه ، ولما مات حزقيال الآف الذكر مرت سنون والأمة الاسرائيلية في اضطراب والبلاد في اختلال فعظمت الأحداث فبعث الله اليهم الياس المذكور في سورة الصافات ، ومن بعده اليسع ، ثم اضطربت الأحوال فظهر عنو يقال له البلتانا وهم قوم جالوت سكان سواحل بحر الروم بين مصر وقلسطين وهم العمالقة ، وضربوا عليهم الجزية ، ولم يبق اذذاك من بيت يتوسم فيه النبوة الاسماء عجوز فولدت ولدا سموه اشموئيل ، وهو النبي ، فلما طغى جالوت والعمالقة ، قالوا لأشمويل « ابعث لنا ملكا قتال في سبيل الله إلى قوله والله واسع عليم » هنا ابتداء عصر جديد وحياة أخرى لبني إسرائيل فانه بعد أن كانت حكاهم مجالس شورية تحكم أسباطهم القاطنين بالشام وغيرها ، وقد عجزت تلك الحكومة عن رد الظلمين والعمالقة الطاغين عليهم لجؤا إلى أن تكون الحكومة ملكية ليلتفوا حول راية ملكهم فابتدأ اذذاك عظمة ملكهم وضخامة ملكتهم ، وكان ما كان من أمر دلود وسليمان وبناء بيت المقدس قرونا وقرونا حتى ظهر بختصر عليهم فأجلاهم وضرب بيت المقدس وأسكنهم نواحي أصهان ، وما والاها من البلدان وهناك قصص أستير الفاضلة المشهورة وقصص العزيز النبي صر على قرية وهي خابوية على عروشها وكيف حيث قريتهم بعد موتها وردهم إلى أوطانهم ملك فارسي حتى أجلاهم لروم الجلاوة الكبرى .

الاتعجب كيف جاء قصصهم في سورة البقرة مرتبا ترتيبا حقيقيا ، وكيف كان قصص موسى وقومه في أولها أيام انقلاب حالهم من استعباد الى حرية ، ثم جاء قصص الفارين من الموت في غضون حكومة الأشياخ السبعين ، ثم كان نبأ طالوت وجلوت وداود أيام الانقلاب ليستدثوا دورا فيه يستعدون وبه ينصرون وهو دور الملك والعز ، أليس ذلك ذكرى للنبي والمسلمين وايقاظا لهم ، انكم أيها العرب ستقلون من حال الى حال وطبقا عن طبق ، ذلك عجيب ثم كيف تراخي بعد ذلك بحجى قصص العزير بعد آيات ، أفليس من اللطيف أن نحوى سورة البقرة تاريخ الاسرائيليين نحوآلف ونمائاة سنة مرتبا مفرقا منتظما متراخيا ، وأنت لو ضمنتها لكملت تاريخا متلائما ذلك من أعجب ما قرأت وأبداع ما فهمت ، ولقد تبين لى فى هذا التفسير ما أكن لأعلمه من قبل .

أرشدت القصة الى اصطفاة الملوك وما صفاتهم . قال بنو اسرائيل : ان طالوت ليس من بيت لارى بيت النبوة ومنه موسى وهارون ، ولامن بيت يهوذا بيت الملك ، ومنه داود وسليمان وهو من سبط بنيامين بن يعقوب فضلا عن كونه فقيرا ، ولملك الإبلال . فأجابهم بأن المال والنسب ليسا سببا فى الملك ، وإنما الصفات الشخصية من العلم والقوة البدنية والشجاعة هى المحور الذى عليه يدور رضى الملك على أن الله يؤتى ملكه من يشاء ويرفع ويخفض ويز ويذل ، وهو واسع الفضل ، يعطى الفقير ملكا ومالا ، عليم بمن يليق بالملك من النسب وغيره ، هذه هى البداية الدهماء ، والطامة العمياء التى أحاطت بالمسلمين ، فأوردتهم النكال ، وأزنتهم الخسر فانهم أضموا تحت رحمة البيوت المالكة فى أكثر المعمورة ، فأولئك ان أحسنوا حفت أحوال الأمة ، وان أساموا سامت ، فقلعت هذه الآية معاذير الأمم لجاهلة ، وحثمت أن يكون الملك تابعا للعلم والقوة والشجاعة كما كانت حال طالوت . لقد عكف المسلمون على عبادة الأنساب فذلت الأعقاب ونعق فى ديارهم اليوم والعقاب ، لقد عرف هذه الحقيقة الأمر بكيون حتى ولو امره عليهم خياطا ، والفرنسيون صانها لما رأوا من أخلاقهم وما عرفوا من آدابهم ، عرف الفرنسيون جهل المسلمين واستكاثهم وأنهم يستخذون لنوى البيوتات والشرف فعملوا بتبصيرة كتابهم والسياحين منهم ، لن المسلمين تحت رحمة قوادهم من الأشراف ، وكبار الأدياء كالكتانى وماء الصين والبيجانى وشريف مرا كس فأغدقوا على بعضهم النعم وغشوا على بعض العقول بالمال فال ظم الشريف المراكشى من بيت الملك والبيجانى كما يقال وساقوا هذه الأمم إلى ساحات العذاب وباحات النكال واستخذوا للفناء واستكانوا للوبال ، ذلك أنهم عن الحكمة معرضون وبالعلم جاهلون .

أقول : اللهم انى أجدك على نعم لا أحصها ، إن هذا الجزء يعاد طبعه الآن ، ولقد رأيت أهل هذه البلاد [مرا كس] من أذكى أم الاسلام عقولا ، وأشرفها تقوسا ، ولقد صادف هذا التفسير منهم أفئدة تهوى إليه وهذه الأمة سيكون لها مجد لا حد لمداه ، ولا عجب اذا كان الضغط يزدها ارتقاء ونورا ، فلن التضرلولا اصطهاره بالنار لم يصرحليا . وهاننا سأل [ع] لقد طال بنا المقال فأتم لنا قصص طالوت .

ج : قال اشمويل النبي ان علامة ملكه « أن يأتيكم التابوت » الصندوق « فيه » التوراة فتكون اليها فهو « سكية من ربكم » وفيه آثار موسى وهارون وآلهما من الأنبياء ، وذلك طمأنينة لكم لما فيه من آيات لفته وآثار الانبياء كرماض الألواح وعصا موسى ونحو ذلك .

كان ذلك التابوت عند العمالقة فقتلهم ماواه لما أصابهم من جهد البلاء فوضوه على عجلة يجرها ثوران وضربوها بالسوط فسبها وهنتها الملائكة بالاطام حتى حصلوا فى ديار بنى اسرائيل واذا ذلك خرج طالوت بالجنود وهم ثمانون ألفا كما يقال ، وأخذ يتلهم وينظر أهم ممن يتقاد للعدوات أم هم أضعفاء صلحاء .

لاجرم أن الأمم المنغسة فى الشهوات المترفة المنعمة أبعد عن النصر وأقرب للهلاك والقتل وأحرص على الدوم والدينار ، وأقرب على عذاب النار ، وقتل السيف البتلر ، والمدفع والبرود . وحصد الجنود ، واهلاك الديناريت .

شأن الأمم المترفة الاستخذاء للذلة في أمونها ، ولن يكون فيهم ليوث خواد ولا شجعان جمعا جميع ولا صناديد قليم فيستلجون للأعداء ويموتون بالداء .

ضرب الله مثل ذلك بما كان من طالوت لقومه عند نهر فلسطين إذ قال لهم لانكروا الماء من النهر ولا تشربوا الا غرفة باليد فمن استكثر وشرب أكثر من الغرفة اسودت شفته وغلب عليه عطشه فمن لم يذق الماء ، ومن شرب غرفة بيده بلغوا مئات مختلفا في عددها ، فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه ، وهم الذين لم يخالفوا قال المخالفون لاطاعة لنا اليوم بحالوت وجنوده قال أولئك الذين يظنون أنهم ملاقوا الله الخالص الذين لم يخالفوا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » كما هو مشاهد في سائر الأمم أن الصبر تابع للعز والشجاعة والقناعة والاجترار بالقليل ، وسألوا الله أن يصبر قلوبهم ويثبت أقدامهم ، ثم نصرهم على القوم الكافرين .

وأمر طالوت أن يسأل [إيشا] في عسكره أن يأتي بولده داود فإنه هو الذي يقتل جالوت في علم الله فأحضره ، ووعد طالوت أن يزوجه ابنته ، فلما قتله زوجه إياها بعد التياواتي ، ثم حسده على حب الناس له وأضر قتله فلم يطلع وعرف خطيئته في هذا ، وفي مخالفة أوامر الله في الثواب التي غنمها من الفلسطينيين وهام على وجهه في الحال ، ثم أفتاه اشموئيل إذا حضرت روحه عجوز ، فقال له اشمويل تقدم أنت وولدك العشرة لجهاد العدو وموتوا في سبيل الله ، فكان ذلك وملك داود ، وابتدأت لاذك عظيمة بني اسرائيل ، قال تعالى « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » الآية ، واعلم أنه ما من أمة تسير على أثر داود في الصبر والقناعة والآداب الا نصر قليلها على الكثير ، ألم تر الى البوير وهم قليل نصرهم الله على أمة كبيرة ذلك أنهم صبروا وقنعوا وكانوا يقرمون من امير داود على أسباع آبائهم وبناتهم صباح مساء ، هكذا أهل طرابلس صبروا وقنعوا فنصرهم الله مع قلة عددهم وعددهم ذلك من أعجب الأمور وقانون لن يبور انتهى .

ألم تريكف ضرب الله مثل ذلك بالابتلاء بالشرب من النهر هكذا شأن الكتاب الكريم بضرب الأمثال للناس والله بكل شيء عليم .

س : لم يزل في المثل غموض ، وما الفائدة الواضحة ، والحكمة الصريحة في ابتلائهم بالشرب من النهر وما فائدتنا من هذا القول ؟

ج : امتاز القران بضرب الأمثال للعاني الفاضحة ، والأمور الشريفة ، ولما كانت أخلاق الناس خافية وأحوالهم مستورة لم يمتاز الصابر من الجزع والشجاع من الجبان الا بالابتلاء ، وهل الصور الظاهرة ، والملابس المتقاربة دالة على بواطن الأمور وما غلب عن الجمهور ، فلا سبيل لادراك الحفيا الانسانية الا بالابتلاء والاستجلاء ، ولما كان النصر حليف الصابرين الأشاوس ، والصناديد القماقيم من ارباب الترفين بعيدا عن المغسبين في الشهوات العاكفين على اللذات ابتلاهم بمسألة جزئية ليذكر طالوت طباعهم الباطنية كأنه يقول لا تعتمد الا على انقلص الكاملين « لا يستوى الخبيث والطيب ولو أجمعك كثرة الخبيث » ولا جرم أن عشرين صابرين يظنون ماتين ، والمائة يظنون أفا ، قد تبين في العصر الحاضرة ان هذا واقع ومشاهد ، وهذا ابدان من الله ألا تصدق امرا الا بعد تجربته ولا تعتمد عليه الا بعد اختباره ، ألا ترى الى ذلك الأعرابي الذي سبر اخوانه ليتلبهم أيهم أصدق مودة وأمتهم صداقة فذبح شاة ودقها بعد طبخها ، وظهر بأنه قتل فلانا ، وقال فهل لك أن تساعدني يا فلان فكلت تولى عنه معرضا ولوى عنه كشعا . وقال مالي بهذا يبدان حتى عثر على ضالته للنشودة وطلبته المحبوبة ، إذ قال أوسطهم فضلا وأقربهم زلني : لا تخف فلا مقب لك وأنا الصبر المبين ، ثم جرد سيفه وقتل غلام صاحبه ، لئلا يبل الأمر غيرها . فقال صاحبه لقد كنت أختبرك ، وقد عرفتك صديقا

وفيا واستخرجوا الذبيحة من مدفنها فأكلوها هنيئا مريئا ، هكذا مسألة الشرب من النهر ليمتاز الخبيث من الطيب في الجهاد ، والله يهدي إلى سبيل الرشاد .

ص : هل لك أن تذكرنا بعض حكم داود عليه السلام .

ج : قال في المزامير لماذا فتخر بالشرا أيها الجبار ؟ رحمة الله هي كل يوم ، لسانك يفتتح مفسد كموسى مسنونة يعمل بالفن ، أحببت الشرا أكثر من الخير ، الكذب أكثر من التكلم بالصدق [سلاه] أحببت كل كلام مهلك ، ولسان غش أيضا يهدمك الله إلى الأبد يخطفك ويقلمك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء [سلاه] فيرى الصديقون ومخافون وعليه يضحكون ، هون الانسان الذي لم يجعل الله حصنه ، بل انكسر على كثرة غناه واغترت بساده ، أما أنا فقتل زيتونة خضراء في بيت الله توكلت على رحمة الله إلى الدهر والأبد ، أجدك إلى الدهر لأنك فعلت وأنتظر اسمك فانه صالح قدام أفتيانك .

وقال في المزمور الثالث والخمسين : « قال الجاهل في قلبه ليس إله ، فسدوا ورجسوا رجاسة ليس من يعمل صلاحا ، الله من السماء أشرف على بني البشر لينظر هل من فاهم طالب الله ، كلهم قد ارتدوا معا فسدوا ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد » انتهى .

وفي المزمور الخامس والخمسين : « أتق على الرب همك فهو يمولك ، لا بدع الصديق يتزعزع إلى الأبد » .
وقال في الرابع والخمسين : « اللهم باسمك خلصني وبقوتك احكم لي ، اسمع يا الله صلاتي اصغ إلى كلامي حتى انتهى » .

ص : زبرد أن ترجع إلى الآيات .

(ج) قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » [تقريره أن تقول] إن الله عز وجل جعل الانسان محتاجا لغيره فلا يقدر على القيام بجميع شؤونه فلا بد من الجمعية العامة ، وكل لكل خادم ، هذا زارع ، وهذا حائك ، وهذا بناء ، وهذه الأنواع الثلاثة هي أصول الصناعات ، وأكثر الصناعات مقدمات لهذه ، أو متممات لها كالنجارة والحدادة ، وهذا خباز . وهذا خياط . وهذا زجاج . وهذا سير القطار وبحرى الكهرباء كما سيأتي بيانه عند ذكر الصناعات والعلوم الواجبة على الأمة الاسلامية في آخر هذه السورة عند قوله تعالى : « لا يكلف الله نكاحا إلا وسعها » وأن كل امرئ استعد لصناعة أو علم يجب على أهل الحل والعقد أن يأمروا الحكومات أن يخصصوه بها وأن العناية والحكمة الالهية قد أوجدت لكل عمل قوما بحسب استعدادهم وماتيتهم اليه فظروهم فكأن الناس جيجا جسم واحد ولما كان الأفراد مختصمون ، والجماعات يقتلون ، والأمة تتحارب نصب الله في الأرض قضاة بين الأفراد والجماعات ، وجعل دولا وعمالك ليحموا المجموع ، ويمنعوا المهاجرين عليهم والمعتدين ، فهذا قوله : [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين] بفصل الحسومات واتحاد الجماعات رعد الفلوات .

وأما قوله [تلك آيات الله تلاوها عليك بالحق] فالخلق هنا أن تصبر يا محمد أنت وأمتك بتلك الآيات والقصاص ، فكما ابتلى بنو اسرائيل بالأعداء فقاتلهم وجاء جالوت بجنوده ثم قام طالوت بجنوده بأمر نبيهم شموئيل ثم داود فنصرهم الله ، وغلب الحق على الباطل ، ونصر المؤمنين بعد ما حصلوا الشدائد ، هكذا سيكون أمرك وأمر قومك لأن هؤلاء مرسلون [وانك] أيضا [لمن المرسلين] فلا بد من نصرتك كما نصرناهم ، ولقد احتمل الأنبياء شدائد ، وقاسوا الصعاب الكثيرة كموسى وعيسى وإبراهيم وداود ، فمنهم من كلم الله ، ومنهم من أيدته روح القدس ، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الشدائد والعقبات والعدوان ، فلنصبر يا محمد كما صبروا ، فلذلك أعقبه بقوله في :

(المقصد السادس عشر)

تلك الرُّسُلُ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
 وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتُلَ الَّذِينَ مِنْ
 بَدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَنُفِئَهُمْ مَنْ أَمَنَ وَنُفِئَهُمْ مَنْ كَفَرَ
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتُلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتِفِقُوا بَيْنَ
 رِزْقِنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْبَغُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ *
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ
 مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ
 الْعَظِيمُ * لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
 بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا
 يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ
 النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

(والمقصد السابع عشر)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي
 يُحْسِنُ وَيُحْيِي قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ
 فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَبِيتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَلِّبْنَا
 عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْسِنُ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِنَا فَأَمَّا اللَّهُ فَمَا بَعْدَ
 حَاجِّكُمْ بَعْثُهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ
 إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ
 كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيَظُنُّنَّ
 قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ
 أَدْعُهُنَّ يَا أَيُّهَا مَعْنَى وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

ايضاح (١)

يقول الله تعالى (تلك الرسل) الذين ذكروا في هذه السورة كداود وسليمان ، والذين لم يذكروا ليسوا
 في درجة واحدة بل هم درجات بعضها فوق بعض (منهم من كلم الله) كموسى على جبل الطور ومحمد صلى الله
 عليه وسلم ليلة الميراج (ورفع بعضهم) كأولى العزم (درجات) كإبراهيم وعيسى ونوح ، ثم خص عيسى بمزية قصاه
 وعزة شواه ، وفضيلة بيضاء ، من إتياء الآيات الينيات ، وتأيدته بروح القدس ، تيانا لليهود وقد حقره ،
 وللنصارى وقد علموه ، وانزاله في منزلة هو بها حقيق ، ومقام به يليق ذكر الأنبياء ومراتبهم ، والمقرئين
 وفضائلهم ، ثم أخذ يشرح أحوال الأمم التابيعين فقال : ولو شاء الله ما اختلف التابعون ، لقد اختلف الأنبياء
 واختلفت الأمم في الطاعات ، كان الأنبياء مختلفين درجات في الزلفى لديه ، واختلف الناس في آرائهم ، فبعض من
 كفر ، ومنهم من آمن بعد أن سمعوا الآيات الينيات ، وشاهدوا المعجزات الواضحات ، بمشيئة الله اختلفوا ،
 وبعلمه آمنوا وكفروا ، ثم كررها مرتين ، وعلقها بمشيئة كرتين ، فليس في العالم إلا مسالمة ، ولا معق لما
 أرواه ، فهو الذي رتب الرسل مراتب ، وهو الذي حكم على الأنبياء أن يكرنوا شرانهم .

هذا معنى الآيات الى قوله (ولكن الله يفعل ما يريد) . وهذا تسلية للنبي ﷺ ولسائر الناس على
 ما يصيبهم من سواك الدهر . هذا ولقد أجمعت الأمة على أنه ﷺ أفضل الأنبياء وخاتمهم ، ولا حاجة إلى
 قتل أقوالهم وحججهم مادام الاجماع حاصلا ، ولكن لندكر حديثنا واحدا ، ففي الصحيحين عن همام بن
 منبه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل ومثلي الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابنتى
 بيوتا فأحسنها وأجلها وأكلها الا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويحجهم البنيان
 فيقولون : ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك ؟ فقال محمد : كنت أنا تلك اللبنة »

وهذه الآيات جاءت للتوحيد والإيمان بالأنبياء ، ولما كان التوحيد لاقيام له بلا عمل ، والأمر للمضوية
 لاقيام لها إلا بالمادة ، وإيمان بلا زكاة روح بلا جسم ومعنى بلا لفظ ، وقول بلا عمل أعقبه بقوله (يا أيها الذين
 آمنوا اتقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم) لا تقدرن فيه على تدارك ما فرطتم فلا يبع توفون به دينكم
 أو تقدرن بجنه فوسمكم ، ولا أخلاء تفرعون اليهم ، ولا أصدقاء تستر خونهم فيصر خونكم ، ولا شفعا يشفون
 لكم إلا من أذن الله لهم ، فأفقوا الأموال في هذه الحياة قبل الفوات لاسها عند القتال ، فلقد بطى الأعداء
 عليكم فيقتلون أموالكم ، وينهبون متاعكم ، ويستبدون أبناءكم . فانا حكمنا على الناس بالقتال ، وحكمنا
 السيوف والنال والدينليت ، وقلنا : لو أننا شتانا ما اقتتلوا ، فالتشبة ساجدة ، والحروب لاحقة ، فاذا أبت الأمة
 أن تصرف أموالها في المنافع العامة ، وترفع شؤون العامة ، فليوقنوا بضياع كيانهم ، وذهاب استقلالهم ،
 ونزق بقى جامعهم ، ودوسهم بالأقدام ، وطحنهم تحت رضى الاذلال ، ووطء رقابهم ، واتزاع عقارهم ، كأكثر
 للمالك الاسلامية اليوم ، فلا شفعا لهم بشفون ، ولا أخلاء لهم بواسون ، ولا مال لهم ببيعون .

(١) هذا الايضاح داخل فيه جميع التفسير اللفظى

ولقد قابلت شاباً من بلاد الجزائر عند تفسير هذه الآية . فقال : ضاعت أملاكنا ، وأقل نجمننا ، واتزعزت منا أرضنا ، وأصبح خسة الملايين عبيدا خاضعين ، وصعاليك شحاذين ، فلا صدق لهم حيم ، ولا شفيع لهم مقيم ، ولا مال لنا به نفتدى من ذلك المعتدى ، فلو خص هذه الآيات شيثان : توحيد واتفاق ، وهذا اجبال سيوضح فيما يتلى من الآيات على لف ونشر بترتيب . أما التوحيد فقد أبرز له ثلاث مراتب عجيبة : ذلك أنه ابتداءً بآية الكرسي وما بعدها الى قوله « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ونهى بمحاجة ابراهيم والنمرود ، وثالث بقصص العزيز وحجاره ، و ابراهيم وطبره . فأما الأول فهو قدس لله وتعظيمه ، ووصف لعظمته وجماله وحكمته ، ومجانب صنعه في أرضه وسمانه ، وهو بعصر الصحابة أليق ، وبالصدر الأول أنسب . وقد ظهرت السولة العربية ، وفتحت الأمم الغربية والشرقية ، إذ كان إيمانهم نقياً من الجدال ، بعيداً عن الخصام والشقاق . والثاني شبيه بما حدث في السولة من الجدال في التوحيد وتفرق الكلمة في علم الكلام كالمعتزلة وأهل السنة والشيعة . والثالث أنسب بمستقبل الأئمة المجيد ، إذ ينظرون في خلق العالم العجيب كما أمر العزيز أن ينظر لحجاره ، ويتدبر في تصوير لجه وعظامه وكبده وكلاه وحلقومه وسائر قواه ، وكما أمر الخليل عليه السلام أن يتبين الطير وقد فرقها ، ودقائق أجزائها وقد جمها ، فاطمأن قلبه لما رآه من عجائب صنع الله . هذه أحوال الاسلام في المستقبل القريب ، وواقعه ليخرجن فيهم فلاسفة عظام وحكام كبار . ذلك أنهم سيرتبون العلم عن سائر الأمم ، إذ يعلمون أن التشريح أهم علوم التوحيد كما نظر العزيز في عظام حجاره ولجه الكاسي وسحلولون العناصر الكيمارية كما حلل أمامه الطير في البرية . فهذه العلوم أصل العلوم الدينية ، بل أشرف علوم التوحيد ، وأرقى وأذق علوم الدين .

لقد جهل أكثر المسلمين هذه الحقائق . وعمما قريب سيعلمون . ولتعلمون نياً ارتقاؤهم بعد حين . هذا ملخص ما سنذكره من مقاصد التوحيد الثلاث وسماته المنظمة المرتبة ترتيب أزمان الأمة الاسلامية من أزمان النبوة الى آخر الزمان ، ولا يعلم إلا الله مداها ، ولكن هذا ما وصل اليه علمنا ، واستقر عليه فهمنا . إن تاريخ الماضي سيقف الآن وقفة وينتدى دور العلم من الآن . إني بهذا موقن أيما ايقان كالمشاهد بالبيان فأما الاتفاق وايضاحه فسريك ضرب أمثاله بالحجة والسذلة والحجج والقراب والجنة والأعقاب فافهم وتجب من الترتيب ، وكيف ابتدأ بمراتب الرسل ، وجعل ذكرهم عنوان التوحيد ، ثم نثى بالأهم واختلافهم ، وجعلهم مناط القتال ، وأصحاب الميدان والنضال ، وطلب اتفاق المال ، لاصلاح داخل البلاد وخارجها ، ثم رجع إلى التوحيد فأبانه أيما تبيان ، وإلى الاتفاق فأوضحه أيما ايضاح ، وفصله تفصيلا ، وأكثر من الأمثال ، وأخذ يفصل أنواع المعاملات في الأموال . عجيب هذا النظام ، وبديع هذا الاتفاق . ولنفصل ما أجبنا فنقول :

المرتبة الأولى

قوله تعالى : **لله لا إله إلا هو الحي القيوم** لاناخذنه سنة ولا نوم له مافي السموات ومافي الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بآذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم

ورد في فضل هذه الآية أسانيد كثيرة كقولها **عَلِيٌّ** لأبي المنذر : أتدري أي آية من كتاب الله ممك أعظم ؟ قلت : لله لا إله إلا هو الحي القيوم ، فضرب في صدري وقال : لهنك العلم يا أبا المنذر . وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لكل شيء سنم وإن سنم القرآن للبقرة ، وفيها آية هي سيدة آي القرآن : آية الكرسي .

تأمل في هذا القول ، وكيف فضلها على غيرها ، وبزها على أترابها ؟ فاعلم أن القرآن فيه قصص وأحكام وأمثال ووعظ ، ووعد ووعيد ، وانذار وتبشير . وهذه السورة خاصة فيها ذكر المنافقين والكافرين ، وهنات بني إسرائيل ، وفظائع ما ارتكبوه ، وذمهم ، وانذارهم ، ووعيدهم ، وتبصيرهم ، وذكر أمر القبلية والحج والصلاة والسيام والجر والخيض والطلاق والجهاد والايلاء والخلف وما أشبه ذلك ، وكل ذلك يرجع الى تهذيب النفوس تارة بالنهم للمخالفين ، وطورا بأدب المعاشرة مع الأزواج ، والآداب في معاملتهم ، وآونة بالتكاليف من الحج والسيام والصلاة والمسبر ، وذلك كله يرجع لأمر نفوسنا وتهذيبها وتخليها عن الرذائل بالمواظبة والمسبر والمشاق ، وتهذيب النفس مقدمة لتحقيق العلم ، والعلم هو الكمال ، والمقام الأوفى ، والقروة العليا ، والسيام والجهاد والشرف الأعلى ، وأشرف العلوم ما كان لأشرف المصالحات ، وأشرف المعلومات (الله) جل جلاله وأنه واحد لا شريك له (لا إله إلا هو) وهو (الحق) لم يزل بلحياة موصوفا لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتبره الموت بعد حياة (القيوم) القائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما هم في حاجة إليه (لأنأخذ سنة ولا يوم) فالسنة أول النوم والنوم غشية قبيلة تقع على القلب ، والمعنى لأنأخذ سنة فضلا عن النوم ، لما اتصف سبحانه وتعالى بالوحدانية والحياة ، وأنه قائم بتدبير كل شيء على الارتقاء في الوصف من توسعه واخراده وحياته وقيوميته على كل شيء بالتدبير كان لا محالة يرد على النفس وورد فيقول : كم من حي قائم بتدبير ما يملك بغيره النوم فينام ، فقال : « لأنأخذ سنة ولا نوم » واعلم أن هذه الصفة خارجة عما اعتاده البشر من اضطرابهم للراحة بعد العمل ، والنوم بعد اليقظة ، لتستكمل الأعضاء قوتها ، ولتأخذ الأعصاب حظها من السكون حتى تقوم بعملها على وجه يليق بها ، ولقد كان ذلك محتاجا الى التفسير عند الجهلاء وافهامهم بما يطلونه من نفوسهم :

[روى] الطبري بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله : « لأنأخذ سنة ولا نوم » أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الملائكة : هل ينام الله ؟ فأوحى الله الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ، ثم أعطوه قارورين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرها ، فجعل ينص وينتبه وهما في يديه في كل يد واحدة حتى نص نسة ففرض إحداهما بالأخرى فكسرها .

قال معمر : إنما هو مثل ضربه الله تعالى له ، يقول : فكذلك السموات والأرض ، ولاتظن أن سيدنا موسى كان يجمل ذلك ، وإنما ذلك من الله تعليم لقومه حتى يعرفوه بما يخالف ما اعتادوه من النوم ، وأنه لو نام وأفنى الانسان لانكسر ما في يده من القوارير .

هذا المثل يعقله العامة والعلماء ، وهو حسن للجميع ، ولكن العلماء ينفردون بعلم ويختصون بحكمة ، ألا ترى أنهم ينظرون الكواكب طالعة غربية ، والشموس مشرقة آفلة ، والأقمار ظاهرة خافية ، جارية بالليل والنهار فوق الأفق وتحت الأفق ، والرياح تجري بالليل والنهار ، وكذلك السحب والأنهار . وترى النبات والحيوان يخوان بالليل والنهار فلا يقفان في نموها بنوم ، فانك لدا رأيت شجرة الورد وقد صارت طول ذراع في أول شهر ، وبعد مضي أسبوع وجدتها أطول بمقدار ثمن قيراط فاذا تقول ؟ أقول : ان نموها كان بالنهار أما بالليل فلا . كلا . بل النمو في سائر الأوقات لكل وقت فسط منه ، وأوقات النوم عندنا أوقات يقظة عند قوم آخرين كأهل [استراليا] ولإزال في العالم نوم ويقظة في سائر الأحوال وليل ونهار ، بل اذا كنت قارنا ما أسلفنا من علم الفلك ظهر لك أن كل ساعة تمر عليك فجر عند قوم وصبح عند قوم وضحي عند آخرين وظهور وعصر ومغرب وعشاء ونصف ليل وهكذا [ليس عند ربك صباح ومساء]

هذه تفصيل حال العالم المشاهد الذي هي فيه ، فالتقارورتان اللتان أوحى الله بهما الى موسى هما السموات

والأرض ، والأرض والشمس ، ومهاد اثنتان دائماً أبداً ، فلأن الله تأخذه سنة أو نوم لاصطكت السموات والأرض بمصنهما ، أو لاصطكت الشمس مع الأرض ، أو مع كوكب من الكواكب فاختل النظام ، وإنما اختاروا القدرين لأنهما أقرب تمثيل إلى الكواكب [إن الله يمك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أسد من جسده انه كان حليماً غفوراً]

إذا عرفت ما قررت لك فهمت كيف أعقب الله ذلك بقوله : (له مافى السموات ومافى الأرض) فنجب كيف أعقب في السنة والنوم بأنه له مافى السموات ومافى الأرض كما يبناء لك فتأمل ، واستغنى عن الاستدلال في القرآن بطرورتي موسى بالمقصود من القدي شرحناه ، وكأن هذه الأمة يراد أن تكون أعم الأمم والأفان إذا يقول الله لموسى أسك بالطاروريتين ، ويقول لأمة محمد : له مافى السموات ومافى الأرض ، وهذا لا يفتله ولا يعرفه حتى معرفته إلا أصحاب التكرار القاب ، ولما كان الناس الذين لهم سلطان في الأرض كملوك أو من يجري مجراهم قد يرضون بشفاعة من يشفعون عندهم ، وذلك كأنه تنزل عن الرئاسة والظمنة والسلطان ، وكان الكفار يقولون : إن الأصنام تشفع لهم عند الله أعقبه بقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا بذنه) أي لا يشفع عنده أحد إلا بأمره كما ذكرنا فيما تقدم أول السورة من شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء فارجع إليه ، وقد استخرنا أن تكون الشفاعة على وجه لا يخل بالمقصود من الدين وهو الجذب والسمل ، وبند التواكل والنفقة والكسل ، ومن تعدى ذلك فقد أضاع آتته ودينه ، وأذهب المقصود من نبوة سيد العالمين (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ما بينهم وما قبلهم (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) علمه أي معلوماته ، وإذا لم يحيطوا بمعلوماته فهو منفرد بالعلم كما انفرد بالألوهية (وسع كرسيه) ملكه وسلطانه وقدرته وأوعده (السموات والأرض ولا يؤده) يتقله ويشق عليه (حفظهما) أي حفظ السموات والأرض (وهو العلي) الرفيع فوق خلقه الذي ليس فوقه شيء فيما يجب أن يوصف به من معاني الجلال والكمال (العظيم) ذو العظمة والكبرياء : أي لاشيء أعظم منه . واعلم أن الكرسي في لغة العرب اسم لما يقعد عليه ، مأخوذ في معناه من تركيب الشيء بعضه على بعض ومنه السكراسة فتركب بعض لوراقها على بعض ، وهذا الكرسي ركبت خشبته بعضها على بعض ، ويقول بعض العلماء : إن الكرسي هو موضع العرش ، وهو السرير الذي يجلس عليه ، وقال آخر : الكرسي غير العرش ، وهو أمانه ، وهو فوق السموات السبع ودون العرش .

واعلم كما قال القفال : أن المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله تعالى وكبريائه ، فقد خاطب الله الملق في تعريف ذاته وصفاته بما اعتاده في ملوكهم وعظمائهم ، من ذلك أنه جعل الكعبة بيتاً له بطرف الناس به كما يطوفون بيوت ملوكهم ، وأمر الناس بزيارته كما يزور الناس بيوت ملوكهم ، وذكر في الحجر الأسود أنه بين الله في أرضه ، ثم جعله موضعاً للتقيل كما يقبل الناس أيدي ملوكهم ، وكذلك ما ذكر في محاسبة الناس يوم القيامة من حضور الملائكة والتبيين والشهادة ، ووضع المؤمنين ، فلي هذا القياس أثبت لنفسه عرشاً . فقال « الرحمن على العرش استوى » ثم وصف عرشه . فقال « وكان عرشه على الماء » ثم قال « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمديهم » وقال « ويجعل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقال « الذين يحملون العرش » ، ثم أثبت لنفسه كرسيه ، فقال « وسع كرسيه السموات والأرض » إذا عرفت هذا فتكلم ما جاء من الألفاظ الموحمة للتشبيه في العرش والكرسي قد ورد مثلها بل أقوى منها في الكعبة والعرش وتقبل الحجر ، فإذا قلنا : إن المقصود معرفة عظمة الله وكبريائه مع القطع بأنه منزه عن أن يكون في الكعبة ، فكذا الكلام في العرش والكرسي ، فغلبت كلام القفال ، ثم إن هذه الآية هللت على أن الله موجود واحد حتى واجب الوجود لذاته قائم بنفسه مقيم لنفسه لا يترتب له نقص والتور مالكة الملك في

العالمين ذوالبطش الشديد والقهر والعظمة لا يشفع عنده الا من صدر له اذن منه يعلم الجليل والقليل . وواسع الملك والتدرة وقوله (ولا يؤده) أى لا يثقله متعال عما تنسركه الأفهام وتخييل الادهام ، عظيم لا يحيط به القول ، ولا تنسركه الأبصار ، هذه آية الكرسي ، أفلا تذكروا ما قاله عليه السلام لأبي المنذر وقتضبه في صدره [ليهنك العلم] كأنه صلى الله عليه وسلم ، يقول : يا أبا المنذر انما بالعلم مشعبا بالضربة الى أن قلبه امتلأ نورا بالعلم ، وكيف يكون ذلك والقرآن كله علم فلم خص آية الكرسي ؟ فاعلم أن جواب هذا السؤال واضح بمقررتك لك هناك من أن المقصود من القرآن هو العلم ، وأهم العلم ذات الله وصفاته وأفعاله ، فهذه الآية ذكرت صفاته سبحانه وتعالى ، فأما معادها من أكثر الآيات ، فلم تعد الانذار ، والتبشير ، والحجج ، والصلاة ، والزكاة ، وتهذيب النفوس والأخلاق ، ولعمرك ان هذه العلوم كاللغة ، وعلم القصص ، والاخبار كل ذلك مقدمات لتحلية النفس بالعلم ليكون زينة للنفس ورقيا للدين وسعادة للأمة وفوزا مينا .

بنور القرآن

ولعلك تقول : أين سعادة الأمم في معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ، ونحن نرى أننا نعرف ذلك ، ونحن في أخبار الأمم ؟ أقول : على رسلك لأن عرفنا ذات الله بالتقديس والتزبه ، وعرفنا صفاته بالكمال والجلل وأفعاله بالنظام والميزان لتكون أرقى الأمم ، ولأوضح لك ذلك .

فأقول : لقد بنى الله في قلوب العباد من المسلمين في مساجدهم وصلواتهم أن يقرؤوا آية الكرسي ، وآمن الرسول صلى الله عليه وآله وإله لا إله إلا هو الحى القيوم ، والآيات ، وقوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة] الآيات ، وقوله [قل اللهم مالك الملك] الآيات ، وقوله [سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم] الآيات ، وقوله [هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة] الآيات ، أليست هذه الآيات يقرؤها المسلمون صباحا ومساء عقب صلواتهم ، لما جاء فى فضلها ، قللى : ربك الله لم يقرؤوا آيات غيره ، ولم يقرؤوا مثل [تمت] بدا أى لمب] ، أو نحو قوله تعالى [وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأمرنا غضب من الله] ولما ذكرنا تكرار هذه الآيات ، واختارها الصالحون والصوفية لتلاميذهم وأوصيهم بها ؟ ان ذلك لعمري لئلا نسرقده أن انكشفه وأعلم هذا وقت ظهوره ، ان أولئك الاساتذة كانت تشرح صدورهم لتلك التلقين ، ويملكون التلاميذ ذلك الا كبير ليضع الله عليهم بالقبول والوصول من طريق القوى ونسفية الباطن ، ولكن الأمر عظيم ، ان ذلك أشبه بما كان عند قدماء المصريين من العلوم للطموزة ، والآثار المنجوبة ، والرموز المكتومة ، حتى جاء علماء الآثار فحلوا معصياتها ، ووقفوا على بعض جزئياتها ، وهكذا ترى علماء الاسلام اليوم يعيشون فى أسرار القرآن فلا تلقى عليك قلام من كثر ، وقطرة من بحر الأسرار فى الدين .

فأقول : قد استبان لك أن صفات الله ظهر بعضها فى آية الكرسي ، وترى الآيات الأخرى كذلك ، قوله « لم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وصف لله ، ولكن أعقب هذه الصفات بذكر الأفعال . فقال « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » . بعد قوله « إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء » . أوليس ذلك يدعو الى علم التشريح ، وعلم الكيمياء ، وكيف لا يدعو لتلك ، وهو يقول [يصوركم فى الأرحام كيف يشاء] أليس هذا يدعو الى علم الحياة المتفرع حديثا الذى يبحث فى حياة الانسان ، والحيوان ، والنبات أوليس الجنين فى الرحم مكونا من الدم الناجم من خلاصة الغذاء ؟ وبالتفاعل الكيمياء كوتت هذه الأعضاء أو ليس هذا العلم يشمل الحيوان والنبات ؟ نظر نظرة أنزوى فى قوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم] أو ليس قوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط] يدعو الى سائر العلوم ، فان القيام بالقسط هو نفس النظم : أى نظم الملك ،

ونظام الطبيعة .

وقد قال علماءنا لا يعرف معنى القيام بالقسط الا من درس سائر العلوم ، كما قالوا في قوله تعالى [ووزع الميزان] في سورة الرحمن ، ان هذا الميزان لا يعقله الا الهدي درس كل علم كالطبيعة والفلك والكيمياء ، فان الترات في التفاعل الكيماوي لها حساب دقيق لا خطأ فيه ولا خلل ، كما ترى في تركيب الماء من الاكسوجين والاودروجين ، وان نسبة وزن الاوكسوجين الى الاودروجين معلومة لا تتغير ، وهكذا نسبة حجم الأول الى الثاني ثابتة ، وهذا امر لا يستثنى منه شيء في العالم ، كما قال تعالى [ولا تعلمون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين] ولقد قرأنا بعض صفحات هذا الكتاب في الطبيعة فأيقنا بنظام جليل بديع وتحققنا وألفينا حساب الله لم يذر ذرة الاحسبها ولا أصغر منها إلا كتبها وأودعها في الطبيعة وألقاها الى الناس أجمعين . وقال للمسلمين هذه علومكم فادرسوها جعلتها في القرآن لتحفظوها ويتعبد بها الصالحون ويدرس بها ماضعت وما نظمت العلماء المفكرون والحكماء المحققون ، فان رضيتم بقشور القراءات ، ووقفت عند حد التلاوات فانكم يا عبادي في عداد الأموات ، وان فكرتم في مصنوعاتي ، ودرستم مخلوقاتي ، وعرفتم موازيني ، وأيقنتم بقسطاسي ، فانكم بذلك تحيون وترضون ربه وسكم بين الأمم ، وهل يقر لكم قرار ، أو يكون لكم اضطراب ، وأنا أفشت الأمم حولكم بغاسوا خلال دياركم ، وأنتم عن الحكمة تأثمون ، وعن التبصرة معرضون ، أولم تفكروا في آية [قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتجزئ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولى الليل في النهار وتولى النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي] الآية .

أوليت هذه الآية المقروءة عقب الصلوات المختارة فيما اختاره الاسانذة الأخير دالة على أن الملك ينقل من قوم إلى قوم ، وأنه لكل أمة يوم ، وأنا الذي أصطفي من عبادي للقبلة من أشاء كما زاد النهار نارة والليل أخرى بحساب ، وكما أخرج الحي من الميت ، وأخرج الميت من الحي ، أليس ذلك يدعو لدراسة الأفلاك والكواكب ، وعلم الحيوان ، أوليت هذه أفعالي ، أوليت صفاتي في آية الكرسي لا يظهر لكم آثارها الا بأصالي ؟ فهامى ذه أفعالي ، وإذ أنزلت القرآن ، وقرأتموه وكررت تلك الآيات التي هي من أهم الصلوات ، أفليس فيكم رجل رشيد ؟ ألم يقيم منكم قائلون يذكرونكم أن تلك التلاوات التي سبقت للعبادات يتبعها العلم والتفكير ، أفلم يكن من رحمتي لكم أني ألهمت أسلافكم حفظ آيات صفاتي وأفعالي لتكون ذخيرة لكم لعلكم تعلمون ، أولم تقرءوا ما كتبه العالم الهندي في كتاب كائيلة ودمنة من الحكايات الخرافية ، وأنه قيل في أول ذلك الكتاب : ان الحكايات تكون تسليية للجهال وغراما للأطفال ، ولكنها حكمة للحكماء وعلم للولك وسياسات للقواد العظماء ، فهل ترون ذلك في كتاب أحد عبيدي ولا ترونه في كتابي الحق ، كتابي يتعبد به العباد ويدرسه الحكماء .

أقول هذا هو السر في اختيار هذه الآيات وهي بذور للحكماء والعلماء ومتى شاع هذا القول بين علماء الأمة ظهر سر قوله « ليظهره على الدين كله » وسر قوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

هذا هو أوان اليوم الموعود للأمة الاسلامية ، هذا هو السر المصون والجوهر المسكون ، والجلال والنور الخفي في القرآن الذي أبرزه نائب الأمم الغربية على المسلمين ، فليقرءوا كل علم وليعرفوا كل فن ، بهذا أمر الله في الكتاب ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . هذا وليرجع الى الكلام الى ما بعد آية الكرسي

فتقول :

قال تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) أي تميز الايمان من الكفر بما ظهر من الآيات الواضحات أن الايمان سعادة ، وأن الكفر شقاء (فمن يكفر بالطاغوت) بالشيطان أو الأصنام أو كل ما عبد من دون الله (ويؤمن بالله) بالتوحيد وتصديق الرسل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) طلب الاستمسك بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق وهذا مستعار للمسك بالحق من النظر الصحيح والرأي القويم (لا انقسام لها) لا انقطاع لها (والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا) محبهم أو متولي أمرهم (يخرجهم) عما منحهم من التوفيق والهداية (من الظلمات الى النور) أي الهدى والايمان (والذين كفروا أولياؤهم للطاغوت) المضلات من الشيطان والهوى والأصحاب وغيرهم (يخرجونهم من النور الى الظلمات) من نور الضلوة (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

المرتبة الثانية في التوحيد

وهي قوله تعالى : (ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ، الى قوله : والله لا يهدي القوم الظالمين)

يقول : هل انتهى الى علمك يا محمد خبير الذي خاصم ابراهيم في ربه وجادله ؟ وهو نموذ ، فقال أنا أحبي بالعبودية وأميت بالقتل . فقال له ابراهيم : فهل تقدر على تغيير الأفلاك وقلب نظام الشمس في سيرها فصار الذي كفر مبهورا وانتهى من المجادلة مقهورا . وهل يهتدى الظالمون الى الحق البليغ والعقيدة السهلة السمحاء .

ثم أتبعه بالمرتبة الثالثة : ونظمها في سلكها ، ورتبها بعد تمامها ، فقال (أو كلفني صر على قرية) والكاف صلة كأنه يقول : ألم تر الى الذي حاج ، وإلى الذي صر على قرية ، وهو أرمياة أو عزير ، والقرية امايت المقدس أو إيلياء ، وقد كانت خارية ساقطة حيطانها (على عروشها) سقوطها (قال) ذلك النبي استعظما لأمر الله واعترافا بالتقصير عن ادراك طريق الاحياء ، كيف يحيى هذه الله بعد موتها ، وقد كان من قبل ذلك سطا على بني اسرائيل يختصر في جمع عظيم ، فأنزل بهم العذاب ، وأجلاهم الى بلاد العراق وپارس ، فلما أن هلك أمر بعض ملوك الفرس بارجاعهم الى بيت المقدس وتعميره وتعمير ايلياء ، فلما أن قال ذلك النبي ما قال ، وقد شاهدها خرابا بلقعا وروحوشا يابا ، وقد كان معه عصير عنب فركوة وسلة تين . وهو على حماره فحلت لساعته ضحوة وحي بعد مائة سنة . وقد عمرت القرية على رأس السبعين . ونمت وزكت في ثلاثين ، هذا معنى قوله (فأمانه الله مائة عام ، ثم بعثه قال) له الملك (كم لبنت ؟ قال لبنت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبنت مائة عام فانظر الى طعامك) التين (وشرابك) العصير (لم يقسه) يتغير (وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها) نحيتها أو نزعها (ثم نكسوها لحما) .

تلك الحادثة كانت أيام سقوط الدولة اليهودية ، ذلك أنهم كانوا في مصر نحو أربع مائة عام ومكثوا في حكم النبط السبعين والكاهن نحو من ذلك حتى كان ما كان من أسباط وشمونيل ودلود وسليمان فظهرت دولتهم واستفحل ملكهم ، وفضلت شوكتهم حتى ملكوا الفرات وأطراف اليمن وبعض جهات الروم ، وجاوروا ملوك الفرس ، وذلك في نحو ستائة سنة ، وكانوا في تاريخهم أشبه بالعرب في سيرهم فانهم لما وصلوا في الفتوحات لمجدرة التتروألوا دولتهم في القرن السادس ، فهكذا هؤلاء لما ملكوا للأرض المقصدة حاربهم الفلسطينيين ، وهم العماليق ، وقلبوا جمهوريتهم الى ملكية ، ثم أخذ ملكهم يزداد وعظمتهم تمتد وطودهم يشمخ ، وأولادهم تثبت ، حتى جاوزوا الفرات ، والجزيرة ، فانقض عليهم جيرانهم ، فأذلقوهم سوء

الغضب ، ذلك تاريخهم فبدأ سلطانهم في أول السورة عند ذكر موسى .
 وقلب الجهرية الى ملكية في قصص شموئيل وطلوت ودلود ، وسقوط مجدهم ، وهبوط نجمهم ، وأقول
 صدهم أليم العزير ، إذ قرأ لهم التوراة عن ظهور قلب .
 ثم كانت خاتمة أمرهم أن اجلاهم الروم ، ذلك أنهم أرى الروم قد غلبوا اليونان الذين غلبوا الفرس ، فانه
 لما تولى اليونانيون على ملك فارس بقاؤهم لسكندر ، ورونا ملكهم ، ومنه بيت المقدس ، ثم لما خلبت الروم
 اليونان ضمو اليهود اليهم ، وأجلاهم الجلالة الكبرى ، وقلوهم الى رومة ، وما والاها من البلدان وفي ألبهم
 لرسول المسيح عليه السلام .

فأحب لترتيب هذه القصص على مقتضى الزمان ، وترتيبها كتدريج التاريخ ، وأهم منه ما أشرنا لك من
 قبل عمدا الأمر وقصاره التأمل في حكمة الله ، وانظر كيف يقول تعالى : وانظر الى جدارك وانظر الى العظام
 كيف نشزها الخ فأمره بالنظر في جسم الجار صرتين . وقال ارجع البصر كرتين ، أوجب علم البيطرة لبيطرة
 السواب والتشريح لمعرفة الأجسام للإنسان والحيوان ، ثم ذكر معها جملة من العلم في نظمها ونظمها في سلكتها
 فجاءها درتين في تاج الحكمة والعلم ، ومصرعتين ليث الاسلام فقال (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف نجني
 للموتى) على قوله (عزير حكيم) لما حاج نمود لبراهيم ، وقال له أنا أسبي وأسيب وعفا وقتل بعد قول
 ابراهيم لقي يحيى برد الروح الى البدن انتقل ابراهيم الى ما قصتم ذكره ، ثم سأل الله العايشة ، وذلك قوله
 تعالى (ولما قال ابراهيم رب أرني كيف نجني للموتى) الآية . يقول ابراهيم رب أرني كيف نجني للموتى ليصير
 على عيانا (قال) الله له (أولم تؤمن) بأحيائي للموتى (قال) ابراهيم له (بلى) أنت ولكن سألت ذلك
 لأزيد بصيرة ومكون قلب بضم العيان وللشاهدة للوحى والاستدلال (قال) الله له (نخذ أربعة من الطير)
 طابوقا وديكا وفرابا وحمامة (فصرهن اليك) أملهن اليك ، من صاره بصيره وبصوره ، وقرى صرهن
 بالضم والكسر : أى اجمعن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) أى جزئهن ، وفرق أجزاءهن على
 الجبال التي بحضرتك ، وهي لوبسة (ثم ادعهن) قل طرقتن تعالين (يا أتيتك سعي) ساعيات مسرعات
 طيرانا لومشينا (واعلم أن الله عزير حكيم) فهو بالغة غالب وبالحكمة منظم ومنقن .

إياك أن يلج في صدرك أن مثل هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد قصص العزير ووجاره
 لتسمع قصصا قصى وتاريخا خلا من غير أن فتبروند كرى وتسكر .

يقول الله : انظر الى جدارك ، ثم يقول : انظر الى عظامة كيف نشزها ، ثم نكسوها لجما ، ولاجرم أن
 ذلك يشبهون شيئا لهم التشريح ويتاوه الطب ، ولن يقوم للطلب أساس ولا للتشريح قاعة إلا إذا درست العلوم الطبيعية
 من النبات والحيوان وفضائلها وأنواعها وأجناسها وأشكالها وبذورها وغير ذلك .

وتجب كيف طلب الخليل من ربه أنه يريه احياء الموتى عيانا بعد التصديق بالاستدلال والوحى قلبيا
 للإمامة الامامية أن يبعثوا وتبيجا لم أن يتذكروا ، بلغة من ذابنكر احياء الله للموتى من مجازئ المسلمين
 والنصارى واليهود ، ومن ذا الذي يحتاج في قلبه أو يهبص في فسه منهم أن يقول ان الله لا يحيى الموتى فضلا
 عن القراء والطباء والأنبياء ، فكيف يكون حال ابراهيم صلى الله عليه وسلم .

لاجرم أن الأمر فوق ما يظنه أضرار الناس وأن الايمان والسعادة وارتقاء العقول البشرية التي تنبع لرقعة
 الأمم الانسانية بعوزها دراسة الأشياء المحيطة ومجانب تركيب الأجسام ونظام الحيوان وكيف يكون التحليل
 وكيف يكون التركيب .

وأنت اذا وقفت على بدائع تركيب المخلوقات الحية وظهر الحية اعترافك العجز وأخذتك الحيرة وغشيتك غولشي

النجيب والبهر وأذهلتك أيما اذهال ولارك طرفا من علم الكيمياء لتدرك سرا من أسرارها وحكمة من علمها وقطرة من بحرها لتجيب من هذا الوجود وتدرك ما كان يرتضيه الخليل وبما اذا أراد الله بهذا القمص وما شأن الطيور وتمزيقها ونوزيها على الجبال وسحبها طائرات ، وما شأن الجبل وعظلمه ولماذا أمر العزيز ، بالتأمل في انتشار عظامه أي احيائها وبتحريك بعضها وضمه الى بعض وأنه يكسوه باللمع ؟ فأقول :

ان في علم الكيمياء كلمين هما المزج والاتحاد فلو أنك مزجت عشرة جرمات من الفصم بشرة من مصعوق الكبريت كان الحاصل منهما حافظا لخواصه الأصلية حتى اتنا لو نظرنا الى هذا المزوج بمنظار لشاهدنا أجزاء سوداء لا قانون له ولا ضابط ولا قاعدة ، وانما ذلك حسب الهوى كاتضع الملح في اناه والقرب مع الملح فلا اتحاد ولا التام ولا انتظام .

الاتحاد

أما الاتحاد فهو السر المصون والعلم المكنون والنظام البديع الغامض المتعاضد عن الجاهلين للترفع عن ادراك الغافلين وهذا هو سر الله في أرضه ومسمى آراء الخليل والعزيز والنبي ﷺ ، ومن أدركه فقد أدرك السر المكنون والكبريت الأحمر وكأنا ملك الدنيا بمخافيرها فان هذا هو سرها وعجبها وبدعها ، ومن يدركه إلا التوقفة القنم وصناديد العلم الأكبر ، ففي الاتحاد تقعد الأجسام خواصها الأصلية وطبائعها وأوصافها وأحوالها وألوانها وتتحول إلى شيء آخر مغاير لكل منها ، فذلك مثلا :

القطن والقمح والبرسيم

هذه نباتات كوّنت في الأرض من هذه العناصر وهي : البوتاسا ، والصودا ، والجير ، والمنيسيا ، وحض الفوسفوريك ، وحض الكبريتيك ، والسلكا ، والكور .

عناصر	قطن	قمح	برسيم
بوتاسا	٣٥٥٥	٣١٥٥٤	٣٤٤٦
صودا	٣٢٦٤	٣٢٦٦	١١٥٤
جير	١٤٦٣	٣٢١٤	٢١٥٦
منيسيا	٨٢٧٨	١٢٢١٥	٤٥٥
حض فوسفوريك	٨٢٣٤	٤٨٥٥٠	٥٢٣
حض كبريتيك	٧٢٧٧	٥٥٠٠٨	٤٢٢
سلكا	٨٢٣٢	١٨٨٨	٣٢٨
كور	٦٢٣٧	٥٥٠١٥	١٣٢٩

أنت تعرف الجير وقد دخل في القطن بنسبة ١٥ في المائة تقريبا وفي القمح بنسبة ٣ في المائة وفي البرسيم ٢١ في المائة ، وأنت تعرف الجير تراه بعينك لكنك لو حلت النبات لم تر جيرا وإنما هو نبات حوّل الجير اليه وذهبت خواصه وصار طبا جديدا .

هأنت ذاحلت النبات ونظرته فألقيت البرسيم والقطن والقمح من مواد متحدة .

اللواد والعناصر في الثلاثة متحدة فانت ما لبست ولا اكلت ولا أكلت البهائم إلا تلك

العناصر المتحددة التي فقدت خواصها ، ولعمرك ما حوّلت إلى تلك العناصر والأجسام الخادقة الجديدة إلا بذلك النسب المحفوظة ، فهذا الوزن وهذا الحساب هو الذي يمكن من اعطائها أشكالها النافعة فكانت غذاء الحيوان ورداء الانسان وزينة الرجال والنساء فتعفن نبتس وتزبن بما يأكله الحيوان ، ولكن السر المصون هو القسب فإذا حوّلت النسب حوّلت الخواص وتغيرت الأسماء .

أليس ذلك من العجب ولو أن البوتاسا صارت في القطن ٣٦ في المائة بدل ٣٥٥ في المائة متركب

قطبا بل كان همزجا لامتحددا ولم تكن فيه خواص القطن وعلى ذلك كانت قاعدة الاتحاد .
 ان اتحاد الأجسام بعضها ببعض يكون بمقادير محدودة ثابتة في كل مركب وهو المسمى بقانون المقادير
 للمحدودة فترى الماء مثلا مركبا من (١) أكسوجين و (٢) أودروجين ونسبة الثاني إلى الأول وزنا كنسبة
 واحد إلى ثمانية ويفقد كل منهما صفاته الخاصة وتحدث صفات لم تكن لهما وهي صفات الماء من طعم وهيئة
 وغير ذلك ونسبة الأول إلى الثاني مجما كنسبة (١) إلى (٢) والأكسوجين عبارة عن جسم هوائي
 إذا أدخلت فيه شيئا قابلا للاحتراق احترق ، أما الأودروجين فهو جسم هوائي أيضا طيار كالأول إنما إذا
 أدخلت فيه حيوانات حالا فهو جسم ميت ، أما الأول فهو جسم محرق وهذان الجسامان بالاتحاد هما مع بعضهما
 تكوّن الماء الذي به حياة كل شيء ، وتجب مما سأذكره لك : وهو أنه إذا تركب جزآن من الأكسوجين
 مع جزئين من الأودروجين فإنه يحصل منهما جسم آخر ليس بماء ، وإنما هو جسم كالمحرق يسمى (ديتوكسيد)
 وهو سائل محرق أ كالماء في فعله فيه ، فتجب من هذه المركبات وكيف كان حساب الماء دقيقا ، ولما اختلف
 الحساب جاء سائل آخر قائل فغنى كان جزآن من الأودروجين مع جزء واحد من الأكسوجين كان فيه حياة
 كل شيء ، ولما صار الأكسوجين جزئين كالأودروجين صار قاتلا لسكل شيء ، وانظر الفرق بين الأحياء والاماتة
 تجده جزءا واحدا فقط وكيف اختار الله هذا التركيب وجعله محيطا بالأرض وهو الماء « ان الله سريع الحساب » .
 ما أعجب ما ترى في هذا المقام وما أبدع ما عرفت أيها الذي لم يختار الله هذا التركيب أليس لأنه به الحياة
 ولو أنه زاد الأكسوجين جزءا واحدا لم يصلح المركب للحياة أليس ذلك دلالة على أنه محيط بكل شيء . وهو
 الله في السموات وفي الأرض يعلم سرهم وجههم » وإلا فلماذا هذا النظام والحساب والعجب العجيب اه .
 وهناك قانون آخر بسمونه قانون النسب المضاعفة (إذا اتحد جسامان وتكوّن منهما جملة مركبات فلذا
 بقيت كمية أحدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة جدا) .

فترى الأوزون يتحد بالأكسوجين ويكون منهما خمس مركبات .

(الأول) يحتوي ١٤ من الأوزون و ١٦ من الأكسوجين

(الثاني) على ١٤ من الأوزون و ١٦ في ٢ من الأكسوجين

(الثالث) على ١٤ من الأوزون و ١٦ في ٣ من الأكسوجين

(الرابع) على ١٤ من الأوزون و ١٦ في ٤ من الأكسوجين

(الخامس) على ١٤ من الأوزون و ١٦ في ٥ من الأكسوجين

فترى من ذلك أن تركيب الأجسام جار على نظام ثابت بحساب معين ونحط بديع وهو السحر الحلال
 وعلى ذلك سائر المركبات من نبات وحيوان وانسان وهذا معنى كونه عز وجل « سريع الحساب » وقوله
 « وكل شيء عنده بمقدار » وقوله « وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « إنا
 كل شيء خلقناه بقدر » وقوله « وما كنا عن الخلق غافلين » وقوله « ووضع الميزان ألا تظفروا في الميزان » .
 فإذا تصوّرت أن كل ١٨ جراما من الماء فيها ١٦ جراما من الأكسوجين وجرامان من الأودروجين
 وأنتك لو زدت ذرة واحدة من أحدهما أو نقصتها لم يكن اتحاد وبقية بخاصتها وهكذا بقية المركبات المتحدات
 أدركت كيف أمر الله عز وجل التحليل بالنظر في المواد العلوية والسفلية وكيف أمره بتحليل الطير ثم وكبه
 وهو ناظر إليه ليقت على سر التحليل والتركيب والنظام البديع وليكون إيمانه عن يقين لا برهان أو تقليد .
 وهذا أمر المسائل وأعجبها ولو أنك راقبت النبات في مدرستنا لرأيت يجتذب النورات من الأرض فتتمثل
 بجسمه وتقلب ورقا وزهرا ثمرا على نهج قانون الاتحاد وناموس النسب ، فإذا تفرقت أجزاؤه وتحللت عناصره

أبعد كرة أخرى في نبات أو حيوان بنسب محفوظة على قوانين ثابتة ، فأية الطير واضحة أما سنا صابحا وسنله كل حين ونحن عنها غفلون ، انها لضرب مثل لما شاهدته كل وقت ، فعلى قدة المسلمين أن لا يفتلوا من هذه الحقائق وأن لا يناموا عن هذه الدقائق ، وهالك جدولها جامع لكثير من النبات المشهور التابع للإنسان والحيوان وهما هذا .

عناصر	القطن			القمح		الذئبر	
	شعر	بذرة	خشب	حب	تبن	حب	تبن
بوتاسا	٥٥٥٠	٣٢٣٣	٣٢٣٩	٣١٥٥٤	١٥٥٦٤	٢١٥٣٠	١٨٥٨٠
صودا	٣٥٦٤	٦٥٩	٥٥٤	٢٥٦٦	٩٥٥٤	٤٥٠٠	٦٥٨٠
جير	١٤٥٦٣	٥٥٦	٢٨٥٠	٣٥١٤	١٠٥٠٠	٢٥٤٠	٤٥٧٠
مغنيسيا	٨٥٧٨	١٦٥٥	٦٥٣	١٢٥١٠	٣٥٥٠	٩٥١٠	٢٥٥٠
حض فوسفوريك	٨٥٣٤	٣٥١١	٨٥١	٤٨٥٥٠	٣٥١٠	٣٣٥٧١	١٥٦٠
حض كبريتيك	٧٥٧٧	٢٥١	٥٥٤	٥٠٥٠٨	٤٥٧٠	٢٥١٠	٣٥٥٠
سلكا	٨٥٢٢	٥٥٣١	٥٥٩	١٥٨٨	٤٥١٩	٢٥٧٥٢	٤٥٣٠٠
كلور	٦٥٣٧	١٥٥٠	٧٥٥	٥٠٥١٠	٥٥٢٠	٥٠٥٣٠	١٧٥٣٠
أوكسيد الحديد	معلوم	معلوم	معلوم	آثار	٦٥٢٠	٥٠٥١٥	١٥٣٠

عناصر	النرة		بطاطس	القول	برسيم
	حب	سبقان وقوالح			
بوتاسا	٣٧٥٩	٣٢٥٠	٦١٥٦	٢٧٥٨	٣٤٥٦
صودا	٣٥٠	٣٥٠	١٥٩٠١	٨٥٦	١١٥٤
جير	٣٥٤	٩٥٧	٢٥٤	٢١٥٥	٢١٥٦
مغنيسيا	٧٥٥	٥٥٥	٥٥٠٠	٥٥٦	٤٥٥
حض فوسفوريك	٤٤٥٨	٢٥١	١٧٥٦	٥٥١	٥٥٣
حض كبريتيك	١٥٥٠	١٥٤	٦٥٢	٥٥٩	٤٥٢
سلكا	١٥٤٠	٣٢٥٨	١٥٠٠	٨٥٧٠	٣٥٨
كلور	آثار	١٥٥١	٢٥٢	١١٥٥	١٣٥٩
أوكسيد الحديد	٥٠٥٤	٣٥٠	٥٠٥٨	٤٥٩	٩٥٨

تأمل هذا الجدول تجد أن مطعوم البهائم ، والآدميين ، والملابس ، والفاكهة كلها عناصر واحدة اختلفت مقاديرها ، فيا عجبا كيف كانت مادة النرة هي مادة القمح بينما بل مادة القطن وباختلاف المقادير صار هذا ملبسا ، وهذا مطعوما [إن في ذلك لآيات قوم يتفكرون] حارت الافكار في هذه الحكمة الباهرة ، فان نظرنا الى ترتيب النبات مع المعادن والحيوان ، وترتيب كل طبقة فيها وجدنا أحكاما ، وان نظرنا الى أجزاء كل شجرة من أعضائها الظاهرة من عروق وسوق وفروع وأوراق وأزهار ونمار رأينا حكمة باهرة وانها موزونة بيزان عدل ، وان نظرنا الى عناصرها التي تركت منها رأينا مقادير مختلفة وعناصر متحدة ،

و باختلاف المقادير اختلفت العلوم ، والأشكال ، والألوان ، والروائح ، والمقادير ، وما أشبه هذه النظم في ترتيبها بنظام السموات ، فكما رأيت هناك جداول لها نظم خاص ، فكذلك ترى هنا جداول حكمة ، ولقد صدق فيثاغورث في قوله : ان العالم مبني على الأعداد والموسيقى ، ومن ههنا فهم سورة الرحمن ولقد كرر آيات منها لفهم المقصود . قال الله تعالى « الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » ثم خلق الله الانسان فيه كل نظام وترتيب ، ولما كانت الأشكال تختم الى أشكالها وضعت الروح ذات العلم والأدب وحسب النظم والقريب في هذا الجسم المشاكل والمناسب لخلقها وأعربت وبيئت عما استمكن في هذا العالم الذي هو طبعا يحكي الجسم ، فذلك أعقبه بقوله [علمه البيان] فأبان ما يقرأ على صفحات هذا الكون من العلوم والطلائع والنبهات اذ خلق العالم أولا مقدما لخلق الانسان ، وليكون دفترا له وكتابا يقرؤه فله نفع في عقله وفائدة في جسمه ، خلق الانسان أولا فاستفاد الماديات وعلمه البيان لاستفادة العلوم منه ، ولما كان هذا الكلام بجلا ، والمجمل لا يفتنى عن المفصل في التعليم شرع الرحمن يفضله تفصيلا مظهرا آثار رحمة على أجسامنا أولا وعقولنا ثانيا بالخلق أولا والعلم ثانيا . فقال [الشمس والقمر بحسبان] ولقد أعدنا هذا الكلام سررا لو انضج لك نظام السموات على أبهى أوضاعه وترتيبه وينا أيضا أن العالم السفل نظامه نابع للعلوي لوصول الأثر من الثاني ، فذلك كان له نظام بحسب متقن كتبونه الأول كما رأيت هنا ، فذلك قال [والنجم] هو الماساق له [والشجر يسجدان] فذكر المزراع من نبات وشجر ، وقد رأيت حسابها فأظن أنها يسجدان ، ولقد رأيت آثار السجود فيها من المرادها على قانون واحد لا يتغير ولا يقبل ، ولما كانت النباتات على سطح الكرة الأرضية ، وهي مستديرة والسماء محيطة بها من جميع الجوانب ومرسلة أشعتها عليها وأمطارها ورياح جوتها كانت الأرض ومزارعها ككرة طرحت بسوالة فتلقها هذه الحوادث الفلكية والجوية وذكر السماء بعدها كما ذكر الشمس والقمر قبلها لتفيد الاساطة المذكورة . فقال [والسماء رطفا] وهذه الرضة حية وعقلية ، أما الحية فظاهرة ، وأما العقلية فقد علمتها من التأثيرات المختلفة بالحوادث المتناقضة فتارة تأتي برد ، وأخرى بحر ، وصمة بخصب ، وأخرى بجهد ، ولاريب أن هذا يورث خلافا في النظام ، وعدم ترتيب في الأحكام فلا بد إذن من قانون تسير عليه هذه العوالم كسنية [في بحر لحي يشاء موج من فوقه موج من فوقه سحاب طلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها] فذلك أعقبه بقوله [ووضوح الميزان] ولقد فهمت في الجداول السابقة في العالم العلوي والسفلي شيئا من الميزان نفس عليه كل أحوال هذا الكون فحكمة موزون بهذا بينه ، ومن هنا فهم قوله تعالى [والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون] فلقد شاهدت الميزان في الجداول السابقة [وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أقم له بمقارنين] .

ولذلك فهمت أيضا من هذه الجداول قوله تعالى [وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يشئ الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، وفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون] فلقد رأيت أنه فضل القمح على النيرة في الجدول السابق بالعناصر الختوية للنظام كالمسلك الذي هو مواد رملية ، وحض الفوسفوريك الذي يدخل في تركيب عظامنا ، ومنه تصنع أعواد الكبريت ، فهاتان المادتان في القمح أكثر منهما في النيرة ، بخلاف الكبريت فهو في النيرة أكثر منه في القمح ، وهكذا بقية العناصر ، فباختلاف المقادير فضل هذا الطعام على ذلك الطعام .

قلنا ان الصفور في القمع أكثر ، وهو داخل في تركيب العظام ، وهذا مشاهد في عظام الموتى فانك ترى ابخرة تتصاعد ، وكثيرا ما ترى بالليل نارا ساطعة ، وماهى الا تلك المادة الصفورية التي ذكرناها في الأغذية وكنت في العظام ، قد تصاعدت فتلاقت بالمادة الحارة في الهواء ، وهى الاكسوجين فاقتد لنا فظن العلامة انها كرامة لولى أو نحو ذلك ، وقد فهمت الحقيقة ، وقس على هذين البياتين غيرها .

ثم ان هذه المواد تدخل في تركيب الأجسام النامية ، وتبقى الى أمد معلوم ، ثم تنحل وينزوها الهواء وترجع ثانيا ، وتدخل تركيبها كإفاله تعالى - انما مثل الحياة الدنيا كماه أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا - استدلال بالطبيعة على بقاء الأرواح واليه رمز - كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا ظالمين ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

ولطك تقول الآية ، ولردة في خلقنا بعد الموت ، قلنا نعم ، وانما نحن ذكرناها على سبيل الاشارة والرمز أو نحو ذلك مما ذكره علماء البيان ، بل بقاء العناصر الأرضية بعد الانحلال دليل على بقاء ارواحنا بعد الموت وكيف تبقى هذه العناصر المعتمة المظلمة الميتة وتهلك تلك الأرواح الطاهرة المنيرة الحية العالية بل كان الأجدر بالتعبير أن تهلك المادة وتبقى الأرواح ، فاذا بقي الأخص فالأشرف أولى بالبقاء لأن الروح اذا كانت بسيطة كما هو اجماع الحكماء ، فكيف تفتى ؟ والفناء انما هو تفرق كاتفرق الجسم عن البدن المركب من عنصرين : روح وجسم ، ففناء الأرواح ليس يقبله العقل بالكلية فافهم .

لطيفة

من أعظم أسرار القرآن التي ظهرت في هذا الزمان سرّ [ال م] في أول سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله [أما بعد] فاني بينما أنا جالس بالمنزل يوم الثلاثاء ٥ شهر مارس سنة ١٩٣٧ م الموافق أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٣٥٠ هـ إذ حضر عندي عالم من ذوى الفؤاد والفضيلة ، قال بعد أن قرأ هذا للوضع في الطبعة الثانية : قد أحسنت وأجبت في إيضاح عجائب الخلق ، ولكن أريد أن أطلع على نفس التكوين عيانا من نفس علم الطبيعة لأن الله عز وجل اذا قال : « وانظر الى حمارك ولنبيطك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » علم أن في الامكان ظهور نفس الخلق والتكوين ووضوحه في العالم المشاهد كما قال « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » بحيث تراه العيون ، وتؤمن القلوب بعجائب التكوين ، وتنطق الألسنة ، فيقول للمشاهد هذه الجلة « أعلم أن الله على كل شيء قدير » ومعنى هذا أن الانسان يكون شاهدا بنفسه ومعاينا لتكوين الأجسة وتدرجها في النمو شيئا فشيئا كما رأى العزيز تكوين حماره سواء بسواء ، وهناك يكون الايقان بعلم الله وقدرته على كل شيء ، ويكون المطلع على هذا بمن قال الله فيهم : « إلا من شهد بالحقى » فهذه شهادة عن معاينة ، والشهادة عن معاينة شهادة بالحق . هذا ما أردت أن أسألك عنه الآن . (انتهى سؤال زائر) .

فلما سمعت ذلك قلت : أيها الصديق : ان هذا السؤال خطرتى منذ عشرة أيام وصممت ان طالت الحياة أن لوّقت لهذا رسالة خاصة تكون في ملحق هذا التفسير ، ولكن أوجز بالقول هنا ايجازا فأقول :

ان ما سألت عنه اليوم هو سرّ [ال م] في أول هذه السورة وهى البقرة ، وقال واعجبا : رأى سرّ في

[ا ل م] ؟ ان [ا ل م] في أول هذه السور من الحروف التي لا معنى لها ، وسرها عندنا لا عندنا . وهل ما ليس له معنى يكون فيه سرّ عظيم عندنا بنى آدم ؟ قلت : إي وربى انه لحق ، فقال : فأريد أن نكتشف لي هذا السرّ ، قلت : ان [ا ل م] في أول سورة البقرة مفتاح العلوم في مستقبل الزمان ومفتاح السياسة للأمم الاسلام ، فقال : هذا نبأ عظيم فما هذا القول ؟ قلت : اعلم أيها الأخ الصديق أن أذكيا . القراء اذا ابتدعوا في قراءة القرآن صادقتهم الفاتحة ، والفاتحة مدخل ومقدمة لبقية القرآن ، فاذا ابتدأ يقرأ ما بعدها صادفه [ا ل م] فيقول في نفسه هذه حروف لا معنى لها ، ثم هولاء يقرأ في سورة البقرة وهو مترضى لأن يعرف سرّ [ا ل م] فما يشعر إلا وقد فوجئ بنفس هذه الحروف في قصة الذين خرجوا من ديارهم فآمن من الموت ، وفي قصة طالوت الذي حذر جنده من كثرة شرب الماء من النهر ، وكان امتثال ذلك التحذير سببا للفوز ، ومعنى هذا أن الأمم لا تقهر أعداءها إلا اذا هذب أفرادها نفوسهم ، لأن الأمم أفراد بكثرة ، وذلك سرّ نصف الفلسفة وهي الفلسفة العملية تهذيب الشخص والأسرة والمدينة ، وذلك في قوله تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ان الله لتوفض على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » وفي قوله : [ألم تر الى الملا من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيب ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين] .

ثم اذا أتمت هذه الآية يستمر في قراءته فتصادفه آية ابراهيم ونمرود والمهاجرة التي بينهما كحاجة علماء المنطق ، ويتلو ذلك ما كان من أمر الله للعزير إذ يقول له : « وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف نشزها ثم نكسوها لحما » ثم مسألة الطير و ابراهيم ، إذ فرق أجزاءهن ثم جمع ، وقال لله له : اعلم أن الله عزيز حكيم ، فان في هذا المقام [ا ل م] قد ذكرت مرتين : « ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه » و « أولم تؤمن » .

ولاريب أن علوم أهل المشرق والمغرب لا تعدو أحد أمرين : إما علوم عملية وهي العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، وإما علوم عملية ، وهي تهذيب الفرد والأسرة وسياسة الأمة ، ولما كانت العلوم العملية ظهر سرها فيها تقدم ظهر سر العلوم العلمية هنا ، وذلك بمشاهدة عظام الحمار وكسوتها لحما وتفرق أجزاء الطير واجتماعها . ولا جرم أن علم الحيوان من العلوم الطبيعية ، وهذه العلوم لانظام لها لإبتحاش ونظم وإحكام لا يدركه إلا الدارسون والاستنتاج من ذلك كله يكون بالعلم الالهي ، إذن هنا اشارات الى العلوم العلمية المتقدمة ، وعليه يكون سرّ [ا ل م] في هذه السورة أنها مفتاح لعلوم الأمم شرقا وغربا مسلمة وغير مسلمة ، فيينا الفارسي يرى بص يعرف ماهو السرّ في النطق بحروف [ا ل م] اذا به قد ظفر بكنز علوم السياسات الانسانية ومعارفها ، وبعبارة أخرى ان [ا ل م] في أول البقرة تشير لكل علم في الأرض ، وهذه بلاغة لانظير لها في بلاغات أهل الأرض ، وهذا من السرّ الذي نزل به القرآن وظهر في هذا الزمان وحده ، إذن هذا القرآن بعد هذا البيان لم يكن لأمة دون أمة لأن هذه المعاني تصلح لأن يقرأها أهل جميع الأرض لأن نظام العلوم ونظام السياسة محتاج اليهما جميع الناس . فقال حسن حسن ، ولكنه يعوزه ايضاح أعظم من وجهين : الوجه الأول زلجة التفصيل لما تقدم ، الوجه الثاني ايضاح ما سألتك عنه أولا ولأجله سقت هذا الحديث وهو أني أرى في نفس الطبيعة بعيني ما رأه العزيز في حماره ، قلت : أما أول الأمرين فلن يتسع له هذا المقام ، وسأكتبه في ملحق هذا التفسير سيئة أعجب ، وأما الأمر الثاني فاني أعجله لك الآن ، وذلك أن هذه الآيات ذكر لله فيها من

الحيوانات القربية الحمار من ذوات الأربع والطيور ، وبقى من ذوات الفترات الانسان والزواحف والسماك .
ولما كانت الضفادع متوسطة بين السمك والزواحف ، وكان في مشاهدة نمو أجنتها عجب عجاب لا ينقص
عنه مشاهدة العزير حماره وهو يكسى لما أردت أن أذكرها هنا إجابة لطلبك ، وإغانة لمطالب شوقك ، فنسرى
بيض نوع من الضفادع وهو في قاع البركة ذات الماء العليظ ، وستشاهد درجات نمو الجنين في البيض شيئا
فشيئا ، وتجب من تلك المادة الهلامية التي تحمل ذلك البيض ، وكلما نما الجنين في داخلها أخذت هي تكبر
قليلا قليلا لترفضه من قاع الماء الى خفة الهواء ، وقد أعددت لك من الحكمة عجبتان : عجبة حيوانات ذرية
تنفس بالأكسوجين وهي لا ترى ، ونباتات لا ترى أيضا ، وهاتان العجبتان تؤخران في تلك المادة اتفاننا
فترقع ارتفاعا متناسبا مع نمو جنين الضفدعة كما ستراه موضحا ، ثم ترى بيض نوع آخر من الضفادع موضوعا
هيئة صفوف متوازية ملتصقة بالمادة الهلامية أيضا ، فهذه المشاهد ترى مصداق مسألة العزير في نفس الطبيعة
وستعجب كل العجب من خياشيم صغار الضفادع المشبهات بخياشيم السمك ، وكيف تنفس بها أولا ، ثم تتخلق لها
الرئة كحيوانات البر ، وتتخلق الأعضاء بالتدريج عضوا عضوا ، قال صاحب هذا أمر عجب فأزجوا أن أراه
الآن ، فقلت :

الكلام على الحيوانات الضفدعية

الحيوانات الضفدعية هي حيوانات قربية من ذوات السم البارد ، ويظهر في هذه الحيوانات طور الانتقال
من الحياة المائية الى الحياة الأرضية ، وذلك باختفاء العوامات في الحيوانات الضفدعية ، وهي التي كانت تتمتع
بها الأسماك ، وكذلك وجود الاصابع بأطرافها ، وقد علمنا أن أطراف الأسماك خلوة منها ، ولكننا نجد أن
الحيوانات الضفدعية تضي أطوارها الأولى في الماء ، وتنفس بالخياشيم ، وتعيش في طورها الكامل على
الأرض بالقرب من المياه ، وتنفس الهواء الجوى بواسطة الرئة ، وتنفس الضفادع كذلك من جلدها ، وبهذه
الطريقة يمكنها البقاء ساكنة زمنا بدون تنفس رئوي .

القلب في هذه الحيوانات مركب من ثلاث حجرات : اذنين و بطين واحد ، ولهذا يتغذى جسمها بمزيج من
الدم النقي وغير النقي ، الأجناس في الضفادع مختلفة ، وتضع الاناث عددا عظيما من بيض صغير في الماء ،
ويحصل اخصاب البويضات في الماء إذ تفرغ عليها الذكور مادتها المنوية ، وعند ما يقص البيض يحصل
بالأجنة تطور خاص الى أن يكمل نموها . ومن أمثلة الحيوانات الضفدعية :

- (١) الضفادع وهي التي تكون أصابعها بخالية من المخالب ، وتضع بيضها بشكل كتلة هلامية .
- (٢) ضفدع البرتنقى بعض أصابع أرجلها بمخالب ، وتضع بيضها بشكل أحبال تربطها بالنباتات المائية
الموجودة على جوانب الترع والسباتي .
- (٣) السمندر : هي حيوانات ضفدعية لها ذنب طويل ، وتشبه الإبراص والسحالي .

الضفدعة

تعيش الضفادع في الأراضي الرطبة القربية من الترع والمستنقعات ، ويغطي جسمها بجلد رطب أملس
تبعا لوجود غدد به تفرز مادة لزجة تحفظ الجلد رطبا ، وهذه المادة سامة بدرجة قليلة ، تنب الضفادع على
الأرض بقوة أرجلها الخلفية الطويلة ، وعند ما تنزل في المياه تقوم بواسطة الأرجل الخلفية أيضا تبعا لوجود
غشاء رقيق بين أصابعها ، إذ يحمل الرجل عريضة كالجذاف .

يكثر وجود الضفادع في الربيع والصيف ، أما في الشتاء فيندرج وجودها تبعا لاختفائها حيث تطفئ نفسها

في الطين بشواطئ الترع وتحت الاجار وغيرها مدة هذا الفصل ، ويقال انها في يات شتوى ، وفي هذا الوقت تكمن الضفدعة فلا تتحرك ولا تتغذى ولا تنفس تنفسا رثويا ، وتنشط في أوائل الربيع ، وتجتمع معا في حلاتها الليلية ، وتحدث قيقا عاليا ، وفي هذا الفصل تضع الاناث بيضا بشكل كتل هلامية ، وتفرغ التذكور عليها للوادة المنوية أثناء خروجها من الانثى ، وأذا عثرت بها فتخصب البويضات .

يقص بيض الضفادع المخصب بعد أسبوعين تقريبا وتخرج منه كائنات صغيرة متطاولة كالأمهاك تسمى [بأبي ذئبية] تعرف عند العامة بالظلم ، وهذه الكائنات تنوم في الماء بذنبها الطويل لانها تكون عديدة الاطراف ، وتنفس بالحياشيم ، وتتغذى بالنباتات وتنمو ، وتحصل بأبي ذئبية تطورات تدريجية ، وذلك بأن تتحول الاطراف الخلفية أولا ثم الاطراف الأمامية ، ثم يأخذ الذنب في التلاشي تدريجيا ، ويتبدى كذلك الرئتان في النمو ، ثم تلاشي الحياشيم ويصير التنفس إذ ذاك رثويا فتترك الضفدعة الماء وتعيش على الارض . ويستغرق هذا التطور ثلاثة شهور تقريبا ، وعند ذلك يكون قد تم تطورها وتتغذى في هذا الوقت بمواد حيوانية ، وتكبر في الحجم . أما غذاؤها فهو عبارة عن القواقع [التي يكثر وجودها على شواطئ الترع] والديدان والحشرات المختلفة والذباب ، وتقتنص الضفدعة الذباب بلسانها الطويل اللزج إذ تلتصق به للقبالة بمجرد ملامسته لها اه

ايضاح ما تقدم بالتصوير الشمسي

وهذه صورها المختلفة الموضحة لما تقدم (انظر شكل ١)



(شكل ١ - بيض الضفادع المطردة)

الضفادع تضع يمينا ما بين ألف وألفين ، وقطر البيضة الواحدة عشر البوصة ، ويحيط بها مادة هلامية ، وهذه المادة تنتفخ شيئا فشيئا ، وتحمل ذلك البيض من قاع البرك إلى سطح الماء (انظر شكل ٢)

(شكل)



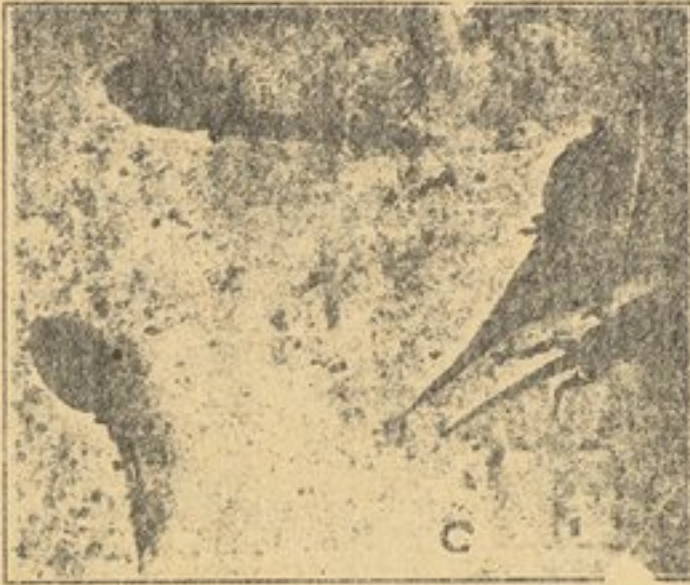
(شكل ٢ - أبو ذئيبه وهو ذرية الضفادع)



(شكل ٣)

هاهوذا يحمل الكرة الملامية
التي ترى فيها كما كانت هي
نحمله كأنها راقعة ترفعه إلى
أعلى حينما يشتد قل الماء ،
ولقد كانت لها فائدة أعظم ،
وهي أن طعمها كريمة فلا
تكون الصغار عرضة لأكل
الحيوان ، ومن أعجب العجب
أن هذه الكرات الملامية
ينحطها نباتات ميكروسكوية
لاتراها العيون المجردة أي [ذرية]
يخرج منها اكسوجين ، وفيها
حيوانات ميكروسكوية لاتراها
العيون ، وهذا ان يكفلان
تحليل هذه الكرات الملامية
(انظر شكل ٤ و ٣)

[إن أبادنية النسي خرج من البيضة حينما لا يزال نمو ، ولذلك لا يزال فيه مقفلا ، والعينان اللتان لا تزالان تقومان في الرأس لم تصل إلى الجلد ، وهناك فيه غدة من الأسمنت بها يلتصق أبو ذئبية في حشائش البحر متى أراد]



(شكل ٤ - أبو ذئبية الكبير)

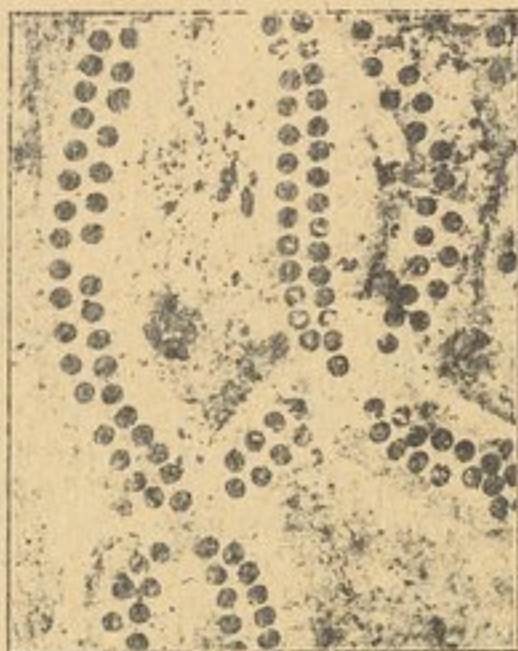
حينما يكون أبو ذئبية ابن شهرين تظهر أعضاؤه ، وهذه الصورة الشمسية تريك السرجات المختلفة في ظهور الاعضاء زوجا واحدا ، فترى هذا تظهر له زوج واحد من الاعضاء ، وذلك ظهر له زوجان ، والتدليل ذوات العضلات وظيفته أنه أشبه بـ كنان السفينة [السفينة]

وفي هذه السن لا يزال [أبو ذئبية] يتنفس بواسطة خياشيمه على طريقة السمك ، وهذه الخياشيم مخفية تحت الأغشية المغطية له ، ولكن تلك الصغار مع ذلك تعلمت كيف تستعمل رتتها وتجذب النفس من الهواء فوق سطح الماء ، فهي إذن أشبه بسمك الطين الذي يتنفس بطريقتين معا ، فهو في الماء يتنفس بجيشومه وفي العلين يتنفس برتته . انتهى وبهذا تم الكلام على النوع الأول من الضفادع .

النوع الثاني

الضفادع المسماة بالفرنسية [تود] وبالعربية [ضفدع البر]

(انظر شكل ٦٥ و ٨٥٧)



(شكل ٥)

[بيض مسفادع البرك ، وهو مكون من صفوف مزدوجات ، وقد لصق بكل صف خيوط
 هلامية تبلغ عشرة أقدام طولاً]



(شكل ٦ - أبو ذئبة ارتفع الى وجه البركة)

وهذه قد خرجت من بيضها منذ ١٤ يوماً



(شكل - ٧)
رسم الضفدعة التي تمت وكبر حجمها في سن ثلاثة أشهر



(شكل ٨)
[ضفدعة تمّ نموها ، وقد ظهر جلدها التينين ، وهكذا غدتها ذات السم الناعم ،
موضوعة تماما خلف عينها]
وهذا تمّ الكلام على النوع الثاني من الضفادع والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي ذلك ، ونظر هذه الصور قال : هذا أمر جليل وبديع وعجيب ، ولكنني أسألك ثلاثة أسئلة : أولاً لم لم تكتب هذه المعجزة في الطبعة الأولى ؟ ولم تأت بأسرار الحروف إلا في أول [آل عمران] ، ثانياً : كيف غاب هذا عن المسلمين ١٤ قرناً ولم يظهر إلا الآن ؟ ثالثاً : بأي العلوم المعروفة يكون هذا الاعتراف ؟ قلت : أما السؤال الأول فاني أقول انه لم يفتح على هذه المعجزة في الطبعة الأولى ، وأما جواب السؤال الثاني فاني أقول : ان هذا هو الزمان اللاتق لهذه المعجزة لأمرين : الأمر الأول أن العلوم كثرت في هذا الزمان الأمر الثاني : أن المسلمين اليوم أساطت بهم الأمم وقد ملئت الأرض بالعلوم وكشف كثير من عجائب الدنيا ، فهذه المعجزة ظهرت اليوم لانهاض الأمم الاسلامية ، لأن هذا أوامه . وأنا أقول : بعد ظهور هذا السر وقراءته في هذا التفسير لن ينام أذكياهم المسلمين ، ولن يهنا لهم طعام ولا شراب ولا حياة إلا بالعلم وكشف حقائق هذا الوجود ، وسيظهر في أمم الاسلام رجال لا نظير لهم في أسلافهم ، ولا في الأمم المحيطة بهم ، ومن جسي بره .

لم تر أن الله جعل في ملوك الاسلام في القرون الماضية من اتفَعوا بحروف [ال م] حقت دماء المسلمين بها ، وذلك في خبر السلطان محمود الغزنوي الشهير ، إذ بعث الى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة ، فلمنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتاباً فيه تهديد ووعيد ، قال في جلته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور القبيلة الى غزنة لقطعت » ، فبعث اليه الخليفة كتاباً محتوماً ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفاً معدودة وفي وسطه ل وفي آخره م والصلاة والحمد لله طر السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال عندي شرحه فقال : اذكر ذلك ما تريد . فقال : « بعث اليهم السلطان يهدمهم بالقبيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه (ا) و (ل) و (م) إشارة الى قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بأصعب القبيل » الى آخر السورة ، فارتاع السلطان لذلك ، ووقع في قلبه الخوف والتدم ، وعاد الى أحسن الأحوال من الرضا والأدب .

إذا علمت هذا أيها الأخ عظمت أن القرون الماضية كانت محمداً لما كتبناه اليوم من هذا السر فلم تذهب تلك القرون سدى ، بل هم مبهدون لنا ، وعلينا نحن أن نعلم لمن بعدنا ، وبسبب أمثال هذه الاسرار استحق القرآن أن يقال فيه : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » . وأنا أقول : من فاقدهم من اللغاة أن يأتي بكلام فيه سر كسر (ال م) في أول البقرة النبي مضت القرون والناس لا يصلون ما كثر فيها من العلوم حتى وضعت في هذا التفسير الآن بمعاونة العلوم القديمة والحديثة وأما الجواب على السؤال الثالث فذلك أن هذا من باب المعاني والاشارات الرمزية ، وهي من الكتابة والكتابة لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، وهي أنواع كثيرة ، وقريفة هذه الكتابة أننا في زمان انتشار العلوم ، والكتابة من علم البيان كأنه يقال : تأملوا في الآيات التي في حيز [ال م] أعني أن القاري جينا يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ال م » في البقرة يفكر حالاً في كل جملة تقع بعد هذه الحروف فيجد عجبا عجيباً مدتها ايجد . ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير . وهذه في موضوع آية النسخ ، والنسخ أسرارها تقدمت وهي مدهنة ، ويجد : « ألم تر الى الملا » كما تقدم ، ويجد : « ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه » ويجد : « أولم يؤمن » فيجد إذن نفسه في جوار من أجواء نظام الأسرة ونظام الأمة ونظام الطبيعة .

هذا جواب ما سألتني عنه ، فقال : لقد رأيت منه عجبا وشرحت صدرى ، وفتح الله لي كنزاً من العلوم لم أكن لأعلم به ، فاني الآن يجيل لي أن قرأه القرآن في المستقبل سيكونون أعلم الأمم بنظام الأمم ، وبسر الكون ، فان [ال م] في أول البقرة التي جاءت بعد مدخل القرآن وهي الفاتحة تشير الى هذه العلوم التي

يحيط بالمسلمين وهم لا يشعرون ، ومن هذه يبحث القارى في كل معنى يحى في حيز [الم] ولو كان في غير سورة البقرة مثل : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل » الخ وهكذا ، فهذا أعجب العجب ، فقلت له : الحمد لله رب العالمين .

تفصيل الكلام على بقاء الروح من هذه الآية

اعلم أن بقاء الروح في الدين سمى لإبرهان عليه ، وإنما للرسول معجزات تقع ناصبهم أنهم مبلغون عن الله ، ثم بعد ذلك ما يقولونه عن الله يكون مقبولاً ، فكل ما جاء عن الرسل يقبله أتباعهم بلا تكبر ، ولكن من الأتباع من لا يكتفى بالتقليد والسماع ويريد أن يقف على الحقائق بنفسه ، ويقول لى عقل فلم خلق ؟ هل خلق للاتباع بلا بصيرة ولا فكر ، فذلك لم يترك الدين هنا الناس في حيرة فجعل على العامة التقليد ، وأما الأذكياء فببيلهم النظر ، وإذا فرطوا في نظرهم أنهم كما بأنهم العامة لو حاولوا الاستقلال بالرأى في الدين الذى لا يطبقونه ، فما نصبه الله للخاصة والأذكياء في القرآن أمثال هذه القصة فتجد أن إبراهيم الخليل مأمور بالتحليل فذبح الطيور وفرقها ، ثم دعاها بقامت ، واعلم أن هذا فتح باب للبرهنة على بقاء الأرواح ، والقول وإن كان في ظاهره للعامة فهو في باطنه للخاصة .

البرهان على بقاء الأرواح

إما بالنظر العقلى ، وإما بعلم الأرواح

أما النظر العقلى في ذلك ، ففيه طرق ثلاث

الطريقة الأولى : ما ذكره ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق إذا استدلل على بقاء الأرواح بانها بسيطة **قال :** إن الروح ليست جسمًا ولا عرضًا في جسم ، ذلك أننا نرى أن الجسم لا يقبل الصور واحدة ولا يكون قابلاً لصور كثيرة في آن واحد فلن يقبل التربع وهو مثلث ولا التخمس وهو مربع بل لا يقبل صورة ويلبسها حتى يخلع الأولى ولن يقبل التثليث إلا إذا بطل منه التربع هذه طبيعة الأجسام ، أما النفوس فأنزراها على خلاف ذلك نرى أننا تصور الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق والمثلث والمسدور والمربع والطويل والتقصير والأعلى والأسفل والجبل والقيح وكل ذلك يجتمع عند العقل مخزون فيه وفوق ذلك نعرف وتصور علوماً كثيرة والجسم لا طاقة له إلا بشيء واحد ومتى خلعه لبس غيره ، وأيضاً نرى العقل كلما انغمس في الماديات ابتعد عن المعقولات وكلما زهد فيها وعفت عنها اقترب من المعقولات ، وأيضاً نرى الإنسان كلما زاد في طعمه وشربه كرهه الناس واحتقروه ، أما الذى يزيد علماً فهو محبوب ، وأيضاً نرى أننا إذا نظرنا بأبصارنا وهى من الآلات الجسمية الى عين الشمس حصل لها الكلال وضعفت قوة إبصارها ، فأما إذا نظرنا بعقولنا في المسائل العويصة فأنها تكون سبيلاً لقوتنا على فهم ما هو أسهل منها وذلك كله دلائل أن النفس من طبيعة مخالف المادة فهذه تقبل المختلفات والأخرى لا تقبل ، وهذه تحب الزيادة منها وهذه تكره ، وهذه إذا شغلت بما هو أقوى زادت قوة الأخرى تضعف ، فهذه وأمثالها دلائل أنهما مختلفتان فتكون النفس ليست من عالم الأجسام بل من عالم آخر بسيط غير مركب ، لأن الأجسام مركبة ، والذى يعقل ويحس فينا مخالف لها ، وإما لو كانت الروح مركبة لأمكن أن يكون جزء منها عالماً والآخر جاهلاً باعتبار أن المسألة قد قامت ببعضها وتركزت البعض الآخر لأنها مركبة وفي هذا اجتماع القبيضين علم وجهل وهو محال ، هذا ما أنذركه من أدلة في أول الكتاب ، ولست أذكر هذا على أنى قائل أن هذه البراهين كلها قطعية ، وإنما ذكرتها لتعلم أنها الذكي

طريقته في الاستدلال مناسبة مسألة التحليل والطير وقطيعه وأن ابن مسكويه قرن ما بين الروح والجسم وحل
تحليلها علميا ، وسترى فيما بعد التحليل الجسدي لغيره . واعلم أن طريقة ابن مسكويه أشبه بطريقة (سقراط)
الفيلسوف الشهير إذ قال : إن النفس جوهر غير مرئي ، فيلزم أنه على غير طبيعة الأجسام ، لأن من طبيعة
الجسم أن يكون مدركا بأحدى الحواس ، وإذا كانت على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مركبة ، لأن
التركيب من طبيعة الأجسام ، ولذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للانحلال ، لأن الانحلال يرثي للمركب إلى
المواد التي تركب منها ، فلذا كانت النفس بسيطة لم يتصور انحلالها ، وقال أيضا إن النفس هي الأمر والبدن
هو المأمور ، فمن طبيعة الأمور الالهية أن تكون أمرة ومتصرفة ، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون
مأمورة ، فالنفس إذن من الأمور الالهية وهي غير قابلة للزوال ، فهي إذا بقيت على صفاتها وظهرتها من غير
أن تشارك البدن في أدناسه ، فانها تلتحق بعد الموت بوجود مثلها ، فتبقى معه سعيدة منبهة محررة من
لوهامها وأخوافها وكل ما كان يسخرها ، ويهوتس عليها إذ كانت في قيد الحياة ، وإذا تركت ملونة مدسة
غير معتقدة من الوجود إلا ما يؤثر كل ويشرب ويلبس ويدرك بالحس ، فلا يسمها إلا أن ترجع إلى حياة
شابهة لطبيعتها انتهى باختصار ما ذكره ابن مسكويه وما يشابهه من مقال سقراط .

الطريقة الثانية : ما ذكره العلامة ابن سينا في كتاب الاشارات مستدلا على ان النفس غير البدن بما
ملخصه : ان الانسان يعلم بوجوده وإن كان غافلا عن جميع أعضائه ، والمعلوم وهو ذاته مغاير لما ليس بمعلوم
فتكون ذاته غير جسمه ، وهي التي يعبر عنها بلفظ أنا . ألا ترى أن الانسان لو قطعت يده ورجلاه وسلخ
جلده . فانه لا يزال يقول أنا ، فاسلدا يشير ؟ أيشير إلى أعضائه الناطقة : كالقلب والكبد والطحال والرئتين
كلا فإن هذه لا تعرف إلا بالشرح ، وقد فرضناه غافلا عن كل هذا وعن التشرح وعن كل شيء إلا نفسه .
ولقد أمال في ذلك وتبعه شراحه فلا نطيل بما ورد من اعتراض وجواب ، وإنما أتينا بما يفيد الفرض .
وعلى ذلك نفت عنده بهذا أن المعبر عنه بأنا غير الأعضاء الظاهرة والباطنة ، بل هو شيء غير الجسم ،
وهو المطلوب .

الطريقة الثالثة : طريقة ابن الطفيل في كتابه الفئ سماه [حج بن يقطين] فقد جعل موضوع الكتاب
أن فتاة أبلت أن تودع ولدها الحديث الولادة في جزيرة خضراء ، فصطف على ذلك الغلام غزالة وأرضته
سنتين ، وصار هو يراها أمه ويقدها في بغامها وغدوها ورواحها ، ولما ترعرع أخذ يقلد الحيوانات ، ويستتر
بالورق ، ويتحلى بزودع الشجر ليظهر بالأبهة أمام الحيوانات الكاسرة ، ويستعين بالقرون في المناطحة والمقاتلة
ولما كبرت أمه الظبية أخذ يحضر لها الفواكه من الأشجار ويعطف عليها ، وهو في ذلك كله يقلد
طوائف الحيوانات فيها هو الأحسن والأضع ، وهو في أثناء ذلك ينظر في أنواع الأشجار والزرع والخمر والحل ،
وأنواع الحيوان ، ويقارن بين نفسه وبينها ولم يفكر في أمر الروح الا عند ما رجع مرة فرأى أمه الظبية جثة
برودة ، فأخذ يحركها فلم تتحرك ، وأخذ ينظر في عينيها وفي أذنيها عسى أن يجد فيها تلك التي كانت تطف
عليه ، ثم أخذ يشرح جثتها قائلا في نفسه إذا لم أجد حبيتي العاطفة على في طواهر جسمها فحسب أن أجدها
في باطن الاعشاء ، فأخذ يشرح القلب والكبد والطحال والحاليين والمعدة والأمعاء والعروق والشرايين
والرباطات والاعصاب والملح والمخيخ والفقرات الظهريه وأعصاب الحس وأعصاب الحركة المتفرعت منها الواصلة
إلى سائر الجسد الموصلات جميع ما تشعربه الحواس إلى المخ ، ثم تكون هناك الاوامر الصادرة إلى الاعضاء
جارية في أعصاب الحركة لتسخر الاعضاء في الطلب تارة والهرب أخرى على مقتضى الاوامر الصادرة من المخ ،
فلم يجد في جميع هذا الجسم المختلف الاعضاء والاموتل لتلك الحبيبية أثرًا ، ثم لمع بعض اللحم في باطن القلب

فقال ان الطبيعة التي كانت هنا تعلقت بهذا السم لما كان جارا قويا ساريا في الجسم ، ولست أرى أن الله هو الروح كلا ، فاني أرى أن الروح كانت حاكمة عليه ، وهو القائم بإيصال الغذاء إلى سائر الجسد ، ثم أراد أن يجرب هذه النظرية ، فعمد إلى حيوان واخض عليه وهو يجرى واصطاده إذضربه بالقرون التي جعلها عدته ، فلما خرت صريعا شق صدره واستخرج قلبه ، فرأى اللحم حارا وله بخار لطيف ، فقال في نفسه ان حبيتي كانت سارية في هذا البخار اللطيف السموي ، وهو جرى إلى الحواس والاعضاء مع اللحم ، لأن هذا البخار لطيف ، وهو قريب من العالم الروحي اذ هو ذو مناج لطيف ، ثم رفع طرفه إلى النجوم والشمس وقال : ان هذه الأجرام بينها وبين حبيتي علاقة ، وان حرارة القاب تصلح لتعلق الروح بها ، ولعل هذه السموات لها مدبر ، ولعل ذلك المدبر جعل للحرارة أثرا في الحياة ، وهكذا أخذ يفكر أفكارا فيها بعض الحقائق كما أن فيها كثيرا من الخيال الذي يدعو للناس في أول نظرهم ، وأخذ يبحث حتى قال : لعل حبيتي لما رأت هذا الجسم لا يصلح مستقرا لها توجهت إلى هذا العالم العلوي المتلألئ الجليل ، ولا بد أن تكون هذه الروح بسيطة : أعني لاجزء لها ، والتي لاجزء له لا يثنى ، لأن الغناء يكون بتحليل الأجزاء في المركب ، والروح لاجزء له فلا فناء له ، هناك أخذت روحه تفكر في العالم العلوي الذي ظن أمه وصلت إليه ، وقال عسى أن يكون الذي أجرى هذه الكواكب قد استودعت تلك الروح عنده ، وأنه هو نفسه خير منها ، بل هو الذي يبنى أن أسى لبقائه ، ثم نظر فقال إن هؤلاء الحيوانات اخواتي ، وهذا النبات خلقه الله لنا ، فبلى أن أرى هذه مخلوقات ، ويظهر أني خليفة ذلك الخالق عليها ، وإذن أنصر المظلوم وأضع كل محتاج ، وتكون لي شفقة ورحمة ، لأن ذلك الذي ذهبت إليه أمي رءوف رحيم ، إني أراه قد أكثر الماء في الجزيرة والكلا والفاكهة ، وجعل الحيوان آكلا النبات ، والنبات متغزيا بالعناصر ، وهو كثير الرحمة فلا قلده انه خلق أمي لأفعل منها الحب والعطف ، وهو الرحيم فلا عطف على عباده ، ثم نظر الكواكب وعرف السموات على مقتضى ما عرفه القدماء ، ثم أخذ يخترع طريقا للعبادة ليقرب من ذلك الذي صنع السموات ، فدلو على نفسه كما تدور الكواكب ظنا منه أن دورانها عبادة إلى آخر ما جاء في ذلك الكتاب . أقول :

وانما ذكرت لك ذلك أيها الذي لنعم أن العلماء السابقين لم يكونوا ناثمين ، بل ألفوا كتبنا لابقاظ الأمة ونظروا في العالم وضربوا الأمثال ، وكان هذا الكتاب أشبه بما جاء في هذه الآية ، فان تحليل الطير على يد التحليل في القرآن من النظر إلى هذا العالم ، وأنا لا أقول : ان ابن الطفيل ألف الكتاب اقتباسا من الآية كلا هو الله بقله وصفاء ذهنه ، وجودة قريحته ، ولكن أقول : ان مسألة الطير في القرآن فتح لباب النظر من هذه الوجهة .

وإذا كان كتاب كليله ودمنة جاءت فيه الأمثال على لسان الحيوانات ، وكثير من الحكايات التي يتداولها المتعلمون ، وقد جعلت للعقلاء تذكرة ، وللحكاه تبصرة ، وللستواس في الممالك عبرة ، وفيها من الدقة والحكمة والأخلاق والآداب مالا ينال غايته الأولوا الألباب ، فبالأولى الكتب السيارية التي تنشر بين العوام والخواص ويحفظها الصبيان ، فيقرءون مسألة الطير وهم فرحون ، فأما العالم فانه يرى فيها فتحا لباب النظر ومنغذا للحكمة ، ولقد جاء كتاب ابن الطفيل موافقا لما ذكرته لك ، ولقد جعل كتاب [روينسون كروزو] وهي الرواية المشهورة الانجليزية على منوال هذا الكتاب ، وقد انتشرت في أوروبا ، وما سطرها مؤلفها إلا بعد ما قرأ كتاب [حى بن يقظان] كما قرأت ذلك في بعض الكتب ، ولقد كان الفيلسوف [روسو] الشهير يذم الكتب وتعاليمها ويأمر الشبان أن يقرءوا هذه الرواية ومدحها مدحا كثيرا ، وقال انها تعلم الحربة الفكرية . ولا شك أن كتاب [حى بن يقظان] أجل منها ولئن كانت هي منسوجة على منواله ، لأن قصة

[روبرسون كروزوا] تعلم الاستقلال في العمل والجد والاعتماد على النفس والمخاطرة بحسب ، وليس فيها عظيم عناية باتقان العلم ، وهذا ما أردت شرحه في الطريقة الثالثة ، الى هنا انتهت الطرق الثلاث للنظر العقلي .
 وأما ضمير الأرواح فاني أحبك على ما تقدم في هذه السورة عند قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يخلمون »
 الى آخر الآيات ، فقد ذكرت هناك تاريخ هذا العلم في أوروبا وأمريكا وانتشاره ، وقد طبقت على القرآن في كتاب الأرواح ، والآن أذكر ما قلته في هذا المقام عند وفاة المرحومة والدتي سنة ١٩١٨ وكتب في جريدة الأخبار تذكرة لأولى العقول الشريفة .
 جاء في عدد يوم الثلاثاء ٢٨ شوال سنة ١٣٣٦ هـ ، ٦ أغسطس سنة ١٩١٨ م ، ٣٠ أيب سنة ١٦٣٤ تحت عنوان :

العلم والبدع وواجب العلماء

كتب الينا أحد الفضلاء يذكر مقال فلان في وفاة المرحومة والدته من تجافى البدع ولزوم أوامر الدين وسنة السلف الصالح ، فرأينا أن ننشر كتاب هذا الفاضل . مؤملين أن يعتبر بما في الكتاب المذكور اخواننا المسلمون . قال حضرة الكاتب : منذ أيام توفيت والدة الشيخ طنطاوي جوهرى ببلدة كفر عوض الله بحجازي بمركز لزانبي فاجتمع أهل البلاد المجاورة لتشييع الجنازة ، وحضر الاستاذ الشيخ طنطاوي جوهرى وحضرة الاستاذ الشيخ عبد الحكيم القاضي بالمركز فوقف الشيخ طنطاوي مخاطبا من حضر من نساء قريته ، وقال لمن : معاشر السيدات أظلمن مني أن أخاطب والدتي في أنها ابداً باعلامها بحضوري فلتعلمن وعان الله أن أرواح الأموات لاتزال حية ، وأنها تسمع وتبصر وأن والدتي تفرح بروحها على حينما كنت اليوم إذقت من القاهرة ولا تزال ترائي الآن .

ان علماء ديني أخبروا أن الميت علما بذلك ، ونحن بذلك موقنون ، فلتطمئن كل منسكن على والدتي ولتعلمن أن للاموات علما ببعض أحوال الأحياء ، ومن ذلك أنهم يحزنون ويحزعون بكاء أقرهم عليهم فان كل امرئ إذا علم أن حبيبه يحزن لأجله ويرق له يود لو يخفف من لوعته ويكفكف من دمعته ويقبل من حسرته ويكشف من غمرته ، وربما يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الميت يعذب بكاء أهله عليه » ، ولقد علمنا من بعض أهل الاطلاع المرمين بتلك العلوم أن هذه حقيقة ناصحة كشفها العلم الحديث ، واطمأنت لها النفوس تصديقا لكلام النبوة وتحقيقا للمجازة النبوية .

ولقد كان عليه السلام يعاهد النساء أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزني ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصنه في معروف ، ولا يبيكين على ميت ، فقالت إحداهن يا رسول الله لا أعطيك عهدا حتى أذهب إلى فلانة فأسعدتها بالبكاء كما بكت هي على قريب لي فأبج لها ذلك فقالت : أعاهدك يا رسول الله ولم أبك بعدها على ميت ، ثم أتى الشيخ إلى إحدى السيدات ، وقال لها : ألم ترى أن أهل مكة لا يبيكين على ميت ، فصالت انها لا يبيكين بل يحزنن أيديهن ، ويلبسن الأبيض فقال الشيخ : ان هؤلاء مسلمون ، ونحن متبعون في ذلك عادات الجاهلية الأولى ، لماذا تبكي الواحدة منسكن على أخ أو والد أو حبيب ؟ وهي في الحقيقة تعذبه بالبكاء ، بإنساء قريتي اتبعني أهدكن سبيل الرشاد ، اتبعني واتركن البكاء إلا ما كان من دمة جرى بها القضاء فلا بأس ، فقالت إحداهن : يا ابن أخي نحن نعاهدك كما عاهد النساء النبي عليه السلام ، فسكنن جميعا واستبشرن وفرحن وانشرحت صدورهن ، فقال الشيخ لمن : شرح الله صدوركن ، فلقد ملنن إلى الدين ، وسيكون لوالدتي ثواب بعض هذا ، فقال النساء بلسان واحد

طهرك على ذلك ما يظن الكفاء ، وكلن الشيع إذذاك يتصب عرقا ، قات احدامن : كني كني فان
سرك في الحر ومفاجأتك بالفاجعة ، ووقوفك بيننا كل ذلك أنصك ، قر عينا وانشرح صدوا ، واسترح اتسي
للقصود منها . هذا ، ولما فرغ من الكلام على نظام التوحيد ، وما تبعه عقبه بالكلام في القسم الثاني ، وهو
الاتفاق ، وهذا هو :

(المقصد الثامن عشر)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَلِيمٌ *
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا
لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَقِينَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ
أُكُلَهَا صِغْفِيرًا فَلَنْ تُصْبِحَ وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ
تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَغْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلِكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طِبَقَاتِ مَا كَسَبْتُمْ
وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ
تُنْفِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذُكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ ثَقَفَةٍ
أَوْ نَذْرَتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ
وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا

تَمَلُّونَ خَيْرٌ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِيَّاكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تَظْلُمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقِبِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *

ايضاح قد دخل فيه التفسير اللفظي

أى (مثل) نفقة (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة) يخرج منها ساق ينشعب منها سبع شعب لكل شعب منها سنبله فيها مائة حبة .
واعلم أن التمثيل بالحبة ليس يلزم منه وقوع المثل به ، وقد وجد نحو ذلك في القرية في العصر الحاضر وربما يكون في السمح وفي السخن في الأرض المغلة (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) من المنفقين على حسب الاخلاص وكفا (والله واسع) الفضل لاضيق فيما يتفضل به (عليهم) بنية المنفقين (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يقعون ما أنفقوا) بعد النفقة (منها) بان يعتد على من أحسن إليه بأحسانه (ولا أذى) وهو أن يتناول عليه بسبب ما أعطاه (لم أجرهم عند ربهم) أى ثواب انفاقهم (ولا خوف عليهم) من محض الأجر (ولاهم يحزنون) من فوته ، ثم أفاد أن الرد الجليل والتجاوز عن سائل الحاجة (خير من صدقة يتبعها أذى والله غني) عن انفاق بمن وأذى (حليم) عن معاملة من يمن و يؤذى بالعقوبة ، ثم قال (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا) أجر (صدقاتكم بالبن والاذى ك) إبطال المناق (الذى) يرأى بانفاقه فتل المرائى في انفاقه كمثل حجر أملس (عليه تراب فأصابه) مطر عظيم القطر (فتركه صلدا) أملس قيا من التراب (لا يصدرون على شيء مما كسبوا) لا يفتنون بما فعلوا رياء ولا يجدون لهم ثوابا فيه (والله لا يهدي القوم الكافرين) إلى الخير ، ثم قال (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وتبيننا من أنفسهم) أى تحقيقا للجزاء صادرا من أصل أنفسهم ، والجنة البستان ، والريرة الموضع المرزق وشجره يكون أحسن منظرا ، وأذكى ثمرا ، والوايل المطر العظيم القطر ، و (آتت أكلها ضعفين) أى آتت مثل ما كانت ثم بسبب الوايل ، فالضعف هنا المثل ، والطل المطر الصغير القطر . والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله ، وإن كانت تنفاوت قلة وكثرة كأن الجنة تؤتى ثمرها ضعفين سواء أ كان المطر وابلأ أو طلا لجودة تربتها وحسن منبتها (والله بما تعملون بصير) هذا تحذير من الرياء ، وترغيب في صفة الاخلاص ، وقوله (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت) الاعصار ريح عاصفة تنمكس من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود . شبه حال المرائين في الانفاق بحال رجل له جنة فيها النخيل والأعناب وجميع الثمرات ، والأنهار تجري من تحتها ، وقد أصابه الكبر ، وذريته ضعفاء صغار لا قدرة لهم على المكسب

فأصاب هذه الجنة اعصار فيه نار فاحترقت ، فهكذا المرأى قد ينفق الأموال الكبيرة الضالمة بلا نية صادقة ، فإذا جاء يوم القيامة ، وهو في أشد الحاجة إلى الثواب ، وليس له ولي ولا نصير ولا شفيع لم ينل الثواب وحرم منه في حال هو أحوج فيها إليه (كذلك بين الله لكم الآيات لكم لتفكروا) ، ثم قال (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقوبات ما كنتم تعلمون وما أخرجناكم من الأرض ولا نجعلها لكم عاصيا) (الحديث الرديء) (ولستم بأخذيه) أي وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لردائه (الآن قمضوا فيه) أي تسامحوا

يقول الله للمؤمنين : أوفوا من طيبات ما كنتم تعلمون ، ومن الذي أخرجناكم من الأرض فإنه خلقنا أبنينا لكم وسخرنا الهواء والشمس والكواكب والماء والأرض وبعض الحشرات والوداب في تنمية المزارع فليس لكم فيها إلا أقل الاعمال ، فكيف تبخلون بها على عبادي ؟ فانا الفرج من الأرض ، وأنا المسمى للزرع وأنا الأمر بالاتفاق ، هذا هو الذي يحويه قوله « وما أخرجناكم من الأرض » ثم قال ولا تقصدوا الرديء منه تنفقون كأن تطوا الفقير الحشف وتصطفوا جيد التمر لكم ، وعن ابن عباس رضي الله عنه ، كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره ، فهو عن ذلك فعلا علمتم إخوانكم بما تعلمون به أنفسكم ولستم بأخذيه الأعلى طريق المسامحة (واعلموا أن الله غني) عن انفاقكم ، وإنما يأمركم به لتخرجوا من التعلق بحب المال الذي يهلككم ويحببكم في هذه الدار فتجزعوا عند فراقها (جيد) بقبول ما تنفقون واثابكم عليه ، ثم قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر) في الاتفاق ويهريك بالبخل ، والعرب تسمى البخل فاحشا (والله يعدكم) في الاتفاق (مغفرة) ذنوبكم (والله واسع) الفضل لمن أنفق (عليم) بانفاقه (يؤتي الحكمة) تحقيق العلم واتقان العمل (من يشاء) ومن يؤتي الحكمة ، فقد أوتي خيرا كثيرا) فإنه خير العارفين (وما يذكر) وما يتعظ بما قص من الآيات (الا أولوا الألباب) ذوا العقول الخالصة من شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى (وما أنفقتم من نفقة) قليلة أو كثيرة سرا أو علانية في حق أو باطل (أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) فيجازيكم عليه (وما للظالمين) الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها أو يمنعون الصدقات (من أنصار) ، ثم قال تعالى (ان تبدوا الصدقات فنعما هي) أي فتم شيئا ابدؤها (وان تحضوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير) ترغيب في الاسرار ، والاسرار في صدقة التطوع أفضل من العلانية ، وكذلك صدقة الرجل الذي لم يعرف بالمال ، أما صدقة القرض من غيره فظاهرها أفضل ، وعن ابن عباس صدقة السر في التطوع أفضل من علانيتها بسبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا .

ولقد كان المسلمون يتصدقون على فقراء أهل المدينة ، فلما كثرت المسلمون نهى رسول الله ﷺ عن التصدق على المشركين كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الاسلام لحرصه ﷺ على اسلامهم ، فنزل (ليس عليك هداهم) أي ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لاجل أن يدخلوا في الاسلام حيثنذ تصدق عليهم فأعلمه الله تعالى أنه إنما بعث بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بأذنه ، فأما كونهم مهتدين فليس ذلك عليه (ولكن الله يهدي من يشاء) أي يهدي من يشاء هداية توفيق ، وأما هداية البيان فليكن فلما نزلت هذه الآية أعطوهم وتصدقوا عليهم (وما تنفقوا من خير) مال (فلا تنفكم) فهو لأنفسكم (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) أي لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله (وما تنفقوا من خير يوف إليكم) أي ثوابه أضعافا مضاعفة (وأتم لافظلون) لا تنقصون ثواب عملكم بالنفقة ، اعمدوا (للفقراء الذين أحصروا) أحصرهم الجهاد (في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض) أي لا يستطيعون ذهابها فيها لكسب لاشتمال

بالجهاد (بحسبهم الجاهل) بحالم (أغنياء من التعفف) أى من أجل التعفف (تعرضهم بسياهم) من الضعف ورنانة الخال (لايسألون الناس الخافا) الخافا . ونزل في أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار : عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرّا وعشرة علانية ، وقيل في أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، لم يملك الأربعة دراهم فنصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرّا وبدرهم علانية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّا وعلانية ، فلم أجزم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) انتهى التفسير اللفظي .

مباحث هذه الآيات ثلاثة

(١) تلخيص هذه الآيات التى فيها أمثال المنفقين والانفاق (٢) علاقة هذه الآيات بالخال الحاضرة وكيف قامت الاشتراكية فى العالم الانسانى ، وارتجت الأرض بسبب الأحوال المالية ، وكيف كان القرآن يدعو إلى العطف والمحبة العامة ، وأن المسلمين أسرة واحدة والمال بينهم بمودة ومحبة ، وما الذى يجب فيه الصدقة من المال (٣) أفضل عبادة المسلم التفكير فى الرياض والحقول والسموات .

المبحث الاول تلخيص الأمثال المذكورة فى الانفاق والمنفقين

هاهنا أربعة أمثال : مثل الحبة والسنبلة ، ومثل الحجر والتراب ، ومثل الحديقة ، ومثل البستان الذى احترق لما أصابته نار ، هذه أمثال ضربت لخال المنفقين والمخلصين .

يقول فى أولها ، وهو مثل الحبة والسنبلة : يأبها الناس إنما أموالكم كحبات ، فإذا أنفقتموها فى النفع العام ، وهو سبيل الله كتعليم أبنائه الأئمة أخذ المتعلمون بزادون بنسبة المضاعفات المطردة ، وبما عددهم وكان ثوابكم يوم القيامة تبعاً لهذه النسبة أبداً وأمداً ، هكذا فى الصناعات والزراعات والسياسات ، وكل عمل تعملونه بزاد ثوابه بلزدياد نموه وارتقاء نتائجه ، فأما مثل الحجر والتراب فقد شبه المرائين ، وقد أنفقوا بمن وضعوا التراب على الحجر فصصفت به الرياح ، وذرت السافيات ، وطيرته الذاريات ، فلا نبات به يقوم ولاخير منه يرغى ، فأما نالك الأمثال فذلك مثل الجنة النابتة أشجارها برية فأنت أكلها ضعفين فإن لم تفت برابل فطلت ، فهى أبداً مشمرة مزهرة ناضرة ، وذلك مثل المخلصين ، فأما رابع الأمثال فهو تهويل لخال القوم الذين براون ولايخلصون ، فهو أشد من الثانى اذشبه المرائى بصاحب جنة ذات أشجار ونخيل وقد أصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ورجا خيرا فأصابها اعصار فيه نار فاسترقت ، فهو بانفاقه الجم من المال يرجوعزة قعساء ، وفضلا واسعا ، فلما أن حرم من الاخلاص هدم بنيانه .

ولقد يكون الانسان فاضلا سابحا فى بحار الحكمة فيتخبطه الشيطان فيغويه فيضل سواء السبيل بعدأن غرس الحكمة وطفى بجنى ثمارها فاتقضت صاعقة الشهوات فأذهبت الثمرات .

مطالب هذا القسم

لقد أدركت ماسلكه الله فى أول التسمين ، وهو التوحيد ، وقد فصله ثلاثة أقسام وحشرنى آخرها علوم الطبيعيات والتحليل والتركيب والصناعات ، فأما هذا القسم فقدازدان بسبع جواهر نضرات ربواقيت باهرات ، وهى تعالى عن الرياء والابذاء وخوف الفقر بوعيد الشيطان ، واتفاق التلبيث واتباع الحكمة والاتفاق على مدى الأيام والأحوال سرّا وجهرا ليلا ونهارا ، وبيان المنفق عليهم .

(١) فأما ترك الرياء فذلك واضح فى الأمثال المضروبة كما فهمت ، وأما الباقى فهو يقول :

- (٢) أيها الناس إياكم أن تبطلوا الصدقات بالقرن على المساكين وأذى الطالبين
 (٣) وإياكم أن يخيفكم الشيطان بوعيده ويزعجكم بهديده فيخيفكم من الفقر ويأمركم بكنز الأموال
 (٤) والاتفاق من الحكمة العملية
 فالحكمة علم وعمل فمن أوتىها فقد نال الحيرات ورزق أعظم الثمرات ، وهل يذكر إلا أولوا الألباب
 الأوابان الله يعلم صدقاتكم المصطاة ونذورك الموقودة ، فأوفوا النذور .
 (٥) ولا تجموا الخبيث منه تنفقون فإنكم لاتأخذونه الا مغضبين ولا تقبلونه الا كرهين فاملوا بما
 تحبون أن تعاملوا به .
 (٦) فأعلنوا الصدقات وأخفوها ، فانها في الحالين مجودة مطلوبة ، ولا يصدنكم الشيطان فتقولوا
 لاتنفع خيفة الرياء ، فان ذلك ضلال مبين .
 (٧) فأما سابعها فهم المنفق عليهم : كأهل الصفة ، وهم نحو أر بعانة من فقراء المهاجرين منهم الجهاد
 في سبيل الله ، وطلب العلم لا يستطيعون ذهابا في الأرض للكسب لانكسابهم على طلب العلم والفرد (يحسبهم
 الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا) أي الحافا ، يقال ألخني فضل لحافه : أي
 أعطاني من فضل ما عنده .

المبحث الثاني

اعلم أن مسألة المال اليوم هي الشغل الشاغل للنوع الانساني ، وترى الحرب الكبرى التي قلبت وجه
 الأرض لم يكن لها سبب الا المال ، فالنوع الانساني بعد أن استعبده الملوك ، وقد خضعت شوكتهم وضعت
 سلطانهم ، وأصبح الأمر شورى في أغلب الممالك جاء له دور المال ، وصار هو الذي به تقوم الممالك وتقدوله
 وحده قامت الحرب الحاضرة ، وانتهى ملك دولة القياصرة بلاد الروس ، وقسمت الأرض على الفلاحين ،
 وأصبح البلشفية يأمرهم الناس جميعا بالعمل وزلزت رؤوس الأموال زلزالها .

فانظر في آيات القرآن كيف أمر بالاتفاق وحض عليه وعلى الاخلاص فيه . البلشفية لا مهمم الاخلاص
 وإعما أخذوا الأرض نهباً من أربابها ، والقرآن يقول : ليكن المسلم مخلصا في افاقه شاعرا أن المال مال الله
 وأن الأرض لله ، وهو الذي أخرج النبات وأنماه وأثمره ، فليعطه للفقير اخلاصا لله لاخوفا من السيف ، فإذا
 يطلب القرآن ؟ يطلب مطلبا فوق ما يقوله البلشفية ، ولأقص عليك ما ذكره الأمام القرظي في الاحياء :

قال : ان شرط تمام الوفاء بانفراد المعبود بالمعبودية في الشهادتين أن لا يبقى للوحد محبوب سوى الواحد
 الفرد ، فان المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وإعما يتمتعن به درجة الحب بمفارقة
 المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلاق لانها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من
 الموت ، والامتحان بأمرين : بذل النفس في سبيل الله ، وبذل المال ، ولقد اتهم الناس في بذل الأموال
 ثلاث فرق :

الفرق الأول : نزلوا عن جميع أموالهم ولم يدخروا دينارا ولا درهما وأنفوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة
 عليهم ، قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ قال أما على العوام بحكم الشرع خمسة دراهم ، وأما نحن
 فيجب علينا بذل الجميع ، ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضي الله عنه بشرط ماله ، فقال
 صلى الله عليه وسلم : ما أقيت لأهلك ؟ قال مثله . وقال لأبي بكر رضي الله عنه ما أقيت لاهلك ؟ قال الله ورسوله .
 فقال صلى الله عليه وسلم : بينكما ما بين كلتيكما .

الفرق الثاني : المسكون أموالهم ، ولكن يتفقون لزكاة وغيرها ، وليس الاتفاق خلاصا بما جاء في كتب الفقه مما سايته قريبا كالا ، بل يجب اعانة المحتاج وذوي القربى وما أشبه ذلك غير ما في الزكاة . وهذا مذهب النخعي والشعبي وعطاء ومجاهد ، فهو لا يوجبون صرف المال في وجوه البر ، وفي مواسم الخيرات . ويحرم عندهم التتم ، وما فضل عن مقدار الحاجة يصرف ، ويستدلون بقوله تعالى «ومما رزقناهم يتفقون» وقوله « وأنفقوا مما رزقناكم » قيل للشعبي هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال نعم أما سمعت قوله عز وجل « وآتى للمال على حبة ذوى القربى واليتامى » الخ .

الفرق الثالث : أن يقتصر على أداء الزكاة المفروضة ، وهذا أقل المراتب . وذا ملخص ما قاله الفزاري

مقالة العلماء في الزكاة الواجبة

زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة ولا غيرها الا على مسلم حر . وزكاة النعم [الابل والبقر والنعم] تجب إذا كانت سائمة : أى ليست معلوفة ، بل ترعى في المراعى المباحة ، فأما إذا ظهرت الكلفة في مؤنتها بان علفت وقتا وسيمت وقتا ، أو علفت دائما فلا زكاة فيها ولا بد أن يحول عليها الحول في ملك المالك ، ويشترط أن يكون مطلق التصرف في ماله ولا بد أن يكون نصابا ، والنصاب في الابل أثنه خمس وفيها جذعة من الضأن والجذعة هي التي تكون في السنة الثانية ، أو ثنية من المعز وهي التي بلغت السنة الثالثة ، وفي عشر شاتين ، وفي خمسة عشر ثلاث شياه ، وفي عشرين أربع شياه ، وفي خمس وعشرين بنت مخاض من الابل ، وهي التي في السنة الثانية ، وهكذا :

وأما البقر فلائى فيه حتى يبلغ ثلاثين فيها تبيع ، وهو الذي في السنة الثانية ، ثم في أربعين مسنة ، وهي التي في السنة الثالثة ، ثم في ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ، ففي كل أربعين مسنة ، وفي كل ثلاثين تبيع . وأما النعم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين فيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز ، ثم لائى فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ، فيها شاتان إلى مائتى شاة وواحدة فيها ثلاث شياه إلى أربع مائة فيها أربع شياه ، ثم استقر الحساب في كل مائة شاة .

زكاة الركاك والمعادن

الركاك دفين الجاهلية ، وقد وجد في أرض ليرجر عليها ملك مسلم ، فعلى واجده في الذهب والفضة الخمس ، أما المعدن فيه ربع العشر ولا يكون إلا في الذهب والفضة .

زكاة الذهب والفضة

وتكون الزكاة في الذهب والفضة إذا ملكهما الانسان حولا كاملا ، وكان الذهب عشرين مثقالا ، وكانت الفضة مائتى درهم وفيها ربع العشر ، وهو نصف مثقال في الذهب ، وخمسة دراهم في الفضة .

زكاة التجارة

وزكاة التجارة كزكاة التقدين ، وإنما ينقد الحول من وقت ملك التقديس به اشترى البضاعة ، وهو ممنوع عروض التجارة عند آخر الحول بما اشترت به . وقال داود الظاهري : لا تجب الزكاة بحكم التجارة

في العروض إلا أن ينوي به التجارة في حال تملكه .

الزكاة في الزرع

أوجب أبو حنيفة الزكاة في كل ما يقصد من نبات الأرض كالقواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقتاء والخيار ونحو ذلك .

وجهور العلماء أوجبوا الزكاة في النخيل والكروم ، وفي كل ما يقتات به ويتخزن من الحبوب ، ويجب إخراج العشر فيما سقى بالمطر والأنهار والعيون ، ونصف العشر فيما سقى بنضح أو سانية ، والسانية هي التي يسقى عليها سواء أكانت من إبل أو بقر أو غنم .

ولا يجب العشر في الثمار والزرور حتى تبلغ خمسة أوسق ، والوسق ستون صاعا . وقال أبو حنيفة : يجب العشر في كل قليل وكثير من الثمار والزرور . وأجمع المسلمون على أن الزكاة لا تصرف إلا للمسلمين وهم المذكورون في [سورة التوبة] . وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة ، وخالفه سائر العلماء ، وأما قوله تعالى : « وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » التي وردت في التصديق على المشركين كما تقدم فأنما هي في التطوع لافي الزكاة المفروضة ، فصدقة التطوع تصرف لفقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة .

صدقة الفطر

هي واجبة على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يعقوته يوم الفطر وليتة صاع مما يقتات ، ويخرجه من جنس قوته ، أو من أفضل منه ، ويجب على المسلم فطرة زوجته ومما يليه وأولاده ، وكل قريب نجب نفقته عليه من الآباء والأمهات والأولاد اهـ

هذه هي الزكاة ، وهذه آراء العلماء في الانفاق ، فانظر كيف أوجب بعضهم صرف جميع المال ، وبعضهم أوجب صرف ما فضل عن الحاجة ، وهذان المذهبان الاسلاميان أعلى ما يتصوره العقل البشري ، والانسانية اليوم يعوزها عقول ترقى المدارك البشرية حتى يرى العالم والطبيب والمهندس وعالم الدين أن الناس اخوته ، فيبذل نفسه لهم وجميع أعماله .

فعلى الناس أن يبذلوا مواهبهم في سبيل المنفعة العامة ، ويستخرجوا جيما خيرات الأرض ، وخيرات الصناعة والزراعة ، فإذا مجزأ أحدهم ، وهو محمّد في عمله عن قوته وجب اعانته ، وليكن ذلك بصدق وإخلاص وليكن الآخذ مجتهدا لا كاسلا نائما ، والاحرم ، وهذه العالم ان أظهرت في الاسلام نكون أرقى أمة في الأرض . أوليس من الجهائن أن يقوم [تولستوى الروسى] الشهير ففرض أرضه على المزارعين وهي تعدّ بعشرات الآلاف من الفدادين . كيف يظهر في أوروبا نابغون في العلم وفي الاحسان ، والمسلمون نائمون . اللهم لرفع شأن علمائها وعقلاؤها حتى يرفعوا مستواها ، انك أنت السميع العليم .

المبحث الثالث

أفضل عبادة المسلم التفكير في الرياض والحقول والبساتين

من لى بأن يسمع المسلمون صوتى فى أقاصى البلاد ، من لى بان ينظر أبناء العرب والترك وأهل الهند والصين والجاويون والسودانيون مقاصد القرآن ، ووجهته التى تربي العقول والنفوس ، وترفع مستوى الانسان الى مصاف الملائكة ، وأن يكون المسلمون خلفاء لله على عباده رحماء ، لاضفاء جيناه ، لا تتخطفهم الأمم

من كل جانب . انظروا أيها الاخوان ماجاء في القرآن من الأدلة وأنواع التشبيهات تروها نحو المشاهدات المحسنة وعلوم الطبيعة :

- (١) فان أمر بالعبادة قال في سورة البقرة : « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » ووصف ازال الماء ، واحياء الحقول والبساتين والتمر والحب والكلاب .
- (٢) وان استدلت على التوحيد قال في سورة البقرة : « إن في خلق السموات والأرض » الآية ، وأخذ بشرح اختلاف الليل والنهار ، وسير الفلك في البحر ، والسحاب والمطر والنبات .
- (٣) وان طلب منا الشكر قال : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فليكن الشكر على تسخير البحر والسكك والهدر والمرجان والدفن الجارية فيه .
- (٤) وان ذكر الحكمة والحكام والعلم والعلماء قال : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والذواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » فجعل الخشية والعلم يرجعان للنظر في الألوان والأشكال في الانسان والحيوان والجبال والذواب ، فانظر كيف نام المسلمون .
- (٥) وان ذكر اليوم الآخر واستدل على البعث قال : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » يذكر خلق الانسان من تراب يصير نباتا وحيوانا بالزرع والتغذية منه فيكون دما فلهما أودورا وثمرات لتغذية الحيوان بالزرع ، والزرع يتخذ من عناصر الأرض وهو التراب ، ثم يكون نطفة فمضغة فقلعة متجمدة بمقدار ما يمضغ الناس في اللحم من اللقمة وهكذا ، وذلك هو علم الأجنة ، ولقد ظهر هذا العلم في المدارس العالية في جميع العالم .
- (٦) وان حوِّض على الاغراق في المنافع العامة قال بصف زيادة الحسنات للنفق بازدياد الحب في السنابل : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل » .
- (٧) وان ذم النفاق مثل بالليل وظلمته ، والنار وإيقادها ، وسرعة ذهاب نورها .
- (٨) وان مثل الكفر جعله كالظلمات ، أو القرآن جعله كالنور ، أو الوعيد جعله كالرعد ، أو الحجج جعلها كالبرق .
- (٩) أو العدل جعله كالنظام العام في قوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط »
- (١٠) أو الرياه جعله كالبحر عليه تراب فأصابته ريح شديدة أطارته .
- (١١) أو ذكر الاخلاص جعله كالجنات سقاها الغيث .
- (١٢) أو التخويف من عواقب الرياه ذكر الحدائق فيها النخيل والأعشاب أصابها الزرع والرياح العاتية فيها نار فاحترقت وصاحب الحديقة أصابه الكبر وله ذرية ضغفاء .
- (١٣) وان ذكر انقلاب الدول والممالك مثل بالليل والنهار إذ قال : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتمزج من تشاء وتقدر من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . توحي بالليل في النهار » الآية .
- ففي هذه المشاهدات مظاهر العبادة ، وأدلة التوحيد ، ومطالب الشكر ، ومبادئ الحكمة ، وموجبات

التشبية ، ودلائل البحث والقياس ، ومثال ازدياد الحسنات ، ومشايات النفاق ، وما يناسب الكفر ، وما يوافق العدل ، وما يوضح الرياء ، وما يشرح الاخلاص ، وما يبين انقلاب الدول . ذلك هو الذي اتجهت إليه وجهة القرآن .

عجبا لأمة نام عنها علماءها ، وقتلتها وعاطتها ، أمة الاسلام هي الأمة التي أمرت أن تكون المزارع درسها والحدائق علفها ، والشمس والقمر والنجوم والجيال والأنهار آياتها .
أيظن للمسلمون أن تلك الأمثال والتشبيات جاءت عبثا ؟ يا قوم أليس الاعراض عن المشاهدات الطبيعية أشبه شجرة بكفر النعمة ؟ أليس ذلك تحويلا لوجه النظر العلمية .

أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها : إن ربكم واحد ودينكم النظر في صنعه ومجائزه وجلاله وحكمته وأنواره وشموسه وأقماره وأضوائه وبهائه ، أفلا تسمعون ؟ أفلا تبصرون ؟ جاء لكم حكما وعلماء كابن سينا والفارابي والغزالي والرازي ، وأسمعكم ما أقول اليوم ، فأيتهم وقتلتم انكم كافرون .

جاء ابن رشد بالأندلس ، وقال أيها المسلمون : علم التوحيد مبناه هذه العقائد والبدائع ، فانظروا في السهل والجبيل والبر والبحر والشمس والقمر ، فانظروا في حسابها ومجائزها ، فكذبوا وكفروا ، وطردوه أهل الأندلس ، وبصقوا في وجهه ، فمات طريدا وحيدا ذليلا ، ثم حمل علمه اليهود والنصرى ، فارتقت أوروبا بعلمه في ثمانمائة سنة بصد موته من أول القرن السابع الى أواخر القرن التاسع المجري ثم انقضوا على المسلمين فأفترقوا أجمعين ، وذلك جزاء القوم الجاهلين .

أيها المسلمون : أفكلما جاءكم عالم بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . أيها المسلمون آن الأوان ، وبهذا الكتاب وأمثاله سيستيقظ المسلمون سر بها ، وسيجيء جيل لم تشهد الأرض مثله ، وينظرون في هذه العوالم التي زوّقها الله وزينها للناظرين ، وجعلها بهجة العارفين ، وحكمة العالمين .

أيها المسلمون : هذا هو علم التوحيد ، علم التوحيد في الحقل والجلب والزرع والشجر والتمر والقمر لافي الكتب المصنفة المشهورة ، هي والله مبعدة عن حكمة الله ومعرفة آياته هي محجلة للشك ، ان القرآن أمركم بالنظر في جمال صنعة الله ، ودقائق حكمته ، وجمال بهجته ، ذلك هو القرآن ، اتبعوا ما أرشد إليه فوالله لينبغث في هذه الأمة ناصون يكونون بهجة الدنيا وزينة العالمين ، وليكونن أهدى الامم وأعلمهم بما في الكون ، هم خلفاء الله في أرضه هم المسلمون الصادقون ، ولن يكون ذلك بقراءة الكتب المشهورة ، لقد كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر أردت قراءة [العقائد النسفية] مع المرحوم صديقي الشيخ محمد جابر بعد أن آتممت سنى الدراسة ولم نجد من العلماء من يقرأها كما هو المطلوب ، فكنا نقرأ آراء الخيالي وعبد الحكيم اللذين كتبنا عليها ونحن مستهجون بتلك العلوم . وبينما أنا نائم إذ رأيت كأنى على شاطئ بحر وكان هناك سمكا في الماء يقرب الساحل ونور النجوم لامع على جلد السمك فسمعت قائلا يقول : « لم يظهر من القرآن في هذا الكتاب إلا كما ظهر من الفلك على جرم السمك » اه

حكاية

جاء إلى مصر منذ سنين المرحوم الأستاذ السيد حسين الخياط ، مع الأستاذ الصوفي الشيخ الجربى ، والأستاذ السيد حسين كان مدرسا بمكة ، فلما سلم على قال : إني قرأت الشريعة والتصوف ، ولكن قراءة كتب نظام العالم والأمم فتحت لي بابا كان موصدا ، وقد أرسله الى أحد تلاميذى من أسرة العطاس بناحية بلخه ، ولما قرأته تعجبت من هذه الدنيا وغرائبها ، ورأيتك تقول : ان الماء قد حلل أمامك الى عنصرين

الأوكسوجين والأودروجين ، وأن هناك نظاما بديعا وحسابا متقنا بحيث يكون الأوكسوجين ثمانية أضطاف الأيدروجين ، وأن هذه النسبة لو أخطأت لبطل التركيب ولم يكن ماء ، ولطالما كنت أقول : هل رأى المؤلف هذه الجباب بعينه ؟ ومن لى بان أذهب الى مصر فأرى المؤلف وأسمع منه ذلك ، فأنت المؤلف فهل هو حق ؟ قلت نعم أنا رأيت بعيني وأنا تلميذ مدار العلوم ، ثم توجهت معه اليها والى غيرها من المدارس الثانوية وشاهد العملية بعينه ، فقال :

ما شاء الله يا مصر قد خدمت الاسلام ! فقلت له : ان مصر لاتزال طفلة في هذا الموضوع وعيها قليل جدا بالنسبة لأوروبا ، وعما قاله لى وهو سبب مساق الحكاية : أنا الآن صدقت كلام الشيخ الشعراى إذ قال : ان الاسلام فى أول أمره يكون شريعة ، ثم فى آخر الزمان يكون حقيقة ، قلت وما فهمت فى هذا ؟ قلت الشريعة هى الأحكام الشرعية المعروفة فى الاسلام ، والحقيقة هى الأنفس والآفاق : أى معرفة علوم النفس والنظر فى هذه الجباب التى نشرحها من شمس وقر ونبات ، وهذه الكتب وأمثالها تستجمل وجهة الاسلام من الآن هذه الحقائق فى الأنفس والآفاق

مقارنة الاسلام بالنصرانية وعلوم أوروبا

اللورد ايفرى الذى كان معاصرا لنا من كتاب الانجيز وعظماهم أخذ فى كتابه محاسن الطبيعة فى التمهيد الذى فى أول الكتاب يصف القمر والنجوم والشمس وبهجتها فى طلوعها وغروبها ، وينقل عن العالم كفسلى أنه كان يحب البوادي ، وهو مغرم بحمال الطبيعة ، ويقول انه كان يؤمنه الحصى والنحل والزهر ويتأمل فى الغياض والأجوات ، وهو يحاول فك الرموز والطلاسم فى سفر الكائنات ، وينقل عن الصلابة كبل أنه كان يقول : ما أوحى الانسان الى أن يرسل طرفه ، ويتأمل فى العوالم العلوية والسفلية عوالم الجهد والجمال ، وبعد ما سرد كثيرا من ذلك صرح أن ذلك من قرائعهم لامن دينهم ، وأن دينهم كان عقبة أخرتهم الى الوراء إذ قال : ان الطولوى التى حدثت فى الهندى ورتناه من الدين قد صرفت عقولنا وحواسنا وعواطفنا عن جمال الطبيعة ، ثم سرد فوق ذلك معتقدات اليونان وأجداده هو من الانجيز والأورو بين من أن للغابات وللأنهر آلهة تحكمها ، وأن فى الماء جنا تخيفهم وتزعجهم ، وأن هناك أرواحا تنضب عليهم ويخافون من الجبال والغابات والبحار والبحيرات لتوهمهم أن الأرواح الحية تسكنها الفغاريت والفيضان والجبن والسياطين والسحرة ، ثم قال : ولما برغت شمس العلم تمزقت تلك الجباب فأصبح العلماء يتهبجون بتلك المحاسن ثم قال : ان الأرياف مواطن الجبال ، وهى السحر الخلال اه مختصرا

ها هى ذه أوروبا ، وهذه عقائدها الدينية والورانية ، والقوم هم أنفسهم حلوا هذا الوثاق وخرجوا من سجن الخرافات واستنشقوا نسيم الحرية فى الحقول ونظروا فى السموات والأرض ، أولست ترى أيها الذكى أن دين الاسلام الذى شرحت لك مقاصده فى هذا التفسير وفى هذه المقالة أيضا قد أطلق عقول المسلمين من يوم البعثة النبوية وكشف لهم الغطاء عن السماء والارض وأراهم الشجر والتمر والحب والزهر والفاكهة والأب ، وقال : أى عبادى هذه ارضى وسمواتى وجناتى وأعنائى ونجيبى وجبالى وفواكهى وحياتى فى البحر ودرى ومرجانى وجبالى باهر ظاهرها تجليت عليكم بشمسى وبقمرى وبنورى وبنجومى فماذا جرى أيها الذكى ؟ هب المسلمون فى القرون الأولى ، ثم نلموا نومة أهل الكهف ، ولما ظهر الأورويون وبهروا قالوا لنا انا كشفنا الغطاء عن الأرض والسماء ونظرنا كل باية وخضراء ، فنقول حقا كان ذلك ونحن نيام ، وهذا دليل على أن نبينا آخر الأنبياء ودينه هو الباقي إلى آخر الزمان ، لأنه لا عفرت بمنعنا عن هذا الجبال ، ولا شيطان يخيفنا فى البحر ، ولا غول يهز رأسه فى الظلمات ، بل ان علومكم هى مقضى ديننا ونحن وان كنا نبنا قرونا كثيرة سنبحث

أبحاثكم وقرأ علومكم وعلو فيها عليكم ، لأنكم قرأتموها مفكرين ، ونحن قرؤوها للعقل والدين ، فيكون شوقنا أعظم وعلماؤنا أكبر ومدنيتنا أعظم ، أتم بالنظر في الكون خالفتم كتابكم ، ونحن بالنظر فيه وافقنا ديننا وطبقنا بذلك معتقدنا ، وقد قال الله « ليظهره على الدين كله » ، وظهوره سيكون بهذه النظرات وارتقاؤه بهذه الآيات « ان في السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم ومايتن من دابة آيات لقوم يوقنون » اهـ

تذييل

لقد كان أهل الشرق كالصريين وأهل الهند قديما مغرمين بالنظر في البحانب والبدائع والتفكر في ابداع الخالق ، فلذلك عشقوا جمال هذه المشاهدات فأثرت في قلوبهم وأحيت نفوسهم وأيقظت عقولهم ، فزينوا الدنيا بعلومهم ، وزوّقوها بصناعاتهم ، وهذا بتأثير أنبيائهم وحكائهم الذين عشقوا هذا الجمال ودوتوه في الكتب وعلوه للشعوب ، فان الجمال في المخلوقات يرسم في النفوس ، وهي تبرزه علما وصناعة ، وذلك كما ترى فيما وجد متقوسا باللغة المصرية القديمة بتلّ العبارة ، وقد نقله الى اللغة الألمانية والفرنسية علماؤهم وترجم إلى العربية ، وتاريخ تدوينها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهو نشيد ديني

(١) وصف الشمس المثلثة لعظمة الله : أنت العالم بأسرار الحياة تظهر بجهاك في آفاق السماء ، تشرق شمك في الارحاء فتتملا الأرض بجهاك ، أنت الجبل العظيم البهي الذي تسطع أنواره على وجه الأرض وتحيط أشعته بكل أقطارك التي خلقتها وملكتها بجحك مهما بعدت عنا فأشعتك مائة الأرض كلها .

(٢) وصف الليل : حينما تقرب شمك يظهر المساء وينشر الظلام في الأرض كلها وينام الناس في بيوتهم ويندرجون تحت غطائهم ، وتسكن حواسهم عن الحركة فلا يسمعون ولا يبصرون ، أنت الذي تحفظ لهم أرواحهم وأموالهم وأمتعتهم وهم في مضاجعهم غافلون ، ويرخي الليل ستوره فتخرج الأسود من عرنها والحيات من أوكراها وتسكن الامة كلها .

(٣) النهار والانسان : تظهر عظمة شمك في الأفق صباحا فتتملا أشعتها أرباء الأرض كلها . يطلع النهار وينجلي الظلام فتفرح الناس بظهوره ويستيقظون ويتوضئون ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم إلى السماء متوسلين اليك ثم يذهبون الى أشغالهم .

(٤) النهار والحوان : متى أشرقت شمك في الأفق تستقر المواشي في مرعائها ، وتزدهي الأشجار والنباتات وترفرغ الطيور تمجيدا لك وتنبعث الحيوانات على قوائمها .

(٥) الماء : اذا أشرقت شمك في الأفلاك سبحت في بحارها الأفلاك ، وتمرح في لججها الأمياك ، وتتلألأ أشعتك على صفحات الماء فما أبدعك وما أسماك .

(٦) أنت الذي خلقت نطفة الأنام وصورت منها الأجنة في الأرحام وحفظتهم ووقيتهم الآلام ورفقت بهم في الرضاع والقطام ووضعت لهم الحنان في قلوب الأمهات والآباء ، فوفرت عليهم العويل والبكاء ووهبت الحياة لسائر المخلوقات ، وأطلقت ألسنتهم بالكلام على اختلاف اللغات ، ومنحتهم ما يحتاجون من قوت ومعاش ومن غطاء وفراش ، أنت الذي تهب النسمة للفرخ داخل البيضة وتحببه ، فيصيح ويمشي عند خروجه منها تفضلا منك ، خلقت الأرض والسموات وأبدعت جميع المخلوقات ، وأعمالك لانحصى ، واحسانك لا يستقصى ،

أنت الذي خلقت البلاد الأجنبية وسوريا وابترويا ووادي النيل ، وخلقك كلا منها في مواقعها وسخرت لها حاجاتها ومنافعها ، وخصمت لكل انسان خاصياته ، وحددت له أيام حياته . أنت الذي خلقت الشعوب مختلفة الاجناس واللغات والألوان والصفات .

أنت الذي خلقت النيل لحياة أبنائه ، وأنعشتهم بعذوبة مائه . أنت الذي تسوق الأرزاق للبلدان القاصية وتنزل

الأمطر على جبالها هامية فتتحدر إلى الحقول والبلاد لخصبها وترويتها ، ما أجلك يارب الأزل ، وما أجل
أوامرك العالية .

أنت الذي قسمت السنة فصولا لمصالح خلقك ونظام حياتهم ، قد ارتضت في علو سمايك لتبرز منها أشعة
شمسك ، وترى منها ملكوتك ، أنت وحدك الذي تشرق شمسك الحياة المضيئة البارزة أشعتها ، قد خلقت
الأرض لعبادك ، ومتى أشرقت علينا شمسك شخص الناس إلى جالك [هذا] هو الذي كان يناجي به
قدماء المصريين ربهم [والقرآن كله طافح بذكر الشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان والأمم ،
واختلاف الألوان والألسن] ضل السالمون أن يفكروا ويتهجروا بحمالة .

هذا ، ولما انتهى الكلام على هذا المقصد شرعنا في تفسير المقصد التاسع عشر في بعض المعاملات في
الأموال ، وهي الربا والدين والرهن .

(المقصد التاسع عشر)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَأْتَتْهُ فَفَلَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *
يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ
مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَا كْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ
فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي
عَلَيْهِ الْحَقُّ مِنْهُمَا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِهُ هُوَ فليُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُونَا
شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَاتِ
أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّاهِدَاتُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ

تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلْتَرْتَابُوا
 إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوتَهَا يَنْبَغُ عَلَيْكُمْ فَلْيَنْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحَ الْأَتَكْتُبُوتَهَا
 وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَمَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
 اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا
 فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَمُضِ كُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا
 تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *

ايضاح داخل فيه التفسير اللفظي

وصف الله المتعاملين بالربا بأنهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كما يقوم الذي يضربه الشيطان ضربا
 على غير اتساق بسبب الجنون اتباعا لزمع العرب وأسلوبهم في التعبير عن حال المصروع ، وإنما ذلك لأنهم
 سؤاويك البيع والربا والله أحل البيع وحرم الربا . قال تعالى : (فمن جاءه موعظة من ربه) فمن بلغه وعظ
 من الله وزجر بالنهي عن الربا (فله ما سلف) فلا يؤخذ بما مضى منه (وأمره الى الله) يحكم في شأنه
 يوم القيامة (ومن عاد) الى الربا مستحلا (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لأنهم بالاستحلال صاروا
 كافرين (يحق الله الربا) بذهب يركنه ويهلك المال الذي يدخل فيه (ويربي الصدقات) ينمي ويزيد
 المال الذي أخرجت منه .

الربا قيمان : ربا فضل كما إذا باع ذهبا بذهب وفضة بفضة وحنطة بحنطة ، فذلك ممنوع فيه النسيئة
 والتفاضل ، فأما فضة بذهب فالتفاضل جائز على شريطة المقايضة والافهوربا النسيئة ، والفضل والنسيئة ممنوعان
 ولقد فصله علماء الشريعة الفراء ، ومن عجب أن الربا الشائع في الأمم اليوم قسم الحق بما فصله علماءنا .
 وهو الاحق بالقرض ، وهو قرض جرة منفعة .

ان المسألة التي هي عقدة العقد واحدى الكبر ، وهي الربا قد هزهزت الأمم هزهزة ، وستكون من
 نتائجها الهزاهز والمحن على الأمم جمعا ، ألم تتركف كان الاستعباد منوطا بثلاث ، ملك جائر ، ورئيس ديني ظالم
 ومترشححيح طامع ، هؤلاء هم الفجرة الاشرار الظلمة ، فأما الملوك الظالمون فقد قال الله فيهم « ان الملوك
 اذا دخلوا قرية أفسدوها » كما يشاهد في بلاد الجزائر ومراكش وتونس وأمناها من الأمم التي دوتها
 الفاتحون ، وظلمها الملوك القاهرون ، وأما الرؤساء الضالون ، ففيهم قال الله تحذيرا لتابعيهم - اتخذوا أبحارهم
 ورهبانهم أربابا من دون الله - أي مشرعين مستبدين بالشرائع لا يعطون أمهم الا ما نهواهم أنفسهم كما روى
 أن عدى بن حاتم قال للنبي ﷺ لما نزل « اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ما كنا نعبدهم
 يارسول الله قال « أليس كانوا يحلون لكم ويجرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال نعم . قال هو ذاك » .

فأما القسم الثالث وهم أولو الحرص من الأغنياء والمستبدين من ذوى الثروة والجاه ، فقد قال الله فيهم
 (فان لم تعملوا فادنوا) أي أعلموا (محرب من الله ورسوله) أو فأعلموا غيركم محرب من الله ورسوله في الدنيا .
 وذلك الحرب اما شرعى كأنص عليه المنسرون من محاربة ذى الشوكة المرابى إذا لم يقب أو حنبسه وسجنه
 وتغزيره ان لم يكن ذا شوكة ، ولما أن يعامل يوم القيامة معاملة المحارب ، فيعذب ويلقى في النار كأنه كان

يحارب الله ورسوله ، وإنما يستأصل الأمم ويدهورها ويذلها من الوجود كهذه الأمم الحاضرة ، فانك ترى
الاشتراكيين يودون قلب النظام الحالي في الحكومات إذ علموا أن الظلم واقع ماله من دافع على الفقراء والضعفاء
من الأمم القوية وعلى كافة رجال الامم الضعيفة ، ذلك بتحكم أرباب الاموال في نفوس الملوك والعظماء ، فيكون
الحرب والقتال كبضاعة يبيعونها وصلمة يزجونها ، وبما يتحكم أرباب الاموال المرابون في العملة الضعاف ، وبذلك
أصبحت حياة الأمم وعرة خطيرة مشتعلة الافئدة بنار الحرب ، وما موقعها في أفئدة الفقراء إلا أصحاب المال
بشيران الذهب الوهاج المتقدة في حطب العمال ، فالفقراء بها يسجرون ، والاغنياء بنورها يفرحون ،
وستكشف الحال ، ويصبح النمم بها شقيا ، والمسجون بها نمعا ، تنصير بردا وسلاما على الفقراء ، وناورا وسعيها
على الاغنياء ، إذا اصطدمت القوتان ، واقتلت الطائفتان ، أخذ المظلومون حقهم من الظالمين في هذه الحياة ،
فبالك إذ اوقعت الواقعة ، وانتفت السماء فهي يومئذ واهية ، فهناك الجزاء الأوفى ، وأن الى ربك المنتهى .
كما أن الزنا عاقبت عليه الشرايع السارية ، فلما أهمل الناس ذلك عوقبوا بذلك الداء القتال ، وهو المسعى
[الافرنجى] في بلادنا ويسمونه [الزهرى] وهو يشوه الجسم ويضعفه ، وهو يعذب المريض عذابا لا يطاق
هكذا الرب لما أهمل الناس أمر الهيات في تحريمه جرعت الأمم غصص الاضطرابات من الاشتراكيين والحروب
وهذا الحكم يشمل سائر الأمم والاجناس والممالك ، فأما ذلك الذي أكل الربا من أبناء جنسه واستبد به
ووقفه على نفسه ، وقد أصبح الفقراء فيها جاهلين معذيين ، والاغنياء متممين منصفين ، فلن يابلى حق الأمة من
فقر وأذى وجهل فاضح فانه لا جرم بأولئك الاغنياء لاحق فلا سبيل لسعادة امرئ مالم يم السعد بلاده .
والا فكيف يتمتع بخادمه ويهنا بصديقه وصاحبه ، ويأكل الثمرات ويعلم بنيه وبناته ، فانفاق الاموال من
الاغنياء عناية بالجوع وسعادة للجموع ، ولا عز لامرئ إلا إذا أحاط السعد بأمنه ، فانما هي موسيقى ذات
فروع ، وهو أحد فروعها ، ان الانسان مدنى بالطبع ، لهذا السر « يحق لله الربا ويرى الصدقات »
أى يذهب الله بركته ويهلك المال الذي يدخل فيه ، ويضاعف ثواب الصدقات ويبارك فيها أخرجت منه ،
وعنه عليه الصلاة والسلام « ان الله يقبل الصدقة في ربه كما يربى أحدكم موره » ، وعنه عليه الصلاة
والسلام « ما قصت زكاة من مال قط » (والله لا يحب) لا يرضى (كل كفار) مصبرا على تحليل المحرمات
(أنيم) منهمك في ارتكاب الاثم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لم أجرم
عند ربهم ولا خوف عليهم) من مستقبل (ولا هم يحزنون) على فانت (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله
وذروا ما بقى من الربا) اتركوا بقايا ما شرطتموه على الناس في معاملات الربا (ان كنتم مؤمنين) بقلوبكم ،
يروى أنه كان ثقيف مال على بعض قريش ، فطالبوه عند حلول الأجل بالمال والربا ، فتركت (فان لم تفعلوا
فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فاعلموا بها ، من أذن بالشيء إذا علم به ، فيقاتل المرابي بعد أن يستتاب
حتى يفتى الى أمر الله كالباعى . ولما نزلت هذه الآية قالت ثقيف لا بد لنا بحرب الله ورسوله (وان
نتيم) من أن ترابوا (فلكن رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) فلا تأخذون الزيادة ولا يماطلكم
المدن ولا ينقص مالكم (وان كان ذو عسرة) واذلوق غريم مصر (فنظرة) فالحكم نظرة (الى مبصرة)
فليتنظر البائس مدينه الى أن يأتي اليسر من الله والفرج للدين (وان صدقوا) على المدين بالإبراء من الدين
(خير لكم ان كنتم تعلمون) ما فيه من الأجر والذكر الجليل والقدرة الحسنة والسعادة النفسية (واقفوا
يوما ترجعون فيه) الآية معناها ظاهر .

[نتيه] ولقد كنت كتبت ماتقدم وأنا مدرس بدار العلوم قبل الحرب العاتية الكبرى بنحو ثلاث
سنين كما قلم وبقى التفسير حتى هذه السنة ١٩٢٣ وأبتدى بطبعه ، وقد حصلت الحرب من سنة ١٩١٤

وكان الصلح سنة ١٩١٨ ولا يزال الناس في هرج ومرج والأثم كلها في اضطراب واختلاط حقيق الله عز وجل حاجه في كتابه ، وكانت الحرب وظهرت دولة [البلشفية] وهي التي قضت على دولة روسيا وعلى الاستقلال بالسلطة والمال ، ولست أقول : انى أعرف كل شىء عنها أو أحرض عليها ، وإنما أقول : ان وعد الله حق ، والحرب التي ذكرها الله في القرآن من أجل المال قد قامت وذلك قوله : فأذنوا بحرب من الله ورسوله .

موازنة آراء علماء الإسلام في الربا بأراء الاشتراكيين

يقول علماءنا رحمهم الله في قوله تعالى (وأحلّ الله البيع وحرم الربا) ان هذه الآية من المجمل الذي يرجع في بيانه إلى الحديث الشريف فان قوله : وأحلّ الله البيع يفيد جواز جميع البيوع سواء أكانت فيها هو من جلة ما فيه الربا أم من غيره ، وقوله : وحرم الربا يقتضى تحريم جميع البيوع سواء أكان فيها فيه التفاصيل في النقد والنسيئة أم في غيره لأن كل بيع يقصد به الزيادة ولا معنى للربا في اللغة إلا الزيادة فيرجع في هذا المجمل إلى الحديث الشريف ، وقد ورد في الحديث بيان ما فيه الربا ، وهو ستة أشياء الذهب والفضة والبر والشعير والخمر والملح .

والربا قسمان ربا النسيئة ، وربا النقد ، ويقال له ربا الفضل : أعطى زيد عمرا عشرة دنانير إلى شهرين مثلا ليأخذ ١١ ديناراً ، وهكذا البر والشعير ونحوهما ، فهذا هو ربا النسيئة .

وهكذا اذا أعطاه ١٠ دنانير في الحال بما يوزنها من الذهب بان كان حلياً وزاد عليها زيادة ما ، وكان ذلك في الحال فهذا ربا النقد ، ومثل ذلك ما إذا أعطاه برّاً أو شعيراً مثلا عشرة أرباب وأخذ منه أحد عشر بان كان هذا رديئاً ، وكان الأول جيداً مثلا ، وكان في الحال فذلك يقال له ربا النقد .

فأما اذا اختلف الجنس بان أعطى ذهباً بفضة أو فحماً بشعير ، فذلك جائز فيه التفاضل قد ايداً بيد ، ولم تكن العرب تعرف من معنى الربا إلا الربا النسيئة ، وهو المتعارف اليوم ، وهو الذى قاله ابن عباس ولم ير غيره ، ذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدراً معيناً ويكون رأس المال باقياً ، ثم اذا حلّ الدين طالبوا المدينون برأس المال فان تعذر عليه الأداء زادوا في الحق والأجل ، فهذا هو الربا الذى كانوا يتعاملون به في الجاهلية ، فعمله ابن عباس عليه ، ولكن الحديث أثبت غيره ، ويكون محصل الصور ثلاثة بيع مطعوم مثلا بدرهم أو دنانير يجوز نقدا ونسيئة ، بيع دراهم بدنانير يجوز التفاضل فيه لكن يكون نقدا وكذلك الشعير مثلاً بالبر ، فإذا أعطاه أردباً بأردبين جاز بشرط أن يكون حالا ، فأما الذهب بالذهب والفضة بالفضة والشعير بالشعير ، فلا يجوز الامتلا بمثل نقدا ، هذا ملخص ما جاء في الربا .

ولما كان هذا المقام يحتاج إلى بيان الحكمة التي حرم لأجلها الربا وإلى بيان تحديده والأصناف التي حرم فيها يجب أن نبين ذلك على ما قاله العلماء ، فان الله عز وجل لما قال العرب : إنما البيع مثل الربا لأن كلا منهما يقصد به الفائدة فكيف يباح أحدهما ولا يباح الآخر ، وترجيح أحدهما على الآخر تحكماً أوجب سبحانه بقوله : وأحلّ الله البيع وحرم الربا ، وترك الأمر ولم يبين إلا الحكم وحده تاركاً لعلولنا التفصيل مع الوقوف عند النص ، فلنبين الحكمة التي قالوها أولاً ثم نتبع ذلك بما يكون فيه الربا ثم نذكر مذاهب الاشتراكية .

حكمة تحريم الربا ورأى الامام الغزالي

ولقد رأيت للإمام الغزالي هنا قولاً مفصلاً أخصره لك مع الفائدة فأقول : قال : ان الذهب والفضة لا يقصدان لذاتهما وإنما هما وسيلتان إلى التبادل ، فإذا كان عند امرئ جبل وعند آخر زعفران وكلّ

منهما يريد أن يعرف ما المقدار الذي يستحقه الآخر في مقابلة ما عنده وكان هذان التقدان حكيمين فيقال :
هذا الجبل يساوي ٢٠ ديناراً ، وهذا الزعفران يساوي عشرين ديناراً ، وشيطان يساوي شيتاً واحداً يكونان
متساويين ، وهذان الحاكمان من حجر فيهما وجسهما فقد ظلم وكانه حبس القاضي الذي يقضي بين الناس
فيصل مصالحهم .

وهكذا المعلومات لا يجوز أن تجعل سلعا تباع وتشتري قصداً وبالذات فإن فصل ذلك أصبحت مقيدة
في أيدي الناس ، وكان الاحتكار والاضرار بالناس ، والناس في حاجة إليه والحاجة إلى الطعام شديدة ، فينبغي
أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يمس على الأطلعة إلا مستغن عنها إذمن معه طعام فلم
لأياً كله ان كان محتاجاً ، ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله تجارة فليعه عن يلبسه بوضع غيره الطعام
يكون محتاجاً إليه نعم بائع البر بالخمر معنور إذ أحدهما لا يبتدئ مسد الآخر ، هذا ملخص ما قاله الامام الغزالي .
وأنت ترى أن هذا القول وان كان حسناً لا يكفي لمعرفة الحكمة ، فلنذكر ما قاله غيره . قال بعضهم :
« انما حرم الربا لأنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب ، وذلك لأن صاحب الدراهم اذا تمكن بواسطة
عقد الربا من تحصيل البرهم الزائد هكذا كان أونبيته خفت عليه اكتساب وجه الميثة ، فلا يكاد يتحصل
مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة ، وذلك يفضي إلى اقطاع منافع الخلق ، ومن المعلوم أن مصالح
العالم لا تنظم الا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات . »

وقال آخرون : « ان الغالب أن المقرض يكون غنياً والمستقرض يكون فقيراً فالقول بتجوز عقد الربا
يمكن للفني من أن يأخذ من مال الفقير الضعيف مالا زائداً وذلك غير جائز ، هذا أهم ما قاله علماؤنا في
حكمة التحريم .

ما الأصناف التي يحرم فيها الربا ؟

تقدم القول ان تلك الأصناف ستة ولكن هذه الستة لا يصلح الناس لمخصمت ؟ وهنا أخذ العلماء
يبحثون ، فأما الشافعي رضي الله عنه فقال : هذا يدل على أن المقصود بالربا هو الطم والنقد لأن
الحديث انما ورد في التقدين والمعلومات فلنحمله على كل مضمون قياساً على ما ذكر في الحديث ، وقال
أبو حنيفة كلا فإن المدار علم التقدير وهذه الأشياء مقدره ، أماني الدراهم والدينانير والوزن ، وأما الأشباه
الأربعة فالكيل مع اتحاد الجنس في الجميع ، فكأن أبا حنيفة راعى تلك الأشياء من حيث انها مقدره فقياس
عليها كل مقدر بكيل أو وزن كالقطن والنحاس والجمس والنورة .

وقال آخرون كالامام مالك : ان المدار على القوت لأن هذه الأربعة من الاقوات فيقيس عليها غيرها
ومذهب الشافعي المتقدم يدخل فيه الفخار والقواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة .

وقال آخرون كابن الماجشون : ان كل ما ينفع به فيه الربا ، وهذا أعم الاقوال عند علماء الاسلام ،
واعلم أن هذا القول يناسب الحكمة التي قدمناها عن بعضها ، وهي أن المرابي قد أخذ مالا بلا مقابل
ولا جرم أن من أخذ الزيادة في مكيل أو موزون أو غيرهما من حيوان أو نبات أو معدن أو أرض قد أخذ من
الناس مالا بلا منفعة تعود على نوع الانسان فما الذي ناله الناس منه حتى أخذه ، ان الزارع والتاجر والصانع
يرزون للناس ما ينفعهم فما الذي جعل المرابي الجالس على كرسيه ، وغيره يخرج من الأرض أو يصنع أو يتقل
البضاعة من بلد إلى بلد ويأخذ في مقابل ذلك ثمناً يزيد على الثمن الأصلي ، لهذا فلا يفعل شيئاً ، وهذه
الحكمة لا تفرق بين مكيل وموزون ومصدود ، وهذا هو الأقرب للعقل وللواقع .

ولما اضطرت أقوال علماء الاسلام فيها ورد عن صاحب شريعتنا عليه السلام لعدم تحديده تحديدا تاما قال ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا وما سألناه عن الربا ، ومقصود ابن عمر أن هذه الآية من الجملات ثم جاء الامام الفزالي في مقام آخر وأبان أن كل هذه المعاملات والشروط والحدود والقوانين والعقود إنما جعلت لأجل قسور الناس وعقولهم الضعيفة وحوصهم ، والا فالناس جميعا متفاهنون ، ويجب أن ينال كل حظه من العمل ومن المال ولا يدخر أحد شيئا بل يبيع كل واحد أعناه بما زاد عن مقداره ما يحتاج إليه ، وهذا القول أشبه من بعض الوجوه بأقوال الاشتراكية في زماننا . قال :

« من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكفزه وأسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا إذ بها تندفع ضرورتهم وترتفع حاجتهم ، ثم لا يدخل هذا في فتاوى الفقهاء لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس في استنطاق الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمال غير معلومة ، فتكليف العولم ذلك مجرى تكليف الصبيان الوقر والتؤدة والسكون عن كل كلام غير مهم وهم يحكم نقصانهم لا يطيعونه ، فتركنا الاعتراض عليهم في اللب والهمو ، وباحثنا ذلك إياهم لاندل على أن اللب والوهم حق فكذلك إباحتنا للعولم حفظ الأموال والاقتصر في الاتفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جابوا عليه من البخل لاندل على أنه غاية الحق ، وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى : « ان بسألكموها فيحسبكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » بل لطف النبي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الرابك ، فكل عباد الله رابكا لطلب الأبدان الى حضرة الملك الديان ، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن رابك آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن مساوى زاد الرابك وبال عليه في الدنيا والآخرة ، فمن فهم حكمة الله في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات اه

فها إذا ذكرت لك مسألة الربا في الاسلام ، فانظر كيف كان ابن عباس يقصره على الرابك المعروف الآن في سائر الأمم وعند الجاهلية ؟ وهو ربا النسيئة وانظر كيف جاء في الحديث شموله لسة أشياء في التقدين وفي المعلوم ، ثم كيف توسع العلماء في القياس من معلوم الى قوت الى كل ما يكال ويوزن الى كل ما ينتفع به ؟ وكيف كانت الحكمة ؟ وهي تعطيل طائفة من الناس عن العمل مطابقة لأعم الأقوال وهو القول الأخير ، ثم انظر كيف أبان الامام الفزالي ما هو أوسع من ذلك ؟ وجعل الناس أطفالا جهالا ، وأن تلك الشروط والقوانين ما جعلت إلا تلبية لعقولهم الضعيفة ، وفوسهم السخيفة ، والا فالناس كلهم اخوان ، فليعط كل منهم الآخر ما يزيد عن حاجته ، ولصوى ان الاشتراكية المسماة بالشفية في البلاد الروسية مجرت عما وصل اليه الامام الفزالي إذ أرادت نزع الملكية العاتمة فجبرت ، وأمرت أن تعطى لكل امرئ مقداره معلوما من الأرض كبلاد الصين فإن الملك هناك محدد لا يجوز لأحد الزيادة عن الحد المعلوم فيه ، هذا ما أردت ذكره في مذاهب الاسلام ، فلا ذكر آراء الاشتراكية :

آراء المذاهب الاشتراكية

وكيف كانت أبحاثهم قريبة مما ذكره علماء الاسلام

ألك فيما مضى كيف ابتدأ دين الاسلام بتحريم الربا ، وكيف كان رأى ابن عباس أنه لا ربا إلا في الصبغة وهو المتطرف الآن ، ثم جاء الحديث بنسة أشياء ، ثم أوسع ذلك علماء الاسلام الى أن جلوله في كل

ما كان مالا مادام من جنسه سواء أكانت الزيادة في النقد أم في النسيئة ، وإذا اختلف الجنس فليس كما نشاء
فبيع التمر بالشعير وزيد كما نشاء كالذهب والفضة ، وإلى هنا وقف جوابهم ، ومنتهى نظرهم ، ولكنهم من
جهة أخرى جعلوا أن هذا كله إنما هو لأجل الضرورة في أخلاق الناس وحوصم وجشمهم ، وهنا وصلوا إلى
غاية من الكرم والتساح حتى جعلوا أن ما يملكه زيد يجب أن يتصدق على الناس بما فضل عن حاجته منه
والا كان عبداً بخيلاً حراً أيضاً فلا يكثر الإنسان ذهاباً ولا فاقة ولا ماطماً ، بل كل ما فضل فهو للستحق ، وأنت
ترى كلام الامام الغزالي فيما تقدم ، ولكن الحق أن هذا القول لا يجوز الأخذ به على علته ، فإن لكل
إنسان قوة وقدرة واستطاعة لا بد من إبرازها إلى الوجود ، وهذه المسكلم التي ذكرها يجب أن تبحث عنها
مدققاً لتلا يسطي الناس المجتهدون ما لهم إلى من تكاسلوا عن العمل ، هذا خطر عظيم وتعلم أن هذا مذكور في
نبايا الكتب وليس هذا محل تفصيلها .

ولما كان الاسلام قد أشرب هذه المسكلم شاعت الأوقاف وجعلت لنوى الحاجة ، وترى أن الأوقف
في بلادنا المصرية تبلغ عشر الأملاك العامة ، ولعمري ان ذلك من آثار هذه المسكلم الاسلامية العامة ،
ومن آثارها الزكاة والصدقات العامة الواردة في الشرع ، وأكبر مصيبة اسلامية أن يسطي شيء من ذلك إلى
من لم يقم بما يستطيع من العمل ، فأما أولئك الذين لا يعملون يأخذون من الصدقات والأوقف وهم نائمون
بلا علم ولا فضل فأولئك علة على الأمة ومصيبة على الاسلام ، وقد آن أن أفضل لك آراء الاشتراكية فأقول :
يقولون : ان مصادر الأرزاق أربعة :

- (١) عمل العامل ،
- (٢) الأرض التي تعمل فيها .
- (٣) رأس المال .
- (٤) مدير العمل أو صاحب المشروع .

ويقولون : ان المال كل ما فضل عن حاجتك من طعام أو مصنوع أو غيرها ، فالتفلة والحصير والمكسك
والأرض التي لا تحتاج إليها تسمى عندهم مالا لأنك تقدر أن تبادل بها ، أما العرايم والهدايا فقد قلوا فيها
ما قلناه علماً وكلاماً كالغزالي ، وهي إنما واسطة للتبادل وتسهيل المعاملات ، بل قلوا هم أنها لا تسمى عندهم
مالاً لأنها لا تنفع في طعام ولا شراب ولا مسكن ، ويقولون : انما جاءت من مستلزمات الحضارة والنظام ، وهي
كانت الفوضى سقطت قيمة التعامل بهما وأضحى من عنده قبح شعير خيراً ممن عنده قطار ذهب ، وقد
سلكوا في التبادل الطريق التي سلكها علماء الاسلام ، فذكروا كيف يضطر الفقير أن يأخذ من التي أردبها
قبحاً بأردب ونصف بعد سنة ، وكيف يأخذ عشر جنينها بأحد عشر جنينها بعد زمن ما ، وبرهنوا أن ذلك
ضارٌّ بالمجموع الانساني ، وأن ذلك المرابي يصبح سيداً لم يعمل عملاً للمجموع ويصبح السادة الأغنياء مقرفين
منعدين والعيبد الأذلاء العمال في فقر مدقع مع الأشغال الشاقة ، فانظر كيف اخفق في التعليل وفي التحريم علمه
الاسلام وعلماء الاشتراكيين ، ولكن الاشتراكيون تهادوا في الأمر إلى حد بعيد جداً ، فأخذوا ينظرون
في أمر العمل وأسر المال ، وصاروا يقولون : ان الفنى الذي عنده ما يزيد عن قوته من الحنطة وما يزيد
يلزمه من الأرض يتعالى على العامل في المصانع وعلى الفلاح في الأرض ويقول : لكل منهما أنا عنك غنى
ويمكنني أن أستعمل غيرك ، فيعمل الطرفان عنده بأقل القيمة ، وكلما زاد العمال والمزارعون بوفرة العمران
لزداد أولئك الأغنياء ثروة وأصبحوا مالوك المال والناس لم عبيد ، وكلما زادوا ثروة زاد الفلاحون والعمال
فقرًا ودلاً ، فأما أولئك فلا عمل لهم إلا الزخوف والزينة والاسراف والبذخ .

ومما زاد الطين بلة الآلات الحديثة المتفرعة التي أخذت عن العمال ، فآلة تعمل ما يعمل آلاف من العمال فيصنعون عاطلين ، ويبيض المال فيضاً على صاحب رأس المال ، فالاشتراكيون يريدون أن تكون الأعمال العامة في المصانع وفي الأرض وفي التجارة في يد الحكومات والناس يعملون فيها كأ أسرة واحدة كل على مقدار طاقته ، أما ديننا الإسلامي فقد وضع بذور العدل والنظام بمسألة الصدقات والأوقاف ، وحب الرحمة والشفقة والرأفة والبر ، وحرم على الناس السؤال وبذل الوجه ، ولكن الأمة في العصور الأخيرة تعافت عن رضع الأمور في مواضعها ، فكثير من الأوقاف تصرف إلى من لا يستحق ، وهذا مخالف للدين ، ولآية الصدقات التي جعلتها للفقراء والمساكين والعاملين عليها الخ .

هذا ما أردت ذكره في هذا المقام ، وسيأتي في هذه الأمة من يفكرون لنظامها على مقتضى الشريعة الفراء ، وينظمون أوقافها وأعمالها نظاماً ينطبق على روح الشريعة ، ولا تكون مجموعاً غير منظم . وقد قال الله فينا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

الكلام على الدين والرهن

ولما حرم الله الربا أحل السلم وهو البيع لأجل ، وسن أن يكتب قتال : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) ويتخير المتدانيان كتاباً يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص (ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله) فمن من الله عليه بنعمة فشكرها صرفها فيها خلقت له والكتابة نعمة وشكرها إجابة من التوسوا ، وذلك سنة رواجب علينا أو كفاية أقوال لكل من أربابها وجهة ، وأقرب الأقوال أن ذلك سنة ، ولن يصح الوجوب إلا إذا تعين خطر كبير ولم يكن الأمن دعى لها والله أعلم .
والذين (فليكتب ولجللهم) (الذي عليه الحق وليتق) المملئ (الله ربه) ولا ينقص منه شيئاً (فان كان الذي عليه الحق) ناقص العقل مبذراً (أو ضيفاً) كصبي أو شيخ (أو لا يستطيع أن يمل) هو (لخرس أو جهل باللغة) (فليمل) قيمة إن كان صبياً أو مختلاً العقل ، أو وكيله ، أو مترجه إن كان غير مستطيع (واستشهدوا شهيدين) من الرجال المسلمين أدرجلاً وامرأتين في الأموال خاصة عند الشافعي ، وفي بقاها الحدود والقصاص عند أبي حنيفة وليكن الشهود عدولاً ، ولم يكتب بالواحدة فضم لها الأخرى لذكر إحداهما الأخرى . وحرم بالشهادة أن يجيئوا إذا دعوا لتحملها ندباً أو رجوياً عينا أو كفاية على ما تقدم (ولا تساموا) أي تملاوا كلا (أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله) فان (ذلكم) أكثر قسطاً عند الله وأثبت للشهادة ، وأقرب إلى أن لا تشكوا إلا إذا كانت تجارة حاضرة تديرونها بينكم من مباحة بدين أو عين بأن تعاطوها بينكم يدايد أي إلا أن تتبايعوا يدايد فلا بأس أن لا تكتبوا (وأشهدوا إذا تبايعتم) أي بيع ، ولا يفتي للتبايعين أن يضر الكاتب والشاهد فلا يكفانها الخروج عن مهمهما ، أولاً يمنعان جعل الكاتب ومثونه محي . الشهيد كما لا يفتي للكاتب والشاهد ترك الإجابة والتحرير والتغيير ، فلذا كنتم مسافرين (ولم تجدوا كتاباً) ليكن الاستيثاق (رهان مقبوضة) فان كل الأمانة ووثق كل بأخيه (فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه) في الخيانة وانكار الحق (ولا تكتبوا الشهادة) أيها الشهود أو المديونون ، فالمرء مطالب بالشهادة على نفسه (ومن يكتسبها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) تهديد .

الكلام على قوله تعالى : واتقوا الله ويملككم الله

أي اتقوه في مخالفة أوامره ونواهيه الدينية ، ويملككم أحكامه المتضمنة لمصالحكم . يقول الله : ليس تعليمي لكم خاصاً بالصلاة والزكاة وما أشبهها ، إن الدين لا يقوم إلا بمصالح الدنيا ، وأنا أعلم بهما فلتقوموا

بالأمميين ، وهذا باب واسع لفروض الكفايات التي سأشرحها في آخر السورة ، وأن المسلمين يمدبون في الدنيا والآخرة إذا لم يقوموا بصلاتهم في نظام الأرض وسعادة الأمم لأن الله بكل شيء عليم ، ومن علمه بهلنا مصالح الدين والدنيا فإذا اتقنا أحدهما خسر الآخرة معاً ، فالسلمون اليوم لما جهلوا أمر الدنيا قصص الدين وخسروا الدين ، وقد آن أن يرجعوا إلى رشدهم ويقوموا بالعلوم ويعرفوا الصناعة ، وأنت أيها الفطن خير بما ورد في العلم من الأحاديث والآيات فلا تطيل بذكره فقرأه في البخاري وفي الأحياء ، والله يهدي إلى الرشاد .

(المقصد المتم للعشرين)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَنْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (لله ما في السموات وما في الأرض) فهو العالم بما فيهما ، ولا جرم أن أخلاق العباد وأعمالهم مكتوبة لديه ، معلومة عنده ، مخزونة في الأقدرة (أن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فكفى بنفسك عليك أيها الإنسان حسيبا (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) وهذه الأحكام والشرائع في القرآن (آمن الرسول) بها (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) يقولون (لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا) (وأطعنا) (وأطعنا) أمرنا (اغفر لنا) (غفرانك ربنا وإليك المصير) المرجع ، لم يجعل الله أحدا فوق طاقته و (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) فمن آتاه الله مالا ، أوجبه ثروة ، أو آتاه قوة ، أو أورثه علما ، أو منحه فطنة ، فليشكر الله على نعمته برفد اخوانه ، وليكن لهم شماسا تضيء لها ما كسبت) من الخير (وعليها ما اكتسبت) من الشر (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا) تركنا أمرا من أمرنا (أو أخطأنا) من تفریط وقلة مبالاة ، وهذا دليل على جواز المؤاخذة في النسيان والخطأ خلافا للمعتاد ، ولولا جواز المؤاخذة عليهما لم يكن للسؤال معنى (ربنا ولا تحمل علينا إصرا) عبثا بأصراعهم أي بحبس مكانه لتقله استعير للتكليف الشاق (كما حملته على الذين من قبلنا) كاليهود والنصارى (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) من العقوبات النازلة بمن قبلنا (واعف عنا) ارحم سيئاتنا (واغفر لنا) واسترذنبنا ، والأول للكبار ، والثاني للصغار (وارحنا) بذلك (أنت مولانا) ناصرنا ومتولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) فمن حق المولى أن ينصر من تولى أمره . انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح

هنا يحسن الكلام على قوله تعالى « وان تبدوا ما في أنفسكم لوثغوه بجهابكم به الله » الآية بايضاح
 فنقول : قوله تعالى « وان تبدوا ما في أنفسكم لوثغوه بجهابكم به الله » يفيد أننا معاشر الآدميين محاسبون
 بما رسم في صدورنا ، وما قام بأفئدتنا ، فتارة يفرلنا وتارة تعذب على ذلك ، وبيانه أن أرواحنا أشبه بلوح
 محفوظ يرسم فيه ما يرد عليه من الخواص الخمس ، وما يقوم به من فكر ، فإذا مات الانسان ظهرت له صورته
 الحقيقية ، واطلع على جميع ما كان يتصوره في الحياة من خير وشر وعزم وكسل وتجبلي له نفسه تجليا واضحا
 كأنها خريطة فيها رسوم مختلفة فينظر من الصور القبيحة فيها ويفرح بالصور الجميلة ، قال تعالى « يوم تجد كل
 نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله
 رءوف بالعباد » وقال تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . فحصل النفس هي المحاسبة
 لأنها هي المطلعة على عوراتها وقبايحها ، وتفكر أيها الفطن كيف تألم في الدنيا إذا اطلع أحد على ما أضمرنا
 من عمل قبيح ، أو نوبنا من نية سيئة ، ونحن نكتم أعمالنا وما نؤيناه ، فإذا نشرت هذه الأعمال دفعة
 واحدة واطلع عليها من كنا نحاذر فكيف تكون حالنا ؟ ذلك هو الخزي العظيم .

وتأمل في قصة مريم كيف تقول لما اطلع قومها على أنها ولدت من غير زوج : « يا ليتني مت قبل هذا
 وكنت نسيا منسيا » وكيف يقول الله تعالى : « ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا » فالكافر يتمنى لو يكون
 ترابا ، ومريم تمنى لو تكون نسيا منسيا ، فأما مريم فللخزي الذي يلحقها من قومها ، وقد عرفت هي وأهل
 بيتها بالاهلرة والشرف ، فللخزي والعار على مقدار المظهر : وهكذا الكافر رأى علمه جهلا ، وصالح الصل
 قبيحا ، ف يريد أن يتوارى بالحجاب فلا يجد لذلك سبيلا ، قال تعالى : « لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة
 الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وهم لا ينصرون » ، وقال : « ربنا لولا أرسلنا إليك رسولا فنتبع آياتك من
 قبل أن نذل ونخزي » .

واعلم أن نفس الانسان تسع جميع هذه الصور من أول الحياة الى آخرها كما يرسم في الهواء جميع صور
 الأحياء فتصل الى أعيننا ، ورسمها فيها أشبه برسم الصور في المرآة فانها ترسم فيها بحالة لطيفة في الطبقة
 للأثيرية ، والنفس قبل من الصور على هذا النقط مالا ينهائى ، ولذلك ترانا نتذكر حوادث وعلوما كثيرة مخزونة
 في نفوسنا ، وهذه الصور لا تنسى عند النفس وإنما نسيانها في الحياة الدنيا لضغنا هنا قال تعالى : « أحصاه
 الله ونسوه » وإذا أحصى الله أعمالنا عنده فقد أودعها في نفوسنا لقرأها قراءة حقيقية ، والله تعالى يحاسبنا
 على تلك الصور ويكون الضفران والعذاب .

فكل حركة وكل فكر في النفس يدون فيها ويظهر لنا بعد الموت ، فليحاذر المرء فالحياة قصيرة .

على نفسه فليحذر من ضاع عمره . وليس له منها نصيب ولا سهم

وأما قوله تعالى « آمن الرسول » الخ فاعلم أن هذا ختام السورة المشتمل على ملخص ما فيها ، وبيانه
 لن السورة جاء فيها أمران : وهما الإيمان والعمل ، فالإيمان في أوّلها إذ قال « الذين يؤمنون بالغيب » الخ
 ثم ذكر المنفقين والكافرين وأتى بأدلة الألوهية وضم اليهود وعدد فضايقهم ، لأن مقالاتهم كانت منقضة
 لا يعقل للمؤمنين ، وهنا في الجزء الأول من السورة ، وأما الجزء الثاني فإنه أبلغ فيه الصلاة والصيام والحج
 وأعمال البر من الصبر والاحسان والصدق والتقوى ومعاملة النساء وصيانة اللسان عن الحلف ، ثم ذكر الجهاد
 والحفاظ على البلاد ، وفضيلة الانفاق . وترك الربا ، وكيفية المعاملة ، فرجع الأمر إلى اثنين [إيمان وعمل]
 فالإيمان في قوله « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » الخ ، والعمل في قوله « وقالوا سمعنا

وأطنا غفرانك ربنا . فلفظ كيف كانت النافذة على ترتيب السورة ، ثم تعجب أيضا في ترتيب اليمين بفتح
والملائكة والكتب والرسول ، ذلك لأن الله أشرف نوره على الملائكة ، وأشرف منهم على الأنبياء ، فالملائكة
واسطة . قال تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيبوحى بأذنه
ما يشاء » الخ ، فطه كالشمس والملائكة كالقمر ، ونور الشمس المشرق على القمر أ . به بلوحى الصالحون
لله للأنبياء بواسطة الملائكة ، وهنا سؤال ، وهو أن يقال : أيهم أفضل الملائكة أم الأنبياء ؟

وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا كثيرا لافادة فيه إذ لا أثر له في القول ولا فرق في التطين . فمن
الناس من يقول : الأنبياء أفضل من الملائكة ، ومنهم من يقول : الملائكة أفضل من الأنبياء ، وهؤلاء أفضل
من الملائكة الأرضيين ، ويقولون : النبي أفضل من غيره من الناس ، ومن الصوفية من ينزع في تفضيل
سائر الأنبياء على سائر الناس ، بل يفضلون بعض التخصيص .

ثم اعلم أن الأحوال ثلاثة : ماضية وحالية ومستقبلية ، فقول « آمين الرسول » الخ إشارة إلى البدء ، وقوله
« سمعنا وأطعنا » إشارة إلى الحال . وقوله « غفرانك ربنا وإليك المصير » إشارة إلى المستقبل . وهذه
الجل ألقى بأواخر الكلام كما هنا ، فتعجب .

وقوله تعالى « غفرانك » أي لغفر غفرانك ، روى في الحديث الصحيح « إن الله مائة جزء من الرحمة
قسم جزءا واحدا منها على الملائكة والجن والأنس وجميع الحيوانات ، فيها يترجون وادخر تسعة وتسعين جزءا
ليوم القيامة » فهذا الحديث يفيد أن هذا العالم المادي لانسبة بينه وبين ذلك العالم الذي تجلي الله فيه على
عباده وظهرت رحمته بأجل مظهرها . وفي الحديث أن النبي ﷺ قال « انه ليخان على قلبي واني لأستغفر
الله في اليوم والليلة سبعين مرة » ويقول العلماء : ان كل ما علمه الصدمهما عظم في جانب كبرياء الله عز وجل
ضئيل قاصر ، فذلك كان ﷺ يستغفر من كل مقام يصل اليه ، لأن كل مقام دون مقام الجلال الأعلى .
قال الله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لما ما كسبت » من خير « وعليها ما اكتسبت »
من شر الى قوله « لا تؤاخذنا » أي لا تعاقبنا ، والاصر الثقل ، والطاقة اسم من الاطاقة ، والعموان يخط عنه
العقاب ، والمغفرة أن يستر عليه جرمه صونا له من عذاب التخييل والفضيحة ، والرحمة نعيم الجنة ، وقوله
« أنت مولانا » يراد به أن يستغرق العبد في جلال الله وجماله ، ويفرح بهذا الاستغراق وهو منتهى اللذات
فهذه مراتب أربعة : مرتبة ترتيبا حقا ، سقوط عقاب جسمي بالمغو وستر الذنب بالمغفرة فلا يتضح ، ونعيم
الجنان والاستغراق في الجلال الأعلى .

واعلم أن كل امرئ مسئول عما يلقه من الأعمال ، فأف لمن كان ذكي الفؤاد سليم العقل قوي البنية
ثم ينام عن الأعمال النافعة لأمنه ، وعنده قدرة تفوق غيره ، وكيف ينام القادر بعم أو بمال أو بقوة بدنية كيف
ينام عن مساعدة المجموع ، الله يقول : لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وهذا أدعو جميع الأذكيا والطماء والأغنياء
والفقراء : فيا حسرة على من عنده علم أن يصبر ويصت ، بل لينشره ، ويا حسرة على من هو قادر على عمل أو نصيحة
أن يذر الناس يتخطون ولا ينصحهم ، ويا حسرة على من عنده مال أن يذر الأمة الجاهلة فلا يسي لرقبها بالطرق
الشريفة العالية ، وليس معنى قولي أنه يعطى المال للقادرين على العمل ، وإنما يسي لهم في عمل الشركات
ويجني رأس المال ليكون أداة صالحة للعاملين من أبناء الأمة في الصناعة والتجارة مع الأجر المناسب والكسب
اللائق ، فيأويل من ضاعت حياته وهو غافل عما حو . الطاقة متفاوتة ، فن الناس من يطبق فتح نفسه
قط ، ومن الناس من يقدر على اسعاد أسرته ، ومنهم من يقدر على إرشاد أهل بلدته ، ومنهم من يقدر على
لرشاد أمته ، ومنهم من يقدر على هداية جميع الأمم ، وكل من قدر على شيء من ذلك وغفل عنه أو أهمله اعتراه
عند الموت من الآلام ما لا يطاق وندم ، ولات ساعة مندم ، وربما عذب زيد على ترك عمل لا يندب عليه خالد ،

لأن هذا عذاب دائم ، فيه كل يترقى إلى الملا في تلك الساعات العالية ، فلذا فاز غيره وهو نائب ، وقد أمكنه ذلك تحصر حسرة لا مبدئ لها ، وتدم ندامة الكسي « ولات حين مناص » .

واعلم أن هذه الندامة دائمة وبالطيرة ملازمة ، والعذاب واقع ، فيا حسرة على امرئ قد عرف على هذا المعروف وبطل به ، ويا حسرة على من قدر على نفع الناس ونام عنه ، إن المقام مقام ارتقاء في الحياة الأخرى والارتقاء بالأعمال والأعمال بالامكان ، فمن أمكنه وفرط نعم على أنه لم يرتق في تلك الساعات العالية ، وليس يدرك ما قلناه اليوم إلا ذو بصيرة وهقل مشرق « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

اختلاف العقول وواجب الحكومات الإسلامية

اعلم أيديك الله أن عقول الناس مختلفة اختلاف ألوانهم وأشكالها ، فترى أن الجنس الأبيض من نوع الإنسان اتفقوا بيانا واختلافوا فيه بحيث لا يتساوى بياض عمرو بياض خالد ، وترى لسكر عيني وأفق وحاجبين وفناء وقد اختلفوا اختلافا حقيقيا بحيث لا يتشابه وجهان على ظهر البسيطة ، هكذا عقولهم ، فهم وإن اتحدوا فيها قد اختلفوا في قابليتها وكل له استعداد يناسبه ، وفي العقول من الكنوز ما إن مفتاحه ليعوزها رجال ذووهم يضعون كلا في المقام الذي استعمله ، ولقد جعل الله الأرض مختلفة البقاع ، ولا قبل من النبات الأعلى مقدر استعدادها ، وكذلك النبات ، كل له مقام معلوم ، فمن النبات ما لا ينبت إلا تحت الماء كقصب السكر والأرز والبلوط وأنواع من العكروش ، ومنها ما ينبت على وجه الصخر كخضراء اللبنة وهكذا ، ثم إن النباتات التي فيها أعضاء التناسل غير مجتمعة في زهرة واحدة يكون سلطانها في المناطق المحترقة بين المدرين ، ولطالما دهش السائح تلك المظاهر الجلية ، وتأمل تلك المراعي البهيجة فيها قطائع الأنعام سارحة هائمة لا يقودها قائد ولا يسوقها سائق ، والنباتات التي فيها تلك الأعضاء مجتمعة في زهرة واحدة يكون سلطانها في المناطق المعتدلة والنباتات التي أعضاء التناسل فيها خفية يكون سلطانها في المناطق الباردة .

ولقد خصص الله كل أرض بحد من النبات فتجد في بلاد فرنسا ٨٣٠ جنسا ، وفي النمسا ٦٠١ وفي [لابونيا] ٣٠٠ ، وفي مصر ٤٣٠ وفي غيانة ٦٠٠ ، وفي جزائر المالديفات ٢١٢ .

جدول لذكر الأجناس والأنواع في بعض الأماكن

أنواع	أجناس	
٦٠٠٠	٨٣٠	فرنسا
٤١٠٠	٦٠١	نمسا
١١٠٠	٣٠٠	لابونيا
١٦٠٠	٥٠٠	بلاد الجرب : أي المغرب
١١٠٠	٤٣٠	مصر
١٢٠٠	٦٠٠	غيانة
٢٥٠	٢١٠	أسلندة
١٤٠٠	٥٠٠	جتيك
١١٣	٥٥	تريستان الكونا
٣٧١	٢١٢	كزى (من جزائر المالديفات)
١٦	٣٥	هيلانه

وترى أن الحكمة خصصت لكل ما يحتاج إليه ، فقلّ الهواء وكان الماء أقلّ منه والحدوب أقلّ من الماء والجواهر والمعادن أقلّ من الطعام ، ثم الجواهر النقية أقلّ من الجيع ، ثم إن الراديوم ذا القوّة المدهشة الذي ظهر حديثا نادر جدا في الطبيعة ، هكذا قول : إن الله جعل نوع الإنسان منه من خصمهم الله بحسب فطرهم إلى العمل الجسمي وهم الأكثرون ، وهذه الفئة طبقات بعضها فوق بعض ، وكل من كلن أدقّ ففكرا كان أقلّ وجودا كأنشاهد في ذوى الصناعات الدقيقة ، ويلهم العلماء والحكماء ، ثم الأنبياء ، وهم أندر كل راديوم في المعادن ، قضت الحكمة أن يكون لكل شيء قدر ، وأن تكون العقول مختلفة كما اختلفت المشاهدات .

فكما أنط الله بالهواء سائر الحيوان والنبات للتففس في جميع الأوقات ، وبالماء كل حيّ وقتا دون وقت وبالقوت في أقلّ من ذلك ، وباللواء أدنى من ذلك وجعل المعادن أقلّ من القوت طلبا ، ولم يجعل من الراديوم دراهم ولا من الذهب محارث ولا من الحديد أقواتا ولا من الخنطة بحارا ولا من الماء جوا يحيط بانكسرة ولا من الهواء جوا يصل إلى كرة الشمس بل جعله إلى حدّ فوقنا .

هكذا رتب عقول الناس على هذا النمط ، فلم يكثر من الأنبياء حتى يملؤا القرى ، ولا من ذوى الصوت الجليل والصور الفاتنة لئلا يفتن بهم الناس ، ولا جعل في كل قرية حكما فيلسوفا ، ولا أكثر من الأذكيا المفرطين في الذكاء ، ولم يقلل من ذوى الأجسام القوية لئلا تضع الأعمال ، وإنما كثر في النفوس وفي العقول مواهب مقدرة بمقدار الحاجة ، ثم بعد أن رتب ذلك عملا قال على لسان رسوله « لا يكلف الله نسا إلا وسعها » ليطلق قوله فعله ، فذكر الوسع ، وذكر التكليف ، وجعله منوطا بالوسع ، وقال في آية أخرى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » فرأينا لكل مخلوق عملا ينحصه ، ورأينا الاختلاف في الموجودات وفي الجسود السابق في النبات ، فقلنا . لقد صدق قوله تعالى فعله « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » بل كل شيء عنده بمقدار .

هذه أشياء يراها الناس ولكنهم لا يشكرون ، فيقسمون العلوم على مقدار العقول كما زرع النبات على مناطق الأرض .

الله قد سهل هنا للناس ليفقهوا فجعل الجبال الشاهقة التي بين المدارين العالية رموسها عن السحاب جامعة لجميع خصائص الأرض كلها ، فلما كانت مخزنا للياه جعلت مخزنا للعلوم والحكم المنقوشة على ظاهرها ، فترى أن جميع مناطق الأرض وانحصة في آن واحد على مهابط هيباليا والجبال المسماة [كرد لير] فإن أعلى الجبل يمثل القطبين .

وأوسطه يمثل المناطق المعتدلة ، وأسفله يمثل المناطق الحارة ، وكل منطقة يفت فيها ما خلقته ، فانظر كيف أوضح الله للناس طرائق الاستعداد بتوزيع النبات على المناطق ، ثم أعطاهم درسا سهلا ، فرسم الجبل على مثال الأرض ، ولما جهلوا هذا كله ، قال لهم على لسان رسوله بألفاظ يفهمونها « لا يكلف الله نسا إلا وسعها » يقول الله : أنا قلت لكم في هذه السورة « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون » وأبنت لكم أن النظر في الأرض ونحوها يقيدكم تفكلا ، فلذا مجزتم ضاهوذا رسولى أقول على لسانه : « لا تكلف نفس إلا وسعها » فسكا لا يثبت في المناطق الباردة بكثرة النباتات التي أعضاء التناسل فيها غير مجتمعة في زهرة ، هكذا لا يثبت العلم الرياضى أو الطبيعى في عقول خائفة ونفوس كاسية ، فكم خزنت لكم في عقول الناشئين في القرى والبلدان

من قانس وفخائر كاخزوت في الجبال الذهب والنحاس والحديد ، ودفت في الأرض الفحم والماس ففرايز
 للقول أي استعدادها يكفل لكم كل ما تطلبون ، وهل تظنون أني أهبنا لكم أكثر من ذلك .
 ضربت لكم الأمثال في المناطق ونباتها ، والجبال ورسومها وقوشها ، ولما يجزتم أسمعتكم هذه المعاني
 بألفاظ كما أسمع العينان ، فاذل بعد ذلك إلا أن تنظروا ما ضحك اني آليت بعظمي وجلالي أن لا أنزل نعمة
 إلا بقدر « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

نظام الحيوان على منهج حواس الانسان ومنافعه

ألم تروا يا عبادي أني جعلت الحيوان مخصصا على المنهج الذي سلكته في خلقكم ، ألم أقل لكم في كتابي
 « وآتاكم من كل ما سألتموه » ولقد أعطيتكم كل ما سألتم بقدر وظلم .
 ألم تروا اني حواسكم الخمس ، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ان لها لطالب نقلت الطيور
 المفردة الحسنة الصوت المفرح السار الذي يذلتع أسباعكم بمجمل الغمات ، وخلقتم أمثال الطلوس وسائر
 الحيوانات والطيور الجميلة ، والصور البديعة ، والجمباب المفصلة في أنواعها ، وأجناسها متميها لأبصاركم وبهجة ،
 ومن ذلك السر والمرجان جعلتهما لذة للناظرين ، وخلقتم غزال المسك تأخذون من نواجذها لذة ماشتم من
 الروائح إجابة لؤلؤكم ان أحييت لذة فيما تشمون وخلقتم لكم اللبن والسمن والخبز واللحم في حيوان البر
 والبحر لتذوقوا لذتها ولتقتنوا بألبانها غذاء متاعا إلى حين ، ومن ألبانها العسل الذي به تتداولون وتتفكحون
 « وما كنا عن الخلق غافلين » .

وخلقتم لكم الحرير الناعم الملمس لتمتع به حاسة اللمس التي بها طلبتم أن أسعدتها بلذتها وجعلت ذلك
 قننة لكم غالية الثمن ، أخرجته السود فكان زينة لكم وبهجة للاسفين ، وكسوتكم بما طلبتم للدفء من
 جلود الأنعام وأشعارها وأوبرها وجمعتها آتانا لكم ومتاعا إلى حين ، وجعلت منها أحذيتكم وبيوتنا تحملونها
 من بلد إلى بلد آخر ، كل ذلك وقاية لأجسامكم أن يهلكها الحر والبرد بما تحسون بحواس اللمس فتهلكون .
 أي عبادي : ألم تروا كيف قسمت الحيوان قسمة صادقة على حواسكم الخمس ومطالبكم التي طلبها حواسكم
 وهل تظنون أني أقرب الغافلين عن حتى التامنين النامنين ؟ كلا وعزتي وجلالي لا ينال عهدى الظالمين ،
 انظروا ماذا في السموات والأرض أعطيتكم على مقدار ما تطلبون « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله
 الا بقدر معلوم » فلذا أردتم يا عبادي أن تتلوا نعمتي فاعثوا في العقول عن استعدادها كما يحتم في الجبال عن
 مصادمتها ، وفي التبات عن منابتها ، وفي الحيوان عن مناسبتها من حواسكم ، ولينهم أهل الخلق والعقد بتعليم
 الشب كله رجالا ونساء ، وليقتروا أجسامهم بالرياض الجسمية ، ثم ليصدقوا في اختبارهم وامتحانهم ، ثم
 ليجعلوا كل طالب ناصبا بما هو أميل إليه ، وإياكم أن تحيدوا عن هذا فانه ظلم مبین .

وهل رأيتوني أنبت [النيلوفر] في الصخر أو الأرز في الجليل ؟ ألم أضع كل نبات في مكانه اللائق له ،
 وكل حيوان في منطقته ؟ وفي حال تناسب منافعكم موزعا عليها بحسب ، كل هذا لأريكم كيف تستخرجون
 كنوز العقول وهي آمن ما خلقت لكم وأعز وأجل ، فشمروا عن ساعد الجدة ، ووجدوا حتى تظهر لكم أنوار
 التي كتبت في النفوس الانسانية في رجالكم ونسائكم ، ألم تهرموا قولي : « والله أنبتكم من الأرض نباتا »
 فهذا بعض سره المصون .

هذا ولعلم أيها القطن أن علماءنا رحمهم الله قد نهوا الناس لتلك فأوجبوا على ذوي الاستعداد للفقه مثلا
 أن يجتهدوا فيه لنفع الأمة ، فجعلوا الاستعداد سبب الوجوب ، فلنسر على منوالهم ، ولنسكن لنا عقول وأبصار
 وأبصار ، ولنفضل الصناعات والملازم الواجبة على المسلمين .

الكلام على العلوم الواجب أن كثرتها أو كلها على المسلمين في هذا الزمان

العلوم الواجبة على قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية ، وفرض العين هو ما يجب على كل مسلم ويحاسب عليه إذا تركه ، وينتاب عليه إذا آذاه ، وفرض الكفاية ما يجب على مجموع الأمة بحيث يعاقبون عليه جميعا إذا تركوه ، فإذا قام في الأمة رجال به سقط عنهم الطلب ، فالواجب العيني كعرفة الأمور العاتية في الصلاة والصوم وكذا الحج ، وكعرفة ترك الغيبة والنميمة ، وكبر الوالدين وما أشبه ذلك ، وأما فرض الكفاية فمثل سائر العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك والعلوم الطبيعية من المعادن والنبات والحيوان والانسان والفضوء والمنطابسية والحرارة والكهرباء ، كذلك جميع العلوم الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس المسماة [علم الأصول] والفروع ، وهو علم الفقه الذي يقوم به العلماء لنظام الدنيا وهم الفقهاء ، وهذه الفروع دينوية والفروع الأخروية من الأخلاق في التصوف ، وكالتمتات من اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبدع والنحو والاملاء والانشاء ، وكالتمتات من علوم القراءات ومخرج الحروف وتفسير القرآن وكصطاح الحديث ، فاذن العلوم الدينية أصول وفروع ومقدمات ومتممات ، ألا وإن المشتغل بالمقدمات من النحو والصرف وهو لم ينل بعد الفضائل الدينية ، والكمالات الاسلامية أشبه بمن له آلات الزراعة وهي كلمة كالمحراث والقانس ثم تركها ولم يشق بها الأرض ، ولم يستنبت بها نباتا فهذا مغرور ، فالآلات الزراعية من المحاريث والهجلات الدراسات السائر بالبخار ، والمخرجات للماء لاقتنى عن اخراج الزرع ، وهكذا العلوم اللسانية من النحو والصرف والمعاني وغيرها ان هي إلا مقدمات لعلم الدين .

الصناعات الواجبة كلها أو جلها على المسلمين

هذه الصناعات إما أن تكون حاصلة :

- (١) في الماء كالملاحين والسقائين والروائين والشرايين والسباحين .
- (٢) وأما أن تكون حاصلة في التراب كحفار الآبار والقنى والأنهار والقبور والمعادن وكل من ينقل التراب ويقطع الأشجار .
- (٣) ولما أن تكون حاصلة في النار كصناعة النفاطين والوقادين والمشطين .
- (٤) وأما حاصلة في الهواء كالترارين والبواقين والنفاخين .
- (٥) وأما حاصلة في الماء والتراب معا كالفضارين والقودورين وضرباى اللبن وكل من يبل التراب .
- (٦) وأما حاصلة في أحد المعادن كالحدادين والرصاصين والزجاجين والصوانيين .
- (٧) وأما حاصلة في النبات نحو الكنائين ومن يعمل القنب والورق .
- (٨) وأما حاصلة في ورق الأشجار وحطب النبات والحشائش ، أوزهر النبات ونوره ، والعروق والقشور ، كصناعة السقائين والعصارين والبزارين والشربجين .
- (٩) وأما حاصلة في الحيوان مثل صناعة الصيادين ورعاة الغنم والبق وسياسة الدواب والياطرة وأصحاب الطيور ومن شاكلهم .
- (١٠) وأما حاصلة في أحد الأجسام الحيوانية كاللحم والعظم والجلد والشعر والصوف والقرن كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والديباغين والأساكفة والجزلرين والسيورين والحذائين .
- (١١) وأما حاصلة في مقادير الأجسام مثل الوزائين والكيالين والنرايين .
- (١٢) وأما حاصلة في قيمة الأشياء كالصيرفة والدلائين والمقومين .

- (١٣) وأما حاصلة في أجساد الناس كالطب وصناعة الزينين .
 (١٤) وأما حاصلة في نفوس الناس وهي قسمان : عملية كمثل ما تقدم وعلمية مثل المنطق والعلوم الرياضية والطبيعية والالهية .

الصنائع كلها ترجع لأمر ثلاثة : الغذاء والكساء والبناء وكلها ترجع الى واحدة وهي حياة الانسان

اعلم أن الله خلق النبات والحيوان والانسان وجعلها درجات بعضها فوق بعض ، فالذي يكون أرفع شأنًا منها نجده أكثر احتياجًا ، وكلما قلت الحاجة كان أزل ، مثال ذلك النبات فما كان منه كالحشائش ينبت في الظل والندى ، وفي سائر الأرض بلا تعهد ولا فلاحه ، وترى أمثال القمح والتبن يفوزها العمال والحفظ والسقي وترى الناس يزولون الحشائش التي مازرعوها ، وهكذا ترى ما يزول الناس زرعه كالقثاء والنب ، فأول له من العمل بمقدار ثمرة ، والثاني أرفع ثمرًا ، وأبقى أثرًا ، وأشرف مقامًا ، فكان أحوج الى العناية ، فهكذا الحيوان أرفع من النبات لأنه يسي لرزقه والنبات لا يسي اليه ، وله حواس تهديه ، والنبات غني عنها ، فأما الانسان فإنه أكثر حاجة وأعظم شرفًا ، فانظر كيف سعى لغذائه كالحيوان وزاد افتقارًا عنه الى الكساء والى عناية أشد بالمساكن ، فعلى مقدار ارتقائه كان احتياجه ، وأهم حاجاته هذه الثلاث :

الغذاء والكساء والبناء

أما الغذاء فيكون من حب النبات وثمر الشجر وغيرها فكانت الحرثنة والفرس واثارة الأرض وحفر الأنهار وصناعة الحدادين والنجارين لمصنع الآلات ، ثم صناعة المعادن واستخراجها ، وهذه هي الصناعات التي تقدم الحرثنة ، ومنها صناعة البخار والكهرباء والبترو لتدور تلك الآلات الساقية والحرثنة ، ويتقدم ذلك صناعات كثيرة ، وهناك صناعات متممة للحب كالطحن والذق والعصر والتبزي .
 أما الكساء فإن الانسان لما احتاج الى ما تستغنى عنه البهائم من اللباس إذ خلق عاريا وهن كاسيات اتخذ اللباس بصناعة الحياة وهي لانتم إلا بالفرز ، وهو بالندف ، والندف يتقدمه الحلج ، وهذه مقدمات على الحياة ، والحياكة تنلوها الخياطة والرفو والطرز ، أما البناء فإن الانسان يستكن فيه من الحر والبرد والسباع ويخزن فيه القوت ، فتقدمه صناعات كالنجارة والحدادة وماشا كلها .
 وهناك صناعات جعلت للزينة كصناعات الديباج والحريز والعطير ، فهذه خلاصة ما يحتاجه الانسان في هذه الحياة .

قواعد الشريعة الاسلامية في هذه الصناعات

واعلم كقوله العلامة السيوطي في كتابه « انعام البراية لقراء النقاية » أن قواعد الشرع أن الوازع الطبيعي يضي عن الوازع الشرعي [مثاله] شرب البول حرام ، وكذلك التمر ، ورتب الحد على الثاني دون الأول لتفرقة النفوس منه ، فوكلت الى طباعها ، والوالد والولد مشتركان في الحق ، وبالغ الله في كتابه العزيز في الوصية بالوالدين في مواضع دون الولد وكولا الى الطبع لأنه يقضى بالشفقة عليه ضرورة ، هذه القاعدة نطبقها الآن على ما يحتاج له المسلمون فنقول :

قد استبان لك أن جميع العلوم والصناعات يقصد منها حياة الانسان وتهذيبه ورفقيه ، والصناعات ترجع الى مقصود بالذات وهي الثلاث المذكورة ، والى مقدمات لها وتمتمت ، وبعدها تكون صناعات الزينة ،

فصل رجال الخلق والعقد في الأمة الإسلامية أن لا يتركوا صناعة ولا علما إلا خصصوا لها أناسا، ولكن ذلك بحسب الاستعداد الجسمي والعقلي، فيوضع كل امرئ في مركزه الذي خلق له، وأن الله قسم العلوم والصناعات على العقول كما قسم الذكورة والأنوثة بالعدل بين الناس.

وهنا يرد سؤال فيقال: لقد ذكرت العلوم الشرعية والفلسفية والصناعات، وجعلتها فروع كفايات، وكيف ساغ لك ذلك؟ وكيف قرن علم الفقه والتفسير والحديث بالفلسفة وعلم الكيمياء والضوء؟

أقول: إن هذه كلها فروع كفايات وإن كانت متفاضلة في الشرف فإن شرف العلم قد يكون لثلاثة الدليل وصدق كالمهندسة، وقد يكون للحاجة إليه وعمومها وإن كان ظني الدلالة كالمطب، ولما لجلال موضوعه وعظمته كالعالم بالله وملائكته ورسوله، وكذلك شرف الصناعات.

(١) إما لعموم الحاجة إليها كالحياكة والبناء والحراثة.

(٢) ولما من جهة الصنعة نفسها كمثل من يعملون آلات الرصد مثل الأسطرلاب، ومثل صناعات من يصنعون الساعات التي تعرف الزمن فإن شرف هذه في صنعتها، فإذا صنع الأسطرلاب من نحاس كانت قيمته عظيمة جدا تساوي عشرات الجنيهات أومئات منها، ولكن النحاس الذي فيه للصنعة يباع بذرهم معدودة.

(٣) ولما من جهة عموم نفعها مع تساوي الناس فيها غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، خصصناه الزبالين والسهادين، فإن هؤلاء لو تركوا المدينة أسبوعا واحدا لامتلات المدينة من السرقة والبهاد فينقص عينس أهلها.

الوازع الطبيعي والوازع الشرعي

اعلم أن الله عز وجل سلط على الناس الحر والبرد، والسباع، والأعداء، والساوقين، فاضطروا في البداية أن يتخذوا البيوت، وينسجوا الشعر والوبر، وسلط سبحانه الجوع على الناس، فكان الجوع للغذاء والحر والبرد ونحوهما للكساء، والحيوان الكاسر والأعداء وحوادث الجوع للبناء. إن الله عز وجل لما رفع قيمة الإنسان عن الحيوان والنبات كلفه الاستقلال في حياته، وألزمه أن يسعى لسعادته، وبدأ ذلك بذلك الفراز التي سلطها من الجوع والعطش والاحساس بالحر والبرد والخوف من السباع، وكلما تقدم الإنسان في مدنيته ازدادت حاجاته، فلقد كان يكفيه في الفطرة الفاكهة غذاء، وورق الشجر وجلود الحيوان كساء، والمقارن مسكن.

إن الفراز الكامنة فيه بمساعدة العقل ألزمته أن يتخذ ذلك بلاسكومة نظامية، ولامدارس ولاعلوم، ولايجب عليه فوق ذلك شيء بحسب المعاش الديني.

فلما أن اجتمعت الناس في المدن حدثت لهم أحوال واستجدت لهم شؤون وجاءت واجبات فكانت الصناعات المتقدمة وغيرها، وربما عدت بالملكات لاسما في هذا الزمان، ألا ترى أن السفر الذي كان يكنى أن يقال إنه على جل أوجار أو بفل أوسفينة أصبح الآن ذا شعب كثيرة من الطرق الحديدية والآلات البخارية والسفن العظيمة الجارية كأنها مدينة والقواصات والطيارات، وكل هذه تحتاج إلى الأسلاك البرقية [التلغرافية] والبرق الذي لاسلك له وإلى علم المغناطيس والكهرباء، ونحو ذلك.

وبعد أن كان يكنى الوازع الطبيعي في تربية المرأة لولدها أن تنذبه باللبن كالحيوان حدثت اليوم حادث المدينة الذي به فسد الهواء في المدن وازدحم الناس، وضاعت الأخلاق فوجب التعليم والتفريب، وقراءة العلوم ومعرفة الصناعات وصار الفرد مكلفا بشؤون خاصة على مقدار طاقته.

وليس يجوز لأولى الحلّ والقد في الإسلام أن يتركوا الأئمة وشأنها ، بل عليهم أن يجعلوا طوائف في العلوم والصناعات بمقدار فلا تزيد طاقة عن حاجة الأئمة كما هو حاصل الآن ، فبلادنا المصرية مسكنة تجهل الصناعات المستحدثة في أوروبا ولا تعرف إلا القليل ، وهي عالة عليها فيها ، ولا ترى فيها كثيرا الاعلوم القضاء والحلماة ، وعلم الفقه الاسلامي ، والأئمة الآن كبقية الأمم الاسلامية متروكة سهلا ، فالمتعلمون في مدارس الحقوق والقضاء والمجاهد الدينية كثيرون جدا ، يزيدون عن حاجات الأئمة المسكنة الفقيرة في سائر العلوم ماعدا هذين العلمين ، ويجب أن يتعلم كل ذي علم شرعي أو عقلي بعض الصناعات كالنجارة والحدادة والكهرباء قوية لبلده ونكميلا لأمر حياته وحفظ مروءته اذا لم يجد وظيفة ، وليكن تعليم السبق والرعي من أهم مقاصد جميع المتعلمين .

الفرض العيني الواجب على كل مسلم

ولعلك تقول : أليس علم الفقه واجبا على جميع المسلمين ؟ فلماذا نجعله فرض كفاية كعلم الكهرباء ، وعلم النحو وصناعة البخار وسير القطار .

أقول : ندع اختلاف العلماء في الواجب العيني فانهم لم يتفقوا ، فعلماء التوحيد يقولون : الواجب العيني عليهم وعلماء الفقه يوجبون عليهم ، والمفسرون عليهم ، والمحدثون عليهم والصوفية عليهم ، وقال أبو طالب المكي : علم حديث نبي الاسلام على خمس الخ ، والحق أن الواجب على كل امرئ حفظ ذاته وحفظ عقله ودينه ، وحفظ الذات كفت فيه الفريضة ، فاذا ترك اللباس آذاه الحر والبرد ، واذا ترك المسكن تعرض للهلاك ، واذا رأينا من لم يحفظ على نفسه أرغمانه ، وأوجنا عليه حفظها كمن يكرأ ويريد قتل نفسه ، والمكفبه المرء اعتقاد وفعل وترك ، فالاعتقاد هو الإيمان بلفظه ورسوله وقواعد الاسلام ، وأن يقوم بفعل الطاعات ويحجب المحرمات ، فأما علم الفقه الذي هو الشغل الشاغل لعظماء الاسلام فقد قال الامام الفزالي فيه : ان أحكام الجراحات والحدود والقرامات ، وفصل الخصومات ، وما أشبه ذلك إنما هي قانون السياسة وضبط الجمهور الذين ينتزعون بحكم شهورهم ، فالفقيه معلم السلطان ومرشده إلى قانون سياسة الخلق ، وهذه في الحقيقة حراسة للدينا والدينا بها يتم الدين ، فالفقه الذي عند الأئمة الاسلامية إنما هو القانون والقانون لحفظ البلاد والعباد ، وبحفظ هؤلاء يتم الدين .

وليس يمتاز عما تقدم في الفقه أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والحلال والحرام ، فكل هذا نظر الفقيه فيه دينوي لا أخروي لأنه يحكم بمسحة الصلاة ظاهرا ، وكذا الزكاة والحج والاسلام ، وهذه كلها لا تقع لها في الآخرة الا بالاخلاص والتوجه لله ، فالصلاة لا تقع فيها ولا فائدة اذا كان قلب الانسان مشتتلا بما أهه ، والفقيه يقول انها صحيحة والله يعلم انها باطلة « ويل للمسلمين الذين هم عن صلاتهم ساهون » .

بيان قصور التعليم بالمدارس المصرية في زماننا

وان الشاب يخرج من المدارس مفض العين ناصس الطرف فلا يرى نجما ولا شجرا ولا معدنا الا قليلا منهم قد ذكرت لك في الباب السابق أن علم الفقه لضبط السياسة في البلاد ، وقلت : ان أكثر المتعلمين من مصر مجتهدون في هذا العلم ، الا ترى إلى الجامع الأزهر الذي تعامت فيه ، وإلى فروعها في دمياط ورشيد والزقازيق والاسكندرية وأسيوط ، وفيه الآلاف المؤلفة من الطلاب ، وإلى مدرسة القضاء الشرعي ، وإلى مدرسة الحقوق التي هي تبع للحكومة ، وإلى مدرسة الحقوق الليلية التي أقامها أهل فرانس في بلادنا وغيرها ،

فهل لهذه المدارس كلها الامتداد واحد هو سياسة الجمهور ، و بعبارة أخرى إن علم الفقه الاسلامي وأصوله تقي
يراد لأجل الافتاء والقضاء قد شاركه القانون الفرنسي وأصوله واصبحا علمين يقرآن ، وانكب عليهما الطلاب
للغرض الذي كان يسمى له طلاب المال والجاه ، والأمة المصرية اليوم مسكينة فقيرة في العلوم والصناعات ،
أما في الصناعات فظاهر لأننا عائلة على أوروبا حتى إن نساءنا من كانت منهن غنية فالماشطة لها امرأة فرنجية
والخائطة فرنجية والخدماءة افرنجية والمرضع الافرنجية ، وهذه صناعات يحرم على الأمة أن تكون خالية منها
فيمنذ المسلمون قاطبة على تركها .

وأما العلوم فانتا فيها فقراء ، ألا ترى أن علم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم المعادن ، وعلم الفلك مفقودات في
المدارس الثانوية ، وقد كانت هذه في مدارسنا في أواخر القرن الماضي في النظام الذي سنه [محمد علي باشا]
ومن بعده أن المدارس الثانوية هي المدارس التي تعطى الشاب صورة العلوم العامة ، وهذه مفقودة في البلاد
الاقليلا ، فم يقرمون الحساب والهندسة والجبر وبعض الطبيعة كاحوال المادة الثلاثة : الصلبة والسائلة والغازية ،
وخواصها العامة كالخيز وعدم التدخل إلى آخره ، وكالقوى المحركة والردافع والحلولة والمغناطيسية والكهربائية
الساكنة والمتحركة ثم علم الحيل [الميكانيكا] ولكن هذه لا تفتنى عن علم الحيوان والانسان والنبات
والمدن ، يعيش الشاب ويموت وهو يجهل النجوم ومجانب الفلك ويجهل نبات مصر وحيوانها ومعادنها ويجهل
تاريخ المصريين والسودانيين وأهل العراق وأهل الحجاز والعرب ومأصلهم ومآثرهم ، ومن أين تزحوا كل
ذلك مجهول في الاسلام في وقتنا الحاضر ، أما الاوروريون فهم يعلمون أبناءهم ما يحتاجون إليه مما يناسب
أحوالهم .

فالمسلمون جميعا يجهلون صناعة الحرب التي ارتقت فيها أوروبا وصناعات البريد والحراثة وغيرها من فروع
الحياة الاقليلا عرفه بعض مواطنينا من المصريين ، ولكن الجهل لا يزال مخبئا في البلاد كاخيم في سائر البلاد
الاسلامية ، ثم المتعلمون عندنا مجتدون في علم الحقوق وعلم الفقه كما قدمنا ، وهذا الانكباب من جهة ، وترك
العلوم والصناعات الأخرى حرام على أدنى الخلل والعقد بل عليهم أن يصلوا بقوله تعالى « لا يكلف الله قسا
الاربعها » ويخصصوا كل طائفة بعلم أو صناعة ، أما ترك الأمة سهوا لا هملا فهو حرام نقاب عليه في الدنيا
بالجزى ، ودوس الفرنج لنا بجهلنا وفي الآخرة يجهنم وبس القرار .

أيها المسلمون : أيها المصريون : ان التسليم في مدارسكم أصيبتهم في غطاء ، انهم يقرمون ، ولكن ماذا
يقرمون ؟ يقرمون شذرات من العلوم كالكيمياء والمغناطيس والضوء وأمثالها ، يقرمونها وهم مشكفون
يقرمونها بالجهل ، تلك مقدمات الصناعات والمقدمات غير التامج ، تلك تف من العلوم « لا تسمن ولا تفتنى من
جوع » لا يقرمون الجبال ، لا يدرسون محاسن الطبيعة ، لا يقرمون نظام النبات ، ولا أنواع الحيوان ، ولا جهات
الدنيا ، ولا جمال النجوم ، ولا بهجة هذه المناظر ، لا يقرمون العلم بلذة وفرح ، ولا يدرسونه بانسراح ومسررة .

حكاية

منذ ١٣ سنة قال لي ثلاثة من تلاميذ المدرسة الخديوية كانوا قد سافروا إلى أوروبا : اتنا نحن الثلاثة
كنا نظهر اهتماما بجمال الزهر ، وجمال الزرع ، وجمال الشجر ، فقال أستاذنا [الذي كان ناظرا للمدرسة الحقوق
في مصر وتشابو مع مستشار المطرف الانجليزي لخرمان التلاميذ من الفلسفة في التجهيزي قبل دخول مدرسة
الحقوق ثم غادر البلاد وصار ملجأ للتلاميذ المصريين في مدارس الحقوق بفرانسا] .
مالى أراكم تصفون الزهر وتحبون الجبال ، ولم أرهذأ في التلاميذ المصريين ؟ قلنا له : اقلنا خضرنا في

سنة ١٩٠٧ م على مدرس كان يعطينا مواضيع الانشاء كلها في مجال الطبيعة فشقناها ، فقال لنا : لماذا حضرتم الى أوروبا ؟ اذا ظهر في أمة من مجيها في الجبال ارتقت سر بها ، ومثل هؤلاء تمر كلياتهم ، وهؤلاء يفتحون عيون شعبهم ويوقفونه في زمن قريب . انتهى

أينها المسلمون : أينها المصريون : دينكم يدعو للجمال وفهم الطبيعة ، دين قداماء المصريين كما قدمت في هذا التفسير يهتق في جمال السماء والأرض كما في النشيد الديني المتقدم ، أوروبا تقدس الجبال في العوالم ، فالقرآن وجميع البيانات والأهم تدرس جمال هذا العالم ، ونحن نجزي بالقشور الى يوم النشور ، أغمض أبناؤنا أجفانهم ، غطوا أعينهم وناموا ، لم يدرسوا ماحولهم ، نعم درسوا في كراسة المعلم ، وهي وحدها التي أفلتت أجيالنا ، وأمانته وكرهه في العلم ، ليدرس النبات والحيوان والنجوم بصفة تشوق الطالب الى الدرس ، وترفع نفسه الى مستوى الحكمة والعلم ، وبهجة الأنوار القدسية ، ذلك هو الصراط المستقيم .

ولصمرك ان من يدرس في التجهيزي أحوال المادة الثلاثة : الصلبة والسائلة والبخرية ، وخواصها العامة كالقصور الذاتي والحيز ، وكونها لها ماسم ، وخواصها الخاصة كالتقابلية للطرق والسحب والاستعداد للتجزئة في المادتين ، وكذلك القوى التي تحرك الأجسام والروافع والضغط الجوي والحرارة والمغناطيسية والكهربائية والميكانيكا والضوء وقوانينه ، ان الذين يدرسون هذه وهم بعد لم يستكملوا هذه العلوم في صناعة من الصناعات وأيضا لم يقرعوا علم الحيوان والنبات وغيرها ، ان هؤلاء يكونون أشبه بمن قرأ الصرف والنحو وهو لم يتضاع من التثمر والنظم العربيين ، ويعيش حافظا نظريات لا تفيد في الحياة كمثل الذي حفظ الميراث والدعوى والبيئات وسائر أبواب الفقه ، ولم يكن له فيه عمل ما ثم هو يجهل ماني القرآن من الاشارات للعلوم والاطلاع على الحكمة ، فهذا ومن قبله من الذين حبطت أعمالهم فلا يقام لهم في الدنيا وزن : « قل هل نبشكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فالتميد الذي يحمل الشهادة الثانوية لا يقدر على مهنة يشتغل بها وهو مفرور بشهادته ، والحق أنه قد خرج أعزل لاسلح له لإلتك الورقة الكاذبة فلا يمكنه الاكتساب بماء لم ، بل هو تعلم التوكل على الناس ، فلا بد من قلب التعليم في مصر وفي المعاهد رأسا على عقب نظاما وشهادات وعلوما وتلقينا ، والله هو الولي الجيد .

قال الامام الغزالي في الاحياء : « ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقض السجور ولا يحتاج الى شيء منها ، وان احتيج لم تحل البلد عن يقوم بها ، ويكفيه مؤونة التعب فيها ، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا في حفظه ودرسه ، ويفعل عما هو مهم في الدين ، واذا رويج فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه ، والفظن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين ، بل قدّم عليه كثيرا من فروض الكفاليات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل النعمة ، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا ترى أحدا يشتغل به ، ويتهازون على علم الفقه ، لاسيما الخلافات والجديليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ، فليت شعري كيف يرخى فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قام به جاعة واهمال مالا تقم به ، هل لهذا سبب ؟ إلا أن الطب ليس يتبصر الوصول به الى الأوقاف والوصايا ، وحيارة مال الأيتام ، وتقلد القضاء والحكومة ، والتقدم به على الأقران ، والتسلط به على الأعداء ، هيئات هيئات قد اندرس علم الدين بتليس للعلماء السوء ، فالتة تعالى المستعان واليه الملاذ في أن يبيدنا من هذا الفرور الذي يسخط الرحمن ، ويضحك الشيطان » انتهى المقصود منه .

وأنا أقول : أينها الامام قد مضى نحو ٩٥٤ تسعمائة سنة بعد تأليفك هذا الكتاب والمسلمون نائمون

جاهلون ، ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الاسلامية لا تزال كالنهد الذي تركت الاسلام عليه ، فيها مطلق العلم الديني لا يزالون في هذا التلييس وتبعهم رجال المدرس الذين لا يحلو لهم الامدرس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي ، كل هذا للظهور وتولى الحكم والحمامة ، أما الصناعات والعلوم الأخرى فهي منبوذة الاقليلا فليس عندنا مبرزون فيها ، أما أوروبا فقد قهرتنا بالآلاتها القاتلة والحلثة والبطاحة وسبقونا في الاقتصاد والسياسة ثم ان المدارس عندنا تعليمها لفظي لا يمتحن الشبان في العلم والبحث فهو تعليم تال من الروح ، ولذلك سقطت الأمة في هاربة الاحتلال الأجنبي .

الواجب على المجالس الشورية أو النائبة عن الأمة

الواجب عليها أن قلب التعليم قلبا تاما في المعاهد الدينية والمعاهد الذنوبية. وتدخّل فيها التهذيب وكل ما يرغب في حب العلم وحب البلاد ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية في السوق ، وهكذا علم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن وما أشبه ذلك ، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط وانما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

هل في الاسلام نابغون؟

ولعلك تقول كيف تدمّ التعليم في الاسلام وفي مصر وفيها نبوغ ظاهر فاذى عينين :

أقول : على رسلك ان هؤلاء النابغين في الأزهر والمدارس انما جاء من استعدادهم ومن دراستهم الخاصة وبيئاتهم ، أما مستوى التعليم فانه ناقص ، وأهم من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه إلى ما يحتاج اليه الأمة ، الامام الفزالي يقول لنا : ان البلاد مشحونة بأهل الفقه وهي خالية من الاطباء ويندد على المسلمين ويقول قد ذهب الدين وضاع لماذا ضاع ؟ ضاع لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للأمة . وأنا أقول ياضاع المسلمين اليوم . ياضيع الاسلام ، أيها الامام المسلمون لا يزالون كما تركتهم فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملؤون البلاد وكذلك المحلمون والقضاة ، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء المعادن وعلماء الحشرات وعلماء السياسات فان هؤلاء في أوروبا وإيسوا عندنا وأنت أيها الامام تقول : ان الدين ضاع ، وأنا أقول لك : ان كثيرا من أهل بلادى لا يعلمون أن هذا من الدين ولا يعرفون بأن ديننا محرم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات المعادن ولا يتصوروا أكثر الناس أن ذلك فرض كفر فرض علم الفقه الذي به يكون القضاء ، وأقول فوق ذلك : قد أخبرني علم صيني أن علماء الاسلام هناك ظنوا أن العلوم المصرية مخالفة للقرآن فتأخروا عن أهل الصين المتبحرين للدين الوثني فأصبح الاسلام في زماننا مانعا من العلم في نظريهم ، والمسلمون هناك يبلغون سبعين مليوناً ، ولقد جاءني صرة أمير يقال له جبال الدين من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا والتاريخ ، فأجبت بأن العلوم كلها فرض كناية ، وقال لي : ان علماء بلدى حرموا هذه العلوم وقابلني في هذا العام عالم تونسي فقال : ان بعض العلماء يقولون لا يجب شيء غير علم الفقه ، أما النظر في العالم العلوي فيمكنني أن ينظر الانسان بعينه وهكذا الاسلام اليوم أضغف منه في كل زمان .

وأنا أطالب كل من وقع هذا في يديه أن يبحث في هذا الموضوع ويفكر بعقله ويستخرج العلوم الواجبة على المسلمين ويرفضها لولاة الأمور فانه ظهر بهذا القول أن علم الدين ليس خاصا بالفقهاء ، بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعا لشجرة واحدة هي الحياة الانسانية ، وكل ما عندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة

راسخة ، فيطلب التعليم في المعاهد الدينية على حسب ماقلناه وكذلك في المدارس العصرية وليكن للأمة حال جديدة ، فهذه الحال لايجوز تجاوزها وليدرس هذا الموضوع دراسة تامة ، فالاسلام وأمة الاسلام اليوم في خطر ، ولا ننجي من الخطر الا بمذاكرنا وانباع قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

الأوقاف الإسلامية والمعاهد الدينية

إذا قرر أن فروض الكفاية تشمل العلوم والمصناعات ، وأن المعاهد الدينية الإسلامية يدرس فيها علوم النحو والصرف والمعاني وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه وكذا الحساب والهندسة والنظر في الكون ، أفلا ينبغي أن ينظر في أمر الشهادة النهائية ، ويقال ان هذه العلوم كلها فرض كفاية لافرق بين علوم الدنيا والدين ، فإذا نظر رجال الحل والعقد في المجالس النيابية في أمر ما تحتاج اليه الأمة من العلوم والمصناعات ثم قرروا أن يكون في تلك المعاهد شهادات عالية أيضا للهندسة وأخرى للطب ، والمصناعات الشريفة باعتبار أنها فروض كفايات وان كثرة المتعلمين في البلاد في نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا إذا حصل ذلك فاني أراه يوافق الدين ، بل أقول فوق ذلك : ان مخالفة هذا تنافي الدين لما قرره الامام القزالي من النداء بلويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء ، الله الله عباد الله اتقوا الله في دينكم وأمتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وأرق منها بتوقع شهادتهم مع أنهم منسوبون للدين ، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقل من أخذها بالفقه لأنهما معا درسا لهذا الفن ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمر بحسب استعداده في الفقه وهكذا الهندسة ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم بالامتحان ، ثم ينظر أهل الحل والعقد في الأوقاف وتنظيم نظاما تاما فلا تبقى مبعثرة كما هي الآن ويحرم الاتفاق على العاطلين ويعرض ما فيها على أهل الحل والعقد وينظر العقلاء فيها بعقولهم فيما يطلبه حال الأمة ، ثم يستعرضون آراء المذاهب كلها من حنفية وشافعية وحنبلية ومالكية وزيدية وغيرها يأخذون من أقوالهم بما هو الأصلح للبلاد من حيث نظام الأوقاف وانماؤها ومن حيث الاتفاق على معاهد التعليم وأن يكون المنتخرجون منها نافعين في نظام الأمة تبع قانون معلوم ونظام مسنون ، لا باطوى والعادة ويكون ذلك بمقتضى قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » أما أنا فقد كتبت ما في وسمى وهذا أنا به مكلف وهذه

بذرة سينميتها العلماء ويسقى زرعها العقلاء ويحمل بها الثواب النبلاء .

اتهى تفسير سورة البقرة مساء الجمعة ١٣ أبريل سنة

١٩٢٣ م ، ٢٦ شعبان سنة ١٣٤١ هـ بنزلنا

بشارع زين العابدين رضی

الله عنه آمين

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الأول من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم)

ويليه الجزء الثاني : وأوله تفسير سورة آل عمران)

فهرس

الجوهر الإقنا

من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ خطبة الكتاب ، وفيها دعوة المسلمين علة إلى البحث في العلوم الكونية .
- ٣ تفسير سورة الفاتحة ، عجائب الحيوانات في تفسير معنى الرحمة
- ٣ عجائب النمل والنحل والعنكبوت في توضيح معنى الرحمة
- ٥ نسخ العادات العربية الجاهلية من مدح المحسنين والمؤك واختصاص الحد والعبادة بآية اطلاقا للحرية والمساواة ، نبذة من أشعار العرب ، محاورات بين رسل سعد بن أبي وقاص في حوب القادسية وبين [يزدجرد] ملك الفرس ورستم قائد جيشهم في زمن عمر في أن الناس لا يستجد بعضهم بعضا .
- ٧ الشريعة الاسلامية والنظر في الآفاق وفي الأقس
- ٨ دعوة المؤلف جميع المسلمين من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم أن يدرسوا النبات والطب والمعادن وجميع العالم العلوي والسفلي .
- ٩ عجائب النرة والقمح والنمر ، وكيف ريت لدخولها في قوله « رب العالمين » .
- تربية الله للؤلؤ في البحر ، تربية الجنين في بطن أمه ، حكاية الأميركي صاحب السراج في قفس بيضاء ، تربية الولد بالان ، التربية الطبية ، التربية في المدارس بعلم البيداجوجيا ، تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لادراك العلوم العالية ، الحد يكون على مقدار علم الحامد ، معنى العالمين .
- ١٣ ضرب مثل للعالم العلوي بالمرأة جيلة وفتيات يدون سوطها أقل منها جالا وهكذا
- ١٤ العالم السفلي ، عالم النبات ، عالم الحيوان ، علم التشريح .
- ١٥ حكاية المؤلف العظيم والمقتص الذي أهده لمن لم يقرأ كتابه ، أسباب الحد ، زيادة ابناح لما سبق .
- ١٦ سؤال وجواب وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع لغة في العالم .
- ١٦ الفلاح وماشيته وولده والمهندس والعالم الطبيعي والحكيم وضربهم مثلا لمرجات الناس في فهم القرآن
- ١٨ معنى : « اياك نعبد الخ » ، شمول الصراط المستقيم للعفة والشجاعة والحكمة والعدل ، وهي أصول علم الأخلاق ، أقسام النعم : المال ، الأصحاب ، الأهل ، الأعوان ، الصحة ، المنقل ، الحكمة ، وجوب الاحتفاء بالنافعين للأمة .
- ٢٠ حكاية سولون الحكيم اليوناني ، الفاتحة أم القرآن كيف شملت الفاتحة العلوم وكان علم الفقه غير داخل فيها عند الفزالي ؟ وكذلك علم الكلام .
- ٢٢ مقارنة فاتحة الكتاب بفوائح البلغاء وأصحاب الملقات ، ذكر فوائح الملقات السبعة مع شرحها ، وفوائح ثلاث قصائد أخرى ومولزتها بالفاتحة وبأوائل السور .

- ٢٤ قصة اسلام عمر و بعض سادات بني شيبان وهم مفروق بن عمرو ، وهاني بن قبيصة ، ومثنى بن حارثة ،
والنعمان بن شريك ، وكيف أدهشهم ماسمعوا من القرآن كما دهش سيدنا عمر إذ قرأ أول سورة طه
آيات العلوم والأخلاق في سورة الفاتحة .
- ٢٦ تقسيم سورة البقرة إلى باين عظيمين : الأول غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود ، والثاني غلب فيه
الأحكام الشرعية ، وفي كل منها عشرة مقاصد .
- ٢٧ قد ير [أم ذلك الكتاب لا ريب فيه] الخ
- ٢٨ التفسير اللفظي لآيات : « إن الذين كفروا سواء عليهم الخ » .
- ٢٩ التفسير اللفظي لآيات : « ومن الناس من يقول آمنا بالله الخ » .
- ٢٩ المقصد الثالث في قوله : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا الخ » .
- ٣٠ التفسير اللفظي لهذا القسم .
- ٣١ المقصد الرابع : « يأيتها الناس اعبدا ربكم الذي خلقكم الخ » ، التفسير اللفظي لهذا القسم .
- ٣٢ ايضاح وتفصيل .
- ٣٣ فصل آخر في هذه الحكم الكونية ، وفيه تفصيل التشبيه الذي في هذه الآية على تشبيه ابن المعتز في
قوله : وساق صبيح الخ .
- ٣٤ بدائع العلم لمناسبة تفسير « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » ، قول النبي ﷺ لعمران
ابن حصين ، الدهرية وأبو حنيفة ، الدهرية والشافعي واحتجاجه عليهم بورق الفرساد [التوت] ،
شمر أبي نواس
- ٣٤ آراء سنسر في العلوم الطبيعية والدين ، ونأسفه على تقصير أهل بلاده في العلم ، كلام المؤلف وموازنته
بين أمة الاسلام وأمة الانجليز ، تشجيع المؤلف على الشبان الذين يحترقون الديانات انبعاثا للفرجة وهم
أجهل الناس بعلوم أكابرهم .
- ٣٦ موازنة كلام علماء الاسلام في هذا المقام بآراء سنسر وأنهم عرفوا هذه المعاني قبله .
- ٣٦ سؤال تلميذ بالمدرسة الخديوية للمؤلف وادعاؤه كفرنسنسر ، واجابة المؤلف له بتبيان الحقيقة .
- ٣٨ العلم المنتشر في المدارس المصرية لابهدي الطالب ، تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام .
- ٣٩ من الأمم من مات عندها العظيم فعبده ، العاصيون عبدوا الملائكة فالكواكب فالأصنام ، حفلة الزار
أوافق قدماء المصريين للكواكب ، دين التثليث .
- ٤٠ الآلهة الهندية الثلاثة ، وهم برهما وفشنو وسيفا ، ومعناها الخالق والحافظ والمهلك ، التثليث عند الفرس
وقدماء اليونان .
- ٤١ الأصنام عند العرب الذين نزل عليهم القرآن .
- ٤٣ جنة العارفين وهي المعارف ، وجنة البله وهي التي فيها المأكول والمشروب واللذات الحسية .
- ٤٣ ضرب الأمثال وأن منها ما هو ظاهر كقوله : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » الخ ومنها ما يحتاج الى
تأمل مثل أوصاف الآخرة وأحوالها .
- ٤٤ ضرب مثل يبين فيه اختلاف مشارب الناس بلذتهم ، فالمرأة الجميلة ينظر لها ابنها وأبوها وأخوها وزوجها
كل بنظر خاص ، وأربعة من العلماء يضررون قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أمرة حسنة »

- ٤٥ بما يناسب معارفهم في مسألة حرب الكفر، فتوى علماء بخاري لأمرها بتحرير الحرب بالدافع وضياع البلاد المقصد الخامس : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » الخ وكيف يقول الله : خلق لكم ما في الأرض جميعا ، والغالب والمرجان في البحار وغيرها في يد القرنجة ، الكلام على السموات السبع التفسير اللفظي لهذا المقصد .
- ٤٦ السموات السبع في الإنجيل ، مواهته لآراء اليونان ، كيفية خلق العالم في الآراء الحديثة .
- ٤٧ أبعاد السيارات الثمانية ، السيارات العلوية والسيارات السفلية ، النجوم الثوابت وأن منها ما يصل نوره لنا في ألف سنة نورية .
- ٤٨ أقدار الكواكب وعدد نجومها ، وأن مجموعها ٢٢٤ مليوناً من النجوم ، علوم التقدما قاصرة في علم السموات ، وجل الله وقدرته ظهرا في العلم الحديث ، أسئلة وردت على المؤلف : ان الذين ينفون علم السموات يجهلون العلم القديم والحديث ، عد السماء سبعة لا مفهوم له .
- ٥٠ رأى الامام الغزالي : ان طباق السموات كطباق البصلة لا يهتد عددها ، فهي على كل حال فعل الله ، غبارة الجبناء الخاطئين من هذه المباحث ، ملخص هذه المباحث ثمانية .
- ٥١ المقصد السادس : واذا قال ربك للملائكة الخ .
- ٥٢ التفسير اللفظي لهذا المقصد .
- ٥٣ بحث ضاف تحت عنوان [الايضاح في الحكمة العلمية والعملية] ، واشتغال قصة آدم على الحكمة العملية والعلمية .
- ٥٤ الله والملائكة وآدم ، وأن تشريح الجسم الآدمي ومعرفة علم النفس تعرتقا تدير الله للعالم وتسخير الملائكة من نظامه ، فالعالم كالجسم والملائكة كالنفوس والله مدبر العالم كما أن الروح مدبرة للجسم .
- ٥٥ اجتماع خصائص الحيوان في الانسان ، الفأر والظلمات والأسد والأرنب والديك والسمك والقر والحمام والثعلب والتمن والقر والجل وهكذا مما يقرب من ٤٠ حيوانا بأخلاقها .
- ٥٦ تفصيل الكلام على الملائكة بطريق الاقناع بسلسلة العالم المشاهد .
- ٥٦ آراء أهل البيانات والحكماء في الملائكة وهي خمسة ، ثم رأى علماء الهند .
- ٥٧ بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقايل وهابيل ، وهي ترجع لأحوال ثلاثة : كبر ابليس ، وحرص آدم وحسد قايل ، والأخلاق المنحرفة متفرعة عليها .
- ٥٨ المقصد السابع وفيه فصلان الخ : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » الى آخر الآيات التفسير اللفظي لهذا المقصد .
- ٦١ ما جاء في انجيل برنابا من البشارة بالنبي ﷺ تصريرا في مواضع كثيرة ، وعدم الصلب وغير ذلك من الحقائق ، تحقيق الكلام في انجيل برنابا ، وأنه كان مكتوما عند البابا لما فيه من الحقيقة المحمدية
- ٦٤ مبحث شفاعة النبي ﷺ وأنها أجمع عليها الأمة ، وهي تتحقق بعلم وعمل ، فمن آمن فقط استعدت للهداية ، فان من لم يتعهد نبات الايمان بالسني بماء الأعمال لم ينل تمام الشفاعة ، وانما ينال منها على مقدار ما استكمل في نفسه ، وهذا الرأي يجمع الآيات والأحاديث المختلفة ، والمذاهب المتضاربة من أهل السنة والاعتدلة والنلاسفة ، وهو يقرب من رأى ابن عربي والامام الغزالي ، وهو أقرب الى رقى الأمة الاسلامية ، وفيه محاوررة المؤلف مع سيدة روسية في عيسى رقدانه لأنبايعه ، وقصة السيدة الروسية

- مع الراهب في [دير طور سيناء] ، ورد المؤلف على كلامه واستحسانها ذلك كله ، وضرب مثل الأنبياء وأتباعهم بقائد جيش الترك إذ قام به قومه ، وصعدوا عدوهم ، ولم يتسكروا على القائد وحده ، فهكذا الأنبياء وأتباعهم ، وبمثل هذا تتم شفاعتهم لهم ، والعلماء يشغفون ، والشهداء على هذا القياس .
- ٧١ تفصيل بني اسرائيل .
- ٧٢ « وإذ فرقنا بكم البحر » الخ ، والتفسير اللفظي لذلك . آيات التوراة في سفر الخروج ، في خروج بني اسرائيل من مصر .
- ٧٣ سفر الخروج ووصف ما كل بني اسرائيل في التيه .
- ٧٤ « وأزلنا عليكم المن والسلوى » الخ ، والتفسير اللفظي لذلك .
- ٧٤ « وإذ استنق موسى لقومه » الآيات .
- ٧٥ التفسير اللفظي لهذا المقصد .
- ٧٦ إيضاح الكلام في قوله تعالى : « اهبطوا مصرا ظن لكم مساكنهم » وأن أهل المدن يذلون وأهل البادية قانعون أعفاه ، فهم أقرب الى الفضائل ولذلك يقتلون المتدينين ، وذكر تاريخ العرب والرومان وبني اسرائيل ، وانهم لما تنعموا داسنهم الأمم الجديوية والفرنجية ، اليوم قد استعدوا لهذا الشرر كمن قبلهم ، ثم ما الذي يفعل المسلمون لاقاء هذا الخطر ، فليقتلوا من الشهوات ، وليجرتوا الأجسام ، وليحفظوا العقول ، وليأكلوا من الطعام ما لا يكثر تركيبه ، وأن يكونوا أعفاه قانعين ، فاذا انفسوا في النعيم أذنتهم الأمم ، ذكر التوائد الطيبة في هذا .
- ٨٠ « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .
- ٨٠ قصة البقرة ، حكاية النبي البار بأمة صاحب البقرة .
- ٨٧ الأمم الضعيفة تقلد الغالبة في أخلاقها وقوانينها كما قد بنو اسرائيل المصريين ففسدوا مجملهم فأمروا بذبح البقرة ليعلموا أنها لا تموت ، حكمة تخصيص الحجر بضربه بالصاع ، ليدل على أن الأشجار تنفجر منها المياه بسبب اختصاص الثلج بأنه يكبر لذا برد ، فالجاهل يكتبي بمصا موسى ، والعالم يعرف العلم الالهية ، ونبع العيون بعظم حجم الثلج ، ومجانب السحاب والماء ، وأن في هذه السورة مجانب من علم تحضير الأرواح في هذا المقام ، وتحريم الربا ، وتحريم الخمر ، والتنويم المغناطيسي ، وأن الحرب الماضية كانت لروس الأموال ، وهكذا قصة صموئيل ، والهجوز التي أحضرت روح صموئيل النبي ، وأخبرت ظلمت بأنه سيقتل غدا ، وعلم تحضير الأرواح وتاريخه في أمريكا وأوروبا ، وانتشاره السريع ، وأنه مقتضى قوله تعالى : « كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته » فهذه هي آيات الله في ذلك ، الروحانية في فرنسا وألمانيا وإيطاليا والبلجيك وإسبانيا والبرتغال ، وخطاب خمسة عشر ألف أمريكي لمجلس النواب الأمريكي في علم تحضير الأرواح ، الملايين الذين اتبعوا هذا المذهب من الفلاسفة والأطباء وغيرهم .
- ٨٩ مراتب التصديق أربعة : العقل ، التصوف ، احضار الأرواح ، الإيمان .
- ٩٠ « أفنتظرون أن يؤمنوا لكم » الآيات ، والتفسير اللفظي لذلك .
- ٩١ لكل أمة ثلاث طوائف : كبراء ، أميون ، ذوولسن ماكرون .
- ٩٢ « وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل » الآيات ، ترتيب حال الأمة الى ثلاث مراتب : سعادة ، واضطراب الملاك والنهب ، وهذه الأحوال الثلاثة على ترتيب الآيات .

- ٩٣ كيف تجتمع الأمة ، وكيف تبدد ؟ وهي مقالة في تفسير هذه الآيات ، وفيها وصف حربهم وصفتهم العاتة بعد الانحلال .
- ٩٥ « ولقد آتينا موسى الكتاب « الآيات » ، والتفسير اللفظي .
- ٩٧ « ولقد جاءكم موسى بالبينات « الآيات » ، عبادة المصريين الجبل قديماً ، وإهمالهم حديثاً أمر الطيور حتى هلكت فهلك الزرع بالود ، ثم استيقاظهم بتعريم الحكومة سيد الطيور النافعة لأكل الود .
- ٩٨ « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة « وتفسيره اللفظي » .
- ٩٩ « قل من كان عدواً لجبريل « الخ » وتفسيره اللفظي ، ودخول سيدنا عمر مدارس اليهود ، قصة عاروت وماروت ، وبعض حكم سيدنا سليمان من نص التوراة فلم يكن ساحراً .
- « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات « الخ » .
- ١٠٠ التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ١٠٢ تمحك المغاربة على أذنان الجهلاء بأنهم يستخرجون الكنوز ، السحر وإيضاحه ، وإن السحر المقصود هنا هو تعليق القلب ، حكاية الطبيب المصري في محافظة مصر ، وتحقيق حياته للخادمة بالتنويم المغناطيسي
- ١٠٤ طرق التنويم المغناطيسي ، درجاته الثلاث وفي الرتبة الثالثة وصف الفتاة أحوالاً عجيبية لانقلها وقت اليقظة .
- ١٠٥ وصف المريض في حال نومه دواء مرضه والساعات التي سيرجع إليه فيها ،
- ١٠٦ ذكر مائة القدماء في علم السحر ، سحر الكلدانيين ، سحر أصحاب الأوهام ، سحر التخيلات ، ومن السحر الآلات المتحركة وبجانب الكيمياء . وهكذا ، وهي ثمان مراتب ثلاث منها لا تسمى سحراً اليوم .
- ١٠٧ « يأيتها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا « الآيات » ، والتفسير اللفظي لهذا القسم
- ١٠٧ « ما نسخ من آية « الخ » .
- ١٠٨ النسخ والنسوخ ، الآيات النسخة والآيات المنسوخة وأنها ٣١ آية ، نظم في ذلك للشيخ السيوطي
- ١١٠ لم كان النسخ والنسوخ في القرآن ؟ والجواب عليه بعالم النبات ونسخه بمختلف الفصول ونسخ الصناعات والأحوال ، وحض المسلمون أن يجاروا أوروبا وأمريكا ببلاد الأرجنتين فزرق الزراعة بالآلات الحاصدة الحارثة الخازنة المنزلية الخ ، وكيف يحملون قرهم ، وهكذا والاهلك المسلمون وبادوا ، وبما تقدم يكونون خير أمة أخرجت للناس تغير الناس أعلمهم فيكون أنفع لهم ، وأين ذلك اليوم ؟
- ١١٢ « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى »
- ١١٣ التفسير اللفظي
- ١١٥ « وثمة المشرق والمغرب « الناس ثلاث درجات في فهم المشرق والمغرب
- ١١٦ العرائس الغائس ، وهي الشمس والكواكب في الليالي الصافية البهية
- ١١٧ جمال النجوم في جمهورية أفلاطون ، موازنة آراء أفلاطون بقصة الخليل المذكورة في القرآن
- ١١٩ « وإذ ابتلى إبراهيم ربه « الآيات » ، والتفسير اللفظي
- ١٢٠ تفسير معنى الكلمات بنحو ٤٠ خصلة خلقية ، الاستمرار في تفسير هذه الآيات مفصلاً ، تويخ المؤلف وأسفه أن أبناء إبراهيم الخليل ، وهم العرب في مصر وشمال أفريقيا لم يقرروا علومه ، ولم يتبعوا

- نفسه ، فأذم القرحة ، القليل لا يكون من خير أمة بل هو كالحيوان يملك ويضرب ويصاق .
- ١٢٦ « وقالوا كونا هودا الخ ، قولوا آمنا بالله الخ ، والتفسير اللفظي
- ١٢٧ « صفة لله الخ ، أم تقولون ان ابراهيم الخ ، يقول الفقهاء من الناس الخ
- ١٢٩ التفسير اللفظي لهذه الآيات
- ١٣١ ايضاح وكشف لبيان معنى كون المسلمين أمة وسطا الخ
- ١٣٢ ايضاح الكلام في أمر القبة
- ١٣٣ « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء » الآيات ، هنا ذكر لفرق ما بين الفيلسوف اليوناني وان هذه الآيات مع سهولتها فيها حكم كلها بجملة ، وانه لاسعادة الابالصبر باجماع فلاسفة العالم وتصديق القرآن ، وفي هذا الغز وصف حال السعادة ، وانها رعاء لا دوام لها ، وان المال والعلم والجمال والصحة والصيت كل ذلك سعادة رعاء لا ثبات لها ، أما الصبر فمعدنه ثابتة دائمة
- ١٣٦ « ان الذين يكتمون ما أنزلنا الخ وتفسيرها اللفظي
- ١٣٧ ايضاح آية « ان في خلق السموات والأرض ، ووصف الكواكب والشمس وعلاقتها مع الأرض والماء ، والهواء والأمطار والبحار ، وأن العالم جسم واحد فيكون إله واحد .
- ١٣٩ اتحاد المطالب الدينية والدينيوية في هذا التفسير ، اختلاف الليل والنهار
- ١٤١ اختلاف الليل والنهار في خط الاستواء والمنطقين المعتدلين والقطين باعتبار العرض بجدول بين الأقاليم وطول الأيام فيها من ١٢ ساعة الى ٢٤ ساعة ، فشهري شهرين وهكذا الى القطين
- ١٤٢ اذا طلعت الشمس في مصر تكون الساعة واحدة في الخليج الفارسي ، وثنتين في الفرس ، وثلاث في الهند ، في غرب بلاد الصين الخ .
- ١٤٣ عجائب العلم والسياسة في القرآن ، قدم العلم في الشرق ، سيره الى أوروبا ، انتقله الى أمريكا ، رجوعه للشرق تبعاً لسير الشمس كما في قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك الخ » وهذا مجرزة .
- ١٤٤ تفسير قوله تعالى : « والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس »
- ١٤٤ السفن كالسلك نابتات لناموس خاص ، لجسم إما أن يكون أخف من الماء أو أثقل
- ١٤٥ تفسير قوله تعالى : « وما أنزل الله من السماء من ماء الخ . خلق البقعة أعجب من خلق القبل ، لها ستة أرجل الخ
- ١٤٦ تنوع المادة كتتنوع الصوت في الهواء والحقول ، شعر المادة كما أن شعر الشفراء في الصوت ، فالنادة واحدة تنوعت ، وخالق العالم واحد ، العالم كلمات ككلمات الصوت « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا »
- ١٤٨ ايضاح لما تقدم في تنوع المادة ، وأنه كتتنوع الصوت ، وعجائب العناصر والحروف التي يجمعها كلمتان [واختلاف السنك والوانك إن في ذلك لآيات للعالمين] وأن ذلك من المعجزات ، يشير لما تقدم [فانظروا كيف بدأ الخلق]
- ١٤٩ لطائف في علمي الحيوان والنبات ، شجرة خلقت قبل آدم ، النبات الهوائي ، النبات المقترن ، الفجل والبصل تجمع أوراقهما الماء بحكمة عجيبة
- ١٥١ نبات مقترن للحيوان ، أعمال الحيوان ، القروذ وتقليدها ، عجائب الحرباء

- ١٥٣ السنط والنخل ، الأزهار تنام وتستيقظ على حسب المواعيد التي تطوف فيها الحشرات لظلمة بها
- ١٥٥ قصير المسلمين في هذه العلوم ، تصريف الرياح والسحاب المسخرة لزوجة أو الأعصار ، عجائب السحاب
- ١٥٦ السحاب والسفن يجران بالبخر والكهرباء
- ١٥٧ « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا » الآيات
- ١٥٨ التفسير اللفظي لهذه الآيات
- ١٦٠ الحب والشوق والشوق ، وما مضى حب الله ؟
- ١٦١ الخيال والتصور ، معنى الشوق ، معنى حب الله
- ١٦٢ إيضاح الشوق لله
- ١٦٣ شرح كسير في حب الله ، أقوال سنيكا الروماني في نعم الله
- ١٦٤ [توت عنخ أمون] وكنوزه المشوقة لجمال العلوم والصناعات
- ١٦٥ الرؤساء والمرؤسون ، الأم الضعيفة بين يدي القوية أشبه بالناس عند المسيح السجلى ، جنتهم تنقلب نارا ونارهم تنقلب جنة
- ١٦٦ الكلام على آيات الحلال والحرام ، وبيان اختلاف الأئمة فيما يحرم أكله
- ١٦٧ الكلام على جلد الميتة
- ١٦٧ عدد عشرين مقصدا في النصف الثاني من سورة البقرة
- المقصد الأول : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » الآيات والتفسير اللفظي
- ١٦٩ المقصد الثاني : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص » الآيات وتفسيره اللفظي
- ١٧٠ الإيضاح
- ١٧٠ المقصد الثالث : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت » الآيات وتفسيره اللفظي
- ١٧٢ واجبات الصوم ستة :
- ١٧٢ لوزم الاقطار أربعة : سنن الصوم ، أسرار الصوم ثلاث درجات
- ١٧٤ المقوقس وجيش المسلمين في فتح مصر ، دهشته من تخشعهم في الصلاة « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » الآيات
- ١٧٥ التفسير اللفظي لهذه الآيات ، إيضاح هذه الآيات
- ١٧٦ تفسير « وإذا سألك عبادي عني » الخ
- ١٧٨ تفسير « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخطيط الأبيض » الخ
- ١٧٩ تفسير « يسألونك عن الأهل » الخ وآيات القتال
- ١٨١ شروط وجوب الحج خمسة : شروط صحة الحج ، أركان الحج ، كيفية الحج
- ١٨٣ العمرة :
- ١٨٤ أسرار الحج وفيه بقية أركان الاسلام
- ١٨٥ « وآتوا الحج والعمرة لله » الآيات
- ١٨٧ التفسير اللفظي
- ١٩٣ « يسألونك عن الخمر والميسر » ، التفسير اللفظي لهذه الآيات

- ١٩٣ التدرج في تحريم الخمر :
- ١٩٤ رأى بنام الانجليزى في الخمر ورأى غيره أن أوروبا جعلتها لقتل الأمم الضعيفة
- ١٩٤ خطبة للمؤلف في الخمر وآراء علماء الاجتماع وعلماء التشريع في أوروبا والجميات المنتشرة في العالم وآراء الأطباء في انكلترا وفرنسا وأمريكا وانها سارة بالمجموع الانسانى ، وانها داء لادواء كما في حديث مسلم
- ١٩٩ مناقضات الأمم ومخائب الاسلام ، النصرارى يمنعون الخمر والمسلمون في غفلة ، فلا في العلوم الكونية نجحوا ولا في الحلال والحرام شرفوا ، تحريم بيع الخمر والانتفاع بها ، وذكر أنها نجسة ، حكم المبسر ، المبسر في الجاهلية
- ٢٠٠ تفسير « ويسألونك عن اليتامى ، ويسألونك عن المحيض »
- ٢٠١ المقصد العاشر « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم »
- ٢٠٢ تفصيل الكلام على المبسر والطهارة وصون اللسان عن الحلف المبسر في بلادنا المصرية ، سباق الخيل ، رمى الحمام ، التبرو ، يانصيب اللوزيه ، السبق والرمى في الاسلام وموازته بما عندنا اليوم .
- ٢٠٤ المسألة الثانية الطهارة وكيف ظهر في العلم الحديث أنها سبب لسمو الأخلاق حتى أوجبت على المسجونين وشهادة بنام الانجليزى للاسلام بذلك .
- ٢٠٦ تزيه الله عن الحلف باللسان ، أقوال علماء الشرق والغرب فيها يناسب هذه الآية « للذين يؤلون من نسائهم » الآية
- ٢٠٧ « والمطلقات يتربصن » الآيات .
- ٢٠٨ التفسير اللفظى قصة امرأة رفاعة جميلة بنت عبد الله بن أبى سلول وقوطا : للنبى لا أنا ولا نابت الخ .
- مقاطعة في أمريكا تحكم بالطلاق
- ٢١١ « والوالدات يرضعن أولادهن »
- ٢١٢ التفسير اللفظى لهذه الآيات ، تفسير « لا تضار والدة بولدها »
- ٢١٣ وجوب علم الصحة على الرجال والنساء تربية الولد
- ٢١٤ الميثاق التركى الاقتصادى تشمله الآية « لا تضار والدة بولدها » بمعنى لا تضار والدة ولدها بترك تعليمه ذكر مواد الميثاق التركى الاقتصادى وهى ١٢
- ٢١٥ تفسير « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » الآية ، وآية « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء »
- ٢١٧ المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها ، وآية « لا جناح عليكم ان تطلقتم النساء » الخ ، والتفسير اللفظى لهذه الآيات
- ٢١٨ المتعة وآراء الأئمة فيها والجمع بين أقوالهم .
- ٢٢٠ تفصيل الكلام على قوله تعالى « حافظوا على الصلوات » الخ ، كشف علماء أمريكا في الجبهة النفسية وأنهم يأمرسون تلاميذهم بحصر الفكر فى أمر واحد أشبه بما عندنا فى استحضر الصلاة وأن ذلك مقول للزيمية وناصر على الأعداء ونافع فى الدين والدنيا ، وأن نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر جاء من هذا الباب .

- ٢٢٣ حكاية مصرية في قوة العزيمة لمكاتب فرنسي وتلميذ مصري :
- ٢٢٤ « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم » . والتفسير اللفظي لهذه الآيات
- ٢٢٧ القرار من الطاعون ومن القتال وحكاية حزقيل لما دعا على قومه .
- ٢٢٨ ملخص تاريخ اليهود في مصر وفي مدة الشيوخ السبعين وفي أيام ملكهم الخ ، وأن الملك تبع العلم والجنم لا الميراث . ايضاح هذه الآيات بأسئلة وأجوبة
- ٢٣١ شذرات من مزامير داود .
- ٢٣٢ « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » الآيات
- ٢٣٣ إيضاح داخل فيه التفسير اللفظي
- ٢٣٤ تقييم تاريخ المسلمين في العلوم الى ثلاثة أقسام : عصر النبوة وما بعده ، ثم زمن الجدل والافتراق ، ثم زمن العلم والحكمة بالبحث في الطبيعة والظن ، فالأول له آية الكرسي ، والثاني بحاجة التحليل والفروغ والثالث التحليل والتركيب في الطيور ، وكذلك قصة المزير .
- ٢٣٥ ايضاح معاني آية الكرسي .
- ٢٣٧ بذور القرآن بالآيات الدالة على قدرة الله وصنعه حفظها الصائون في الأورد ، وهذا أوان ظهورها .
- ٢٣٩ تفسير « لا إكراه في الدين » الخ ، وقوله تعالى « ألم تر الى حاج ابراهيم في ربه »
- ٢٤١ الاتحاد والمزج في علم الكيمياء ، وأن القطن والقمح والبرسيم من عناصر واحدة وهي مختلفات
- ٢٤٢ تركيب الماء من الاوكسوجين والايديروجين ، وأنهما ان تساويا حصل منهما جسم محرق ، قانون النسب المضاعفة في الكيمياء
- ٢٤٣ القطن والقمح والشير والنيرة والقول والبطاطس والقمب والبرسيم اتحدت عناصرها المينة في الجمولين واختلفت نتائجها لاختلاف المقادير ، وهذا من سر آية الطير و ابراهيم والمزير وحجاره ، وهذا هو علم التوحيد الحقيقي
- ٢٤٤ آيات من [سورة الرحمن] لمناسبة الميزان النبوي ظهر في الكيمياء
- ٢٤٥ سر [ا ل م] في أول البقرة
- ٢٤٦ في هذا السر علوم الأمم الاسلامية والسياسة في المستقبل
- ٢٤٧ الكلام على الحيوانات الضفدعية . وتبين عجائب خلقها بصورها الشمسية الغمانية التي تظهر للناس كما ظهرت عجائب خلق الجار للمزير ، وهذا من سر « وانظر الى جوارك »
- ٢٥٣ بيان أن سر [ا ل م] في سورة الفيل ظهر في أيام السلطان [محمود الغزنوي] في أثناء محابته مع الخليفة الصامى ، وهذا السر أبدع ماظهر في معجزات القرآن في هذا العصر لأنه أوانه ، و [ا ل م] مفتاح للعلوم العملية والعملية ، فالعملية كما ذكرناه ، والعملية في مسألة اللغز الواردة في القلح الشرب من النهر
- ٢٥٤ بقاء الأرواح إما بالنظر العقلي ولما يعلم الأرواح ، والنظر العقلي فيه ثلاث طرق ، أدلة سقراط وان مكويه
- أجلة ابن سينا ، طريقة ابن الطفيل في كتابه حى بن يقظان ، وتشرح [حى بن يقظان] للغزلة باحثا عن الروح
- ٢٥٦ رواية [روبرتسون كروند] باللغة الانجليزية . وانها تامة لرواية ابن الطفيل

- ٢٥٧ خطبة المؤلف في موت أمه لا ثبات بقاء الروح بعد الموت
- ٢٥٨ « مثل الذين ينفقون أموالهم » الآيات
- ٢٥٩ تفسير هذه الآيات اللفظي
- ٢٦٠ مطالب هذا القسم من ترك الرياء وعدم المن والاذى الخ
- ٢٦٢ المذاهب الإسلامية الثلاثة : وهي اخراج الزكاة فقط والزيادة على الزكاة ونسبته كله على المستحقين ، زكاة النعم
- ٢٦٣ الركن ، المعادن ، الذهب ، الفضة ، الزرع ، صدقة التطر
- ٢٦٤ أفضل عبادة المسلم التفكير في الرياض والحقول والبساتين
- ٢٦٦ لوم المؤلف للمسلمين في انحاء الأرض على ترك العلوم الكونية ، وعدد العلماء الذين نهوهم فلم يسمعو فقال المؤلف لهم : أفبكلما جاءكم عالم بالانتهوى أنفسكم استكبرتم ففرقا كذبتم وفرقا قتلون
- ٢٦٧ حكاية العالم المسيحي وقوله للمؤلف : إن هذه النهضة ستجعل وجهة المسلمين علوم الأفض والأفاق وفاقا لما قاله الشعرا في رحمة الله .
- ٢٦٧ مقارنة الاسلام بالنصرانية وعلوم أوروبا . كلام اللورد افيرى أن دينهم منعهم النظر في الكون وهم حرروا أنفسهم منه ونظروا ، وقول المؤلف : ان القرآن يأمر بالنظر
- ٢٦٨ تذييل في عشق الترفيقين قديما للجمال في العالم لاسيا قدماء المصريين ، نشيدهم الديني في جمال الله المتجلى به في السموات والأرض
- ٢٦٩ المقصد التاسع عشر : « الذين يأكلون الربا لا يقومون » الآية
- ٢٧٠ ايضاح داخل فيه التفسير اللفظي ، حوب الله للرابين ، وأن الحرب العامة كانت مجزة للقرآن لأنها لأجل رهوس الأموال التي من أهمها الربا
- ٢٧٢ موازنة آراء علماء الاسلام في الربا بآراء الاشتراكيين
- ٢٧٢ حكمة تحريم الربا ، ورأى الامام الفزالي ورأى غيره
- ٢٧٣ ما الذي يبيح الربا ؟ وأن أعم الأقوال فيه مذهب ابن الماجشون ، وأخص الأقوال مذهب ابن عباس
- ٢٧٤ آراء المذاهب الاشتراكية ، وكيف كانت أبحاثهم قريبة مما ذكره علماء الاسلام وقد تجاوزت الحد . تعافل الأمة عما يقتضيه الدين في الأموال
- ٢٧٦ الكلام على الدين والرهن
- ٢٧٧ المقصد العشرون : « لله مافي السموات ومافي الأرض وان تدوا مافي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » التفسير اللفظي لهذا المقصد
- ٢٧٨ تفسير « آمن الرسول » الخ وكيف عبرت عن الحال والماضي والمستقبل
- ٢٨٠ الناس معذبون على ترك ما قدروا على عمله للجموع ، اختلاف الفصول وواجب الحكومات الإسلامية تقسيم النبات وتوزيمه على الأرض ، هكذا تقسيم العلوم على العقول الانسانية لقوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها »
- ٢٨٢ نظام الحيوان على منهج حواس الانسان ومنافسه : أي للسمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ولكل

- حيوان قسمة من هذه الحواس ، هكذا العلوم والصناعات تقسم على الناس باستعدادهم ، لا يكلف الله
نفسا إلا وسعها »
- ٢٨٣ الكلام على العلوم الواجب أكثرها أركانها على المسلمين في هذا الزمان
العلوم الدينية أصول وفروع ومتممات
الصناعات الواجبة كلها أو بعضها على المسلمين
- ٢٨٤ الصنائع كلها ترجع لهذه الثلاثة : الغذاء ، الكساء ، البناء
- ٢٨٤ قواعد الشريعة الإسلامية في هذه الصناعات
- ٢٨٥ الوازع الطبيعي والوازع الشرعي
- ٢٨٦ الفرض العيني الواجب على كل مسلم ، بيان قصور التعليم بالمدارس المصرية في زماننا .
- ٢٨٧ أهل العلم في مصر الآن . ولون وجوههم قبل القضاء والحاماة ، والبلاد فقيرة في أكثر العلوم والصناعات
وهذا بعينه داء المسلمين قديما ، بقية العلوم ضئيلة ، علم الحيوان والنبات والفلك في مصر ضئيلة ،
وقد كانت في مدارسنا قبل ٤٠ سنة
- التلاميذ أعينهم في غطاء ، حكاية التلاميذ الثلاثة عن أستاذ فرنسي أن بهجتهم بعلم الطبيعة يرقى
الأمة سريرا
- ٢٨٨ رأى الامام الفزالي : ان انكباب علماء الدين على لفقه وترك ما يحتاج له الأمة تليس وجهل وغرور
وشهوات
- ٢٨٩ واجب المجالس النابتة عن الأمة أن يوزعوا العلوم والصناعات على المستعدين كما في آية : « لا يكلف
الله نفسا إلا وسعها »
- مطالبة المؤلف كل من اطلع على قصيره أن يوقف الأمة ويفكر في تقسيم العلوم على المسلمين
- ٢٩٠ الأوقاف الإسلامية ، والمعاهد الدينية

(تمت)



شركة مكتبة مصطفى البابی الحلبي وأولاده

بجوار الأزهر الشريف بمصر

تقدم

انفس ذخائر مطبوعاتها الجديدة

منهج اليقين

في بيان أن الوقف الأهلى من الدين

وبليه كلمة : حول ترجمة القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حسين مخلوف

العدوى المالكي : وكيل مشيخة الأزهر ، ومدير المعاهد الدينية الاسلامية سابقا

إبراز المعاني من حرز الأمانى

شرح متن الشاطبية في القراءات السبع

للإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان النمى الشافى الشهير بأبى شامة .

وبهامشه كتابان

الأول : إرشاد المرید الى مقصود القصيد ، وهو شرح على الشاطبية أيضا

الثانى : البهجة المرضية شرح النقرة المضية في القراءات الثلاث المتممة للعشر

كلاهما للإستاذ الشيخ على محمد الضباع

منتهى آمال الخطباء

ومنار المسترشدين النبلاء

أحدث كتاب ظهر الآن فى الخطابة والوعظ والارشاد

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى أبوسيف الحامى : المعروف بخطيب الاسلام

الجواهر

في تفسير الفرائد الكثر

لشمس علي عجمي شيخ المآثر وغرب الألبان

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوي جوهرى
للمدرسة الجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
تتبعه المنسوخة بمائة أمين

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مصطفى البابی الحلبي وأولاده بمصر

بإشراف عماد بن عمران

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »
قرآن كريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقسيم سورة آل عمران

وهي عشرة أقسام :

القسم الأول : معنى الم . القسم الثاني : الإيمان إما تقليدي بالكتب السماوية ، وإما يقيني بالعلوم الطبيعية من قوله (الله لا إله إلا هو الحي القيوم إلى قوله : إن الله لا يخلف اليعاد) . القسم الثالث : التخلية من الرذائل كالشهوات والتخلية بالفضائل من الأعمال الصالحة والعلوم وأن هذا هو الإسلام الحق في كل الصور وهذا من قوله (إن الدين كغفروا لن تغني عنهم أموالهم إلى قوله : سبيع الحساب) . القسم الرابع : كيف يعامل المائدون والمجادلون ، وهذا من قوله (فإن حاجوك إلى قوله : فإن الله لا يحب الكافرين) . القسم الخامس : قصة مريم وذكرياء ويحي وعيسى والحواريين من قوله (إن الله اسطفى آدم إلى قوله والتذكر الحكيم) . القسم السادس : المحاورة للرتبة على هذه الفصحة كحاجة النصارى في عيسى ، وإقامة الحجبة على أهل الكتاب وتكرار النداء لهم ست مرات بقوله (يا أهل الكتاب) من قوله (إن مثل عيسى إلى قوله وما الله بغافل عما تعملون) . القسم السابع : توجيه الخطاب للمؤمنين بقوله (يا أيها الذين آمنوا) وتكراره ثلاث مرات ليجتنبوا ما يفتروه أهل الكتاب من الإنم من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب إلى قوله إن الله بما يعملون محيط) . القسم الثامن : مخاطبة الله النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمنون نعم الله عليهم في غزوة أحد من قوله (وإذ غدوت من أهلك إلى قوله : وخافون إن كنتم مؤمنين) . القسم التاسع : ذكر للناقبين واليهود وكيدهم ، وأن ذلك ابتلاء من الله للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ليصبروا فتغوى النفوس ، وترفع إلى العلى من قوله (ولا يحزكك الذين يسارعون في الكفر إلى قوله : والله على كل شيء قدير) . القسم العاشر : التفكير في خلق السموات والأرض والعروج إلى عالم القدس بعد الصبر في القسم قبله كأنه تعالى يقول الصبر أولاً ، والعروج إلى عالم الأرواح آخراً من قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض إلى آخر السورة) .

ملخص هذه السورة

كان الله عز وجل يقول في القسم الأول : هذه الحروف الهجائية ا ل م ونحوها قد كررتها في أول السور وجعلتها من الأسرار التي توجب أن تفكروا فيها تدريجاً لتفكروا فيها ، وتوجهها لفتوكم إلى المعاني المختلفة التي تحتلها ، فإن الكتب السماوية لهذا أنزلت . أنزلت لترمز تارة وتصريح أخرى ، وتفتح للعقول مجال الفكر ، فليتنا الوحي بالإشارة والتصريح ، وعليكم الفهم والتفكير تارة والعمل والامتثال أخرى وسيأتي هنا بعض سر هذه الحروف .

ويقول في القسم الثاني : — لقد أنزلت الكتب السماوية لكم أيها الناس ، فمنها ما نزل على نبيكم ، ومنها ما نزل على من قبله من الأنبياء لأفتح لكم باب الفهم فتؤمنوا بي كما نصبت لكم دلائل التوحيد في السموات والأرض ليظهر لكم جمالي ، وتبهركم حكمتي ، رتأملوا في أنفسكم ، وتقلوا العجائب في الأعضاء الجسمية التي صورتها في الأجنة في بطون أمهاتها ، ألا وإن هذه الكتب السماوية وهذه العجائب الطبيعية منها ما تفهمونه بسهولة كآليات المحركات والأعضاء المفصلة الواضحة في أجسامكم ، ومنها ما يشبه عليكم علمه مثل المثل التي في أول هذه السورة ومثل تكوين الجنين في بطن أمه ، وكيف يمرّ على درجات مختلفة من الرق الحيواني ، فيشبهه هذان على كثير من الناس ، وليس يعلم ما اشبهه فيهما إلا الله وأكابر الحكماء والعلماء فتوجهوا إلى أهدمكم وقولوا : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

وكانه تعالى يقول في القسم الثالث : — لا يفرتمك هؤلاء الكافرون ، ولا تعجبكم أموالهم ولا أولادهم ، فهذه كلها لا تغني ، وحسبكم ما ترون من خذلان الكافرين يوم بدر كما خذل آل فرعون . واعلموا أيها الناس أنكم محبوسون مسجونون في هذه الدنيا في سبعون سبعة : النساء والبنين والذهب والفضة والحيل والأنعام والزرع ، ولا يخرجكم من هذه السجون المؤسدة عليكم إلى النعيم والحرية والسعادة إلا الصبر والاستغفار والعبادة والصدق والفكر في هذه العوامل المحيطة بكم حتى تغفوا على العدل الذي نصبناه ، والحكمة التي أبرزناها في الأنفس والآفاق فإن ذلك هو دين الإسلام العام الذي أنزلناه على الأنبياء ، وهو الذي يخرج الناس من سجن الشهوات والجهالات إلى نعيم الحكمة والعلم فيعملون أن ملكنا ذو نظام جميل ، وأنتا عادلون في عملنا وأن هذا العالم جنة للكافرين كما أنه سجن للمغفلين .

ويقول في القسم الرابع : — أسلم وجهك يا محمد لله ، ومن معك من المؤمنين ، ولا يضركم من ضلّ من هؤلاء الكافرين من العرب واليهود ؛ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . واعلم يا محمد أنت ومن معك أني سأملككم أرض الحيرة والقرس واليمن والروم فلا تخافوا ولا يتخذ بصمكم من الكافرين بطانة فإنني أعلم سركم ونجواكم واتبعوا نبي محمدا أحكم وأغفر لكم ذنوبكم .

ويقول في القسم الخامس : — لقد مننت على حنة زوجة عمران بما طلبت من ربها فرزقتها بمرم ، ورزقت زكريا الذي كفلهما استجابة لدعائه يحيى ، واصطفيت مريم ، وخلقت منها عيسى وأجريت العجيزات على يديه تخلق الطير على يديه وإبراء الأكمه والأبرص ، وإخباره بالغيب وجعله مصدقا للتوراة ، ومصلحا دينيا ليحل بعض ما حرم في التوراة ، ويخرج الناس من الظلمات التي أحاطت بهم من علماء السوء للقلدين المنافقين ، ويفتح لهم طريقا إلى العلم لترتقى الأمة ، وتسمى إلى الفلاح والنجاح ، فكفرت طائفة من بني إسرائيل كما كفر بعض العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الحواريون : نحن أنصار الله (وأما الكافرون بعيسى) فإن الله جازاهم ورفع عيسى إلى السماء، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا به هكذا سيكون أتباعك يا محمد فوق الذين كفروا بك وسيعلو دينك ويحق الكفر ويحل محله الإسلام في جزيرة العرب ، وما شاء الله من البلدان .

ويقول في القسم السادس : — يا أهل الكتاب قد عرفناكم حقيقة عيسى . وهذا هو القصص الحق فكيف تقولون إنه مصلوب مقتول دعوا الافتراء على الله في عيسى وفي إبراهيم ، إن إبراهيم كان قبل اليهودية وقبل النصرانية فإن موسى وعيسى من ذريته ، وكيف يكون الأب على دين الابن الذي لم يخلق ؟ إن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة التي يجب على الناس الحج إليها فليكن الاتباع له ، ولينته أهل الكتاب عن الكفر ، فالخلق أحق أن يبنع .

وكأنه يقول في القسم السابع : - إياكم أيها المسلمون أن تصفوا لأهل الكتاب فإنهم يريدون أن يردوكم عن دينكم ، وكيف يكون ذلك وفيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فلهضموا بحبل الله وكونوا بدأ واحدة ، وليكن منكم هداة يكونون بمنزلة العقل من الجسم وأنتم تكسب واحد ونفس واحدة ، واحذروا أن تكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا بعد أنبيائهم فاحذروهم فأنتم سليمو القلوب وهم يكرهونكم ويفرحون لحزنكم ويحزنون لفرحكم .

وكأنه يقول في القسم الثامن والتاسع : - إنك يا محمد قد غدوت إلى أحد لمحاربة الكافرين ، وهمت بنو سلمة وبنو حارثة أن تفشلا وكانا جناحي المعسكر ، ولكن الله عصمهما من هذا الفشل فثبتهما ، ولما انهزم عدوكم اختلف الرماة منكم فترك أغلبهم مواقعهم التي أمروا بالبقاء فيها وعمدوا إلى نهب القنائم فأصابكم الهزيمة ابتلاء من الله وامتحانا ، ولقد نصرتم في بدر على قتلكم فلئن خذلتكم في أحد لقد نصرتم في بدر ، «وتلك الأيام نداؤها بين الناس» وهذا الخذلان فيه تعليم للصبر على الشدائد ، ولقد هلتم لما سمعتم أن محمدا قتل ، وكيف يكون ذلك وهو رسول والرسول إن ماتوا أو قتلوا يقوم أتباعهم بما دعوا إليه ؛ ثم اعلوا أن النصر من عند الله فلا القلة تمنعه ، ولا الكثرة توجهه ، وللصائب مقدرة في الأزل فلا تحزنوا ، ومن قتلوا في سبيل الله أحياء فلا تخافوا من الموت ولا تنبسطكم الأراجيف عن مواصلة القتال والمؤمنون يصابون بالشدائد ليظهر الحبيب من الطيب ، وأصول الإيمان كلها راجعة إلى الصبر .

وكأنه يقول في القسم العاشر : - أيها الناس إن هذه الغزوات والعداوات ومحاجة الكفار ليست مقصودة لذاتها وإنما المقصود الأهم أن تنظروا في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتذكروا ربكم على كل حال ولا يفرنكم ظهور الجاهلين والكافرين في هذه الحياة الدنيا فإن الإنسان يمتاز عن الحيوان بالعقل والعلم ، وهؤلاء إنما امتازوا بالتقلب في الأعراض الدنيوية وهو متاع قليل ، فالإنسان خلق ليعلم الأشياء على ما هي عليه فاصبروا على الشدائد وصابروا واقفوا الله لعلمكم تفلحون اه ملخص السورة الإجمالية .

تفسير السورة

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

(١) اعلم أن هذه السورة كالتممة لسورة البقرة ، ألا ترى أن لفظ البقرة بدل على بقرة بنو إسرائيل التي ذبحت لإظهار القتل ، وأن القصة التي تخلفت السورة هي قصة بنو إسرائيل ، وقد قدمت لك في البقرة أنها مرتبة ترتيبا تاريخيا على حسب العصور فترى أن أوّل البقرة اشتمل على قصة بنو إسرائيل لما كانوا في مصر ، ثم الخروج منها ، ثم ذكر أزمان حكم الشيوخ السبعين ، ثم جاء في أواخر السورة فذكر ملكهم بعد أن كانت حكومتهم شورية فملك الله عليهم طالوت ، ثم داود وسليمان واستفحل ملكهم كما أوضحته هناك ، وليس بعد هذا التاريخ إلا خروج عيسى ابن مريم فجاءت سورة آل عمران التي تلي قصة بنو إسرائيل السابقة . فانظر كيف كان لفظ البقرة دالا على تاريخ بنو إسرائيل كما أن آل عمران رمز إلى قصة مريم وذكرها وحده ويحيى وعيسى ، ثم تبع ذلك محاجة أهل الكتاب ونصيحة للمسلمين أن لا يطيعوهم ، وأن تلك القصص تذكر للاستنتاج والعظة والاعتبار كما ستراه مفصلا في الآيات .

(٢) أن أوّل البقرة وآخرها مشابهان لأوّل آل عمران وآخرها . فابتداء البقرة بالإيمان بالنبى وذكر الكتب السماوية ، وهكذا افتتاح آل عمران ، وختم البقرة بأن النبي ومن معه قد آمنوا بالله وجميع الكتب السماوية ، وختم آل عمران بمدح التمسك في خلق السموات والأرض ، وأن هؤلاء التمسكين يقولون «ربنا إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا» فهما قالوا آمنا وفي البقرة قالوا آمنا ، انتهت المقدمة .

فلنبتدى* في تفصيل التفسير في هذه السورة فنقول :

القسم الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْم

إن هذه الحروف التي ذكرت في أول السور قد أطال العلماء الكلام عليها ؛ فمن قائل لا علم للبشر بها ، ومن قائل كلاب لا بد أن يكون لها معنى يعرفه الناس وهذا هو الحق .

فاعلم أن القرآن كتاب سماوي ، والكتب السماوية تصرح تارة وترمز أخرى ، والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني العالية والغازي الشريفة ، وقد بما كان ذلك في أهل الذبانات ألم تر إلى اليهود الذين هم كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يسطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية فيجعلون الألف بواحد والياء باثنتين والجيم بثلاثة والذال بأربعة وهكذا ما رين على الحروف الأبجدية إلى الياء بشرة والكاف بشرين ، وهكذا إلى القاف بمائة والراء بمائتين ، وهكذا إلى القين بألف كما سترأ في هذا المقام ، كذلك ترى أن النصراني في اسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا قد اتخذوا الحروف رموزا دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن ، وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر وكانوا يرمزون بلفظ (أ كسيس) لهذه الجملة يسوع المسيح ابن الله المخلص ، فالألف من أ كسيس هي الحرف الأول من لفظ (أيسوس) يسوع والكاف منها هي الحرف الأول من (كرسطوس) للمسيح والسين منها هي حرف التاء التي تبدل منها في النطق في لفظ (ثيو) الله والياء منها تبدل على (أبوث) ابن والسين الثانية منها تشير إلى (ثوبر) المخلص ، ومجموع هذه الكلمات يسوع المسيح ابن الله المخلص ، ولفظ (أ كسيس) اتفق أنه يدل على معنى ممككة فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزا لإلههم . فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحروف ، ومن الرمز بالحروف إلى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف . قال الخبير الانكليزي سمويل مونتج إنه كان يوجد كثيرا في قبور رومة صور أسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والعظم وكان كل مسيحي يحمل سمكة إشارة للتعرف فيما بينهم اه ، فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلقت فيها ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم كان لا بد أن يكون على منج بلد الأمم ، ويكون فيه ما يألون ويستجد أنه لانسبة بين الرموز التي في أوائل السور وبين الجمل عند اليهود ، ورموز النصراني إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبى أو بين علم العلماء وعلم العامة . فبهذا تبين لك أن اليهود والنصارى كان لهم رموز ، وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل .

لطيفة

قال ابن عباس رضي الله عنهما مر أبو ياسر بن أخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو سورة البقرة ألم ذلك الكتاب لاريب فيه ، ثم أتى أخوه حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف فسأوه عن ألم وقالوا ننشدك الله الذي لا إله إلا هو أحق أنها أتتك من السماء ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم كذلك نزلت فقال حيي : إن كنت صادقا إني لأعلم أجل هذه الأمة من السنين ، ثم قال كيف تدخل في دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال حيي : فهل غير هذا فقال نعم للمص قال حيي : فهذا أكثر من الأول هذا مائة وإحدى وستون سنة فهل غير هذا ؟ قال نعم الر قال حيي : فهذا أكثر من الأولى والثانية فمنن تشهد إن كنت صادقا ماملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة فهل غير هذا ؟ فقال نعم الر قال حيي : فمنن تشهد أنا من الذين لا يؤمنون

ولا ندرى بأى أقوالك تأخذ ، فقال أبو ياسر : أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبينوا أنها كم تكون فإن كان محمد صادقاً فيقول إنى لأراه سيجمع له هذا كلفه فقام اليهود وقالوا اشبه علينا أمرك كله فلا ندرى أبا لقليل تأخذ أم بالكثير . فهذا تعرف أيها الذكي أن الجمل كان متعارفاً عند اليهود ، وهو نوع من الرموز الحرفية فكانت هذه الحروف لا بد من نزولها في القرآن ليأخذ الناس في فهمها كل مذهب وتنصرف الفكر فيها .

ولأنتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف :

[الطريقة الأولى] أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه ، وعنه أن (الـ) و (حمـ) و (نـ) مجموعها الرحمن ، وعنه أن (المـ) معناه أنا الله أعلم ونحو ذلك في سائر الفوائج ، وعنه أن الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد أى القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام .

أقول إن ابن عباس رضى الله عنهما إنما أراد بذلك أن تكون الحروف مذكورة بالله عز وجل في أكثر الأحوال وذكر الله أجل شيء ، ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم عن الأمم السالفة من النصارى في إسكندرية ورومة ، ولكن لا بد أن يكون هناك ما هو أعلى وأعلى .

[الطريقة الثانية] أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وهذا مما ترضاه النفوس ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة ، وهذا النبي الأمي قد نطق بها والتي في أول السور ١٤ حرفاً منها وهي ٢٨ حرفاً إن لم تعد الألف حرفاً برأسه و ١٤ نصفها ، وقد جاءت في ٢٩ سورة وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدت فيها الألف ، وقد جاء من الحروف المهموسة العشرة وهي (حـ حـ شخص سكت) بنصفها وهي الحاء والماء والصاد والسين والكاف .

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة وهي ما يضعف الاعتماد عليها وهي ما تقدم وإما مجهورة والمجهورة ١٨ نصفها ٩ وهذه التسعة ذكرت في فوائج السور ويجمعها (لن يقطع أمر) والحروف الشديدة ثمانية وهي (أجدت طبقك) وأربعة منها في الفوائج وهي (أقطك) والحروف الرخوة عشرون وهي الباقية نصفها عشرة وهي في هذه الفوائج يجمعها (حمس على نصره) والحروف الطبقة أربعة (الصاد والضاد والطاء والظاء) وفي الفوائج نصفها (صـ طـ) وبقية الحروف وهي ٢٤ حرفاً تسمى منفتحة ونصفها وهو ١٢ في الفوائج .

فانظر كيف آتى في هذه الفوائج بنصف الحروف الهجائية إن لم تعد الألف وجعلها في ٢٩ سورة عدد الحروف وفيها الألف وكيف آتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف الطبقة ونصف المنفتحة ، ولقد ذكرت لك فلا من كل مما ذكره العلماء في هذا المقام ولا أطيل عليك خيفة السامة واللل وكفالك ما أمليت عليك في هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف آتى بهذه الأنصاف وكيف وضعت الحروف على هذا النظام وإنى موقن أن التعلم لو طلب منه أن يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع لذلك سبيلاً فإنه إن راعى نصف الحروف للطبقة فكيف راعى الحروف الشديدة وكيف راعى نصف المجهورة في نفس العدد إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، ففائدة هذا الوجه أهم من الوجه الأول ، فالأول فائدته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى . وأما الوجه الثاني ففيه إعجاز للعقول وحيرة ، فيقال كيف تنصف الحروف الهجائية وتنصف أنواعها من مهموسة وشديدة الخ ، وهذه الأنواع لم يكن ليدرسها أحد في العالم أيام النبوة ، ولما ظهرت واقفت تلك الحروف بأنصافها إن ذلك ليمطى العتول مثلاً من الترابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون ، فإذا هو من الوحي ، وهذا الوجه على قوته يفضل ما بعده .

[الطريقة الثالثة] أن الله تعالى خلق العالم منظما محكما متناسقا متناسبا ، والكتاب السماوي إذا جاء مطابقا لنظامه موافقا لإبداعه سائرا على نهجه دل ذلك على أنه من عنده ، وإذا جاء الكتاب السماوي مخالفا لنهجه منافرا لقلبه منحرفا عن سنته كان ذلك الكتاب مصطنعا مفتعلا متفولا مكذوبا ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

والعالم للشاهد فيه عدد (٢٨) في (١) مفاصل اليدين في كل يد ١٤ (٢) وفي خرزات عمود ظهر الإنسان منها ١٤ في أسفل الصلب و١٤ في أعلاه (٣) خرزات العمود التي في أصلاب الحيوانات التامة الحلقة كالبقير والجل والحمر والسباع وسائر الحيوانات التي تلد وترضع أولادها منها ١٤ في مؤخر الصلب و١٤ في مقدم البدن (٤) وهكذا عدد الريشات التي في أجنحة الطير المتمددة عليها في الطيران فإنها ١٤ ظاهرة في كل جناح (٥) وعدد الخرزات التي في أذناب الحيوانات الطويلة الأذنان كالبقير والسباع (٦) وعمود صلب الحيوانات الطويلة الحلقة كالسمك والحيات وبعض الحشرات (٧) وعدد الحروف التي في لغة العرب التي هي أمم اللغات (٢٨) حرفا منها ١٤ يدغم فيها لام التعريف وهي ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن ، و ١٤ لا تدغم فيها وهي ا ب ج ح خ ع غ ف ق ك م ه و ي (٨) والحروف التي تخط بالقلم قيمان منها (١٤) معلم بالنقط ت ث ج خ ذ ز ش ض ط غ ف ق ن ، و ١٤ غير معلمة وهي ا ح د ر س ص ط ع ك م و ه ل لا ، وهذا الحرف هو الألف التي هي من حروف الة أما الأولى فهي الهمزة فهذه ١٤ حرفا بقيت الباء وهي تنقط في وسط الكلمة ، ولا تنقط في آخرها فأصبحت الحروف الة ١٤ وغير الة ١٤ والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم لتكون الة عادية ، والفضل في هذا العدل للحكيم الذي وضع حروف الهجاء العربية فإنه كان حكما ، والحكيم هو الذي يتشبه بالله بقدر الطاقة البشرية وهذا جعل ٢٨ حرفا مقسمة قسمين كل منها ١٤ كما في مفاصل اليدين وقفات بعض الحيوانات (٩) ومنازل القمر ٢٨ منزلة ، في البروج الشمالية ١٤ وفي البروج الجنوبية ١٤ فهذا يفيد أن الموجودات التي عددها ٢٨ تكون قسمين كل منهما ١٤ فهكذا هنا في القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين قسم منها ١٤ منطوقا به في أوائل السور ، وقسم منها غير منطوق به في أوائلها ، وكأنه تعالى يقول أي عبادي إن منازل القمر ٢٨ وهي قيمان ومفاصل الكفيتين ٢٨ وهي قيمان وهكذا والحروف التي تدغم في حرف التعريف وهكذا التي هي معلمة كل منها ١٤ وضدها ١٤ فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل مني لأنني نظمت حروفه على النمط الذي اخترته في صنع المنازل والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية ونظام الحروف الهجائية ، فمن أين لبشر كحمد أو غيره أن ينظم هذا النظام ويحمل هذه الأعداد موافقة للنظام الذي وضعته ، والسنن الذي رسمته ، والنتج الذي سلكته ؟ إن القرآن تنزيل مني ، وقد وضعت هذه الحروف في أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك ، فتملوا آني ما خلقت السموات والأرض وما بينهما باطلا ، بل جعلت النظام في العالم وفي الوحي متناسبا ، وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ولنفته سبقي حية منه إلى آخر الأجيال إن اللغات متغيرة ، وليس في العالم لغة تبقى غير متغيرة إلا التي حافظ عليها دين ، وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين ؟ .

[حكاية] حدثني عالم فاضل أنه قرأ رواية باللغة الألمانية ملخصها أن المؤلف الألماني تخيل رجلا من هذه الأجيال نام فاستيقظ سنة ٨٥٣٢ ميلادية مثلا فطاف في أنحاء المعمورة وصار يخاطب الناس ويسمع لهجات لم يألفها ولغات لم يسمعها ، ويرى وجوها لم ينظرها وأشكالا لم يعرفها ومناظر لم يمهدها ، وبحت عن انكسارها وفرنسا وألمانيا ودول أوروبا ، فلم يجد أرضها وإنما وجدها كلها بحرا ملحا أجاجا فيه السمك العظيم ، طار في أمره وأخذ يفكر ويقول يا عجبا كل العجب ألم يكن لهؤلاء من آثار ألم يكن لهم عمل ألم يتركوا ما يدل عليهم؟ وبينما هو سائر في سهل من السهول ، وقد ألم من الحر وقت الظهيرة فلجأ إلى كهف ليسترج فيه بجبل مشرف

على هذا السهل ، جلس وهو يفكر في أمر نفسه وأمر الأمم الدارسة واللغات الداهية والعلوم اللينة والمدنية الحالية إذ لمع على صحرة بجانبه حروفا فقال في نفسه باليت شعري أي لغة هذه ، ومن أي اللغات هي؟ إن جميع اللغات متغيرة لا يستقر لها قرار فأخذ يقابل هذه الحروف التي على الصحرة بالحروف التي استصحبها معه وتذكرها مما كان يدرسه وهو مستيقظ أو لا إذا هي تشبه اللغة العربية .

هناك أخذ يفكر ويقول بحجب أنفى اللغات وتبقى العربية وأى شئ العربية ولماذا بقيت؟ ثم قال نعم نعم إن اللغة العربية قبل نزول القرآن كانت تتغير على طول الزمان وتمسخ فلا يعرف الأواخر ما قاله الأوائل إلا بشق الأنفس هكذا سائر لغات أوروبا ، فلما نزل القرآن وكان لابد من حفظ العربية التي نزل بها حفظ المسلمون أصولها فلم تغير ، فأما الأمم الأخرى فإن لغاتها تغيرت ولم يبق إلا اللغة العربية حافظة شكلها حتى انقرضت الأمم وأصبحت أرضها بحارا وصارت البحار يابسة وجاءت أمم فلم أعرف كيف أخطبها وقرأت كثيرا من الآثار فلم أعرف حرفا واحدا من لغات الأمم الداهية الدارسة التي بقيت آثارها مطموسة في الأرض ثم أتى بالنتيجة والقصد من هذه الرواية : فقال من أراد من علماء أوروبا أن يجلد علمه واختراعه ونتيجة عمله فليؤلفه باللسان العربي لأنه هو الباقي أما لغات أوروبا فلا بقاء لها ولا دوام لها . فانظر كيف اتفق رأى علمائنا السابقين مع آراء بعض علماء الألمان وكيف يقول علماءنا إن ٢٨ في العالم الساموي والأرض مقسمة ١٤ و ١٤ والقرآن فصلها كذلك ليدل على أنه هو الباقي الظاهر فوق كل دين إلى يوم القيامة ، وأن المنظم لذلك كله واحد ، وكيف يرى هذا الرأي عالم الماني ويقول إن لغة العرب باقية بعد سائر اللغات . فانظر كيف اتفق الرأيان : الأول على ، والثاني على وكلاهما يرى لبقاء القرآن ولغة العرب إلى آخر الزمان .

تحقيق هذا المقام

اعلم أيها الدكي أن الطريقة الثالثة لحصتها من كتب أسلافنا لاسيا كتاب إخوان الصفاء . ولما كانت تلك الأعداد يعوزها التحقيق وتفتقر إلى التدقيق وإلام يراقفها الصدق ، ولم يؤيدها الحق أردت أن أبحث عنها بنفسى ، فأما مفاصل الديدن فهي كما ذكره ، وأما خرزات العمود الففري في الإنسان فهي كما سيأتي :

الرقبة ٧ الظهر ١٢ القطن ٥ اللتحة ٥ العصص ٣ أو ٤ فتكون فقرات الظهر في الإنسان ٣٣ لا ٢٨ فكيف يقولون إنها ٢٨ فنقول إن الحمة التي هي للنتحة تكون منفصلة قليل ولادة الجنين ، فإذا ولد اتصلت فصارت واحدة ظاهرا ، وإذا اعتبرنا أن العصص ٣ لأربعة ، لأن الثلاثة هي الثابتة أما الرابعة فلا ثبات لها فتكون فقرات الظهر ٢٨ ، كما قاله القدماء فهذا تحقيق ما في (١) وفي (٢) وأما السابع والثامن والتاسع فهي محققة كما تقدم وأما ٤ و ٥ و ٦ فهي التي تحتاج إلى التحقيق .

ولقد نقلت لك الجدول الآتي من الكتب الإنجليزية في الحيوانات الآتية من علم الزولوجي :

الحيوان	الرقبة	الظهر	القطن	اللتحة	العصص
١ الحصان	٧	١٣	٥ أو ٦	٥	١٥ - ١٨
٢ الثور	٧	١٣	٦	٥	١٦ - ٢٠
٣ النعجة	٧	١٣	٦ - ٧	٤	١٦ - ٢٤
٤ الماعز	٧	١٣	٦	٤	١١ - ١٢
٥ الجمل	٧	١٢	٧	٤	١٥ - ١٨
٦ الخنزير	٧	١٤	٦ - ٧	٤	٢١ - ٢٣
٧ الكلب	٧	١٣	٧	٣	١٦ - ٢١
٨ اللط	٧	١٣	٧	٣	٢١
٩ الأرنب	٧	١٢	٧	٤	١٦ - ١٨

وجاء ماوافق في كلام العلامة جيرار الفرنسي إذ قال :

إن سلسلة الحيوان الذي حافره مشقوق ليس فيها إلا ستة وعشرون فقرة منها ٧ لاصق وثلاثة عشر للظهر وستة للقطن ، وقال إن سلسلة السكب والمهر مركبة من ٢٧ فقرة منها ٧ للرقبة و ١٣ للظهر و ٧ للقطن ، وقد يكون القطن مركبا من ٨ فقرات ، وقال إن للخنزير سلسلة مركبة من ٢٨ فقرة ٧ عنقية و ١٤ ظهرية و ٧ قطنية ، فتبين من هذا أن العالم الفرنسي موافق علماء انكلترا لأن العلوم مشاهد محسوس .
وتكون النتيجة أننا إذا حسبنا للتمحة فقرة واحدة في هذه الحيوانات كما اعتبرناها في الإنسان كانت الأعداد هكذا : للإنسان ٢٨ وللثور ولكل ذي حافر مشقوق ٢٧ وللسكب والمهر ٢٨ أو ٢٩ وللخنزير ٢٩ وللجمل ٢٧ وللأرنب ٢٧ فبكون كلام القدماء في هذا المقام كلاما تقريبا .

وعددت ريش الطائر فوجدت في كل جناح ٢١ ريشة وهكذا قال علماء البيطرة ولكن قدماء نارحهم الله قالوا إن مايمتد عليه الطائر ١٤ لا ٢١ ؛ وأما ذيل الحيوانات فإنك قد رأيت في الجدول السابق ، وهو مختلف من ١٨ إلى ٢٤ فهذه السائل الأربعة الخاصة بالحيوانات الفقرية بعضها يوافق كلام القدماء وبعضها يقاربه .
[يقاط] اعلم أن هذا التحقيق لا يخالف أصل الموضوع ولا يتنافى حقيقة المسألة ، لحروف أوائل السور من العجائب فقد وافقت النارل السماوية ومفاصل الديدن وخرزات ظهر الإنسان وظهر السكب والمهر والحيوانات الكسرة والحروف الهجائية العلة وغير العلة وللدغمة في لام التعريف والتي لم تدغم وهكذا .
فتعجب من العلم والحكمة وغرائب الإبداع وعجائب العلوم .

موازنة رموز المسيحيين برموز المسلمين

تأمل كيف كانت رموز المسيحيين قد دعت في آخر أمرها إلى تقديس الرمز نفسه والإعجاب به واتخاذة مقدسا فالمسكة التي وافقت حروفها الخمسة في اللغة اليونانية أوائل حروف الجملة التي في ذكر المسيح أصبحت مقدسة ، أما الرموز في القرآن فإن للمسلمين الصادقين والحكماء المحققين أخذوا يبحثون بسببها في علم الطبيعة وفي علم الفلك وفي علم التشريح ، وقالوا إن كتابنا يرمز بهذه الحروف إلى نظام السموات والأرض ، وإنه موافق للطبيعة وإنه باق بقاءها وإنه خير الأديان .

فانظر كيف كان قداماؤنا يدرسون وكيف أصبح للتأخرون يجهلون وبعضهم صم بهم عمى فهم لا يفتنون .
كان قداماؤنا يعملون الطبيعة والفلك من أوضح مايطبق على الرموز القرآنية فأما المتأخرون فإنهم في التيه غافلون وفي الحضيض نائمون وبالجهل قانمون وللموت يحضرون وبالشقاوة يتمنون وفي الضلال يعمهون وفي الصيود يرسفون وفي الذلة يعيشون وفي السلاسل يسحبون وفي جهنم الاستعباد يحرقون ، وقد آن أوان السعادة وأقبلت أيام السيادة وسيبدل الأمن بالخوف والعلم بالجهل والله يقدر الليل والنهار مالك الملك (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتمزج من تشاء وتنزل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولى الليل في النهار وتولى النهار في الليل وتخرج الحي من الليل وتخرج الليل من الحي وترزق من تشاء بغير حساب)

كيف نام المسلمون في القرون الأخيرة

انظر كيف كان قداماؤنا يعملون هذه العلوم دراسة للقرآن ومعاني له ولكن يا حسرتنا أن أولئك العلماء كانوا قليلا ؛ فأما العلامة واللوك وصغار العلماء فإنهم كانوا مرضين عن هذه العلوم ويطنونها كفرا ، ولو كانت حكوماتهم جمهورية نظامية لانتشرت هذه الآراء ولظهرت أجيال منهم لم يعرفها الإنسان ولكن قد آن أوانه وجاء إبانه وسيظهر العلم عما قريب وسيدرس المسلمون هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات العلماء في أقطار الإسلام وسيكون في هذه الأمة جبل ونظام لم يألّفه الإنسان ولم يعرفه أبناء الزمان (كل يوم هو في شأن — وتلك الأيام تدوالها بين الناس — وتعلمن نبأه بعد حين — ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

جمال هذه الحروف وعجائبها

فانظر كيف حمل الرمز بهذه الحروف في أوائل السور العلاء على التفكير؛ فمن رز إلى أسماء الله الحسنى إلى أنها فيها نصف المجهورة والهموسة والشديدة والطبقة والنتيجة الخ، ثم كيف اعتلوا فوق ذلك إلى معاد الخيال وسافروا في باحات الجمال فنظروا فقرات الحيوانات ومنازل السماء وحروف الهجاء ومخثوا ودققوا وفكروا وحققوا ثم انظر كيف كان عدد ٢٨ الذي نصفه القرآن في أوائل السور في علم الارتماطيقى من الأعداد العجيبة القليلة النظير النادرة المثال للمبهجة للناظرين المعجبة للقوم المفكرين .

وكيف يرون أن هذا العدد ليس له نظير في العشرات كما أن عدد ٦ ليس له نظير في الآحاد و (٤٩٦) ليس له نظير في الثلاث و (٨١٢٨) ليس له نظير في الألوف، فإن كل عدد إذا جمعت أجزاؤه كانت أكثر منه أو أقل، أما هذه الأعداد الأربعة فإن أجزاءها إذا جمعت كانت مساوية لها، وبيانها:

أن ٢٨ مثلا نصفها ١٤ وربعا ٧ ومخرج النصف ٢ ومخرج الربع ٤ ثم الجزء من ٢٨ فيكون الجميع ٢٨ وهذا معنى كونه تاما؛ وأما بقية الأعداد فإنها إما ناقصة وإما زائدة، فأما التامة فهي نادرة كما يندر المعدن للسمى (راديوم) الذي يظهر خفايا الأجسام - إن في ذلك لذكرى قوم يعقلون (وما يعقلها إلا العللون) فانظر لو لم تكن تلك الرموز لم نبحت تلك المباحث ولم نوازن ما بين كلام قدمائنا وكلام العالم الألماني وكيف ينصح العلاء أن لا يؤلفوا أعز آرائهم إلا بلفتنا لأنها باقية ما بقى الحدثنان (فبأي آلاء ربكنا تكديبان) .

ملخص هذا المقال

انظر أيها اللبيب وتفكر في العلم وجماله، وفي هذه الحروف التي ينظر إليها الناس نظرم إلى أجسامهم يعيشون ويموتون وهم لا يفكرون وكل حزب بطعامه وشرا به وشهواته مفتون، وهذه الحروف في أوائل السور سكت عنها صاحب التبرع صلى الله عليه وسلم ليطلق الحرية للعقول في فهمها، ويذر الناس يبحثون عليها، فأخذوا يتلمسون معانيها ويصيدون بشباك العلم شواردها لا بطريق البرهان ولا مقدمات اليقين بل بمجرد النسبات والشاكلات والناظرات، فماذا فعلوا ولماذا وصلوا؛ وصلوا إلى علم غزير ومقام رفيع شريف، فرأوا هذه الحروف التي جاءت في أول السور واحدة واحدة أو متى أو ثلاث أو رابع أو خمس مثل ق وحم والم وللر وحمسق وأنها ترجع بعد حذف المكرر منها إلى أمر عجيب:

(١) هي نصف الحروف المرية (٢) وفيها نصف الطبقة (٣) وفيها نصف للنتيجة (٤) وفيها نصف الحروف الشديدة (٥) وفيها نصف الرخوة (٦) وفيها نصف للهموسة، وفيها نصف المجهورة (٧) وأنها وضعت في أول سورة عدد ٢٩ حرفا في اللغة المرية بعد الألف اللينة من الحروف (٨) وكيف كانت تقسم الثمانية والعشرون كقسمة منازل القمر (٩) ومفاصل الدين (١٠) وققرات الظهر من الإنسان (١١) وققرات الظهر في بعض الحيوان على ما قدمناه (١٢) ثم كيف كانت الحروف الهجائية منها للدغم في لام التعريف ومنها غير للدغم وهذان موافقان لهذا العدد من حيث القسمة (١٣) وللتنقوط كذلك وغير للتنقوط (١٤) وكيف كان عدد ٢٨ الذي قسم إلى قسمين صحيحين في القرآن من الأعداد النادرة الوجود الشريفة التي تساويها أجزاؤها كما تقدم، وأن جميع الأعداد إما زائدة وإما ناقصة .

ولما كان هذا العلم مفقودا في الأمم الإسلامية اليوم إلا مسائل ضئيلة في علم الحساب أردت ذكر مسألتين للعدد الزائد والعدد الناقص لتكون على بصيرة في الأمر .

العدد الزائد مثل ١٢ نصفها ٦ ثلثها ٤ ربعا ٣ سدسها ٢ ونصف سدسها ١ فجملة الأجزاء ١٦ وهي أكثر من ١٢ أما العدد الناقص فهو مثل ٨ نصفها ٤ ربعا ٢ ثلثها ١ وجملتها ٧ فهي أقل من ٨ .
فالأعداد جميعها إما زائدة وإما ناقصة وليس فيها تام إلا هذه الأربعة في الآحاد والعشرات والثلاث والألوف

فتعجب من القرآن لماذا لم يذكر في أول السور ١٢ حرفاً أو ١٥ بل ذكرها ١٤ ، وكان من نتائجها أن نظر العلماء في الفلك وخواص الأعداد وعدد الفقرات والحروف الهجائية وأقسامها وأن هذا القرآن ثابت ما بين الفرقان وما دام اللوان .

الأسرار الكيمائية في الحروف الهجائية للأمم الإسلامية في أوائل السور القرآنية

ها أنت أيها الفكي قد اطلعت على ماسطره القدسه وآبأؤنا الحكماء من الأنوار الإلهية في الحروف الهجائية وفهمت أنهم في فهمهم درجات ليؤتوا كل عاقل ما يوافق طبعه ويناسب عقله ويشابه درجته العلية وتعالجه العقلية . فهل لك أن أبرز لك الجوهر الكون والسر للصون وأفتح لك بتوفيق الله بعض خزان العلم لتستخرج منها المعارف الحكيمية والأنوار القدسية والنوح السنيق والدرر المهيبة والسعادة النبوية والنعم الأبدية للأمم الإسلامية . أقول: سترى إن شاء الله في سورة التكميوت وفي سورة يس وما بينهما من أسرار هذه الحروف ما يشرح الصدر ويوضح الأمر ولكن الآن لأدع هذه الفرصة بمرء بدون أن أذكر لك لحظة بزادان بها تفسير هذه السورة فأقول :

أزل الله هذا القرآن ذكرى للناس وقال : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ، وقال : (إن هو إلا ذكر للعالمين) ، وقال : (أفلم يدبروا القول) وقال : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ، فهذه الآيات وغيرها أعلنتنا أن القرآن إنما هو للذكر ولتفكر ولا يحرم من الفكر إلا القلوب للقفلة .

تفكرنا في هذه الحروف التي في أوائل السور وتفكرنا فيما سطره فندماؤنا وعلنا أنها جعلت مثلاً للنظر وقدسا للفكر ، فالأولون والآخرون يفكرون ولا نكبر عليهم ولا راد لقولهم ؛ فكما صنف عطاؤنا في الفقه آلاف الكتب ولا نكبر ولا منازع هكذا هذه الحروف ونحوها تنوعت فيها الآراء ولا منكر .

قول أيضا : إن القرآن إذا كان مثار الفكر والعلم فهذه الحروف الهجائية المذكورة في أول السور لم جيء بها ومعلم أن الحروف على قسمين حروف لها معنى وحروف لا معنى لها فهذه من القسم الثاني والأنبياء جاءوا مشرعين ولم يرسوا لتعليم مبادئ القراماة والكتابة وإنما ذلك لطائفة تقوم به في مبادئ التعليم فإذن هذه الحروف للذكر ولتفكر فلتنظر نظرة عامة تشمل جميع الأقوال السابقة وتضم الآراء المختلفة والمذاهب للتشعبة وهي الكبريت الأحمر والسك الأذفر هي رقى الإسلام وسائط السلام وسعادة الأمم وبهجة المسلمين . انظر رعالا الله تأمل يقول الله ا ل م - ال ر - طس - حم - وهكذا يقول لنا أيها الناس إن الحروف الهجائية إليها تحال الكلمات اللغوية لما من لغة في الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأخرى شرقية وغربية فلا صرف ولا إملاء ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها وهذا هو القانون للسنون في سائر العلوم والفنون ؛ ولا جرم أن العلوم قسبان : لغوية وغير لغوية فالعلوم اللغوية مقدمة في التعليم لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلية من رياضية وطبيعية وإلهية فإذا كانت العلوم التي هي آلة لتغيرها لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها فكيف إذن تكون العلوم القصودة لتناجها المادية واللغوية فهي أولى بالتحليل وأجدد بإرجاعها إلى أصولها الأولية ، لا يعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والقدمات ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها فرجع الأمر إلى تحقيق العلوم .

بهذا وحده ارتقت أوروبا وبهذا وحده يرتقى الإسلام وانظر وتفكر فيما أتيت عليك الآن ، تأمل فيما سنسسه بما يقرؤه أكثر الناس في مصر وغير مصر وأكثرهم - ماهون لاهون لأذكر لك مسائل من علم الكيمياء .

المخاليط المعدنية

ما هي المخاليط المعدنية لأضرب لك منها أمثالا :

(أولا) هناك معدن يقال له (كدميوم) وهناك التصدير والرصاص وهما معروفان ورابع يسمى (بزموت) هذه المعادن إذا خلطت بنسب معلومة أمكن صهرها على درجة بين ٦٦ و ٧١ درجة مع أن كلا منها وحده يصهر على درجة أكثر من هذه الدرجة؛ فأعلاها على درجة (٣٦٠) وهو (كدميوم) وأدناها وهو التصدير على درجة (٢٢٩) فاجتماعها وتركبها بنسب خاصة بأن يكون بعضها (٨) أجزاء وبعضها (٢) وبعضها (٤) هكذا ٢ : ٤ : ٨ وهي النسبة الهندسية العجيبة هو الذي أكسبها هذه الخاصية وهي أنها تصهر على درجة غير درجات كل واحد من العناصر الداخلة فيها .

(ثانيا) النحاس الأحمر مثلا لين يصنع بسهولة ولكن ليس فيه صلابة كافية ، فإذا صهر جزآن منه مع جزء من الحارصين تسكون مخلوط معدني صلب هو النحاس الأصفر سهل الصنع لونه أصفر ، وإذا تغير مقدار الحارصين أمكن إكسابه لون الذهب .

ثم إن النحاس الأصفر لا يمكن برده لأنه يلتصق بالمبرد كالجسم اللين ، وإذا أضيف إلى مائة جزء منه جزء أو ثلاثة أجزاء من التصدير أو الرصاص زال منه هذا العيب .

(ثالثا) الرصاص يصهر بسهولة ويمكن عمل أحرف الطبع منه صبه في القوالب المعروفة بالأصهار لكن هذه الأحرف لا تتحمل ضغط الطبع فتبهت ويتغير شكلها بسبب رخاوة الرصاص ، وإذا عملت أحرف الطبع من الأنتيمون وحده ، فإن هذه الأحرف تتفتت بضغط التابع لهشاشة الأنتيمون ، فإذا مزجت أربعة أجزاء من الرصاص بجزء من الأنتيمون نحصل مخلوط صالح لأن تصنع منه أحرف الطبع صبه في الأمهات ، وهذه الأحرف تتحمل ضغط الطبع فلا تبهت ولا تتفتت .

(رابعا) صنع للدافع يحتاج إلى معدن صلب غير هش يمكن إصهاره وخرطه ، والنحاس وحده فيه معظم هذه الأوصاف غير أنه رخو فإذا خلطت (٩٠) جزءا منه بشرة أجزاء من التصدير تحصل مخلوط معدني أكثر صلابة من النحاس وفيه المقاومة الكافية لأن تصنع منه للدافع وهذا المخلوط يسمى (بروز) وكلما زاد مقدار التصدير في هذا المخلوط زاد صلابة ولكن يكون أكثر قابلية للكسر .

(خامسا) إذا أضيف (٧٨) جزءا من النحاس و (٢٢) جزءا من التصدير كان المخلوط صلبا له رنة تعمل منه الأجراس والنواقيس .

هذه الأمثلة الخمسة ذكرتها لك لتتظن في أمرها كيف كان للركب في المثال الأول إذا كان على هيئة مخصوصة بمقادير محدودة كان صهر للركب فيه أسهل من صهر كل واحد من العناصر وحده .

انظر كيف كان النحاس الأحمر في المثال الثاني لا يكسب الصلابة الكافية ولا لون الذهب إلا إذا خلط بمقدار من الحارصين معين فيكون نحاسا أصفر ، ثم كيف كان النحاس الأصفر غير قابل لبرده بالمبرد إلا بإضافة التصدير أو الرصاص إليه لكل مائة جزء جزء أو ثلاثة ؛ فالحارصين صار نحاسا أصفر ، والتصدير أو الرصاص صار قابلا لعمل للبرد .

وانظر إلى حروف الطبع في المثال الثالث كيف كان الرصاص وحده رخوا لا يتحمل الطبع والأنتيمون وحده يتفتت وكيف كان أربعة أجزاء من الأول وجزء من الثاني إذا خلطتم الطبع ، فهذا التفسير لا يمكن طبعه إلا بهذه النسبة التي لو زادت أو قصت أو انفرد أحد المعدنين لم يمكن طبع هذا التفسير .

وانظر إلى صنع للدافع كيف كان النحاس الأحمر وحده لا يجدي فيه ، فإذا أضيف إليه الحارصين لكل تسعة أجزاء جزء واحد بحيث لا يزيد ولا ينقص أمكن صنع للدافع .

ها أنت ذا قد كشف لك أمر صنع للدافع وأحرف الطبع والأجراس والنحاس الأصفر — هذه الأمثلة منظار معظم أو مرآة تنظر بها صور العلوم كلها وهذه العلوم ترجع مركباتها إلى أصولها ، فكما رجعت الكلمات

والجمل في النثر والظلم إلى الحروف المجائية هكذا رجعت جميع المركبات في العلوم الطبيعية والرياضية إلى أصولها الأولية، جل الله وما أبدع العلم وأجمل الحكمة. علم الله أن الأمم الإسلامية سيأتي لها زمان تصبح فيه نائمة لاثنتيئة سنين وازدادوا تسعا بل ستائة سنين وازدادوا ثمان عشرة بل أكثر من ذلك.

فأنزل الله هذه الحروف وأمرنا بقراءتها، ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيدنا بمعنى مخصوص فيها، بل إن اليهود لما حسبوها بالجمل تبسم ضاحكا ولم يتكلم، تلك حكمة وأية حكمة آية وآية آية، كأن الله يقول أيها المسلمون هذه الحروف إذا تركت بلا تركيب تكون بلا معنى الم فإذا ركبت على نسب مخصوصة كانت لها معان على مقتضى التركيب، فزيادة حرف أو نقصه من الكلمة تغير المعنى ومن لم يعرف الحروف التي هي أصول الكلمات لم يتبين حقائق اللغة مع أن من الناس من يتكلم ولا يعرف الحروف المجائية هكذا العلوم والصناعات ترجع إلى أصولها، فإذا لم يعرف الناس خصائص الرصاص والأنتيمون فكيف يصنعون حروف الطبع؟ وإذا جهلوا خواص النحاس والتصدير فمن أين يتأتى لهم عمل البرونز الذي يصنعون منه للدفاع؟ وإذا جهلوا خواص الحارصين إذا اجتمعت مع خواص النحاس الأحمر فمن أين يتأتى لهم النحاس الأصفر، أو جهلوا خواص الرصاص مع ما تقدم فمن أين يصلحون العيب الطاريء عليه؟

هذه أمثلة تبين لك أيها الذي أن الله تعالى جعل عالم الماديات كعالم اللغات وأن خصائص المركبات تفارق خصائص المفردات؛ فكما لا يكون ألف ولا لام ولا ميم مفيدة المعاني منفردة هكذا لا يصلح النحاس وحده لصنع المدافع ولا الرصاص وحده لصنع حروف الطبع، وكما أن تركيب حروف الألف مع اللام الشددة بعدها مدة مع الهاء على هذا الترتيب تفيد معنى الذات الواجب الوجود، وإذا غير التركيب أو العدد أو شكل الحروف تغير المعنى، هكذا إذا زاد النحاس على تسعين جزءا في صب للدفاع أو نقص، وهكذا التصدير إذا زاد عن عشرة أجزاء أو نقص لا يصلح المخلوط لصنع المدافع.

ولقد علمت أن هذه العلوم والصناعات جميعها نبغ فيها القرينة والمسلمون لم يوقفهم أحد إلى درسها مع أن علماء اللذاهب جميعا أجمعوا أنها فرض كفاية وأن آيات القرآن طائفة بذكر عجائب الصنعة الإلهية فأنزل هذه الحروف سبحانه حتى تكون رمزا يظهر به سره العجيب وإبداعه العجيب وإتقانه العالى.

عجبا لك الحمد يا الله ركبت النبات ونظمته وجعلته من عناصر بموازين محدودة وهكذا الحيوان وأهلتم عبادك أن ينجوا نهجك ويصنعوا بأجزاء محدودة وأمت للسليين آمادا وآمادا، ثم كثرت لهم في كتابك كثرا أظهرت سره لهم الآن وقلت أى عبادى ادرسوا نظامى ونحتموا بأخلاقى وحلوا العناصر وادرسوها واقرأوا العلوم وافهموها فقد وعظمتكم بالمدافع القائلة والطيارات الفاتكة والأمم الظالمة، كل هؤلاء أرسلتهم رحمة لكم لا عذابا. إن ما يفتح باب العلم ليس تعديبا إنه تهذيب، نعم يكون تعديبا إذا لم تتعظوا ولم تتذكروا فيكون الهلاك حتما عليكم لأنكم لا تصلحون للحياة ولا تصلحون للوجود، وكيف يصلح للوجود من ينظر ولا يعقل؟ أليس هذا التفسير يطبع بحروف مركبة تركيبا منظما من معدنين فكيف تطبعونه وغيره إذا لم تدرسوا هذه العلوم والصناعات أفلا تبصرون أفلا تسمعون؟

مدافع أرسلتها وطيارات بعثتها وغازات خاتمة أطلقتها وآيات بينات فصلتها وحروف هجائية أزلتها أفلا تتذكرون؟ نظرتكم بأنفسكم للدفاع وحروف الطبع ولكن أكثركم عن التفكير فيها معرضون، فإذا لم تتقوا البصائر فما أمانا أسمعكم الحروف المجائية في أول السور لأذكركم بذلك أفلا تتذكرون؟

منطق حروف الطبع بلسان حالها

لو نظقت حروف الطبع لقلت بلسان فصيح قد ركبت صورتى من عناصر بحساب كما ركبت الحاصلات الزراعية والأعضاء الحيوانية والمقايير الطبية وسائر المنوعات الإنسانية فما أمانا اليوم أمثل ذلك التركيب

والتعطيل بنظام في الأحرف المجعائية اقرءوا إن شتمتم (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) كل ذلك إشارات قدسية فى الحروف العربية بأوائل السور القرآنية .

[حكمة] لا تظن أنها الذكى أن هذه اللغى التى ذكرناها تحول بخواطىر علماء الكيمياء أو علماء النبات أو علماء الصناعات ، والذين يصون للدافع صبا أو الذين يقرءون علم التشريح إن هؤلاء يقرءون علومهم ولا يحطرون بالعلم مادكرناه لأنها علوم جزئية والعلم الكلى هو الذى يسميه القدماء علم مارواء الطبيعة أو العلم الأهل وهو الباحث عن النظام العام ، فأهل هذا العلم وهم الحكماء أشبه بمنشى القصيدة والخطب وأهل تلك العلوم أشبه بعلم النحو أو الصرف أو الخط فكل منهم لا يهمنه إلا العلم الجزئى من اللغة الذى هو بصدده وهذا هو السبب فى أن أكثر من قرءوا العلوم الطبيعية يجهلون العلوم الإلهية ؛ كما أن المختص بعلم النحو أو الصرف من اللغويين وقضى حياته فيه متكبا عليه لا يعتمداه لا يحسن قرض الشعر ولا الخطب ولا النثر كما هو معروف مشهور . وكما أن الشاعر والخطيب والنائر يكتمهم من النحو والصرف وأمثالهما ما به يصلح لفظهم هكذا الحكماء يجهلون من العلوم الطبيعية والرياضية ما به يدرسون نظام الوجود بحسب ، ولا يعينهم التبصر فى العلوم الجزئية والفرقان خلقوا فى كل أمة ودين رحمة للناس ، وكما أن الشاعر وأخويه يمتحن الجمهور على الأدب والأخلاق والنظام للذى هكذا الحكماء الذين هم صقوة الله فى الأرض بعد الأنبياء يلقون فى القلوب الحكمة ويوحدون عقائد الخواص فى الأمم والأديان كما يوحد الوعاظ الحقائق عند العوام .

إن الناظر نظرة عامة فى العلوم الطبيعية والفلكية ومقدماتها هو الذى يفهم قوله تعالى فى هذه السورة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) ، وهو الذى يعرف قوله تعالى : (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقوله : (إن الله سريع الحساب) ، وقوله : (وكل شئ عنده بمقدار) ، وقوله : (ووضع لليزان ألا تظفوا فى اليزان) ها أنت أبها الذكى بما يذكر فى هذا المقام وفى غيره من هذا الكتاب رأيت اليزان والحساب واطلمت على رتبة أولى العلم الذين عطفوا على الملائكة حتى يلحقوا بهم :

على نفسه فليكن من ضاع عمره . وليس له منها نصيب ولا سهم

ما الناس سوى قوم صرفوا وسوام همج المسج

انتهى الكلام على القسم الأول من سورة آل عمران وهو (الم) .

الكلام على القسم الثانى من سورة آل عمران

الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء * هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم * هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه

ابْتِنَاءِ الْفِتْنَةِ وَابْتِنَاءِ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ
 آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ
 هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ
 لَأَرَىبُ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

قوله (الم) فتوح الميم في الشهور بنقل حركة الهمزة في اسم الجلالة إليها ، وقرئ بكسرهما على نون التثنية
 الساكنتين وقرئ بسكونها والابتداء بما بعدها وهو الأصل (الحق القيوم) تقدم في آية الكرسي (نزل
 عليك الكتاب) القرآن على مقتضى الوقائع (بالحق) بالعدل والصدق في أخباره والحجج المحققة أنه من عند
 الله (مصدقا لما بين يديه) من الكتب السماوية للترلة على الأنبياء (وأنزل التوراة والإنجيل) على موسى
 وعيسى (من قبل) أي من قبل تنزيل القرآن (هدى للناس) عامة ونحن منهم إذا قلنا إنا متعبدون بسرائر
 من قبلنا أو قومها فقط إن لم نقل ذلك فهما رأيان (وأنزل الفرقان) جنس الكتب الإلهية من هذه الثلاثة
 وغيرها (إن الذين كفروا بآيات الله) من كتبه للترلة وغيرها (لهم عذاب شديد) بما كفروا (والله عزيز
 ذو انتقام) أي غالب ذو انتقام عظيم لانظير له (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) فليس
 يغيب عن علمه كل شيء ولا جزئي ولا ذرة ولا أصغر منها ولا أكبر (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء)
 من الصور المختلفة فهو الذي يتقن خلق الجنين ويتم تصويره بحكمة وإبداع (لا إله إلا هو العزيز الحكيم)
 كامل القدرة تام الحكمة (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) لم تكن بحجة العبارات ولا محتملة
 للعاني (هن أم الكتاب) أصله الذي يرد إليه ما عدها (وأخر متشابهات) محتملات غير متضعات بحجة
 العبارات أو مخالفة للظواهر ولا يدرك المراد منها إلا باستنباط العلماء واللوزنة بينها وبين المحكمات ، وقوله في آية
 أخرى « أحكمت آياته » حفظت من فساد اللحن وركاكة اللفظ وقوله في أخرى « كتبنا متشابها » أي يشبه
 بعضه بعضا في صحة اللحن وجزالة اللفظ (فأما الذين في قلوبهم زيغ) عدول عن الحق من أهل البدع (فيتبعون
 ما تشابه منه) ناظرين إلى ظواهره أو مؤولين تأويلا باطلا (ابتداء الفتنة) طلب أن يفتنوا الناس في الدين
 ويوقعوا الشك في قلوبهم بالتلبس ومناقضة الحكم للمتشابه أو طلب الغرام وهو الافتتان بحيث لا يصحون لنصح الناصحين
 (وابتناء تأويله وما يعلم تأويله) الذي يجب أن يعمل عليه (إلا الله والراسخون في العلم) أي الذين ثبتوا ولو تمكنوا
 فيه (يقولون آمنا به) أي حال كونهم يقولون آمنا به (كل من عند ربنا) ويصح أن تكون الجملة مستأنفة لتوضيح
 حال الراسخين وهذا على أن الراسخون معطوف على لفظ الجلالة وصح الوقف على لفظ الجلالة ويكون الراسخون
 مبتدأ خبره يقولون آمنا به ويكون للتشابه بمعنى ما استأثرنا به بلمه كدرة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخوفاص
 الأعداد الواردة كعدد الزبانية (وما يذكر إلا أولوا الأبواب) وهم الراسخون في العلم الذين جادت أذهانهم
 وحسن نظرهم فهم مستعدون للاهتمام إلى تأويله (ربنا لا تزغ قلوبنا) أي يقول الراسخون في العلم ربنا لا تأمل
 قلوبنا عن الحق والهدى إلى اتباع للتشابه بتأويل لاترضاه . قال عليه الصلاة والسلام « قلب ابن آدم بين أصبعين
 من أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاعه عنه » أو لا تبلى يلا يارزغ قلوبنا فيها (بعد إذ هديتنا)
 أي وقتنا لدينك والإيمان بالحكم والتشابه في كتابك (وهب لنا من لدنك رحمة) نزلنا إليك ونغوز بها عندك
 بإعطائنا توفيقا وتثبيتا للذي نحن عليه من الإيمان والهدى وبغفران ذنوبنا (إنك أنت الوهاب) والوهاب
 من يعطى بلا عوض ولا غرض ، والله يعطى كل أحد على قدر استحقاقه (ربنا إنك جامع الناس ليوم) لحساب

يوم أو لجزائه (لأرب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) وهذا من بقية دعاء الراسخين في العلم، طلبوا من الله ألا يزيغ قلوبهم وأن يهديهم ويرحمهم وذلك من مصالح الدين والدنيا معا، ثم ذكروا نتيجة ذلك في الآخرة وقالوا إنك جامع الناس للجزاء ووعدك حق؛ فمن أزعجت قلبه فهو هالك ومن منفت عليه بالرحمة فهو سعيد . انتهى التفسير الإجمالي للقسم الثاني من السورة .

تفصيل الكلام على هذه الآيات في القسم الثاني

اعلم أن هذه الآيات اشتملت على تعطين : النمط الأول في هداية العامة من سائر الأمم والأجيال وتلك الهداية تكون بالحجج التي اشتملت عليها تلك الكتب ثم الإنذار والتخويف بالوعيد والزرع والمقاب الشديد؛ فذكر الكتب السماوية من القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب ، ثم أئذر بالمذاب الشديد وختم ذلك بأنه عزيز ذو انتقام . النمط الثاني هداية الخواص من تلك الأمم التي أنزلت عليها الكتب ، وذلك راجع إلى علمهم بأمرين سعة علم الله تعالى وسعة حكمته وقدرته ، فأشار إلى الأول بقوله : (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) وهذا هو سعة علمه جل جلاله ، وإلى الثاني بقوله : (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) وبقوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب) الخ ، فهو يقول إن الخواص من الناس وأرباب العقول يعرفون ربهم بسعة علمه وإحكام قدرته وانتظام أعماله انتظاما تاما كما يرى في تصوير الأجنة في الأرحام وإبداع العقول العظيمة في تلك النموس لتفقه الكتاب وتبين التشابه وترجمه إلى المحكم فنظام الأجسام وجمال العقول من عجائب قدرته عز وجل وإحكامه خلقه .

ولنفصل الكلام على الأمرين : الأول قوله تعالى (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) . الثاني قوله تعالى (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) إلا هو العزيز الحكيم .

الكلام على الأمر الأول

لقد صرفت فيما مضى أن العامة غير مهتمين بالنظر ، فالكتب السماوية كافلة بإيمانهم ، أما الخاصة فهم المهدون بحنا وتنقيا في الأرض وفي السماء فيعرفون سعة علم الله تعالى من علم الطبيعة وعلم الفلك وعجائب هذه الدنيا التي خلقنا فيها وهؤلاء هم أكابر الحكماء وعظماء الأمم الفاعلون بانتشالها وإسعادها وإعزازها وفي القرآن آيات كثيرة دالة على سعة علم الله داعية ومشوقة لدوى العقول الكبيرة أن يبحثوا ويحدثوا بقرائنهم في هذا العالم كقوله تعالى في سورة لقمان : « يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في سخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » وكقوله : « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » وكقوله تعالى « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » وكقوله تعالى « وعندنا مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

فيرى العقلاء أنه ذكر أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض كالرطب واليابس والأجسام التي لا يحصى عددها من الورق النبات في الشجر الساقط من اليبس ، بل ما هو أقل من ذلك كالحبة من الخردل بل ما هو أصغر منها وتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد من المادة غورا ألا وهو ما في النفوس من الآراء والاعتقادات والقاصد . فهذه الآيات يقرؤها العقلاء فيرون أنها تصف الله بجم الأجرام الكبيرة والصغيرة وما تنأى عنها في البدقة وهكذا ماوراءها من المعاني والأفكار فينظرون فيرون ذلك إنما يعرف بعلم الطبيعة في العصر الحاضر وبعلم الفلك يسحبون من هذا النظام البديع للماء من الترائب والبدائع .

في الحامض التريك ثم صبناه في مائة قيراط مكعب من الماء وأذبنا فيها قليلا من ملح الطعام فإن اللدوب يتعكر ويصير أبيض لبنيا ويبقى هذا اللون ظاهرا للمين ولو فيها يساوي $\frac{1}{100}$ من القيراط للكعب وفي ذلك من العضة

$\frac{1}{100,000,000,000}$ من القيراط للكعب .

[اللطيفة الخامسة] إننا نرى الهباء الذي يسقط في البيوت من ضوء الشمس الداخل من النوافذ ونحن عادة لا نتفكر فيه مع أن فيه كثيرا من بزور النباتات فإذا وقع هذا البزر على أرض رطبة كانت منه عفونة وهذه العفونة إذا نظرناها بالمكروسكوب وجدنا غابات كثيرات الأشجار مشتبكة الأغصان وأعيننا لا تميز شيئا من ذلك .

[اللطيفة السادسة] إن آلاف الآلاف من الحيوانات تعيش في نقطة ماء صغيرة تعلق برأس الإبرة مثلا وتتمو هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البر في القفار وحيوانات الماء في البحار ويسطو بعضها على بعض ويقاتل ويفترس بعضها بعضا كالكواسر والجوارح وهي كثيرة الوجود ، ولما يخلو منها مستنقع أيام الصيف وهي تصعد في البخار الذي يتصاعد عن الماء بحرارة الشمس وتطير في الجو مع الهباء ثم تعيش وتكثر حينما تركت وواقيتها الرطوبة والحرارة .

[اللطيفة السابعة] إن الحيوانات السابقة مع تنامي صفرها قد تحجرت منها طوائف لا نحصى حتى كانت

منها طبقات كبيرة من الصخور الطباشيرية في الأرض ولا يساوي هيكل الحيوان الواحد منها أكثر من $\frac{1}{187,000,000}$ من القمحة ، ومع هذا الصغر للتناهي لهذه الحيوانات كان لكل حيوان منها معدة أو أكثر لمضم طعامه وأعضاء باطنة وأخرى ظاهرة فإذا تنامي الحيوان في الصغر فلماذا تكون تلك الأعضاء ؟ وهذا داخل في قوله تعالى (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) وكيف يعزب عنه ذلك .

وقد ظهر أن تلك الحيوانات الطباشيرية مثلا عند خلقها وموتها لم تكن لها فائدة واضحة فلما أن كثرت وكان منها الطباشير وانتفع به الناس عرفنا أن خلق ذلك الحيوان كان مقصودا للحكمة كما كان خيط العنكبوت الذي هو واحد من ألف خيط خارج من جسمه لا يشعر بمنفعته إلا بعد ما انضم إلى الخيوط الأخرى ثم كان النسيج فظهرت للنفعة حينئذ فإذا رأى الناس عالم الحيوان وعالم النبات وعميت عليهم طرق السوابق في فهمها وقالوا لم خلق نبات كذا وما فائدة هذه الحيوانات الكثيرة ؟ قلنا لهم ما طوائف الحيوانات والنباتات التي لم تظهر حكمتها لنا إلا كطوائف الخيوط الدقيقة العنكبوتية قبل التمام ، فإذا فهمنا العنكبوت وخيوطه والطباشير ومنفعته فهمنا فهما إقناعيا أن لهذه العوالم حالا عالية تظهر فيها فائدتها ، وهذا داخل في قوله (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) وإنما كان في كتاب مبين لأنه سائر لغاية ، والغايات لا تكون إلا تابعات للعلم ، والعلم لا يبدله من علم .

[اللطيفة الثامنة] إن للمادة مع صفرها ليست متصلة ذراتها اتصالا تاما بل هناك فضاء متسع بين أجزاء الماء والهواء والحجر والحديد والذهب ، وقالوا لو أن حيوانا عاش على سطح ذرة من ذرات أي جسم من حديد أو حجر أو ذهب وأراد أن يرفع رأسه إلى الذرة الأخرى لراها بعيدة بعد ما بيننا وبين الشمس أو النجوم ، وأنت ترى أن هذا القول الذي قالوه لا تصدقه العتول ولا تدركه الأبصار ولكن العلم أثبتته ، ويقرب به لك ما أذكره فأقول :

(١) إذا وضعنا في إناء ماء ثم وضعنا في الماء ملحنا ثم بعد ذوبانه وضعنا فيه سكرًا فإن الماء لا يزيد حجمه لأن دقائق الماء وسعت الملح ودقائق الملح وسعت السكر لأنه أدق من الملح فدل هذا على مسام الماء ومسام الملح .

في مدار واحد عدد من الكترونات ، وفي مدار ثان ٨ الكترونات ، ثم في مدار ثالث الكترون واحد ؛ ويقال أيضا إن الكهرباء الإيجابية في النواة قد تكون ١١ ويمادلها أحد عشر الكترونا وهي الكهرباء السالبة دائرة حولها ، وقد ثبت أن الكهرباء السالبة في الجواهر الفردة تدور بسرعة مدهشة حول النواة ، والمسافات بين الألكترونات والنواة كالمسافات بين الشمس والسيارات .

ويقال إن الجواهر الفردة لو تمكن العلماء من تحليله لخرجت منه قوة هائلة جدا لا يتصورها الناس بل ربما كان في إطلاق قوته إطلاق قوت جواهر أخرى فتتحول الأرض حالا إلى كوكب جديد ، ويقول الدكتور (استون) إنه لو حدث ذلك وكان في كوكب المريخ سكان لشاهدوا منظر اغريبا للأرض أثناء تحولها إلى الشكل الجديد (كل من عليها فان) .

فانظر كيف سعى الإنسان إلى أن يعرف أن ماهو أصغر من الذرة الواردة في الآية صار حبيبات من الكهرباء السالبة والوجبة وأصبح الحديد والنحاس والبلاتين والذهب مثلا في نظر العلماء عبارة عن كهرباء سريعة الحركة جدا ولسرعة الحركة ظن الناس أنها جامدة واهي بجمادة . ووالله إن هذا بينه قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء) فالجبال وللمعادن مركبات من الجواهر الفردة والجواهر من حبيبات من الكهرباء ، وكلما كانت أسرع جريا كانت أصعب ملسا . فذرات الحديد وعبارة أخرى الكهرباء التي تراها أمامنا حديثا ماهي إلا أنها أسرعت إسراعا شديدا فصارت صلبة فقلنا هذا حديد ، فأما ذرات الماء فهي غير مسرعات كذرات الحديد فقيل هو سائل والهواء أقل إسراعا فقيل هو (غاز) وهذا الكشف الحديث منطبق تمام الانطباق على القرآن فالجبال من جهة جاريات مع الأرض حول الشمس ، ومن جهة أخرى جاريات جواهرها مسرعات حول النواة ، ومن تلك الجواهر الجارية تكون الذرات ومن الذرات تكون الصخور ومن الصخور تكون الجبال . وما تكون من جبار فهو جبار ، فالأرض جارية والشمس جارية والجبال جارية والحصى جارية (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وهذا سر قوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) .

وهذا وإن كان من أسرار القرآن ومنطبق عليه لم ينزل من الأبحاث التي تحتاج إلى مباحث أدق فذلك جاء في القرآن (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فهو من جهة يقول إنه واسع العلم حيث قال (وما يعزب عن ربك - إلى قوله - ولا أصغر من ذلك) فعبير بلفظ أصغر وهذا الذي ذكرناه هو الأصغر ولكنه لما انتهى إلى ما وصلنا إليه قال إنكم أيها الناس لا طاقة لكم بما فوق عقولكم (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وهذا بعينه كلام العلماء في أوروبا فإننا قدمنا لك أن هذا الجواهر الفردة لم يروه وإنما استنتجوه ولم يشاهدوه . انتهى الكلام على المبحث الأول أي ماهو أصغر من الذرة في قوله تعالى (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) .

المبحث الثاني فيها هو أكبر من النرة في الآية وفيه لطائف

[اللطيفة الأولى] اعلم أن الذرة منها تتركب هذه الأجسام ، وقد قلنا إنها هي مركبة من الجواهر الفردة ومن الأجسام تكون هذه الأجرام العظيمة من السموات والأرض ، أما الشمس والأقمار والأرضون فقد استوفيناها في قوله تعالى في سورة البقرة (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) إنما الذي يهمننا الآن أن نبحث فيها هو فوق ذلك مما كشف حديثا ولأذكر لك خلاصة ما قيل عن العوالم السديمية في آخر تقرير رفع إلى أكاديمية العلوم بفرنسا في هذا العام فأقول :

إذا أرسلت نظرك إلى السماء في ليلة صافية الأديم أبصرت غيوما بيضا كأنها لبن ، وهي عبارة عن سدم

أى سحب ساجحة في الفضاء الذى لا يتناهى كما كانت أرضنا وشمسنا في الأحقاب والدهور قبل ملايين لللايين من السنين ؛ ثم إن للسافات التى تفصل هذه العوالم عنا لاتقع تحت حصر فالكيلومتر لا يصلح فيها مقياسا ولا قطر الأرض ولا قطر دائرتها حول الشمس وقد اصطلاحوا على مسافة لهذا القياس تبلغ ثلاث سنين وسدس سنة نورية ومموها (برسك) والسنة النورية أمر يفوق الوصف فلإن النور يسير في الثانية بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر فما بالك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين وسدس سنة الذى جعلناه مقياسا .

فانظر الآن ماجاء في ذلك التقرير الذى رفع في شهر مارس سنة ١٩٢٣ أثناء تفسير القرآن فقد جاء فيه أن سديم (ماجلون) يبعد عن الأرض ٣٥ ألف برسك أى نحو ١١٠ ألف سنة نورية ، وأن السديم الذى تمكن العلم من قياسها هو كما يأتى :

- (١) ستة سديم تبعد عنا ٦٥ برسك أى نحو ٢٠٧ سنة إذا نحن سرنا إليها بسرعة النور .
 - (٢) ثلاث نجوم سديمية معروفة باسم (نوكا) تبعد عنا ١٧٥ برسك أى نحو ٤٣٥ سنة نورية .
 - (٣) خمسون سديما مظلما ونيرا تبعد عنا ٣٢٠ برسك أى نحو ١٠١٤ سنة نورية .
 - (٤) سبعون سديما تبعد عنا ٩٠٠ برسك .
 - (٥) تسعة وستون سديما تبعد عنا ٢٣ ألف برسك أى نحو ٧٢٨٤٧ سنة نورية .
 - (٦) سديمان حلزونيان على بعد ٢٠٠ برسك أى نحو ٦٣٥ سنة نورية .
 - (٧) ستة عوالم سديمية تبعد عنا ١٥٠ ألف برسك أى نحو ٤٧٥ ألف سنة نورية .
- ويبعد السديم (اندروميد) عنا ٤٥٠ ألف برسك أى نحو مليون وأربعمائة وخمسة وعشرون ألف سنة نورية ويسير هذا السديم بسرعة ١٢٠٠ كيلو متر في الثانية وكذلك السديم المعروف باسم ماجلون فإنه يبعد عن النظام الشمسى بسرعة ٥٦٨ كيلو مترا في الثانية. وتسير المجرة التى يعد النظام الشمسى والسيارات وفى جملتها الأرض من نواحيها بسرعة ٥٦٠ كيلو مترا في الثانية جاذبة وراءها الشمس والسيارات مع الأرض وكل نجوم السماء .

هذه هي الخلاصة التى رفعت إلى أكاديمية العلوم فانظر كيف اطلعنا على أصغر الكائنات وعلى أعظم الكائنات واتصل أصغرها بأكبرها فى النظام وسرعة الجرى وأصبح فى نظر العالم أنه لا فرق بين السيارات فى مداراتها وحيبيات الكهرباء الجارية حول النواة فى الجواهر الفردة فأتصل أولها بآخرها . أو ليس هذا بينه هو قوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) أى تناقض (فارجع البصر هل ترى من فطور) شقوق (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) .

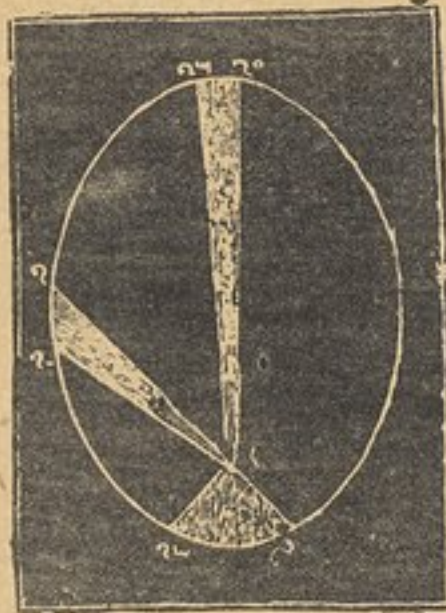
ألم تركيب أشبه أعظم العوالم أصغرها وواضار العالم كله جاريا على قاعدة واحدة وهذه هي الوحدة العامة التى ظهر السكون بمظهرها ، أو ليس هذا هو البرهان على وحدة صانعها فإن النظام لم يتغير فالأول هو الآخر (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم) .

[اللطيفة الثانية] قوانين كبلير ونيوتن : قد تبين لك فيما سبق فى اللطيفة الأولى وما قبلها أن الأجرام العليا السماوية والأجرام الصغيرة القريبة ذات حركات سريعة منتظمة هية النهج ذات قوانين سارية جميلة ، والآن نبين بعض تلك القوانين التى تربط العوالم بعضها ببعض ، فالشمس جاذبة للأرض مجذوبة والقمر تابع الأرض والشمس وما حولها تجرى حول كوكب آخر والعالم كله جار بقانون عام يسمونه الجذب . ومن أهم تلك القوانين هذه الثلاثة التى تنسب للعلامة كبلير :

[القانون الأول] شكل مدارات السيارات : جميع السيارات ترسم حول الشمس فى جهة واحدة منحنيات مقلدة مستديرة تقريبا مستوياتها مائل بعضها على بعض قليلا .

وهذا القانون الأول يتعلق بشكل المدارات ، ونصه : أن مدار كل سيار قطع ناقص تشغل الشمس إحدى بؤرتيه ، ومعلوم أن ذلك هو مدار الأرض للعلوم بتغير بعدها عن الشمس أو بالتغيرات التي تحصل للقطر الظاهري للشمس . وتوضيحه : أن الأرض لا يكون قريباً من الشمس وأجداً في جميع السنة بل هي كل يوم بل كل ثانية مختلفة البعد ؛ فهي في الصيف بعيدة وفي الشتاء قريبة وفي الخريف والربيع متوسطة ، وهذا هو جيبه القطع الناقص وينتج من هذا القانون كما أوضحته لك أن بعد سيار عن الشمس يتغير دائماً في مدة دورة وأن هذا البعد يأخذ جميع المقادير المحصورة بين مقدارين نهائيين مطابقين لوضعين يشغلهما السيار حينما يوجد في طرفي المحور الأكبر للمدار ويسمى الوضعان المذكوران الرأس والذنب ، وبعبارة أخرى أن الأرض مثلاً حينما تكون بعيدة من الشمس يقال إنها في الرأس وحينما تكون قريبة يقال إنها في الذنب ، والبعد للتوسط هو للساوي نصف المحور الأكبر للقطع الناقص .

[القانون الثاني] قانون المساحات : وهو المساحات للرسمات بأصناف الأقطار البورية لسيار حول البورة الشمسية مناسبة للأزمنة المستعملة قطعها . وبيان ذلك أن أقول :



إن هذا القطع الناقص بشكل ١ فترى ش هي الشمس ودار سيار كالأرض حولها ، وقد قلنا إن هذا السيار في كل لحظة يتغير بعده عن الشمس كما هو ظاهر لأن البعد يكون ثابتاً في الدائرة أما ههنا فهو متغير فوجد كيلير والملاء قاطبة أن القوس ق ٥ ق ٤ والقوس ق ١ ق ٢ والقوس ق ٣ ق ٤ (التي قطعها السيار في أزمنة مختلفة بأوقات متساوية فكان ق ٥ ق ٤ حينما كان السيار في الرأس وق ٢ ق ٣ حينما كان السيار في الذنب الذي هو قريب من الشمس وهكذا) تكون غير متساوية؛ فأما للثلثات الرسمومة وهي ق ٥ ش ق ٤ وق ٢ ش ق ١ وق ٣ ش ق ٤ التي قواعدها رسمومة في أزمنة متساوية فإنها تكون متكافئة، فإذا صارت للدد للضعف أو ثلاثة الأمثال فإن مساح الثلثات للتكوونة بأصناف الأقطار تكون متساوية فتأمل في هذا نجد أن السيار لما بعد عن الشمس كانت المساحة التي قطعها بنصف القطر كالمساحة التي قطعها وهو قريب منها ، وإن كان بطيئاً في الأولى مسرعاً في الثانية فلحسن النظام والدقة في السير صار الثلثان متساويين مساحة لتساوي الزمنين .

فعلى هذا تكون الأقواس للرسمومة في أزمنة متساوية كلما كان السيار بعيداً عن الشمس وكبيرة

كلا كان السيار قريبا منها ، وبعبارة أخرى أن سرعة السيار تزداد بنقص بعده عن البؤرة وتكون في نهايتها الصغرى في القنب وفي نهايتها العظمى في الرأس .

[القانون الثالث] مربعات مدد دورات السيارات حول الشمس مناسبة لمكعبات أبعادها المتوسطة عنها أو لمكعبات المحاور الكبرى لمداراتها .

البعد المتوسط هو المساوي نصف المحور الأكبر للقطع الناقص

وبواسطة هذا القانون العجيب يمكن معرفة مدد دورات السيارات لاستخراج منها أبعادها المتوسطة عن الشمس أو مقادير محاورها الكبرى منسوبة إلى أحدها للأخوذ وحده .

وقد ظهر نيوتن بعد كبلير وبين أن القوانين الثلاثة للتقدمه نابعة بالطبع من قاعدة الجذب . فالجذب العام هو قوة تنقاد لها جميع الأجسام السماوية وتتأثر بها والثقل في سطح الأرض ليس إلا نوعا منها .

وقد استنتج نيوتن من قاعدة الفصور الدائى للسادة التى تستلزم كون حركة الجسم المطلق بالضرورة مستقيمة منتظمة أن السيارات التى ليست حركتها منتظمة ولا مستقيمة يجب أن تكون متأثرة بقوة خارجية :

وأثبت بالقانون الثانى أن القوة الحافظة للسيارات فى أفلاكها لا بد أن توجه نحو الشمس ، واستنتج من القانون الأول أيضا أن القوة المذكورة تختلف شدتها فى نقط الدار الذى يجرى فيه السيار وأنها مناسبة لعكس مربعات أبعاد السيار عن بؤرة الجذب فكلما كان مربع البعد أكبر كانت القوة المذكورة أضعف ، وكلما كان المربع أقل كانت القوة أكبر ، وهذا ظاهر للمتعمدين صعب على من لم يمارس هذا الفن .

واستنتج نيوتن أيضا من القانون الثالث أن هذه القوى مناسبة لمجسمات الأجسام التى هى واقعة عليها . وقد لحس هذه القاعدة مما تقدم فقال :

جميع أجزاء المادة يتجذب بعضها إلى بعض بقوة مناسبة لطردا لمجسماتها وعكسا لمربعات أبعاد بعضها عن بعض وهكذا حركات التوابع حول السيارات وحركات ذوات الأذنان حول الشمس تجرى فيها هذه القوانين الثلاثة لكبلير وكذلك قانون الجذب العام .

إيضاح ما تقدم

يظهر لى أيها الدكى أن هذه القاعدة لم تظهر لك واضحة وأنا الآن أبينها لك فى الأمور للشاهدة فأقول :

خذ فليئة واقطعها قطعتين إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة وضعهما على الماء فإنك تراهما تقتربان من بعضهما والكبيرة تجذب الصغيرة والصغيرة تجذب الكبيرة وكل منهما يجذب على مقدار جسمه لا غير ، هذا

معنى قولنا إن الجذب مناسب للمجسمات ، وإذا بعدت إحداهما عن الأخرى بمقدار ذراعين ؛ فإن الجاذبية تكون أقل مما لو كان بينهما ذراع واحد بعكس المربع ، فمربع الواحد ومربع الاثنين أربعة فتكون

السرعة فى الجذب إذا كان بينهما ذراع بمقدارها إذا كان بينهما ذراعان أربع مرات ، وفى الاثنين تكون ربع ما إذا كانت بواحد وقس عليه ٣ و٢ يكون فى أولهما أكثر مما فى ثانيهما بنسبة ٩ إلى ٤ فالإسراع فى الأول ٩ وفى

الثانى ٤ فكل منهما يعطى فى السرعة مربع الآخر فالاثنتان لها مربع الثلاثة والثلاثة لها مربع الاثنين . فهذا

معنى قولهم إنها تتجذب عكسا لمربعات أبعاد بعضها عن بعض ، فإذا عرفت هذا نفس عليه نظام الكواكب وجذب بعضها لبعض على هذا النمط وقد بينت لك هذا القام بإيضاح ، فتعجب من هذه الجاذبية العامة أيها

الفطن واعلم أن جميع الأجرام السماوية مرتبط بعضها ببعض بالجاذبية العامة .

[اللطيفة الثالثة] هناك جاذبية تسمى جاذبية الثقل وهى جينها كالجاذبية العامة ، فإذا كان الجسم فى مركز الأرض فإنه لا تفل له لأنه مجذوب من سائر الجهات بالتساوى ، وإذا كان مرتقيا عن سطح الأرض نقص ثقله بابتعاده عن السطح المذكور كزيادة مربع بعده عن مركزها .

وبعد سطح الأرض عن المركز نحو ٤٠٠٠ ميل ، فإذا كان جسم بزن مائة رطل وهو على سطح الأرض ثم رفعناه في طائرة عن وجه الأرض ألف ميل فإننا نحول نسبة ٢٥٠٠٠ كنسبة ١٠٠ رطل إلى ٦٤ ، وهو الجواب الآتي من قسمة ١٠٠ في ٤٠٠٠ على ٢٥٠٠٠ وهو المطلوب فقد قص الجسم بارتفاعه عن سطح الأرض ألف ميل وصار ٦٤ بعد أن كان مائة .

انظر أيها الفطن وتعجب لهذا النظام والاتفاق تعجب من الجاذبية الماسكة السائرة بنظام تام فيكون الجسم عند خط الاستواء أخف ، وعند القطبين أثقل لأن خط الاستواء بعيد عن المركز أكثر من القطبين لأن حركة الأرض هناك سريعة وبالعكس يكون القطبان ، فإن الأرض منبعجة عندهما ، فالجسم يكون أقرب إلى المركز والحركة هناك الطاردة ضعيفة عنها في خط الاستواء وعليه تكون الأجسام في مصر أثقل منها في خط الاستواء وأخف منها في القطبين لأن أرض مصر أبعد من القطبين عن المركز والحركة فيها أشد وعلى هذا قس .

[الطبقة الرابعة] إن سرعة الأجسام الساقطة إلى الأرض تكون بحسب ١٦ قدما مضروبة في (١) للثانية الأولى وفي (٣) للثانية الثانية وفي (٥) للثالثة وفي (٧) للثالثة الرابعة ، وبجارية أخرى ضرب ١٦ في الأعداد الترتيبية ١-٣-٥-٧-٩-١١-١٣-١٥ وهكذا لكل ثانية على التوالي .

وإذا ضربنا عدد التواني ضربا في ١٦ قدما كان ذلك هو البعد الذي سقطه الجسم ، فالثانيتين يكون البعد فيهما ٤ في ١٦ والثالثة ٩ في ١٦ والأربعة ١٦ في ١٦ وبجارية أخرى ١ و ٣ و ٥ و ٧ و ٩ و ١١ و ١٣ و ١٥ إذا ضرب كل منها في ١٦ كان الحاصل هو الذي سقطه الحجر في تلك الثانية ففي الأولى ١٦ في ١ وفي الثانية ١٦ في ٣ وفي الثالثة ١٦ في ٥ وهكذا .

وإذا جمعنا الثلاثة كان هكذا: ٩ في ١٦ وهو مساو (٣ + ١ + ٥) \times ١٦ وهذا من أعجب العجيب في علم الطبيعة كيف يتصافح علم الارتعاطيق وعلم الطبيعة كيف يجتمع العلمان وكيف تكون الأعداد الفردية المتلاحقة إذا جمعت كانت هي بينها للربعات الزمنية وكيف يكون هذا قانونا عاما كيف يكون في الثانية الرابعة سقوط الحجر يساوي ٧×١٦ وإذا ضم إلى ما قبله كان هكذا (٧ + ٥ + ٣ + ١) \times ١٦ يساوي $٤ \times ٤ \times ١٦$ فربيع ٤ هو عينه مساو لجمع الفردات الأربعة من ١ إلى سبعة . إن عجائب الحساب من الفرد والزوج ظهرت هنا في سقوط الأحجار . عجائب الحساب وخواصه ظهرت في قوانين نيوتن وكبلير وفي الأحجار الساقطة والجاذبية العامة أليس هذا بينه هو قوله تعالى (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فما للنسبة بين الإتيان بمثقال حبة من خردل وبين كفاية الحساب لما دخل الحساب هنا ؟ أليس هذا هو السر في مثقال حبة من خردل وأكبر منها وأصغر كل ذلك لا يأتي إلا بحسب هذا هو الحساب وهذا هو السر الذي حجب عن الجهال وكشفه الله للناس في هذا الزمان ، ثم انظر كيف يقول الله (والشفع والوتر) أليس هذا هو سر الشفع والوتر هذا الشفع وهذا الوتر ظهر سرهما في هذا العالم العجيب هنا ظهر سر الشفع والوتر فللوتر سلطان في عدد الأقدام في سقوط الثانية الواحدة وللشفع سلطان عند تريخ جميع التواني ، إن الطبيعة ممتزجة بالحساب امتزاجا تاما هذا هو من سر قوله تعالى (وكفى بنا حاسبين) وهذا هو سر قوله تعالى (إن الله سريع الحساب) وقوله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) أليس هذا هو سر القرآن كيف يقول الله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وكيف يكون هذا العلم الذي ظهر بالمقول البشرية موافقا له ، فإن للادة كلها ليست إلا كهرباء ، والكهرباء تكاد تكون أمرا معنويا وكأنها حركات وتلك الحركات منها كانت الذرات بجوامعها والأجسام ، وبسرعتها ونظامها دامت موجودة ، فأنه هو للمسك لها .

ههنا تبين لك أيها التقي كيف كان هذا العالم نظاما واحدا أو له يشبه آخره وكبيره يشبه صغيره والحيرة في الحفير كالخيرة في العظيم ، فانظر كيف كانت القمحة من القضة فيما تقدم وأن جزءا صغيرا منها يقسم على ماء غزير فيلونه وأن هذا العدد من أجزائه يتعذر عدته كما يتعذر عدد نجوم السماء . فقد بهرنا العظيم وبهرنا الحفير ، كما أدهشنا نظام الكواكب في قوانين نيوتن وكيلبير ، أدهشنا سقوط الحجر بحساب بديع فهناك يقال إن الثلث التي يرسمها الكوكب في الأوقات للنسوية في أزمان مختلفة تكون متكافئة المساحة ، وهنا يقال إن الحجر في سقوطه بحسب تارة بالإفراد وتارة بمربع الأزواج .

إلى هنا انتهى الأمر الأول وهو تفسير قوله تعالى (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) وقد أعمنا الكلام على اللبثين مبحث ماهو أصفر من الثرة ومبحث ماهو أكبر من الثرة وفصلنا في الأول عجائب الثرات وصفرها وخيوط العنكبوت ودقتها وفي الثاني عجائب الكواكب والسمدم والأحجار الساقطة وقوانين السبارت فلنشرع في الأمر الثاني .

الأمر الثاني

وهو تفسير قوله تعالى (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) قد قلنا إن الخاصة ينظرون في علم الله بما يظلمون من عجائب الفلك والطبيعة والثرات البديعة وفي قدرته وهو ما أردنا في هذه الآية . فآله هو الذي يصور الناس في الأرحام وعجيب الخلق وذلك أنه غالب فأهمل هذه العوالم وقهره لها بحكمة لا بمجرد اللب (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) وكيف يعرف الناس أن السموات والأرض وما بينهما مخلوقة بالحق والعدل والنظام إلا بهذه العلوم؟ وكيف يعقل الناس أن هذه العوالم سائرة بقصد إلا بالعلم؟ فانظر كيف يقول (ولكن أكثرهم لا يعلمون) . وما يؤسف له وبخزني أن يكون أكثر المسلمين هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فيا ليت شعري من أين يعرف الناس قوله تعالى في هذه السورة (شهد الله أنه لا إله إلا هو ولللائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ؟ كيف يعرفون أنه قائم بالقسط وأنه عزيز يظلم هذه الكائنات ويقهرها جزه وجبرونه؟ حكيم بدرجة وإحكام ونظام؟ كيف يعرفون ذلك إلا بمثل ما بسطناه في هذا القام؟ كيف ينلم المسلمون عن هذه العلوم؟ يا قوم إلى هذا دعا القرآن وهذا أمر الله ، فيا أسف على أمة هلكت وربوع خلت ومدن أقمرت ، فليرجع المسلمون إلى هجدهم فآله قد غضب على مجموعنا بسبب جهلنا والإفترج هم المفكرون ولكن أبشركم بأنه قد آن أو ان ظهور ذلك المجد الباذخ (والله هو الولي الحميد) .

سلطان القدرة والمحبة العامة

هذه الآية قد أظهرت سلطان القدرة في خلقه الجنين في الرحم ومن هذا القبيل قوله تعالى (ثم استوفى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض انبيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) هنا يقول الله إنه قال للسموات وقال للأرض لتانبا طوعا أو كرها فأتتا طائعين . ويقول في آية أخرى (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فسكن في سخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله) . وقال في آية أخرى (بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون) وفي أخرى (وفيه يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة واللائكة وهم لا يستكبرون) وقال في أخرى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) فهذه الآيات كلها داعية للنظر في هذا العالم ؛ فقد عبر مرة بالطاعة ومرة بالإمساك ومرة بالقنوت ومرة بالسجود ومرة بأنه يأتي بحجة الحردل من أي مكان .

فانظر أيها العالم وانظر أيها الحكيم وانظر أيها المسلم من أين تفهم أن حبة الحردل يأتي بها الله ومن أين تعرف أن من في السموات والأرض يأتون الله طائعين لا منكهرين ، وما السر في هذا ولم عبر بالطاعة ولم يجعل

امتثالها لله إكراها؟ أقول لا يفهم هذا المقام إلا بما سأوضحه لك في هذه اللطائف : لطيفة الجاذبية ، ولطيفة الماء ، ولطيفة الثلج ، ولطيفة علم التشريح ، ولطيفة السمع ، ولطيفة البصر ، ولطائف الرحمة في قلوب الوالدين ، ولطائف الحب في أفئدة اللطيفين والحكماء والعلماء والأنبياء ، ولطائف الشهوات الغريزية ؛ ومنها ما في آية (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين الح) ولطائف خلق الآساد ونحوها . ولطائف الغرام بزرع الأشجار التي يكتسب شمرها الإنسان وبذلك يخدم عوالم من الحيوان كما خدم النحل الإنسان (وكل له قانتون) ثم لطائف الحب العام للرتب على ما تقدم ، وكيف السبيل إلى نشر العلوم والفضيلة بين الناس ، وإن ذلك لا يكون إلا بالهبة وعمومها في أفئدة الناشئين تبعاً للنظام العام ؟

اللطيفة الأولى : لطيفة الجاذبية العامة

لقد تبين لك فيما أسلفته لك الجاذبية العامة وكيف كانت لم تذر الكواكب في أفلاكها ولا الأحجار في مساقطها إلا سلطت عليها تلك الجاذبية فأنت ترى أن الكوكب السيار وهو يجرى حول الشمس متفاهاً لهامتاً تراه جبار على نظام ؛ فإن بعد عنها فهو إليها ناظر يجرى على نهج معلوم ، وإن اقترب منها كان مسرعاً أشد إسراراً لطاعته لها فهذا هو قوله تعالى (قالنا أتينا طائمين) فالكواكب طامعات الشمس والشمس وما حولها طامعات كوكب آخر والحجر الساقط من أعلى إلى أسفل تراه يجرى طامعاً ، فالجاذبية عبر عنها القرآن بالطاعة . هذا هو معنى القرآن وقوله (إن تك مثقال حبة من خردل فتسكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله) ظاهر فيما مضى أن الذرات الصغيرة المسماة إلكترونات تجرى بأدب وطاعة حول النواتج التي تقدم ذكرها كما تجرى السيارات حول الشمس فهذه مخلوقات الصغيرة التي كانت في الكهرومغناطيسية هي أصل المادة يأتي بها الله والإتيان فيه معنى الحركة فتراها متحركة حول أصولها ؛ فالسموات طامعات والذرات طامعة يأتي بها الله على سبيل الطاعة ولولا أنها مطيعة ما كانت منتظمة لأن الطبع مؤدب ، والعاصي غير منتظم ، والأدب ظاهر في قوانين كبلير ونيوتن في جري السيارات كما أوضحته لك وظاهر أيضاً في سقوط الأحجار وإلا لما هذا النظام

١	٣	٥	٧	٩	١١	١٣	١٥
٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨

فالحجر الساقط كما أوضحته لك فيما مضى يجرى على هذين القانونين ؛ فالقانون الأول لجريه في الثواني ، فالثانية الأولى ١٦ قدما في ١ والثانية ١٦ في ٣ والثانية الثالثة ١٦ في ٥ وهكذا الرابعة في ٧ الخ . وجميع ما قطعه الحجر يتضح في الصف الثاني فيكون في الثانية الأولى ١ في ١٦ ، وفي الثانية الثانية ٢ في ١٦ ، وفي الثانية الثالثة ٣ في ١٦ ، وفي الرابعة ٤ في ١٦ وهكذا . أنا وإن كنت ذكرته لك سابقاً أعدته هنا ليجرى الجدولان معا ويتضح معنى الطاعة في قوله (أتينا طائمين) . أما الإتيان بالحركة ، وأما الطاعة بالنظام الذي تراه في هذين الجدولين . يمثل هذا فليفهم القرآن ويمثل هذا فليرتق السلمون .

هذه الطاعة أيضا ظاهرة في الجسمين اللذين يلتقيان على سطح الماء من نوع واحد كالفلين فيه عكس التريبع للتقدم ذكره ، ويظهر أيضا في رفاصي الساعة اللذين قصر أحدهما وطال الآخر فإن بينهما نسبة كما هنا وكذلك ميزان التبان فالنظام تام في هذه الكائنات من حيث طاعتها فهذه هي الطاعة ، فالجاذبية هي الطاعة (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) .

اللطيفة الثانية : لطيفة الماء

(١) إن الماء يعدل هواء البلاد فيقيها تعاقب الحر والبرد عليها تعاقبا عجائبا ، لأنه يمتص حرارة كثيرة

في الصيف فيلطف حره ويلطف برد الشتاء ، وفي الربيع يذوب الثلج والجليد فيمتص ماؤها حر الشمس فلا تخرج الأشجار براعمها سريرا ولا تتعرض لتقلبات البرد والحر .

إن الثلج والجليد لا يذوبان إلا بحرارة شديدة ، وعلى ذلك لا يذوبان إلا ببطء في الربيع ، ولولا ذلك التاموس لسكانت مياهها تظن على الأرض فتجرف تربتها وتهلك مخلوقات الحياة التي عليها ؛ إن الماء وضع هيئة عجيبه حافظ لحالة الجو بنظام عجيب .

(٢) إن الماء فيه هواء ولذلك يعيش فيه السمك ولو خلا الماء من الهواء لسكان بفرق كثيرا كما تجاوزت حرارته ٢١٢° ف أعنى درجة التليان ، فكان الناس لا يتجددون أن يخلوه في وعاء إلا وهم مراقبون درجة حرارته بالترمومتر كما يراقبون الآن الآلات البخارية مخافة أن ينحصر بخاره فيشقى القدر ويتلف ماحولها ، وإنما لوجود الهواء فيه كلما زادت حرارته عن ٢١٢° فارقه الزائد وتركه على درجة ٢١٢° ف .

ومن العجب أن الماء قد شذ عن بقية السوائل : إن السائل إذا برد جمد وهكذا الماء إذا وصل إلى درجة ٣٩° ف تقلص بالبرد ثم يأخذ في التمدد بزيادة البرد حتى يصل إلى درجة ٣٢° ف فيجمد جميع السوائل ومنها الماء تتمدد بالحرارة وتقلص بالبرودة والماء وحده قد شذ عنها في أنه إذا تقلص مثلها بالبرودة ثم ازدادت برودته تمدد ثانيا إلى حد محدود ، وانظر أيها الذي لهذا الشذوذ العجيب شذوذ به حياة كل حي شذوذ عليه تتوقف حياتنا وحياة الحيوان والنبات ، أفليس ذلك داعيا للتفكير ؟ لم اختم الماء بأن الثلج الناجم من تقلصه يصير كبيرا مخالفا في ذلك بقية السوائل ؛ ذلك أن الماء لو كان يجري يجري بقية الأجسام إذا برد لسكان إذا برد سطحه تنزل دقائقه الباردة إلى قعره وتجمد دقائقه الأخرى من قعره إلى سطحه حتى تبرد كلها إلى درجة الجليد فتجمد معا ويصير الماء كله قطعة واحدة من الجليد فيقتل ما فيه من الحيوان والنبات ثم إذا جاء فصل الصيف وتعاظم حر الشمس يذوب وجه ذلك الجليد فقط فيصير ماء لكن ماختمه يبقى جليدا لأن الماء غير موصل للحرارة فيصد الشمس عما تحتها ولا يمكنها من تذويه ، وعلى ذلك يبقى الجليد في البحار والبحيرات والأنهار وفي الأماكن الباردة طول الأيام .

فلهذا الشذوذ يتمدد بالبرد فيخف ويجمد ويعوم على الوجه وبقي ماختمه من الجمود لأنه جليد وهو موصل ردي للحرارة فتبقى حرارة الماء العميق تحت على درجة واحدة ، ولو اشتد البرد فلم يمت ما فيه فلولاه خفته وعمومه لم تسكن هذه المنافع .

(٣) إن الندى إذا تكوّن على النبات منعه من الإشعاع فلا تبرد أوراقه بردا شديدا ولا تنقع ، فالندى نافع لأنه يمنع الإشعاع ثم الماء يرتقي من البرد والبحر بخارا فيبرد الهواء ويرطبه صيفا ويعدل برده شتاء كأنه ميزان يزن الله به الحرارة ، والقيم للتكاثف منه يظل الأرض من شعاع الشمس نهارا وينجها من شر الإشعاع الزائد ليلا وينقي مطره الهواء ويحيى النبات أو ينزل ثلجا فيختم الأعشاب وبراعم الأشجار لتنجو من الموت وينبع عيوننا تروى النيل وينقي الأبدان ويحيى به الأرض بعد موتها (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

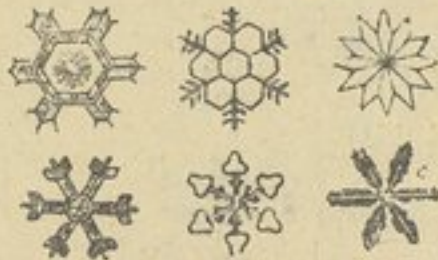
وبهذه الخاصية المخالفة لبقية السوائل إذا برد فصار ثلجا في جرة كسرها وبهذه الطريقة يكسر الأحجار في الجبال فتنبع العيون ، فانظر لهذه الخاصية كيف منعت ماء البحر من أن يكون ثلجا وشقت بها العيون فنبعت (فتبارك الله أحسن الخالقين) وهذا داخل في قوله تعالى (قلنا أتينا طامعين) فالألماء بخضوعه لذلك التواضع لطف الحرارة وشق العيون وجري في الأنهار وأحيا النبات والإنسان كل ذلك طاعة وتسخير وفي الأمر وهو كل شيء قدير .

اللطيفة الثالثة : الثلج وأشكاله

لقد رأيت في كتب الطبيعة أشكال الثلج غار لي فيها وفكرت في أمرها وعجبت من نظمها وأدهشتني

جمالها ونظامها ، لو أن خلقا كثيرا اجتمعوا في قاعة صغيرة في البلاد التي اشتد بردها وكان البرد شديدا وفتحت نافذة من نوافذ القاعة لجمد البخار في هوائها ووقع ثلجا بأشكال تدهش الناظرين ولقد رأيت رسمها على ستة أشكال وكلها أشكال مسدسة ، فهما اختلفت الأشكال فالتسديس ثابت فتارة تكون هيئة أشجار منظمة يديعة وثمرة هيئة أزهار في غاية الجمال (فتبارك الله أحسن الخالقين) ؛ ولما رأيتها تلك في نفسي لم كان هذا النظام لا يختلف في الثلج وهل كان الأكوجين والأدروجين عند أعمادها قد تحالفا أن يكون وقت الجمود على هيئة منظمة ولعل الماء لما كان فيه حياة كل شيء كان مستعدا للنظام التام كما ترى في الحيوان والنبات أنها مشتركات في أمور مختلفات في أخرى حافظات للأصول كالغذبة والنوالد مختلفات في غيرها كالحواس والعقل وهكذا فكذلك هنا ترى الأشكال في الثلج تحفظ الشكل السداسي مهما اختلفت أوضاعها وكان هذا يرمز له قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) والحياة لا تكون إلا مع النظام وهذا داخل في قوله تعالى (يا أيها إننا إن تلك متقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) فهذا اللطف والحبرة نظم الثلج وأحكامه ، ولقد أتى الله بذرات الماء وحكم عليها تخضعت للنظام وأطاعت واجتمعت بشكل يسر الناظرين كما خضع الحجر الساقط لقوانين السابقة في الترتيب في الأعداد الفردية ، وكما خضعت السيارات لقوانين كيلير ونيوتن ، وأي فرق بين خضوع ذرات الماء في ذلك الشكل للنظم وبين خضوع (الآلكتورات) للتقدم شرحها حول نواتها في الجوهر الفرد والسيارات في مداراتها والأحجار في مساقطها كل يطيع على مقتضى القوانين السماوية وقوانين السقوط وقوانين الثلج وتجمده (ولأصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين - وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) .

انظر صور الثلج في الشكل الثاني وهو هذا :



(شكل ٢)

الطيفة الرابعة : لطيفة علم التشریح

التي وردت بها هذه الآية التي نحن بصدد الكلام عليها يقول الله تعالى (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم)
 إن الله جعل جسم الإنسان كدبنة ، فابتدع لها أربع طبائع منفردات ثم ألف بين كل اثنين منها فكانت أربع أركان مزدوجات ثم كان منها أربعة أخلاط سببت تسعة جواهر وبتركيبها بعضها فوق بعض كانت عشر طبقات أقيمت على مائتين وثمانية وأربعين عمودا ثم مد لها سبعمائة وخمسين حبالا وجعل فيها إحدى عشرة خزانة مملوءة من الجواهر وجعل لها ثلثمائة وستين مسلكا لسكانها وجعل أنهارها ثلثمائة وتسعين جدولا وفتح على سورها اثني عشر روزنا مزدوجات مسالك لجربانها وجعل لها خمسة حراس وجعلها على عمودين فهذه ثلاثة عشر نوعا :

الطبائع . الأركان . الأخلاط . الجواهر . الطبقات . الأعمدة . الحبال . الخزائن . المسالك . الأنهار . الأبواب . الحراس . العمودان .

(١) الطبائع أربع : الحرارة . البرودة . الرطوبة . اليبوسة .

- (٢) الأركان على رأى القدماء أربعة : النار . الهواء . الماء . الأرض . والملم الآن جعل هذه الأربعة مركبات من عناصر تبلغ نحو ٧٥ ولكن نتيجة العلم واحدة لأن للتقدمين والتأخرين يرجعون الجميع إلى أصل واحد وهو الهيدروجين ، وبجارية أخرى شئ لا وزن له ولا لون بل يكاد يكون فرضيا .
- (٣) الأخلاط الأربعة للتعادية وهى : الصفراء . والسم . والبلغم . والسوداء . والتأخرون زادوا غير ذلك ولكن نحن الآن فى مقام الإجمال لا التفصيل إنما ذلك بهم الأطباء ونحن فى مقام الإلمام بالأمور العامة .
- (٤) الجواهر تسعة : عظم . مغ . عصب . عرق . دم . لحم . جلد . ظفر . شعر .
- (٥) الطبقات عشر : رأس . رقة . صدر . بطن . جوف . حقو . وركان . خلفان . ساقان . قدمان .
- (٦) الأعمدة : ٢٤٨ هى العظام .
- (٧) الجبال : ٧٥٠ جبالا هى الرباطات الممتدة المشدودة على العظام وهى الأعصاب .
- (٨) الخزائن الإحدى عشرة هى : الدماغ . والخاع . والرئة . والقلب . والكبد . والطحال . والبرازة . والعدة . والأمعاء . والكليتان . والأشيان .
- (٩) والمدالك والشوارع والطرق هى العروق الضوآرب ٣٦٠ .
- (١٠) وأنهارها هى الأوردة ٣٩٠ .
- (١١) والأبواب الاثنا عشر : العينان . الأذنان . اللخران . السيلان . الثديان . الفم . البرة .
- (١٢) الحراس هى الجواس الخمس : السمع . والبصر . والشم . والذوق . واللمس .
- (١٣) العمودان هما الرجلان .
- وليس فى تعداد هذه إلا إجمال القول فى الجسم أما التفصيل فبيد النور ، فلنقتصر على حاسة السمع وحاسة البصر للاستدلال بهما على الباقي .

اللطيفة الخامسة : لطيفة السمع وهى الأذن

كما أنك فى ماضى حار فكرت فى العنكبوت مع دقة جسمه وضموره وحار فى الكواكب السابحة فى الفضاء بحيث لا يرى فرق فى الحيرة بين العظيم والصغير هكذا هنا رأيت الجسم الإنسانى مركبا من أعضاء وحواس وهروق الخ وترى حاسة السمع وحدها لا تنقل عن جسم الإنسان بل عن العالم كله فى عجايب تركيبها وكثرة تفاصيلها وبدائع دقتها وأنظمتها الدقيقة البديعة ؛ فتأمل تجد أنك الآن أمام مدينتين وبحر المدينة الأولى خالية من السكان مقووسة البنيان دائرية السور نيس فيها إلا الهواء يغدو وبروح ثم ترد عليها الرسل أفواجا كل آن بأشكال مختلفة يريدون أن يتوصلوا إلى الملك العظيم الذى هو جالس خلف ذلك النهر على عرشه العظيم وتلى هذه للمدينة المدينة الثانية وفيها ثلاث أمان كن للبريد كل منها يوصل للآخر ما يرد له من الرسائل ويلى هذه للمدينة النهر وهو أهم من السابقتين فلو رأيت لأدهشك ما فيه من العجب فإنك تراه نهرا عظيما متلاطم الأمواج ، وهذا النهر ليس كالأنهار يجرى على شبه استقامة بل هو ملتو ثلاث ليات كما تلتوى الحيات من ناحية ومن الناحية الأخرى ملتف كما تلتف القوقعة . وبالجملة إن هذا النهر كثير الانعطاف ليس فيه استقامة وتجد فى مائه كرات كثيرة من الحجارة وآلات برقية (تلفرافية) تبلغ ثلاثة آلاف منبثة فى الجهة التى تشبه القوقعة ، وعلى شواطئ البحر تجد أسلاك أخرى برقية (تلفرافية) ووراء هذا البحر الملك وعنده مصاب البريد ينبشون جهة الأسلاك البرقية التى على الشاطئ ، وجهة الأسلاك التى فى البحر وترى أولئك الرسل الذين يأتون للمدينة الأولى يرسلون الأخبار الخارجة إلى المحطة الأولى فى المدينة الثانية ومنها إلى الثانية ومن الثانية إلى الثالثة ، ثم تنقل الأخبار إلى البحر خلفهما فتنتقل فى تلك الأسلاك التى هى ثلاثة آلاف بعد مرورها على تلك الكرات الحجرية النافذة لحفظها ، ويتلقفها رسل الملك للنبشون فى تلك الجهات وبذلك يعرف أخبار للمالك الأخرى هذه هى أوصاف الأذن .

أما المدينة الأولى فهي التي يسمونها الأذن الظاهرة بالمؤلفة من الصوان الذي يجمع أمواج الصوت ومن الصاخ السمي الظاهر وهو خرق الأذن الذي يؤدي تلك الأمواج إلى الأذن للتوسط وطوله نحو قيراط؛ وأما الأنواع التي ترد عليها فهي الحروف الهجائية ومركباتها وأصوات الغناء والألحان وكل ما يسمع وهذه لا حصر لها. وأما المدينة الثانية فهي الأذن للتوسط أو الطبلة وهي تجويف بين الأذن الظاهرة والباطنة وتتصل عن الظاهرة بالغشاء الطبلي ، وأما الأما كن الثلاثة التي للبريد فهي ثلاث عظمت دقيقة يتصل بعضها ببعض تسمى إحداها الطرقة ، والثانية بالسندال ، والثالثة بالرّكاب للشبهات بينها وبين هذه الثلاثة .

وأما البحر العظيم وراها فهو السمي بالأذن الداخلة أو التيه وهي عضو السمع الخاص وإنما سميت بالتية لكثرة ما فيها من التجاويف والعجائب ، وفيها سائل فيه خيوط دقيقة مرنة شعرية وكثيرة متباورة وفيه ثلاثة آلاف جسم صغير تسمى عصي (كورني) فهذه العصي هي آلات البرق المذكورة فيما تقدم ، فإذا قرع الأذن الظاهرة صوت أتجهت أمواجه إلى الأذن للتوسط بسبب حفظ الصوان للصوت فيقع على الغشاء الطبلي فتتهز العظمت الثلاث في الأذن للتوسط وينقل إلى السائل ويضاف تلك الكرات الدقيقة التي سميناها حجارة فيما مضى وإذ ذلك يتلف كل سلك من الأسلاك للسماعة عصي (كورني) التي تبلغ ثلاثة آلاف خبراً من الأخبار وصوتها من الأصوات بحيث يكون مناسباً له فإن السموعات كثيرة جداً من حيوان وشجر وحجر توزع على تلك الثلاثة الآلاف بحيث يمر كل صوت في السلك المناسب له وكان هذه الثلاثة الآلاف مختلفات القوى باختلاف الأصوات وكل صوت يتجه للسلك المناسب له ثم هذه تتصل بالشعرات التي في تلك القنوات التي عبرنا عنها بأسلاك برقية أيضاً ، وهناك يتبدد العصب السمي واصلاً من اللغ فيلتقط تلك الأخبار ويوصلها للمخ الذي عبرنا عنه بالملك في عرشه .

هذه هي حال السمع قد أوضحنا لك بما في الإمكان ، وهذا يكفيك إذا لم تجد متسعاً للدراسة العلمية (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فانظر كيف جعل لأجل وصول الصوت بالكلام وبالنعمة وغيرها عجائب تبلغ ١٤ عجا من صوان وصاخ وطبلة وثلاث عظمت وداهليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية وسائل ورملات حافظات للصوت وعصي كورني وشعرات في القوقعة وغيرها وأعصاب سمعية فهذه أربعة عشر كأنها ليالي الهلال ليصير فيها بدرًا كاملاً . ينتقل الصوت فيها حتى يصل إلى اللغ فتعجب من الجسم الذي نسكه كيف كان الهواء يحتاج إلى آلات ما ظهر لنا منها (١٤) مختلفات الصور والأشكال بحيل دقيقة ليصل الخبر إلى قوسنا إذ لا سمع إلا حيث يصل الصوت إلى اللغ ، وانظر كيف نستعمل ما نجهد ولا أبالغ إذا قلت إن أكبر عالم بالطبيعة غافل عن هذه العجائب إلا من علت مداركه وارتقت نفسه وفكر واعتبر وقرأ هذه الآية مثلاً وعرفها (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) فالتصوير قد عرفته في الأذن ، وأما قوله (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فالعزة والقهر قد ظهر في التصوير فإنه نوع أعضاء الأذن (١٤) نوعاً فقد قهرها وذللها لذلك ، وقوله حكيم راجع للشبهة؛ فالعزة والتصوير والحكمة للشبهة ، فكأنه يقول سبحانه إن تصويري لكم في الرحم لم يكن عن هوى ولكنه عن حكمة وعناية أوجبت دقائق الصنع .

والحق أن هذا الإبداع غفل عنه أكثر المسلمين وهم نائمون وترى أبناءهم الذين قرءوا هذا يحفظونه لأجل نيل الشهادة أما قراءته لأجل الحكمة وارتقاء العقل فلا بل منهم من كفر إذ يظن للسكين أنه أعلم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد اطلع على ما جهلوه وأدرك ما لم يلفوه والحق ما قاله الإمام الغزالي إنا أعلم بالطبيعة من أولئك الذين يدعون أنهم طيبون ، بل أقول أنا إن أهل زماننا كثير منهم أهل مكابرة وادعاء ، وقد آن أن يرجع للمسلمون لأيام مجدهم (والله هو الولي الحميد) وهاك إيضاح الأذن .

أما الأذن الظاهرة فهي مشاهدة ، وأما الأذن للتوسطة أو الطبقة فقد وضحت فيها قدماء بالتبيل ، فأما الأذن الداخلة وتسمى التيه فتحتاج إلى المشاهدة ، وهناك رسمها :



(شكل ٣)

ا ب ج القنوات المملية الثلاث ، الدهليز ، القوقعة ملفوفة لفتين ونصف لفة ، والكوة للستدرة
ز الكوة البيضاء .

اللطيفة السادسة : العين

تصور ثلاثة أطباق مستديرات أمامك على مائدة وهذه الأطباق كل منها أشبه بنصف كرة أقل أو أكثر ، ثم تصور أن كلا من هذه الثلاثة قد وضعت عليها أغطية مستديرة أيضا بمجوفة وهذه الأطباق الثلاثة موضوعة في داخل بعضها فماذا ترى ألست ترى أن عندك كرة في داخلها فراغ ، وفوق الفراغ ثلاثة أغشية وتحت كذلك ، فإذا وضعت فوق هذه الأغطية الثلاثة منديلا أبيض مثلا صارت الطبقات سبعة ، فإذا وضعت في جوف هذه الأطباق مادة رقيقة شفافة لالون لها فكان أسفلها كالزجاج الدائب ووسطها جامد كالجليد وأعلىها كياض البيض السائل إذا فعلت ذلك في هذه الأطباق فقد صورت طبقات العين وعرفتها .

وليست عين الإنسان شيئا غير هذه الطبقات السبع والرطوبات الثلاث فمى تصورت ما تلوته عليك من هذا المثل تصورت العين ، وإنما ضربت لك هذا المثل لتفهم ما سيرد عليك بسهولة لقد تقدم أن الدماغ منشأ الأعصاب التي للحس والتي للحركة ومنها ما يكون من النخاع ؛ وهناك في الدماغ للقوة الباصرة عصبان متقابلتا الشكل هكذا :



(شكل ٤)

فإحدهما تتجه جهة اليمين والأخرى تتجه جهة اليسار وتصل كل منهما إلى العين التي في جهتها ، وهذه العصب مجوفة وعليها غشاءان غشاء أعلى غليظ وغشاء أسفل رقيق كما يكون للبيضة وللجوزة وللسلك الكهربائي وهذه قاعدة مطردة أن كل ما كان لطيفا يجعل له أغشية قليلة أو كثيرة ، فالغشاء الغليظ متى وصلت العصب إلى العين فارتقا وكسا عظم العين بلباس ويسمى إذ ذاك الطبقة الصلبة ولكنه لا يكون تام التكوين كما قدمنا وهكذا يفارق العصب الغشاء الرقيق ويصير لباسا وغشاء دون الطبقة الصلبة وتسمى الطبقة للشبيبة لأنها تشبه للشبيبة ، وأما العصب نفسها فإنها تصير غشاء فوق الغشاءين المذكورين ويسمى الغشاء الشبكي أفلا ترى أن هذه الثلاثة أي الصلبة والشبيبية والشبكية هي التي ضربت لها فيما تقدم مثل الأطباق الثلاثة التي هي مدورة فإذا فكرت في الأغطية الثلاثة فوق هذه الثلاثة فلتسم غطاء الصلبة وهي الأولى (القرنية) وهي جسم

كثيف صاف شبيه بصفيحة رقيقة من قرن أبيض ، ولتسم الجسم الذي تحت القرنية (بالعينية) لأنه مثل قشر العنب أسود أو أزرق أو نحو ذلك ، وإنما كانت ملونة لتحسن الأجسام المشفة من ورانها فلا ينتشر ما حصل فيها من الضوء والصورة المنطبعة لأن سواد اللون يمنع انتشار الضوء ، إن الضوء يدخل من ثقب في العينية فيتضايق ويتسع بحسب كثرة الضوء وقلته فكلما قل الضوء اتسع الثقب وكلما كثر الضوء ضاق الثقب . فهذه العينية غطاء للشيمية ، ولتسم المطاء الذي على الشبكية الذي هو تحت النطاين الآخرين بالمتكوتى لأنه تكويط نسج المتكوت ولم يكن للإدراك بله لضبط السوائل التي تحتها فهانست طبقات : القرنية . العينية . المتكوتية . الشبكية . للشيمية . الصلبة ، فترجع الطبقات الست إلى الأ طباق الثلاثة وأغطينها ، والطبقة السابعة جسم أبيض اللون صلب يسمى للتحمة وهو بياض العين وهو امتداد من الجلد الذي هو خارج القحف فهو قد امتد إلى العين من جميع الجهات التي من خارج إلى قرب الوسط ، ثم إنه لما لم يكن شفافا لم يمتد على بقية العين ، ولو امتد لمنع الإبصار لاستعمل منه مقدار ما يكفي في إحكام رباط العين ، وترك موضع الإبصار مكشوفاً ليصل الضوء إلى آلات الإبصار من الطبقات والرطوبات . أما الرطوبات فهي ثلاثة :

(١) أولاً جسم كالزجاج الدائب الذي هو وسط الشبكية ويسمونها (الجسم الزجاجي) .

(٢) ويسمون الجسم الشفاف الذي لا لون له الصلب القوام المستدير الشكل المائل للتفرطح كأنه قطعة من الجمد (الرطوبة الجليدية) وتسمى أيضا (العديسة) وإنما سميت جليدية لأنها شبيهة بالجليد في صفائه ؛ ثم إن الزجاجية تخبث بالجليدية بمقدار النصف ويملأ النصف الآخر المتكوتية للتقدمة .

(٣) ويسمون الجسم الثالث وهو السائل الأبيض الذي يشبه بياض البيض ، وهو أرق من الأول الذي يشبه الزجاج الدائب (الرطوبة البيضاء) وهي التي يملؤها العينية للتقدمة أي الغطاء الثاني في مثال الأ طباق فكان جوف الطبقة الداخلى فيه لبن يعوم فيه زيد قد غرق إلى نصفه وفوقه بياض البيض .

فانظر كيف كان العصب الممتد إلى العين قد صار كأسلاك البرق (التلغراف) لينقل الأخبار الواردة إلى الجليدية فوقه فترسم فيها الصور وهو ينقلها مارة فيه إلى الدماغ ، وكيف كان ما تحت الشبكية من الصلبة والشيمية يأتيان بالغذاء للعين من الأوعية الشعرية الوريدية والشريانية ، فلذلك عبرنا بالأطباق التي يتماطى منها بالطعام .

فالعين إذن تستمد من العروق الوريدية والشريانية تلك المادة الصافية الزجاجية الشفافة المناسبة للإبصار وضوء الشمس ، وقد وضعت تلك المادة على ثلاث درجات مقدرة في البعد والقرب بمقادير لو اختلفت لاختل الإبصار ، وكانت القرنية محدبة والرطوبة البيضاء فيها تماسك ما والجليدية مفرطحة فيها صلابة والزجاجية وراءها مائلة للسكان لتوافق ارتسام الصور الواردة مع الضوء ؛ فالنحبد يجمع الصور والجسم النخين يزيد الصور ثبوتاً وبقاءً ، وكما تستمد العين الغذاء من العروق تستمد الإحساس من الدماغ ، فلها من الغذاء المواد الزجاجية الخالصة من الدم الوارد من الطعام المهضوم ، ولها من الدماغ الإحساس الروحي الشريف ، فانظر ما أعجب العلم والحكمة ! وما أجملها كيف عرفنا في العين من العلم ما لم يعلم به العاقلون ؟ وكيف زرى أن طعامنا الذي تتماطاه قد كانت فيه المادة التي تشبه الزجاج الذي هو مركب من الرمل مع اللغيسيا والقلبي . فهذان الأخيران متى أضيفا إلى الرمل صار شفافاً فكيف (١) جعلت القوى التي في أجسامنا لها آلات لانرفها خلصت من الطعام المهضوم أي من الدم تلك المادة للشبهة للزجاج (٢) ثم اخبر موضع العين في الحجاج (٣) ثم كيف كانت العين التي دبرت هذا التدبير موضوعة أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء الشريفة التي غطاؤها ضعيف كالبدن وغيره (٤) وأيضاً عمل الأعضاء الخارجة كاليدن والرجلين من الأمام فتكون العين مشاهدة لأعمالها ، ولمصرى إن من لم تطربه هذه الكلمات ، ولم تشرح صدره تلك العبارات

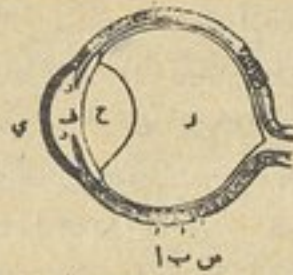
ليتحقن بالعجماوات ، ومن لم يحركه العود وأوتاره والريبع وأزهاره فهو فاسد للزجاج يحتاج إلى العلاج .
 (٥) ثم كيف جمدت الجليدية لتزيد النور انحصارا (٦) وليكون الجلود أعون على حفظ الصور فتصل إلى
 الشبكية التصلة بالدماع (٧) وكيف كان الجسم البيضى أمامها والزجاجى وراءها ليكونا لها غذاء لأنها
 لا يتبها لها قبول الغذاء من الدم (٨) وكيف يكونان سببا لاستضاءتها (٩) ولتكون هي بهما دائمة الرطوبة
 (١٠) وليكونا ردها لها فلا تتصل بمحجر العين ولا غيره من كل صلب (١١) وجعلت شعبة الدماغ المتقدمة
 شبكية لتضبط الزجاجية حتى لا تكون سائلة (١٢) ولتتمكن الشيمية من تغذيتها أمامها (١٣) وجعلت
 البيضية أرقق تواما لتكون أعون على تأدية البصريات (١٤) والعنكبوتية جعلت لحفظ الرطوبة البيضية
 (١٥) وأوان العينية لتحفظ الصورة المرسومة فلا تذهب وتضيع (١٦) والتعب يضيق ويتسع بالاختيار كما
 تقدم (١٧) وجعلت القرنية جسا صلبا لتحفظ العين كلها وهي تتلون بلون العينية (١٨) وجعلت مشفة
 لتلاستر الثقب للؤدى للصور من الأضواء الخارجة (١٩) وللتحمة رباط يمسك العين أن تزول إذ لا يمسك
 لها سواها (٢٠) وهي غير شفافة فلذلك امتدت حولها من جميع جهاتها إلا الثقب لأنها تمنع الصور عنه
 بخلاف القرنية (٢١) والجفن يمتد من الجلد وله عضلتان من جهة اللوقين لينزلاه إلى أسفل (٢٢) وعضلة
 من جهة وسطه لرفعها (٢٣) وجعل الأسفل أصفر لتلاستر شيئا من الحدقة وهو ساكن دائما (٢٤) ولتلا
 يجتمع الدمع وغيره من الفضلات داخله إذا كان كبيرا (٢٥) والجفن يمنع الأذى عن العين والنبار والذئبان
 والضوء عند الإفتال (٢٦) والأهداب تمنع النبار وتدخل الضوء عند الحاجة إليه كما في أوقات هبوب الرياح
 فهذه ٢٦ حكمة من حكم العين وهي بعض مظاهر للناس من العلم فيها والله يعلم ولكن أكثر الناس
 لا يعلمون ، انظر رسم العين وطبقاتها في شكل ٥ الآتى .

موازنة العين بالخزانة المظلمة التي يستعملها المصور بالصور الشمسية (الفوتوغرافية)

اعلم أن النور يأتي من الشمس والكواكب فيقع على الأجسام التي تتعكس على العين ، ولقد ترى أن
 الراصين في أيديهم الخزانة المظلمة وفي بابها ثقب وراه عدسية ، وهناك لوح قابل للصورة على كيفية مخصوصة
 والعين هي كمنفس تلك الخزانة وبؤبؤها أي ثقبها بمنزلة الثقب وبلوريتها بمنزلة العدسية ، وشبكيتها بمنزلة ذلك
 اللوح الذي تلتقي الصور عليه باستعداده لذلك بمواد كيميائية ، ثم إن النور إذا مر من وسط أظف إلى وسط أظف
 فإنه يكون أقرب إلى اجتماع أشعته ، وإذا مر من وسط أظف إلى وسط أظف يكون أقرب إلى الافتراق
 والتباعد ، وإذا مر من عدسية محدبة الوجهين كاللمحارة أو محدبة وجه واحد كالأنف الأفي أو هلالية أي
 صورتها كصورة الهلال فإن النور ينضم بدخوله فيها وإن دخل من مزدوجة التغير التي ترى كالتقوam الأهيض
 أو من مفردة التغير بأن كانت مستوية من ناحية مقعرة من أخرى أو من مقعرة محدبة فإن النور في هذه
 الثلاثة يكون مفرقا متفرجا فهذه أربعة نواميس ناموسان للاجتماع ، وناموسان للافتراق فلتنظر ماذا حصل
 في العين فانا ترى أن القرنية أشبه بالهلال وهو مما يجمع النور والرطوبة المائية أكتف من الهواء والبلورية
 محدبة الوجهين جامعة للنور والزجاجية جامدة أيضا ، فانظر كيف اختبر في خلق العين ما يهينها للإبصار ،
 فالقرنية والرطوبة المائية والبلورية والرطوبة الزجاجية انطبق عليها ناموس اجتماع النور ، اثنان من حيث
 الزجاجيات وهي الهلالية والعدسية محدبة الوجهين واثنان من حيث إنهما جسم أكتف .

فإذا دخل النور انكسر أولا في القرنية ثم في الرطوبة المائية ثم في البلورية كثيرا ثم في الزجاجية وبقع
 على الطبقة الشبكية فترسم الصورة عليها مقلوبة ولم يعرف إلى الآن لماذا ترى الأشياء معتدلة .

وهناك ناموس آخر وهو أن السواد جامع للضوء يمتصه فلو أنت الشيمية به فهي تمتص النور لتلايشوش
 الصورة بانعكاسه من جهة إلى جهة داخل العين .



(شكل ٥)

فما عبرنا عنه بالأطباق الثلاثة المستديرة في لثال التقدم هو الصلبة ا والشيمية ب والشبكية س وما عبرنا عنه بالأغشية الثلاثة هو القرنية ي والقزحية د د ولونها إما أسود وإما أزرق وإما أشهل ، فأما العنكبوتية فلم توجد في هذا الرسم واضحة فهي ملتصقة بالقزحية والفتحة د د هي البؤبؤ .

وأما للتحمة فهي التي تكون فوق القرنية وليس لها في الرسم وجود هنا ، وأما الرطوبة المائية وهي السائل الصافي فهو موضوع في غرفة ف ، وأما البلورية أو العدسية وهي الجسم اللدن الأملس الشفاف الأزودج التحديد المؤلف من طبقات كالبصلة وهي أ كشف في الوسط منها في الجوانب فهي ح ، وأما السائل الزجاجي فهو جسم شفاف لزج كيباض البيض النوى وهو يشغل ما بقى من الحلاء وراء البلورية داخل العين د .

من عجائب العين إحكامها

اعلم أن العدسية للزدوجة التي تشبه البلورية في العين كما قرب الشبح منها بعدت بؤرتها أي محل تجمع النور التمسك وراءها بعدت الصورة وكما بعد عنها قريت صورته منها .

وعلى هذه القاعدة لا يمكن أن يرسم للصور الأجسام في خزائنه المظلمة إلا على بعد مخصوص لو تركه لاختل ولكن في الدين رأينا عجايبنا أن الإنسان منا يرى الشبح وهو بعيد عنه كما يراه وهو قريب منه لمساذا هذا ؟ لأن الإنسان أعطى كما أعطى الحيوان قدرة على تشكيل البلورية فيزيد تحذب العين في النظر إلى البعيد ويقله في النظر إلى القريب بحيث تقع الصورة على الشبكية تماما .

ألا ترى أنك إذا أدمت النظر إلى شبح قريب ثم حولته بفتة إلى شبح بعيد رأيت أولاً غير جلي ثم ينجلي بعد قليل في مدة يمكن الرأى فيها أن يحكم عينه ويعمل بؤرتها مطابقة لتلك البعد وهذا لن يكون في الحزاة للظلمة التي زجاجتها جامدة لا تحوّل لها عن صورتها . فتعجب من الحكمة والنظام .

نواميس النور والسواد والقدرة على تنويع البلورية والبعد المخصوص الذي وضعت فيه الشبكية بحيث تقع الصورة عليها ، ولو اختلف شرط من هذه لكان الناس والحيوان عمياً (إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العظيم الحكيم) .

لطيفة في عجائب العين

مما يجمل ذكره في هذا اللقاه ما جاء في كتاب مسرات الحياة للورد اقبرى الانجليزى الذى نقانا عنه سابقا قال في فصل كتبه في الصحة :

إن في الجسم الإنسانى أكثر من مائتى عظم ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لماقت حركاتها التي نأتها كل يوم (يقول مؤلف هذا التفسير ، وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولاً عن آباءنا حكماء الإسلام) ثم قال : وفيه (٥٠٠) عضلة كل منها تنفذ بمئات الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة والقلب وهو بين هذه العضلات يبيض في السنة ثلاثين مليون مرة ، فإذا توقف عن الحفان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولو تأملنا في أدوات الحس كالعين مثلاً بما فيها من قرنية وعدسية وطبقات مائية وزجاجية تنتهى في الشبكية لتولانا العجب ، فإن هذه الشبكية التي لا تزيد عن ثمن الورقة تتألف من تسع

طبقات مختلفة أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ونحو ثلاث مليون أسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التي في تلافيق الدماغ نحو سبعمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألاف من الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر ، وقد قال بعد ذلك : لقد نحيا السنين الطوال ، ولا نكاد نشعر أن لنا جسما اه .

مسارح الفكر

فانظر أيها الذكي الفطن وتأمل كيف يقول الله تعالى في هذا المقام (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) انظر كيف وضع البلورية والرطوبة المائية والزجاجية والقرنية والشبكية والشمسية والقزحية وكيف جعلها ملائمة لنواميس النور الذي لم يشاهده الجنين ولا يزال في الظلمات . تأمل أيها الذكي وعض النظر عن كتب الديانات وعن آراء الفلاسفة وتأمل باستقلال في نفسك ولا تقلدني ولا تقلد أحدا بل حكم عقلك ، فهل المادة التي هي مكونة من ذرات جارية أجزاؤها بعضها على بعض بسرعة مختلفة القدر هي التي كانت تدبر هذه الحكمة ؟ وهل هي التي كانت قارئة نواميس النور وأحواله فوضعت في الجنين تلك الحدقة ملائمة للنور الذي لم يصل له الطفل بعد فتكون قد لاحظت ذلك كله وخافت أن لا تقع الصورة على الشبكية فوضعتها قريبة منها وحافظت على الصورة بالسواد وأخذت تنتقي الأشكال الملائمة للأبصار . انظر بعقلك فالفكر هو المسيطر الأكبر في هذا العالم .

على نفسه فليكن من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم
هذه هي الحياة ، وهذه هي السعادة ، وكأننا ونحن نقرأ هذا ننظر في أصول الحكم العالية والنواميس الشريفة الراقية .

فيا ليت شعري أمواج النور تجري من الكواكب سارية إلى الأرض كيف كانت هي أهم ما ينتفع الناس به لولا أنوار الشمس وحرارتها ما عاش حيوان ولا نبات ، فالحرارة الشمسية تذيب الجليد وبها تجري الأنهار وبها الحياة ، ثم ضوءها جعلت العيون مناسبة له مناسبة نامة فأبصر بها الحشرات وسائر الحيوان والإنسان (إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

واعلم أن النور ينفذ في كل شفاف ولو اختلفت مصادره ، وأما أشعة الحرارة فلا تنفذ في كل جسم شفاف إذا اختلفت مصادرها . إن حرارة الشمس تنفذ في كل الأجسام الشفافة كالنور ، وأما الحرارة للنعكسة عن جسم في الأرض فلأنها لا تنفذ في بعض الأجسام الشفافة .

وترى أن حرارة الشمس تنفذ في الهواء والبخار اللذان فيهما وفي زجاج النوافذ ، ثم تحبسها الأرض وما عليها وتشعها أمواج مظلمة طويلة بطيئة ، وعلى ذلك لا نستطيع أن نخرق بخار الماء في الهواء بل نحبس فيه لتدفأ بها المخلوقات الأرضية .

فكيف نفذت الحرارة من البخار ثم وقعت على الأرض وبقيت مخزونة بين البخار والأرض وأصبح البخار كالباب يفتح لحرارة الشمس ثم يقفل عليها لتتفع المخلوقات ؟ . وباليه شعري لقد وجدنا قبا كسبناه هنا حكما عالية وتديرا متقنا ضوء ينفذ وحرارة تخزن وماء في الهواء صار بخارا وضوء يجري فيبصر به العين التي جمعت حكما لا تحصى فهل ذلك كله كان بتدبير تلك الذرات التي لا تملك إلا حركات فهل تلك الحركات كانت تدرس كل هذه النظم ، على العاقل أن يفكر ويتبصر (إن الله عليم حكيم) .

اللطف السابعة : الرحمة في قلوب الوالدين

قد ذكرنا فيما مضى أن ناموس الجاذبية عام في الكواكب وفي الأحجار وفي الذرات ، ويتبع ذلك

النواميس العامة في الدين والأذن واللباء والتلج والحرارة . كل هذه جارية على نواميس طائفة متفاداة خاضعة ومن هذا القليل الرحمة التي تراها سارية في قلوب كل والد من حيوان وإنسان ، فإذا انجذب الحجر إلى مسقطه والكوكب في مداره والنور جرى في العين بالصور للرؤية والهواء في الأفض بالأصوات هكذا ترى كل أثنى مغرمة بولدها تفديه بنفسها لم كان هذا الناموس عاما؟ . نعم إنه من قوله تعالى (قالنا أئينا طائمين) فهذا انقياد وخضوع على سبيل المحبة والغرام لا الإكراه ، والله تعالى يقول (لا إكراه في الدين) ويقول (قالنا أئينا طائمين) فالعلوم تعرف بالميل إليها والحب لها والولد يرثي بالحب له والعطف عليه .

حكاية خادمة

كنت أكتب في هذا القام إذ قصت على الخادمة قصصا وقت الإفطار في هذا الشهر (شهر رمضان) قالت لقد رأيت عجبا رأيت الأرنبة ومعها أولادها قدّمت لمن خبزا فأخذت تدفنه برأسها وتمنع أولادها من تعاطيه فأخذتها خارج الحجره وأقفلت الباب على أولادها وأخذت أضربها لمنعها أولادها من الأكل ومع شدة الضرب كانت تجرى نحو الباب فقلت في نفسي لا بد أن يكون هناك أمر ففتشت الحيز فرأيت فيه دودا فملت خطئي وبكيت وقبلتها ورميت الحيز وأبعدته عن أولادها وأخذت هي تلحسهن عطفًا ومودة انتهى كلام الخادمة ، فالعجب كيف رقت الأرنبة الضار وجهله الإنسان وكيف كان المطف يعم كل حيوان ؟!

اللطيفة الثامنة : الشهوات الغريزية في الحيوان

إن الحيوان ومنه الإنسان ليس يأكل ولا يشرب ولا يقرب أثناءه إلا طوعا بإرادته وشهوته التي زينت له فيخلق فيه الجوع والعطش والشبق فيأكل ويشرب ويتزوج كل ذلك طاعة لاجبر فيها وحب لا كراهة فيه ، ولو أن الناس كلّفوا أن يأكلوا ليعيشوا وليس لهم داعية شهوية ما عاش إنسان ولا حيوان ، وهذا من قوله تعالى (قالنا أئينا طائمين) أطاع الإنسان غريزته فأكل ، والأثم وجدانها فربيت الولد ، والحجر مسقطه والكوكب قانونه كل ذلك حب واحد وغرام منتظم (وما كنا عن الخلق غافلين) .

الله خلق الشهوات وزينها في القلوب ليكون هذا النظام الإنساني والحيواني ولذلك تراه يقول في هذه السورة إنه سبحانه زين للناس شهواتهم وعدد منها سبعة وهي : النساء والبنون والذهب والفضة والحيل والأنعام والزرع .

الله زين ذلك في القلوب فعشق الرجال في النساء وحب إليهم البنين والنقدين الخ ، وذلك في قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر القنطرة من الذهب والفضة والحيل للسومة والأنعام والحراث) ثم أخذ يزهد فيه فقال (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الحساب) .

نعم حب الله ذلك للناس ولولا هذه الشهوات ما عاش حيوان ولا إنسان ولا كان دين ولا دنيا ، ولم يكن علماء ولا أنبياء ، وهذه الشهوات من الطاعة المذكورة في قوله تعالى (قالنا أئينا طائمين) .

هذه منافع الشهوات التي سلطها الله على الأحياء ولكن لما كانت مقصودة لغيرها لا لذاتها والقصود من العالم الإنساني التعارف والتوادد والترض من المال بقاء الأجسام والترض من شهوة الجنسين إنما هو وجود الأولاد . لذلك سلط على الناس الروادع والزواج الفاهرة حتى لا ينادوا في تلك الأشياء فأنزل في العادات غالبا استباح الزنا وكشف العورة والتلفظ بالتبسيح وأودع في النفوس احتقار الثروة والفسق والجشع ، وحب إلى الناس كل عفيف قانع ، ثم أنزل الديانات فأمر الناس بالإفناق وحرّم عليهم الزنا وأمثاله كل ذلك ليربهم أن تلك الشهوات مقدّمات وللقدمات لا يجوز التغالي فيها كعلم النحو والصرف وأمثالها وهي مقدّمات للقرآن والعلوم . فلتسكن الإطالة في النتائج لا في القدمات .

هكذا الحيوانات التي تأكل الحشيش لما كانت في قديم الزمان قد كثرت وملأت السهل والجبل ، وقد وجدت آثارها في علم طبقات الأرض وأن تلك الحيوانات كانت تتراكم في غار واحد من كثرتها وتموت جوعا لأن حشائش الأرض ما كانت لتكفيها ، وبعد ذلك حدث خلق الآساد والنمور والضباع وما أشبه ذلك لتأكل لحماها فلا يتعفن الجو فلا يكون الوباء .

هكذا هنا سلط على الناس الشهوات رحمة منه ثم أزل للديانات وألمم العلماء الحكمة ليحفظوا الناس من غوائل التماهى فيها (إن الله حكيم عليم) .

اللطيفة التاسعة : القطن وزراعته إجابة لداعية حاسة اللبس والبصر

إنما خصصت السلام على القطن وزرعه لما فيه من العجب العجاب ، وإن الإنسان وهو يزرعه مدفوع بحب الزينة والناظر البهجة وتوقى الحر والبرد وهو مع ذلك أشبه بالنحل يجمع العسل من الزهر ، وللإنسان منه حظ عظيم هكذا هنا أصبح العالم الإنساني مفرما بالقطن لدخوله في الثياب وهي زينة محبوبة قدعا ذلك الناس لزرعه كسبا للعال عند الزارعين والحالين والناسجين والصابغين والحائطين والباثمين وأصحاب العرات والقطرات والسفن للنقل وكان ذلك زينة لكل لابس ولا يلبس من الناس أجمعين . لذلك زرعه أهل بلادنا المصريون وأهل أميركا وأم أخرى إجابة لداعية الانتقاء من الحر والبرد ولداعية حب الجمال والزينة ذلك كله جاء طوعا لا كرها ، ثم إنك تجد أن هذا القطن والناس يزرعونه قد جعل مرعى ومهدا وخصبا ويساتين وقصورا وأرائك وحريرا لموالم لا تكاد تحصى ولا تستقصى .

يقول الإنسان إن القطن قد خلق لي وأنا زرعته لنعمي وسعادي ، وهو في الحقيقة مسخر وهو لا يشعر كما مسخر النحل لجنى العسل والناس يأكلون أكثره ، هكذا القطن يظن الناس أنهم هم المتمتعون به وفاتهم أنهم يعملون لمنفعة الدودة وحشرة أبي دقيق تلك الأمم التي دخلت في جنات ونعيم في قصور الأشجار وحجرات الأوراق ومقاصير الأزهار ومخادع اللوز .

قرى رعاك الله الدودة قد تبوأ تلك الأرائك الحريرية الداخلة في تلك اللوزة وهي فرحة متمتعة ، وحشرة أبي دقيق تضع بيضا على الورق منتظما ثم يفقس بعد أيام ويصير دودا ، وذلك الدود يسمن وهو يرعى من الورق كما يرعى دود اللوز في أحشاء شجر القطن وهو نائم فيه مستدفئ وتلك الأمم سعيدة في قصورها نواتم في خدورها والهواء عليل والجو جميل كل هذا والإنسان المسكين يسمى لسقى القطن ويعاود جنبه فلا ينال منه إلا القليل ، فدودة الورق ودودة اللوز في تبوؤها وأكلها الورق واللوز أشبه بالإنسان إذ يأكل العسل ، والإنسان وهو يسمى لسقيه أشبه بالنحل وهو يجمع العسل من الزهر ، أفلمت ترى أن الحيوان والإنسان كل مسخر على سبيل الطاعة والحب والفرام ؟ فالمرأة لرب ولدها ربه والنحلة لرب عسلها جمته والإنسان لرب القطن زرعه طاعة لاقهرا ، ولو كان ذلك قهرا لم يجمع النحل العسل ولم يزرع الإنسان القطن حبا في سواد عيون القراشة والدودة ولكن حبا في شهوته هو وبهجة نفسه وفي الوقت نفسه انتفع الحيوان (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) .

ولقد ذكرت المجلة السورية التي تصدر في نيويورك فصلا ضافيا في دودة القطن فبينت أن هناك حشرة لا يتجاوز حجمها الدبابة ظهرت في بلدة مونكلوفا بيلاد للكسيك نحو سنة ١٨٩٢ وانتشرت بكيش من الجراد حتى حرم أهل تلك الجهة زراعة القطن وهي ولاية (تكسس) .

وقد فتكت بالقطن فتكا ذريعا وانتشرت في الولايات المتحدة انتشارا مريعا فتعقب الأثى بحمها لوزة القطن فتعيق نموها ، ثم تدخل وتمشش فيها وتبيض فيلطفخ يياض خيوط القطن ، ثم يخرج صغار الحشرة وقد فتكن باللوزة ؟ ولقد عملوا لها تجارب كثيرة لقتلها ورشوا القطن بسائل قتلها ولكن الله غالب على

أمره والحشرة لا تزال تخرب للزراع (والله عاقبة الأمور) الإنسان هنا قد زرع لتلك الحشرة ، ولما كثرت أخذ يقتلها ظاناً أنه يصون القطن وهو في الحقيقة يفعل ما فعله الله عز وجل إذ خلق الحيوانات الكاسرة لتفتك بالحيوانات المهترئة رحمة بها وبالعالم ليكفيها المشب الذي ينبت في الأرض هذه بعض الحكم (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) .

الإنسان مسخر لعيش هذا الحيوان على القطن وجميع مزارع الإنسان نافعة للحيوان وهو يزرع حبا لمنفعة نفسه ولكن الله سخره لغيره ، ومن نظائر هذا تلك الحيوانات العائشة في أجسامنا الناصات دمنا ، فنحن نأكل حبا في الغذاء ودفعا للجوع وطلبا للشهوات ولكن تلك الحيوانات تشاركنا في داخل أجسامنا ، فجميع الأمراض إنما تكون بحيوانات تعيش في أجسامنا وأخص بالذكر الدود الذي يورث مرض البلهارسيا فإنه يعيش في المروق الداخلة في الكبد وفي فروعها الممتدة في المجارى البولية والأمعاء الغلاظ وترى الحيوان مسلحا بشوكه مدببة في جدر الأمعاء والمجارى البولية فتمزق الأوعية الدموية فيحصل النزف ، ومتى قضى المريض حاجته سقطت بويضات البلهارسيا مع البول أو البراز وخرج الجنين بعد الفقس فيدخل الفواق ويعد أيام تسبح تلك المخلوقات في الماء فإذا صادفها إنسان خرفت جلده وباضت في جدر الأمعاء والمجارى البولية وذلك دأبها إلى يوم الدين ، فتقتل الآلاف وآلاف الآلاف في البلاد المصرية وغيرها من قديم الزمان .

الناس زرعوا القطن لمنفعتهم وأكلوا الخبز وهضموا الطعام لشهواتهم ، ولكن الحكمة المدبرة قد قضت أن يكون القطن مرتع الحشرات وأجسامنا مرابع للديدان القاتكات (إن في ذلك لآيات للعالمين) .

اللطيفة العاشرة : حب العلماء والحكام والأنبياء للتلاميذ والأمم

ومن الطاعة للذكورة حب المعلمين للتلاميذ والعلماء وللؤلفين للأمم والحكام والأنبياء للناس من سائر الأجناس ليعطوهم ولينقلوهم من حال النقص إلى حال الكمال كما فعلت الأم بولدها والزراع بقطنه والحجر في سقوطه والسيار في جريه والألكترونات في الجوهر الفرد كل ذلك طاعة ، ولو نطق الحجر والكوكب لقال ما تقول الأم ، ويقول العالم وزارع القطن إنهم جميعا يعملون لشوق في أنفسهم وغرام حلّ بقلوبهم والأنبياء خاصة بشوق علوى ووحى سماوى علوى لا كوحى النحل الذى هو من قبيل القرائز ، أما هؤلاء فمن قوّة قدسية علوية . هذه الطوائف العشر تترك تلك الطاعة العامة في المخلوقات .

اللطيفة الحادية عشرة .

لقد رأيت أن هذا العالم بحسب واحد وحيوان واحد وإليه الإشارة بقوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ها أنذا قد اصطفيت لك من العلوم أجمعها ومن الحكمة أبهاها ومن الطبيعة أغلاها ومن الدر آمنه ومن الياقوت أبهره . قد عرض الله عليك جنة عرضها السموات والأرض أعدت للفسكرين . أسمعتك الخلاصة فاقراها وفكر فيها فهمي من الجمال الأبهى والحسن الأجلى والنظام الأسنى . كل ذلك لإشراق نفسك وإسعاد حياتك وصفاء ذاتك ، فالجاهلون كالقحم يحترقون والعلماء كالناس يشرقون ولا فرق بين الألماس والقحم في أصل المادة ، ولكن الفرق في ترتيب الذرات عند تركيبها هكذا الجاهل والعالم تشابها ذاتا واختلفا في إشراق نفس بالعلم وإظلام أخرى بالجهل (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . إلى هنا انتهى الكلام على الأمر الثانى ، وهو قوله تعالى (هو الذى يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وبه ختم الكلام في تفسير قوله تعالى (إن الله لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء هو الذى يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

خاتمة هذا المقال

اعلم أن هذه الباحت هي التي يطلبها الإسلام بل هي صفة الله ، كما قال تعالى (صفة الله ومن أحسن من الله صفة ونحن له عابدون) ألا ترى أن هذه النظم والمعجائب والحساب والهندسة والإبداع هي المعبر عنها بقوله تعالى في هذه السورة (شهد الله أنه لا إله إلا هو واللائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ثم انظر كيف يقول بعدها (إن الدين عند الله الإسلام) وأنت تعلم أن علماءنا قالوا إن الإسلام هو كل دين نزل على نبي قبل النسخ ، وانظر كيف ذكر الإسلام الذي هو الدين العام عقب ذكر هذه النظم المعجبية فكأن الإسلام العام يدعو حثيثا إلى معرفة هذه العوالم وإتقانها ، وانظر كيف يقول في آية أخرى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) بعد قوله (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) الآية . كل ذلك تذكير للمسلمين ليعلموا أن أجل العلم هو علم الطبيعة والفلك والحيوان والنبات وأن العلماء بذلك هم أقرب إلى الله وهم الذين صبغوا صفة الله التي هي أحسن صفة ، وقد قال العلماء : الحكمة هي التشبه بالله بقدر الطاق البشرية والتشبه بالله يكون بالعلم مثل ما بينته لك في هذا التفسير وبالمعمل ونشر الفضيلة والاعتدال . هؤلاء هم الأولياء وهم هم الصالحون ، وانظر كيف ابتدأ الله هذه السورة بوصف الله بأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وبأنه حكيم في صنعه ، ثم ختمها أيضا بقوله (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار) والآيات ، وانظر كيف كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقوم آخر الليل ويمسح وجهه وهو ينظر للنجوم ويقرأ هذه الآيات ؟ أفليس ذلك يعرفك تقصير هذه الأمة البائسة النائمة وأن المسلمين الحاليين لو عرفوا أنه صلى الله عليه وسلم كان نظره في الكواكب من آخر الليل يتقدم على صلاة التهجد كما في البخاري لكانوا أغزر الأمم علما بالعلوم الكونية ، ولم تدسهم القرنية ، ولم يذلهم الطامعون .

تبصرة في التعليم في ديار الإسلام

تبين لك أن الحب به قامت السموات والأرض ، وبه انطلق الحب والنوى وجرى النجم وهوى وسقطت الأحجار وانجذبت الأجسام وأرضعت الأمهات وأولادها وألف العلماء وعلم الأنبياء وبرهن الحكماء ، فالحب هو أصل الكائنات وإبداع الوجودات ، فليكن التعليم بطريق مشوق جميل سارًا لتلاميذ مفرح لذيذ أما التعليم الذي لا تقبله النفس فلا ثمرة فيه ، وعلى ذلك يخصص كل امرئ فيما يميل إليه ويهواه ويهيم به ويراه كما قدمناه في سورة البقرة في قوله تعالى (لا يكاف الله نسا إلا وسعها) .

ولمصرى لاسعادة نوع الإنسان في هذه الأرض إلا إذا كان العلم معشوقا محبوبا مرغوبا فيه ، وأجل ما يرغب فيه أن يكون بوازع ديني ، فإذا اتفق في هذه الأرض أن ديننا يطلب العلوم ويشوق فيها وقرئت لهذه الغاية ارتقى الإنسان أربعة أضعاف ارتقائه الحالي لأن الناس يقرءون إذ ذاك العلوم كأنهم محبوبون عابها ، وإذا كانت أممتنا الإسلامية لما أغرمت بالفقه نبغت فيه فما بالك بها إذا ظهر أن العلوم التي هي أرقى من الفقه وأهد منه وأقرب إلى رقى النوع الإنساني وأملك لهواه وأحق بنيائته من النجوم الباهرة والرياض الناضرة والبحار والسفن الساخرة والدر والمرجان وما فيه من كل فاكهة زوجان ، إذا عرف المسلمون ذلك تظهر فيهم أمة لم ينتجها التاريخ ، وتقود الأمم ، وتعلو التريا ، وإذ ذاك يظهر سر قوله تعالى (ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

الكلام على أن كل ركعة في الصلاة تتضمن دراسة علم الفلك وعلم التشريح ومعجائب النفس ثم الفراز والقوى في العوالم العلوية والسفلية والكلام في أن العقول موازين نصبها الله في الأرض تبين لك فيما سبق أن حركات الدرات في الجواهر القردة وسقوط الأحجار وجرى الكواكب وانتظامها

والنفس التي بينها راجعة إلى الجاذبية الطبيعية ، وبعد ذلك تكون الفرائز الثابتة كرحمة الوالدين لأولادها من حيوان وإنسان وحب مابه الحياة من طعام وشراب وتزواج ولباس ومسكن ودفع أعداء لما يطلب ذلك من غرائز الجوع والعطش والشبق والتأذي من الجو ومن العدو وما أشبه ذلك ويتلو ذلك العقول الإنسانية المنظمة لقوى السابقة الحافظة لكيان هذه العوالم وبعدها تأتي القوة القدسية والوحي الذي يختص به أناس لهداية الناس ، وتأمل كيف كان العقل وسطا فلا هو منحط لدرجة الفرائز كالنحل والنمل والوالدات من سائر الحيوانات ، ولا هو سام جدا لدرجة النبوة والقوة القدسية وهو للسلط على ماخذه من غرائز . فبحث في النبات والحيوان واللجان ، واتخذ للسكن ولللباس والدواء واجتنب الداء ، فانظر كيف قام هذا العقل مقام الراعي وكانت الفرائز الفطرية مقام الرعية وكذلك نظر بفطنته في القوة القدسية التي اخص بها الأنبياء وقال العقل إنما بعض هذه إشارات فلا فكر فيها نزل من الوحي ولأستخرج جواهره فأعمل بها . مثلا شريعتنا الإسلامية جاءت على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم وسيكثرفيها - كما قلنا - أهل العقول فيقولون نحن نصلى ونسبح الله ونخطبه فنقول عند الاعتدال من الركوع « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » لماذا يشير هذا الحمد ؟ يشير إلى أن الحمد على مقدار النعمة الواصلة للعبد وقد تبين في هذا التفسير أن الشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة متضامنة في نفع العوالم وحركاتها مرتبطات ببعضها ، وكأن الأرض ومن عليها مرتبطون بالشمس ومأمعها بدليل الأنوار اللقبتة منها (وفي السماء رزقكم وما توعدون) فليس الرزق من الأرض وحدها بل الشمس والنجوم تغدق علينا النعم بالتسخير وذلك بأضوائها بإذن الله والنجوم الثوابت ترى احتياجنا لها بالاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، فكانت النتيجة لهذا أن السموات والأرض وما بينهما وما فوق ذلك كل ذلك متجاذب متحد في نفع الإنسان فليكن الحمد ملء هذه العوالم والحمد على المجهول رياء كاذب وعبث ، فكأن هذا الدعاء وضع في الشريعة ليتنبه إليه ذوو العقول من المسلمين ويقولون كيف يكون ملء السموات والأرض ونحن بذلك جاهلون ؟ لابد من العلم بها حتى نكون حامدين ؛ ثم إن العلم بها قد فتح لك باب في هذا التفسير ويستكمله المتعلمون في الأجيال المقبلة . هذا ما سيرفه أبناؤنا بعدنا ، ويقولون أيضا إننا عند الركوع نقول « خشع لك سمعي وبصري وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » وتقول في السجود (سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين) فيروونه في الركوع يذكر الصلي أنه خشع سمعه وبصره وعظمه وعصبه وجميع جسمه. أليس معنى هذا أنه يقرأ علم التشريح حتى يعرف تفصيل هذه الأعضاء ؟ أو ليس قوله في السجود : سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره هو عين ما قدمناه من معرفة علم التشريح وخلق العين والسمع كما فصلناه .

وباليت شعري هل يدرك المسلمون هذه الحكم هل يعلمون لماذا كان ذكر السمع والبصر وما استقلت به القدم ، وبعبارة أخرى لماذا كان علم التشريح في حال الركوع والسجود ، ثم لماذا كان ذكر السموات والأرض وما بينهما من العالم العلوي في حال الرفع والاعتدال ؟ لو علموا ذلك لكانوا أمة عظيمة ولكثرت يصلون وأكثرهم ناعمون ويعبدون وهم غافلون (صم بكم عمى فهم لا يعقلون - إلا قليلا منهم - وقليل من عبادي الشكور) .

الجواب وإيضاح المقام وبعض أسرار الصلاة

لما كان الصلي رافعا رأسه في حال الاعتدال واقفا ناسب أن يذكر السموات العلى ، ولما كان في حال السجود والركوع ناسب أن يذكر ما يخص جسمه من العجائب والتشريح وكان الصلاة درس للسلم تذكره أنه تارة يبحث في العلويات وتارة يبحث في السفليات ؛ فإن رفع رأسه في السموات يكون فكره

وإن ركع أو سجد فإلى النظر في أمر جسمه ، وكان الركعة الواحدة للسلم هي الحكمة كلها والفلسفة أجمعها إذ لا علم فيها بعد العلويات والسفليات وما يتصل بهما من العلوم . إن للسلمين في مستقبل الزمان غير من رأيهم اليوم من التأمين ، وقد سلكت سبيلا سيبلا سيلا سبيلها وقصدت قصدا سيؤمونه والله هو الولي الحميد . فيجب على السلمين بعدنا أن ينشروا علم الطبيعة وعلم الفلك والتشريح الخ ، وليحيط كل امرئ من السلم على مقدار طاقته حتى العامة يكون لهم إلمام على مقدار حالهم فهذا هو مقصود هذا اللقال ، وهو أن العقول تفكر فيما هو أسفل منها من المراتز فتحفظ الحرث والنسل واللدن والقرى ، وتفكر فيما هو أعلى منها وهو الوحي ، فتنتظر في رموزه ، وتسير في طرائقه ، ولا تقف عند لفظه (والله عاقبة الأمور) .

فكما نبغ آباؤنا في الأحكام الفقهية من آيات قليلة فلينبغ في المستقبل للسلمون في آيات أكثر منها ولتستمر عقول السلمين (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) .

فرجع الأمر في الركعة الواحدة في الصلاة إلى نظرتين : نظرة في الأنفس ونظرة في الآفاق ، أما نظرة الأنفس ففي الركوع والسجود ، وأما نظرة الآفاق ففي الرفع والاعتدال ، فإذا رفع الصلي رأسه فذلك لدرس العالم من سموات وأرضين ، وإذا ركع أو سجد فنظر في نفسه والسجود أعم ، وفي الآية (فأسجد واقرب) ولا معنى للقرب إلا العلم ، وفي الحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» فالقرب كما قال الغزالي بالعلم ، والعلم هنا علم النفس المرتبط بعلم التشريح المذكورين في قول الصلي وشق سمعه وبصره بحوله وقوته «فتبارك الله أحسن الخالقين» وفي الحديث «من عرف نفسه عرف ربه» فالصلي عند رفع رأسه ينظر نظرة نبينا صلى الله عليه وسلم كما قدمنا عن البخاري إذ كان يقف آخر الليل ويقرأ (إن في خلق السموات والأرض) الآيات في آخر هذه السورة ، وإذا ركع أو سجد فكأنما يفسر الآيات أول هذه السورة (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) هـ .

الكلام في تفسير قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) الآيات

إن الله عز وجل ذكر في هذا اللقام العلوم الكونية والكسب الطاوية ، وبدأ بالثانية فذكر منها للتوراة والإنجيل والقرآن وثم بالعلوم العجيبة من الأرض والسماء وتصوير الأجنة في الأرحام ؛ وأنت خير أن العلوم إما من الوحي الصادق وإما من الحكمة العقلية والشاهدات الطبيعية ، فالأولى للعموم والثانية للخصوص ، ثم إن القسمين قد يكون العلم فيهما مشوبا بالإيهام مورثا للشكوك محوجا العقول إلى الكشف فأبان سبحانه أن في الوحي ما هو محكم وما هو متشابه يرجع فيه إلى الحكم الفهوم ، فللمقول فيه جولان وللغفوس فيه موازين بها يزنون الحق ويرفون مواضع الخطأ من القول ولم يذكر سبحانه محكما ومتشابهها في العالم الطبيعي ، فانظر كيف ذكر علم العموم وعلم الخصوص وأبان الحكم والمتشابه من الأول ولم يبينه في الثاني .

وأنا الآن آبين لك ما قصه الله من الحكم والمتشابه في القرآن ، ثم أفتي على آتله بالحكم والمتشابه من العلوم الطبيعية : إن الله بين أن في كلامه محكما ومتشابهها ، وترك الحكم والمتشابه في أعماله في السماء والأرض للمقول والأفهام ، فما أنادا آبين لك الأمرين لتقف على الجمال والبهاء والحسن والكمال والإبداع والفرائب والبدائع والمعائب وستطلع أيها الدكي في هذا اللقام على جمال الطبيعة وكيف انتظمت السكائت الحيوانية والنباتية والمعدنية وكانت سلسلة واحدة منظمة متناسقة لاخلل فيها ولا عوج وكيف كان الجنين يمر في أدواره على هذا النمط وهو نمط النسق المنتظم في أشكال الحيوانات متقلا من أدناها إلى أعلاها ؟ ثم أريك الجمال في تناسق الأعضاء في الأنواع المختلفة كبدى الإنسان والقرود وجناح الطائر وما أشبه ذلك من النسق البيج الجميل ، وكيف كانت تلك الحلقة كأنها محكمة متناسقة كالأيات المحكمات ؟ ثم كيف جاء العلماء وتوقفوا في بعض المسائل

فأورثت عندهم شبهات في كيفية الخلق كأمثال العلامة هيكل الألماني وكيف خطأه العلماء فيما زور من الصور التي زادها فكان ذلك أشبه بالمتشابه في القرآن ، ثم تعرف بعد ذلك أن النفس الإنسانية مثلا التي صور جسمها في الرحم بهذا النسق الجميل وكانت أشبه بالسلسلة الحيوانية كيف يكون ذلك الجمال والبهاء والحسن في أشكالها وتمطيعها ضئيلا بالنسبة لما في نفوسها من القرائب وإتيا واسعة لانهاية لحدتها ولا يمتنهي لأمدتها ، فهي تسع العالم المحسوس والعالم للعقول وإليها انتهت العوالم وكأنها مركز الوجود ومهبط الأسرار : كل ذلك سأشيرحه لك إن شاء الله شرحا وجيزا كافيا وتطلع على آراء الأمم الحاضرة وموجزة مابخصة مفهومة واضحة فتسكن نفسك للحقائق وتملأ على مصاف أولئك الذين يدعون العلم العصري وهم عن جماله مغمضون وعن محاسنه ساهون لاهون ، ويقولون نحن علمنا ما لم تعرفه الديانات ولم يصل إليه الأنبياء وأنت ستري أن ما أسأصه لك قد دخل في مضمون المحكم والمتشابه المائل للمحكم والمتشابه في القرآن وأن النسق الجميل والحسن في هذا النظم الحيواني هو الذي يقول به القرآن (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ويقول : (الذي أحسن كل شيء خلقه) . والآن أبتدىء بالكلام على المحكم والمتشابه في الوحى وأقنى على آثاره بهما في الطبيعة فأقول :

المحكم والمتشابه في الوحى

اعلم أن اللفظ للوضع لمعنى إما أن يكون محتملا لغير ذلك المعنى وإما أن لا يكون ، فإذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ولا يكون محتملا لغيره فهو النص وإن كان محتملا لغيره ، فإن كان احتماله لأحدهما راجحا ولآخر مرجوحا فإن ذلك اللفظ بالنسبة إلى الراجع يسمى ظاهرا ، وبالنسبة إلى الرجوح يسمى مؤولا ؛ وإذا كان احتمالهما على السواء كان اللفظ بالنسبة لهما مشتركا وبالنسبة لكل واحد منهما على التبعين محملا فيذن يكون اللفظ إما نسا وإما ظاهرا وإما مؤولا وإما مشتركا وإما محملا ، فالنص والظاهر هما من قبيل المحكم والتؤول والمحمل يدخلان في التشابه ومعنى التشابه الذى لا يعلم لأن الذى يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم فأطلق لفظ التشابه على الذى لا يعلم ، وإذا شابه أحد الشئيين الآخر مجزى الذهن عن التمييز بينهما . وأما المحكم فهو من قولك بناء محكم أى وثيق يمنع من تعرضه وسميت المحكمة حكمة لأنها تمنع عما لا ينبغي والحاكم يمنع الظالم عن الظلم .

مثال المتشابه

(١) (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) فظاهر الآية أنهم يؤمرون بأنهم يفسقون والمحكم قوله تعالى (إن الله لا يأمر بالفحشاء) ردا على الكفار إذ حكي عنهم (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) .

(٢) وكذلك آية (نسوا الله فانسبهم) فظاهر النسيان معلوم ومؤوله الترك والآية المحكمة فيه قوله تعالى (وما كان ربك نسيا) وقوله تعالى (لا يضل ربي ولا ينسى) فتؤول الآية على معنى الترك الذى هو خلاف الظاهر للآية المحكمة للذكورة .

(٣) قوله تعالى (وما نشاءون إلا أن يشاء الله) يقول أهل السنة في هذه الآية إنها محكمة وآية (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) يقولون إنها متشابهة . وبالإجمال نقول : إن حمل اللفظ على المعنى الرجوح متشابه ، وحمله على المعنى الراجع محكم وصرفه عن الراجع إلى الرجوح لا بد فيه من دليل كما تقدم .

(٤) آيات الأنعام (قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا القواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تفلحون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالنفس لا تكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قتلتم فاعبدوا ولو كان ذا قربى ،

ويهدى الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) فهذه الآيات الثلاث عند ابن عباس محكمات ، وهكذا كل أمر بطاعة واحترام من ظلم وجهل وكذب وقتل نفس بغير حق فهو محكم عند ابن عباس لأنه لا يختلف باختلاف الشرائع . وأما ما يختلف باختلاف الشرائع كأعداد الصلوات ومقادير الزكاة وشرائط البيع والكاح وغير ذلك فهو المسمى بالمتشابه عنده وهو من نوع الجمل فيما تقدم أى ما يكون دلالة اللفظ بالنسبة إليه وإلى غيره على السوية ، ومن التشابه عند ابن عباس أيضا أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور وذلك أن اليهود ظنوا أنها جاءت لأعداد الجمل فطلبوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الأمة ، فاختلف الأمر عليهم واشتبه فكأنوا إذا سمعوا الم يقولون إن أمة محمد ستبقى ٧١ سنة بعد جمل هذه الحروف ا ل م وكلا سمعوا حروفا غيرها الز مثلا زادوا العدد حتى قالوا أخيرا أشكل علينا الأمر فهذه متشابهات تشابهت على اليهود . هذا من كلام ابن عباس موضحا وقوله تعالى (ما كان لله أن يتخذ من ولد) محكم ، وقوله فى عيسى (روح الله وكلته ألقاها إلى مريم) متشابه فيرد إلى المحكم .

(٥) الآيات الناسخات تسمى محكمات والآيات للنسخات تسمى متشابهات وهذا لابن عباس أيضا .
(٦) العلم بوقت قيام الساعة والعلم بمقادير الثواب والعقاب فى حق المكلفين كل ذلك متشابه فإنه لا سبيل إلى معرفته ، وأما ما يمكن تحصيل معرفته ببديل جلى أو خفى فهو محكم . هذا ملخص الأمثلة فى المحكم والتشابه والأقوال المختلفة ؛ ثم إن الخامس والسادس طريقان من طرق المحكم والتشابه يخالفان مابقيهما فتأمل وتدبر فقد قرئت لك اللقمة بأسهل أسلوب (والله هو الولي الحميد) .

اعلم أن فى وجود للتشابهات فى القرآن فوائد : منها الجدة فى الطلب لترقى العقول وازدياد الثواب ، ومنها أنه لو كان محكما كله لكان لا يصلح إلا للمذهب واحد ، ومنها أن التشابه يدعو إلى الدليل العقلى المخرج من التقليد ، ومنها أن ذلك يدعو إلى علوم كثيرة لأجل تحقيق التأويل ، ومنها أن القرآن يدعو العامة والخاصة ، والعامة لا بد لهم من كلام يوافق ظاهر عقولهم فلا بد من ألفاظ توهم الظواهر وألفاظ تبين الحقائق فيكون الأول متشابهها والثانى محكما وقوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) فالفتنة فى اللغة التعلق بالشئ والغلو فيه وفلان مفتون بطلب الدنيا أى متجاوز الحد فى طلبها .

فالتمسك بذلك للتشابه فى الدين يصير مفتونا به ما كفا على باطله وضلاله ؛ وقد يفضى إلى التنازل وذلك فتنة أيضا ، وقوله وابتغاء تأويله أى تفسيره ومرجه ومصيره مثل طلبهم أن الساعة متى تقوم فهم يعملون للتشابه على غير الحق وبلا دليل ، وقد قدمنا الكلام فى الوقوف على إلا الله أو على قوله والراسخون فى العلم وما قلنا فى هذا اللقمة فى القرآن ينطبق على ما سأذكره فى التشابه والمحكم فى الطبيعة ، وسترى أن من الفلاسفة من يطلبون التشابه فيها لأجل ابتغاء الفتنة وذلك فى القسم الثانى وهو :

المحكم والتشابه فى المظاهر الطبيعية ونظام الحيوان

(بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم) وهو الذى ربي السكواكب والأرض والعدن والنبات والحيوان تربية مبدوءة بالرحمة محتومة بالنظام السائد فى الملك كله . فهو الذى أدار الشمس وخلق منها السيارات دائرات حولها ومنهون الأرض وهى ملتهبة : (١) ثم صارت تبرد شيئا فشيئا حتى أحاطت بها قشرة صلبة من اللواد المعدنية والحجرية ، وهى فى أول أمرها خفيفة ضعيفة لاتقاوم حرارة النار الأرضية اللتهبة فى باطنها فهذه تترقق حيناً وتتشقق وتبرد فى وقت آخر فتجمد ويكون هناك أمران إذابة للعادن وتكليس للصخور فترتفع للعادن الدائبة فى الجو وتنزل على هيئة مطر فتقع فى الشقوق الصخرية وتبقى دهورا متطاولة

ولا يزال الإصحار والإفابة من جهة والتكليس واليبس من جهة أخرى دائبين حتى يحصل بعد الدهور الطويلة أن الأرض قد أحيطت من جميع جهاتها بأحجار صوانية أحكمت السد على النار فلم تعد تندلع من جهة من جهاتها وزال الاضطراب إلا في أوقات فترات وهذا هو الذي ذكره الله تعالى (وجعلنا في الأرض رواسي أن يمد بهم) فهذه الحجارة الصلبة منعت اندلاع النار حتى لا يميل القشرة بما عليها فيقع العالم للتكون في النار للثبية الأرضية وهذا هو دور تكوّن الأرض .

ألا ترى إلى أن القطبين منبعجان وأن خط الاستواء منتفخ .

العصر الثاني : العصر النباتي

هناك سكنت التائرة وقر القرار وثبت كل شيء في مكانه واستقر الماء في مواضع من الأرض ، فظهر عليها الطحلب وأخذ الماء بموج موحا ذاهبا إلى الشواطئ من كل ناحية ، ثم ظهر فوق اليابسة الأحراش والنبات الناجمة من طوفان الماء عليها حينئذ ، ثم أخذت الزروع تبدو على وجه الأرض فكانت أشبه بشجر الجيز في عظم قدرها وارتفاعها ؛ أما الأشجار من اللوز والنخل فكانت تناطح السحاب وتتعلق بأسباب السماء فتلك الزراع التي تنجب بها الآن كانت كأشجار عظيمة والأشجار كالجبال وهنا ابتداء :

العصر الحيواني وهو العصر الثالث

قد علمت أن النار قدسدت من جميع جهاتها بأحجار صلبة متينة ولكن لما امتد الزمان تارت النار وفارت فزقت تلك الأحجار من بعض الجهات فظهرت سلاسل الجبال وامتدت النار فأنت على سائر المخالقات فوق الأرض وهذا هو الطوفان (الجيولوجي العام) وهناك من بعدها أنواع من الطوفان ليست عامة فهذا الطوفان نرى من باطن الأرض والدليل على أن هناك أنواعا من الطوفان بعد هذا أنهم رأوا عظاما متحجرة في أعلى قتل الجبال وفي أعماق البحار وذلك في الدور الحيواني الذي سأشرحه ، وبعد ما سكن هذا الطوفان العام واستقر كل شيء في مكانه وأخذ الماء بموج في كل جانب واستقرت البحار في أماكنها الخاصة بها ظهرت الحيوانات ذوات الأصداف، وهناك على مر الدهور والصور صارت ركاما فكان منها الرمر وبعض الصخور الكلسية ، ثم كانت الحيوانات مرتبة هكذا :

الحيوانات السائلة كالإسفنج والحيوانات الشعاعية الكثيرة الأرجل فالحيوانات الشائكة الجلد كقنفاذ البحر فالحيوانات الملامية فالحيوانات المفصليّة فالحيوانات القشرية ، هذا إذا رتبناها من أسفل إلى أعلى .
ولندكرها من أعلى إلى أسفل بإيضاح فنقول :

- (١) الحيوانات اللابنة وهي الإنسان وذوات الأربع : الطيور . الزحافات . الضفادع . السمك . هذه الأنواع الخمسة هي التي لها قفار كقفار الإنسان ودم .
- (٢) ويلها الحيوانات المفصليّة مثل : الحشرات . الثبت . العناكب . ذوات القشور . ودود الأرض ، فهذه تسمى للمفصليّة وجسمها مركب من حلقات وتسمى أيضا حلقيّة .
- (٣) ويلها الحيوانات الملامية وهي كقوام العجين ، منها ذوات الرؤوس ومنها ملاءروس لها .
- (٤) ويلها الشعاعية كقنفاذ البحر شائكة الجلد وكنجوم البحر .
- (٥) ويلها الكثيرة الأرجل مثل الأخطبوط وهي من الشعاعية .
- (٦) ويلها السائلة مثل الإسفنجيات والنقاعيات .

وهذا آخر ما وصل إليه النوع الإنساني من العلم ومحصلة يرجع إلى أن الحيوانات قسبان :

قسم له دم كالحيوانات اللابنة والنباتات والباثضة كالسلاحف والضبب والطيور والحيات والسمك .

وقسم لادم له كالملايمات وذوات القشور والحشرات .
وهذا هو التقسيم القديم الذى ذكره أرسطو وما قبله وآخر ما وصل إليه نوع الإنسان اليوم مثل هيكل
الألماني وكوفيه وغيرهما فتعجب وتأمل .

جمال نظام السلسلة الحيوانية

انظر أيها التقي إلى هذه السلسلة وتأمل في أمر الحياة فإنك تجد أنها لم تتوقف على حال من الحالات،
فإن قلنا لا بد لها من قنار كالقنار والطير والصفادع والسمك ينقضه أننا وجدنا الحيات بلا قنار فيها هو أسفل
منها كالعنكبوت والحشرات والشبث وأمثالها ، وإن قلنا إن الحيات لا بد فيها من قشور في ظاهر الحيوان رأينا
الحيوانات الملامية ، وإن قلنا إنه لا بد من رموس كذبقتنا الحيوانات التي لا رموس لها .

وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان صلب الجسم وجدنا النفاقيات والإسفنجيات فالناس جميعا يعرفون
الإسفنج أنه عظام حيوان داخلها مادة لطيفة هي جسم الحيوان ، فإذا فرغت من الهيكل استعمله الناس بعد
موت الحيوان . ألمت ترى من هذا أن العالم الحيوانى عجيب ؟ ترى الأنعام ترضع أولادها بعد حملهن في بطنها
والطيور تحضن بيضها وأخرى من الحشرات تدر يعضها في العراء يترى في حضان الطبيعة بالرحمة الشاملة العامة
(فتبارك الله أحسن الخالقين) فالعوالم مرتبة ترتيبا لطيفا بحيث إن كل درجة من درجات الرقي حلت فيها
الحياة ، فالحياة عامة شاملة لا تتوقف على حال من الأحوال ، فلا البر ولا البحر ولا الهواء يصد عن الحياة
ولا رخاوة الجسم ولا عدم الرأس ولا فقد الفقرات ولا قلة الحواس ، وهذا هو الجمال الإلهى الوارد في قوله
تعالى (الذى أحسن كل شئ خلقه) وفي قوله أيضا (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل
ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) أى ارجع البصر هل من شقوق
في السماء وهل من تفاوت أى هل هناك ما يخجل بالنظام فالنظر في هذه السلسلة دل على تناسقها وجمالها وبهجتها .

تشابه الأطراف في الحيوان

ومن أجل ما أبدع في الدمج وأبهج ما ظهر في كل عصر .
أن يد الإنسان وأعلى أنواع القرود من الكورولا والأورانغ تانغ والكلب وأطراف الفقم والدلفين
وجناح الحفاش وبد الخلد التي تشبه العول وأجنحة الطيور والأطراف الأمامية للحشرات والحيوانات التي هي
نصف مائة كل هذه الأنواع العشرة وما شاكلها نجد أنها مركبة من خمسة أقسام : كيد الإنسان . بيد
الإنسان ، وبد الفرد ، وجناح الحفاش ، والطير وما أشبه ذلك كل هذه مكونة من خمسة أعضاء كأصابع اليدين ؛
أليس هذا هو قوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ؟ ألمت ترى أن هذا التناسق بديع وأى
عجب أعجب من تنوع اليد فتصير في الإنسان كاتبة حامله السيف جالبة الطعام دافعة الحصى عاملة أعمالا
لا تنتهى وهي في الطائر تحمله في الهواء تنوع بديع عجيب كتشعب العناصر في النبات والحيوان ؟ أليس هذا
دليلا على حسن النسق وأن القدرة التي ابتكرتها مبدعة منظمة بحكمة نابتة لاتناقض فيها ولا اختلال .

جمال الخمسة من علم خواص الأعداد

واختيار الخمسة من أبداع ماعله علماء الخواص العددية .
ألا ترى رعاك الله أن عدد الخمسة يسمى عددا دائرا فإنك إذا ضربته في نفسه بالثلاثة ما بلغ فإن حاصل
الضرب يحفظ الآحاد والعشرات دائما وهذه الخاصة لا يشاركها فيها سواه مثل ٢٥ - ١٢٥ - ٦٢٥ وهكذا .
فعدد ٢٥ محفوظ دائما وعدد الخمسة هو الذى عليه نظام الحساب في العالم الإنسانى لأن الشجرة التي هي عدد
أصابع اليدين مثلثا تضعف إلى الثبات والألوف ، وهذه من نوع الجمال في علم الموسيقى لأن نسبة المساواة

والنصف والثلث عندم هي النسبة الثريفة وهذه نسبة المساواة ، لمساواة الأطراف في العدد من نوع الجمال ونسبتها هندسية لأنك إذا أردت النسبة بين أطراف حيوان مثل الطائر أو القرد أو الإنسان مثلا قلت نسبة ٥ إلى ١٠ كنسبة عشرة إلى عشرين وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين ٥ في ٢٠ = ١٠٠ وهذه هي النسبة للموسيقية وهذه النسبة تسمى مع أطراف الحيوانات المتقدمة بنسبة بعضها إلى بعض فتكون أشبه بالآيات الشعرية أو ضروب الموسيقى وهذا هو الجمال وهو الحساب والنسبة للمهندسية قال الله تعالى (إن الله سريع الحساب - وكفى بنا حاسبين) .

نظام الأجنة في الأرحام

إن الساء للهيئ في الرحم يمر في درجات مختلفات من النظام الحيواني فيكون أولا: (١) كالجراثيم النقاكية وهي الطبقات الدنيا من الحيوان فيما تقدم (٢) ثم يكون علقة ملتفة شبه ثلاثة أرباع الدائرة (٣) ثم يصير مثل الضفدع (٤) ثم يظهر العمود الفقري وله منقار طائر وجسم الحشرة وهو المر ما بين عالم الطير ومرتبة الحيوانات الثديية (٥) ثم يصير كذوات الأربع فيشبه القرد (٦) وتتمو الرأس ويرسم الذراعان وله ذنب وتنبأ مواضع الأعضاء للنمو وترسم العينان والنخران والفم ثم يقصر ذنبه ويظهر التأنيث فيه وهذا في الشهر الرابع ويظهر تصوير الجنين فيه ، وفي الشهر الخامس يفرق بين الذكر والأنثى ، وفي السادس يكون طوله من ١١ عقدة إلى ١٤ عقدة ، وفي السابع من ١٣ عقدة إلى ١٦ عقدة ، وفي الثامن تفتح العينان ويكسى جلد الرأس بالشعر ويكون طوله من ١٦ عقدة إلى ١٨ عقدة ، وفي الشهر التاسع من ١٨ إلى ٢٠ عقدة .

فترى أن الجنين في أول أمره لا يعرف من أي طبقة هو ولقد رسموا جنين الدجاج والإنسان والسحفاة والكلب فلم يجدوا بينها فرقا فهذا تشابه الطائر وذوات الثدي والإنسان والسلاحف في أول نشأتها ثم يأخذ كل منها في التميز شيئا فشيئا . هذه هي الآراء للمروفة اليوم في علم الأجنة .

نظام الجسم الإنساني

وباليت شعري أي هندسة وأي نظام وأي مقياس كان في الرحم حتى صنع هذه اللقائيس يمر الجنين في أطوار الحيوانات النقاكية والحلامية والفقرية من الطير وذوات الثدي وآخرها القرد ، ثم ترسم أعضاؤه وحواسه مرتبة منظمة : (١) بحيث تكون قامته ثمانية أشبار بشره هو ويكون من رأس ركبتيه إلى أسفل قدميه شبران ومن ركبته إلى حقويه شبران ومن رأس فؤاده إلى مفرق رأسه شبران ومن حقويه إلى رأس فؤاده شبران بنسب متساوية كما تساوت نسب الأصابع في اليدين وفي الرجلين في الإنسان وفي الحيوانات الأخرى كما تقدم (٢) وإذا فتح يديه ومدما يمنة ويسرة كما يفتح الطائر جناحيه وجد ما بين أصابع يده اليمنى إلى رأس أصابع يده اليسرى ثمانية أشبار النصف من ذلك عند روقته والرابع عند مرفقيه (٣) وإذا مدت يديه إلى فوق رأسه ووضع رأس البركار على سرته وفتح إلى أصابع يديه ، ثم أدبر إلى رأس أصابع رجليه كان البعد بينهما مساويا عشرة أشبار وذلك طول قامته وربعا (٤) وطول وجهه من رأس ذقنه إلى منبت الشعر فوق جبينه شبر وثلث شبر (٥) والبعد ما بين أذنيه شبر وربيع (٦) وطول شق عينيه كل واحدة ثمن شبره (٧) وطول أذنه ربع شبره (٨) وطول إبهامه وطول خنصره متساويان . هذا قل من كثير من اللقائيس العجيبة التي في جسم الإنسان وذلك كله إذا كان معتدلا ، وقد يزيد وينقص إذا قل اعتداله لعوارض يقل بها جماله وكاله وهذا الذي ذكرناه في للعتدل الملتقة الجميل الطلعة .

النسبة الفاضلة

وهذه اللقائيس ترجع إلى ماجاء في علم الموسيقى أن النسبة تكون فاضلة إذا كانت مثلا أو مثلا ونصفا أو مثلا

وثلاثا أو مثلا وربعا أو مثلا وثمنا ، وعلى هذا نجد طول وجه الإنسان إذا كان معتدلا شبرا وثمانيا وطول قدميه كل واحد شبرا وربيع ، وهو مساو للبعد ما بين أذنيه فهنا مساواة من جهة ومثل وربيع من جهة أخرى ، وطول شق فمه وشفتيه كل واحد مساو لطول أنفه متى كان معتدلا .

ففي هذه الأمثلة ظهر الثل والمثل والثلث والرابع المذكورة التي قال علماء الموسيقى إنها هي الجمال . ويقول علماء الموسيقى من علمائنا نقلا عن اليونانيين إن نسبة الثمن في تم الأوتار هي المستعملة دون الخمس والسدس والسبع وذلك أنها مشتقة من الثمانية التي هي أول عدد مكعب ، والعدد للمكعب فيه التساوي فطول وعرض وعمقه كلها متساوية ، وفيه اثنا عشر ضلعا متوازية متساوية وله ثلاث زوايا مجسمة وله أربع وعشرون زاوية قائمة متساوية وهي من ضرب ثلاثة في ثمانية وكل مصنوع كان التساوي فيه أكثر كان أفضل . وعلى ذلك قالوا إن الإنسان أكثر فيه التساوي ، وأكثر فيه الثل والنصف والنمط الخ وليس للسدس ولا للخمس ولا للسبع من وجود فيه ، لأن هذه ليست من الأشكال المحبوبة التي فيها التساوي . انظر إلى ما ذكرناه في شكله نجد ثمانية أشبار في طوله ، فهنا التساوي ما بين أربعة أقسام من جسمه ، وهكذا التساوي بين شق فمه وشفتيه وأنفه وطول قدميه كالمسافة ما بين أذنيه وهكذا فتأمل وتعجب من العلم .

تفصيل بعض ما تقدم للإيضاح

فالتى يساوي شبرا عند الاعتدال هو (١) طول كفيه من رأس الكرسوع إلى رأس الأصبع الوسطى (٢) وبعد ما بين يديه (٣) وما بين سرتة وعانته (٤) ومن رأس فؤاده إلى رأس ترقوته .
والتي يساوي شبرين أربعة الأقسام للثلاثة (١) من القدم (٢) ومن الرأس (٣) ومن الحنجرين (٤) ومن الفؤاد (٥) ثم ما بين للثكبين .
والتي هو ثمن شبر (١) زيادة رأس البنصر على الحنصر (٢) وزيادة الوسطى على البنصر (٣) وزيادة الوسطى على السبابة (٤) وطول شق عينيه .

والتي يساوي ربع الشبر (١) طول أنفه (٢) وشق فمه (٣) وطول شفتيه .

والتي يساوي شبرا وربعا (١) طول قدمه (٢) والبعد ما بين أذنيه .

واعلم أني جمعت لك في هذا القام خلاصة علم القدماء والمحدثين في جمال الإنسان ونظامه ، فبالت شعري أين القياس الذي كان في الرحم حتى فصل ذلك التفصيل ، وقاس تلك المسافات وفصل تلك الأعضاء وهندس وزوايا وحسن الأشكال وتجنب النحس في الأشكال كالخمس والسدس والسبع واصطفى أجمل الأشكال وأحسن الأوضاع كالثلث والمثل والثلث والنصف وراعى جمال النظام وابتدع واخترع وزين وزوايا وفضل الأجل والأكل وجعل الأجزاء مشتقة من الشكل للمكعب الذي له ثمن ونصف وربيع ، وفيه الأمثال الكثيرة الجميلة حتى استحق أن يقال فيه (الذي أحسن كل شيء خلقه) وقال (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وقال (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وقال (خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ماشاء ركبك) فهذا هو الحسن الذي ذكره الله لأنه أولا اتقى أجمل الأشكال الجسمية فرّ على أدنى المخلوقات من الاسفنجيات واتى به في الشكل إلى ما ذكرناه وثانيا اصطفى أحسن الأوضاع ، وناسب ما بين أصابع الأطراف في أكثر الحيوانات على النسبة الأفضل ، وهي الثل لأن ذلك من الجمال للموسيقى الذي يعقله الحسكاه عند النظر في أشكال هذه المخلوقات فيقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار) بالجهل والبعث عن العلم والكسل والترور ، وبهذا تفهم قوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وذلك لأن التفاوت يكون من الصانع العاقل أو من المصادفات ؛ أما التناسق وكثرة التماثل فهي من الصانع المحكم لعمله الذي يجعل فعله موسيقيا أشبه بما

في السمك من التساوي وكثرته والشمات السارة للناظرين للهجة للسامعين ، وهذا من سر قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فالعالم الذي أبرزه الله كثر فيه الاتفاق للوسيقى كعدد الأصابع في أطراف الحيوان كما تقدم وتناسق السلسلة الحيوانية ونظام الأعضاء (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) الجنين في الرحم كتاب يبين الله به آياته للناس كما بينها بالقرآن

لقد استبان لك أن خلقه الجنين في الرحم تصور أنواعا من صور الحيوان مرتبة من أدناها إلى أعلاها وتبين لك أيضا أن أعضاءه للفصلة لما مقاييس تحار فيها العقول بالشبر والنهن والشبر والرابع ، وأيضا تنوع الأعضاء والأشكال والسناعات العجيبة ، فكان الجنين نسخة مختصرة وكتاب مبین لايمسه إلا العالمون ، ولعلك تقول في نفسك هذه عبارات شائعة على ألسنة الناس ، وما هو الجنين حتى يقال إنه يبين للناس ؟ تقول : اعلم أن الله قال في القرآن (ثم إن علينا بيانه) وقال (تبيانا لكل شيء) وقال (لتبين للناس ما نزل إليهم) وقال (كذلك يبين الله لكم الآيات) . فانظر ماذا قال في الجنين قال (يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البينات فلما خلقناكم من تراب) لأن أبابكم آدم مخلوق منه وكذلك الأغذية التي يتكون منها الجنين (ثم من نطفة مني) . ثم من علقه) قطعة من الدم جامدة (ثم من مضغ) قطعة من اللحم وهي في الأصل قدر ما يعضغ (مخلقة وغير مخلقة) مسواة لا تقص فيها وغير مسواة أو مصورة وغير مصورة (لتبين لكم) بهذا التدرج قدرتنا وصنعتنا وأحكامنا في الصنع (وتقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) وهو وقت الوضع (ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا) الآية ، فانظر أيها الدكي إلى قوله تعالى (مخلقة وغير مخلقة لتبين لكم) كأنه يقول جعلت للضفة أولا غير مسواة بل ناقصة الحلقة تشبه الحيوانات الأخرى كالكلب والسهلخة والطيور وغيرها ونانيا نامة الحلقة بالصورة الإنسانية لماذا هذا ؟ لتبين لكم . ماذا يبين لنا الله ؟ . يبين أننا خلقنا في أحسن تقويم لأن صورتنا مرت على صور الحيوانات الأخرى ثم أكلها . يبين لنا أنه محكم الصنع عجيب الوضع . يبين لنا أنه وضع الأعضاء على هيئة موسيقية كما قدمناه . ليعين لنا أن الإنسان فيه قابلية لأخلاق سائر الحيوان من شبق الخنزير وضراوة الأسد وجبن الأرنب وزهو الطاووس ، وما أشبه ذلك مما قدمناه عند ذكر آدم في أول البقرة ، ثم إنه لإنجاة لنا إلا بالارتقاء عن هذه الحصال الحيوانية إلى الصفات اللسكية . يبين لنا أنك أرقى من الحيوان فكيف عبدتموه . يبين لنا أن تعلم علم (الأجنة) وهو للسمى باللسان الإفرنجي (علم البيولوجي) يبين لنا أن الإنسان لا ينال أعلى الدرجات إلا بعد أن يتخطى أدناها بنظام سواء أكان في الأمور الدينية أم في الأمور الدنيوية وأن خلاف ذلك خلل في النظام والطفرة محال . يبين لنا أن سنة الكون الترقى من أسفل إلى أعلى . يبين لنا أن ندرس علم الحيوان ، ثم نعرف الإنسان . يبين لنا أن بيننا وبين الحيوان مناسبة وصلة فلنكن له راحمين وعليه عاطفين ولطبايمه دارسين وبقواء متفهمين وعليه مسيطرين .

فيا ليت شعري كيف ساغ للسلمين أن يجهلوا هذا العلم ولا يقوم به إلا الفرنجية كيف يكونون أجهل الأمم بعلم الأجنة وعلم الطبيعة . أيها السلمون قد بينت لكم (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) الله يقول لكم إنى آيين لكم خلقه الجنين ، ويقول في القرآن الكريم (إنه نبيان لكل شيء) فلا القرآن عرفنا ولا الجنين درسنا وكلاهما للبيان ، ويقول الله تعالى (وقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه خلقنا العلقه مضغة خلقنا المضغة عظما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

ثم تأمل في آية الحج فإنه ذكر من أطوار الإنسان عشرة : التراب . النطفة . العلقه . المضغة النامة الحلقة . للضفة الناقصة الحلقة . الطمل . بلوغ الأشد . الشيخوخة . الوفاة . الرد إلى أردل العمر ، ولم يذكر

أنه يبين لنا لإبعد قوله: محففة وغير محففة، أي غير مسواة كما شرحنا لأن هذه هي التي قامت لها قيامة العلماء في أوروبا أي بين هيكل وخصومه من الألمان كما سيأتي بعد هذا من النضال للشهد للأذهان للقوى للمقول (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) .

المحكم والمتشابه في الطبيعة

لقد نظرت الإنسان وحسن نفعه وجمال شكله ، ولكن هذه السلسلة التي انتظمت فيها الحيوانات منتظمة متلاصقة والتي ظهر فيها الجنين بأدوار مختلفة أحدثت عند بعض العقلاء حيرة ، فقال قائلون منهم : لعل هذه العوالم قد ظهرت بعضها من بعض بالاشتقاق ، والدليل على ذلك مشابهة الإنسان لأدنى الحيوانات في أول تكوينه في الرحم ، ثم يتأدى في الرقبة حتى يصير كالقرد ثم يصير إنسانا ، وهذه السلسلة جينها هي التي تراها في الحيوانات للشاهدة فلعل كل طائفة مشتقة مما تحتها مباشرة حتى إن هيكل الألماني الذي نشأ في ألمانيا ، وقضى نحو نصف قرن أستاذ العلوم الطبيعية في كلية (أويتا) قال إن الإنسان نشأ بالتدرج من الحيوانات السفلى ، فالتدرج في الرحم من الأدنى إلى الأعلى كالتدرج في السلسلة من الأدنى إلى الأعلى من الحيوانات القاعية إلى الهلامية إلى الحلقية إلى الفقارية .

ولما بحث الدكتور (براس) مذهبه ونظر في تلك الصور التي استند إليها وجد أنها لم تكن كلها صادقة بل بعضها مزور ، فإن الصور ٢٢ بتبدي بالبيسط ، والصور الرابعة عشرة التي سماها (السوزور) والصور الواحدة والمشرين التي سماها (الإنسان القرد) لم يكن لها وجود البتة .

فكتب العلماء على صفحات الجرائد أنه مزور لهاتين الصورتين فهدهم برفع الدعوى ، ثم رأى أنه لامناس من الإقرار فكتب مقالة مؤرخة (٢٤ ديسمبر سنة ١٩٠٨) قال (تزوير صور الأجنة) إلى أعترف رسميا حسبما للجدال في هذه المسألة أن عددا قليلا من صور الأجنة نحو ستة في المائة أو ثمانية موضوع أو مزور إذا عد الدكتور (براس) ذلك تزويرا ، وذلك فيما إذا كانت اللوادر التي يراد فحصها أو رسمها غير كاملة حتى يضطر فاحصها أو رسامها ، وهو يضع حلقاتها بعضا يلزاه بعض في سلسلة ارتقاها أن يملأ بينها بحلقات فرضية إلى أن قال . فبعد هذا الاعتراف يجب أن أحسب نفسي مقضيا على وهالك ، ولكنه يعزى أن أرى بجانب في كرسى الانهزام مئات من شركائ في الجرعة وبينهم عدد كبير من الفلاسفة العول عليهم في التجارب العلمية وغيرهم من علماء الأحياء (البيولوجيا) فإن كثيرا من الصور التي توضع علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة المنتشرة للعول عليها مزور مثل تزويري تماما لا يختلف عنه في شيء اه . ثم إنه قدم استنائه مكرها من السلبية بعد أن قضى ثلاثين سنة أستاذا فيها . وهذه القصة نقلها من الجزء الأول من كتاب « نقد فلسفة داروين » أفلا ترى أن هذا الرأي الذي اتبعه قوم راجع إلى للتشابه في اللادة كالمتشابه في القرآن ؟ فإذا قال الله تعالى (نسوا الله فنسيهم) وقال العلماء : إن هذا متشابه والمحكم قوله تعالى (وما كان ربك نسيا) هكذا في الطبيعة هنا هذه السلسلة عند قوم متشابهة لأنها في نظرم الذي لا يتجه إلا إلى وجهة واحدة تدل على أنه لاصانع لها لأنها مشتقة بعضها من بعض بتوالي الأزمان فأين محكمها إذن ؟ .

المحكم في الطبيعة الذي يشبه الآيات المحكمة في الوحي وهو القرآن : حشرة أبي دقيق مثلا

(١) قال الدكتور جوستاف جوليه : يكفى أن تأمل حشرة أبي دقيق فإنها تنادى على رءوس الأشهاد بإبطال نظريات داروين في وجود الأنواع وترقيها . إن الحشرة ظهرت من أقدم الصور وأنواعها ثابتة فهي تناقض تلك للذاهب القائلة بالتحول المستمر فأين التحول المستمر هنا؟ أولايرون أنها تنتقل داخل الفيلبة (الشرقة) من كونها دودة إلى أنها طائر، ثم قال : وبألت شعري أين العلاقة بين الدودة والحشرة ، ولقد قضى مذهب

لامارك ومذهب فاروون ، ومن العجب أن هذين للذهبين يعجزان محجزا تاما عن تفسير تلك الفرائز العجيبة للدهشة التي تظهر في الحيوانات . وأنا أقول :

أفلمت ترى أن كلام العلامة جوستاف جوليه يدلنا أن هنا شيئين نرجع إليهما وهما حشرة أبي دقيق والفرائز البديعة العجيبة التي لا تنتهي في أنواع الحيوان ، إنها لعمر ك تمدد بالآلاف الآلاف بل لا عد لها فما الذي وضعها في تلك الحيوانات فهذا نعدّه من المحكم ، أما تلك السلسلة ونظامها فهو من التشابه ، والتشابه يرجع إلى المحكم فهذا أشبه بما جاء في الآيات التي نحن بصدد الكلام فيها (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهاً ، فأما الدين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) .

وواقفه على هذا الرأي العلامة ٢ (فون باير) الألماني مؤسس علم الأجنة (الأمير بولوجيا) ومن علماء التزيولوجيا والعلماء المحفرين (٣) والأستاذ (ابلي دوسيون) في كتابه للطبوع سنة ١٩١٢ للمنون (٥) والعلامة (٤) (فيركو) الألماني من علماء (الأتروبولوجيا) التاريخ الطبيعي للإنسان (٥) والعلامة الأنتروبولوجي الفرنسي دوكلترافاج وكذلك الفيلسوف (٦) سبنسر الانجليزي (٧) والعلامة (ويسمان) (٨) والأستاذ (جورج بوهن) مدير معمل البيولوجيا والبسيكولوجيا الحيوانية (٩) والعلامة (أدمون بريه) في مجلة العالم الحى سنة ١٩١٢ قال: إن البط وسائر الطيور المائية لها أرجل ذات أصابع متصلة بنشأة فيظنون أن نوع العيشة قد أوجد هذه الأغشية ولكن الأمر على العكس في مذهب للسبو جينو يقول: إن البط يعوم لأنه وجد نفسه أرجلا منشأة تصلح للوم، إن هذه الحيوانات أعدت قبل للوم ومثله العلامة (١٠) (بلوجر) الألماني والعلامة التزيولوجي (١١) (دوبوار ميند) (١٢) ودائرة المعارف الكبرى الفرنسية ورأى الدكتور (١٣) ادوارد هارتمان (١٤) و (لويز بوردو) (١٥) و (كاميل فلامريون) (١٦) و (لوجيل الفرنسي) والأستاذ (١٧) (ميلن ادورد) (١٨) ودائرة معارف القرن العشرين (١٩) وجوستاف لوبون والأستاذ (٢٠) هنري بوانكاريه العضو بالجمعية العلمية الفرنسية .

أكثر الناس مقلدون

ولأختم القول في هذا اللقاع ، وأقول لك أيها الذكي: انظر في هذه الدنيا وتعجب من العقول الإنسانية ، وانظر كيف ترى أن الناس في بلادنا في مصر في الشام في العراق في الهند في الصين في سائر الأمم والأجناس إذا قرءوا مذاهب الفريجة وسمعوا أن الإنسان والحيوانات مشتقات بعضها من بعض هلمت نفوسهم وانخلت قلوبهم وتركوا مواهبهم وظنوا أن هذا جاء من علم فوق طاقتهم ، وعقل فوق عقولهم ، وإذا رأوا عجائب الحيوان وغرائزه للدهشة والنظامات الفلكية وأضواء الكواكب وجمال النجوم وبدائع الحياة قالوا نحن لسنا أعلم من أولئك العلماء إنهم بحثوا فلم يجدوا لها ، فأنظر كيف جاء علماء العصر الحاضر منهم وهو القرن العشرين ، فقالوا بما نعرفه في نظرننا ونظروا جمال الصور ونظام الأعضاء والحكم للدهشة التي لا تكاد تعد في أي حيوان وأي حشرة وقالوا: إن ذلك القول هراء وزور ، وإن الحكمة ظاهرة باهرة في سائر العوالم ، فيا أيها الذكي فلما العلم التام وإما التقليد للوحى . أما العلم الناقص فقد هدم ركن الشرق (والله من ورأيهم محيط . بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) .

فيا أيها الذكي هأنذا قد أودعت لك في هذا اللقاع مالا يجده في كتاب آخر ، ومزجت لك العلم بالدين ولم أترك لك بابا للشك وأريتك أقوال علماء أوروبا قديمهم وحديثهم وجملت لعقلك سبيلا للنظر بنفسه وللغرام والمهيام بهذا النظام والحسن والجمال (إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

تفسير الآية منطبق على الطبيعة ، زيادة إيضاح لها

وهي قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون : أمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب) .

ذكرت لك تفسير هذه الآية وفاقا لساداتنا العلماء السابقين وأبنت لك أن الوحي فيه آيات محكمات وأخر متشابهات ، وقلت لك إن الطبيعة فيها ما في الوحي لأن الوحي كلام الله والطبيعة فعل الله ، والكلام والقلم مصدرها واحد فلا بد من تماثلهما إحكاما وتشابها فتقول :

كما أن في القرآن آيات محكمات واضحات لا تشابه فيها كقوله تعالى (وما كان ربك نسيا) فيما تقدم هكذا في الطبيعة عجائب واضحات لا تنفخ كمنظومة الإنسان وانتظامها وحملها ، وأنها جرت على النظام الأكل نظام اللوسق ذات القواعد النابتة أجمل الأشكال ، وأجمل الأشكال ما أكثر فيه التساوي ، والذي أكثر فيه التساوي الكرة لتساوي أقطارها وأنصاف أقطارها والمكعب الذي فيه متوازيات متساويات كثيرة وفيه الثمن وفيه الثلث الناجمان من ضرب ثمان زوايا مجسمة في ثلاث زوايا مسطحة ، فقد ظهر في أعضاء الإنسان مثلا الأمثال الكثيرة والأثمان ومضاعفات الأثمان وهي الأرباع والأنصاف ، وكل هذه معتبرة في اللوسق بحيث يستقل السمع بها وتطرب النفس لها كما يحسن الشكل في العين بمنظرها ، فنظر الإنسان مقبول ، ومنظر للمكعب مقبول ، وسماع النغمات الموزونات بذلك التقدير مقبول . فهذا هو المحكم في الطبيعة الدال على مبدع مدبر حكيم ودود كثير الود لعباده لإعجابهم بالجميل وإدخال السرور عليهم .

وأما للتشابهات أي اللاتي لا تعلم في الطبيعة لبعض الناس لوقوف أذهانهم عندها وعكوفهم عليها فهي مانقدّم شرحها من تلك السلسلة الحيوانية وسير الجنين في الرحم على مقتضاها مما يوقع في النفوس أنها مشتقة بعضها من بعض ولا خالق لها ولا رازق ، فذلك كالنشابه في القرآن كقوله تعالى (نسوا الله فأنسهم) فظاهر النسيان كما تقدم من التشابهات (فأما الذين في قلوبهم زيغ) عن الحق في القرآن (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) والفتون بالشيء القرم به الماكف عليه لا ينظر إلى سواء هأم فيه ، وفي الحديث « حيك الشيء » بمعنى ويصم « فأهل اللذاهب للتحرفة وأهل الفرق الصالة في الإسلام أغرموا وقتوا بمسائل عدوها مذاهب وكفروا أو فسقوا غيرهم أو حكموا بكفرهم مع موافقتهم لبقية الفرق في الدين كله ، ولكنهم عكفوا على مسألة واحدة وظنوها كل شيء . هكذا هؤلاء العلماء الذين نظروا في سلسلة الحيوان ، ونظام الجنين على مقتضاه فتوا به وأغفلوا ما عدا . من جمال الأشكال وحسن النظام وتبادل النافع بين طوائف الحيوان والإنسان والنبات ، وتوافق المزاي والنشارك للستمر بين أصناف المخلوقات ، وفتنوا بمسألة واحدة من آلاف الآلاف ، قفاوا : إن الطبيعة لاصانع لها ، فجاء المحققون منهم في أوروبا في القرن العشرين وأظهروا الحقائق ورجعوا إلى المحكم وردوا للنشابه إليه كما رددنا نحن آية (نسوا الله فأنسهم) إلى الآية المحكمة (وما كان ربك نسيا) .

فيقال إذن هؤلاء للفتونون بمسألة واحدة الماكفون على وجه واحد صرفت أذهانهم عن غيره وباتوا لا يرون إلا ما فتنوا به كما لا يرى للفتونون في هذه الحياة إلا ما أحبوا من جاه أو مال أو ولد أو صيت مع أن الحياة أكبر من أن تقتصر على وجه واحد ، بل هي عجائب وحكم وعلوم ونظام ودار انتقال ، هكذا للفتونون بمسألة واحدة في الدين كالإمامة والخلافة والفتونين من علماء أوروبا بسلسلة الحيوان وغفلوا عن جميع الجمال والحكم .

تقول هؤلاء كلهم يقال لهم إن في قلوبهم زيغا وسيلا فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة به والفرام وإغفال ما عداه وابتغاء تأويله ومعرفة حقيقته ، ومعلوم أن الفتون لا يعرف إلا ما تشابه (وما يعلم تأويله إلا الله

والراسخون في العلم) الذين ليسوا مفتونين بوجه واحد، بل نظرم عام في الدين وفي الطبيعة حال كونهم (يقولون آمنا به كل من عند ربنا) لأنهم نظروا نظرة عامة وقلبوا المسائل على جميع وجوهها المختلفة فظهرت الحقائق بالبرهان لا بالمهورى والتراحم بالثبوت والافتتان به (وما يذكر إلا أولوا الأبواب) وما يعرف الحقائق إلا أولو العقول الراجحة وهم الراسخون في العلم، لا للفتون الذين يسبون عن الحقائق ولا يصغون للبرهان، وهذا التفسير يحمل الراسخين في العلم معطوفا على لفظ الجلالة.

ولا تظن أن تفسير الآية بعلم الطبيعة إلا بجملة نظيرا وشبها بما جاء في القرآن من باب القابسة والشاكلة وإلا فالآية مساقها لآيات القرآن وحدها.

وتقد جاء لها في القرآن معنى آخر قد سبق، وهو الوقوف على قوله (إلا الله) والابتداء بقوله (والراسخون في العلم يقولون آمنا به الخ) وأنهم يسلمون بأنهم لا يعلمون، وقد حمل العلماء هذا المعنى على المسائل التي لا يمكن معرفتها في الدين كموعد قيام الساعة وكمقادير الثواب والعقاب وهكذا.

ونظيره هنا معرفة عدم التام والإحاطة بالنفس الإنسانية فإن الإنسان يدهش أمامها صاغرا، فلا تشرحن لك علم النفس أى ظواهره التي وصل لها الناس لترى أن هذا الإنسان الذي أدهشك شكله ونظامه وهندسته وزويقه وإحكامه ومجانب جسمه له نفس أرق وفيها من الحكم والغرائب ما لا يستقصى وتستصغر ما علمته الآن من نظام جسمه ومجانب خلقه في جانب عجائب نفسه وما لا يتناهى من غرائبها فأقول:

النفس الإنسانية ومجائبها

اعلم أن أمر الإنسان في باطنه أعجب مما مر عليك في ظاهره. ذلك أن حياته تدعوه إلى ما لا يحصره من العلم والعمل، ويأبى أن يقول: إن الحياة تتوقف على غذاء وملبس وممكن ودفاع عما ملكه، وهذه تحتاج إلى قوى داخلية في نفسه وهي الشهوة والتضبط والمقل. أما الشهوة فيها يطلب الغذاء والملابس والسكن، وأما التضبط فيه يحافظ عليها، وأما المقل فإنه يهجر الأمور لنظامها وإدارتها.

فالشهوة للطعام أعانتها الحواس الخمس على جلبه واصطفائه، فالذوق يعرف الحلو والحامض والمر واللح، وما أشبه ذلك، والشم يدرك الروائح. والسمع والبصر يدركان المدوّ والصديق والقريب والبعيد وأنواع الطعام والشراب والملابس والأدوات التي تبنى بها الساكن.

هذه قوى عظيمة فانظر كيف كانت حياة الإنسان تسخر لها هذه العوالم وكيف منح الإنسان كالجوان قوة الشهوة والرغبة في طلب الطعام مثلا فأعانته قوة الذوق في اللسان ففرغ الحلو والحامض والمر فتجاوز التراب والحجر واصطفى للواد النباتية والحيوانية وميز بين الحبز والجبر والطين والحديد ولم يدخل من الطعام إلا ما يصلح لتركيب جسمه ونظامه.

عجب يعيش الإنسان ويموت وهو غافل عما أعطى من المواهب والنعيم ويحطش فيشرب وهو لا يدري تلك النعم والمطايا، تلك المواهب الثمينة تلك الآيات البينات تلك الدرر النوالى تلك السعادات والعجائب، ياليت شمري كيف يعيش ابن آدم ويموت وهو لم يدرس إلا ما حوله من نبات وحيوان وماء وطعام وقد غفل عن تلك العوالم التي هي في داخل جسمه من شهوة جاذبة لتلك الأطعمة وديدهان وانف على باب جوفه في لسانه ينتقى ما يوافق جسمه ويطلب ما يصلح لأن يقوم مقام ما نفي من أعضاء جسمه وما تحلل منها. يعيش المرء ويموت وهو لا يعرف تلك النعمة الجزيلة والآية السكرى والحكمة العالية. كيف يجد في له ذلك الحارس الدافع لما لا ينفع الجسم من التراب والحجر والطين والأطعمة المرة والحادة والحارة الشديدة الحرارة ولا يدخل إلا بعض ما نهت في الأرض أو كان من الحيوانات أو الماء على طريقة خاصة.

ثم هو يجد هناك قريبا من ذلك الديدبان الجالس على اللسان ضابطا واقفا قريبا منه جالسا في النخرب
وهو الشم يشم الروائح فينبه الذوق الجالس على اللسان ، ويقول له لقد فتشت هذا الحامض فرأيت لا يصلح
للغذاء فلتحترس أيها الديدبان فلا تدخله ، فترى الإنسان ينفذه بنذ الواة والبصر واقف من بعيد أشبه بأمر
من أمراء الجند يتأمل الصور فيبعد عن القم ما لا ينبغي أكله ، فترى الطعام يمر أولا على البصر ثم الشم ثم
الذوق ، فإذا ما انتهى إليه وقبله دخل في الجسم بلا توان . بهذه الطريقة يدرس الإنسان كل ما حوله بدرسه
بصره وشمه وذوقه .

فالصور والروائح والطعوم وهي الصفات اللازمة لما حولنا من طعام وشراب تطبع في حواسنا من
البصر والشم والذوق فتطينا علما بما يوافق وما لا يوافق . هذه الدراسة تشارك فيها الحيوان والإنسان ، اشتركا
فيها ، ولكن الإنسان يزيد علما عن الحيوان لاتساع دائرة عقله وازدياد حاجته في اللساكن والملابس وكثرة
أمراضه التي أوجبت طلب الدواء بما حوله ، وذلك ليزداد تأملا وتمقلا .

يا عجب هل حكم على الإنسان أن لا يرتقى حتى يعرف ما حوله ؟ هل زادت حاجته في الملابس وللساكن
والأدوية حتى يفكر ويعقل ما حوله ؟ وإلا ظل في العوالم السفلية وإلا فلماذا كل هذه التكاليف يكلف بما فوق
طاقة الحيوان . يكلف للملابس من حرر وقطن وكتان وصوف ، والأدوية ليستخرجها من الثبات والحيوان
والزينة ليستخرج الثؤلؤ واللرجان من البحر ، لم كل هذا ؟ أليس ذلك ليتعرف ما حوله ليدرس هذا الوجود
وإلا فما قيمة الطعام والشراب حتى يحتاج لهذه الدروس والدارس ، ثم ابتلاء بالعداوات فصنع البارود وللدافع
والطيارات والحسون . كل ذلك رقى لعقله وزيادة في شأنه ، وذلك في الظاهر محافظة على صورته الجسمية
وحياته الإنسانية وهيكلة المنسوب ووجوده المحبوب .

كيف يفعل الغذاء في الجسم من العجائب

إذا دخل الطعام في القم ونزل إلى المعدة صار كيوسا ، وهذا الكيوس أشبه بقوام اللبن ، فانظر كيف
أعطى الإنسان قوة التحليل وقوة التركيب ، أما قوة التحليل فإنه لما مرّ في الطعام في القم بالأنياب والأسنان
ومضغه وابتلعه وامتزجت به المصارات التي في القم والتي في المعدة انقلب إلى مادة واحدة في الظاهر أشبه بما
هو ظاهر في الطبيعة من أن الكواكب ترجع في آخر أمرها إلى مادة سحابة (سديمية) ثم تتحول إلى
كوكب جديد ، فإذا صارت تلك الأطعمة في المعدة كيوسا جذب الكبد ذلك الكيوس فأحاله دعا وامتد
إلى القلب وإلى سائر العروق ، كل ذلك بطريق القوة الجاذبة ، فالجاذبة تطلب الطعام إلى المعدة ثم الكبد ثم
القلب ثم العروق التلاظ ثم الدقاق ، وهكذا إلى أطراف الجسم ، فإذا وصل إلى هذه الأعضاء أمسكته ريثما
يتم نضجه ، فترى للمعدة تمسك حتى يهضم وهكذا البقية ، وهذه تسمى القوة للاسكة ، وترى أن في الجسم قوة
تدفع ما لا يلائم ، وهذه تسمى الدافعة فتدفع ما لا ينبغي إلى الخارج من السييلين ، وهذه تسمى الدافعة ، وترى
أن اللحم كلما وصل إلى عضو تمثل بذلك العضو ، وهذه القوة تسمى الغازية ، ومتى تمضى العضو بما بطريقة منظمة
وهذه تسمى النامية ، ثم إن الجنين في الرحم يصور طبق الأم والأب عادة ، وهذه تسمى الصورة فتكون
القوى التي تتناول الغذاء سبعا .

وهي الجاذبة واللاسكة والمهاضمة والدافعة والغازية والنامية وللصورة ، وهن متعاونات متفتحات متجاورات
أشبه بما ترى في المدن وللمالك من معاونة الحدادين للتجارين ، ومن معاونة التجار للبنائين ، ومن معاونة
الندافين للترازين ، ومن معاونة الغزالين للنساجين ، ومن معاونة النساجين للخياطين ؛ هكذا هناك نجد القوة
الجاذبة مسوقة لجلب الطعام وهي خادمة للقوة المهاضمة ، والمهاضمة خادمة للغازية التي تعطى كل عضو ما يناسبه
والنامية مخدومة بما تقدم كله .

تفصيل أفعال القوى الإنسانية في الجسم، وأنها أشبه بما في المدن من الصناعات

فنأمل أيها القطن في المدن والقرى نجد : (١) الحزازين والطباخين (٢) المصارين الذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار والأدهان من حبوب النبات والزبد والسمن من لبن الحيوان (٣) الحلالين والدياسين والذين يعملون السكنجيين (٤) الذين يعملون الماورد ويصعدون الحله ويقطرون الرطوبات اللطيفة (٥) الذين يعملون الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج والنيلوفر والزيتون (٦) الكناسين والزبالين والسهادين (٧) الذين يحفرون الأنهار والقنى والآبار ليحروا المياه في خلال المنازل (٨) المعجانين وصانعي الحلاوة (٩) الذين يطبخون الآجر والحرف والزجاج (١٠) التجارين الذين ينحرون الأساطين وقوائم الأسرة (١١) صانعي اللقائح والصدائق (١٢) صانعي السفن (١٣) الذين يعملون القماقم والأباريق (١٤) النحاتين (١٥) المزالين والحبالين والقناتين (١٦) الحاكه والنساجين (١٧) الرفاثين والحزازين والحياطين (١٨) الزارعين والمارسين (١٩) الذين يعملون الطنافس والسوح والغليظ من الثياب (٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والسكتان (٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والريق من الثياب (٢٢) أفعال الصباغين واللزوقين والدهانين (٢٣) صنع للصورين والتقاشين وأصحاب اللعب .

هذه الثلاثة والعشرون من الصناعات لها نظائر في جسم الإنسان والناس نائمون لا يعملون أن كل تلك الصناعات في الطعام الذي أدخلوه في معداتهم وهي تدفع الطعام إلى الأمعاء ، ثم يكون مالا فائدة فيه مدفوعا إلى الأمعاء الغلاظ ثم يكون مستعدا للخروج .

فلنذكر كل صناعة في المدينة ونظيرها في الجسم على هيئة جدول لتكون أسهل تناولاً، فهناك :

الصناعة في المدينة	نظيرها في جسم الإنسان
(١) صناعة الحزازين والطباخين	(١) إمساك المعدة الطعام وهضمه وإنضاجه بالحرارة المرزبة
(٢) صناعة المصارين الذين يستخرجون الزيت والأدهان والزبد	(٢) تصفية المعدة للكيموس وأخذ لطيفه ودفعه إلى السكبد ودفع عكره إلى الأمعاء
(٣) صنع الحلالين والدياسين وعمل السكنجيين	(٣) طبع الكيموس في السكبد مرة ثانية ونضجه فيصير دما ودفع عكره إلى الطحال واللطف إلى المرارة والريق إلى المثانة والعتدل إلى القلب
(٤) صنع الماورد وتصعيد الحله وتقطير الرطوبات اللطيفة	(٤) تصفية الدم مرة ثالثة في الرئتين وجريه في القلب والعروق
(٥) صنع الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج ودهن النيلوفر والزيتون	(٥) تلطيف الدم في الدماغ حتى يصير رطوبة لطيفة روحانية في الأذنين والتخزين والعينين واللسان وما به انفعالات الحواس
(٦) صنع الكناسين والزبالين والسهادين	(٦) دفع نفل الكيموس من المعدة إلى الأمعاء والمصارين وإخراجها من الجسد
(٧) صنع الذين يحفرون الآبار والقنى والأنهار	(٧) إجراء الدم في الأوردة إلى سائر الأطراف
(٨) صنع الذين يعملون الحلاوة والمعجانين	(٨) تخفيف للمادة الدموية حتى تصير لهما وشحما
(٩) صنع الذين يطبخون الآجر والحرف والزجاج	(٩) تصلب للمادة حتى تصير عظاما

الصناعة في المدينة	نظيرها في جسم الإنسان
(١٠) صنع التجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة	(١٠) تسوية عظام الفخذين والذراعين
(١١) صنع أسنان اللقايح وهندسة الصناديق	(١١) تركيب مفاصل الركبتين والفخذين والذراعين والأصابع
(١٢) صنع السفن	(١٢) تركيب خرزات الظهر والرقبة والأضلاع
(١٣) صنع القماقم والأباريق	(١٣) تركيب عظام القحف وهندامها
(١٤) صنع النحاتين الذين يصنعون الأرجحة والطواحين	(١٤) خلقة الأسنان وتركيبها وترصيمها
(١٥) صنع الغزالين والحبالين والفتالين	(١٥) خلقة الأعصاب وعمديدها وفنلها ونصبها على الأعضاء
(١٦) صنع النساجين والحماكة	(١٦) خلق الجلود والعشاوات
(١٧) صنع الرفاثين والحرازين والحياطين	(١٧) إلمام الجراحات والقروح
(١٨) صنع الزراعين والقراسين	(١٨) ظهور الشعر على الجلد
(١٩) صنع الذين يعملون الطافس والسوح والعليط من الثياب	(١٩) خلقة الكروش
(٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والسكتان	(٢٠) خلقة الأمعاء
(٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب	(٢١) خلقة الأغشية الرقيقة في العين
(٢٢) أعمال الصباغين واللزوقين والدهانين	(٢٢) تبييض العظام وتعمير اللحم وتصغير الشحم وتسويد الشعر ثم تبييضه للكبير
(٢٣) صنع للصورين والقاشين وأصحاب اللب	(٢٣) تصوير الجنين وخلقة الفراعخ في البيض

هذه شذرة من الصناعات التي في أجسامنا تصرفت في الطعام والشراب الذي أكلناه واستخلصناه من أنواع الحيوان والنبات والمعادن فكانت الصناعات التي ذكرناها ٢٣ صناعة تراها في المدن، ولها نظائر في أجسامنا من الذين يصنعون مالطف ورق ، ومن الذين يتقون المدن من الأدران ومن الحفارين والمجانين وضرباى اللبن وما أشبه ذلك .

بهذا فلتفهم قوله تعالى فيما نحن بصدده من الآيات (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) فها أناذا ذكرت لك كيفية التصوير في الأرحام وأمطت لك اللثام عن عجائب كانت محبوبة في كتب آياتنا وكتب الفرنجة فأصبحت أمامك جميلة ألغيا باهرة الطلعة حسنة القوام تبهج الناظرين وتسمر للفكرين الذين يقرءون (وفي أنفسكم أفلا تبصرون . إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما بيث من دابة آيات لقوم يوقنون) فهذا فليكن الإيقان ، وبهذا فليكن الإيمان ، وبمثل هذا فليعلم دين الإسلام ، (مثل هذا فليعمل العاملون) وعلى هذا النمط وبهذه الطرق فليرتق المسلمون وعلى العلماء بعدنا أن ينيروا الأذهان ويعلموا الشبان ويوقظوا الوستان ويحيوا أمة أماتها الجهل وأضناها الحبل وأحاط بها الأعمداء وأمراضها النداء .
أيها العلماء حاربوا الجهالة وأحيوا العلم وأبرزوا جمال العالم المشاهد وجمال الأنفس وبنوا للشبان الجمال

والحسن والبهاء والزينة والتزيق والنظام والسكال في جسم الإنسان ظاهره وباطنه وخافوا يوما يقال فيه (وقوم إنهم مسئولون . مالك لاتاصرون . بل هم اليوم مسئولون) .

ولست أقصد بالعلماء إلا الذين قال الله تعالى فيهم : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهم الذين اطلعوا على هذا الجمال وأدركوه ودرسوا هذا العالم وفهموه وقرءوا صنع الله في الجسم والنفس فقلوه (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وهم : هم الذين خاطبهم الله ، فقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) هؤلاء هم العلماء الذين يخشون الله خشية ناجمة من إدراك جماله والصور البهجة التي زوتها والصناعات البديعة التي أبدعها أولئك هم المسئولون .

فمن قرأ هذا التفسير وأدرك الحقائق فليعلم وليشوق الناس فلا حياة للسليين إلا بهذه النظرات ولا سعادة لهم إلا بهذه الآيات ، ولا بقاء لهم إلا بما قدمناه ولا رقى إلا بما رسمناه ، ذلك هو الصراط للقيم (وفوق كل ذي علم عليم) .

مناظر الأنفس أشبه بمناظر الآفاق

قد استبان لك بما قرناه أن الحياة الإنسانية احتاجت إلى شهوة عاوتها الحواس من الدوق والشتم والبصر وإلى غضب به يحافظ الحي على مملكته من نبات وحيوان وطعام ومتاع ، وعقل به يدبر هذه كلها وقد تبين لك أن الذي تنصرف فيه وتنفع به من النبات مئآت الأوف وكذا الحيوان وللمادن والماء في الأنهار والأرض وما عليها والكواكب بأنوارها والهداية بها في ظلمات البر والبحر ، وأنت تعلم أن هذه محائب لا تنتهي ، فانظر الآن في نفسك وتأمل هل ترى فيها مناظر ومحائب مثل ما تراه بينك في هذا العالم ؟ أما أكثر الناس فإنهم يقولون : كلا ليس في أنفسنا شيء مع أنك تراهم في أكثر أوقاتهم يحسون في أنفسهم قبض وبسط وحقد وحسد وغيرة وفرح وترح وبخل وكرم وقناعة وحرص وفكر وتذكر وما أشبه ذلك ، وكل هذه المناظر المختلفة تشغلهم في سائر أوقاتهم وتلهيهم عن التمتع بما حولهم ، وقد ترى المرء مطرقا مفكرا طول يومه لا ينظر الصور الجميلة حوله من شجور ونبات وإنسان . لماذا ؟ لأن عدوه يترصد ليقنله أو أنه يفكر في حبيب غائب أو في دين عليه أو دين له . كل ذلك لمناظر وأنواع من الوجدان قد أحاطت بالنفس فألقتها عن كل شيء ، وتلك الأنواع النفسية لها وجود ولولا أنها موجودة ماشغلنا بها ولا أضاعت أوقاتنا ولا أورتتنا مرضا تارة وصحة تارة أخرى .

إذا فهمت ذلك فلتعلم أن المناظر التي تراها تنقسم إلى قسمين : قسم نكرهه ، وقسم نحبه ، فالذي نكرهه مثل : التباين ، والحيات ، والمقارب ، والآساد ، والتمور ، والشوك ، والحفظل ، والأعداء .

والذي نحبه مثل : النجوم . والأزهار ، والأشجار ، والأنهار ، وللزراع الجميلة ، والطيور للفرحة ، والحيوانات الأنسية ، هكذا مافي النفس من الوجدان فإنه منقسم إلى قسمين : محبوب كالكرم ، والعلم ، والحلم ، والإحسان . ومكروه مثل : البخل ، والحرص ، والجمل ، والحقد ، والحور ، والجبن وما أشبه ذلك ، فالذي يمينه محبوبا هي الفضائل ، والذي يمينه مكروها هي الرذائل ، فالرذائل في الإنسان كالحيات والمقارب مكروهات ، والفضائل في الإنسان كالطيور للفرحة والصور الجميلة ، فلا يبين لك القسمين في هذا اللقار لننظر كيف كانت القوة الشهوية والقوة النفسية والقوة العاقلة قد أتت أنواعا وأصباغا من الوجدان كأنها خدائق من الجنات ومزارع ضرات ، وتارة كأنها نار متأجبة أو حيات وعقارب فكان تلك القوى النفسية لما كانت أهم الأسباب في رؤية المخلوقات للشاهدة فدرست علوم الآفاق كانت هي أغسها في النفس ذات مناظر مختلفات من جنات وأعقاب ونار وجحيم وعقارب وحيات جهنمية (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

أنواع المحبوبات من الوجدان الداخلي التي تفرعت من القوة الشهوية والغضبية والنقلية
وهي تبلغ نحو ٦٠ نوعاً تذكر بعضها

(١) الرأى . الفكر . الظن . التصور . التخيل . الإحساس . اللواقفة . التزاع .
فالأول غاية الفكر ونهايته ، والثاني البحث عن المعارف ، والثالث قياس الأشياء من ظواهرها ، والرابع
إفراد صورة عن صاحبها ، والخامس بيان صور المحسوسات بعد مفارقتها ، والسادس قبول صور المحسوسات ،
والسابع مصادفة الحى مطوية ، والثامن انبعاث النفس نحو الشئ اللأم :

(٢) الصدق . النطق . التمييز . الفهم . الحكمة . الذكاء . الحفظ . الذكر . العقل .
فالأول الإخبار بالشئ على ما هو عليه ، والثاني شرف الإنسان وبه فضل على الحيوان ، والثالث حصول
الفرق بين الحق والباطل والخير والشر ، والرابع حصول المعاني الواردة على النفس ، والخامس إدراك أفضل
للمعلومات ، والسادس سرعة اقتداح النتائج وسهولتها على النفس ، والسابع ثبات صور المعاني في النفس ،
والثامن حصول ما سبق وجوده في الذهن ، والتاسع الحكم على حقيقة المطلوب بما هي كذلك هذه ١٧ نوعاً
فضائل القوة الناطقة .

(٣) احتمال الكد . الشهامة . النجدة . كبر النفس . التواضع . الثبوت . عظم الهمة . الفؤ . حسن
الخلق . البشر . الرحمة . الحلم . الشجاعة .

فالأول استعمال البدن في الأعمال الحسنة كطلب الرزق والعبادة ، والثاني الحرص على الأعمال العظام
توقفاً للأحدوث الجميلة ، والثالث ثقة النفس عند المخاوف ، والرابع الاستهانة باليسار والاقتدار على حمل
الكرامة ، والخامس إظهار الجور واجتناب اللهاة وترك العجب ، والسادس التوة على احتمال الآلام ،
والسابع استصغار مادون النهاية من معالي الأمور بالأفة برفع النفس عن الأمور الدنيئة وبالحمية وهي النضب
عند الإحساس بالنقص وبالغيرة وهي إظهار النضب فيما يخشى عاره ، والثامن أنفس الأخلاق وهو الفضل
الحقيقي ، والتاسع خلق شريف للأتبياء والأولياء ، والعاشر إظهار السرور بمن نكاه والإقبال على محادثته ،
والحادى عشر هو عبارة عن حزن مصحوب بمودة لمن أسابه الألم ، والثاني عشر هو ترك الإساءة لمن أساء
إلينا مع القدرة على المجازاة ، والثالث عشر هو الإقدام على الأخطار حيث يجب استصغار المصائب في سبيل
الشرف . فهذه فضائل القوة الغضبية .

(٤) الوقار . الصيانة . الانتظام . حسن السم . الحرية . الدماعة . الدعاء . الصبر . الورع . الحياء .
السخاء . التواضع . كتمان السر . التسامح . العفة .

فالأول حفظ النفس عن الحركات الزائدة والرزانة عند الأحوال الواردة ، الثاني تجنب ما يقيح من القول
والفعل للبئذلين كالسخرية والمزاح والأعمال الساقطة ، الثالث أن تكون للنفس حال بها تعرف كيف تفقد
الأمور على أحسن وجه ، الرابع أن تستكمل النفس بالزينة الحسية وللظهر للقبول كالسمت والوقار ، الخامس
أن يكون الكسب من جهة يشرف بها صاحبها كالكتابة والهندسة والطب ، السادس الدماعة أى سلامة
النفس ومطاعتها وسهولتها في الأمور الشريفة العالية ، السابع أن تثبت النفس عند مغالبة الشهوات وتسكن
إذا احتاجت أعاصير الذات ، الثامن أن تغلب النفس هواها إذا بدت بوادها ، التاسع أن يقصد الفعل الجميل
إذا غلبته الشهوات للقيح فكأن الصبر تلوه الدعاء يتبعها الورع ، فالأول للمغالبة ، والثاني للثبات ، والثالث
لحو القبيح والتزين بالجميل ، العاشر انكسار النفس خيفة إبان القبيح وترك التصبر في حق ذى الحق .
الحادى عشر أن يبذل المال من غير إفراط ولا تفريط بحيث يكون سجيبة للنفس ، الثاني عشر أن يتباعد
الإنسان عن المواقف الشائنة .

أما كتمان السر والقناعة والشفقة وهي (١٣ و ١٤ و ١٥) فهي ظاهرة ، ولنبه على أن القناعة الرضى بما سهل ، أما العفة فهي عن قبيح الشهوات .

فهذه ٤٦ نوعا من الفضائل للقوة العقلية والشهوية والنضبية التي غرست فينا لنحيا بها ، وهذه القوى مفروسة في الحيوان ، ولكن القوة العاقلة هي التي نمت في الإنسان ، والقوة النضبية تبدت في الآساد والنمور ، والقوة الشهوية ظهرت في الخنزير وسائر الأنعام وما أشبهها .

وهذه كلها معا غرست في الإنسان لحياته . الإنسان إذا اتسم بالوقار والصيانة والانتظام وحن السمات والتخيل والذكاء والحكمة والعقل والإحساس والفكر والشهامة والتجدة والشجاعة وأمثالها فإنه يرى في نفسه جنة عرضها الأخلاق الجميلة للذكورة وأمثالها وطولها راحة الضمير وسرور النفس ، ولا معنى للسعادة إلا ما أحس به الإنسان ولا فضل للمناظر التي لا تقتصها النفس فترتم فيها صورتها وتبتجج بمجالها .

الحيات والأعشاب والمحور والولدان لا لذة فيها ولا ثمرة إذا كانت النفوس عنها متقبضة والحواس غالبة ؛ فالناس لا يفرحون ولا يسرون إلا بما أحست نفوسهم وشمرت به قواهم وخزن في أشدتهم واطلعت عليه نفوسهم ، فهنا هو الذي به يفرحون ؛ فالمحبوب هو الذي شمرت به النفس مما يلائمها والمكروه ما شمرت به مما لا يلائمها ، والذي لا يلائمها هي الرذائل التي أشبهت القباب والحشرات الضارات والحيات والقاربان والآساد والنمور وسائر المؤذيات وهي اللطعات على الأثداء الحامئات حول القلوب للمؤلمات للنفوس للزريات بالشرف .

الأخلاق المذمومة

السفه . الرياء . النجاسة . التبذل . القدر . الحرق . الحق . الكذب . الجهل . الكبر . الحث . البلادة ، فهذه (١٢) خلقا مذموما من أخلاق القوة العاقلة ، والفرق بين الحرق والحق أن الأول الحركة عن غير حاجة وعدم التدبر في مزاولة الأعمال ، والثاني معرفة الصواب وترك العمل به (١) والدسر ويكون من صورة غير مأثوفة (٢) والحذر ويكون من شعور أمر مترقب واشتباؤه (٣) والفرق الميية من شيء عظيم يصف عن احتماله (٤) والحياء (٥) والحجل ، والأول جزع من صورة شيء قبيح قد فعله ، والثاني جزع من أن يعرف بشيء قبيح لم يفعله (٦) الكسل (٧) القدر (٨) الساد (٩) اللامعة (١٠) التعبير (١١) المزو (١٢) المزول (١٣) المراح (١٤) الفخر (١٥) المعجب (١٦) الزهو . فهذه (١٧) خلقا ناجمة عن القوة النضبية من الصفات للمذمومة والأفعال المرذولة والحرص والنجاسة .

وبطلان الشهوة والمجون وإنشاء السر والحيانة والبخل والشره والنمور ، فهذه سبع صفات مرذولة من آثار القوة الشهوية فهذه ٣٧ خصلة مذمومة .

فالبيد والسنه والرائ والتمام والقادر والأحمق والمعجب بنفسه والحجل وأمثالهم كل هؤلاء يحسون بنقص في أنفسهم وكراهة من الناس ، فتكون هذه ، أشبه بما نشاهد في العوالم من النقص المؤذية ، إنما هذه أنسى وأسوأ وقما وأشد فتكا بالإنسان من الأعداء الخارجيين ، فإن هذه حيات وعقارب وآساد وزناير تلدغ صاحبها في يقظته وفي نومه وتؤذيه صباح مساء .

فأكثر الناس يذبون في الدنيا وهم لا يملون أنهم معذبون ، ويهانون وهم لا يملون أنهم مهانون ، وتلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ولا يملون أنهم معذبون .

قد استبان لك في هذا اللقائم أن في النفوس مناظر سارة وأخرى مؤلفة ، كما أن في الآفاق مناظر مفرحة وأخرى مؤذية .

ذكر آيات قرآنية مطابقة لما تقدم مع تلخيص ماضى بحيث يجمع ما ذكرناه

وبه يستغنى اللبيب في علم الأخلاق

فنأمل أيها التلميذ فيما أوضحته في هذا القام من هيكل الإنسان ومجانب صورته وحسن نقشه وكيف كان مركبا من : أعضاء ، وحواس ، وأظفار ، وشعر ، وعظام ، ولحم ، ودم ، وشحم ، ومخ ، وعصب ، وشرايين ، وأوردة ، وطحال ، وقلب ، وكبد ، ومرارة ، وحليين ، ومعدة ، وأمعاء ؛ وله أبواب تبلغ ١٢ ورجلان ، ويدان ، وكيف كان هذا التركيب سهلة ما يلقه السكال ، وكيف كان آخر سلسلة وصل إليها الارتقاء من أدنى الحيوان إلى أعلاه ، وكيف مرت على هذه التظام الحيوانية وهو في الرحم فمر على القعدات والملايمات والحيوانات الفسرية والحيوانات الفقرية وانتهى إلى آخرها ، وكيف كان مفعول الأعضاء تفصيلا عجيبا ، وانسقت صورها اتساقا بهيجا فكانت مقبسة بشبهه حتى كانت العينان معا طول الأنف ، وهكذا شق النهم والشفتان وكان ما بين الأذنين طول القدم وهكذا من الجمال اللوسيقى ، وكيف كانت العائلة بين أطرافه وأطراف الحيوان من أنواع للعائلة التي هي من أنواع الجمال الظاهرة في تماثل أوراق الشجرة فيما تراه ، وكيف تشابه ذلك على السماء ، وكان هذا التشابه كاذبي جاء في الوحي من الآيات للتشابهات ، وكيف كان هيكل الألماني وأحزابه يتبعون ما تشابه منه ، وكيف جاء علماء القرن العشرين فأزالوا الشبهة وحلوا العقدة وقد ذكرنا منهم عشرين عالما وأبنا أن الجمال الباهر في هذه الطوائف يدعو إلى الإعجاب ، ثم كيف كانت الحياة الإنسانية مملوءة بالعجائب ، فشهورنا قد أعطيت آلات تستعين بها من الحواس وغيرها فبينا الحيات من الطيب في النبات والحيوان وسائر المخلوقات ، ثم نظرنا في أنفسنا قرأنا صناعات مختلفة في أعضائنا وخواصها وقد ذكرنا منها ٣٣ نوعا تضارع الصناعات للشاهدات في المدن ، ثم قفينا بذكر آثار القوى الثلاثة من المضائل والذائل كما كان في المشاهدات الخارجية .

التمسح والجميل

بهذه الصور نفهم قوله تعالى (ونفس وملسواها فألمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها) فالفجور والتقوى قد بانا في هذا القام ، وهذا نفهم (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) فلقد بان لك حسن تقويمه وبان لك كيف رد إلى أسفل سافلين بالأخلاق الرديئة ، وقوله تعالى (يا أيها النفس اللطمة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وقوله تعالى (ولا أقسم بالواحة التي أوحينا إليك أن لن نجعل عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) وقوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) وقوله تعالى (يل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) وقوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج (أخلاق)) نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفوراً) وقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

نداء المفسر للسليين ويان أن علم التوحيد هو نفس هذه العلوم من التشریح ووظائف الأعضاء أيها المفسرون كيف جاز لكم أن تاتلوا إلى الأرض وترضوا بالحياة الحيوانية وتبتعدوا عن نظام ربكم وعن جمال خالقكم وعن معرفة صنعه؟ كيف يقول لكم ما مناه : خلقنا الإنسان من نطفة فطفة لفضفة فنظام فلحم فإنسان سميع بصير؟ كيف يقول هذا لكم وأتم عن آياته معروضون؟

أفليس هذا هو علم التوحيد حرام وافق حرام أن تنفلوا عن هذه العلوم ؟ هذه العلوم واجبة على كل قدر

يقول الله (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) ويقول (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سوّاه وتفتح فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) .

فأين الشكر أيها المسلمون أين الشكر ولاشكر هنا إلا بالعلم فأين العلم ؟ العلماء هم الفرنجة . أما نحن فتصينا من الدنيا الجهل أبهذا جاء نبينا أبهذا نزل القرآن أينزل القرآن على أمة ويقول الرسول يوم القيامة (يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) أو ليس هذا هو المهجر .

يا أمة الإسلام ، يا علماء الإسلام ، يا ملوك الإسلام ، يا نوّاد الإسلام أمعنوا النظر فيما ذكرت وتفكروا فيما قررت، فوالله إنني لم تقوموا بايوم هذا الدين ليستخلفن الله في الأرض قوما خيرا منا (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) . وإلا فلماذا أنزل هذا الدين ، أنزله ليقراء الجاهلون ويعلمه الغافلون .

هذا ولقد آن أن يرجع مجد المسلمين وينصر الله به أما كانت غافلة ورجالا كانت في ملابس الجهالة رافلة (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) فاقروا علوم التشريع ووظائف الأعضاء وعلوم الطبيعة وخاتوا من الله أن تجهلوا هذه العلوم كما كان بعض من قبلنا يخافون أن يملوها . فهذا أوان الانقلاب وظهور الحقائق . لقد ظهرت الحقائق واستبان السبيل وبانت حجة الله على المسلمين فليقرءوا سائر العلوم لاسيا التشريع ووظائف الأعضاء .

هذا هو معنى قوله تعالى في هذه السورة (هو الذي بصوركم في الأرحام كيف يشاء لإله إلا هو العزيز الحكيم هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب) هذا تمام تفسير هذه الآيات .

ولما كان في هذه الآيات إشارة إلى أن الشهات قد تزيغ بها الأئمة ناسب أن يدعو العبد ربه أن لا يوقمه في الزيغ بعدها فقال تعالى (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف للعباد) .

القسم الثالث من سورة آل عمران

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْمَلِكُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّعْتَانِ، فَبِتَّةٍ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْيَتِيمِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ * زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَطَّرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ *

قُلْ أَوْثَقِكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ
 رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالْمُنْفِقِينَ
 وَالْمُسْتَفْزِرِينَ بِالْأَسْحَارِ * شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا
 بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَقِيًّا يَذَّكَّرُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ
 عَذَابَ اللَّهِ سَرِيعٌ الْحِسَابِ *

بجمل التفسير في هذه الآيات

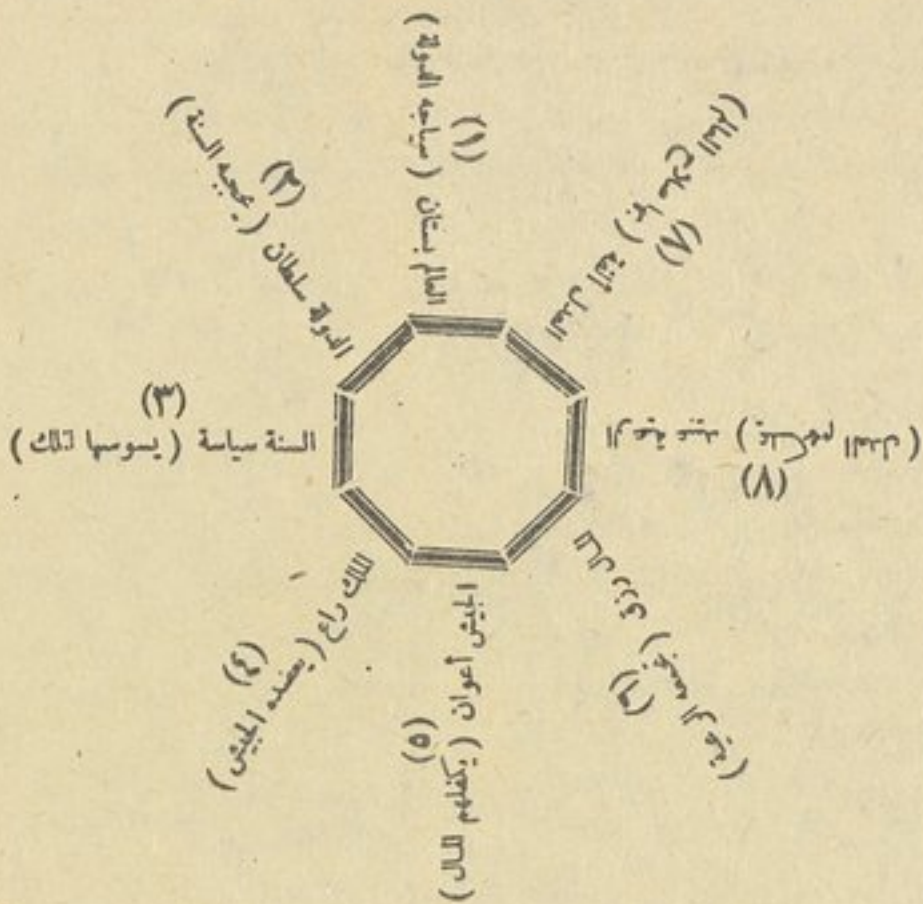
(إن الذين كفروا) من اليهود والنصارى ومشركي العرب (لن تنفع) لن تنفع، أولن تدفع (عنهم)
 أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) أي من عذاب الله شيئا، أو يقال إن من بمعنى عند أي عند الله شيئا (وأولئك
 هم وقود النار) حطبها. ألا وإن عادة هؤلاء الكفار من المعاصرين لك يا محمد وفطهم وحبهم في تكذيبك
 وجود الحق (كذاب آل فرعون) أي عادتهم وفطهم وصنيعهم، فإنهم كذبوا موسى وصدقوا فرعون (و)
 دأب (الذين من قبلهم) وهم كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود حال كونهم (كذبوا بآياتنا فأخذتم الله
 بذنوبهم والله شديد العقاب) زيادة تخويف للكفرة وتحويل وزجر. وقال ابن عباس وغيره: لما أصاب رسول
 الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا مشرك اليهود
 احذروا من الله مثل ما أنزل بقرئش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أني نبي مرسل
 نجدون ذلك في كتابكم، فقالوا يا محمد لا يبرئك أنك لفتيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة
 وإيا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس فأنزل الله عز وجل (قل) يا محمد (للذين كفروا) أي لليهود
 (ستلبون) أي ستهزمون (وتحشرون إلى جهنم وبئس للهاد) أي الفرائس، أي بئس ما مهدوه لأضيقهم
 أو بئس ما مهد لهم، وقد حقق الله ذلك فقتل المسلمون بني قريظة وأجلى عمر بن الخطاب بنى الضمير إلى الشام
 كما فتح النبي صلى الله عليه وسلم خيبر وضرب الجزية على طائفة من اليهود، وهذه الآية مثل من دلائل النبوة
 لأنه خبر قد تحقق فيما بعد (قد كان لكم آية) أيها اليهود (في فتنين القنات) يوم بدر (فتة تقاتل في سبيل الله)
 أي طاعته وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعين رجلا من
 المهاجرين وستة وثلاثين ومائتي رجل من الأنصار وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب وصاحب راية
 الأنصار سعد بن عباد وكان فيهم سبعون بيرا وفرسان وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف هذه
 فرقة مسلمة (وأخرى كافرة) أي وفرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا من
 لقائته وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبدشمس وكان فيهم مائة فرس وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول
 الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة (برونهم مثلهم) أي يرى الشركون للؤمنين مثل عدد الشركين فكأنهم
 كانوا يرونهم قريبا من أثنين، وقد قل الله عز وجل للمسلمين في أعين الشركين لما التقى الجمعان خيل لهم
 أن المسلمين ضعف عدد الشركين (رأى الذين) رؤية ظاهرة معاينة (والله يؤيد نصره من يشاء) نصره كما أيد

أهل بدر (إن في ذلك) التقليل أو لا والنكثير ثانياً وغلبة القليل عديم المدّة على الكثير شاكي السلاح
 (ليرة لأولى الأبرار) أي لمظة لدوى البصار. وأصل العبرة من العبور كأنه طريق يعبرونه فيوصلهم إلى
 مرادهم، وهؤلاء يعبرون من منزلة الجهل إلى منزلة العلم (زين للناس حب الشهوات) أي زين الله للناس حب
 الشهوات. والشهوة توقان النفس إلى الشيء المشهى، وإنما زينها الله لأنها من أسباب التعيش وبقاء النوع (من
 النساء والبنين) بدأ بالنساء لأن الحب لمن شديد أودعه الله في قلوب الرجال وفي قلوبهنّ للحكمة البالغة وهي
 بقاء النوع ولولا تلك المحبة البالغة بينهما ما كان ذلك؛ وخص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من
 حب الأنثى لأن الأب يتكثربه وهو يعضده ويقوم مقامه (والفناطير القنطرة من الذهب والفضة) القنطار للال
 الكثير هذا هو أصل المعنى، فإذا قيل إنه مائة ألف دينار أو ملّ جلد نور أو ألف أوقية أو ألب ومائتا مثقال
 فذلك يرجع إلى اصطلاحات الناس التي نقلت عن السلف وكلّ قال ما سمعه مما وقع عليه اختيار قوم، ويقال قنطرتة
 إذا أحكته ومنه القنطرة أي المسكة الطاق والقنطرة المجموعة، وصح أن تكون للتأكيد كقولهم بدرة
 مبدرة (والخيل السومة) من السمة وهي العلامة فهي مملعة بالفترة والتججيل أو بالسكى، ويقال أيضاً سومت
 الدابة وأسمتها إذا أرسلتها للرعى، والقصود أنها إذا رعت زاد حسنها (والأنعام) جمع نعم وهي الإبل والبقر
 والغنم (والحرث) الزرع (ذلك) للذكور من هذه الأصناف (متاع الحياة الدنيا) أي الذي يستمتع به فيها
 وهي زائلة (وأنه عنده حسن السآب) للرجح، وهذا تحريض على استبدال ما عند الله من اللذات الحقيقية
 الأبدية بالشهوات العانية (قل أؤنبشكم بخير من ذلكم) أي أؤخبركم بخير مما ذكر من متاع الدنيا (للذين
 اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) هذا مستأنف لبيان ما هو خير (وأزواج مطهرة)
 مما يستقدر من النساء (ورضوان من الله) عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 قال «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة هل رضىتم؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من
 خلقك، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون وأى شيء أفضل ذلك؟ فيقول أحلّ عليكم رضوانى
 فلا أسخط عليكم بعده أبداً» ثم إن العبد إذا علم أن الله رضى عنه كان ذلك سروراً له لا يعادله سرور (وأنه
 بصير بالعباد) أى بأعمالهم فيصيب المحسن ويعاقب السيء ويمتري قريباً سر ترتيب هذه العم وإن أدناها لذات
 الدنيا وأوسطها الجنة وأعلىها رضوان الله بالنزء عن العالم لادى «في مقعد صدق عند مليك مقتدر» وكما قدمناه
 في سورة البقرة عند قوله تعالى «وأتوا به متشابهاً» فراجع هناك؛ ثم وصف للثقلين فقال (الذين يقولون
 ربنا إنا آمننا فاعفّر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) والفران ستر الذنوب والتجاوز عنها (الصابرين) على أداء
 الواجبات وعن المحرمات والنهيات وفي البأساء والضراء وحين البأس كما تقدم في البقرة وعلى ما أصابهم في دنياهم
 من البلاء (والصادقين) في إيمانهم صدقت نياتهم واستقامت ألسنتهم وقلوبهم في السر والعلانية فلا يكذبون
 في أقوالهم ولا ينصرفون عن أعمالهم حتى يتمونها ولا عن نياتهم وعزمهم على العمل حتى يبلغوه (والقاتلين)
 للظالمين قد للواظنين على فعل الطاعات (واللغنين) أموالهم على أنفسهم وأهلهم وأقربهم وأرحامهم وفي الزكاة
 وجميع القربات (والستغفرين بالأسحار) الاستغفار طلب للفرقة، والسحر هو ما قيل الفجر من الليل وخص
 بالذكر لأن الدعاء فيه أقرب إلى الإجابة والعبادة أشق والنفس أسنى والروع أجمع والاجتهاد أجمع. روى
 مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث
 الليل الأخير فيقول أنا لللك أنا لللك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر
 له» ومعنى هذا اللطف والرافقة والقرب من الله فلا زول ولا طلوع، وروى أن لقمان قال لابنه: يا بني لا تكن
 أمحز من الديك فإنه يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك، وقال نافع: كان ابن عمر يقول يا نافع أسحرنا؟

فأقول لا فيعود الصلاة فإذا قلت نعم فقد يستغفر ويدعو حتى يصلى الصبح (شهد الله أنه لا إله إلا هو) بين وحدانيته بما نصب من الدلائل التي أبدعها في السموات والأرض وقد شرحناها عند قوله تعالى «إن في خلق السموات والأرض» في سورة البقرة (ولللائكة) لأنهم أقرب إلى علم العجائب الكونية (وأولوا العلم) الناظرون في ملكوت السموات والأرض من بني آدم الذين في هذه الأرض من الأنبياء والحكماء والعلماء وهؤلاء أقرب إلى اللائكة فيعلمون أن الله لا إله إلا هو حال كونه (قائما بالقسط) أي بالعدل والنظام الذي تقدم في أول هذه السورة وفي سورة البقرة عند آية «إن في خلق السموات والأرض» وغيرها فراجعها هناك نجد عجبا عجبا (لا إله إلا هو) كرهه التأكيد (العزير) الغالب الذي لا يقهر (الحكيم) في أفعاله، ثم يدل من أنه لا إله إلا هو (إن الدين عند الله الإسلام) بفتح الهمزة على قراءة الكسائي فكأنه تعالى يقول شهد الله ولللائكة وأولوا العلم أنه لا إله إلا هو حال كونه قائما بالقسط وشهدوا أيضا أن الدين عند الله الإسلام والدين هو في الأصل الاتقياد، ثم جعل اسما لجميع ما تعبد الله به عباده، وأمرهم بالإقامة عليه، والإسلام هو الاستسلام والانتقاد والدخول في الطاعة أو هو الترعبع للبعوث به الرسل المبني على التوحيد الذي أتى به آدم والأنبياء بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين» فأصل الدين واحد، والاختلاف في القروع وقرى بكسر إن على الاستتاف جملة مؤكدة للأولى (وما اختلف الذين أتوا الكتاب) من اليهود والنصارى في أمر موسى وعيسى وأمر محمد صلى الله عليه وسلم فقالت اليهود عزيز ابن الله وثالث النصارى وكذب قوم من القرنيين محمدا صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل القرآن، ما فعلوا ذلك (إلا من بعد ما جاءهم العلم) أي بعد ما علموا حقيقة الأمر (بنيا بينهم) حسدا بينهم وطلباً للرياسة (ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) وعيد وتهديد لمن أصر على الكفر من اليهود والنصارى اه التفسير العام للقسم الثالث من سورة آل عمران. تفصيل الكلام على ما تقدم في هذا القسم بيان لل مراتب الثلاثة للإنسان، وهي الشهوات والأعمال الفاضلة والعلوم وأنها درجات بعضها فوق بعض، وتبيان القيام بالقسط وأن هذا هو دين الإسلام وأنه صفة الله.

الحكمة في خلق الشهوات وأنها وسيلة لغيرها

اعلم أن الله عز وجل أودع الشهوات في الحيوان والإنسان رحمة منه وفضلا وعدلا ونظما للبرية وإبداعا وحكمة، فمن شهوة الغذاء إلى اللبس إلى التناسل إلى الساكن إلى عمارة المدن ونظام الأمم وقيام العمران، فلا أم ولا دول ولا ممالك ولا حرث ولا نسل ولا أنبياء ولا حكماء إذا لم تكن شهوات. فالشبهوات من أكبر نعم الله وأعظمها بل هي أول نعم الله على عباده، وهل كانت حكومات الأرض مقسمة إلى أقسام من زراعة وإدارة وهندسة وطب ومحاكم إلا لما تطلبه الشهوات والبقاء في هذه الحياة. يقال إن أرسطاطاليس أوصى أن يدفن ويبنى عليه بيت مشتمن يكتب في جهاته ثمان كلمات جامعات لجميع الأمور التي بها مصلحة الناس وتلك الكلمات الثمان هي على هذا المثال.



فهذه الشهوات وما يبغي إليها من اللال وسائل للسكال الجسمي والعقلي، فمن وقف عندها أذك فأصبح عقله موقوفاً وقلبه محبوساً ونفسه جازعة وحياته نائمة .

لقد رأيت ما جاء في القرآن وأن الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والزرع والحيل والأتمام قد زينها الله للناس ، ورأيت الشكل للثمن الذي رسمه أرسطاطاليس ، فأعلم أن ذلك متاع الحياة الدنيا وأنه مقدمة وللمقدمة غير مقصودة لتأنيهاً فهذه وإن زينها الله وطلبها الملك ما كانت حاجتنا إليها إلا كحاجة الصياد للشبكة والحارث للحرث والتليذ للوح ، ولو أن الصائد جعل الشبكة مقصودة لتأنيهاً في الحياة والصبي جعل اللوح غاية للثي لكان الصيد ضلالاً والعيش وبالا ، ذلك مركزوز في الفطر معلوم في السير درج عليه البشر . اشترك فيه العالم والجاهل والملك والصلوك ، فلا ترى عزيزاً إلا وهو يقول أف من الحياة ولا ذليلاً إلا وهو يقول أين الجاه ، ولا موسراً إلا وهو مفتون في مناه يائس فيما ابتغاه ، فالناس كلهم أجمعوا على التبرم والتضجر والاشتمزاز في كثير من الساعات ، على ذلك درجوا ، ولذلك خلقوا « وتمت كلمة ربك » على الإنسان والحيوان ، فهم في العذاب المون وإن كانوا لا يشعرون أنهم معذبون . أليس من العجب أن تكون النعمة بالشهوات قسمة والاعطاء سلباً فإن المخرج إذن؟ قل أبو الطيب للتني :

كل من في الكون يشكو دهره ليت شمرى هذه الدنيا لمن

الشهوات شبكات نصبها الله للناس ليحبوا بها ، ولكتمهم إذا وقعوا فيها تبرموا من المصائب . ظهر ذلك في كتبهم ونقلهم شعراؤهم وأوجاه الله إلى أنبيائهم . ولقد أطلب في احتقار الحياة ونعيمها ومنفتها النبي سليمان عليه السلام في التوراة

في مقال هناك تحت عنوان (الجامعة) فقال : هكذا باطل الأباطيل وأخذ يشرح الحياة ويذمها ويقول : لا خير في اللال ولا الولد ولا اللذات ولا العلم ، ويقول : ماتحت الشمس من جديد ؟ ومن هذه الحكمة : ما الفائدة للإنسان من كل تعب الذي يتعبه تحت الشمس ، دور يمضي ودور يجيء ، والأرض قائمة إلى الأبد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق ، وقال : ما كان فهو يكون والذي صنع فهو الذي يصنع فليس تحت الشمس من جديد إن وجد شيء يقال عنه انظر هذا جديد فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلها ليس ذكرا للأولين ، والآخرين أيضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم ، ومنه : رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا السكل باطل وقبض الريح ، وقال : إن في كثرة الحكمة كثرة النعم والذي يزيد علما يزيد حزنا (يقول مؤلف هذا الكتاب) لقد قلت في هذا المعنى في واقعة حال شعرا :

يقولون إن العلم لهم دافع فكيف رأيت العلم أجمع لهم
ألم تر أي ضاع مني مؤلف لطيف فلم أصبر على ذلك النرم
لأنى قد رصعت بين سطوره درارى حتى لا يشذ عن الفهم
قضاء قضاء الله في عالم الدنيا فرارا من الآساد تفرق في اليم

عمر الحيام بعد النبي سليمان عليه السلام

وقفي على آثاره عمر الحيام في منظومته السماة بالرباعيات التي لم تسكن معلومة عند المسلمين وكانت بالفارسية ولم تظهر في العالم ولم تترجم إلا في هذه الأيام فقد ترجمت إلى الإنجليزية ومنها إلى العربية وسار ذكر الرباعيات في الأقطار في أوروبا وفي أمريكا حتى إن هناك اثني عشر مرسعا لتمثيل رباعيات الحيام وكلها أوجلتها لاحتراف الحياة والتماس المخرج منها بالحجر أو ما شاكله .

ثم قفي على آثاره أبو العلاء المرى الذي حقر للال والولد والحياة وكل شيء في الوجود حتى زعم أن أباه جنى عليه وهو لا يحنى على أحد .

هذه هي الصورة الإنسانية شهوات محبوبة حياة مملولة وكل يطلب منها مخرجا وله في المخرج رأى على قدر عمله

مخرج الجهلاء وبعض النابغين من سجن الحياة

فأما أهل الدعارة والجهالة والفسوق وبعض المتأزمين في العلم ، فإنهم يقولون نحن نشرب بنت الحان ، ونسمع الألحان وتنازل الحسان وهكذا إلى آخر الزمان ، ويقولون إنما الحياة لعب ولهو فإذا أحسننا بسجنها شربنا الرحيق المختوم فزالت عنا المصوم ، ومنهم من تعاطى الحشيش والأفيون ، ومنهم من يحقن الجلد بالمادة للسماة (كلوروفرم) وهي خلاصة الحجر ، ومنهم من يشم مادة تسمى الكوكابين ، ذلك مخرج الجاهلين يخرجون من سجن الحياة إلى سجن المات ، ويغفرون من جهنم إلى الجحيم ، ومن العذاب إلى العذاب أولئك هم السائلون الجاهلون ، ولذلك عرفت الأمة الأمريكية نكبات تلك المهدرات وللسكرات فمنعها كما جاء في القرآن وأيقنت أن ظلها لاهو ظليل ولا ينفى من الالهب .

مخرج العقلاء والعباد والعلماء

أما العقلاء فإنهم يقضون أوقاتهم إما في عمل نافع وإما في عبادة وإما في علم فلا يحسون بألم الحياة ، فالعاملون تفر أعينهم بأعمالهم والماجدون والطاء المجدون كل تنبذ هموم الحياة عنه لأنه شغل نفسه بما يدفع الآلام ويزيل الظلام ويحيي النفوس وينقي البؤس ، فالفس في التمثيل كالإمام إن لم تملأه ماء ملاء الهواء .

المخرج الذي قصه الله في القرآن

أما القرآن فكان الله يقول فيه أما الذي زينت لكم الشهوات فلا تتركوها ولا تأخذوها إلا بقدر لاحتها

يقول أبو العلاء المرعي وعمر الحيام ولا كما جاء في التوراة عن سليمان عليه السلام ، فأنا لأزيرن عبثا ولا أعطى سهيلا فسطائي بحكمة ومنعى بلم فابنوا دنياكم وأقيموا أمر الحياة واجعلوها سلما لما هو أرقى (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الحساب) .

وأما وإن زيتها لكم فتزيين لها إلى حين ، وعندى ما هو أرقى مقاما ، وأرفع شأننا من حياة أعدتها وجنات هيأتها، ألا ترون أنى أصيبكم في الدنيا بمصائب وأمطر عليكم من همومها سحاب ، وأوقعكم في التاعب؟ فلا للمال ينفعكم ولا الولد يرفعكم ولا الأزواج باقية ولا الثروة مغنية ، فإن نجا أحدكم من المرض والفقر أبلغته سن الشيخوخة فيحرم من المال وهو يملكه ويتمتع بنوه وهو لا يدركه ، ويتمنى موته أقرب الناس إليه ، ويضرح لمصابه كل عزيز عليه فعينه في جنة وقلبه في نار فأين الفرار أين الفرار ؟ .

لامفرّ إلا بالعبادات والعلوم

ذكر الله الجنة فقال (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) الآيات فذكر الجنات والأنهار ثم أتبعها بالرضوان ، وهاتان مرتبتان ذكرتهما في سورة البقرة عند قوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) فارجع إليه هناك تجد مرتبة العباد ومرتبة العلماء والحكماء والأنبياء وإن رضوان الله هنا ، وقوله في آية أخرى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وأمثال ذلك لأعلى المراتب ، وقد تبين هناك أنك تعرف في هذه الدنيا نفسك أمن الطبقة العليا أنت أم من الأدنىين كل ذلك هناك فلا نعيده كما شرطنا في أول الكتاب وهذه الجنة ودرجاتها بعد الموت ولكن الصبر المذكور هنا والصدق والقنوت والافتقار والاستغفار بالسحر كل ذلك في هذه الحياة فيه بعض المخرج من سجن الحياة وهو خير لا ما يجنيه الغافلون على أنفسهم من الحر وشربه والحشيش وتدخينه والكوكابين وشبهه إنما ذلك كله انتحار والانتحار من أقطع المار وأخزى الشار .

أما العلوم

فقد ذكرها بعد ذلك في قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) فالجنة ذكر فيها الأرواح والأنهار .

وأما ما هو أرقى من الجنة فرضوان الله ، وذلك مقام يشهده للملائكة وهو مقام القرب من الله مقام الكشف والشاهدة والإحاطة بالوجود والعلم بالكائنات ، فذلك مقام الأنبياء والملائكة والحكماء والعلماء ، فأنه قد عطف على نفسه للملائكة ، وفتى على آثارهم بالعلماء ذلك مقام الصدق ومشهد الحق ورضوان من الله أكبر ، فالعباد في مقام للتقين والعلماء والحكماء الناظرون في هذا العالم في مقام الواصلين للتقريب .

لطيفتان : الأولى صلاتي عند النهر

كنت منذ عشرات السنين مدرسا للغة العربية بالجيزة ، فاعتزاني يوما قبض وأما خارج البلدة على نهر فتوضأت وأتمت الصلاة على شاطئه واستحضرت أركان الصلاة ، فانتسرح صدرى انتسراحا عظيما . فهذا أول ما علمت أن في الإنسان قوى خفية لا نستخرج إلا بالعمل كالكهرباء لا يشيرها إلا معالجة تظهرها وحك يبرزها .

اللطفية الثانية : ثغاء النعجة

كنت منذ ليل وأنا بصدد تأليف هذا التفسير في الليل على شاطئ النيل غربي القاهرة والنسيم عليل والهواء طلق جميل ومحا السماء باسم التنور ناضر بالنجوم ، وبيننا أنا ناظر إليها معول في التفكير عليها إذ سمعت نعجة في سفينة (ذهبية) لها ثغاء وأصحاب السفينة يظنون خطر بنفسى أنها مسجونة وهم مطلقون باكية وهم فرحون ، ولكن سرعان ما ذهب هذا الهاجس وحل محله ما هو أوسع نطاقا وأوضح إشراقا . ذلك أن كل حيوان وإنسان في سجن الحياة والشهوات، أليس أهل الأرض محوسين فيها فلا يستطيعون عنها حولا إلى

للريح ولا مخرجا إلى الثريا؟ وما من امرئ إلا وحانت منه الفتاة يوما إلى السماء ، فقال ياليت شعري أى نعيم هناك وأى سعادة إذ ذاك ؟ .

ذلك محبهم العمومي ومقامهم الكلى ، ولكل من أهل الأرض مقام فى سجنه فمنهم من سجن فى وطنه فلا يتعداه ولا يرى سواه ، ومنهم من سجن فى زوجه أو ولده أو دينه أو شهوة ملازمة أو عداوة دائمة أو عقيدة راسخة فنعمه العلم والحكمة ، ومنهم من أعجب بملابسه أو فرح بديانته أو اتخر بعلم من العلوم أو أعجب بعبادة خاصة أو لازم مكانا لجماله وحسن بنيانه «والجنون فنون» فكل يحمل على شاكلته وكل موثق بسارته فهم فى السجن مشتركون وفى الوناق معلقون وكل حزب بما لديهم فرحون، كل شاة برجلها معلقة وكل فتاة بأبيها معجبة (إن الإنسان لنى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات - قتل الإنسان ما كفرة - إنه كان ظلوما جهولا) فإذا حبس القوم العجبة وهى صارخة ، فإنهم فى عاداتهم وأخلاقهم وأحوالهم محبوسون ، فإذا زين الله السموات للناس من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحيل والأنعام والحرب فكأنه يقول: أى عبادى لقد حبستكم جميعا فى الأرض فليست عنها تبرحون ، ووضعت كلا فى سجن يخصه فلا يجد عنه حولا، لقد حبستكم فى أوطانكم وخالفت بينكم فى الأخلاق والأحوال والعادات والديانات واللذاهب والآراء والألوان والمشار والأوطان والبيئات وفصلت بينكم بالبحار والجبال وألقت بينكم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كل ذلك لحياتكم ورفيقكم وإكمال أحوالكم فتحنو الوالدة على ولدها والوالد يريه وينفق عليه بما زينت فى أفئدتها من حبه ووضعت فى غريزتهما من رحمته ويطعم الرجل خيله وإبله وبقرة وغنمه ومحرم الحرم كله على زرعه وذلك كله لما ركزت فى قلوبكم من حب التزين بها والحرس عليها رحمة بكم وسها ونعمة عليكم وعليها ؛ أى عبادى ألقت بينكم العداوة لتستثمروها فى حياتكم فهى صهاز يدفعكم إلى الارتقاء وإحكام السلاح ورفق الصناعة وإقامة العدل فى ممالككم ، فبالعدل فيما بينكم تنوون على عدوكم وهو يقوى ، وبهذه تزدان الحياة بكا ، ومن قصرت خطاه وضل مسعاه دخل تحت نير عدوه كما أبعث للحيوان أن يأكل النبات ، وللإنسان أن يأكل الحيوان وأوجب على الآساد والنور والصفور والشواهين أن لا تنذى إلا باللحمين ولا تزدرد ما تحتاجه إلا من الحيوان. هذا هو مبدأ الوجود وغايته وأوله وآخره .

ولما كان الإنسان أعلى الحيوان مقاما وأرقاه نظاما ألهمته أن يفكر بعقله وينظر فى مستقبله بما ألهمته أنبياءه وعلت حكاه من السير الشريفة ، والآراء اللطيفة ، والعقول البية ؛ والنفوس المضيئة العلية فأزلت عليهم قوانين وعلتهم منها أفانين فأبرزت بها مكنون الإنسان وعلته التوراة والإنجيل والقرآن وقلت فكروا فيما حولكم وانظروا فيما حولتكم وتحموا عن المادة وقوموا من الليل قليلا واستغفروا طويلا وأثيروا ما فى نفوسكم من الحكمة بالصبر والحلم وجمال الحلال فأنفقوا الليل وقوموا بالأسفار وانظروا باعبادى ألت عادلا فما صنعت مقسطا فيما نظرت . أى عبادى ، انظروا هذا النظام وفكروا فيه إنى بالين والشدة أريكم، أريكم بما تكرهون وما تحبون لتستيقظ النفوس وترقى العقول .

أما أنا فإنى أعلم حسن النظام والقيام بالقسط كذلك للملائكة لأنهم عن المادة مجردون ثم العلماء والحكاه منكم الذين هم مذكورون فى آية (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود (شديدة السواد) ومن الناس الدواب والأعنام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء) هؤلاء هم العلماء الذين ينظرون فى جمال هذا العالم وإحكامه ، وهؤلاء هم الذين صبغوا صبغة الله «ومن أحسن من الله صبغة» تلك الصبغة العدل والقيام بالقسط التى شهد بها الله للملائكة وتلك الصبغة هى دين الإسلام المذكور بدلا من أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط، فجعلت دين الإسلام هو للتعلم من وحدة النظام والقيام بالقسط ذلك هو دين الإسلام ، دين الإسلام هو الدين العالم؛ ولا يظن للسلم أن النطق بالشهادتين والأعمال الظاهرة كافية إنما يراد أن يكون هناك نظام عام وعلم بما أبدع الله

في الأرض والسماء وتكون الأمة قد تفلت فيها العلم بالقيام بالقسط والعدل في هذا الوجود فتكون الأمة أرقى الأمم بأن تفلت في العلوم وتزدان بها ويسمى العدل ربوعها، فتكون علوم الطبيعة وعلوم الفلك والنظام العام معروفة عند الخاصة على أنها دين، ويقوم القضاء بالعدل والحكام بالقسط وجميع العائلات ليستب فيها النظام اتباعا لرهبهم وقاما بالقسط كبدهم، ذلك هو دين الإسلام.

واعلم أن هذا القول قد شرحناه مرارا في البقرة وهكذا في القسم الثاني في هذه السورة وأطنا فيه بما لا مزيد عليه ولكن لأذكر هنا من حسن النظام ما لم يرد فيها مضي تذكرة للقيام بالقسط والعدل في العالم للشاهد.

نظام النبات بالمواد الداخلة فيه

فلتعلم أيها القاري أن الماء مركب من مادتين إحداهما محرقة تسمى الأكسجين والأخرى إذا وضع فيها حيوان يموت وتسمى الأودروجين هذا هو تركيب الماء كما قدمناه، والهواء مركب من الأكسجين للتقدم ومن مادة تسمى الأوزون، وفيه كربون نبي مادة خفية، والأوزون المذكور يسمى أيضا نيتروجين، ثم الكبريت وهو معروف والفسفور وهو مادة تارية تلتب في الماء، والبوتاسيوم والقصبيوم والكلسيوم والحديد فهذه عشرة كاملة لا بد من دخولها في النباتات ولا يقوم نبات إلا بها وإن نقص واحد منها لا يعيش النبات. واعلم أن العناصر المعروفة تربو على السبعين، والنبات لا يأخذ من الأرض والهواء ماعدا هذه فليس يعوزه الذهب والقصدير والنحاس والفضة والزنك، وربما دخل بعض هذه في النبات بقلة كالنحاس والحارصين، ولكن العشرة للقدم لا يستغنى عنها أي نبات في الأرض.

أفلا تعجب كيف أعطى النبات قوة أن يمتص من الهواء ومن الماء ومن التراب ما يقوم به ويتغذى، ثم يكون ذلك داخلا في تركيب بنيتنا وبنية الحيوان؟

أهم أجزاء النبات أربعة وهي التي يقوم عليها حياته وحياة الحيوان، وهذه الأربعة هي: الأكسجين والأودروجين والأوزون والكربون. هذه الأربعة يكون بعضها في الماء وبعضها في الهواء، وهذه الأربعة أهم ما تقوم عليه أجسامنا.

وهناك جدولا يعرفك بعض النظام بأدنى تأمل:

أنواع النبات	ماء	مقدار المادة الجارة	الجزء القابل للاحتراق	رماد
القمح (حبوب)	١٤, ٣	٨٥, ٧	٧٦, ٥	٩, ٢
الشعير	١٤, ٣	٨٥, ٧	٧٢, ٧	١٣, ٠
الشوفان	١٤, ٣	٨٥, ٧	٧٥, ٧	١٠, ٠
القول	١٥, ٠	٨٥, ٠	٧٩, ٥	٥, ٥
بزر اللفت	١١, ٨	٨٨, ٢	٨٤, ٣	٣, ٩
التفاح	٨٤, ٨	١٥, ٢	١٤, ٨	٠, ٤
جذر الجزر	٨٥, ٠	١٥, ٠	١٤, ١	٠, ٩
درنات البطاطس	٧٥, ٠	٢٥, ٠	٢٤, ١	٠, ٩
الحشائش وهي خضراء	٨٠, ٠	٢٠, ٠	١٨, ٠	٢, ٠
البرسيم	٨٦, ١١	١٣, ٨٩	١٢, ٢٣	١, ٦٧
ساق البطاطس وورق	٨٥, ٠	١٥, ٠	١٣, ٤	١, ٦

(١) إذا قُلت نباتا من هذه اللذكورات ووضعت في فرن محمي إلى درجة فوق درجة غليان الماء قليلا كأن تكون الدرجة ١٠٥ إلى ١١٠ فإنك ترى النبات يفقد شيئا من وزنه بما خرج منه من الماء ، ومتى استمرت على ذلك بضع ساعات خرج الماء منه كله ولم يبق من النبات إلا مادته الجامدة ، وهذه للمادة الباقية الجافة إذا أحرقت تركت وراءها مقدارا قليلا من رماد لا يقبل الاحتراق لونه أبيض أو ضارب إلى الصفرة ، وهذا الرماد امتصه النبات بحدوره من الأرض وهو عبارة عن مواد معدنية ، فانظر الجدول وخذ القمح والتفاح مثلا ، فإن حب القمح لما وضع في الفرن ظهر أن الماء الذي كان فيه ١٤,٣ من مائة جزء منه والباقي وهو ٨٥,٧ مادة جافة يابسة، فإذا أحرقناه ذهب منه ٧٦,٥ والباقي وهو ٩,٢ رماد ، والتفاح لما وضع في الفرن ذهب منه ٨٤,٨ من المائة والباقي ١٥,٢ من المائة يذهب منه للاحتراق ١٤,٨ من المائة ، والباقي وهو الرماد ٠,٤ ؛ فالتفاح وضعت فيه قوة الحياة التي امتصت من الهواء ومن الماء الكربون والأوكسجين والأودروجين والأوزون فكانت هذه الأربعة التي يطير أكثرها نحو تسعة أعشاره والباقي من مواد عضوية في الأرض أو من عناصره وكان هذا التركيب مكوّنا لصورة التفاح ، ولو أن التفاح عكس القضية فأخذ ماء أقل من ذلك كالقمح ومادة جامدة أكثر فكانت ٥٨,٧ من المائة مثلا لم يكن تفاحا بل كان قححا . فهذه النباتات وضعت فيها القوة العالية الشريفة ، فاختارت ما يصلح لها واسطفت للقادر المناسبة لها فكانت هذه قححا وهذه تفاحا ، ومتى اختلفت للقادر تغير النبات فهنا نظامان : (١) نظام جميع النباتات فقد حرم عليها أن تعيش بغير العشرة المتقدمة ومنعت من الحياة بالسنتين الباقية من العناصر وتبعها في ذلك الحيوان فلا يعيش إلا بهذه العشرة غالبا كالنبات (٢) نظام كل نبات أنه يأخذ بقدر من تلك العشرة يخالف الآخر فيها ليقوم بقسطه في خدمة الإنسان والحيوان ، فترى القول تناول ١٥ من المائة في تركيبه ماء وخمسة ونصفا مواد معدنية صارت رمادا قد امتصتها جذوره من الأرض والباقي مواد عضوية أخذها بمرورته وورقه من الأرض والهواء .
 لو غير القول هذا النظام بأن تعاطى ٨٦,١١ من المائة في تركيبه ماء والباقي أخذه من الهواء والأرض لم يكن فولا بل يصير برسبا على شريطة أن تكون النسبة على مقتضى ما يناسب البرسيم كما رأيت عند آية الطير وإبراهيم في البقرة ، فانظر للعدل في التركيب أمر كل نبات أن يعاطى ما يعطيه قوة خاصة به بأن يكون حلوا أو نشويا أو دهنيا وهي أصناف وأصناف لا تحصر ، ولكن اختلاف العناصر هو الذي أحدث هذا الإبداع والجمال والرزق (شهد الله أنه لا إله إلا هو ولللائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

طعامنا

إن طعامنا مكوّن مما تتكوّن منه النبات والحيوان؛ فهو: (١) مواد دهنية كالسمن والزيت ودهن الحيوان (٢) ومواد نشوية كالحب والأرز والبطاطس (٣) ومواد زلالية أو أزوتية مثل اللحم والبيض والسك (٤) أملاح غير عضوية ككلح الطعام وأملاح الجير والفوسفور ؛ فالتفاح يخزن في السكبد هبة أخرى والدهن يخزن تحت الجلد وحول القلب وحول الكليتين وحول الأمعاء في البطن ، والمواد الزلالية يمتصها الجسم فتعوض ما فقده والباقي يفرزه الجسم بالكلى ونحوها .

فانظر كيف حوّل الهواء والماء مثلا في النبات إلى مواد صارت في أجسامنا لحمًا وشحما وعروقا ، فذلك من القيام بالقسط والنظام التام ، ذلك هو اللؤلؤ الذي اصطفيناه لهذه الآيات .

جمال القيام بالقسط

قد أوردت لك في هذا اللقام مسائل عليّة وفوائد نباتية وعناصر تحليلية فرمما كانت أقرب إلى الترس منها إلى الفكاهة والأنس فلا سمعك من القيام بالقسط فولًا وجيلا ولأرك نورا ساطعا ونجما طالعا وهدرا كاملا وانسا شاملا .

أيها الذي قد علمت أن كل دين نزل من السماء هو دين الإسلام ، فالشرايع الفرعية والطاعة العامة والإقرار بالتوحيد كل ذلك مقتضى تلك الشرايع ، والله يشهد بذلك التوحيد وإنه قائم بالقسط مدبر بالعدل ولللائكة يشهدون بذلك التدبير والأنبياء والحكماء شهداء على ذلك .

ولما كنت أيها اللطيف على هذا التفسير الناشق له للفرح بما حتمت عليه من العناء وهم المعطوفون على الللائكة فلتبشر بالسعادة النفسية والراحة لللكية والعلوم الإشرافية لأنك اليوم تشهد حسن النظام والقيام بالتدبير خير قيام ، بذلك ترقى نفسك ويعظم نعمك ويشرق عقلك ويسطع نورك لأنك بعد الللائكة في اللقيام مقام الاطلاع على حسن النظام . لقد شهدت نظام النبات والحيوان والقيام في هذا التفسير يقول عطاؤنا : لا يعرف معنى القيام بالقسط ولا معنى الليزان للذكور في سورة الرحمن (ووضع الليزان) إلا من درس العلوم كلها ، ولقد اصطفت لك في هذا التفسير أجملها واخترت منها أكملها وبينت أيهاها نورا وأحسنها منظرا وأنضرها إشرافا وأحلاها مذاقا وسهلت بتوفيق الله لك سبلها وذلت طرقها وأبنت مسالكها وأعطيت لك مقاليدها لتفتح بمالكها ، فلا ذكر لك الآن زهرة من حديقتها ودرة من صدقتها وأرك طرفة من طرائفها وغرة من جبينها ونورا من شمسه وكوكبا من فلسكها ، وعجيبية من محاسنها ، لينشرح صدرك ، ويتم أنسك ليتبجح نفسك فأقول :

(١) قيامه تعالى بالقسط في اللادة من حيث حجمها

إن الإنسان إذا فكر في أمر اللادة لم يرها أقرب إلى حالة من غيرها بل كل الأحوال لها على حد سواء هكذا جاءت في الواقع على مثال ما في نفوسنا ؛ ويانه أنها تكون صلبة قاسية كاللحديد والحجر الأملس وأقل من ذلك كاللحشب وأقل من ذلك كالورق والأغصان اللخضر وأقل من ذلك كالصبيان واللطين وأقل من ذلك كلللاء ثم الهواء ثم اللادة الأثيرة . فانظر كيف تقلبت للادة في هذه الأشكال كما تخيلت عقولنا وأدركته نفوسنا ، وهذا من القيام بالقسط وهو الذي جعل من دلالة التوحيد .

(٢) قيامه تعالى بالقسط في سلسلة الإنسان والحيوان والنبات واللعدن

انظر كيف جعل الله من اللادة كل ما يصلح فيكان النبات الصغير الذي لا يتحرك وكذلك الحيوان ، فتقدم في هذا التفسير في القسم اللثاني من هذه السورة أن علماء الطبيعة يقولون إن رأس الإبرة إذا كانت عليها قطرة لا تراها فإنها تجمع آلاف الآلاف من تلك الحيوانات الصغيرة وأنها تتقاتل وتفرح وتمرح ، وأنا أيضا رأيت هنا بنفسى تحت اللنظار اللعظم ، وهكذا منها ما هو فوق ذلك وفوقه إلى الشجرة اللعظيمة والقيل اللكبير اللجثة واللهايشة التي تمشي في البحر وحجمها أكبر من القيل خمس مرات فأكثر . هذا من جهة اللكبر والصغر وهناك سلسلة أخرى من حيث اللنش والارتقاء ، فأنواع الحيوان والنبات كثيرة وهي :

أدنى للعدن — اللجس والتراب والزجاج وأنواع اللشبوب .

أوسطه — بقية اللعادن كالرصاص والنحاس .

أعلى للعدن — اللباقوت الأحمر واللذهب .

أدنى للنبات — اللخضراء اللعمن .

أوسطه — أكثر اللنبات .

أعلاه — اللنخل مما يلي رتبة الحيوان ، واللشكشوش نبت يتعلق بالأغصان ولا يعرق له في الأرض .

أدنى للحيوان — دودة في جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذي في سواحل اللبحار

وشطوط الأنهار .

أوسط الحيوان - أكثر الحيوانات .

أعلى الحيوان - القرد والفرس وهكنا ولعلنا نترجمها في غير هذا المكان .

أعلى من الأعلى - الإنسان .

فهذه السلسلة الإجمالية من ابتداء للمادن القريبة من الطين إلى الإنسان الذي هو الأعلى .

(٣) قيام الله بالقسط في أنواع الحيوان

منه ما يسكن الهواء وهو الطير .

ومنه ما سكن البر وهي البهائم والأنعام والسياب .

ومنه ما يسكن التراب وهي الموام كالحيات والضب والقطا .

ومنها سكان الماء وهو كل حيوان يسبح في الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف .

(٤) قيام الله بالقسط في أنحاء رءوس الأحياء

لما كانت الجهات ستا كان رأس الأدنى وهو النبات في الطين ورأس الحيوان وهو الأوسط في الجهات الأربع ورأس الإنسان وهو الأعلى جهة السماء ، فهو شجرة مقنونة فروعها أسفل ورأسها أعلى إشارة إلى أنه أعلى الجميع مع أن كل جهة فيها رءوس تنجس إليها وأكثر الجهات انجس إليها الأسفل وأقلها الأعلى ، والأعلى هم الأقولون إن السكرام قليل وهذا من القيام بالقسط .

(٥) قيام الله بالقسط في خلق النبات في الأماكن

منه ما ينبت في البراري والقفار ، ومنه ما ينبت على رءوس الجبال ، ومنه ما ينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار ، ومنه ما ينبت في الآجام والقيافي ، ومنه ما يزرعه الناس ويفرسونه في القرى والبساتين .

(٦) قيام الله بالقسط بين البر والبحر وفيه العجائب وبدائع الترائب

إن أكثر ما قرأت في هذا اللقاع من علوم اليابسة أن اليابسة فيها نبات وحيوان وبساتين وأنهار تجارية ، وفيها قطرات تسير بالناس ليشاهدوا العجائب ويسعوا للرزق ، وفيها مهندسون يصطفون الأشكال الجميلة ، وهكذا مما يعلم الناس فهل البحر ليس فيه إلا الأمواج والسمك وقد خلا من ذلك الجمال والبدائع ؟ أقول : اعلم أن البحر أكثر نظاما وأعز نبانا وأجمل بساتين وأبهى من البر .

ألوان ماء البحر وجمال حيوانه

إن ماء البحر يكون أخضر في سواحل العرب ووردنيا في جهة (كاليفورنيا بأمريكا) وأحمر بالبحر الأحمر وذلك إما من ألوان النبات والأعشاب في قاع تلك الجهات أو من ألوان حيوانات دقيقة ، ومنها ما يجعل لون الماء أسود بجمهة (مالديف) ومن تلك الحيوانات الدقيقة نوع له لمعان وباجتماعه وكثرته يظهر له على سطح الماء لمعان شديد يشبه تمهوه النار وهذا النوع يكون في جميع طباق البحر ، ولكل منها مسكن خاص وطرق مسالكها تاجه تيارات مجهولة من القطب إلى دائرة الاستواء ومن قطب إلى قطب ؛ ثم إن الهائشة التي جرمها قدر جرم القيل خمس مرات فأكثر تجرى خلفها فتأكل منها ، فذلك الحيوان الجميل يسير بالتيار من القطب إلى القطب أو من القطب إلى خط الاستواء ، وذلك أقوى من سير السفن البخارية والقطر الحديدية فإنها لاتصل القطبين ، وذلك من المد الذي أجراه الله في البرية فأعطى حيوان البحر مثل ما منح حيوان البر وجعل للماء سفينة والتيار قطاره (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

(٧) نبات البحر وأشكاله الهندسية والرجان وعجائبه وأنه يتكوّن جزائر

إن نبات البحر منه ما يأخذ شكله صورا بديعة فيكوّن بساتين جميلة عظيمة أطرف من البساتين البرية

وأجل منها شكلا وأحسن نظاما وأبهج نورا وأشرق ضوءا وأشجارها تميل مع الأمواج ميل أعصاب الأشجار البرية مع الرياح ، ولقد تفلح الأمواج تلك البساتين وتجرى مع الأمواج أميالا وأميالا وهي منطية مسافت عظيمة من البحر فتحجب الضوء والحرارة عن الماء وتوقف السفن عن السير ، ولقد بنت النبات على الصخر فلا يقطع منه ولا يسير إلا معه ، ومنه ما يكون قريب الساحل لا يبعد عنه إلا أربعمائة باء ، والبحار الجنوبية أعظم نباتا وأكثر شجرا وأغزر بساتين ، وراها تمتد إلى نحو ألف وخمسمائة قدم وتمتد مسافات عظيمة على وجه الماء تبلغ ثلثمائة ميل .

ثم إن (كريستوف كولومب) قطع ثلاثة أسابيع كاملة في مروره منها حين ذهب لكشف أمريكا .

حشائش البحر

حشائش البحر مادة هلامية لزجة مغطاة بقشرة كالجلد ، لها شعب كثيرة وكل شعب كذلك له شعب كثيرة وتنتهى جميعها بأوراق رقيقة الأطراف ، وكثير من الطيور تفتت بها وذلك في بحر الهند ؛ ومنه نوع سكرى يمتد إلى عشرة أميال ، فروعه رقيقة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة سكرية . وعلى سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها ألف قدم وأوراقها حمراء وردية يحملها الماء بشبه عوامات تحت عقد الفروع تمنعها من الانتماس .

تفاح البحر

وفي البحر شجر كالتفاح ذو فروع تحمل فواكه كثيرة ، وجذوره ثابتة في الصخر وأوراقها مدلاة في فروع كأنها فروع الصنّاف .

الأشكال الهندسية في البحر

في البحار أنواع مختلفة من الأشكال تجتمع مع بعضها فتحدث رسوما هندسية وأشكالا غريبة ورسوما هجينة وبدائع شائقة ومشاهد فائقة ما بين صغير وكبير من أشكال مخروطية وأخرى هرمية مربعة ومثلثات ولقد تسبح تلك الأشكال على سطح الماء فتمنع النور أن يضيئه والهواء أن يصيبه والحرارة أن تلتاقه والسفن أن ترقاه ، وقد تكون تلك للزراع منفصلة الأماكن قريبة الساكن لها أنوان وأشكال مختلفات طولاً وعرضاً وكبراً وصغراً ولونا وجمالا وإتماما وإبداعا وحسنا وجمالا وإشراقا وأوراقا وأشجارا وفروعا فيحدث من ذلك الاختلاف لعالم البحر ما هو كالمدن والساكن يأوى إليها الأحياء ويتحصن بها بعضها ؛ ومن يصير تلك العبابات ويتأملها يرى أمورا هجينة مدهشة ، يرى على أعصابها ديدانا تسبح على الورق تتنذى به ، ويرى مجل البحر بين النبات وكلب البحر ذا العيون الرصاصية والنمر ذا الذكاء والترمسة وكل واحد غيره ، إما لتحصيل قوته وإما للفرار من عدوه .

إن تحت الماء وفي العبابات وعلى فروعها وخلال أشجارها محارة مستمرة بين الطوائف البحرية والحيوانات المائية (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) حيوان البحر كحيوان البر أجناسا وأنواعا وأقساما وعداوة وصغرا وكبرا ، فهو قائم بالتوسط مدبر بالعدل ؛ جعل العداوة فى البحر كما خلقها فى البر ليكون العالم على وتيرة واحدة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالتوسط) فى شئون خلقه ؛ فالقانون للسنون واحد كما ترى فى العالم للشاهد . فهل شهدت أيها الدكي أن العالم قائم بالتوسط وأن الظلام راجع لسنن واحد متشابه وهل شهدت أنه جميل (قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) فهل رأيت الهداية (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) أفلمست ترى تسوية الخلق والتقدير فى الشكل والهداية للحياة ؟ وانظر قوله (الذى أحسن كل شئ خلقه) أفلمست ترى الحسن والهندسة والجمال فى البحر كما رأيتها فى البر ؟ وانظر كيف كان فى البر جمال وزينة ، فجعل مثلها وخيرا منها فى البحر كالرجل .

المرجان

إن المرجان يظهر أوالاً فرعاً فوق حجر في قاع البحار ، وهذا الفرع أشبه بالنبات يسكن فيه حيوان ثم يخرج فرع غيره وهكذا ، فيتكوّن على طول الزمن جيلاً بعد جيل المرجان ، وقد جرى فرع من هذه القروع عليه حيوان صغير جدا شكله كزهرة النبات في شكله ولونه ، وعادته أن يخرج من مقره ثم يعود إليه ، وهذا النبات مع صفه يفعل أفعالاً مدهشة تحير الناظرين فهو يصنع بيوتاً ترتفع من قاع البحر إلى سطح الماء ويمتد البناء طبقات حسنة الشكل بهجة للنظر مضيئة الجوانب مشرقة الأركان زاوية البنيان ، أشكال هندسية ونظم هبة وألوان قزحية جميلة ؛ وهذا الحيوان من سنة إلى أخرى ، ومن قرن إلى آخر يختص مساكين وممالك صخرية واسمات في قاع البحار ، وكثيراً ما ترى هذه المساكن في البحر عند دائرتي الانقلاب في صور وأشكال يحار اللب في وصفها ، ومن عجيب صنع الله فيها أن تكون في أواسطها بحائر راكدة آمنة مطمئنة ، لاتصل إليها الأمواج ولا تؤثر فيها الزلازل ولا العواصف ، فتأوي إليها الحشرات وتؤمها الحيوانات وتربى بها سفارها مع الأمن والدعة والراحة وتثبت فوقها وفي داخلها الحشائش والزرارع والبساتين ، وهذه بعيدة عن كل ما يؤذيها فرحة بنعمة بارئها قريرة العين آمنة الجانب ، وبعد قرون ترتفع تلك الحشائش والغابات طبقة فوق طبقة حتى تكون جزيرة يسكنها الإنسان والحيوان .

فانظر كيف بنى حيوان المرجان بنياناً جعل في البحر مدناً وممالك ومسالك فيها بحيرات آمنة وأوى إليها الحيوان المختلف الأجناس الحسن الألوان والنبات الجميل الأغصان البهيج الأزهار العجيب الحلقة ثم في آخر الأمر سكنها الإنسان (فتبارك الله أحسن الخالقين) — وهو الذي سخر البحر لنا كلوا منه لما طربا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) والحلية هو المرجان والبر .

فيأبى شعري من ذا الذي يرى المرجان فيظن أنه عظيم القدر كثير النفعة عالي البنيان جليل اللقائم سامي المسكنة والسكان ، فلئن تحلت به الحسان فما أخرى العلماء أن يتحلوا بمعناه ويقروا قوله تعالى (ووضع للبرهان أن لا تنظفوا في البرهان) وقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكنا تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكنا تكذبان — وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) .

فلتكن ممن شهد بأن هذا الخلق محكم منظم قائم بميزان (فالنجم) وهو مالا ساق له (والشجر) وهو ماله ساق (يسجدان والأرض وضعا للأنام فيها فأكمة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف) أى التبن (والريحان فبأى آلاء ربكنا تكذبان) ، وهو الذي قام بالوسط والعدل في العجائب بين البر والبحر (فتبارك الله أحسن الخالقين — وفي الأرض آيات للموقنين) انتهى القسم الثالث من سورة آل عمران .

القسم الرابع من سورة آل عمران

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ لِلَّهِ وَمَنْ آتَمَنَ إِلَيْهِ لَلَّذِينَ أَوْتُوا السِّكِّتَاتِ وَالْأُمِّيِّينَ
 ، أَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْبَيِّنَاتِ
 إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ
 بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِمَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةَ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ
إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
لَنْ نَحْمِلَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا
جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * قُلِ
اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ
فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِضَرِيرٍ
حِصَابٍ * لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ
مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * قُلِ
إِنْ تَحْفَظُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَوْمَهُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ *
قُلِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ * قُلِ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظي بهذا القسم

(فإن حاجوك) في الدين وجادلوك يا محمد بعد ما أقت الحجاج (قل أسلمت وجهي لله) اقتدت له بقلبي
وأخلصت له بمحلق وجميع جوارحي لا أشرك به غيره، وهذا هو الدين القيم الذي به قامت الحجاج ودعت
إليه الآيات والرسول، وعبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة وموضع الحواس والقوى العاقلة
(ومن اتبعن) عطف على الفاعل في أسلمت (وقل للذين أوتوا الكتاب) من اليهود والنصارى (والأمة)
وهم مشركو العرب (أسلمتم) كما أسلمت، أي أسلموا، وذلك كما في قوله تعالى «فهل أتم منتهون» كأنه يهيم
بالبلادة أو بالعداء (فإن أسلموا فقد اهتدوا) للفلاح والنجاة (وإن تولوا) أعرضوا (فإنما عليك البلاغ)
تبليغ الرسالة وليس عليك هدام (والله بصير بالعباد) فهو عالم بمن يؤمن فيثبه وبمن لا يؤمن فيعاقبه (إن الدين
يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالفسط من الناس فيشرهم بذاب أليم)
كان بنو إسرائيل يأتيهم الوحي على لسان الأنبياء وهم يذكرونهم أيام الله فيقتلونهم فيقوم المؤمنون بالأنبياء
فيذكرونهم بذاب الله فيقتلونهم فهو لاء هم الذين يأمرون بالفسط أي بالعدل من الناس. عن أبي عبيدة بن
الجراح رضى الله عنه قال «قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ قال رجل قتل نبيًا أو رجلا

أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون
الذين يأمرون بالقسط من الناس ، إلى أن انتهى إلى قوله تعالى : وما لهم من ناصرين » (أولئك الذين حبست
أعمالهم في الدنيا والآخرة) حبست بطلت وبطلانه أنه لا يقبل في الدنيا ولا يجازى عليه في الآخرة (وما لهم
من ناصرين) بمنعهم من العذاب (ألم ترى إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب) التوراة وهم اليهود والنصارى
(يدعون إلى كتاب الله) التوراة (ليحكم بينهم) روى « أنه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس
على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد هل على أي دين أنت يا محمد ؟
قال على ملة إبراهيم قالوا إن إبراهيم كان يهوديا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هلما إلى التوراة فهي
بيننا وبينكم فأيا عليه فأزل الله هذه الآية . وروى أيضا « أن رجلا وامرأة من أهل خير زينا ، وكاف
في كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشر فهما فيهم فرفعوا أمرهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوا أن
تكون عنده رخصة حكم عليهما بالرجم ، فقال بعضهم : جرت عليهما يا محمد وليس عليهما الرجم ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم بيني وبينكم التوراة فقالوا : قد أضفت فقال : من أعلمكم بالتوراة ؟ فقالوا رجل أعور
يقال له عبد الله بن سوريا يسكن فذلك فأرسلوا إليه فقدم المدينة ، وكان جبريل عليه السلام قد وصفه للنبي
صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت ابن سوريا ؟ قال نعم قال أنت أعلم اليهود بالتوراة ؟
قال كذلك يزعمون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة فقرأ ابن سوريا ووضع يده على آية الرجم وقرأ
ما بعدها ، فقال عبد الله بن سلام يا رسول الله قد جاوزها ثم قام ورفع كفه عنها وقرأ على رسول الله صلى الله
عليه وسلم وعلى اليهود وفيها رجم الحصن والمحصنة إذا زينا متى قامت عليهما البينة وتؤخر الحامل حتى تضع
الحمل » فإذا دعا محمد صلى الله عليه وسلم والدعو اليهود دعاهم إلى التوراة ليحكم بينهم به في أن إبراهيم لم
يكن يهوديا وأن الزاني والزانية برجمان (ثم يتولى فريق منهم) يعني الرؤساء والعلماء (وهم معرضون) أي
عادتهم الإعراض (ذلك) الإعراض والتولى (!) سبب (أنهم قالوا لن نؤمن التوراة إلا أياما معدودات) وهي سبعة
أيام من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة ، وقال قوم منهم أربعين يوما (وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون) من
أن النار لن تمسهم إلا أياما قلائل ، وأن آباءهم الأنبياء يشفون لهم ، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه الصلاة
والسلام أن لا يئذب أولاده إلا نخلة القسم (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) أي فكيف يكون حالهم إذا
جمعناهم في يوم لا شك فيه (ووفيت كل نفس ما كسبت) أي جزاء ما كسبت (وهم لا يظلمون) الضمير لكل
نفس كأنه يقال كل إنسان لا يظلم (قل اللهم) أي قل يا محمد يا الله والليم عوض عن يا (مالك الملك) تصرف
فيا يمكن التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) الملك للمعطي
كالنبوة والدولة والمز والعتى والجاه والثروة ، فقد أعطيت النبوة ل محمد وأعطيته هو وأصحابه الدولة وغلبوا
فارس والروم ، وتنزع النبوة من بني إسرائيل (وتمز من تشاء وتذل من تشاء) تمز من تشاء ك محمد بالنبوة
والرسالة والمهاجرين والأنصار وأهل القناعة والرضا والطاعة ، وتذل من تشاء كاليهود ومشركي العرب وفارس
والروم وأهل العصية وأهل الحرص وعدم القناعة (بيدك الخير) ولا يأتي الشر إلا بتعا (إنك على كل شيء
قدير) فتؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . روى « أنه عليه الصلاة والسلام لما خط الحندق وقطع
لكل عشرة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون ظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها الماويل ، فوجهوا سلمان إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ الماويل منه فضربها ضربة ضدعتها وبرق
منها برق أضاء ما بين لابتيها فكأن بها مصباحا في جوف بيت مظلم فكبر وكبرمه السلدون ، وقال : أضاءت
لي منها تصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية فقال : أضاءت لي منها تصور الحجر من أرض الزوم ،
ثم ضرب الثالثة فقال : أضاءت لي منها تصور صنعاء وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمي ظاهرة على كلنا

فأبشروا ، فقال لنافقون ألا تعجبون بمنكم وبخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة وأنها تفتح لكم
وأتم إنما تخفرون الخندق من الفرق فزلت « ، ولما كان عز قوم وذل آخرين من النظام العام وهو يوجب
للساواة كالليل والنهار فالعز يزبدل والدليل يمز ، كما أن الليل والنهار كل منهما يعنى عقب الآخر (تولج الليل
في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحى من اللبث وتخرج اللبث من الحى وترزق من تشاء بغير حساب)
أى تدخل الليل في النهار وتدخل النهار في الليل فيزيد كل منهما ماقصه الآخر ، وتخرج الإنسان الحى من
النطفة اللبثة بحسب الظاهر ، وكذلك الفرخ من البيضة والنبات من الحب والنخلة من النواة وللؤمن من
الكافر والذكى من البليد وبالعكس في الجميع وتبسط الرزق لمن تشاء ونوسمه عليه من غير تقدير ولا تضيق
(لا يتخذ للؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لا يتخذ للؤمنون الكافرين أولياء أى أنصارا
وأعوانا من غير المؤمنين وكيف يحمل للؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن ، ولقد كانوا يوالون بعض الكفار
لصدقة في الجاهلية أو قرابة ، ولقد كان لهبادة بن الصامت حلفاء من اليهود وهم خمسمائة فأراد أن يستظهر بهم
على أعداء المسلمين يوم الأحزاب، هكذا حاطب بن أبى بلتعة وغيره كانوا يظهرون للوذة لكفار مكة فنها
جميعا عن ذلك (ومن يفعل ذلك) أى موالاته الكفار فينقل الأخبار إليهم أو يظهر عورات المسلمين إليهم
(فليس من) دين (الله فى شئ) إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إلا أن تخافوا منهم مخافة فلا تجوز موالاتهم إلا
أن يخافوا من جهنم مايجب اتقاؤه ، وإنما عدى الفعل بمن تضمنه معنى الحذر أو المخافة (ويحذركم الله نفسه
وإلى الله الصبر) تهديد عظيم وجعل التحذير من نفسه جل جلاله لزيادة التحويل (قل إن تخفوا ما فى صدوركم
أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض) أى يعلم ما فى ضمائرهم من موالاته الكفار وغيرها كما يعلم
غيب السموات والأرض (والله على كل شئ قدير) ومنه عقابكم إذا لم تنتهوا (يوم تجد كل نفس ما عملت
من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينها أمدا بعيدا) أى تود كل نفس وتمنى يوم تجد
صائف أعمالها حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم مسافة بعيدة لما تبدى بها من صائفها السود (والله
رؤوف بالعباد) فإذا حذرهم فليس ذلك لنضبه كما ينضب العباد بل هو يرشدهم ، فالغضب سوط يساق به العباد
إلى الرحمة (قل إن كنتم تحبون الله الخ) المحبة ميل النفس إلى الشئ لكمال فيه ، وقوله (فإن تولوا) أى
تولوا وتمرضوا (فإن الله لا يحب الكافرين) لا يرضى عنهم اه التفسير اللفظى .

في هذا القسم فصول : [الفصل الأول] فى قوله تعالى (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس)
[الفصل الثانى] (وقالوا لن نمسنا النار إلا أياما معدودات) [الفصل الثالث] (تولج الليل فى النهار وتولج
النهار فى الليل) [الفصل الرابع] قوله تعالى (يدك الخير) [الفصل الخامس] (وترزق من تشاء بغير
حساب) [الفصل السادس] (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء الخ) [الفصل السابع] (فاتبعونى يحببكم الله)
أما الفصل الثانى فقد أفضت الكلام عليه فى سورة البقرة عند مسألة شفاعته صلى الله عليه وسلم وأن للمسلمين
صرفوها عن وجهها إلى الكسل كما فعل اليهود من تهوين العذاب عليهم بشفاعة آبائهم فارجع إليه هناك .
أما الفصل الثالث فقد أوضحته أيضا بإيضاح فى قوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض) فى سورة البقرة
أما الفصل السادس فقد انضح عند الكلام على الرؤساء والرؤسوسين فى سورة البقرة فى قوله تعالى (ومن
الناس من يتخذ من دون الله أندادا الخ) .

[وأما الفصل السابع] فهو موضح فى ذلك للقام عند قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) فارجع إليه هناك .
أما الفصل الأول فانظر وتعجب كيف جاء فى الآية السابقة أن العالم قائم كله على النظام والمدل والقسط
وأن الله شهد به وللائكة والعلماء وكأنه يقول إن قام العلماء بالقسط والمدل الذى أنا قائم به وبالميزان الذى
وزنت به سمواتى وأرضى وساروا على السبى الذى سنته ووزنوا بالميزان الذى وزنت به وللنجاج الذى اخترته

إذ قلت (ووضوح الميزان ألا تظنوا في الميزان) ثم تتنصرون إلى أقول يا محمد بشرهم بعذاب ألم بخراب دولهم وضياع ملكهم لأن الملك لا يقوم إلا بالقسط كما لا يقوم ملكي إلا بالعدل ، فإذا قتلوا القائمين به ذهبت دولتهم كما أن العالم لو لم أكن أنا قائماً بالعدل فيه تهدمت أركانه وتمزقت أوصاله وذهب سدى كأنه لم يكن .

ذلك هو السرف في ذكر القيام بالقسط في قوله تعالى قائماً بالقسط في آية شهد الله ، ولقد خربت دولة اليهود وتفرقوا شذروا مذبذبوا وبالغذاب وذهبت ريعهم وأجلهم الروم بعد المسيح ، وهم يريدون اليوم أن يرجعوا مجددم فلسطين ولكن القرآن فيه آية أخرى حكم بزوال ملكهم إلى يوم القيامة لأنهم قتلوا القائمين بالقسط ، ذلك هو سر هذه الآية ولقد أوضحت هذا القيام في قوله تعالى (قلنا اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة) إلى آخر الآية في سورة البقرة .

أما الفصل الرابع وهو قوله تعالى (يدك الحبر) فاعلم أن هذه المسألة من أهم المسائل التي حارت فيها العقول وزاغت الأبصار ونهت البصائر وزلت الأقدام ، فقالت طائفة ممن نظروا في بعض العلوم الطبيعية كالطب أو الزراعة أو طبقات الأرض أو الكيمياء أو المعدن أو النبات أو الحيوان وكذلك الناظرون في الفلك وأجرام الكواكب وكذلك دارسو الهندسة والحساب وهكذا كثير ممن هم في مصاف الطبقة الوسطى من الناس الذين ارتقوا عن طبقة العامة ولم يكونوا في نفوسهم فكرة عامة عن العلوم العامة ، قال هؤلاء : إننا نرى هذه الأرض وهذه الكواكب جارية بلا نظام ولا منظم ولا إله لأن العناصر باجتماعها في باحات الحلاء كوَّنت الشمس من هباء لطيف وهو الأثير ثم دارت حول نفسها وصارت بعد آلاف الآلاف تامة التكوين وتبها واتصل عنها الأرض والسيارات ، وهذه الأرض قد تصادف أن أتحدت أجزاء على سطحها ، وتمكوَّنت وامتزجت وتضامت وحدثت أمزجة مختلفة فنها نبات ومنها طيور ومنها سمك ومنها أنعام ، وكل ذلك بالاتفاق والصادفة ، فإذا أصاب أحد هذه مرض أو جوع أو عطش مصادفة وطال عليها ذلك ماتت ، فالمرت مصادفة والحياة مصادفة ، وهذا العالم كله بهرج ومرج ، وقال قائمهم :

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يأثم عمرو

هذا هو الحديث الذي يدور على ألسنة الطبقة الوسطى في العلوم والعارف في أنحاء الأرض من مسلمين ومسيحيين ويهود ومجوس وأتباع كونفيسوس وأتباع بوذا وكلهم على ذلك أجمعون .
وأما الذين اتبعوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم يقولون نحن لا نشكر في هذا ، ونكل علمه إلى الله تعالى ونقول هو أعلم بالحكمة في خلقه ويقولون ما قاله شاعرهم :

إذا مارأيت الله في الكل فاعلا عقلت فصيرت القباح ملاحا

وإن لم تجد إلا مظاهر صنعه جهلت فصيرت لللاح قباحا

وقال شكسبير الشاعر الإنجليزي (وقد ترجمته إلى العربية) :

إذا كان هذا الكون يكلؤه الذي براه فأولاه الجمال وعمما

فإذا براه عاقل غير أنه قصور جنان الخلد رصمن أنجما

وأنت خير أيها الذي أن هذا القول لا يدفع عارا ولا يذكي نارا ولا ينفع جارا ولا يقم حجة ولا ينير المحجة وإنما يجترى به المؤمنون الذين هم عن النظر عاجزون ولهوؤلاء راحة وطمانينة ، ولكن هذا التفسير قد أعدته للطبقة الوسطى وهم أكثر التملين في العالم الإنساني فلا ذكر لك الحقيقة جلية مضيئة بهية مشرقة سنية أرفها لك بمحطة القناع لابسة الحلال حالية بالجواهر باسمه الثمر ناعسة الطرف حوراء تسحر الناظرين وتسبي العاشقين وتشرح الصدور وتشرق بالنور تفوق الحور ، إن تخلت قتلت ، وإن تجلت بهرت بحمال يأخذ بالألباب وتضمت مطربات يتصر عنها الرباب ، وحجج لم يعدها الصواب فأقول :

اعلم أن هذه للسألة شرحها العلامة الرئيس بن سينا في كتاب الإشارات وغيره من سائر الحكماء الإسلاميين قالوا: إن ما شاهد من الوجودات وما عرف من المخلوقات نعرضها على العقل ونبحثها بالفكر والعقل يقول: إنها لا تخرج عن أحوال خمسة: الحالة الأولى أن تكون شرًا محضًا. الحالة الثانية أن تكون خيرًا محضًا. الحالة الثالثة أن يظلب خيرها. الحالة الرابعة أن يظلب شرها. الحالة الخامسة أن يتساوى الأمران، ثم قالوا: والعقول الإنسانية لا تتصور غير هذه الصور. أما الشر المحض والذي غلب شره على خيره والذي يتساوى فيه الأمران لا أثر لوجوده، وليس في عالمنا ولا سواء فكيف يوجد الشر المحض ومأمعه؟

أما ما غلب خيره على شره أو هو الخير المحض فذلك هو الوجود، وقد قالوا إن العالم الذي نحن فيه من القسم الذي غلب خيره على شره. هذا إجمال مقالهم وتنفصله كما فصلوه فنقول:

إن ضوء الشمس والقمر والكواكب وماء السحاب والنار والنبات والحيوان غلب خيرها على شرها فضاء الشمس به حياة للوجودات ولكن قد يستضر به المموم ويموت امرؤ بضربة الشمس. واللاء الذي يحيا به النبات والحيوان قد يغرق فيه ناسك ويغطس فيه عالم وورع تقي، والنار كثيرا ما تحرق ثوب الناسك وللرأة العجوز والطفل الذي لا ذنب له.

ولاريب أنه ينتضر هذا الضرر القليل في جانب النفع العظيم ولو قال قائل إنه يجب إطفاء الشمس وتغوير ماء البحر ومنع المطر وإطفاء النار لمضارها وغفل القائل عن منافعها عدت أبله عاجزا وجاهلا مغرورا، فالحكمة تقضى أن ما أفاض الوجود الكثير والضرر القليل يجب حصوله وإبرازه والبخل به جهل وحمق ومخالفة الحكمة وهناك تبدت مسائل كثيرة فيقال لم خلقت الحيات والعقارب والذباب والزناير والأسود والنحور والذئب والودود وهي لم تخلق للنعمة ولم تكن لها أدنى فائدة فهل هذه يخلقها الحكيم وأي حكمة في خلقها وأي فائدة في ظهورها؟

فقال علماؤنا رحمهم الله: إن الحيات والتماسيح والسباع والتنين والموام والحشرات والجراد كلها مخلوقة من المواد الفاسدات والعفونات الكائنة ليصفو الجو والمهواء منها لئلا يمرض لها الفساد من البخارات لتصاعدة فيفضن المهواء ويكون أسبابا للوباء وهلاك الحيوان دفعة واحدة.

ذلك أن الديدان وطوائف الذباب والبق والحنافس لا تكون جائمة في دكان البراز ولا الحداد ولا النجار وإنما تكون في دكان القصاب والسنان واللبان واللباس أو في السهاد والسرقين.

فأنت ترى أن العفونات لو بقيت لأهلك الحارث والنسل فلما خلق منها الذباب والبق والودود والحنافس وما شا كلها أفادت فائدتين: أولاهما أنها يخلقها حوت العفونة إلى أجسامها فصارت صافية، وطهر الجو واللكان وصلح للتنفس وذهب منه الحيوان للسمي (بالمكروبات) التي تفتك بالناس والحيوان ولو تركت تلك العفونات لفسد المهواء وأنتن وأهلك الناس دفعة مع الحيوان، فهذا العمل يدل أن هناك تديرا ونظاما وأن هناك بديا خفية تحوّل للضار فتجعلها نافعة.

القائدة الثانية أن هذه الحيوانات تصير أغذية للحيوانات التي هي أكبر منها، وهذا العمل الذي يجري في الأرض والناس يجهلونه هم أنفسهم يملونه سائرين على النمط الإلهي وهم لا يشعرون، ألا ترى أنهم يرون القاذورات في أفنتهم ولو تركوها لأماتهم غوتوها إلى الأرض ليصلح بها الزرع، فاحضنوا فائدتين: نظافة المهواء ومصالحة الزرع لجلب الغذاء هكذا فعل الله حوّل العفونات إلى حشرات وذباب وحنافس، وهذه تاكلها حيوانات أكبر منها؛ فكما أن الناس حوّلوا القاذورات إلى ما ينفعهم وينظف جوهم ويصلح زرعهم بالإلهام والتجربة هكذا فعل الله فنذى الحيوان ونظف المهواء بل ضله أشرف وأطى وأتم وأجلى، إذ عمله

في الحيوان وإصلاحه ، وعمل الناس في الزرع وإعناؤه ، والحيوان أرقى ققام به الله ، والنبات أدنى ققام ببعض إصلاحه الناس (إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

وهكذا خلق الله السباع والأسود والنمور ، فإنه قد تبين في العلم الحديث ، وفي علم طبقات الأرض (الجيولوجية) أن الطباء والغمم والجاموس والبقر وسائر الحيوان القدي يأكل الحشيش في الأعصر الغابرة كثرت فلأت السهل والجبل والقفر والعامر فلم يكفها النبات لكثرتها ، وقد وجدوها مطمورة في كهوف ومغارات بعضها فوق بعض ففتيت وحينئذ خلق الله عز وجل هذه الحيوانات الفترسة وجعل أنيابها المهددة وأجسامها القوية معدة لأكل اللحم لانهيش إلا به لتقل مايتكاثر من نسل تلك الحيوانات ولتكون آكلة للحمها فلا ينتن فيملاً الهواء تننا وعفونة وحيوانات (مكروية) تقتل الحيوان والإنسان .

وهكذا حكم الجوارح من الطير ، فإن المصافير والقناير والحطاف وغيرها تأكل الجراد والنمل والذباب والبق وماشا كلها ، ثم إن البواشق والشواهين وماشا كلها تصطاد المصافير والقناير وتأكلها ، ثم إن البزاة والصقور والمقبان تصطادها وتأكلها ، ثم إنها إذا ماتت أكلها صغارها من النمل والذباب والديدان ، ثم إن بني آدم يأكلون لحوم البقر والغمم والطير والجلان ، وإذا ماتوا أكلتهم في قبورهم الديدان والنمل والذباب . فالسألة كالدائرة تأكل صغار الحيوانات كبارها ، ويأكل كبارها صغارها ، والقاعدة أن فساد كل شيء صلاح آخر .

فائدة

قال بعض العلماء : إن الذئب يصيد الثعلب ، والثعلب يصيد القنفذ ، والقنفذ يصيد الأفعى ، والأفعى تصيد العصفور ، والعصفور يصيد الجراد ، والجراد يصيد الزناير ، والزناير يصيد النحل الخ تأمل .
وقال عنتره :

لى النفوس وللطير اللحوم وللوحوش العظام وللخيالة السلب

الحكمة في سم الحيات

إن من الحيوان ما أعطى معدة أو كرشاً أو قانصة فينضج الكيموس فيها بعد للضغ الشديد ، والحيات لم تعط معدة حارة ولا قانصة ولا كرشاً ولا أضراساً فموتت عن ذلك مما حاراً جداً ينضج اللحم ويذيب اللحم ، فلو لم تعط هذا السم لماتت جوعاً وهلكت عن آخرها .

ومن الحكمة أن سم الحيات لا يقتل إلا إذا صادفه في الجسم جرح فيجرى في المروق ، فإذا لم يصادفه جرح صار في المعدة غذاء لا ضرر فيه ، والقاعدة في خافتها بين الموام كالفأدة في خلق السباع بين الأنعام والبهائم ، وكنفعة التين في البحر والكواسج والتمايسج ، وكنفعة النسور والمقبان والجوارح في الطيور ، فالحية تأكل الموام التي حولها ، ومن العجائب أن لحم كل حيوان ذى سم يكون ترياقاً لسمه ، فلهم العقرب والحية إذا وضعا على اللسوع بهما شفي حالا .

حكمة الآلام في الحيوان

قد قرأت في كلام الأورد اقبرى الإنجليزي في بعض كتبه أن الآلام التي في أجسامنا إنذار وتعليم ، وبيان ذلك أن أعصاب الحس إنما يكون عملها في سطح البدن وهو الجلد ولا إحساس بها إلا هناك لتنفذنا بالخطر المهدق بنا ولا يكون ذلك في الداخل .

وعليه تقول إن الإنسان إذا أصابه الحرق والجرح ولم يحس بما أحاط به فالألم يدعو له لطلب النجاة وبقاء الحياة ولولا له لأهلكه العطب وأحاط به للوت وهو لا يدفع شيئاً ولا يستدعى طبيياً كما لا يتعاطى الطعام لولا غريزة الجوع

حكمة الحكام الظالمين

إن الحكام الظالمين والقضاة المرتشين والأمم المستعمرة لمن لا يصلحون للرقى ، كل هؤلاء تفهم أكثر من ضمهم . فإن الحاكم الجائر يمنع القوى عن الضيف لحفظ الأتس والأموال ، وإن كان هو في نفسه فاسقا ظالما مرتشيا فقد نفع غيره وأهلك نفسه وأصبح آلة للإصلاح وإن كان فاسدا كالثمة لضى . وتنفى ، وسبأى دوره في القضاء الذى لامناص منه في هذه الدنيا أو بعد المات .

إذن ما الخير وما الشر ؟ إيضاح ما تقدم .

قد تبين في هذا الكتاب في غير ما موضح أن الشر قد ينتج الخير ، كما ترى في السباد والسرقيين وكيف تناف النفس منظرهما وكيف بعلا الجوى من جرائمهما ، ثم إن هذه الكراهة لحكمة شريفة وغاية منيفة ، فإن الناس بها ينظفون أفئيتهم ويحفظون صحتهم وأكثرهم يجعل هذا الكروه سمادا لأرضه وغذاء لزرعه بمثابة عناصره في فاكهته وجبه وشجره وقطنه الذى منه ثوبه وكذلك كتانه وسممه الذى منه زيت وهكذا زيتونه .

فياليت شعرى أين الشر إذن سرحين قدر قبيح للنظر مبيع كربه يصبح فاكهة وآبا ونوبا وزينا وعطرا . إذن ماهذه الكراهة ؟ هى سبب من أسباب داعية إلى تطفه إلى الأرض ، فالأفة من السباد والكراهة له من أسباب حياتنا ، أين الشر ، إذن هذا خير هكذا مارة في هذا الكتاب من السلام على الحشرات الضارة إنها مطهرة لجونا مغذية لطيرنا يأكلها ، فهى إذن نعمة لائمة وكراهتنا لها داعية لتطهير الأرض من القاذورات الحاملات للجرائم .

وقل ما نشاء في نفس الصحة والمال والأهل وأمثال ذلك مما يبتلى به الناس كل ذلك مكروه وشر ولكن ترى أن من يتناول بهذا يكونون قد نالوا قوة وهمة ولم تر في التاريخ من العظماء والأنبياء إلا من صبروا على اللكاره وكثير منهم من سموا أولى العزم .

فهذا أصبح الشر من أسباب الخير ، مثلا ترى للرض يعطى للريض عظة واعتبارا وتذكرة ويهذب خلقه ويكون ذلك داعية لارتقاء علم الطب العام فيبحث الأطباء ويرتقى نوع الإنسان .

وأعظم للصائب عند الناس الموت وفهم الموت فوق تناول أكثر الناس ، فإذا حكنا أن الصائب كالسباد جرمية لمن أصيب بها ، وقلنا إن الدين أصيبوا بها أعظم قدرا من الدين لم يتنلوا ولم يجربوا ، فكيف يسوغ ذلك في الموت تقول الموت انفصال الروح عن الجسم ، وما الجسم إلا لوح النفس ؟ كما أن السباد والأرض هما اللوح الأكبر ، فالروح في الجسم تدرس هذه الدنيا ، فإذا صهرت في نظرها أدركت عجائب هذا الميكل فهو لوخها الذى تقرأه ومدرسها التى تربت فيها وحقلها الذى تزرعه ، فإذا ارتقت إلى عالم الأرواح استنتت عنه . كما يستنى الطفل عن اللوح ، وكما يخرج الجنين من الرحم ، وكما يخرج الطفل من الصبا إلى الفتوة فيترك جسمة الذى لايبالى به تنذى منه الحشرات من الديدان والذباب والحنافس كما كان يتنذى هو بأنواع الحيوان فأما روحه فإنها تكون قد خرجت إلى عالم أطف وفي حال أرقى ، وإذا كان الموت كما هو قول الأرواح التى خاطبها الناس فى انكلترا وفرنسا وأمريكا وجميع الأمم على هذا النمط وهذا عينه أقوال الأنبياء والوحى ، فكيف يكون الموت شرابل يكون خيرا ، فياليت شعرى ما الذى به نعرف الخير من الشر وقد رأينا فى هذه الأمثلة أن الماآ هو الخير وأما الشر فإنما هى نسب وأحوال خاصة وتشول للخير .

فصح ماقرأ فى الصلاة « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة الهيا والمات ومن فتنة السيخ السجال » فالفتنة إذن الجهل بالموت والحياة .

واعلم أن هذا الإنسان معذب بالجهل بفتنة الهيا والمات هى الجهل بشمرتها ونظامها ، ولقد تبين لك

في غضون هذا التفسير أن دين الإسلام كله يتول للعلم؛ فدعاء السجود والركوع للعلم بالتشريح وطبقات العين ودعاء الصبح فيه مسألة الرحمة وشمولها، وهنا نرى مسألة الحياة واللوت، وهي أم للسائل وهي عقدة العقد. يقرأ السلم في صلاته الرحمن الرحيم ويكرر الرحمة في ١٧ ركعة وهي الفرائض قريبا من مائة مرة تارة صريحا وأخرى تلويحا، فإذا السن كانت ٢٠٠ مرة فأكثر، ثم إن أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم الرحمة شائعة في الدين، فإذا كانت في أول كل سورة كان معناه أن كل ما ابتليتكم به مآله الرحمة، فيقول السلم أين الرحمة في المرض والفقر والذل والرق والاستعباد، بل أين الرحمة في اللوت أين الرحمة في ذلك كله وأعوص للسائل مسألة اللوت والحياة؟

جمال المقال

وجمال هذا المقال وبهجه وخلاصته أن الآلام قسبان: قسم ماهو دون اللوت من فقد الأصحاب وللحال والصحة، والقسم الثاني اللوت فإذا ماتدبرت وقرأت الكتب ونظرت بنفسك في كل بابسة وخضراء وأرض وسما وناطقة وخرساء وقائم وحصيد وأجلت النظر، ولم تحبجك العلوم التي قرأتها ولا الآراء التي صرفها ولا الشهادات التي نلتها ولا للناسب التي وليتها ولا أكاذيب التعظيم التي أوليتها ولا الثروة التي ملكتها، ثم درست هذا العالم درس للتبصرين وتنكبت طريق للتكبرين عرفت لذن أن الناس على الأرض يربون مع الحيوان وهم يسامون سياسة لين وشدة ويركبون طبقا عن طبق. واعلم أنك لن تنال ذلك إلا بعد الجهد الجهد والنصب والسكد والنظر والإخلاص.

أيها الذكي لا يفتي أن تكون من اللدوسين ولا الهامين ولا القضاة ولا للهندسين ولا رجال الإدارة ولا رجال الزراعة أو الطب أو البيطرة أو الجيش. فكل أولئك قاموا بركن من أركان الحياة الاجتماعية ولن يخلص أحد منهم من التقليد والجهل العتيد إلا بتلك النظرات؛ فليكدح ليله ونهاره حتى يوقن بعقله خاصة أن الحياة واللوت لم يكونا للتعذيب بل للتهذيب، وأن للرض والفقر وأضرابهما نتائج ارتقاء النفوس لا بد أن ترفعها بنفسك ولا تقف عند السماع ولا أقوال العلماء، هناك تخرج من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة الهيا والمات، فذلك كله ناجم من جهلنا بنظام الحياة الإنسانية ودرجاتها، ولما كان هذا أم علم عند الحكماء قديما وحديثا كان الدعاء به في آخر الصلاة، ولقد قدمت لك فائدة الدعاء بالاستعاذة من السيخ السجال عند قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وأبنت هناك أن هذا الدعاء راجع لأمر حاضرة من أزمان النبوة إلى الآن، وها أنا ذا الآن ذكرت لك ماهو أم وهو فتنة الهيا والمات. واعلم أن ماقلت الآن يسمعه أكثر الناس من وراء حجاب، ولكن لا يفتي قولي ولا يفتي، وإنما الذي يفيد بحثك بنفسك (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وإنك بعد أن تصل إلى هذا المقام تفهم تحقيقا معنى قوله تعالى هنا (يبدك الخبير إنك على كل شيء قدير).

بهذا فليفهم معنى القرآن وبهذا تكون دراسة الحكمة (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم). أما الفصل الخامس، وهو قوله تعالى (وترزق من تشاء بغير حساب) فلا تذكر لك من عجائب الحكمة ما يدهش اللب ويسحر العقل ورضى لأولى العقول الذكية والنفوس الشريفة. فأقول في هذا اللقمان لطائف:

اللطيفة الأولى

لقد رأى العلماء الباحثون في العصر الحاضر، وكشفوا أن بعض الدباب يحفر ليضه جحرا في الأرض يضعه فيه، ثم يذهب إلى عنكبوت أو دودة يبعج فيها جزءا من السم فتسكن حركتها، ثم يجعلها إلى جحره ويلقها عند البيض ويسد عليه، فإذا خرجت الأولاد من البيض وجدتها بجانبها فتفنت بها.

وسبب ذلك أن هذه الحيوانات لا تأكل ميتا قط وأما تعلم أنها لا ترى أولادها قط فتحضر لها هذه الحيوانات التي خدرتها بسمها حتى إذا خرجت من البيض أكلتها ؟ أليس ذلك من الرزق بغير حساب ؟ فأين تطلعت هذا تلك الدابة ولم تر أمها ولم يكن هناك مدارس ولا معلمون ولا قضاة ولا محامون ، فرزق هذا الحيوان بلا حساب ، وهذه هي الرحمة (كتب ربكم على نفسه الرحمة - ورحمى وسعت كل شيء) بسم الله الرحمن الرحيم هذه هي الرحمة وهذا هو القرآن وهذا هو الدين وهذا هو الإسلام مما أيها المسلمون لا تتعلموا ، أيها المسلمون استيقظوا ، أيها المسلمون انظروا ، أيها المسلمون لهذا خلقتم ، هذا هو دينكم ، هذا هو الدين القيم ، هذا هو العلم ، هذا هو العقل والحكمة . القرآن يشير لكم يديه إلى هذه العجائب ، ويقول انطلقوا إلى هذه العجائب فادرسوها ، وإلى هذه الحكم فاعلموها ، وإلى هذه الآيات فاتلواها (قل انظروا ماذا في السموات والأرض - وفي الأرض آيات للموقنين) هذه هي الآيات ، وهذه هي البيئات ، فاقروا وأمثال هذا فهو فإية القرآن إن الطبيعة كتاب كتبه الله يديه ، والقرآن جاء ليدلكم على ما خطه يديه سبحانه وتعالى من هذه الرسوم والكلمات هذه هي الكلمات (قل لو كان البحر مدانا لكلمات ربي لغد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) .

هذه هي الكلمات التي كتبها يديه ، وقال في القرآن انظروا فيها ، فالنظر فيها أفضل من العبادات وأشرف وأعلى ، لأن العلم أرقى من العمل والعامل الأبله الغافل قليل الحظ في الآخرة كالأجير للسخر ، فاقروا سطور الكائنات كما قرأت الكتاب للقدس وهو القرآن .

اللطيفة الثانية : الذباب الذي يعيش أولاده في جوف الحيوان الحى

من هذه الطائفة أى الذباب الذى لا يعيش إلا على حيوان حى ماعتمد إلى دودة كبيرة فتخرق جلدها بخرطومها ثم تضع بيضها الكثير موضع الخرطوم تحت الجلد ، فإذا حصل الفقس وخرجت الأولاد أكلت من اللحم والدهن ، ولم تتعرض للأعصاب التي عليها مدار الحياة ، ومضى قدرت على الخروج شرعت تأكل الأعصاب فيموت ذلك الحيوان لأنها ليست في حاجة إلى حياته ، ثم تخرج تلك الحيوانات ومضى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطا محكما تنتف فيه وتتراكم فوق سطح الجنة فتغطيها بكثرتها ، فلا يرى الرايون منها شيئا (إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

اللطيفة الثالثة : الأراب وبعض الحشرات

الأراب تنتف شعر بطنها فتجعله فراشا لأولادها ، وبعض الحشرات أعظم منها شفقة وأكثر رحمة فإنها تنتف شعرها كله ولا تتكفى بجزء منه ، ومضى باضت لفت بيضا في شعرها فجعلته أنوابة تصنعها لوقايتها من الحر والبرد والمواضع الجوية ثم تموت .

اللطيفة الرابعة : الحشرة التي تجعل جسمها وقاية لأولادها

وبعض الحشرات إذا باضت ضمت بيضا بعضه إلى بعض وعظته بنفسها وأحاطت به من كل جهة بجسمها لتسكون له كالكيس والوقاية ثم تموت فإذا خرجت الأولاد من البيض وكبرت فعلت بيضا ماقله بها أصلها اللطيفة الخامسة

إن بعض الحشرات يمدو على غيره من الحشرات فيقتله ويأتى به إلى ذريته .

اللطيفة السادسة : يعسوب النحل

إن يعسوب النحل التي يقال لها أم النحل إذا ماتت اخترن واحدة منهن وهيان لها مكانا أوسع من غيره خمس مرات وأخذن يخدمنها ويطعمنها الشهد الذي الرائحة فتكبر سريعا لحسن اللواد الغذائية فتأمر وتنهى وتعمل على مقتضى القوانين ولا يخرنها إلا إذا كانت فيها تلك الصفات التي يرقها بالإلهام .

اللطيفة السابعة : أسد النمل

رأى بعض العلماء هذا الحيوان الصغير يحفر في الرمل حجرا منتظما والرمل ناعم جدا ، وأخذت تلك الدابة تحفر برأسها ، وترفع التراب دابة مجدة ، وترى التراب متلاحقا يمر مر السحاب كرة وراء أخرى ، وهكذا حتى إذا تم لها حجر ناعم أملس سكنت في أسفله بحيث لا يظهر إلا رجلاها ، ثم لما مرت نملة عليه انزلت رجلاها فسقطت على تلك الدابة فأكلتها حالا أي امتصت اللادة التي فيها ، ثم لما جاءت نملة أخرى سقطت وأرادت التخلص منها هالت تلك الدابة عليها التراب فأسرتها ثم امتصتها ثم أخذت أجسام تلك الفراش ورمت بها خارج حجرها وسوته ورجعت إلى ما كانت عليه من الانتظار .

اللطيفة الثامنة : الحشرات الآكلة العنكبوت

إن من الحشرات ما تأكل العنكبوت، ذلك أنها تلبس ثوبا من نسج العنكبوت وتلتف فيه ثم تعفر جسدها بالتراب ، فإذا مر بها العنكبوت التقطته وهو غافل ، ثم تمزق ثوبها وترجع إلى حالتها ، ولقد فعلت ما فعلته اليبابن في حرب الروس إذ صنعوا مراكب ملوثة بلون البحر حتى لا يراها الروس فوقه ، في الهلاك لليبان .

اللطيفة التاسعة : حيل النحل في عدوه

إن النحل إذا دخل عليه عدو من الحشرات مزقه ، فإذا كان العدو صغيرا رموه ، وإن كان كبيرا اجتمعن عليه ولسعه معا حتى يموت ولما لم يكن في قدرتها إخراجه تعمد إلى صمغ نحصره من بعض النبات تلتفه به وتغلفه فبالصمغ خلصت من حياته وبالصمغ خلصت من ضرر موته لأنه يحنط كما فعل قدماء المصريين .

هذه اللطائف التسع ذكرتها لتعلم كيف رزق الله هذه الحيوانات بغير حساب وعلما بلا كتاب ، وأنهم عليها ينعم من عنده وألمها ورزقها ، فلا مدارس ولا دروس ولا مدافع ولا أساطيل ولا جيوش جرارة ولا سيوف بتارة ، وبعض الدول لا تعيش إلا بالسلاح والكرام والنسب والتعب والسكد والسكد، ذلك رزق الله بغير حساب .

ولملك بهذا تفهم قوله تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين — وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) وقال تعالى (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) لا هوج فيه لأنه عدل في القضية ، نظر للحيوان كأنظر للإنسان فهذا هو الصراط المستقيم والعدل الدائم ، فإنه لم يذوق ولا النمل ولا النحل كما لم يذوق القيل والليل والإنسان ، وهذا دلالة أنه ما فرط في اللوح المحفوظ والمعلم القديم بل إنها كلها أمم أمثالنا والله معها (وهو معكم أين ما كنتم) وإذا لم يكن معنا فكيف يتم هذا النظام (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ها هنا أريتكم رحمة الله للحيوان وليضه ولأفراخه قد رأيتنا ملوثة منظورة نلسها يدك وتنظرها عينك وتسمع أصوات تلك الحيوانات أذنك وتشم روائحها بأنفك وتذوق لحمها بضمك .

أو ليست هذه هي آثار الرحمة قد كتبها الله بيده كتبها بحروف أوضح من حروف اللغات وكتابتها أبهج من فصيح الكلمات وجمالها أبلغ من بليغ العبارات ، هذا هو السحر الخلال هذا هو الجمال والجلال ؟ فأين اللغات وعلوصها وأبن العربية والعبرية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها ؟ هل تبلغ من غوصنا ما بلغت هذه الصور وهل تعطينا إيمانا كما رأينا بالبصر ؟ بهذا تفهم قوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة) وقوله تعالى (وإذا جادك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعد وأصلح فإنه غفور رحيم . وكذلك تفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) وهاتان الآيتان في سورة الأنعام يقول سبحانه (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وأعقبها

بأنه يحمنا ليوم القيامة فذكر إحياءنا عقب ذكر الرحمة وذكر في الثانية أن السلامة والأمان للذين يؤمنون وأنه يضر لهم السيئات، ثم قال (وكذلك فصل الآيات) وإنما ذكرها بعد ذلك ليعين أن آيات الرحمة سيئين هو تخصيصها في الحيوان، وفي عجائب هذا العالم للشاهد كما استبان في هذا التفسير، وهذا هو الزمان الذي يعين الله فيه الآيات بينها بكتابه الذي كتبه بيده مع أنه كتب على نفسه الرحمة، كتبها في كل نفس وكل يضة وكل جنين وكل حشرة وكل طير وكل هامة، فطيه رزقها وعليه حفظها وعليه تدبيرها هذا هو مضمون الكتاب الذي كتبه بيده، وهذا هو الكتاب اللين الذي يدعو للنظر فيه التوراة والإنجيل والقرآن، فمن لم يقل كتابه الذي كتب على نفسه الرحمة فيه، فليقرأ ما نزل من الكتب السماوية لترشده إلى ذلك الجمال والكمال (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

اللطيفة العاشرة: القنفذ

(١) إن القنفذ يصعد إلى السكرم فيرمي بالعنقود ثم ينزل فيأكل منه ما يكفيه، وإن كان له فراخ تخرج على الباقى فيمتلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده (٢) إن بين التراب والذهب ألفة فإنه إذا رأى الذهب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذهب لا يضره (٣) إن القارة تأتي إلى إناء الزيت فتشرب منه، فإذا نقص صارت تشرب بذنبا فإذا لم تصل إليه ذهبت وأنت بماء في فيها وتصبه فيه حتى يملؤها الزيت فتشربه.

اللطيفة الحادية عشرة: الجراد والعنز والزرع والفلاحون في مصر

إن الجراد قد يفتك بالزرع في بلادنا المصرية، فقرأ في جود السماء كأنه سبحانه مكرم، فإذا نزل بزراعة التهمها وأكل ورقها وحبا وصارت جرزا، ولقد خلق الله في جبالنا المصرية طائرا يسمى العنز أكبر من البط وأصغر من النعام يفتك بالجراد فتكا ويهدمه من الوجود.

صفة ذلك

فإذا جاء الجراد وفتك بقوت العباد فتك به العنز وأزل به الملاك والبوار. نزل الجراد يوما بمزرعة تبلغ نحو ٦٠ فدانا، وقد غطى وجه الزرع وأخذ يلتقمه التقاما، والفلاحون يكون ويندبون حظهم ويستصرخون ويمن يستصرخون ويستغيثون إذا كان عدوم سماويا وأمرهم ليس يقدر عليه إلا الحكيم الخبير، فيبتاهم على تلك الحال إذ أقبل لهم النصر وبسم لهم الدهر وكشف عنهم الضرر وأقبل الطائر اللسمى بالعنز للذئور فأحاط بالمزرعة إحاطة الهامة بالقمر والسوار بالمصم وضرب عليها سورا من جنوده أحاطها بمسكره الجرار بنظام يصعب ضباط الجنود وقواد الجيوش الذين لا ينتظم جمعهم ولا يحفظ كيانهم إلا بتدريب للدربين وتعليم للدربين والدأب والسهر في النهار وفي السحر، فلما أن انتظم جمعهم وقام صفهم كأنه بنيان مرسوم أرسل قائدهم جماعة منهم وسط الزرع ليفرقوا الجراد وليزهجوه عن الزرعة، فيلجأ للخروج فتلتقمه تلك الجنود، وكلما امتلأ بطن واحد منهم الذي هو كالحفلة رجع إلى الجبل فأفرغه ليكون ذخيرة ثم يرجع وهكذا حتى لم يتركوا في للزرعة جرادة اه والفلاحون واقفون ينظرون يحمدون ربهم ويسبحون، فيأهبها ١١ أليس هذا العنز قد رزق بغير حساب، وهل هو الذي ربي هذا الجراد أم هو الذي بذر الزرع، أو ليس الجراد رزق بغير حساب وليس له في الزرع عمل؟ أو ليس الإنسان قد رزق بغير حساب فهل هو الذي ربي العنز الذي أكل الجراد؟ يا ليت شعري انيام أهل الأرض أم مستيقظون وكأين من فلاح نظر هذه السألة ولا ينظر فيها؟ وكم من عالم سمع بها ولا يلقى إليها بالا، إن الإنسان لجهول وظلوم وكفار. أهل الأرض مساكين ثلاثة أنواع من الخلوقات: الجراد والإنسان والعنز تألفت منهم رواية أدبية يخر لها العلماء سجدا ويقولون سبحان ربنا، ويتنظر لها الجهال غافلين. لعمرى ما أجهل الإنسان. ولعمر الله إن هذه لأشبه بما ترى من استمساك القمر

بالأرض وجريه حولها واستمسك الأرض بالشمس وجريها حولها واستمسك الشمس بالكوكب الذي تجرى حوله ، وهكذا طبقا عن طبق حتى تصل إلى منبع الوجود .

من هنا فليقرأ الناس العالوم وبذلك فليفرح للفكرين ، ويا ليت شعري أى فارقة بين اتحاد الجراد والإنسان والمنز وبين تماسك القمر بالأرض وبالشمس ، سلسلة متصلة ووحدة جامعة ونظام مناسك متحد (إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

اللطفية الحادية عشرة

إن في البحر الأحمر حيوانا يسمى الدر فيل قد رأيت أنه جسمه قدر الحمار يندو ويروح ليس عليه من رقيب لأن حكومتنا حرمت قتله كما منعت قتل العنز للتقدم ومن قتله يعاقب بالشغل الشاق ستة أشهر .

وهذا الدر فيل إذا صادفه غريق من بني آدم في البحر حمله على ظهره وجرى به جريا حثيثا حتى يلقى به في الشاطئ ، فانظر هذه اللطائف وتجب من حكمة باهرة ، وبهذا فليسكن في الإسلام علماء وحكام (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشه يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فهذه آيات الله ، ولقد فصلناها في هذا الكتاب تفصيلا وبينناها للناس تبينا .

اللطفية الثانية عشرة : طائر يسمى السقا

إن في بحيرة (أخرى) بناحية منستر يولد ألبانيا طيرا يسمى سقا يطير فوق الماء حجمه كبير ولا يقدر أن يصيد السمك الذي هو غذاءه ، وهناك طير آخر يصطاد السمك غطاس فيغوص في الماء ويأني بالسمك فيلتقمه السقا فيأكله ، وهذا السقا يتبق في فمه بقايا وهي مدودة ، والدود طعام ذلك الغطاس حتى أكل السقا فتح فاه ليناول الغطاس طعامه من الدود الذي تولد من بقايا الطعام ، فانظر كيف أحكت الدائرة : سمك ودود السقا والغطاس ، كما أحكت في العنز والجراد والزرع والفلاح . هناك أربع متلازمات ، وهنا الدود نفسه (فتبارك الله أحسن الخالقين - وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون - إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

وبهذا فليفهم المسلمون قوله تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء) وكيف يعرف الإنسان هذه الرحمة الواسعة إلا بالدراسة ونظر ما أنعم الله به على الحيوان وأسبغ عليه من رحمته . هنا فليفهم المسلمون (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) وهنا فليعرف المسلم كيف شملت رحمته وعلوه العوالم كلها شملها بالرحمة التي أصبح يراها العلماء في الدر والحشرات وكل مادي ودرج يرونها بأعينهم ويلسبون تلك الرحمة وذلك العلم الشاملين لتلك الحيوانات التي خلقها والنعم التي أبرزها والكلمات التي خطها بيده ، والنفوس التي أبرزها بجله وصورة هياكلها بحكته وغمرها برحمته هذا هو الله . هو الله الذي بيده خطها وكتبها وأبرزها وأرانا بدائمها فتهدنا رحمته فيها وسعها والم مع الرحمة لأنه قدرها تقديرا وصورها تصويرا . ولمصرى لا ينق السليبين ما يسمعون حتى يبصروا ولا ما يقرءون حتى يلمسوا ، فالقرآن يذكر الرحمة ، وعلى العقلاء انه يعرفوها في كل مادي ودرج في الطيور الطائرات والدواب للهابيات والسمك المأمات والحشرات للتضليات .

هناك فليفهموا قوله تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء) والجاهل بهذه العوالم لا يدرك الرحمة فيها والمافل عنها لا يفتل معانيها فتجاني معظم الرحمة عن النفوس العاقلة ويغصن الله بالنفحات القلوب الكاملة العائنة ، ولذلك اختص بها المتقون وللؤنون الزكاة وللؤنون ، ولذلك قال بعدها (فسأ كتبها للذين يتقون ويؤنون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذين يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة

والإنجيل الخ الآية) عمم الله الرحمة. وجعل أعلاها وأخصها لمن اتبعوا النبي الأمي. الرحمة عامة وخاصة، والخاصة قال الله فيها فسا كتبها لأتباع النبي الأمي، ولعمري كيف يختصم الله برحمته إن لم بدرسيوها، وكيف يذيقهم أجلاها وهم لم يطلوها. ذكر الله الرحمة في أول كل سورة، وفي سورة الفاتحة أربع مرات، وجعل الدعاء بالهداية بعد الحمد على التربية للشوية بالرحمة كأنه يشير إلى أن للره متى صرف النحة استعداد لها ومتى استعداد لها رزقها. أمرنا أن نحمد الله على النعم المشمولة بالرحمة، ثم نطلب الهداية بعدها. هكذا هنا ذكر أنه وسعت رحمته كل شيء، وخصص أعلاها بالمؤمنين الذين أمروا بالنظر في آثارها (فانظر إلى آثار رحمة الله) وهي التي رأيتها في هذه الحيوانات وعجائب المخلوقات هذه هي آثار الرحمة؛ فالرحمة صفته والآثار في عمله وحكمته فإذا نظروا في آثار رحمة الله صرفوها، وإذا عرفوها تشبهوا به فيها، وفي الحديث «تخلقوا بأخلاق الله»، وإذا تخلقوا بها أفادوا أهل الأرض، ولئن يتخلقوا بمجرد السماع، وإنما ذلك بالاطلاع كما أطلعتك وبالفهم كما أريتك وبمجرد القراءة بلا مزاوله للماني قليلة الجدوى. الله واسع الرحمة والسلم بنظرها ويتخلق بها ويكون رحمة لأهل الأرض قاطبة. إن نبينا رحمة للعالمين (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ونحن خلفاؤه رحمة للعالمين فسكون خير أمة أخرجت للناس (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فمن رحمة العالمين، ولقد شرحت هذا المقام في سورة البقرة من طريق آخر عند قصة سيدنا إبراهيم (ومن يرغب عن ملة إبراهيم الخ) وعند قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ولقد أبنت في تلك السورة أن السلمين رحمة للعالمين فهم خير أمة وقلت وذلك يوجب أن تكون أمة الإسلام أعلم الأمم بأحوال العالم وأقوى عددا وجيوشا ليكونوا ناصرى الضعفاء على الأقوياء ومعلمى الأمم، وإذن يكونون خير أمة أخرجت للناس.

ملخص هذا الفصل الخاص بقوله تعالى (وترزق من تشاء بغير حساب)

إن الرزق بغير حساب بعموم الرحمة والعلم، وعموم الرحمة يعرف بنظر العوالم، ومتى عرفت الرحمة بآثارها تخلق بها المؤمن وصار خليفة لله ولنبيه. أما خلافته لله فنظرة في آثار رحمته وفي تخلقها بها، وفي الحديث «تخلقوا بأخلاق الله» ويقولون الحكمة أن يتشبه الإنسان بالله بقدر الطاقة البشرية. وأما خلافته لنبيه فإن الله يقول (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فيكون المؤمن عالما بهذه العوالم مستعدا أن يكون مقيضا عليها قاضيا بينها نافعا اتباعا لنبيه بمقتضى الوراثة، وأما أيها الذي لا أدري كيف تأخر في هذا الزمان ظهور الأمة الإسلامية بهذا المظهر الإلهي فمسي أن يكون قريبا حتى يعلموا هذا الوجود ويقوموا بنظام أهل الكسرة الأرضية ويكونوا رحمة لهم وقضاة ومؤدبين للأمم جميعها، وعسى أن يكون امتداد السكك الحديدية والأسلاك البريدية مقدمة لظهور هذا الجيل الإسلامي الذي هو اليوم ليس موجودا، ولكن للوجود بذور الدين. أما شجره وعمره وقيام أهله بنظام أهل الأرض ووصايتهم عليهم وحكمتهم على الأمم الظالمة، وقيامهم مقام الآباء لأهل الأرض فذلك لم يأت بعد، وقد مهدت الأساس، وبنيت القواعد له وقدمت القدمات وعسى أن يكون قريبا.

بهذا تفهم القنوت في صلاة الصبح

يقول للصلى دائما وقت صلاة الصبح «وتولني فيمن توليت» يا عجب كيف يعرف السلم أن الله رحمت واسعة ورأفته لاحد لها إلا إذا اطلع على مثل ماقررتاه في هذا التفسير، وفي مثل هذه الحيوانات وأنها مزوقة بغير حساب، الناس كثيرا ما يعبدون الله خوفا من غضبه وفرقا من عذابه في الدنيا وفي الآخرة، ولكن إذا اطلعوا على مثل هذه اللطائف في هذا الفصل حصل لهم يقين أنه يكفل الدر والنحلة والنحلة والذبابة وأنه رحيم رموف بالحقير والعظيم، هو رؤوف حقاً لأنه هكذا عمله مع ضعاف خلقه، وعلى ذلك يتبين

للإنسان علماً يقينياً أن الله يتولى خلقه وعنده رأفة ورحمة لا حد لها ، وبرزق تلك المخلوقات بغير حساب ، ولكن لماذا يدعو المؤمن والله برحمته عم النمل والنحل والكراب وتولاها وبرزقها حتى أصبحت ترى أجسامنا ، وإذا كنا أفضل منها فلماذا ندعوه وقد كفها وتولاها أفلا يكفنا ويتولانا ؟ .

الجواب

اعلم أن العوالم ثلاثة : عالم الحيوان له غريزة ، وعالم الإنسان له عقل ، وعالم الملك والأرواح المجردة الذي ذكرنا آراء الناس والفلاسفة فيه عند قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) في سورة البقرة . فعالم الحيوان قد تولاه الله وأنعم عليه بالبريزة فال الهناء والسعادة وقلّ عناؤه وشقاؤه بالنسبة للإنسان ولذلك ترى علماءنا أجمعوا على أن الحيوان قليل المرض والإنسان كثير الأوجاع والمهموم والوجوم .

وعالم الإنسان أعطى عقلا به يفكر ويشقى في تحصيل الرزق وتعلمه وملبسه مما تبرأ منه الحيوان واستراح ومهد له الأسباب فتراه يفرل وينسج ويطيير ويبني البيوت ويفوص في البحر وهو سعيد بلا كلفة ولا مدرسة ولا طب ولا هندسة ولا حساب ولا شقاء ، وقد جعل الله له محارم واسعة وشعابا وجبالا ومروجا وغابات واسعة وهو فيها رافل في حلل السعادة فلا ضرائب ولا جباية ولا مدرسين ولا دروس ، وقد أعطى كل ما يحتاج إليه وهو في أتم حال .

أما عالم الملك والأرواح فله غرائز لا كغرائز الحيوان فهي لا نصب فيها ولا نعب ولكنها قوة قدسية ، فكما ترى العنكبوت ينسج والنحل يبنى العسل بلا تعليم هكذا الملائكة يفعلون ما يؤمرون وتكون أعمالهم سجية وغريزة من الغرائز العالية الشريفة . فهذه المنحة في الحيوان غير عالية كالوحى إلى النحل والهامة ، وفي الملك نسبيها (قوة قدسية) .

والإنسان ارتقى عن الغريزة الحيوانية وانحط عن أفق الملائكة ، ولذلك تراه إذا سمع بالوحى طار إليه سراعا وفرح به واستبشر ، فأله تولى الحيوان في مرتبته السافلة ، وتولى الملائكة في درجاتهم العالية ، والإنسان في حال التكليف يريد أن يصل إلى الدرجات القدسية فيقول « تولني فيمن توليت » ويقول أيضا « فلك الحمد على ما قضيت » ومحال أن يفهم أن القضاء كله خير وجمال حتى القضاء بما يكرهه إلا إذا اطلع على نظام هذا العالم كما رأيت ، كيف كانت القاذورات تحول إلى حشرات لطهارة الجوّ والحشرات إلى طيور والطيور يأكلها الإنسان والحيوان الكبير فيقول العبد في الصلاة « لك الحمد على ما قضيت » لأنى علمت أن قضاءك لمصلح شريفة فيكون الحمد حقا لا بمجرد اللفظ ، وإذا قال تولني فيمن توليت يكون مطلعا على بعض ما تولاه الله به جزما بأنه قد وسعت رحمته وعمت ويكون موقنا بما اطلع عليه كما في لطائف هذا الكتاب التي اقتطفت من علوم الأمم الحاضرة والكشف العلى .

إن الدعاء في الدين الإسلامى فتح لباب العلم والفكر ، فإذا حمد لله على فضائه وفيه ما يكرهه للسمى شرا وجب أن يعقله ويتأمل المخلوقات وإلا كان الحمد كذبا وثقاقا ، وإذا قال تولني فيمن توليت يجب أن يطلع على بعض ما تولى الله حمايته وحفظه ، فإن الإنسان قليلا ما يعرف رحمة الله في نفسه بل تغلب عليه وساوسه وآراؤه المنحرفة للنصبة فينسى النعمة والله عام الرحمة عظيم الجود :

خاتمة هذا القسم وعجائبه

أيها الذك تأمل منى في مجموع آيات هذا القسم . انظر فيها ألت ترى أمراً عجيباً يقول الله تعالى (ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم) ويقول (قل اللهم مالك للك تؤتى لللك من تشاء) .

هل لك أن ترجع معي إلى أول السورة وتنتظر (الم) أفلتست ترى أن (الم) مع ما تقدم من الإشارات والرموز للعلوم تشير إلى أمر أمّ في نفس هذه السورة . انظر معي وتفكر وقل لي ألتست ترى قوله تعالى (الم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الخ) قد ابتدئت بنفس (الم) وقوله تعالى (مالك للملك) جاء من الملك للكررة مرارا (الم) ولعلك تقول وما فأدنتنا من هذه الإشارة ، أو لم يكفك ما مضى من الإشارات إلى العلوم حتى جئت الآن تقول إنها أيضا تشير إلى هاتين الآيتين وما للزبية في ذلك (أقول للزبية في ذلك) توييح للسليين ولعلك تقول وأي توييح هنا والكلام في اليهود . أقول لك إن الله تعالى قال في اليهود إنهم أتوا نصيبا من الكتاب وهو التوراة فلما دعوا للعمل به وامثال أحكامه أعرضوا ولم أعرضوا ؟ أعرضوا بأضاليل ديجها لهم علماءهم وأكاذيب زينوها لهم وحيل اخترعوها ، سهوا الأمر على الشعب وعلى نفس العلماء ؛ فتارة يقولون لن نمسنا النار إلا سبعة أيام من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة وقال قوم منهم أربعين يوما وقال قوم إن آباءهم الأنبياء يشفون لهم وقال قوم إنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يذهب أولاده إلا عملة القسم .

كل ذلك تقدم ، ألا ترى أن للسليين وقعوا في نفس ما وقع فيه اليهود ماذا فعل اليهود ؟ اتكلوا على شفاععة الآباء وآبائهم أنبياء عظماء ، اتكلوا على أن الله عاهد يعقوب أن لا يذهب أولاده إلا عملة القسم ، اتكلوا ذلك الاتكال . فانظر ماذا حصل كانت النتيجة النهاون بالدين والنهاون بالمعاصي والنهاون في الطاعات . فلما دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بحكم التوراة نكسوا . فانظر أليس هذا بعينه هو الحاصل الآن في الإسلام . اتكل بنو إسرائيل على شفاععة آباءهم . واتكل للسليون كذلك على الشفاععة . الشفاععة حق عندنا والشفاعة حق عند بني إسرائيل ، يا محببا يعاقب الله بني إسرائيل ويسلمهم ملكهم . لماذا ؟ لأنهم اتكلوا على شفاععة آباءهم الأنبياء ونحن في ديننا نعتقد أن شفاععة الأنبياء حق بل منكرها يكفر ، فكيف يكون الحق سببا في العذاب ؟ نعم يكون الحق سببا في العذاب إذا أريد به باطل ، والذين يعملون شفاععة الأنبياء بابا للبطالة والكسل هم الذين اتخذوا الدين هزوا ولعبا (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) وهذا هو الذي أصاب السليين اليوم . للسليون اليوم إما متتورون بمحدون الدين ، وإما جهلاء يتكلمون على الشفاععة إلا قليلا من الفريقين تربوا تربية عالية منزلية أو مدرسية ، فإذا كان ذلك الاتكال سلب اليهود ملكهم أيام النبوة ، وإذا كان الجهد والنشاط في أمة الإسلام الأولى أورثها لللك للذكور في قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك) إلى آخره فهكذا في هذه الأيام أصبح الكسل والبطالة والاتكال على الشفاععة في أمة الإسلام سببا من أسباب زوال ملكهم وضياع مجددهم وذهاب سعادتهم . فكأنه تعالى لما قال (الم) في أول السورة يقول انظروا في آية (الم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب) إلى آخر الآيات .

فإن اليهود زال ملكهم بالتقاعد ويجعل الدين الذي أنزل ليكون عاملا قويا لرفق الأخلاق وإسعاد الأمة وصلاحها سببا في الفسوق والكسل . لذلك زال ملكهم وقد وعدت محمدا صلى الله عليه وسلم أن تملك أمته كثيرا من الأمم ، وذلك لأنهم قوم عاملون مجدون غير مخترفين في كتابهم كما خرف اليهود ، فإذا رجع للسليون كاليهود في أخلاقهم وعوائدهم المذكورة فإني أعاملهم معاملة أولئك اليهود ، وأسلمهم ملكهم ، هنا ما يؤخذ من تلك الإشارات ، ولعلك تقول هذا يؤخذ من آيات أخرى من القرآن ، فما فائدة هذه الإشارة ؟ أقول إن الإشارة دائما أبلغ من العبارة .

وإذا كان للسليون اليوم مفرقين بأمور دينية ، فإن هذه الإشارة تنبههم إلى الرجوع عن ذلك الكسل ويظهر لي أن هذا هو الزمان الذي تظهر فيه أسرار القرآن ومجانبه ويظهر لي أن الناس بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله سيجولون جولات في العلم والحكمة الإسلامية ، لاسيما أن الأمم الأوروبية اليوم قد انجذبت لدين الإسلام ، ولعلك تقول هذا عرفناه في سورة آل عمران .

لما الذي تشير إليه (الم) في أول سورة البقرة . أقول تشير إلى أمم ما في السورة ، وهو الجهاد وعلوم الطبيعة ، ذلك أن قوله تعالى (ألم تر إلى اللأ من بنى إسرائيل من بعد موسى) جاءت في الجهاد والحض عليه فارجع إليها ، وقوله تعالى (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك) إلى آخر الآيات ، فقد ذكر فيها محاجة إبراهيم للمروذ وكلامه في الشمس وأن الله يأتي بها من المشرق فانت بها من المغرب ، وكذلك جاء هناك مسألة العزيز وأن الله أحياء وأحيا حماره وقال له انظر إلى العظام ، وكذلك مسألة الخليل إبراهيم إذ قال الله له (أو لم تؤمن قال بلى الخ) وكل ذلك حض على علوم الطبيعة والتشريع .

فكأن (الم) في أول البقرة تشير إلى العناية بأمرين : الجهاد والعلوم جسمها الأرضية والسماوية ، ولا بقاء لدين ولا دنيا بغير هذين لاسيما في هذا الزمان كما جاء في هذه السورة أن الملك يدوم ما لم يعمل الناس الدين من أسباب التقاعد كما كان اليهود يفعلون .

تذكرة

كأن في هذه الساعة تخيل طائفة من مؤمنى هذا الزمان جالسين في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (الم) الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وكأنهم لقد كأنهم أخذوا يفكرون ماذا يعنى بالم حتى إذا وصل إلى قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) إلى قوله تعالى (وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) إلى قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك الخ) .

وكانهم لما سمعوا ذلك قالوا ياليت شعرنا ، ماذا يعنيننا من اليهود الذين مضوا وقد غرهم ما كانوا يفترون في دينهم وقد رفضوا أن يحكم لهم بحكم التوراة الخ ، ثم يقولون بعد أن يتدبروا لا بد أن يكون للتصود من هذا القول نحن معاشر المسلمين لاسيما في هذا الزمان ، فإن اليهود أيام النبوة كان لهم دين مضى عليه زمن طويل (قست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) وكذلك أدخلوا في الدين خرافات وأصقوها به وتوالى الأيام اغتروا بتلك الأوهام وخدعوا بها فجاءت أجيال صدقت بتلك الأوهام حتى صارت عندهم هي من الدين الأصلي ، وهذا عينه قوله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فظال عليهم الأمد قست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ثم كأنهم يقولون ألسنا اليوم غيرنا أيام النبوة وربما حصلت لنا تلك القسوة التي نحصل للأمة إذا طال عليها الأمد ، فهذا هو ذا الأمد طال علينا واصل قلوبنا قست فقد مضى على النبوة ١٣٤٣ سنة عربية ، وهي قرون كثيرة نامت فيها البيوت ، ونمت الجفون وطال الأمد وقست القلوب ، ثم كأنهم يقولون فلننظر في غرورنا في ديننا الذي أشار له القرآن لتنظر في عبوبنا في هذا الزمان لتنظر في ذلك لأن (الم) في أول السورة جاء مفتاحا لهذا العلم بها تفتح خزائن العلم خزائن العلم الخزونة في قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أتوا إلى آخره) لأنها مبدوءة بنفس (الم) فلتنظر أين غرورنا لأن الله لما قال في آية سورة الحديد التي تقدمت (فظال عليهم الأمد قست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أعقبه بقوله تعالى (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) فكأنه يشير إلى أن الأمة التي طال عليها الأمد وقست قلوبها وفسد أكثرها لا تأس من روح الله . فلتنظر المخرج مما وقفا فيه ، وكأنهم يقولون لتنظر في غرورنا نجد في العلم وفي النسب وفي الشيوخ وغير ذلك .

أما في العلم فإننا اليوم لانعرف من مقاصد الدين إلا علم الفقه وأصوله ، وقد درج للآخرين من المسلمين على ذلك بحيث يعتنون به وبأصوله ؛ فأما علوم الكائنات من طبيعيات ورياضيات وفلكيات ، فإن المسلمين لا يبالون بها ، ومن قرأها منهم فإنها يقرؤها لأجل الحياة الدنيا ، ولا يعتقد أن الدين يطلبها بل ربما اعتقد أنها تنافي الدين مع أن السور التي نزلت بمكة كلها ما كانت تدعو إلا إلى النظر في عجائب هذه الدنيا وفي جمال

النجوم وبهجة القمر ونور الشمس وبهجة الزهر وبهاء الزرع وحسن الشجر ومحجائب البر والبحر، وأكثر الأحكام الشرعية إنما نزلت بالمدينة؛ فإذا أراد المسلمون ملكاً وثبتوه بعلم الفقه موحده فإنهم جاهلون. ليفعلوا كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً بالنظر في هذا الوجود، وفي تهذيب النفوس ثلاث عشرة سنة، ثم أكل الله الدين له في عشرة أخرى وأزل فيها الأحكام، ثم يقولون إذن هذا خطأ يجب أن نتلافاه وجهل يجب أن نتجافاه وغرور يجب أن ننتهي عنه ونقلاه وتركه ولا نرضاه فلنقرأ العلوم كلها على أنها دين إسلامي فترتقى العقول أولاً والأخلاق ثانياً وينتظم أمر الصناعة والزراعة والتجارة والدولة الذي هو من لوازم تلك العناية العملية، وكأنهم يقولون هذا غرور علمي أورتنا جهلاً فاضحاً، فإن هذه العلوم الكونية تزحت من بلادنا إلى أوروبا ففرحوا بها وفرحنا بالجهل، ثم كأنهم يقولون لم غضب الله على اليهود في هذه الآيات غضب عليهم لأنهم تركوا حكم التوراة أي لم يرضوا بالحكم. وعصم هذا أنهم خالفوا في أحكام شرعية لهذا كان الغضب منصبا عليهم. أما نحن فإننا خالفنا في أمورهم من ذلك، خالفنا في علم التوحيد ودراسته اكتفينا من التوحيد بالعلم للدون الذي لم يجعل إلا للرد على قوم مبتدعين في الإسلام وهذا لا يكفي فإن الحاجة شيء واللم شيء آخر. غفل المسلمون عن القرآن، ألم يدرسوا هذه الآيات للكررات في القرآن التي تحض على معرفة ما في السموات والأرض كما أوضحناه، هذا هو المطلوب؛ فاعتزاز المسلمين اليوم بالانتصار على علم الفقه وعلى علم التوحيد الذي حتى بالفلسفة الناقصة للشوّهة بعد عن الله أولاً وعن رقي الأمة ثانياً.

وليس الغرور قاصراً على ذلك بل يفتري الإنسان تارة بعلم الشعر، وأخرى بعلم المعاني أو علم البديع أو أي علم جزئي كان، كل ذلك اغترار وجهل فاضح، فليكن المسلم للتعلم ملماً بالعلوم إجمالاً بحيث يدرس هذه الدنيا ويكون له فيها نظرة كما طلب القرآن.

هذا بعض الغرور بالعلم، إن هذا الغرور قد أدى إلى الجهل، وبالجهل ذهب ملكنا كما جاء في هذه السورة (وتلك الأيام نداولها بين الناس) فكان آباءنا آتاهم الله الملك لما لم يفتروا وبغرورنا دالت دولتنا.

الغرور بالنسب

يفتر بعض الدين ينتسبون إلى العظماء وإلى بيت النبوة بذلك النسب، ويفرطون في الأمور الدينية أو في العلوم والعارف، فهؤلاء لا فرق بينهم وبين بني إسرائيل إذا اتكلوا على أن الله قال ليعقوب لا أعذب أبناءك إلا تحلة القسم، فهؤلاء للمسلمون الأشرار الذين وقع في قلوبهم هذا القول مغرورون لأن الدين جاء لرقى الأنفس لا لخذلانها وخسرانها والآباء الذين ارتضوا بالنبوة واللم لا يرضون عن أبنائهم الذين يجهلون دينهم ويخالفون أمرهم. ألم تر إلى قوله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين) فلي من اطاع على هذا، وعلى من تنور من المسلمين أن يبينوا للناس كتاب الله وأن يشرحوا للمسلمين طرق الاعتزاز التي شرحها الإمام الغزالي في الإحياء حتى يرجع عنها المسلمون.

الاعتزاز بالشيوخ

ومن الاعتزاز الشائع بين المسلمين أنهم إذا اتبعوا شيخاً بطريق المهدي جعلوا توكلهم كله عليه بحيث لا يعرفون إلا قوله ولا يسمعون إلا علمه، وقد تركوا عقولهم وتفكيرهم والقرآن بين يديهم فلا يتفكرون ولا يتذكرون وهؤلاء يتكلمون على شيوخهم في منفرة الذنوب والشفاعة، وهذا كله تهاون وجهالة فعل المسلمين أن يتبعوا ويتعلموا (والله هو الولي الحميد) .

ميزان يبين المغترين من المسلمين والموقنين

هذا بيان جامع لعلامات العلماء الذين هم مغترون والعلماء الذين هم موقنون وكذلك الأمم التابعة لهم، هذا الذي سأذكره تبيان لهم وتمريف لأحوالهم وتمييز لهم عن الموقنين من علماء الإسلام وعامتهم.

فاعلم أن كل ما يؤدي إلى كسل السلم وتواكله وتومه وقسوته وتأخره في دينه أو دنياه غرور وجهالة . وكل قول أدى إلى النشاط وقوة العزيمة والصبر والقناعة والهمة العالية وإحراز العلوم ومقابلة الأمم ، فذلك من صفات اللوقفين وشيم الفضلاء وحكام الإسلام .

والدليل على ذلك أن الأمة العربية وإن كانت قبل الإسلام قوية الشجاعة والمزائم والهمم لما جاء الإسلام جمعها وأرسلها إلى إصلاح الأمم شرقاً وغرباً . فهذا هو الإسلام هو الذي زاد شجاعة الشجعان ووجهها إلى عظم الأمور ومنافع الجمهور .

فأما الأمم الإسلامية الحالية فإنك ترى كثيراً منهم لا يزالون يظنون أن ديننا يرضى التواكل والكسل والخبث فيفرون من الفضائل والأعمال الشريفة والعلوم ، ولمعرك إن علماء علوم هذا التعليم غارون ومغرورون ، وإن ملوكاً رضوا بهذا النوم والجهل لملوك مغفلون .

فهذا الليزان زن أعمال الأمة الإسلامية وأحوالها ، فإذا رأيتم يتكلمون على شفاعة الأنبياء أو على نظرات الشيوخ الذين علومهم أو على عطف مشايخ الطرق الذين لهم وهم في ذلك كله متكلمون فاعلم أنهم مغرورون والذين علومهم غارون فإن هؤلاء لم يفهموا الشفاعة إلا مقلوقة ولا نظرات شيوخ الصوفية إلا معتلة معتلة .

وهذا في الحقيقة الانتكاس . لو كان للتقدمون في الصدر الأول يفهمون الشفاعة كما فهمناها ما بلغوا مشارق الأرض ومغاربها ولا أذابوا مهجهم ولا تقوسهم في سبيل الله ، ومن الجهالة أن يعرف الإنسان باب الجمة بلا عمل ثم يحشم نفسه المخاوف والصعاب واقتحام الأخطار ، فلو كان علمهم كعلمنا مقلوباً ما عملوا ولا علموا ولا جاهدوا ولم يكن لهم ملك ولادول منتظمة ولا حكومات عادلة ولا ممالك شريفة في الشرق والغرب . فأما بعض مسلمي العصر الحاضر فإنهم جعلوا شفاعة الشفعاء إغراء بالمعاصي وباباً للجهالة وخروجاً عن الأدب ، وانه إن هذا انقلاب وجهالة عمياء إذا ظن السلم أن ديننا يرضى هذا النوم فهو مغرور .

فهذا هو الليزان الذي يميز به للمغرورون والقوقون الصادقون . إذا علمت هذا أدركت للناسبة بين قوله تعالى (وغرّم في دينهم ما كانوا يفترون فكيف إذا جمشاهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وبين قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك الخ) هذه هي النسبة بين هذين اللقامين غرور وفوزال ملك استقامة فلك . اليهود اغتروا بفتاوى دينية لا توافق أصل الدين فزال ملكهم ، وهكذا كثير من ممالك الإسلام أتى إليهم الدين وغير شكل العلم والعمل فيه فزال ملكهم ، وهذا كله سر قوله تعالى (ألم) في أول السورة بهذا يفهم بعض سر القرآن الآن ، وأن هذا السر وإظهاره لارتقاء أمة الإسلام .

لم يمنع الشرف الإسلامي من الرقي إلا جهل اللقامين بالدعوة إن الناس يؤثرون بوجودهم ، ولو كان الوجدان خطأ وضلالاً ميبناً ، فلو وجه الوجدان إلى محائب العلم ومقاصد الدين من الارتقاء العلمي لكان في الشرق أم لا يقاومها أحد .

نموذج من بدع الدعاة الجاهلين

بيننا أنا أكتب هذا التفسير إذ جاء في جريدة الأهرام يوم ٨ مايو سنة ١٩٢٥ - ١٥ حوالاً سنة ١٣٤٣ تحت عنوان :

دين جديد

في سوريا يؤله على بن أبي طالب ، وهاك نصه :

ظهر في بعض قرى الملوين القريبة من مدينة حمص متنبى جديد يدعو إلى عبادة على بن أبي طالب رضى الله عنه بشكل باطنى فتبعه كثيرون من الملوين وزعمائهم ، ولما استغفل أمرهم في قرية (العاليت)

أراد بعض رجال الأمن أن يدخلوا هذه القرية لتحصن الحقيقة فأطلق القوم عليهم الرصاص فاستدعوا قوة من حمص فحضرت قوة من جنود الدرك ، ثم حضرت من دمشق ثلاث سيارات مدرعة تحمل الجنود المختلط من فرنسيين وسوريين فأبذروا القرية بوجوب الاستسلام لقوة الحكومة ، وبعد الإنذار أطلقت عليها النيران فقتل من الأهالي واحد وثلاثون قتيلاً عدداً من قتل قبل ذلك ، وعدا الجرحى الكثيرى العدد ، ثم دخلت القوة إلى القرية وقبضت على الرجال وسلمت النساء إلى جنود الجيش المختلط ، وأوسلت الجرحى إلى مستشفى حمص بالسيارات ، وكان شعار أتباع النبي الجديد (لا إله إلا الله) .

وبعد تلك الواقعة نجّمهم بعض زراع قريق (الرقاقة) و (البلهما) في الزاوى فخرجت عليهم سيارات مدرعة فقتلت اثنين وجرحت اثنين وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من مائة شخص .

ووصف مراسل الزمان في حمص سبب هذه الفتنة فقال :

ظهر في العام للناضى مشعوذ نصيرى ادعى النبوة في بلاد العلويين غفقت الحكومة شرّ الفتنة بعد أن رأت خطورة هذه الدعوة ، فأصدرت أمرها بإبعاده إلى قرية اسمها العليليات من قرى أملاك الدولة في حمص تبعد عن هذه المدينة ١٥ كيلومترا إلى جهة الجنوب الشرقى فأخذ (النبي) ينشر لواء دعوته في تلك القرية ويسمى بمجدّ ونشاط والمين غافلة عن أعماله وأفعاله إلى أن استطاع إفتاح أهالي القرية وهم من العلويين باعتناق دينه الجديد ، فاشتدت عزمته وقويت شوكته ، وأصبح ناجوه يفتدون به بالمهيج والأرواح ، وظلت عائلتان سنيان بيديتين عن دينه ورفضتا قوله رفضا باناً فهاج عليهما أهل القرية فقتلوا أفراد تينك المائتين بصورة شنيعة إذ أحرقوا منازلهما وهم فيها .

وعلمت قيادة درك حمص بهذه الفاجعة فجهزت حملة تتألف من ١٥ دركياً ، وعلى رأسهم قائد درك حمص و ٦٠ جندياً من الجيش المختلط بقيادة رئيس فرنسى .

ولما اقترب الجنود من القرية عند ظهر يوم ٢٩ للنصرم قابلهم الأهالي برشق الحجارة وإطلاق الرصاص وقاموهم بشدة إلى أن حل الظلام وطوّقت الحملة تلك القرية العاصية ، وطلبت من دمشق تعزيزها بقوة أخرى ، فوصل للدرد في اليوم الثانى (٣٠ إبريل) وبدأت الحركات العسكرية في الساعة الأولى ، وبعد مقاومة دامت نصف ساعة احتلت الحملة تلك القرية وفي طليعتها (أربع سيارات مصفحة ذات الرشاش) وقد قبض على ٦٢ شخصاً من أهالي القرية وبينهم على ما اتصل بنا (النبي) الدموى .

أما عدد الجرحى والتلى فقد ذاع أنهم أكثر من ١٢٠ إلا أن مخبرنا استطاع الاطلاع على الإحصاء الرسمى ، وهذا هو :

بلغ عدد القتلى الذين قتلهم الأهالي إحراقاً ١٨ منهم ٨ رجال و ٦ نساء و ٣ صبيان وطفلة ، وبلغ عدد الجرحى الذين أصيبوا أثناء مقاومة الدرك ٢٧ منهم ٢٣ رجلاً وأربع نساء والقتلى ٢١ رجلاً . ولم ينل رجال الحملة أذى يذكر ، ومما يذكر أن أهالي القرية كانوا يقاتلون برباغة جأش وثبات وإيمان أوجدتها في نفوسهم ذلك النبي واعداً إياهم بالنعيم والرضوان ، وكانوا ينادون (لا إله إلا الله) عند الهجوم على الجنود .

هذا هو الذى ذكرته جريدة الأهرام ، وإن ذكر هذا أثناء هذا التفسير من عجائب الحكمة الإلهية ، فإن هذا النبي لشدة شغفه بسيدنا على كرم الله وجهه اعتقد ألوهيته ، ثم اعتقد أنه نبيه ، ثم إن تأثر وجدانه بهذه العقيدة انتشر في سامية فصاروا مثله موقنين ، وهذا عجيب جداً يقوم للتدع بوجدانه فيؤثر في الناس فيغدونه بهمجهم ولا يرجعون عن عقائدهم ، ويرمون أنفسهم في الهلاك والعذاب والدمار والأذى كل ذلك للعقائد الثابتة في النفس بما أثر فيها من الحكايات النعوية والآثار للتروحة في الكتب صدقا أو كذبا .

فيايت شمري أهج للسلون أن يحبوا العلوم حب هذا النبي وأتباعه للبدعة ؟ أنام للسلون حتى سبقهم أهل البدع فصاروا أحرص منهم على بدعهم ؟ .

يجب أن يكون تعليم الإسلام بهيئة غير التي نحن عليها الآن فليجب الله لهم بحمال صنعه ، ويجب النبي صلى الله عليه وسلم بأخلاقه وكأله ، ولتسكن للدين صورة تهن القلوب . فأما الاقتصار على الفشور فهو الذي أنام الامة آمادا طوالا ، وقد آن أو ان السعادة وأقبلت أيام السيادة .

ذكر غرور المسلمين في هذا الزمان وذكر أنواع الغرورين الذين ذكرهم الإمام الغزالي إجمالا لقد علمت أن الذي فتح باب هذا اللقام إنما هو قوله تعالى (ألم) نزل القرآن وكانت له حلوة في القلوب وروعة تأخذ بالألباب وعلم الله أن أمة الإسلام ستأخذ أدوار الأمم التي قبلها كما جاء في بعض الأحاديث المشهورة ، فتتخط بعد علوها وتسلم بعد ارتفاعها فأراد أن يرينا كيف السبيل إلى الخروج من المآزق إذا ارتطمنا في أحوال الغرور واتبقتنا نواب الخذلان والجهالات فأزل الحروف المفرقة ففتحت لنا باب العلم ، وقيل لنا إذا نزل بكم الغرور وصرتم كاليهود أيام السبوة وغركم في دينكم ما فتروته فارجموا عن هذا الغرور ولبووجهكم عقلاؤكم إلى الحقائق الناصعة ، ومن أعظم الغرور أن يقول المسلم إني منصور لأن الله ينصر المسلمين ، ويأتي بآيات وأحاديث كقوله تعالى (الله وليّ الذين آمنوا) وكقوله تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) وكقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وكقوله تعالى (ولننصرنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

ويقتل ذلك الفكر من جماعة إلى جماعة حتى اعتقد المسلمون أن الله ينصرهم على أمم الفرنجة ، وإن كان المسلمون جاهلين متعادين متحاسدين غافلين ، وذلك من أعظم الغرور ؟ هذا الغرور هو بينه الذي كان عند اليهود أيام النبوة اغتروا بما ينقل إليهم سلفهم ففترت مهمهم واتكلوا على الآباء غفاب آمالمهم ، ويظن المسلم أن الله ينصره لأنه على دين الإسلام ، وفانه أن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم كان هو نفسه يخرج للقتال ومحارب ، فلو كان النصر بلا علم ولا عمل فضيلة لكان الأولى به صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فيظن أغنياء المسلمين من شيوخ وعامة أنهم أكرم على الله من صاحب الشرع فقد أخرجه للغزوات فنصره ، فأمام فأقدم ونصرهم فهم على هذا أعز على الله من صاحب الشريعة ، وهذا غرور عظيم أضع بلاد الإسلام فإن ضياع الأمم وخرابها لا يكون إلا بعد خراب عقول أبنائها ، وأي خراب أعظم من خراب هذه العقول اللاتنة ؟ .

حكاية تركي قديم

منذ ثلاثين سنة حدثني أحد الباشاوات الترك ، قال إننا حفظنا دولتنا التركية ستائة سنة ، ولم يكن عندنا هذه الآلات الحديثة فأى حاجة لنا بها ؟ الله حافظ دولتنا فلا حاجة إلى أمر جديد ، ثم قال إن القوم يقرءون الفتوحات للسكية لمحي الدين بن عربي ، ويقولون ماذا يزيد بعد ذلك ، ومعنى هذه العبارة أنهم لن ينظروا في شيء بعد ما هو عندهم علما من الفتوحات للسكية وعملا بالأنظمة للوجود وما عدا ذلك فهو لا قيمة له .

صحت تلك الحكاية أيام حكم السلطان عبد الحميد وتألقت أشد الأمل ، واعتقدت أن الفرنجة لابد ها جمون على دولة الخلافة ، ثم مضت سنون وسنون ومزقت الدولة ، ولكن الله سبحانه وتعالى أرجع إليها شبابها لما غيرت الأفكار ولا يطم إلا الله ماذا يكون في المستقبل القريب والبعيد .

أصناف الغرورين من كلام الغزالي

جعلهم أربعة أصناف : العلماء ، والعباد ، والتصوّفة ، وأرباب الأموال .

فالعلاء (١) فيما أن يفتروا بأحكام العلوم العقلية والشرعية وإتقانها ومع ذلك يكونون قد تركوا تهذيب نفوسهم ، فهم شرهون عاصون ظالمون لا يعرفون مكابد النفس (٢) وإما أنهم يعرفون علوم الأخلاق الباطنة ، ولكنهم يظنون أنهم أكرم على الله من أن يلطخهم بها (٣) وإما أنهم افتروا بالفتاوى الشرعية وظنوا أنهم

بذلك يخدمون الدين ، وقد نسوا الأعمال الظاهرة والباطنة (٤) وإما أنهم اشتغلوا بعلم الجدل في علم الكلام وفي رد شبه الواردة فيه وضعوا أعمارهم في ذلك وأفهموا الناس أن الدين لا يتم إلا برد هذه الشبه ، وهذه أكاذيب جاءت في الأمة الإسلامية ، فالصحابة كانت تحيط بهم الأكاذيب والشكوك وماتعرضوا للرد عليها ولا ضيعوا في ذلك زمانهم (٥) وإما وعاظ لأمهم لهم إلا السمعة والصيت ولا قلوب لهم ولا وجدان (٦) وإما فقهاء استباحوا لأنفسهم بالتواهي ما يحرم بالشرع حقيقة واكتفوا بالظواهر ، وهذا غرور عظيم .

وأما العباد (١) فمنهم من أهمل الفرائض واشتغل بالنوافل والقضائل (٢) ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في نية الصلاة (٣) ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في إخراج حروف الفاعحة (٤) ومنهم من اغترت بقراءة القرآن فيهدونه هذا وربما يختمونه في اليوم واليلة مرة (٥) ومنهم من اغترت بالصوم بل ربما صام الدهر كله . (٦) ومنهم من اغترت بالحج مع أن عليه ديونا وحقوقا (٧) ومنهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينسى نفسه (٨) ومنهم من يجاور بمكة وليس له من الحامد غيرها اقتنارا .

وأما للتصوفة (١) فهم إما مغترون بالزنى والهيبة والقلوب خالية (٢) وإما مغترون بالأسامي والألفاظ كالشاهدة والتجلى والوصول ، وبهذه وأمثالها يفرّ نفسه فيقول : أنا واصل والعقهاء والفسرون مغرورون والمامة حمير وهكذا (٣) وإما مغترون بالزهد والوله بالله والوجد والحب له مع أنه قد يتخيل أحدهم في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي الحب قبل المعرفة (٤) وإما مغترون بخدمة الصوفية ولاعرض لهم إلا الشهرة . (٥) وإما مغترون بدقائق علم النفس والبحث عن رذائلها فتضيع حياتهم في ذلك غرورا (٦) وإما مفتوح عليهم ولكن كما فتح عليهم بشي تعجبوا منه وفرحوا به فحجبوا عما بعده (٧) ومنهم من لم يمنعه الفرح بل ارتقى حتى اقترب من الله وظن أنه وصل إليه فوقف فهو مغرور .

وأما أصحاب الأموال وهم الصنف الرابع (١) فهم إما مغترون ببناء المساجد والتكايا الخ وللال مأخوذ ظلما ولا ينفعهم كتابة أسماءهم عليها ولا يفر الله لهم (٢) وإما مغترون بسبب البناء للذكور وللال حلال ، وسبب التروار أنه قد يكون هناك وجوه تقدم على هذا البناء (٣) وإما مغترون بالعبادات وقد بخلوا بالأموال . (٤) وإما مغترون بإخراج الرديء للزكاة فقط ، هذا إجمال أسناف للتروارين من الإحياء .

الاغترار بعلو الآباء

وبما ذكره وشدّد فيه التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبته . قال الإمام النزالي : كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم ، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون ، وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى ، وضرب أمثلة لذلك كنوح وابنه وكيف زين الشيطان للملوي هذه العصية ففره اه . أقول ويقرب من هذا :

اغترار أمة الإسلام اليوم والعداوات قد فرقت شمالها والعلم جمع شمل غيرها في أوروبا وأمريكا فقد علت أيها القطن كلام الإمام النزالي ولومه لبعض العلوية في زمانه ، وكيف خالفوا آباءهم الأولين الذين كانوا مجتهدين خائفين وهم في البكسل آمنون ، فانظر حال السدين اليوم كلهم ووازن بينهم وبين أسلافهم . انظر كيف رجع أبناء العرب منهم إلى ما كان عليه آباؤهم الأولون قبل زمن النبوة من تفرق الكلمة والجهالة السوداء . انظر كيف أصبح كل فريق منهم تحت حكم دولة من دول أوروبا . لقد كان أشهر الدول أيام النبوة اثنتين فارس والروم ، وكان آباؤنا نحن أبناء العرب يكادون يكونون تحت إشراف الدولتين فلكل منهما نفوذ في الجهة التي تليها .

فلما جاءت النبوة اعلبت الحال ، وأصبح السيد مسودا ، والحاكم محكوما ، وسار أبناء العرب من جزيرتهم إلى شمال أفريقيا مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، ثم ساروا إلى بلاد الأندلس ،

ولما مضى دورهم تفلصوا من الأندلس ، وانكشوا في شمال أفريقيا إلى الآن ، وهام الآن نهب مقسم بين دول أوروبا ، فبعد أن كانت أوروبا ليس فيها ذولة ذات غلبة أيام آبائنا إلا واحدة أصبحت اليوم دولا كثيرة ، كما انتشرنا نحن في الأرض وصرنا أما ففرقنا الله عليهم ، وأصبحت فرنسا في مراکش ومعهما أسبانيا وفرنسا أيضا في الجزائر وإيطاليا في طرابلس وانكشوا في مصر وفرنسا في الشام واليهود مع الانجليز في فلسطين والانجليز أيضا في العراق . انظر كيف رجح أبناء العرب إلى حالهم قبل النبوة بحال مكذرة واستعباد شنيع .

وإنما فعل الله ذلك بنا لما ركز في قوسنا من الجهالة العمياء والاعتزاز والاستكبار والعظمة الجاهلية . انظر ما ذكره الإمام الغزالي من أصناف للمقترين ، فإياك أن يجول في خاطرك أن هذا التشديد الذي ذكره خارج عن المقول أو تظن أن ذلك مبالغة لا يسلم منها أحد ؟ كلا . وأنا أوضح لك المقام الآن لتعلم أن أولئك المقترين من أسلافنا هم الذين أوقعونا في الاستعباد وإذلال أوروبا . انظر إلى أصناف العلماء ، وأصناف العباد ، وأصناف الصوفية ، وأصناف الأغنياء الذين مضى ذكرهم في كلامه . انظر كيف ترى أن الصوفية في زماننا أكثرهم في جهالة عمياء ، فإنهم عادة يقطعون الصلة بين تلاميذهم وبين مجموع الأمة ويفهمونهم أنهم على الحق وأما - وهام فإنما هم قوم منورون وهكذا علماء للماهد الدينية الذين لا يعرفون من دين الإسلام إلا الفتاوى الشرعية التي تليق للقضاة . فهؤلاء لا يبالون غالبا بتهديب النفوس ولا بتغييره وهكذا العباد يرون أن الخير خاص بهم وهكذا للثرون ، فالاعتزاز في هذه الأقسام الأربعة راجع إلى قصر النظر وانفصال كل طائفة عن سواها ودعواها اختصاص الهداية بها .

لذلك نجد أبناء العرب في العراق وفي سوريا وفي فلسطين وفي شمال أفريقيا تجاورت ديارهم واتحدت لغتهم واتحد دينهم وهم من أصول متجانسة فهذه أربعة أسباب للاجتماع والتآلف قد جهلها وقطعوا جبلها وجهلوا أنفسهم وسفهوها فلا باللغة تواصلوا ولا بالجنس تعارفوا ولا بالديار اتحدوا ولا بالدين اتفقوا ففترقوا مذاهب وتاموا ، واجتذب أرباب الطرق كل واحد منهم طائفة لنفسه وأناموهم في كنفهم وهكذا للمسلمين علماء الدين فلما فترقوا ولم يفهموا سلط الله عليهم أوروبا ، كما قال الله تعالى في قوم (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) فانظر كيف جعل تفرق القلوب من أجل عدم العقل ؟ .

أو ليس من البكي أن يكون هؤلاء سبب ارتقاء العالم الإنساني منذ ألف سنة ثم يصيرون الآن عبرة الأمم ضعيفي الهمم ، إن آباءهم الذين علموا الأمم واجتذبوا إلى دينهم أهل الهند وجاوه والصين وغيرهم وأمم الترك فكيف أصبح الخلف على تقيض ما عند السلف .

وكيف أصبح أهل الممالك المتحدة الذين لا يجمعهم جنس ولا أصل قد أصبحوا أمة واحدة مع أهم ممالك يمدون بالشراة وأبناء العرب الذين كان آباؤهم مصايح العالم أذلاء متقاطعين جهلاء أغنياء حتى إنك ترى نفس الجزيرة العربية التي لاتعدو عدد أصابع اليدين من آلاف الألوف مشتتة على ممالك متفرقة متشاكسة مختلفة متنافرة متعادية كالجاهلية الأولى فهم أذئاب الأمم .

فأما للممالك المتحدة ففيها نحو مائة ألف ألف وهم مملكة واحدة أخافت العالم وأزهجت وارتعدت لها فرائس أوروبا كل ذلك لأن القوم علماء ونحن جهلاء وهكذا أم الألمان والانجليز وغيرهم كل منهم اتحدوا وعاشوا في أمن لأنهم متعلمون ، فالعلم هو الذي رفعهم .

ولست القوة وحدها بمنجية ، ألا ترى إلى الآساد كيف أحجمت عن مهاجمة الناس في البلدان ذلك لثقل عقولها مع أنها لو عقلت لأذنت الناس ، هكذا الأمم الإسلامية اليوم إنعامتها عن الاعتقاد أنها أمم . فترة بأصناف المرور التي ذكرها الغزالي المجموعة كلها في قوله تعالى على سبيل الإشارة (فرحوا بما عندكم من العلم) .

دواء هذا الداء وكيف يرتقي أبناء العرب خصوصا وأبناء الإسلام عموما

لاسيب لرقى هذه الأمم العربية أولا ، والأمم الإسلامية ثانيا إلا أن يبدأ أولا أبناء العرب بتعميم التعليم للرجال والنساء ويكون ابتدائيا وثانويا وعاليا لكل بقدره ، ويكون الثانوي مشتتلا على نظام هذه الدنيا وجمالها كما تفعل دول أوروبا ، وتكون تلك العلوم ممتزجة بها بعض الامتزاج آى القرآن كما فعلت في هذا التفسير ، إذا عمّ التعليم في العراق وفي سوريا وفي مصر وفي بقية شمال أفريقيا هنالك يحصل التعارف بقراءة تاريخ أجدادهم وتخطيط بلادهم وقراءة أسرار دينهم وأدب لغتهم ، فيتواصلون بالقلوب وبالطرق الحديدية والسفن الهوائية والبحرية ويتعارفون ، وإذن يكونون هم أولى بأن يكونوا ممالك متحدة من الممالك للتحدة، ومتى فعل ذلك أبناء العرب قلدتم للسلمون في الشرق ، وساعدهم إخوانهم الترك الذين قد أدركوا الأمر وابتدءوا يتعارفون فيعرف كل منهم أخاه التركي في بلاد روسيا وفي بلاد الصين ، وهم في العالم نحو ثمانين مليوناً فهم يريدون أن يتحدثوا من حيث اللغة والجنس . هكذا فليفعل العرب ثم يكونون مع إخوانهم الترك أما متعاونين لاجتماعهم معهم في الدين وفي الجوار وفي أهم أمم شرقية .

هذا هو الذي يزيل القرور من أمة الإسلام فإن قراءة العلوم المختلفة تحبب سائر العلوم للإنسان فيعرف كل إنسان أن عند غيره مزية ليست عنده فلا يحقر الصوفي عالم الفقه ولا عالم الفقه الصوفي ولا العابد الفنى ولا الفنى العابد بل هم جميعا يتصالحون . هذا هو الدواء الناجع لأمة الإسلام (فإن لم يكن ذلك قفل على دولهم وعلى أبنائهم السلام) .

ذلك سرّ قوله تعالى (وغرم في دينهم ما كانوا يفترون) الذى هو سر (ألم) للذكورة في أول السورة فقد أرشدتنا الحروف الثلاثة إلى قصة اليهود والمنفردين بشفاعة الآباء وتوصلنا بذلك إلى غرور المسلمين وجهالتهم وتقلنا ملخص المنفردين من الإحياء وعرفنا الدواء وهو العلم فالمسلمون اليوم منفردون . فقلنا هم مقهورون والعلم هو الذى يدفعهم إلى درجات الأمم الصادقة القوية . ذلك بعض أسرار القرآن التى أظهرها الله تعالى في هذا الزمان ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، ومتى تم ماقلناه يفرح المؤمنون بنصر الله .

موازنة هذا المقال برأى ابن خلدون

اعلم أن العلامة ابن خلدون يقول في مقدمته: إن العرب لا يجتمعون إلا على نبى أو ولي، يريد بذلك أنهم ليسوا كغيرهم من الأمم يجتمعون اجتماعا سياسيا بقولهم . تقول إن الطريق الذى سلكناه في هذا المقال الذى سيتم إن شاء الله تعالى قد جمع لهم بين الدين والعلم ويرجعون إلى العالم وينبؤونه أكثر مما كانوا سابقا ، ويكونون هم وبقية المسلمين شرطا ونورا لنوع الإنسان .

عجائب البلاغة في القرآن والإيجاز

انظر إلى بلاغة القرآن في هذا المقام . انظر إلى الإيجاز الذى يجز العالم قاطبة، أدهش العلماء في الإسلام البلاغة في إيجاز قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء ألقى) وفي قوله (ولحك في القصاص حياة) وهكذا فليكن دهشهم هنا أعظم أنه لم يكن من نظام البلاغة أن يخاطب الله المسلمين قائلا ستكونون بدقرون مقسمين إلى أمم وتصبحون تحت أيدي الفرنجة بجهلكم وغروركم وظهور طوائف المقله والصوفية والعباد والأغنياء الذين يدعى كل فريق منهم أنه هو المختص بالنعمة ويعتقر الآخر ، وبهذا القرون تكونون طوائف إلى آخر ما تقدم . لم يذكر الله ذلك لأن فيه كسرا لحدة القوة الدينية إذ ذاك ولكن لابد من ذكره مرموزا لهذا ولغيره مما سمعته في هذا المقام بقوله تعالى (ألم) فهذه الحروف الثلاثة ذكر الداء والدواء .

بهذا وبأمثاله يكون إعجاز القرآن ، بهذا يعرف معنى قوله تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فالذكرى قد قرأتها في هذا اللقاه والرحمة هي اجتماع أبناء العرب وبقية الأمم الإسلامية اجتماعا عليا يطلبه الدين ويفوقون أبناء الفرنجة، فهذه هي الذكرى وهذه هي الرحمة وهذه هي ميزة القرآن الذي هو المعجزة الباقية لآخر الزمان، إذ خاطبنا الله تعالى بلفظ (الم) وعلنا علم العمران والسياسة وقد خزنها في كتابه العزيز وأبرزها في هذا الزمان لما آن الأوان ، فبهذا يمتاز القرآن بمعجزته عن قلب العصا حية وإبراء الأكمة والأبرص، فبمثل هذا تحيا أمم وتشفي من المرض على طول الزمان وتقلب القلوب الجامدة فتصبح عاقلة مفكرة في أمم متعاقبة إلى آخر الزمان (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) .

إيضاح : كيف يزول الغرور من أمة الإسلام

أيها المسلمون ها أنتم أولاء قرأتتم قصة اليهود أيام النبوة وكيف غرهم في دينهم ما كانوا يفترون ، وعرفتم أن الغرور شمل اليوم وقبل اليوم أمة الإسلام علماءها وعبادها والصوفية فيهم ، وكيف كان علم الفقه وعلم التوحيد وعلم التصوف والانكباب على حجج أو على صلاة مع ترك بقية الأعمال النافعة في الأمة الإسلامية كما تقدم عن الغزالي أورث السلم غرورا عظيما فيفتح بالحج أو بالصلاة أو بالصدقات أو بالتصوف أو بخير ذلك . وقلنا إن هذا فرق العرب الذين على يديهم قام هذا الدين فأصبحوا في ديارهم خاضعين للفرنجية ذلك كله بالغرور . اللهم إني أحمدك وأشكرك ، اللهم إنك أنت المعلم والمرشد ، اللهم إني عاجز عن حمدك وشكرك فلطالما كنت أقول في قلبي مادواء الإسلام وما داؤه وما حال الصوفية ، وهل هم قاموا بما عليهم مثلا وهكذا ؟ فقد اتضح الأمر الآن ، وعرفت الحقيقة بمعوة الإمام الغزالي في الإحياء فقد جرتني بصريح عبارته أن أبرز للناس الحقيقة (فلا عطر بعد عروس . ولا مخبأ بعد بوس) وقد اتضح الأمر فلنكتشف الحقائق فنقول :

أمر الله المسلمين بالنظر في هذا العالم للشاهد فقال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وقال أيضا (والذي قدر فهدى) وقال (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض الخ) وغير ذلك .

خلق الله العيون للناس والأصماع والغلوب ، ثم سلط عليهم الجوع والعري والحاجات الكثيرة ليتخذوا لهم ما يسد حاجتهم مما حولهم ويتعلموا من نظام الطبيعة . ذلك أودعه الله في الفطرة فنظر الناس إلى النحل والنمل والفرمان وكلاب البحر وأمثالها فوجدوا لها جميعات منظمة فيكون للخلية الواحدة من النحل ملك وشغالون وجامعون للسل وجامعون للشمع وحارسون من دخول الأجانب ، وهكذا أمر النمل فله ملكة وضباط للجند ومحاربة ومربون للصغار وحجرات خاصة لكل جيل من أجيال الدرية ، وأظفار جمع ظفر لتربية الترية ، وهكذا مما ستره في سورة النحل والنمل ، فلما رأى الإنسان ذلك قد بما كونه جميعاته ونظمها ولكن لا كتنظيم النمل والنحل بل أقل ، ثم ارتقى الإنسان اليوم في جماعته، كما سترى الترية في أمريكا قريبا في آخر هذا القال ، وكيف جعلوا المدارس كأنها نظام للدينة كلها ، وكأنهم إذ ينظمون تلاميذهم ويحطونهم العلوم العقلية والصناعات اليدوية يقرءون قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) فيها تقدم في سورة البقرة أو كأنهم يقرءون قوله تعالى في هذه السورة (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) أو كأنهم يقرءون غزوة أحد ، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقسم عليهم الأعمال .

المسلمون من مخلوقات الله تعالى (وهم ينظرون بأعينهم) :

(١) قطرات الماء تتحد في النهر فتغرق القرى وتهلك البلدان .

(٢) وتسقى الزرع وتدرى الصرع .

(٣) وذرات الهواء بأتحداها وجربها تهدم الحصون والقرى وتقلع الأشجار كما تزجى السحاب وتنفع الناس

(٤) ويشاهدون النمل والنحل وكراب البحر والهربان والجمهوريات النظامية .
 (٥) ويشاهدون الممالك المتحدة في أمريكا والممالك الأخرى هناك . كيف نظمت ممالكها مع اختلاف الأقسام .

(٦) ويسمعون عن المدارس هناك كما سأذكره قريبا ، وذلك أن للدرسة فيها العلوم والصناعات ، فالتنفيذ بناء أو نجار أو خائط أو صانع الكهرباء ، أو مواسير المياه ، والتليذنة خانطة أو طابخة أو منظفة ، وهكذا تجد للدرسة مستقلة في زرعها وغرسها ودوابها وعمارتها ، والطلاب يصنعون كل شيء عقلي وحسي ، وهذا هو الذي يناسب نظام عالم النحل والنمل ويناسب القرآن والدين ، ويخالف كل المخالفة حال المسلمين قديما وحديثا بعد القرون الأولى .

فالعالم الفقهي بفقهاء مغرور ، والعالم بالتوحيد مغرور ، والصوفي بمغرور ، والعاقد بمغرور ، وكل حزب اقتصر على شيء من الدين وشمخ بأفقه عن الباقي فهو مغرور .

وهادين الإسلام إلا العلم والعمل بكل ما يحتاج له المسلمون في كل زمان بحسبه كما فعل أهل أمريكا وغيرهم في الوقت الحاضر فلا يكون قوم بسبب الذين عالة على قوم بل كل الناس متعاونون .
 ولقد ذكر الله المسلمين بهذا كله ذكرهم بالنظر في السموات والأرض فأعرضوا وقرب الأمر لهم فأنزل سورتين إحداهما باسم النحل والأخرى باسم النمل لما فكروا ، أخيرا خلق لهم أمريكا التي قبلت النحل والنمل والهربان وكراب البحر دائما وأما كثيرة من الطيور وغيرها فأعرضوا : علم الله ذلك فقال لهم (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) .

فانظر كيف جعل هذا المعنى في الماء الجاري وفي الهواء وفي النحل وغيره وفي أمم الإنسان الراقى اليوم كل ذلك نعمة الله للمسلمين ، ثم أسمهم كلامه فقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا الخ) .

وهل بعد البيان في هذا التفسير عذر للمسلمين إذا بقوا على القديم ؟ كلا فليعلم الرجال والنساء والعظيم والحفير العلم والصناعات من نجارة وحدادة وغيرها ، وكفى للمسلمين تأخرا ؛ فهذا كله فرض كفاية ذهبها المسلمون في الكتب ومثل له بعضهم بدفن البيت والصلاة عليهم كأهم كانوا ينظرون إلى موت الأمة ولكننا نحن ننظر إلى حياتها لأن الله يريد ذلك . فلا ذكر لك الآن نظرة سائح مصري توجه إلى أمريكا ، وذكر العلم والعمل في مدارسها وحقر أمر العلم العقلي الذي لا منفعة فيه ، ثم قال يعتقد علماء التربية الحديثة .
 يعتقد علماء التربية الحديثة أن حصص الدراسة المعتادة يجب أن تتخلها الأعمال اليدوية الصناعية ، ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة :

(أولا) من لوازم الحياة أن يتعلم الطالب منذ نعومة أظفاره للباقي الجوهرية في صناعة أو أكثر من التي لا يهني لأحد عنها كالنجارة والحدادة وصناعة الأحذية والطباعة وغير ذلك .

(ثانيا) ضرورة تعويد الناشئة مهما كانت منزلتهم الاجتماعية ومراكز والديهم المالية (ذكورا كانوا أو إناثا) احترام العمل اليدوي إذ لا هار في العمل .

(ثالثا) اكتشاف اللواهب الكامنة في أيدي الناشئة والتي لا يتسنى إظهار مكنوناتها ومواهبها إلا بالتزول إلى ميدان العمل أمام اللطارق البخارية والآلات المستخدمة في الصناعات على اختلاف أنواعها .

[وبعبارة أعم] يجب أن تكون للدرسة صورة مصغرة من العالم التي هي شطر منه . فمن الخطأ أن يقال إن الفرض من التربية الاستعداد لاقتحام ميدان الحياة بل يجب أن يقال إن التربية هي الحياة وإن للدرسة ميدان الحياة ؛ وكما أن الناس في الحياة يستخدمون أيديهم كما يستخدمون عقولهم ، فكذلك يجب أن يكون التلاميذ في المدرسة .

ويلاحظ أن تكون الأعمال اليدوية في المدارس متصلة تمام الاتصال بمواد الدراسة ، مثال ذلك أن الإنشاء في معاهد أمريكا يملونه للطلبة كما يأتي - يصف الطالب الأطوار التي مرت عليه في ورشة الأعمال اليدوية في صنع دولاب من الخشب أو سبك كتلة من الحديد أو بناء زورق للسباحة أو تركيب جهاز لاسلكي أو تشييد غرفة في بناية من بنايات المدرسة أو الكلية أو تحرير مقالة في جريدة المدرسة وإعطائها لأحد زملائه لطلبها، وتصحيح المسودة ومراجعتها أو وصف وانتقاد رواية مثلها هو وزملاؤه في مسرح للمدرسة أو كتابة فصل في زراعة البطاطس كما شاهد العملية بنفسه في حقول التجارب الزراعية ، وتكتب البنت أيضا ضولا عن زى أو أزياء معلومة خطتها رفيقائها أو عن أوان خزفية كلفن بصننها من طينة معينة وحرقتها وطلاتها بالادهان . كذلك يدرس فن الرسم بمساعدة أساتذة الأعمال اليدوية - فيقدم هؤلاء أجهزة للصايح الكهربائية مثلا إلى أساتذة الرسم ، ويكلف هؤلاء تلاميذهم بإعداد قطع من الورق أو القماش أو الحرير بشرط أن تصلح كظلال جميلة مختلفة الأوضاع والرسوم للصايح المذكورة ، وبلى ذلك نقش نماذج جميلة منقولة أو مبتكرة على هذه الظلال فتزداد جمالا وحلاوة .

يرسم التلاميذ في الجغرافيا مثلا خارطة أميركا على قطعة من الأرض في حقل للمدرسة الزراعي ، ويكلفون تلاميذهم أن يلوّنوا الخارطة بزهور صغيرة يمثل كل نوع منها قسما من أقسامها .

يكلف التلاميذ الذين يدرسون علم الحساب مثلا عمل ميزانية للأجهزة والأدوات والأشياء التي يشرع إخوانهم في صنعها في الورشة ؛ كذلك يتولون أعمال المصارف اللبالية التي تنشئها إدارة المدرسة فيها لا لتعويد الطلبة الاقتصاد وإبداع الأموال فقط بل لتكون درسا عمليا في الحساب . كذلك يكون بعضهم مسئولوا عن ضبط حسابات الأندية ومراقبة دفاترها .

وقد يتوهم القارىء أن حسابات الأندية هذه مسألة تافهة لا تستغرق وقتا يذكر غير أن كثرة عدد الطلبة في بعض المدارس في المدن يجعل ميزانية هذه الأندية شيئا لا يستهان به ؛ فيزانية نادى الألعاب الرياضية في مدرسة ثانوية واحدة في نيويورك (واممها ديوت كلنتون) عن سنة ١٩٢٣ كانت مائتي ألف ريال . هذه فقط أمثلة ضئيلة وتبدأ هذه الأعمال اليدوية من روضة الأطفال ، وبلى ذلك ثمانى سنوات في الأقسام الابتدائية وأربع سنوات في الثانوية .

فيينا نجد بعض الطلبة يتلقون علم التاريخ ترى البعض الآخر في نفس المعهد يقشرون الخشب ويسبكون الحديد ويصلحون السيارات ويقودونها ويصنعون الأواني الزجاجية وأجهزة اللاسلكي والأسلاك الكهربائية أو يشيدون عمارة أو يحرثون قطعة من الأرض أو يربون اللواتى والطيور الداجنة أو يصنعون الزبد . كل ذلك يقوم به الطالب والعرق يتصب من جبينه غنيا كان أو فقيرا ذكرا أو أنثى .

ولا يقصد بذلك أن تحشد جميع اللهن والصناعات في كل معهد ويعتم على التلاميذ تعلمها ، فهذا غير ممكن بالطبع ؛ ففي نيويورك بلغ عدد الصناعات المختلفة في العام للتصميم ١٧ سبعة عشر ألفا كانت للمدارس الابتدائية والثانوية تقدم لطلبتها منها ٢٠٢ فقط . يختار منها الطالب عددا محدودا في خلال الفترة التي يمكنها في تلك المعاهد ، وإنى لا أعظم بعد زيادة عدد وافر من هذه المعاهد في كثير من الولايات إذا قلت إن الصبي الأمريكي (والبنت الأمريكية) اليوم يسوق الأوتوموبيل ، ويركب جهاز اللاسلكي ، ويصطحب ويركب الأسلاك الكهربائية ، ويتفنن صناعة على الأقل من الصناعات المعروفة قبل بلوغه سن الرشد .

يقول لك علاؤهم : إن إصلاح أوتوموبيل من أوتوموبيلات غورد خير من تحليل الكليات إلى عواملها وتركيب التليفون أنفع من إعراب الكلمة وتحليل الجمل ، وصنع حائدة للمنزل أفضل من إيجاد الجذر التكعيبي لكعبة سلبية لا وجود لها في الحياة ، وتربية البقر والفراخ وتحمين نتائجها أكثر فائدة لبني الإنسان

من صرف السنين الطوال في دروس اللغة اللاتينية حتى يتمتع المتعلمون بمطالعة كتاب في الفلسفة كتبه فرنسيس باكون اسمه (نوفوم أرجانيوم) .

كم أود لو زار الكثيرون من رجال التربية معهدا أو أكثر من المعاهد التي تسد حاجياتها بنفسها ، وفي مخيلتي الآن صورة واضحة من معهد همبتون في ولاية فرجينيا - مساحة هذا المعهد ألف ومائة فدان وفيه مائة وخمسون بناية ، ولا بد أن يدهش القارىء إذا علم أن إدارة هذا المعهد قامت ببناء ثلاث بنايات فقط في بدء تأسيسه وشيدت البقية بالتدريج سنة بعد سنة ، وكان الطلبة أنفسهم هم الذين شيدوها في هذا المعهد ، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف طالب وطالبة ، وهذا لا يعد كبيرا جدا ؛ ففي بعض المدارس الثانوية عشرة آلاف طالب ، وفي جامعة كلومبيا في نيويورك ٥٠ ألف طالب - فيه يزرع الطلبة الأرض ويأكلون ثمارها ، ويربي الأولاد للماشية ويستخرجون الزيت والجبن من ألبانها ، ويذبحون عجولها فيطبخ النبات لحمها ويأكل النبات والأولاد معا ، ويفصل الطلبة أنفسهم الملابس ويحيطونها لزملائهم ، وهم الذين يشيدون البنائيات التي تحتاج إليها كليتهم ويركبون أبوابها ونوافذها ويمدون أنابيبها ويوصلون إليها الماء الساخن والماء البارد ، ويضعون أسلاكها الكهربائية ويطلون حيطانها ويصلحون ويقودون سيارات تنقل من بناية إلى بناية فيها ، وتلميذات الكلية عينا ينظفن حماماتها ويعملن في غسل الملابس وتنشيفها بواسطة آلات كهربائية وكبها ورتقها وإرسالها لمكتب خاص لتوزيعها على ذوبها ، ولذا ترى ذلك المعهد كملكة واسعة الأطراف في الصادر والوارد إليها فلا تحتاج إلى صانع ولا عامل ولا خادم ولا مواد غذائية من الخارج .

لعمري إن هذه هي الحياة بعينها ، وهذا ما يجب أن يكون في كل مدرسة فإن تجريد المدارس تجريدا تاما عن الحياة الطبيعية في الخارج يولد السامة واللذلل ويخرج الطالب إلى ميدان الحياة الحقيقي وهو غريب عنها - ضع أميريكيا من خريجي تلك الكليات في عمل من الأعمال ، واعتمد عليه في كل شيء تجده مدرجا قويا وانقا بنفسه لأنه إنما كان يعمل نفس العمل في الكلية التي كان بها ؛ كما أن التلميذ في المدارس الابتدائية يشعر أنه في العالم حقيقة ، وليس فيما نسميه نحن مدرسة . كيف لا وهو يصنع بيده جهازا لاسلكيا صغيرا فيأخذه إلى غرفته في المنزل ، ولا يكاد الظلام يرخي سدوله حتى تصل إليه بواسطته أنغام الموسيقى وأصوات اللغنين وأقوال الخطباء ، وكيف لا وهو يفتخر أن المائدة التي يأكل عليها أفراد عائلته من صنع يده .

رأيت مرة في إحدى تلك المدارس في ولاية نيو جيرسي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها بجانب زورق كبير . فسألتها عما تريد أن تفعل بهذا الزورق بعد تمامه ؟ أجابت أنها تعدد للترفة في نهر الهدسون في فصل الصيف مع والديها وإخوتها وأنها صرفت في صنعه أكثر من ثلاثة شهور .

ثم قال : رأيت في مدرسة ثانوية طالبا يصنع حذاء أتقن صنعه فسألته بأي مهنة تريد أن تعترف بعد نهاية الدراسة ، فقال سألتحق بالكلية ثم بمدرسة الطب فعميت وقلت له لعلك تنوي أن تختص بالأمراض الجلدية .

وهكذا نجد تنوع العلوم في تلك المعاهد وما يتخللها من الصناعات اليدوية تكشف القناع عن ميول الطالب ومواهبه فيختار لنفسه أكثر الصناعات صلاحية له مع إرشاد أساتذته ، فلا بدع إذا كان الناس في تلك البلاد على اختلاف طبقاتهم أخف حركة منا بمراحل وأنشط عملا وأوسع حيلة - أروني موظفا في إحدى المصالح يستطيع أن يصلح مصباحا كهربائيا إذا تلف أو سيارة أصابها عطب أو أنبوبا ينفجر لذلك ؟ لا تعجب إذا نظرنا إلى الصناعات والصناع بين الأزدراء فأعمطت صناعتنا ، ووضع الأميركيون صناعتهم في مرتبة الأساتذة والكتاب وكبار الموظفين فرقت صناعتهم وقت أدواتهم وجملت آثام منازلهم وقد روا أهل الصناعة فأصبح النجار والبناء ومن على شاكتهما يتقاضى أجره يومية من خمسة عشر ريالا إلى ثمانية عشر ريالا .

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه أحد العلماء ، فقال يا عجبا لك ! لقد تطرفت في الدين وكيف يجمع

الإنسان بين صناعة الحدادة والتجارة والنقش والتلغراف وأمثالها والعلوم العقلية من الهندسة والحساب والعلوم الدينية من الحج والصلاة والأعمال العادية كترتية الدجاج ومسك الدفان وحرق الأرض وحلب البقر. فقلت له ! هذا التعجب هو الذي قصد بهمنا ، وليس جميع تلك الصناعات فرض كفاية ؟ قال بلى . قلت فلماذا لا يجهر للناس بالحق ، ولماذا لا تنصح الناس .

قل لي رعاك الله ماذا ترى في صلاة الجماعة أليست أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة . أليس المسلمون يجتمعون في الأعياد وفي الحج وفي صلوات الجماعة وفي النزوات . أليس هذا الاجتماع يقصد به تبرئهم على اللودة ألم يقل الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) فبارعك الله كيف يكون اتحاد بلا فراق إلا بمقدمات أو ليست المقدمات منها صلاة الجماعة والحج وأمثالها ، وكيف تكون صلاة الفرد أقل من صلاة الجماعة بسبع وعشرين درجة ، وإذا كان ثواب الآخرة يزداد بالاجتماع بسبب عروج الناس إلى ربهم واتحادهم في ذلك العروج وأنهم تخف أراوحهم مجتمعين أكثر من الأفراد ٢٧ مرة . أفليس هذا معناه أن الاجتماع سعادة ؟ فإذا زاد الارتقاء الروحي ٢٧ مرة فكيف يكون الارتقاء العمراني الذي نشاهده ونحن نشاهد أن الشركات التجارية تفعل أفضل ما مدهشة تعجز عنها الأفراد ، وإن الآلات البخارية التي اشتراها أفراد بمالهم تنفعهم أضعاف ما كانوا عليه ٢٧ مرة فأكثر هذا هو سر الإسلام ، فإذا رأينا أمريكا عادت في الرقي الاجتماعي فلنقل هذا ديننا لأن ديننا أمر به في الحج والصلاة وغيرها ، وانظر قوله صلى الله عليه وسلم « لتسوين صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم » لقد ظهر سره اليوم في الإسلام وفي أمم النصرانية ، فبعض أمم الإسلام لا اجتماع لها ولا محبة فذهبت مدنيتهما وبعض الأمم المسيحية اعتادت الاجتماع العملي فاعتدت قلوبهم .

فلتكن مدارس الإسلام وكتباته منبهة مرفقة لمشوقة لجميع العلوم والصناعات ، والتلاميذ فيها يعملون بأنفسهم ذلك هو باب السعادة والسلام في بلاد الإسلام .

وهذا كله سر قوله تعالى (ألم) في أول السورة الشير إلى قصة اليهود الذين غرّم في دينهم ما كانوا يفترون فزال ملكهم ومثلهم بعض المسلمين في العصر الحاضر لمرور طوائفهم قديما وحديثا ، وقد وصفنا الدواء بعد شرح الدواء لرقى هذه الأمة والحمد لله رب العالمين . انتهى القسم الرابع .

القسم الخامس من سورة آل عمران

وهو بابان : الباب الأول في قصة امرأة عمران ومريم وزكريا . الباب الثاني في قصة عيسى ابن مريم . الباب الأول فيه فصلان : الفصل الأول في قصة مريم . الفصل الثاني في قصة زكريا ويحيى .

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

لما بين الله أن طاعة الرسل توجب حب الله أخذ سبحانه وتعالى يذكر مناقبهم ، وما أعقد عليهم من نعمة
وآثارهم من فضله ، فذكر آدم ونوحا وآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحاق وأولادها ولا جرم أن نبينا صلى الله
عليه وسلم من ذرية إسماعيل فهو في جملتهم ، ومن آل إبراهيم من هم على دينه ، وقد دخل في آل إبراهيم
بنو إسرائيل وهم اليهود الذين جعل الله فيهم الملك والنبوة إلى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم ، ثم جمع له
ولأمته النبوة ولللك . وهؤلاء هم من ذرية إبراهيم من إسحاق ومن إسماعيل أبي العرب الذين منهم نبينا
صلى الله عليه وسلم .

وأما آل عمران فهم عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان من نسل سليمان بن داود وبينه وبين عمران
أبي موسى وهارون ألف وثمانمائة سنة .

فهؤلاء اصطفاهم الله واختارهم على العالمين بالنبوة والرسالة (ذرية بعضها من بعض) بدل من آل إبراهيم
وآل عمران ، والذرية من النذر أي الخلق أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض ، والذرية الولد
يطلق على الواحد والجمع أو بعضها من بعض في الدين (والله سميع) بأقوال الناس (عليهم) بأفعالهم ومنهم
امرأة عمران فقد سمع قولها وعلم نيتها ، وهو يعطى كلا من القائلين والعالمين ما هو أهل له من ثواب وعقاب
وإجابة ورد . واذكر (إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت
السميع العليم) أي جعلت الحمل الذي في بطني نذرا محررا مني لك والنذر ما أوجهه الإنسان على نفسه فيكون
الغنى أنه خالص لعبادة الله وخدمة الكنيسة لا يشغل بشيء من أمور الدنيا ، وكان المحرر يجعل في الكنيسة
فيقوم عليها ولا يبرح مقبها حتى يبلغ الحلم ثم يغير ، فإن شاء بقي فيها وإلا ذهب وليس له بعد اختيار الكنيسة
أن يتركها وكانت عادة أنبياء بني إسرائيل وعلماهم أن يحرموا أبناءهم لخدمة بيت القدس ، وكان ذلك خاصا
بالنساء لأن النساء لا يصلحن لذلك .

وحصل هذه القصة أن زكريا وعمران تزوجا أختين فكانت إيشاع بنت فاقودا وهي أم يحيى عند زكريا
وكانت حنة بنت فاقودا أخت إيشاع عند عمران وهي أم مريم وحنة قد حرمت من الولد حتى آيست وكبرت
وكانوا قوما صالحين ، فبينما هي في ظل شجرة إذ بصرت بطأ ريطهم فرخا فاشتات للولد فقالت اللهم إن رزقتني
ولدا تصدقت به على بيت القدس ليكون من سدته جعلت بمريم وحررتها فقال لها زوجها عمران ويحك
ما صنعت أرايت إن كان ما في بطنك أنثى فلا تصلح لذلك ؟ فوقما معا في هم شديد ، فثات عمران وحنة حامل
بمريم (فلما وضعها قالت رب إني وضعتها أنثى) قالت ذلك تحمرا وحزنا لأنها كانت ترجو أن يكون ذكرا
يقول الله تعالى (والله أعلم بما وضعت) أي بالشيء الذي وضعته فلعل الله فيه سرا وكيف لا (وليس الله ذكر)
الذي طلبت (كالأنثى) التي وهبت :

فما التأنيت لاسم الشمس عيب ولا التذكير غفر للهلال
ولو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

بل الأنثى التي وهبت أفضل من كثير من الرجال ، ثم قالت (وإني سميتها مريم) عطف على كلامها السابق
وما بينهما جملة معترضة . ومعنى مريم بلقمتهم العابدة ، قالت هذا تقربا لله أن يعصها حتى يطابق الاسم للسمى
(وإني أعينها بك) أجبرها بحفظك (وذريتها من الشيطان الرجيم) للطرود يقال رحمه رماه بالحجارة قال
عليه الصلاة والسلام « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمه حين يولد فيسهل صارخا من مسه إلا مريم
وابناتها . والمقصود أن كل مولود يطعم للشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها ، فإن الله استجاب هذه الدعوة
فصممها (فتقبلها ربها) رضى بها بدل الذكر (بقبول حسن) أي إن الله تقبل مريم من حنة مكان الذكر
المحرر أي قبلها ورضيها (وأنبها نباتا حسنا) أي سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان وربها تربية بها

تصلح جميع أحوالها (وكفلها زكريا) أى جملة كافلا لها وضامنا لمصالحها، ومن خفف الفاء أعرب زكريا فاعلا . وتلخيص هذا اللقاع أن حنة لما ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد عند الأحبار من نسل هارون وهم القامعون بأمر بيت القدس وقالت دونكم النذيرة فتناقصوا فيها لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال زكريا أنا أحق بها لأن خالتها عندي فتنازعوا وكانوا ٢٩ رجلا ، ثم اصطلحوا على أن يقتربوا فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم وكتبون بها التوراة في نهر الأردن على أن من ثبت قلبه في الماء وصعد فهو أولى بها من غيره فارتفع قلم زكريا فقررهم زكريا رأس الأحبار ونبيهم . فأخذ ينظر في شؤونها ويريبها أحسن تربية ، فوجد هناك عجبا عجبا ؛ ذلك أنه (كما دخل عليها زكريا المحراب) المسجد ويسمى محرابا لأنه محل محاربة الشيطان (وجد عندها رزقا) فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء (قال يامريم أتى لك هذا) أى من ابن لك هذا الرزق الذى يأتى في غير أوانه (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) أى بغير تقدير لكثرة أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى .

ألا تعجب معى أيها الله كى كيف يقال هنا وترزق من تشاء بغير حساب بعد ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول (اللهم مالك الملك) إلى قوله تعالى (وترزق من تشاء بغير حساب) ثم يقول إنه يرزقني تفضلا بلا استحقاق أو بكثرة هكذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك وليس بين الجملتين إلا بضع آيات . يدعو هذا القول للدين ورثوا الأمم وعلومها أن يدرسوا كيف يرزق من يشاء بغير حساب كما أرتبك قريبا ، فلقد أطلعتك على عجائب الحشرات والحيوانات العلة بلا تعليم اللهم بلا تكليف للرزقة بلا أسباب ظاهرة ولا أعمال هامة ، وهنا ترى مريم كيف رزقت بغير حساب . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ *
فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ
اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي
الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ
أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَآذُنُكَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّسِيِّ وَالْإِبْكَارِ *

يقول الله هنالك أى في ذلك المكان لما رأى كرامة مريم دعا زكريا ربه قال رب كما وهبت لجنة العجوز العاقرة ذرية طيبة ، ورزقت ابنتها الفواكه في غير أوانها لأنك ترزق من تشاء بغير استحقاق هب لى من لذنك ذرية طيبة إنك مجيب الدعاء ، وكان زكريا طاهر القلب مستعدا لخطاب الملائكة ، فنادته للملائكة أى بعضهم وهو قائم يصلى في المسجد (بأن الله يبشرك يحيى مصدقا بكلمة من الله) وهو عيسى وإنما سمى كلمة لأن الله قال له كن فكان من غير أب فوق عليه اسم الكلمة لأنه بها كان ؛ وأول من آمن بعيسى وصدقه كان يحيى (وسيدا) يسود قومه ويفوقهم لأنه مأمم بمصيبة قط (حصورا) مبالغا في حبس نفسه عن الشهوات واللهاى (ونبيا من الصالحين) ناشتا منهم (قال رب أنى يكون لى غلام) استبعادا من حيث العادة (وقد بلغنى الكبر) أدركنى كبر السن وأترقى ، ويقال إنه كان له ٩٩ سنة ولامرأته ٩٨ سنة (وامرأتى عاقرة) لاتلد من العقر وهو التقطع (قال كذلك الله يفعل ما يشاء) من العجائب مثل ذلك الفصل (قال رب اجعل لى

الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَأَعْدِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ
الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ

تفسير هذا الباب

يقول الله في هذا الباب: اذكر يا محمد إذ قلت للملائكة مرهم مشافهة أو ألهمتها قائلة (إن الله اصطفاك) أي
تعبك من أمك لخدمة السجد، ولم تقبل أثنى قبلا، وفرغك للعبادة، وأغناك برزق الجنة عن الكسب
(وطهرتك) عما يستغنى من النساء (واصطفاك) بالهداية وإرسال الملائكة إليك واختصاصك بالولد من غير أب
وبراءتك مما قد تفك به اليهود بأنطاق الطفل وجعلك وابنك آية للعالمين، فأنت بهذه الخس مصطفاة (على
نساء العالمين. يا مريم اتقي لربك) أدبى الطاعة، كما في قوله تعالى «أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما»
(واسجدي) صلى كقوله تعالى «ومن الليل فسبحه وأدبار السجود» (واركعي) واخشمي. (مع الراكعين)
الحاشمين (ذلك) للذكور من الفصص (من أبناء النيب) التي ما كنت تعرفها أنت ولا قومك من قبل هذا
(نوحه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) التي يكتبون بها التوراة وقد مر توضيحه، ليعلموا (أيهم)
أي الأجرار (يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) متنافسين في كفالتها، وأبدل من «إذ قالت» الأولى (إذ
قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أي يبشرك ببشرى من عنده وهو ولد بولد لك من غير بل
ولا خل، وذلك الولد (اسمه) أي ما يميز به عن غيره من لقب أو اسم أو صفة (السيح) وهو لقب شريف
له كالصديق وأصله بالعبرية «مسيحا» ومعناه المبارك (عيسى) معرب أشوع وهو اسمه (ابن مريم) صفة له
(وجيها في الدنيا والآخرة) حال مقدرة من «كلمة» التي هي نفس عيسى فصح جعل الحال مذكرا، وكل شيء
خلقته الله بكلمة كمن «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» وعيسى كذلك كما يأتي في قوله تعالى
«ثم قال له كن فيكون» واختص عيسى بالكلمة لأنه بلا واسطة وغيره ليس كذلك، والوجهة في الدنيا
النبوته، وأنه يرى الأكمة والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ويظهر العجائب، وفي الآخرة علوه عند الله
تعالى (ومن للقرئين) يرفع إلى السماء مصاحبا للملائكة (ويكلم الناس في المهد) أي حال كونه طفلا «إذ قال
إني عبد الله آتاني الكتاب الخ» (وكهلا) أي في حال الكهولة. والكهول في اللغة الذي اجتمعت قوته وكل
شبابه، أو الذي فوق الثلاثين أو الذي وخطه للشيب وعند ذلك يستحكم فيه العقل وتنبت الأنبياء، وهذه المعاني
القوية متقاربة. قال البيضاوي: يقال إنه رفع شابا، وللراد وكهلا بعد زواله (ومن الصالحين) حال ثالث
من كلمة (قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسن بشر) أي قالت على سبيل التعجب من أين يكون لى ولد ولم
يصن رجل؟ (قال كذلك الله يخلق ما يشاء) هكذا يخلق الله منك ولدا من غير أن يمك بشر فإنه يخلق
ما يشاء ويصنع ما يريد (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. ويحلل الكتاب) الكتابة والحط باليد
(والحكمة) العلم (والتوراة) التي أنزلت على موسى (والإنجيل) التي نزل عليه، ويقول سبحانه وتعالى
(ورسولا إلى بني إسرائيل) الذين كان أولهم يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى (بأنى قد جئتكم بآية) علامة
(من ربكم) على صدق قولى، وأبدل منها قوله تعالى (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون
طيرا بإذن الله) أى أقدّر لكم وأصور شيئا مثل صورة الطير فأنفخ فيه فيصير حيا طيارا (وأبرى الأكمة)

الذي ولد أعمى (والأبرص) الذي به وضع (وأحيى الموتى) يأذن الله وأنبشكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. (و) قد جشتم (مصداقا لما بين يدي من التوراة) فلف على معنى مصدقا قوله (ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم) أي للتصديق وإحلال بعض الذي حرّم عليكم في شريعة موسى من الشحوم والثروب ولحوم الإبل والعمل يوم السبت (وجشتم بآية من ربكم) أي جشتم بآية بعد آية فيما ذكر سابقا (فاتقوا الله) في المخالفة بعد ما ظهرت الحجة (وأطيعون) فبما أدعوكم إليه؛ ثم شرع في الدعوة الشاملة لقوتى العلم والعمل فقال (إن الله ربي وربكم) وهذا هو التوحيد الذي هو من أهم استكمال القوة العلمية التي رأيتها في سورة البقرة عند قوله تعالى «إن في خلق السموات والأرض» وفي أول هذه السورة أيضا (فاعبدوه) وهذا هو القوة العملية، ولاسعادة في دين أودنيا خارجة عنهما وهما البادي والتهاب لجميع الديانات، فالجمع بين العلم والعمل هو الطريق الشهود له بالاستقامة (هذا صراط مستقيم) قال عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم» (فلما أحس عيسى منهم الكفر) عرف كفرهم كأنه مدرك بالحواس (قال من أنصاري) ملتجئا (إلى الله قاله الحواريون) الذين يحورون الثياب أي يبيضونها ويدعى صاحب هذه الهيئة تصارا وكانوا اثني عشر، وحوارو الرجل أيضا خاصته وأصفاؤه وهؤلاء خاصة عيسى وأصفاؤه أجابوه قائلين (نحن أنصار) دين (الله آمننا بالله واشهد) يوم القيامة لنا (بأننا مسلمون). ربنا آمننا بما أنزلت واتبعنا الرسول فكتبنا مع الشاهدين (بوحدينتك) (ومكروا) أي اتقن أحسن منهم الكفر من اليهود إذ أضرموا قتله (ومكر الله) إذ أتى شبهه على يهودا الذي أبلغ خبره إلى رئيس الكهنة كما ستره موضعا قريبا من إنجيل برنابا فقلب يهودا ورفع لليسع (والله خير الماكرين) أقوام مكررا، وقوله تعالى (إذ قال الله) ظرف لمكر الله (باعيسى إني متوفيك) قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو هيئتك عن الشهوات العائقة عن المروج إلى عالم الملكوت (وراضك إني) إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي (ومطهرك من) سوء جوار (الذين كفروا وجاعل الذين آمنوك) بالهبة والادعاء وهم النصارى وبالافرار بنبوتهكم وهم المسلمون (فوق الذين كفروا) بك (إلى يوم القيامة) يملونهم بالحجة والسيف في أغلب الأمر، ولم يسمع أن لليهود ملكا أو دولة أو جندا. ولكنهم في أثناء هذه الأيام عند كتابة هذا التفسير شرعوا يجمعون لهم وطنا قويا بجلستين تحت حماية الإنجليز، وهم في ذلك مضطربون «وقه عاقبة الأمور» (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين، ثم فصل الحكم فقال (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفهم أجورهم والله لا يحب الظالمين) وهم الذين يضمون الشيء في غير موضعه، أو من يظلم غيره حقاله: أي لا يرحمهم ولا يثني عليهم (ذلك) الذي ذكر من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين ونحوها (تتلاه عليك) حال كونه (من الآيات والذكر الحكيم) للشتم على الحكم والمنوع من تطرق الخلل إليه. انتهى التفسير اللفظي للقسم الخامس.

وفي هذا القسم ست لطائف: (١) للملائكة والشياطين (٢) خوارق العادات (٣) هنالك دعا ذكر باربه (٤) قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا (٥) إن الله ربي وربكم فاعبدوه (٦) إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك.

اللطيفة الأولى: الملائكة والشياطين

لقد تقدم الكلام على الملائكة مشعا في البقرة عند قوله تعالى «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» فلنجعل هذا المقال في الملائكة وفي الشياطين معا لما في الكتب الساهوية من ذكرها بالوسوسة والإلهام والهداية والإضلال والإساءة والإفضال، فإن كثيرا من الناس لاسيا للتنوير لا يقع في خواطرهم وجودها وتنبؤ نفوسهم عن التصديق بما لم يأنس به العقل، وإن أنس به العقل وعضده الوحشي وآمن به كل حي فنقول:

إن الإنسان إذا نظرفيا حوله رآه قسمين اثنين لثالث لهما: طيب وخيث نافع وضار محبوب ومكروه ،
فن الثاني الآساد والثور والذباب والحيات والعقارب والخناس والنبات السام والحيوانات الدقيقة السمائة
بالمكروب فتمرضه بالجمل والقيح والتهنود والملاريا والحصبة والجدرى ومرض الكلى والطاعون العام
وأمرض أخرى تحدث بتلك الحيوانات الصغيرة التي لا عدد لها ولا إحصاء .

هكذا الظلام الحالك وحمارة القيظ في شعاب الجبال وضربات الشمس والصواعق والزلازل والبراكين
وطغيان الأنهار على المزارع ونشيتها وانحسار ماؤها كالليل والقرات وما شابه ذلك .

ومن الأول الإبل والبقر والغنم والبهائم والطيور النافعة والأنهار أهم اعتدالها والنبات المفدى النافع
والفاكهة والأب لتتذى به البهائم ، والحيوانات الدقيقة العجيبة التي في دم الإنسان السمائة بالسكرات الحمراء
والسمائة أيضا بالسكرات البيضاء التي تصارع الحيوانات الفاتكة بالجسم ، وتنشب فيها مغالبها وتمهرها وتغلبها
فترجع ظافرة منصوره ، وهكذا تلك الجموع الجرارة والجيوش المصطفة منها التي تسارع إلى الجروح إذا حدثت
فتكون هي أنفسها مادة القيح ومق تم الشفاء كانت هي مادة اللحم الكاسية للجرح النافعة للمريض الشافية
للجراح الكاتبة بخط يفقه العقلاء ، ويخلق ما لا تعلمون .

نأذن جميع ما نراه قسما بالنسبة للإنسان وقد وصلنا إلى أدق الحيوان الذي لم يعرف إلا حديثا ، ولو
أن امرأ منذ مائة سنة نطق بهذا لقال له (أنت معنوه) وقد أصبح اليوم معلوما للخاص والعام وموزن ذا كان
يخطر له أن الحمى تكون بألاف الآلاف من الحيوان ، وأن شجرة القمح أو القطن أو الكتان يسخر تحت جذرها
آلاف الآلاف من تلك الحيوانات تمزق عناصر الأرض للنبات حتى تصلح لامتصاصها وتمثل بفسنه
وزهره ونمعه وأنها للنبات كالعبيد يحضرون الطعام لسادانهم ، وكالخدم لخدمهم ، وكالرعيا للموكم ، وكأهل
الشرق لممالك الغرب إذ استدلوهم واستضعفهم وأذلوم صاغرين وجلوم عبيدا خاضعين فيجى حكاهم
للتضعفون لسادتهم من الغرب ثمرات كل شئ ، فهم أشبه هذه الحيوانات الدرّية (والمخلوقات السكروية)
من ذا كان يخطر بباله أو تحدثه نفسه أن هذه العوالم منبثة في أجسامنا للإهلاك تارة وللإحياء أخرى ،
أم من ذا الذي كان يعقل أنها غذية للنبات بميتته تعطيه الحياة والنجاة تارة وللوت والهلاك أخرى . هذه بعض
مخائب ما حولنا وما عن أيامنا ومخالفنا من المخلوقات .

هذه الحيوانات فأين للملائكة والشياطين ؟

بهذا القول أدركنا أن أحوالنا وأحوال النبات والحيوان من صحة ومرض وقوة وضعف مرجعها حيوانات
دقيقة ومخلوقات ضئيلة ، ولقد وجدنا فينا آراء وأحوالا ترجع إلى عقولنا وتنطوي عليها أخلاقنا فمنها الخيث
ومنها الطيب ، كما أن في أجسامنا صحة ومرض وفي نباتنا قوة وضعف وكذا في حيواننا ، وكأنا كنا ننكر أن
يكون لمرضنا ومرض حيواننا ونباتنا علة إلا الأغذية والأحوال الشاهدة هكذا نحن ننكر الآن أن يكون لآرائنا
الحيثية والطبية إلا أحوالنا وتعاليمنا واستمدادنا ، فأما إن شيطاننا يضلنا أو ملكا يهدينا فذلك لاطانة لنا بقبوله
ولا قدرة لنا على التصديق به .

(١) طالت طائفة : إنا نرى أن الذباب لا يقع إلا على عين فيها القيح ، ويتجاوز النظيف الجسم الطاهر
البشرة ونرى أن التليذ الذهب يقبل عليه العيون ويهديه للرشدون ويتجاوزون التليذ البليد أو القدر أو
الذي لا يطيع ولا يكون ذا خلق حميد .

فلعل في العالم المعنوي ما يشابه ذلك فيكون هناك عالم ينوى الرجل التبرير كالذباب يقع على العين القذرة
وفيه من يهدى من له استعداد للهداية وهذا القول لا سبيل للإقناع به بل هو ضرب أمثال ، والأمثال ليست
تخفى في البيان .

(٢) وقال علماء الهند في كتاب يسمى راجايوقا ألقى محاضرات في مدينة نيويورك في سنة ١٨٩٥ - ١٨٩٦ ، وجمع مقالات باللغة الإنجليزية وصدر بمقدمة هذا ملخصها بإيضاح .

إن جميع الأمم في الشرق والغرب يصدقون علماء كل فن ، ويؤمنون بما يدون من الآراء وما يصفون من الأحوال ، ألا ترى أن جميع أمم العالم تحمى بما يقوله الأطباء ، فإذا أهدروا بالوباء أو بظهور داء أو بعموم الحمى أو الجدري أو ما أشبه ذلك من كل ما فيه العدوى اتبع الناس آراءهم وحكموا بقولهم وأطاعوا ما به يأمرهم . هكذا علماء الحساب والفلك والطبيعة والزراعة والبيطرة ، فليت شعري من ذا الذي درس الأجرام السماوية وأنها أعظم من الأرض ومنها ما هو أعظم من الشمس وأنها بعيدة بعدا لا يتناوله الإحصاء ولا تدركه عقول النبلاء . لعمرك لم يدرس الأمراض وأحوالها إلا الأطباء ولا عظم الأجرام السماوية إلا أولئك العلماء بالقلك المدارس لتلك القضايا البعيدة للرعى القائمة على صدق الأحكام ، وإنما صدق الناس ذلك من هؤلاء ومن هؤلاء لأنهم يرون أن لكل علم طرقا تتبع وسبلا يسار فيها وأصولا يزاولونها ونواميس يدرسونها وخواص يعرفونها ، فإذا سار سائر من الناس على مناهج تلك العلوم وصل إلى حقائقها وأخبر بما أخبره الأولون مع بعض تحسين لا يضر بالأصول ولا ينتقض كل ما هو منقول ، فكل امرئ يقول لو أتى سلكت سبلهم وقرأت أسولهم لأخبرت خبرهم ولعرفت كما عرفوا ، فمن هذا الوجه أصبح الناس واثقين بعظم الأجرام السماوية ، وإن لم يدرسوها خائفين من الأمراض والوباء وإن لم يعقلوها ذلك لأنهم لفهمها مستعدون وعلى فهمها قادرين . ومن الناس طوائف تهذب بالرياضات واعتكفت عن اللاديات ، وصامت عن الدنيا واعتزلت الناس فوصلوا إلى ما لم يره الناس وقالوا قد رأينا علما روحانيا ، فمنهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، فهم طوائف مختلفون وأصناف متعددون ، وهؤلاء الطوائف مثلهم كمثل الأطباء وعلماء الفلك ؛ فالتاس يصدقون وإن كانوا لا يدرسون في العلوم للمادية ، هكذا يجب أن يصدقوا وإن لم يدرسوا في العلوم الروحانية لأنهم إذا ساروا على السنن التي رسمها الروحانيون ودرسوا ما هم دارسون وعلموا ما يعلمون وصلوا إلى ما إليه وصلوا وهرفوا ما غفل عنه الأكثرون ؛ ولقد نقل عن أناس مهذبين مرتاضين في الشرق والغرب ومن جميع الديانات ولللذات والنحل والذاهب في العصر الفارسية والأيام الحاضرة أنهم رأوا ما لم تره العيون ، وأخبروا عن عالم مكنون واطمأنوا إلى ما يعلمون وأيقنوا أنهم مبصرون ، فلماذا تزلهم في المرتبة عن علماء الفلك والطب ولماذا نظلمهم ونبخسهم حقهم ، إن ذلك لظلم مبين . ثبت بهذا أن هناك عالما لطيفا لم تره العيون من اللائكة ومن الشياطين . هذا هو البرهان الذي قاله علماء الهند واطمأنوا إليه وهم مصدقون .

أيها الذي إن أردت للزيد في هذا اللقاع فهناك كتاب الأرواح الذي ألفته قبل هذا الكتاب ، ولكن لأقل لك جملته تريك بهجة العلم وجماله عسى أن تكون لك مقنعا ، هداك الله إلى سبيل الرشاد . وقد نقلت لك عن العلامة الرازي فيه ما يأتي :

[الحجة العاشرة] ترى جميع فرق الدنيا من الهند والروم والغرب والعجم ، وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والسليين ، وسائر فرق العالم وطوائفهم يصدقون عن موتهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون إلى زيارتهم ، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصديق عنهم عبثا ؛ فالإطباق على هذه الصدقة وعلى هذا السقاء وعلى هذه الزيارة يدل على أن فطرتهم الأصلية السليمة شاهدة بأن الإنسان شيء غير هذا الجسد وأن ذلك الشيء لا يموت بل يموت هذا الجسد إلى أن قال :

[الحجة الحادية عشرة] إن كثيرا من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته في المنام ، ويقول له اذهب إلى اللوح القلاني فإن فيه ذهاب دفته لك وقديره فيوصيه بقضاء دين عنه ، ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه في النوم من غير تفاوت ولولا أن الإنسان يبقى بعد الموت لما كان ذلك ، ولما دل هذا الدليل على أن الإنسان يبقى

بدن اللوت ودل الحس على أن الجسد ميت كان الإنسان منيرا لهذا الجسد الميت . وقال رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم الآيات) في سورة إبراهيم قال في صفحة ٢٤٠ ج خامس : وذكر بعض العلماء فيه أيضا احتمالا ثالثا وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكلت فيها ، فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس الفارقة في بدن مشاكلة لبدن تلك النفس الفارقة حدث بين تلك النفس الفارقة ، وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس الفارقة فيصير لتلك النفس الفارقة تعلق شديد بهذا البدن ، وتصير تلك النفس الفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاونة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ؛ ثم إن كان هذا للمنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاما ، وإن كان في باب الشركان وسوسة . فهذه وجوه محتملة تفرعا على القول بإثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية ، والقول بالأرواح الطاهرة والحيثية كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة ، فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم اه من الرازي .

وفيه أيضا مما نقلته عن الغزالي رحمه الله :

والعالم من محرك الفلك التاسع من الصفحة التي تلي جهة فوق إلى التي تلي جهة أقدامنا معلوم جنودا وملائكة (وما يعلم جنود ربك إلا هو) إلى أن قال : ولا ينبغي أن ينكر منكر ذلك ، وقد شهد شعاع الشمس وروحانيته وبساطته حتى إن قرصها يكون بالقرب وشعاعها بالشرق ، فما هو إلا أن ينيب خلف جبل فيقطع الشعاع الذي بالشرق بلا زمان ، فلو كان جسما ما قطع في عدة سنين ، وإذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس إلى حيث شئت ، ثم تعطفه لافي زمان ، وجوهر الشعاع بالإضافة إلى جوهر النفس كثيف ، فليس في العالم موضع إلا وهو مغمور بما لا يملكه إلا الله ولذلك أمر الشارع بالستر في الخلوة وعند الجماع والعالم مشحون بالأرواح اه . وفيه أيضا :

(٣) قال في إخوان الصفا الجزء الثالث صفحة ٣٦٢ : واعلم أن النفوس المتجسدة الحيرة ملائكة بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل ؛ كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل . فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل كما قال تعالى (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) فشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد ، وشياطين الجن هي النفوس الشريرة الفارقة للأجسام المحتجة عن الأبصار ، وقال قبل ذلك (ماملخصه) : إن هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالعالم وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرامة أخرى حينئذ تصبح النفس كأنها لاهية ولا ميتة كما قال تعالى (لا يموت فيها ولا يحيى) وتقول (ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل - ياليتني كنت ترابا - هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) وقال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة . وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم ، وهكذا شأن الغافلين اه ملخصا من إخوان الصفا .

وفيه أيضا ما نقلته من خطبة اللورد أوليفر لودج أكبر علماء الطبيعة بانكلترا قال :

ولتذكر في هذا المقام أننا لسنا أجساما فقط ، بل كل منا مركب من عقل ووجدان وروح فضلا عن الجسم ، ويتصل الإنسان بهذه الكائنات العليا للدركة ويناجيها بغير حواسه البدنية ورتاح إلى الاتصال بها أكثر مما يرتاح إلى اتصاله بهذا العالم المادي الذي قضى عليه أن يعيش فيه إلى حين . كل العظام الذين ماتوا كانوا يرتاحون إلى مناجاة للدركات العليا أكثر مما يرتاحون إلى الأمور الدنيوية ، ولم يزل كثيرون منا

يطلعون على شيء من أمور هذه المدركات العليا من وقت إلى آخر ، وإذا عملنا على تنمية مداركنا وقوانا
اطلنا على أكثر من ذلك ومكننا الوحي من معرفة أمور لا تقدر أن ندركها بشيء . إن طرق البحث للنازية
ليست كل طرق البحث ، ولم يزل الرجال العظام منذ قديم الزمان يرون رؤى ويطلعون على حقائق ، وتظهر
منهم بداهة يحاولون تدوينها لينتفع بها غيرهم ، ويمثل ذلك يكون البحث على بعض الحقائق وهو طريقة رجال
الدين ، ولا أقول إنى سرت عليه أنا في معنى إذ يظهر أنى محروم من ذلك ، ولكننى قد وصلت إلى نتائج
لا تختلف عن التى وصلوا إليها ببعضى من طرق عليية مألوفة ، وجميعنا يعرف أن فى الكون قوى للشر
وقوى للخير .

وفيه أيضا من خطبة اللورد أولفر لودج المذكور فى الحياة بعد الموت ، وليس من العقل أن يقال إن
النفس تضمحل إذا تلف الجسد بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض .
أقول ذلك مستندا إلى أدلة عليية . أقوله لأنى تحققت أن بعض أصدقائى الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ أنى
قد ناجيتهم ومناجاة اللوى ممكنة ، ولكن يجب أن يسار على نوايسها وأن تعرف شروطها وهى ليست من
الأمر الهينة ، وقد حدثت أصدقائى اللوى كما أحداث واحدنا من الحضور ، وقد كانوا فى حياتهم من أهل
العلم ولذالك برهنوا لى براهين قاطعة نشر بعضها وسينشر البعض الآخر فى حينه أنهم هم أنفسهم كانوا يحدثوننى
وإنى لست واهما . إن ذلك حقيقة أنا مقتنع بها وبحثنا بكل ما فى من قوة الاقتناع إننى مقتنع بأننا لا تضمحل
عند الموت وأن اللوى يهتمون بأمر هذا العالم ، ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير ويقدرون على
مناجاتنا أحيانا .

إن هذه النتيجة التى وصلت إليها عظيمة لا تعرفون أتم ولا أعرف أنا مقدار عظمتها ، وتعلمون أن بين
رجال العلم كثيرين غيرى ممن يعتقدون بذلك مثلى وأن منهم كثيرين أيضا لا يعتقدون به ، ومن رجال العلم
كثيرون لم يبحثوا فى هذا الموضوع ، وليس لكل أحد أن يبحث فى كل شيء ، ولكن من يقضى ثلاثين سنة
أو أربعين يبحث فى أمر من الأمور يحق له أن يبدى رأيه فى النتيجة التى وصل إليها ، ولا بد لكم من أمثلة
تخص بهذا الأمر لىكي تبحثوا فيها ، ومثل هذه الأمثلة كثير فى مجلدات الجمعية العلية وسيزداد كثيرا ، على أن
الأمثلة يجب أن يهتم بالنظر فيها لأجل بناء الأحكام عليها ، وقد لا تنفق أحكامهم فى أول الأمر مع آرائى التى
أبديتها ولكنها ستنتفخ معها أخيرا بعد سنوات ولا بأس من التمهل .

غير أن الباحثين الذين اهتموا بهذا مدة سنين قد اتفقوا على أن الأدلة عليه تكاد تكون قاطعة ، وأنا
لا أشك فى أن اللوى بناجوتنا مع أنى قضيت سنين كثيرة أحاول تعطيل ماينسب إلى مناجاة الأرواح بجلل
أخرى ، ولكنى رأيت فساد تعاليل الواحد بعد الآخر ، وليس لى طريقة الآن أعلل بها ماينسب إلى مناجاة
الأرواح غير القول بأن الأرواح موجودة فعلا وتناجينا غير أنى لا أقول إن اللبث يكون موجودا كل مرة
يقال إنه ناجى فيها ، وعلى الباحث أن يكون يقظا يستعمل كل مالدیه من طرق التحجيس ، ولا يترك فرصة
للبحث تسنح له لأن هذه الفرص نادرة جدا ، وحقيقة البقاء بعد الموت قد تثبت بالطرق العلية وهى مساعد
تساعدنا على إدراك الاتصال بين جميع حالات الوجود ، وذلك مايشئى على القول إن الإنسان ليس منفردا
بل تحيط به مدركات أخرى ، وإذا عرفتم أن فوق الإنسان مدركا يفوقه هان عليكم أن تتصوروا درجات
أخرى من المدركات أرقى فأرقى إلى أن تصلوا إلى المدرك الأسمى نفسه : أى إلى الله سبحانه وتعالى .

وعالم هذه المدركات ليس علما غريبا عن عالمنا ، فإن الكون واحد ، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض
محدودة فلا نرى كثيرا من الأمور التى تجرى ، ولكن تحيط بنا كائنات وتعمل معنا وتساعدنا قد عرفها

قبل من الناس بعض المعرفة من الرؤى التي رأوها . وعندى أن كل ما تقول به الأديان من أن الملائكة والقدسين معنا وأن الله نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل، هذه هي خطيئة في تاريخه .

هذا ما أردت نقله من آراء المحدثين والتقدماء ملخصا لتكون أيها الذكي في هذا التفسير مطالعا على الآراء المختلفة لتفهم الآيات الواردة في الملائكة والشياطين وتعرضها على كتاب الأرواح أو على ما نقلته في هذا التفسير ، ثم الآيات الواردة مثل سورة الجن (بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى إلى أنه استمع مقر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد) وجاء في تلك الآيات أن الجن « ويمثلها الأرواح التي خرجت من الدنيا ، وهي ناقصة محصورة الفكر كما ذكره إخوان الصفاء والقخر الرازي وعلاء الأرواح في أوروبا والقرآلي » قالت :

(١) إن الله لا ولد له (٢) وإن الجن ما كانوا يظنون أن هناك أكاذيب على الله (٣) وإن الإنس يستغيثون بالجن وهذا وبال لأن الجن بهذا طفوا مع أنهم جاهلون (٤) وإن الجن كانوا يظنون كالإنس أن الله لا يبعث أحدا (٥) وإنهم منعوا من الإخبار بالتيب ولا يدرون ما التي سيحدث لأهل الأرض (٦) وإنهم منهم الصالحون والناسقون كأهل الأرض (٧) وإن قوما منهم آمنوا بالقرآن واهتدوا به (٨) وإن الجن اجتمعوا على النبي لما دعا الله فكانوا متراكين عليه (هذا ملخص) ماجاء في سورة الجن ، وهذا موافق أشد للواقعة للعلم الحديث بأوروبا وإن الروح بعد الموت هي الروح في الحياة الدنيا ، هذا جاهل يوسوس للناس بجهله وهذا فاضل يلهم للمستعدين من علمه (وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر) .
ثم إنى نقلت لك هذا لتطلع على العلم للقول ، ولا تحف عندك بل تنظر بيبصيرتك وناقب ذهنك في الكتب وفي العلوم (وقل رب زدنى علما) .

تفصيل الكلام على قوله تعالى : (كلما دخل عليها زكيا المحراب وجد عندها رزقا)

إن الإنسان ينحس لما فوق طاقته ويخضع لما تناله قوته . وجميع مظاهر العظمة والجلال تنحصر في دائرتين : دائرة البطش ودائرة غرائب العلم ؛ والدائرة الأولى تتجلى في كل ما بهر الناس من آثار العظمة ، إن الإنسان له قوة قدسية سامية كنت فيه ومتى شعرت بأعظم الأمور تحركت إلى ما سمت إليه غريزتها وحتت إلى ما استكن فيها ، ومن هذا القام بنيت له الهياكل وأقيمت له التماثيل في الأمم الغابرة والأجيال الحاضرة لتثير في نفسه الإعجاب والإجلال ، هذه سجيته المكنونة وغريزته المخزونة ؛ ولقد جعل الله من عباده من سمت مواهبهم وأجرى على أيديهم غرائب استتارة للإعجاب وتذكيرا لهم ، فإذا رأوا فاكهة السيف شتوية وفاكهة الشتاء صيفية وأن الأكمة والأبرص برما ولتحي على يد إنسان عظم إعجابهم وسمعوا ما يقوله من النصائح التي يقبها من ظهرت المعجائب على يديه على ذلك درج الأنبياء والرسل والقدسيون .

والدائرة الثانية وهي العلمية تماثل الأولى فتح أخبر نبي بما لا عهد لهم به من التيب وأنسوا بالخبر واعتادوا صدق الأخبار التيبية على يديه تبعوه وصدقوه فيما يلقى من ضائحه ، وما يعلم من حكمته ؛ فالمرجع لرؤية القدرة والعلم .

ولما علم الله أن هذه الأمة ستكون أيام انقلاب العالم أنزل في القرآن أن سحرة فرعون لما آمنوا ثبتوا على إيمانهم لما أيقنوا بالعلم أن موسى فوقهم وسحرهم لا يتناول مقامه ، وليس في علم السحر عند كبار السحرة أن الصا يتطلع الجبال والعسى غفروا ساجدين . أما بنو إسرائيل فإنهم بهرم عجل السامري المصنوع من الذهب وكان له خوار ، ولما رأوا أنوما يكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فكان ذلك في القرآن تنويرا للعقلاء . إن خرق العادات لا يفيد الناس ثباتا في العلم ولا رقيا في الحياة ؛ فالخوارق لا تؤثر إلا إلى أمد قريب ، ومن آمن بالصا لما انقلبت حية حق له أن يرتد إذا رأى عجلا من ذهب

والأمم في أيام جاهليتها كالشباب أيام صباه يجب فتاة ، فإذا وجد أجمل منها هجر الحبيب الأول أما من اشتركت معه زوجته في الحياة وله منها بنات وبنون فنبات اللودة غالباً مصون هكذا العلم والحكمة يقضيان بثبات العقول والآراء . لذلك جاء القرآن ألا ترى في قوله تعالى رداً على مشركي العرب (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وقوله تعالى (وما منمننا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا نمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) يقول الله تعالى : إن الأمم في حال جهالتها تخوفهم بخوارق العادات ، ولا نبات إلا بالعلم والحكمة .

لقد منمننا أن نرسل بخوارق العادات أننا أردنا رقى الإنسان ليفهم الحكمة بقله ويدركها بفهمه ولا يفتنع بالتخويف كالأطفال ولا بالغرائب للناقية للتواميس للعرفوة ، فإن الأجيال السابقة والأمم المدارة لم يكونوا يصلوا إلى سمو العقل غالباً فسلطنا عليهم عصا التأديب لينتفعوا زمناً قليلاً . أما الآن فإننا ننزل القرآن بحيث على النظر والعلم ، وهنا يرى للفكر في عجائب جسمه وغرائب الصنع وفي بدائع الآفاق من التواميس البديعة والآيات الرقيقة ما ينسبه خوارق العادات ويتجلى له في جميع الوجود آيات .

خوارق العادات المذكورة في القرآن

يجب العقلاء من الأمة الإسلامية ويقولون مالنا نرى كتابنا للنزل مشحوناً بالعجائب والخوارق والمعجزات التي كانت في الأمم السابقة والأجيال العابرة؟ وما لنا ولد كرها ولو أنها كانت أمامنا لن نزدنا يقيناً ، وكيف نزيدنا يقيناً ، والقرآن نفسه قد جاء فيه أن الله تعالى ما يرسل بالآيات إلا تخويفاً ، فهو جعل الأمم السابقة أطفالا في أخلاقهم صبيانا في أفعالهم فأراهم الأعاجيب ورزق أنبياءهم صيفا مانبت شتاء وشتاء مانبت صيفا ، ونقل عرش بلقيس لسليمان في لحظة وقلب العصاحية لموسى ، وهكذا ماجاء من ناقة نمود وغير ذلك ، وإذا كان الله يأمرنا في القرآن أن نتذكر ونتفكر ونسير بالعقل ونقل الحكمة . فكيف نجتمع بين العقول وخوارق العادات ، إن السالمين ليعجبون من كل ذلك وهم متحبرون .

الحال الروحية والحال الجسمية

قول: اعلم أن الإنسان له حالان : حال جسمية . وحال روحية ، ففي الحال الأولى يزرع ويحصد ويتجر ويتعلم ويأكل ويلبس ويولد بأعمال إرادية وتكاليف ومشاق جسمية إرادية . فأما في الحال الروحية فإنه يعمل تلك الأعمال بلا كلفة ولا مشقة بل بالإرادة والفكر والمزينة ، كما ترى أنفسنا في حال النوم لابسين آكابين شاربين والذين مالسين جالسين على الأسرة صورته أرواحنا من المادة الأثيرية المائتة لهذا الكون بلا كلفة ولا مشقة ، ونحن نراه في النوم ولا ننجب لأنه مما تألفه النفوس في تلك الحال ولا تتعجب منه هكذا حال الروح بعد اللوت ، فإننا نعمل هذا كله بالفرزة والطبيعة والفطرة والقوة الروحية بلا تكليف ولا أمر ولا نهى ولا إنذار ولا وعيد .

فالروح تصوغ للمادة الشافية والسامة والأغذية والفواكه ، وليس لها أدوات ولا آلات إلا إرادتها وإذن الله تعالى ، وكذلك تصوغ الألبسة المختلفة تصوغها بخرزتها وهي تجهل كيف تصوغها إذا كانت أرواحا منعطة من فئة قليلة الترقى في العوالم العلوية ؛ فالمادة الأثيرية (أي اللطيفة) التي هي أصل العوالم كلها تتصرف فيها الروح على مقدار ارتقائها ، هذه قدرة الأرواح التي أودعها الله عز وجل فيها كما أودعها في أرواحنا عند النوم (الله يتولى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها اللوت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) والروح في الحال الروحية تفعل بالفرزة ما كانت تفعله تكلفا ولا تمقل ما تفعله إلا إذا كانت روحا نية فاضلة شريفة كاملة .

أما في الحال الدنيوية فإن هذه الأعمال مخالفة للناموس لانوافق حالنا . فلو أن امراً أزل الله عليه الخبر والاعم والفلكة وهو جالس في بيته ، ثم أفرغ عليه العلوم والمعارف من غير كد ولا نصب لسكان ذلك مخالفا للناموس والقانون الذي عليه أهل الأرض ، وليس يكون ذلك سبياً في رقيم بل الرقي في هذه الحياة بالعمل والسعي ، وهذا العمل والسعي يكونان سبياً في الرقي بعد الموت ، وعلى هذا تكون المعجزات وخوارق العادات التي جاءت على أيدي الأنبياء كالرزق الذي رزقت به مريم في هذا المقام ليس مما يناسب عالمنا ، وإنما يناسب عالم الأرواح ، ولذلك تجمد الناس يبتجون به ويفرحون لاسباً إذا كانوا من العامة والجهلاء فإنهم أقرب إلى التصديق ونفوسهم نحن إلى ما استكن في فطرتها ، وقد حجرت عنه لأمد معلوم فيكون ذلك الإعجاب سبياً في الإيمان بالأنبياء والقديسين وينتمون بذلك الإيمان ، ولكن هنا الإيمان في الدين الإسلامي ليس غاية العلم ولا منتهى الإدراك، بل دين الإسلام يدعو إلى النظر العقلي والتفكير الحكيم (أولم يكنهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) يرشدنا القرآن أن تلك العجائب جاءت للآدم وهم أطفال ، وللأجيال وهم جهال فكانت خوارق العادات هي التي لها القول الفصل في الإيمان . ألم تر إلى قدماء المصريين كيف كانوا يخيفون الشعب بالأمور الهائلة والهياكل العظيمة ، وكيف كانوا يمثلون لهم العظمة بأبي الهول للركب من رأس امرأة على جسد نور بأظافر أسد وجناحي نسر رمزاً إلى هذا الإنسان الذي نبغ وسط الحيوان ، وظهر على هذه المخلوقات ، وهكذا علماء الصراينة كانوا يرمزون للشعب ولا يصرحون . قال سينيوس الأسقف اليوناني الذي تولى في آخر حياته أسقفية عكا ومات سنة (٤١٠) :

إن الروح السرمي الذي تراه ساريا في سائر الأديان القديمة لتأتي من كون الشعب يحقر دائماً ما سهل عليه إدراكه فلهذا يؤثر أن يكون مغشوشاً مغالطاً . هكذا فعل كهنة مصر الأقدمون (وأما أنا فأسأكون فيلسوفاً مع نفسي وكاهناً مع الشعب) اه .

وقال غريغوريوس في رسالته إلى (أرونيوس) إن الإعجاب والإبهام ضروريان لاقاء الهيبة في الشعب فكلما قل إدراكه ازداد عهبة، إن كثيراً من رجال الدين وآباء الكنيسة نطقوا بما يلائم الظروف والأحوال لا بما كانوا يملكون . فأنت ترى أيها الذي أن الأمم السالفة كانت تألف العجائب والخرافات ولم يكن يؤم العقل ويعرف الحقائق إلا أكابر العلماء . لذلك أرسل الله لهم الأنبياء وأعظم العجائب موافقة لحالمهم وهم جاهلون . ولكن لما جاء القرآن أراد الله أن ينشئ خلقاً جديداً مفكراً عالماً فقال (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) وقال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) لأرقى الطبقات ، وللوعظة الحسنة للجهال (وجدلهم بالتي هي أحسن) للطبقة المتوسطة وحض على التفكير والتدبر والتعقل والنظر فقال (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وقال تعالى (أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وقال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وكيف يبصر الإنسان ما في نفسه والآفاق إلا إذا كان ذكياً، وإنك لو أتيت إلى الجهلاء وقلت لهم انظروا في عجائب أجسامكم وفي عجائب زرعكم ، كما نظرت فيما قرأت في هذا التفسير لضحكوا استغراباً ولعجبوا من قلة عقل القائل ، ولكنك لو قلت لهم إن مريم رزقت بغير حساب لفهموها وسبحوا الله بكرة وأصيلاً ؛ فالقرآن جاء للإكثار من الناظرين والمفكرين ، وللإقلال من التمرين بخوارق العادات لأن الله لا يرسلها لأهل الأرض إلا قليلاً ولا بأمرها إلا لمنفعة عليية ومصلحة دينية ، ويفضل عليها العلم والحكمة والنظر الصحيح ، ولذلك ترى أهل الأرض من بعد نزول القرآن قد ارتفعت أفكارهم ، وأهل أوروبا من اختلاطهم بالمسلمين في الحروب الصليبية عقولوا وفكروا بقولهم ورفقوا جميع أعمال الحياة ، وإن كان المسلمون أصبحوا عبيد الهوى نائمين على بساط الراحة ، ولذلك جاءهم الأوروبيون فأمطروا عليهم وابلا من العذاب ومزنا من الإرهاق فأخذوا يستبقظون وقاموا ينفذون النصار

عن بره وسهم وينفون الدل عن بلادهم ، وهذا التفسير من مبشرات تلك النهضة ومقومات ذلك العز القادم
 والمجد الدائم فيرى المسلم أن فاكهة مريم وعرش بلقيس وعصى موسى إنما جاءت لأمة كانت نائمة عما بين
 يديها وما خلفها . أما المسلم فيقول (إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين . وفي خفيكم وما بين من دابة
 آيات لقوم يوقنون) ويعلم أن الجهال عن ذلك معرضون والعلاء به مغرمون .

خوارق العادات والعلوم الطبيعية والرياضية

لقد استبان أن خوارق العادات تكون للناس في أحلامهم وتكون لهم بعد موتهم ، وهناك لا تكون
 خوارق وإنما هي حقائق ثابتة لا يتغيرونها ولا يتكرونها بل هم بها موقنون ، وهذه العجائب لا تزال تتوالى على
 الناس في كل زمان ومكان فتكون على يد الأنبياء معجزة مقروية بالتحدي فيقولون إنا مرسلون من عند
 الله ، والله أيدنا بهذه المعجزات ، ويقول علماءنا رحمهم الله إن هذه الخوارق تكون على يد أتباع الأنبياء الذين
 يسمون أولياء ، ويقولون ماجاز أن يكون معجزة نبي يكون كرامة لولي (انظر كتاب النفاية للشيخ
 السيوطي) وأثبت ذلك بكتاب عمر الذي جرى النيل بإرساله ووضعه فيه ويقول (وهو على النبر بالمدينة
 وجيشه بهاوند وسارية أمير ذلك الجيش محذرا له من العدو السكمان له وراه الجبل : ياسارية الجبل الجبل)
 هذا ما في النفاية للذكورة وفي غيره من كتب علمائنا . إن هذه قد تكون على يد الساحر وبد الجاهل ، فكما
 تكون معجزة على يد نبي تكون كرامة لولي . ثم (معونة) لجاهل ثم (استدراجا لفاسق) فيقول علماءنا
 إن تلك الخوارق تكون في سائر الطبقات وتسمى بأسماء مختلفة على حسب الواقعة هي على أيديهم ، ولست الآن
 أقول لك هذا إلا لتقف على ما يقوله أهل الشرق والغرب في هذا اللقاع ، أما رأي أنا فإنك ستسمعه قريبا هنا .

أقول : ولقد ظهر في أقوال علماء الأرواح ما فيه العجب العجيب ، ولعمري لا يوضع اللقاع إلا ماجاه
 في علم الأرواح في العصر الحاضر أولا ، ثم في العقل والتفكير ثانيا ، وما أناذا أشرحه لك الآن شرحا وافيا
 فأقول : لقد ظهر علم الأرواح وأيد هذه الغرائب ، ولو اطلمت على الكتاب الذي ألقته للسمى (الأرواح)
 وعلى غيره من كتب الأمم للماصرة لنا وعلى ما كتبه سدينا محمد فريد وجدى الذي هو أول من أظهر هذا
 العلم في بلادنا المصرية ، وعلى ماجاه في كتاب للذهب الروحاني لو اطلمت على ذلك كله لرأيت عجبا عجبا ، رأيت
 أن أعظم الفلاسفة والحكماء في انكلترا وفرنسا وأمريكا الذين لا يظن فيهم الغفلة قد أحضرت الأرواح على
 يد الوسطاء فواكه وأزهارا وملابس أمامهم وغير ذلك من عجائب وغرائب ، وإذا سئلت الأرواح عن ذلك
 قالت : إني أحضرت من أرضكم لأم من أرض أخرى لأن العوالم الأخرى لاتناسب عالمكم ذلك ذاع وشاع وملا
 الأسماع ، والناس في الشرق نيام ، والناس أعداء ماجهولوا ؟ هذا ما أجملته الآن من علم العصر الحاضر وهو
 أقرب لما قاله علماءنا ، فالمعجزة للأنبياء والكرامة للآولياء والسحر للسحرة ، وأما ما عند علماء أوروبا فسمه
 ماتشاء أن تسميه ، ولقد سئلت الأرواح (عن كيفية إحضار تلك الأشياء والأغذية والملابس والأزهار التي
 حفظها الفلاسفة والعلماء في انكلترا وغيرها ودامت كما تدوم عندنا تماما) فأجابت إن هناك شيئا يسمى
 (السائل للمناطيسي الإنساني) يكون كثيرا في الوسيط فتخلطه الأرواح بالسائل للمناطيسي الذي هو في طباعها ،
 وهذا للزيج هو الذي به محضر تلك الفواكه والملابس وتصنع العجائب والأرواح بدون السائل الذي
 في الإنسان لاتقدر على فعل شيء من ذلك هذا في أوروبا .

ولقد رأى بعض الضباط من الانجليز في الهند قوما من أهلها عبادا يصنعون العجائب ويضعون الرمل
 ويطلبون من الحاضرين أن يفكروا في أي شعر وأي ثر على أي لغة فما أسرع ماتسكت تلك المصى على
 الرمل بأجل خط وأبدعه بتلك اللغة التي تصورها الجالسون وغيرهم لا يعلم .

فلما سئل الهندي عن هذا أجاب إن لنا معابد وتعاليم تحرم علينا الترف والتعميم ، ونحن نتمسك بالزهد والتشرف والإمساك عن النساء وهذا نستمد للاتصال بأرواح آبائنا وتلك الأرواح نخرج (السائل للقطاطيبي) القدي عندها بالسائل القطاطيبي الذي فينا بسبب الزهد وغيره ، وبهذين السائلين يفعلون تلك الأعاجيب . ألا تعجب كيف اتفق ما قاله علماء أوروبا حين سألوا الأرواح مع ما أجاب به عباد الهند ما أجمل العلم وما أعجب الحكمة (ومنفعة هذا في مقامنا أن نقول) إن العجائب والغرائب وخوارق العادات كما قدمنا جعلها الله في هذا النوع الإنساني لتكون بمثابة تذكير لهم بما يكونون عليه بعد الموت من القوة التبريزية التي تكون فيهم ، ولذلك ترى الناس في الشرق والغرب يفرحون وتنتشر أفئدتهم بما يسمعون من عجائب مريم وعيسى وموسى ، وترى الأطفال والنساء والجهال جميعا فرحين بذلك نشطين لجماعه ، وليس ذلك في الأرض موضوعا عبثا كالا ، وإنما ذلك لأنه كامن في نفوسهم سائق في فطرهم أن القوة في عالم الأرواح فلما أن برزت على يد الأنبياء دهشوا له وحنوا وطربوا .

فوائد المعجزات في التربية الحديثة

ولقد جاء في كتاب أميل القرن التاسع عشر الشارح للتربية التي يجب أن تكون عليها الأمم والأجيال أن أمة الإنجليز يدرسون للسنار في المدارس ولصغار العقول من الجهلاء حكايات الجن والفقاريات والحرافات صباحا ومساءً ويصنعون لهم الروايات كسألة الفتاة التي طلبت من والدها ثوبا كالشمس وثوبا كالقمر ولبست جلد الحمار واختفت عن الأبصار وتوارت عن الناس وغابت ، وأورد كثيرا من الأمثلة على ذلك وعاب أمته الفرنسية قائلا : إنها ظنت أن تلك الحرافات باطلة ، والحقيقة أنها موسعة للقوة الخيالية فتتسع القرائح ويكبر الخيال ، وليس يجوز للعلم أن يقول لهم هذا غير حق بل يتركهم فرحين مستبشرين ولا يدخل عليهم الحزن والكدر بإظهار الحقائق واضحة جلية ، فإن عاشوا جاهلين فقد اتضعوا وإن تعلموا العلوم الرياضية والطبيعية أزال ما علق بالأذهان من الحرافات ومخسرات الحقائق بعد أن تكون الأذهان قد استعدت لتلقيها ، ذلك ما جاء في كتاب (أميل القرن التاسع عشر) الذي ألفه عالم فرنسي ينصح أمته أن ترقى التعليم فتبتدي بالحرافات ، وتنتهي بالحقائق بالرياضيات والطبيعات فيكمل العقل ويتم .

العلامة جوستاف لوبون

ولقد خفيت هذه الحقائق الكاملة على العلامة جوستاف لوبون (الفرنسي) الذي قد انتشرت تعاليمه في الجمهور الصربي . إن الرجل ينظر بعين واحدة ، واتقد وقف في الطريق فهو يكره المدينة الحديثة ويكره للادة ويكذب علم الأرواح ويكذب الديانات لأنه نظر بعين واحدة ، ومن قرأ كتبه أصبح في حيرة شديدة ، ألم تر إلى قوله في كتابه روح الاجتماع ناقلا عن العالم (فوكرو) أحد رجال الثورة في تقريره إذ ذاك ونقله عنه (نابن) قال (إن ماهو مشاهد في كل مكان من إقامة صلاة يوم الأحد والتردد على الكنائس يدل على أن مجموع الفرنسيين يطلب الرجوع إلى عاداته الأولى ولم يعد في الإمكان مقاومة هذا الميل في الأمة لأن السواد الأعظم في حاجة إلى الدين وإلى العبادة وإلى القسيسين ، ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر - وهو خطأ وقعت فيه أنا أيضا (القول بإمكان إيجاد تعليم عام لإزالة الأوهام الدينية لأن في الدين سلوانا للساكنين) وأطال في ذلك . ولقد علت أيها الذكي أن التعليم والتربية سيلزمهما ما يوسع الخيال بحسب التعليم الحالي وأعظم مناهجه فكان (جوستاف لوبون) ومن نما نحوه قد نظرنا بعين واحدة فظنوا أن الغرائب التي في الديانات جاءت عبثا ، ولقد علت أيها الذكي أنها في طبيعة الأرواح وثانيا توسع الخيال والعلوم والطبيعة تهذب فيها بسد ، ولذلك ترى علماء (البيداجوجيا) أي فن التعليم على الوجه الأكمل قد أوجبوا أن تكون الحكايات الحرافية لانساع الخيال ، لما بانك إذا كان ما يوسع الخيال جا حقا على السنة الأنبياء الصادقين .

نتيجة هذا المقال

إن الناس لا بد لهم من العجائب والثرائب كما رأيت في أقوال علماء أوروبا ، وكما ترى في بلادنا الشرقية من الحكايات التي اخترعها الناس في الأزمان الغابرة من أعمال عنتره العيسى وحكايات التيلان والشاطر مجد وأمثالها ، وهذه إن أضرت من وجه نعمت من آخر ، ثم يكون علم الطبيعيات والرياضيات منظما للعقل ، وأما الجاهلون فهم على كل حال جاهلون .

والقرآن الكريم جاءت فيه تلك العجائب لاطى سبيل الحرافة بل على سبيل المعجزة وهي تؤدى القرض من توسيع الخيال ، ثم ترى فيه النظر في الأرض والسماء والعجائب الطبيعية كما ترى في مسألة حشرة المنكبوت وإنها لها ألف ثقب في جسمها من كل ثقب يخرج خيط . فهذه حقيقة أشبه بالحراطات والأعاجيب ، فإذا اتسع الخيال في الصغر للعجائب ، وورد في الكبر منهل العلوم الحقيقية تغلبها بشوق ، ووجد فيها من العجائب ما يفوق ما كان يقرؤه بلا تحقيق ولا تدقيق ، فعلى هذا يكون القرآن مطالعا لسائر الأمم والأجيال . جمع بين ما يوسع الخيال بالمعجزات وما يصقله من العلوم الطبيعية ، وهذه هي الحقيقة الناصعة التي ألتفت في فؤادي ، وشرح لها صدري ، ولم أكن أنا للملى لها بل الخاطر المهاجم على الفؤاد ، ولعمري ما كتبت سطرا من هذا إلا والإلهام مبدؤه (وإلى الله عاقبة الأمور) اه .

اللطيفة الثانية : تفصيل الكلام في قوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه) الآية

اعلم أن في الإنسان قوة عظيمة بسمونها الفناطيسية الحيوانية . يقول علماء العصر الحاضر كما رأيت في كتاب (راجابوقا) الهندى للترجم إلى اللغة الانجليزية ، وفي كتاب انجليزى أيضا يسمى (قواك وكيف تستعملها) إن الإنسان متى وجه فكره لأمر توجيهها تماما موقنا بنجاحه صادقا في عزيمته صارقا كل همه إليه نال ذلك الأمر لاهالة ، ولهم في ذلك طرق يستعملونها وسبل يسلكونها ، وفي الكتاب الثانى ما يفيد أن ساعة يجمع الإنسان فيها فكره نحو القصد الذى قصده خير من أيام يقضيها في العمل لحاجته بلا توجيه قلب ، وهذا سر قوله عليه الصلاة والسلام « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » وسر قوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وسر قوله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى « أنا عند ظن عبدي بي » وسر قوله صلى الله عليه وسلم « ادعوا الله وأتمموا مقتون بالإجابة » .

ولقد رأيت في الفتوحات للسكية لمحي الدين بن عربى ما يفيد هذا المعنى قائلا ماملخصه (لم أر إنسانا كملت إنسانيته وعظمت همته وفاقته عزيمته كزكريا ؛ فإنه لما رأى مريم وصفتها وهي سيدة النساء عفيفة تمنى أن يكون له ولد فدعا الله متوجها توجيهها تماما حاضرا فكره فيما تخيله في مريم فرزق يحيى فجاء على صفات مريم إذ قال الله فيه (وسيدا وحسورا ونبيا من الصالحين) فانطبقت صفاته على الصفات التي تمنها مما شاهد في مريم) فالأستاذ محيى الدين بن عربى يطابق كلامه ماورد عن الأمم الأوروبية والهندية في العصر الحاضر وكل ما يدور على محور هذه الآيات فتعجب من العلم والحكمة ، وزد عجبنا من القرآن الذى امتلا حكمة وعلا في غضون القصص . وفي أثناء الحكايات عن الأمم السالفة والأجيال الفاتية ، ولقد قال مؤلف كتاب (قواك وكيف تستعملها) .

إن أفكار الإنسان لما أثر كل على ظاهره فمن أحس أنه من العلماء أو من التجار أو من العامة أو من السوق لبس ملابسهم وتزيا بزيمهم وسار مسيرهم ودرج في طريقهم .

فالتفكر أبرز مكنونه على ظواهر الجسم وألبسه لباسه ، ويقولون أيضا إن كل فكرة نشعر بها كتمز أو خذلان واستصعاف يكون لها أثرها في الجو المحيط بنا ، وفي الأثير المالى للسكون ففسير سير الكهرومات وتطير

كما يطير البرق وتخمّد النوى الساعدة وتمطل النفوس العاضدة . هكذا يقول ذلك المؤلف ، وصدّها تميز الأشياء ، فلو أن امرأ امتلأ قلبه بالآمال موقنا بالنجاح أثر قلبه فيمن حوله ، وإن كان لا ينطق بذلك وشرط المؤلف أن يجتنب الطالب الشرور والجدال ، وما لا فائدة فيه حتى تمتد الروح فتؤثر في الجو الذي يحيط بها . أقول : وهذا السلام وإن كان لا دليل عليه جدير بالتفكير فيه ، فإن النتائج التي يراها من سار على السرب تصدق تلك القدمات فلا تصديق إلا بالتجربة .

ويقول هؤلاء : أشعر قلبك السرور دائماً ، واطرد عنه كل فسكر يوقع فيه غما وحزنا كتذكار النوائب الفائتة وللصائب الماضية ، فكل فكرة محزنة يعاقب عليها المرء بما يماثلها ، فكأن الصائب والرزيا تحل في القلوب التي تجد فيها مرعى خصيبا .

فأما القلب الذي ترعرعت فيه ناضرات الحدائق للزهرة وباسقات أشجار السرور البهجة ، فذلك يجلب إليه ما كان من جنسه من اللسرات وما يليق له من السعادات ، وإن ورد عليه ما يعجزه ألبسه لباس الجمال ، وتوجهه بتاج البهجة وفعل به ما فعلت النحل بما هجم عليها من الحشرات ، فإنها كما تقدم قريبا تقتله وتمنطه بصمغ كما كان يمنط قدماء المصريين موتاهم فتكفي شر ذلك المهاجم حيا وميتا فهكذا ذلك القلب الجليل يكسو ما حلّ به من الصائب جلايب من العلم مصنوعة من النور منسوجة من الجمال مخيطة بالحكمة ، فلا يذكر إلا الجمال والبهجة ويسير في طريقه ناجحا في عمله وذلك جزاء الصابرين للفكرين العاملين اه .

اللطيفة الثالثة : (قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا)

اعلم أن حفظ العواطف في القلب وكنات ما يريد الإنسان النطق به شديد على النفس ، ولم ينل العلم والحكمة وقضاء الصالح إلا أولئك الذين يحفظون قوتهم اللغاطيسية فلا ينفرون فيها ، وإن أردت المزيد ، فارجع إلى هذا المقال في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين) وذلك مما قلنا عن علماء الجمعية النفسية بأمريكا ، فذكر الله هنا أن زكريا أخبره الله : أنه لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ، ليتوفر على شكر الله عز وجل وانعجاس النفس عن شهوات الكلام الضيعة للقوة الروحية العظيمة ، وذلك من عجائب العلم .

ومما قاله علماء الجمعية النفسية للذكورة : لا تدع مجالاً لتيار الرغبة والشهوة أن يغلت من يدك ولا تخفق تلك الرغبة لتكون قوة لك تنضم إلى أخواتها فتكون قوى الجذب النفسى لغيرك وما مثل الآراء والأفكار المحبوسة فينا إلا كتل الحمام إذا حفظناه جذب غيره إلينا ، وإن أفلتناه من أيدينا انطلق ، ولم تكن لنا فائدة به فيحظى به غيرنا ، فإذا رغبت أن تدهش غيرك بأخبار عجيبة ، ورأيت نفسك طامحة لتلك فاسكت . فهذه قوة تحفظها لنفسك ، فإذا حققت ذلك أضفته إلى ما فيك من قوة اللغاطيسية فآكتم عن أصدقائك ما لا قيمة له من الأخبار . واعلم أن هذه القوى في نفسك كالماء الجاري في النهر كلما سدناه وحفظناه انتفعنا به ، وكما تركناه زال عنه نفعه والرجل الساكت المهادي يزيد إعجاب الناس به . فهذا القول من علماء النفس وأمثاله من أقوال علماء الإسلام في فصل الصمت يدهشنا أن الآية رمز إليه وأن السكوت من القوى الشريفة النفسية الحافظة لقوانا ، وهذا من عجائب القرآن .

اللطيفة الرابعة : (إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم)

اعلم أن علماءنا المفسرين قال كثير منهم : إن في قول عيسى فيها تقدم (وجنتكم بآية من ربكم) أن تلك الآية هي قوله تعالى (إن الله ربي وربكم فاعبدوه) وبينوا كونها آية مما ذكرناه من أن كل دين واجع إلى العلم والعمل ، فالعلم رمز له بالوحدانية ، والعمل رمز له بالعبادة .

كان المسيح عليه السلام يقول: أنا لم آت لكم بدين فكيف تكذبون أن ماجئت به عسلى وعمل ، وهكذا شأن الأنبياء ، أما السحرة ومستخدمو الأرواح والدجاجون ، فهؤلاء لا يهتمهم العلم ولا العمل ولا هداية الناس ، وإنما نحن معاشر الأنبياء جئنا لهداية البشر اه .

(أقول): اعلم أيها القدي أنى لأريد من هذا التفسير الارتقاء عقلك وسمو فكرك ونوع قواك وشرفك ، فلتعلم أن المسيح وأمه لم يذكر في القرآن لجرد الإيمان ولا للتاريخ وإنما عظمة ، ومثل لنا أن عيسى ومريم قد ذكرهما الله عفيفين زاهدين مبرأين من الشيطان ، ومن اللادة التي غمرتنا ، وكان عروجهما إلى اللائحة الأعلى وإلى الله ليكون ذلك القول داعيا إلى أن تحسب في نفسك أن العالم الإنسانى من أصل روحى ، وجهاده فى الدنيا ليخرج يوما مامن سجنها إلى فسيح الجنان ، ثم عالم اللائحة والأرواح المجردة . لذلك تراه سبحانه يذكر عيسى ومريم رمزا لذلك ، وعيسى عليه السلام رفعه الله من الأرض فصار مع اللائحة فلتجد فى العلم والحكمة حتى تصير فوق هذه الأرض وتمشق الخروج من سجن اللادة فإنك يوما ما ستكون (فى مقعد صدق عند ملك مقتدر) مع عالم اللائحة ، فأنت إذا كنت فى الدنيا بشرا بالفعل فإن فىك القوة لللكية ، وإياك أن تظن أن قولى مبالغة أو مجازفة أو خروج عن أقوال علمائنا ؟ كلا ، وإن أردت البرهان فارجع إلى ما ذكره الفخر الرازى ، وأيده بأقوال الإمام الغزالى فى تفسير سورة النازعات . قال : إن نفس الميت تنزع إذا كان فى سياق اللوت ومعنى غرقا زعا شديدا أبلغ ما يكون وأشد من إغراق النازع فى القوس ومعنى تنشيط تخرج ثم إنها تسبح وتسبح سبعا إذا كانت مشتاقة للعالم الأعلى زاهدة فى العالم الأدنى . فأما الجاهلة والعاقله فهى محبوسة ، فإذا وصلت إلى التنهى ظهرت لها آثار فى أحوال هذا العالم فديرت فهى للدبرات أمرا كما تدبر لللائحة ، وضرب لذلك أمثالا كثيرة ضربنا عن ذكرها صفحا مشاكلة لما ظهر فى علم الأرواح الحديث القائل : إن الأرواح العالية فى هذه الأرض ترتقى فى عوالم الجمال طبعا عن طبق ، وفى كل عالم تصل إليه يكون عدتها فيه ما كسبت من العلم والعمل إذ يصبح غريزة فيها وتمسكب غيره ، وهكذا حتى تصل إلى عالم الأرواح الخالى من اللادة فتكون من اللدبرات ، إن العلم لسجيب ، وواقه ماقصر قدامنا الأول ولقد وزنونا علما أصبحنا نأخذة عن أوروبا لجهلنا بآثار آباءنا الأولين .

واعلم أيديك الله أن قول عيسى إن آية صدق أن الديانات كلها لفرس واحد وهو العلم والعمل أشبه بما جاء فى قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أونوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) فلا ورد لك جملا وجيزة من كل دين عرفناه لتكون واقفا على حقايقها لأنك من أمة قال الله لها (لتكنون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) فلتنظر فى ديانات الأمم وعلومها لتعلم أن الديانات متحدة فى معناها ، وإن اختلفت فى مبنائها وإذن تعرف سر القرآن فلم يكن الله يبادل عن السابقين ولا يضيع للحاضرين .

(١) كتاب القيدا

أصل ديانة المهنود التى هى أقدم من دين البراهمة يتربك من أربعة أسفار وهى : الريحقيدا ، والسامقيدا ، والياجورقيدا ، والآثارقيدا وهى أسفار المهنود للقدسة قال فيها الله القيوم بذاته وللوجود فى كل الكائنات الذى لا يمكن أن يحويه الحواس للادية بل الأرواح ، وهو المنزه عن هذه اللادة وهو أزلى سرمدى وهو روح الكائنات الذى لا يمكن لقل أن يدركه على ما هو عليه . هذا من القسم العلمى .

القسم العملى

إن الصبر ومقاومة الإساءة بالإحسان والقناعة والاستقامة والطهارة وكبح جماح الحواس ومعرفة الكتب للقدسة ومعرفة الله والصدق واجتناب الغضب هى الفضائل العشرة التى يجب على الإنسان .

(٢) دين خريستا

خريستا ظهر سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد ، وتاريخ حياته كالنبيح وأمه عنذراء ورفع إلى السماء ، وهكذا سجدوا
النفذة بالقدرة ودينه أشبه عن قبله يعلم وحدة الله ، ويقول من رام بلوغ الكمال فيطلب علم الوحدة التي هي
أصل الحكم ليصل إلى الله ، وقال إن في باطننا نورا إلهيا ، والنفس التي وحدت الله تنتشل من أسر الطبيعة
وعدم الغضب والحسد ، وقال إن الفضائل مقوية للنفس .

(٣) دين بوذا

قبل ظهور الدين المسيحي بنحو ٦٠٠ سنة ظهر بوذا ساكيو ماني وهو ابن ملك ، ولما بلغ من العمر
عشرين سنة تأمل في شعبة ، ورأى البراهمة أتحدوا مع اللوك وأذلوا الشعب الهندي بتعاليمهم ذهب إلى الغابات
فصرف فيها سنين ، وعاد وله من العمر ٣٥ سنة ، وأخذ ينزل ما بناه البراهمة من الحواجز بين الشعب فاتبعه
أهل الهند وأهل الصين واليابان وخلافهم ، ويتبع هذا الدين ثلث المصورة وتعاليمه علم وعمل .

قال علم يقول فيه : إن الشهوة هي التي تربطنا بالمادة ، والشر الأعظم هو الجهل ومنه يصدر العذاب
والشقاء ، والعلم يجب أن يشمل مازي وما لا تری ، والبحث في الإنسان واستقصاء مصادر الأشياء وأسبابها ،
ولابد من الحب مصحوبا بالعلم فتشقى النفس العلم لتخرج من هذه المادة .

أما العمل فهو يقول في وساياه الشر : لا تقتل ، لا تسرق ، كن عقيفا ، لا تشهد بالزور ، ولا تكذب ، لا تعلق ،
تجنب كل كلمة نجسة ، كن خالي الغرض ، لا تأخذ بالتأثر ، لا تستند اعتقادات باطلة ؛ وهو يحض على قهر النفس ،
وعلى الشفقة على سائر المخلوقات .

ومن كلامه (أنا بوذا الذي بكيت لبكاء إخوتي وانسحق قلبي لحزنهما أصبحت اليوم ضاحكا مسرورا ،
لأن الحرية موجودة .

كل ما نحن عليه نتأج فكرنا وأحوالنا عليه مؤسسة ، ولابد للإنسان أن يعود فيحصد مازرع ، وأم
ما يوصى به العلم والمحبة) اه .

(٤) دين قدماء المصريين

أما ظواهر الدين المصري فشهورة بين الناس فهي كلها أصنام وآلهة حجرية وحيوانية ووساياتم العامة
كانت في صلواتهم . هكذا يقولون إن النفس يوم القيامة تنف أمام ٤٢ قاضيا سماويا ، وتقول أيها الإله العظيم
ورب الحق أنيت ملتمة لنتمتك وإني أعرفك وأعرف اسمك وعرفت أسماء الآتين والأرجين إليها الجالسين
معك في ديوان الحق لمعاقبة الأشرار ، ثم تقول الروح انحوا ذنوبي ، فإنني لم أرتكب شيئا ضد قربي
ولا أحزنت أحدا ولا حملت العامل من الشغل فوق طاقته ، لم أكسل ، لم أخطئ ، لم أسبب البكاء لأحد ،
ولا وشيت بالأسير أمام سيده ولا قتلت ولا أسأت أحدا ، لم أطفف للكيال ، ولم أغبن في الوزن ولا أخرجت
الابن من فم الرضيع ولا اقتنصت الوحوش من مرايضها ، وهذه هي الصلاة التي إن صدق فيها الإنسان أمام
القضاة نجما ، وإن أخطأ هوى إلى العذاب هذا ما عند العامة (وأما حقيقة الإله عند الخاصة فهي هذه) :

رؤيا هرمس

كان عند المصريين سر لا يطلع عليه إلا أكابر العلماء وأصحاب السر رؤيا منقوشة بالكتابة المروغليبية
في العابد ، وكان يتناقلها الأجراف شفويا ، وهي :

رأى هرمس وقت الاضطراب السكون والموالم وانتشار الحياة في كل صقع ، فجمع قاتلا في وسط

النور يقول :

إن النور الذي رأيته هو نور الله الذي أشرق على كل شيء ، وأما الظلمة فإنما هي العالم المادي الذي يعيش فيه الناس ، وروح الإنسان : إما أن تكون أسيرة في المادة ، وإما أن ترقى في النور وجميع الأوجاع والآلام والصائب يجعلها نيرة فتطير إلى العلاء من الظلمات إلى النور . فثبت قلبك إذن يا هرمس حين ماترى الأرواح ضاعدة في معارج الأفلاك العلوية توصلا إلى الله ، ثم سبحت الأفلاك السبعة هاتفة : الحكمة . الحب . العدل . البهاء . العظمة . العلم . الخلود .

ثم يقول الخبر لمن أتم امتحانه : اعلم يا بني أن ناموسا نظاميا واحدا يدبر كل شيء لا يجوز أن يقال الحقيقة للضعفاء لا يستسلموا بها للشر فلتعلم ولتصمت اه فحينئذ يكون دينهم التوحيد عند الخاصة والإشراك عند العامة .
(الخامس) دين (يو) الكبير قبل المسيح بألفي سنة بالصين .

(السادس) ليونسو سنة ٥٩٠ قبل الميلاد بالصين ، وعاش ٧٣ سنة وكان دينه كدين بوذا .
عقائد هذين النبيين وغيرها في الصين كما نقل عن الجريدة الفرنسية المطبوعة في مدينة ليون سنة ١٨٦٥ عن الكتب المقدسة للصينيين نشرت قبل المسيح سنة ٢٨٠٠ (تيس) هو الرب العظيم .

ذو علم غير متناه وأينا توجهت فهو حاضر هو غير متناه لا يحابي بل يجود بنعمه يحب استعمال الرحمة يعنى بالأرض حاضر فيها دائما اللائكة فوقنا وتحتنا وعن أيماننا وعن أيماننا . نريد أن نراهم فلا تقدر لأنهم في غاية اللطافة يتراءون للأحياء نادرا ، إن الأرواح تسرب بالقلب الخالص ، إن للأموات الفضلاء مكانا في السماء .
هذه هي الديانات المنتشرة اليوم ، وفي الأيام السالفة في أمم بقاع الأرض ، فانظر كيف اتفقت كلها على التوحيد ولا إشراك إلا عند العامة لأنهم لا يقدرون أن يتصوروا إلها لا يرى ، وانظر كيف يجمع عليهم كله في كنين المعرفة والعمل ، وكانت الديانات كلها دينا واحدا في جوهرها ، فأما الخلاف فراجع إلى الظواهر التي تكسى بها تلك الديانات فصح حينئذ أن يكون قول المسيح (إن الله ربي وربكم فاعبدوه) آية من آيات الله تعالى لأنها ملخص الديانات ، وكذلك تفهم أيضا قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) فهذه هي الديانات كلها ، وما اليهودية والنصرانية بخارجتين عما تقدم (وفيه الأمر من قبل ومن بعد) وإني لأرى كأن النوع الإنساني يتسابق إلى ربه يرجع إليه فوجا بعد آخر ، ومن لم يدرك بقي في سجن الجهالات وجهنم الدل والهوان (والله يهدي من يشاء) .

تفصيل الكلام على قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم الخ) وعلى الأناجيل وبعدها لأقدم لك مقدمة في الأناجيل لتقف على الحقيقة التاريخية لها ، ثم أحص إنجيل برنابا بالقل لأنه يوافق القرآن فأقول :

اعلم أن المسيح اختار أتباعه من ضعاف الناس وهم الصيادون في بحيرة طبرية كأنه يقول : أيها الناس إن تعاليمى لا يعوزها ذكاء خارق للعادة (وبعد موته) أخذ الرسل يبشرون بتوحيد الله وبالجنة ويرمزون إلى طهارة النفس من الذنوب بماء المعمودية التي أخذت عن الأسونيين فانتصب إذ ذاك بولس وهو فرنسي يعرف اللغة اليونانية ولم ير للمسيح قط فادعى أنه أخذ الدين عنه وصار يخاصم بطرس ويوحنا ، فانقسم النصراني فرقتين : فريق يتبع الرسل وفريق يتبع بولس ، وذلك بعد المسيح بشهر سنين ، ثم تمرّد اليهود على نبيون الروماني فأرسل لهم (نسبا سيانوس) الروماني . ثم ابنه طيطس يقود الجيوش وانتهى الأمر بافتتاح أورشليم سنة (٧٠) ب.م وخرب الهيكل وتفرق اليهود مشتتين ، ومات الرسل ماعدا يوحنا وفيلبس وانحلت الرابطة وتفرقوا شذر مذر واختلطت تعاليم المسيح بالفلسفة اليونانية المنتشرة إذ ذاك لاسيا بالإسكندرية ، ولما كان تلامذ المسيح لا قدرة لهم على المجادلة تغلبت الفلسفة اليونانية على تعاليمهم .

وفي أثناء هذا الاختلاط والشاغبة نشأت الأناجيل في أواخر القرن الأول ، وما الأناجيل إلا مجموع روايات منقولة في الأصل عن الرسل .

وقد كانت هناك أناجيل كثيرة في القرن الأول والثاني ، واختير أربعة ورفض الباقي ، وقد أحصى من للنبوذ فابريسيوس (٣٥ إنجيلا) مثل : إنجيل ماربطرس وإنجيل المصريين وإنجيل حياة يسوع وإنجيل مارتوما وإنجيل مار اندراوس وإنجيل مار يرتساوس وإنجيل قرشيه وإنجيل فالشينوس وإنجيل السيمونيين وإنجيل يهوذا وإنجيل برنابا وإنجيل السريان وإنجيل العبرانيين وإنجيل النصارى وإنجيل نيقوديموس ؛ ولم يبق من هذه الأناجيل إلا أسماؤها ماعدا إنجيل برنابا الذي ظهر في هذه الأيام ، ويرجح العارفون أن اختيار الأناجيل الأربعة النسوبة إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا الدائمة بين النصارى تمت في منتصف القرن الثاني المسيحي .

وقد قال المعلم سابتيه رئيس الدروس العليا في مدرسة السريون : لما تعذر على الكنيسة معرفة المؤلفين الحقيقيين للأناجيل اضطرت إلى القول الإنجيل حسب متى أو حسب مرقس وهكذا .

ولقد لام شيلسوس الفيلسوف في القرن الثاني النصارى في كتابه المدعو الخطاب الحقيقي على نلاعهم بالأناجيل وعموم في الندما أدرجوه بالأسس . وفي سنة ٣٨٤ م أمر البابا داماسيوس أن تحرر ترجمة لاتينية جديدة من المهددين القديم والحديث تعتبر قانونية في الكنائس ، وكان تيودوسيوس الملك قد سجن من المخاصمات الجدلية بين الأساقفة وتمت تلك الترجمة التي تسمى (فولكانا) وكان ذلك خاصا بالأناجيل الأربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وقد قال مرتب تلك الأناجيل (بعد أن قابلنا عددا من النسخ اليونانية القديمة رتبناها بمعنى أننا تفحصنا ما كان فيها مغايرا للمعنى وأبقينا الباقي على ما كان عليه) .

ثم إن هذه الترجمة قد ثبتها المجمع (التريدينتي) سنة ١٥٤٦ أي بعدها بأحد عشر قرنا ، ثم خطأها سيستوس الخامس سنة ١٥٩٠ وأمر بطبع نسخ جديدة ثم خطأ كليمنطوس الثامن هذه النسخة الثانية أيضا وأمر بطبعة جديدة منقحة هي المارجة اليوم عند الكاثوليكين .

لعمري لقد لحقت لك أيها الذكي تاريخ الأناجيل من الكتب خالصا سائفا للشاريين ، ولقد كنت قبل الآن أود أن أكون على علم بهذه الجلمة اللوجزة ، لأن معرفة الحقائق سعادة فأنا اليوم أعرفها معك لتبنيج بالعلم والمعرفة معا ، ولتري أيها الذكي كيف كان هذا الإنسان مسكينا مسخرا للتقاليد واتباع السير على ماسمه من أسانذته وشيوخه وهو وهم ساهون لاهون مساكين ، ولعمري إن هذه شفتنة سارت عليها الأمم قديمها وخديتها ولا تستن أحدا ، كيف لا وأنت ترانا نحن المسلمين وإن لم تغير كتابنا قد غيرنا النهج الذي يطلبه والصراط المستقيم الذي سنه ؟ ألم تر عاك الله كيف حض على النظر في العالم والتعقل والتفكر فمرف هذا ساداتنا وآبائنا في العصور الأولى ، ثم خلف من بعدهم خلف ناموا على الوضوء والنجاسة والبيع والفرائض وأنغمضوا عيونهم (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

فلمدار على تغيير ما بالأنفس لاعلى تغيير الكتاب المقدس . كان ناسيحيون قبل ظهور بولس موحدون صادقين يدعون للمحبة ، فلما جاء بولس كثر الخلاف وبعد ذلك طرد اليهود يرون من أرضهم فتفرقوا عند مذر وغير الإنجيل . فأمانحن معاشر المسلمين فإن ديننا سهل ، وكان القرآن في العصور الأولى بحث على التعقل ، ثم انحصرت العقول وأسدل عليها حجب من الجهالة والتعصب والعمى . فداستنا الأمم وانقدنا لها كلرهين ذلك لتغيير طرق الفكر لتغيير الكتاب ، وسيكون هذا التفسير وتعاليم أخرى تظهر على يد فضلاء من المعاصرين لنا في الإسلام سببا في انتشال الأمة من وهديتها ورجوع وحدتها (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) اه القول في الأناجيل والاتماظ بما حدث فيها . فلنفصل الكلام على مسألة الصلب وإنجيل برنابا .

إنجيل برنابا ، ومسألة الصلب

لقد قدمت لك الكلام على إنجيل برنابا في سورة البقرة عند قوله تعالى (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) وذكرت لك هاك أن ما ذكره أسلافنا رحمهم الله قلا عن التوراة قد حذف منها الآن ولم يبق له رسم ولا اسم ، وقلت إن الأناجيل الأربعة هي التي بين أيدي الناس اليوم وإنجيل برنابا يوافق القرآن ، وقد فهمت من هذا المقال الآن ما حصل من نبد جميع الأناجيل البانية منذ القرن الثاني ، ولا يعرف الناس عنها شيئا ، أفليس من العجيب أن يكون هذا التفسير أكثر حظا وأوفر سعادة بظهور إنجيل برنابا في هذه الأيام ، وأنه ربما انعدم من الوجود قريبا لأن حكومة البلاد تحت أمر الانجليز وهم وجميع الأوروبيين لهم السلطة في أكثر بلاد الإسلام ، ولقد منع نشره بين الجمهور الآن فلا ثبت لك ما فيه الآن أيها الذي وهو أمامي ، ولتقرأه منطلما على ما فيه والفرصة سانحة ، فأقول :

رفع المسيح إلى السماء وصاب يهودا وأنه شبه به ولم كان هذا العقاب

ولأخص لك ما في النصل الثامن بين اللاتين وماجده من الإنجيل المذكور . قال « الحق أقول إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلانته (مسيا) للوعود به إبراهيم أن به تبارك كل قبائل الأرض» فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ (لترجم هذا الفاجر لأنه إسماعيلي وقد جدف على موسى وعلى شريعة الله) فقام الناس ليرجموه ، فاخفى يسوع عن أعينهم وتبعه المؤمنون إلى بيت سمعان ، ثم ذهب هو والذين دعاهم رسلا فقط إلى بيت نيقوديموس وبستانه وراء جدول قدرون ، وفي ذلك الوقت كانت العذراء مريم تصلي فأخبرها جبريل بما أصاب ابنها وبشرها بأن الله سيحميه من العالم ، فانطلقت مريم باكية تطلب ابنها فلم تدر أين هو .

فتوجه رئيس الكهنة إلى هيرودس وإلى الوالي الروماني منهما يسوع أنه يريد أن يجعل نفسه ملكا على إسرائيل ، وأحضر لذلك شهود زور .

وقد كان الوالي الروماني يعطف على المسيح فهدده هيرودس أنه ينهه بالصيان أمام قيصر في ذلك الوقت قال للمسيح في بيت نيقوديموس لقد دنت الساعة التي أنطلق فيها من هذا العالم ، ثم أخذ يدعو الله؛ ومن دعائه: « أيها الرب الإله اذك قبائل الأرض كلها التي قد وعدت أن تباركها برسولك الذي لأجله خلقت العالم، ارحم وهبل بإرسال رسولك لكي لا يسلب الشيطان عدوك مملكته » فأجابوا كلهم آمين خلا يهودا لأنه لم يؤمن بشي* صفحة ٣١٠ .

وجاء صاحب التزل فأخبر يسوع بكل ما أمر هيرودس والوالي ورئيس الكهنة ، ثم قال يسوع ليهودا (إن وقتي قد دنا فاذهب وافعل ما يجب أن تفعله) فظن التلاميذ أنه يشتري شيئا ليوم النصح ، ثم أخذ المسيح يقبل أرجل تلاميذه ، ثم قال يسوع إن واحدا منكم سيسلمني فأباع تكروفاً ، فذهب يهودا وأخذ من رئيس الكهنة ثلاثين قطعة من الذهب ليدل على المسيح ، وقدم الجنود مع يهودا فلما سمعهم المسيح انحسب إلى البيت خائفاً ، وكان الأحد عشر نياما ، فأخذ جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل يسوع من العالم ، فخلعوه ووضعوه في السماء الثالثة في حبة الملائكة يسبحون إلى الأبد ، فدخل يهودا جنفاً إلى الترفة التي صعد منها للمسيح فتغير يهودا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع . قال برنابا حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان للمم . لذلك تمجنا وأجبنا أنت ياسيد هو معلنا أنسيتنا الآن . أما هو فقال متبسها هل أتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهودا الأمخربوطي ، فدخلت الجنود وألقوا بأيديهم على يهودا لأنه كان شبيهاً بيسوع من كل وجه . قال برنابا أما نحن فلما سمعنا قول يهودا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين

ثم قال : فأخذ الجنود يهوذا وأوثمونه ساخرين منه لأنه أنكر وهو صادق أنه هو يسوع ، فقل الجنود مستهزئين به (يا-يدي لا تخف لأننا قد أتينا لتجعلك ملكا على إسرائيل وإنما أوتينا لك لأننا نعلم أنك ترفض للملكة) فأحاط يهوذا لملككم جنتم إنكم أتيتم بسلاح ومصاييح لناخذوا يسوع الناصري كأنه لص أتوتوتوني أما الذي أرشدكم لتجعلوني ملكا فأخذوا يضربونه ويرفونه وقادوه إلى اورشليم ؛ ثم إن يوحنا وبطرس تبعوا الجنود ، وشاهدوا الجموع الذين اجتمعوا لقتل للسيح فتكلم يهوذا كلمات جنون كثيرة والناس يضحكون من قوله معتقدين أنه هو يسوع ، وأنه يتظاهر بالجنون خوفا من اللوت ، ولذلك عصب الكهنة عينيه بعصابة وقالوا له مستهزئين (قل لنا من ضربك ولطموه وبعثوا في وجهه) وطلب رئيس الكهنة ومن معه شاهد زور على يهوذا معتقدين أنه يسوع فلم يجدوا مطلبهم . قال برنابا (ولماذا أقول إن رؤساء الكهنة اعتقدوا أن يهوذا يسوع بل إن التلاميذ كلهم مع الذي يكتب اعتقدوا ذلك حتى إن حزن كل واحد كان يفوق التصديق . لعمر الله إن الذي يكتب نسي كل ما قاله يسوع من أنه يرفع من العالم ، وأن شخصا آخر سيعذب باسمه وأنه لا يموت إلى وشك نهاية العالم لذلك ذهب (الذي يكتب) مع أم يسوع ومع يوحنا إلى الصليب) . فأمر رئيس الكهنة أن يؤتى بيسوع موثقا أمامه وسأله عن تلاميذه . فكان جميع قوله يدور حول هذه الكلمة (أنا يهوذا لا يسوع) فأخذوا يضربونه ويرفونه ثم ألبسوه لباس مشعوز وأخذوا يذبونه ، ثم قادوه إلى الوالي الذي كان يحب يسوع سرا ، ولما سأله أفهمه : إني لست يسوع بل أنا يهوذا ولست بيسوع الساحر الذي حوثنى هكذا بسحره ، فهم الوالي أن يطلقه وقال إن لم يكن للسيح فلا حق لنا في قتله ، وإن كان هو للسيح فقد جن ولا حق لنا في قتل المجنون . فقال القوم إنه يسوع ولكنه خيبت فأراد يلاطيس (وهو اسم الوالي) أن يتخلص من هذه الدعوى ، وقال خذوه إلى هيرودوس فلما حضر إليه سأله فأنكر أنه يسوع أيضا ، ثم رده محمرا إلى يلاطيس قائلا (لا تقصر في إعطاء العدل بيت إسرائيل) وذلك بسبب أن رؤساء الكهنة أعتادوا هيرودوس مبلغا كبيرا من النقود ، ولما صار عند الوالي ألبسه الجند ثوبا قديما من الأرجوان تهكما قائلين (يليق بملكنا الجديد أن يلبس حلة ويتوج) فجمعوا شوكا وصنعوا إكليلاشيها بإكليل الذهب والحجارة الكريمة التي يضمها للوك على رؤوسهم ووضعوه فوق رأس يهوذا ، ووضعوه في يده قسبة كسولجان ، وأجلسوه في مكان عال ومر من أمامه الجنود حائنين رؤوسهم تهكما مؤذنين له السلام كأنه ملك اليهود ، وبسطوا أيديهم لينالوا الهبات التي اعتاد إعطاءها للوك البدد ، فلما لم ينالوا شيئا ضربوا يهوذا ، ثم أعطوا الوالي أيضا عقودا فتناولها وأسلم يهوذا للكهنة والفدسين كأنه مجرم وصلبوه في جبل الجمجمة عريانا مبالغة في تحقيره وصرخ يهوذا قائلا (يا الله لم تركتني فإن المجرم قد نجى أما أنا فأموت ظلما) قل برنابا (ولقد اعتقد التلاميذ اعتقادا جازما أن يهوذا هو يسوع ، ولذلك ارتد كثير منهم عن دينه . أما الذين ثبتوا على دينه فهم كانوا في حزن شديد لما رأوا أنه هو للصلوب ، وطلبوا جسده من الوالي ودفنوه في القبر الجديد بعد أن ضمخوه بمائة رطل من الطيبوب ، ورجع كل إلى بيته . ومضى الذي يكتب ويوحنا ويعقوب أخوه مع أم يسوع إلى الناصرة ، وذهب من التلاميذ من لم يخف الله ، وسرقوا جثة يهوذا وخبثوها وأشاعوا أن يسوع قام لحصل اضطراب) .

فمادت العذراء إلى اورشليم ومعهما (الذي يكتب) ويعقوب ويوحنا ، ثم صعدا لللائكة فأخبروا يسوع في السماء الثالثة مع اللائكة ووصوا عليه كل شيء ، فسأل يسوع زه أن يأذن له أن يرجع إلى أمه لتراه فأذن له أن ينزل مع اللائكة الأربعة ، فجاء محفوقا بالسنا إلى أمه العذراء مع أخيها ومع (الذي يكتب) بنى برنابا ويوحنا ويعقوب وبطرس غفروا من إلهام كأنهم أموات . فأنهض يسوع أمه والآخرين من الأرض قائلا : (لا تخافوا لأني أنا يسوع ولا تبكوا فإني حي لا ميت) فلبثوا جميعا كالمحولين ، فقالت العذراء باكية (قل لي

يا بنى لماذا سمع الله بموتك ملحقا العار بأقرانك وأخلائك وملحقا العار بتعليمك وقد أعطاك قوة على إحياء
 الموتى الخ) أجاب يسوع: (صدقيني يا أماء لأنى أقول لك بالحق، إنى لم أمت قط لأن الله قد حفظنى إلى قرب
 انقضاء العالم، ثم ظهر لللائكة كأربعة شمس وقصوا على العذراء كيف جعل الله يهوذا في صورة يسوع ليغيب
 جزاء وفاقا .

حينئذ قال برنابا: يا معلم أيجوز لى أن أسألك الآن كما يجوز عند ما كنت مقبيا معنا؟ أجاب يسوع:
 صل ماشئت يا برنابا أجيبك. فقال برنابا: إذا كان الله رحيمًا؟ فلماذا عذبنا بهذا القدار بما جعلنا نعتقد أنك
 كنت ميتا، ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت، وسمع الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على
 جبل الجلجثة، وأنت قدوس الله؟ أجاب يسوع: صدقنى يا برنابا، إن الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت
 طفيفة عقابا عظيما لأن الله ينضب من الخطيئة. فلذلك لما كانت أمى وتلاميذى الأمناء الذين كانوا معى أحببوا
 قليلا جدا عليا أراد الله البر أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم فلما كان
 الناس قد دعونى الله وابن الله على أنى كنت بريئا فى العالم أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت
 يهوذا معتقدين أنى أنا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة، وسيقى هذا إلى أن
 يأتى عهد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشرية الله، ثم قال يسوع: إنك لعادل
 أيها الرب إلهنا لأن لك وحدك الإكرام والمجد بدون نهاية، ثم أوصى يسوع برنابا وأمره أن يكتب الإنجيل
 ويظهر الخداع للمؤمنين بمسألة يهوذا، ثم ذهبوا جميعا إلى جبل الزيتون وعانق أمه على محضر من تلاميذه،
 وقال: السلام عليك يا أمى توكلى على الله الذى خلقك وخلقنى، ثم التفت إلى تلاميذه وقال: نعمة الله ورحمته
 معكم، ثم حملته لللائكة الأربعة أمام أعينهم إلى السماء.

وبعد ذلك بشر بعض الناس بأن يسوع مات ولم يقم وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام، وآخرون
 بشروا ولا يزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله، وقد خدع فى عدادهم بولس، وأما نحن فلإنما نبشر بما
 كتبه الذين يخافون الله ليخلصوا فى اليوم الأخير لدينونة الله آمين انتهى الإنجيل.

هذا ملخص ما فى إنجيل برنابا من صفحة ٣٠٤ إلى ٣٢٥ من الفصل الثامن بعد اللاتين إلى الفصل
 الثانى والعشرين بعد اللاتين وهو آخر الكتاب.

وانظر أيها الذكى كيف وافق هذا الإنجيل القرآن موافقة صريحة عجيبه إذ يقول هنا (وراضك إلى
 ومطهرك من الدين كفروا) ويقول فى سورة النساء بعد هذه السورة (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم
 رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لئى شك منه ما لهم به من علم إلا
 اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رضى الله إليه وكان الله عزيزا حكيمًا) أفليس هذا هو نفسه عين ما قاله برنابا
 فى الإنجيل، وأن المسيح أمره أن يظن هذا الخ، ولولا ما ذكره العلماء للسيحيون من أن هذا الإنجيل لم
 يعرف عند المسلمين قط ولم يسموه لظن هؤلاء أنه تأليف إسلامى فكيف وقد تقدم فى سورة البقرة تاريخ
 الكتاب وكيفية ظهوره فأرجع إليه إن أردت الاستيعاب والصواب، ثم تعجب من العلم والحكمة، وانظر
 فيما ذكرت فى هذا المقال أن الأناجيل الأربعة اختاروها فى القرن الثانى المسيحى وبنذوا مساوها من الأناجيل
 والنتوذ ٣٢ ومنها إنجيل برنابا الذى نحن بصدده، فلم يكن يعلمه الناس فى زمن بنى نبينا صلى الله عليه وسلم،
 وانظر كيف جاء القرآن بما يطابقه، ولا علم لأحد بما فيه إلا فى هذه الأيام (والله يهدى من يشاء إلى
 صراط مستقيم) اه .

(١) المذاهب المسيحية قديما وحديثا ومذاهب أوروبا وذكر دولها واستقلالهم وتصرفهم

اعلم أن المذاهب فى الدين المسيحى ثلاثة فى الزمان القديم: (١) لللكانية (٢) والنسطورية

(٣) واليقونية ؛ فالأولون يقولون بالثلث لليسح وأمه واثق ، ويقولون إن المسيح ناسوت قديم ومرم ولدت إلهاً أزلياً والأب هو الله وعيسى ابن الله بنوة حقيقية ، والنسطورية يقولون بالامتزاج فالكلمة عندهم أشرفت على جسد عيسى كإشراق الشمس على بلور ، وأما اليقونية فيقولون انقلبَت الكلمة لحما ودما ، فصار الإله هو المسيح ولما عمى الزمان وانقضت الأجيال الأولى لم يبق إلا للذهب الأول وهو للسكانية وأصحابه هم (الكاثوليكية) وهي صفة مدح كآهل السنة عند المسلمين ، وأما النسطورية واليقونية فلم يبق منهم أحد الآن في بلاد الإفرنج ، وربما يوجد منهم في نصارى الشام ومصر والحبشة ورئيس الكاثوليكية والبابا برومة وهو كاتقبط عند المسلمين ، وقد صار البابا سنة مائة وثمانية هجرية رئيساً سياسياً ، وأصبحت ملوك أوروبا تحت أمر الباباوات بعد أمد طويل ، ولما ظلموا الملوك انعطوا في رياستهم إلى سنة ١٢٨٨ هـ أى سنة ١٨٧١ ميلادية . فسقط أمرهم بالكليّة ودخل الإيطاليون عاصمة البابا ، ثم إنهم في القرن التاسع الهجرى لما تذرروا من البابا وانتقت طائفة فلم يتعرفوا برياسته مسموم (برونسانت) أى مبتدعة كالمعتزلة عند المسلمين ، وهناك فرقة تسمى (أرثوذكس) ببلاد الروسيا فلا يتعرفون بالبابا وإن كانوا يوافقون الكاثوليك في كل ما م عليه .

(وهاك دول أوروبا ودينها القديم وزمن استقلالها وحالها قبل الاستقلال وزمن دخولها النصرانية)

الدولة	أصل دينها	أول زمن استقلالها	حالتها قبل الاستقلال	دخولها النصرانية
فرنسا	تشبه ديانات الهند	٤٢٠ ميلادية	تحت ملوك اليونان فالرومان	٤٩٦ ميلادية
الإنكليز	يسجدون للحجارة والماء والصخر	٨٢٧ ميلادية	كانت تناوبهم دول من أوروبا	٤٩٦ ميلادية
النمسا	يسجدون الأوثان	٩٨٢ ميلادية	كانت تناوبهم دول من أوروبا	نحو السابقين أعلاه
البروسية	يسجدون الأوثان	١٣١٥ ميلادية	كانت تناوبهم دول من أوروبا	نحو ما تقدم أعلاه
الدولة الروسية	يسجدون الأوثان	٨٩٢ ميلادية	كانت تناوبهم دول من أوروبا	٣٧٥ هجرية
دولة إسبانيا	يسجدون الأوثان	٩٠٠ هجرية تقريبا	اليونان فالرومان وبعض ملوك أوروبا للإسلام	كدول أوروبا غير الروسية
البرتغال	يسجدون الأوثان	١٠٥٠ هجرية	للرومان ولمن بعدهم	كدول أوروبا غير الروسية

ومثل من تقدم الفلنك والدانبارك والسويد والنرويج ؛ وأما البلجيك وسويسرا فدخولها النصرانية كما تقدم وبقية أحوالها مقاربة لدول أوروبا السابقين .

القسم السادس من سورة آل عمران

المهاورة للرتبة على قصة مريم وعيسى كحاجة النصارى في عيسى ، وإقامة الحجّة على أهل الكتاب ،

وتكرار النداء لهم ست مرات بقوله تعالى (يا أهل الكتاب) من قوله تعالى (إن مثل عيسى) إلى قوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) وهذا القسم أربعة فصول : الفصل الأول بحجة النصارى في عيسى إلى نوله تعالى (اشهدوا بأنا مسلمون) الفصل الثاني في إقامة الحجة في أمر إبراهيم وذكر سينات أهل الكتاب وتفرغهم إلى قوله تعالى (وهم يعلمون) الفصل الثالث في آداب الرسل ، وأهم يدعون إلى الحرية ولبسواهم ولا لللائكة محبوبين إلى قوله تعالى (وهو في الآخرة من الخاسرين) الفصل الرابع في تفرغ أهل الكتاب وتذكيرهم بإبراهيم ودعوتهم إلى اتباعه .

الفصل الأول

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ
 فَقُلْ : تَمَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ
 فَنَجْعَلْ لَمَنَّا عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِنَّ
 اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
 تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
 بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيه السيد والعاقب ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال من هو ؟ قالوا عيسى تزعم أنه عبد الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أجل إنه عبد الله ، فقالوا له : فهل رأيت له مثلاً وأنبئت به ، ثم خرجوا من عنده جلاء جبريل عليه السلام ، فقال له قل لهم إذا أتوك (إن مثل عيسى) شأنه القريب (كمثل آدم) كشأن آدم ، ثم أخذ يبين وجه الشبه وهو أنه خلق جسمه من تراب فلا أب ولا أم له فهو أغرب من عيسى المخلوق بلا أب إغماماً للخصم ، فهذا قوله (خلقه من تراب ثم قال له كن) بشراً (فيكون) فكان ، فقوله « خلقه من تراب » راجع لحسه وقوله « كن فيكون » راجع لروحه ، وهكذا عيسى قاله « كن » فكان بلا أب . الذي أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) الشاكين خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لزيادة الثبات (فمن حاجك) من النصارى (فيه) في عيسى (من بعد ما جاءك من العلم قتل تعالوا) هلموا (ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أي يدع كل منا ومنكم خاصته وأهل بيته وأصفياءه من ولد وامرأة ونفس ، وقدم هؤلاء الأبناء والنساء مع أن الإنسان يدافع عنهم بنفسه لشدة اليقين لأن من يفتد بهم بنفسه قدمهم في ذكر الباهلة دلالة على صدق النبوة (ثم نبهل) تضرع في السماء وتلتمن بأن نعلن الكاذب منا ، ثم بينه بالمعطف فقال (فنجعل لمننا على الكاذبين) في أمر عيسى .

قال محمد بن إسحاق في سبب نزول هذه الآية والآيات قبلها من أول السورة : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وثلاثة منهم كانوا أكابر القوم

أحدم أميرهم واسمه عبد السبيح ، والثاني مشيرهم وذو رأيهم وكانوا يقولون له السيد واسمه الأيهم ، والثالث
 حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم يقال له أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل وملوك الروم كانوا
 شرفوه وموتوه وأكرموه لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم ، فلما قدموا من نجران ركب أبو حارثة
 بقلته وكان إلى جنبه أخوه كرز بن علقمة ، فبينما بنقأ أبو حارثة تسير إذ عثرت ، فقال كرز أخوه تعس الأجد
 يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو حارثة : بل تمست أمك ، فقال ولم يا أخي ؟ فقال إنه والله النبي
 الذي كنا ننتظره ، فقال له أخوه كرز : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا
 كثيرة وأكرمونا فلو آمننا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأخذوا منا كل هذه الأشياء ، فوقع ذلك في قلب أخيه
 كرز ، وكان يضمره إلى أن أسلم فكان يحدث بذلك ، ثم تكلم أولئك الثلاثة : الأمير ، والسيد ، والحبر
 مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على اختلاف من أديانهم ، فثارة يقولون عيسى هو الله ، وثارة يقولون هو
 ابن الله ، وثارة يقولون ثالث ثلاثة ، ويحتجون لقولهم هو الله بأنه كان يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص
 ويرى الأستقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير ، ويحتجون في قولهم إنه ولد
 الله بأنه لم يكن له أب يعلم ، ويحتجون على قولهم : ثالث ثلاثة يقول الله تعالى فعلنا وجعلنا ، ولو كان واحدا لقال
 قلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا فقالوا قد أسلمنا ، فقال صلى الله عليه وسلم كذبتم كيف يصح
 إسلامكم وأنتم تثبتون لله ولدا ؟ وتعبدون الصليب ، وتأكلون الخنزير . قالوا فمن أبوه ؟ فسكت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى في ذلك أول سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، ثم أخذ
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يناظر معهم . فقال ألم تعلمون أن الله حي لا يموت ؟ وأن عيسى يأتي عليه
 الفناء ؟ قالوا بلى ! قال ألم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وبشبه أباه ؟ قالوا بلى ! قال ألم تعلمون أن
 ربنا قيم على كل شيء يكالؤه ويحفظه ويرزقه ؟ فهل يملك عيسى شيئا من ذلك ؟ قالوا لا ، قال ألم تعلمون
 أن الله لا يخلق عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ فهل يعلم عيسى شيئا من ذلك إلا ما علم ؟ قالوا لا ، قل
 فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء ، فهل تعلمون ذلك ؟ قالوا بلى ! قال ألم تعلمون أن ربنا لا يأكل
 الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ وتعلمون أن عيسى حملته امرأة كحمد المرأة ، ووضعته كما
 تضع المرأة ، وغذى كما يرضى الصبي ، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا بلى ! قال
 صلى الله عليه وسلم فكيف يكون كما زعمتم ؟ فمرفوا ثم أبوا إلا جحودا ، ثم قالوا يا محمد ألت زعم أنه
 كلمة الله وروح منه ؟ قال بلى ! قالوا لحسبنا ؟ فأنزل الله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه
 منه) الآية ثم إن الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بملاعتهم إذ ردوا عليه ذلك ، فدعاهم رسول الله
 صلى الله عليه وسلم إلى الملاعة .

روى أنهم لما دعوا إلى الباهلة قتلوا حتى تنظر ، فلما تجالوا قالوا لصاحب الرأي فيهم ما ترى ؟ فقال والله
 لقد عرقتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا إلا هلكوا ، فإذا أبيتهم إلا إلف
 دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضا الحسين آخذنا بيد
 الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، وعليّ رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول : « إذا أنا دعوت فأمنوا ، فقال أسقفهم
 يامعشر الصارى إنى لأرى وجوها لو سألتوا الله تعالى أن يزيل جلا من مكاه لأزاله ، فلا تباهلوا قتلكموا »
 فأذعنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلوا له الحزبة التي حلة حمراء وثلاثين درعا من حديد ، فقال
 صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم الوادى عليهم نارا ،
 ولاستأصل الله نجران وأهله » . وهذا من دلائل البوة (إن هذا هو القمص الحق ، وما من إله إلا الله)

وليس ثالث ثلاثة (وإن الله هو العزيز الحكيم) لا أحد يساويه في القدرة التامة ، والحكمة البالغة ، فإذا
ليس له شريك .

(فإن تولوا) أعرضوا (فإن الله عليم بالمفسدين) أى عليم بهم فيجازيهم ، فوضع للظاهر موضع الضمير
ليدل على أن التولى عن الحجة والإعراض عنها فساد للدين . ولما قدم وفد نجران المدينة واجتمعوا باليهود
اختصموا في إبراهيم ، فكل يدعى أنه على دينه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كلاهما برىء من إبراهيم بل كان
حنيفاً مسلماً ، وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام » . فقالت اليهود ما تريد إلا أن تتخذك رباً كما اتخذت النصارى
عيسى رباً . وقالت النصارى يا محمد ما تريد إلا أن تقول فيك ما قالت اليهود في عزيز ، فأُنزل الله (قل يا أهل
الكتاب) من اليهود والنصارى (تعالوا إلى كلمة سواء) أى عدل لا يختلف فيها التوراة والإنجيل ثم فسرها
فقال (أن لا نعبد إلا الله) أى نوحده بالعبادة ونخلص فيها (ولا نشرك به شيئاً) ولا نجعل له شريكاً في استحقاق
العبادة (ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله) ولا نقول عزيز ابن الله ، ولا المسيح ابن الله ، ولا نطيع
الأخبار والرهبان فيما أحدثوا من التحريم والتحليل ، لأن كلامهم بشر مثلنا . روى أنها لما نزلت (اتخذوا
أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدكم يا رسول الله ، قال أليس كانوا يعبدون
لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال نعم ا قال هو ذلك (فإن تولوا) عن التوحيد (ققولوا اشهدوا بأنا
مسلمون) مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له ، وقد لزمتمكم الحجة ، فاعترفوا بأنا مسلمون وأسلم كافترون بما
نطقت به الكتب السماوية .

لطيفة

انظر إلى هذا الترتيب : (١) ذكر عيسى وقتته وأحواله (٢) ثم آتى بالحجة الدامغة على أنه ليس إلهاً
(٣) ثم دعاهم للباهلة (٤) ولما لم يجد قال اتبعوا إبراهيم الذى أجمعت عليه الديانات الثلاث (٥) ثم لما لم
يجد أعرض عنهم وقال اشهدوا بأنا مسلمون .

الفصل الثاني

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ
بِمَدِينِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ * هَا أَنْتُمْ هُوَ لَاءَ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا
وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى
الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِالَّذِي نَبَّحَ

دِينَكُمْ ، قُلْ إِنْ أِهْدَى اللهُ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ
 قُلْ : إِنْ الْفَضْلَ يَبْدِ اللهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ
 مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا
 فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ
 فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنْ الَّذِينَ بَشَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ
 لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ * وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السِّنِّتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ
 مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ *

لما ادعى كل من النصارى واليهود أن إبراهيم على دينهم كما تقدم ، قال الله تعالى (يا أهل الكتاب
 لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة) على موسى (والإنجيل) على عيسى (إلا من بعده أفلا تعقلون ؟)
 هذه للسألة التاريخية الشهيرة ، وكيف يكون إبراهيم على دين موسى وقد أنزلت التوراة عليه بعد إبراهيم
 بمدة ٥٧٥ ، وبين موسى وعيسى ١٦٣٢ ، ويقال إن المدة الأولى ٥٦٥ ، والثانية ١٩٢٠ ، فتكون للدة بين إبراهيم
 وعيسى إما ٢٢٠٧ ، وإما ٢٤٨٥ ، ثم أخذ يقرعهم فقال : محس لكم وأى حجب حاجبتم فبا لكم به علم
 بما تدعون أنكم وجدتموه في التوراة والإنجيل مكابرين معاندين ، فكيف ساغ لكم الحاجة والمجادلة فيما
 لا علم لكم به مما لم يذكر في كتابكم ولا يقبله العقل ولا يساعده النقل (والله يعلم) أمر إبراهيم الذي
 حاجبتم فيه (وأتم لا تعلمون) أفلا يستنتج من ذلك أنه (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان
 حنيفاً) مائلاً عن العقائد الثلاثة (مسلماً) متقاداً لله ، وليس اللغى أنه على دين الإسلام وملة محمد صلى الله عليه
 وسلم ، ولو كان كذلك لقل إن الإسلام بعد التوراة والإنجيل ، فكيف كان إبراهيم على دين محمد صلى الله
 عليه وسلم ، ولم ينزل القرآن إلا من بعده بنحو ثلاثة آلاف سنة (وما كان من الشركين) معرضاً بأن النصارى
 واليهود مشركون ، أى لم يكن منكم أيها المشركون (إن أولى الناس بإبراهيم) أى أخصهم به ، من ولئ : إذا
 قرب (للذين اتبعوه) من أمته (وهذا النبي والذين آمنوا) به لمواقفة شريعتهم لشريعتهم غالباً (والله وليّ
 المؤمنين) ينصرهم ويجازيهم بإيمانهم . ولما دعا اليهود حذيفة وعمارا ومعاذا إلى اليهودية نزل (ودت طائفة
 من أهل الكتاب لو) بمعنى أن (يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) أنهم قد أضلوا أنفسهم
 برسوخ العوائد للذمومة وثباتها فيهم بالمران على الإضلال ، فإن للعمل أترا في النفس دائماً (يا أهل الكتاب
 لم تكفروا بآيات الله؟) وهي ما جاء في التوراة والإنجيل الدالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأتم
 تشهدون) أنها آيات الله وضح أن يقال لم تكفروا بالقرآن ، وأتم تشهدون بآيات محمد في كتابكم (يا أهل

الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل (تخلصون الحق الوارد في الكتاب للقدس الدال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالباطل ، وهو تحريف القول وتبديله فيقع الشك في نفوس أتباعكم) (وتسلمون الحق) نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) بما تكتمونه . ولما قال كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخراً ، فإن المسلمين إذا سمعوا ذلك قالوا هم أعلم منا وقد رجعوا فارجعوا ، وقيل إن اثني عشر من أحبار اليهود قالوا : ندخل الإسلام أول النهار ونقول في آخره نظراً في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً بالنعمة الذي ورد في التوراة ، لما قيل ذلك نزل (وقالت طائفة من أهل الكتاب - إلى لهم يرجعون) وقالت تلك الطائفة اليهودية أيضاً : ولا تصدقوا أن يعطى أحد مثل ما أعطيت من العلم والحكمة والكتاب والمعجائب ، كغلق البحر لموسى ، وقلب العصا حية ، أو يحاجوكم ويجادوكم عند ربكم ، كلا لا تصدقوا ذلك إلا لمن يتبع دينكم من شعب الله الذين اصطفاهم على العالمين وهم بنو إسرائيل ، فإذا جاء نبى فهو منهم وإلا فلا ، فقال الله حاكياً (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) قل : إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) وحجة « إن الهدى هدى الله معترضة . يقول الله تعالى إن الهدى من عند الله فله أن يجعل النبوة في الرب كما كانت في بنى إسرائيل ، وزاده أيضاً فقال (قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع) ذو سعة يتفضل على من يشاء (عليم) بمن يستحق الفضل ، وكما يقول إن فضل وإن كان واسعا يصحبه علم وحكمة ، فلا أعطى إلا حيث يحسن العطاء ، ولا أمنع إلا حيث يحسن المنع فلذلك (يختص برحمته من يشاء) على حسب الاستعداد (والله ذو الفضل العظيم) فهنا ذكر أنه واسع وأنه عليم وأنه ذو فضل عظيم ، وأظهر هذه اللواظن عند أكثر الناس ما ذكرته سابقاً عند قوله تعالى « وترزق من تشاء بغير حساب » فإن الفضل هناك في المحسوسات ، فهي آية عند جميع الناس . وأما النبوة والرسالة فالفضل فيها لا يفهمه حق فهمه إلا أولو الألباب . ولقد استودع قرشى عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداها إليه وفنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر ديناراً فجحدته ، ولقد جرت عادة النصارى أن يكونوا في الغالب مأمونين ، أما اليهود فإنهم غالباً خائون ، لذلك نزل قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) أى إلى المدة دوامك قائماً على رأسه تطالبه مبالغاً في ذلك ، لأن اليهود يعتقدون أنهم لا يقاتلون على من ليس من دينهم (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) إنهم كاذبون في دعواهم أن من ليس على دينهم لا حرمة له ، والله عز وجل رب العالمين لارب اليهود وحدهم ، وليست رحمته قاصرة على أحد من خلقه بل هي عامة (بل) إثبات لما نقوه بل عليهم سبيل (من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب للتقنين) من أوفى بعهده فأدى الأمانة واتقى الكفر والحيانة ونقض العهد فإن الله يحب للتقنين المؤمنين الواجبات المجتنبين المنهيات . ولقد كتب علماء اليهود في التوراة بأيديهم ما تقدم من أنهم ليس عليهم في الأميين سبيل ، وأنهم لا يقاتلون بحق إلا إذا كان يهودى وحلفوا على ذلك ، لذلك قال تعالى (إن الذين يشتركون) يستبدلون (بعهدهم الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) متاع الدنيا (أولئك لا خلاق) لا نصيب (لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله) كلاماً يصرم وذلك لفضله عليهم (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) استهانة بهم (ولا يركبهم) ولا يثني عليهم بالجليل (ولهم عذاب أليم) على فعلهم ، وهذه الآية النازلة في اليهود ليست خاصة بهم ، بل تشمل كل عهد وميثاق أوجبه الإنسان على نفسه ، فكل ذلك من عهد الله الذى يجب الوفاء به ؛ وللمراد بالأيان الكاذبة في أى عقد من العقود ، أو عمل من الأعمال ، أو رأى من الآراء . وفى الحديث « من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان » وفيه

أيضا « أن رجلا أقام سلمة وهو في السوق، خلف باقه لقد أعطى بها ما لم يعط لبوقع فيها رجلا من المسلمين، فزلت الآية ». وفي هذا المقام روايات كثيرة في البخاري ومسلم لا تخرج عن هذا المعنى فلا تطيل بها. وقد عرفت الحقيقة أن الآية شاملة لكل عهد ولكل بين فاجرة في علم أو عمل فانهم هديت. فعلى العلماء في أقطار الإسلام أن يمنوا للمسلمين جميعا من الحلف لأن ذلك أصبح مرضا، ويظهر أن الغضب الذي حلّ بديار الإسلام ناجم من جهلهم بعظمتهم تعالى، فيحلفون على النقيض والقطمير صدقا وكذبا، والمسيحيون يزهون لسانهم عن الحلف، فواعجا كل العجب من جهلة المسلمين.

إن كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحسي بن أخطب، وأنا ياسر وغيرهم كانوا يعمدون إلى اللفظة في التوراة المكتوبة باللغة العبرية فيحرفونها بتبديل حركات الإعراب فيتغير المعنى تبعاً له، وذلك في صفات النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها، لذلك قال تعالى (وإن منهم) أي اليهود (لفرقا يلوون ألسنتهم بالكتاب) التوراة (لنحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) وإنما هو المحرف الذي غيروا معناه إلى ما أرادوا (ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله) بل من عند أنفسهم (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أنهم كاذبون.

الفصل الثالث

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَقَرَّ دِينِي اللَّهُ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ مِنَ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

ملخص هذا الفصل

ما يجب على الأنبياء في إرشاد الخلق. وهو أولا: أن لا يأمروا الناس بعبادتهم ولا بعبادة الملائكة، وإنما يأمرهم أن يكونوا معدين الخير لغيرهم وأمرهم وملوكا عادلين على سنن أنبيائهم، وثانيا: على كل نبي

وأتباعه أنهم إذا سمعوا أن الله عز وجل أرسل رسولا مصدقا لكتابهم أن يؤمنوا به وينصروه . ناكثا : أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمه أن يكونوا مؤمنين بما أنزل على سائر الأنبياء لا يفرقون بينهم (هذا ملخص الآيات) .

روى « أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله نسل عليك كما يسلم بضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ قال : لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله . وروى أن أبا رافع القرظي والسيد النجراfi قال يا محمد أتريد أن نبذك وتتخذك ربا ؟ فقال معاذ الله أن يعبد غير الله ، وأن تأمر بغير عبادة الله ، فما بذلك بشئ ، ولا بذلك أمرني ، فترى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم) الفهم والعلم (والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله) أي لا تجتمع النبوة مع قوله للناس اعبدوني (ولكن) يقول (كونوا ربانيين) منسويين إلى الرب ومربين فترى الناس بصفار العلم قبل كبارهم ، وتكونون علماء تعملون بملككم جامعين بين علم البصيرة وعلم السليسة ، تلون أمور الناس فتكونون ملائكتهم وعلماءهم ومعلمهم الخير ومواظبين أتم على طاعة الله وعبادته . قال أبو عبيدة أحسب هذه الكلمة غير عزيزة ، إنما هي عبرانية أو سريانية ، وعلى كل فهي تدل على النبي علم وعمل بما علم ، وعلم الناس طريق الخير الخ (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أي بسبب كونكم معلمين الكتاب ، وبسبب كونكم دارسين له (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) منصوب عطفا على ثم يقول (أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) الضمير في يأمر للبشر ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط ويوضع موضع الواحد والجمع فيشمل عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وغيرهما (و) اذكر يا محمد (إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) أي والله لئن آتيتكم كتابا وحكمة الخ ؛ فاللام للقسم ، وما شرطية ، ومن كتاب وحكمة بيان لما ، وقوله لتؤمنن به الخ جواب القسم وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب الشرط ، كأنه يقول والله إن آتيتكم الكتاب والحكمة ثم جاء رسول مصدق لهما لتؤمنن به ولتنصرنه ، هذا إذا فتحت اللام وإن كسرت يكون الجار والمجرور هكذا لأجل إيتائي إليكم الكتاب ، ثم مجيء رسول مصدق له أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه (قال) الله تعالى (ما أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري) عهدي ، سمى به لأنه يؤصر أي يشد (قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فليشهد بعضكم على بعض ولتشهد للملائكة بهذا الإقرار وأنا أيضا على إقراركم شاهد . والمعنى أن الله أخذ العهود على الأنبياء والأنبياء على أممهم أن يؤيد كل رسول وكل أتباعه من جاء بعدهم من الأنبياء مصدقا لكتابهم ، فكيف يعاند النصارى واليهود وكتابهم فيه هذا الميثاق بل هذا الميثاق مقرر في الفطرة الإنسانية أن من دعا إلى الخير بعضه كل داع مثله ففي الفطرة توكيده وفي العقل تثبيته (فمن تولى) أعرض (بعد ذلك) بعد الميثاق (فأولئك هم الفاسقون) للتمردون من الكفرة (أفنير دين الله يفتنون ؟ وله أسلم) انقاد وخضع (من في السموات والأرض طوعا وطمعا بالنظر والحجة) وكرها (كارهين بالسيف وغيره) وإليه يرجعون . قل) يا محمد (آسأ بالله) أمر الرسول أن يخبر عن نفسه وعن أتباعه بالإيمان بالله (وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) أولاد يعقوب وكانوا أنبياء وعددهم اثنا عشر (وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا فرق بين أحد منهم) تصديقا وتكديبا (ونحن له كهلون) منقادون أو مخلصون في عبادته (ومن ينتع غير الإسلام) أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله للأنبياء (ديننا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) الواقفين في الحشران .

الفصل الرابع

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ
 الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا بِاللَّيْلَةِ وَالنَّهَارِ
 وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ
 تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ
 لَزَدُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
 كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
 فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِيَنبِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَإِنَّمَا تُلُونَهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ افْتَرَى
 عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
 حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
 لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَرَفَعْنَا عَلَى النَّاسِ حِجًّا
 الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
 لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ؟ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ
 تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبَخُّؤُنَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

لقد كان الفصل الذي قبل هذا في النبيين وواجباتهم وما يدعون إليه وأنهم لا يدعون الناس لعبادة
 أنفسهم ، وإنما يأمرهم وأتباعهم أن يؤمنوا بما ينزل على كل نبي بعدهم . ولا جرم أن هذا منطبق
 على اليهود والنصارى الذين ظهر صدق النبوة المحمدية في كتبهم ، لذلك أتبعه بهذا الفصل يذكر فيه أنه يستبعد
 أن يهدي الله قوما كفروا بالقرآن وبالرسول بعد إيمانهم به ، وقد كانوا من قبل يقرون به ويشهدون أنه حق ،
 ويقولون إن نبيا قد أظل زمانه . وقد ظهرت لهم الدلائل على صدقه « والله لا يهدي القوم الظالمين » .

فهؤلاء لا هداية لهم في الدنيا ، وعليهم في الآخرة لعنة الله وللائكة والناس أجمعين حتى الكافرين ، فإن
 جميع الناس من كافر ومؤمن يلعنون منكر الحق وإن كان بعضهم يجهله « ثم » لا يخفف عنهم العذاب ولا هم
 يؤخرون . ثم استثنى التائبين الذين أصلحوا أعمالهم « فإن الله غفور » يقبل توبتهم « رحيم » بهم .
 ثم إن للفسرين في هذا اللقاع مقالين : مقالا في قوم من العرب أسلموا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ، ثم

ترصوا بالنبي ريب اللنون . ومثلا آخر في اليهود والنصارى كما تقدم ، فقوله تعالى (إن الذين كفروا بعد
 إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) يصح في القسمين معا اليهود والنصارى آمنوا
 بموسى وعيسى ، ثم كفروا بالتوراة والإنجيل بما غيروا وبدلوا ، ثم ازدادوا كفرا للنبي ، وهكذا المرتدون
 من العرب كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا ، إذ ترصوا بالنبي ريب اللنون . ثم قل (إن الذين كفروا
 وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدكم ملء الأرض ذهباً) أى قدر ما يملأ الأرض ذهباً (ولو اقتدى به) والواو
 زائدة لتأكيد النفي (أولئك لهم عذاب أليم) مؤلم (وما لهم من ناصرين) مانعين يمنعونهم من العذاب ، وقوله
 تعالى (لن تتالوا البر) أى لن تيلنوا حقيقة البر التى هو كمال الخير الذى يترتب عليه الرحمة من الله والرضا
 والجنة ، والبر من الله الثواب ومن العبد الطاعة ، يقول لن تتالوا (حتى تنفقوا مما تحبون) من العلم فى الهداية
 والجاه فى منفعة الناس ، والبدن فى الحرب ، والمال فى الإقتاق ، وقوله تعالى (كل الطعام كان حلالاً) أى حلالاً
 (لى إسرائيل) أى يعقوب (إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) سبب نزول هذه الآية أن
 اليهود لما نزل قوله تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » قالوا لنا أول من حرمت
 عليه تلك الطيبات ، بل كانت محرمة على نوح وإبراهيم من بعده حتى انتهى الأمر إلينا حرمت علينا كما حرمت على من
 قبلنا فقال الله لهم ليس الأمر كذلك ، بل كل الطعام كان حلالاً لى إسرائيل ، أى أولاد يعقوب الذين كانوا قبل موسى
 ولم يحرم عليهم إلا ما حرمه يعقوب على نفسه لما كان به عرق النساء ، فأشار عليه الأطباء بأن لا يأكل
 لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها فحرمها على نفسه وتبعه أولاده فى ذلك التحريم ، وذلك « من قبل أن تنزل
 التوراة » التى اشتملت على تحريم كل ذى ظفر وبعض الشحوم وبعض ما حملت الظهور وما اختلط بعظم ،
 وذلك التحريم لئبهم ، وذلك لم يكن محرماً على يعقوب ولا على أولاده ولا على إبراهيم ونوح (قل فاتوا
 بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فيما تدعون ، أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بمحاجتهم بكتابتهم ، فلما
 سمعوا ذلك بهتوا ولم يحسروا أن يخرجوا التوراة . وفى هذه الآية دلالة على النبوة ، وهذه للسألة من أوجب
 المسائل وأدقها ولن تعرف إلا بطريق الوحي . ثم قال (فمن افتري) وابتدع (على الله الكذب من بعد ذلك)
 أى من بعد إتمام الحجية (فأولئك هم الظالمون) الذين لا ينفقون وهم يكابرون (قل) يا محمد (صدق الله)
 أى وكذبتم (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً) أى ملة الإسلام التى هى فى الأصل ملة إبراهيم (وما كان من المشركين)
 فيه تعريض بشرك اليهود وكيف تتبعون غير دين إبراهيم ، و (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة) لفئة
 فى مكة والبيت الذى فى مكة هو المسجد الحرام ثم بعده بيت المقدس ، وأول من بنى المسجد الحرام إبراهيم
 فهدم ، ثم بناه قوم من جرم ، ثم العمالق ، ثم قريش . ومعنى (مباركا) كثير الخير والنفع لمن حبه واعتز به
 (فيه آيات بينات) يقول القسرون : منها انحراف الطير عن موازاة البيت . ومنها أن ضواري السباع تخالط
 الصيد ولا تتعرض له . ومنها أن كل جبار قصده بسوء قهره كأصحاب العيل . ومنها (مقام إبراهيم) أى الحجر
 الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت (ومن دخله كان آمناً) أى ومنها أمن من دخله (والله على الناس حج
 البيت) قصده لزيارة على الوجه المخصوص المعلوم فى سورة البقرة ، وأبدل من الناس قوله تعالى (من
 استطاع إليه سبيلاً) وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة ، وبه أخذ الشافعى
 والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل . وقال الشافعى فى الاستطاعة : إما بالبدن واجدا ما يملكه
 الحج فاستطاعة تامة فعليه الحج ، وإما أن لا يثبت على الراحلة وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج
 عنه ، أو قادر على مال ويحج من يستأجره فيحج عنه فيحج عليه . وأما حكم الزاد والراحلة فهو أن يجد زادا
 يكتفيه ذهباً وإباباً ونفقة من تازمه نفقته وكسوتهم وأن يكون دينه مقضياً وأن يجد له رقعة يخرجون فى الوقت

التي جرت العادة فيه بالخروج ، فإن قدموا أو أخرؤا لا يجب عليه ، ويشترط أمن الطريق من عدو مسلم أو كافر أو رسدى يطلب الحفارة ، وتكون منازل الماء مأهولة يجد فيها الماء والزراد بحسب العادة ، فإن تفرقتوا لم يجب . وقال مالك : الاستطاعة بالبدن ، فيجب على من قدر على الشيء والكسب في الطريق وقال أبو حنيفة بجموع المال والبدن . والضمير في «إليه» للبيت أو الحج وكل ما أدى إلى الشيء فهو سبيله . ولقد فصلت الكلام في الحج وجميع أعماله في سورة البقرة ، فهناك صورة منه واضحة جلية فلا نعيده هنا (ومن كفر فإن الله غفيرٌ عن العالمين) كأنه قال ومن لم يحج فإن الله غفر عنه ، فجعل عدم الحج كفرا ، وذلك تليظ على تاركه . قال عليه الصلاة والسلام : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا » .

(قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله؟) السعة والعقلية الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في الإسلام والحج وغيرها (والله شهيد) مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها (يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) هذا التكرار للبالغة في التفرغ ، ذلك أنهم كانوا يفتنون المؤمنين ويوقعون الشقاق بينهم ومن ذلك أنهم أنوا إلى الأوس والحزرج وذكرهم بالوقائع التي كانت بينهم في الجاهلية ، وأنشدوا أشعارها فأنارت حمية الجاهلية (تبنونها عوجا) أي حال كونكم باغين طالين لها عوجا أي اعوجاجا (وأنتم شهداء) تشهدون أنها سبيل الله . والصد عنها ضلال وإضلال ، أو أنتم عدول عند أهل ملتكم يتقون بأقوالكم ويستشهدون بكم في القضايا (وما الله بغافل عما تعملون) وعيد لهم . انتهى تفسير القسم السادس بفصله الأربعة ، وفي هذا القسم لطائف :

اللطيفة الأولى

تفصيل الكلام في قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الآيات)

اعلم أن الإنسان في جميع عصوره لا يزال يرى أن في الناس من لهم منزلة ظاهرة ، وعبقرية حاضرة ، وعلوم باهرة ، وغرائب نادرة ، ومجائب ساحرة تأخذ بالألباب ، وغير العقول ، فالنصارى بهرم المسيح لما سمعوا إحياء الموتى على يديه وإبراء الأكمه والأبرص وهناك أمم قبلهم وأمم قبلهم ، وهكذا تراه في سائر الأقطار والأمصار قديما وحديثا ، لكل أمة غرام وعشق وإفراط في رجل أو رجال يرون فهم مجائب سواء أكانت حقا كما في المسيح أو غير معلوم كما ورد في مسيح الهند السمي (خرستا) من قبله بنحو خمسة آلاف سنة رووا عنه ماروي المسيحيون عن عيسى ، ومثله آخر في العراق من قبل المسيح ، وهكذا رواية للمصريين في قديم الزمان عن أوذريس وإيزيس وما أشبه ذلك ، وهكذا أهل السكيبك لما دخل عندهم أهل أوروبا رأوهم منتظرين القادي لهم نازلا من السماء بعد رفعه ، ولقد نجد الآن في الأمة الإسلامية أكثر طوائفها مغررين بشيوخهم ، ومنهم من يرى أنهم رفعوا إلى السماء كما في بعض بلاد العرب ، وبعض بلاد القرس ، ولست أريد إطالة في القول فإني أريد التوفيق والإصلاح لا التفريق والجراح ، فالقرآن أعظما حكمة وقولا عدلا وكلمة لا عوج فيها ، وهي أن هؤلاء الذين على أيديهم ظهرت خوارق ومجائب ليسوا إلا عبيدا مسخرين خلقهم الله . فإذا اختلف المسلمون في طرائق حججهم ومذاهبهم ونشأ كسوا وتدابروا فليكن لهم هذا النهج الحق القائل (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا آربابا من دون الله) ولقد علمت مما سبق أن الأخبار والرهبان كانوا يملئون وبحرمون ، فهاهوذا كتاب الله يقول لنا لا يجوز لأحد أن يحرم ويحل وإلا لكان اتباعه عبادة له ، وإنما التحليل والتحرير لله عز وجل ورسوله وجماعة المسلمين .

مجلس عام في الإسلام

على المسلمين جميعا في أقطار السكونة أن يكون لهم مجلس عام يجمع أكبر القوم من سائر المذاهب

والشيع والطوائف ، ويعرض فيه كل ما فيه خلاف من معاملات أو عبادات ، ويكون هذا المجلس له القول الفصل ، وهذا المجلس دائماً تعرض عليه المسائل كل حين ، ويبقى مع الدهر مادامت السموات والأرض ودين الإسلام ، وهناك تكون حقا قد عملنا بقوله تعالى (ولا يتخذ بضنا بضاً أرباباً من دون الله) والدليل على ذلك أن الإنسان يخرج وقد وجد قومه على مذهب من المذاهب فيسير هو عليه ، ولو ولد في قوم على مذهب آخر لاتبعه فكان الأمم إقطاعات للمذاهب ، ولكن وجود جماعة في أكبر عاصمة إسلامية كافل بخروج الناس من تبعه التصغير ، ولست أريد أن للمذاهب تترك . كلا ؟ فكل جماعة يتقون على مذهبهم ، ولكن هذه الجماعة القائمة على الحق تنظر في كل ما يعرض من الأحوال وتهذيب المسائل الطيبة والإنباء بما هو الأقرب والأنسب حتى لا يكون هناك وقوف ولا انكوص على الأعقاب ، وهذه الجماعة تشير لأهل كل مذهب بما يناسبهم اه .

اللطيفة الثانية

تفصيل الكلام في قوله تعالى (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك)

لقد علمت ما قلناه فيما تقدم أن اليهود أميل إلى الحياة ، وأن النصارى أقرب إلى الأمانة . فاعلم أن اليهود لهم عقيدة خاصة ومذهب يرجع إلى الاستئثار بالسلطة وهم لا يريدون أن يدخلوا أحداً في دينهم من غير بني إسرائيل ، فهو من جهة دين ومن جهة قومية . فلذلك اشتهر عنهم قديماً وحديثاً أنهم حريصون على جمع المال من غير أهل دينهم وهم اليوم أصحاب الحول والطول في الكرة الأرضية . لقد ذكر أحد علماء الفرنجة أنه قرأ في التلمود « وهو شرح التوراة » ما يأتي :

نحن شعب الله في الأرض ، وقد أوجب أن يفرقنا في الأرض لمنفعتنا ذلك إنه لأجل رحمتنا ورضاه عنا سخر لنا الحيوان الإنساني ، وهم كل الأمم والأجناس سخرهم لنا لأنه تعالى يعلم أننا نحتاج إلى نوعين من الحيوان نوع أحرص كالدواب والأنعام والطيور ، ونوع ناطق كالسحيين والسلمين والبوذيين وسائر الأمم من أهل الشرق والغرب فسخرهم لنا ليكونوا مسخرين لخدمتنا . فلذلك فرقنا في الأرض لنتطلى ظهورهم ، ونمك بعنانهم ونستخرج فنونهم ونسخرهم لمانفنا أجمعين .

لذلك يجب علينا أن تزوج بناتنا الجميلات للملوك والوزراء والمعلماء ، وأن تدخل أبناءنا في الديانات المختلفة وأن تكون لنا الكلمة العليا في الدول وأعمالها فنفتهم ونوقمهم في الحروب وندخل عليهم الرعب والخوف ، وفي ذلك كله نحن نستفيد الاستفادة كلها .

لذلك ترى البلشفية يهودية والحرب الكبرى أشعلها اليهود ومنهم شوبنهاور الفيلسوف الألماني وماركس مؤسس مذهب البلشفية ولينين رئيس البلشفية الآن في بلاد روسيا ، ولا ترى فلسفة قائمة في أوروبا إلا من فلاسفة اليهود وهم هم الذين أذاعوا في ألمانيا إنه « لارحة على ضيف » حتى وقف غليوم ملك الألمان ، وقال « ويل لدغلوب » كل ذلك فعل اليهود وهم الذين قاموا بترجمون فلسطين بعد ضياعها من أيديهم نحو ألبي سنة ، ولقد أخبرني أحدهم قائلاً : إن لهم جمعية دائمة ترسل في كل عام جماعة نجومس الأقطار ، وتبحث في الأمصار عن اليهود القاطنين في الأماكن المختلفة ، وتخصي ما يحتاجون إليه من المونة وترجع فترسل لهم ما إليه يحتاجون ، فهذه بعض خصال اليهود الدالة على محافظتهم على قوميتهم التي تناهوا فيها إلى الإضرار بالأمم .

علم الأخلاق واليهود

وهاك حكاية رواها علماؤنا السابقون في علم الأخلاق قائلين : إن الإنسان قد تكون أخلاقه تاجرة لاعتقاده ، فإذا اعتقد رأياً أو ذهب مذهباً وتصوّره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة للمذهب ،

واعتقاده لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرته مذهبه وتحقيق اعتقاده في جميع متصرفاته ، فيصبر ذلك خلقا له وسحية وعادة يصعب إقلاعه عنها .

حكاية يهودية

والثالث في ذلك ماجاء في الخبر : أن رجلين اصطجبا في بعض الأسفار أحدهما مجوسى من أهل كرمان ، والآخر يهودى من أهل أصفهان ، والمجوسى كان راكبا على بغلة وعليها أمتعه ، واليهودى كان ماشيا ليس معه شئ ؛ فبينما يتحدثان قال المجوسى لليهودى مامذهبك ؟ قال اليهودى مذهبي أن في السماء إلهما هو إله بنى إسرائيل أسأله الرزق والصحة وأن يعينى ويعين بنى إسرائيل ، وأن جميع بنى آدم لآحرمة لهم ، فما لهم ودمهم حلال لى ولأهل دينى . ومحرم على نصرته من ليس على دينى والشفقة عليه . فقال المجوسى : أنا أعتقد أنه يجب على أن أريد الخير لأبناء جنسى كلهم ، ولا أريد سوءا لأحد من أهل دينى وغيرهم وإن ظلمنى وتمدى على لأن إلهى في السماء إله الجميع وهو عادل ، فقال اليهودى للمجوسى : إذن انصر مذهبك لأنى من أبناء جنسك ، فأركبني بغلتك فقد ترانى متعبوا ، وأطعمنى فقد ترانى جائعا ؛ فأركبه ساعة وأطعمه ومشى المجوسى . فلما أعيا المجوسى حرك اليهودى البغلة وسبقه ، فقال المجوسى : قف فقد أعيت ؛ فقال اليهودى ألم أخبرك عن مذهبي فأنا اليوم أنصره . أنت نصرت مذهبك بإعطائى البغلة ، وأنا أنصره بخيانتك ، فقال له المجوسى : أتتركنى هنا تأكلنى الوحوش والسباع ؟ ففضى اليهودى ؛ فلما المجوسى فإنه فكر في اعتقاده ، وقال قد قتت بأمر اعتقادي فأعطيتهم فلا تم بأخروه فادعو إله السماء ، فقال بإلهى أنا قد قتت بأمرك لحق لليهودى وعدك لى بالنصرة عليه لبعيه فما مشى قليلا حتى رأى البغلة قد رمت اليهودى ودقت عنقه وهى واقفة تنتظر صاحبها فلحقها وركبها وترك اليهودى في البرية للسباع والوحوش ، فقال اليهودى : ارحمنى ولا تتركنى . فقال المجوسى : قد فعلت مرة ولم تفهم ماقلت لك إن في السماء إلهما يجازى بالعدل لما تمنك أن تعمل به وخنفتى . قال : مذهب نشأت عليه وصار طبيعة في اقتداء بالأباء والأهت والأستاذين والمعلمين ، لحمله المجوسى معه حتى جاء به المدينة وسلمه إلى أهله مكسورا ، وحدثت الناس بقصته فلامه الناس على رحمته له ، وكيف حمله بعد الحياة ، فقال إنه اعتذر بأن هذا للذهب صار عادة يصعب اقتلاعها فأنا كذلك الرحمة عادة يصعب اقتلاعها . واعلم أيها الذكى أن هذا للذهب اليهودى اليوم صار صفة عامة في رجال السياسة في الأمم الأوروبية ، فأصبحوا خائنين يستحلون دماء أهل الشرق وأموالهم ودماء بعضهم ، وإن أمم النصرارى في ديارهم محبون لبعضهم في داخلها ، ولكن دولهم متقاطعة متعادية مع بعضها ومع أمم الشرق ، ومعاملاتهم السياسية كعاملة اليهود (قلله الأمر من قبل ومن بعد) وهو (حسينا ونم الوكيل) .

اللطيفة الثالثة

تفصيل الكلام في قوله تعالى (إن الدين يشترى بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا)

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على يمين صبر يقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان ، وأزله الله تصديق ذلك (إن الدين يشترى بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية) » ولقد قدمت لك أنه يدخل فيه اليهود واللواتيق للأخوذة من جهة الرسل ، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق ، فكل ذلك من عهد الله الذى يجب الوفاء به .

واجب علماء الإسلام والحلف بالله

على المسلمين في أقطار الأرض أن ينظروا في مسألة الأيمان ، فإن الله عز وجل يقول (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) الآية وتقدم تفسيرها في سورة البقرة ، والآية هنا قد نددت على الحالفين الكاذبين وأنهم لا ينصب

لهم في الآخرة (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم) واعلم أن المسلمين قد ابتلوا بالحلف صدقا وكذبا ولم يجدوا من العلماء من يمنعهم مع أن الرعيد الذي جاء على الحلف لم يكن على سواء من أمور الدين .

ولعل ما نشاهده من الدلة والهووان والجهل للطبق وإذلال الأمم للمسلمين ربما جاء من هذا الخلق اللئيم الحلف بالله والكذب في الوعد . فعلى علماء الإسلام في الأقطار أن يخيفوا المسلمين من هذا العمل الشائن والقول الكاذب والوعد المخلف فإن هذا يرقى أخلاقهم ويعدل نفوسهم « والله هو الولي الحميد » .

اللطيفة الرابعة : في الأمة العربية قديمها وحديثها

وفي وفد نجران وكيف كان ساداتهم يتمتعون عن الإسلام حفظا للرئاسة واحتراما للمهود التي أخذها الفرنجة عليهم ، وأعجب كيف كانت الدولة الرومانية ذات سلطان عليهم بحيث لا يرمون أمرا إلا إذا رضيت ولا يذرون إلا ما كرهته ، وأعجب للأمة العربية كيف كانت خاضعة لسلطان الأمم فكانت فارس من جهة لها سلطان والروم من جهة أخرى لها سلطان ، وهما يتجاذبان العرب وكل منهما يدلي إليهم بسبب من القوة نارة وللأخرى وهم كرة بصوالجة فتلقفها هذه مرة وتلك أخرى كريحشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من الفلق .

حتى إذا جاء الإسلام زال القمام واستتب السلام وترك الزمام وصيبت الأمة وعظمت المنة وتوحدت القيادة وثبتت السيادة وغلبت العرب وظهر منهم العجب وأصبحوا سادة بعد أن كانوا مسودين وقادة بعد أن كانوا مقودين وثبت ملكهم على الأساس « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » .

هذا ما كان في الأيام الحالية والقرون للماضية ، ثم انقلب الزمان واستدارت الأيام وتبدت المنن وكثرت الإحن ودارت الدورة الشمالية في الأفلاك العلوية فرجع بعض العرب إلى أيام جاهليتهم وغلبهم من كان من خدامهم ؛ ففرى كثيرا من أمرائهم بالفرنجة يحتمون وعلى مدافعهم يعولون وبقرهم يفرحون ولهم يتحمون وكأن الإسلام ما كان ، فهم كملوك الطوائف الفارسية بعد دولة الإسكندر ، وكذلك للمالك الأندلسية (فإنما لله وإنما إليه راجعون) وترى الشريف حسين بن علي يجعل الحرمين تحت إشراف الإنجليز والمسجد الأقصى فلسطين تحت إشرافهم وإشراف اليهود ، ولقد طرد الأطباء الذين أرسلتهم بلادنا المصرية أن تدخل الأقطار الحجازية ، ومنعهم من دخول البلاد المقدسة ، فرجع المهيل المصري ومن معه من الحاجين ، وذلك عند كتابة هذه الأسطر ، وفي ظني أن هذه الحال لا تدوم ، وأن الأمة الإسلامية ستستأنف دورها ويعظم قدرها وتحفظ كيانها وترجع عجزها وتصون بيضتها وتقيم حجبها ، وتكون من أجل أمم العالمين كما قررناه في هذا الكتاب وقررناه في كل باب ، وليكون للإسلام شأنه ، ولجهد العرب حسنه ، فالدهر قلب ، والزمان استدار ، ولينصرون الله الشرق وأهله ، ويعطى القوس من كان له ، ويرجع العلم إلى نصابه ، والسيف إلى قرابه ، وتدخل المدينة من بابها ، وتطلع الشمس من مشرقها بعد الغارب ، ويظهر جمالها في تلك السباب فيعزم من كان ذليلا ، ويندل من كان عزيزا ، وتقر النواظر ، وتسرح الخواطر ، وتشرح الصدور ، ويظهر السرور ، وبزينة النور ، وتقوم دول كانت نائمة ، وتحنس أمم كانت قائمة (سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

القسم السابع من سورة آل عمران

وهو فصلان اثنان : الفصل الأول في طلب اتحاد المسلمين (وأنهم خير أمة) . الفصل الثاني في توصيف أعدائهم وإيجاب الاحتراس منهم .

الفصل الأول

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ
 إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ
 وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ
 تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا
 وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ * وَلِتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
 الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ
 وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ
 ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
 وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ *
 كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *

بعد أن أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يخاطب أهل الكتاب تحريماً لهم لسددهم عن سبيل الله أخذ
 يخاطب هو سبحانه المؤمنين بنفسه تعظيماً لهم وتكريماً وإسعاداً لهم وتشريراً ؟ قائلا (يا أيها الذين آمنوا إن
 تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم الخ) . ذلك أن نفراً من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون
 فمر بهم ناس بن قيس اليهودي فناظله تألفهم واجتماعهم ، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم
 بعث ، وينسدهم بعض ما قيل فيه ، وكان النظر في ذلك اليوم للأوس ففعل ، فتنازع القوم وتفاخروا وتخاصبوا
 وقالوا : السلاح السلاح ، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم وغضب الفريقان غضباً عظيماً ، فتوجه إليهم رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقال أمدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع
 به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فعملوا أنها زغمة من الشيطان وكيد من عدوم ؟ فألقوا السلاح
 واستخفروا وعانق بعضهم بعضاً ، وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما خاطبهم الله بنفسه بعد
 ما أمر الرسول أن يخاطب أهل الكتاب تشريراً لتقدم وإعظاماً لمقامهم ، فقرأ يقول فيها تقدم « قل يا أهل

الكتاب تماثوا الخ » ولكن يقول هنا الله عز وجل مخاطبا للؤمنين (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) يعني شاسا اليهودى وأصحابه (يردوكم بعد إيمانكم كافرين) والكفر موجب لهلاك الدارين ؛ ولما كان المسلمون يتلون القرآن وفيه الإرشاد والنصائح كانت حلهم داعية إلى تعجب المتعجبين ، فإنه لا يلبق بهم التخاذل والانتقام بعد ما سمعوا من الحكم والأحكام ، فذلك أعقبه بقوله (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) ولما كان التعجب محالا على الله كان المراد منه اللع والتغليظ . قال قتادة في هذه الآية علمان بينان : كتاب الله ، ونبي الله صلى الله عليه وسلم . أما نبي الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة (ومن يعتصم بالله) أى يستمسك بدينه في الحلال والحرام وجميع الأحكام ويلتجئ إليه في جميع الأمور (فقد هدى إلى صراط مستقيم) طريق واضح وهو الطريق المؤدى إلى الجنة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله - حق تقاته ولا تؤمنوا إلا وأنتم مسلمون) تحوى الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى ، كما قاله ابن مسعود ، وهذا ظاهره أنه خارج عن طاقة العبد ، ولكن المحققون حملوه على ما يقدر عليه العبد ، فلو كان الإنسان ساهيا أو ناسيا غفر له ذلك ، وهؤلاء جعلوا قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » في سورة التغابن مفسرا لهذه الآية ، فعلى محكمة لا منسوخة كما قاله ابن عباس ، وطاوس وغيرهم جعل الأولى منسوخة بالثانية كعبيد بن جبير وقاتادة والسدى وقوله تعالى « ولا تؤمنوا إلا وأنتم مسلمون » أى لا تكونوا على حال سوى حال الإسلام إذا أدر كتم اللوث ، فالنبي متوجه هنا للقيد الذى قيد به اللوث (واعتصموا بحبل الله جميعا) إذ من تمسك بالحبل للتعرف نجما من التردى ، هكذا من تمسك بدين الإسلام أو القرآن نجما من الملاك فى الدنيا والآخرة ، فالجبل مستعار للقرآن أو للدين ؛ ومعنى الاعتصام هنا الوثوق والاعتقاد عليه ، وقوله جميعا أى مجتمعين عليه (ولا تفرقوا) أى لا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما تفرق أهل الكتاب وأهل الجاهلية (واذكروا نعمة الله عليكم) بالهداية والتوفيق للإسلام الذى يهدى إلى الائتلاف وكم لله من نعم غيرها (إذ كنتم أعداء) فى الجاهلية تتقايون (فألف بين قلوبكم) بالإسلام (فأصبحتم بنعمة إخوانا) متحابين مجتمعين فى الله ، يقال كان الأوس والخزرج آخرين لأبوين ، فوقع بين أولادها العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم نبينا صلى الله عليه وسلم (وكنتم) يامشرا الأوس والخزرج (على شفا حفرة من النار) على طرف حفرة مثل شفا البرليس بينكم وبين الوقوع فى النار إلا أن تموتوا على كفركم (فأغذكم منها) أى غلظكم بالإيمان من الحفرة أو النار ، أو الشفا بمعنى الشفة أى الطرف (كذلك) أى مثل ذلك التبيين (بين الله لكم آياته) دلالة (لعلكم تهتدون) ثم قال تعالى (ولئن كنتم أممات فإله واحد يدعوكم إلى الهدى) (بين الله لكم عن المنكر) قوله منكم للتبيين : أى كونوا أمة تدعون إلى الخير الخ كقوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف الخ » والدعاء للخير يشمل كل ما فيه صلاح دنى أو دنيوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحص من الدعاء للخير ، ذكرا معطوفين عليه للتنبية على فضلها ، ويصح أن يقال ولتقم طائفة منكم بالدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف الخ على أن من للتبعض ، ذلك لأن الدعاء للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقوم بهما إلا من استوفوا شرائط خاصة وهى فروض كفايات ، وفروض الكفايات مقام بها قوم سقطت عن الباقي ولو تركوها أتم جميع المسلمين (وأوائك) الداعون الآمرون الناهون (هم المفلحون) الذين اختصوا بكمال الفلاح . روى أنه عليه الصلاة والسلام « مثل من خير الناس ؟ فقال أمرهم بالمعروف وأنهم عن المنكر وأنصام لله وأوصلهم للرحم » (ولا تكونوا) يامشرا للؤمنين (كالذين تفرقوا) وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى (واختلفوا) فى التوحيد والتبزيه وأحوال الآخرة وأمر الله ونهيه (من جد

ما جاءهم البينات) الحجج المبينة للحق للوجهة للاتفاق عليه ، والتفرق للذموم إنما هو في الأصول دون التروع لقوله عليه الصلاة والسلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد» (وأولئك) للتفرقون المختلفون (لهم عذاب عظيم) وقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) منصوب بما في لهم من معنى الفعل أى لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه بالبهجة والسرور ، وتسود وجوه بالسكابة والحزن ، فالبيض والسواد كبايتان عن ذلك (فأما الذين اسودت وجوههم) من أهل الكفر والردة والتناق يقال لهم على سبيل التوبيخ والتعجب (أ كفرتم بعد إيمانكم) إذ مكثتم بالفطرة من الإيمان أو آمنتم بالقرآن ، ثم كفرتم أو ارتدتم (فذوقوا العذاب) أمر إهانة (بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم (وأما الذين ابيضت وجوههم) من أهل الإيمان والمخلصين (ففي رحمة الله) أى جنة الله ، وعبر عنها بالرحمة لأنها دارها ولأن حياة الإنسان وعمله وما يترتب عليه كله من رحمة الله تعالى ، وجميع الوجود من رحمة الله ، وكأنه يقال أدامة هذه الرحمة أم منقطعة؟ قيل (م فيها خالدون. تلك آيات الله) الواردة في وعده ووعدته (تتلوها عليك بالحق) متلبسة بالحق فلا شبهة فيها (وما الله يريد ظلما للعالمين) وكيف يكون منه الظلم ، ولا ظلم إلا حيث يوضع الشيء في غير موضعه ؟ ومن وضع الشيء في غير موضعه تهدم بنيانه وزال ملكه ، فليس ايضاح بعض الوجوه وإسوداد الأخرى وعذاب قوم ونعيم آخرين إلا على أساس ونظم ثابتة بموازين صادقة لحكم معلومة عنده في كتاب مكتون ، والملك لا يثبت له إلا على العدل والنظام ، ووضع الشيء في موضعه ، ولو أن ملكه أسس على غير العدل لزال ، ولكننا وجدنا مثل السموات والأرض منه منظما دائما ؛ فالعدل إذن ثابت أزلا وأبدا ، ولذلك أعقبه بقوله (وفيه ما في السموات وما في الأرض) وقد قاما على العدل ولولاه لفنيا ، وهو كما أسس ملكه على العدل لا يبقى من الأمم إلا العادلة ولا يرفع عنده إلا العادلون ، ولذلك قال (وإلى الله ترجع الأمور) فيبقى الأمم مادامت نافعة مضاهية لنظامه ويفنيها إن ظلمت . هكذا يثيب ويعاقب الناس على مقتضى ذلك ؛ ولما كان للسلون العاملون بمقتضى القرآن الذين يتصمون بحبل الله جميعا ولا يفرقون المعاون إلى الخبير الأمور بالمعروف الناهون عن المنكر أقرب إلى الخير والعدل ، كما أن السموات والأرض أسستا على العدل . قال الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أى أظهرت لهم أى ما أخرج للناس خير من أمة عهد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين كونهم خير أمة فقال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فهذه هي المزية التي فضل السلون بها سائر الأمم ، وهذه المزية لا تتم إلا بشرطها وهو الإيمان ، فذلك قال (وتؤمنون بالله) ثم ذكر على سبيل الاستطراد أهل الكتاب ، فقال (ولو آمن أهل الكتاب) من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم (لكان خيرا لهم) مما هم عليه من اليهودية والنصرانية (منهم المؤمنون) كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا من النصارى (وأكثرهم الفاسقون) التمردون في الكفر طلبا للناصب والرياسة ، وبهذا تم الفصل الأول من القسم السابع .

الفصل الثاني من القسم السابع

لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ وَإِنْ يُقَاتِلْوْكُمْ يُؤْتُوْكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ

حَقُّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ
 آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ
 خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
 أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
 ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ
 لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْيَاءُ مِنْ أَقْوَامِهِمْ وَمَا تَحْنِي صُدُورُهُمْ
 أَكْبَرُ قَدْ يَتَنَالَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ
 وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ
 مِنَ الْغِيظِ قُلْ مُوتُوا بِغِيظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَسْتَكْتُمُ حَسَنَةً
 تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصَيِّبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *

لقد عمد رؤساء اليهود إلى من آمن منهم فأزول الله (لن يضرركم إلا أذى) ضررا يسيرا كطعن
 في الدين وتهديد (وإن يقاتلوكم بولوكم الأدبار) منزهين فلا يضرركم بقتل أو أسر (ثم لا ينصرون) وهذه
 الجملة ابتداء إخبار معطوفة على جملة الشرط والجواب فكأنه قيل أخبركم أنهم إن يقاتلوكم بولوكم الأدبار، ثم
 أخبركم أنهم لا ينصرون، وهذه الآية قد تحقق ماجاء فيها من الغيب، فإن بنى قريظة والنضير ويهود خيبر قد
 غلبوا، فمنهم من قتل ومنهم من نفي وأخرج من الديار (ضربت عليهم الذلة) هدر النفس والمال والأهل
 والنمك بالباطل والجزية (أين ماتقوا) وجدوا (إلا بجبل) عهد (من الله وحيل من الناس) أي إلا بهد
 وذمة من الله وكتابه وذمة المسلمين أو إلا بدين الإسلام واتباع سبيل المسلمين (وباءوا بغضب من الله) رجعوا
 به (وضربت عليهم للسكنة) فهي محيطة بهم كما يحيط البيت الضروب على أهله، ويقال إن اليهود غالباً أذلاء
 إذ ليست لهم دولة ولا ملك (ذلك) أي ما ذكر من ضرب الذلة والسكنة والبوء بغضب (بأنهم كانوا يكفرون
 بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) بسبب كفرهم وقتلهم (ذلك) الكفر والقتل (بما عصوا وكانوا يعتدون)
 بسبب عصيائهم واعتدائهم حدود الله (ليسوا سواء) أي ليس أهل الكتاب سواء في المعاصي (من أهل
 الكتاب أمة قائمة) جماعة مستقيمة عادلة من أمت العود فقام وهم الذين أسلوا منهم (يتلون آيات الله آناء
 الليل وهم يسجدون) يتلون القرآن ساعات الليل «يقال إني كمي أو أنوكتنو» وهم يصلون منهجدين

(يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف) كالإيمان وسائر أبواب البر (وينهون عن المنكر) الكفر ومنهيات الدين (ويسارعون في الخيرات) يبادرون إليها خشية القوت ، وهذه الصفات خاصة بمن أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، أما أولئك الذين لم يسلموا فهم لا يصلون بالليل ولا يؤمنون بالله إلا إيمانا مشوبا بالشرك ، وهكذا بقية الصفات (وأولئك) للوصوفون بما ذكر (من الصالحين) الذين صلحت أعمالهم وأحوالهم عند الله فرضى عنهم (وما يفعلوا من خير فإن يكتفوه) فلن يجرموا جزاءه (والله عليم بالمتقين) بشارة للمتقين بجزيل الثواب (إن الذين كفروا لن تنفي عنهم أموالهم ولا أولادهم من) عذاب (الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقوله تعالى (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا الخ) أى في الفخار واللكارم وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس أو ما ينفقون به إلى الله وهم كافرون ، أى مثل إهلاك ما ينفقون (كمثل) إهلاك (ربيع فيها صر) برد شديد (أصابت حرث) زرع (قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر (فأهلكته) عقوبة لهم على كفرهم (وما ظلمهم الله) بإهلاك زرعهم (ولكن أنفسهم يظلمون) . واعلم أن هذه الصفات من ضرب التلة والبوء بالنقض والكفر وقتل الأنبياء والعصيان والاعتداء وعدم نفع أموالهم لهم وكونهم أصحاب النار ، وأن ما ينفقونه ضائع لانتم صفات المؤمنين الذين يتلون آيات الله ، ويسجدون ويؤمنون بالله ويؤمنون باليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ، وإذا فعلوا خيرا نالوا ثوابه والله عليم بهم ، وهذا بشارة لهم فهذه تسع صفات لمؤمني أهل الكتاب تقابل تسع صفات للكافرين منهم كما يقابل الليل النهار ، والظلمة الضياء ، والعدم الوجود ، وأنت تعلم أن العداوة إنما تنشأ من اختلاف الصفات ، وتباعد الأخلاق ، ومن تباعدت أخلاقهم وتناقت صفاتهم وأدابهم لا يتناصحون . بل يتنافرون ، ولذلك أعقبه بما ترتب عليه من النصيحة للمؤمنين أن لا يتخذوا لهم منهم أصدقاء يفشون لهم أسرارهم فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) بطانة الرجل ووليجه ضيه شبه ببطانة الثوب ، ويقال فلان شعاري والشعار الثوب الذى يلامس الجسم بخلاف الدثار (من دونكم) من دون المسلمين ، أى بطانة كائنة من دونكم (لا يألونكم خبالا) أى لا يقصرون لكم في فساد دينكم ودنياكم ، يقال ألا في الأمر يألو: قصر فيه ، والحبال الفساد (ودوا ما عنتم) أى ودوا عنكم أى شدة ضرركم ومشقتكم أى تمنوا أن يضرركم في دينكم ودنياكم أشدة الضرر وأبلغه ، وهذه جملة مسأفة وهم مع ضبطهم أنفسهم يتفلت من ألسنتهم ما يعلم به بعضهم للمسلمين (قد بدت البغضاء من أفواههم) :

وصها تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها غنى على الناس تعلم

(وما تخفى صدورهم أكبر) مما بدا لأن بدوه ليس عن ربه واختيار ، ولما كان أكثر الناس يخفل عن كشف البواطن بقلات اللسان أعقبه بقوله (قد بينا لكم الآيات) الدالة على علامات الأعداء وموالاتة المؤمنين ومعاداة الكافرين (إن كنتم تعلمون) ما بيناهم لكم والجل مستأنفة ، ويجوز أن تكون الثلاثة الأولى صفة لبطانة (ها أتم أولاء نجوتهم ولا يحبونكم) أى أتم أولاء الخاطئون في موالاتة الكفار من يهود ومناقين وغيرهم وإفشاءكم الأسرار لهم إما قرابة أو مصاهرة أو غيرها نجوتهم فتفشون لهم أسراركم ولا يحبونكم فلا يفعلون مثل ذلك معكم وهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم لأنهم لا يؤمنون بكتابكم (وتؤمنون بالكتاب كله) ومنه كتابهم (وإذا لقوكم قالوا آمنا) نفاقا (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) من أجل الغيظ تأسفا وتعسرا حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا (قل موتوا بغيظكم) دعاء عليهم بدوام الغيظ بتضاعف قوة الإسلام (إن الله عليم بذات الصدور) أى بالخواطر الفاعمة بالقلب ، ولما كانت حالة في القلب كفى عنها بذات الصدور فهو يعلم ما يسرونه من عض الأنامل غيظا إذا خلوا وما هو أخفى منه وهو

ما يسرونه في قلوبهم (إن تمسككم حسنة) من خير ومنفعة (تؤمهم، وإن تصبكم سيئة) من ضرر وشدة (يفرحوا بها) شماعة وذلك لتناهي عداوتهم، فهم تارة حساد وتارة شامتون (وإن تصبروا) على عداوتهم وعلى مشاق التكاليف (وتتقوا) موالاتهم وما حرم الله عليكم (لا يضركم كيدهم) عداوتهم ومكرهم (شيئا) لأن التفتين في كنف الله والصابرين الذين اطمانت نفوسهم للحوادث يقل انفعالهم لما يصيب من المكروه (إن الله بما تعملون) من الصبر والتقوى (محيط) علمه فيجازيكم بما أنتم أهله، وقد قرئ: بالياء أي بما يعملون في عداوتكم فيما قبهم. انتهى القسم السابع وتفسيره اللفظي.

وهنا لطائف: اللطيفة الأولى (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). الثانية (وما الله يريد ظلما للعالمين) وثمة ما في السموات وما في الأرض). الثالثة (كنتم خير أمة أخرجت للناس). الرابعة (ضرب الذلة والسكينة على اليهود). الخامسة (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). السادسة (أخذ البطالة من الأعداء).

اللطيفة الأولى

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوارد في هذه الآيات

قد تقدم الكلام عليهما في آخر سورة البقرة عند قوله تعالى (لا يكف الله نفسا إلا وسعها) وبيننا هناك العلوم والصناعات الواجبة على الأمة، فكل علم وكل صناعة وكل فن من الفنون ووعظ وإرشاد يجب على الأمة وقد بينا هناك أن الأمة الإسلامية اليوم قد تناهت في الكسل فأحاطت بها أمم أوروبا وهكذا، قد ألفت كتابا يسمى (القرآن والعلوم المصرية) بينت فيه أن الصناعات والعلوم واجبة على الدين لهم طاقة وقدرة من الأغنياء وغيرهم، وأرسلت ذلك الكتاب والمجلد الأول من هذا التفسير للشتم على الفاتحة والبقرة إلى سائر الأمم الإسلامية شرقا وغربا وأرسلتها إلى ملوك الإسلام لأؤدي ما على قبل الفوت، فكل من عنده علم وكنهه عاقبه الله عز وجل على كتمانته وتهاونه وغفله والذي أضرر بالأمم الإسلامية ظننا أنها ليست ملازمة من العلوم إلا بالقله، وهذا ضرب من الحماقة والجهل العظيم.

اللطيفة الثانية

قوله تعالى (وما الله يريد ظلما للعالمين، وثمة ما في السموات وما في الأرض)

لما كان الكلام السابق فيه قوم ايضت وجوههم وآخرون اسودت وجوههم وقوم كفروا وآخرون آمنوا وقوم يعذبون وآخرون ينعمون، وكان الخلق كلهم عباد الله وخلقهم أوقفه بقوله (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) فلا شبهة فيها، وليس الله يبريد ظلما للعالمين، وإنما عمله عز وجل سائر على نظام أكل والعدل وإنما هو النظام التام، وليس العدل ما تتعارفونه بينكم. وإنما هو نظام العالم العام، فإذا يكون العذاب والنعيم والكفر والإيمان من كمال ذلك النظام التام في السموات والأرض (ليس في الإمكان أبدع مما كان) وإذا أردتم التثبت من هذه النظرية، فتأملوا في السموات والأرض تجدوا العدل فيهما من ظلمة، ونور، وأرض وسما، ورفع، وخفض فلا تبتئسوا بما ترون فذكر السموات والأرض في هذا المقام لتبيان العدل، وهذا المقام يحتاج لإيضاح، فأقول:

(١) نظرة في العوالم المشاهدة الأرضية (٢) نظرات القرآن فيها (٣) لم ذكرت السموات والأرض في مواضع كثيرة في القرآن.

(١) نظرة في العوالم المشاهدة الأرضية

إذا تأملت أيها الدكي فيما ترى فإن في الشجر والزرع والنبع مقاصد شتى. ألم تر أن النخل تصده لمآرب شتى، فالجدع لسقوف بيوتنا، والجريد لسقائف تنفياً ظلها، والحوص لأسفاطنا نضع فيها أمتعتنا،

والبف للجبال نشدّ بها ما أردنا ، والتمر تقتذى وتتفكه به . هكذا التين والرمان وغيرها لنا فيها ما رب شق من فاكهة بثمره ودواء بورقه وتسوية طعام بخشبه وتفيؤ الظلال بشجره وهو قائم وهكذا . هذه هي الفوائد التي نالها في حياتنا الدنيوية .

(٢) نظرات القرآن فيها

ولقد ذكر الله الزرع والنخل تارة للاستدلال على الخالق ، وتارة على البعث ، وتارة على فناء الجاس ، وتارة على قرب الارتحال وهكذا .

(٣) فأما عالم السموات

قد جاء ذكره في القرآن كذلك وفي كل موطن له مقصد جرم فيه لأجله ، ألا ترى إلى ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء الخ) للاستدلال على إثبات الألوهية ، وفي قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض الخ) للاستدلال على الوحدانية بالوحدة في هذا الكون ، وفي سورة آل عمران في قوله تعالى (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) للاستدلال على سعة علمه ، وهنا في هذه الآية للاستدلال على عدم ظلمه يقول هنا (وما الله يريد ظلماً للعالمين) فإن كنتم في شك من ذلك ، وقد رأيتم وجوها ايضت وأخرى اسودت وقوما كفروا وآخرين آمنوا فلا تعتبروا هذا ظلماً ، وأنتم لاتعلمون نهايات أعمالنا فأنا لا أريد الظلم ، والظلم يتبعه الحراب والدمار والسموات والأرض باقيات آمادا طوالا ، وإذا انتهت أيامها بدلت الأرض غير الأرض والسموات غير السموات والنظام في العالمين تام ، فإذا كان هذا هو نظامي وهو لا يخلل فيه فهو عين العدل ، فإذا كان يكون ماترون من كفر وإيمان ونعيم وعذاب كله من تمام النظام ، تقوم يسجنون وآخرون يكرمون ، والنظام بهذا الاختلاف تام لا عوج فيه ، ومع ذلك كله فليس لكم الخوض في هذا لأنكم لاتدرون غاياته ولا تعرفون نهاياته لأن عواقب الأمور ليست إليكم حتى تحكموا عليها ، وإنما الأمور راجعات إلى الله . فانظروا لظواهر الكون وسلوا بأن الله عدل . فأما الحقائق ونهاياتها فلا طاقة لكم بجمعها وإنما إلى الله ترجع الأمور اه .

واعلم أن الكلام على السموات والأرض قد تقدم في قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) فهناك مقال شاف في عدد السموات وحقائنها وآراء المتقدمين والتأخرين ، وهكذا بيان الوحدة في هذا الوجود في قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض) وإيضاح الأرض وفهمها ، ثم الكلام قد تقدم في أول السورة على حركات الكواكب ومجائب النظام لبيان علم الله فارجع إليها هناك في كل مقام بحسبه ، وهكذا سيأتي في آخر هذه السورة النظر في السموات للذكر وللتفكير ودوام ذكر الله في القيام والقعود ، وإن هذا الخلق لم يكن باطلا فتعجب من غفلة بعض المسلمين الذين يقرءون القرآن وهم عن الأرض والسموات معرضون .

بمن يقدر كتابي هذا قل للمسلمين في أقطار الأرض إن القرآن جعل الله فيه السموات والأرض لبيان العدل وجمال الصنعة واتساع العلم ، وكل ذلك لإرشادكم إلى النظر والتفكير والبحث والتدقيق ، فإن ذكرهن للعلم تارة ذكرهن للعمل والانتفاع أخرى . ألم يقل في سورة البقرة (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) طالت الآيات التي فيها اختلاف المسلمين والنصارى واليهود ، فأراد الله أن يقول أرجعوا لي وانظروا في سمواتي وأرضي ولا يشغلنكم الاختلاف الديني عن النظر الطبيعي .

ولما كان الكلام على السموات قد أسهبنا فيه سابقا ، وكان ذكرها لأجل العدل لم يكن إلا في هذه الآيات ناسب أن نذكر وصف العلامة (فللمبرون) الفلكي المشهور فنقول :

كيف يقوى الفكر البشرى على الإحاطة بما لا يتناهى من الشموس والكواكب التي لا تعرف نهاياتها . فتأمل وصف (فلامريون) له وصفا سهلا يشهد بالعدل في النظام والتساوى في الأحكام ، وإن سكان كل كوكب كأهل أرضنا يرون أقدار الكواكب وإعدادها على النحو الذي نراه نحن فهذا عدل عام ، وهذا مبدأ قوله : يا أيها القارىء الكريم إنه لو أتيح لنا أن نعيش ملايين الملايين من السنين ، وأن نكشف طريقة للمواصلات أسرع من الفطرات والأونوموبيلات والطائرات طريقة يمكننا السير بها بسرعة النور أى بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية .

فإذا تم ذلك لنا أصبحت الكرة الأرضية ضيقة بنا وصرنا بطبيعة الحال نتوق إلى الطواف حول هذا الكون الواسع فنخرج من الأرض الضيقة غير آسفين عليها قاصدين أقرب الكواكب وهو القمر الذي بعد عنا ٣٨٩ ألف كيلومتر . ولكن هذه المسافة الهائلة تقطعها في ثانية وثلاث بياراتنا للدهشة التي تسير بسرعة النور ، ومتى وصلنا إلى القمر رأينا الأرض منه كوكبا يزيد حجمه أربعة أضعاف عن حجم البدر لما كنا ننظر إليه من الأرض .

ثم تنقل منه إلى المريخ وهو أقرب السيارات إلينا وعلى مسافة خطوتين منا حسب الاصطلاح الفلكي لأنه لا يبعد عنا سوى ٦٠ مليون كيلومتر .

والمريخ أصغر من الأرض لا يزيد قطره عن نصف قطرها إلا قليلا ، ومادته نحو عشر مادتها ، وجوّه أقل كثافة من جوها ؛ ومتى وصلنا إلى المريخ رأينا سكانه — إذا كان فيه سكان — ينظرون إلى أرضنا التي هي نجمة الصبح عندهم كما ننظر نحن إلى الزهرة ، ويسألون هل هي مسكونة أم لا ؟ وقد أجمعوا على أنها غير صالحة للسكنى لأن هوائها ثقيل جدا ، فالثقل النوعي فيها أضعافه في المريخ ، وكذلك السرعة ؛ فالرجل الذي يزن في المريخ خمسة وسبعين كيلوغراما يزن على الأرض أكثر من مائتي كيلوغرام ، والجسم الذي يقع من علو شاهق يقطع في المريخ مترا و٨٤ سنتيمترا في الثانية ، وهذا منتهى ما تستطيع أن تقطعه الأجسام في عالم صالح للحياة على رأي علماء المريخ أما على الأرض ، فالجسم الذي يقع فيها من أعلى إلى أسفل يقطع أربعة أمتار وتسعين سنتيمترا في الثانية ، ثم تزداد سرعته على نسبة مربع البعد . لذلك قرّر علماء المريخ أن الأرض غير صالحة للحياة ، ولا سيما أن قربها من الشمس يحول دون نمو الحياة فيها . أما المريخ فهو الكرة للتوسط الصالحة للحياة إذ لا يبرد ولا يحترق فيها .

وهذا القول نسمع مثله في كل السيارات والكواكب الآهلة بالسكان والتي نمرّ بها في سياحتنا للدهشة ثم نبرح من المريخ إلى زحل الذي يبعد عن الشمس نحو ٨٨٢ مليون ميل فنصل إليه في نحو سبع دقائق إذا سرنا بسرعة النور ، ويبلغ حجم زحل ٧٤٥ ضعفا من حجم الأرض ، والسنة فيه تعادل ٢٩ سنة تقريبا من سنة الأرض ، ولهذا السيار تسعة أقمار لاترى من أرضنا إلا بالمنظار .

وبعد ما اجتاز السيارات واحدا فواحدا نصل إلى نجم (الفا) الذي هو أقرب النجوم إلى الشمس لأنه لا يبعد عنا سوى ٢٧٦ ألف ضعف بعد الشمس ؛ فالقطار الذي يسير إليه بسرعة ٦٠ كيلومترا في الساعة لا يبلغه إلا بعد ٧٥ مليون سنة ، ولا تصل القنبلة إليه إلا بعد مليون ونصف مليون سنة بعد انطلاقها ، وإذا وقع فيه انفجار هائل فإننا لانسمع صوت الانفجار إلا بعد مرور ثلاثة ملايين سنة على وقوعه .

وإذا وصلنا سيرنا مسافة مائة مليار كيلومتر بلغنا نجما يبعد عننا القليل من نجوم القدر الثاني عشر ، ثم نجما آخر يبعد عن الأرض ٦٥٢٠ سنة إذا سرنا إليه بسرعة النور ، ثم آخر وهكذا على التوالي . وكلما تقدّمنا في الفضاء اللامتناهى رأينا عوالم جديدة يتألف كل منها من ألوف من الشموس ، ويبعد

الواحد عن الآخر مليارات المليارات من الأميال إلى أن نصل إلى المجرة التي تبدو لسكان الأرض ذرات من الرمال كل ذرة منها شمس محرقة .

ثم نبلغ بعد ما نسبر ألوفا أخرى من السنين بسرعة النور إلى مجرة أخرى فأخرى إلى ما لا نهاية لها ، فنفضى عمرنا الذي فرضناه ملايين اللآيين من السنين ، ونحن في وسط الفضاء اللامتأهي لم نتقدم خطوة ولم نبلغ غاية ، وكثيرا ما نشاهد حولنا في إبان سيرنا في الفضاء بسرعة النور عوالم مندثرة تدلنا على أن كل شيء في الكون عرضة للموت ، ولكنه ينبعث بشكل آخر . ولا يتغير منظر السماء علينا في هذه الرحلة الهائلة إلا في وضع النجوم ، وإذا حاولنا أن نكشف موضع الأرض اضطررنا إلى البحث عن مركز الشمس . أما النجوم فتكون بالنسبة إلينا كما كانت ونحن على الأرض ، فإذا أحصيناها من أي محل كان وجدناها ١٩ نجما من القدر الأول و ٦٠ من القدر الثاني و ١٨٢ من القدر الثالث و ٥٢٠ من القدر الرابع و ١٦٠٠ من القدر الخامس و ٤٨٠٠ من القدر السادس (وهذا كل ما يرى بالعين المجردة) و ١٣ ألفا من القدر السابع ، ثم يزداد عددها سرعة كما لو كنا نرقبها من الأرض حتى يبلغ عدد نجوم القدر الخامس عشر ٤٠ مليونا . أما نجوم القدر السابع عشر والثامن عشر فلا تقع تحت حصر . فنستدل من ذلك على أننا لو سرنا في الفضاء بسرعة النور مليارات المليارات من السنين لما تغير شكله بالنسبة إلينا ، ولما اختلفت مناظره كثيرا عما كانت عليه ونحن في الأرض .

ونقول الآن : إن الحياة موجودة في النظام الشمسي موجودة في الأرض بلا جدال ، وموجودة في المريخ والزهرة على الغالب ، وإن السيارات الأخرى كعطارد والمشتري وزحل وغيرها ليست قراء ، ولكن سكانها يختلفون عنا على ما يظن اختلافا كبيرا في تركيبهم الكيماوي .

وكما أن للشمس ثمانى سيارات يتألف منها نظامنا الشمسي كذلك النجوم التي كل منها شمس هائلة فقد أثبت العلم أن للنجوم سيارات عديدة ، ورصد العلماء أخيرا بعض هذه السيارات وعرفوا كثيرا عن أحوالها . ولا يخفى أنه كان للعلوم الرياضية شأن كبير في الاكتشافات الفلكية ، فلولاها لما اكتشف السيار بنبتون ولولاها لما عرف شيء كثير عن حقيقة العوالم السابعة في الفضاء اللامتأهي ، وقد لجأ علماء الفلك إلى الرياضيات في تقدير عدد العوالم الآهلة بالسكان ، فقالوا إذا فرضنا أن لكل من النجوم المعروفة لدينا ثمانى سيارات كما للشمس وأن ثلاثا من هذه السيارات الثمانى تصلح للحياة كان عدد العوالم الآهلة بالإحياء ٣٠٠ مليون أرض كأرضنا على أقل تقدير لأن ما أحصى من النجوم حتى القدر الخامس عشر بلغ مائة مليون نجم إلى الآن . أما نجوم القدر السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الخ التي لا يحصيا عدده ولا تقع تحت حصر فلم تدخل في حسابنا لأننا اقتصرنا على النجوم التي رصدها البشر ودرسوها . على أن ما قيل عن النجوم المعروفة يقال مثله عن النجوم التي لم يتوصل إليها البشر بعد إلى معرفتها ، وحينئذ يصير عدد العوالم الآهلة بالإحياء أعظم من أن يحده رقم أو يقع تحت حصر .

ولاندري لمادا يكون بين سيارات النظام الشمسي سيارات تصلح للحياة ، ولا يكون مثل ذلك بين سيارات النجوم ، وقد ثبت أن النجوم ليست سوى شموس عظيمة لها سيارات كما للشمس ، ولكل نجم منها نظام مستقل كالنظام الشمسي من أو سيمر في مثل الدور الذي تجتازه الشمس وتواجهها الآن . فكما أن النظام الشمسي كان سديما واحدا ، ثم تجزأ أجزاء عديدة ، ثم جمدت هذه الأجزاء كذلك بعض النجوم ؛ وكما أن نور الشمس يحتوي على أشعة ضرورية للحياة كذلك نور النجوم فضلا عن أن اللواد التي تتألف منها الشمس والسيارات هي اللواد عينها التي تتألف منها النجوم كلها تقريبا . فلماذا تريد أن نحصر الحياة في نظامنا الشمسي

بل في الأرض التي نعيش على سطحها ، وليست الحياة الأرضية من أرقاها (الإنسان) إلى أذناها (الإسفنج والمرجان) سوى نتيجة القوى الطبيعية العاملة في الأرض ، وفي كل كوكب تتوافر لها فيه شروط العمل للتوافرة بلا جدال في جميع العوالم السابوية مهما اختلفت أحوالها .

والظاهر أن أقدم الأحياء الأرضية ظهر لما كانت المياه لاتزال حارة ، ونشأ عن مزيج قوامه الكربون المتحد بالأوكسجين والهيدروجين ، ولم يكن لهذه الأحياء حينئذ سوى شعور طفيف كشمور الإسفنج والمرجان ثم ظهرت اليابسة وظهرت معها الأحياء التي تنفس ومنها الأفاعي ثم الطيور والوحوش ثم الإنسان . فالكربون إذن هو العنصر الأساسي في الحياة الأرضية ، وليست الكيمياء العضوية سوى كيمياء الكربون كما يقال ، والكربون موجود في جميع السيارات التي لا بد أن تكون قد مرت أو ستمر في دور يمكنه من الاتحاد بالأوكسجين والهيدروجين بفعل قوى الطبيعة العاملة في كل مكان فتظهر بذلك الحياة كما ظهرت على الأرض .

وإذا لم يصح هذا القول إلا على سيارة واحدة من السيارات التابعة لكل نجم معروف كان لنا ١٠٠ مليون عالم أهلا بالسكان . أما إذا صح على ثلاث سيارات ، كما يرجح أن يكون في السيارات التابعة للشمس فيزيد عدد العوالم للسكونة حينئذ على ٣٠٠ مليون ، وإذا اتخذنا هذه النسبة أساسا للبحث فيما يحتمل أن تكون عليه السيارات التابعة للنجوم التي لم يتمكن العالم من التعرف إليها بعد . بلغ عدد العوالم للأهولة بأحياء كالأحياء الأرضية حدا لا يحصى عدد ولا يحده حد .

ولنعد الآن إلى البحث في الأحياء الذين يختلفون عن الأحياء الأرضية في تركيبهم الكيماوي . لقد تقدم القول بأن الكربون هو قوام الأجسام الحية في الأرض ، وإن للكربون خصائص ومزايا لا يظهر تأثيرها إلا في أحوال شبيهة بأحوال الأرض من الوجهة الطبيعية . لذلك لا يحتمل أن يكون فعله في نبتون مثلا كفعله في الأرض لاختلاف أحوال هذه السيارة من حيث الحرارة وكثافة النور وطبيعة المواد الموجودة فيها عنها في أرضنا ، ولكن القول بأن هذه السيارة والسيارات الأخرى كالشمس وزحل وأورانوس وغيرها غير صالحة للحياة أبعد عن العقل والنطق من القول بأن فيها أحياء يختلفون عنا في تركيبهم الكيماوي لهم جهاز هضمي غير جهاز ناورثات غير رثاتنا وحواس غير حواسنا .

وإذا كان الكربون لا يصلح لأن يكون عنصرا جوهريا لهذه الأحياء ، ففي الطبيعة عناصر أخرى يمكنها أن تحمل محله لتأخذ عنصر السيليكا مثلا فإنه شديد الشبه بالكربون ينشأ عن اتحاده بالأوكسجين حامض السيليسيك للوجود بكثرة في كل سيارة ، وتظهر بعض تراكميه بمظاهر غريبة منها خلايا تكلايا النبات ونباتات كالنباتات الدنيا ؛ على أن هذه الخلايا ليست حية ، وإن تكن شبيهة بالخلايا الحية ، ولكن من منا كان يعلم قبل سنوات مانطقه اليوم عن حياة الإسفنج ، وما الذي يدلنا على أن عنصر السيليكا ليس في العوالم الأخرى قواما للحياة كالسكربون في عالمنا الأرضي ، وهو أكثر منه تحملا للحرارة فلا يحل في درجة شديدة الحرارة ولا يجمد في درجة شديدة البرودة .

والأحياء الذين يحتمل وجودهم في العوالم الأخرى ليسوا على شاكلتنا بلا جدال فبيئاتهم غير حياتنا ، وحواسهم غير حواسنا وتركيبهم الكيماوي غير تركيبنا .

ولنا ندري لماذا يصب على العقل التسليم بوجود حواس غير حواس البشر ، وأحياء غير الأحياء الأرضيين وكلنا يعلم أن الأرض بالنسبة إلى العوالم الأخرى أصغر من ذرة رمل في صحراء أفريقيا وأن حواسنا قاصرة جدا عن إدراك كثير مما يقع حولنا .

خذ مثلا اهتزازات أوتار العود ، فإذا بلغت ٣٢ في الثانية أثرت في طبلة الأذن وأصغتنا تقعا أو صوتا ، وكلما زاد عدد الاهتزازات اختلفت الأصوات إلى أن تبلغ ١٠٣٤ اهتزازا في الثانية ، وتبدأ الأذن تتألم بعد ما يزيد عدد الاهتزازات على ٧٠٠٠ في الثانية ، ومتى بلغ عددها ٣٢ ألفا استحال على الأذن أن تسمع شيئا أما الاهتزازات التي يبلغ عددها ٣٤ مليارا في الثانية ، فلا تقع تحت حاسة من حواس البشر لأنها تصير موجات كهربائية .

ونحدث التموجات التي يبلغ عددها بين ٣٤ مليارا و ٣٥ مليارا في الثانية أشعة موجودة ، ولكن العلم لم يعرفها بعد ، وتختلف موجات النور بين ٤٥٠ إلى ٧٥٠ تريليون في الثانية ، وتبتدى من الأحمر إلى البنفسجي مارّة بجميع الألوان ، والتموجات الأقل عددا من موجات النور الأحمر هي أشعة الحرارة ، والتموجات التي تزيد عددا على موجات النور البنفسجي أي على ٧٥٠ تريليون في الثانية هي أشعة لا تؤثر في العين ، ولكنها تؤثر في الألواح الفوتوغرافية .

ومتى بلغت التموجات ٢٨٨ كترليون في الثانية نشأت عنها أشعة رنتجن ، فلو أن بصرنا يحس بهذه التموجات لما كان للألوان أثر في الوجود بل كانت الأرض تظهر لنا بمظهر غريب ، فترى البشر هياكل عظيمة ، والأشجار عبارة عن سائل متجمد ، وإذا شئنا حينئذ أن نتسّر وجب علينا أن نرتدى لباسا من الزجاج والرصاص ، وأن نجعل نوافذنا من الخشب بدلا من الزجاج .

أما إذا استطاع بصرنا أن يشعر بموجات أسرع من هذه التموجات ، فإنه يرينا هجائب لا نخطر على بال إنسان .

فهل يبعد أن يكون للأحياء غير الأرضيين حواس تجعلهم يشعرون بهذه الأشعة التي لا نشعر بها نحن لضف حواسنا وقلتها .

إن الحركة هي أساس كل شيء في هذا الكون ، فالتموجات تسع إذا كانت أقل من ٣٢ ألفا في الثانية ، ومتى زادت عن ذلك تحولت إلى ألوان ثم إلى أشعة كهربائية فنورية فكميائية ، ومعظمها لا يقع تحت حواسنا ، وإن كنا نعرف نتائجها ونراها ، فلماذا يصعب على العقل أن يسلم بإمكان وجود حواس غير حواس البشر تحس بهذه المظاهر وأمثالها ؟

إن جميع مافي الكون من عوالم ومجرات وشموس ونجوم وأقمار مرّة أو مرّة الآن أو سيمر في المستقبل يمثل الدور الذي يجتازه اليوم عالمنا النجمي وعالمنا الشمسي أي دور صالح لنمو الحياة ، فقبل مئات الملايين من القرون كانت عوالم كثيرة كعالمنا الحالي موجودة في الطبيعة ، ولكنها ليست العالم الذي نحن فيه لأن تلك العوالم قد دمرت الآن ، ولأن عالم اليوم لم يكن موجودا في تلك الأثناء .

كانت حينئذ نجوم وشموس وأقمار وسيارات وأيام وليال وقرون وفصول وسنوات وأحياء وحوادث ، ولكن غير النجوم والشموس والكواكب والأحياء الخ الوجود اليوم .

الأرض التي نحن عليها لم تكن قد تكونت بعد ، بل كانت سدما ليس فيه ماء ولا هواء ولا حياة ولا شيء من العناصر التي يسميها الكيماويون بسيطة كالهيدروجن والأوكسجين والحديد والأزوت وغيرها كانت كلها غازا ملتصقا محتويا على جراثيم الحياة وبدور الوجود إذا صح هذا التعبير .

الإنسانية وتاريخها والبشر ومجهوداتهم ، وكل مافي الأرض من جماد وحيوان ونبات لم يكن موجودا في هذا السديم إلا بهيئة نطفة أو جنين ، ولم يكن محل الأرض سوى غاز متموج في وسط الفضاء اللامتناهي وقد قلنا محل الأرض وذلك خطأ ، لأن الأرض كسائر النجوم والشموس والسيارات لا تمكث دقيقة في محل واحد بل تسير على الدوام في الفضاء الواسع .

لم تكن أرضنا موجودة حينئذ بل كانت نجوم وشموس وسيارات أخرى أهلة بالسكان كما هي الحالة اليوم وكان هؤلاء السكان يعيشون ويموتون ويتألمون ويسرون ويحبون ويكرهون ويتكاثرون جيلا بعد جيل مثلنا تقريبا وكانت لهم حضارة وشرائع وعلوم وآداب تتناسب مع درجة رقيهم في مختلف الأدوار التي مروا بها . وكانوا يعتقدون كما نعتقد أن الخليقة كلها تقف عندهم ولا تعدى دائرة فلكهم . وقد اقرضوا كما سنقرض نحن لأن الأبدية التي لا بداية ولا نهاية لها لا تجرف أمامها للمالك والدول والشعوب فقط بل تجرف العوالم التي نوالت ، وستتوالى إلى الأبد . أما الطبيعة فهي القوة الخالدة التي تعمل على الدوام إنها باقية ، وكل ما عداها فان لأن الماضي والمستقبل غير موجودين في نظرنا لأن الحاضر هو كل شيء بالنسبة إليها .

وإن محاولتنا البحث فيما كانت عليه هذه العوالم كحالة النملة درس تاريخ الأرض ، فكما أن النملة تظن تاريخ البشرية محصورا في تاريخ وكرها كذلك نحن ، وكما أنها تظن نفسها صاحبة الحقل الذي تعيش فيه ، وتعتقد أن كل ما في الكون ملك لها ، وتجهل وجود أحياء أخرى غيرها كذلك نحن بالنسبة إلى العوالم الأخرى ، فما يمكننا والحالة هذه أن نعرفه عن العوالم النقرضة أقل بكثير مما قد نعرفه النملة عن عالمنا الأرضي . وليس من السهل على عقلنا المحدود أن يتصور الأبدية التي لا حد لها ، وأن يقتنع بأن عوالم أخرى قبل عالمنا الحالي كانت تدور حول شمسها منذ الأزل ، وأنه لم يكن لها بداية ولن يكون لها نهاية ، ولكنها هي الحقيقة التي تدل على عظمة الخالق وجلال الخليقة .

وبعد مئات الملايين من القرون تصبح الأرض التي نحن عليها صحراء قاحلة ، لأن عالمنا الشمسي لا يوجد حينئذ صالحا للحياة بل تنطفئ الشمس وتظلم السيارات وتقرض الأحياء منها ، وستظل مواصلة سيرها في الفضاء الواسع ملايين الملايين من القرون إلى أن تصطدم بعالم آخر قد يعيد إليها الحرارة والنور والحياة بقوة هذا الاصطدام .

ولكن السدم التي نراها الآن تكون قد تحولت حينئذ إلى شمس تدور حولها كواكب يتعاقب فيها الليل والنهار وتنمو على سطحها الحياة ، وهكذا على التوالي إلا ما لا نهاية له . فالفضاء ممتلئ الآن بعوالم لا يحصى عددها منها ما ظهر حديثا أي منذ ملايين من السنين ، ومنها ما بلغ دور الشيخوخة ، ومنها ما أصبح في حالة الانحلال ، ومنها ما لا يزال سدما غازية ، فهنا عوالم تمثلت حياة ، وهناك شمس منطفئة ، وهناك سدم في حالة التكون وقوى الطبيعة لا تنقص ولا تزيد بل هي في حالة نشاط أبدي تعمل على تحويل عوالم الكون من حال إلى حال ، إذ لا شيء يخرج من العدم ولا شيء يعود إلى العدم في هذا الوجود .

إذن المستقبل كالماضي والعوالم القليلة موجودة في الطبيعة كالعوالم النقرضة ، فإذا انطفت شمسا بعد ملايين من السنين ، فإن الفضاء لا يكون خاليا حينئذ من شمس ونجوم وعوالم أخرى غير شمستا ونجومنا وعالمنا ، ولا من الحياة وإن تكن غير حياتنا فما وجد قبلنا ومعنا سيوجد حتما بعدنا في حالة لا تختلف كثيرا عن حالتنا . ولكن كيف يمكننا أن نتصور ذلك بل كيف يمكننا أن نستوعب (الزمان والمكان) إذا أخرجناهما من دائرة عالمنا المحدود إن المكان موجود من تلقاء نفسه . أما الزمان فلا وجود له إلا بالنسبة إلينا لأن المكان يمكننا أن نتصوره فنعرف أنه فضاء خال أو ممتلئ كبير أو صغير بسع قليلا أو كثيرا ، فلو لم يكن العالم موجودا لما هجرنا عن تصور المكان . أما الزمان فعلى عكس ذلك إذ لو لم تكن الأرض موجودة تدور على محورها ولو لم يكن الليل والنهار لما وجدنا (الزمان) فإذا زال الكون بقي المكان ، ولكن الزمان يزول معه وما قولنا (اليوم) أو (غدا) إلا قول نسي لا يمكن أن يقال على إطلاقه فإذا توقفت الأرض مثلا في دورتها

على محورها اتقى ما قصدناه بهذا القول ، وإذا أسرع الأرض في سيرها أسرع الزمان أيضا معها ، وهو لا وجود له بالنسبة إلينا ونحن نيام ، فإذا نمنا مليون سنة فكأننا لم نتم سوى دقيقة واحدة ، ثم إن الحاضر لا وجود له بالنسبة إلينا ، فهل هو الساعة ؟ كلا ، لأن الساعة يمكن تقسيمها إلى ماضٍ ومستقبل ، وهل هو الدقيقة ؟ كلا لأن الدقيقة تقسم أيضا ، وكذلك الثانية والساعة والدقيقة ، والثانية من مقاييس الزمن على سطح الأرض ، ولا يمكن أن تتخذ كذلك في الكواكب الأخرى حتى في أقربها إلينا لاختلاف يومنا طولاً وقصراً عن يوم كل منها بسبب السرعة في دوراتها على محورها ودورتها حول الشمس ، فالزمان بالنسبة إلينا إما أن يكون ماضياً أو مقبلاً . أما الحاضر فإذا وجد على أرضنا فإنه يكون عشر الثانية على الأكثر ، على أن الطبيعة لا تعرف إلا الحاضر لأن الماضى وجد والمستقبل موجود في الماضى بالنسبة إليها ، ولأن المقاييس التي تقيس بها الزمن نسبية لا يمكن إطلاقها على العوالم الأخرى ، ولا تتفق مع الأبدية التي هي أم خواص الطبيعة والوجود اه .

أقول: أفلمت ترى أن العدل واضح في هذا القول بحيث إن سكان كل كوكب يرون القدر الأول ١٩ ، والقدر الثاني ٦٠ ، والثالث ١٨٢ ، وهكذا يرى سكان كل كوكب كما يرى الآخرون اه .

اللطيفة الثالثة (كنتم خير أمة أخرجت للناس)

قد تقدم الكلام على هذا اللقمة في سورة البقرة عند قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وعند قوله تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) وأبنا هناك في هذين القامين ما ينتظر من أمة الإسلام في مستقبل الزمان ، وكيف كان أبناء إبراهيم الخليل قد أصبحوا اليوم تحت أمر الفرنجة ، وأن ذلك بسبب جهلهم في الحجاز والشام ومصر وشمال أفريقيا ، وأنه قد اقترب الوقت الذي يبنون فيه مجددم وآن أو أن استيقاظهم ، وأن تأخرهم لأنهم لم يقوموا بما قام به الخليل صلوات الله وسلامه عليه من الحصال الأربعين للوضحة هناك .

اللطيفة الرابعة

في الكلام على اليهود (وأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بنضب من الله)

ولقد تقدم الكلام على ذلك هناك في سورة البقرة من الآيات التالية لقوله تعالى (وإذا استسقى موسى لقومه الخ) وهناك استبان كيف كان سقوطهم في هاوية الضلالة درجات بعضها فوق بعض بالترتيب الطبيعي ، وهذا من أعجب العجب ، فأنظر كيف ذكر اليهود في سورة البقرة بصفات هي حينها التي جاءت في سورة آل عمران ، ولم يجعل لغيرهم كائنصارى والمجوس أو مشركى العرب . ذلك دلالة على أن الحقيقة هي لا تحيد عنهم شعرة .

اللطيفة الخامسة (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

لقد تقدم الكلام على الجنة والنار في سورة البقرة في قوله تعالى (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) وسيأتى شرح أمم للجنة والنار في هذه السورة قريباً ، ونذكر حقائق تسم الناظرين ، وكيف كان الكشف الحديث مطابقاً للقرآن والحديث في بيان النار .

اللطيفة السادسة : اتخذ البطانة من الكافرين

ولقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا الخ)

القسم الثامن من سورة آل عمران

وفي هذا القسم أربعة فصول : الفصل الأول في نظام الدفاع عن البلاد الإسلامية والمعقبة الدينية والديانة لها (وهذا هو الجهاد الأسنر) من قوله تعالى (وإذ غدوت) إلى قوله تعالى (والله غفور رحيم) . الفصل الثاني في الجهاد الأكبر بحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا وبالطاعة وحسن الخلق والنفو الخ من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لانا كلوا الربا أضعافا مضاعفة) إلى قوله تعالى (ونعم أجر العاملين) . الفصل الثالث في الاعتبار بالأمم السالفة وأنبياهم فلما صبروا مع أنبيائهم نصرنا وفازوا من قوله تعالى (قد خلت من قبلكم) إلى قوله تعالى (وهو خير الناصرين) . الفصل الرابع تطبيق ذلك الاعتبار على هذه الأمة مع النبي صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى (سنلق في قلوب الذين كفروا الرعب) إلى قوله تعالى (وخافون إن كنتم مؤمنين)

الفصل الأول

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَاللَّهُ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

تفسير هذا الفصل

روى أن للشركين نزولوا بأحد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه من قبل فاستشاره ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول (كثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوائه ماخرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ، ولادخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلتهم الرجال في وجوههم ورمم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين) وكان صلى الله عليه وسلم أميل إلى هذا الرأي ، وقال بعض أصحابه أخرج بنا إلى هذه الأكلب لثلاث يروا أنا جينا عنهم وضعتنا وخفتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى قد رأيت في منامى بقرا فأولتها خيرا ، ورأيت في ذباب سبى ثلما فأولتها هزيمة ، ورأيت أنى أدخلت يدى في درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتهم

أن تقيموا بالمدينة وتدعوم ، فقال رجال فانتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا إلى أعدائنا وباللوا حتى دخل قلبس لأمته ، فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم ، وقالوا اصنع يا رسول الله ما رأيت ؟ فقال لا ينبغي لشيء أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل ، فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بشعب أحد يوم السبت ، ونزل في جانب الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وصفهم ، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة ، وقال ادفعوا عنا بالبلد لا يأتوا من وراءنا ، ثم قال اثبتوا في هذا القام فإذا عابنوكم ولوا الأديار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا القام ، فلما علم عبد الله بن أبي ابن سلول ذلك شق عليه مخالفة رايه . وقال لأصحابه أطاع الولدان وعصاني ، وأشار على قومه أن يهزموا إذا رأوا العدو وحينئذ ينضمهم بقية الجيش ، وفي ذلك ما بين قول النبي صلى الله عليه وسلم إنهم إذا عابنوكم ولوا الأديار ، وكان عسكر المسلمين ألفا ، وعسكر الشركين ثلاثة آلاف وانخذل عبد الله بن أبي ثلثة من أصحابه للناقين ، وثبت الله الباقيين وهم سبعمائة حتى هزموا الشركين وحينئذ طمع المؤمنون أن تكون هذه كوقعة بدر فطلبوا المدبرين مخالفين النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجع الشركون وكروا على المسلمين ، فانهزم المسلمون وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه كأبي بكر وعلى والعباس وطلحة وسعد رضي الله عنهم وكسرت ربابته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه الشريف ، وكان من غزوة أحد ما كان . فهذا قوله تعالى (و) اذكر (إذ غدوت من أهلك) أي من حجرة عائشة رضي الله عنها (تبوى المؤمنين) تنزلهم (مقاعد) مواضع ومواطن (للقتال) فتخذ عسكرا وتبوى صفوفهم وتبينهم (والله صميع) لأقوالكم (عليم) بنياتكم وما يصيبكم وتركم مركز القتال لما انهزم عبد الله بن أبي ابن سلول . فهتم بنو سدة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وهما كانا جناحي العسكر ، بقوله (إذ همت طائفتان منكم) متعلق بقوله « صميع عليم » فهو تعالى يقول : إنى أعلم ما تقولون وما تضررون يابى سدة ، ويابى حارثة حين هممتا (أن تفشلا) أي تجينا وتضعفا ، وإنى أعلم إن ما في قلوب هاتين الطائفتين لم يخرج عن حديث النفس وما كان من حديث نفس فليس يذنب ، فلذلك أعقبه بقوله (والله وليهما) عاصمهما من اتباع ما خطر من حديث النفس وناصرهما في الحرب وحافظهما ومتولى أمورهما بالتوفيق والعصمة على ما تقتضيه الحال فليكن جميع للمؤمنين متوكلين على الله إذا فرغوا من المشاورة وأجمعوا أمرهم بينهم أن يقوموا بعمل ولا يترددوا بجد تمام المشاورة . فهذا معنى قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهو إذن ينصرهم لأن يد الله مع الجماعة فليفتوا بأمرهم إليه في نتائج مآلت الاستشارة فيه وتم العزم عليه وليرضوا بما يأتي به القدر بعد ذلك ، فإن النصر بيد الله بعد الأخذ بالأسباب المعقولة كما حصل في واقعة بدر « وبدر اسم لواء بين مكة والمدينة » كان لرجل يسمى بدرا ، فسمى به . يقول تعالى (ولقد نصركم الله بدر وأنتم) ثلثة وضة عشر أو ثلاثة عشر رجلا (أذلة) بقلة السلاح والركوب والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو ، وكان الجماعة منكم يتعاقبون على البعير الواحد وما معكم إلا فرس واحد ، أما عدوكم من كفار قريش فكانوا زهاء ألف مقاتل ومعهم السلاح والشوكة ، فلم يكن نصركم لضعف عدوكم أو لقوتكم وكثرتكم بل كان بالأحقاد والطاعة ، وما ترتب عليهما من نصر الله لجماعتكم (فافتوا الله) في الثبات كما اتقيتموه في بدر (لعلكم تشكرون) أي لعلكم تتألون نعم الله فتشكرون عابها ، وقوله (إذ تقول للمؤمنين) ظرف لنصركم ، يقول الله تعالى « ولقد نصركم الله بدر » حين قلت للمؤمنين تقوية لقلوبهم وثبتين لهم (ألن يكفينا أن يدرككم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) منكرها بالاستفهام ألا يكفيهم ذلك موقعا الثبات والاطمئنان في قلوبهم وقد كانوا كالأيسين من النصر لضعفهم وقوة عدوهم ، ولقد أمددناهم بألف ثم صيرناهم ثلاثة آلاف ، وقد أجاب عن هذا الاستفهام الإنكارى فقال (بل) أي يكفيهم ذلك ، ثم وعدم الزيادة على أجرهم وتقواهم حثا عليهما وتقوية لقلوبهم فقال (إن تصبروا وتتقوا

ويأتوكم) أي للشركون (من فورهم هذا) من ساعتهم هذه ، وأصله مصدر من فارت القدر إذا غلت فاستعير للسرعة ثم صار للحال التي لا ريث فيها . والمعنى إن يأتوكم (بمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسويين) بكسر الواو وملين أنفسهم وخيلهم بعلامة تعرف في الحرب، والسومة والسبا العلامة أو بفتحها أي سوتهم الله (وما جله الله) أي إمدادكم بالملائكة (إلا بشرى لكم) بالنصر (ولتطمئن قلوبكم به) ولتسكن إليه من الخوف (وما النصر إلا من عند الله) لامن العدة والعدد فلا حاجة في نصركم إلى مدد أو عدد . وإنما وعدتكم بالمدد وأمددتكم ربطا لقلوبكم ، لأن نظر العامة إلى الأسباب أكثر . فأما الخاصة فإنهم يعلمون أن النصر من الله (العزير) الغالب (الحكيم) في نصره من يشاء . وخذله من يريد على مقتضى سنته التي سنها . وإنما نصركم (ليقطع طرفا من الذين كفروا) بقتل بعض وأسر آخرين فإنكم قتلتم سبعين وأسرتهم سبعين من صناديد قريش (أو يكتنهم) والسكت شدة العيظ (فينقلبوا خائبين) فينهبوا منقطعى الآمال ، فنصركم بقتل بعض وأسر بعض وخيبة آخرين ، وإذن تكون أو للتويع ، وإذا كنت أنا مالك أمرك وأمرهم والنصر من عندي وأنا القاهر الحكيم في نصرى من أشاء وخذلى من أشاء ، فإذن (ليس لك من الأمر شيء) أي ليس لك من أمر خلقى شيء يا محمد إلا ما وافق أمرى ، وإنما أنت عبدي مبعوث لإبذارهم ومجاهدتهم وأنا أعلم بمصالحهم ثم عطف توبتهم وتعديهم وها مصدران للفعلين النصويين بأن الضمرة على الأمر في قوله (ليس لك من الأمر شيء) فقال (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) لاستحقاقهم ذلك (فإنهم ظالمون) وهذه الآية تشير لأمر كثيرة : فنها ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على عامر بن الطفيل لما قتل هو ومن معه سبعين رجلا من أصحابه إذ أرسلهم إلى بئر معونة وهي بين مكة وعسفان وأرض هذيل في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ، وإنما بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم ، وكان أميرهم للذئب بن عمرو . وروى البخارى عن ابن عمر أنه كان يدعو عليهم إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر بعد ما يقول «سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد» وروى «أنه قنت شهرا في الصلوات كلها يدعو على تلك القبائل» ، وفي البخارى ومسلم «أنه كان يقول : اللهم الن فلانا وفلانا لأحياء من العرب» ومنها أنه لما كسرت ربابيته وشج رأسه وجعل يسيل الدم منه جعل يقول : «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا ربابيته وهو يدعوهم إلى الله» ، ومنها أنه قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عليهم بالاستئصال ، ومنها أنه لما قتل عمه حمزة ومثلوا به أراد أن يدعو عليهم فهذه الأمور وأمثالها أحزنت النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله له «ليس لك من الأمر شيء الآية» فأنا إنما ابتليت بضعكم ببعض وأمرتك بالجهاد لحكم أردتها ونتائج أعددتها ، فإذا استجبت دعائك فاستأصلتهم لم يكن ذلك موافقا لسنتي التي رتبها ، وسأجعل منهم نسلا يدخلون دينك ، ويحفظون شريعتك ، ويعمرون أرضى ، ويساعدون عبادى ؛ فافعل ما تؤمر واصبر ، وإذا كنت أستجيب الدعاء في مثل هذا فنى أعداؤك فبطل الجهاد فمن أين تكون العزيمة والصبر اللذان لا يكونان إلا حيث يكون الأعداء أقوياء والرجال العظماء لاسيا الأنبياء أعظم ما يميزون به الصبر على الشدائد حتى يسما «أولى العزم» فدو العزيمة هم الذين يتألبون الشدائد الطبيعية والعدو الإنسانى . هذا بعض ما قضت به سنتى في خلقى ، فليس لك يا محمد ولا لأحد من خلقى أن يقاومها «ولن نجد لسنة الله تبديلا» ألا وإن أعداءك يا محمد وأولياءك وجميع من فى الأرض ، والأرض نفسها والسموات وما فى الأرض (خلقنا وملكنا فى الأمر كله ، فذلك أعقبه بقوله موعظا فى نفي الأمر عن الخلق) والله ما فى السموات وما فى الأرض (خلقنا وملكنا) ينفر لمن يشاء ويغذب من يشاء) فله الأمر لا لك فرجما هدام فنصر لهم (والله غفور) لعباده (رحيم) بهم ، فلا تبادر إلى الدعاء عليهم اه الفصل الأول فى الجهاد الأصغر .

الفصل الثاني

في الجهاد الأكبر لحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا وبالطاعة وحسن الخلق والعبور
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *
 وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا
 إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
 فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ
 إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ
 إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *

لما فرغ من الكلام على الجهاد والمحافظة على الوطن وهي هنا المدينة وعلى الصبر والثبات في الحرب وأن
 النصر تابع لهما ، وأن كل تأييد من الله لن يكون إلا على مقتضاها ، وما عدا ذلك فإنما هو غرور شرع يذكر
 أصول ذلك وأساس بنيانه من المحافظة على الاقتصاد في البلاد ، وحفظ الأموال حتى يتيسر للناس استثمار
 أموالهم ، ومن الإتفاق في الأمور العامة والفقراء والمساكين ، ومن تهذيب النفوس بالصبر وكظم الغيظ
 والعبور فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) لا تزيدوا زيادات متكررة ، فإنهم كانوا
 في الجاهلية عند حلول الدين يزيدون المال ويؤخرون الأجل ، فإذا كان لإنسان دين وجاء أجله ، ولم يكن
 للديون ما يؤدى ؟ قال له صاحب المال زد في المال وأنا أزيدك في الأجل ، ويغفلون ذلك مرارا فيصير الدين
 أضعافا مضاعفة ، وإنما كرر هذه الآية هنا وإن كان أصل الربا حراما وإن لم يضاعف هذه للضاعفة لأن هذا
 النهي عن أمر واقع كانوا يفعلونه (واتقوا الله) فيما نهيتكم عنه (لعلمكم تفلحون) راجعين الفلاح في الدنيا
 والآخرة ، وكيف تفلحون في الدنيا كقتال العدو ، وأنتم لا تعرفون طرق الحياة ، ونظام الأمور والحروب
 لا تقام إلا بالمال ولا مال إلا بصناعة وزراعة وتجارة وعمارة ، فإذا اغتال الأغنياء منكم الفقراء فأرهبوهم
 بالدين والربا غلت أيديهم وشتت ، ووقف دولاب الحركة الصناعية والزراعية والتجارية ، ولا يظهر ذلك
 ظهورا بينا إلا في أيام الحروب ، فإن خذلان الأمم يتبع سوء نظامها وضياع أفرادها ، وماذا يفعل القواد
 إذا كان الشعب مغلول الأيدي ضعيفا قهرا مسكور الجناح . إن الدولة الروسية تمزقت شذرا مذر في الحرب
 الكبرى في هذا القرن لأن الشعب كان حسيرا ذليلا قهرا ، فلم يقو على مقاومة الألمان ، قامت البلشفية
 ورأت أن الربا يجعل المال في يد الأغنياء فمنعته ، بل جمعت الأمور موزعة تقريبا على الشعب ولذلك قدرت
 أن تصد الأمم كلها عن فتح بلادها ببعض ما قامت به من نظام الأموال ؛ هذا اللوجز بريك سر ذكر الربا
 في هذا اللقام وهو سر لا يكاد يظن له الناس إلا لما قامت هذه الحرب فنهبتا بل عرفتنا لماذا كسر السلطون
 وشتتوا في القرون المتأخرة . ذلك لجهل ملوكهم واستبدادهم وضربهم على أيدي العلماء حتى صار للمال قليلا ،
 وهذا القليل في أيدي الأغنياء وهم قليل أيضا قهرا منهم الفرنجة وغير الفرنجة . فهذا سر قوله تعالى « لعلمكم

تفلقون « بعد الكلام في مسألة الربا فتعجب من الحكمة ومن العلم المخزون في كتابنا المقدس والسلمون أكثرهم ناعمون ؛ ولما كانت هذه المعاني الشريفة العالية قلّ أن يتفطن لها الناس أردفه بما يناسب العقول ويفقهه العامة والخاصة . ما فقال (واتموا النار التي أعدت للكافرين) بأن تركوا متابعتهم وتماطى أفعالهم فإذا عاملتم الناس بالربا كالجاهلية مستكم النار في الآخرة وخذلتهم في الدنيا في حروبكم (وأطيعوا الله والرسول) بترك المحرمات كالربا ونحوه . وفعل الصدقات (لعلكم ترحمون . وسارعوا) بادروا وأقبلوا (إلى مغفرة من ربكم) أي إلى الأسباب الموصلة إلى ذلك كالتوبة والإخلاص (وجنة عرضها السموات والأرض) أي عرضها كعرضها ، وهذا كالتشليل للدلالة على سعته لأنه إذا كان العرض كذلك فكيف يكون الطول (أعدت للمتقين) هيئت لهم . ثم وصفهم على سبيل المدح فقال (الذين ينفقون في السراء والضراء) في حالتي الشدة والرخاء : أي في جميع الأحوال ، إذ الإنسان لا يخلو من مسرة أو مضرة فهم ينفقون ما قدروا عليه (والكاظمين الغيظ) للمسكين عليه الكافين عنه مع القدرة ، يقال كظمت القرية إذا ملأها وشددت عليها ، وفي الحديث « من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا » (والعافين عن الناس) التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذه ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم « إن هؤلاء في أمي قليل إلا من عصم الله » وقد كانوا كثيرا في الأمم التي مضت (والله يحب المحسنين) أي جنسهم ومنهم هؤلاء (والذين إذا فعلوا فاحشة) فمعة بالغة في التوبح كالزنا (أو ظلموا أنفسهم) بأن أذنبوا أي ذنب كان دون الكبائر (ذكروا الله) تذكروا وعيده وحقه العظيم وحكمه والحرمات من جواره والطمع في مشاهدته والقرب منه (فاستغفروا لتوبتهم) بالندم والتوبة (ومن يفر الذنوب إلا الله) أي لا يفر الذنوب إلا الله ، وهذه جملة معترضة للحث على الاستغفار وإلطام الناس في رحمته (ولم يصروا على ما فعلوا) أي لم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها بل تابوا منها واستغفروا (وهم يعلمون) أنها معصية وأن لهم ربا يفرها وأن الإصرار ضار (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار) وهذه الجملة بيان لجملة « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ألج » يقول إن لهم أمرين : تخلية ونخلة . فالتخلية بالمغفرة ، والتخلية بالجنات (خالدين فيها) في الجنات (ونعم أجر العاملين) والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ذلك الجزاء والمغفرة ، ولعمرك كم من فارق بين جنة عرضها السموات والأرض ينالها المرء بالمسارعة لعمل الخيرات وفعل اللبّات وجنة تجري من تحتها الأنهار لم يذكر سعته ولا عجائبها بل اكتفى فيها بالأنهار ، فالأولى هي التي طلبت بالخيرات ، والثانية هي التي ذكرت أجراً لأولئك الذين أذنبوا ثم تابوا فغفر لهم فعدّ ذلك أجرا ، والأجر على التوبة شيء ، والثواب الواسع على الفضائل والأخلاق العالية شيء آخر ، فأحدهما جنة العارفين ، والثانية جنة الصالحين الذين يعبدون الله خوفاً لا حباً وغراماً وعشقا للفضائل والكمال والجمال متبتلين .

الفصل الثالث

في الاعتبار بالأمم السالفة وأنبيائهم وأنهم لما صبروا فازوا

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١﴾
هَذَا يَبَيِّنُ لِلنَّاسِ وَهْدَى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *
 وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ
 اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
 أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلِبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا
 وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلًا وَمَنْ
 يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *
 وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا
 وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
 وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ
 الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ
 كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ
 النَّاصِرِينَ *

التفسير اللفظي

(قد خلت من قبلكم نبيون) وقائع سنها الله في الأمم قبلكم (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
 المكذبين) لتتبروا بما ترون من آثار هلاكهم (هذا) القرآن عموما وما جاء فيه من الاعتبار بالسيرة في الأرض
 خاصة (بيان للناس وهدى) من الضلالة (وموعظة) وهي ما يفيد الزجر (للمتقين) لأنهم هم المتفعلون به
 (ولا تنهوا) ولا تضعفوا عن الجهاد (ولا تحزنوا) على من قتل منكم (وأنتم الأعلىون) بالنصر والغلبة (إن
 كنتم مؤمنين) مصدقين بأن ناصركم الله (إن يحسبكم فرح) بضم القاف وفتحها جرح يوم أحد (فقد مس
 القوم) الكفار (فرح مثله) يوم بدر ولم تضعف قلوبهم عن معاودتكم إلى القتال فأتمم أولى (وتلك الأيام
 نداولها بين الناس) نصرتها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى ، كما قيل :

يوم لنا ويوم علينا ويوما نساء ويوما نسرا

والمراد بها أوقات النصر والغلبة وإنما نداولها لضروب من التدبير (وليعلم الله الذين آمنوا) أي ليعبر
 المؤمن المخلص بمن يرتد عن الدين إذا أصابته نكبة وشدة ومن يهجر على الجهاد من غيره ، فالمراد بالعلم
 لازمه مجازا (ويتخذ منكم شهداء) ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم من استشهدوا يوم أحد يشهدون
 يوم القيامة مع الأنبياء والصدقيين على الأمم ويشهد الله لهم بالجنة (والله لا يحب الظالمين) المشركين ودينهم
 ودولتهم فيكون نصرهم استدراجا لاستشهادا (وليحص الله) يطهر ويصفي من الذنوب (الذين آمنوا)

إذا كانت الدولة عليهم (ويعحق) يهلك (الكافرين) إن كانت الدولة عليهم (أم حسبتم) بل أحسبتم؟ استفهام إنكارى (أن تدخلوا الجنة) بلا قتال أيها المؤمنون (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) نفي العلم مجاز يراد به نفي للعلوم أى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم؟ (ويعلم الصابرين) معطوف على ما قبله أى ولما تجاهدوا وتصبروا (ولقد كنتم) أيها الذين لم يشهدوا بدرا (تمنون الموت) بالبيهادة في الحرب لتناولوا ما نال شهداء بدر فألحتم يوم أحد على الخروج (من قبل أن تلقوه) من قبل أن تلقوا يوم أحد (فقد رأيتموه وأتم تنظرون) أى فقد رأيتموه معانين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو توييخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسيبوا لها ثم جبنوا فانهزموا عنها، ولما رمى عبد الله بن قنينة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر ربايته وشج فذب عنه مصعب بن عمير وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قنينة وهو يرى أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم، فأعلن ذلك في الناس فانكفأ الناس وانهزموا، وجعل الرسول يدعو: إلى عباد الله نزل قوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) فيدخلوا كما دخلوا بموت أو بقتل. ولقد بنى أتباع الرسل على أديانهم بعد ما خلت أنبيأؤهم؛ ثم أخذ يوحىهم بالاستفهام الإنكارى قاتلا آتجهلون سنن الأنبياء السالفين (أفإن مات) محمد (أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ارتدتم عن الدين إلى دينكم الأول لحلوله بموت أو قتل يقال لكل من رجع إلى ما كان عليه رجع وراه ونكس على عقبيه (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) بارئداده بل يضر نفسه (وسيجزي الله الشاكرين) على نعمة الإسلام بالنيات عليه كما فعل أنس بن النضر عم أنس بن مالك إذ قال يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حى لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتل حتى قتل (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) بمشيئته كتب ذلك (كتابا مؤجلا) مؤقتا لا يتقدم ولا يتأخر فلا الفرار ينجى منه ولا الإقدام يجلبه، ولقد تقدم أن الرماة خالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على النهب وخالوا مكائهم فاقضوا للشركون عليهم فكانت الهزيمة فقال تعريضا لهم (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) ثوابا (وسنجزي الشاكرين) لنعم الله تعالى فلم تشغلهم الغنائم عن الجهاد (وكأين) أصله أى دخلت عليها الكاف وصارت بمعنى كم والنون تنوين أثبت في الخط على غير قياس (من نبى) بيان لكأين (قاتل معه ربيون كثير) جماعات والربى من الربة وهى الجماعة (فما وهنوا) فتروا (لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا) عن العدو (وما استكانوا) وما خضعوا للعدو وهو من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد. (والله يحب الصابرين) لينصرهم (وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين). فأقام الله (بالاستغفار والالتجاء إليه تعالى) (ثواب الدنيا) بالفتح والنعمة (وحسن ثواب الآخرة) فى الجنة (والله يحب المحسنين) الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء (بأيها الذين آمنوا إن طيعوا الذين كفروا) المنافقين (يردوكم) إلى الكفر (على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ذلك أن المنافقين قالوا للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبيا ما قتل (بل الله مولاكم) ناصركم (وهو خير الناصرين) فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره. انتهى التفسير اللفظى.

كان الله تعالى يقول: إذا كنتم ذوى مبادئ شريفة وسنن قويمة فكيف تحزنون، وليست الحياة إلا بشراتها ولا هذه الدنيا إلا بالأعمال فيها، فإذا أصاب امرأ الضراء لأجل الناقب الشريفة فكيف يهن وهو من الأعلين؟ أو يحزن الفضلاء وقد امتلأت أفئدتهم بالإيمان بمبادئهم وأشربت قلوبهم العمل للفضيلة؟. فلما حياة عالية وإما مودة عاجلة؟ على أننى قد قسمت الأمر بين عبادى وجعلت الأيام دولا، فمن سره زمن ساءه زمن وكيف لا يكون ذلك؟ ألم أجعل الحياة جهادا. ألم أجعل بعضكم لبعض فتنة ثم قلت لكم أنصبرون؟ أو لست

قادراً أن أخلقكم ناعمين على فراش الراحة تأكلون كما يأكل الدود ، ولكن كلا ؟ إن سئق أن أجعل السعادة
 تابعة للأعمال ، ولذلك خلقت البضياء والحسد والغيرة والنافسة . فلم أذر الوحش في وجاره ولا الظبي
 في كئاسه ولا الأعرابي في باديته ولا النمل اللوحى إليه في قومه بل سلطت كلا على كل ليكون ذلك سائقاً
 لأعمالهم باعتباراً على فضائلهم مستخرجاً ما يمكن في غرائزهم ، وليس يكون هذا الوجود على غير هذا النظام .
 ألم تر إلى أهل قرطاجنة وهي مدينة قرب تونس كانت على شاطئ البحر الأبيض يسكنها أناس نزحوا من
 سواحل الشام يسمون القينقيين ، وقد حصلت بينهم وبين الرومانيين حروب متطاولة ، وكان من قواد
 القرطاجنيين [أنبيال المشهور] فذاق منه الرومانيون طعم الموت ، وقد أصلاهم ناراً حامية وأذاقهم العذاب
 المون فاتقض الرومانيون على نفس قرطاجنة وخربوها وفرقوا أهلها شذراً مذبذباً ، وانتصر الغرب على
 الشرق ، فقال حكيم من حكمائهم : إن موت أعدائنا موت لنا ، وستذهب دولتنا ، فقالوا له لماذا ؟ فقال لأن
 الأمة التي لا عدو لها بناؤها تصبح ساهية لاهية نائمة على وساد الراحة فهلكها الشهوات وتموت بالحشرات ،
 وكيف يظهر في أبنائها اللواهب أو ينبغ من بنينا الشجعان الجذابيح إلا بالعدو الكبير ، فذلك هو الذي يستخرج
 منها الفضائل وينقى عنها الرذائل باستعدادها لمناوئته واستبسالها لمخاربه . ولقد كان ما قاله ، وصنعت رومة
 وعظم أمرها وترفت فزقت كل ممزق في الأزمان القديمة وقامت على أقاضها أوروبا الحديثة . فهذا كله سر
 قوله تعالى « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فإذا لم تكن مداولة ، وتم الأمر لبعض الناس أطنام العيش
 الهنيء « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » ومتى بغوا وطفوا هلكوا بالبطنة والجهالة والترف
 والنعيم ، ثم قال أحسبون أن السعادة تنال بغير الأعمال أو الجنة في الآخرة بمجرد الإيمان ؟ ثم قال كيف
 تجهلون سنن الأمم السالفة في الأيام الخالية والدول الفاتنة ، وما الأنبياء إلا قواد الأمم في العلم والدين والأمم
 تراث ذلك عنهم ، فالأمر ليس إلى الأنبياء إنما هم مبلغون ورسول ، والرسول عليه البلاغ وعلينا الحساب ،
 وكيف تصون المرسل إذا مات الرسول . وكيف تذكرون رسالتي التي أرسلتها وأوامري التي أمرتكم بها إذا
 مات رسولي أو قتل ، وهل ذلك شأنكم فيما بينكم أن تعلقوا صلتكم بمن يكتبو فضلكم من الدين تودونهم من
 أمثالكم على حياة الرسل الذين يرسلونهم إليكم ، فكيف تجعلون صلتكم بي وعبادتي وطاعتي معلقات على
 بقاء رسولي ، فإذا مات الرسول فأنا الحي الذي لا يموت . أيها الناس إنما هي سنن أنزلتها وآيات أحكمتها
 وعلوم فيكم أفشيتها وحكم أبدعتها ، فكيف تعكسون الأمور وتضلون الجمهور وتذكرون النور ، وأنا الذي
 هديتكم فليس إيمانكم بي لأجل حياة محمد بل للسنن السنونة ، والأحكام للصوبة ، والمعلوم للفاشية ، والآيات
 القائمة ، وكيف يضلون بعد أن جاءهم الهدى فيعتمدوا على العظماء وكبار الدولة ، فإذا كان هذا في حق
 الأنبياء فكيف بغيرهم ؟ فإياكم أن تكونوا أسرى الأوهام فتعتمدوا على قوادكم أو تنهوا بموتهم ، فلتسكن
 الحية في الرؤوسين كالرؤساء . أقول ولعمري ما أضل أمة الإسلام ولا أضل نظاماً إلا الاعتقاد على الرؤساء
 والخضوع التام لملوكهم فاستبدوا بهم خاضعين وأذلوهم مخدوعين وقتلوا رجالهم واستحيوا نساءهم وهم خاضعون ؛
 ألم تعلموا أن العالم سائر على نظام محدود وسنن ثابتة ، وأن الآجال مقدرة في كتاب ، وليس ما أتم فيه إلا
 لترقية أنفسكم وتعليمكم وتهذيبكم فكيف تجنون ولا ينالكم إلا ما سيكون ونعمرات الأعمال ناجات لها ، فمن كانت
 همته للحياة وغنائمها أو لارتقاء النفوس للحياة الآخرة أوفى كل منهما على حسب نيته في همة . ألم تروا إلى
 الأنبياء قبلكم مع أنهم وجموعهم العظيمة . كيف صبروا على القتال وفازوا بالنوال ، ولم يهنوا لمصيبة ، ولم
 يضعفوا لمظيعة ، ولم يستنموا لأعدائهم بل ظلوا ثابتين ، ولو أتى أيها الناس جعلت التوز الدائم مكرمة
 والنعمة والعافية غاية هذه الحياة الدنيا لكان الأولى بها رسولي فإني منعه أن يدعو على الأعداء ، وقلت له

« ليس لك من الأمر شيء » ولم يفعل من الأمر إلا ما أوجبه إليه فأما ألا يكون له عدو فلا فأننا الذي خلقت الأعداء والعداوة وأمرتك بالمহারبة لظهور الفضائل .

فكانه سبحانه لما أمر رسوله بالصبر حتى منعه من الدعاء على الأعداء فلا يدعو باستصالحهم خاطب الشعب كله آمرا لهم بالثبات فلا يفرون من عدوهم، كأنه يقال لامناس من العداوة والأعداء للأنبيا وأتباعهم انظر إلى حكم الله عز وجل في القرآن، وكيف كان الصبر على مقاومة الأعداء وغيرهم أجل شيء؟ ولهذا المناسبة أذكر هنا قطعتين من الشعر نظمتهما: الأولى مترجمة من كلام (شكسبير) الشاعر الإنجليزي، والثانية تخميس لأبيات عربية .

القطعة الأولى

(فوائد الآلام الطبيعية للإنسان من شعر شكسبير الشاعر الإنجليزي)
يا صاحبي تنصبا نظريكما في حال متفانا ووجد النار
أو ماترون البدو في قفرو في شطف الحياة هنا وخبر قفار
أصق وأهنا من معيشة حاضر كالتقبر مطليا بذوب نضار^(١)
بل هذه الشجرات في القلوات أبهج منظرا في الصبح والإسجار
من ساحة الملك الرفيع عماده ما بين حصاد وبين ضواري^(٢)
إنا وإن كانت خطيئة آدم حقت علينا سنة الأقدار
فتابعت نوب الحوادث خلفه والصيف يتلوه الشتاء العاري
والثلج عض بناه والريح تزجرنا بطش الصر^(٣) والإعصار^(٤)
فأظل مرتعداً وتذرنى فما ذا كم سوى التعلیم والتذكار
عريت عن اللق الذميم وإنما آيات وعظ فصلت للقاري
إن الواهب كالمعاطب صورت شوها أقدت أعين النظار
إن الثواب حبة رقطاء في أنيابها السم الزعاف الساري
لكن في فيها جواهر أخفيت تزهو على التيجان يوم نغار
هذي الحياة وإن تكن في قفرة فالعلم فيها صفوة الأسرار
فصوامت الأحجار فيه نواطق والكتب في شجر ونهر جاري
فبأي آلاء الإله تكذبا ن وأنها قبس من الأنوار

القطعة الثانية

قال بعض القدماء :

عداى لهم فضل على ومنة
هو بحثوا عن زلتى فاجتنبها
فلمست بهياب لمن لا يهابنى
ولست أرى للمرء مالا يرى ليا
كلانا غنى عن أخيه حياته
وهم نافسون فاجتنبت للماليا
ونحن إذا متنا أشد تفتانيا
فلا أجد الرحمن عن الأعدايا

(٣) البرد الشديد .

(٢) الآساد .

(١) الذهب .

(٤) رياح تصمد كالسود من الأرض للسماء .

قللت محساة هذه الآيات :

إذا ما اعترفتني في الحوادث محنة تبتت نفسي في العارف سنة
وإن يحسد الأعداء بدت لي فطنة (عزاي لهم فضل علي ومنة
فلا أبعد الرحمن عن الأعداء)

لقد علموا آداب نفس سبرتها وهذبها حتى استقامت وصننها
ولم ألم الأعداء لابل شكرتها (م بمحوا عن زلتني فاجتنبها
وم ناسوني فاجتنبت للعاليا)

ولي حمة فوق الثريا تفتني فأنني عناني للفتي حين ينثني
وأضرب عنه الذكر صفحا ولا آتي (فلمت بهيباب لمن لا يهابني
ولست أرى للمرء ما لا يرى لي)

وإني امرؤ بالعلم أكل ذاته فلا طمع في الصحب إلا أماته
ولست أداري المرء إلا تفاته (كلانا غني عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشد تغانيا)

هذا ، ولترجع إلى أصل الموضوع فنقول :

قال الله تعالى أيها الناس لا تطيعوا الدين كفروا وهم المنافقون إذ قال بعضهم استكينوا لأبي سفيان
وأشباعه واستأنومم فإن تطيعومم يردوكم إلى دينهم ، وهكذا كل كافر ، فإن مطاوعته تدعو إلى النزول على
حكهم ومواقفهم .

ولمصرى إن هذا هو ما عليه المسلمون الآن ، فإن الله يقول هنا : (إن تطيعوا الدين كفروا يردوكم على
أعقابكم فتقبلوا خاسرين) ، ولقد صدق الله وعيده ، وحقت الكلمة على المسلمين الذين في زماننا والذين
قبلهم إذ طاعوا الفرنجة فاستذلوا لهم ، وشربوا خمرهم ، ولبسوا اللباس الذي ينسجونه في بلادهم ، ومن
الجهل الفاشي في أمة الإسلام اليوم الغفلة المستحكة ، والنذالة الفاشية ، والجهالة الفاشية ، واللؤنة العمياء ،
والدهاية الدهيئة ، أن الفرنجة ضحكوا على العقول ، وصقوا في الوجوه ، وأخجبوا النفوس ، فماذا فعلوا ؟
زينوا للمسلمين كل فسوق وفجور ، وأولع بهم للترفون والترفاء ولتلمسون في المدارس ، ولا يزالون يقلدونهم
ويشربون في حاناتهم ويأكلون في مطاعمهم ويذرون بيوتهم ، وإذا احتفلوا بظمانهم لا يهنا لهم ذلك إلا فبا
بناء الفرنجة في ديارهم كأنهم لا عقول لهم ولا أسماع ولا أبصار وهم لا يعلمون أن ذلك إخضاع لهم ، واستنزاف
لثروتهم وشين لسجيتهم ألا ساء ما يعمل الجاهلون . فهذه من طاعة المسلمين العمياء وجهالتهم حتى صاروا
عييدا خاضعين وأذلاء مسخرين ، وما تفتن لذلك إلا الرجل الحازم (غاندي) الزعيم الهندي . فهو الذي
أمر أهل الهند أن يلبسوا ما يصنعونه في بلادهم فقد عمل بمقتضى هذه الآية ، وإن كان لا يعلم ذلك والمسلمون
في الشرق الأدنى فافلون ، وسيقوم فيهم مرشدون وسيعلمون ويعملون . انتهى تفسير الفصل الثالث .

درس على ما حصل في أحد وتطبيق حال الأمم على هذه الأمة والاعتبار بذلك كاه

الفصل الرابع

سَمَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَأْلَمٌ يُنَزَّلُ بِهِ سُلْطَانًا

وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ
 حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
 الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ
 ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ
 فَأَنَابَكُمْ عَمَّا بَيْنَكُمْ عَمَّا بَيْنَكُمْ عَلَى مَفَاتِكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *
 ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَنفَسِي بِطَائِفَةٍ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
 يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ
 كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا
 قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي
 صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ
 يَوْمَ النَّعْيِ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا
 فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي
 قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَنْ نُقَاتِلَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ تُمْتَمُوا
 لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٍ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَنْ نُقَاتِلَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ تُمْتَمُوا * فَبِمَا
 رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
 وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ
 إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ
 وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ وَمَنْ يَمْلَأُ بِمَاءٍ غَلًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ
 مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ *
 لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنْي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوْلَا أَصَابَتْكُمْ
 مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْعِيمِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ
 نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْنَعْنَا كُمْ
 هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَن
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ
 أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ
 يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ
 وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ
 الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا
 لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ
 وَفَضْلِ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ سُوَاهُ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
 يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظي

لما قذف الله تعالى في قلوب الكفار يوم أحد الرعب نادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر لقبال
 إن شئت فقال صلى الله عليه وسلم إن شاء الله ، ولما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وأرادوا أن يرجعوا
 فالتقى الله الرعب في قلوبهم وهو قوله تعالى (سنلقى) قذف (في قلوب الذين كفروا الرعب) الخوف (بما
 أشركوا بالله) بسبب إشرائهم به (ما لم ينزل به سلطانا) أى آلهة ليس على إشرائهم حجة لهم ، وأصل
 السلطنة القوة (وما أوام النار وبئس مثوى الظالمين) النار (ولقد صدقكم الله وعده) إياكم بالنصر وشرط
 التقوى في ذلك والصبر فصرتم واتقيتم وضربتموهم فانهزموا وأتم على أنارهم (إذ نعسوهم) تقتلونهم من
 حسه : إذا أبطل حسه (بإذنه حتى إذا فشلتم) جبتهم لما لم تتقوا غالفتم وانطلقتم من أمكتكم إلى الغنيمة
 (وتنازعتم في الأسر) فقال قوم من الرماة منكم ما موقفتنا هنا وقد انهزم المشركون ، وقال آخرون لا تخالف
 أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت أمير الرماة عبد الله بن جبير في نفر يدور الشرة ونفر الباقون
 للهب ، فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة الذين ثبتوا مع عبد الله بن
 جبير فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على السلمين فانهزمتم (وعصيتهم من بعد ما أراكم مانعبون)

من الظفر والنعيمه وانتهزام العدو وجواب الشرط وهو إذا محذوف : أي أمتحنكم فكنتم عند الامتحان فريقين (منكم من يريد الدنيا) وهم التاركون مراكمهم (ومنكم من يريد الآخرة) وهو أمير الرماة ومن معه (ثم صرفكم عنهم) كصركم عنهم فقلوبكم (ليتليكم) على اللصائب ويمتحنكم أتصبرون؟ (ولقد عفا عنكم) تفضلا لما علم أنهم ندموا على مخالفة (والله ذو فضل على المؤمنين) في الابتلاء بالمصائب كما غداق النعم كلاهما فضل منه ، وقوله (إذ تصعدون) من الإصعاد : وهو الذهاب والإبعاد في الأرض متعلق بقوله ليتليكم (ولا تلون على أحد) ولا يقف أحد لأحد (والرسول يدعوكم في أخراكم) من خلفكم يقول « إلى عباد الله أنا رسول الله من يكره فله الجنة » ، وكان إذ ذاك فوق الصخرة ، وأول من عرفه كعب بن مالك رضى الله عنه ؟ قال : عرفت عينه تزهرا نحت للظفر فتأديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين أشرروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلى أن اسكت فأعجزت إليه طائفة من أصحابه فلامهم صلى الله عليه وسلم على الفرار ، ثم عطف على قوله « صرفكم عنهم » قوله (فأنا بكم غما) بما فاتكم من الظفر والنعيمه بما ذقتم من القتل والجرح وبما ممتع من الإرجاف بموت الرسول (بئس) بسبب اغتنام أذنتموه الرسول بصيانتكم له ، وإنما أنا بكم أي جازاكم هذه المجازاة لتتمرنوا على الشدائد وتقوموا على النوائب ، ومن عركه الدهر وأصلت ناره الحامية جسمه بلهيبها وذاق ألوان الشدائد وحلب شطري الدهر أصبح صلبا قويا ، بل لاسعادة لمن لم تقو الحوادث الجسمية ولا راحة لمن لم تركة الحوادث عركا ولم تدوب نار الحوادث جوهره في يوائق الآلام فيكون إذ ذاك معدنا قويا خالصا خلصته نار الحوادث ونفخ عليه الدهر في كبره فصار ذهبا إبريزا فكان ذلك التمرين (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) من منافع ترجونها (ولا ما أصابكم) من مضار ذقتم آلامها (والله خير بما تعملون) فقلبك جعل عملكم بين السار والضرار ابتلاء بالنعم وامتحانا بالنقم في سائر أطوار حياتكم ، ولكن هذه الحادثة أعظم الحوادث أثرا في حياتكم فهي جدية أن تجعلكم مستصغرين كل عظيمة من اللصائب فإنها أقل منها خطرا وأضعف أثرا (ثم أزل عليكم من بعد النعم أمانة) أمانة (ناسا) بدل من أمانة . عن أبي طلحة رضى الله عنه قال « كنت فيمن يشام النعاس يوم أحد حتى سقط سبي من يدي مرارا يسقط وآخذه يسقط وآخذه » وقال رفعت رأسى يوم أحد جعلت أراهم وما منهم يومئذ أحد إلا يمد تحت حجته من النعاس وقال نحوه الزبير بن العوام ، ومن قوله : إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يشان ما أسمع إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ، وهذا قوله تعالى يصف لفظ ناسا (يثقى طائفة منكم) وهم المؤمنون المخلصون (وطائفة) وهم المنافقون (قد أهمتهم أنفسهم) لا يهتمون إلا بخلصها (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) صفة ثانية لطائفة الذين يزعمون أن الأنبياء متحكمون في قضاء الله وقدره ، وأنه إذا أرسل نيا فكأنما أخرجه من طور البشرية ، وأجده عن كل فتنة وبلية ، وأصبح يقول للشيء كن فيكون ، وكيف يكون كذلك؟ ألم يرد في هذه السورة لنفس نبيكم صلى الله عليه وسلم « ليس لك من الأمر شيء » وحرمت عليه أن يدعو على أعدائه بالاستئصال ، بل قلت فوق ذلك إن ما في السموات وما في الأرض لى فى النفران ولى الرحمة ورحمى وسعت كل شيء فربما أسلم منهم قوم وربما أسلم أناؤهم ، بهذا يخاطب رسولكم ثم ترجعون إلى سيرة الجاهلية فيقول قائل منكم (هل لنا من الأمر من شيء) أي مالنا معاشر المسلمين من أمر النصر والقلبة على العدو شيء (قل إن الأمر) أى النصر والقلبة (كله قد) فليس لكم من الأمر شيء ، كما لم يكن لنبى من الأنبياء ذلك ، وإنما يعطيه الله لصابرين المؤمنين من فضله على حسب الاستعداد ومقتضى الحكمة ، وهذه الجملة المترضة بين صاحب الحال فى يقولون وبين الجملة الحالية وهى (يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك) لأن هذا القول فائحة الشك وظن السوء والرجوع للجاهلية الأولى كبعض عامة الأمم الذين يرون أن الله متى

اصطفى عبدا من عباده أعقد عليه النعم الدينية ، وأزاح عنه العلل البدنية ، وأرسل على أعدائه كل قاصمة للظهر قاطمة للعمر ، فأبده من الوجود كعاد وعمود أو قضى حياته في خود . ذلك رأى الجاهلين من أهل مكة الذين قالوا كما في سورة الإسراء « لن تؤمن لك حق تفجر لنا من الأرض ينبوعا » أى تفجر لنا من أرض مكة وهى قاحلة ينبوعا « أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تفجر الأنهار خلالها تفجيرا » أى يكون لك بستان يشتمل على ذلك « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا » أى قطعا « أو تأتي بأهه واللائكة قبلا » أى كقبلا بما تدعىه أو شاهدا على صحتنا لدركه ، وهكذا إلى آخر السائل الست التى اقترحوها ، كما ستره هناك إن شاء الله تعالى ، فهذا نوع آراء الجاهلية الأولى فى الأنبياء ؛ فالرسل والأنبياء فى نظرم فوق القدر مسلطون على السموات واللى والأرض وما حوت ؛ وهم أشبه بالعظماء فى الممالك للسببة الذين يأمرون فيطاعون ، وإذا كان هؤلاء مقرين من ربهم . فهذا معناه أنهم مسلطون على ملكه متى طلبوا أجيوا ، فهؤلاء لا يألمون من شىء إلا أهلكه الله ولا يطلبون شيئا إلا أحضره الله . هذا رأى الجاهلية بل هذا رأى العامة فى زماننا وفى كل زمان يرون أن العابدين الصالحين أمرهم كذلك ، وأن للقرب من الله هكذا يكون فيتملقون للصالحين العابدين لأجل أن يزجروا عنهم البلايا ويخرجوهم من مضى الشقاوات فى الحياة . هكذا هؤلاء الذين يقولون هل لنا من الأمر من شىء ، أى أليس نبينا محبوا لله ، والله هو المالك لهذا العالم ؟ وكيف يكون للمطفى المختار عنده مهزوما يجيشه مقهورا من أعداء الله وأعداء الرسول ؟ فلو كان نبيا ماسلط الله عليه هؤلاء الأعداء فهذا هو الذى أخفوه فى مضمون قولهم « هل لنا من الأمر من شىء » ثم أبان ذلك أشد إبانة وأوضحها فقال على سبيل الاستئناف (يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا) أى لما غلبنا وقتل من قتل منا ، فأجابهم الله على لسان رسوله يقول : أنا لم أخلق العالم بلا نظام وإنما أنا أبعده بسابق علم وأحكمته أشد إحكام ، فلكل امرئ مصرعه ولكل أجل كتاب ، ولكن جعلت الأسباب مقدمات للسبب لأرى فيكم الإرادة وأقوى المزجة وأستخرج من هذه اللادة اللظلمة غوسا مشرقة أفعل معها كما يفعل المختبرون ، فإذا أخرجتكم للحرب وحكت عليكم بالمزجة فى أحد فذلك لأبين لكم قوى المزجة وضعفها وأميز الحبيث من الطيب ، وهل يمتاز الذهب الإبريز إلا بإيقاد النار ، كما لا يمتاز الشجعان الصادقو الإيمان والمزجة إلا بالنوازل العظيمة والفواح المعيمة . فهذا قوله تعالى (قل لو كنتم فى يوتكم) فى المدينة (لبرز) لخرج (الذين كتب) قضى (عليهم القتل إلى مضاجعهم) أى إلى مصارعهم بأحد ، وإنما حكم الله بالحرب والقتال لحكم عنكم أخفاها ومحائب عليها (وليتلى الله) ويختبر (ما فى صدوركم) أى يظهر ما اختبأ فى صدوركم حتى يتبين لكم وللرسول القوى إيمانه والضعف فى دينه (وليحص ما فى قلوبكم) يظهرها من الشك والارتباب بما أعطاكم من الأمانة وما غشاكم به من النعاس وما أنعم عليكم به من صرف المدو عنكم ، فهذه دروس الإيمان ليثبتته فى قلوبكم (والله عليم بذات الصدور) بخصياتها وأنتم لاتعدون فلذلك أظهرها لكم بهذه الامتنانات التى ألقاها عليكم فى أحد ، فأنه عالم من الأزل وأنتم تعلمون الآن بما يظهر من العمل ، واعلموا أنها للؤمنون أن الذنوب يتبع بعضها بضا ، فلاحقها تابع لسابقها حذو النعل بالنعل ، وكل ذنب يستتبع ذنبا فيكون اللاحق عقابا على السابق كما يكون اللاحق من البرات كالثواب للسابق منها ، وهذا معنى قوله مبينا السبب فى ترك الرماة مراكرم وانطلاقهم إلى الغنمة (إن الذين تولوا) انهزموا (منكم يوم التقي الجمعان) جمع محمد صلى الله عليه وسلم وجمع أبى سفيان بأحد (إنما استزلهم) دعاهم إلى الزلة وحملهم عليها (الشيطان بعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم) تجاوز عنهم (إن الله غفور) للذنوب (حلیم) لا يعجل بالقوية ؛ ثم إن هؤلاء الذين تركوا مراكرم تبعمهم أكثر المحاررين ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا أربعة عشر رجلا

سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار وكان فيهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف
والزبير وسعد بن أبي وقاص (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم) لأجل إخوانهم
في النسب أو للذهب (إذا ضربوا في الأرض) سافروا فيها وأجدوا للتجارة أو غيرها فماتوا (أو كانوا غزوي)
لتجمع فازكفاه وعنى قتلوا (لو كانوا عندنا ما ماتوا) كما ماتوا في سفرهم (وما قتلوا) كما قتلوا في غزوم ،
هذه الجملة مفعول قالوا ، وإنما قالوا ذلك لتكون عاقبته أن يكون حسرة في قلوبهم ، فهذا قوله (ليجعل الله ذلك
حسرة في قلوبهم) فاللام لام العاقبة مثلها في قوله تعالى « ليكون لهم عدوا وحزنا » فرد الله عليهم قاتلا ،
ليس السفر والنزوهما سبب للموت ، لا الإقامة سبب الحياة (والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم
في سبيل الله أو متم) في سبيله ، وجواب القسم قوله (لنضرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) من الدنيا (ولئن
متم أو قتلتم) على أي وجه انفق هلاككم (إلى الله) لا إلى غيرهم (تحشرون . فبما رحمة) فبرحمة ، وما زائدة
(من الله لنت لهم ولو كنت فظا) سيء الخلق جانبا (غليظ القلب) قاسيه (لا تقضوا من حولك) تفرقوا
عنك ولم يكتفوا إليك (فاعف عنهم) فيما يختص بك (واستغفر لهم) فيما لله تعالى (وشاورهم في الأمر)
أمر الحرب وفي كل ما يصح أن يشاور فيه (فإذا عزمتم) وطنت نفسك على رأي بعد مشاورتهم (فتوكل
على الله) في إمضاء أمرك على ما هو أصح لك (إن الله يحب للتوكلين) الذين لا يترددون في أمورهم بعد إتمام
الشورة واتفاق الرأي فينصرهم (إن ينصركم الله) كما نصركم يوم بدر (فلا غالب لكم) فلا أحد يغلِبكم (وإن
يخذلكم) كما خذلكم يوم أحد (فمن ذا الذي ينصركم من بعده) من بعد الله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)
بإمضاء ما عزموا عليه بعد التفكير وأخذ سائر أسباب الحيلة كما حصل يوم أحد من صف الصفوف في الحرب
 وإقامة كل في مركزه وبالمخالفة انهزم الجيش . قيل إنه لما ترك الرماة مراكزهم قال صلى الله عليه وسلم لهم ألم
أعهد إليكم ألا تتركوا المراكز حتى يأتيكم أمرى ؟ قالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا ، قال النبي صلى الله عليه
وسلم بل ظننتم أنا نزل فلا تقسم ، فذلك قال الله (وما كان لبي أن ينزل) وما صح لبي أن يخون في الغنائم
والنبوة تنافي الحياة (ومن ينزل يأت بما غل) يوم القيامة (أي بالشيء الذي غله بجمعه على ظهره ، وقد جاء
في الحديث للتقدم في سورة البقرة عند الكلام على الشفاعة كالذي ورد في البخاري ومسلم « لا ألفين أحدكم
يحیی يوم القيامة على رقبته بغير له رضاء ، يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك .
لا ألفين أحدكم يحیی يوم القيامة على رقبته فرس له حممة ، فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من
الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يحیی يوم القيامة على رقبته شاة لها ثناء ، فيقول يا رسول الله أغثنى
فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يحیی يوم القيامة على رقبته نفس لها صباح ،
فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يحیی يوم القيامة على رقبته
رقاع تخفق ، فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يحیی يوم القيامة
على رقبته صامت ، فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك » اللفظ لمسلم : الرضاء :
صوت البعير . والثناء : صوت الشاة . والرقاع : الثياب . والصامت : الذهب والفضة ، وهذا القول كالتشليل لتلك
الحال التي يكون عليها الخائفون بعد الموت وفي يوم القيامة (ثم نوفي كل نفس ما كسبت) تعطى جزاء ما كسبت
(وم لا يظلمون) لا ينقص ثواب عملهم ولا يزداد في عقاب العاصين منهم (أمن اتبع رضوان الله) بالطاعة
(كن باه) رجع (بسخط من الله) بسبب للمعاصي (ومأواه جهنم وبئس للصير) الحال التي يصيرون إليها
مخالفة لحالهم الأولى (هم درجات عند الله) ذوو درجات (والله بصير بما يعملون) عالم بأعمالهم ودرجاتهم
فيجازيهم (لقد من الله على المؤمنين) أنهم عليهم نعمة خاصة بالهداية فوق النعم العامة للكافر والمؤمن
(إذ بث فيهم رسولا من أنفسهم) من نسبهم وجنسهم ليفهموا كلامه بسهولة (يتلو عليهم آياته) القرآن

(يرزقيهم) يظهرهم من سوء الطباع وفساد العقائد (ويعلمهم الكتاب والحكمة) القرآن والسنة (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) إن للتأكيد مخففة من الثقلية واسمها ضمير الشأن، أي الشأن كانوا من قبل مبته لفي ضلال ظاهر (أ) تظنون بأنه ظن الجاهلية الأولى وتضعون كذا وكذا (ولما أصابتكم مصيبة) يوم أحد بأن قتل منكم سبعون (قد أصبتم مثلها) يوم بدر بأن قتلتم سبعين وأسرتم سبعين من كفار مكة (قتلتم أي هذا) من أين هذا أصابنا؟ (قل هو من عند أنفسكم) مما اقترفته أنفسكم من الذنوب السابقة باختياركم الفداء يوم بدر واللاحقة بترك مرا كركم (إن الله على كل شيء قدير) يقدر على الضر ومنعه (وما أصابكم يوم التقي الجمعان) جمع للسليين وجمع للشركيين (فيأذن الله) فهو كائن بقضائه وقدره ليتليكم (وليعلم المؤمنون ويعلم الذين نافقوا) وليتميز المؤمنون والنافقون، ثم عطف على قوله «نافقوا» قوله (وقبل لهم تمالوا فأتوا في سبيل الله) للآخرة (أو ادفعوا) عن أنفسكم وأهلكم وأموالكم إن لم تكونوا موقنين بالآخرة (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم مستهزئين بالقتال لما في قلوبهم من المدغل كما روى أن عبد الله بن أبي سؤل لما أخذ بأصحابه يوم أحد كما تقدم وهم ثلث القوم، وقال ماندي علام قتل أنفسنا تبعه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري من بني سلمة وهو يقول يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم عند حضور عدوه أجاهه قاتلا؟ لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فقال الله (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) لتوليهم وكلامهم (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) يظهرهم خلاف ما يظنون (وإنه أعلم بما يكتمون) من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض، ثم أبدل من فاعل يكتمون وهو الواو قوله (الذين قالوا لإخوانهم) أي لأجل إخوانهم الذين قتلوا يوم أحد (وتعدوا) أي وقد قعدوا هم عن القتال أي حال كونهم قاعدين ومقول القول (لو أطاعونا ما قتلوا) كما لم يقتل عن لما قعدنا، وهؤلاء هم عبد الله بن أبي وأمثاله (قل فادعوا) ادفعوا (عن أنفسكم الموت) التي سيأتيكم لاحالة (إن كنتم صادقين) أنكم تعدون أن تدفعوا القتل عنكم كذب عليه (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) كالذين قتلوا في أحد والذين قتلوا بيد (بل) هم (أحياء عند ربهم) ذوو زلفي منه (يرزقون) من الجنة وهذا تأكيد لكونهم أحياء (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية (ويستبشرون) يسرون بالبشارة (بالذين لم يلحقوا بهم) أي بإخوانهم المؤمنين الذين لا يزالون أحياء ولم يقتلوا فيلحقوا بهم (من خلفهم) أي الذين من خلفهم في الزمان (ألا خوف عليهم) من وقوع محذور (ولاهم يحزنون) على فوات محبوب، وللعنى أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وأمر من تركوا من إخوانهم المؤمنين الباقين في الدنيا أنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدر صفوها فلا يخافون من مصائب تحل بهم ولا يحزنون لفوات منافع لهم، بل لانصب هناك ولا حزن، فقوله: «ألا خوف عليهم» بدل من الذين لم يلحقوا بهم، ولما ذكر استبشارهم بسعادة إخوانهم الذين هم أحياء سيموتون أخذ يذكر ما يستبشرون به هم لأنفسهم فقال (يستبشرون بنعمة) ثواب لأعمالهم (من الله وفضل) زيادة (وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) عطفًا على فضل، وقرئ بالكسر على الاستئناف. روى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا قبلوا الروحاء ندموا وهما بالرجوع فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فندب أصحابه للخروج في طلبه، وقال لا يخرج من معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه الفرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر وألقى الله الرعب في قلوب الشركيين، ففي ذلك يقول الله تعالى واصفا للمؤمنين (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) وروى أيضا أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت فقال

صلى الله عليه وسلم إن شاء الله ، فلما كان القابل خرج في أهل مكة حتى نزل بمر الظهران ، فأرسل الله الرعب في قلبه وبدا له أن يرجع فمر به ركب من عبد قيس يريدون المدينة لليرة فشرط لهم حمل جبر من زبيب إن تبطوا للمدين وهكذا لقي نعيم بن مسعود وشرط له عشرة من الإبل ، فلما التقى هؤلاء بالمدينين يتجهزون قالوا لهم إن أتوكم في دياركم لم يفلت منكم أحد إلا شريد ، أفتررون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ؟ ففتر المسلمون لما سمعوا ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام « والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل » ، وفي هذا يقول الله تعالى (الذين بدل من الدين استجابوا) قال لهم الناس (أى الركب من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي (إن الناس) أى أهل مكة (قد جمعوا لكم فاحشوم فزادهم) هذا القول (إيماناً وقالوا حسبنا الله) كافيناً الله ، من أحسبه إذا كفاه (ونعم الوكيل) ونعم للوكول إليه هو (فاقبلوا) رجعوا من بدر (بنعمة من الله) عافية وثبات على الإيمان (وفضل) في التجارة ، فإنهم لما أتوا بدرًا وجدوا بها سوقاً فأنجروا وربحوا وكانت بدر سوقاً في الجاهلية يجتمعون إليها كل عام ثمانية أيام فانتظروا بيدر أبا سفيان . أما هو فقد انصرف من مجنة إلى مكة وكان مع الصحابة نققات فباعوا فأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة غامضين (لم يحسبهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) تفضل عليهم بالثبات وزيادة الإيمان والتوفيق (إنما ذلكم الشيطان) للبط لكم كنيم بن مسعود المذكور (يخوف أوليائه) القاعدین عن الخروج مع النبي (فلا تخافوهم) لا تخافوا الناس الذين خوفكم منهم للشبطون (وخافون) في مخالفة أمرى (إن كنتم مؤمنين) انتهى القسم الثاني بفصوله الأربعة ، وفي هذا القسم اثنتا عشرة لطيفة :

اللطيفة الأولى : الشورى والتوكل

الشورى : استشار صلى الله عليه وسلم أصحابه أيخرجون من المدينة فيلاقون العدو أم ينتظرونه ، وكان تأويل الرؤيا أدعى إلى البقاء بالمدينة ، فلما رأى أكثر أصحابه أميل إلى الخروج من المدينة أطاع الأغلبية وحكم بأمرهم في القضية فلما أن لبس لامتة وعزم الأمر أرادوا منه عدولا ، فقال لهم لا وكيف يرجع الأنبياء عن عزمهم ، وقد لبسوا آلات حربهم فاستمعوا لأمره ، وقيل له هناك « فإذا عزمتم فتوكل على الله » .
فهاهنا أصبحت الشورى من الواجبات ، وإذا كان صاحب شرعنا صلى الله عليه وسلم يستشير قومه والوحي ينزل عليه فينزل على حكمهم ويسير بأمرهم . فبالت شعري كيف استبدت ملوك الإسلام ، وكيف تركوا الشورى في غابر الأيام ؟ ألا إنما القوم كانوا نياما ووالله لقد عجبت العجب كله فكيف ترك بعض المسلمين الشورى واستبدوا بأمرهم وظلموا في حكمهم ألا ساء مثلا القوم الجاهلون . لذلك فاجأهم الغريون وأذلهم صاغرين واتقصوا عليهم طامعين بعلوم حصيدا خامدين في القرون الأخيرة لما أفل نجمهم وتفرق جمعهم « فتعبوا في البلاد هل من عيمس » وقد آن أن يرجعوا لمجدهم وينالوا عزم وبوفوا حظههم وهم سالمون .

التوكل

أما التوكل : فهاهو ذا معروف في نفس هذه القضية فإن الله أمره بالتوكل بعد أن استشار القوم ورضى القوم ولم يبق إلا العمل . فهناك يكون التوكل والسير إلى الأمام والإقدام لا الإحجام والرضا بما سيكون . فإما الموت وإما النصر فيرضى العاقل إذ ذاك بما يأتيه .

فأما أولئك الجهال الذين يذرون التفكير والتدبير ويقولون هل من مجبر ، وقد تركوا جبل الأمور على غارها فهم للغرورون لا للتوكلون . إن التوكل بعد العزم ، فهذا قول الرسول الأمين وهذا قول رب العالمين فمن أين للناس بعد هذا نبيان ؟ . ولقد فسر الإمام التزالي ماروى في هذا اللقائم من أن سبعين ألفا يدخلون

الجنة بغير حساب من هذه الأمة ، وذكر منهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتون . فجعل الرقيا من الأمور التي من عادة الشفاء بها أن يكون موهوما لامظنوننا ولا محققا ، وكذلك السكي ليس طبيا لكل مرض بل لكل داء دواء جرت به العادة وغلب على الظن نفعه ، هكذا الطيرة والتفاؤل بالشر ، فذلك ليس دليلا على الشر ، وإنما هو أمر موهوم . فأما الأمور المظنونة المعتادة التي يغلب على الظن نفعها فهي التي يصح معها التوكل : كالطب للعلوم ، والزراعة ، والتجارة ، والصناعة ، والإمارة ، وما أشبه ذلك . فهذه يكون التوكل معها مشروعا والسير على سبيلها محمودا ، ولمعرك ما أجهد أكثر أهل العلم بالدين ، وما أبعدهم عن التحصيل ، وكيف يكون ديننا يأمر بالأسباب المقبولة ويمتنع من الدخول في الجنة (في تلك الرواية) بغير حساب على الأمور المقبولة المظنونة . فأما ما هو موهوم النتائج كما يفعله الدجالون لحكمهم أنهم لا يدخلون الجنة إلا بحساب لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم في الدنيا بل ظلوا على البلاء عاكفين وبالجملة قانمين وبالتواكل راضين ، وقد انغلخوا عن عقولهم وزلوا عن قلوبهم وعاشوا بحواسهم ومحسوساتهم ، ونامت عن العقول قوائم الناطقة فماتوا وهم غافلون فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .

اللطيفة الثانية

إمداد المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة بعد ثلاثة آلاف أو بألف

الإمداد بالملائكة يألفه الذي عكف على قراءة البيانات . فأما أهل النظر فأكثرهم يظنون ذلك مجازا أو لا يصدقونه ، ولقد ذكرنا في سورة البقرة الأدلة التي أدلى بها حكاه الأمم من ظنية وجدلية ووجدانية عند قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة » فلانظيلا هنا بإعادتها ، فأما معاوتهم للناس ومشاركتهم لهم في أعمالهم في هذه الحياة فهو الذي يحتاج إلى زيادة النظر وتدقيق الفكر فنحن في هذا القام بين أمرين : إما أن نجترى بالدين ونكتفي بالإيمان ونقول لانكلف فوق مانطبق ولا نقول إلا بالتحقيق . وإما أن نجد سبيلا للبحث وطريقا للتنقيب ووسيلة للبرهان ، ولقد ذكرت في كتاب الأرواح ماورد عن أجلة العلماء من أسلافنا والمعاصرين من الفرنجة ، ولست أذكره على سبيل البرهان ، ولكن لأطلعك على ماوصل إليه البحث البشري ، ولتدلي دلوك في الدلاء ثم تنظر كما نظروا . فاعلم أن العلامة الرازي . قال في سورة إبراهيم ما ملخصه : إن للنفس بعد الموت تساعد النفوس المشاكلة لها وتعلمها ، فإن كان في باب الخير سمى إلهاما ، وإن كان في باب الشر سمى وسوسة .

وهكذا نقلت فيه عن إخوان الصفا أن النفوس للتجسدة الشريرة في هذه الحياة شياطين بالقوة ، والنفوس للتجسدة الحيرة ملائكة بالقوة ، فإذا فارقت أبدانها صارت الأولى شياطين بالفعل ، والثانية ملائكة بالفعل أي كالملائكة وكالشياطين ، ولقد نقلت فيه عن الجمعيات النفسية المنتشرة في أوروبا شيئا كثيرا من الأسئلة التي وجهوها للأرواح التي ظنوا أنهم قد أحضروها بطرق علمية ، وسألوها أسئلة كقولهم هل ينال المخترع والعالم العون من الأرواح ؟ فكان الجواب يأتيه متى عمل كل مافي وسعه فإنها تلهمه بعض إلهامات فكرية ليكون الفضل إليه منسوبا والعمل له بكسبه ، ولو أن العون أعطى له بلا عمل منه ولا فكر ولا تنقيب لتساوى الجاهل والعلم والحامل والعامل .

فانظر كيف يرى بعض الفرنجة وأهل أمريكا وهم يمدون بشرات اللابيين (آلاف الألوف) إن هناك عالما روحيا يبين الناس في الأعمال الشريفة ، ولقد ذكرت ذلك في كتاب الأرواح وأنتيت بآية إمداد الملائكة للنبي وأصحابه وعجبت كيف أصبح العلم الحديث يقول مثل مافي القرآن بل القدماء والمحدثون معا .

إني لا أطيل القول بنقل محادثات الأرواح ، فإن ذلك شرحه يطول ، ولكن أذكر لك ما كتبتة تليقا على ذلك ، وهذا نصه :

حينئذ قلت يا شير محمد تأمل في هذا الحديث ألم تجد فيه علما جديدا في فهم القرآن؟ قال وماذا؟ قلت : قال تعالى (فلما قضينا عليه اللوت مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب للهين) فإن الجن أيام سليمان عليه السلام بقوا أمداً طويلاً مسخرين ، وكان سليمان عليه السلام متكئا على عصاه ، فلما أكلت دابة الأرض تلك العصا خرت على الأرض ، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في ذلك العذاب ، ولعلوا أن سليمان ميت ، ولا جرم أن هذه القصة ثمرتها ألا يتق الإنسان بأخبار الجن . هذا هو القصد الحقيقي منها ، ولقد نجى واضحا في هذا الحديث « ألا ترى أنهم لما سألوا الروح هل تستطيع الأرواح أن تكشف أمر المستقبل » فكان الجواب كلا! إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر .

ولما سألت الأرواح أليس مع هذا من حوادث يتنبأ الأرواح عنها وتم في حينها؟ فكان الجواب قد يتفق أحيانا أن الروح يستشعر حدوث بعض أمور يرى من الفائدة كشفها ، وهذا لا يمنع الأرواح الماكرة عن نشر النبوات الكاذبة ، ثم أفاد أن الأرواح الرصينة قد تستشعر بأمر يكون في الغالب متعلقا بحدوث لم تتم ولا يعلمها إلا الله فلا تقطع في جوابها .

أما الأرواح الطائشة : فلا يهملها أمر الحقائق . فتشتر الأخبار الكاذبة ، ولا جرم أن ذلك مغزى قصة سليمان عليه السلام ، وشرح ما انطوت عليه من العلم وبرهان صدق لما فيها من التوقف عن تصديق ما تلقى الجن من الأكاذيب اه .

ثم انظر يا شير محمد إلى قول الروح إن بعض الناس يستدلون على قرب موتهم ، ويحددون زمن وقوعه وإن هؤلاء الذين انطلقت أرواحهم من قيود الجسد ليهولهم أمر اللوت . أليست ترى يا شير أن هذا مصداق قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم . ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين) .

فتعجب يا شير كيف يقول تنزل عليهم الملائكة ليهولهم السرور والبهجة ويخاطبهم . وانظر إلى قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) فقد قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن البشرى قال « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » وتعجب يا شير مجد من قول الروح في هذا إن الطبيب إذا انكب على درسه بالاستقامة لابنية حشد المال وكسب للعارف بدون جد ولا عناء ينال مساعدة الأرواح العلوية ، أو ليس هذا من مساعدة الملائكة للمجدين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم » فلا علم بلا جد ونصب ولا حلم بلا تكلف وتصبر وجد ، وقال تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقال (وكل شيء عنده بمقدار) وقد علمت فيها مضي أن الأرواح لا تخص من مضوا من عالم الأرض بل هناك من هم أعظم وهم الملائكة للسكرمون ، ثم انظر قوله تعالى في سورة النحل (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بل إن الله عليهم بما كنتم تعملون) ثم قال (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) ثم قال (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أليس هذا يا شير يوصي إلى ما يقوله الروح هنا إن أرواحهم تطلع على ذلك عند انطلاقها من قيود الجسد ، ويبقى فيها ذكره عند البقطة ، فهؤلاء ليهولهم أمر اللوت ، ولا يرون فيه إلا انتقالا من حال إلى حال أو تغيير كساء خشن بكساء لطيف ، وهل يعطى من لا يستحق الحكمة؟ كلا اه .

ثم انظر إلى قوله فالأرواح الصالحة تساعدكم على تحمل المحنة ، ولكنها لا تدرؤها عنكم لأن بها خيركم الروحي ونجاح مستقبلكم ، وهذا قوله تعالى (وعسى أن تسكروها شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) وقوله (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) وقوله (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) ثم تأمل قول الروح ، وهذا بدء الفصاحات التي ستوهمهم من تعلقهم للفرط بالخيرات ، وقوله إن العدل قائم بحجية آمالهم فتعجب كيف كان مطابقا أشد المطابقة لقوله تعالى (فلا تسجك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليغذيهم بها في الحياة الدنيا وزهق أنفسهم وهم كافرون) وقوله تعالى (اللؤلؤ والنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) فجعل الله اللؤلؤ عذابا في الدنيا وفي الآخرة لمن تعلق بهما ولم يجعلهما وسيلة لارتقاء روحه ، ثم جعل اللؤلؤ والنون زينة الحياة الدنيا ، ولا خير إلا فيما بقي من الصالحات الباقيات .

وأما قول الروح : إن العلوم الأرضية ليست بشيء بالنسبة إلى العلوم السماوية . فهذا قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) وقول الروح لا يخفى أن غاية الروحانية هي إصلاحكم الروحي ، والفرض من كل الأمثلة والقالات التي تأتبعكم هو وقوفكم على حقائق ما بعد اللوت لتتجدوا من الأرضيات وتسعوا وراء السماويات . هذا وكثير أمثاله يفهم من قوله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يبلج الجمل في سم الحيات وكذلك نجزي المهزمين) ومفهومه أن الذين صدقوا ولم يستكبروا تفتح لهم أبواب السماء ، وقوله تعالى (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) ومفهومه أن الذين يرجون لقاء الله ، ولم يرضوا بالحياة الدنيا وجعلوها لجة ، واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا ، ولم يطمئنوا لها ، ولم يفتلوا عما أودع فيها من آيات الله فأولئك مأواهم الجنة بما كانوا يكسبون اه .

حكمة ومعجزة

ياشير محمد إن قول الروح هنا أيضا : إن الطيب ينال المساعدة من الأرواح العلوية ، وقوله في العالم والمخترع إنهما ينالان المعاونة من الأرواح العالية إذا آن وقت الاختراع - دال على مداخلة الأرواح في أعمالنا عند الاستحقاق . أليس هذا مطابقا لقوله تعالى في سورة آل عمران (ولقد نصركم الله بيدروا وتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفكم أن بمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ألا فانظر كيف رتبت الأرواح للمعونة للمخترع والعالم على الجهد والثابرة وهي لا تطابق الآية إذ جعل مساعدة خمسة آلاف من الملائكة موقوفا على الصبر والقوى وهجوم العدو ، أو لست ترى أن بيان الأرواح معجزة للقرآن . لقد كنا نسمع هذا ونكل عليه إلى الله تعالى فأصبحنا نرى نظائره عن الأرواح العالية أنفسها ، وقال في سورة الأنفال (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى بمدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يشيخ الناس أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فتبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب) .

فانظر كيف أمر اللائكة أن يثبتوا الذين آمنوا وأنه سيلقى في قلوب الذين كفروا الرعب فترى أن ما قاله الروح هنا من إلهام الأرواح الأحياء ومساعدتهم وإنارة بصائرهم موافق للآيات ، ومعجزة في هذا الزمان فتأمل اه .

الحياة بعد الموت

خطبة للسر أوليفر لودج العالم الإنجليزي المشهور في الحياة بمسد اللوت نقلت عن مجلة المجلات الإنجليزية من كتاب الأرواح للمؤلف ، وقد حذف منها ما تقدم ذكره في السورة ، منها : إذا صح أن الله موجود فلا وأنه يوحى إلى البشر ويساعدهم ، وأن الإنسان ليس منفردا على هذه الأرض السابعة في القضاء بل حوله كثير من الأعوان يعطفون عليه ويساعدونه ، وأن الله تعالى أخذ بيده في سيره إلى الحقيقة والسكال الأدبي ؛ إذا صح ذلك كان حقيقة تتضام في جنبها جميع الحقائق ، وقد يكون من الحضور من يعتقد أن الإنسان أرفع الكائنات وليس في الكون أعلى منه وأنه نشأ على هذا السيار أي الأرض وإذا مات اضمحل وأن ليس في الوجود من يعينه ولا من يفهم أسرار الكون أكثر منه وأنه أرفع الكائنات طرأ لأنه أرق ما وصل إليه النشؤ على هذه البسيطة في هذا العصر ، ثم قال :

وقد عرف الآن أن في الكون أراضى غير أرضنا هذه ، وقد يكون فيها من يقابل الإنسان من الكائنات ، ولكن ليس في الكون كائنات تختلف عنا ، وهل يجوز أن يعتقد أن كل كائن مدرك يجب أن يكون له جسم مادي مثل أجسامنا إن اعتقادا مثل ذلك لا مسوغ له ولا قام عليه دليل .

قد أظهر العلم ما في الكون من الانتظام وأن فيه عوالم كثيرة لا عالم واحد ، ولنا في الأجرام الفلكية مثال على أنه قد يكون في الكون كائنات كثيرة لا نعلمها ، إذ لو كان الهواء الجوي غير شفاف لما رأينا من الأجرام السماوية شيئا ولا علمنا بوجودها ، وليس احتجاب الأجرام الفلكية عن بصرتنا أمرا يعز حدونه ، فإن الضباب والقيم يحجبنا عنها أوقانا كثيرة ، ولكن اتفق لنا أن كان في إمكاننا رؤية ما وراء الهواء قرأنا شيئا من عظمة الكائنات وأنها غير متناهية ، ولست ساردا عليكم ما عرف من الحقائق الفلكية فإنكم تعرفونها وهي كثيرة غير محدودة ، وإن عقولكم لتقصر دون تصور حقيقة هذا الكون للمؤلف من عالم وراء عالم إلى ما لا نهاية له ، وجميع هذه العوالم خاضعة لنواميس واحدة ؛ لأن عناصر النجوم مثل عناصر الأرض وخصائصها في النجوم مثل خصائصها هنا . فهل الإنسان هو سيد هذا الكون العظيم ؟ إن الإنسان حديث المهد بالوجود على الأرض فما كان حال الكون قبل وجوده ، ليس الإنسان سيد الكائنات بل هو درجة من الدرجات في النشوء ، ثم قال :

إن الإنسان لا يسود الكون ولا يفهم أسرارها ، ولكنه يتلصق في الحقائق تلتسا ، وقد كشف حديثنا (الراديو) والأرغون (أشعة رتنجن) و (بعض طبائع الكهربائية) وقد بدأ الآن يعرف شيئا عن بناء الجواهر الفردة ، وتظهر هذه الأمور كأنها وجدت وهي غير جديدة بل كانت موجودة قبل أن نكتشفها ولولم نكتشفها لكانت موجودة أيضا ونحن لانعرفها ، وفي الطبيعة أيضا أمور كثيرة لم نكتشفها حتى الآن .

ولكن كم عمر العلم ليس عمره إلا قرونا قليلة بل قرنا واحدا لأنه لم يتقدم تقدما يذكر إلا في القرن التاسع عشر ، وقد عرفنا شيئا من حقائق الكون إلا أن ما عرفناه جزء من كل فلا يجوز لنا أن نتق وجود الكل ، لنا أن نبحث عن الحقائق والموجود موجود سواء عرفنا وجوده أم لم نعرف ، واعتقادنا بوجود شيء أو عدم وجوده لا يؤثر في الكون ولكنه يؤثر فينا . نحن لانعرف تركيب الجواهر الفردة ، ولكننا قد بدأنا نعرف شيئا عنه فكل جوهر يشبه النظام الشمسي في تركيبه ، وله نواة تقابل الشمس والكروونات

تدور حولها مثل السيارات حول الشمس ، وهذه الألكترونات خاضعة في دوراتها لنواميس مثل النواميس التي تخضع لها السيارات . ثم إن الجواهر الفردة غير محصورة في الأرض بل توجد في الشمس والسيارات ، وكل كواكب السماء تتألف منها كما تتألف منها الأرض ولا تعلم كل النواميس الجارية هي عليها حتى الآن ، ولكننا سائررون في السبيل للوصول إلى ذلك ، ثم قال :

ليس منكم إلا من رأى النمل يخرج من قريته ويعود إليها ولا يعرف كثيرا من أمور النمل في ذهابه وإيابه وأنا أظنه يدرك مايعمله بعض الإدراك وهو يدب بين أقدام الناس الذين مداركهم فوق مداركهم بكثير وماذا يعرف النمل عن اعتقادات الناس وآرائهم وأعمالهم ومداركهم ؛ إن لنا عبرة في أن الحيوانات التي مثل النمل تعيش بيننا ولا تعرف شيئا عنا ، وعندى أن في الوجود كائنات نسبتها إلينا كنسبة النمل إليها ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين شيئا عنها . إن حواسنا تعيننا على التوصل إلى إدراك بعض الأمور ولكنها قاصرة جدا . ولذلك نقوها بذرائع عديدة كالتلصكب واللكرسكوب ، ورغمنا من ذلك لانعرف عن الكون إلا القليل ، ولم نزل حولنا أمور كثيرة لاندركها ولكننا ندرك بعضها عن طريق غير الحواس ، وبقية الخطبة قد تقدم في هذه السورة .

هذه خطبة السير أوليفرلودج نقلتها لك من كتاب الأرواح بخدافيرها ولم أختصرها ، وتركتها بطولها لأغراض ثلاثة : الأول أنه أثبت فيها أن أرواحنا باقية بعد اللوت . الثاني أنه أثبت أن هناك عوالم أعلى منا ، وأن نسبتنا إليهم كنسبة النمل إلينا وأنهم يحيطون بنا . الثالث أنه أثبت أن هؤلاء يساعدونا ويفكرون في أمرنا ، هذه أمور ثلاثة جاءت في الخطبة ؛ لذلك أثبتنا كلها . إن الله في هذه السورة ذكر فيها يأتي أن الأرواح باقية بعد اللوت . قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وهذا هو الأمر الأول ، وذكر الله في الأمر الثاني والثالث أن له ملائكة وأن هؤلاء للملائكة يساعدون الناس المخلصين في أعمالهم .

عجبية في أمر الأمم الإسلامية اليوم

قد قرأت خطبة اللورد أوليفرلودج ، وهذا العالم عالم طبيعي . بل هو أكبر علماء الطبيعة في أوروبا ، وهذه الخطبة خطبها أيام الحرب الكبرى كما تراه مصرحا بذلك فيها . يخطب أوليفرلودج في مجمع من قومه ، وقنابل الألمان تنساقط في أنحاء بلادهم ، والمذاب واقع بأمتهم . والغازات الحارقة محيطة بهم ، يقف فيقول : إن أرواحنا باقية وإن لله عوالم أرقى منا ، وإن هذه العوالم الروحية تساعدنا وتعاوننا . هذه أعمالهم في بلادهم .

أما بعض الذين تعلموا في بلادنا المصرية وبعض البلاد الشرقية ، فماذا يقولون ؟ يقولون نحن علماء عظام لماذا ؟ لأننا قرأنا الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو لنتين من ذلك ، وقرأنا بعض العلوم ونحن نحمل الشهادات فنحن أممي نظرا وأعقل وأرقى فكرا من جميع المسلمين الجاهلين الذين يؤمنون بأموال لا يقبلها العقل . يقولون نحن نبقى بعد اللوت ، أو أن هناك ملائكة ، أو أن هناك إمدادا من السماء بأولئك للملائكة ، إن القرآن والكتب السماوية لم تنزل إلا لأمم أقل منا علما ومدنية فلنعمل كما فعلت أوروبا ، ولنكفر بهذا كله ، ومتى كفرنا به انطلقت عقولنا من عقلمنا ، وعرفنا هذه الدنيا ، وحينئذ نستقل ، وتكون لنا جيوش جرارة .

هذا ما يسره كثير من أهل العلم اليوم وبعضهم به يجهرن ، فنمل هؤلاء يقال لهم إن ادعاءكم أن هذه الأمور خرافات واستنادكم على تكذيب أوروبا لها وادعاءكم أن التكذيب بها رقى للصمران ، وسعادة للبلاد كلها قضايا لا يقول بها الصبيان .

فإن أوروبا التي تدعون أنكم عرفتم علومها هذه الحظبة نموذج لعلماء الطبيعة فيها ، ولو كان القوم مغفلين مثل الغرورين من صفار للتلمين في الشرق لقالوا للخطيب السابق نحن الآن في حرب فذبح الحرافات وانتابا ما يفيدنا في هذه الحياة ، وليس هذا الوحيد في هذا العمل بل هناك آلاف وآلاف أفضل منه في هذا الشأن ، فهذه الطائفة من التلمين في الشرق مغرورة جاهلة مخدوعة ظنت أن تعلم اللغة إدراك للعلم ، وهذه أيضا فضيحة فإن اللغة ليست علما وإنما هي مقدمة للعلم ، وهؤلاء قرءوا اللغة ومارسوا العلوم التي ألفت فيها ولو قرءوها ما فهموها لأنهم لادارية لهم بتلك العلوم ، كما أن الإنسان الذي يجهل الهندسة أو علم الجبر ، وما علمان مؤلفان باللغة العربية لا يعرف مقصودها ولا يعقلها ، وكيف يعقلها وما محتاجان إلى اللوقف للعلم ؛ فاللغات شيء والعلوم شيء ، فأعرف بهذا اللباز أهل زمانك وادرس أخلاق الأمة الإسلامية ونبه الغرورين منها إلى طريق الرشاد .

اللطيفة الثالثة : (ليس لك من الأمر شيء)

لقد ذكر في تفسيرها ما يفيد أن الرسل يجري عليهم القدر كما يجري على العالمين ، فالخير والشر مقروران في قرن يجريان على البر والفاجر والعالم والجاهل ، ولكن أرباب النفوس العالية من الأنبياء والحكماء يكون الشر مصابحا يضيء لهم ، والخير سلاحا يجاهدون به في سبيل الإصلاح ؛ ومفاتيح كل شيء بيد الله ولم يستثن من الإصابة أحدا ، وتراه كلف الآساد باقتناص السباحات البارحات من الغزلان ، وحكم على الثور والصقور أن لا تتناول غير اللحوم فكل لكل رابض وله مجاهد إنماء للقوى وإسعادا للنفوس والأجسام ، فالخير من الشر وهما متلازمان صنوان لا يفترقان .

اللطيفة الرابعة : (والله ما في السموات وما في الأرض)

قد قدمت في هذه السورة أن ذكر السموات والأرض يختلف باختلاف المواضع كالأستدلال على وجود الله بآية (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا) وآية (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك الخ) للدليل على الوجدانية إلى آخر ما قدمناه هناك ، وتزيد الآن أن قوله هنا (وما في السموات وما في الأرض) ذكره ليفيد البرهان على أنه ليس للنبي صلى الله عليه وسلم من الأمر شيء كأنه يقول : وكيف يكون لك يا محمد شيء حتى تدعو على أعدائك بالاستئصال ، ولي ما في السموات وما في الأرض فكيف تطلب من إيمانهم أو نحاول إزهاقهم وإرهاقهم ؟ وكيف يكون ذلك وأنا الغفور الرحيم ، فلي أن أرحمهم فأغفر لهم بأن يصبحوا مسلمين ، فإن رحمتي وسعت كل شيء بطرق أخفيها وأعمال محجوبة أخبارها عن العالمين .

اللطيفة الخامسة : تحريم الربا

لقد مر شرحه في سورة البقرة عند آية الربا ، وكيف كان تحريمه أعجوبة الدهر وغريبة العصر ، وكيف أصبحت الدول تحرم استعماله وتريد إهماله وأنه سبب انتقاص العمران وهدم البنيان ، وفساد هذا الإنسان وضياع البلاد وذل العباد فقامت البلشفية وقبلها الاشتراكية ، وكل ينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وانظر كيف كان تحريم الربا في هذا اللقاه مسطورا ؟ وبعد الحرب في أحد مذكورا ، ولعمري ما علاقة الربا بالحروب . إن العلاقة واضحة جلية ظاهرة بهية ، ألا ترى أن الحرب لا تقوم لها إلا بالسلاح ولا فوز لها إلا بالكراع ولا بد من جند لها يعملون ، وفلاحين للأرض يزرعون ، وصناع للآلات يقيمون ، ومهندسين للسائق واللدن يصلحون وطرق البخار يسلكونها وقطرات عليها وعلى الفلك في البحار يحملون .

فإذا فشا الربا في البلاد افتقر العاملون ، وذلّ الملاحون ، وبش من الرواج التجار ، وبارت صناعة الحداد والتجار ، فهذا سر ذكر الربا في هذا اللقمان ، وقد وفيت اللقمان حقه في سورة البقرة عند آية الربا .
اللطفة السادسة : الجنة والنار

اعلم أن الجنة والنار قد أفضنا الكلام عليهما في سورة البقرة عند قوله تعالى (وأنوا به متشابهها) واليوم نعيد السكرّة لهما بتحقيق أجلى ، وإيضاح أكمل ، وأحاديث مرفوعة ، وآراء مشروحة ، وعلوم حديثة ، واكتشافات صريحة فنقول : (١) قد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أرواح الأنبياء صلى الله عليه وسلم عليهم ليلة أسرى به في السموات سماه سماه ، آدم في سماه الدنيا ، وعيسى ومحيي في الثانية ، ويوسف في الثالثة ، وإدريس في الرابعة ، وهارون في الخامسة ، وموسى وإبراهيم في السادسة والسابعة . قال ابن حزم فصح ضرورة أن السموات هي الجنات (٢) عن صفوان بن يحيى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « البحر من جهنم أحاط به سرادقها » وقال تعالى (والبحر المسجور) أي للوقد . روى « أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحر نارا تسجر بها نار جهنم (٣) عن ابن عباس عن كعب « والبحر المسجور يسجر فيكون جهنم » (٤) قال عبد الله بن سلام « وإن الجنة في السماء ، والنار في الأرض » (٥) قال علي بن أبي طالب ليهودي : ابن جهنم ، قال في البحر . قال عليه الصلاة والسلام « ما أظنه إلا قد صدق » وعن ابن مسعود قال « الأرض كلها يومئذ نار ، والجنة من ورائها ، وأولياء الله في ظل العرش » (٦) أخبر تعالى أن أرواح الكافرين لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة ، فإذا من فتحت لهم أبواب السماء دخلوا الجنة كما قاله بعض القدماء (٧) أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شدة الحر من فيح جهنم ، وأن لها نفسين : نفسا في الشتاء ، ونفسا في الصيف ، وأن ذلك أشد من الحر والبرد ، وأن نارنا أبرد من نار جهنم بتسع وستين درجة » (٨) وعنه صلى الله عليه وسلم « أن آخر أهل الجنة دخولا فيها بعد خروجه من النار يعطى مثل الدنيا عشر مرات » وقال أيضا « إن الدنيا في الآخرة كأسبع في اليم » وقال الله تعالى (وجنة عرضها السموات والأرض) وقال أيضا (عرضها كعرض السماء والأرض) . (٩) عن ابن عباس قال « ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء » (١٠) قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وقال تعالى (وفتحت السماء فكانت أبوابا) وقال تعالى (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) وقال تعالى (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ولللك على أرجائها) وقال تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) وقال تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) هذه الآيات والأحاديث هي التي أردت جمعها لتكون أساسا لما ينبغي عليه من العلوم الحديثة التي كشفها علماء العصر الحاضر في أوروبا لتعجب من أمة الإسلام النائمة نوما عميقا والأمم من حولها باحثون متقنون عارفون بنظام الكائنات ، وعجائب الآيات ، وغرائب المصنوعات ، وهم عن العلم معرضون ، وعن البحث ساهون لاهون ؛ وقد يعلم المرء ثم يحين أن يدلى بلمه للناس لقصور في نفسه وخور في عزيمته وجهل بأطراف الموضوع فاسمع لما ألقى إليك ، وتعجب من العلم وهيبته ، والعرفان وصولته ، والحكمة وجمالها ، وآيات الله وكاملها .

الأرض كرة نارية

لم يدرك بخلد أحد من العصور السالفة والأمم الغابرة أن الأرض التي نحن عليها نار ، ولم يكن في تصور أحد منهم أننا على قشرة كقشرة البطيخة أو كقشرة البيض في الثخن داخلها نار متأججة . فانظر كيف ورد في الأحاديث أن البحر نار ، وأن البحر من جهنم أحاط به سرادقها ، ولم يكن أحد يعلم أن فوق الهواء بردا قارصا حتى لو دخلت فيه رأس آدمي لصارت ثلجا في جزء صغير من الثانية .

نحن الآن بمقتضى الكشف الحديث بين زهرير فوق كثرة الهواء البالغة نحو ٦٠ كيلومترا ، وبين نار في باطن الأرض ، وقد ورد في الأحاديث السالفة أن النار تشتمل على أشد البرد وأشد الحر ، وانظر كيف نجد ببال النار القائمة في العالم ، وأقربها إلينا في مصر جبال إيطاليا ، ومن عجب أتى قرأت في الجرائد أيام تأليف هذا التفسير أن بركان (اتنا) قد غلا وفار فلا سمحك ماقالتك الجرائد ووصفته الكتب

بركان اتنا

هذا البركان واقع إلى الشمال الشرقي من جزيرة صقلية (سيبيليا) والبركان جبل مخروطي الشكل على التال ، له قمة عالية تحيط بها جبال وهضاب نارية ، وفي قمته فوهة تخترقه إلى باطن الأرض فتذف منها اللواد المختلفة من نار ودخان ومقدوفات ملتهبة أو سائلة ، وقد يكون في الجبل أكثر من فوهة واحدة كما في بركان اتنا الذي أحصى فيه أكثر من ٨٠ فوهة .

وتكون البراكين غالبا في الجزر الصغيرة أو على شواطئ البحار ، وقلما نجد بركانا في وسط القارات ، وإذا وجد كان دليلا على أن ذلك للسكان كان بحرا أو شاطئ بحر في الأزمنة الغابرة .

أما علة البركان فهي الحرارة الشديدة السببنة للأرض التي تصهر اللواد وتبخر اللبأ وتحوّل اللجوامد إلى سوائل ، والسوائل إلى أبخرة وغازات فتتمدد هذه اللواد بتأثير الحرارة ، ويضيق عليها السكان فتمزق القشرة الأرضية ، وتفتح فيها منفذا تندفع منه إلى الخارج .

وتذف اللواد القابلة ، والغازات واللحم من باطن الأرض إلى علو شاهق ، وتحوّل الأبخرة إلى أمطار غزيرة ، ثم إلى سيول عظيمة تكتسح البلاد كما هو واقع الآن في جزيرة سيبيليا .

وبحسن أن نشير في هذا المقام إلى نحن القشرة الأرضية بالنسبة إلى باطنها للشتمل ليتين ضعف هذه القشرة ومطاوعنها للعوامل . فقد ذهب العلماء إلى أن ثخنها لا يزيد على ٩٠ كيلومترا مستدلين على ذلك بما عرفوه بالاختبار من الآبار الارتوازية وغيرها من أن حرارة الأرض ترتفع درجة واحدة بميزان سنتيغراد كلما تعمق فيها الإنسان ثلاثين مترا . فعلى عمق ٣٠٠٠ متر لزم أن تكون هذه الحرارة ١٠٠ درجة ، وعلى عمق ٩٠ كيلومترا لزم أن تكون ٣٠٠٠ درجة بميزان سنتيغراد ، وهي الحرارة التي تصهر جميع اللعاند والسخور . لذلك يحزم العلماء بأن القشرة الأرضية لا يمكن أن يزيد ثخنها على ٩٠ كيلومترا؛ أي أنها أقل من جزء واحد من مائة وأربعين جزءا من قطر الأرض ، وأقل من نحن قشرة البيضة بالنسبة إلى البيضة عينها . وللقادير التي تذفها البراكين من اللحم والسوائل المحرقة أعظم مما يتصوره العقل ، وفي سيول اللحم التي تندفق من اتنا الآن ، وتقول التفرفافات الأخيرة إن عمقها زاد على ٨٠ قدما ، وعرضها على ٦٠٠ متر أعظم دليل على ذلك .

وقد ذكر التاريخ أن اللواد التي خرجت من بركان (تمبو) في جافانا سنة ١٨١٥ غطت سطح البحر في دائرة بلغ قطرها ٢٠٠ ميل ، وهذا ما يكفي لأن يغطي بلاد إيطاليا كلها بطبقة من اللواد البركانية علوها قدمان ونصف قسم .

ومن عجب أن تكثر الزلازل العظيمة أيام هذا التفسير ، أو لم يكن ذلك تدريبا على التفكير وتذكيرا بالعلم ؟ بل ، فلم يقف الزلازل في هذه السنة عند حد إيطاليا بل تجاوزها بعد ذلك إلى اليابان ، قامت فيها قيامة الزلازل وأذكرت بما في القرآن من تدمير للدن وهلاك الأمم فجأة والناس لا يشعرون .

وليس يهمننا إلا للباحث العلمية والمجانب الكونية والنار الكروية في باطن الأرض فقد جاء في البرق والبريد أنه حدثت زلزلة تشعشع من هولها الأبدان ، وذلك في ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣ . جاء فيها أن اليابان

نسبت اليوم بأعظم ماتتكتب به الأمم مما لم يسمع به البشر إلا في أقدم العصور التاريخية (التي يقال له الانقلاب الجيولوجي) لما كانت القارات تتحول بفعل الزلازل إلى بحار ، والبحار إلى جزر ، والجزر إلى قارات . زلزال غارت به الجبال فصارت وهادا ، وارتفعت البحار فصارت أطوادا ، وصهرت الصخور فصارت رمادا ؛ لما شعر السكان به حتى أصبحوا حمما ، وهوت منازلهم فوقهم فكانت لهم رجما فأصبحت مدينة (بوكوهاما) خرابا (وتوكيو) وهي العاصمة الجميلة صارت طعمة للنار ، وقد قتل في بوكوهاما وحدها أكثر من مائة ألف نسمة غير من قتلوا في توكيو .

والزلازل اهتزاز في الأرض دفعة أو دفعات متوالية بالقوة الطبيعية يحدث قبل وقوع الانفجارات البركانية ، وفي أثنائها وبعدها ، ونارة يكون بغيرها . وقد أحصى علماء طبقات الأرض ستة آلاف وستين زلزالا إلى الآن ، وأعظم الزلازل ماتتكتب به اليابان ، فقد قتل فيها خمسمائة ألف إنسان ، ودمر القسم للتوسط من الأمبراطورية على مدى ستائة كيلومتر تقريبا ، وطلعت للياه على مدينتين فدمرتهما تدميرا ، وعلى شواطئ البحر فدمرت كل مدينة على شاطئه .

واعلم أن جميع بقاع الأرض معرضة للزلازل ، ونحن ربما لا نشعر بزلزلة تكون في ديارنا مثلا مع أن عدد الزلازل التي تحدث كل سنة تبلغ (٣٠) ألفا أي نحو مائة زلزلة كل يوم وأكثرها هزات لطيفة . وقد تحدث في البحار فلا يشعر أحد بها ، وذلك لأننا فوق كرة نارية مضطربة دائما ، وليس يعجزها عنا إلا تلك القشرة التي ترى مستعدة دائما للاهتزاز والاضطراب بما يحصل فيها من الانكماش والاعوجاج في كل حين .

فوازن أيها الذكي أوصاف هذه البراكين بما جاء في الأحاديث ، فقرأ كلام ابن عباس ، وكيف يقول: البحر للبحر يسجر فيكون جهنم ، وكيف يقول عبد الله بن سلام: إن النار في الأرض ، وكيف يروى أن البحر من جهنم أحاط به سرادقها ، وكيف يقول الكشاف الحديث كما ترى: إن البراكين لا تكون إلا في الجزر الصغيرة أو على شواطئ البحار ، وكيف يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: إن نارنا هذه أبرد من نار جهنم ٦٩ درجة ، ثم ترى فيما قرأت أن عمق ٩٠ كيلومترا تكون النار فيه ٣٠٠٠ درجة بميزان ستينغراد وأن هذه الحرارة تصهر جميع المعادن والصخور وبيننا وبين تلك النار قشرة الأرض التي لا يزيد نخبها على ٩٠ كيلومترا ، فهي أقل من جزء واحد من مائة وأربعين جزءا من قطر الأرض ، وأقل من قشرة البيضة بالنسبة إلى البيضة .

فصل هذا تكون النار هناك في باطن الأرض وفق ما في الحديث ، فإذا كانت فيما يلي قشرة الأرض تبلغ ٣٠٠٠ درجة أعنى قدر النار التي تنلى ثلثاء ٣٠ مرة ، فكيف يكون مقدار ما بعد ٩٠ كيلومترا أخرى وهكذا ، فإذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن نار جهنم قدر نار الدنيا ٦٩ مرة» ، فإننا نقول قد كشفه العلم الحديث ، وإذا قال الله تعالى (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) فذلك أصبح معروفا ؛ فالزمهرير من فوقنا ، والسعير من تحتنا ، وكلاهما من جهنم كما في الحديث المتقدم ، وتعجب من قوله تعالى «المحيطة» والإحاطة أقرب ماتكون في الدوائر والكرات ، ولاجرم أنيائين كرتين كرة زمهرير يفصلها عنا الهواء وكرة النار نجيبها عنا القشرة الأرضية ، وقوله تعالى (لمحيطة بالكافرين) ربما يشغل عليك فتقول: هي محيطة بالكافرين وللمؤمنين ، نقول ماتقوله حق ، ويكون نظيره ما قاله الله تعالى في القرآن (فلا تمجيك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليذهب بها في الحياة الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون) فإنه قيل هناك: إن الأولاد والأموال معذبة الكافر والمؤمن ، ولكن للمؤمن الذي أدرك الحقائق يرى أن هذا العذاب مع الصبر يورث الأجر في الآخرة فكأنه بهذا ينجو من العذاب باعتبار ما له . هكذا هنا إنها تحيط بالجميع ولكن المؤمن يعمل للنجاة .

وتسبب أيها الدكي كيف ترى أن مافوق القشرة الأرضية من للمادن والنبات والحيوان تصير نارا ، وتنقلب سعيرا متى أحاطت بها النار ، وترى النار متى لامست الحشب والثياب والقش اتقد فصار نارا ، وذلك كله يشبه أن يكون مؤيدا لقول علماء العصر الحاضر : إن الأرض من الشمس ، والشمس ملتية نارا ، والكواكب في مبدأ أمرها تكون نارا ، والسيارات كانت نارا ، ثم أخذت تبرد شيئا فشيئا ، والقمر من الأرض ، ويرد قبلها لصغر حجمه ؟ أفلمت ترى أن العالم الذي نحن فيه تحيط به النار من سائر أطرافه ، وهذه النار مغمورة في الزمهرير .

الماء يكون نارا

والماء مركب كما تقدم من الأكسجين والهيدروجين ، وقد علمت فيما تقدم أن الأكسجين وهو الجسم المحرق ٨ أضعاف ، والهيدروجين تسع واحد في الوزن ، فسكان الماء ٨ من ٩ منه نار ، فالبخر يكاد يكون نارا وتحت البحر القشرة الأرضية وتحتها النار المحرقة العظيمة .

قلة علينا بهذه العوالم

اعلم أي قبل اطلعى على هذه الأحاديث ، ونظري في هذه الآيات ما كان ليخطر لي أن أذكر مثل هذا القول بل كنت أعدته كفرا وجهلا ، وهكذا أنت أيها الدكي قبل أن تقرأ هذه الآيات والأحاديث كنت تعده كفرا ، فإن الجنة والنار مرجعهما أنهما مجهولان جهلا عاما ، ومن فتح باب الكلام فيهما يمثل هذا عدا كفرا أو مبتدعا أو فاسقا ، ولكن لما رأيت هذه الآيات والأحاديث التي رأيت ابن حزم جمعها ، وذهب إلى أن الجنة في السماء ، والنار في الأرض ؛ ثم اطلعت في العلم الحديث فرأيت العجب العجيب ، وأن هناك تطابقا غريبا بين الدين وبين العلوم العصرية أردت أن أطلعك عليها وأقرب المعاني بنائية ما يمكنني ، ثم أحذرك أن تنقف عندما رأيت مما ذكرت في النار وما سأذكر في الجنة ، فأنا لست أقول إن هذا هو العلم الذي تنقف عنده ، فرجاء جاء المستقبل بما نجعله نحن ، وجاء علم لم نعهده ، والقرآن يجب ألا يقف عند كشف ولا يقطع بأن هذا معناه .

فانظر كيف يقول ابن حزم بأن الجنة قسمان : قسم هو السموات السبع ، وهي الجنات السبع ، وقسم هو الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض ، وهو الكرسي ، والقسم الأول وهو السبع عرضها السموات والأرض وأن الأبواب الثمانية في كل سماء باب ، وفي الكرسي باب ، وأن العرش فوق أهل الجنة ، وهو محل لللائكة ، وليس من الجنة في شيء ، وقوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله) بيان جلي بأن على العرش جرما آخر فيه اللائكة ، وقال إن البرهان قام على ذلك من علم الهيئة .

هذا قول العلامة ابن حزم ، وأنت خير أن هذا مبنى على الفلك القديم وقد ظهر بطلانه . فانظر كيف طبقه العلامة ابن حزم عليه ، ولما ظهر بطلانه واطلعنا عليه أردنا أن نطلعك على العلم الحديث في النار وفي الجنة ، ولكننا نقول لك حذار حذار أن تجعل ما نقوله هو نفسه معنى القرآن والحديث بل هو احتمال نقوله وعليك أنت أن تترقب العلم الحديث والبحث والتنقيب ، فإنك لو جعلت القرآن لا يحتمل إلا هذا ، وأتى العلم بما لم نعرفه في زماننا انقلب علم الناس جهلا فيكون التعليم ضلالا والعلم وبالا والجزم به خبالا ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله فلا سمحك ما اطلعنا عليه في الحديث .

الجنة

سأسمك ملخص ما جاء في كتابي للسمى (الأرواح) من تعاليم الأرواح فقد أحضروا في أوروبا روح

العلامة غاليليو الشهير بالعلوم الفلكية على يد الوسطاء للجمعية الباريسية الروحانية في خلال سنتي ١٨٦٢ و ١٨٦٣ . قال غاليليو :

أفضل تحقيق أطلق على الفضاء أنه مسافة تفصل ما بين جرمين فاستنتج بعض الفالطين من هذا التحديد أن لا وجود للفضاء حيثما انتفى وجود الأجرام ، وإلى هذا بدأ أسند بعض اللاهوتيين رأيهم في ضرورة تنامي الفضاء وعدم إمكان تسلسل أجرام محدودة إلى مالاتناه له . الفضاء لفظة تدل على معنى مفهوم بذاته لا يحتاج إلى التعريف وما قصدى بهذه المقالة إلا أن أبين لكم عدم حده وتناهي .

أقول : إن الفضاء لا حد له بدليل أنه من السهول تصور حدود تحده إلى أن قال : وإن شئنا أن نمثل في ذهننا الحدود عدم تنامي الفضاء فلتصور أنفسنا طائرين من الأرض نحو إحدى جهات الكون بسرعة الحرارة الكهربائية التي تقطع في الثانية ألوفا عديدة من الفراسخ . فبعد طيراننا بثوان قليلة لامتدود الأرض تترامى لنا إلا ككوكب حقير ضعيف النور جدا ، وبعد قليل تتوارى عن نظرننا بالكلية ، والشمس ذاتها لا تلوح لنا إلا كنجم حقير متوغل في أقاصى الفلا وعوضها تتجلى لأعيننا نجوم عديدة لانكاد نميزها في المهلة الأرضية ، وإذا لبثنا طائرين بالسرعة ذاتها تقطع في كل هنية عوالم متجمعة ، وسيارات ساطعة ، وبقاعا زاهية ثر الله فيها العوالم كما ثر الزهور في مروجكم الأرضية .

على أنه لم يمض على سفرنا إلا دقائق قليلة ، وقد تأينا عن الأرض ملايين في ملايين من الفراسخ ، ورأينا ألوفا في ألوفا من العوالم ، ولكن لدى التحقيق لم نخط بمد ولا خطوة واحدة في الكون ، وإذا استقام سفرنا البرقي لادقائق وساعات بل سنين وأجيالا وألوفا وملايين في ملايين من الصور والصور فلما لانكون مع هذا قد خطونا خطوة واحدة في طريقنا ، وذلك إلى أي صوب أنجهنا وأية نقطة انتجينا من تلك الكرة الحقيمة التي بارحناها وأتم تدعوها أرضا . هذا ما عندي من تعريف الفضاء .

وأما الزمان فهو كالفضاء لفظة معبرة بنفسها غنية عن التحديد ، وقد يسوغ أن ندعوه تعاقب الأشياء بالانتهاية . فلتصورن أنفسنا في بدء عالمنا أي في عصر بدأت فيه الأرض تتبختر تحت النعمة الإلهية وبرز الزمان من مهد الطبيعة السرى . قبلها كانت الأبدية ساكنة ، والزمان يجري مجراء في عوالم أخرى ، ولما برزت الأرض إلى حيز الوجود استبدلت فيها الأبدية بالزمان ، وأخذت السنون والقرون تتعاقب على سطحها حتى اليوم الأخير أي ساعة تبلى الأرض وتمحى من سفر الحياة ، ففي ذلك اليوم تتعاقب الأشياء ، وتزول الحركات الأرضية التي كانت مقياسا للزمان أيضا . فينتج من هذا أن الزمان يتولد من تولد الأشياء وينقضى بانقضائها وهو بقياس الأبدية كنقطة سقطت من عباب الجوى في البحر فتختلف الأزمنة على اختلاف العوالم ، وخارج هذه التعاقبات الفانية تسود الأبدية وحدها وتعلأ بضياها فلوات الفضاء التي هي غير محدودة ، ففضاء لا حد له وأبدية لا قرار لها هما الخاصيتان العظيمتان للطبيعة العامة ؛ وإذا كان الزمان تعاقب الأشياء الزائلة ومقياسها ، فإذا جمعا ألوفا في ألوفا من القرون والأحقاب لا يكون هذا المدد إلا نقطة زهيدة في الأبدية ؛ كما أن الألوفا في الألوفا من الفراسخ تعد نقطة حقيرة في الفضاء ، وإذا مضى على حياتنا الروحية عدد من القرون يوازي قدر ما يكتب على طول خط الاستواء فإنه ينقضى هذا المدد الجسيم والنفس كأنها اليوم ولدت .

وإذا أضفنا إلى المدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض إلى الشمس وأكثر ، فإنه ينقضى هذا المدد الذي لا يدرك قياسه من القرون ، والنفس لا تنقدم يوما واحدا إلى الأبدية ، ذلك لأن الأبدية لا حد لها ولا قياس ، ولا يعرف لها بدء ولا نهاية ، فإن كانت القرون المذكورة كلها لا تمتد ثانية بقياس الأبدية ، فما أهمية عمر الإنسان على الأرض ؟ .

إذا ما ألقينا النظر إلى ما حولنا رأينا اختلافا جسيما وتميزا جوهريا في كل للواد اللؤلؤ منها العالم . فانظر إلى كافة الأشياء طبيعية كانت أو صناعية ، وانظر ما أعظم التأثير في صلابتها وضغطها ووزنها وسواها من الخصائص التي يتميز بها الهواء مثلا من عرق الذهب والنقطة اللائية من الحجارة المعدنية والأنسجة النباتية للتنوع من الأنسجة الحيوانية على اختلاف طبقاتها ، ومع هذا نستطيع أن تثبت بوجه الإطلاق أن كل للواد المعروفة والمجهولة مهما عظم تباينها وكثر تنوعها إن هي إلا أشكال وأعماط متفننة تظهر فيها مادة أصلية واحدة تحت فعل القوى الطبيعية للتعدد .

إن الكيمياء التي بلغت اليوم عندكم درجة رفيعة من التقدم ، وقد كانت تصد في أيام من متعلقات العلوم السحرية قد قوضت مسألة العناصر الأربعة التي أجمع الأقدمون على تركيب الطبيعة منها ، وأثبتت أن العنصر الترابي إن هو إلا تركيب مواد متنوعة في تفنناتها إلى مالا انتهاء له ، وأن الهواء والماء قابلا التحليل وهما مركبان من بعض الغازات ، وأن النار ليست بعنصر أصلي بل حالة من المادة ناتجة عن نوع من الحركة العامة يوجبها احتراق حسي أو كامن ، وبمقابلة ذلك كشفت الكيمياء عددا وافرا من العناصر المجهولة منها تتألف كل الأجرام المعروفة وممتها عناصر بسيطة إشارة إلى أنها أولية غير قابلة التحليل إلى ما هو أبسط ، ولكن فعل الطبيعة لا يقف حينئذ وصلت تقديرات الإنسان وحكم إرادته بل للتبع بنظره إلى ما يجاوز حد المعرفة البشرية لا يرى في كافة العناصر المركبة والبسيطة إلا مادة واحدة أصلية تتجمع في بعض النواحي لتنشأ منها العوالم ، وتتفنن أشكالا وأنواعا في مدار حياتها ، وتعود إلى مأوى القضاء بعد انقراضها .

من للسائل ما منجز نحن الأرواح للفرمين بالعلوم عن التعمق فيها فلا تأتي لحلها إلا بأراء شخصية مبنى أكثرها على أقيسة افتراضية . أما مسألة وحدة المادة فلا شبهة فيها ولا تخمين ، ومن يأخذ قولي على عمل الافتراض أقول له : استوعب إن أمكن بنظرك تفننات أعمال الطبيعة كلها فتحقق يقينا أنه بدون وحدة المادة يتعذر عليك شرح نبات أصغر بذرة وتناج أحقر دوية . وأما الباعث على تنوع مآزاه في المادة فهو تباين القوى التي تولد أمر تحولاتها ، والظروف التي كانت عليها قبل نشأتها إنما جوهرها في الأصل واحد ، وكل ما يقع أو لا يقع تحت نظرك من الأجرام والسوائل فهو صادر من مادة أصلية واحدة مائة الكون الذي لا يحد .

إذا كانت إحدى الدويبات الصغيرة التي تفضي حياتها الوجيزة في قعر البحار ، ولا تعرف من الطبيعة إلا أسماك وغابات المياه نالت نجاة من العقل ما مكنتها من درس عالمها ، وأخذت تقيس أفكارها في الكائنات ، فما عسى يكون تصورهما للعالم الأرضي الذي لا يقع تحت نظرها إذا بمعجزة أخرى بها انتقلت هذه الدويبة من القعر إلى ما فوق المياه بالقرب من جزيرة غناء اكتست بمروج زاهية ، فأى تمييز يطرأ على أفكارها السابقة وكل تنوع دائرة تصوراتها ، ولكن ما زالت هذه دون الحقيقة . هذا بيان حال علومكم النظرية في الحاضر يابني البشر .

إن سيالا عاما يملأ الفضاء الذي ليس بمحدود يتفد في الأجرام بأسرها يدعى الأثير أو المادة الأصلية ، ومنه تولد كافة العوالم والكائنات . فهذا السبال تلازمه أبدا القوى أو التواميس الطبيعية للتولية تقلبات للمادة ومسرى العوالم .

وهذه التواميس المختلفة على اختلاف تركيبات المادة ، ولتفنن في أنواع فعلها على مقتضى الظروف والراکز تصرف في أرضكم بالثقل والتلاصق والنسابة والتجاذب واللفناطيسية والكهربائية ، ثم حركات العامل الاهتزازية تدعى عندكم صوتا وحرارة ونورا الخ .

وأما العوالم الأخرى فتظهر هذه النواميس تحت أوجه أخرى وبخاصيات مجهولة عندكم ، وإن في سعة السموات التي لا تعدّ فتنتات من القوى نعجز نحن عن إحصائها ، وتقدير عظيمها كما تعجز الدويبة في قمر البحار عن استيعاب كافة الحوادث الأرضية .

وكما أنه لا وجود في الأصل إلا المادة واحدة بسيطة تتولد منها كافة الأجرام والتركيبات المهيولة . هكذا كل القوى الطبيعية صادرة عن ناموس أصلي واحد يتفنن في مفاعيله مما لا انتهاء له فرضه الخالق منذ الأزل ليقوم به نظام الخليفة وبهاء الكائنات ، إن الطبيعة لاتضاد ذاتها ، وشعار الكون هو ذا الوحدة في التفنن ، فإن صعدت في سلم العوالم وجدت وحدة النظام والحلقة مع تفنن لا يعرف حدّه في تلك الأجرام الفلكية ، وإن أجت بنظرك في مراتب الحياة من أحقر الكائنات إلى أعلاها وجدت وحدة التناسب والتسلسل . كذلك القوى الطبيعية كلها صادرة بالتسلسل عن قوة أصلية واحدة تدعى بالناموس العام .

يتعذر عليكم في الحاضر استيعاب هذا الناموس في شمول اتساعه لأن القوى الصادرة عنه والداخلية في دائرة أبحاثكم محدودة مقيدة إنما قوتنا التجاذب والكهربائية تفصحان لكم نوعا عن الناموس العام الأصل الشامل السموات والكائنات . فكل هذه القوى الثانوية أزلية عامة كالحلقة وبملازمتها لسيال العام تعمل ضرورة في كل شيء وفي كل مكان ويتنوع عملها بالمقارنة والتعاقب تغلب في مكان وتمحى من آخر ، يظهر فعلها هنا عاملة أبدا في تجهيز العوالم وإدارتها وحفظها وملاشاتها متولية أعمال الطبيعة ومجزئاتها حينما قامت ضامنة على هذه الصورة بهاء الحلقة الأزلية ونظامها الأبدي .

بعد أن تأملنا بوجه عام في تركيب الكون ونواميسه وخصائصه بقي علينا أن نشرح كيفية تكوين العالم والبرايا ، ثم تنتقل بعدها إلى تكوين الأرض ومركزها الحالي في البروات . لقد أبنا سابقا ما الزمان وما نسبته إلى الأبدية ، وأن هذه وحدة ثابتة وبالتالي لا بدء ولا نهاية ، ثم إذا لاحظنا من جهة أخرى عدم تنامي القدرة الإلهية حكما ضرورة بوجود أزلية الكون لأنه منذ وجد الله كملت كالاته القدسية ، وبما أن الله من ذات طبعه أزلى سرمدي اقتضى أن يكون عمله أزليا سرمديا أي لا بدء له ولا نهاية^(١) فإذا تصورنا لعمل الله بدءا ، ومهما كان هذا البدء في محبتنا بيذا قاصيا يسبقه دائما أزلية — زنوا جيدا ذلك بقلكم — أزلية لا قرار لها لبثت فيها إرادة الله القدوس مينة عن العمل وكلته بكاء ووجه عقبا . إن الله شمس الكائنات ونور العالم فكما إن ظهور الشمس يصحبه ضرورة انتشار النور هكذا الله يصحبه ضرورة فعل الحلقة وظهور البرايا .

أي لسان يستطيع أن يصف تلك المظالم الباهرة المسترة في دجى الدهور التي تلاحق سنائها في عهد لم يكن قد ظهر بعد فيه شيء من عجائب الكون الحالي ، تلك الدهور القاصية التي أسمع الرب فيها كفته فاندفعت تيارات المياه والدرجات لتشيد بتجمعها للهندم هيكل الطبيعة الذي لا يعدّ . ذلك الصوت السرى الكريم الذي تجله وتهواه كل خليقته وبريته للموقفة به ارتجت الأفلاك وسبحت عجائب الرب .

إذا انتقلنا بالنكر إلى بضعة ملايين من الأجيال قبل العصر الحالي نجد الأرض لم تبرز بعد إلى حيز الوجود والكواكب لم تتولد من النظام الشمسي في حين أن شموسا لا عدد لها كانت تسطح في أقاصى السموات وترسل أشعتها إلى كواكب لا يحيط بها إحصاء ، وعاش بها من سبقنا من الأحياء في مضمار الإنسانية وأنظار أخرى تمتت بعجائب طبيعية وغرائب سماوية لم يبق لها اليوم من أثر ، وقلوب وعقول لا عدد لها كانت تسجد وتعظم قدرة البارئ التي لا تنتهى ، ونحن أولاء الحاضرين الذين برزنا إلى الوجود بعد أزلية من الحياة نريد أن ندعى معاصرتنا للخلقة لنذكرن أمر الطبيعة جيدا . أجباني لتعلمن أن الأبدية وراءنا كما هي أمامنا وأن القضاء مرشح تعاقب وتماقب فيه خلقات لا عدد لها ولا انتهاء .

فلك المبررات التي تميزونها في أقاصي السموات إن هي إلا تجمعات شمس منها ما هي في بدء تكوينها ، ومنها آلهة بالأحياء ، ومنها ما بلغت دور الأعطاط .

وبالاختصار كما أننا قائمون في وسط غير متناه من عوالم . هكذا نحن عاثون في دوام أزلي سابق وأبدى لاحق لوجودنا الحاضر ، وأن فعل الحلقة ليس بمقصود عليكم ولا على كرتكم الحظيرة .

إن للمادة الأصلية نحوى في ذاتها العناصر المهيولية والسيالة والحيوية التي تألفت منها كل العوالم المنتشرة في كل ساحات الفضاء . فهي أمّ ثور لكل الكائنات والوالدة الأزلية لكل الأشياء ، فلا يمكن أن يترتها نقص أو تلاش ، إذ تعطى الوجود من دون انقطاع عوالم جديدة ، وتستقي بلافتور من الأصول التكوينية من العوالم التي بدأت تمحي من سفر الحياة ، وهي للمادة الأثيرية أو السيل العام للمالي* الأجرام ، وفيه مستقر العنصر الحيوي الذي به تحيا كل خليفة عند ظهورها على سطح سيار ، لما من خليفة معدنية أو نباتية أو حيوية أو غيرها . إذ توجد مواد أخرى ليس في وسعكم أن تصورها . ألا تأخذ عند نشأتها نصيبا من هذا العنصر الحيوي ، وينفاده ينقض أجلها ، فالسيل العام إذن لا يحوى في ذاته فقط النواميس القائم بها حفظ العوالم بل به تنشأ في كل عالم للواليد الفرزية الأولية التي تبنت من غير زرع ، وذلك عند سنوح الظروف لللائمة للحياة على سطح الكرة .

لقد ضربنا إلى الآن صفحا عن ذكر العالم الروحي الذي هو أيضا قسم من الحلقة العامة ، ويتم مارسمه عليه البديع العظيم من التقادير الأزلية ، على أن لا أستطيع أن أتوسع في كيفية خلفه الأرواح نظرا لجهلي بالمسألة وعدم إجارتى بأن أبوح بأمور تيسر لي التعمق فيها فقط . أقول لمن تطلب الحق بخلوص النية وتواضع القلب إن الروح لن يشرق عليه النور الإلهي لينال به مع الاختيار للعتوق معرفة ذاته ونصبيه من الاستقبال إلا بعد أن يكون قد جاز بقضاء محتوم في مسجبة النسب السلفية من البرايا وفيها أنجز يبطه فروض شخصيته ، ففي ذلك اليوم بسم الله جهته بوسم مثاله ، ويخترط الروح في سلك الإنسانية فقط حذار من أن تبثوا على مقالى استدلالكم النظرية إذ أحب إلى ألف مرة أن أطوى كشعا عن مسائل تفوق حد نظري من أن أعرضكم لافساد تلميحي واستنتاج أقيسة وقواعد لأس لها .

حدث مرة أنه في نقطة من الفضاء ، وفي وسط مليارات من العوالم تكاثفت للمادة الأصلية فتولد عنها مجرة أمى سحابة نيرة لا يكاد يدرك قياسها ، وبقوة النواميس العامة للمستقرة فيها وخصوصا التجاذب في الدقائق أصابت الشكل الكروي ، وهو الشكل الذي تصيه في البدء كل مادة تجمعت في الفضاء ، ثم تثير شكلها الكروي بقوة الحركة الدورية الناتجة من التجاذب للتساوي من كل الناطق في الدقائق نحو للركز وأصابت الشكل المدسى ، وتولد عن حركتها هذه الدورية قوات أخرى أخصها قوة الجاذبة والداصة ، فالأولى تميل بالأجزاء إلى للركز ، والثانية تمدها عنه ، وتمازمت سرعة حركة المجرة على قدر تكاثفها ، واتسع نصف قطرها على قدر تقربها من الشكل المدسى إلى أن تملبت القوة الداصة على الجاذبة واقتلمت من المجرة الدائرة الهيطة بخط الاستواء؛ كما أن حركة التقلع تقطع الجبل بزيادة سرعتها وتدفع القذيفة إلى بعد ، ثم اقلبت تلك الدائرة للتقلع عن المجرة إلى كتلة قائمة بنفسها ، ولكنها خاضعة لولاية المجرة الأولى ، وبقى لها حركتها الاستوائية فتضيرت إلى حركة انتقالية حول الجرم الأصلي وأكسبها حالتها الجديدة . هذه حركة أخرى دورية حول مركزها الداني .

ثم عادت المجرة الأصلية إلى شكلها الكروي بعد أن ولدت طالما جديدا ؛ ولما كانت الحركة الأصلية للتولدة عن حركاتها المختلفة لا تضغف إلا يبطه كلى كان الحادث الذي أتينا على ذكره يتكرر مرارا متعددة

وفي مدة مديدة إلى أن تبلغ الهجرة درجة من الكثافة تحول بمناتها دون التغيرات الشكلية الصادرة عن حركة دورانها حول مركزها ، فليس جرما واحدا بل مئات من الأجرام تتطلع على النسق المذكور من الهجرة الأصلية ، وكل من هذه العوالم لاحتوائه على القوى الطبيعية ذاتها المستقرة في الجرم الأصلي سينتج أجراما ثانوية تدور حوله كما يدور حول الهجرة الأصلية بصحبه سائر الأجرام للفرع منها ، وكل من هذه الأجرام الثانوية سيكون أيضا شمساً أي مركزاً لكواكب جديدة تتفرع منه بالطريقة التكوينية ذاتها ، وما الأرض إلا إحدى هذه السيارات كتبت في حينها في سفر الحياة ، وأصبحت مهذا لخلائق ضعيفة تكلفها عين العناية الربانية اليقظة ، وجاءت وترا جديدا تعزف في عود الطبيعة العامة السبعة لعجائب الله .

وقد تفرع من السيارات قبل تجردها أجرام أخرى صغيرة اقتطعت من دائرة خط الاستواء ، وأخذت تدور على محورها وحول الجرم الأصلي بقوة النواميس العامة ذاتها . فتولد من الأرض القمر ، ووجد قبلها لصفوحه ، إنما القوى التي تولت اقتلاعه من خط الاستواء الأرض وحركته الانتقالية في هذا الحط فعلت فيه ما جعلته يصيب الشكل البيضا بدلا من الكروي فأصبح على شكل بيضة مركز ثقلها في أسفلها وفي وسطها ، لهذا لستم ترون في هذا الجرم إلا جهة واحدة ، وهو أشبه بكرة من القلين قاعدتها من رصاص وهي الناحية للتجهة دائما إلى الأرض . فينتج من ذلك أن على سطح العالم القمري طبيعتين في غاية التباين والاختلاف : الأولى وهي الناحية للتجهة دائما إلى الأرض لأماء فيها ولا هواء ، وفيها تجمعت كل الأجزاء الجامدة الغليظة لوجود مركز الثقل فيها ، والثانية التي لا يقع عليها قط نظر أرضي حاوية كل السوائل والمواد الحقيقية وهي متجهة أبدا إلى الناحية المخالفة للعالم الأرضي .

واختلفت الأجرام المتفرعة من السيارات عددا وأحوالا ، ومن السيارات ما لم يتفرع منها شيء كعطارد والزهرة ومنها ما ولدت قرا أو أكثر كالأرض والشتري وزحل الخ ، وهذا الكوكب أي زحل ولد عددا الأقمار حلقة نيرة ، وهذه الحلقة عبارة عن منطقة انفصلت في البدء عن خط الاستواء في زحل كالمنطقة الاستوائية التي انفصلت عن الأرض فصارت قرا . إنما الفرق أن منطقة زحل متكونة عند انفصالها من دقائق متجانسة الجوهر ، وربما كانت متجمدة بعض النجم ، فلهذا بقيت تدور حول الجرم الأصلي بسرعة تكاد تعادل سرعة الجرم ذاته . فلو كانت المنطقة متكاثفة في إحدى جهاتها أكثر من سواها لتجمعت حالا كتلة واحدة أو كتلات متعددة تصبح أقمارا جديدة تضاف إلى ما كان لزحل من الأقمار الأخرى .

وأما النجوم ذوات الأذنان فقد توهمها البعض عوالم في بدء نشأتها يجهز فيها بواعث الوجود والحياة كما في السيارات ، وافترضها غيرهم عوالم آخذة في الeros والتلاشي حتى النجومون أنفسهم كانوا يتشاهمون بها كدلالة التحس والبلايا . على أن المطلع على تفتتات وأعمال الطبيعة يتره العجب لأقيسة افتراضية بناها الطبيعيون والفلكيون والفلاسفة ليؤيدوا بها أن اللذنيات سيارات حديثة أو عتيقة في حين أنها ليست هي إلا كواكب متقلبة كرواد في الممالك الشمسية ، وما أعدت لتكون كالسيارات مساكن آهلة بالبشر ، بل اختصاصها أن تنتقل من شمس إلى شمس لتستقي منها الأصول الحيوية للنسبة فتفيضها فيما بعد على العوالم الأرضية .

فلنتبعن بالفكر أحد النجوم اللذنيات عند بلوغه البعد الأقصى من الشمس ، ولنقطعن تلك السعة اللديدة الفاصلة ما بين الشمس وأقرب النجوم ، ولتأملن في سير هذا اللذنب للتنقل فتجد فعل النواميس الطبيعية تمتد إلى حد لا تكاد الخيلة أن تصيبه ، فهناك يطرؤ سيره إلى حد لا يتجاوز جسنا الأذرع في الثانية بعد أن كان يسير الألوف من الفراسخ في كل لحظة عند قرب دنوّه من الشمس ، ولا يبعد أن تنقلب عليه عند هذا الحد

شمس أخرى أشد قوة ونفوذاً من التي بلرحها فتجذبها إلى دائرة فلكها وتخصيه في عداد أتباعها، وعبثاً ينتظر بعدها بنو أرضكم رجوعه في وقت عينته أرسادهم النافسة . أما نحن فنجوز معه بالفكر إلى تلك الأقطار المجهولة فنجد فيها من العجائب ما لا يتوصل قط إليه تصور أرضي .

قلّ منكم من لم يلحظ في الليالي الصافية الخالية من القمر سحابة نيرة منتشرة من أقصى السماء إلى أقصاها تدعونها درب التبانة أو المجرة ، وقد كشف لكم عنها مؤخرا الرصد ، فرأيتم فيها ملايين من الشمس معظمها أبهى نورا وأوسع حجما، وأهمية من شمسكم ، إن المجرة هي بالحقيقة حقل فسيح زرعت فيه زهور شموس وكواكب تتلاوأ في أرجائها الرحبة ، فالشمس وكافة السيارات والأجرام التابعة لها زهرة واحدة من تلك الزهور اللثورة في حقل المجرة ، وعدد هذه الزهور أي الشموس لا يقل عن الثلاثين مليوناً بعد كل منها عن الأخرى أكثر من ثلاثة آلاف ألف ألف فرسخ ، فمن هذا يستدل على سعة تلك المجرة الممتنع تصورها وصغر شمسكم بالنسبة إلى باقي الشموس ثم أن حقارة بل عدم أرضكم ليس بالنسبة إلى حجمها وسعتها اللادية غيب بل فوق ذلك إلى أحوال سكانها الأديبة والعقلية .

ثم إن المجرة ذاتها مع ملايين شموسها ليست شيئا بالنسبة إلى الألوف من المجرات المنتشرة في أقاصى الفضاء . إنما تظهر أوفر سعة وسناء من سواها لإحاطتها بكم ووقوعها تحت دائرة نظركم في حين أن المجرات الأخرى متوغلة في أقاصى السموات فلا يكاد يستشفها مرصادكم ، فإذا علم أن الأرض ليست بشيء في عامة المجرات ، وعامة المجرات أيضا ليست بشيء في سعة الفضاء الذي لا يتناهى عاد سهلا عليكم إدراك حقارة الأرض ، وعدم أهمية الحياة الجسدية .

إن الملايين من الشموس المولفة منها مجرتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمد منها النور والحياة فمنها نجم سربوس مثلا الذي يربو حجمه وبهاؤه على شمسكم ألوطا من الرار والسيارات المحيطة به تفوق سيارات الشمس كبرا وسناء ، ومنها شموس مثناة أي نجوم توائم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسكم ، ففي السيارات المحيطة بتلك الشموس للثناة لاتمد السنين والأيام كما في أرضكم ، وأحوال الحياة فيها يتعذر عليكم تصورها .

ومن الشموس مالا سيارات لها إنما أحوال سكانها خير الأحوال . وبالإجمال إن تفننت هذه النجوم واختلاف أحوالها ووظائفها مما يقصر الإدراك البشري عن تخيلها .

إن كل ماترون من النجوم والأجرام في القبة الزرقاء يختص بمجرة واحدة تدهى كما قلنا درب التبانة ، ولكل منها سير مخصوص مصدره قوة الجاذبية فتسير سيرا ليس على سبيل العرض والصدفة بل في طرق معينة مركزها الجرم الأصلي . فقد تحقق لكم مؤخرا أن الشمس ليست بنقطة مركزية ثابتة ، بل تسير في الفضاء ساحة معها موكبها الحافل بالسيارات والأقمار والذنبات ، وليس سيرها بعرضى بل طريقها محدود تسير فيه بصحبة شموس أخرى من طبقتها حول جرم آخر عظيم تولدت منه . إنما حركة سيرها وسير باقي الشموس رفيقائها لاتصيها أرسادكم السنوية إذ يقتضى عددا عظيما من الأجيال لإتمام إحدى هذه السنوات الشمسية .

ثم إن هذا الجرم العظيم الذي تدور حوله الشمس مع سائر الشموس رفيقائها ليس بجرم أصلى بل يدور هو أيضا بصحبة أجرام أخرى من طبقتة حول نجم آخر أعظم منه ، وهكذا قل عن هذا النجم الثاني إلى أن يحل العجز بمخيلتنا عن تصور هذه السلسلة للرتبة القائمة ما بين شموس مجرتكم التي لا يقل عددها عن الثلاثين مليوناً ، وكل هذه الشموس مع سياراتها مرتبطة ببعضها في نظام واحد كجموع دواليب آلة واحدة فتظهر لمين الحكيم الناظر إليها عن بعد كخفة من اللآلي الذهبية نثرتها النفحة الإلهية في الفضاء ، كما تنثر الريح

الرمال في بلقع الصحارى . إن فلاة يكاد لا يعدها قرار تمد إلى كل جهة حول الهرة التي أتينا على ذكرها لأن مجتمعات المادة الأصلية أي المجرات منشورة في الفضاء بجزر عزيزة الوجود في بحر لا حد لسعته ؛ فالمسافة التي تفصل ما بين كل مجرة وأخرى تفوق مسافة قطر المجرة ذاتها بما لا حد له ، فمعلوم أن قياس مجرتنا بعد بمئات ألف ألف ألف ألف فرسخ . أما قياس بعدها عن باقي المجرات فلا يمكن لعقل أن يدركه بل الهيلة وحدها تستطيع أن تقطع تلك الفيافي السباوية الخالية من مظاهر الحياة .

وتجلى فيها وراء هذه الفلوات عوالم أخرى تتبختر في بحر الأثير ، وتظهر الحياة فيها تحت مجالى غريبة يستحيل عليكم تصورها ، فالمنتقل من مجرتكم إلى تلك المجرات يعاين ضروبا من الحياة وقوى طبيعية لم تكن قط لتخطر على ذهنه فيدرك هنا قدرة الخالق ويسبح بحماني أعماله .

رأينا أن ناموسا أصليا واحدا يتولى تكوين العوالم وخلود الكون ، وأن هذا الناموس العام يظهر لحواسنا تحت ضروب مختلفة ندعوها قوى طبيعية وبفعلها تتجمع المادة الأصلية وتتجزأ تغلباتها الدورية ، أي تكون في البدء مركزا سيالا للحركة ، ثم تتفرع منها العوالم ، وتصبح بعدها جرما كشيئا يدور حوله ماتولد منه من الأجرام . وآآن أريد أن أبين أن هذه النواميس ذاتها التي تولت نشأة العوالم ، ستتولى أيضا أمر انحلالها لأن منجل الموت لا يعصد ذوات النسمة لحسب ، بل للمادة الجلمدية أيضا بانحلال تراكيها لحين يقضى العالم سنى حياته فتمد منه نار الوجود وتفقد عناصره قواها الأصلية ، وتزول منه الحوادث الطبيعية بزوال القوى .

هل تظنون أنه سيلت دائرا في الفضاء بجرم لاحياة به ، ويبقى مكتوبا في سفر الحياة بعد أن أصبح حرفا ميتا لامعنى له ؟ كلا إن النواميس ذاتها التي انتشلت من ظلمة العدم وجملته بمظاهر الحياة ، ودرجته من أجيال الصبوة إلى الهرم ستتولى أمر دثوره ، وإرجاع عناصره الجوهرية إلى معمل الطبيعة العام ليستكون منها قبا بعد عوالم جديدة إلى مالا انتهاء له .

فأبدية الكون تقوم بالنواميس ذاتها للتولية أعمال الزمان أي تعقب الشمس والشموس والعوالم العوالم دون أن يصيب قوى الكون أدنى ككل أو خمود لما تروى في أقصى السموات من نجوم نيرة ربما محتها من أمد مديد أصبح الموت وأعقبها العدم وخلقة جديدة تجهلونها بعد . إنما البعد الشاسع القائم بينكم وبين الأجرام الفاصية التي لا يقطعها النور إلا في ألوف الألوف من السنين يجعل أشعتها تصل اليوم إليكم .

مع أنها ربما انبعثت قبل خلق الأرض بأمد مديد ، ففي هذه كما في غيرها تظهر حقارة الإنسان وعدم دنياه . إنما سيأتي يوم فيه يبقى ذكر الأرض في ذهننا كظل بخارى بعد أن نكون قد تدرجنا أجيالا لا عدد لها إلى العوالم العليا .

وحين نتأمل في المستقبل عند بلوغنا هذا الحد لا ترى نصب أعيننا إلا تعاقبا سرمديا من العوالم أو أبدية ثابتة لا انقضاء لها اه .

هذا ملخص ماجاء في العلم الحديث ، وفي علم الأرواح موازانا به ماجاء في القرآن والحديث

(موازونات)

القرآن والحديث الشريف

العلم الحديث

(١) الأرض انفصلت عن الشمس والقمر انشق منها (١) أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما

العلم الحديث

القرآن والحديث والشريف

- (٢) الأرض إذا جاء أجلها تمور وتصير هباء ، ثم (٢) يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات
تصير عالما جديدا وكذا بقية الكواكب
- (٣) الأرواح في الأرض تنقل إلى عوالم أرقى سماوية (٣) أن الجنة في السماء ، وأن النبي صلى الله عليه
وسلم رأى أرواح الأنبياء في السموات ، وآية :
لا تفتح لهم أبواب السماء
- (٤) الأرواح تنتقل من عالم إلى عالم سماوي على حسب (٤) وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا
استعدادها
- (٥) بعد الهواء برودة شديدة في الخلاء ، وفي باطن (٥) إن شدة الحر من فيح جهنم ، وإن لها
الأرض حرارة
نسيم : نفا في الشتاء ، ونفا في الصيف
- (٦) نار جهنم أقوى من نارنا عشرات اللرات (٦) إن نارنا هذه أبرد من نار جهنم بتسع
وستين درجة

ها أناذا لحست لك ماجاء في العلم الحديث في الجنة ودرجاتها والنار وإحراقها ، وإياك أن تنظن أنى أرى
أن جوف الأرض والزمهرير الذى فوق الهواء هما جهنم ، وإن كان ظاهر الأحاديث يوافق ذلك ، والكشف
الحديث يؤيده . فقد يكون ذلك يماثلها أو يكون قطعة منها لأن في العالم أراضى غير أرضنا كثيرة ، وفيها نار
أشد من نار أرضنا ، وربما ضمت يوم القيامة كلها فصارت نارا واحدة ، وقد يكون هناك من العلم ما لم نصل
له ، وكذلك لا تنظن أنى أرى أن هذه النجوم التى هى مسكونة كما ذكرته روح غالبى ، وأن أهلها في سعادة
ونسيم ، وأن الأرواح الأرضية ترتقى فيها بحسب استعدادها ، وأن الروح كلما صفت وخلصت ارتقت إلى عالم
ألطف الخ ، لا تنظن أنى أقطع بأنها هى الجنة وإن كانت الآيات والأحاديث تكاد تصرح بها كقوله تعالى (إن
الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يبلغ الجبل فى سم الحياط)
وكقول عبد الله بن سلام : إن الجنة فى السماء ، وإنما لم أقل هى الجنة لأن الكشف لم يبين لنا حقيقة ، هل
فى السماء سكان ، وإنما ذلك كلام الأرواح التى يناجونها ، وهذا الكشف لم يتم الآن ؟ فإذا ثبت ووضح
وظهر حقا أن الأرواح هكذا ترتقى فى الدرجات فنقل هذه هى الجنة بل قول فوق ذلك إن تلك الدرجات
ما كان منها فيه تكليف وإذلال فهو من جهنم ، وما كان فيه سعادة فهو من الجنة ، وكل هذا إلى الآن لم يتم
عليه دليل .

ثم إذا قام عليه دليل تكون تلك جنات حسية ، وليست مقصودة العارفين ، ولا يحط رجال الحكماء
السالمين لأنهم يرون الخلوص من المادة خيرا ، وأن يكونوا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ويكونون
ملحقين بالملائكة الذين فى جوار ربهم كما أوضحت ذلك نقلا عن الإمام النزلى فى سورة البقرة عند قوله تعالى
(وأنوا به متشابهة) ولم فيها أزواج مطهرة الآية) وبالجملة إن العلم الحديث يكاد يقترب من الآيات والأحاديث ،
ومحصل ما أراه أنا نعرف هذا وترى حتى تنكشف الحقائق ، ولا تقطع بذلك ، فإن العلم أخذ فى الرقى ،
وعلى المسلمين أن يبحثوا فى الفلك ، وفى علم الأرواح حتى يصلوا للحقائق ، وقد ذكرت هذا ليكون بابا يبلغ
منه الباحثون ومفتاحا وسنا ومبدأ (وأن إلى ربك المنتهى) ومن عجب أن البرد الشديد تحت الصفر بدرجات
كثيرة يهرق الأجسام كالنار كما جاء فى الكشف الحديث ، وهذا من أعجب العجائب اه .

عجائب العلم والدين وواجب المسلمين

إن ظهور هذه الحقائق من أعجب ما أتى به دين الإسلام . فكيف يقال : إن باطن الأرض نار ، وإن

الكواكب عظيمة جدا وفيها سكان (وإن كان لم يثبت) وكيف يتفق العلم الحديث مع الدين في ارتفاع حرارة جهنم وسواء قلنا إن هذه النار الأرضية وأمثالها هي التي يندب فيها الناس ؟ أم هي مماثلة لأماكن أخرى شديدة العذاب ، وإن هذه الكواكب إن صح أن فيها سكانا أو هي الجنات أو قلنا إنها أماكن تشبهها ، فعلى كل حال ظهور هذه الحقائق من محائب الإسلام وغرائبه . فعلى عقلاء المسلمين أن يتعلوا ويقروا علوم الطبيعة والملك وطبقات الأرض وعلوم الأرواح فواحرثناه على أمة الإسلام ، وأسفاه على دين تركه أهله وضيعه معتقوه ، ونسى العلوم التي يطلبها مدرسوهم وجهله متبعوه ، ولم يؤمن به إلا من أمهلوه .
فإليك اللهم للشكوى ولك الأمر (ولو شاء ربك ما فعلوه والله هو الولي الحميد) .

الدار الآخرة في القديم والحديث : اللذات الحسية والخيالية والعقلية

أنت تعلم أن ماورد في شريعتنا للطهارة هي اللذات الحسية من الجنات والحور والوليان وما أشبه ذلك ، وهذه اللذات الحسية أنكرها قوم وقالوا هذه يعاطاها الإنسان بجسمه والجسم قد بلى ، وإنما يكون الإنسان في الآخرة بروحه ، وإنما اللذات والآلام بالروح لا بالجسد وهي أمور معنوية ، هذا ملخص مايقولون .
وقالت طائفة كالإمام الغزالي إن اللذات على ثلاثة أقسام : حسية ، وخيالية ، وعقلية ؛ فالحسية معلومة ، والخيالية مايتخيلها الإنسان وتخطر في نفسه كما تصور نهر جاريا أو حوراء أو جنات وأغنايا ، وهذه الصور التي يتخيلها الإنسان لذاتها ضعيفة كالتى يتصورها في المنام ولو أنها دامت تلك الصور للنامية لكانت لذاتها نامة وإنما المانع من تمام لذاتها أنها مقطوعة باليقظة .

وليس للإنسان من اللذات إلا ما انطبع في حسه كالصور الجميلة في العين ، والسموعات في السمع ، وللشمومات في الشم ، والنواعم في اللس ، والحلو في الدوق ؛ ولو أن امرأة كانت أمامه صورة من أجل الصور وهو أعمى أو كان مبصرا ولكنه غافل عنها لاشتغاله بأمر مهم لم يستلذ بالصورة ، فإذن لا لذة في الصور للشاهدة . وإنما اللذة في الإحساس بصورها للطبيعة في الشبكية ، فالمدار في اللذة على ذلك الانطباع . فأما الصور الخارجة في أنفسها فليست فيها لذة بل الأمر قاصر على تلك الصور المطبوعة في النفس ، هكذا سم الحيات ، وإن أجسام الحيات ليست مؤذية وإنما للؤذى الآثار الناشئة في الأجسام من سريان السم . فلو لدغت الحية إنسانا ولم يسر السم أو سرى ولكن الترياق أبطل فعله كما يقولون : إن جسم كل ذى سم يبطل لفعل سمه بحكم الحية إذا وضع على موضع اللدغ أبطل فعل السم ، والإنسان لو شرب سم الحيات لم يضره ، وإنما الذى يضره أن يسرى في السم كما تفعل الحية إذ تدخل نابها في الأجسام فيدخل السم في الدم فيسرى ، فإذن المدار على تأثير السم لا على السم ولا على الحية .

ثبت إذن أن الجسم لو حلّ فيه أثر كآثر السم لحصل المقصود من الضر بدون حاجة إلى الحية ولا إلى السم ، ولو حصلت في الأبصار والأصماغ صوت النغمات اللذيذة والصور الجميلة بدون أن تكون تلك الصور وتلك النغمات في الخارج لكانت اللذات دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ولأصبحت اللذات تحت تصرف الإنسان فحق تخيل صورة أو نعمة أو فاكهة أو ظلا أو نهرًا حضر لديه ، وهذا أشرف وأرقى من اللذات المحسوسة الخارجة لأن هذه إذا تمتع بها زيد حرم منها عمرو كما في هذه الدنيا . أما تلك التخيلية فإن الصورة الواحدة يتمتع بها آلاف في زمن واحد تمتعا تاما غير منقوص ، ولو اشتهى مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم ألف شخص في ألف مكان في حال واحد لشاهدوه ، كما خطر ببالهم في أماكنهم المختلفة ، وأما رؤيته صلى الله عليه وسلم ، وهو موجود خارج الحس فلا تكون إلا في مكان واحد ، وحمل ما في الآخرة على ما هو أتم وأوسع أولى .
اه مقاله بتصرف وإيضاح .

قال : وأما الوجه الثالث العقل فهو الوجود العقلي أن تكون هذه المحسوسات أمثلة للذات العقلية التي ليست بمحسوسة ، والعقليات أقسام كثيرة مختلفة كالحسيات فتكون الحسيات أمثلة لها ، وكل واحد يكون مثالا للذة أخرى مما رتبته في العقلية نوازي رتبة المثال في الحسيات ؛ فلو رأى في المنام الحضرة والماء الجاري والوجه الحسن والأهار الجارية باللبن والصل والمجر والأشجار للترتيزة بالجواهر واليواقيت والآلى والقصور البنية من الذهب والفضة والأسرة للرصمة لكان للعبير لا يحمله على نوع واحد بل يحمل كل واحد على نوع آخر من السرور ، وقرّة العين يرجع بضعه إلى سرور العلم وكشف المعلومات وبضعه إلى سرور المسكنة وثقل الأسم ، وبضعه إلى قهر الأعداء ، وبضعه إلى مشاهدة الأصدقاء وإن شمل الجميع اسم اللذة والسرور ، فهي مختلفة للراتب مختلفة الذوق لكل واحد مذاق يخالف الآخر ، وكذلك الذات العقلية ينبغي أن تفهم كذلك وإن كانت مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

جميع هذه الأقسام ممكنة فيجوز أن يجمع بين الكل ، ويجوز أن يكون نصيب كل واحد بقدره واستمداده ، فالمشغوف بالتقليد والجود على الصور الذي لم يفتح له طرق الحقائق يمثل له الصورة ، والمعارفون يفتح لهم لطائف السرور والذات العقلية كما يليق بهم وينبغي شرم وشهوتهم إذ حد الجنة أن فيها لكل امرئ ما يشتهي ، فإذا اختلفت الشهوات لم يبعد أن تختلف العطيات والذات والقدرة والسعة ، والطاقة البشرية عن الإحاطة بجوانب القدرة قاصرة ، والرحمة الإلهية ألقت بواسطة النبوة إلى كافة الخلق القدر الذي احتمته أفهامهم .

هذا ما قاله الإمام الغزالي في الرسالة السماة «بالمضنون به عن غير أهله» فأنت ترى أنه أثبت اللذة الخيالية وجعلها أفضل من الحسية ، وجعل فوقها لذة عقلية وهي إدراك الحقائق وجعل لكل من الناس ما وصل إليه إدراكه وفهمه ، وانظر إلى مقاله ريمند بن اللورد أليفرودج الثالث في الحرب الكبرى العامة وأوليقرودج من كبار الطبيعيين في أوروبا وبلاد الإنجليز . فانظر كيف يقول له ابنه لما أحضرت روحه فيها هلته في كتاب الأرواح .

أما ثيابي أنا فيظهر لي أنها مصنوعة من خيوط ثياب بليت عندكم ؛ والبعض هنا يقولون عن الثياب إنها روحية مصنوعة من النور يكونها الفسكرك على الأرض . فانظر كيف تقول الأرواح المائنة إنها تكون ثيابها صنع أفكارها ، وهذا عينه مقاله الإمام الغزالي تصعب من نوع الإنسان ، وكيف ما كان يظنه الغزالي ظنا أصبحت تقوله الأرواح في مخاطباتها ، وقال أيضا : وهنا معامل تعمل كل شيء لامن مواد جامدة بل من مواد روحية ، وترى في ذلك الكتاب كثيرا مما يدل على أن الأرواح تصوغ ماتشاء أسرع من ملح البصر ، فما قاله الإمام الغزالي وأدركه بين البصيرة قد اشتهر الآن وشاع بين علماء الأرواح في أوروبا ، وقد يقول بعض الإخوان إن كتاب الغزالي المذكور ليس له حقيقة فتقول نحن الآن في مقام الجمع بين آراء علماء الشرق والغرب : فهو كتاب شرقي .

فإذا اعتبرنا هذا جنة خيالية . واعتبرنا ماتقدم في مقال روح غالبى جنات حسية في الكواكب العظيمة وانتقلنا إلى عالم الأرواح في جناتها العقلية رأينا مطابقة بين كلام علمائنا وكلام علماء العصر الحاضر . فأما أنت فلا تكن مقلدا ولا تفق عند حد بل اقرأ وزد علما ، واعلم أن الله لم يرد بهذا إلا زيادة العقل ، ورياضة الفكر فموضوع هذه المسائل بوجوب التفكير ، والتفكير يزيد العلم ، والعلم هو المقصود الأعظم من الحياة . واعلم أنى أطلقت الآن في الجنة والنار ، ولست أعيد الكرة عليهما في هذا التفسير إلا قليلا بل أكتفي بما كتبت الآن ، والله المستعان اه .

ولملك تقول كيف تثبت أن ريمند وهو مسيحي يدخل الجنة؟ وكيف تحمك بذلك . أقول : على رسلك أنا إنما ذكرتها على سبيل النقل ، ولم أحكم بصحتها وربما صحت بأن يكون أسلم قبل موته . فليس في ديننا ما يجعلنا نقطع بكفر أحد ، لا يعلم الغيب إلا الله .

ولا تزين في الأرض دونك كافرا ولا مؤمنا حتى تنيب في القبر

فربما نجا ريمند ولم نتج نحن ، وربما كان معدودا من أهل الفترة ، كما تراه في كتاب «فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» وهل بلغ إليه الإسلام على وجهه؟ نحن نشك في ذلك ، وإذا كنا لا نزال نرى أن للسليبي يجب أن يكونوا أعلم بكتابتهم مما هم عليه . فكيف بمن هم غير مسلمين ، ومن دخلت هذه الشبهة عقله وقت حجابها بينه وبين العلم ، وعاش مفتونا بالجهالة محروما من الحكمة محكوما عليه بوقوف العقل وركود الدهن وموت الفؤاد والانتطاع عن الأنداد الكلام على اللطيفة السادسة .

اللطيفة السابعة (والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس)

يقول علماء النفس في الجمعيات الأمريكية : إن النفس كلما حبست عواطفها وكنمت أحوالها وحفظت خطراتها زادت قوة وألمها بأسا وحكمة وأثار بصيرتها ، وعلى ذلك بأمرؤن التلاميذ أن يكونوا على جانب من التؤدة والثبات ، ويقولون إن ذلك يحفظ الغناطيسية الحيوانية أن تفيض من النفس فتبقى محفوظة ليصرف منها الإنسان في الأعمال النافعة بدل الآراء الضائعة . وانظر كيف أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يكف عن الهباء على أعدائه حفظا لتلك القوة النفسية العالية ، وكيف ذكر بعدها تعليما للأمة ما يجب عليها من الضو وللضرة وكظم النيط لتتحفظ النفوس وتقوى القلوب وتكمل الكمال الأوفى ، ومن مقال هذه الجمعيات الذي ترجم حديثا .

ليس الرجل القوي الإرادة الماضي العزيمة هو ذاك الذي يكتم عن أتابه ويقبض حاجبيه ويصر أسنانه ويقلم عضلاته ووجهه وينظر نظر الغاضب الحائق كلما أراد أن ينقلب على الصعاب؟ ليس هو الذي يتدمر من عمله اليومي ، فإن ذلك قد أضاع قواه ، ومتى صادفه رجل هادي مطمئن واثق بنفسه صرع الأول وغلبه ومتى حفظ امرؤ قواه وحبسها بإرادته ولم يأذن لها بالإفلات منه كان ذلك وحده كافيا أن يأتي له بالقوائد الجليلة ، من جذب النفوس إليه وقبول الناس له ، والإقبال عليه واحترامه . فهذه الصفة كثر ثمين لا يقدر بذهب ولا فضة ، به تفتح الطرق المادية واللعنوية ، ومن حرم هذه الصفة ضاعت حياته هباء متشورا ، وإنما كانت أعلى من الذهب والفضة ، لأن النفوس لما أحست بفطرتها وغريزتها وأن نفسه مملوءة روحانية ومغناطيسية لشدة محافظتها على السكينة والتزام الاحتراس ، أقبلت بفطرتها عليه غير عالمة بالسبب ، ولا مدركة ماذا دفنها إلى ذلك الاحترام والحب ، وإن لم يكن في الوجه جمال ، ولا في الجيب مال ، وإنما ذلك شأن النفس التي ملأها الجمال وحفظت من ضياع روح الحياة وهي للغناطيسية النفسية كالنهر حفظت مائه السدود والرم . ذلك قول هؤلاء العلماء ، فانظر كيف مدح الله الكاذمين للغيظ ، وقال لنييه (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم) مدح نبيه بهذا الوصف وأمر المؤمنين به ورتب عليه عدم انفضاض الناس من حولنا ، وهذا تملكه الجمعية النفسية بحفظ القوى ، وبقاء الروح في حزر حصين من الإسراف في مواهبها .

اللطيفة الثامنة : ترتيب درجات الطائمين

انظر كيف رتبت درجات الطائمين فكان أعلام : (١) النافعين لنوع الإنسان القائم بشأن الجمعية الإنسانية وهم خلفاء الله على الحقيقة ، وأشار إليه بقوله (الذين يتفوقون في السراء والضراء) فهؤلاء خلفاؤه

على عباده متشبهون بملائكته ، ولذلك جعل جنهم كما كره فيها لهم (جنة عرضها السموات والأرض) والخليفة أحق بالاطلاع على ملك من استخلفه فبؤام جنة تضارع ملكه ، وذلك هو الجمال والكمال (٢) الدرجة الثانية الذين يصبرون على أذى الناس . فهؤلاء وإن لم يقوموا بأمر الأمة ويساعدوا المجموع . فإنهم زكوا نفوسهم وطهروها وفوتوها فاستعدت إلى العالی وهي للشار إليها بقوله (والكاظمين الصيظ الخ) (٣) الدرجة الثالثة درجة التائبين وليس هناك أحط منها وإليها الإشارة بقوله (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) وهؤلاء جنهم ليست كعرض السماء والأرض ، وليسوا متمتعين بحقيقة الخلافة ورعاية الأمة ونظام المجموع ، فجنهم إنما تجرى تحتها الأهوار فيليناك أن تنزل عن المرتبة الأولى ، وجاهد في الحكمة والعلم ولا تنصر في تقع الأمة وإزالة النعمة وكن أبا رحبا مقلدا لله في رحمة للناس ورعايته للخلق .

اللطيفة التاسعة

(إن بمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس)

لعلك تذكر ما قدمناه في سورة البقرة عند قوله تعالى (وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة الآية) فاعلم أن هذه الآيات تنحو نحو ما ذكرناه هناك فراجعه ، وليس في الإعادة هنا إلا التكرار الذي يجب أن تتجنبه .

ولقد استبان هناك أن لاسعادة في الحياة ، ولا في الملمات إلا بعوارض الدهر وقوارع المصائب وتربية الله للناس بالخطوب ، ولقد ظهرت كتب كثيرة في ذلك مثل «لتزقابس» الذي لحصته هناك وكتاب «الكوخ الهندى» لعالم كبير أوروبى ، وهذه الآيات التي نزلت في غزوة أحد كلها دروس وتطبيق على ذلك .

اللطيفة العاشرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة الخ)

هي كسابقتها حث على الصبر والثبات وباهما واحد .

التطيفة الحادية عشرة (ثواب الدنيا والآخرة)

إن القرآن يدعو إلى الكمال الدنيوى والآخروى ، والله يعطى الثواب الدنيوى والآخروى ، فالثواب في الدنيا والآخرة معا ، فإن السلم وهو يجاهد في سبيل الله قد نال ثوابا في الدنيا بالنعمة وفي الآخرة بالجنة .

اللطيفة الثانية عشرة : كيف تعطى الدروس على حوادث الإنسان وآلامه

لم تمر غزوة أحد بلا درس فأنت ترى كيف ظهر المناقون وامتاز المخلصون . وكانوا وقت الشدة أشد اطعشانا ، وكان الصبر نعمة والثبات كالا ، وذكر أن الحرب سجال ، وأن الهزيمة من أسبابها ذنوب سابقة ألبأنهم إلى ارتكاب مثلها ، وأن التوكل والشورى مطلوبان تملبا لنا لثلاث نشذ عن الجماعة ففسر مع الأمة ونظامى للإجماع كما هو القانون للسنة في الأمم الحاضرة ، وبأليت شعرى كيف يكون رأى الجماعة مطاعا في الإسلام ولا ينفذ أمره إلا في الأمم الأوروبية ، كما لم يعرف تنازع الحمر إلا الأمم الأجنبية ، ويظهر أن الأمم الإسلامية بعد القرون الأولى لم يكونوا أهلا لهذا الدين ؛ ومن الدروس أن المصائب العظيمة كالهزيمة يوم أحد قمة تنسى المصائب الصغيرة فلا يحفل بها الإنسان ، وهذا أعظم ماضنه الحكمة . ربما وحدينا ، ومنها أن يشعر الإنسان بالروح والعزم وعناية الله ، ومنها أن يوازن مصائبه بما أصاب عدوه ، ومنها أن يتذكر أن هذه المصيبة بفعل سابق قد كان منه ، ومنها أنها عدوة له بها يستنير في أمثاله ، ومنها أن يرجع إلى الله وأن القضاء والقدر سابقان ليقبل الحزن ، ومنها أن لا يرجع الإنسان في رأيه بعد أن أحكمه ، وهكذا من الحكم التي جاءت في هذه السورة درسا على أحد .

إن هذا درس لك أيها الدكي ، فإذا أصابك شيء أو أقيمت نعمة فاجعلها من مسائل الدراسة ، وحافظ على الاستنتاج كما استنتج في القرآن لعلنا الله كيف نبحت في كل ما يصينا ونستخرج منه الحكمة والعلم .
ألا إنما مثل اللصائب كمثل النار تصيب القمح فيكون منه دخان فنار ، أما الدخان فالعموم ، وأما النار فالعلم . أو لا ترى أن الدخان ينقطع وتبقى النار مضطربة مضيفة أو ليس الذي نفهمه في الحوادث التي تلم بنا يعطينا علما وحكمة ، فأما الغم والحزن فإنه منقطع اه .

القسم التاسع ذكر للناقين واليهود وكيدهم ، وأن ذلك ابتلاء من الله للنبي صلى الله عليه وسلم وللؤمنين ليصبروا فتقوى قلوبهم وترفع نفوسهم إلى العلا . وهذا القسم كسابقه يرجع إلى الصبر وحفظ القوى العقلية من الضياع حتى تستأهل النفس للعلوم والمعارف الآتية في القسم العاشر التتم للسورة .

إنك قد علمت كلام علماء النفس أنهم جعلوا حفظها بالصبر والسياسة والعفة والنفوس وحفظ قواها لتكون كالنهر حفظ ماؤه فتسقى به المزارع ، ولن يكون الزرع بلا ماء ولا العلوم بلا فكر نقي ونفس كاملة ، وفي هذا القسم بعد ذم الكفر وتضيجه : (١) أن النعم لن تكون أس الكمال . فكيف من الحيرات كانت سبب الشقاء (٢) وأن هذه الدنيا جعلت ليمتاز فيها المسيئون من المحسنين بما ينتابهم من الحوادث المؤلمة (٣) وأن المواهب والنعم إذا نجل بها الإنسان أصبحت شرا عليه ووبالا ، وأورثته نكالا ، وأصلته نار الطمع والجشع والحرس فأصبح مبغضا مكروها (٤) وأن الكبرياء والفخر من أسباب الشقاء (٥) وأن الأكاذيب على الأتنياء والتمنت عليهم من أشد الكبرياء مقنا (٦) وأن الحياة الدنيا غرور (٧) وأن القضاء حتم علينا أن نسمع أذى كثيرا ونبتلى بنقص الأتس والتمرات ، وأهل العزم هم الذين لا يباون ، وعند هذه الشدائد يسمون (٨) وأن البخل بالعلم أشد من البخل بالمال ضررا كما حصل من علماء اليهود في زمن الرسالة (٩) وأن من فرح بمدح مالبس فيه فأحب أن يمدح بما لم يفعل آثم لخلاؤه من الكمال واتحاله مالا حقيقة له إلا في الحيال . فهذه تسع خصال بعضها يقترب من بعض ، وبعضها متميز أشد التميز . فلا ذكر الآيات ثم يتلوها تفسيرا .

وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ الْأَلْوَنَ
يَجْمَلُ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ
لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ خَيْرٌ
لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزِدُوا إِيمَانًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ
عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رِّسَالِهِ مَن يَشَاءُ فَاٰمِنُوا بِاللَّهِ وَرِسَالِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ
أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ
شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ
 اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَمِدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا
 بِقُرْآنٍ بَنِي تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَاللَّذِي قِيلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ
 إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
 وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن
 زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْفُرُورِ * لَتُبْلَوُنَّ
 فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
 أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ * وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ
 مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا
 بِهِ نَمَنًا قَلِيلًا فَبَيِّنَسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا
 بِمَا آلَمَ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ * وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

التفسير اللفظي

(يسارعون في الكفر) يعمون فيه سريعا حرصا عليه وهم المرتدون الناقضون للتخلفون (إنهم لن
 يضروا الله شيئا) أي لن يضروا أولياء الله كالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن يعينوا عليهم كما هوشأن الصديق
 إذا اقلب عدوا (حظا في الآخرة) نصيبا من الثواب (ولهم عذاب عظيم) أي منضمها إلى حرمانهم من
 الثواب ، وقوله تعالى (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان الآية) تأكيد لما قبله لعظم الأمر ، فإن كيد العدو
 الذي كان صديقا عظيم لعلمه بما عند صاحبه الأول ، فلذلك زاد التأكيد بأنه لن يضر رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وأصحابه (تعمى) تمهل وتؤخر ، وما اسم أن وخير خبرها ، وما اسم موصول و(إنما) ذنبا ، وقوله
 تعالى (يجتنب) يجتار ، وقوله تعالى (سيطونون ما جملوا به يوم القيامة) بيان لكونه شرا لهم أي سيلزمون
 وبال ما جملوا به إلزام الطوق ، وعنه صلى الله عليه وسلم « مامن رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل الله له شجاعا
 في عنقه يوم القيامة » وفي رواية أبي هريرة « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاع أفرع
 له زبيتان (أي نكتتان سوداوان يكونان فوق عين الحية) يطوقه يوم القيامة يقول : أنا مالك أما كنتك
 ثم تلا : ولا تحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله الآية » أخرجه البخاري ، وقوله تعالى (لقد سمع الله قول
 الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) هم اليهود لما سمعوا « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا » وروى « أنه
 عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة
 وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص بن غزوراء إن الله فقير حين سأل القرض ، فلطمه أبو بكر على وجهه

وقال لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك ، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدد مقاله فنزلت «
 (سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق) جعل الاستهزاء بما جاء في الإسلام ، وقتل الأنبياء في نبط واحد
 كأنهم بما استقرّ في نفوسهم من الرذائل القاسية وعظائم الذنوب قد استعدوا لمثلها وقوله تعالى (وقول
 ذوقوا عذاب الحريق) أى ننتقم منهم بأن نقول لهم : ذوقوا العذاب المحرق ، وقوله تعالى (ذلك بما
 قدمت أيديكم الخ) أى ذلك العذاب بما قدمت من قتل الأنبياء وسائر المعاصي ، وقوله تعالى (الذين قالوا إن
 الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار) الذى قال هذا هو : كعب بن الأشرف ومالك
 وحى وفحاص ووهب بن يهودا من اليهود ، وعهد إلينا أى فى التثبوت ألا نؤمن لرسول إلا بمجزة خاصة
 فيقرب النبي القربان ويدعو الله فنزل نار سماوية فتأكله (بالبينات) الدلالات الواضحات والمعجزات (والزبر)
 الكتب واحدها زبور ، وهو كل كتاب فيه حكمة ، من الزبر وهو الزجر (والكتاب المنير) الواضح للضىء
 (يوم القيامة) يوم قيامكم من القبور ، وفى الحديث « القبر إمارة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار »
 (وزحزح) أبعد ، وقوله تعالى (فقد فاز) أى بالنجاة (وما الحياة الدنيا) أى لذاتها وشهواتها وزخرفها
 (إلا متاع الزور) المتاع كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره ، والترور ما يغير الإنسان بما لا يدوم : أى
 إن منفعة الإنسان بالدنيا كنفته بهذه الأشياء التى يستمتع بها . ثم نزول عن قريب (لتبلون) لتختبرن
 (فى أموالكم) بالإفراق وما يصيبها من الآفات كدودة القطن ببلاد مصر (وأنفسكم) بالجهد والقتل والأسر
 والجراح والخوف والمرض (ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا)
 كهجاء الرسول والظمن فى الدين ، وإغراء الكفار على السليين ، وإنما أخبرهم بذلك لتتوطن أنفسهم على
 الصبر والاحتفال (وإن تصبروا) على ذلك (وتقفوا) مخالفة أمر الله (فإن ذلك) أى الصبر والتقوى (من
 عزم الأمور) أى معزوماتها التى يجب العزم عليها أو بما عزم الله عليه أى أمر به وبالغ فيه (وإذا أخذ الله
 ميثاق الذين أتوا الكتاب) أى اذكر وقت أخذه ، والذين أتوا الكتاب هم العلماء كعلماء اليهود والنصارى
 الذين كتبوا دلائل النبوة الحميدة فى التوراة والإنجيل ، وأخذ الميثاق هو التوكيد والإلزام أن يبينوا ما أتوا
 من الكتاب ، وهو قوله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه فيذوه) أى الكتاب أو الميثاق (وراء ظهورهم)
 طرحوه وضيئوه (واشتروا به ثمنا قليلا) من حطام الدنيا (فيبئس ما يشترون) يختارون لأنفسهم ، وعنه
 صلى الله عليه وسلم « من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من النار » وعن عليّ رضي الله عنه « ما أخذ الله على
 أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا » (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا) فعلوا من
 التدليس وكتم الحق (ويعجبون أن يعمدوا بما لم يفعلوا) من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق
 (بمفازة) بمنجاة (من العذاب) فائزين بالنجاة منه (ولهم عذاب أليم) يكفرهم وتديسهم (والله ملك السموات
 والأرض) فهو يملك أمرهم (والله على كل شئ قدير) فيقدر على عقابهم ، وليس قفيرا وهم أغنياء كما قالوا ،
 انتهى التفسير اللفظي .

يقول الله تعالى : لا تحزن يا محمد لأولئك الذين غادروا دينك ، وسارعوا إلى أعدائك فإنك بأعيننا ،
 ونحن لاندعك لهم بل نحفظك من كيدهم ونؤمنك من شرهم وكيف يؤذونك ونحن نصبر الدين ينشرون
 الفضائل ويزيلون الرذائل ويكونون للناس ناصحين مصلحين .

فأما ما ترى من إغراق النعم عليهم وإظلال الأمن والسلامة ، وما أمددناهم به من مال وبنين ،
 فلم تفعل ذلك لتسارع لهم فى الحيرات وإنما ذلك ليزدادوا إنما كما أننا جعلنا وفرة الطعام والشراب والآكل
 الدسمة للشرهين ليمثلوا الحما وشحما ، ثم نمتهم فجأة لجهلهم بقوانين الصحة فى مطعمهم ومشربيهم . هكذا هؤلاء
 تعطيه الأموال والبنين إلى أجل محدود ، ثم نوردهم موردا لا مرجع منه ، وكيف أذو للؤمنين على ما هم

عليه؟ فلا سلطان عليهم التكليف والشاق ، ولأوردتهم موارد الحرب ومواقع الضرب حتى يمتاز الشجاع من الجبان والنافق من المخلص ، وكيف تفرقون بين زيد ومحمود ، وتعرفون الشجاع من الجبان ، والمخلص من النفاق؟ وهل أظلمتكم على غيبى أو أنبأتكم بعلوى ، وإنما أرسلت الرسول لقيادتكم ، وبهذه التكليف يمتحنكم فيكون التمييز وبظهور ذو الورم من السمين والمحق من المبطل .

وهل أركبكم الدين أغدقت عليهم النعم إلى أجل محدود فبخلوا بها وأعطيتهم مالا فتمنوا حقه ينالون خيرا وإنما هو شر لهم سيكون ذلك المال غلا في أعناقهم وسجنا لنفوسهم . إن كل ما اشبهه الإنسان ، وأنس به ولازمه من مال أو منصب أو جاه ، ولم يبالغ نفسه بإتفاق المال ، والتفكير في أمر هذه الحياة وزوالها سيكون معقبا بها وهو لا يراه طالبا له ولا يبقاه مغرما به وقد أخطأه .

ومن ذلك الأقوال الجارحة والكبرياء بغير حق وقول الزور والجهل والفرور كقول من يقول (إن الله فقير ونحن أغنياء) وأمثال هذا القول يردى صاحبه لأنه يكتب في صحائفه ويكون وبالاً عليه لأنه يربى فيه ملكة القول الزور والتطاول للمقوت والتعالى ، والملاصقات السيئة العالقة بالنفس تكون وبالاً على صاحبها؛ فهو ككاتب ليل يحتطب الشوك فيؤذيه ، ولا يعلم ماذا يأتيه فليس العذاب إلا بما قدمت الأيدي ، ومن لم يهد الله لشاله من مهدي .

ولقد كذبك هؤلاء فلا تبتئس بالتكذيب ، واذكر الأنبياء السابقين والرسول الماضين فقد كذبهم التابعون وقد أرسلوا بالمعجزات والآيات الواضحات فصبروا على ما أودوا واستأذوا بي فأعيدوا فاصبر كما صبروا فلا عيذتك كما أعذتهم ، ولا نصرتك كما نصرتهم ، ولأذيقن المكذبين سوء النكال لأنى أنصر الهداة وأخذل النواة إذا بلغ الكتاب أجله ، وأنتم كل عمله بحيث يكون الأنبياء أذوا وساعليهم ، والمكذبون بلغوا النهاية في النكابة فيكون الجزاء على مقدار العمل فأحسن المحسنين وأسى للسيئين ، فلتصبر حتى تستوفى مدة المهنة ويتأدوا في القنينة فيكون الجزاء لك ولهم عدلا وانقصاص منهم والإنصاف لك حقا جزاء وفاقا .

على أن هذا وذاك سيزول والدينا ذاهبة مهما تطاولت الأيام (كل نفس ذائقة الموت) والأعمال بخواتمها والعذاب القليل في جانب النعم العظيم محتمل ، ومن ذاق ألوان الأذى قليلا ثم استمتع بالبهجة دائما فأمره جلل . فلذلك يلوتمكم في الأنفس بالقتال ، وفي الأموال بالإتفاق والآفات ، وسلطت عليكم الأعداء فساقوكم بالسنة حداد؛ فإن صبرتم على البأساء وثبتم في الضراء ، وكنتم ذوي عزم حين البأس . كنتم عندي من ذوي النفوس العالية وبوأتمكم منازل الصابرين .

ولا يظن امرؤ أنى اجتزى بظواهر الأمور كالقتال والإتفاق بل هناك ما هو أعلى مقاما ، وأمر شأنا ، وأرفع مكانا ألا وهو العلم ، فإذا عاقبت الأغنياء على شحهم وبلوتمهم في أموالهم فليست محليا العلماء من التعذيب ولا الحكماء من التأديب بل البخل بالعلم أدهى وأمر وأجلب للضرر وأبعد عن العدل وأقرب للإثم ، وكيف لا يكون كذلك وقد أخذت على العلماء الليثاق؟ فإذا نبذوه وراءهم وناموا عن نشره للناس كنت خصمهم ، العلم أصل وما عداه تابع له ، فذلك أخذت الليثاق على العلماء؛ وما الأغنياء إلا تلاميذ العلماء ، وما المجاهدون إلا صدق صوت المعلمين ومنفذو أوامره في الدين . فكيف أعطف على العالم البخيل بلمه إنه لأشد عذابا من البخله ، وأقرب إلى النار وبئس القرار؛ فهل تحسبهم بمفاضة من العذاب كلاب بل لهم عذاب أليم؛ إن العلم هو الأسس لتنظيم ومدار الاجتماع . فكيف أعفو عن عالم أضاع علمه؟ أليس العلم به يعرف جلال الله ، وأنه يملك السموات والأرض ، وأنه على كل شئ قدير؛ فالعلم أمره عظيم جليل .

لطيفة في قوله تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) الآية التي نحن بصدها

قال قتادة . هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه ؛ وإياكم وكتبان العلم فإنه هلكة . وقال أيضا : مثل علم لا يقال به كمثل كثر لا ينفق منه ، ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم لا يأكل ولا يشرب ، وقال أيضا : طوبى لعالم ناطق ومستمع واع ، هذا علم عدا قبضه وهذا سمع خيرا قبله ووعاه . واعلم أنه لما كان هذا القول يستدعي طلب العلم والتفكير في أصوله وفروعه ناسب أن يؤتى بعده بدرس في المعارف العامة وبمنظرة في السموات والأرض ؛ وأيضا لما كانت الآيات السابقة في شئون غزوة أحد وكان فيها القتال ومجاهدة الأعداء وقصص المنافقين والضالين والكافرين ، ورد الأباطيل والدروس الأدبية كالصبر والثبات والغنائم والفوز والمزينة والتوبيخ ، وكان من عادة القرآن أن يأتي بعد ذلك بما يخرج النفس من أمثال هذا المقام إلى التفكير في أمور شريفة ومحجبات وبدائع لتفرج على الجمال وتشرح به بعد ما سمعت من مختلف الأحوال ، فقيل إن في خلق السموات والأرض الخ ، وأيضا إن غزوة أحد مملوءة من الدروس الأدبية والعظات التأديبية والحكم الحلقية والقوارع الزجرية . وكل ذلك ليس نهاية للقصود من الحياة ولا هو نهاية مقاصد النبوات ، وإنما هذه أشبه بالتخلية ، والمعارف الطبيعية أشبه بالتخلية ، فإذا غلغى الإنسان عن الرذائل فلم يشذ عن المجموع وثبت في حروبهم وصبر في النوائب كلت نفسه ، وعظمت قيمته ، وإذن تستعد النفس للرقى في العلياء والولوج إلى أبواب السماء ، فالأخلاق مقدمات ، والعلوم نهايات ، والأخلاق بالتجارب العملية كغزوة أحد . فلذلك أعقبه بآية (إن في خلق السموات) وكذلك أول سورة آل عمران كان فيه ذكر الله وعلمه بكل شيء وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وتصوير الناس في الأرحام كيف يشاء فغتمت بمنزل ما ابتدئت به ليكون اللبدا بالجمال العلمي والنهي بالنظر في العالم العلوي والسفلي ، كأنه يقال أيها الناس إن رسالة الأنبياء والحرب والقتال والتكاليف والإنفاق ، كل ذلك لكمال نفوسكم وجمال عقولكم ؛ فلذلك ابتدأت السورة بعلم الكائنات وختمتها بالحكم الكليات ، وما كان غير ذلك فإنما هو مقدمات لتلك المقاصد ، ومبادئ لتلك الغايات ، كذلك كانت سورة البقرة فإنها مبدوءة بالتوحيد مختمة بأن ما في السموات وما في الأرض لله وبدعاء المؤمنين أن ينصرهم الله على أعدائهم ويغفر لهم ، وترى سورة آل عمران مبدوءة بما ابتدئت به سورة البقرة من التوحيد ، وختمت بالدعاء بالقرآن ، وذلك في القسم العاشر وهو :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ *
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِقْيَامًا وَقَمُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ
النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنا مَعِينًا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ *
رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْزِي أَحَدًا * فَاسْتَجَابَ
لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ * لَا يَغْرَبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَنَّةٌ مِنْهَا وَبَشَرٌ مِثْلُهَا * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لَهُ لَا يَسْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

التفسير اللفظي

سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية فنزلت (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولى الألباب) لدلائل واضحة على وجود الصانع ووحده ، وكال علمه وقدرته لقوى العقول الخالصة النيرة من شوائب الحس والوهم ، وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأها ، ولم يتفكر فيها » (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) يداومون على ذكر الله في غالب الأحوال في القيام والقعود ، وفي حال نومهم على جنوبهم ، وليس للراد الاحتصاص بهذه الأحوال ، بل للراد أن يعم الذكر سائر الأحوال ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى في كل أحيائه » وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قعد مقعدا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ، ومن اضطجع مضطجعا لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة وما شئ أحد يحسب لا يذكر الله فيه إلا كانت عليه من الله ترة » أخرجه أبو داود . والترة : النقص ، والمراد به هنا التبعة ، ومن الذكر الصلاة « ولما سأل عمران بن حصين النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقد كانت به بواسير . قال صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فملى جنب تومى إيماء » وقد أخذ الشافعى بظاهره ؛ وأن المريض يصلى على جنب ويومى برأسه . وأبو حنيفة يرى أن يصلى مستلقيا على ظهره ، فإن وجد حفة قعد (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) استدلالا واعتبارا ، وذلك أفضل المبادات . قال عليه الصلاة والسلام « لا عبادة كالتمسك » وذلك مخصوص بالقلب ولأجله خلق الإنسان . قال عليه الصلاة والسلام « بينا رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال أشهد أن لك ربا وخالقا اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له » وهذا العلم أشرف العلوم ، بهذا وأمثاله يتفكرون قائلين (ربنا ما خلقت هذا باطلا) أى ما خلقت هذا الخلق : أى المخلوق من السموات والأرض عبثا ضائعا من غير حكمة وإنما خلقته لحكمة عظيمة ، ومن هذه المخلوقات الإنسان فلا بد أن يكون خلقه لأمر عظيم ، فإذا جهل الحكمة التى خلق لها فإنه لا بد صائر إلى عذابك (سبحانه) تنزيها لك من البعث وخلق الباطل ، وإذا كنا نعلم أننا خلقنا لحكمة فجهلنا بها وإخلاقنا بما خلقنا له يردنا ويوردنا النكال لأنك لا تخلق إلا لحكمة (فقنا) ياربنا (عذاب النار) الذى نستحقه إذا

أخَلقنا بالحكمة التي خلقنا لها وغفلنا عن النظر فقالتنا الحكمة وحرمتنا العلم والتوفيق ، ولم ندر ما في السموات والأرض من العجائب ولا جرم أن الناس في الدنيا يحسون بالعذاب من طريقين : طريق أجسامهم كالجن والضرِب والتضيب ، وطريق الإدلال والإهانة والافتضاح ، والناس يشعرون بهما في الدنيا ، فترى الوزراء والأمراء ورجال الحكومات وذوى النفوذ إذا عزلوا أو أهينوا أو طردوا من مجلس رؤسائهم أو قبلت لهم كلمة لا تليق بمقامهم تؤلمهم أشد الإيلام ، وربما مرضوا أو ماتوا ، وافتضح الإنسان وسط الجمهور وإسقاطه أشد عليه من كل ضرب وسجن بل هو العذاب الحق ؛ وليس أضر على الإنسان من جهله وخزيه في المجالس الشريفة ومقام الملوك والعلماء والأدباء . ولما كان موقف أولى الألباب عند ربهم يقتضى أن يكونوا على نور وعلم يوافي مواقعهم ويناسب مراتب الملائكة ، وبلغتم مع ما لتلك الحضرة من الجلال والإجلال . قال تعالى (ربنا إنك من تدخل النار فقد أضرته) أهنته وأذلته وأهلكته وفضحته وأبغته في إبدائه والاستخفاف به من الانكسار الذي يلحق الإنسان وهو الحياء المفرط فالفضيحة ؛ وإنما عبر بالإخزاء لما فيه من معنى الانكسار الذي يعقب الافتضاح وهو نوع من العذاب كما قدمنا ، وأى افتضاح أشد هولا وأقوى من ظهور الجهل في موطن العلم ؛ فالعذاب بالنار اللطمة على الأئمة بخزي الجهالة لا تنقص عن نار الجسم المحرقة للهيكل للشاهدة فهؤلاء لما ظفروا أنفسهم بذنوبها وجهالتها عذبوا وافتضحوا (وما للظالمين) أنفسهم (من أنصار . ربنا إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان) وهو النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن (أن آمنوا بربكم) أى بأن آمنوا بربكم (فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) كباثنا (وكفر عنا سيئاتنا) صفأنا (وتوفنا مع الأبرار) مخصوصين بصحتهم والأبرار : جمع بر أو بار كأرباب وأصحاب (ربنا وآتانا ما وعدتنا على) السنة (رسلك) من الثواب لأننا نخاف أن لانكون من الموعودين بذلك الثواب لتصور في امتثالنا فندعوك بذلك تميدا واستكافة عسى أن لانكون من القصرين (ولا نخزنا يوم القيامة) لانفضحنا أمام الأشهاد حين تظهر الحبايا والنيات ويتضح ما غمض من السيئات و « نجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء » منشرا « تود لو أن بينها وبينه » حسنا مشيدا وتقول باليتنى كنت عنه مبعدا ، وكيف لا نجيب دعاءنا ونحجب رجاءنا ، وأنت قد أمرت بالدعاء ووعدت الإجابة وناديت للإيمان ووعدت بالإجابة ، وما علمناك نخلف الوعود فيما رأينا من الخلوقات كالنجوم الطالعة والشموس التالفة فإن مواعيدها محسوبة وأوقاتها معلومة ، فوعدك في شروقها وغروبها غير مكذوب ، فإذا كان هذا دأبك فإنما بوعدهك مصدقون (إنك لا تخلف للبعاد) في كل شيء في البعث وفي الثواب وفي كل ماله أدوار في هذا الوجود (فاستجاب لهم ربهم) إلى طلبتهم (أتى) بأنى (لأضيق عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) يبان عامل (بعضكم من بعض) جملة معترضة بين بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال من الأجر لما بينهما من اتصال واجتماع وانفاق في الدين ؛ ثم أخذ يفصل تلك الأعمال فقال (فالذين هاجروا) الشرك والأوطان والمشارئ للدين (وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى) أى بسبب إيمانهم بالله ومن أجله (وقتلوا) الكفار (وقتلوا) في الجهاد (لأكفرن عنهم سيئاتهم) لأمحون عنهم سيئاتهم (ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار نوابا من عند الله) أى أثيبهم بذلك إثابة من عند الله : أى تفضلا منه ، وهذا مصدر مؤكد (والله عنده حسن الثواب) على الطاعات قادر عليه ؛ ولما كان هذا القول يدل على إقبال الله على عباده وأنه يعطيهم ماسألوا في الدارين بدليل قوله فيما تقدم في هذه السورة « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » وقوله هنا « والله عنده حسن الثواب » فإذا كان ماعنده حسن الثواب في الآخرة وبؤتهم أجرم في الدنيا فكيف يرى المؤمنون ثقل الكافرين في الأرض بالتجارة ، ولا يختلج في صدورهم الوسواس ويدخلهم الريب فيما يسمعون مما يبارضه ما يرون ؛ ولقد روى أن بعض المسلمين كانوا يرون للشركيين

في رخاء ولين عيش . فيقولون إن أعداء الله فيما نرى من الحبر ، وقد هلكنا من الجوع ؟ فأجابهم بقوله (لا يفرتك تغلب الدين كفروا في البلاد) والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وإيمته ولكل أحد ، فإن ذلك صحابة صيف عما قليل تقشع أو كسراب بقية أو كالزبد يذهب جفاء . فذلك الثقل (متاع قليل) بانه فانية قصيرة الدة . قال عليه الصلاة والسلام « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصعبه في اليم فلينظر به يرجع » (ثم ما واهم جهنم وبئس المهاد) مامهدوا لأنفسهم (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها نزلا من عند الله) النزلا ما بهياً للضيف عند نزوله من طعام أو شراب . قال الضبي والنزل أيضا بالسكون :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جملنا القنا وللرهفات له نزلا

وقد نصب على الحال من جنات (وما عند الله خير للأبرار) مما يتقلب فيه الفجار لقلعة الثاني وكثرة الأول وسرعة زواله وكثرة الأول ودوامه . إن أحمدة النجاشي لما ناهاه جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فصلى عليه ، فقال المنافقون إن هذا يصلى على عليج نصراني لم يره قط ، ولقد أسلم عبد الله بن سلام اليهودي وأصحابه وأربعون من نجران ، واثنتان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية من الروم ، فأشار الله إلى هؤلاء وأمثالهم فقال (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم) من القرآن (وما أنزل إليهم) من الكتابين : التوراة والإنجيل (خاشعين لله) حال من الضمير في يؤمن باعتبار المعنى (لا يشترطون بآيات الله ثمنا قليلا) من عرض الدنيا كما يفعل الأخبار إذ يبدلون صفة النبي صلى الله عليه وسلم حفظا للرياسة . أولئك لهم أجرهم عند ربهم (أي ما خصوا به من أنهم يؤتون أجرهم مرتين) (إن الله سريع الحساب) لا يخفى عليه شيء من الأعمال ، ولا يعوزه تأمل وتفكر واحتياط ؛ ولا جرم أن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء (يا أيها الذين آمنوا اصبروا) على مشاق الطاعات ، وعلى الدين الذي أنزله فلا تصدركم عنه الشدائد وعلى ما يصيبكم من الشدائد فلا تشكوا للناس ، وعلى القضاء فلا تجحدوا في أنفسكم حرجا منه ، وعلى صدق الرضا فلا تسخطوا ، وعلى القرائض فلا تركوها وتلاوة القرآن فلا تهجروها ، وعلى الجهاد لثلا يفجأكم الأعداء ، وعلى أحكام الكتاب فلا تتمدوها (وصابروا) وغالبوا الكفار بالصبر على شدائد الحرب والشيطان بمخالفة الهوى ، وهذا من ذكر الحماص بعد العام للاهتمام (ورابطوا) وداوموا على الجهاد واثبتوا عليه ؛ وأصل الرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون الفريقان مستعدين للزوال فيحارب كل منهما الآخر ، ثم أطلق على كل مقيم بغير يدفع عمن وراءه مرابط ، وإن لم يكن له ما يربط من الخيل أو غيرها ، وفي الحديث « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو العدو خير من الدنيا وما عليها » يقول رباطوا أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للفرز وأنفسكم على الطاعة ، ويلحق بالرباط في الثغور انتظار الصلاة ، ففي الحديث « من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة » (واتقوا الله) بترك المعاصي (لتلكم نفلحون) بنيل النقامات الثلاثة التي هي : الصبر على مضي الطاعات ، ومصاربة النفس في رفض العادات ، ومرابطة السر على جنات الحق لرصد الواردات وهي المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة .

ولنا أن نقول : إن تكرار هذا ثلاث مرات : صبر ، ومصاربة ، ومرابطة داع حثيث إلى المحافظة على الأوطان وصد العدو الغير . فلعمرك لادين ولا دنيا ولا حياة لمن لم يصابروا ولم يرباطوا ، وكأن هذه النزوات وذكرها والوصايا بالمرابطة لناخذ حذرنا من الفرجة الذين هم ذئاب الشرق وآساده ؟ نعم نظر الله لنا وعرف ما سنقع فيه فكرر الأمر بالصبر والحرب في مواطن كثيرة من القرآن ، ولعمرك ما أقطع دول القرب على

الشرق فهل أحدثك عن أعمالهم؟ إنهم يلقون القنابل النارية من الطائرات على الشبان والشيوخ والأطفال والبهائم في طرابلس وصرافش والمراق والهند .

قال الأستاذ الزعيم الهندي للتهور للسي (غاندى) من مجلة الجامعة الهندية : (١) إن أوفيا مؤلفة من الإنجليز لا يمكنهم أن يتحملوا أن يدعى هندي واحد للساواة أو أن يعيش عيشة مساوية لهم إذ سيادة اللون الأبيض أصبحت ديننا لهم . (٢) لا شيء يستطيع صد الوطنى عن القيام بوظيفته ، ولو كان قوة الحكومة (٣) ليس هناك سلم ولا وثق بل الله الواحد الأب الرحيم للجمع (والأبوة هنا مجاز) (٤) إن مقاطعة المنسوجات الأجنبية من الانتقام ، ولكنه لا مفر منه لأنه لازم للوطنية لزوم النفس للحياة إذ بدونه لا يكون الاستقلال ، وإن جاء لا يؤمن عليه (٥) إن الولوج بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر الدقع وما هو أقبح من هذا ألا وهو العار على كثير من العائلات (٦) إنى أجزم بأن أوروبا اليوم لا تمثل روح المسيحية بل تمثل روح الشيطان ، وما أعظم نجاح الشيطان إذا ظهر لسانه يردد اسم الله (٧) إن النجاح يتوقف على الشجاعة والتصيعة والهمة والإيمان لاعلى المهارة القانونية وكثرة العدد والحيل السياسية وكره الناس وعدم الإيمان (٨) إن اضطراب البلاد لا يمكن معالجته إلا بإزالة الأسباب لا بتقديم حلويات الوظائف ولا بالهوبات أخرى (٩) إن الدافع البريطانية ليست مسئولة عن عبوديتنا أكثر من مسئولة مساعدتنا الاختيارية لبريطانيا اه كلامه .

أقول : إن أهل الهند يقرون (لمهاتما غاندى) بالزعامة . انتهى التفسير اللفظى للقسم العاشر من السورة وهو آخرها ولننظر الآن نظرتين : نظرة عامة في سورة آل عمران ، ونظرة خاصة آخر السورة .

النظرة العامة في سورة آل عمران

ولتقدم لهذه النظرة العامة مقدمة فتقول . اعلم أن الترية في العالم الإنسانى اليوم لاتعدو أمرين اثنين : الأول الترية الجسدية ، الثانى الترية العقلية ، ولاتالث لهما ، فإن الإنسان ما هو إلا جسم وعقل وما مثلهما إلا كتل الأعمى وللقعد للذكورين في الأفاصيص في القرون الثابرة والأيام الخالية والحتم المروية والعلوم الحسكية ، وقد أباح لهما الملك الدخول في بستانه والتفيؤ في ظللاله فسرقا معا أجل الفاكهة الخاصة بالملك ، فالأعمى بقوته والقعد بإرشاده بحيث كان الأعمى يحمل القعد وهو يده على الفاكهة النادرة الوجود الخاصة بالملك ؛ فلما علم الملك أمرهما من البستانى طردهما في العراء فتخطفتهما السباع وأكلتهما الوحوش والضباع ، وهما قد كانا في الجرم شريكين فأصبحا في الجزاء منفقين ؛ فالأعمى تمثيل للجسم ، والقعد البصير تمثيل للنفس ، فالنفس يحملها الجسم كما يحمل الأعمى القعد ، فلذلك درجت الأمم العاصرة لنا على ترية الأجسام بالاستحمام والرياضة البدنية والسفر على الأقلام والإينفال في الجبال والسير في البر والبحر والصناعات الشاقة والحداثة والبرادة والنجارة وقطع الأخشاب وما أشبه ذلك ، وقد كان الأمويون يرسلون أبناءهم إلى البادية حتى تقوى أبدانهم في إبان صفرهم ، ثم يرجعونهم إلى للدن ليتعلموا . هكذا أهل الممالك للصحدة يملون أبناءهم الشجاعة فيربونهم عند الأمريكيين الحجر . كذلك إخواننا الفرس كما قدمنا في سورة البقرة يملون أبناءهم الرماية وركوب الخيل ، وهم في السادسة من عمرهم ، ويجعونهم بعض الزمن تقويما لأبدانهم وتشجيعا لهم وتمويدا لهم على الصلابة والقوة والعدة والصبر ، وهكذا ترى نظار المدارس يربون التلاميذ بالألعاب الجنزيرة بالحركات المختلفة ولم تجسر أمتنا للصبرية أن تعلم الشبان في المدارس تعليما عسكريا تقوى أبدانهم ، كما قال الله تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم) لأن الأمة الإنجليزية اليوم محتلة بلادنا . فهذا مشروع منها لا يحمل أحد سلاحا في بلادنا إلا نادرا ، ولكن الآن وأنا أكتب هذا قد حصلت أمتنا على مجلس

نيابى، وعسى الله أن يجعله فاعمة خير، فيتعلم الشبان الأعمال الجندية في المدارس لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم. ولقد أظن في هذا اللقمة الفيلسوف أفلاطون في كتابه [الجمهورية] إذ أوجب كثرة الرياضة البدنية، كما أوجب الرياضة العقلية والموسيقى الغنائية، وعلق أعظم الآمال على رياضة الأبدان. وهكذا الإمبراطور غليوم الذى أثار الحرب الكبرى التى قلبت العالم الإنسانى اليوم، رأيت له خطبة قبل الحرب يحث فيها دولته أن يأمرها التلاميذ فيتعلموا الجندية في المدارس العالية علما منه أن رجال الحكومة لن يكونوا ناعمين لأوطانهم إلا إذا كانوا ذوي أجسام قوية.

ولقد اطلعت على ما نقل عن الولايات المتحدة منذ سنين، أنهم جرّوا التلاميذ في المدارس فأرسلوهم إلى الحقول عند العطلة أيام الصيف. فماذا رأوا؟ رأوا أن الذين أمرهم بالعمل في الحقول ومساعدة الفلاحين، رجحوا وهم أصح أبدانا وأقوى عقولا وأكثر درجات في الامتحان، وأحسن أخلاقا مما كانوا قبل ذلك، وهم مع ذلك شاهدوا جمال الطبيعة وخبروا مختلف النبات، وتمتعوا بالهواء النقي، وصاروا قدوة الفلاحين، ورغبوا في أعمالهم وشاركوهم في صناعتهم وشرحوا صدورهم بمشاركتهم، فطبت بذلك منزلتهم في أنفسهم. هذه شذرة من تربية الأجسام.

أما الأمر الثانى. فهو التربية العقلية، فإذا استكمل التلميذ التربية الجسمية وحسن غذاؤه، وروعت اللغة في ما كلفه وملابسه ومشاربه وجميع أحواله. هناك يعطى العلم من الرياضى والطبيعى، والعلم الدينى والأخلاق، وما أشبه ذلك على مقتضى البنية والأحوال العامة.

هناك يقبل العقل ما يهدى إليه ويقبل عليه، ويأبى الناس يقدرون هذا حق قدره، فانظر كيف يرى الإنسان نفسه وهو فى الهواء الطلق كيف تقبل العاني عليه أى إقبال، وتشرق نفسه بالحكمة، ويزدان بالجمال والبهاء والصفاء. هذا ملخص التربية فى الأمم الحالية، انتهى الكلام على المقدمة.

النظرة العامة لسورة آل عمران

إذا عرفت هذه المقدمة فاعلم أن القرآن إنما جاء لتربية الأمة الإسلامية، تربية جسمية وعقلية. فمن قرأ هذه السورة وظن أنها عبارة عن حكاية سيدنا عيسى وغزوة أحد ونبذة من غزوة بدر، وبعض أوامر ونواه، وهو تأمها تأمها فلاحظ له من فهم القرآن، فلتنظر فى هذه السورة نجد أنها قامت بالأمرين معا: تربية الجسم وتربية العقل.

أما التربية الجسمية، فإنها قد وضعت فيها فى غزوة أحد، ولا تظن أن ذكرها مجرد التاريخ أو الدلالة على النبوة، بل هى للتربية.

إن الإنسان لا بد فى تربيته من كبح جماح الشهوات من المآكل والملابس والتزواج، وهكذا كبح جماح الغضب والتوسط فيه، فلن يكون جباناً كما لا يكون متهوراً؛ فإذا انتهى من ذلك وجب عليه تنمية قواه العقلية والتحلل بالحكمة والعلم، هذا هو الإنسان أوله ومنتهاه، وبالتأمل فى هذه السورة ترى أنهم أمروا بالاعتدال فى الشهوات أثناء الغزوات، ألم تتركف وبختم على انتقامهم من مرا كزهم فى مصاف القتال حرصا على الضميمة. فهذا وأمثاله من تهذيب النفس الشهوية وتلطيف شهواتها وتكليفها، فأما انتظام الصفوف فى الجهاد وصبرهم على لقاء الأعداء يوم أحد وطنهم وقتلهم أعداءهم، فكل ذلك رياضة بدنية، وطاعة إلهية، وقوة بدنية، وهمة عليية، وأشرف ما يقوى به الإنسان بدنه، ويهذب به نفسه الإقدام فى الحرب والكفاح والقتال، فذلك خير الرياضات وأفضل مقو للبدن، ومتى قوى البدن قويت الروح. ولقد أخذت غزوة أحد مقدارا عظيما من هذه السورة، وكلها فى الشجاعة والشهامة والبرورة والنجدة، وذلك واضح كل الإيضاح.

وأما التربية العقلية . فحسبك أن ترجع إلى أولها لتتظن ذكر علم الله بما في السماء والأرض ، وأنه صورنا في الأرحام كيف يشاء ، والمهاجرة مع عيسى وقيام الله بالقسط في خلقه ، وحسن نظامه جل جلاله في هذا الوحد ؛ ثم اختتامها بالقسم العاشر الذي فيه عجائب خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .

ومن يجب أن يكون أسلوب القرآن جاريا على أحسن الأساليب المعروفة في التربية ، فإنك ترى أن سورة يوسف ابتدئ فيها بالتربية الأخلاقية من تسمية إلى منزلة إلى سياسية مدنية . ثم انتهى في آخرها إلى أن طلب من الله أن يلحق بالصالحين ، هكذا سورة البقرة فإنه ختمها بذكر السموات والأرض ، وكيف يدعو المؤمنون في قوله : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا الخ) ، ثم طلب للغفرة والرحمة ، هكذا في سورة آل عمران التي نحن بصدها ، ترى السورة تحت على مكام الأخلاق من الصبر والثبات والجهاد والإخلاص في الأعمال والطاعات ، حتى إذا انتهى إلى آخرها وقد تمت قصة غزوة أحد وفيها حوادث الحرب وما فيها من العبر ، أخذ يشرح عجائب السموات والأرض . وختم السورة بالدعاء كأن يقول العبد : (ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفرنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) ، كما قال تعالى في سورة البقرة : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلى قوله تعالى (واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا الخ) .

فكأنه يقول في هذه السورة ، أيها الناس ليس مقصد الحياة والسيئات هذه الأعمال الظاهرة ، ولا ظواهر الدين من الجهاد والصلاة والحج ، إنما هذه مهذبات لقلوبكم ، مربيات لنفوسكم سلم إلى فهم دروسكم النافعات من الحكم العاليات كالتي تفكر في النجوم ومعرفة العلوم ، انتهى الكلام على النظرة العامة في سورة آل عمران .

النظرة الخاصة بالقسم العاشر منها ، وهو آخر السورة الذي نحن بصدد الكلام عليه لقد علمت أن ما جاء في سورة يوسف وهي أحسن القصص ، يناسب ما جاء هنا وما جاء في سورة البقرة ، وأنه بعد أن أتم دروس الحياة من تهذيب نفسه في السجن ، وحسن الأخلاق مع العاشرين فيه ، ونظامه للحكومة المصرية ، وهو تمام الحكمة العملية : أي تهذيب النفس وسياسة للنزل وسياسة الأمة ، وبعد أن أفيض عليه العلم لتكديله القوة الناطقة بالحكمة ، جمع ذلك كله في قوله تعالى : (رب قد آتيتني من ليلك وعلمتني من تأويل الأحاديث) فإتيان الملك إشارة إلى الثلاثة الأول ، وتعليم الأحاديث إشارة إلى الحكمة والنبوة ، ثم قال تعالى : (فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفى مسلما وألحقني بالصالحين) ، فذكر خلق الله للسموات والأرض أولا ، ثم طلب أن يلحق بالصالحين بعد الوفاة مسلما في جوار ربه الذي فطر السموات والأرض حتى يتمتع بنعمة العلم والذات النفسية بعد الخروج من هذا النظام الجسمي وهو القيام الم محمود ، وموقف السعادة ، وموطن الكرامة ، والمشاهدة لإبداع فاطر السموات والأرض ومشاهدة الأنوار القدسية .

انظر أيها الذكي كيف كانت نهايات الأنبياء أن يلحقوا بالعالم الجميل ، عالم العلم والحكمة ، وأن يتخلصوا من هذه المادة بعد أن هذبوا أنفسهم بها ، فيخرجون من الظلمات إلى النور . وتأمل في هذه السورة وانظر أيضا كيف كان في أولها الإشارة إلى غزوة بدر . فأما غزوة أحد فقد أخذت منها قسطا كبيرا ، واستغرقت منها جزءا وافرا ، وفيها درسوا نظام الحرب وحفظ الروء وشرف النفس ، ومرتوا أجسامهم تقويت أبدانهم ، وقد رجع من لم يمت منهم مسلما . ولما انتهى القول فيها أخذ يتدرج من العمل الجسمي إلى العلم الحكيم ، أفلا تعجب كيف أخذ يذكر العلماء بالميثاق الذي أخذه عليهم قبل الشروع في الدروس العلمية ، وكيف قال تعالى : (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب الخ) وأخذ يقرهم ويوعظهم ولعمرك

الفكرية فيها جنة الحكماء والعلماء . نبينا صلى الله عليه وسلم ينظر في السماء ليستجلى الجمال ، وللؤمنون ينظرون
المواهب ثم يقولون (وتوفنا مع الأبرار) سعادات الأمم بالعلوم ، وسعادات الأفراد بالعلوم .
وكانهم بعد أن آتموا دروس الأخلاق نالوا مراتب الإشراق . أولست ترى أن هذا الترتيب مقصود
الوضع لتقرأ وتعمل به ، وأن غزوة أحد لم تذكر ويقبها العلم إلا لتجد في الأمرين : تربية الأجسام ، ونظام
المقول بالعلوم لهذا جاء القرآن .

خطاب إلى علماء الإسلام في الأرض

أيها العلماء أليس ما ذكرته الآن من النظام والحكمة والإبداع من مقتضى البلاغة ، نعم إن البلاغة ليست
قاصرة على الأساليب الكلامية ، ولقد عكف كثير من العلماء على الألفاظ فشرحوها ، وعلى الأساليب فبينوها
وقالوا للشبان اعرفوا المعاني والبيان والبدیع وكلام العرب تعرفوا بلاغة القرآن ، وهذا حق من وجه ،
ولكن الوقوف عند هذا الحد جهالة عمياء وشئنة بتراء . القرآن يقوم قد جاء لتربية الأجسام بالاختيشاب
(تقوية الأجسام فصير كالخشب مثابة وقوة) والتحرين لتقوى العضلات بالحرب والدافعة والرياضة الجسمية ،
ثم التحلي بالمعارف الطبيعية والفلكية حتى تستكمل الأفراد ويقوم النظام في الدولة . فقرآن يكون تربيته على
هذا النسق يدعو أتباعه لكمال الأجسام والمقول ، كما في قوله تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم)
وضع حد للباضي

قولوا أيها العلماء لتلاميذكم : إن القرآن جاء للقدوة ، ولا تقصروم على دلالة الألفاظ بل اقلوم منها إلى
المعاني ؛ وبعبارة أصح مرتبوا أجسامهم عملا وعقولهم علما . خذوم إلى الحقول فأروم نظام المزارع وبهجة
الزهر وجمال الشجر . خذوم إلى الفلوات والجبال والخلوات وأروم صنع ربهم . أبغظوم في جوف الليل
وصلوا معهم النهجد وأروم النجوم وشوقوم لعم الفلك ، ولا تعطوم درسا فيه حتى يشقوا جمال النجوم ،
ويطلبوا ذلك منكم طلبا حثيثا . هذا هو دين الإسلام .

لما كان الصحابة والتابعون يعرفون مفزاه على سبيل الإجمال أطار نومهم وأيقظ أجنانهم فهجروا أوطانهم
واستمدبوا العذاب ، وساروا في الأرض شرقا إلى الصين ، وغربا إلى أرض فرنسا . كل ذلك لأنهم كانوا
يعرفون معنى القرآن ، وكانت بلاغته في نظرم غير ما تدرسون ففاصوا على له لاعلى الألفاظ .

ألا ترى إلى قوله تعالى هنا (آيات لأولى الأبواب) والعلوم إما قشور وإما أبواب : جمع لب . هكذا
المقول منها . القشرية ومنها لبية ، وأكثر النفوس في الأمم الإسلامية تربت تربية لفظية ، والألفاظ قشور ،
وقد آن أيها العلماء أن تربوا الأبواب . فتخاطبو الوجدان والعقل ، وليقف العلماء عند هذا الحد ، وليصلا
الجد بالجد .

القرآن والبلاغة والمفسرون

إن دراسة القرآن في العصور الحالية كانت تكلفية ، وقراءة سطحية ، وعلوما لفظية . فعكف الناس على
الألفاظ وكثر الحفاظ وقل للفكرين فجمدت القرائح وماتت العلوم . لاسيا لما تولى أمر هذه الأمة الأمم
الأعجمية الذين يجهلون العربية في القرون للتأخرة ؛ فطمست الحقائق ، ونامت البصائر ، وماتت النفوس ،
وفرت العلم إلى الغرب ، وخلي الشرق قانا صفتا وصعيدا جزرا .

فلنجعل اليوم حدا بين للباضي والمستقبل وليفطن العلماء بمدنا إلى ما ذكرناه ، وليدرسوا القرآن بنحو
الأسلوب الذي بيناه ، وليفتحوا المعاني بصائرهم ، وليضموا إلى تربية الأجسام تربية المقول . إن لم يفعلوا
ذلك لم تعش الأمم الإسلامية قرنا واحدا بل تفتتها الأمم الأجنبية .

أيقظوا العقول أيها العلماء . ها أناذا أقول نحن أمة عربية فلندرس القرآن الذي ورثناه درسا يناسب الجيل للجيل ، ولناخذ بأيدي أبنائنا إلى مقام الكمال .

لطائف في هذه الآيات

اللطيفة الأولى : (اختلاف الليل والنهار) . اللطيفة الثانية (ربنا ما خلقت هذا باطلا) . اللطيفة الثالثة (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار) مع قوله (ولا نخزنا يوم القيامة) .

اللطيفة الأولى

هل لك أن أعدت معك ساعة في اختلاف الليل والنهار ، ومجانب السموات والأرض بعد ما قرأته في تفسير سورة البقرة من مجانب الليل والنهار في الأقطار الجنوبية والشمالية ، وطول النهار وقصره باعتبار الأقاليم ، ففي هذا اليوم أحدثك حديثا آخر غير ما تقدم ؟ أندري فيماذا . ذلك في حساب السنة الكبيسة والبسيطة ، وإنما أردت ذكرها هنا لاختصارها خيفة التطويل ، ولأربك من جمال العلم والحكمة ، ولأعاود ذكرى جمال السماء كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاود النظر كل ليلة ليحتل الجمال . فها أناذا أعاود ذلك لأربك لب العلم ، ولأنك من أولى الألباب بدليل سيرك في هذه القالات مع تشابه القلوب وتجاذب النفوس وتعاشق الأئدة ، فلا زدك علما ليكون مفتاحا لسعادتك ونبراسا لريقك في مستقبل حياتك ، وليجعلك لاهداً في طلب العلوم ، ولتكون نورا وسعادة لبلادك ولدولتك ، ولا تتكل في ذلك على أبناء جنسك بل ساعد أيديك الله على ارتقاء نوع الإنسان وانشر العلم ليصلوه ، فإن حال الأمة يستوجب البكاء بالدمع ؛ فامدد يدك لتتعاون على إنقاذها من هاوية الشقاء في بلاد أفريقيا وآسيا فإن القرنيحة أدلوم ، ليكن هذا مقصد حياتك ومرمى آمالك لتكون من خلفاء الله للصالحين ، واعلم أنك مسئول كما أنى مسئول ؛ فسر مسمى وانشر العلم بين أمتك ، واحفظ الودعة التي استودعتها ، والأمانة التي أوثمت عليها ، وأدّها إلى أهلها ، وها أناذا أدلى إليك بمسألة الحساب السنوي ، وبالكلام على الليل والنهار ، وعلى الفصول الفلكية ، وعلى نبذة لطيفة من العجائب الأرضية ، ولأبدأ بالكلام على الحساب السنوي فأقول :

السنين الكبيسة والبسيطة ونظام أوائل الشهور والسنين العربية

إن لها أدوارا كبيرة ، وأخرى صغيرة ، وكل دور من الأدوار الكبيرة تابع لما قبله بلا خلل في السير ولا خلل في النظام .

إن السنة الحساية (٣٥٤) يوما وخمس وسدس يوم ، والدور الصغير (٣٠) سنة ، والدور الكبير (٢١٠) من ضرب (٣٠ في ٧) وأيام السنة البسيطة (٣٥٤) يوما لأن الكسر إذا نقص عن النصف أُلقي في الحساب التقريبي ، والسنة الكبيسة (٣٥٥) يوما يكال ما زاد عن النصف من الكسر ، والكبيسة من الكبس وهو الجمع .

فإذا أردت معرفة أول سنة من السنين الهجرية فأسقط التاريخ العربي التام (٢١٠) مرة بعد أخرى ، ولا تخلو الحال بعد ذلك الإسقاط ؛ فلما أن لا يبقى شيء ، وإنما أن يبقى أقل من ثلاثين ، وإنما أن يبقى ثلاثون فأكثر ، فإن لم يبقى شيء وهي الحال الأولى ، فإن أول السنة التي بعدها يوم الخميس ، وهو أول التاريخ كما في سنة ١٣٦١ لأنها مقسومة على (٢١٠) غير السنة للطلوبة .

وإن زادت من ذلك وهي الحال الثانية فليمر بما زاد على هذا البيت :

كف الحليل كفه ديانه عن كل خل حبه فضانه

(أو هذا البيت) :

إن رمت مجدا فلا ترقد دجى أبدا خوف القوات لما ترجو من الشرف

والمطلوب ٣٠ حرفا منها ١٩ حروفا مهملة و ١١ حروفا معجمة ؛ فالحروف المعجمة تقابل السنين الكييسة والمهملة تقابل البسيطة ؛ ففى كل دور من الأدوار الصغيرة ١٩ بسيطة و ١١ كييسة ، لأن الخمس والسدس الذى يهمل فى حساب البسيطة ويحجر فى حساب الكييسة يجمع فى ٣٠ سنة ١١ يوما ؛ فالثلاثون مركبة من عديدين فى هذا المقام أوليان أعنى لا يقبلان القسمة كما فى علم خواص الأعداد وها ١٩ و ١١ .

فإذا مررت بالباقي بعد إسقاط التاريخ على هذا البيت ، ووصلت إلى حرف منه مثل الكاف فى كفه ، مثلا وهو التاسع ، فاجعل لكل سنة بسيطة ٤ ، ولكل كييسة ٥ ، واجمع الحاصلين وزد على الحاصل واحدا دائما واقسم المجموع على سبعة وما بقى فابتدى به من يوم الخميس .

الحالة الثالثة أن يكون العدد (٣٠) فأكثر فاجعل لكل دور صغير (٥) ثم افضل بما هو أقل من ٣٠ مافاعته فى الحال الثانية ، وضم واحدا أبدا واجمع تلك الحواصل واقسمها على سبعة ، وما بقى ابتدى به من يوم الخميس فيكون مثلا سنة ١٣٣٩ بقسمة ما قبلها على عدد (٢١٠) يكون الباقي ٧٨ منها ٣٠ فى ٦ وهذا دوران صغيران نضربهما فى ٥ تساوى ١٠ وهذا حاصل أول ، والباقي بعدها ١٨ فيها سبع سنين كييسة و (١١) بسيطة و ٧ فى ٥ تساوى ٣٥ و ١١ فى ٤ تساوى ٤٤ ، وضمهما إلى (١٠) يكون المجموع ٨٩ ضم إليه واحدا لأجل السنة المطلوبة يكن المجموع ٩٠ فقسه على ٧ يكن الباقي ٦ نبدا به من يوم الخميس يكون أول السنة يوم الثلاثاء نظرائه فى النتائج المصرية فوجدناه كذلك ، وهكذا إذا فعل مثل ذلك سنة تأليف هذا التفسير أى سنة ١٣٤٢ وجدنا أول السنة يوم الاثنين لأن الباقي خمسة نظرائه فى النتائج المصرية فوجدنا أول السنة يوم الثلاثاء ، فالفرق يوم واحد بحثنا فوجدنا أن الهلال مكث بعد الغروب ٤٩ دقيقة ، وهذا دليل على أن اجتماع النيرين كان فى ليلة الاثنين حتماً لأن القمر يتأخر كل ليلة ستة أسابيع الساعة ، فالشهر الحقيقى أوله يوم الاثنين والشعرى يوم الثلاثاء . فانظر إلى هذه القاعدة التقريبية كيف وافقت الجداول التى استخرجت من التريجات ، وتجب كيف كانت الأدوار الصغيرة والكبيرة لا تختل أمد الدهر فى الماضى والحال والاستقبال فعلى كالكسر الأعشارى الدائر ، فكل سنة من الدور الكبير تطابق نظائرها من الأدوار التى قبلها والتى بعدها فى الأيام فنجد سنة تأليف هذا الكتاب تطابق نظيرتها فى الدور للقبل بعد (٢١٠) سنة ١٥٥٢ فإذن القاعدة تقتضى أن يكون أولها يوم الاثنين تحقيا ويوم الثلاثاء شرعيا .

فانظر اختلاف الليل والنهار والسنين القمرية والشمسية وتقلب الأحوال كيف كانت منظمة لاخلل فيها (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) أى تناقض واختلال (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

الكلام على الليل والنهار

(١) النهار هو الزمن الذى يضى من شروق مركز قرص الشمس من الأفق الحقيقى إلى غروبه

بالأفق المذكور .

(٢) تميزات مدة اليوم - للناطق الأرضية مدة النهار ومدة الليل - تتغير فى المحل الواحد وفى العرض

الواحد لتغير الوقت من السنة ، ولهذا التغيرات نهاية عظمى ونهاية صغرى من ستة أشهر إلى صفر كما تقدم فى سورة البقرة ، ولما كانت مدة الليل والنهار تنقسم الأرض بالنسبة لها إلى خمس مناطق يتفصل بعضها عن بعض بالمدارين وبالدارتين القطبيتين وجب أن نرسمها هنا إذا أغفلنا الرسم فى سورة البقرة فهالك شكلها . .



(شكل ٧)

فالمنطقة الأولى المدارية يحدها من الشمال مدار السرطان وعرضه ٢٧° ثانية و ٢٣ درجة عرضا شماليا ، ومن الجنوب مدار الجدي ، وعرضه ٢٧° ثانية و ٢٣ درجة عرضا جنوبيا ، ويقسمها خط الاستواء إلى قسمين متساويين وتسمى للمنطقة الحارة أو المدارية .

والمنطقة الثانية المنطقة المعتدلة الشمالية وهي المحصورة بين مدار السرطان والدائرة القطبية الشمالية ٣٣ دقيقة و ٦٦ درجة. الثالثة للمنطقة المعتدلة الجنوبية وهي المحصورة بين مدار الجدي ، والدائرة القطبية الجنوبية ٣٣ دقيقة و ٦٦ درجة . الرابعة والخامسة للمنطقة للنجمة الشمالية ، والمنطقة للنجمة الجنوبية ، وهما المحصورتان بين القطبين والدائرتين القطبيتين ، فالمنطقة الحارة والمنطقتان المعتدلان فيها جميع النقط الأرضية التي فيها مجموع مدتي النهار والليل ٢٤ ساعة . وأما للمنطقتان للنجمةتان فتشتملان على النقط التي فيها مجموع مدتي الليل والنهار يزيد عن ٢٤ ساعة ، ويبلغ سنة كاملة ، ويمكنك معرفة ذلك التفصيل في الجدول المذكور في سورة البقرة .

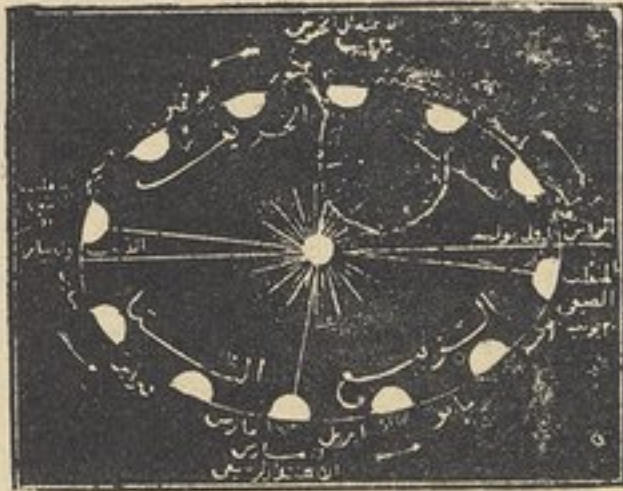
الكلام على الفصول الفلكية

تنقسم السنة إلى أربعة فصول يحدها الاعتدالان والتقلبان . وهي الربيع وبيتهدي* من الاعتدال الربيعي وينتهي* بالمنقلب الصيفي . والصيف ، وبيتهدي* من المنقلب الصيفي ، وينتهي بالاعتدال الخريفي . والخريف ، وبيتهدي* من الاعتدال الخريفي ، وينتهي بالمنقلب الشتوي . والشتاء ، وبيتهدي* من المنقلب الشتوي ، وينتهي بالاعتدال الربيعي .

هذه أوائل الفصول على وجه التقريب وهي تختلف من سنة إلى أخرى اختلافا يسيرا جداً

أول فصل الربيع ١٩ مارس — أول فصل الصيف ٢٠ يونيو — أول فصل الخريف ٢٢ سبتمبر — أول فصل الشتاء ٢٠ ديسمبر .

مدة الربيع تقريبا ٢٠ ساعة و ١٩ دقيقة و ٩٢ يوما — مدة الصيف تقريبا ٨ ساعات و ٤٤ دقيقة و ٩٣ يوما — مدة الخريف تقريبا ١٨ ساعة و ٩ دقائق و ٨٩ يوما — مدة الشتاء تقريبا ٤٨ دقيقة و ٨٩ يوما .
انظر هذا الشكل تعرف به انتشار الأرض حول الشمس وترتيب الفصول بالنسبة لبعضها .



(شكل ٨)

في بعض أرقام أوائل الفصول في هذا الرسم ما يخالف ما تقدم ذلك لأنها تختلف من سنة إلى سنة في حدود ضيقة جداً كما قدمنا .

أيها الذي تأمل فيها ذكرته لك من علم الفلك؛ إن عادة الناس غالباً أن يقرءوا في الآيات القرآنية الخاصة بالأحكام وهي قليلة جداً اختلاف الأئمة رضي الله عنهم في المسائل ، ثم إذا ذكروها يقولون : وتفصيل هذه المسائل في كتب الفقه فيقولون قارىء التفسير على كتب الفقه ، ولقد أحسنوا لأن التفسير للإجمال للدرس الفروع ، ومن العجب أن لا تكون العناية موجهة بهمة أشد إلا إلى علم الفقه ، وهذا هو الخطأ العظيم والداهية القاصمة التي حلت بالأمم الإسلامية ؛ فمن أين جاء هذا الخطب للإسلام . اللهم إن كل العلوم مطلوبة فهي جميعها فرض كفاية ، وإن العلوم التي يظهر بها آثار جمال الله وحكمه لاغنى للناس عنها بل تركها أضر بأمة الإسلام ؛ فلماذا لا يذكر الإجمال لجميع العلوم في التفسير ، ويحال القارىء على كتب تلك العلوم ، فيقال في قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبصار) .

انظر ما هنا وارجع إلى التفصيل في علم الفلك الذي هو من فروض الكفاية في علوم الدين ، وإنه يجب أن تقوم حكومات الإسلام بتخصيص طائفة لهذا العلم ، وإحضار جميع الآلات وللراصد لهم حتى يرجع المجد القديم وحتى تقوم بواجبنا في هذا العلم كما فعل ذلك في سائر العلوم لا في الفقه وحده ، فإن القرآن قد شوق إلى علوم الفلك والطبيعة تشويقاً كثيراً بآيات كثيرة .

نبذة في عجائب الأرض

ها أنت ذا اطلعت على بعض الجمل في حساب السنين ، وكيف كانت لها مقادير محصورة بمداول منظمة ، والقاعدة التي ذكرناها في أوائلها تنطبق على كل زمان وإن كانت تقريبية .

فها أنا ذا أذكر لك نبذة لطيفة من عجائب الأرض التي لا تنتهي ، وأقتصر على مادة لا يبيأ بها الناس لأنها مبدولة بهم في كل مكان يأكلها التني والفقير والعالم والجاهل والفاسق والصالح . كلهم يأكلون ولا يملون ويضعونها في طعامهم وهم لا يدرون ، فكأن الناس في هذا العالم مغمورون في الألتاز محبوسون في الأقباس أو يأكلون وهم مغمضون ، وكأنا في هذه الأرض نيام ، وكأن جمال هذه العوالم لا يظهر إلا إذا

فارقنا هذه الحياة ، ولعلّ الأمم الإسلامية ستستيقظ لذلك قريبا فيرون النور ، وشاهدون الكتاب السطور في رق هذا العالم للنشور ، ويدركون سر مايا كلون وما يشرون وهم غافلون . لعمري لم يحوجنا الله للطعام ولا للشراب ولا للباس إلا ليوقظنا إلى ما حولنا فنعله وإلا فإله يرزق السود بلا نصب ولا تب الكرامته ولا مناهتنا ؟ كلا بل الله كرم الإنسان وتكريمه أن يطلع على عجائب هذه الدنيا وهو خلق جهولا فلا بد له من وازع يزعه ، وقاهر يقهره ، ومسيطر يجبره ، وما ذلك إلا أن تكتر حاجاته ومطالبه فيستحث الركاب للطلب . فبينما هو يجد ملء البطن طعاما وشرابا إذا هو قد ملأ عقله من عجائب الحكمة وبدائع الخلق .

لهذا خلقك الله أيها الذكي ، وإلا فبإله قل لي فكر في نفسك ما فائدة وجودنا ، وأي فارقة بين الحيوان والإنسان كلاهما يأكل وأحدهما موثر التناء والآخر كتب عليه الجهد والنصب ، لماذا هذا كله ؟ ذلك لصاية الله بالإنسان ، ولما كان للسلون معرضين عن هذا الجمال في القرون الأخيرة فمن عناية الله بهم وجه لهم ، وأنه يريد أن يرقهم سريعا . أرسل القرنيحة علينا لماذا ؟ ليوقظونا ، فإننا تركنا مواهبنا ، فإذا كانت أغذية الحيوان موفرة أكثر من أغذية الإنسان وكان ذلك عناية بالإنسان ورحمة به ليتعلم . فهكذا تكون الأرزاء للسلطة على أمم الشرق ، ومنهم للسلون من الأمم القرنيحة لم تسكن إلا للعناية بهم ليوقظهم الله حتى يتأملوا في كل شيء فيعلموا أنهم مضمورون في وسط النور والجمال وهم لا يعلمون . أتدري ما هي المادة التي أنبأتك بها هي :

ملح الطعام

أنا قلت لك إننا نأكله ، وقلت لك إننا لانعرف ما فيه من الحكمة والجمال والعلم والبهجة والنور . هذه المادة تسمى في علم الكيمياء (كلورور الصوديوم) وقد يضمها الطيب في مذكرته بهذا الاسم ، فهل تدري ما معنى (كلورور الصوديوم) ربما كنت قرأته في المدارس ، ولكن قارى هذا العلم بمرّ عليه مرور أكثر المسلمين على آيات القرآن لا ينظر إلى الجمال الذي ستراه ؛ سمى الملح بذلك لأنه مركب من عنصرين : الكلور ، والصوديوم . أما الكلور فهو جسم غازي لونه أصفر مخضر أثقل من الهواء يؤثر تأثيرا كبيرا في أعضاء التنفس فيحدث سعالا وتهيجا في الأغشية المخاطية ، وإذا استمر تأثيره أحدث اللوت .

وأما الصوديوم فهو فلز لين ذو لمعان فضي إذا ألقته في الماء اصطهر فيه وتحرك بضه على بعض فوق سطح الماء ويتبى بفرقة ، وإذا ألقته في الماء للسخن فإن حرارة الصوديوم تحدث التهابا في الأبدوجين ، فيلهب لها أصفر .

هذان العنصران هما اللذان تركب منهما الملح فأحدهما يحدث أثرا في الرئة وما والاها وينتهى بالموت ، وثانيهما ينتهب في الماء . فهذان الجوهران اللزيجان هما نفس الملح الذي نأكله ، وهذا الملح قسبان : قسم في ماء البحار بنسب مختلفة ، ويستخرج بالتصعيد في الملاحات المعروفة كما في الاسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، والبرلس بمصر ؛ فيترك ماء البحر في حوض مدة إلى أن يروق ، ثم ينقل لغيره ويرسب الملح فيرفع ويجف .

وقسم هو للبحر الجبلى فيستخرج من أما كنه كما تستخرج الأحجار ، وتارة يستخرج بتوجيه المياه في دهايز منسمة مدة حتى يؤثر الماء في كتلة الملح ، ثم تقل بواسطة آلات إلى قدور من الصاج وتصعد فيها ، وهذا الملح هو الذي تصدنا أن نبحت في عجائبه أنه قد يكون ملونا بالصفرة أو السمرة بسبب مواد غريبة ضارة ، وإن لا يمرض قبيح إلا بعد تبلوره وخلوصه من المواد التريبة . أتدري ما عجائبه التي شوقتك إليها ؟

ذلك أنه يكون عبارة عن أجسام صغيرة مكعبة ، وهذه للكعبات باجتماعها ، والتصاق بعضها ببعض تريك
 هرما مجوفاً بديع النظام ، فانظر كيف كانت تلك الأجسام الصغيرة مكعبة ، وكيف بني بعضها على بعض
 فأصبحت هرما ، ولم تكون هذه قاعدة مطردة فيه ؟ وهل هذا وأمثاله هو الذي علم للمصريين بناء الهرم
 الأكبر حتى جعلوه أصلاً للكابيل المصرية وللوازين ، وجعلوه على نمط الدائرة الفلكية ، واستخرجوا منه
 الدراع البلدي والرطل والأردب كما ستقرؤه في سورة الرحمن عند قوله تعالى (والسما رفعها ووضع الميزان)
 ثم أي حكمة جعلت اجتماع هذين الجسمين الضارين للإنسان نافعاً للإنسان محدثاً أجمل بنيان وأبداع نظام
 وأجمل أشكال . ذلك كله في الملح الذي نأكله . أفلمت ترى هذا عجيباً ؟ .

وهذه صورة الشكل المذكور الهرمى :



(شكل ٩)

وسترى في سورة الشعراء إن شاء الله صورة الزهرة مرسومة ، وكيف كانت باختلاف أوضاعها
 وأشكالها قد استخرج منها العلماء رتب النباتات كلها الباتة مثلات الأوف ، مع أننا نتمتع بمنظرها وبرائحها
 ولاعلم لنا بأنها مفتاح علوم النبات ، فسترى هناك إن شاء الله العجب العجاب ، وبعده يأتي في سورة الأهم .
 انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية (ربنا ما خلقت هذا باطلاً)

هذه الآية ليس يدرك حقائقها إلا من اطلع على علم الطبيعة وعلم الفلك (ولكن أكثر الناس لا يعلمون .
 يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) وهم عن عقولهم معرضون .

ولكن لأفص عليك من العجائب الدالة على النظام جمالية ، ولعدوى إن هذا العلم غاية علم العلماء ،
 ونهاية حكمة الحكماء ، ولكن لست أتعمق فيما صعب من العلوم الطبيعية ، بل أفص عليك نبأ ما تراه حواك
 أو تعرفه في نفسك .

(١) أنت ترى الدجاج والبط والأوز ، ترى هذه الحيوانات داخلة في بيوتنا ، ترى الدجاجة والبط
 والأوزة يبطن ويفقس ويرين أولادهن ، وترى الديك ونظائره في الأوز والبط لا يتعرف بأبنائه ولا يتحنن
 عليهم ولا يبالي بتعليمهم . فلم هذا ؟ ذلك لأن القرخ إذا خرج من البيض تراه كامل الزغب ، وموفور
 القوة يجرى وراء أمه كأنه كان حياً بالأمس (٢) وترى على تقيض ذلك الحمام يساعد ذكره أثناء في تربية
 صغارها ، فلم حصل التباين بين ذكراتها ما السبب ؟ السبب أن أفراخ الحمام ضعاف ليس عليهم وقاية تبين
 فإن أفراخها تخرج ليس عليها ريش ، ثم يخرج بعد أيام فترمز معاونة الذكر للأنثى فتعجب (٣) وترى أن
 النمل والنحل اللذين جرت العادة أنهما لا يموتان زمن الشتاء ، ألهمهما أن يجعلا القوت ويدخرهما ؟ (٤) فأما
 الزناير الجر والسود والصفير والجراد وأصراهما ، فإنها لما جرت العادة أنها لا تعيش سنة كاملة لم تلهم الجمع
 والادخار بل تركت وشأنها ، فإن الزناير بأنواعها الثلاثة تسكن في أماكن نائمة بلا أكل
 ولا شرب ، حتى إذا جاء فصل الربيع استيقظت من مراقدها مرة أخرى . فأما الجراد فإنها بعد وضع بيضها
 في أرض سالحة له تتقاذفها حوادث الجو والبرد ، ولواذع الحر فيموت ويبقى البيض في الأرض مدفوناً

حتى إذا جاء فصل الريح قفس في الوقت للعلوم وكما كان أبواه (٥) ترى الجمجمة الإنسانية مركبة من سبعة عظام فواحدة هي قاعدة ، وهي عظم صلب يحمل سائر العظام وأربعة جدران : أحدها عظم الجبهة تمتد من طرف التحف إلى آخر الحاجب ، والثاني مقابله مؤخرها وهو أصلب الجدران ، والآخر عظمة ويسرة وفيهما الأذنان ، وعلى هذه الأربع التحف كالتسقف للدماغ وهو عظامان وشكل كل منهما مستدير . وقد اتصلت هذه العظام بالشئون جمع شأن تشبه لسان للنشار دخل بعضها في بعض ، وأحد الشئون تراه في مقدم الرأس عند الجبهة ويسمى الإكليل ، لانه في موضع الإكليل من الرأس والآخر عند قرة القفا وهو شبيه بالمال في الخط العربي ، والثالث في وسط الرأس من المال إلى الإكليل ويسمى للستقيم ، فتكون صورته هكذا) — (وإنما تمددت هذه العظام في الرأس لأنها لو كانت عظاما واحدا لكانت إذا حل بأحدها كسر اختل الضو بنامه . فأما الآن فإن الحلل لا يجاوز موضعه فيمكن علاجه (٦) أقول : أعد نظرا في العين للذكورة أوّل السورة وتأمل في أن الزجاج الذي يستعمله الناس وينتفعون به ، إنما هو مواد رملية قد مزجت بالقليل وبالمتنيسبا حتى صارت شفافة تستقبل ضوء الشمس ولا تحجبه فهي كالهواء ؛ فالهواء الموصى شفاف ، والماء شفاف ، والزجاج شفاف ، واللّاس شفاف . وهذه كلها لا تحجب ضوء الشمس عما وراءها ، فتصعب كيف كان الرمل للذكور أو ما يقوم مقامه قد دخل في النبات والحب وسائر ما تأكله بطرق مختلفة فتأكله أعضاؤنا الهاضمة وسرى في المروق والشرايين ، وأخذت القوى التي في داخل أجسامنا تسطفيها وتلفظها من الدم الجاري في المروق وتؤديها إلى العين ، فتضع في معملها ما هو كالزجاج الشفاف منوها بأبواب ثلاثة تقدمت لتشاكل الهواء الحامل للضوء الجاري من الكواكب الحامل لصور الأشباح والألوان الداخلة من غطاء العين للسمى بالقرنية التي هي كالقرن الأبيض وهي شفافة كالهواء ، ثم يدخل على تلك الصور الزجاجية الثلاثة ، فتعجب معي وقل لي رعاك الله كيف اتفق أن كان الهواء شفافا والقرنية والبيضية والجليدية والزجاجية ، وكيف انتخت للادة الزجاجية لتوضع في العين ، وكيف جعلت مناسبة الوضع والحجم لرسم الصور فيها بحيث تكون الجليدية معدبة الوجهين لترسم الصور عليها موافقة لما تقرر في علم الناظر قديما ، وفي علم الطبيعة حديثا ، هل كان كله اتفاقا ؟ أما أنا فأقول كلا ؛ فهل أنت معي ؟ وأما لم أخاطبك الآن إلا بالمقل والفهم ، ووكلت الفهم لمقلك . أولست ترى أن هذا الوضع لم يكن عبثا وباطلا ولتوا ، بل كل ذلك قد عرفت أنه نتيجة ظاهرة واضحة ، ولكن أكثر الناس من العامة وصغار أهل العلم ينظرون ولا ينظرون ، ويقروون وهم نائمون ، من هنا فلتفهم (ربنا ما خلقت هذا باطلا) ، ومن هنا يكون علم التوحيد ، ومن هنا يفهم القرآن . فأما ما عدا ذلك فإننا يتسلى به الجاهلون ، ويفرح به الغافلون (٧) تأمل في فقرات الظهر وادرس فقرة واحدة منها فإنك تجد عليها أربعة أشياء : غشاء غضروفيا ينشأ ، وشوكة نابذة من خلفها ، وجناحين من يمينها ويسارها . أما الغشاء الغضروفي (أي الذي هو أصلب من اللحم وأسهل من العظم) فلاجل أن لا تتكسر بسهولة عند مضامتها . وأما الشوكة من خلفها فلتكون وقاية لها بارزة كالهن تلتقي بها الصدمات فلا تصل لها . وأما الجناحان فإنهما مدخل لرموس الأضلاع وتقي الفقرات من جوانبها ، كما أن الشوكة تقيها من ورائها .

أفلا تكفيك دراسة الفقرة ودراسة العين حتى تعرف (ربنا ما خلقت هذا باطلا) . هذا هو مقصود القرآن ولهذا أنزل القرآن ، وبهذا يرتقى للسلمون ، وبهذا يكونون خير أمة أخرجت للناس ، انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : (سبحانه قتنا عذاب النار) وقوله تعالى : (ولا نخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف للعباد)
وقوله تعالى : (إنك من تدخل النار فقد أخزيت)

لقد كان من عادتي أن أجعل القول محاوره في الأمور العظيمة المليئة بيني وبين صديق تسهلا للفهم ،
ولكني الآن أخالف هذه الطريقة لأحدثك أنت

أريد أن أحدثك دقائق على شريطة أن نخلي بيني وبين قلبك لأجاذبه الحديث ، فدع عنك كل ماعلق
به من الآراء التي سمعتها بلا روية ولا تحقيق ، وارفع الحجب السدولة والأستار النصوبة ، لتلا تحول بيني
وبين صفاء قلبك ونور عقلك المرسل من الله إليك ، فهو هو الذي سيفهم ما أقول الآن ، فهل فهمت صفاء
العين وجمالها في النبذة للتقدمة؟ فاعلم أن عقلك أسفى من عينك ، العين جسم والنفس غير جسم ، فهي أجمل
وأقبل للعلم ، لملك الآن استمدت لسماح قولى فأقول :

خذ العلم مما حولك في دارك وجارك وأهل بلدتك ، خذ مما تراه وتسمعه كل يوم ، وانظر أيها الذي
ألت ترى أن في الناس حياة يوليهم ذلة وانكسارا وخجلا عند وقوع الأمر الذي يورثهم الفضيحة والعار؟
ولأضرب لك مثلا بالملوك والماليك أولا . والسوقة ثانيا . والقتيات ثالثا .

(١) لقد تعلم أن الدول إذا أهين سفيرها في ممالك أخرى أو تاجر من تجارها تظن الحرب على المهينين
لها . وقد يكون ذلك خرابا عليها ودمارا ، لماذا؟ لأنها تأبى أن ترضخ ويقال لها قدمت بالسوء فرضيت ،
ولست أطيل في الأمثال على ذلك ، فأنت تراه وتسمعه كل يوم (٢) ولقد تعلم أن في دول الترب عادات
للبارزة ، وما هي البارزة؟ هي أن يذم زيد عمرا . فيقول عمرو لزيد : لماذا أهنتني؟ لا بد أن تبارزني ، فيفتقان
على موعد ، وكل منهما يحمل سلاحا مثل ماع الآخر ، والطبيب حاضر والشهود واقفون ، ويتبارزان
بالسلاح ، حتى جرح أحدهما أو مات قضى الأمر وانتهى بسلام ، فإن جرح ولم يميت قام وصافح عدوه الذي
كان ينازله وحفظ شرفه ، وإذا لم يبارز أصبح مهينا عند قومه فلا يجالسه أصدقاؤه ولا يجيئه الأولياء ولا يآبه
له أحد ، بل يصبح طريدا شريدا ذليلا ، ولذلك يفضل أن يبارز الذي أهاته ، ولو كان ذلك الآخر أقوى
جسا وأقدر على استعمال السلاح منه ، لأنه يرى أن اللوت أو الجرح أفضل من الذلة والعار وانكسار النفس .
(٣) وهكذا ترى أن القتيات في غالب الأمم إذا شعرن بخلل في عرضهن أو زلل في سيرتهن اعتراهن من
الحزن والألم ما لا آخر له ، فيقدمن أنفسهن للموت قائلات : اللوت خير من العار ؛ وتأمل قول السيدة
مریم : (ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) ، وهكذا ترى هذا النوع الإنساني يسمى كله في كل
زمان للشرف ورضة النفس بين الناس ، هذا مغروس في الفطر ، مكتوب في الطبيعة الإنسانية
بمحروف بارزة .

أفلمت ترى من هذا وغيره أن الناس جميعا يحافظون على الشرف ، ويخافون الفضيحة وكشف السر .
وإذا عاة السوء عنهم ، وأن النفوس الشريفة تأبى الذلة ، وتقدم أجسامها قربانا لذلك اللقاع الجليل ، مقام
الشرف والكرامة ، وأن الناس أكثرهم يقولون كما تقول العامة في بلادنا : « النار ولا العار » فأحط الناس
منزلة كآرضهم مقاما متفقون في تلك الفطرة . ولقد سمنا أن التعاشى لما قدم على بلدة من السودان وقد
أمر الرجال أن يتنحوا عن نساءهم ليدخل بسكره إلى النساء فيه ، وكان جمعه عظيما ، ورجال البلدة قليل ،
لماذا ضلوا؟ تقدم الرجال للحرب فأتوا . أما القتيات الأبيكار فإنهن أخذن بأيدي بضعهن صفا واحدا وتزلن

في نهر النيل ومن غرقا ، وهن في ذلك أشرف من (كيلو بتره) التي قالت : يدي لا يديهم ، لأن كيلو بتره قالت ذلك لما علمت أن عدوها سيقتلها ، ولو علمت أنه سيستحيها ويمسحها كالقائد الذي كان معها من الرومانيين لرضيت وقبلت . أما هؤلاء الفتيات السودانيات فإنهن علمن أن العدو سيستحيهن ويقضي على عقبتن فضلن الموت ، ولست أطيل في ذلك ، فالشرق أقوى جبالا للشهامة وأكثر غراما بالشرف من الغرب ، وكلهم على الشرف والكرامة متفقون .

أفلت من هذا تفهم معنى هذه الآية ، ولماذا ذكرت هنا بعد خلق السموات والأرض والتفكير فيها وأي مناسبة بين نار جهنم وبين الحزى والفضيحة والعار ، إنه يبدو للتأمل أول وهلة أن لا مناسبة بينهما . فأصغ لما أقول السمع ، وخل الحجب والأستار مزاحة عن القلب دقائق حتى تفهم الآية من هذه الطباع الإنسانية ، إن الأمور التي تشين الناس ترجع إلى أمور يستكرها العرف : كهتك الأعراض ، ونهب الأموال وما أشبه ذلك . وهذه معروفة مقررة بين الناس ، ومع ذلك تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأمم ، فإنك ترى الإفرنجى يجالس امرأة غيره في غيبته وحضوره ، ولا يجد زوجها في نفسه حرجا من ذلك ، لأن العادة هي التي أطلقتها . ولو فعل شرق في بعض الأحوال كذلك لمد ذلك مانا بكرامته ، وهكذا عادة الرقص مع الأجانب يستكرها الشرق ولا يستكرها الغرب ، وهكذا وإنما الأمر الذي يتعالى على جميع العادات وتآلفه جميع النفوس إنما هو العلم ، فقد لى رعاك الله أي امرئ لا يجب العلم ؟ أولست ترى أن التوحش والنهي وأجهل الجهلاء يفرجون بالحرافات والأحاديث عن الفاريت والجان ويننون بالأقوال ذات اللعان للناس لأدرانهم . أولست ترى أن كل أمة عندها دين يقرؤه جهلهم فيفرجون بذكر أشياخهم وأبيائهم ، وبكل خرافة يوردها الشيوخ الجاهلون . وقد نساها ذلك الدين ظلما وزورا ، والناس يصدق الأحاديث وكذبها فرجون مستشرون . فهل ترى الناس اتفقوا على شيء أكثر من اتفاقهم على استحسان العلم ؟ إن في عاداتهم مختلفون (وكل حزب بما لديهم فرحون) أما القوى العاقلة فإنها تحب للعارف والصور التي رسم في أذهانهم حقا أو باطلا ؛ كما أن للمعدة تهوى الطعام ضار . والملم بقانون الصحة يجتذب الضار ، وهكذا للتعلون الفسكرون يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، كما اجتنب أولئك الأغذية الضارة فأكلوا أصحها .

أفلت ترى بعد هذا البيان أن الحزى والفضيحة والعار في جهل الناس أهدى وأقوى من انكشاف العورات الجنسية وظهور السوات الطبيعية ؛ لأن السوات الطبيعية كالأعراض قد اختلفت فيها الأوساط ووتعت . أما العلم والعرفة فقد اتفقت عليها الفطر ، ولم تر أحدا من الناس إلا وهو يأنف أن ينسب إلى الجهل ، ويود أن ينسب للعلم ، وكأن الفطر قد غرس فيها أن النفوس تموت بجهلها كما ماتت الأجسام بمنع أغذيتها ؛ وكما أن المعدة إذا خلت من الطعام مدة معلومة فيت الأجسام . هكذا النفس الإنسانية إذا خلت من أغذيتها بالصور التي تحمل فيها فإنها تكون ميتة لاهالة ممدودة في ذوى الجهالة ، فتخلص من هذا :

(١) أن الناس مفلطرون على الشرف والحرس على العرض والكرامة (٢) اللوك والدول يقدمون أموالهم ورجالهم لحفظ الكرامة (٣) الرجال والنساء في الأمم الترية يفضلون الموت والجرح على العار (٤) أهل الشرق وأخسهم درجة وأدناهم مرتبة أشد حرصا على العرض والشرف من بعض أهل الغرب . (٥) المادات مختلفات في ذلك ، وتمكون المحافظة على مقتضى الاصطلاح في البيئة (٦) كل امرئ يحب العلم أي الصور التي رسم في أذهانهم حقا أو باطلا ، وهي كالأغذية الضارة والنافعة تقبلها المعدة (٧) أن كل امرئ

يأتف من الجهل إذا نسب إليه (٨) أن العلم أقوى ما يرغبه الناس ؛ فالفضيحة في الجهل أشد من الفضيحة في سواء لانفاق الفطر على استحسان العلم بين الناس (٩) فلنضم إذن قوله تعالى هنا (فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (إنك من تدخل النار فقد أخزيت) . وفي آية أخرى يقول : (عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) .

فالحزى من معانيه الانتضاح : وهذا المعنى هو الشائع اليوم على ألسنة أبناء العرب في مصر وفي سائر البلاد العربية ، وهو ظاهر في قوله تعالى (من قبل أن نذك ونحزى) فالحزى راجع للعار والانتضاح وهتك السر ، وهذا هو القتل الأعظم لاسيا في المرف العربي ، وقد كان العرب أشد الأمم خوفا من الحزى وهو مشهور ، ولا يزال معروفا لليوم ؛ فالرجل يقدم للضيف في البادية كل ما يملك وأبناؤه جبايع فلا تطيل به .

فهاهنا لما ذكر الله تعالى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وأن الناس يجب أن يذكروا الله في كل الأحوال ليجتنبوا من صنعه صور العلم والحكمة ويتفكروا في خلق السموات والأرض فإذا قرءوا منه مثل ما كتبنا اليوم من عالم الأرض والسماء في هذه الآيات يحبون من قوسهم ويحزنون ويكون على عقولهم التي ضموها ويقولون : ربنا لقد ظهر لنا مما درسناء أن هذا العالم منظم ، ولم نجد فيها درسناء مخلوقا عينا حتى إن الفقرة التي هي إحدى فقرات ظهورنا . وجدنا فيها كل شوكة لحكمة ، وكل جناح لحكمة وغطاؤها لحكمة والنخاع الذي هو داخلها لحكمة فإنه يندبها وله حكم أخرى ، فواخجلنا أنعيش في الدنيا ونموت ، ونحن نجعل ما بين أيدينا وأي عار أعظم من أن نعيش ونحن نجعل أنفسنا وأجسامنا وما حولنا من نبات وحيوان ، وما فوقنا من سموات وما تحتنا من أرضين ؟ .

[سبحانك] أنت يا الله منزه عن هذه المادة رفيع فإنك تعلم كل شيء . ، وملايستنا للمادة وشهواتها سترت العلم عنا فغاب ، ولم نعرف بدائع الحكم فأمر بصارتنا وعرفنا أنفسنا وما حولنا، فإن الجهل خزي وعار ، والنار للشهورة أسهل لأنها تطلع على الأجسام . أما نار الجهل فإنها (تطلع على الأئدة) واللطمة على الأئدة دأمة وخزيتها دائم . فهذه هي النار العميقة الداخلة في أنفسنا ، وهذه هي النار التي يحس بها الإنسان إذا أخرج من في القبور، وحصل ما في الصدور ، وهي التي بها تحترق الأئدة (يوم تبلى السرائر) (يوم نجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) وهي التي يتهب القلب بها يوم يقال (اقرأ كتابك كفي بنفسك اليوم عليك حسيبا) فقل لي أيها الدكي كيف يكون الإنسان إذ ذلك ، وقد اغلغ من جسمه ، وحرر مما كان عنده من المجد والتصب واللال ، وخلي بينه وبين عقله ، ونظر فرأى الناس حوله قد طاروا في الموائم بأجنحة العلم وورض في مكان جاثما كالجماد بجهله ؛ فقوم كالطائر في الجو بالجنح ، وآخرون كالجماد والحديد بما نابهم من الإثم ، وما انتابهم من الجهل وما حلت بهم من الحزى بالصور التي اطلع عليها إخرانهم ، وقد كانت أعينهم في الدنيا عنها في غطاء من عيوب اقترفوها في حياتهم وسيئات اجتموها ، ومن جهالة وغفلة ، وعسى عن جمال العالم ومجائب الحلقة وبدائع الجسم الإنساني . هذا هو معنى قوله تعالى (فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (إنك من تدخل النار فقد أخزيت) ؟ وهذا كما يقول الرجل الشريف لمن ضربه بصا على رأسه مثلا أمام الناس . هذه الصا ألمها أقل من ألم نفسى ، ومن ضرب بصا فقد أهين أمام الجمهور والإهانة هي التي أبالي بها . ربنا إنك من تدخل النار فتحرق جسمه الظاهر قد فضحته ، والفضيحة والعار هي العذاب الذي تصاحشاه النفوس وتختص ما فيه من بؤس ؛ فالعذاب إذن عذابان : عذاب جسمي ، وعذاب روحي ، والثاني أقوى وعليه إجماع للفسرين .

ولولا خيفة السامة من التطويل لبسط القول في عذاب جهنم بالنار الجسمية ، وهل هو منقطع أم
أمد لا يزول وما جاء فيه من الأحاديث النبوية ، وآراء العلماء ، وأكابر الحكماء والصوفية وسأرجى الكلام
فيه إلى سورة هود عند ذكر الأشقياء والسعداء وجهنم والجنة في آخر السورة إن شاء الله وطال الأجل ،
ولكني قبل أن أفرغ من هذا للقال أذكر عجيبة من عجائب القرآن هنا . ذلك آي نقلت عن الإمام الغزالي
في كتاب الأرواح . ماملخصه أن العذاب بعد الموت ينقسم أقساما ثلاثة : الأول أن تعس النفس بعد الموت
بفراق ما اشتتهه من اللآكل والللاذ والصيت والشهرة والمزة فتحزن حزنا شديدا ، وهذا أول عذاب تلقاه ،
وهو فراق للأوف ، وهو أشد من العذاب الجسمي ؛ فإذا رأى الإنسان سفاة أنه قد قسم ماله وأخذت زوجته
وحيل بينه وبين ما يشتهي فذلك أشد من الموت بل هو العذاب الأليم (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل
بأشباعهم من قبل إنهم كانوا في شك مرعب) الثانية أنه إذا تطاول الزمن واستقرت النفس بعض الاستقرار
نظرت في أعمالها فترى صورتها قبيحة من الظلم والذنوب التي اجترحتها في الحياة وهي تماينها مواجهة ، فإذا
طال الأمد على هذه القبيحة والعار تبدى للنفس أنها ناقصة العلم والعرفان ، وأنها تجهل ما يجب أن تتحلى
بعله ، وترى غيرها قد ارتفع بعله إلى الدرجات العلى فيحصل لها ألم لا يطاق ، ولنا الآن في مقام الرد عليه
أو تمضيده ولكننا نقول :

تعجب من القرآن كيف ذكر العذاب هنا ثلاث مرات قليل أولا : (قننا عذاب النار) . ثانيا (إنك من
تدخل النار فقد أخرجته) . ثالثا وهي الأخيرة منها (ولا نخزننا يوم القيامة) ؛ فالعذاب الأول جسمي لأنه لم
يذكر إلا النار الجسمية . والثاني جسمي وعقلي معا . والثالث عذاب نفسي ، وهو الحزى الذي هو أشد
العذاب ، ويظهر أن مافي الآية بحسب تدرجه بالترتيب أشبه بالحطب إذا أحرق . فإيه أولا يكون الاحتراق
مصحوبا بالدخان والدخان أكثر ، ثم تصير النار أكثر ثم يصير نارا صرفة .

فلعل الناس في أول الأمر بعد الموت يكون الإحساس والشعور فيهم بالفضيحة أقل ، ثم يزيد الإحساس
والشعور بها ثم يكون العذاب أقوى لادافع له لاستفراق النفس في عارها وشؤمها . فإياها الذكي اجعل
أول عملك الأخلاق وتهذيبها ، وتقوية الجسم بالنظافة والرياضة ، ثم كلها بالعلوم الشريفة كما رأيت في سورة
آل عمران من النزوات ثم العلوم .

وكان عذاب النار الخالد في مقابلة ترك تهذيب النفس بالأعمال الظاهرة ككل حركات الدفاع عن الوطن
والحرم ، وعذاب الحزى القاصح الذي لم تذكر فيه النار راجع إلى العلم الذي أمرنا بالتفكير فيه ، فسكاته يقال
لاتدمعوا أجسامكم بلا عمل يقو بها كالدفاع والتمارين العسكرية والأعمال الحربية والتهذيبات الخلقية .

ولياكم وترك العلوم فإنها فضيحة وخزي وعار في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فإن الدين لا علم عندهم
تدوسهم دول الاستعمار في أوروبا ، وترسل عليهم شواظا من نار حامية من الطائرات فيصبحون خائدين .
إن احتراق الأفتدة بالحزى يوم القيامة يلازمه احتراق الجسم بالنار ؛ فإنك ترى من فوجي " بخر محزون أو
فارق معشوقه يتقد قلبه نارا وحزنا ، والجسم يناله من ذلك نصيب فيقع في الحمي ؛ فالنيران النفسية تتبعها
الجسمية ، السعادة الروحية تؤثر السرور في الأبدان ، وهذا آخر للقال في تفسير سورة آل عمران .

﴿ تم الجزء الثاني من تفسير الجواهر ، يليه الجزء الثالث وأوله سورة النساء ﴾

فهرسب

الجزء الثاني من تفسير الجواهر

صفحة

- ٢ تقسيم سورة آل عمران إلى عشرة أقسام .
- ملخص هذه السورة ، بحيث يلم القارىء بمجمل ما فى الأقسام العشرة .
- ٤ ابتداء تفسير السورة وبيان مناسبتها لسورة البقرة من حيث نظام التاريخ ، فهى كالتممة لها وغير ذلك .
- بيان تفسير الم .
- ٥ بيان أن للنصارى واليهود رموزا حرفية أيام النبوة شائعة ، فناسب أن يكون للقرآن رموز كذلك . علماء اليهود وحساب الجمل وكلامهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن لهذه الحروف ثلاث طرق عند علماء الإسلام .
- ٦ طريقة ابن عباس وطريقة صفات الحروف كالجهر والممس ونحوها ؛ وطريقة العلوم الطبيعية .
- ٧ ملخص الرواية الألمانية التى تنتج أن لغة العرب آخر لغات العالم اقراضا ، وأنها هى الأخرى بتخليد العلوم فيها .
- ٨ تعداد فقرات الحيوانات المختلفة عن علماء فرنسا والإنجليز .
- ٩ موازنة رموز المسيحيين برموز المسلمين . كيف نام المسلمون فى القرون الأخيرة ؟ جمال هذه الحروف ومجائبها .
- ١٠ ملخص هذا القول : الأسرار الكيمائية ، فى الحروف الهجائية ، للام الإسلامية ، فى أوائل السور القرآنية .
- ١١ التحاليل المعدنية . ذكر خمسة أمثلة منها : بحيث يكون خواص المركبات غير خواص للفردات ، وأن التركيب للذکور بحسب منظم لولاه ماصنع مدفع ، ولاحروف طبع وأشباهاها ، وأن هذه الأمثلة كنظار تريك أن العلوم كلها ترجع إلى تحليل المركبات ومعرفة أسرار عناصرها ، كما فى إرجاع الكلمات إلى حروفها مثل : الم . وهذا سر القرآن ظهر الآن لإيقظ المسلمين بهذه الحروف إلى دراسة جميع العلوم .
- ١٣ منطق حروف الطبع بلسان حالها . ١٤ حكمة .
- ١٤ الكلام على القسم الثانى من سورة آل عمران (الله لا إله إلا هو الحى القيوم الخ) والتفسير اللفظى .
- ١٦ تفصيل الكلام على هذه الآيات فى القسم الثانى ، وبيان أنها اشتملت على هداية العوام بالكاتب السماوية وهداية الخواص بالنظر فى السموات والأرض ، وفى تصوير الأجنة فى الأرحام .
- ١٧ و ١٨ و ١٩ ذكر عشر لطائف فى عجائب المادة ودقتها كدقة خيط العنكبوت وكالماء فى الهواء الذى يصير حدائق يظنها الناس عفونة ، وآلاف آلاف من الحيوان التى تعيش فى قطرة ماء . وأن اللادة منفصلة غير ملتصقة ، والبعد بين ذراتها كالبعد بيننا وبين السيارات والجواهر الفرد ، ونظامه كنظام السيارات من حيث دوران أجزاءه بعضها على بعض .

- ٢٠ للبحث الثاني : فيها هو أكبر من الكرة في الآية . وفيه لطائف ، وبيان أبعاد السدم عن أهل الأرض ، كما جاء في التقرير الذي رفع إلى أكاديمية العلوم في فرنسا ، وأن منها ما لا يصل ضوءه لنا إلا في ألف ألف سنة نورية ، ويزيد مئات الألوف أيضا .
- ٢١ قوانين كبلير ونيوتن في بعد الشمس وقربها وانتظام سيرها .
- ٢٣ إيضاح تقدم بوضع قطعتين من الفلين على الماء فإنها تمثل بعد الكواكب وقربها في الحساب .
- ٢٤ اللطيفة الثالثة : جاذبية الثقل . في حساب سرعة الأجسام الساقطة .
- ٢٥ بيان نظام الشفع والوتر ، وأن هذا من أعجب أسرار القرآن .
- ٢٥ الأمر الثاني وهو تفسير قوله تعالى : (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء الخ) . سلطان القدرة والهمة العامة .
- ٢٦ الجاذبية العامة . نظام الأحجار في سقوطها ، وكيف يكون الحجر في نزوله جاريا بحساب منظم جذرا وتريعا على حسب الثواني .
- ٢٧ هجرت الماء ، وهل فيه هواء ؟ وكيف اختص الماء بأنه إذا جمد كبر حجمه ؟ ولماذا فارق بقية السوائل ؟ وكيف كان ذلك لأجل حياتنا ؟ الندى على النبات يحفظ حرارته فلا تشع . كيف يكسر الماء الأحجار ؟ الثلج وأشكاله ، والرسوم هنا ستة أشكال منها هجبية زاهية زاهرة .
- ٢٨ اللطيفة الرابعة : لطيفة علم التشريح ، نظام جسم الإنسان وهو ١٣ نوعا ، وكيف كانت له عشر طبقات وأعمدة وحبال وخزائن ؟ الخ .
- ٢٩ اللطيفة الخامسة : لطيفة السمع ، وهي : الأذن وذكر مجائها ، وفي آياتها البرقية وهي ثلاثة آلاف : وكيف أشبهت مدينتين وبحرا ، وفي كل منهما مدهشات وغرائب .
- ٣٠ ظهور أن في الأذن عجيبة ، وكيف غفل للسكون عن هذه المعجائب ؟
- ٣١ اللطيفة السادسة : العين هي التي تشبه ثلاثة أطباق : عليها ثلاثة أغشية ، في داخلها ثلاث رطوبات ، فوقها متديل شكل العصب البصري .
- إيضاح عجائب العين تفصيلا بحيث يعرفها العموم .
- ٣٣ إتمام حكم العين وهي ٣٦ حكمة موضحة إيضاحا تاما . موازنة العين بالحزاة المظلمة التي يستعملها الصور بالصور الشمسية . ٣٤ شكل العين بالرسم .
- ٣٤ من عجائب أحكامها . وفيه ذكر العدسة الزردوجة التي تشبه البلورية في العين ، وكيف كان إبداع عدسية العين لا يوازيه إبداع ؟ فإذا عجز للصور عن الرسم إلا على بعد مخصوص فإن العين لا تنجز لإبداع عدسيتها وإتقانها . شبكية العين مركبة من تسع طبقات ، أبعدها من ثلاثة ملايين مخروط ، وتلاتين مليون اسطوانة مسارج العكر .
- ٣٥ اللطيفة السابعة : الرحمة في قلوب الوالدين .
- ٣٦ حكاية خادمة للؤلؤ في شهر رمضان مع الأرنبة ، وكيف عرفت الأرنبة ما يضر أولادها .
- ٣٦ اللطيفة الثامنة : الشهوات الفريزية في الحيوان .

- ٣٧ اللطيفة التاسعة : القطن وزراعته ، إجابة لداعية حاسة اللمس والبصر .
 كيف تبوّأت حشرة أبي دقيق ، ودودة اللوز تلك الأرائك ووضعت فيها بيضها ؟ وكيف تعيش
 الديدان المولدة للملحارسيا (البول الدموي) في السكبد وفي فروع والأعماق الغلاظ الخ ، فالإنسان يزرع
 ويأكل لمنفعته ولكن يشاركه سواه .
- ٣٨ اللطيفة العاشرة : حب العلماء والحكام والأنبياء لتلاميذ والأمم .
 ٣٩ تبصرة في التعليم في ديار الإسلام . الكلام على أن كل ركعة في الصلاة تتضمن دراسة علم الفلك ، وعلم
 التشريح ومعجائب النفس ، ثم الفرائز والقوى في العوالم العلوية والسفلية ، والكلام في أن العقول موازين
 نصبها الله في الأرض .
- ٤٠ هل يدرك المسلمون هذه الحكم ؟ ولماذا كان ذكر السمع والبصر ، وما استقلت به القدم في حال الركوع الخ ؟
 إيضاح المقام وبعض أسرار الصلاة .
- ٤١ الكلام في تفسير قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) .
 ٤٢ الحكم والتشابه في الوحي ، النص والظاهر والمؤول والمجمل والمشارك ، مثال التشابه .
 ٤٣ التشابهات عند ابن عباس .
 الحكم والتشابه في المظاهر الطبيعية ونظام الحيوان .
- ٤٤ دور تكوين الأرض . العصر النباتي . العصر الحيواني . سلسلة الحيوانات وهي ستة من أعلى إلى أسفل .
 ٤٥ جمال نظام السلسلة الحيوانية ، تشابه الأطراف في الحيوان ، جمال الحسة من علم خواص الأعداد
 ومناسبة هذا للخمسة في اليمين والرجلين .
- ٤٦ نظام الأجنة في الأرحام . مرور الجنين على سلسلة الحيوانات في الرحم مبتدئاً من أدناها مرتقياً إلى أعلاها .
 نظام الجسم الإنساني وهندسته وقياسه بالشبر ومضاعفاته وأجزاؤه .
 النسبة الفاضلة . ظهورها في هندسة جسم الإنسان .
- ٤٧ تفصيل بعض ما تقدم للإيضاح .
- ٤٨ الجنين في الرحم ، كتاب يبين الله به آياته للناس كما بينا بالقرآن . أسف المؤلف على جهل المسلمين هذه
 العلوم ومعرفة أوروبا لها .
- ٤٩ الحكم والتشابه في الطبيعة . تزوير الفيلسوف هيكلي لصور الأجنة حتى قدم استنتاجه مكرها من الكلية .
 الحكم في الطبيعة الذي يشبه الآيات المحكمة في الوحي ، وهو القرآن الكريم (حشرة أبي دقيق) مثلاً .
- ٥٠ انقلاب الرأي في أوروبا في القرن العشرين ، وإبطالهم نظريات دورين في وجود الأنواع وترقيتها وذكر
 عشرين عالماً قالوا بهذا الرأي وأهل الشرق لا يعملون .
 أكثر الناس مقلدون .
- ٥١ تفسير الآية منطبق على الطبيعة - زيادة إيضاح لها .
 ٥٢ النفس الإنسانية ومعجائبها .
- ٥٣ كيف يفعل الغذاء في الجسم من المعجائب ؟ وكيف يتقارب الكيموس فيصير دماً يصل إلى سائر الجسم ،
 وفيه ذكر القوى السبعة التي شرحتها القدماء ، أولها الجاذبة وآخرها الصور .

- ٥٤ تفصيل أفعال القوى الإنسانية في الجسم ، وأنها أشبه بما في المدن من الصناعات .
جدولان فيما ٢٣ صناعة من التي ترى في المدن ، موازنة بنظائرها مما في جسم الإنسان وأن علماء الإسلام عليهم أن يوقفوا المسلمين لهذه العجائب .
- ٥٦ مناظر الأنفس أشبه بمناظر الآفاق .
- ٥٧ أنواع الهبوبات من الوجدان الداخلي التي تفرقت من القوة الشهوية والغضبية والعقلية .
- ٥٨ الأخلاق المذمومة وبيان ٣٧ منها .
- ٥٩ ذكر آيات قرآنية مطابقة لما تقدم ، مع تلخيص ماضى بحيث يجمع ما ذكرناه ، وبه يستغنى اللبيب في علم الأخلاق . ٥٩ القبيح والجميل .
- نداء للفسر للمسلمين ، وبيان أن علم التوحيد هو نفس هذه العلوم من التشريح ووظائف الأعضاء .
- ٦٠ القسم الثالث من سورة آل عمران (إن الذين كفروا لن تنفي عنهم أموالهم الخ) .
- ٦١ مجمل التفسير في هذه الآيات .
- ٦٢ الحكمة في خلق الشهوات وأنها وسيلة لغيرها .
- ٦٤ شكل مثنى حوله الكلمات الثمان التي أوصى أرسططاليس أن تكتب على قبره وهي كافة نظام المدن والعمران .
- ذكر كلام نبي الله سليمان في التوراة في هموم الدنيا وعمر الخيام الذي قفى على آثاره ، وأبي العلاء كذلك ، وآيات المؤلف في هذا المعنى . ٦٥ مخرج الجهلاء وبعض التابعين من سجن الحياة . مخرج العقلاء والعباد والعلماء . المخرج الذي قصه الله في القرآن .
- ٦٦ لامرراً إلا بالعبادات والعلوم . لطيفتان : الأولى صلاة المؤلف عند التهر . الثانية : نداء النعجة وهي في الليل ، وبيان أن جميع الناس محبسون كما حبست هذه النعجة ، وإن كانوا يغنون بجانبها .
- ٦٨ نظام النبات بالمواد الداخلة فيه .
- ٦٩ طعامنا والمواد الداخلة فيه . جمال القيام بالقسط .
- ٧٠ قيامه تعالى بالقسط في المادة من حيث حجمها . قيامه تعالى بالقسط في سائر الإنسان والحيوان والنبات والمدن .
- ٧١ قيامه بالقسط في أنواع الحيوان . واتجاه رؤس الحيوان . قيامه بالقسط في خلق النبات في الأماكن . قيامه بالقسط بين البر والبحر ، وفيه العجائب وبدائع الفرائب ، ألوان ماء البحر وجمال حيوانه ، وأن من حيواناته الدقيقة ما تسير بالتيار أسرع من القطار . نبات البحر وأشكاله الهندسية والرجان وعجائبه ، وأنه يتكون جزائر ، ونباتات البحر لكثرتها جدا استغرقت بعض السفن في قطعها ثلاثة أسابيع .
- ٧٢ حشائش البحر . تفاح البحر . الأشكال الهندسية في البحر .
- ٧٣ الرجان ، وكيف تكون جزائره مأوى ومأمن للحيوان .
- القسم الرابع من سورة آل عمران (فإن حاجوك الخ) .
- ٧٤ التفسير اللفظي لهذا القسم .
- ٧٧ إضافة الكلام في قوله تعالى : (يدك الخير) .

٧٨ ، ٧٩ مسألة الخير والشر : رأى أهل الديانات فيها ، رأى الفلاسفة كالثمينا ابن سينا وقوله : إن العالم ليس فيه إلا الخير المحض أو ماغلب خيره ، مناقضة هذه القضية بالحيوانات الضارة ولماذا خلقت ؟ شرح هذا اللقاه بإسهاب مثل : الكلام في الصافير والقنابر والحطاف ، وهكذا يأكل بعضها بعضا .

٧٩ الحكمة في سم الحيات . لم كانت الآلام في الحيوان ؟ .

٨٠ كيف يقع الظلم من الحكماء ؟ أعظم المصائب للوت ، فلم وقع ؟

٨١ جمال اللقال . الكلام في قوله تعالى : (وترزق من تشاء بغير حساب) .

٨٢ ذباب يحضر الفريسة لأولاده قبل خروجها من البيض بحكمة ونظام .

الذباب الذى يعيش أولاده في جوف الحيوان الحى . الأراب وبعض الحشرات وهجائب صنعها . يسوب النحل . أسد النمل .

٨٣ الحشرات الآكلة . العنكبوت . حيل النحل في عدوه . كل هذا تبيان لقوله تعالى : (وترزق من تشاء بغير حساب) . وقوله تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها الخ) .

٨٤ القنفذ ، الجراد والعنز والزرع والفلاحون في مصر ، وكيف تنطبق الآية عليهم في حادثة عجيبه .

٨٥ الدرفيل في البحر . الطير للسمى السقا يبلاد ألبانيا وعجائبه .

٨٦ ملخص هذا الفصل في قوله : (وترزق من تشاء بغير حساب) . بهذا تفهم قوت صلاة الصبح .

٨٧ خاتمة هذا القسم وعجائبه ٨٨ ظهور سرّ المّ في أول السورة ، وأنها تشير إلى قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا الخ) . وأن الله خزن هذه اللعانى لتظهر في وقتنا الحاضر من حيث غرور المسلمين كغرور قداماء اليهود وجهالتهم ، فذهبت دول كثيرة منا كما ذهبت دولتهم . ٨٩ سرّ المّ في أول البقرة .

وقوف المسلمين عند علم الفقه وحده جهالة وغرور ٩٠ الغرور بالنسب .

الاعتقار بالشيوخ ، ميزان بين اللعترين من المسلمين واللوقفين . اعتقاد الشفاعة حق أراد الناس به باطلا كما فعل اليهود .

٩١ في سور : ماله على بن أبى طالب ، وكيف يخلص الداعى الكاذب فيؤثر وغيره تأم لاناثير له ؟

٩٣ يجب أن يكون التسميم في الإسلام هيبته غير مانعن عليه الآن . ح : ب : زكى قديم :

أصناف للفرورين من كلام الغزالى . تص . العدا . السوجية والأغنياء ، وكيف فرق هذا الفرور لثمل للمسلمين لاسيا أبناء العرب ؟ وجمع العلم لثمل مائة مليون في أمريكا ، فأين الإسلام إذن ؟

٩٥ أبناء العرب سبب نهضة الأم قديما ، وهم الآن أجهلها وأجدها عن الرقى ، ورؤساء الدين كثير منهم يفرقون الأمة بفرورهم .

٩٦ دواء هذا الداء ، وكيف يرتقى أبناء العرب خصوصا وأبناء الإسلام عموما ؟ . موازنة هذا اللقال برأى ابن خلدون . عجائب البلاغة في القرآن والإيجاز ، وأن العلم آتى بمعجزات للقرآن تسبج عنها جميع علماء البلاغة .

٩٧ كيف بزول الفرور من أمة الإسلام ؟ . ذلك يكون بدراسة جميع العلوم والصناعات ، والدين هو الذى يطلب ذلك .

- ٩٨ آراء علماء التربية أن المتعلم يجب أن يعرف بعض الصناعات اليدوية .
- ٩٩ وصف مدارس أمريكا ، وكيف يجمعون بين العلم والعمل ، وكيف يقوم التلاميذ بجميع الأعمال من بناء وخياطة وفلاحة وتجارة الخ .
- ١٠١ بيان أن هذا موافق للإسلام .
- بيان أن المسلمين إن لم يفعلوا مثل ذلك زال ملكهم ، كما زال ملك قدماء اليهود ، وأن هذه المعاني كلها سر قوله (الم) الذي ظهر الآن فقط لارتقاء المسلمين .
- القسم الخامس من سورة آل عمران (إن الله اصطفى آدم الخ) .
- تفسير الألفاظ .
- ١٠٣ هنالك دعا زكريا ربه الخ ، وتفسير لفظه .
- ١٠٤ الباب الثاني في عيسى ابن مريم وأمه ، وإذ قالت الملائكة يا مريم الخ .
- ١٠٥ تفسير هذا الباب .
- ١٠٦ الملائكة والشياطين . مقدمة في أن المخلوقات قسمان : شار ونافع .
- ١٠٨ آراء علماء الهند .
- ١٠٩ استدلال الرازي بزيارة الأموات على وجود الأرواح ، وبالرؤيا للنامية . وكلام الغزالي . وقول إخوان الصفا إن النفوس المتجسدة ملائكة بالقوة أو شياطين بالقوة فإذا ماتوا كملوا في صفاتهم . وبعض خطبة المورود أوليقر لودج وإيقانه بأن الأرواح تساعدنا وأنه خاطبها بنفسه وإن لم يكن قديسا .
- ١١١ تفصيل الكلام على قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب الخ) .
- ١١٢ خوارق العادات المذكورة في القرآن : الحال الروحية . والحال الجسمية .
- ١١٣ خوارق العادات لإلقاء الرهبة ، والقرآن جاء للتذكير كالتربية الحديثة .
- ١١٤ خوارق العادات والعلوم الطبيعية . عجائب عباد الهند في الوقت الحاضر وإظهارهم الغرائب .
- ١١٥ فوائد المعجزات في التربية الحديثة . العلامة جوستاف لوبون .
- ١١٦ تفصيل الكلام في قوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه الآية) عجائب هذه الآيات ، وكيف واقفها العلم الحديث ، وكيف تطرد الهم وتملاً قلبك بالسعادة .
- ١١٧ (قال آيتك ألا تكلم الناس الخ) كيف يكون سر هذه الآية قد ظهر في العلم الحديث ، وأن الإنسان بحبسه عواطفه ينال رغائبه ، وتكون تلك العواطف كنزا . (إن الله ربي وربكم فاعبدوه الخ) قد ترجمت الديانات القديمة .
- ١١٨ كتاب القياد في الهند . القسم العملي فيه ١١٩ دين خرستا — دين بودا .
- دين قدماء المصريين رؤيا هرمس — دين (بو) ببلاد الصين — دين (ليونو) بالصين .
- ١٢٠ آية (وما قتلوه وما صلبوه الخ) ١٢١ عدد الأنجيل التي تركت ٣٥ إنجيلاً مثل إنجيل ماري بطرس وإنجيل للصربين الخ . الأنجيل الأربعة المختارة في القرن الثاني لم يعرف مؤلفها . فيلسوف في القرن الثاني يلوم النصراني على تلاعبهم بالأنجيل — ترجمة الأنجيل والتوراة سنة ٣٨٤ م ، ثم تعريبها مرتين .
- غير النصراني كتبهم والسلمون غيروا طريق التفكير .

١٢٢ إنجيل برنابا ومسألة الصلب — قد صرح هذا الإنجيل بنفس ما في القرآن من صلب ، ومن إلقاء الشبه على غيره ، ومن توحيد الله ، ومن رفع المسيح إلى السماء وهو واضح كل الوضوح إلى صفحة ١٢٥ ، وهذا من أجل معجزات القرآن في هذا العصر مع العلم بأن هذا الإنجيل مارآه الفسرون السلون قبل عصرنا هذا .

١٢٥ المذاهب المسيحية قديما وحديثا ، ومذاهب أوروبا ، وذكر دولهم ومتى استقلوا ومتى تصدروا مفضلا لكل دولة ، وأنه لم يبق عندهم الآن إلا للملكانية (الكاثوليكية) ، ثم أحدثوا (بروتستانت) و (أرثوذكس) .

القسم السادس من سورة آل عمران .

١٢٦ الفصل الأول (إن مثل عيسى عند الله) تفسيره الانظلي .

١٢٨ الفصل الثاني (يا أهل الكتاب لم تعاجون في إبراهيم الخ) وتفسير ألفاظه .

١٣١ الفصل الثالث (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الخ) .

ملخص هذا الفصل .

١٣٣ الفصل الرابع (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم الخ) .

تفسير الألفاظ .

١٣٥ تفصيل الكلام في قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة الخ) . مجلس عام في الإسلام .

١٣٦ قطعة من التلمود وهو شرح التوراة أن اليهود يرون أنهم أفضل أهل الأرض الآن والناس كأنعام لهم .

علم الأخلاق واليهود . ١٣٧ حكاية يهودية ، وكيف أكرم الجوسى اليهودى فأركبه بقلته ففانه اليهودى وهرب بها فقصم الله ظهره .

واجب علماء الإسلام والحلف بالله . ١٣٨ في الأمة العربية قديمها وحديثها ، وكيف كانوا سادات العالم فأصبحوا اليوم نهباً مقسماً بين الدول .

القسم السابع من سورة آل عمران (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقنا الخ) وتفسير ألفاظها .

١٤١ (لن يضروكم إلا أذى الخ) وتفسير الألفاظ .

١٤٤ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن كل علم وكل صناعة واجبان على المسلمين . فيجب أن يرشدوا لذلك ، وهكذا يفعل المفسر .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى (وما الله يريد ظلماً للعالمين — وثه ما في السموات وما في الأرض) .

١٤٥ بيان أن ذكر السموات والأرض هنا لإثبات العدل في نظامهما ، وأن العدل هناك أمر آخر به دامت السموات والأرض .

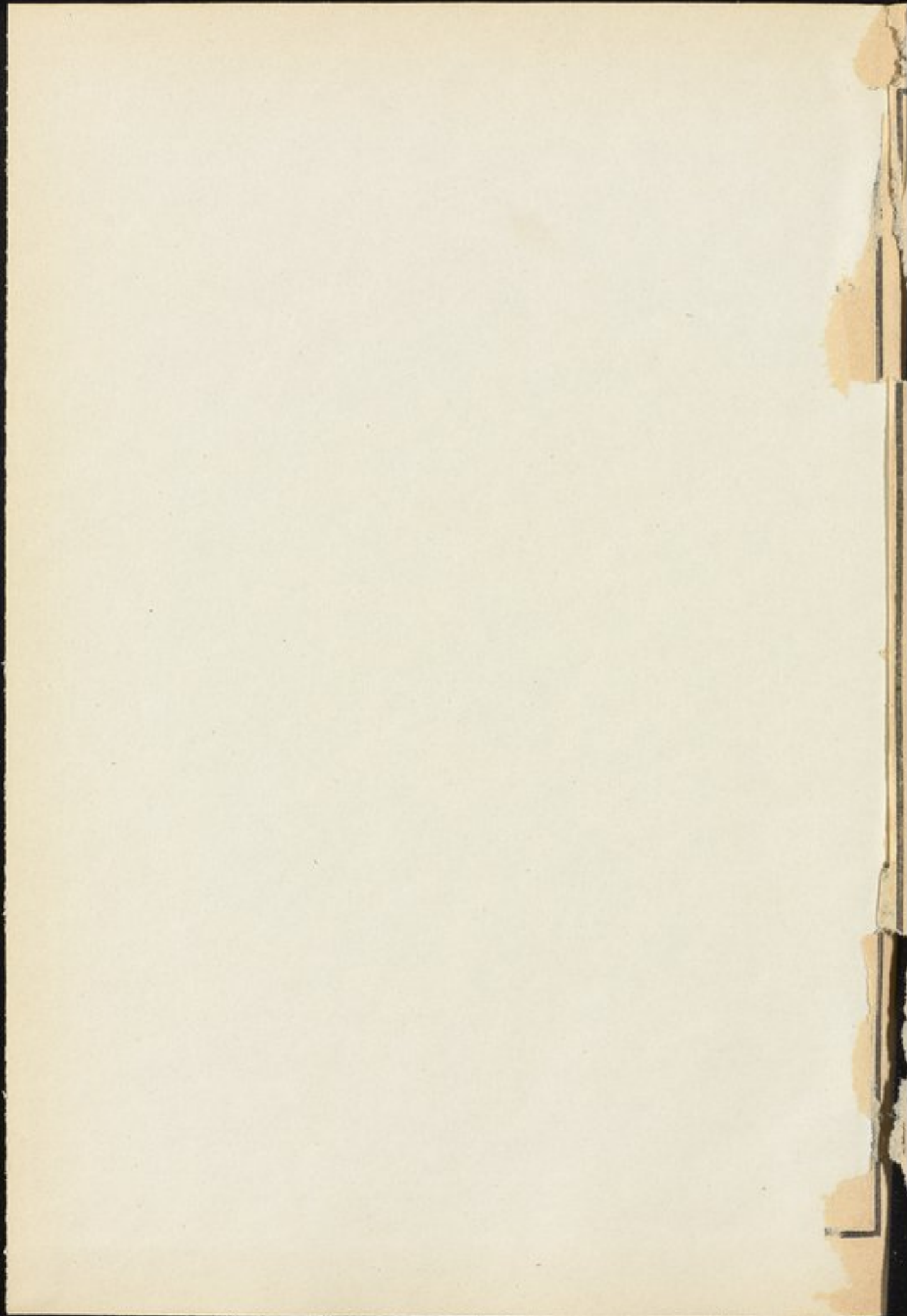
١٤٦ ذكر مقال للعلامة (فللمريون) الفلكي المشهور وصف به السموات ، والقصد بذلك معرفة العدل

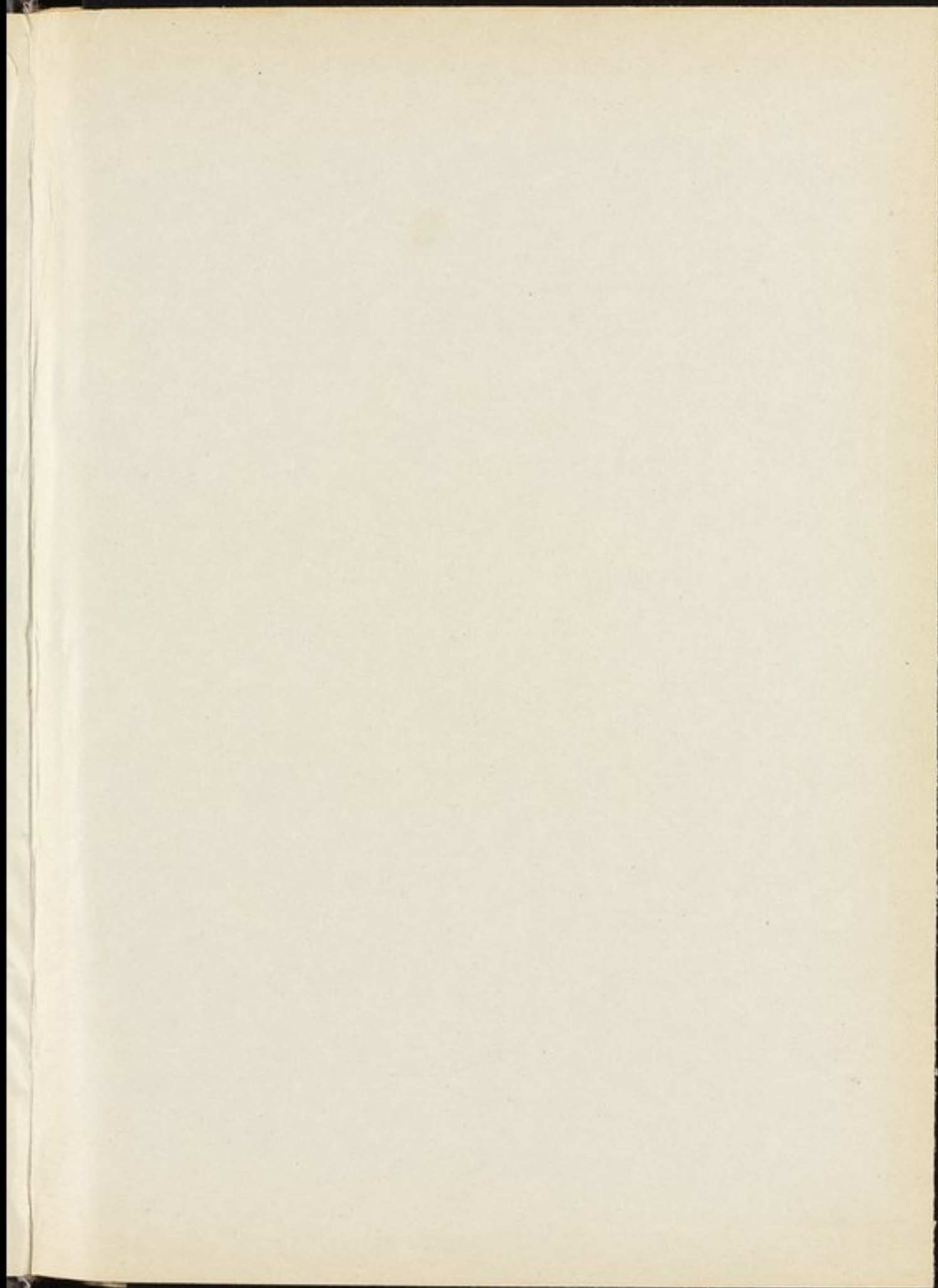
هناك لفهم الآية ، وفيها عجائب مثل أن أقرب الكواكب إلى الشمس لا يصل إليه القطر من أرضنا إلا بعد ٧٥ مليون سنة ، والقنبلة لا تصل إليه إلا بعد مليون ونصف سنة . عدد الموالم الآهله بالأحياء . ٣٠ مليون أرض كما يظن هذا فيما عرف ، فأما ما سواه فهو لانهية لعدده .

- ١٤٩ بدائع ومعجائب كثيرة . هل خلق الله حواس غير حواس الناس على الأرض . الاهتزازات إذا بلغت في الثانية ٣٢ سمعناها ، وإذا بلغت ٣٠ ألفاً نسمعها ، وما بين ٣٤ ملياراً و ٣٥ ملياراً لانعرف وما بين ٤٥٠ إلى ٧٥٠ ترليوناً في الثانية من موجات النور تدرك ، وما زاد على ذلك لا يدرك . ذكر أشعة رنتجن .
- الشموس والكواكب وسكانها وانقراضهم وحلول غيرهم محلهم قديماً ومستقبلاً .
- ١٥١ (كنتم خير أمة أخرجت للناس) .
- ١٥٢ (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال الخ) وتفسير الألفاظ .
- ١٥٥ في الجهاد الأكبر لحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا ، وبالطاعة وحسن الخلق والعفو (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا الخ) تفسير ألفاظها .
- ١٥٦ الفصل الثالث في الاعتبار بالأمم السالفة وأنبيائهم وأنهم لما صبروا فازوا (قد خلت من قبلكم سنن الخ) وتفسيرها .
- ١٥٩ مقال ضاف في أن موت عدو الأمة موت لها كما في مسألة دولة الرومان لما أهلكوا أهل قرطاجنة هلكوا هم بالإسراف والعظمة .
- ١٦٠ زيادة شرح لهذا اللقاع وشعر لشكسبير مترجم شعراً عربياً في أن الآلام منبع السعادات .
- ١٦١ شعر آخر حسه للؤلف في أن الأعداء يكونون نعمة على العبد لأنهم يحرضونه على الكمال .
- دروس على ما حصل في أحد (سنلق في قلوب الذين كفروا الرعب الخ) وتفسيره اللفظي .
- ١٦٨ الشورى والتوكل .
- ١٦٩ إمداد المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة بعد ثلاثة آلاف ، وهل في العلم الحديث ما يطابق هذا ، وهل تخبر الأرواح بالغيب ، وهل تكذب ، وهل تساعد الناس الخ . كل هذا في صفحة ١٦٩ و ١٧٠ - ١٧١ ؛ حكمة ومعجزة . ١٧٢ الحياة بعد الموت من خطبة الأورد أوليفر لودج .
- ١٧٣ بيان أن هذه الخطبة توافق القرآن في ثلاثة أمور : بقاء الأرواح ، وأن هناك ملائكة ، وأنهم يساعدوننا .
- تعجب للؤلف من ظهور هذه الحقائق في مجامع أوروبا العظيمة مع احتقار المعلمين في الشرق لما لغروهم بمجهلهم الفاضح .
- ١٧٤ تعلم اللغات شيء وتعلم العلوم شيء آخر (ليس لك من الأمر شيء) وإفادتها أن الأنبياء كغيرهم خاضعون لجرى القضاء عليهم بالحرب والشر . لم ذكر تحريم الربا بعد ذكر الحرب .
- ١٧٥ الجنة والنار وذكر الأحاديث والآيات لمعرفة حقيقتهما . الأرض كرة نارية ، وهذا موافق للأحاديث والآيات .
- ١٧٦ الكلام على البراكين كبركان اثنا ، وثوران البراكين في اليابان أثناء طبع هذا التفسير نافع في مباحث النار والجنة .
- ١٧٧ تحقيق أمر أن الأرض كرة نارية ، ومعرفة قسرتها ، وكيف يكون هذا الكلام مناسباً لقوله تعالى : (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ١٧٨ الماء يكون ناراً .

- ١٧٨ قلة علمنا بهذه العوالم . بيان أن آراء ابن حزم في الجنة والنار على المذهب القديم الفلكي وقد بطل .
آراء روح (غاليلي) التي أحضروها في أوروبا ، وذكرها النظام في الكواكب بهيئة سياحة
استبان بها أن شمسا وشموسا أخرى تجرى حول شمس كهيئته ، وهكذا شموس وراء شموس في هذه
المجرة كأنها دواليب متلاصقة متحدة ترجع إلى شمس كبرى في المجرة هي أصلها كلها . طريق التبانة
وهي ٣٠ مليوناً في الشموس ، وهناك مجرات أخرى منشورة في الفضاء ، وسكان ليسوا مثل أهل
الأرض بل حياتهم وزمانهم أعجب وأحوالهم كلها غريبة . وفي ذكر الأبدية والزمان والمكان وأنها
لا نهاية لهما ، وفي ذكر الأرواح وعالمها ودوامها وأن الأرض صغيرة بالنسبة للعوالم الأخرى وأنها بعد
موتنا نرتقى في تلك العوالم طبقاً عن طبق الخ بعد خراب الأرض ، والكلام على منافع اللذات ، وأن
أهل الأرض لم يفهموها وغير ذلك . كل هذا من صفحة ١٧٨ إلى صفحة ١٨٥ .
- ١٨٥ أيضاً هذا ملخص ماجاء في العلم الحديث ، وفي علم الأرواح . موازنا به ماجاء في القرآن والحديث .
- ١٨٦ إن ما ذكر من أن النار في باطن الأرض والمهر يرفوق الهواء ومن أن الكواكب مسكونة بعوالم في غاية
السعادة الخ ليس معناه أن ذلك هو الجنة والنار بل ذلك فتح لباب العلم والحقيقة يجب البحث عنها .
ذكر محائب العلم والدين ، وأن المسلمين قصرُوا ؛ فإن العلوم التي تكشف الآن هي نفس القرآن .
- ١٨٧ و ١٨٨ الدار الآخرة في القديم والحديث . اللذات الحسية والحالية والعقلية وأنها كلها يمكنة في الآخرة،
وكيف يتمتع جمع كثير بصورة واحدة في آن واحد .
- ١٨٩ اللطيفة السابعة (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) ، وكيف كان سرّ هذا يظهر اليوم في علم
المس عند الجمعية النفسية بأمريكا .
- ترتيب درجات الطائمين وهم ثلاث درجات وجناتهم غير متساوية
- ١٩٠ (إن بمسكهم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) .
اللطيفة الثانية عشرة : كيف تعطى الدروس على حوادث الإنسان وآلامه .
- ١٩١ قوله تعالى (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) الخ .
- ١٩٢ التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ١٩٣ التفسير عن معنى هذه الآيات .
- ١٩٥ لطيفة في قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب الآية) التي نحن بصددها .
(إن في خلق السموات والأرض الخ) .
- ١٩٦ التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ١٩٨ تفسير قوله تعالى (اصبروا وصابروا ورابطوا) وأنها تشير إلى وجوب المحافظة على البلاد لاسيما في هذا
العصر ، وكلمات من حكم فاندى الزعيم الهندي .
- ١٩٩ و ٢٠٠ النظرة العامة في سورة آل عمران ، وفيها ذكر الترية الجسمية والعقلية ، وأن الجسم والعقل
يمثل لهما بالأعمى والمقعّد كلاهما له شأن في المسئولية ، وأن الترية الجسمية تمتنعها غزوة أحد ، والترية
العقلية تؤخذ من أول السورة وآخرها ، وموازنة نظام هذه السورة في الترية بنظام سورة يوسف .
- ٢٠١ نظام الآيات القرآنية . فأولاد كرفها الجهاد وتبعه توبيخ العلماء على مجملهم بلهم ، ثم أتبعه بنفس العلم في السموات
والأرض . ٢٠٢ دروس علم الطبيعة لصاحب التريمة صلى الله عليه وسلم إذ قام بالليل في رواية ابن عباس .

- ٢٠٣ خطاب إلى علماء الإسلام في الأرض ، وحتم على عدم الوقوف على ألفاظ القرآن بل يجب أن يتفعلوا في المعاني . وضع حد للماضي - القرآن والبلاغة والمفسرون .
- ٢٠٣ طلب المؤلف وضع حد للماضي الآن .
- ٢٠٤ لطائف في هذه الآيات . اللطيفة الأولى في اختلاف الليل والنهار ، وحساب السنة الكبيسة والبسيطة ، ونظام أوائل السنين والشهور العربية . الأدوار الحساية الكبرى ٢١٠ ، والص ٣٠ - وحساب أول السنة التي ألف فيها هذا الكتاب .
- ٢٠٥ الكلام على الليل والنهار .
- ٢٠٦ (شكل ٧) وفيه المنطقة الحارة والنقطتان المعتدلتان والقطبتان . الكلام على الفصول الفلكية .
- ٢٠٧ (شكل ٨) فيه هيئة الفصول الأربعة وأشهرها ونقطة الرأس والذنب وكل ذلك بهيئة جميلة . نبذة في عجائب الأرض ، وكيف يعيش الناس ويأكلون ويشربون ويلبسون ، ومجاهلون بحمال ذلك كله .
- ٢٠٨ كيف كان ملح الطعام مركبا من مادتين كل منهما قاتلة : إما بالإحراق وإما بإضعاف الرئة ، وقد نتج منهما جسم عجيب صالح للاستعمال شكله كشكل الهرم .
- ٢٠٩ صوره رسم الملح الجبلي بهيئة الهرم .
- اللطيفة الثانية (ربنا ما خلقت هذا باطلا) عجائب الذكور والإناث في الدجاج والبط والأوز والحمام ، وعجائب النمل والنحل وجمجمة الإنسان وتعدد عظامها وقررة الظهر ، وذلك كله لغتهم قوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار الخ) .
- ٢١١ استخراج معنى الحزى من طبائع الناس في الدنيا . إن الناس يفتضحون يوم القيامة بأمرين : صورهم النفسية المقنونة وجهلهم الفاضح بهذا النظام .
- الناس في الشرق والغرب يأثرون العار ، ويقدمون أنفسهم للموت من أجله وقد اختلفوا فيها به العار ، ولكنهم انفقوا جميعا على أن الجهل أشد العار . وهذا هو سر الآية .
- ٢١٢ إيضاح هذا اللقاع إيضاحا يناسب اللقاع .
- ٢١٤ عجب القرآن في هذه الآيات إذ ذكر النار أولا ، ثم ذكرها مع الحزى ، ثم ذكر الحزى وحده ، وهذا أمر عجيب يرتب كترتيب ما يحرق من الخشب الخ ؛ وكما أن الجهل عار في الآخرة هو عار في الدنيا فإن دول الغرب سلطت على الجهلاء في الشرق ، وفضحهم وأخذوهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وسيرتقى السلدون بالعلم إن شاء الله قريبا اه .







Princeton University Library



32101 078939145